كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الأول



VOYAGE
EN
ARABIE
& en d'autres Pays circonvoisins,

par

C. NIEBUHR.

TOME PREMIER.

Traduit de l'Allemand.



À AMSTERDAM chez *S. J. BAALDE,*

À UTRECHT chez *J. VAN SCHOONHOVEN & COMP.*

M D C C L X X V I.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية
وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الأول

كارستن نيبور



ترجمة عبير المنذر



Arab Diffusion Company

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية

والى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الأول

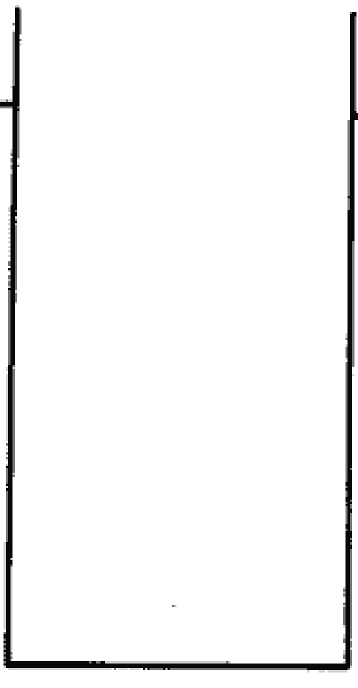


ص.ب 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت-لبنان
هاتف ۹٦۱-۱٦٥۹۱٤۸۰ فاكس ۹٦۱-۱٦٥۹۱٥۰۰

ISBN 9953-476-83-7

الطبعة الأولى ۲۰۰۷



المحتويات

المقدمة ١١

الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية ١٥

ملاحظات من القسطنطينية ٣٠

الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية ٣٩

ملاحظات من الإسكندرية ٤٤

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة ٥٢

رحلة دمياط، والعودة إلى القاهرة ٥٧

ملاحظات حول خط سير الرحلة بين الرشيد، والقاهرة ودمياط ٦٦

أسماء المدن والقرى التي ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية ٨١

مواقع بعض المدن المصرية القديمة ٨٣

وصف القاهرة، وبولاق، ومصر العتيقة والجيزة ٩٠

سكان مدينة القاهرة وشكل الحكم والتجارة فيها ١٠٦

الآلات التي تعمل على الماء، الطواحين، معاصر الزيت، آلات الزراعة، أفران النشادر وآلات تفقيس البيض في مصر ١١٧

لباس أهل الشرق ١٢٧

التمارين والتسليات التي يقوم بها الشرقيون في أوقات فراغهم ١٤١

آثار مصر ١٥٨
سير الرحلة من القاهرة إلى السويس، وإلى جبل سيناء ١٨٤
الرحلة من السويس إلى جدة ٢١٨
ملاحظات في جدّة ٢٣١
الرحلة من جدة إلى مُخيّة ٢٤١
رحلة من مخيّة إلى بيت الفقيه ٢٦١
رحلة من بيت الفقيه إلى غلفقة والحديدة والزبيد والتحيتا (Tahate) والقحمة (Kahhma) وهدية وإلى الجبال المنتجة للبنّ ٢٦٩
سير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن، وجبلة وتعز وحاس ٢٨١
الرحلة من بيت الفقيه إلى المخا ٢٩٣
الرحلة من المخا إلى تعز ٣٠٢
الرحلة من تعز إلى صنعاء ٣١٥
الرحلة من صنعاء إلى المخا ٣٤١
سير الرحلة من المخا إلى بومباي ٣٥٣
سير رحلة هولندي في مناطق يمنية لم تذكر في الصفحات السابقة ٣٥٩
ملاحظات حول الجو في كل من القسطنطينية والقاهرة، وشبه الجزيرة العربية وبومباي ٣٦٥

لائحة اللوحات

فهرس اللوحات | الصفحة

١ ـ منظر الشواطىء قرب جبل طارق وسبتة (Ceuta) ٢٣
٢ ـ منظر لمدينة مرسيليا ٢٥
٣ ـ خارطة مدينة القسطنطينية، وغالاتا (Galata)، وسودار (Scudar) ٣٣
٤ ـ كتابات هيروغليفية على مسلّة في القسطنطينية ٣٦
٥ ـ قياس بعض المسلاّت وأهرام مصر ٤٧
٦ ـ منظر لمدينة الرشيد ٥٣
٧ ـ خارطة مدينة دمياط ٥٩
٨ ـ منظر لمدينة دمياط ٦٢
٩ ـ قلعة على مصب النيل ٦٤
١٠ ـ بعض الآثار المصرية ٨٥
١١ ـ منظر لباب الفتوش، أحد أبواب القاهرة ٩٤
١٢ ـ مخيم الحجاج قبل انطلاقهم إلى مكة ١٠٠
١٣ ـ بعض الآلات المائية في مصر ١١٨
١٤ رسم وصورة لطاحون في القاهرة ١٢٠
١٥ ـ صورة لفرن ملح النشادر، وآلات أخرى مختلفة ١٢٢
١٦ ـ صورة فرن، لتفقيس البيض ١٢٤

١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ ـ لباس الرأس عند الشرقيين ....

١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦

٢٢ ـ لباس نساء الإغريق في الإسكندرية ١٣٩

٢٣ ـ ألعاب الشرقيين المختلفة ١٤٣

٢٤ ـ الآلات الموسيقية عند الشرقيين ١٤٧

٢٥ ـ رسم للراقصات في القاهرة ١٥١

٢٦ ـ رسم لموكب عرس في القاهرة ١٥٥

٢٧ ـ رسم لعرب مصر ١٦٠

٢٨ ـ كتابات هيروغليفية على صندوق قرب قلاع الكبش ١٦٦

٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣ ـ كتابات هيروغليفية على صندوق من الرخام في بولاق ....

١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥

٣٤ ـ كتابات هيروغليفية على مسلات مكسورة ١٧٦

٣٥ ، ٣٦ ـ كتابات هيروغليفية على أوان صغيرة من المرمر .... ١٧٧، ١٧٨

٣٧ ـ كتابات هيروغليفية ورموز على صندوق مومياء ١٧٩

٣٨ ـ كتابات هيروغليفية نقشت على الخشب والحجر ١٨٠

٣٩ ـ رموز وأشكال من الكتابات الهيروغليفية ١٨٢

٤٠ ـ رسم لبعض الآلهة عند المصريين ١٨٣

٤١ ـ منظر للصخور في الطريق نحو جبل سيناء ١٩٦

٤٢ ـ موقع الدير على جبل سيناء، وإحدى المقابر ١٩٩

٤٣، ٤٤ ـ كتابات هيروغليفية على مقابر في الصحراء .... ٢٠٢، ٢٠٦

٤٥، ٤٦ ـ منظر للدير على جبل سيناء .... ٢٠٨، ٢٠٩

٤٧، ٤٨ ـ كتابات على طريق السويس نحو جبل سيناء .... ٢١٢، ٢١٤

٤٩ ـ منظر لمدينة السويس والطور (Tôr) ٢١٦

٥٠ ـ محيط الطور ٢٢١

٥١ ـ منظر لمدينة ينبع (Janbo) ولمدينة جدّة ٢٢٧

٥٢ ـ صورة لحاج تركي ٢٢٨
٥٣ ـ خارطة مدينة جدة ٢٣٥
٥٤ ـ صورة لصياد في جدة ٢٣٩
٥٥ ـ صورة لامرأة من جدة ٢٤٢
٥٦ ـ وضع مدينة ينبع والقنفذة (Ghûnfude) ٢٤٧
٥٧ ـ صورة لامرأة عربية من تهامة ٢٥٤
٥٨ خارطة لمدينة مُخيّة ٢٥٧
٥٩ ـ منظر لمدينة بيت الفقيه ومحيطها ٢٦٢
٦٠ ـ خارطة لمدينة بيت الفقيه ومحيطها ٢٦٧
٦١ ـ منظر في محيط قرية بلقاص (Bulgâce)، وللجبال التي تنتج البن ٢٧٨
٦٢ ـ صورة لامرأة عربية من الجبال المنتجة للبن ٢٧٩
٦٣ ـ منظر لهدية (Hâdie). ٢٨٢
٦٤ ـ خارطة مدينة تعز ٣٠٥
٦٥ ـ منظر لمدينة تعز ٣٠٦
٦٦ ـ منظر لقصر بريم، ولمنزل في بير القصب ٣٢٩
٦٧ ـ تصوير الجلسة بحضور إمام صنعاء ٣٣١
٦٨ ـ خارطة لمدينة صنعاء ٣٣٨
٦٩ ـ لباس أصحاب الشأن من العرب في اليمن ٣٣٩
٧٠ ـ وضع مدينة المخا (Mochha) ومرفئها ٣٤٦


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقدمة

شغلت هذه الرحلة الشهيرة حيّزاً مهماً في التاريخ الأدبي لقرننا هذا، حتى أن إحدى الإمم التي حاولت أن تستأثر بالفنون والعلم حسدت عظمة هذه الرحلة. واهتم علماء البلاد قاطبة بنجاح هذه المهمة فحاولوا قطف ثمارها دون أن يقاسمونا مخاطرها. وعاد السيد نيبور وحده من شبه الجزيرة العربية من بين الخمسة الذين تشرفت الداغارك بإرسالهم بكنوز علمية أهم من فروة كولشيد الذهبية الشهيرة، وقد حاول بعض النمامين الحشاد الادعاء أن موت زملاء الأول أودى بثمار الأبحاث كافة، لكن ما إن أصدر وصفه لشبه الجزيرة العربية حتى سارع العلماء البارزون إلى مدحه والثناء على ملاحظاته المفيدة والبناءة.

ولا يجهل أحد في عالم الأدب انطلاقة هذه الرحلة وتطوراتها ونتائجها، كما نجد هذه المعلومات مفصلّة في مقدمة أسئلة السيد ميكائيليس ومقدمة وصف شبه الجزيرة العربية، مما دفعنا إلى الاكتفاء بما لم يرد في مقدمة الأعمال السابقة التي انتشرت ونالت الإعجاب.

استهل السيد نيبور عمله بالإشارة إلى أن «سكان اليمن، أي سكان الجزء الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، الذي يعرفه الأوروبيون باسم العربية السعيدة Felix Anabia، كانوا في العصور الغابرة متحضرين ومشهورين بتجارتهم مع الأجانب». وأضاف إن «هذا البلد لا يزال الأهم بنظر العلماء، لذا استحق أن يُعرف بدقة أكبر. وكنا قد استفدنا من اللغة العربية في ترجمة مقاطع عدة من الكتاب المقدّس، لكن هذه اللغة تنقسم إلى لهجات محلية عدّة شأنها في ذلك شأن اللغات القديمة المستخدمة في بلاد شاسعة، وتبقى لهجة اليمن لغزاً يحيّر علماء أوروبا. ويمكن لشبه الجزيرة العربية أن تشكل حقلاً واسعاً للاكتشافات بالنسبة لعلماء الطبيعيات، فقد يجد مترجمون في الأسماء التي يطلقها العرب على النبات والأحجار وغيرها تفسيراً لأسماء كثيرة وردت في الكتاب المقدس. وتحصد الجغرافيا فوائد عدة من رحلة كهذه، إذ تكثر عندنا الكتب العربية القديمة حول التاريخ والجغرافيا التي ينبغي معرفة وضع الجزيرة الحالي لفهمها، كما أتت الكتابات المقدّسة

على ذكر مدن عربية عدة. ويمكننا ذكر أسباب أخرى، جعلت محبي العلوم يتمنون أن تقوم بعثة علماء برحلة كهذه».

وبعد ذكر أسباب الرحلة ونتائجها في مقدمة وصف شبه الجزيرة العربية، يضيف الكاتب: «بالرغم من أن الموت غيّب رفاقي، فلا ينبغي اعتبار أعمالهم وكأنها هباء منثوراً، إذ إن السيد فورسكال قد قام بعمل جبّار حتى مرض، وزوّدني بمعلومات مهمّة حول التاريخ الطبيعي، كما ترك السيد دي هافن معلومات دقيقة حول الرحلة من كوبنهاغن إلى القاهرة، ومن السويس إلى جبل سيناء».

ويضيف السيد نيبور: «إن الذين يقرؤون العمل للتسلية وإزجاء الوقت، يستمتعون حين يروي المسافر قصصاً هزلية عن طريقة حياة الغرباء، وعن المصاعب التي واجهها الخ». ويعترف قائلاً «إن هذا أكثر إمتاعاً من وصف جاف للمدن والطرقات التي مرّت بها البعثة، وليسهل علي جمع عدد كبير من هذه القصص اللافتة والممتعة، فلقد تكبّدت مشقة كبيرة حين رسمت خرائط المدن ووضعت تفاصيل الطرق. لكن محاولة تسلية القارىء ستدفعني إلى إهمال الأبحاث المفيدة هدف الرحلة. لكني لم أتمكن من كبت شعوري حين وجدت أن العرب لا يقلّون إنسانية عن الأمم الأخرى التي تدّعي الأدب والتهذيب، ولقد أمضيت في البلاد التي زرتها (كما ينبغي أن يتوقع كل مسافر) أياماً ممتعة وأخرى مزعجة. وكنت قد كلّفت دراسة الجغرافيا، والذين يعرفون هذا الميدان، يقدرون ما ينبغي تكبّده من متاعب لجمع معلومات في بلد غريب، ولا يجهلون أهمية مهمتي، وبالتالي يستطيعون إطلاق حكم سليم حول مدى إنجازي لها».

وأدرج السيد نيبور في نهاية عمله، رواية رحلات المرتد الهولندي الذي جال في مناطق عدة من اليمن وهي المناطق التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه، ثم أتت ملاحظاته حول الجو لاحقاً، على أن يتركها للجزء الثاني، وهي ملاحظات سجلها بين كوبنهاغن وبومباي.

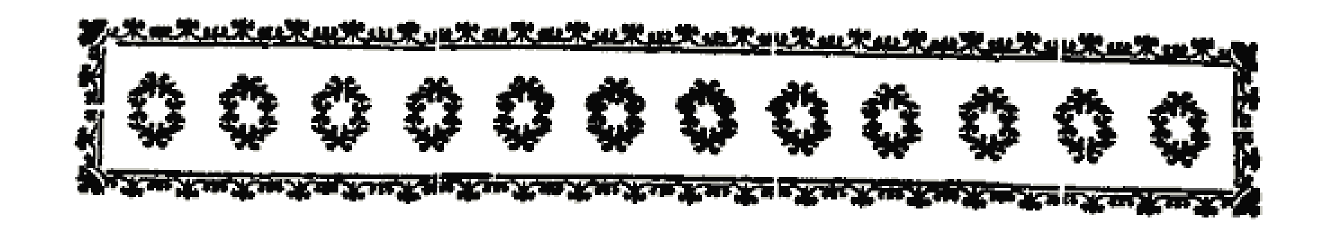
لم تواجه عالمنا مع عدد من الصحافيين الذين أوردوا مقتطفات من عمله، فأثنى على الذين تحدثوا عنه بإنصاف وعقلانية ومنطق، ولكنه لم يتوان عن تشبيه الذين أطلقوا عليه حكمهم ـ دون أن يسمعوه ـ بالسراج (Seradji)، فقال: «لا يحق لهم أن يُنصبوا حكّاماً شرعيين على الآداب، على غرار السراج بين قضاة مصر». واستفاض بلوم الصحافي دي لمغو (de Lemgo) الذي أسند إليه ملاحظات بعيدة كل البعد عن تلك التي عرضها، وقد أورد أمثلة عدة على ذلك. يقول الصحافي «نستنتج من روايات الكاتب أن الجو في شبه الجزيرة أقل صفاء من جو أوروبا، وأنّ أهل الزوج يعتبرون الزوجة إرثاً لا ينتقل إلى أيدٍ غريبة، وأنّ بطليموس لم يبلغ لغة الفراعنة كما فعل بلغة الأقباط، وأنّ القرآن كتب على الأرجح بأحرف قبطية، وأنّ الأفاعي خطيرة بوجه الإجمال في شبه الجزيرة، وأن العرب لا يحتاطون من البرص انطلاقاً من قناعة دينية، وأن المنّ يكثر بعد تساقط الأمطار بغزارة، وأنّ الخصوبة تضاعف بألف، الخ...». وإن راجعنا

وصف شبه الجزيرة العربية، لكونّا فكرة مغايرة عن الموضوع. ويبرهن كاتبنا بفصاحة أن مقتطفات كهذه تسيء إلى العمل، ويجب ألا تقتضب أقوال كاتب بهذه الطريقة العنيفة، وينبغي أن نتوقع أن يقوم البعض بإسدال ستار خداع على أسلوب كتاب يريدون مدحه، انطلاقاً من تحيز أعمى ومتصلّب، فيما يقوم آخرون بالسخرية من العمل عبر إظهار نقاط ضعفه وحسب. وللردّ على هؤلاء، طلب السيد نيبور من السيد ميكائيليس إصدار حكمه، ويبدو لنا أنّ هذا الأخير أجدر الناس بالحكم على العمل لاطلاعه، وبالتالي يمكننا إلقاء نظرة على المقتطف الذي كتبه عن وصف شبه الجزيرة العربية والذي ورد في آخر أسئلته.

نأمل أن يلاقي هذا العمل إعجاب القراء. وأن يسعى أبناء عصرنا وراء الاكتشافات العظيمة، وأن يهتموا بالأمور المفيدة، ولا نشك في أنّ كتاباً كهذا يسلّط الضوء على جزء من الكرة الأرضية مثير للاهتمام ومجهول، لذا سيلاقي بين هواة المعلومات الحقيقيين التقدير والإعجاب.







الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية

إلى القسطنطينية

اجتمعت بعثتنا التي أعدّت العدة للسفر إلى شبه الجزيرة العربية في كوبنهاغن، وتلقت الأمر من الملك بالتوجه إلى أزمير على متن أسطول حربي فركبنا السفينة في ٤ كانون الثاني ١٧٦١. وتبين لنا أولاً أننا نتمتع بكافة وسائل الراحة والتسلية الممكنة أثناء هذه الرحلة. وكانت السفينة بقيادة السيد هنري فيشر، فجهز لنا غرفتين واسعتين بقدر ما تسمح به السفينة، واعتدنا تناول طعام الغداء والعشاء في غرفة القبطان، وقد برهن هذا الأخير فضلاً عن ضباط الطاقم عن لطف وتهذيب فائقين. ولقد اضطررنا إلى البقاء في المرفأ ليومين بانتظار رياح مؤاتية فلم نبحر إلا في السابع من شهر كانون الثاني، ففي ذاك اليوم هبّت رياح جنوبية مواتية لكنها كانت هادئة فبلغنا بصعوبة مرفأ هلسنيوري (Helsingör) عند المساء بالرغم من التيار. وفي الأيام التالية، استحالت الرياح قوية، وبالرغم من أننا رفعنا الأشرعة في ٤ كانون الثاني، لم تدم الرياح المواتية طويلاً، فهبّت في الليلة التالية عاصفة هوجاء استمرت دون توقف حتى صباح السادس عشر من الشهر نفسه. ودهمنا في هذا الوقت خطر شديد، فالجو مظلم، وقد استحال علينا تحديد موقعنا بسبب التيار الذي يتجه في الكاتغيت (Kattegat) تارة نحو الشمال وطوراً نحو الجنوب. وفي صباح السادس عشر من كانون الثاني، خشينا أن نكون قرب شواطىء السويد، لكن الشمس التي بانت قليلاً عند الظهر سمحت لنا بتحديد موقعنا قرب جزيرة ليسويه (Lessöe). وبما أن الريح لم تكن مواتية، عاد الجو مظلماً من جديد، قررنا في السابع عشر العودة إلى هلسنغر، فوجدنا في المرفأ السفن التي غادرته معنا، واعتقدنا

أن السفن التي لم تعد إما التجأت إلى مرافيء أخرى أو غرقت. وعندما غادرنا هلسنيوري، عبرنا سوند (Sund)، أطلقنا ثلاث طلقات مدفع تحية، ردّت، عليها قلعة كورنبرغ (Corenberg) بثلاث طلقات، وقلعة هلسنيوري بأربع طلقات، فالسويديون يحيون بطلقات مزدوجة، فيما يحيي الدنماركيون بطلقات مفردة، لكن هذه العادة لم تتبع عند عودتنا، لأننا حاولنا مراراً المغادرة، فالأساطيل الحربية التي تمرّ في سوند لا تحيي إلا في المرة الأولى التي تبحر فيها وبعد العودة من رحلتها.

ولقد حرصت في الرحلات كلها على قياس ارتفاع القطب عند الظهر وفي المساء، واستخدمت لهذه الغاية ثمنية[1] هادلي (Hadley). وللملاحظات المسجلة فوق البحر فائدة كبرى وإن كانت لا تتمتع بدقة تلك التي تسجل على الأرض وبالتحديد حين يكون الطقس شتاء حيث لا ترتفع الشمس كثيراً فوق الأفق. ويمكننا تحديث الخرائط الجغرافية والبحرية وجعلها أكثر دقة إذا ما تأكدنا من موقع الأماكن الرئيسة ويسعدني أني تمكنت من تحديدها بدقة كبيرة، ولكن لا جدوى من إدراج الملاحظات والحسابات الفلكية التي سجلتها في عرض البحر هنا، وسأكتفي بذكر تلك التي سجلتها قرب الشواطىء وأولها في ١٨ كانون الثاني حيث كنا قرب هلسنيوري جنوباً. وحدّدت ارتفاع القطب على ٥٥° ٥٧َ ، وكانت الإبرة الممغنطة تميل ١٤ درجة نحو الشمال.

ثم في ٢٦ كانون الثاني (يناير) غادرنا هلسنيوري للمرة الثانية، وكانت الرياح مواتية، وفي اليوم التالي حل الضباب طيلة النهار فرأينا في الشمال عند الظهر قوس قزح ضبابياً، لا يختلف عن القوس قزح العادي إلا بكونه أبيض ومن غير ألوان. وعند ظهر اليوم التالي، في ٢٨ كانون الثاني، تبين لي أن ارتفاع القطب يبلغ ٥٧° ٤٧َ، واستنتجت ذلك من انحراف الإبرة الممغنطة التي تميل في هذا المحيط نحو الشمال إلى ١٤ درجة ونصف. وحين يبعد المكان الذي نحاول تحديد ارتفاع القطب منه، ينبغي التحلي بنظرة ثاقبة وخبرة لتحديد المسافة الفاصلة بين المكان والسفينة، وبما أنها رحلتي الأولى راجعت الضباط والملاحين مراراً لأنهم أصحاب خبرة أكثر مني في هذا الميدان. واعتبروا أننا نبعد ٣ أميال ونصف عن مارشراند (Marstrand)، لذا، تم تحديد ارتفاع قطب قلعة مارشراند على ٥٧° و٤٩َ ، فيما قطب صكاغن (Skagen) على ٥٧° و٣٨َ حسب تقديرنا.

وساعدتنا الرياح حتى أواخر كانون الثاني (يناير)، فتمكنا من اجتياز الكاتغيت (Kattegat) ووصلنا بحر الشمال. وفي بداية شهر شباط (فبراير) عاكستنا الرياح، وعصفت بقوة في ٢ شباط (فبراير) والليلة التالية حتى أننا لم نجرؤ على إشعال النار في السفينة. لكننا جالدنا، لأننا علمنا أنه لا بد من تحمل هذه المشقات في البحر، وتأسفنا لفقداننا أحد البحارة بعد أن وقع عن السفينة ولم نتمكن من إنقاذه بسبب الظلام الدامس والأمواج العاتية. وهدأت العاصفة، لكن الرياح بقيت معاكسة فتراجعنا بدلاً من أن نتقدم.

---

(١) آلة قياس.

وصعد على متن السفينة في ٥ و٦ شباط/فبراير ربّان من براكفياد (Brackefiad) وآخر من فلكرو (Fleckeröe)، لكن قائد السفينة رفض المساعدة التي عرضاها عليه لاعتقاده بأن السفينة في مأمن ولا داعي للجوء إلى أيّ مرفأ. وفي ٨ شباط/فبراير تعرّضنا لعاصفة هوجاء أخرى، وطلبنا المساعدة، فما لبثنا أن رأينا مركباً صغيراً يتجه نحونا من الشاطىء، لكن العاصفة ازدادت حدة وتساقطت الثلوج بغزارة فاضطررنا إلى العودة نحو عرض البحر ولم نعد نرى المركب. واستمرت الرياح تعصف في اليوم التالي، ولم نعد نتوقع تحسناً في حال الطقس، أو نأمل باللجوء إلى أحد مرافىء النروج، فاجتزنا بحوالي ٣٠ ساعة المسافة التي أخذت منا ١٥ يوماً عند الانطلاق، فرسونا في ١٠ شباط/فبراير قرب حصن كروتنبرغ (Cronenburg).

في ١٢ شباط/فبراير، تبين لي أن ارتفاع القطب، على بعد ربع ميل إلى الجنوب من كرتنبرغ هو ٥٥° و٥٩´ ، لذا نستنتج أن ارتفاع قطب هذه القلعة الواقعة إلى الشمال وقرب مدينة هلسنيوري هو ٥٦°.

وعاني البحارة الأمرّين من جراء الطقس الرديء، فمات بعضهم ومرض بعضهم الآخر، وبما أنه لا يجوز القيام برحلة طويلة كهذه مع كل هؤلاء المرضى، كتب قائد السفينة إلى كوبنهاغن طالباً النصح، فتلقى الأمر بالعودة. وفي أثناء ذلك، تحوّلت الرياح جنوبية ـ شرقية وجنوبية كما تمنينا منذ فترة، فأرسلوا إلينا بسرعة المزيد من المؤن والبحارة كي لا نتأخر. لكن يبدو أنه كتب علينا أن نكون لعبة في يد الرياح التي عصفت غرباً قبل أن نتمكن من رفع المرساة. ويدّعي البعض أن الهواء في هذا المحيط يعصف من الجهة الغربية للهاجرة خلال تسعة أشهر من السنة، وهذا الأمر محتمل للغاية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كم أرجأت هذه الرياح رحلتنا.

وأصيب رفاقي الأربعة بدوار البحر، لكنهم رفضوا ترك المركب باستثناء السيد دي هافن الذي لم يتأقلم مع السفر بحراً. وبما أن السفينة سترسو في مرسيليا، طلب إذناً من الملك كي يسافر إلى هذه المدينة براً، وما إن حصل على الإذن حتى غادر السفينة في ١٧ شباط/فبراير. ولم أعانِ كالآخرين لأنني لم أصب بدوار البحر حتى خلال العواصف الهوجاء، كما سلّمت أمري للرب واتكلت على مهارة ضباطنا وبحارتنا، فكنت آوي إلى فراشي كلما هبّت عاصفة في حين كان هؤلاء يجاهدون للحفاظ على السفينة رغم البرد والمطر والرياح.

وفي ١٩ شباط/فبراير مساءً، تركنا مرفأ هلسنيوري للمرة الثالثة، آملين أن تساعدنا الرياح المواتية، لكن ما إن وصلنا صكاغن (Skagen)، حتى تحولت الرياح إلى غربية وأجبرتنا على الإبحار في قناة الكاتغيت. وفي ٢٢ ظهراً، كان رأس كول (Kull) على بعد خمسة أرباع الميل إلى الشرق، وكان ارتفاع القطب ٥٦° و٢٠´ ، وبالتالي ارتفاع قطب الرأس ٥٦° و١٩´ ؛ وعند المساء، ألقينا المرساة قرب هلسنغر.

منذ غادرنا كوبنهاغن، قطعنا ٤٥٠ ميلاً لكننا لم نقترب من البحر المتوسط إلا ٤ أميال، ونكتشف مما

تقدم المخاطر التي يتعرض لها من يسافر بحراً وكم يصعب على البحار تحديد زمن وصوله ولا سيما في هذه المناطق الشمالية حيث الرياح غير منتظمة بعكس المناطق المدارية.

واستأنا لعودتنا للمرة الثالثة، لكن ما لبثنا أن سررنا لوجودنا في مرفأ لأن عاصفة هوجاء هبّت في اليوم التالي، فحمتنا الشواطىء من غضب الطبيعة، لكننا اضطررنا إلى إنزال عارضات الصاري والصواري كي لا تعاني السفينة من الرياح العاتية. وأخذت الأمواج تلطم السفينة بعنف كما لو كنا في بحر الشمال، فأنزلنا مرساة ثالثة خوفاً من ألاّ تكفي الأوليان لإيقاف الباخرة. وهبّت الرياح من الغرب ودامت حتى الخامس من شهر آذار/مارس ثم هدأت تدريجياً.

كان لا بد لنا، بحسب تقديرنا وبحسب يوميات المسراع[١]، من أن نتقدم أكثر نحو الشمال عند مغادرتنا، ونحو الجنوب عند عودتنا، فراقبت المسراع، وتبين لي أن خطه قصير بعض الشيء وأن الرمل لا يسيل إلا ٢٩ دقيقة، واعتقدت أن في الأمر خطأ ما، لكن تبين أن البحارة قلصوا خط المسراع عمداً لأنه يتمدد لاحقاً بعد الاستعمال، وبالتالي يتم تصحيح الخطأ الناتج عن قصره تلقائياً. أما سبب عدم سيلان رمل النصف دقيقة ٣٠ ثانية فيعود إلى عدم إمكانية إيقاف الخط في الوقت المحدد الذي تعطى فيه الإشارة ولا سيّما حين تكون السفينة مسرعة. إذاً، لهذه التصحيحات فائدتها، خاصة في عرض البحر وحين تكون الرياح مواتية، وتجعل البحار أكثر انتباهاً حين يخشى المرور في مكان خطر، أو حين يدفع التيار السفينة بشكل ملحوظ. لكن حين تكون القناة ضيقة كالكاتغيت، وحين تعاكس الرياح سير السفينة كما حصل معنا، قد تؤدي هذه الوسائل إلى نتائج غير محمودة، لأننا نردّ الخطأ عادة إلى قوة التيار وتنوعه. ومهما حاولنا اتباع القواعد الواردة في كتب الملاحة بدقة، تطالعنا صعوبات جمّة عملياً فلا يمكننا تحديد مكان تواجدنا بدقة حين تتعدد الرياح المعاكسة. وحريّ بالملاحين اعتماد الملاحظات الفلكية للتأكد من تقديراتهم، فمراقبة القمر تسمح بتحديد خط الطول في عرض البحر بدقة. واعتمد البروفسور ماير هذه الطريقة التي تنتشر بين الإنكليز، فقد صادفت في بومباي ربّان سفينة وبحاراً من مركبين مختلفين تابعين لشركة الهند الغربية يستعملان هذه الطريقة بنجاح كبير. وقد قمت بنفسي بدراسات عدة خلال الرحلة، فأرسلتها من مرسيليا إلى البروفسور ماير الذي سعد بتلقيها، وأمر بإرسالها إلى إنكلترا وهو على فراش الموت ليبرهن فائدة ألواحه القمرية. وطبعت هذه الدراسات في إنكلترا مرفقة بلوائح السيد ماير المصححة.

في ١٠ آذار/مارس غادرنا مرفأ هلسنيوري للمرة الرابعة، وعند الظهر أصبح رأس كول على مسافة ميلين وثلاثة أرباع منا، ما بين الجنوب الشرقي وجنوب الجنوب الشرقي، وأضحى ارتفاع القطب ٥٦° و٢٧َ ، مما يعني أن ارتفاع قطب رأس كول يبلغ ٥٦° و١٨َ . وفي ١٢ آذار/مارس، أضحى ارتفاع القطب ٥٧°، ٥٨َ ، على بعد ٤٠ ميلاً نحو الغرب، إلى الشمال من صكاغن (Skagen)، وتبين لنا هنا

(١) مقياس السرعة على متن السفينة.

أن الإبرة الممغنطة تميل نحو الشمال ١٧°؛ كما لاحظنا أن المياه أصبحت أكثر ملوحة كلما اقتربنا من بحر الشمال. وأشار المكحال لديّ في المياه العذبة إلى ٣٢٦د وفي مرفأ كوبنهاغن إلى ٣٣٠، وقرب هلسنيوري إلى ٣٣١، وقرب رأس كول إلى ٣٣٢، وقرب نسّ (Nesse) إلى ٣/٤ ٣٣٣ وإلى ٣٣٨ حيث كتّا. وبما أن السيد فورسكال كان يملك مكحالاً أكثر دقة من مكحالي ويعمل على تسجيل درجة ملوحة المياه بدقة، لم آبه كثيراً بالموضوع. كما بحث عن سبب وميض المياه المالحة وأظنه اكتشف السبب خلال الرحلة، فقد اعتاد أن يجمع أنواعاً عدة من الحيوانات البحرية ومن بينها أنواع مختلفة من الميدوزا (قنديل البحر)[١]، وبعد رمي بعض منها من النافذة ليلاً لاحظنا أن شرارات صغيرة تظهر على كل ما تلمسه المياه التي تعيش فيها هذه الحيوانات. ثم أعاد تجربته وتأكد ظنه بأن وميض مياه البحر ناتج عن هذه الحيوانات الصغيرة اللزجة التي تكثر في البحار.

وبما أن ارتفاع القطب بلغ ٦٠° و٢٩َ ، وحوالي ٨° و٤٣َ ، نحو غرب هاجرة باريس، لاحظنا في ١٦ آذار/مارس أن الإبرة الممغنطة تميل نحو ٢٢° و٣٠َ . أما في ١٨ آذار/مارس فمالت ٢٥°، وفقاً لدراستنا، علماً أن ارتفاع القطب ٦٠° و٢٤َ ، وحوالي ١١° و١٠َ نحو غرب هاجرة باريس.

واستمرت الرياح مواتية لنا أكثر مما كانت عليه في الرحلات السابقة العقيمة، وعندما اقتربنا من نسّ، وبدلاً من أن نعود إلى هلسنيوري كما فعلنا سابقاً، هبّت في ١٢ آذار/مارس عاصفة مناسبة جعلتنا نتقدم ميلين ونصف الميل في بعض الأحيان. لكن في ١٩ آذار/مارس هبّت رياح معاكسة استمرت حتى آخر الشهر وعنفت في بعض الأحيان، ووقع بحاران عن الصاري فكُسر ساق أحدهما وجُرح الآخر لكنه ما لبث أن عاد إلى أعماله. ولم نتعرض لخطر عظيم لأننا في عرض البحر وعلى متن باخرة متينة، ولم نشعر بعنف حركة المركب إلا حين هدأت العاصفة فجأة، فعندما تعصف الرياح لا يميل المركب إلا من جهة واحدة، لكن حين تتوقف الرياح فجأة، لا يمكن للسفينة إلاّ أن تتبع حركة المياه حتى يهدأ البحر الذي أثارته العاصفة.

ودفعتنا الرياح المعاكسة حتى ٦٣° ونصف من ارتفاع القطب أي قرب شواطىء إيسلنده، وبدأت طلائع الربيع تظهر في ٣١ آذار/ مارس فعرفنا أجمل وقت في العالم، لكن الهدوء ساد طويلاً فلم نتمكن من التقدم. وبلغ ارتفاع القطب ٦١°، ١٨َ ، وخط الطول الغربي في باريس حوالي ١٤° و٣٠َ ، وتبين لنا وفقاً لدراسات عدة وللنتيجة الوسطية أن الإبرة الممغنطة تميل نحو ٢٣°، ١٦َ . وربما أن السماء في المناطق الشمالية نادراً ما تكون صافية، لم نرَ أي شفق قطبي شمالي، علماً أن رؤيته أمر شائع على اليابسة في هذه المنطقة. وفي ٣ نيسان/أبريل مساءً، شاهدنا قوس قزح متعدد الألوان، لكن السحب ما لبثت أن غطّته وحرمتنا من هذا المشهد الرائع. في ٥ نيسان/أبريل، وأثناء عاصفة هوجاء، لاحظنا من أعلى الصاري نوراً خفيفاً يطلق عليه البحارة عادة اسم القدّيس جرمان أو

(٣) جنس من الحيوانات البحرية الهلامية.

نار القديس ألم (St. Elme)، لأن الاعتقاد ساد في الماضي أن هذه الشعلة الخافتة هي علامة ظهور القديسين، لكن منذ اختراع الكهرباء توصلوا إلى تحديد هذه الظاهرة بشكل أصح. وعصفت الرياح الجنوبية الغربية التي منعتنا من التقدم ميلاً واحداً طويلاً، لكن في ٦ نيسان/أبريل أصبحت الرياح مواتية فقطعنا ٣٩ ميلاً ونصف الميل خلال ٢٤ ساعة. وفي اليوم التالي، قطعنا مسافة أطول، لأننا في السابع من الشهر نفسه، عند الظهر، كنا على خط عرض ٥٧ وخط طول ٣٦، وفي الثامن من نيسان/أبريل كنا على خط عرض ٥٤ وخط طول ٤٩. وفي ١٦ نيسان/أبريل لاحظت أن الإبرة الممغنطة تميل إلى ١٦°، ١٧´ ، ونحن على خط عرض ٤٢ وخط طول ٣٩. في ١٨ نيسان/أبريل رأينا سنونو البحر وسمكاً يعرف باسم نوردكابر (Nordkaper)، فاستنتج الضابط معنا أنها دلائل عاصفة قادمة، ما لبثت أن هبّت بعد الظهر. وخلال هذه العاصفة، لاقى أحد البحارة حتفه بعد أن سقط في البحر، ومنعتنا الأمواج العاتية وسرعة السفينة من إنقاذه.

ثم مرت أيام لم نرَ فيها اليابسة، لكن في ٢١ نيسان/أبريل، وعند المساء، شاهدنا رأس القديس فنسان في الجنوب الشرقي، على بعد خمسة أميال ونصف الميل. وكان الضباط والتلامذة البحريون والملاحون قد حدّدوا موقع السفينة استناداً إلى يوميات المسراع، لكن تقدير قائد السفينة كان الأكثر دقة لأنه لم يخطىء إلا بحوالي ٤٤ دقيقة وهي تعادل ثلاثة أرباع الدرجة. وأعطاني القائد نسخة عن تقديراته تُظهر موقع السفينة اليومي عند الظهر منذ الحادي عشر من شهر آذار/مارس وحتى الحادي والعشرين من شهر نيسان/أبريل، وسأدرجه هنا حتى يتمكن من تحديد مسارنا عبر بحر الشمال على الخارطة كل من أراد ذلك. زد على ذلك، أني لا أرى ضرورة رسم خارطة هذه الرحلة وبالتالي زيادة عدد الرسوم، علماً أني وضعت تقديراً للطريق التي سلكنا وسجلته على الخارطة الهيدروغرافية.

تحديد لموقع السفينة، يظهر موقعها يومياً عند الظهر منذ الحادي عشر من آذار/مارس ١٧٦١ وحتى الحادي والعشرين من شهر نيسان/أبريل:

١١ آذار / مارس كانت قناة سكاغن (Schagen) إلى الجنوب الغربي عند الظهر، على بعد ٧ دقائق أو ميل و٣/٤. وتقع سكاغن حسب الخارطة على خط عرض ٥٧° و٣٦´ ، إلى الشمال.

	خط العرض المقدر	خط العرض المسجل	تغيير الهاجرة خلال ٢٤ ساعة	انحراف شاغن	تغيير البوصلة	اتجاه البوصلة المصغّر المتوقع	المسافة
١٢	٥٧° ٢٥´	٥٧° ٥٩	٢° ٤١´	٢° ٤١´	٢/١ ١نقطة	ش ٨٤° ٢٠´غ	٤٠ ميلاً ونصف
١٣	٥٩° ٢٤´	— —	١° ٥٠´	٤° ٣١´	٤/٣ ١نقطة	ش ٤٧° ٠٠´ غ	٣٦ ميلاً ونصف
١٤	٦١° ١٨´	— —	٠ ٣٥	٥° ٢٤´	٢ نقطة	ش ٢٧° ٠٠´ غ	٢٩ ميلاً

في ١٤ آذار، نقل الرأس من الخارطة المسطّحة إلى خارطة بحر أسبانيا المصغرة. وتواجدت على خط عرض ٦١° ١٨´ شمالاً وخط طول ١٦° ٨´ .

شهر آذار (مارس)	خط العرض المقدر	خط العرض المسجل	الانحراف خلال ٢٤ ساعة	خط الطول المقدّر	تغيير البوصلة	اتجاه البوصلة المصغّر المتوقع	المسافة
١٥	٦٠° ٢ة	— —	١١١ ميلاً	١٢ ١٩	٢ نقطة	ج ٧٧ ٠ غ	٢٩ ميلاً
١٦	٦٠° ٢٦	٦٠° ٢٨	١٠/٥ ٨٤ أميال	٩ ٢٧	٢ نقطة	ج ٨٧ ٤٠ غ	٤/١ ٢١ ميلاً
١٧	٦٠° ٢٦	— —	١٠/٤ ٥٠ أميال	٧ ٤٧	٤/١ ٢ نقطة	ج ٨٧ ٤٠ غ	٢/١ ١٢ ميلاً
١٨	٦٠° ٤١	٦٠° ٣٠	١٠/٤ ١٨ أميال	٧ ٨	٤/١ ٢ نقطة	ش ٥٢ ٣٠ غ	٦ أميال
١٩	٦٠° ٤٢	— —	١٠/٢ ٤٨ أميال	٥ ٣٢	٤/١ ٢ نقطة	ج ٨٠ ٠ غ	٤/١ ١٢ ميلاً
٢٠	٦٠° ٣٤	٦٠° ٣٣	١٠/٤ ٢٣ أميال	٤ ٤٥	٤/١ ٢ نقطة	ش ٦٢ ٤٠ غ	٢/١ ٦ ميلاً
٢١	٦١° ١٨	— —	١٠/٦ ٢٩ أميال	٣ ٤٤	٤/١ ٢ نقطة	ش ٣٣ ١٠ غ	٤/١ ١٣ ميلاً
٢٢	٦٢° ١	— —	١٠/١ ٧ أميال	٣ ٢٩	٤/١ ٢ نقطة	ش ٩ ٣٠ غ	١١ ميلاً
٢٣	٦١° ٤٨	— —	١٠/٦ ٤٦ أميال	٥ ٨	٤/١ ٢ نقطة	ج ٧٤ ٥٠ ش	١٢ ميلاً
٢٤	٦٠° ٨ة	٦٠° ١ة	٢٩ ميلاً	٦ ٨	٤/١ ٢ نقطة	ج ٣٠ ١٥ ش	٢/١ ١٤ ميلاً
٢٥	٦١° ٤٤	— —	١٠/٤ ١٥ أميال	٥ ٣٦	٤/١ ٢ نقطة	ش ١٦ ٠ غ	٤/٣ ١٣ ميلاً
٢٦	٦٢° ٣٥	— —	١٠/٢ ٩ أميال	٥ ٣٦	٤/١ ٢ نقطة	ش ١٦ ٠ غ	٤/٣ ١٣ ميلاً
٢٧	٦٢° ١٨	٦٢° ٨	١٠/٧ ٧ أميال	٥ ٣٣	٤/١ ٢ نقطة	ج ٦٥ ٠ ش	٤/١ ٤ ميلاً
٢٨	٦٢° ٢٩	٦٢° ٢٦	١٠/٢ ٣٠ أميال	٤ ٢٩	٤/١ ٢ نقطة	ش ٥٥ ٠ غ	٤/١ ٩ ميلاً
٣٠	٦١° ٤٩	٦١° ٥٠	١٠/٢ ٤ أميال	٤ ٤٦	٤/١ ٢ نقطة	ج ١٦ ٢٠ غ	٤/٣ ٣ ميلاً
٣١	٦١° ٤١	٦١° ٣٩	١٠/٦ ١٧ أميال	٤ ٨	٤/١ ٢ نقطة	ج ٢٧ ٤٠ غ	٥ أميال
١	٦١° ١٠-	— —	١٠/٩ ٣ أميال	٤٠° ٠-	٤/١ ٢ نقطة	ج ٨° ٣٠- غ	٤/١ ٧ ميلاً
٢	٦٠ ٥٠	٦١ ١	١٠/٢ ٧٧ أميال	١ ٢١	٤/١ ٢ نقطة	ج ٧٥ ٠ غ	٢٠ ميلاً
٣	٦٠ ١٤	— —	٢ ميلان	١ ١٧	٤/١ ٢ نقطة	ج ٢ ٣٠ غ	٤/٣ ١١ ميلاً
٤	٦٠ ٣٦	— —	١٠/٤ ٧٤ أميال	٣٥٨ ٤٩	٤/١ ٢ نقطة	ش ٧٣ ٠ غ	٤/١ ١٩ ميلاً
٥	٦٠ ٩	٦٠ ٥	١٠/٥ ٦٠ أميال	٠ ٥٠	٤/١ ٢ نقطة	ج٦٥ ٣٠ ش	٤/١ ١٦ ميلاً
٦	٦٠	١٢	١٠/٨ ٧ أميال	١ ٦	٤/١ ٢ نقطة	ش٢٥ ٣٠ش	٢/١ ٤ ميلاً
٧	٥٧ ٣٥		١٠/٢ ٢٢ أميال	٠ ٢٣	٤/١ ٢ نقطة	ج ٤/٣ ٠	٢/١ ٣٩ ميلاً
٨	٥٤ ٥٣	٥٤ ٤٨	١٠/٢ ٢٢ أميال	٣٥٩ ٤٣	٤/١ ٢ نقطة	ج ٨ ٠ غ	٤/٣ ٤١ ميلاً
٩	٥٣ ١٨	٥٣ ٢٤	١٠/٥ ٤ أميال	٣٥٩ ٥١	٢ نقطة	ج ٢ ٣٠ شق	٤/١ ٢٣ميلاً
١٠	٥٠ ٤٤	٥٠ ٥٣	١٠/٦ ١٤ أميال	٣٦٠ ١٥	٢ نقطة	ج ٥ ٠ شق	٤٠ ميلاً
١١	٤٩ ٣	٤٩ ٢	١٠/٣ ٣٨ أميال	١ ١٥	٢ نقطة	ج١٩ ١٥شق	٢/١ ٢٨ ميلاً
١٢	٤٧ ٣٢	٤٧ ٢٦	١٠/١ ١٨ أميال	٠ ٤٨	٤/١ ١ نقطة	ج١١ ٣٠غ	٢/١ ٢٣ ميلاً

شهر آذار (مارس)	خط العرض المقدر	خط العرض المسجل	الانحراف خلال ٢٤ ساعة	خط الطول المقدّر	تغير البوصلة	اتجاه البوصلة المصغر المتوقع	المسافة
١٣	٤٥ ٢٥	٤٥ ٢٧	١٠/٢ ١٠ أميال	٠ ٣٣	٤/١ ١ نقطة	ج٤ ٤٥ غ	٤/١ ٣٠أميال
١٤	٤٣ ٥١	٤٣ ٤٨	١٠/٢ ٤٥ أميال	١ ٣٧	٤/١ نقطة	ج٢٥ ٠شق	٢٦ ميلاً
١٥	٤٢ ٥٢	٤٢ ٥٣	١٠/١ ١٨ أميال	٢ ٢	٤/ ١ نقطة	ج١٨ ٠شق	٤/٣ ١٤ ميلاً
١٦	٤٢ ٣٣	٤٢ ٣٥	١٠/٣ ١١ أميال	٢ ١٧	٢/١ ١ نقطة	ج٢٩ ٣٠شق	٢/١ ٥ ميلاً
١٧	٤١ ٥٥	٤١ ٥٤	٤٧ أميال	٣ ٢٠	٢/١ ١ نقطة	ج٥٠ ٠شق	٢/١ ١٥ميلاً
١٨	٤١ ١٧	٤١ ١٦	١٠/٤ ٣١ أميال	٤ ٢	٢/١ ١ نقطة	ج٤٠ ٤٠شق	٤/٣ ١٢ميلاً
١٩	٤٠ ٣٣	٤٠ ٣٠	١٠/٨ ٣ أميال	٤ ٧	٢/١ ١ نقطة	ج٥ ٠شق	٤/٣ ١٠ ميلاً
٢٠	٣٨ ٤٦	٣٨ ٤٥	١٠/٤ ٤ أميال	٤ ١	٢/١ ١ نقطة	ج٤/١ ٠	٢٦ميلاً
٢١	٣٧ ٣٧	٣٧ ٣٧	١٠/٦ ٧٠ أميال	٥ ٣٠	٢/١ ١ نقطة	ج٤٦ ٠شق	٤/١ ٢٤ ميلاً
٧ - ٢١	٣٧ ٢١	١٠٢٤/١	٦ ١ ميلاً				

في هذا الوقت عينه، كان رأس القديس فنسان على بعد ٥ أميال إلى الجنوب الشرقي. وسُجل موقع هذا الرأس على الخارطة على خط عرض ٦° ٤٥َ ، أي إن الفرق ٤٤ وصفر°

أضحت رحلتنا أكثر إمتاعاً في البحر المتوسط، فبعد أن أمضينا شتاءً عاصفاً في الكاتغيت وبحر الشمال، دخلنا هذا المناخ اللطيف في أجمل فصل من فصول السنة. وفي حين لم نرَ في المناطق الشمالية ـ حيث أمضينا الشتاء ـ إلا بعض الجبال البعيدة، شاهدنا هنا جبالاً تارة على الساحل الأوروبي وطوراً على الساحل الإفريقي، وأحياناً على الساحلين في آن واحد، وتضفي هذه الجبال على المنظر العام جمالاً. وإن ضايقتنا العواصف في بحر الشمال، فلقد أزعجنا الهدوء التام أحياناً في البحر المتوسط، ولا سيّما وأن المياه العذبة شحّت على متن السفينة، لكن ضباطنا لم يجدوا هذا الأمر سبباً كافياً لدخول مرفأ ما. واكتفى السيد بورانفند (Baurenfeind) برسم بعض المناظر ومنها جبل طارق وسبتة اللذان رُسما على اللوحة الأولى. وفي ١٤ أيار/مايو، رسونا قرب سان أستاش (St. Estache)، على بعد ميل ونصف إلى الغرب من مرسيليا، وصادفنا هناك سفناً حربية من إسبانيا وهولندا والسويد ومالطا. وكان مرفأ مرسيليا يعجّ بالسفن التجارية الفرنسية التي لم تكن تجرؤ على مغادرته بسبب الحرب بين فرنسا وإنكلترا. فضلاً عن سفن البلاد المحايدة التي استأثرت بالتجارة بين فرنسا والشرق وبلاد أفريقيا، كما صادفنا مركباً إنكليزياً يعيد إلى مرسيليا سجناء حرب فرنسيين. دخلنا المدينة عند المساء، والتقينا رفيقنا السيد دي هافن الذي غادر السفينة في ١٧ شباط/فبراير ووصل مرسيليا عبر البر بعد أن اجتاز ألمانيا وفرنسا.

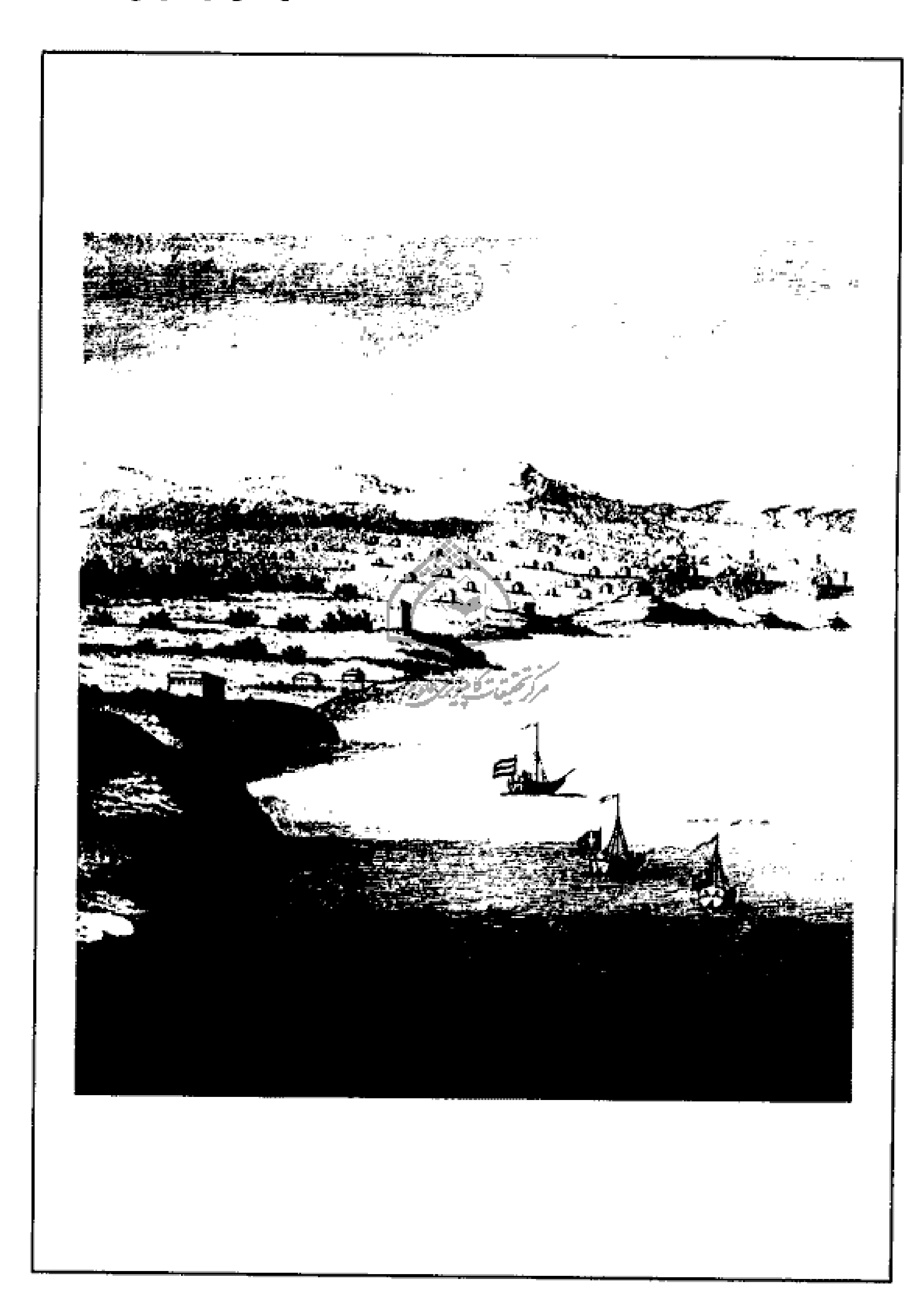
سعدنا بالإقامة في مرسيليا بعد هذه الرحلة الطويلة، وعملنا على زيارة المكاتب ومتاحف الهواة وأولئك الذين يجمعون حيوانات البحر ويبيعونها للهواة وصيادي المرجان الأحمر، فضلاً عن الأبوين



اليسوعيين الشهيرين السيد بزيناس (Pezenas) والسيد لاغراغ (La Grange) اللذين يملكان مرصداً مجهزاً بأفضل المعدّات الإنكليزية. ولا حاجة هنا للحديث عن التجارة المزدهرة بين مرسيليا والشرق، وعن وضع هذه المدينة، ومرفئها وحصونها وجنائنها الغنّاء وغير ذلك من الأمور، لأنها وصفت سابقاً بشكل مفصّل، لكن السيد بورنفند رسم المدينة قبل مغادرتنا سان استاش، فطلبت تثبيت هذا المنظر على اللوحة رقم ١١ لأني لم أشاهده في مكان آخر.

صادفنا هنا ثلاثة مراكب تجارية دانماركية على استعداد لمرافقتنا إلى أزمير، صعدنا على متن السفينة في أواخر شهر أيار/مايو. على أن نبحر من سان أستاش مع هذه المراكب الثلاثة، لكن أبجر سفينتنا انقطع ومضى النهار بأكمله قبل أن نتمكن من رفع المرساة. وفي اليوم التالي، عاكستنا الريح، فلم نتمكن من الإبحار قبل ٣ حزيران/يونيو، وفي الخامس منه، من بعد الظهر شاهدنا من بعيد أربع سفن وتبين لنا من الأعلام المرفوعة أنها سفن إنكليزية. وكنا قد صادفنا خارج مضيق جبل طارق إحدى سفن الأسطول التابع للأميرال سندرز (Saunders)، وتوقعنا أن نصادف سفناً أخرى تابعة لهذا الأسطول في البحر المتوسط. ولم تكن الحرب معلنة بين الدانمارك وإنكلترا، لذا لم نتوقع أي اعتداء على سفينتنا، لكن بما أن سفننا التجارية كانت في مرفأ فرنسي، ولم نكن نعلم إن كان الإنكليز سيفتشونها، اتخذ قائد السفينة الإجراءات اللازمة لمنعهم. وبقيت سفننا التجارية ملازمة لنا، وتمّ تحضير المدافع، وتوزيع الأسلحة، ووضعت الأسرّة بما في ذلك أسرّة الضباط والمسافرين في شباك المتاريس، ووزعت المرشات حيث يجب وضعها، وباختصار تحضّرنا للقتال. عند المساء، سمعنا صوت مدفع، رددنا عليه في الحال، لكن الهدوء منع الإنكليز من الوصول إلينا في ذاك اليوم، وبعد منتصف الليل، وصلت إحدى سفن الأميرال سندرز الأربع بقربنا، وبعد مفاوضات قليلة تابع كل منا طريقه. وفي السابع من الشهر نفسه، عند المساء، تحضّرنا مجدداً للقتال، لأننا رأينا عشر سفن في البعيد، لكنها ابتعدت خلال الليل ولم نرها منذ ذلك الحين. وفي اليوم الثاني، طلب قبطان إنكليزي، وهو آمر سفينة بحرية، زيارة سفننا التجارية، لكن قائد سفينتنا رفض السماح له بذلك. وعندما رآنا على استعداد للدفاع عنها، انسحب على مضض.

في ٦ حزيران/يونيو، راقب علماء الفلك ظاهرة نادرة وهي مرور كوكب الزهرة أمام الشمس، وتحضّر العلماء لدراسة هذه الظاهرة في أوروبا، كما أرسل علماء إلى أماكن مختلفة من العالم، وتلقيت الأمر بمراقبة هذه الظاهرة أينما كنت. وبما أن السفينة لم تكن قد ابتعدت كثيراً عن اليابسة، لن تكون لملاحظاتي فائدة كبيرة كما لو كنت على اليابسة، وصعب عليّ القيام بهذه الدراسة بالدقة المطلوبة، فحركة السفينة وإن كانت بطيئة تؤثر في عمل كهذا. وبما أن البحر كان ساكناً لأيام عدة، فإنني استعديت لدراسة هذه الظاهرة بأفضل طريقة ممكنة، وسأورد ملاحظاتي، علماً أن الخبراء لن يستفيدوا منها إلا إذا أرادوا معرفة مدى خطئي. وفي ٦ حزيران/يونيو، وعند شروق الشمس، كان كوكب الزهرة



أمام قرص الشمس، وبما أنه كان مغطى بغيمة سميكة عند انجلاء القسم الأول لهذا الكوكب، لم أرَ سوى انجلاء القسم الأخير منه. بعد مراقبة الكوكب، قست ارتفاع الشمس مراراً، واحتسبت ارتفاع القطب حيث كنا، ثم صححت الساعة بعد مراقبة القطب في اليوم الثاني عند الظهر. وتبين لي من هذه الدراسة، الوقت الصحيح أن انجلاء الجزء الأخير لكوكب الزهرة عن قرص الشمس هو الساعة ٩ و٣ دقائق، و٥٣ ثانية، على خط العرض ٤٠° ٦، قرب خط هاجرة مدينة مارسيليا.

وصلنا جزيرة مالطا في ١٤ حزيران/يونيو، ورسونا في المرفأ الكبير، بالمدينة، لأن عاصمة هذه الجزيرة مقسّمة إلى مدن عديدة صغيرة، محاطة بمجموعة خلجان تشكّل مرافىء آمنة. ويبدو منظر المدينة رائعاً من هذه الناحية، وقد بنيت منازلها على الطريقة الشرقية، أيّ مسطّحة من الأعلى وتستند إلى مرتفعات وعرة، وهي من الحجر المقصوب، حتى الحصون بُنيت بالطريقة نفسها أو حفرت في الصخر. أما الصخر الذي تقوم عليه الجزيرة فمن الحجر الكلسي الليّن الذي يمكن حفره بسهولة كالخشب. ولا ينبغي أن نستغرب إن وجدنا الكثير من الكنائس والقصور الرائعة لأن الجزيرة غنية بالمال وبالمهندسين الماهرين[1]. وتبقى كنيسة القديس يوحنا أبهى كنائس مالطا، فقد سخا عليها سادة المدينة الكبار وزينوها بقبورهم الرائعة. ويقال إنها جمعت كنزاً لا يصدّق، من ضمنه زينة ذهبية وفضية ثقيلة الوزن كالتماثيل والثريات وغيرها فضلاً عن شمعدانٍ كبير مع سلسلة ذهبية يقال إنها كلّفت ٥٠٠,٠٠٠ قطعة نقدية من نقد مالطا. ونجد العديد من الأشياء الثمينة ضمن الكنوز المحفوظة في الكنائس المتاخمة، ومن بينها صليب من الذهب الصافي، يزن ٢٤ ليبرة، وجزء من مهد يسوع المسيح المرصّع بالأحجار الكريمة. باختصار، فإن ثروة هذه الكنيسة تفوق كنوز الكعبة في مكة، كما تفوق كنوز ضريح محمد في المدينة. ونجد في المدينة مستشفى جيداً، يستقبل كافة المرضى من دون استثناء ويُعنى بهم، ويقال إن الطعام يقدم بأطباق من فضة، ولعل هذا الأمر الأخير يخصّ به الفرسان المرضى أو ذوي الشأن. أما اهراءات الحنطة الكبرى فمحفورة في الصخر، ويتم جرّ المياه إلى المدينة من نبع يبعد عنها ثلاثة أميال تقريباً، وذلك بواسطة أنابيب بنيت في بداية القرن السابع عشر. يبلغ طول جزيرة مالطا أربعة فراسخ وثلاثة أرباع أما عرضها ففرسخان وربع. وتتميز الجزيرة بشاطئها المتعرّج في الجنوب وشاطئها المستقيم في الشمال، حيث نجد العديد من الخلجان، وحيث تمّ بناء العديد من الأبراج والحصون لصد هجوم الأعداء، فأصبحت الجزيرة بالتالي محصّنة كلياً. ولا نجد سوى مساحة صغيرة مزروعة، لكنها أرض غنية بكافة الفواكه الشهية، ويكثر

(١) نجد في الحجر الكلسي في مالطا الكثير من الأصداف والحلزونات المتحجرة وألسنة الأفعى التي يظن علماء الطبيعة أنها أسنان أسماك، وأخيراً عيون الأفعى التي يركّبها صائغو المدينة في الخواتم، أو في السلاسل الذهبية المشغولة بطريقة بارعة والتي يبيعونها للأجانب. يُقال إن ألسنة الأفعى هذه وعيونها تبرهن أن القديس بولس طرد هذه الحيوانات السامّة من مالطا، لكن لعل هذه الأفاعي لا يمكن أن تعيش على هذه الأتربة الجافة والمغطاة بالصخور ولا بد من وجود جزر صغيرة أخرى لم يطأها القديس، ولكن لا وجود للأفاعي فيها.

السكان في هذه الجزيرة بسبب الحرية التي يتمتعون بها.

وشاهدنا في مرفأ مالطا السفينة الحربية التركية، التي فرّ بها العبيد المسيحيون من جزيرة ستانشيو (Stanchio) في ١٩ أيلول/سبتمبر ١٧٦٠، حين كان القبطان التركي ومساعدوه على اليابسة. وبقي العبيد الفارون في جوار هذه الجزيرة، حتى بعث إليهم أهالي مالطا الذين لم يفهموا كيف تجرأت سفينة تركية على الاقتراب من جزيرتهم. ووعد العبيد بتسليم السفينة والمدافع شرط أن يسمح لهم بمقاسمة باقي الغنائم، فدخلت السفينة المرفأ في ٦ تشرين الأول/أكتوبر من السنة نفسها. وعاد العقلاء من العبيد إلى موطنهم مع حصتهم من الغنيمة، في حين بقي قسم آخر منهم في مالطا وعملوا جاهدين على تبديد حصتهم. وعثر على متن السفينة على ٨٣ مدفعاً، ٦٦ منها من البرونز، ووضع عدد منها في الامبراطورية وعدد آخر في البندقية وعدد في المصانع التركية. وقد بني المركب على الطراز التركي وبطريقة متينة للغاية، ونجد قرب الصاري مجلساً صغيراً، اعتاد الضباط الجلوس فيه، كما نجد في وسط السفينة ومن الجهتين مقاعد مشابهة، لأن الأتراك لا يحبون التنزه على متن السفينة أو على اليابسة. أما متن السفينة فضيّق، ونجد بين الغرفة السفلية والعليا للقبطان عشرات المدافع، ونصب بعض منها على الكوثل[1] حيث ينام العبيد. صوّب المسيحيون هيكل السفينة وجعلوها على النمط الأوروبي، لكننا علمنا لاحقاً في مصر، أن فرنسا اشترتها وأعادتها للسلطان كهدية. وبدا هذا الأمر مستغرباً حتى لفرنسيي الشرق، نظراً إلى أن أمّتهم بأمسّ الحاجة للمال والسفن لمتابعة الحرب ضد الإنكليز، لكن الفرنسيين يسعون إلى مراعاة السلطان بغية تسهيل تجارتهم مع الشرق. ويبدو أن ديانة مالطا، التي لا تسعى إلى القضاء على الكفّار، لم تمانع كثيراً في إعادة السفينة. ويتخوف أهالي مالطا كثيراً من غضب السلطان، لذا يعملون جاهدين على ترميم القلاع الصغيرة الواقعة على شاطىء البحر، ويمرنون سكان الجزيرة، ونجد لديهم ثلاث سفن حربية فيها ٦٤ و٦٢ و٢٠ مدفعاً و٤ سفن شراعية حربية فضلاً عن السفينة التركية، وقد جهزت كل سفينة شراعية بثلاثة مدافع وخمسين مجذافاً يحركها سجناء قيّدوا بها وهم من الأشقياء ومن العبيد المسلمين من أفريقيا وتركيا.

وقلّما نسمع بمالطيين يأسرون أتراكاً أو يتغلبون عليهم منذ أن حرّمت عليهم المعاهدات بين ملك نابولي والسلطان دخول الأرخبيل، لكننا نجد بين المسيحيين أناساً لا يطلبون أكثر من القتال من أجل الدين حين لا يجدون فرصة أخرى لجمع ثروة، لأن الأمل بالغنيمة يفوق عندهم حماستهم الدينية المسيحية. يُقال في الشرق، إنهم حين يحصلون على سفينة مجهزة لا ينقصهم سوى إذن مرور أو أمر من أمير موناكو أو أي أمير إيطالي آخر يُعرف باستعداده لمحاربة المسلمين المسالمين الذين لا يعرفونهم على الأرجح، كما قيل لي إنه يسمح لكل صاحب سفينة مسيحي بإحضار غنائمه إلى مالطا. ولا ينبغي أن

(١) مؤخر السفينة.

نستغرب أن ينسب المسلمون إلى المالطيين ما ننسبه نحن إلى المغاربة، والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين، إذ يعيش هؤلاء البرابرة على الأقل بسلام مع بعض الأمم المسيحية في حين أن فرسان مالطا يعادون الأمم الإسلامية كلها.

زرت والسيد فورسكال الملاّحات التي تبعد أميال و٤/٣ الميل عن المدينة، وهي مؤلفة من ١٦ مربعاً، يبلغ طول وعرض الواحد منها ١٠٠ قدم وكلها مطلية. يتم ملؤها بماء البحر مرتين سنوياً، فتتبخر المياه خلال شهر تاركة الملح في القعر، ويُقال إنه يتم جمع ٧٠٠ سلم كل مرة، ويبلغ ثمن السلم الواحد ٤ سكودي (Scudis). وبالتالي، يكسب السيد الأكبر الذي يعود إليه هذا المردود حوالي ٥٦٠٠ سكودي سنوياً من ماء البحر. ونجد بالقرب من هذه المربعات، ملاحات أخرى غير مطلية وتنتج بالتالي ملحاً سيىء النوعية يستخدم لتمليح السمك ودفع أجور العمّال. ونرى الفقراء في أماكن أخرى، يحملون مياه البحر إلى الصخور ويجمعون القليل من الملح الذي تتركه بعد تبخرها. ونلاحظ قرب الملاحات وجود قبة صغيرة. على ضفاف البحر يمكن وضع زورق صغير تحتها، ويقال إن سفينة القديس بولس غرقت في هذه المنطقة، فتمّ بناء كنيسة تحمل اسمه ويبلغ طولها ٥٥ قدماً وعرضها ٤٥ قدماً. وقصدنا في يوم آخر سان أنطوان بوسكيه (St. Antoine, Bousquet)، وهما منزلان ريفيان للسيد الأكبر، تحيط بهما الحدائق وأشجار الليمون، وبقربهما كهف جميل للغاية.

لا تبعد سيتا ـ فتشيا، عاصمة الجزيرة كثيراً، لكنها لم تعد آهلة بالسكان، ويلفت الأنظار فيها معبد رائع يعلوه كهف صغير، يقال إن القديس بولس التجأ إليه خلال الأشهر الثلاثة الأولى بعد غرق سفينته. ولا نرى في هذا الكهف لصغره سوى تمثال للقديس وكومة من الحجر الصخري الذي حفرت فيه المغارة، ويدعي البعض أن لهذه الحجارة قدرة عجائبية، وأن من يحمل معه قطعة منها لا يخشى عليه من لسعة الأفاعي، لذا ترسل قطع من هذه الحجارة إلى كافة بلاد العالم التي تدين بالديانة الكاثوليكية ـ الرومانية. كما يعرض في المعبد تمثال الكونت روجر النورماندي الذي طرد العرب من مالطا. وتقع في جوار المعبد تلة يقال إن القديس بولس وعظ من أعلاها ودعا الناس إلى الدين، وإحياء لهذه الذكرى أقيم له تمثال وهو يعظ. ونجد في محيط سيتا ـ فتشيا الكثير من المساكن المحفورة في الصخر، وقد سدّت مداخل العديد من الممرات كي لا يضيع المرء داخلها. وتتألف هذه المساكن من عدة غرف صغيرة، فضلاً عن قبو كبير يبدو وكأنه استخدم للتجمعات، وتطالعنا آثار طاحونة صغيرة في مكان آخر. ومهما كان هدف هذه المساكن المحفورة في الصخور، لا بد أنها كانت مأوى مناسباً للسكان قديماً في زمن القيظ ولا سيّما وأنهم لم يعتادوا العيش في ترف ولم يكونوا ليخشوا النهب والسرقة. وحافظ أهالي مالطا على كتابة فينيقية نقشت على حجر لكني لم أرها بنفسي. وجمعنا ملاحظات حول طول جزيرة مالطا وعرضها، أوردنا ذلك في يوميات وملاحظات الفيزياء والرياضيات وعلم النبات للأب فاي (Feuille)،

وقد حصلت على نسخ من خارطة المدينة وخارطة لجزيرة مالطا وجزيرة غوزن (Gosen)، لكني أعتقد أن هناك خرائط دقيقة مطبوعة، ولم أشأ زيارة اللوحات المحفورة.

غادرنا جزيرة مالطة في ٢٠ حزيران/يونيو ولم نرَ الأرض حتى الخامس والعشرين من الشهر نفسه. وعند ظهر ذاك اليوم، كنا على خط عرض ٣٦°، ١١´ وكانت جزيرة سابينزا (Sapienza) بحسب تقديرات الربان على بعد سبعة أميال نحو الشمال، نستنتج من ذلك أن ارتفاع قطب هذه الجزيرة هو ٣٦° ٣٩´ . ودخلنا مجموعة الجزر في ٢٦ حزيران/يونيو، وبعد مراقبة دقيقة للشمس في الهاجرة، تبين أننا كنا على ٣٦°، ١٠´ في ذاك اليوم. وقدّر الربّان المسافة التي تفصلنا عن الجزر المجاورة، ووفقاً لتقديراته تقع جزيرة سريغوتّو (Serigotto) على خط عرض ٣٥°، ٥٢´ ، أما جزيرة أوفو (Ovo) فعلى ٣٦°، ٩´ ، ورأس سان أنجيلو (St. Angelo) على ٣٦°، ٢٦´ . ونجد هذه الجزر على مسافة أبعد نحو الشمال على خارطة الأرخبيل التي وضعها السيد دانفيل (D'Anville) بانتباه وذكاء والتي نشرت في باريس سنة ١٧٥٦. وكنت أتمنى أن أتابع ملاحظاتي ودراساتي الجغرافية، لكن نزيفاً حاداً أصابني، حتى أني فقدت الأمل في رؤية القسطنطينية وحتى شبه الجزيرة العربية. لكني شكرت القدر الذي أصابني بعلة، في وقت أمكنني فيه الحصول على المساعدة والراحة، وبالرغم من أنني عانيت من الحرارة لكني كنت بين أوروبيين، وقد قدّم لي قائد السفينة كل المساعدة التي يمكن الحصول عليها على متن سفينة. في ٣ تموز/يوليو، وصلنا والمراكب الثلاثة التي رافقتنا من مرسيليا إلى مرسى أزمير، ونزل رفاقي إلى اليابسة، لكني لم أتمكن من مغادرة السفينة واكتفيت بمشاهدة هذه المدينة الشهيرة بتجارتها من زجاج غرفتنا. في ١٠ تموز/يوليو، رفعنا المرساة ووصلنا في ١٣ من الشهر نفسه قرب جزيرة تنادوس (Tenados) حين رأينا بعض الآثار التي نظن أنها تعود لطروادة (Troye). وهنا تلقينا الأمر بمغادرة السفينة والتوجه إلى عاصمة الأمبراطورية العثمانية برفقة المترجم الذي أرسله للقائنا سفير الملك في القسطنطينية السيد دي غابلر (De Gäbler). ولم أتجرأ على القيام بهذه الرحلة على متن مركب صغير مكشوف يمكّننا من الوصول بسرعة، كما لم نتمكن من إيجاد مركب مزوّد بغرفة في جزيرة تنادوس، فاضطررنا إلى انتظار مركب آخر من الدردنيل. وما إن وصل، حتى استأذنا قائد السفينة وضباطها الذين شاركناهم أوقاتاً صعبة وسط العواصف الهوجاء والرياح المعاكسة وأوقاتاً طيبة أخرى. وجرّبنا للمرة الأولى السفر مع المسلمين، إذ صعد العديد من الأتراك على متن المركب حين كنا قرب تنادوس ومن بينهم رجل ذو شأن جاء لتذوق خمر قائد سفينتنا. بدت لنا لغتهم، ولباسهم وطريقة عيشهم غريبة للغاية حتى أننا لم نعد نأمل بقضاء وقت ممتع بين الشرقيين. ولم تساعدنا الرياح في رحلتنا بين تنادوس والقسطنطينية التي لم نصلها إلا في ٣٠ تموز/يوليو، ورَسَوْنا قرب غلطة (Galata) ومنها رافقنا المترجم إلى منزل السيد دي غابلر في بيرا (Pera) مباشرة. وقد قابلنا هذا الوزير بلطف وطيبة لا مثيل لهما، حيث قام بإيوائنا جميعاً في بيته، وقدّم لي كل ما يمكنه أن يساعدني على استرداد صحتي وعافيتي.

ملاحظات من القسطنطينية

وردنا الكثير من الوصف للقسطنطينية أو اسطمبول، كما يسميها الأتراك، فلا يسعني إضافة أشياء جديدة ومهمة ولا سيّما أني لم أبقَ في المدينة لوقت طويل، كما لم تتسنَّ لي فرصة رؤية الكثير فيها. وما إن تحسنت صحتي حتى انتقلنا إلى مصر، لكن بما أني تعرفت عن كثب وفي طريق العودة على مكان إقامة السلطان سأورد هنا بعض الملاحظات ويسرني أن أذكر أموراً لم تكن معروفة من قبل.

إن مدينة القسطنطينية كبيرة بلا شك، لكن إذا ما اعتبرنا كاراغاش (Kara Agâsch)، وغلطه (Galata) وبيرا (Pera)، ودولما باغش (Dolma Bagsche) وغيرها، وهي واقعة في الجهة الأخرى للخليج فضلاً عن أسكدار (Scudar) قاضي كوي (Kadi Kaj) الواقعتين في الجهة الأخرى للبحر وبالتالي في آسيا، مدناً أو قرى بحد ذاتها، لا يمكننا عندها مقارنة مساحة القسطنطينية مع ضاحيتها أجيب (Ajub)، والأحياء الواقعة خارج الأسوار على ضفاف البحر بمساحة لندن أو باريس. ولا يمكن تحديد عدد سكان مدن الشرق، لأن عادة إحصاء المواليد والوفيات غير متبعة بعد، وأقصى ما يمكن أن يفعله المسافر في هذا الإطار هو تحديد مساحة المدينة ومعرفة إذا ما كانت مسكونة بالكامل. أعتقد أن مدننا مكتظة بالسكان أكثر من مدن الشرق، أما سقوف المنازل في الشرق فمنخفضة مقارنة مع المنازل الأوروبية، ويحلو للشرقيين ترك مساحات خضراء وراء منازلهم. أما المسافرون الذين يعتبرون مدن الشرق مكتظة للغاية فيعتمدون في حكمهم هذا على العدد الهائل للأشخاص الذين نصادفهم في الشوارع التجارية. لكن ينبغي الانتباه إلى أن الشرقيين لا يحبون اصطحاب الأجانب إلى المنازل التي تقيم فيها عائلاتهم، مما منع دخول التجار والحرفيين إليها. ويعمل هؤلاء الأخيرون في محال صغيرة على طول الشوارع التجارية، لذا لا ترى في بعض الأحيان سوى نجارين في أحد الشوارع، وحدادين في شارع آخر، أو صائغين أو تجار حرير أو تجار جوخ أو صانعي أمشاط أو غيرهم. ويتوجه الآلاف من هؤلاء إلى القسطنطينية صباحاً، ليغادروها عند المساء إلى منازلهم القائمة في ضواحٍ بعيدة أو في قرى واقعة على المضيق قرب البحر الأسود. هذا الكم الهائل من الأشخاص الذي لا نرى إلا القليل منه في شوارع أوروبا، هذا الحشد من الرجال والنساء الذي يؤم الشوارع التجارية للعمل أو للتسلية يبدو استثنائياً بالنسبة لأجنبي لأن الشوارع ضيقة للغاية، لكن لو اعتاد المسافرون زيارة الأحياء البعيدة لما صادفوا الكثير من الناس كما في مدن أوروبا.

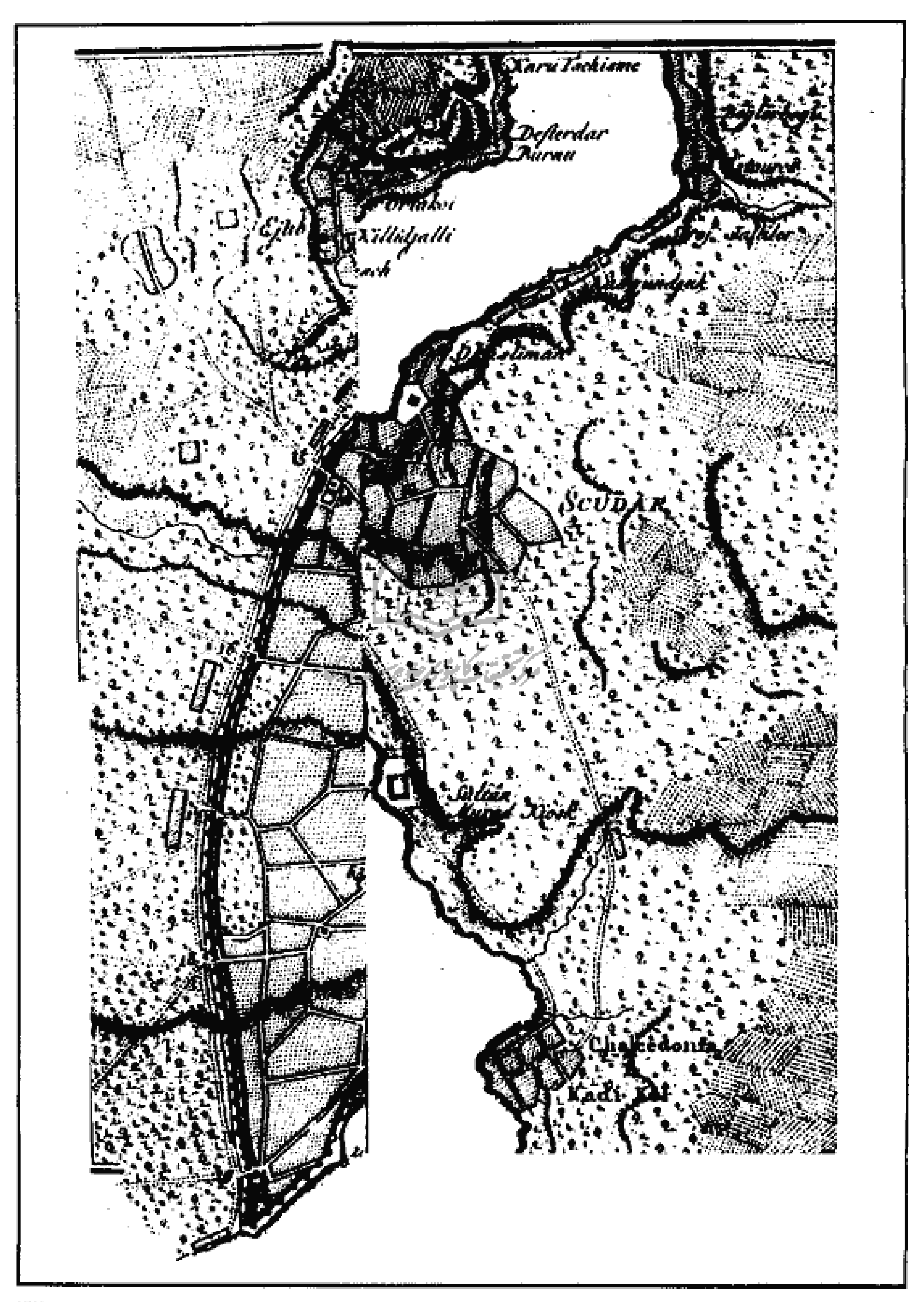
وتبقى خارطة القسطنطينية التي وضعها القبطان الأفضل بين الخرائط التي شاهدتها كلها، لكن

المقياس الذي اعتمده صغير بحسب رأيي مما أظهر المدينة أكبر من حجمها الطبيعي. وقد تبدو الطريقة التي اعتمدتها لقياس المدينة غير دقيقة بالنسبة لعلماء الرياضيات لأني لم أستخدم إلا البوصلة وأقدامي. وبما أنني قست الخطوط الأساسية كلها أي محيط المدينة والعديد من الشوارع في القسطنطينية والضواحي والمدن المتاخمة، لا أظن أن الخطأ سيكون فادحاً، ولعلّي أخطأت ببضعة أقدام وحسب، لكن هذا الخطأ ليس بحجم الخطأ الذي يمكن أن أرتكبه لو اكتفيت بتحديد مساحة المدينة استناداً إلى الزاوية المقاسة من خارج الأسوار. أظن أنه لا يمكن الطلب من المسافرين إلى بلاد الشرق قياس المدن بدقة أكبر من نتيجة القياس الذي يعتمد البوصلة والقدم، لأنه يصعب وضع خارطة للمدن دون إذن من القاضي. ولن يبحث أحد عن كافة الشوارع في خارطة مدينة شرقية، لكن ينبغي أن تكتفي بمساحتها وموقعها وساحاتها الكبرى، وهذا ما نجده في الخارطة التي وضعتها للقسطنطينية على اللوحة الثالثة، فضلاً عن خرائط مدن الشرق الأخرى، وأعترف أن معظم الشوارع في خارطة القسطنطينية مسجلة اعتباطاً ولملء الفراغ. وإليكم تفسيراً للأرقام المدوّنة على هذه اللوحة. ١) باغجه قبو، ٢) بالق بازار قبو، ٣) زندان قبو، ٤) أودون قبو، ٥) أيازمه قبو، ٥) أون قباني، ٧) جبالي قبو، ٨) أيا قبو، ٩) يكي قبو، ١٠) يفري قبو، ١١) فنر قبو، ١٢) بالاد قبو، ١٣) عيوان سداي قبو، ١٤) أكري قبو، ١٥) أدرنة قبو،١٦) طوب قبو، ١٧) يكي قبو، ١٨) سلوري قبو، ١٩) يدي قلله قبو، ٢٠) أدرنه قبو، ٢١) ساماطيه قبو، ٢٢) داود باشا قبو، ٢٣) يكي قبو، ٢٤) قوم قبو، ٢٥) غاتلادي قبو، ٢٦) أخور قبو، ٢٧) بالوق خان قبو، ٢٨) داغرمان خان قبو، ٢٩) طوب قبو، ٣٠) بالي يوسف قبو، ٣١) دمير قبو، ٣٢) سالوق جيسم قبو، ٣٣) بابا حمام قبو، ٣٤) دامو قبو، ٣٥) وليد يامع، ٣٦) مسرجرشي (Misrtscharschi) ٣٧) قصر الوزير أو الباب، ٣٨) مسجد آيا صوفيا، ٣٩) مسجد آيا صوفيا الصغير، ٤٠) السلطان أحمد الجمزي والميدان، ٤١) حظيرة للحيوانات المتوحشة، ٤٢) الترسانة، ٤٣) العمود المحروق، ٤٤) علي باشا الجمزي (Jámasi)، ٤٥) عثماني جمزي، ٤٦) السلطان بجزات جمزي، ٤٧) وزير خان، ٤٨) بزستان أو شوارع تجارية مقبية ومحال تجارية، ٤٩) السراي القديم، ٥٠) سليماني جمزي، ٥١) قصر آغا الإنكشاري، ٥٢) القناة، ٥٣) شاه زاد جمزي، ٥٤) السلطان سليم جمزي، ٥٥) كنيسة البطريركية للروم، ٥٦) فاتي جمزي، ٥٧) آثار قصر قسطنطين، ٥٨) أدرن قبو جمزي، ٥٩) السلطان محمد جمزي، ٦٠) الميدان أو حيّ الانكشاريين، ٦١) حيّ آخر للانكشاريين، ٦٢) مستشفى المجانين، ٦٣) علي باشا جمزي، ٦٤) داود باشا جمزي، ٦٥) الأبراج السبعة، ٦٦) دفتردار أسكاله سي، ٦٧) مسجد وب، ٦٨) الماء العذب، ٦٩) بانيو، مكان حجز العبيد، ٧٠) ميت أسكاله سي، ٧١) مقر إقامة سفير الدانمارك، ٧٢) مقر إقامة سفير السويد، ٧٣) مقر إقامة سفير إنكلترا، ٧٤) مقر إقامة سفير بروسيا، ٧٥) مقر إقامة سفراء نابولي وروسيا وهولندا والبندقية وفرنسا وفيينا، ٧٦) أج أغلان سروج، قصر يربى فيه عدد كبير من الخدم، ٧٧) خزان مياه لقناة السلطان محمود، ٧٨) كوجك قولله قيوسي ويبوك قولله

قيوسي، ونجد في غلطه عشرات أبواب أخرى وهي: طوب خانه قبو، كرج قبو، أكري قبو، موم خانه قبو، قور بشونلي مخزن، قره كوي قبو، بالق بازار قبو، أسكي ياغ قبان، كور كجي قبو، أزاب قوبسي ٧٩). منازل السلطان الريفية، L L إشارة إلى المقابر.

ويبلغ ارتفاع قطب سراي السلطان ٤١°، ١َ ، لأن ارتفاع قطب بيرا، بحسب دراساتي، يبلغ ٤١°، ٢َ ٢٦ً . أما شكل مدينة القسطنطينية فمثلث، غير متساوي الأضلاع وغير مستوٍ، ولا يتعدى حرم المدينة، وفقاً لقياسي ١٣٠٠٠ قدم مزدوج، علماً أن معظم الرحلات تعتبره أكبر. وتحيط بالمدينة أسوار، لا تنفع للدفاع عنها، ويظن الأتراك أنهم محصنون بفضل الحصون الأربعة الصغيرة الواقعة على القناة من جهة الأرخبيل، والأربعة الأخرى الواقعة على القناة من جهة البحر الأسود علماً أنها حصون غير ذات أهمية. ونجد على طول المرفأ أو الخليج، خارج أسوار المدينة، ومن ضاحية أيوب وحتى السراي طريقاً واحداً، كما تطالعنا من حين إلى آخر منازل بنيت الواحدة وراء الأخرى، وبعضها في الماء جزئياً. ويتم ردم المرفأ يومياً في بعض الأحيان، لزيادة المساحة وبالتالي للبناء مما يجعل الأسوار غير مجدية للدفاع عن الشعب والمدينة. وفي السنوات الأخيرة، قام الأتراك بردم مساحات شاسعة وبناء أحياء كبيرة قرب بعض الأبواب، انطلاقاً من السراي وحتى الأبراج السبعة، لكن أسوار المدينة في معظم هذه الأمكنة لا زالت قريبة من البحر. ويحيط بالمدينة من جهة اليابسة بدءاً من الأبراج السبعة وحتى ضاحية أيوب سور مزدوج وحفرة واسعة، واكتفى السكان منذ زمن اليونان بتصليح السور، أما الحفرة فقد ردمت تقريباً. وأما القصر المسمى الأبراج السبعة فصغير ويصلح في حاله اليوم، كسجن، أكثر مما يصلح للذود عن المدينة. ويبقى مدخل المرفأ والمضيق الواقع من جهة البحر الأسود الأكثر تحصيناً، فقد جهزا بالمدافع التي نصبت بجانب السراي قرب طوب خان وفي كيس كلّسي، (Kiss Kùlesi)، لكنها غير قادرة على الدفاع عن المدينة بشكل فعّال ضد أسطول، يهاجمها من الجهة الأخرى، بعد أن يجتاز الدردنيل. ويعتبر هذا الجزء من القسطنطينية الواقع من جهة المرفأ والبحر كثير السكان، ويعزز هذا الشعور باكتظاظ المدينة البيوت المتكئة على التلال التي تبدو وكأنها متلاصقة. أما من جهة اليابسة، بين أدرن قبو والأبراج السبعة فنجد العديد من الحدائق الكبيرة داخل الأسوار. وتغطي سراي السلطان، والسراي القديم وهو مسكن ارامل السلاطين، فضلاً عن المساجد الكبيرة والعديدة مساحة شاسعة، كما يعملون على بناء مساجد جديدة، لكن عدد السكان لن يتزايد مع تزايد عدد دور العبادة. ويؤكد البعض أن القسطنطينية اكتظت بالسكان في السنوات الأخيرة مما اضطر السلطان إلى إبعاد عدد من الناس إلى المقاطعات والريف.

وتطل هذه المدينة على مناظر رائعة لا سيما من جهة البحر، وتتكىء القسطنطينية والمدن والقرى المجاورة على التلال حيث يبنى على قمتها أجمل المساجد، ويفصل بين المنازل عدد من الحدائق المزروعة بالأشجار. لكن هذا المنظر الجميل لا يتفق وداخل المدن حيث الأزقة ضيقة وطريقة البناء سيئة وعشوائية،


Defterdar
Burnu
SCUDAR
Kiosk
Kadi

وتبنى المنازل من الخشب الرقيق حتى ليظن المرء أن هيكلها أقفاص للطيور، أما الجدران فمن الآجر غير المشوي. وتبنى القصور والأبنية العامة من الحجارة وبشكل متين، لكن لا يظهر منها من جهة الشارع إلا الجدران الشاهقة، وللقصور والمنازل العادية مساوئها، فالمنازل المبنية من الآجر تدفن من فيها عند أقلّ هزّة أرضية، والقصور المضاءة بالمشاعل تحرق ساكنيها. وهذان النوعان من الحوادث شائعان في هذه المدينة. ويبقى مرفأ القسطنطينية أجمل مرفأ في العالم، وهو يمتد على مساحة شاسعة، ويمكن للمراكب أن ترسو في أي جهة منه وبأمان تام، كما يمكنها الاقتراب من الشاطىء وتحميل ما جاءت من أجله. إن موقع القسطنطينية بين البحر الأسود والأرخبيل، فضلاً عن الأعمال المزدهرة التي تجذب سكان الضواحي والمدن المجاورة تجعل من هذه المدينة محطة للسفن والمراكب، حتى أن البحر يبدو وكأنه مرصّع بها.

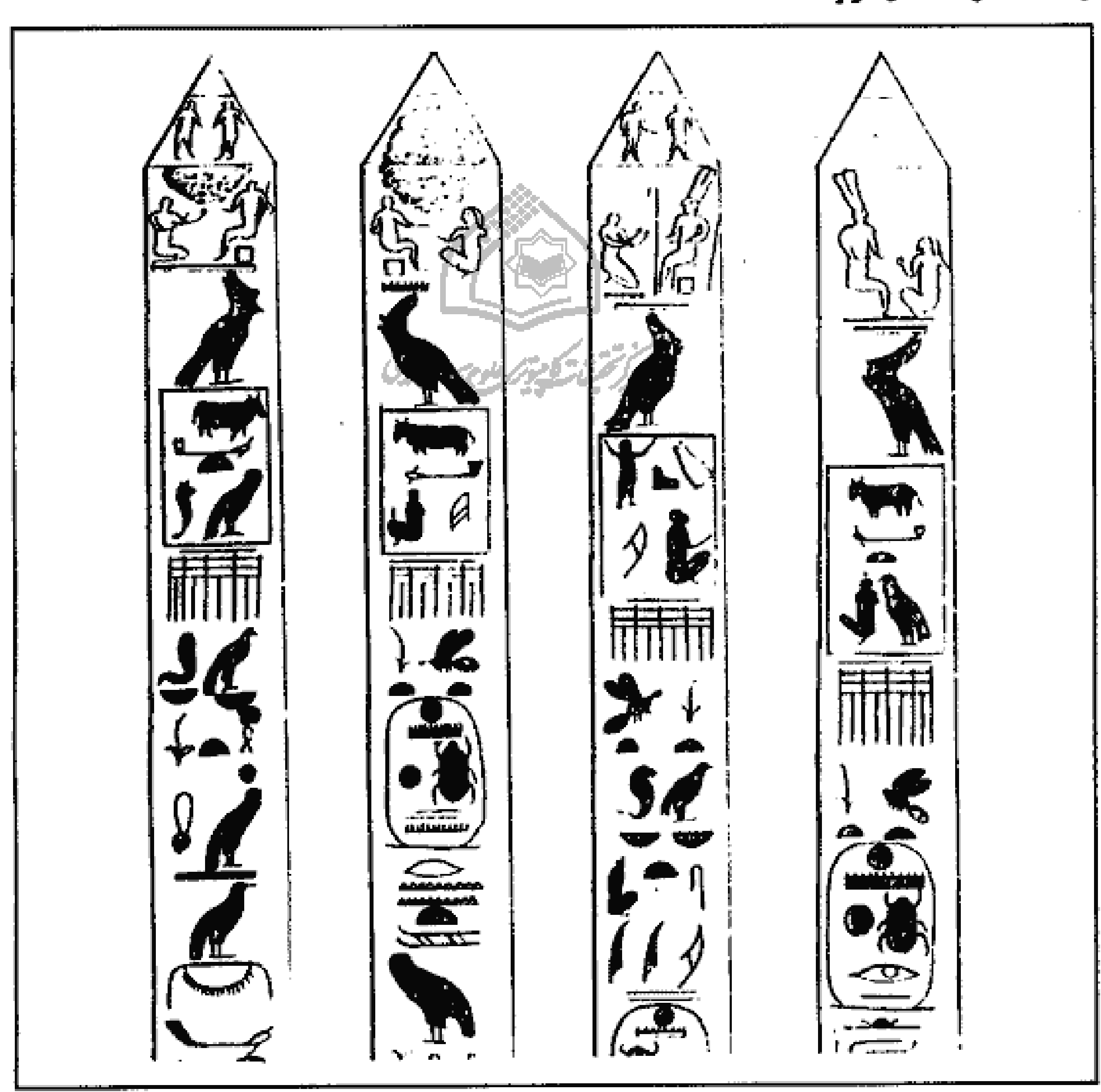
يقع سراي السلطان على مرتفع عند الطرف الشرقي للمدينة، عند مدخل المرفأ، أمام المضيق الممتد إلى البحر الأسود أي البوسفور، وهو بالتالي مطلّ على مناظر جميلة من كافة الجهات، كما نستنتج من الخارطة التي أوردتها هنا. ويفصله عن المدينة سور عال، يمكنه أن يدفع عن السلطان غضب رعاياه لكنه لا يحمي المدينة، لكن تحيط به من جهة المياه مجموعة من المدافع القادرة على الدفاع عن مدخل المرفأ والمضيق الممتد نحو البحر الأسود. ويمتد السراي على مساحة شاسعة ويضم الكثير من الجنائن، وتبدو الأبنية العامة كلها وكأنها مطلية بالرصاص. لم ألج سوى الفناء الخارجي للسراي، فلا يسمح بالدخول إلى حرمه، لم أرَ فيه ما يلفت الأنظار سوى بيت المال السيىء البنيان فضلاً عن بعض الإسطبلات. نقرأ في بعض الأعمال التي وصفت القسطنطينية أن عبارة «الباب» أو «الباب العثماني» المستخدمة في أوروبا تأتي من مدخل هذا الفناء الخارجي لكن لست أدري عمّا استندوا في حكمهم هذا. يطلق الأتراك على الباب اسم قبو كما يطلقون الاسم نفسه على القصر، لكن يشار بهذا الاسم في القسطنطينية إلى قصر الوزير. وقيل لي إنه إذا ما أرادوا استخدام هذه الكلمة للدلالة على قصر السلطان، ينبغي أن يقال سلطان قبوسي، كما يقال آغا قبوسي للدلالة على قصر آغا الانكشاريين. ويقصد مترجمو السفراء الأوروبيين يومياً تقريباً الباب أي قصر الوزير، لأنه محل إقامة مترجم السلطان كي يبقى قريباً من الوزير أو الريس أفندي إذا ما أراد محادثته أو التكلم مع مترجم أوروبي. ولعل الأوروبيين الذين سمعوا أولاً بالباب أو بمحكمة الوزير، ظنوا أن المقصود هو بلاط السلطان، لذا أطلق اسم الباب العثماني على بلاط سلطان العثمانيين. ولست على اطلاع على اللغة التركية للادعاء بأنه من الخطأ الإشارة إلى بلاط السلطان باسم الباب، لكن لا أظن أن أصل الكلمة يعود إلى الباب الخارجي لبلاط السلطان.

إليكم أسماء المساجد الكبرى أو مساجد السلطان كما تسمى هناك: آيا صوفيا: حوّل الأتراك هذا

المعبد الذي بناه الأمبراطور جوستنيان إلى مسجد، ونجد في كتب عدة رسومات لهذا المسجد، ويمكن انطلاقاً من هذه الرسوم تكوين فكرة واضحة عن شكل المساجد الأخرى التي سآتي على ذكرها، إذ يبدو أن هذا المسجد يشكل نموذجاً لكافة المساجد التركية. مسجد السلطان أحمد وليد، وقد بنت هذا المسجد والدة السلطان. مسجد السلطان عثمان، السلطان بايزيد (Bájazet)، السلطان سليمان، شاه زاد وقد بني هذا المسجد في عهد السلطان سليمان، السلطان سليم، السلطان محمد، مسجد بناه محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية، وقد دمره الزلزال كلياً في عام ١٧٦٦. أدرن قبو جمزي، مسجد بنته إحدى بنات السلطان سليمان وقد تضرر كثيراً من جرّاء الزلزال نفسه. ولا يمكن مقارنة أي من هذه المساجد مع آيا صوفيا من حيث البناء، لكن العديد منها يفوق الأخير من حيث المساحة. وتضفي هذه المساجد على المدينة جمالاً، وقد بنيت على أعلى مرتفعاتها، وطليت قببها ومناراتها المتعددة بالرصاص. وتقوم هذه المساجد وسط ساحات عامة واسعة، محاطة بحائط أو بمساكن لأولئك الذين يهتمون بها وللفقراء، وتبنى المدارس قرب المساجد حيث توزع يوماً الصدقة إما من الخبز وإما من المأكولات. ويتم دفن مشيدي المساجد فيها، حتى أننا قلّما نجد اليوم أضرحة رائعة للعائلات الكبرى في أية مدينة من العالم كما نجد في القسطنطينية. كما نرى في هذه المدينة العديد من المساجد التي بناها السلاطين وزخرفوها، لكنها ليست محط أنظار كتلك التي أتيت على ذكرها. نجد في مدينة أسكودار (Scudar) وحدها أربعة مساجد بنتها سيدات مسنات من العائلة الحاكمة، وبالرغم من أن السلاطين غير ملزمين ببناء مسجد إلّا حين ينتصرون على أعدائهم ويستولون على مساحات كبيرة من أرضهم كافية للإنفاق على المسجد وعلى الأشخاص الذين يخدمونه، بنى السلطان مصطفى، الحاكم اليوم، مسجدين، الأول في أسكودار على مرتفع يواجه السراي وبيرا والثاني في القسطنطينية، وهو مسجد صغير. أما مسجد أيوب فأهمها لأن السلاطين الجدد يُقلّدون فيه السيف عند وصولهم إلى العرش، ونجد في القسطنطينية العديد من مساجد الوزراء والأغنياء الجميلة، فضلاً عن كنائس الروم التي حوّلت إلى مساجد، ونجد مسجداً صغيراً في كل حيّ تقريباً. وتنتشر في المدينة الخانات أو الفنادق العامة، والبزستان أو الشوارع التجارية المقببة، فضلاً عن الحمامات الرائعة مما يزيد من جمالها ويسهل الحياة فيها. كما نجد في المدينة منازل توزّع المياه مجاناً، ويقع أحد هذه المنازل أمام الباب الخارجي للسراي، وقد بني بذوق رفيع وهندسة رائعة، فهو مفتوح من كافة الجهات وطليت قضبانه الحديدية بالذهب، ونجد في داخله أناساً يحملون أوانٍ من النحاس الذهبي مربوطة بسلاسل ومليئة بالماء.

إن هذه المدينة تتغذى بالمياه العذبة من ثلاثة خزانات كبيرة، يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثة أميال، وكل خزان منها هو صورة مصغّرة عن سدّ مأرب الشهير، لأن المياه المتدفقة من الجبال المجاورة والمتجمعة في الوادي يحجزها حائط متين، ويتم تصريفها تدريجياً. لكن كلفة بناء السدود أمام الخزانات لا تقارن مع الكلفة الباهظة لنقل المياه إلى قصور الحكّام، فالأرض غير مستوية، مما يتطلب جرّ المياه تارة عبر التلال

وطوراً من حولها، وحيث توجد الوديان، تمّ بناء سدود عالية ومتينة، لنقل المياه إلى خزانات أخرى كبيرة في القسطنطينية، وتتم صيانة هذه المنشآت على نفقة السلطان. ولعل البعض يعتقد أن الأتراك يدينون لليونان بهذه المنجزات الرائعة، لكن أكّدوا لي أن أحد الخزانات التي ذكرتها ـ الواقع إلى شمال قرية برغاس (Burgás) ـ قد بناه السلطان الحاكم حديثاً، وأن خزان الماء قرب بانجه قوي والقناة الممتدة حتى القرى قرب البوسفور وحتى غلطه بنيا في عهد السلطان محمد. والدليل الآخر على أن سلاطين الأتراك لا يهملون رعاياهم كلياً، أمر السلطان مصطفى، الحاكم حالياً، ببناء ممرّات عند طرف السراي ومن الحصن الأخير في الجهة الآسيوية وحتى البحر الأسود، كي يتمكن البحارة من سحب المراكب بسهولة، ولا سيما وأن التيار قويّ للغاية.



ونعلم من الروايات التي وصلتنا بوجود مسلّة ضخمة وأفعى ثلاثية مشوّهة في الميدان قرب مسجد السلطان أحمد، كما وردت في الكتب الرسوم المنقوشة على قاعدة المسلة، فضلاً عن الكتابات اليونانية الممحوة جزئياً لأنها مغطاة بالتراب. لكننا لا نجد نسخة عن الحروف الهيروغليفية، ولعل السبب يعود إلى أن أحداً لم يجرؤ على نقلها في ساحة عامة وسط المدينة وقرب السراي. وأعترف أني خلال إقامتي الأولى في القسطنطينية، لم أجرؤ على تفحص هذا النصب التاريخي، بسبب الأخبار التي سمعتها عن المسلمين، لكن في طريق العودة، نقلت الحروف الهيروغليفية المنقوشة على المسلة كلها (اللوحة الرابعة) من دون أن أخشى أكثر من ١٥٠ تركياً تجمعوا حولي لمشاهدة عملي. وتكفي الإشارة في خارطة القسطنطينية إلى موقع الصرح الذي تحفظ فيه الحيوانات البرية، وإلى الميدان، وقصر قسطنطين، والعمود المحروق وساحات أخرى استفاض الآخرون في وصفها. ونجد في القسطنطينية منازل فسيحة تحت الأرض أو أقبية تسندها أعمدة عدة يطلق عليها اسم «ألف عمود وعمود»، ويعيش الحائكون في هذه الأقبية التي تبدو وكأنها كانت فيما مضى خزانات مياه. وشاهدت في أحد الأقاليم ٣٢ عموداً من الرخام على الطراز الكورنثي، كما رأيت في إقليم آخر عدداً من الأعمدة العالية غير المتناسقة أشك في أن تكون من صنع مهندس معماري يوناني، أو من عمل الأتراك، وقد رسمتها على اللوحة الخامسة، أ. ونجد في جوارها باباً مسدوداً، ويؤكد البعض أنه يمكن الانتقال منها إلى غاليبولي عبر ممر تحت الأرض، وهذا ما أعتبره تضخيماً لكل ما يتعلق بالعصور القديمة.

ويحيط بمدينة غلطه سور، لكن نرى فيها آثار حائطين قديمين ومتينين، يقسمانها إلى ثلاثة أحياء أو إلى ثلاثة حصون خاصة. وتستند هذه المدينة إلى مرتفع وعر، قبالة القسطنطينية وهي مكتظة بالسكان، ويعيش فيها معظم التجار الأوروبيين والمسيحيين الشرقيين. ويقيم السفراء الأوروبيون في بيرا وهي ضاحية من ضواحي غلطه، ومنهم سفير بلاط فرنسا وسفير بلاط إنكلترا، وسفير جمهورية الأقاليم المتحدة فضلاً عن بايلو البندقية (Baiio)[1]، وسفراء الدانمارك، والسويد، ونابولي وبروسيا والقاصد الرسولي، وسفير روسيا المقيم. ولقد قدّم أول سفير بروسيا أوراق اعتماده إلى السلطان في العام ١٧٦١ قبيل وصولنا ويقيم مندوبو الجزائر وتونس وطرابلس وراغوز (Raguse) في القسطنطينية وإنما ليس بشكل مستديم، ولا يعتبرهم الأتراك سفراء أجانب شأنهم في ذلك شأن مفوضي أمراء مولدافيا اليونانيين والاشيا. ويرسو أسطول السلطان في ترس خانه (Ters Châna) (قرب الترسانة)، في خط مستقيم قرب الشاطىء، وهو في حالة مزرية بالرغم من أن المراكب مطلية بشكل جميل، ونجد في طوب خانه، مبنى كبيراً تصنع فيه المدافع، يجاوره مسجد رائع. إن عدد السكان في أيوب، وقاره أغاش، وغاسكوف، وقاسم باشا، وبيرا، وسان ديمتري، وطوب خانه، وفندقلي، وقبداش قليل للغاية.

(١) يطلق شعب البندقية اسم بايلو على سفيرهم في القسطنطينية، وشاء القناصلة الأوروبيون في الشرق أن يُعتبروا سفراء فاتخذوا لنفسهم اللقب نفسه، لأن العرب (على الأقل سكان البصرة) يطلقون اسم بايلو على القناصلة حتى اليوم.

ويقع قسم من إسكودار في واد، وقسم آخر يستند إلى تلال والقسم الثالث يعلوها، وتكثر في هذه المدينة الحدائق، ونجد خارج أسوارها مداخن واسعة مزروعة بالسرو. ويقع قس قولي أو البرج على صخرة صغيرة في الماء، أما قاضي كوي (Kadi Koj)، فيما بعد خلقدونية، فلم تعد سوى قرية كبيرة، وأجمل ما فيها كنيستها اليونانية، حيث عقد المجمع الديني الشهير.

ويملك السلطان العديد من المنازل الريفية في أيوب، وقره آغاش قرب الترسانة، ومنزل السلطان محمود في دلمه باغجه، ومنزل السلطان مراد بين إسكودار وقاضي كوي، كما يملك العديد منها على مضيق البحر الأسود. لكن السلطان الحالي قلما يزور هذه المنازل باستثناء منزل قره آغاش حيث المياه عذبة، ولأنه منفرد وبالتالي كئيب مما يتلاءم ومزاج السلطان. وتتداعى المنازل الريفية الأخرى، حتى أن السلطان أمر بهدم بعض منها بغية استخدام المواد لبناء المساجد والحمامات.

وللروم في القسطنطينية ٢٣ كنيسة، أما الأرمن فلهم ثلاث، كما تملك هاتان الأمتان كنائس في غلطة والضواحي. ويقيم في بيرا رجل دين برتبة مطران. ويقيم في بيرا وغلطه رهبان من الروم الكاثوليك يتبعون ٦ رهبانيات مختلفة، لكل منها كنيستها التي تقع تحت حماية أحد سفراء أوروبا، كما يملك كل من سفير انكلترا وهولندا والسويد كنيسته الخاصة. ويملك اليهود العديد من المعابد في القسطنطينية والمدن والقرى الأخرى المذكورة أعلاه، وغالبية يهود تركيا من التلموديين، لكن القرّائين (Karaites) يملكون معبداً في غاسكوف، ويقال إنه يمنع على أي طائفة أجنبية، إسلامية أو وثنية، بناء معابد فيها، لكن العديد من الطوائف تجتمع هناك من دون أن تكترث الحكومة للأمر.

الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية

ما إن تحسنت صحتي حتى أخذنا بالأهبة لمغادرة القسطنطينية، قاصدين مصر، وكان بإمكاننا الحفاظ على لباسنا الأوروبي في الإسكندرية، لأن سكّان هذه المدينة اعتادوا رؤية الإفرنج أي الأوروبيين. لكن لباسنا هذا والمغاير لبساطة لباس العرب يمكن أن يعرضّنا في القاهرة وفي شبه الجزيرة لأسئلة مزعجة ولسخرية السكان، فضلاً عن أنه سيشكل عبئاً علينا في غياب المقاعد ووسائل الراحة الأخرى التي نجدها في أوروبا. وحصلنا في القسطنطينية على ملابس طويلة كتلك التي يرتديها الشرقيون. واشترينا عدة للطبخ، ومؤناً ضرورية لرحلتنا المقبلة. وزوّدنا السيد دي غابلر، الذي أحسن وفادتنا في القسطنطينية، بإذن مرور من السلطان، ورسائل توصية، ونقود مصرية، وفي ٨ أيلول/سبتمبر، أبحرنا على متن سفينة من دلسينيو (Dulcigno)، وهو مرفأ بحري على الخليج الأدرياتيكي، غير بعيد عن جمهورية راغوس. وكنا نأمل بالانطلاق في اليوم التالي، لكن الرياح المعاكسة أعاقتنا وأخرنا القبطان الذي لم تكتمل حمولة مركبه. وغادرت السفينة المرفأ وابتعدت عنه، لكن البضائع استمرت تصل إليه حتى في أثناء الليل. ولم ننطلق بالفعل إلاّ في ١١ أيلول/سبتمبر، لكن الرياح لم تسعفنا، فلم نصل إلى الدردنيل ولم نرسُ قرب قوم قلّة أي الحصن الواقع في الجهة الآسيوية إلاّ في ١٥ من الشهر نفسه. ويصعد على متن السفن الآتية من القسطنطينية، رجال من الجمارك لمعرفة ما إذا كانت تحمل عبيداً فارين أو بضائع لم يبلّغ عنها لجمرك القسطنطينية. ومرّ اليوم الثاني في التفتيش مما سرّني، لأننا لم نتوقف إلا لساعات قليلة في هذا المكان، في طريقنا إلى القسطنطينية، وكنت مريضاً للغاية فلم أتمكن من النزول إلى اليابسة، فحملت عدّتي، وتمكنت من دراسة هذا المكان الشهير.

ومساحة قصور الدردنيل ليست بالكبر الذي نتوقعه، فالقصر الواقع من جهة آسيا لا يتعدى كونه مربعاً صغيراً من الأسوار السميكة والمحاطة بالأبراج. أما المدافع التي تحميه فضخمة للغاية، بيد أنها نصبت على الأرض مباشرة أو على أخشاب غليظة، وقد عاينت بعضها فتبين لي أنها لم تعمل منذ أمد بعيد، وحشي بعضها الآخر بقذائف من حجارة مغطاة بالرمل والتراب. ومضيق الدردنيل ضيق فإذا ما قصفت المدافع من جهة وصلت القذائف إلى الجهة الأخرى، وهو متعرج للغاية، فيصعب اجتيازه في ليلة واحدة حتى وإن كانت الرياح مؤاتية. وبوسع الأتراك تصويب مدافعهم على تعرجات المضيق بكلفة متدنية، وبالتالي لا يمكن لأسطول معاد أن يمرّ ويهاجم القسطنطينية من جهة البحر، وإذا افترضنا أن جيوشاً ساندت الأسطول براً وهدمت القصور ومدافع المضيق وأمّنت تراجعه، يخشى على الأسطول الغرق عند

أدنى عاصفة إذ تكثر المواقع غير المنخفضة القعر بين الدردنيل والقسطنطينية. وإذا ما أرادت القوى المسيحية إسقاط عاصمة الأمبراطورية العثمانية من جهة البحر، ينبغي أن تفرض عليها حصاراً وتمنع عنها المؤن التي تصلها من ما وراء البحر الأسود أو الأرخبيل، فإذا ما شحّت بعض المواد الضرورية وارتفعت الأسعار قد يستسلم الأتراك. وتبقى خرائط السيد دي أنفيل التي تحمل عنوان: شواطىء اليونان والأرخبيل أفضل الخرائط التي وصلتنا عن تلك البلاد. وتقع قتيم قاله على خط عرض ٤٠°، ٨٠´ .

ثم أبحرنا مجدداً في ١٧ أيلول/سبتمبر، وفي الثامن عشر من الشهر نفسه مررنا أمام القصرين الواقعين عند مدخل المضيق، وقيل لي إن اسمهما القصر القديم والقصر الجديد، ويبعدان عن الدردنيل حوالي ٣٦ ميلاً وفقاً للقياس التركي. وصادفنا قرب تندوس (Tenedos) سفينتين حربيتين تركيتين جاءتا لنقل هذا السفير إلى القسطنطينية، إذ اتفق السلطان وجمهورية البندقية، على أن لا تتجاوز أية سفينة حربية مضيق الدردنيل وأن ينقل السفير الذي يتغير كل ثلاث سنوات إلى تندوس ومنها إلى القسطنطينية على متن سفن تركية، وذلك إثر خلاف حول بعض السفن من البندقية في مرفأ القسطنطينية.

في ١٩ أيلول/سبتمبر ظهراً، تبين لي أن جزيرة ساموس (Samos) تقع على خط عرض ٣٧°، ٤٦´ ، وجزيرة فورنا (Furna) على خط عرض ٣٧°، ٤٢´ ، وجزيرة أيكاريا (Icaria) على خط عرض ٣٧°، ٤٤´ . وفي ٢٠ أيلول/سبتمبر، مررنا أمام جزيرة ستنشيو (Stanchio)، وأراد قبطان السفينة التزود بالمياه العذبة، لكننا لم نتوقف لأننا ننقل على متن سفينتنا قبطاناً ينبغي أن يتسلم قيادة سفينة حربية في رودس، ولأن الرياح مواتية للغاية. وفي ٢١ أيلول/سبتمبر، رسونا في مرفأ مدينة رودوس، والتقينا الكابتن باشا أو قائد أسطول السلطان، مع بعض السفن البحرية، فحييناه بثلاث طلقات مدفع وردّ بطلقة واحدة.

ولا تحب أية مدينة في الشرق تلقي زيارة أسطول السلطان، لأنه ينبغي تقديم هدايا قيّمة لقائده، ولعدم انضباط البحارة. ولقد نزلت والسيد فورسكال والسيد بورفيندر إلى اليابسة ما إن وصلنا إلى رودوس وذلك بغية التحدث إلى قنصل فرنسا، لكن منزله كان مقفلاً لتجنب سوء تصرف البحارة، وما سمحوا لنا بالدخول لأننا نرتدي الثياب التركية لو لم نلتقِ مصادفة براهب كبوشي ردّنا من حيث جئنا. وأرسل القنصل معنا مرافقاً للتجوال في المدينة، لكننا سمعنا الكثير من الأخبار السيئة حول الأتراك فتجنبنا كثرة التجوال. لاحظنا أن منازل هذه المدينة مبنية بشكل متين، وفي الشارع المسمى شارع الفرسان، رأينا البعض يرتدي درعاً، أما قصر السيد الأكبر فمهدّم تقريباً. وبما أن الأتراك لا زالوا يذكرون كلفة الاستيلاء على هذه المدينة، ويعتبرونها صعبة المنال، بالرغم من أنهم تركوا التحصينات في الحالة نفسها التي أضحت عليها حين استولوا على المدينة، وتركوها فيما بعد لتصبح أنقاضاً. لكن تبقى رودوس أمنع قلاع الامبراطورية العثمانية، وكان التمثال الشهير المخصص للشمس يقوم قرب هذه المدينة فيما مضى، لكن يصعب تحديد موقعه حالياً، ويقوم عند مدخل المرفأ برج من كل جهة، ويعتقد أن هذين البرجين قاعدة لقدمي التمثال، لكن يبعد الواحد عن الآخر حوالي ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قدم، وهي مسافة كبيرة تجعل الأمر غير قابل للتصديق.

وقررنا للمرة الأولى أن نأكل في مقهى تركي، كان الطعام شهياً إنما مكلفاً، أكلنا على منضدة واسعة من الخشب، في الشارع، من دون سكين أو شوكة وفي طبق من الآجر السيئ، ثم انتقلنا لزيارة يهودي، يزوّد الأوروبيين بالنبيذ. كانت عنده فتاتان، يدّعي أنهما ابنتاه، وهما تتكلمان الإيطالية، وقد قدمتا لنا أكياساً صغيرة صنعتاهما بنفسهما، وفاقت كلفة هذه الزيارة اليهودية كلفة الغداء التركي.

لا زال العديد من اليونان يعيشون على الجزيرة، لكن لا يحق لهم البقاء في مدينة رودوس (Rhodus). في اليوم التالي، رافق السيد دي هافن والسيد كرامر بعض اليونانيين الذين أرادوا زيارة المطران المقيم في قرية قرب المدينة، وما إن وصلوا، حتى لحق بهم بعض الموسيقيين الأتراك، لكن المطران لم يكن يهتم بموسيقاهم، فرفضوا المغادرة من دون أن يكسبوا بعض المال. وقام خلاف بينهم، وقبل أن يغادروا، استبدل أحد الموسيقيين حذاء السيد دي هافن الجديد بحذائه القديم. ولو عدنا إلى أوروبا مباشرة بعد ذلك، لما شكرنا بهذه العادة ـ عند الشرقيين ـ التي تقضي بنزع الحذاء قبل دخول المنزل. لكن أمراً مماثلاً لم يحصل لأي من رفاقنا فيما بعد، فلم نعد ننظر إلى هذه الحادثة كأمر كبير.

وأراد قبطان سفينتنا الإبحار في ٢٢ أيلول/سبتمبر صباحاً، مما منعني من تحديد ارتفاع بعض النجوم ليلاً، أما على متن السفينة فيقتصر أفقنا على الهاجرة، لأن جزيرة رودوس تقع إلى الجنوب واليابسة قريبة منا نحو الشمال. لكن بما أننا لم نبحر إلا قرابة الظهر، استخدمت الثمنية لتحديد ارتفاع الشمس في أوقات مختلفة، كما سجلت الوقت بين ارتفاع وآخر استناداً إلى ساعتي التي تعمل بالثواني، وتبين لي أن سفينتنا قرب رودوس كانت على خط عرض ٣٦°، ٢٦َ.

ولم نبتعد طوال الرحلة عن شواطيء القارة أو الجزر منذ القسطنطينية وحتى رودوس، لذا لم أجد داعياً لتسجيل ملاحظات حول الطريق الذي اتخذته السفينة. وعندما لم أعد أرى اليابسة بين هذه الجزيرة ومصر، ظننت أن قائد السفينة سيستخدم الثمنية، لكن تبين لي أن الأتراك لا يستخدمون هذه الوسائل. ولقد كان المركب مزوداً بخرائط بحرية جيدة، ورمال، ومسراع، وبوصلة عادية فضلاً عن بركار سمتي، لكنهم لم يستخدموا المعدات التي أخذوها عن قبطان أوروبي منذ سنوات.

ولعل قبطان سفينتنا سرق هذه المعدات كلها، لأن الأتراك متهمون بأنهم يدعون كونهم جزائريين أو تونسيين أو طرابلسيين فيستولون على سفن الأمم الأوروبية العاقدة معاهدات سلام مع الأتراك، وحين لا يتجرؤون على سرقة السفينة بأكملها، يعملون على سلب الخرائط، والبوصلات وبعض المؤن، وقد تحدّثت في الإسكندرية إلى قبطان تعرّض لعملية سطو كهذه. وكان قبطان سفينتنا يخشى أن يقع في المصيدة نفسها على هذه الطريق، لأن الشائعات تسري أن مالطيين أو بالأحرى قراصنة، يحملون جوازات مرور ويرفعون علم بعض الأمراء الإيطاليين، يجولون شواطيء مصر وسوريا. ولقد كان مركبنا مثقلاً بالحمولة، ولم تكن المدافع الموجودة على متنه لتنفعنا لأنها مربوطة جزئياً بحبال، وسلك القبطان الطريق مباشرة من رودوس نحو الإسكندرية، وكان الهواء مواتياً، وإلا لما وصلنا إلى المرفأ دون التعرض

لمخاطر عدة، لأن شواطىء مصر منخفضة للغاية مما يجعلها خطرة جداً بالنسبة إلى المراكب القادمة. واعتدت قياس ارتفاع الشمس كل يوم عند الظهر، وكنت أدلّ القبطان على مكان وجودنا على الخارطة وأحدد له كم نبعد عن الإسكندرية، مما أسعده، فطلب من أمين سره أن يراقب هو أيضاً الشمس ليحدد المسافة التي تفصلنا عن المدينة، لكن حين رأى هذا الأخير أن هذه الدراسة تتطلب جهداً كبيراً والكثير من الحسابات لتحديد ارتفاع القطب فضّل الاكتفاء بالوسائل القديمة.

يتكلم كل من القبطان وأمين سره والبحارة القليل من الإيطالية، وقد زار أمين سرّه البندقية ومرافىء أخرى في إيطاليا حتى أنه وصل إلى فيينا. وروى له الكاثوليك أخباراً عن غيرهم من المسيحيين أغرب مما يرويه السنّة عن غيرهم من المسلمين. وسألته يوماً، إن كان هناك وثنيون في البلاد الواقعة تحت حكم السلطان فأجابني بوجود الكثيرين منهم في ألمانيا وهنغاريا، ويطلق عليهم هناك اسم اللوثريين، وليس لديهم أدنى فكرة عن الله وأنبيائه، الخ. وأظهر، خلال النقاشات حول الدين، أنه مسلم حقيقي، وحاول أحد العلماء في بعثتنا إقناعه بحقيقة الدين المسيحي، فغادر قائلاً إن من يؤمن بغير الله هو ثور وحمار. وهكذا أعلمنا الرجل بضرورة ترك كل شخص لإيمانه، ولاعتقاده بأن ديانته هي الأفضل طالما لا يشك هو بالأمر، لكن حين راجعت لاحقاً بعض المسلمين حول مبادىء دينهم، أطلعتهم بعض الشيء على الديانة المسيحية، من دون أن أشير إلى أنها أفضل من مبادىء القرآن، ولم يغضب بالتالي أحد منهم.

وكان أمين السر يقوم بمهام الإمام على متن السفينة، فبعد أن يتحضر المسلمون للصلاة، أي بعد الاغتسال وفقاً لأصول معينة، يبسط الإمام أمام الآخرين سجادته على أن يستقبل مكة. يصطف الآخرون جنباً إلى جنب، وراء الإمام، كي يتمكنوا من رؤية حركاته، ويوجهوا وجوههم شطر مكة. وعند بدء الصلاة، يضع الإمام إبهاميه وراء أذنيه، للإشارة إلى أنه يتعالى عن الأمور الدنيوية ويحصر فكره بالله وحده، ويقلّده كل من يصلي وراءه. كما يقلدونه حين يركع ويسجد، ويرددون وراءه كلمة الله أكبر حين يقولها. وباختصار، يقلّد المسلمون في أثناء الصلاة من يؤمّهم، وبما أنني، لم أكن أعرف هذه الأئمة عن كثب، خشيت أن أثير استياءهم إن حضرت صلاتهم. لكنهم لا يخجلون من تواضعهم أثناء الصلاة ولا من الشعائر التي يتبعونها عند ذكر الله، ولهذا السبب، لا ينشغلون عن صلاتهم بوجود أجانب يتبعون ديانة مختلفة عن ديانتهم. وكنت مرة في منزل حاكم السويس، وعند وصول الإمام، وفيما أخذ الحضور في التحضر للصلاة، أردت المغادرة، لكن الحاكم نفسه أشار بإمكانية البقاء. ويبقى الشعب هو الوحيد الذي لا يحتمل وجود مسيحي في المسجد ولا سيما في أوقات الصلاة. ونرى الكثير من المسلمين الذين يصلّون في منازلهم، فلا يتوجهون دائماً إلى المساجد أو إلى أماكن التجمع حيث يكون الإمام، إنما يصلّون في مكان تواجدهم ساعة الصلاة وإن كانوا في الشارع. وهكذا يصلي كل منهم على متن السفينة حين يتسنى له ذلك أثناء النهار. وكانت صلاة المساء تتم جماعة، بعد مغيب الشمس مباشرة، ويختمونها قائلين: «اللهم اجعل رحلتنا سعيدة!».

حجزنا لأنفسنا حجرة القبطان، مع حجرة أخرى طويلة وضيقة تجتاز السفينة، مما يسمح لنا بالابتعاد كلياً عن الأتراك حين نملّ رفقتهم. وتقع فوق حجرتنا، حجرة أخرى مخصصة للنساء من القيان المميزات أي اللواتي يربين كنساء كريمات النسب في تركيا. كان لقائد السفينة والبحارة حجراتهم تحت حجرة القبطان التي نقيم فيها وأمام تلك التي تقيم فيها النساء. ويبقى التجار والركاب الآخرون أياماً بأكملها، على سطح المركب. وتجلس القيان في زاوية تحت سطح السفينة، أما الرجال فيحاولون إيجاد أماكن لهم من دون إزعاج الآخرين، وتتم معاملتهن بشكل جيد، لأنهن أعددن للبيع في مصر، لذا يحاول صاحبهن الوصول بهن إلى مصر معافين. كنت والسيد فورسكال نجلس غالباً بين متاعنا للقراءة أو للكتابة، وفي يوم ما، سمعنا فوقنا صوت بعض النساء، ولم نتمالك أنفسنا من النظر عبر النافذة لاكتشاف المزيد، وبما أن القيان لم يعتدن هذه الحشرية، وحين اكتشفن أننا أجانب (لأننا لم نعتد اعتمار العمامة في غرفتنا كما يفعل الشرقيون) أخذن بالصراخ، وبإطلاق الشتائم. لكن ذلك لم يخفنا، حين رأينا إحداهن تحاول تهدئة الأخريات، واعتدن تدريجياً على رؤيتنا. وعرضنا عليهن أنواعاً عديدة من الفواكه والسكاكر المصنّعة في أوروبا، فكنّ ينزلن محارمهن من النافذة كي نضع فيها ما استطعن، وقدمّن لنا بدورهن بعض الهدايا البسيطة. ولم نكن نتكلم التركية ولم يكنّ يتكلمن أية لغة أوروبية فاكتفينا بالإشارات، ورددت لي أجملهن بعض الكلمات، فسألنا أمين سرّ السفينة عن معنى بعض الكلمات التركية، لنفهم ما قالته، فعلمنا أنها أشارت إلينا بضرورة توخي الحذر وبعدم الظهور إلا في أوقات الصلاة، وحتى في وقت كهذا قد نتعرض لمفاجأة. أخيراً، اعتدن إعلامنا عندما يكنّ وحيدات بالضرب على نوافذهن، وهكذا تسليت والسيد فورسكال مراراً، لكن لا أنصح أحداً بأن يحاول التعرف على القيان التركيات وإن كان بهدف التسلية مثل ما فعلناه. ولم يكن من السهل أن يرانا ركاب السفينة وطاقمها لأن نوافذها من جهة الكوثل، ولو اكتشف أمرنا، لأوقعتنا حشريتنا في مأزق.

في ٢٥ أيلول/سبتمبر ظهراً، وبعد أن قست ارتفاع القطب، علمت أننا لا زلنا بعيدين عن الشواطىء المصرية، لكن قائد السفينة اعتقد أننا اقتربنا، فأمر بإنزال الأشرعة في الليلة التالية. ولم نرَ اليابسة إلا في السادس والعشرين ظهراً، وكنا إلى الشرق فيما الرياح تتحول نحو الغرب فلم نصل ميناء الإسكندرية إلا في المساء وبعد جهد جهيد. وللمدينة مرفآن، أحدهما يسمى القديم وهو الأكبر والأعمق والآمن، فرسونا فيه، فيما تضطر السفن الأوروبية إلى الرسو في المرفأ الشرقي السيىء. ولم نغادر السفينة إلاّ في اليوم التالي، بينما نزل معظم الركاب الآخرين فور رسونا، أمّا النساء العبيد، فتمّ نقلهن ليلاً وبسريّة تامة. وتوفي ستة إلى ثمانية أشخاص من ركاب السفينة أثناء هذه الرحلة القصيرة ومن بينهم ملاّح اعتاد التردد علينا في الأيام الأولى، ويعتقد أن الطاعون قضى عليهم، لكن لعل أسباباً أخرى عجّلت بموتهم. ولم تصب بعثتنا، بفضل الرب، بأي مرض معدٍ بالرغم من أن طبيبنا عاد العديد من المرضى.

ملاحظات من الإسكندرية

تقع مدينة الإسكندرية أو سكندرية كما يسميها العرب والأتراك على لسان أرض، بين شبه الجزيرة وأسوار المدينة القديمة وبين المرفأين، على خط العرض ٣١°، ٢١ً . أما الأرض التي بنيت عليها المدينة فمنخفضة حتى ليقال إن القسم الأكبر منها غمرته المياه فيما مضى، وتضفي المساجد، وأبراج المعابد، وبعض الصروح الكبيرة، وبقايا أسوار المدينة القديمة، وعمود بومبي (Pompée)، ومسلّة كليوباترا، وأشجار النخيل حلّة جميلة على المدينة، كما يراها القادم من أوروبا. ولقد أشرت سابقاً إلى أن المرفأ القديم واسع وعميق وآمن، على عكس المرفأ الجديد حيث ترسو السفن القادمة من أوروبا، فهو غير سالك تقريباً، ويزداد سوءاً يوماً بعد يوم. أما قاعه فمليء بالحجارة، حتى أن البحارة يضطرون إلى ربط العارضات والعوامات بالمرساة لإبقائها ممدودة ولمنع احتكاكها بالحجارة. ونجد في المحيط بقايا أسوار قديمة، وأعمدة مكسورة وحجارة ضخمة، لكن هذه الأمكنة الرائعة وغيرها التي ذكرها الكتّاب القدامى، تغيرت للغاية فلم أتمكن من التعرّف إلاّ على القليل القليل من الأشياء استناداً إلى وصف هؤلاء الكتّاب، مما يجبرني على ردّ الذين يتوقعون الحصول على تفاصيل حول هذا الموضوع إلى كتب أخرى ولا سيما كتاب بوكوك (Pocok) الذي درس الآثار بحرص وانتباه.

وتقع أمام الإسكندرية الحديثة ومرفأيها شبه جزيرة كبيرة، يطلق حالياً على الجزء الغربي منها والواقع أمام المرفأ القديم اسم رأس التين. ولم أقع فيها على أثر يستحق الذكر سوى قلعة صغيرة، هي مسكن متداع، وملاّحة والكثير من أشجار التين، ومنها نال هذا الجزء من الجزيرة اسمه. ونجد في الطرف الشرقي لشبه الجزيرة حصناً يرابط فيه ٥٠٠ انكشاري، ويقع هذا الحصن على صخرة صغيرة، ويشغل على الأرجح حالياً مكان القناة القديمة الشهيرة. ويمتد سدٌ يبلغ طوله حوالي مئة قدم من هذا الحصن حتى مدينة الإسكندرية الجديدة، وبما أن الأمواج ترتطم بهذا السد بعنف عند هبوب الرياح الشمالية، تمّ بناء جسور كي تصب المياه في المرفأ. ونجد قبالة هذا الحصن، وعند مدخل المرفأ حصناً آخر صغيراً قائماً على صخرة، ويمكن العبور إلى اليابسة من فوق سور يبلغ طوله ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ قدم، وتمّ فتح ثغرات فيه كي تنسكب المياه فلا تهدمه.

ولقد بحثنا عبثاً عن دلائل على مساحة مدينة الإسكندرية كما كانت حين أسست. لأن الأسوار الحالية للمدينة القديمة بناها العرب، ويتجلى ذلك في الكتابات العربية المنقوشة عليها، وفي هندستها، وفي أبراجها المزوّدة بأعمدة رخامية. إن مساحة حرم الأسوار القديمة، كما هي عليه اليوم، أصغر من المساحة

التي نسبها المؤرخون للإسكندرية الكبرى، لكن هذه الأسوار التي بناها العرب عظيمة وعالية وطويلة. ووجدت أن ارتفاعها يبلغ ٤٣ قدماً، إلى ٥٠ قدماً، بما في ذلك الحاجز أي قرب باب الرشيد، لكن هذه الأسوار مهدمة في مواقع عدة، وتتم الحراسة في بعض الأبراج كما أشار نوردن وبوكوك وغيرهما(*).

ولم تهجر الإسكندرية فجأة، إنما تراجعت تدريجياً، مع تراجع عدد السكان وافتقارهم. ولم يتركوا من القصور القديمة الرائعة إلاّ ما لم يكن بالإمكان نقله أو استخدامه في أبنية جديدة، كما تمّ نبش أساسات الأسوار، لذا نرى الكثير من الآثار القديمة، وبما أن الإسكندرية الجديدة تفتقر للمياه العذبة باستثناء تلك التي تجمع من النيل والأمطار، يضطر السكان إلى الاهتمام بعدد كبير من الخزانات تكفي مياهها لحاجتهم السنوية، ولهذا السبب، يعملون على منع انسداد القنوات التي تحمل مياه النيل إلى الخزانات. وبالرغم من أن القناة الممتدة من النيل والتي تجري قرب أسوار المدينة غير قابلة للملاحة منذ سنوات، يقومون بتنظيفها سنوياً وفتحها، بعد أن يرتفع منسوب النيل إلى حدّ معين. وتمّ جرّ المياه من الجهة الشرقية للمدينة عبر قناة صغيرة تحت الأرض لتصب في الخزانات وحين تمتلىء هذه الخزانات، تجرّ المياه الزائدة في قناة صغيرة عبر أسوار المدينة القديمة لتصبّ في المرفأ القديم.

أما أفضل أثر من الآثار القديمة الموجودة داخل حرم المدينة والذي لم يتمكن المسلمون من نقله هو مسلّة كليوباترا، وهي من الغرانيت الصلب الأحمر اللون، مكونة من قطعة واحدة ككل المسلات التي اكتشفت قرب قصور ومعابد المصريين القدامى. وقد غاص قسم من المسلّة في الأرض، لكن بقي منه ٦١ قدماً، و١١ بوصة من حيث الارتفاع، و٧ أقدام و٣ بوصات من حيث العرض(**). ويبلغ عمق بعض الكتابات الفرعونية المنقوشة على المسلّة بوصة واحدة، ويبدو من ذلك، أن المصريين القدامى سعوا لتخليد كتاباتهم، لكن خلفاءهم لم يتمكنوا من قراءتها، وقد رسم السيد نوردن هذه المسلّة بشكل جيد. ونجد مسلّة أخرى قرب الأولى، ويبلغ عرض كل جهة منها ٦ أقدام و٣ بوصات، وهي غير منتصبة بل مكسورة ومغطاة جزئياً بالتراب.

ولم يبقَ من معابد الإسكندرية القديمة الرائعة ما يستحق الاهتمام سوى كنيسة سان الباناز (St. Albanase)، وهي كنيسة واسعة للغاية، ويدّعي البعض أنها مزينة بعدد كبير من الأعمدة الجميلة، وأنها تضمّ مجموعة غنية من الكتب اليونانية. لكن تمّ تحويل هذه الكنيسة الجميلة، منذ زمن، إلى مسجد، لذا يمنع دخولها على المسيحيين. ونلاحظ قرب الكنيسة على بعض الأعمدة الغرانيت الحمراء، وبقايا قصر واسع.

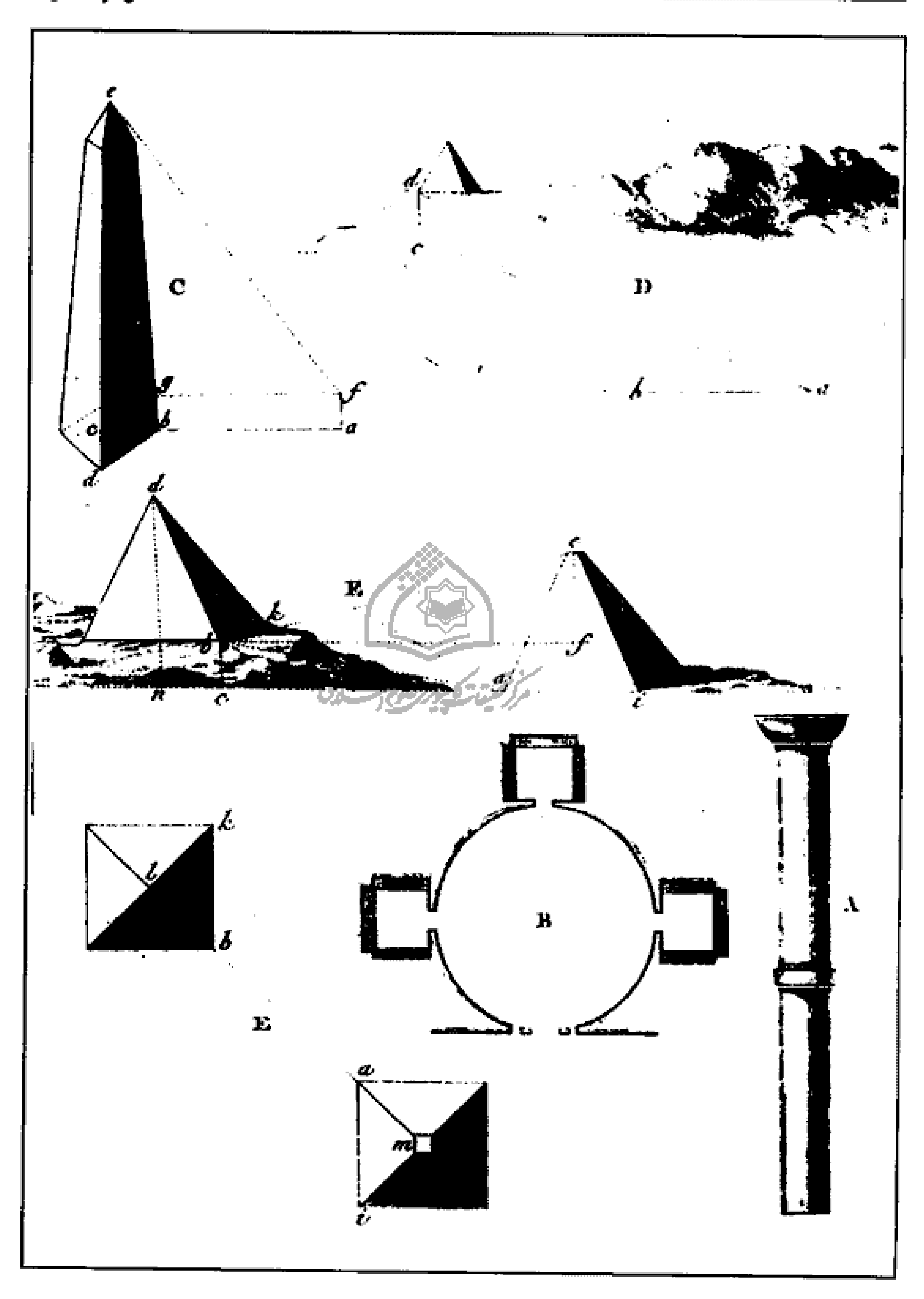
(*) لا بدّ أن هذه الأسوار كانت في حالة أفضل منذ ٣٠٠ عام، لأن رفاق السيد بريدنباش الذين صعدوا على السور الخارجي لرؤية الخنادق والأبراج والمواقع المحصنة، أكدوا أنهم لم يروا يوماً مدينة أكثر تحصيناً من الإسكندرية. وكان داخل المدينة فارغاً بمعظمه أو تكثر فيه المنازل المتداعية.

(**) لا يمكنني التأكيد، إذا ما كان عرض كل جهة من المسلة ٦ أقدام و٣ بوصات، وإذا ما كان عرض ذاك الجزء الواقع في الأرض قرب الأول ٧ أقدام و٣ بوصات من كل جهة. وبالتالي، يبلغ ارتفاع المسلة المنتصبة ٦٠ قدماً.

ولا تتميز كنيسة القديسة كاثرين التابعة للروم، بكبرها أو بروعة هندستها، إنما بحجر الرخام الأبيض المرقّط بالأحمر الذي بنيت منه، ويدّعي الرهبان الروم أن رأس القديسة كاثرين قطع على هذا الحجر، وهنا تكمن أهميته، وما النقاط الحمر إلاّ دليل على ذلك. وتقع كنيسة القديس مرقس الإنجيلي، التابعة للأقباط على مقربة من الأولى، ويُعرض فيه قبر هذا القديس الذي لم يعد يفتحه الأقباط، لأنهم يقولون إن رجالاً من البندقية استولوا على رأس الإنجيلي، فيما يؤكد الروم الكاثوليك أنهم تمكنوا من تخليص الجثة بأكملها من سجن الملحدين وأن الأقباط يسيئون إليهم حين يدّعون أن رجال الدين من الروم لم يأخذوا إلاّ رأس القديس، ويتذكرون التدابير الحذرة التي اتخذها إخوانهم للنجاح في هذه المهمة. يُقال إنهم قطّعوا الجثة ولفوها، وأوهموا الجميع أنها لحم خنزير كي لا يكتشف المسلمون واليهود عند الجمارك هذا الكنز العظيم فيستردّوه من جديد. ويصعب إرسال الجثث من الإسكندرية إلى البلاد المسيحية، وقد منع الأتراك نقل المومياء لأنهم يعتبرون ذلك حشرية لا طائل تحتها هي التي تدفع الأوروبيين إلى نقل هذه الجثث القديمة من مكان دفنها، لكن، بما أن اليهود يسيطرون حالياً على الجمارك في الإسكندرية أصبح نقل الجثث إلى خارج مصر أسهل من إرسالها إلى أوروبا على متن المراكب الإيطالية. وقد وصلت صناديق عدة، تحمل مومياءات إلى متن المركب بأمان، لكن البحارة أرادوا مغادرة المراكب إن لم يعد القبطان جثث الكفرة هؤلاء، لذا اضطر السيد ماريون المكلّف بإيصال المومياء إلى أوروبا إعادتها، كما اضطر القبطان الإيطالي الآخر الذي نقلها إلى إخفاء أمرها وحقيقتها عن بحارته. ويُعرض في كنيسة القديس مرقس كرسي، يقال إنه صنع تماماً كالكرسي الذي جلس عليه الإنجيلي وهو يعظ ويبشر، وتجدر الإشارة إلى أن بعض البروتستانت دُفنوا في هذه الكنيسة. ونجد ضمن حرم أسوار الإسكندرية التي بناها العرب ديراً لرهبان الفرنسيسكان وبعض منازل العرب المتداعية فضلاً عما ذكرته عن المسجد الكبير والكنيستين، أما باقي المدينة فموحش.

كان عمود بومبي جزءاً لا يتجزأ من المدينة في زمن اليونان، لكنه حالياً خارج الأسوار وعلى بعد ربع ساعة من مدينة الإسكندرية التي بناها العرب، وقد أحسن نوردن رسم هذا العمود. وبما أن الجميع غير متفق حول ارتفاع هذا الصرح، عمدت إلى قياسه بنفسي ووجدت أن طوله (من دون الأساسات) يبلغ ٨٨ قدماً و١٠ بوصات(*). إذاً، واستناداً إلى رأيي الخاص، لا يبلغ هذا العمود الارتفاع الذي يدعيه المسافرون الآخرون، لكن هذا لا يمنع اعتباره قطعة رائعة من العصور القديمة لأنه مصنوع كلياً من

(*) تبلغ المسافة من وسط الآلة حتى الأساسات ٧٤ قدماً، ٧ بوصات وحوالي قدمين، و٥ بوصات انطلاقاً من الأساسات وحتى أسفل تاج العمود الذي أردت قياس ارتفاعه، أي إن مسافة القاعدة تبلغ ٧٧ قدماً. وكانت الزاوية من طرف القاعدة حتى تاج العمود ٤٨ °، ٥٠ ´ . وبالتالي يبقى العمود أطول من الآلة بثمانية وثمانين قدماً. وكان أفق الآلة عند قاعدة العمود من صفر إلى ١٠ بوصات، أي إن ارتفاع العمود ٨٨ قدماً، ١٠ بوصات. أما الأساسات من الجهة الجنوبية فبلغت ٤ أقدام، بوصتين، وفي جهة الشمال ٤ أقدام، ٩ بوصات.


C
D
E
F
B
A

الغرانيت الأحمر، وقسم هذا العمود إلى ثلاثة أقسام، كل منها ضخم للغاية؛ لم أستطع تمييز إلا القليل من الكتابات المحفورة على الجهة الجنوبية الغربية من العمود، ولقد حاول السيد دي هافن جاهداً، اكتشاف المزيد، لكنه لم يتمكن من معرفة القدر الذي يدّعي الآخرون اكتشافه قبلنا. ويبدو أن المهندس المعماري اليوناني لم يشأ تخليد اسمه بهذه الكتابات أو أنه لم يكن يعرف طبيعة الحجر كما عرفها المصريون القدامى، لأن اليونان لو حفروا هذه الكتابات على العمق نفسه الذي حفر فيه المصريون الحروف الهيروغليفية على المسلاّت لأمكن قراءتها. ونلاحظ أن قدماء المصريين اعتادوا الكتابة على جهات المسلاّت الأربع، أما اليونان فقد كتبوا على الجهة الوحيدة من العمود التي عانت الأكثر من عوامل الزمن. وكانت أساسات العمود قد تعرّضت للكثير من الأضرار، عند وصول نوردن، وقد عمل تشربتشي على إصلاحها، لكن لا يمكننا أن نستنتج أن العمود الكبير قائم على عمود آخر أصغر حجماً كما يؤكد بعض المسافرين. وهذا دليل على أن المسلمين لا يعملون جميعاً على إلحاق الضرر بالأثريات، وتجدر الإشارة إلى أن العديد منهم يحاول الاستفادة من هذه الآثار، ولا يختلفون في ذلك عن الأوروبيين. ولنفترض أن رجلاً فقيراً وجد في حديقة منزله عموداً أثرياً جميلاً، إذن لآثر جعله رحى يستفيد منه. وتوازي زوايا مسلّة كليوباترا الأربع أركان العالم الأربعة، لكن زوايا قاعدة عمود بومبي تنحرف حوالي ١٢ درجة، إذاً، يحتمل أنهم اعتمدوا على موقع الصروح المحيطة ببناء هذا العمود وليس على موقع الهاجرة كما حصل عند بناء الأهرام.

ولقد لاحظت خلال إقامتنا في الإسكندرية، أن العرب يتسكعون حول المدينة وبين الآثار، ولم أشأ التعرض للسلب عند وضع خارطة للمدينة، ولا سيما وأننا نملك واحدة ممتازة وهي تلك التي وصفها السيد نوردن. وبما أنني أستطيع رؤية جزء كبير من أسوار المدينة القديمة من على المرتفع الذي يقوم عليه عمود بومبي، قمت بقياس بعض الزوايا من هذا المكان، على أمل أن أسجل قياسات أخرى من أماكن مختلفة. ودفعت الحشرية أحد التجار الأتراك الحاضرين للنظر عبر المنظار الذي وجهته نحو المدينة، فتخوّف من رؤية برج مقلوب، وشاعت الأخبار أني جئت المدينة لأقلبها رأساً على عقب، ووصلت الشائعة إلى أذني الحاكم. ورفض الانكشاري المخصص لحراستي مرافقتي وأنا أحمل معي معداتي، وبما أني كنت أعتقد أنه لا يسمح لأوروبي الخروج في المدينة دون أن يرافقه انكشاري، لم أكمل عملياتي الحسابية. وفي وقت لاحق، رأى عربي في رشيد مركباً مقلوباً عبر منظاري فكاد يرميه في الأرض، مما دفعني إلى توخي الحذر في أعماقي، واضطررت إلى ذلك طالما لم أتمكن من التحدث معهم لجهلي لغتهم. وحضر فلاح شريف ورزين الدراسات الفلكية التي قمت بها على الطرف الجنوبي للدلتا، ولكي يرى أمراً مثيراً، أدرت المنظار ناحية القرية، فهلع عند رؤيته المنازل المقلوبة، وسأل خادمي عن السبب فأجابه أن الحكومة مستاءة من سكّان القرية فأرسلتني لأدمرها، فأصيب الرجل بالجزع وطلب مني الانتظار كي يضع زوجته وأولاده وبقرته في مكان آمن، وأكّد له خادمي أن أمامه ساعتين فأسرع عائداً

إلى منزله، وأقلتُ عائداً إلى الباخرة ما إن اجتازت الشمس الهاجرة. ولا ينبغي أن يفاجأ المرء من ردة فعل المسلمين إزاء أمور كهذه، إذا ما فكّر في أن الأوروبيين، منذ وقت غير بعيد، كانوا يعتبرون أي شيء لا يفهمونه سحراً.

كان يتمّ دفن الموتى فيما مضى غرب الإسكندرية، ونجد حالياً الكثير من المدافن هناك. أما نوعية التربة فكنوعية التربة في مالطا، كلسية ولزجة مغطاة بطبقة خفيفة من التراب والرمل، لذا يتبين لنا عند التجوال على ظهر جواد أن الأرض مفرّغة في بعض الأمكنة. وعلى مقربة من عمود بومبي، وقرب مصلى صغير، دخلت سراديب للأموات، شبيهة بتلك التي وصفها بوكوك في هذا المكان، أصغر من التي شاهدتها. وتتألف السراديب من غرفتين محفورتين في الصخر، إحداها خلف الأخرى، وللأولى ١٢ فجوة من كل جهة على مستويين، ويبلغ ارتفاع كل فجوة قدمين ونصف، أما عرضها فقدمان وعمقها حوالي ستة أقدام، وقد صممت كلها كمدافن، لـ ٤٨ شخصاً. أما في الغرفة الثانية فلم أجد سوى ٦ فجوات، ورأيت في عمق الغرفة قبالة المدخل، فجوة صغيرة في الحائط، يصل ارتفاعها إلى ٤ أقدام وعرضها إلى قدمين ونصف. وعلى بعد فرسخ من الإسكندرية، نحو الغرب، زرنا سراديب أوسع وأبهى، وكان المدخل شبه مسدود بالردميات، وحتى في داخل السراديب اضطررنا أحياناً إلى الزحف لتجنبها. ولقد رأينا في أعلى الممر الأول، بعض الكوى التي يمكن أن تكون قد استعملت لوضع الشموع أو القناديل منحوتة في الصخر، ثم انتقلنا إلى غرفة مربعة، لها من كل جهة باب، وبعض الزينة الهندسية البسيطة. أما الباب الشمالي فيختلف عن الأبواب الأخرى لوجود بابين صغيرين بجانبه، لكن بما أن الركائز التي تفصلها عن الأول قد دمّرها الزمن، لم يعد يشكل معه سوى مدخل وحيد. وبدت الغرفة من هذه الجهة مستديرة ومقببة، ويبلغ قطرها ٢٠ قدماً. وشاهدنا ثلاث غرف صغيرة إلى جانب الغرفة الكبرى، وهي تشبه المقابر السورية القديمة ومقابر الملوك قرب القدس، لأن هناك فجوات في الجوانب، يتم وضع الموتى فيها، وقد رسمتها على اللوحة الخامسة، الحرف ب. ثم انتقلنا من الغرفة، التي ذكرتها، عبر باب آخر وممرات عدة يصعب سلوكها حالياً، إلى ساحة واسعة للغاية، لكنها استحالت واطئة بسبب كميات الغبار والرمال التي ملأتها والتي دخلتها من فتحات غير معروفة، ولعلهم اعتادوا تخزين القمح في هذا المكان. وبما أن هذه الساحة كبيرة جداً، سنّدت بصفوف من الركائز التي يبلغ حجمها ٣ أقدام مربعة، صنعت من الصخر دون أية زخرفات. ونجد هنا أيضاً العديد من الممرات والأقبية التي حفرت في الصخر، لكنها أضحت ملجأ للحيوانات المفترسة فقررت عدم المخاطرة. وينبغي التزود بضوء لزيارة هذه السراديب، كما يتم إطلاق النار قبل دخولها لطرد الحيوانات المفترسة التي قد تتواجد فيها. ونجد غرب هذه السراديب مرفأ صغيراً أو خليجاً، ويبدو وكأن قصراً قد شيّد على أحد شواطىء الخليج فيما مضى، لأننا نعثر على الكثير من قطع الرخام التي استخدمت على الأرجح لرصف الأرض أو تزيين الجدران. ونشاهد هنا أيضاً غرفتين حفرتا في الصخر وكأنهما خزانان للمياه، لأن النزول إليهما، يتمّ عمودياً عبر فتحة صغيرة، تعلو

درجات تمتد على جهتي الصخرة التي حفرت فيها بعض الأماكن للجلوس بعيداً عن الشمس والقيظ مع التمتع بمنظر البحر. كما تطالعنا أدراج طويلة أخرى حفرت في الصخرة نفسها، ولعل أهم الآثار حمامات بومبي (Pompée)، وهي مؤلفة من ثلاث غرف متحاذية ومحفورة في الصخر، ولكل غرفة باب من جهة المرفأ تدخل منه مياه البحر، أما الغرفة الأخيرة ففي آخرها فتحة صغيرة في الصخر تسمح للمياه بأن تسيل، وتركت مقاعد حفرت في الصخر. ولم أنتبه إلى نسبة ارتفاع أو انخفاض المياه في هذه الأماكن، لكني أعتقد أنها تصل إلى مستوى المقاعد، ونستنتج من ذلك، أن منسوب المياه لا ينخفض كثيراً قرب الإسكندرية.

ولا يتعامل الأجانب مع سكان الإسكندرية، لكن السفن التجارية القادمة من أوروبا وأفريقيا إلى مصر ترسو أمام هذه المدينة فضلاً عن تلك التي تأتي لتحميل البضائع من مصر لتنقلها إلى أفريقيا وأوروبا، مما يجعل مردود الجمارك مهماً للغاية. ويقيم في الإسكندرية العديد من التجّار الأوروبيين، فضلاً عن قنصل فرنسا والبندقية وهولندا وراغوز، ويمثّل إنكلترا قنصل هولندا أيضاً، أما السيد ماريون فنائب قنصل الدانمارك والسويد وتوسكانه والبندقية. ويتكلم أهالي الإسكندرية ومصر عامة اللغة العربية، أما الأجانب الذين يجهلون هذه اللغة فيعتمدون اللغة الإيطالية، وقد صادفت في الإسكندرية وحدها مسلمين يتكلمون الفرنسية، والدانماركية والسويدية كما لو أنهم ولدوا في تلك البلاد. وهذا ما يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن أهالي الإسكندرية أكثر قابلية لتعلم اللغات الأجنبية من باقي المسلمين، لكن يبدو أن أمل الكسب والربح فضلاً عن عدم التعلّق بالدين يدفعانهم لتعلم هذه اللغات. ويستحيل أن يمارس مسلم شعائر دينه بين البحارة الأوروبيين، وبالرغم من ذلك نجد إسكندرانيين يعملون لسنوات تحت أمرة قبطان مسيحي، وحين يتعلمون اللغة يكسبون بالتالي الكثير من المال، وبسهولة.

يخضع حاكم الإسكندرية لوصاية القاهرة، وبالتالي لسلطان القسطنطينية. وتدفع القبائل العربية التي تجول في مصر مبالغ معينة للحاكم التركي، وهي مسالمة أحياناً، تتصرف كحليف للأتراك لكنها تعود وتتمرد فيضطر الحاكم إلى إرسال المئات بل الآلاف من العسكر لطردها إلى داخل البلاد. وخلال إقامتنا في الإسكندرية، اقترب هؤلاء الرحّل من المدينة وأخذوا يزعجون الفلاحين العرب. وفي ١١ تشرين الأول/أكتوبر، ضرب المئات منهم خيامهم على بعد نصف فرسخ من المدينة، وعند الصباح، أراد قبطانان من البندقية رؤية عمود بومبي، فأوقفوهما البدو وأمروهما بنزع ثيابهما وبتسليم كل ما يملكان، فقال لهم الانكشاري الذي يرافقهما، إنّ هذين الأوروبيين لم يسيئا لهم وإن كان هناك حساب بينهم وبين الحاكم فليصفوه، فتركوا القبطانين وشأنهما وحاولوا سلب الانكشاري الذي لم ينج منهم إلا بعد أن تمزقت ثيابه. وحين يأتي هؤلاء العرب المدينة للتسوق، يدخلونها الواحد تلو الآخر كي لا يلاحظهم السكّان، لكن في ذاك اليوم، دخلوا الإسكندرية بأعداد كبيرة، وجرت حادثة لم أر مثلها في رحلاتي كلها، وقد

تابعنا ما جرى من شرفة منزلنا أو من على سطحه: يقول البعض إن سكان الإسكندرية أخبث شعب في الأمبراطورية العثمانية، فحين رأوا أعداءهم، أرادوا الانتقام من الفوضى التي خلّفها هؤلاء خارج المدينة، فيما يعتقد البعض، أن ابن أحد الشيوخ، اشترى رصاصاً وبارودا، وأراد تجربة بندقيته في المدينة، فأطلق النار على المنزل المقابل للمتجر الذي اشترى منه. عندئذٍ، وجّه إليه صاحب المنزل كلاماً فظاً كما لو أنه من العامة، وردّ عليه الشيخ الشاب كما لو أنه يخاطب أحد أتباعه في الصحراء، فدبّ الخلاف بينهما أولاً. وهبّ عرب آخرون لمساندة الشيخ، وسارع سكان المدينة لمساعدة جارهم، فتجمعوا في ساحة كبيرة قرب منزلنا ومن الجهة التي ينبغي أن ينسحب العرب منها. وكان يمكن للفرسان بينهم أن ينسحبوا بسهولة، لكنهم رفضوا ترك رفاقهم الراجلين، فأخذوا يكرّون بأفراسهم على جماعات الأعداء فيشتتونها، لكن ما أن ينسحبوا حتى يرشقهم أهالي الإسكندرية بالحجارة إلى أن يصل بعضهم مسلحاً. وعندما تبيّن للعرب البدو أن أهالي الإسكندرية يفوقونهم عدداً، حاولوا ألاّ يقتلوا أحداً، لكن أعداءهم لم يعاملوهم بالمثل، فقتلوا فارساً رشقاً بالحجارة وآخر بالرصاص. وأخيراً، فرّ البدو بعد أن فقدوا خمسة عشر رجلاً وبعض الجياد، وأساء الإسكندريون معاملة السجناء، فتوفي اثنان منهم من كثرة الضرب. عندها، حاصر العرب المدينة، وسلبوا السكّان الكثير من المواشي، لكن السلام استتب بعد يومين وأعيدت الغنائم إلى الطرفين.



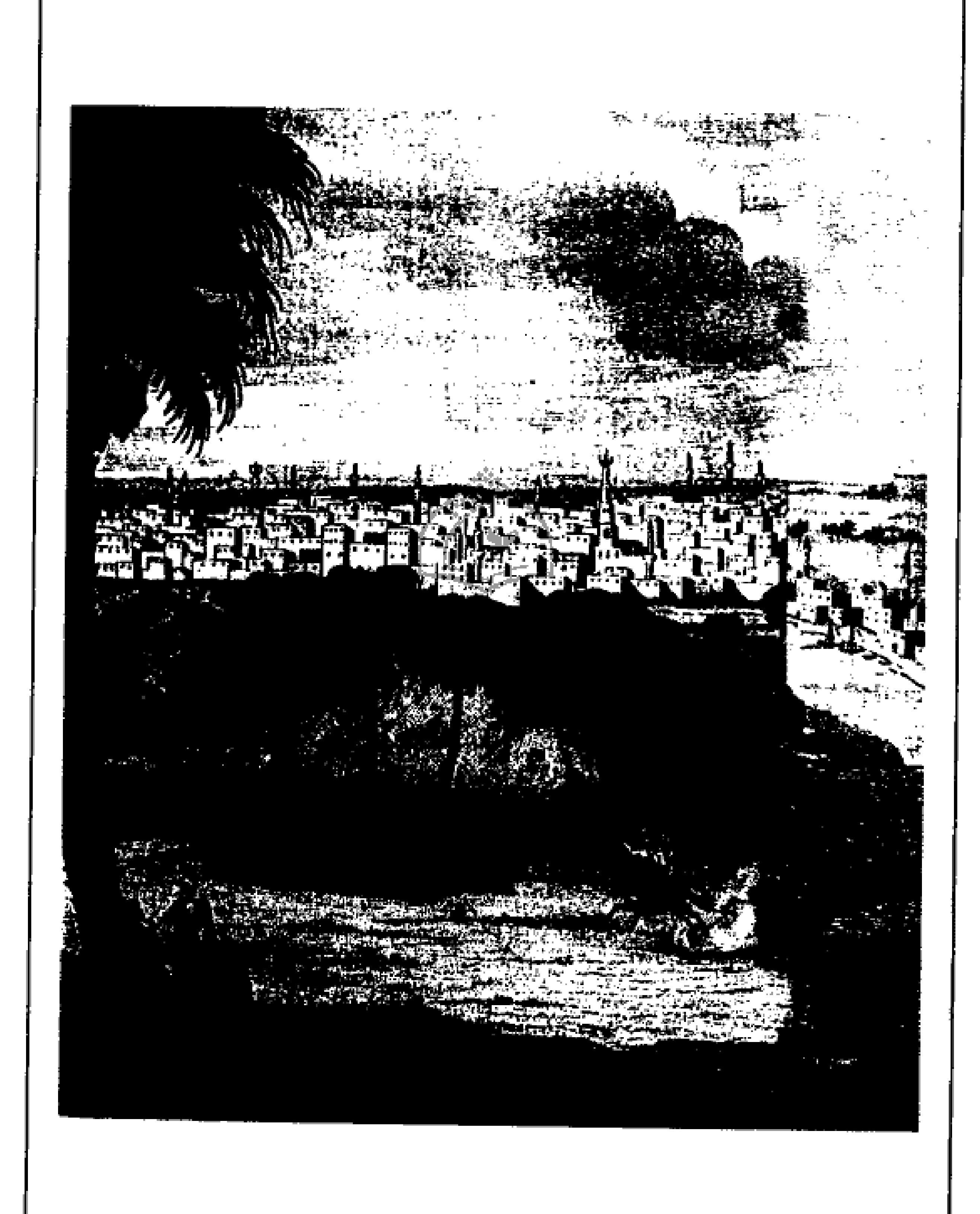
الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة

يسلك الأوروبيون، الذين نشروا أخبار رحلاتهم من الإسكندرية إلى القاهرة، الطريق نفسه، فيقصدون رشيد أولاً ثم ينتقلون إلى القاهرة، مبحرين نحو عالية النيل، وكنا نودّ السفر براً لرؤية المناطق المصرية التي لا تزال مجهولة. لكننا نعلم مما تقدّم أن العرب الرحّل يجعلون هذه الرحلة مستحيلة، إلاّ إذا كنا لا نكترث إن تعرّضنا للنهب. وهذا ما عانى منه لاحقاً أحد رفاقنا، وهو السيد فورسكال الذي أراد التوجه من القاهرة إلى الإسكندرية براً، فأجبر على إعطاء اللصوص الأعراب كل ما يملك. ولم يعيدوا إليه سوى ثيابه الداخلية.

استأجرنا مركباً صغيراً للتوجه من الإسكندرية إلى رشيد، وغادرنا المدينة في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر، لكن الرياح المعاكسة لم تسمح لنا بالتقدم كثيراً، فتوقفنا في أبوقير (Abukir) على بعد أربعة فراسخ من الإسكندرية. ويوجد هنا خليج، ترسو فيه السفن التي لا تستطيع الوصول إلى مرفأ الإسكندرية، فضلاً عن حصن صغير فيه بعض الجنود قرب القرية. ثم في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر، كانت الرياح ما تزال معاكسة، مما دفع رفاقي إلى الانضمام إلى بعض الأتراك الذين انتظروا الرياح المواتية طويلاً، ومتابعة الطريق عبر البرّ، فاستأجروا زورقاً صغيراً لعبور بحيرة تصب فيها مياه النيل وتصب هي في البحر المتوسط، ثم اجتازوا منطقة رملية على ظهور الجياد والحمير، ولم يجدوا فيها ما يلفت الانتباه سوى عشرة إلى اثني عشر عموداً حجرياً، تدل على الطريق حتى رشيد. وعلى الرغم من ذلك، لم يصلوا قبلي بكثير، فقد هبت رياح مواتية، ووصلت إلى المدينة في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر.

إن الطريق من الإسكندرية إلى رشيد خطيرة جداً في الشتاء، إذ يغرق العديد من السفن في مصب النيل. وبالرغم من أن منسوب المياه في النهر لم ينخفض كثيراً، فاعتذر قبطاننا قائلاً إن مجرى النهر يتغيّر غالباً في هذا المكان. ولا خوف على المصريين من هجوم سفن معادية عبر ساعد النهر هذا، ولذا أعتقد أنّ المصريين، تركوا الحصون المحيطة تتداعى. لكن، بقي حصن على الضفة الغربية للنيل بين المصب ورشيد، وهو حصن قديم وعال، إنما مهجور كلياً، ولا يلفت الأنظار فيه سوى بعض الكتابات العربية وبعض المدافع الحديدية القديمة، كما نجد حصناً صغيراً، غير جدير بالاهتمام، على الضفة الشرقية للنهر.

واشتهرت مدينة رشيد، أو روزويت كما يقول الأوروبيون، في تاريخ شبه الجزيرة العربية منذ القدم، لكن يبدو أنها ازدهرت بعد تراجع التجارة في مدينة فوه الواقعة على النيل نحو الشمال. وهي اليوم مخزن للبضائع التي تنقل من القاهرة إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى القاهرة، لأن السفن الآتية من



القاهرة تصل حتى رشيد فقط، وينطبق الأمر نفسه على تلك المنطقة من الإسكندرية. ورشيد مدينة كبيرة، تقع على الضفة الغربية للنيل، وعلى مرتفع يطل على النهر من جهة وعلى مصبه من الجهة الأخرى، وهي على خط عرض ٣١°، ٢٤َ . ونجد في جنوبها مرقباً قائماً على مرتفع، رسم من أعلاه السيد بورنفند منظراً للمدينة حفر على اللوحة السادسة. وعلى مقربة من هذا المكان، قرب قرية أبي مندور، يتعرّج النيل بشكل جلي، وفي هذا المكان، تمّ اكتشاف ٢٠ عموداً من الرخام فنقلت إلى القاهرة، وظنّ الأوروبيون المقيمون في رشيد أنهم وجدوا في هذا المكان مدينة كانوبوس (Canopus). وتقول الروايات المصرية إن ساعداً كبيراً للنيل يمتد من هذه المنطقة نحو الغرب، ويمرّ عبر بحيرات صغيرة أشرنا إليها في اللوحة العاشرة، ليصب أخيراً في البحر قرب أبوقير(*)، لكن هذا الممر مسدود كلياً بالرمال التي تحملها الرياح بسهولة والتي تكثر في هذه المنطقة.

ويقيم في رشيد قنصل فرنسا والبندقية وبعض التجّار الأوروبيون الذين يؤمّنون نقل بضائع أصدقائهم بين القاهرة والإسكندرية، وقد أقمنا في المدينة عند الآباء الفرنسيسكان. ويشيد الأوروبيون بتهذيب ولياقة سكّان هذه المدينة، لذا يمكن أن نقيم فيها لمدة أطول من تلك التي تمضيها في المدن المصرية الأخرى حيث لا يتمتع الأوروبيون بالاحترام اللازم. لكننا سارعنا بالوصول إلى القاهرة، ففي ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، غادرنا رشيد على متن مركب صغير ووصلنا في اليوم نفسه إلى منتود (Mentûdes)، وأجبرنا الهواء المعاكس على الإرساء هناك.

في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر مساءً، بلغنا بلدة ديروط، فحملت ساعتي ونزلت إلى اليابسة، لأن الجو صاف ولا يُخشى عليّ من سكان المنطقة، وبعد مراقبة ارتفاع نجمة في الهاجرة، وجدت أن ديروت تقع على خط العرض ٣١°، ١٣َ ، وحاولت مراراً القيام بدراسات فلكية، لكن محاولاتي باءت بالفشل، فاضطررت إلى الاكتفاء بملاحظة تعرجات النيل والوقت الذي لزمنا للانتقال من مكان إلى آخر، ولسوء الحظ التقيت بأصحاب مراكب رفضوا إعطائي أسماء القرى أو كانوا يجهلونها، إذ ينبغي اجتياز هذه المنطقة مراراً لحفظ كافة الأسماء. وسافرنا في بعض الأحيان ليلاً، فلم أستطع رؤية القرى كلها. وبما أن المسافة بين ديروط والقاهرة أكبر من أن يضع المرء خارطة جيدة لمجرى النيل من دون أن يسجل ارتفاعات القطب المختلفة، حددت خلال رحلات قصيرة قمت بها لاحقاً، عندما كنت في القاهرة، موقع وردان على خط عرض ٣٠°، ٣َ ، وسأوردها لاحقاً بشكل أوضح في الدراسات الفلكية.

(*) ولعل السيد بريتنباخ (Breitenbach) أبحر على هذا الساعد من رشيد إلى «أبو قير» عام ١٤٨٣، وهو الذي أمضى عليه الأمير رادزيفيل (Radzivil) مئة عام من القاهرة إلى الإسكندرية. ولعلهم مروا على هذا الساعد الذي يصب، بحسب رواية غرانجر (Granger)، في البحيرة الواقعة قرب «أبو قير». ولم ألاحظ ساعد النهر هذا، لأنني على الأرجح مررت قربه ليلاً أو إن بعض الجزر حجبته عني.

في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر، مررنا أمام مدينة فوه، وقد فقدت هذه المدينة مجدها وازدهارها السابقين. يقال إننا يمكن أن نرى حتى اليوم الجمارك، ومنزل قنصل البندقية الذي أقام في هذه المدينة. ونجد بالقرب منها قناة، تتحد مع أخرى أكبر من منها رشماني، وبعد ريّ الحقول المجاورة، وملء خزانات المياه في الإسكندرية، تصب في البحر قرب هذه الأقنية غالباً، وكوّنت هذه الأتربة تلالاً لا نجدها في أماكن أخرى في هذا البلد المسطح. وترسو السفن المتوجهة من رشيد ودمياط إلى القاهرة في مرفأ بولاق الذي وصلناه في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر مساءً.

إن الرحلة ممتعة للغاية في هذا الفصل حيث يكتسي الريف ثوباً أخضر، وتحيط بالنهر القرى على الضفتين. وبالرغم من أن المنازل حقيرة بشكل عام، لأنها مبنية من الآجر غير المشوي ومسطّحة من الأعلى، يحيط بها الكثير من أشجار النخيل، وتكثر أبراج الحمام المميزة في هذه البلاد، مما يضفي على المشهد العام طابعاً ممتعاً وغريباً بالنسبة لأوروبي وصل البلاد لتوه. ونشاهد قرب العديد من القرى، بقايا مدن قديمة، كما نجد قرب تيران (Terâne) كميات كبيرة من الملح أو ملح البارود الذي يستقدم من أماكن مختلفة، لنقله عبر النيل، وإرساله إلى الخارج. ولم أرَ تماسيح في هذا النهر بين رشيد والقاهرة ودمياط، ويعتقد المصريون، أن حجاباً وضع في السور في المكياس (Mikkias) قرب القاهرة يمنع هذه الحيوانات من التوجه نحو أسفل مجرى النهر.

ولكل مركب وإن اختلف قليلاً عن غيره اسم مختلف في اللغة العربية كما في اللغات الأوروبية، أما تلك التي تقتصر رحلتها على الإبحار بين الإسكندرية والقاهرة فصغيرة ومسطحة القعر. وقمنا برحلتنا بين الإسكندرية ورشيد على متن مركب يحمل اسم شرم (Scherme)، وفيه حجرة واسعة مريحة، وكان يتم جرّه حين يكون الطقس هادئاً، لذا لم تستغرق رحلتنا طويلاً. ويكثر الحديث عن قراصنة يجوبون النيل، لكنهم لا يثيرون القلق، شرط أن نقوم بالحراسة ليلاً، وأن نطلق النار غالباً، كي يدركوا أننا نحمل أسلحة نارية. ونبقي عادة مصباحاً مضاءً أثناء الليل، ليعرفوا أن المركب يحمل أوروبيين، وهم يعلمون أنه يصعب مفاجأتهم وهم نيام. وفي شهر آذار/مارس من العام ١٧٦٢، تمّ نهب ثلاثة مراكب على ساعد النيل هذا. ويسود الاعتقاد بأن هؤلاء القراصنة قلّما يهاجمون مركباً بأكمله، إلا إذا علموا مسبقاً بأن عدد ركابه قليل أو إذا كانوا على اتفاق مسبق مع الريّس (Reïs). وهناك أمثلة على (ريّاس) تقاسموا الغنيمة مع القراصنة، لذا ينبغي على المسافر الاستعلام لمعرفة لمن يسلّم أمره. ويعرف قراصنة النيل عملهم جيداً، وبما أنهم تعلموا السباحة ككافة سكّان ضفاف النهر، إما لقضاء ساعات حلوة في الماء عند اشتداد القيظ أو لاجتياز النهر بأقل كلفة، يصعد هؤلاء على متن المركب حين لا يجرؤون على الظهور مع مراكبهم الخاصة، ويحملون كل ما تقع عليه يدهم على سطح السفينة ثم يقفزون إلى الماء مع ما سلبوه. ولدينا أمثلة على أنهم لم يدخلوا المركب في بعض المرات، بل اكتفوا بمدّ أيديهم، وسرقة الأغراض من تحت

رؤوس النيام. ويروي الأتراك القصة التالية عن أحد القراصنة: خيّم أحد الباشاوات، الذي وصل حديثاً إلى مصر، على ضفة النيل، وقام رجاله بحراسته جيداً فألقوا القبض على لص أراد سلبهم متاعهم. وعند الصباح، أحضر اللص أمام الباشا الذي هدّده بقتله على الفور، فلم يطلب السجين سوى إذن القيام بلعبة خفّة فريدة، على أمل أن ينال عفو الباشا على حدّ قوله. وسمح هذا الأخير بذلك بعد أن دفعه حب الاستطلاع إلى تعلّم هذه اللعبة، عندها جمع اللص ثياب الباشا وما وجده في الخيمة في صرّة، كما يلف المصريون ثيابهم عندما يريدون الانتقال من ضفة إلى أخرى سباحة. وبعد أن قام بألعاب خفة عدة، ألقى بنفسه في النيل، وفرّ إلى الضفة الأخرى وهو يحمل غنيمته على رأسه قبل أن يتمكن الأتراك من جلب بنادقهم لإيقافه.



رحلة دمياط والعودة إلى القاهرة

بعد أن رسمت ساعد نهر النيل الممتد من القاهرة إلى البحر الأبيض المتوسط، شعرت برغبة في رؤية الساعد الآخر الذي يمر بمحاذاة دمياط وذلك في سبيل رسم خارطة صحيحة لهذا الجزء من بلاد مصر الذي يسميه الأوروبيون اليوم الدلتا؛ هذا هو الجزء الناقص على الخارطة التي رسمها السيد نوردن لمجرى النيل، بدءاً من الشلال الأول ووصولاً إلى البحر. وكنت على استعداد للسفر إلى دمياط فور وصولي إلى القاهرة ولكنني اضطررت لإرجاء هذه المهمة إلى شهر أيار/مايو من السنة القادمة لأن الطقس الممطر والغائم كان يمنعني من الرصد الجوي. ولكنني لم أندم على تأجيل الرحلة، لأنني استفدت من هذه الفترة وحاولت أن أتقرب من الشرقيين نظراً لجهلي التام بعاداتهم ولغتهم.

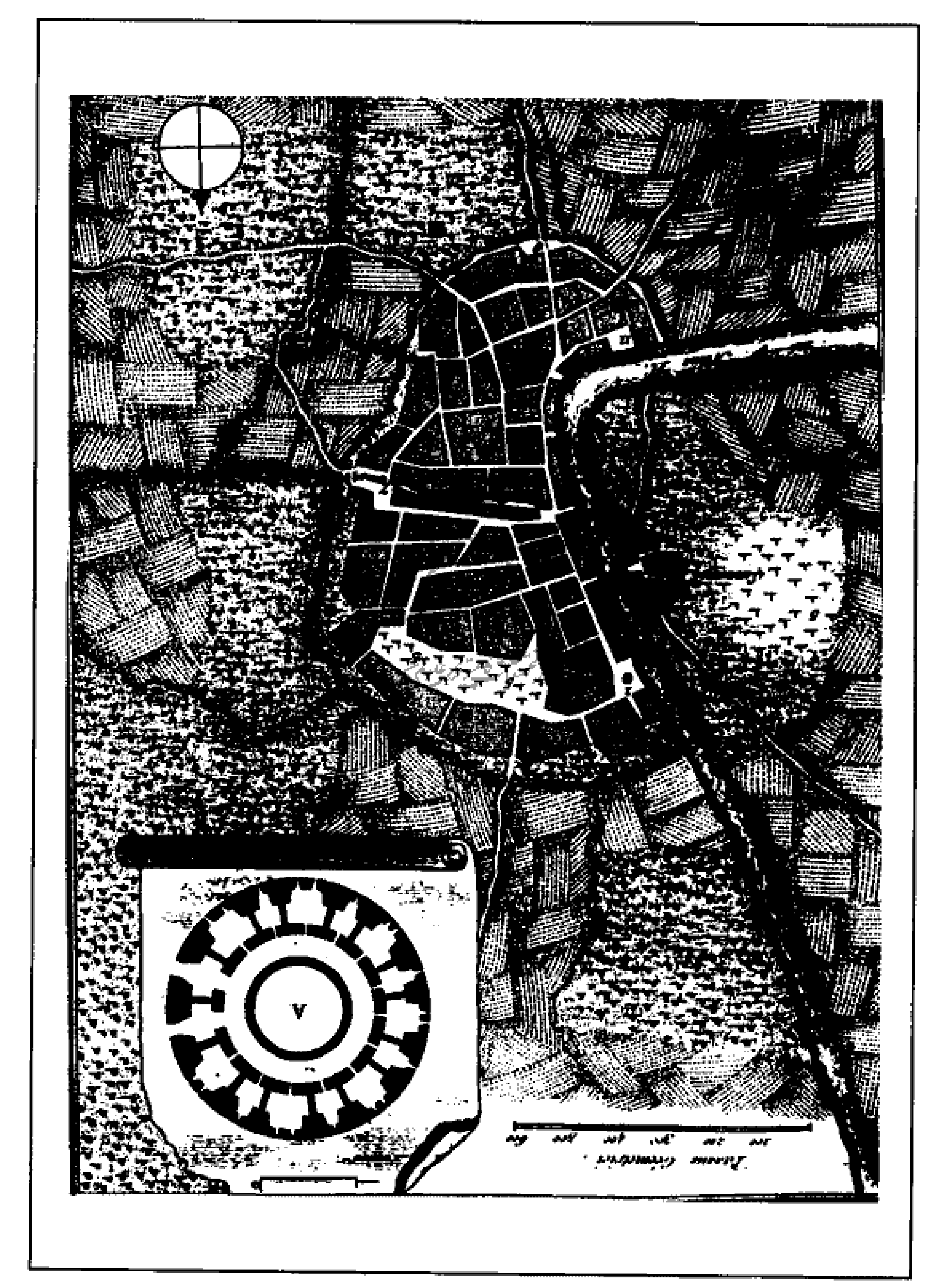
يطلب الأوروبيون الذين يتنقلون في هذه البلاد الحماية من الحاكم ظناً منهم أنه لمن المستحيل التنقل بأمان إن لم يعط الحاكم قادة السفن والأشخاص الذين يؤجرون الجمال للسفر براً، الأمر بالاعتناء بهم. وغالباً ما يقوم أحد خدام الحاكم باستدعاء أول ربان يصادفه أو ينتظر منه هدية؛ وحين يعلم هذا الأخير أن شخصاً مرموقاً يطلب منه الاعتناء بأحد المسافرين، يخال أنه سيجني ثروة طائلة؛ فيستغل الفرص لتقديم خدماته للشخص الموكل إليه، ويحاول أن يختلق المخاطر في كل مكان، حتى يثبت شجاعته. ولطالما اعتقدت أن اللجوء إلى كبار التجار في هذه البلاد، هو الحل الأنسب في الظروف المماثلة؛ فهم يدركون أكثر من سواهم المخاطر التي قد نتعرض لها في الأماكن التي ننوي زيارتها؛ كما وأنه يعمل لحسابهم قادة سفن وجمالون ينقلون لهم البضائع، ويسعون لنيل حظوة لدى التجار أكثر منه لدى حاكم لا يجنون منه شيئاً. ومن الصعب رسم خارطة صحيحة لبلد غريب، خاصة إن كان المرشد لا يعرف أسماء القرى التي يمر بها، أو أنه لا يريد إعطاء أسمائها للرحالة. ولقد كنت أبحث عن ربان قطع عدة مرات الطريق المؤدية إلى دمياط، ويعرف القرى جيداً ولا يحبذ السفر ليلاً، حتى تتاح لي فرصة مراقبة مواقع القرى وتعرجات النيل. فطلبت من أحد التجار أن يعلمني بموعد سفر الربان الذي يتمتع بالصفات المطلوبة، فأوصاني بربان ماهر للغاية، أما السيد بورانفيند الذي لم يغادر القاهرة إلا لماماً خلال إقامتنا فيها فقرر مرافقتي في هذه الرحلة. فاستخدمنا انكشارياً للسهر على راحتنا وخادماً آخر لتحضير الطعام لنا، وعدنا إلى بولاق في ٣٠ نيسان/أبريل ١٧٦٢. كان المركب الصغير الذي نقلنا إلى دمياط يحمل اسم كنج، وتتوافر فيه كافة وسائل الراحة التي نعمنا بها في المركب الذي سافرنا به إلى رشيد.

وفي صباح الأول من أيار/مايو غادرنا بولاق ولم أستفق إلا بعد أن قطعنا عدة أميال ولكنني لم يفتني

شيء لأنني اجتزت هذه الطريق من قبل. وعند الطرف الجنوبي للدلتا شاهدنا قصر القاهرة. ويطلق العرب على هذه البقعة اسم بطن البقرة؛ وهم يؤمنون بالأسطورة القديمة التي تقول إنه في زمن الوثنيين، عثر في هذه البقعة، على تمثال ضخم، على شكل بقرة. ويمتاز النيل بسعته وكثرة جزره بدءاً من القاهرة ووصولاً إلى الدلتا. ويؤدي ارتفاع منسوب مياه النهر إلى جرف هذه الجزر من مكان إلى آخر؛ ولما كانت مياه النهر تعلو وتنخفض جداً في هذه البقعة، لاحظنا أن عدد الجزر قد زاد عن شهر تشرين الثاني/نوفمبر؛ وذلك لأن منسوب المياه ينخفض في شهر أيار/مايو. وكنا نشاهد في القرى المحاذية لنهر النيل، خفراً مهمتهم إعلام الناس بوصول بواخر القراصنة. لكن سكان بعض القرى كانوا يرسلون مراكبهم ليلاً، وكل من يطلب حمايتهم يتعرض للسلب. في ذلك اليوم، ألقيا المرساة قرب تعبل (Tabble) لأن الربان كان يخشى القرى الأخرى؛ فأنزلت المزولة لأحدد ارتفاع القطب؛ ولكني لاحظت أن الدقران مكسور. فأعدت الأداة إلى مكانها دون أن أتمكن من تدوين أي ملاحظة.

غادرنا تعبل صباح الثاني من أيار/مايو؛ لكن الرياح القوية أرغمتنا على الإرساء في «مصدر الشادر». ولما كنت قد أصلحت آلتي، استطعت بصعوبة تحديد بعد الشمس عن خط المراقبة العمودي حتى أتمكن من تقدير بعد هذه البلدة عن خط العرض. ومع اقتراب المغيب، بلغنا «ميت العطار»؛ ورغم هدوء الرياح مع حلول المساء، عادت لتهب بعد نصف ساعة من الجهة الجنوبية ـ الغربية، حاملة معها عواصف قوية، وغباراً ورمالاً. ولما كانت مراكب النيل مزودة بأشرعة كبيرة لا يحسن القادة التحكم بها، فغالباً ما تؤدي العواصف القوية إلى قلبها؛ وفضّلنا بالتالي أن نلقي بالمرساة في تلك الساعة.

عند الساعة الخامسة من صباح الثالث من أيار/مايو، تابعنا طريقنا وبلغنا قرية «زفتة»، حيث رصدنا ظهراً ارتفاع الشمس. ويتبين لي أن القرية المذكورة تبعد عن خط العرض ٣٠ دقيقة و٤٢ ثانية. وتبعد بلدة زفتة عن ساعد النيل، الممتد من القاهرة إلى رشيد ٦ فراسخ وهي تقع بين القاهرة ودمياط، وفقاً لحسابات ربابنة السفن. يحكم هذه البلدة والٍ من القسطنطينية، يقيم في القاهرة حيث عين قائم مقام له؛ ونجد فيها ٣ جوامع وقبة مبنية على قبر نبي يقدسه الناس. ويزيد عدد منازل الأقباط فيها على ٣٠٠ منزل؛ وقد وجهوا لي دعوة لزيارة كنيستهم المتداعية. تغطي أرض هذا المعبد حصر قذرة تتكاثر فيها البراغيث من شدة الحر ونجد فيه عدداً كبيراً من العكازات التي يستند عليها الأقباط خلال إقامة شعائرهم؛ ويظن الأوروبيون أن هذا الأمر يسيء لزينة الكنيسة خاصة وأن لوحات الأقباط قبيحة للغاية؛ فقد شاهدت في إحدى كنائس «مصر العتيقة» لوحة ليسوع المسيح ومريم العذراء وبعض القديسين، وهم يمتطون حصاناً. ولعل الأقباط يرون أن الحمير لا تتلاءم مع هذه الشخصيات المقدسة رغم أنه يحظر عليهم ركوب دواب أخرى في القاهرة. تتميز كنيسة زفتة بعتبة بابها التي كانت قديماً تمثالاً لأحد آلهة الإغريق. تقع مدينة ميت غمر على الضفة الشرقية للنيل قبالة مدينة زفتة. ونجد فيها ٦ جوامع وكنيسة للأقباط. وبالرغم من



أن جميع منارات الجوامع مستديرة الشكل، لاحظنا أن إحدى منارات ميت غمر مربعة، مما يدفعنا للظن أنها كانت قديماً جرس كنيسة.

مما لا شك فيه أن السكون الذي يسود عند المساء، يساعد البواخر القادمة من القاهرة على الإبحار ليلاً، دون أن يخشوا ردة فعل سكان القرى المحاذية للنيل، وخاصة وأن الرياح الشمالية تهب في النهار؛ وفي ذلك اليوم حالت الرياح القوية دون متابعة طريقنا، لكن بعد أن هدأت ليلاً غادرنا زفته، ترافقنا باخرتان أخريان. وما كدنا نقطع مسافة صغيرة، حتى رأينا سفينة للقراصنة متوجهة نحونا؛ لكنها بدّلت وجهتها بعد أن أطلقنا النار عليها. وشاهدنا لاحقاً، في ظل الأشجار، وخلف الجزر الصغيرة، زوارق مختلفة، ظن الربّان أنها تابعة للقراصنة؛ ولكن لم تجازف أي منها بقطع الطريق علينا. وفي اليوم التالي، رأينا عوامات محمّلة بالأواني والأباريق الفخارية، من مصر العليا. وفي سبيل صنع عوامة مماثلة تعلق الأواني وتربط إلى جانب بعضها تحت خشب النخيل الخفيف الوزن، ويتراوح طولها بين ٤٠ و٧٠ قدماً وعرضها بين ربع ونصف قدم؛ يقودها ٦ أو ٧ رجال، يستعملون أغصان الشجر لدفعها، ويحملون عليها كل ما يلزم لتحضير الطعام في تدبير أمورهم. ويقال إنهم ينقلون في الأواني الفخارية بضائع غالية الثمن. لكن لا يبدو لي ذلك صحيحاً، لأن المياه تتسرب إلى الأواني وتتلف كل ما فيها. والجدير ذكره أن هؤلاء الرجال يستعملون (النقّافة) للدفاع عن أنفسهم ضد القراصنة. وبعد أن يبيعوا الأواني الفخارية والعوامة، يعودون إلى مصر العليا مشياً على الأقدام. وفي ذلك النهار، لم يلفت نظري إلا بلدة المنصورة حيث سجن لويس الحادي عشر. ومع أنها لا تبدو أكبر حجماً من دمياط إلا أنني لم أستطع مشاهدتها إلا عند مرورنا بقربها. فقد بني على هذه الضفة من النيل، سور كبير، يمتد حتى بحيرة باهر، وهذا السور يحول دون تدفق المياه بكثرة لري الأرياف المجاورة الغنية بالأرز. ثم عند وصولنا إلى المنصورة، هبت الرياح الشمالية وأجبرتنا على بلوغ الشاطىء. فاغتنمت هذه الفرصة لتحديد ارتفاع القطب على بعد نصف ميل من البلدة الشمالية ـ الشمالية الشرقية؛ فتبين لي أن المنصورة تقع على بعد ٣١ دقيقة و٣ ثوان من خط العرض. وفي الخامس من أيار/مايو أنهينا رحلتنا إلى دمياط. ولم يلفت انتباهنا في الطريق، سوى ٢٠ مركباً، محمّلة بالنحل؛ وكان سنجق المنصورة قد حطّ رحاله مع ٤٠ عبداً وخادماً بين قريتي بدوي وكفر بدوي بغية تحصيل أرباح النحل؛ إذ كان كل مركب يحمل ٢٠٠ خلية نحل، مما يعني أن العشرين مركباً كانت تنقل ٤٠٠٠ خلية، يبلغ طول كل واحدة منها ثلاث أقدام، وقطرها قدم واحد.

مما لا شك فيه أن موقع بلدة دمياط ملائم للتجارة، شأنه في ذلك شأن بلدة رشيد؛ فالبضائع الآتية من سوريا والبلدان المجاورة تمر في دمياط حتى تنقل بعدها إلى القاهرة. وفي المقابل لا نجد فيها تجاراً أو كهنة أوروبيين، رغم أنها تضم بعض الموارنة والمسيحيين الشرقيين الذين ارتبطوا بالكنيسة الرومانية، ويحكى أنه كان يقيم قديماً في دمياط قنصل وتجار فرنسيون؛ لكن بعد أن لاحظ السكان تعلّق الأوروبيين

بنساء المسلمين، قرروا قتلهم جميعاً. ومنذ ذلك الحين، منع ملك فرنسا رعاياه من الذهاب إليها. فكانوا ينتدبون مفوضين عنهم للاهتمام بمصالحهم في تلك البلدة، أو يجرون تبادلاتهم التجارية على سطح السفن. غير أنني قابلت ربانَيْن فرنسيين مقيمين في تلك البلدة؛ وكان يبدو عليهما الخوف من السكان الذين لم ينسوا الحملات الصليبية، ولا الحادثة التي أتيت على ذكرها آنفاً. وأكّدا لي أنهما لن يتجرآ على إخبار سفير فرنسا في القسطنطينية عن سوء معاملة السكان لهما؛ كما وأنهما لا يتوقعان أن يساعدهما أحد. ولاحظت أن هذين الربانين يعتمران عمامة على رأسيهما ويرتديان الأزياء التركية، ويستعملان اللغة المحكية في المنطقة، حتى لا يحاول الرعاع إساءة معاملتهما. كنت أحمل رسالَتَي توصية إلى تاجر إغريقي وآخر إيطالي، كان قديماً تاجراً معتمداً في القاعدة؛ وبعد أن غرق في الديون، لم يتجرأ على العودة إلى بلاده وفضل اعتناق الإسلام. وكان يأمل أن يجمع ثروة طائلة في مصر خاصة وأن واحداً من كبار البهاوات في القاهرة، تكفل بحمايته. ولكن بعد أن فقد صديقه هذا حظوته اكتفى الإيطالي بأنه يشغل وظيفة في جمارك دمياط. ويقال إنه كان يعيش حياة مترفة من جراء تعامله مع الأوروبيين؛ فهو يسهل عليهم عملية نقل البضائع التي يرسلونها عبر دمياط أو يرعى مصالحهم في هذه البلدة. ورغم اعتناقه الإسلام منذ عدة سنوات، لم يكف عن مجاملة الأوروبيين علماً أن المرتدين عن الدين يكرهون الأوروبيين أكثر من المسلمين الأصليين.

يتبيّن لي من خلال الرصد الجوي أن بلدة دمياط تقع على بعد ربع ميل شمالي رشيد وعلى بعد ميلين من البحر الأبيض المتوسط، أي إنها أبعد من رشيد الواقعة على الضفة الأخرى للنيل. واستناداً إلى تقرير أحد الربابنة الذي يرتاد غالباً السواحل الممتدة بين دمياط ورشيد، يقع رأس برولوس على بعد ميل ونصف الميل شمالاً. ومنذ فترة وجيزة، ارتفع عدد اللصوص في هذه المنطقة، وباتت طريقها محفوفة بالمخاطر. فمن الجهة الغربية للهند، بدءاً من دمياط شمالاً، وصولاً إلى مصبّ النيل، ورأس برولوس غرباً، تمتد طبقة رقيقة من الرمال ، تجعل الأرض قاحلة. لم أرَ أثراً لأسوار مدينة دمياط؛ ولعل أحداً لم يحاول إعادة بنائها، بعد أن دمّرت عام ٦٤٨ للهجرة استناداً لأقوال أبي الفدا. ولكنني استطعت رؤية المكان الذي سدّ فيه مجرى نهر النيل بسلسلة؛ فعلى الصفحة الشمالية داخل البلدة، نجد برجاً قديماً حيث لا يزيد عرض النهر على ١٠٠ قدم، كما ونجد على الضفة الغربية، أنقاض برج مماثل مدمّر كلياً.

وبما أنني لم أقض وقتاً طويلاً في دمياط، لم أتمكن من تحديد مواقع شوارع هذه المدينة كلها. وبعد أن قست طول السوق، الذي يخترق البلدة كلها، وطول السور وضعت الخارطة التي تراها على اللوحة ٧. كما ورسم السيد بورانفيد منظراً عاماً للبلدة (راجعوا اللوحة ٨). وتكثر في المناطق المحيطة بدمياط قنوات المياه المخصصة لري حقول الأرزّ فيها. وتشير الأحرف الموضوعة على خارطة مدينة دمياط إلى مواقع الأماكن التالية: ١) برج قديم مزود بنقوش عربية، (خارطة الطابق الثاني للبرج)، ٢) بقايا قصر قديم، ٣)

كنيسة حوّلها المسلمون إلى جامع؛ ويقال إنها تضم لوحات من عهد الإغريق، ٤) مغسل القطن، ٥) مقابر، ٦) جامع بناه السلطان، ٧) المنشية، ٨) مكان ذبح الدواب، ٩) منطقة شيخ عباس، ١٠) دير الإغريق، ١١) الجمارك، ١٢) الجامع الكبير.

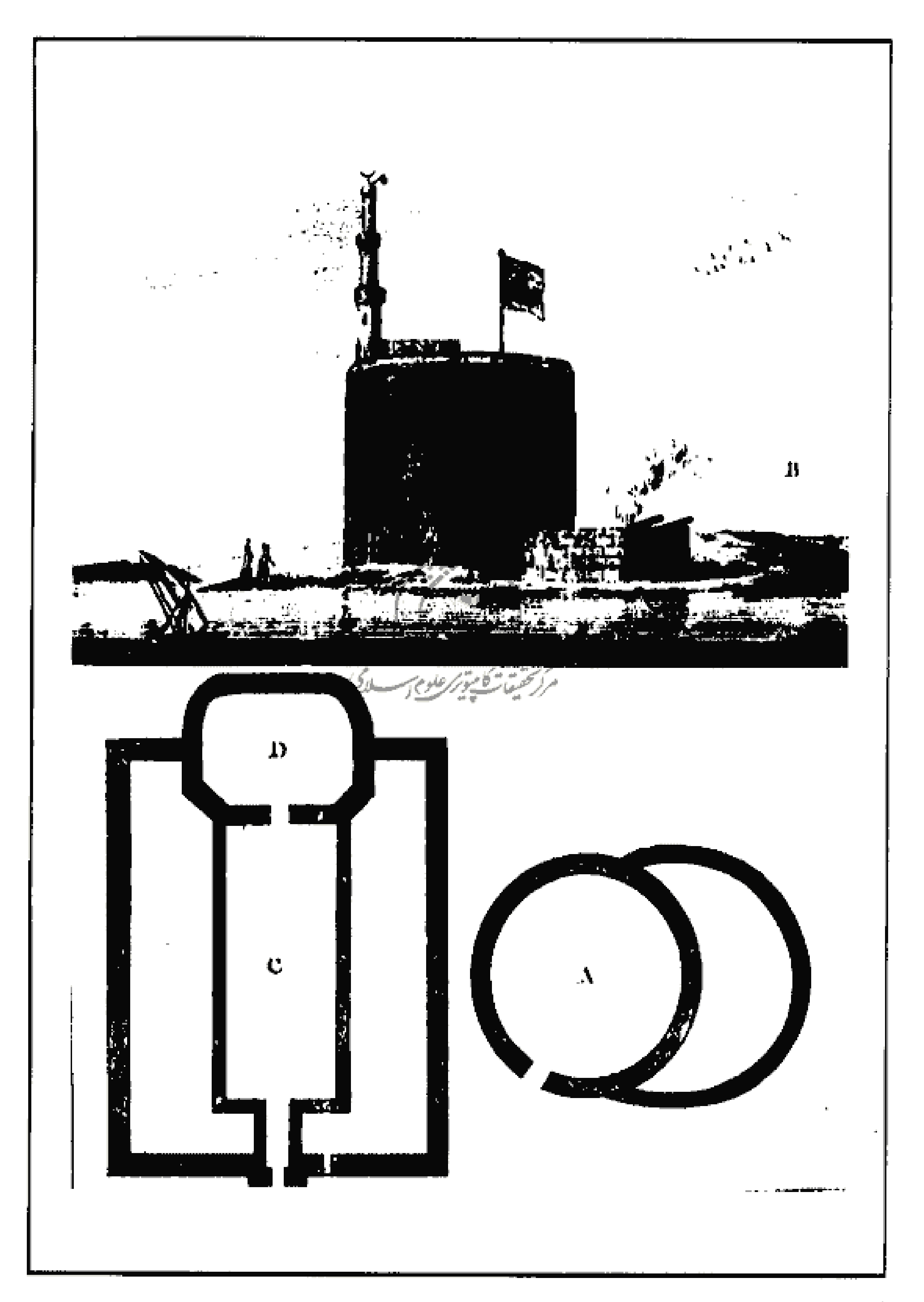


وقمت برحلة صغيرة من دمياط إلى مصبّ النيل أو بوغاز (Boghas)؛ وخلافاً لمصب رشيد، لا يشكل هذا المصب خطراً على البواخر، إذ تكثر فيه الأرصفة الرملية والمنارات وزوارق الإنقاذ، المعدّة لإغاثة البحّارة الغرباء. تجتاز هذا المصب بواخر ضخمة متوجهة نحو البلدة؛ لكن نظراً لانخفاض منسوب المياه على هذا الساحل، تلقي معظمها المرساة على بعد ميل عن اليابسة. تمثل اللوحة ٩ حصناً قديماً يبعد عن البحر ٧٠٠ قدم. وقد قست هذه المسافة بدقة حتى يتمكن الرحالة اللاحقون من تحديد بُعد مصر عن البحر. ويبلغ طول هذا الحصن ٥٨ قدماً وعرضه ٢٣. ويزعم خادمي أنه قرأ تحت النقوش على بوابة الحصن ١٦٩٠.

والجدير ذكره أن لا أحد يجرؤ على السكن في هذا الحصن خوفاً من الأشباح؛ فعند اقترابنا منه، راح المسلمون يتلون الصلوات. وعند وصولنا، تلوا صلاة أخرى قرب المدافع الضخمة؛ فاضطررت للعودة معهم إلى المركب دون أن أشاهد الجزء الداخلي من الحصن، كانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها مسلمين خائفين من الأشباح. ولم أتجرأ على ذكر الموضوع أمام العرب. ونرى غربي النيل، نحو الجنوب، على بعد ١٥٠ قدماً عن الساحل حصناً جديداً مأهولاً، من العام ١١١٦؛ أي إنه لم يمض على وجوده ٥٩ سنة قمرية. يتخذ هذا البناء شكلاً مستديراً كما يبدو على الخارطة أ وب من اللوحة ٩. ونرى عند الأسفل قاعدة مستديرة فيها مدفعان برونزيان، وثلاثة حديدية. كما ونجد خمسة مدافع صغيرة في الطبقة الثانية من المبنى، وإن تقدمنا أكثر نحو الجنوب نرَ برجاً قديماً متداعياً، مأهولاً بالسكان. أما في الجهة الشرقية، قرب قرية القولي، فنرى قواعد مدفعية مهدمة طولها ٢٠ قدماً، وفيها مدفع قديم مكسور، وآخر أكله الصدأ.

أتيت على ذكر بحيرة باحر، في وصف شبه الجزيرة العربية، تمتد هذه البحيرة من دمياط شرقاً وصولاً إلى غسا (Ghassa)؛ نشاهد على جزر هذه البحيرة بقايا بلدات قديمة. وقبل سنوات خلت، قدم مضيفنا لربان فرنسي كتاباً مطبوعاً بالأحرف الأوروبية، وحجارة من هذه الجزر، موضوعة في صندوق حديدي؛ وحين أقول إن الكتاب مطبوع بأحرف أوروبية؛ أقصد أنها أحرف غريبة عن مضيفنا، لأن الشرقيين يعتبرون كل حرف أو نقش لا يفهمونه من أصل أوروبي. ونشاهد على مقربة من المتوسط، قرب قرية مطارد، أنقاض بلدة ستانوس أو تنوس، التي تحمل اسمها إحدى مصبّات النيل. سمعت الناس يتحدثون عن أنقاض هذه البلدة، ولكن لم يرها أحد منهم. وعرفت أنه يمكننا السفر براً إلى دمياط والعودة منها بعد ثلاثة أيام. فمع ارتفاع عدد اللصوص، باتت هذه الطريق محفوفة بالمخاطر أكثر من طريق باحر؛ فسكان هذه المنطقة فقراء ولا يحبذون أن يعود الرحالة بحقائبهم كلها. وتقع في الجهة الجنوبية غرب دمياط، بلدة ديمشلي حيث يصنع النسيج، ولا تزال حتى اليوم بلدة بلباس غنية عن التعريف، ولكن أحداً لم يحدثني عن موقعها؛ وهي تضم عدداً وافراً من النصب القديمة(*).

(*) شاهد هراجهر بقايا تهموس وبوط على بعد ستة فراسخ شرقي المنصورة.


B
D
C
A

كنت أتمنى أن أشاهد بقايا تنسوس قبل مغادرة هذه المنطقة، فضلاً عن زيارة ديمشلي ومنصل، والمرور بباحر للذهاب إلى المنصورة. ولكنني أخاطر بخسارة معداتي، وخاصة وأنها زيارات ثانوية، وعلينا التوجه لاحقاً إلى شبه الجزيرة، التي تشكل أساس رحلتنا. لذلك غادرت والسيد بورانفيند دمياط في ١٢ أيار/مايو. ولما كنت قد رصدت ارتفاع القطب خلال توجهي إلى دمياط، اكتفيت في طريق العودة، بمشاهدة تعرجات النيل، ونقل أسماء القرى والمسافة التي تفصل بينها بغية التحقق من ملاحظاتي الأولى. والجدير ذكره أن الرياح أسعفتنا كثيراً في طريق العودة، حتى أننا بلغنا القاهرة في ١٥ أيار/مايو.



ملاحظات حول سير الرحلة
من رشيد إلى القاهرة ودمياط،
استناداً إلى الخارطة على اللوحة ١٠

يتحدث التاريخ القديم عن بلاد مصر الشهيرة المكتظة بالسكان؛ ويأتي التاريخ الشرقي على ذكرها عدة مرات. لكن علماء الجغرافيا يسعون إلى دراسة بنيتها الحالية، بغية فهم الوصف الذي أعطاه المؤلفون القدامى لها. ممّا لا شك فيه أنه تتوافر لدينا خرائط مفصّلة ومرسومة بذكاء؛ لكنني لا أظن أن واضعيها استطاعوا الاعتماد دوماً على الأبحاث التي استعملوها لتنفيذ عملهم. ومن بين كل الأشخاص الذين زاروا مصر، لم يستطع أحد رسم خرائط دقيقة لها مثل الأب سيكار والكابتن نوردن؛ ولكن لم تتح الفرصة لأي منهما للتحقّق من صحتها من خلال الرصد الجوي. غير أن مراقبة خطوط العرض وخاصة في مصر، تساعد على وضع خرائط جغرافية صحيحة؛ إذ تقع الأماكن الأكثر أهمية على ضفاف النيل، أو على مقربة منه، وهو يجري بشكل مستقيم من الجنوب إلى الشمال. ويمكننا بالتالي قياس المسافة التي تفصل القرى بعضها عن بعض انطلاقاً من خطوط العرض المختلفة.

ولا يمكننا أن نطلب من الرحّالة الذي لا يقيم في مصر إلا لفترة وجيزة أن يضع خارطة للبلاد؛ ولا أظنه يقدم لنا معروفاً بأن ينقل خارطة قديمة ويدخل عليها بعض التعديلات. وفي هذا الإطار وضعت خارطة لسير رحلتي، وأشرت إلى المبادىء التي استعملتها في رسمها. وخلافاً للخرائط الأخرى، لا تجدون عليها عدداً كبيراً من القنوات والأنهر والبحيرات الصغيرة. إن الشريف الإدريسي يتحدث عن أنهر طويلة، لا تزال موجودة حتى يومنا هذا، كما وأكّد لي المصريون أن بلادهم تحوي عدداً كبيراً من القنوات والبحيرات الصغيرة، التي تظهر عند ارتفاع منسوب مياه النيل؛ بيد أنني لم أشاهد ذلك في الأماكن التي رأيتها بأم عيني أو تلك التي حدثني عنها أشخاص يعرفون البلاد جيداً؛ فلو حاول الرحالة كلهم أن يحذوا حذوي، لاستطعنا أن نقدر الخدمات التي يقدمها كل واحد منهم لعلم الجغرافية الحديث. وإنني أفتخر بنفسي لأني استطعت أن أحدد بدقة مجرى الفرعين الأساسيين للنيل، من القاهرة إلى المتوسط، فضلاً عن موقع البلدات والقرى المحاذية له. ولعل الرحالة الآخرون قد يزورون المناطق المصرية الأخرى ويرسمون خرائط مماثلة عن سير رحلاتهم.

إنني أتمنى على الأوروبيين كافة الذين يزورون البلاد أن يكسبوا صداقة الأقباط الذين يعملون أمناء سر أو محاسبين لدى البهاوات؛ لأنني واثق كل الثقة أنه مِنَ الصعب الحصول على لوائح كاملة بأسماء

القرى التي تخضع لنفوذ أرباب عملهم. لكنني لم أحاول سلوك هذه الدرب؛ وأظن أنكم ستعذرونني لأن خارطة مدينة القاهرة أخذت الكثير من وقتي فضلاً عن أنني لم أجرؤ على توطيد علاقاتي بسكان البلاد والاستعلام عن الأموركلها. ومما لا شك فيه أن الرسم المفضل لمصر الحديثة يساعد الرحالة على تقديم وصف جغرافي دقيق لبعض المناطق وأظن أن بعض علماء أوروبا سيجمعون هذه التفاصيل لرسم خرائط كاملة لهذا البلد.

لاحظت في مقدمة كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، أنه من الصعب كتابة أسماء المدن والقرى بلغتنا، خاصة إن كان يلفظها أشخاص يستعملون لهجة مختلفة، ولا يحسنون لغتهم الأم. لهذا السبب، كتبت أسماء القرى نفسها بطريقة مختلفة، معتمداً بذلك على لفظ عدة أشخاص. وإليكم ما فعلته للحصول على الأسماء العربية للقرى والمدن في مصر؛ فبعد أن دونتها كلها خلال الرحلة باللغة الأجنبية، طلبت من لغوي عربي في القاهرة أن يكتبها لي بالعربية وفقاً للسان القوم الذين رافقوني. وإنني لفخور بنفسي لأنني استطعت كتابتها بلغة عربية صحيحة، حتى يتمكن كل أوروبي من أي بلد كان أن يكتبها بلغته الأصلية. وعلى كل شخص يحمل لائحة بأسماء المدن المصرية أن يتلوها على نفسه ليعيد كتابتها بالأحرف الأوروبية. وغالباً ما يكتب العرب الأسماء العربية المألوفة عندهم من دون نقاط؛ أما الأقباط فيبدلون مكان النقاط أو ينسون وضعها. لهذا السبب يتعذر على الأجنبي قراءتها بشكل صحيح، كما يتعذر على المترجم كتابة الأسماء بشكل لائق. وسأذكر فيما يلي الأسماء الواردة في كتاب «جغرافية السودان»، علماً أن معظمها مشوه للغاية حتى أن الأشخاص الذين لا يحسنون كتابة العربية لن يتمكنوا أبداً من التعرف عليها.

الأصل	الترجمة	لانحي
دمياط	Dumiot	Damiat ou Dumiot
فارسكور	Faresker	FereskuŸr
شرمساح	Seremsah	Serimsah
كرنقاس	Serencas	Scherinka
طوخا	Tucha	Talcha
أويش الحجر	Nasc al bagiar	Nauas el bahhs
جوجر	Guger	Ghaghar
منية عساس	Maniat Ossas	Miet Ossas
الثبانية	Thobania	Et tábante
مدينة سمانور	La Ville Semenud	SamanuŸd

الأصل	الترجمة	لانحتي
سمنود	Semennud	Miet SamonuŶd
جراج	Gerah	Dsjeráhh
أبوقير	Butsir	Abusir
بنها	Banna	Bennha
منية بدر	Maniat Bedr	Miet beddre habue
شبرا	Sabra	SchuŶbbra el Semem
سباط	Sanbat	Sunbád
دمسيس	Damasis	Demsis
منية أسنا	Maniat Asna	Miet Ischne
حانوت	Hanut	HanuŶd
دقرقوس	Dacarcus	Dacadus
منية رقبة	Maniat Racaba	Siste
ميت غمر	Maniat Amr	Meit GHrammer
صحرست	Sahorast	Sáhradsj
ميت الحرون	Maniat el Harun	Meit el haruŶn
وزوره	Vazura	WasuŶra
منبة	Manbat	Senth
منية الحوتي	Maniat el Hauca	Miet el Housein
حجير	Hangiar	Gangara
أزيت	Anzit	Atrib
بنها العسل	Banna el Asal	benha assel
جدوة	Gedua	Dighu
شميرق	Samariec	Smcherif
أنتوهي	Antuha	Abu Tauaki
منية العطار	Maniet al Attar	Miet al Attar
منية العطف	Maniat el Aatfi	El aŶtf
الصالحية	Salehia	Salheic
طنطا	Tant	Tant
رفينة	Rafina	Sufêti

الأصل	الترجمة	لالحتي
شلفان	Selfan	SchalakaŶn
الهرقانية	Hercanie	Chorakanie
تنسوس	Tansos	BuŶs
شبره	Sciabra	SchuŶbbra
أم دينار	Om dinar	Om dinar
ذروة	Dhorua	Daraue
الأخصاص	Achsas	Ul achsas
سنديون	Sandium	SendiuŶm
فوا	Fua	Fue
مليج	Malig	Mehallet Malik
العريش	Horais	DsjuŶreich

ولعلّي لم أرضِ القارىء حين أدرجت أسماء المدن والقرى الواقعة على طرفي النيل، في وصف سير رحلتي من الرشيد إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى دمياط؛ فجمعت بالتالي هذه الأسماء، وتعرجات النهر، في قسم منفصل، حتى يتمكن الجميع من مراجعتها. وقد يظن البعض أن إدراج اللائحة برمّتها، غير ضروري، خاصة وأن بعض القرى متلاصقة للغاية، وذكرها كلها يتطلب خارطة أكبر. وسآتي أيضاً على ذكر رحلة السيد فورسكال من القاهرة إلى الإسكندرية. وأظن أنه لي كامل الحق في ذلك، لأنني أعطيت صديقي هذا بوصلة قبيل انطلاقه، ورجوته أن يدوّن لي أسماء القرى التي يمر بها. ويحدد لي مواقعها؛ وعند عودته سلّمني هذه اللائحة بنفسه.

ومما لا شك فيه أننا نستطيع الاستفادة من هذه المعلومات كلها، لرسم خرائط محدّدة، إن جمعنا معلومات وافرة عن مصر السفلى.

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
١			القولي، بلدة صغيرة
٢			عزبة البرج؛ نجد فيها مركز جمرك.
٣			الشيخ درغان،
٤			عزبة كرنونية
٥			عزبة اللحم
٦			دمياط

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
	١		ستانية
٧		جنوب - غرب	المنية؛ تكثر فيها مصانع المناشف
٨			الشمرة؛ تمتد منها قناة تصل إلى بحر باهر؛ وكان يكثر فيها الملح الذي ينقل إلى قنطرة البدا
٩		شمال - غرب	العادلية
١٠		جنوب غرب	كفر ربحة
	٢	جنوب - جنوب - غرب	كفر البطيخ؛ على مقربة من النيل
١١		غرب - جنوب - غرب	بستان؛ يكثر فيها السل، وتبعد ساعة عن باهر
١٢		غرب - جنوب - غرب	حوراني
١٣		غرب	ميت الشيخ، على بعد فرسخ من باهر
	٣	جنوب	كفر يوسف
١٤		جنوب - غرب	العبيد
١٥			كفر أبو عضمي
	٤		كفر سليمان
١٦		جنوب - غرب	فارسكور
١٧			كفر العرب
١٨		جنوبي - جنوبي - غربي	كفر الشناوي
١٩		غربي	شراباس
	٥		ميت أبو غالب
	٦	جنوبي - جنوبي - غربي	كفر ميت أبو غالب
	٧	جنوبي - جنوبي - شرقي	السوالم
٢٠		جنوبي - جنوبي - غربي	برسية
٢١		غربي - جنوبي	داقحلي
٢٢			السرو، قلعة صغيرة
	٩	غربي - شمالي - جنوبي	كفر الترعا القديم
	١٠	جنوبي	كفر الترعا الجديد
	١١	جنوبي - جنوبي - شرقي	الداهرية
٢٣			أحمد البدري
٢٤		غربي	الزرقة
	١٢	غربي - جنوبي	كفر شيخ عطية
٢٥		غربي - جنوبي	ميت الخولي

ـــــــــ ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودمياط، استناداً إلى الخارطة على اللوحة ١٠

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
٢٦			تارا فارعه
٢٧			الزعاترة
٢٨			سرم ساح
	١٣	غربي	المحمودية
٢٩			بساط
	١٤		كنكة
٣٠			محلة مشاق
	١٥		شربين
	١٦	جنوبي	كفر الحطي
٣١		شمالي - غربي - شمالي	مية تراتيس
	١٧	غربي	كفر الدبوس
	١٨	جنوبي	باترة
٣٢		شرقي	بدوي
٣٣		غربي	كفر بدوي؛ نجد فيها جزيرة صغيرة يتنازع حولها سكان هاتين البلدتين
	١٩	جنوبي	دباسط
٣٤		جنوبي - شرقي	كفر البرامون
٣٥		جنوبي - جنوبي - غربي	برمون
	٢٠		الطويلة
٣٦			خيارية
	٢١		شرنقاس
٣٧			بدالة.
	٢٢		ميت عنطار
٣٨			قلنجيل
٣٩		غربي	المنصورة
	٢٣		تالخا
	٢٤	غربي - جنوبي - غربي	كوكر؛ يقال إنه خبأت كمية كبيرة من الفضة تحت الأرض؛ ونجد فيها أيضاً أنقاض مدينة قديمة.
	٢٥	جنوبي - غربي	ميت الوارقا
٤٠			شيخ رمضان الموجة
٤١		جنوبي	ميت بدري خميس

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
	٢٦	غربي - جنوبي - غربي	ميت نابتة
	٢٧	غربي - جنوبي - غربي	قناطر ويش، وهو جسر على ساعد النيل يمتد حتى برولوس
٤٢		جنوبي - غربي	ويش
٤٣			كفر شيشير، وهي قرية تعج ببيوت الحمام
	٢٨		ميت عساس
٤٤		جنوبي - جنوبي - غربي	نواسة البحر
٤٥			نواسي الغيط
٤٦		غربي	منبختة
	٢٩	جنوبي - غربي - غربي	كفر الثعبانية؛ تمتد قناة من ملاكة إلى طنطا.
	٣٠	جنوبي - جنوبي - غربي	سمانود؛ نجد قربها محلة الخير، البلدة الأساسية في غارية؛ ونرى قربها قناة تعبر الدلتا.
٤٧		جنوبي - جنوبي - غربي	منية سمانود؛ نجد خمس منارات، استعملت بعضها قديماً كقبات للكنائس المسيحية.
	٣١	جنوبي - شرقي	ميت النصارى
٤٨		جنوبي	جراح
	٣٢	غربي - جنوبي - غربي	أبو سير
٤٩			ميت أبو الحاري
٥٠		جنوبي - غربي	سلامية
٥١		جنوبي - غربي	ميت بزة
	٣٣	غربي	بنه
٥٢		جنوبي	كفر المنضرة
٥٣			منضرة
	٣٤	غربي	ميت بدر حلاوي
	٣٥	جنوبي - جنوبي - غربي	شبرا اليمني
	٣٦		كفر شبرا اليمني
٥٤			ميت دمسيس
	٣٧	جنوبي	زنباط
٥٥			كفر ميت أشني
٥٦			ميت أشني
٥٧		جنوبي - جنوبي - غربي	كفر نمسان
	٣٨	جنوبي - غربي	كفر نمسان

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودمياط، استناداً إلى الخارطة على اللوحة ١٠

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
	٣٩		حانوت
٥٨		جنوبي - جنوبي - شرقي	سرناكه
	٤٠		دهتوري
٥٩		جنوبي - جنوبي - غربي	دالكادوس
	٤١	جنوبي	زفتا
٦٠			ميت غمر
	٤٢		سنديست
٦١			دونديت
٦٢		جنوبي	كفر الجهيني
	٤٣		الغريب
٦٣		جنوبي	المعصرة
٦٤		جنوبي - غربي	سهراج
	٤٤		مسيد وصيف
٦٥			كفر ميت العز
	٤٥	جنوبي	ميت الحارون
	٤٦		كفر الحارون
	٤٧		تفهني
٦٦			كفر أبرق صيبه
٦٧			الصفين
٦٨		جنوبي - غربي	المنشية
	٤٨		كفر الدمرداشي
	٤٩	جنوبي - شرقي	كفر ميت العبسي
	٥٠		ميت العبسي
٦٩			ميت الدريج
٧٠			كفر شكل
٧١		غربي - جنوبي	سنهة
	٥١	جنوبي - جنوبي - غربي	ميت بره
٧٢		جنوبي - غربي	كفر حلاوي
٧٣		جنوبي - جنوبي - غربي	يشبول
٧٤		جنوبي - غربي	ميت درادي

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
٧٥		جنوبي - غربي - غربي	كنكره
	٥٣	جنوبي - غربي	دماله؛ نجد قبالة هذه البلدة ساعد تارة مو الذي يصب في باهر كفر السعدية.
٧٦		جنوبي - غربي	كفر مويس
	٥٥		زرورة
٧٧			أتريب
	٥٦		بطا
٧٨			بنها العسل
	٥٧		كفر الجزات
	٥٨	غربي - جنوبي - غربي	أبو الطواقي
٧٩		غربي - جنوبي - غربي	رملة
	٥٩		باحر
٨٠			ميت العطار
	٦٠		مسيد الخدر
	٦١	جنوبي - جنوبي - شرقي	أم الشريف
٨١		جنوبي	طحله
٨٢			كفر طحله.
٨٣			دجوه؛ لسنوات خلت وكل من يمر في هذه المنطقة يتعرض للسلب، إلا إذا دفع رسم العبور؛ وأظن أنها المنطقة نفسها التي أسماها الأب سيكار «الجوة» في كتاب «مذكرات الإرساليات في الشرق»، الجزء الثاني.
	٦٢	جنوبي	كفر العطف
	٦٣		أسريكه
	٦٤		كفر القرنيني؛ تمر بين هاتين القريتين قناة تصب قرب محلة اللبان والصافي. وتكثر في المنطقة من الدلتا القرى الصغيرة.
	٦٥	جنوبي - غربي	ميت عفيف
	٦٦	جنوبي - شرقي	طنطا؛ حصن صغير مبني فوق الجزيرة.
٨٤			كيد؛ كانت تكثر في المنطقة العصافير الصغيرة التي بنت أعشاشها على ضفة النهر الوعرة.
٨٥		جنوبي - جنوبي - شرقي	حبيب
	٦٧	غربي	كفر الرجولة

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
		غربي - جنوبي - جنوبي - غربي	كفر الفرعونية؛ تعبر فيها قناة تصب في النادر، على الساعد الآخر للنيل.
٨٦			كفر سيفي
	٦٩	جنوبي - جنوبي - شرقي	ساقية أبو شعره
٨٧			برشوم التين؛ تكثر بقربها الجزر الصغيرة.
٨٨			الصالحية
	٧٠	جنوبي	كفر الحمي
٨٩			كفر الحوالي
٩٠		جنوبي - جنوبي - شرقي	شبره الهاوية
٩١		جنوبي	زفيتي
٩٢			شلاقان
٩٣		جنوبي	عراقانية
	٧١		جلامية
٩٤		جنوبي	أبو الغيط
	٧٢		قروطية
٩٥			بسوس
	٧٣		الوراق
٩٦			دمنهور
٩٧			شبره المكاسة
٩٨			الجزيرة
٩٩			بولاق
	٧٤		أمبابة
١٠٠			مصر

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ساعد النيل من رشيد إلى القاهرة(*)
١			عزبة المعدية
٢			عزبة النجار
	١		رشيد
٣			المعطف
٤			التركي
	٢		الشيخ أبو منصور
٥			أبو الكريدي
٦			الملاوات
٧			البصرات
٨			عزبة الكرس
	٣		الجدية
٩			البريدي
١٠			الميكرية
	٤		محلة الأمير
١١			برمبال، يسميها جان لو «ربنبال»
١٢			ميت الرشيد
	٥		ديبه
١٣			منية البنات
	٦		دفيني
١٤			مطوبز
١٥			كوم شريك
	٧		فزاره
١٦			ستديون
	٨		ديروط
١٧			جدية
	٩		المعطف
١٨			فوا، يسميها السيد بريتتباخ «فوى»

(*) لا يمكننا الاعتماد كلياً على هذه اللائحة. على خلاف اللائحة السابقة. نظراً لجهل الأشخاص الذين رافقوني من جهة، ولأنني لم أكن أحسن خلال رحلتي من الرشيد إلى القاهرة، لغة المسلمين وطريقتهم في التفكير من جهة أخرى.

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ساعد النيل من رشيد إلى القاهرة
١٩			شرفا
	١٠		شرونيه
٢٠			شبرخيه
٢١			السالمية
	١١		كفر شعب
٢٢			محلة مالك
	١٢		درشابي
٢٣			دسوق إبراهيم أو سيدي إبراهيم
	١٣		الرحمانية
٢٤			دمجمون
	١٤		مركز
٢٥			محلة أبو علي
	١٥		منية سلامة
٢٦			دمنك
٢٧			كفر محجر
	١٦		أم الحكيم
٢٨			شبرة الشهلا
٢٩			صافي
	١٧		محلة بش
٣٠			محلة ديش
	١٨		كفر عبدين
	١٩		شوبرا نحيت
٣١			محلة ثيناه
	٢٠		المعصرة
	٢١		جبريش
٣٢			كفر رضوان
	٢٢		حليصا
٣٣		جنوبي	سلحجر
	٢٣	جنوبي - جنوبي - شرقي	كفر شهاب الدين
٣٤			الكدابة

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ساعد النيل من رشيد إلى القاهرة
٣٥		جنوبي ـ جنوبي ـ غربي	الفرستك
٣٦		محلة اللبن(*)	كفر محلة اللبن
	٢٤		نكله
	٢٥	جنوبي ـ جنوبي ـ شرقي	شلبمة
٣٧		جنوبي ـ شرقي	عبق
	٢٦	جنوبي ـ جنوبي ـ شرقي	داهرية في نجد قربها ٣ جزر متلاصقة.
	٢٧	جنوبي ـ جنوبي غربي	كنيفة
٣٨			بنوفر
	٢٨	جنوبي	كفر العيس
٣٩			شيخ علي
	٢٩	شرقي ـ جنوبي ـ شرقي	كفر المغات؛ يتقوس النيل نحو الجهة الشرقية ـ الشمالية ـ الشرقية ويقترب من بنوفر.
٤٠		جنوبي ـ غربي	كفر الزيات
٤١			الجلجمان
		غربي ـ جنوبي	شابور
	٣٠	غربي	
٤٢		غربي ـ جنوبي ـ غربي	كفر سوبرات
	٣١	جنوبي ـ جنوبي ـ غربي	كفر سلامون
	٣٢		سلامون
٤٣		جنوبي ـ جنوبي ـ شرقي	كفر البهيدة
	٣٣	جنوبي ـ شرقي	كفر الغريم
٤٤			المثينة
٤٥			كفر المحروق
	٣٤	جنوبي ـ غربي	النجيلي: يقول ربابنة السفن إن هذه البلدة تقع في منتصف الطريق بين الرشيد والقاهرة.
٤٦		جنوبي ـ شرقي	كفر العكروت
٤٧		جنوبي ـ جنوبي ـ شرقي	ميشلا
٤٨			السياله

(*) نجد في هذا المكان قناة تنبع من ساعد النيل وتمر أمام دمياط وطنطا، حيث دفن أحمد البدوي وهو وليّ مصري شهير. ويقال إن العديد من الحجاج يزورون يومياً قبر المذكور حيث يقام سوق كبير. وهذا سبب وجيه لجذب الأجانب.

أسماء المدن والقرى الواقعة على ساعد النيل من رشيد إلى القاهرة	تعرجات النهر	غربي النيل	شرقي النيل
صوافه	جنوبي	٣٥	
طنوب	جنوبي - جنوبي - شرقي		٤٩
الحسيني	جنوبي		٥٠
عمروس	جنوبي - جنوبي - غربي		٥١
كوم شريك		٣٦	
البطظامية			٥٢
زاوية البقلي			٥٣
الطيرية	جنوبي	٣٧	
نافور	جنوبي - جنوبي شرقي		٥٤
أبو الخاوي		٣٨	
كفر دمشك	جنوبي - شرقي		٥٥
كفر جعفر	جنوبي - جنوبي - غربي		٥٦
علقم		٣٩	
مناواهلة			٥٧
نادر			٥٨
كفر نادر			٥٩
شبشه			٦٠
دمشلي		٤٠	
جمليه			٦١
البريجات		٤١	
كفر داوود	جنوبي	٤٢	
جرجاتي	جنوبي - جنوبي - شرقي		٦٢
الطراني		٤٣	
زنزف			٦٣
زاوية رزين			٦٤
الخماس		٤٤	
أبو خواش			٦٥
أبو نشابة		٤٥	
طهرة			٦٦
الحطاطبا		٤٦	

شرقي النيل	غربي النيل	تعرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ساعد النيل من رشيد إلى القاهرة
	٤٧		منية سلامة
	٤٨		أولاد فرج
٦٧		شمالي - شرقي	مونسيه
	٤٩	شرقي - جنوبي - شرقي	دريس
	٥٠	جنوبي - شرقي	أبو تور
٦٨			المنشية
	٥١	جنوبي - جنوبي - شرقي	واردان
٦٩			جريش، تغطي هذه المنطقة الرمال، ويسميها البعض الصنيم
	٥٢		السواني
٧٠			كفر أبو علي
٧١			لنجب
	٥٣	شرقي - جنوبي - شرقي	كفر أبو غالب
٧٢			كفر السالمية
	٥٤	جنوبي	الكطة
٧٣			سيدي إبراهيم
٧٤		جنوبي - شرقي	كفر غالي
٧٥		شرقي	منية العروس
	٥٥	شرقي - شمالي - شرقي	الرهاوي
	٥٦	شرقي	كفر منصور
٧٦			شنشور
	٥٧		أم دينار، عند ارتفاع نسبة مياه النيل، نشاهد قناة كبيرة، تمتد من هذه المنطقة إلى وروارك.
٧٧		شرقي - جنوبي - شرقي	داروا، تقع قرب بطن البكراء أو رأس الدلتا.
	٥٨		الأخصاص، ذكرت القرى الأخرى في اللائحة السابقة.

أسماء المدن والقرى التي ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الأسكندرية(*)

من القاهرة إلى الإسكندرية

باب البكري ١) منية السرج، جنوبي ـ غربي القاهرة ٢) شبرا المكاسة، جنوبي ـ غربي القاهرة ٣) دمنهور ٤) باسوس، غربي ـ جنوبي ـ غربي الأهرام ٥) أبو الغيط، جنوبي ـ غربي ـ جنوبي الأهرام، أبو المنجه: جسر ٦) خرافانيه، جنوبي ـ غربي الأهرام ٧) بهاده ٨) سفيته، ساعد النيل الذي يمر أمام دمياط ٩) شبرا الشهابيه ١٠) كفر الحمه ١١) شنادان؛ يمتد الطريق نحو الشمالي ـ غربي ١٣) فرعانيه ـ شمالي ـ غربي الأهرام ١٤) سمان: لا نرى منها الأهرام الخضرة ١٥) قلته: ساعد من ساعدي النيل ١٦) ثلولنا ١٧) فيشه النصارى ١٨) سرس القته ١٩) منوف العلا ٢٠) تشا وغمرين ٢١) منيه الواط ٢٣) سلمون عشمة ٢٤) دمشه شمالي ـ شمالي ـ غربي أبو كلس ٢٥) بشادي ٢٦) عمروس، على النيل ـ كومازن ٢٧) طنوب ٢٨) الزعبره؛ يمتد الطريق شمالاً على مقربة من النيل ٢٩) النجيلة، شمال النيل: تقع في منتصف الطريق بين القاهرة والإسكندرية ـ مليحة ٣٠) كفر بريم، شمالي ـ غربي ـ غربي بلاقوش ٣١) بريم ٣٢) تقيده ٣٣) صفه العنب ٣٤) أبراج الحمام ٣٥) رمسيس، شمالي ـ غربي ـ شمالي دقدوقة ـ النقراش ٣٦) النيرة، شمالي ـ غربي ٣٧) أبو زينة، شمالي ـ غربي بهاي ٣٨) دنشان، شمالي ـ غربي ـ شمالي عوجه ٣٩) تسونس ٤٠) دمنهور البحيري الواقعة في ثلثي الطريق بين القاهرة والإسكندرية ٤١) القروي ٤٢) بركة غطاس ٤٣) كريون، شمالي ـ غربي ـ شمالي نشو ٤٤) عكريشة العجوز ٤٥) كفر سليم؛ تقع بلدة أبو قير على شمالي ـ غربي هذه المنطقة ٤٦) بيضه، وهي مدينة مهدمة ٤٧) الإسكندرية.

من الإسكندرية إلى الرشيد

بحيره سبخة عراما؛ حصن أبو قير؛ سد؛ بحيرة المعدية؛ قرية الزاوية القريبة من قرية الشيخ حصر؛ أدكوي، العلامات، أو ١١ دعامة حجرية على طريق الرشيد.

(*) أتيت على ذكر بعض الأسماء التالية في لائحتي؛ ويمكنكم ملاحظة الفرق بين الكتابة الدانمركية والسويدية، فاللغوي العربي نفسه الذي دوّن لي اللائحتين استناداً إلى لفظ الرباينة، كتب أيضاً لائحة السيد فورسكال في حضورنا، واستناداً للفظ سائق معنا، لكن الأسماء التي تحمل علامة (+) كُتبت بأحرف مختلفة، لكن إن كتب العربي الأسماء نفسها بطريقة مختلفة وفقاً للفظ مواطنيه، لن يلومني أحد لأنني لم أشأ كتابة الأسماء بنفسي بأحرف عربية.

من الرشيد إلى القاهرة

١) شيخ منصور ٢) سلمية ٣) محلة الأمير ٤) ديبي ٥) تفينة: ساعد النيل الذي يمر أمام الرشيد ٦) أمطوبس ٧) شمشيزة ٨) سنديون؛ في منتصف الطريق بين الرشيد ومحلة الكبير ٩) فوا ١٠) محلة العلوي ١١) محلة مالك ١٢) سلميه ١٣) شرفا ١٤) سيدي إبراهيم الدسوقي ١٥) دماجون ١٦) محلة أبو علي الغربية ١٧) جمينة ١٨) شباس الشهدة، الواقعة شرقي - جنوبي - شرقي الطريق ١٩) شباس الأمير، شرقي - جنوبي - شرقي الطريق ٢٠) طويلة، شرقي - جنوبي - شرقي الطريق - شيخ حارس البدوي ٢١) روينة النطاح شرقي - جنوبي الطريق ٢٢) سخا، شرقي - جنوبي - شرقي الطريق ٢٣) جنوبي - شرقي شرقي الطريق ٢٤) نمرة، شرقي - جنوبي الطريق ٢٥) مهتندية، جنوبي - شرقي الطريق ٢٦) سندسيس ٢٧) محلة الكبيرة ٢٨) شرنبابل ٢٩) العجازية، جنوبي - شرقي الطريق ٣٠) متحاسي، جنوبي - شرقي الطريق ٣١) شبرا، جنوبي - جنوبي - شرقي، غربي النيل - سنباط، ٣٢) دهتورا - حانوت ٣٣) دمسيس، شرقي النيل ٣٤) أبو البنهان، جنوبي - شرقي الطريق ٣٥) عشنة جنوبي شرقي النيل ٣٦) نعمان ٣٧) كفر نعمان، قبالة سنباط ٣٨) سرنكه، قبالة داكورا ٣٩) كفر سرنكه، على مقربة من النيل ٤٠) أبو نغا ٤١) دقادوس ٤٢) ميت غمر ٤٣) زفته، غربي النيل ٤٤) أولاد عنان؛ يمتد بعدها الطريق جنوبي - جنوبي - غربي الدلتا ٤٥) فرسين ٤٦) ميت الرخا ٤٧) شرنبخون ٤٨) بقسه ٤٩) ميت بره؛ ينعطف بعدها الطريق إلى داخل البلاد ٥٠) ميت الحوفين ٥١) دامله جنوبي - غربي - جنوبي النيل ٥٢) بره ٥٣) وروره ٥٤) كفر الجزار ٥٥) بطا ٥٦) عرب أرمل ٥٧) مسيد الخضر، غربي النيل ٥٨) طحله شرقي النيل ٥٩) كفر الرحلات؛ نرى الأهرام جنوباً ٦٠) أميه، جنوبي - غربي الطريق ٦١) خراب ٦٢) أكهور الورد جنوبي - غرب الأهرام ٦٣) قرنفيل ٦٤) سندابيس ٦٥) كفر الحارث جنوبي - شرقي الطريق ٦٦) كفر الجديد جنوبي - شرقي الطريق ٦٧) قليوب، جنوبي - شرقي الطريق، وجنوبي - غربي الأهرام، وجنوبي القاهرة - جسر أبو المنكه ٦٨) المكاسة ٦٩) منيه السراج ٧٠) مصر القاهرة.

مواقع بعض المدن المصرية القديمة

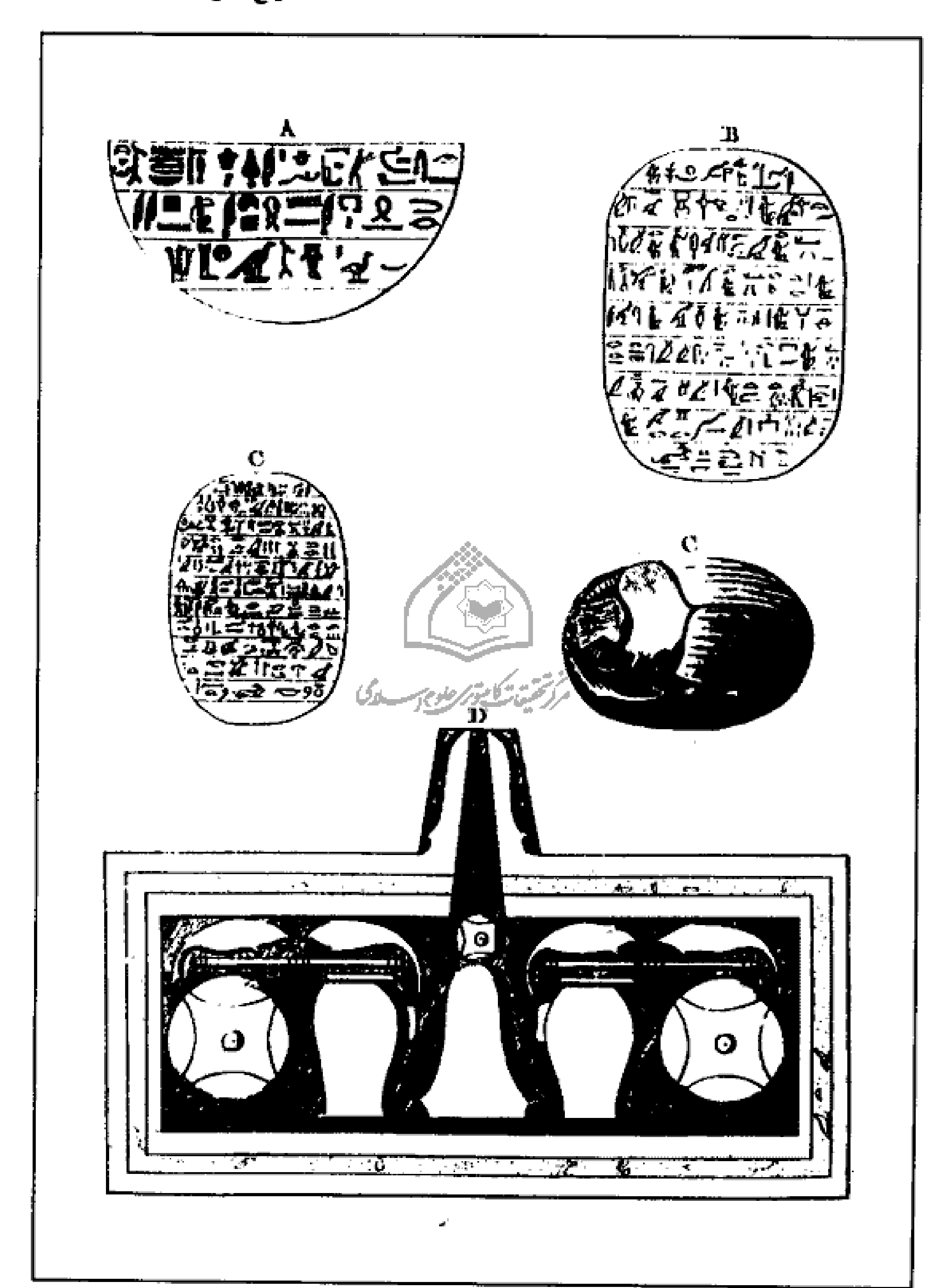
تكثر في الكتب المصرية القديمة أسماء مدن شهدت تغيرات جذرية، حتى أننا لم نعد نستطيع تحديد موقعها؛ ونسمع اليوم الناس يتحدثون عن دمياط والمنصورة ومحلة الكبير وزفته وميت غمر ورشيد وفوه ومنوص وكالجوب، وغيرها من المدن التي لم تظهر إلا منذ وقت قصير. ولما كانت الإسكندرية قد قضت على ممفيس وفسطاط الإسكندرية وفسطاط القاهرة، سقطت المدن المصرية الأخرى تباعاً وحلّت محلها مدن أخرى، دخل معظمها طي النسيان أيضاً. أما بالنسبة للمدن الأخرى، فقد شهدت بدورها تقلبات كبيرة؛ فبعد ترسيخ الدور السياسي في البلاد، اتحد السكان وحققوا معاً ازدهاراً صناعياً باهراً؛ ولكنهم ما لبثوا أن دخلوا عهد الانحلال. واللافت للنظر أن مدن الدلتا كلها عرفت تغيرات جذرية؛ يقول هيرودوس في كتابه الثاني، إن بوفيروس (المعروفة اليوم بأبو صير)، كانت تقع في وسط الدلتا؛ ويبدو أن هذا الجزء من مصر الذي كان يعرف قديماً بالدلتا كان أكثر اتساعاً منه اليوم، وأنه كان يحدّه من الشرق تارة مويس، حيث تصب القناة الكبيرة الممتدة بين قطريب والقاهرة، في بحيرة باهر. أما عدد المدن المصرية الحالي، فلا يوازي عدد المدن التي كانت موجودة قديماً في البلاد؛ وهذا الأمر لا يثير الدهشة، لأن الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك الذين حكموا مصر تباعاً، عمدوا إلى تدمير هذا البلد الخصب، من خلال حكامهم، بعد أن جنوا منه أموالاً طائلة، فراحوا يقلصون سبل عيش السكان، الذين اضطروا للهجرة منه والتخلي عن قراهم ومدنهم.

لا أظن أنه من السهل تحديد موقع معظم المدن المصرية القديمة التي ازدهرت خلال الألفي سنة الماضية. لكننا نستطيع استرجاع موقع عواصم بعض الأقاليم والمدن، مع الأخذ بعين الاعتبار السدود التي شيّدها المصريون القدامى، لحماية أنفسهم من فيضانات نهر النيل، وخاصة تلك التي نجدها قرب بقايا المدن القديمة، من هضاب وقطع صوان، ورخام وخزف، والجدير ذكره أننا لا نجد في مصر السفلى كميات كبيرة من المعالم القديمة الجميلة، فقد غطى التراب معظمها مع مرور الزمن، كما ونقلت كافة المواد، حتى المدفونة منها تحت الأرض، إلى مناطق أخرى، لتستعمل في تشييد الأبنية الحديثة. ولم يكف المصريون عن التنقيب في الأماكن الأثرية بغية استخراج الحجارة اللازمة لبناء الجوامع والمنازل وحتى الأكواخ المتواضعة؛ كما وأنهم يبحثون عن كنوز أسلافهم الأثرياء فيغربلون الأرض المحفورة بحثاً عن الفضة والذهب والحجارة المنحوتة. وسأذكر لكم المناطق التي زرتها في مصر السفلى حيث تمّ العثور على بقايا مدن قديمة. ويمكنكم مقارنة مواقعها على خارطتي. أما بالنسبة للأسماء فسأترك للعلماء الذين يحسنون قراءة كتب المؤلفين القدامى، عناء تحديدها.

عند وصول المسافر إلى هذه الجهة من مصر، يرى آثاراً قديمة قرب الإسكندرية الجديدة؛ ولقد قدمت

وصفاً مفصلاً لها سابقاً؛ والجدير ذكره أن اسم هذه المدينة غير مشكوك فيه لأننا نعرف تماماً من بناها، وأنها احتفظت باسمها الأصلي. ورغم أن هذه المدينة تعد قديمة مقارنة بالمدن الأوروبية ومدن مصر الحديثة، فهي تعتبر حديثة مقارنة بالمدن القديمة في هذه البلاد؛ كما وأن بانيها شخص غريب. أتيت على ذكر بلدة كابوبوس ويقال إنها كانت تقع قرب بلدة أبو مندور في الجنوب، في جوار رشيد، وإنها مغطاة اليوم بطبقة من الرمال الرقيقة، جرفتها الرياح شيئاً فشيئاً. ونشاهد على مقربة من هذا المكان، بقايا بلدة قديمة في جوار منتوس؛ لم أشاهد هذه البلدة رغم أنني سمعت عنها في القاهرة. أخبرني السيد فورسكال أنه خلال سفره براً من القاهرة إلى الإسكندرية، عثر على بقايا بلدة قديمة، غربي النيل، بين دمنهور وبريم على مقربة من قرية رمسيس. وعلاوة على ذلك، نرى اليوم آثاراً قديمة قرب سلحجر في الدلتا؛ يعود اسم هذه البلدة إلى أصل عربي، لكن البلدة التي كانت تحمل هذا الاسم ازدهرت زمن المصريين القدامى. وشاهدت في بولاق صندوقاً من الصوان عليه أحرف هيروغليفية، منقولاً من سلحجر. فسافرت إليها خصيصاً من القاهرة بعد أن أكدوا لي أنها تحوي آثاراً قديمة رائعة. لكنني لم أرَ إلا معالم البلدة التي تحدثت عنها آنفاً، وبعض الأعمدة الشبيهة بتلك التي رسمها نوردن وبوكوك في مصر العليا، والتي استعملها سكان هذه القرية الفقراء لدعم منازلهم. اكتفيت برسم الحجارة التي عثرت عليها أمام معصرة للزيت (راجعوا اللوحة ١١، د) وتدل الرسوم الهيروغليفية على هذه الحجارة، على أن المصريين القدامى قاموا بنحتها؛ فهي منقوشة عليها شأنها شأن الرسوم التي رأيتها على الحجارة الأخرى؛ ولكن اللافت للنظر هو أن الصور الوسطى كانت بارزة أكثر من سواها. وخلال هذه الرحلة شاهدت قرب قرية القم مرتفعات ضخمة، قيل لي إنها بقايا مدينة قديمة.

تكثر في الجهة الشرقية للدلتا معالم مدن قديمة. ذكرت سابقاً أنه في مدينة ستانسوس المطلة على باحر، نجد معالم مدينة قديمة كثيرة، وأننا نستطيع بالتالي تحديد موقع بلدة تانسوس القديمة. وذكرت اسم بلدة أبو صير الصغيرة، الواقعة على ساعد النيل الذي يمر أمام دمياط، واسم بلدة بوصير الشهيرة؛ تقع قرب هذه المنطقة بلدة بعليت حيث شاهد بوكوك وسيكارد معالم رائعة الجمال. ويقال إن الآثار القديمة تكثر قرب ميت بعذ وقناطر الويش، والغال وسمنوّر. ومن الواضح أن هذه المنطقة من الدلتا مميزة جداً وتستحق أن يتوقف فيها الرحالة للقيام بأبحاثه؛ ويزعم أنه في عهد هيرودوس كان المصريون يحجون إلى هذه الشوارع؛ ويزور الأقباط سنوياً كنيسة في جميان؛ ويمكننا مرافقة هؤلاء الحجاج خلال سفرهم دون التعرض للمخاطر. فهم ينزلون في سمانود؛ إنها بلدة صغيرة جداً ولكنها تقع في الموقع نفسه الذي كانت تقع فيه قديماً بلدة سبانتوس؛ ونجد صوب الجنوب مرتفعات ضخمة في جوار قرية قطريب. وهذه المرتفعات هي بقايا بلدة قطريس. وبعد عناء طويل، أقنعت ربان السفينة بإلقاء المرساة فيها، لأن سكانها من القراصنة. وأدركت لاحقاً أنهم نقلوا الحجارة التي يمكن استعمالها ولم يتركوا إلا الصوان والرخام. كان سيد هذه المنطقة، صديقاً لي، ويقوم بأعمال التنقيب في هذه المنطقة؛ حتى أنه كان يغربل الأرض بحثاً عن حجارة أو خواتم أو شيء من هذا القبيل. فقدم لي خنفساء ذهبية، استخرجها مؤخراً من


A
B
C
C
D

الأرض، (ترونها على اللوحة ١١،ج) من الصعب قراءة الأحرف المكتوبة عليها وكأنها نقشت بواسطة إزميل شبيه بذلك الذي يستعمله النحاتون اليوم. ولقد شاهدت خنفساء في البصرة، عند السيد ريفو، ولكنها لا تضاهي هذه جمالاً. ونرى في الصورة أ، قطعة من الخزف اللماع، وكأنها غطاء وعاء ما. وأظن أن الصور محفورة بالطين، وهي شبيهة بالعناوين التي نراها على أغلفة الكتب؛ وهذا يثبت أن المصريين القدامى عرفوا الإزميل والطباعة.

حدّد علماء الجغرافية القدامى والحديثون موقع بلدة هليوبوليس بدقة شديدة. ونرى بقاياها قرب بلدة مطاره في الجهة الشمالية ـ الشمالية الشرقية، على بعد فرسخين من القاهرة أو ٣ فراسخ من فسطاط أو مصر العتيق. ولكن لم يتبق منها إلا سدود كبيرة ومرتفعات من الرخام والصوان والخزف وبقايا سفنكس (أبو الهول)، ونصب عمودي، لم يتمكن السكان من نقله نظراً لثقله؛ فهو مصنوع من الصوان ومغطى بالرسوم الهيروغليفية على جهاته الأربع؛ أما زواياه فهي موجهة نحو جنوب ـ الجنوب ـ الشرقي، وشمال ـ الشمال الغربي، والشرق ـ جنوب ـ شرق، والغرب ـ جنوب ـ غرب. قارنت الصورة الأصلية برسوم نوردن واتضح لي أنها صحيحة. ثم في ٢٤ كانون الأول/ديسمبر كانت المياه تغمر المكان، فلم أستطع الاقتراب جيداً من النصب العمودي لرؤية النقوش. وترون في الصورة ج، من اللوحة ٥، أنني حاولت قياس الارتفاع كما يلي: رسمت خطاً من أ إلى ب طوله ٨٤ ٩. بوصته؛ ومن ب إلى د طوله ٥ أقدام و٧ بوصات؛ مما يعني أن القاعدة طولها ٨٨ قدماً و٨ بوصات. ويبلغ طول الزاوية هـ ـ و ـ س ٣٠ درجة؛ كما يبلغ طول النصب فوق الأفق ٥١ قدماً و٤ بوصات؛ والخط من ب إلى س ٦ أقدام و٩ بوصات وبالتالي يبلغ ارتفاع النصب من الطبقة السفلى ٥٨ قدماً وبوصة؛ وضعت هذه القطعة الأثرية الجميلة في المعبد الشهير المخصص لعبادة الشمس، في بقعة منخفضة جداً. حتى أن مياه النيل تصل إلى ارتفاع ٥ أقدام و٨ بوصات عند بلوغها ذروة علوها. ورغم أن المعبد يشكل جزءاً من البلدة، إلا أنه كان محاطاً بمرتفعات ضخمة لحمايته من فيضانات النيل. ويقول السكان القدامى إنه تم بناء بعض المنازل على هذه المرتفعات. ولقد حاول الدكتور شو في الطبعة الجديدة لكتاب رحلاته، أن يثبت أن هذا الجزء من مصر المعرض لفيضانات النيل قد ارتفع كثيراً منذ عهد هيرودوس. فلا بد إذن من الحفر قرب هذا النصب لمعرفة الارتفاع الذي غطي فيه البلاط بالتراب . لكن الشعب المصري لا يحب أن ينقب الأوروبيون في الأماكن التي تكثر فيها الأثريات، ظنّاً منهم أننا نبحث عن الكنوز. لكنهم لم يمانعوا حين ذكرت لحاكم المنطقة الأسباب التي تحثّنا على القيام بهذه الأبحاث، طالباً منه مساعدة الفلاحين لنا. وممّا لا شكّ فيه أنني أثرت فضول سكان مطاره وأنا أقيس ارتفاع النصب؛ فوقفوا على مقربة من المكان. لأنه خيّل لهم أنني سأرمي هذه الحفنة من الحجارة في الهواء وآخذ الكنز المدفون تحتها. لكنهم لم يوجهوا إليّ أي عبارة فظّة، بعد أن اتضح لهم أنهم أخطأوا الظن. ويسمي الكتّاب العرب هيليوبوليس عين شمس ومصر.

ونشاهد على بعد فرسخين شمالي ـ شرقي هيليوبوليس، آثار قرية قديمة، يطلق عليها العرب اليوم اسم تل اليهود أي مقابر اليهود. وممّا لا شكّ فيه أن أرض غصن تشكل جزءاً من هذه المنطقة. ولعل معبد اليهود الشهير الذي بناه أونياس، يقع في هذه المنطقة وليس في هيليوبوليس، كما يظن البعض. فمن الممكن بالتالي العثور في الجوار على آثار يهودية. ولم أشاهد هذه الهضاب إلا بعد انطلاقي من القاهرة، على بعد فرسخين منها. وقالوا لي إنه تقع قربها قريتا سبيتن وميت الدماثة.

أعطى سكان بلدة فايديه، المجاورة للقاهرة، السيّد فورسكال أسماء المناطق الأخرى الواقعة في هذا الأقليم، التي كانت مجهولة، نظراً لكونها مأهولة باليهود. ولمّا كانت هذه المناطق تستحق الزيارة، سأذكر فيما يلي الأسماء التي جمعها السيد فورسكال: ١) لبلب (Liblab)، عين سيدنا موسى، على بعد فرسخين ونصف من قاعديه. ويقال إنه وجد قديماً في هذا المكان عين مياه عذبة ٢) مرقاب سيدنا موسى، على قمة جبل، على بعد فرسخ ونصف من لبلب، من جهة مصر العتيق. ٣) طرطور اليهود، على بعد ٤ أو ٦ فراسخ من قاعد بيه؛ ونشاهد فيها بقايا قصر قديم ٤) فاسكيتا البطقية (Faesqita bataqiae) الواقعة على بعد فرسخين من قاعديه، على الجهة الشمالية ـ الشرقية. وتكثر في هذا المكان ينابيع المياه، والتربة الحمراء التي تغطي الأراضي والجبال ٥) تنور فرعون أو جبل فرعون، الواقع على بعد فرسخ من قاعديه، نحو الشرق ٦) مقابر اليهود على بعد ٦ فراسخ من قاعديه. ولقد وجدت قديماً، في هذا المكان، بلدة كبيرة مأهولة من اليهود (لعلها البقايا نفسها المذكورة آنفاً في تربة اليهود) ٧) قلعة راي على بعد ٧ أو ٨ فراسخ من قاعد بيه. ونجد هنا بقايا قصر قديم من عهد موسى. ويضيف السيد فورسكال، أنه أخبر هؤلاء العرب، أن أولاد إسرائيل اجتازوا البحر الأحمر، جنوبي السويس، قرب عين سيدي موسى.

من الملاحظ أن العلماء الحديثين، ترددوا في تحديد موقع بلدة ممفيس، نظراً لكثرة البقايا من زمن (أبو الفدا) والشريف الإدريسي؛ كما وأن الكتاب العرب والأوروبيين، حددوا موقع هذه البلدة بدقة شديدة. أما السبب الذي حال دون أن نسمع شيئاً عنها، فيعود إلى أننا نسينا أن العرب أطلقوا على عاصمتهم اسم مصر، بينما كانوا يسمون العاصمة القديمة مصر العتيق وسموا بالتالي مصر، كلاً من هيليوبوليس، وممفيس والفسطاط والقاهرة، بينما تحمل اليوم القاهرة كلاً من الأسماء التالية: مصر، وفسطاط ومصر العتيق. تقع مدينة ممفيس على الضفة الغربية للنيل، على مسافة يوم بكامله من مصر، استناداً لرأي أبو الفدا؛ لكن الشريف الإدريسي يقول إنها تقع جنوبي مصر، أي الفسطاط، أو عاصمة مصر في تلك الحقبة. ومن جهة أخرى يؤكـد بنيامين دو تودلا أن ممفيس تقع على بعد فرسخين من فسطاط العام ١٦٩٧، ولقد شاهد مايي (Maillet) بقاياها حيث كان يتمّ التنقيب عن المومياء؛ فطلب شهادة بلينوس الأكبر (Pline)، الذي قال صراحة إن الأهرام تقع بين ممفيس والدلتا مما يعني أن ممفيس تقع جنوبي

الأهرام التي لا تبعد كثيراً عن الجيزة. ولقد شاهد بوكوك في هذه المنطقة بقايا مدينة قديمة حسبها بقايا مدينة ممفيس(*). أما أنا فلم أشاهد إلا الأهرامات الأولى، لأنني لم أقصد جنوبي مصر؛ فلم أرَ بالتالي معالم بلدات أخرى. لكنني سمعت أنه في جوار سقاره نرى بعض معالم مدينة ممفيس، كما وأنني رأيت في القاهرة، حجارة مستخرجة من هذه الأنحاء، استعملت في بناء المنازل الحديثة والجوامع في العاصمة الجديدة. ولن أذعن لرأي السيد شو، الذي يدّعي أن ممفيس كانت تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه اليوم الجيزة، رغم نفوره من بوكوك وكل من يعارضه الرأي حول هذا الموضوع. وسأحاول مناقشة بعض المقاطع، التي نقلها هذا العالم عن عدة مؤلفين، وذكرها في الصفحة ٢٩٦، من كتابه «رحلات وملاحظات» المطبوع في لندن العام ١٧٥٧؛ رغم أنني لا أظنها تثبت شيئاً مما نريد إثباته. وفي سبيل ترسيخ فكرته، يستشهد الدكتور شو، بـ (ديودور Diodore) ديودورس الصقلّي (ص ٢٩٦). الذي يقول إن ممفيس تقع في النقطة التي ينقسم فيها النيل إلى عدة فروع. وهكذا فاستناداً إلى هذا المقطع، لا يمكنني القول: إن هذه المدينة تقع في موقع الجيزة، بل في الجهة الجنوبية؛ لأن النيل لا يبدأ بالتفرّع عند الطرف الجنوبي للدلتا، بل في البقعة الواقعة بين الجيزة والأهرام. وهو يقول في الصفحة ٢٩٧، إن للدلتا حدوداً ثابتة وغير متغيرة، على منأى من ممفيس؛ بيد أنني لا أوافقه الرأي؛ فرغم أن حدود الدلتا هي بطن البقرة أي في جوار قرية ضروة، فمن الممكن القول إن حدود الدلتا كانت تمتد قديماً نحو الجنوب. فساعد النيل الذي رسمته على الخارطة، بدءاً من أم دينار وصولاً إلى الوراريق ليس قناة ضيقة، بل ممر عريض، تجتازه السفن المسافرة من بولاق إلى رشيد، نظراً لعمقه. ومن الممكن القول إذن إن حدود الدلتا كانت قديماً قرب الوراريق أو سواها. ولما كان هذا لمجرد تخميني، سأراجع ملاحظات بطليموس التي يستعين بها الدكتور لإثبات وجهة نظره. أما بطليموس فيقول: إن ممفيس تقع على بعد ٢٩ دقيقة و ٥٠ ثانية من خط العرض، والدلتا على بعد ٣٠ دقيقة منه؛ بينما يبلغ ارتفاع الجيزة ٣٠ دقيقة أيضاً؛ فإن كانت ممفيس تقع على بعد ميلين وربع الميل جنوباً، لا يمكن القول إنها كانت تقع في موقع الجيزة، ويحاول الكاتب تحديد موقع ممفيس وفقاً لبعدها عن الأهرام (ص ٢٩٨). ويمكننا الاستنتاج أن هذه المدينة كانت واقعة جنوبي النيل على مسافة متساوية من الأهرام. أما سترابون فيؤكد بأننا نستطيع رؤية الأهرام من بابل وأن ممفيس واقعة قبالة هذه المدينة؛ ويحاول الدكتور شو أن يثبت، استناداً لهذا المنطلق (ص ٢٩٩) أن ممفيس كانت واقعة في البقعة التي نشاهد فيها اليوم الجيزة. وصحيح أننا نشاهد الأهرام من قصر القاهرة القديم أو بابل القديمة. لكن الكتّاب الذين أتيت على ذكرهم آنفاً، والذين شاهدوا بأم عينهم بقايا ممفيس، يؤكدون أن

(*) إن الاعتقاد الأكثر صحة هو أن هذه المدينة الجميلة بنيت على مدخل هذا السهل الرملي المعروف اليوم بسهل المومياء، الواقع شمالي الأهرام. فالأنقاض المذهلة التي نراها في هذا المكان، تشير إلى عظمة المدينة وموقعها الصحيح. يقول ريتشارد بوكوك في كتابه وصف الشرق، إن هذه المدينة تقع بين مكنان ومتراحين، على الطريق بين القاهرة والفيوم، على الجهة الغربية للنيل، وأقرب إلى أهرام سقاره منه إلى أهرام الجيزة.

هذه المدينة كانت تقع جنوباً على مقربة من فسطاط، وبابل؛ وهذا ما يحثنا على الاعتقاد أنها لم تكن واقعة غرباً، بل قرب بابل. ولقد أراد سترابون القول إن ممفيس كانت تقع قبالة بابل؛ وهو يستشهد بهيرودوس، الذي يؤكد أن ممفيس كانت تقع في القسم الضيق من مصر. انطلاقاً من هذا المبدأ، بحثت عن موقع المدينة في الجهة الجنوبية، خلافاً للدكتور شو، رغم أنه يدّعي أن الجيزة واقعة في القسم الضيق؛ لأنني اكتشفت أن هذا المكان يقع جنوباً، في أرض مكشوفة، محاطة بهضاب، بنيت عليها الأهرام، التي تشكل القسم الأكثر ضيقاً في مصر. وإن صحّ القول إن الأهرام واقعة في جوار ممفيس، فذلك يعني أنها أخذت عنها لعبتها وبعبارة أخرى، أظن أن الكتّاب الذين ذكرهم الدكتور شو، لا يقدمون لنا البراهين اللازمة، للقول إن مدينة ممفيس كانت واقعة في المكان نفسه الذي نرى فيه اليوم الجيزة، بل يحاولون إقامة الدليل على أنها كانت تقع بين الأهرام وسقاره. ولكن المدهش في الأمر هو أن هذا العالم الكبير لم يلحظ في كتاب «جغرافية السودان»، ولا في كتاب «وصف الرحلة»، اللذين يذكرهما في الصفحة ٣٠٦، للتحقق من موقع مدينة هيليوبوليس، أن موقع مدينة ممفيس، محدد فيهما، كما أنه لم يحاول مقارنة وجهة نظره بشهادة مؤلفي هذين الكتابين.

ويبدو أن اختلاف وجهات النظر بين شو وبوكوك، حول موقع مدينة ممفيس، أثار خلافاً بين العلماء الإنكليز. وإليكم ما يقوله مؤلفو «التاريخ العالمي الحديث»، الجزء الأول، (ص ٣٢٨): «كانت مدينة ممفيس تقع في موقع الجيزة الحالي نفسه؛ وهذا ما يؤكده لنا الدكتور شو، الذي تعتبر ملاحظاته الجغرافية حول مصر وشبه الجزيرة العربية، جديرة بالقراءة أكثر من سواها، نظراً لصحتها ودقتها، واستناداً إلى أبحاث علمية سليمة، وانتقادات سوية... وبعبارة أخرى سيصمد كتابه في وجه الحملات الموجهة ضده، وبعد أن يدخل كل من حمل قلمه وحاول تقليده أو الحط من قدره طي النسيان، أو يواجه بازدراء، جدير به الجدارة كلها».

وبما أني كنت أجهل السبب الذي حثّ العلماء الإنكليز على إصدار هذا الحكم التعسفي بحق الرحالة كافة، واعتبار الدكتور شو زعيماً لهم، فلن أستطيع أن أقدم تفسيراً ملائماً لهذا القرار. ولكنني أقرّ بأننا لا نجد وصفاً للرحلات خالياً من العيوب، أو رحالة معفى من الأحكام المسبقة؛ لذلك من الأفضل عدم الدفاع عن آرائنا بعناد. ولعل يهود وأقباط مصر يستطيعون تحديد مواقع مدن هذه البلاد القديمة، لكن الأوروبيين لا يسعون أبداً لتوطيد صداقتهم بهؤلاء الأشخاص ويفضلون استشارة سواهم، في حال لم يعطهم، أول شخص يصادفونه، أجوبة مرضية.. ولم أحاول أبداً الاستفادة من هذه الفرصة؛ ولكنني أنصح الرحالة اللاحقين، باستغلال هذا الأمر.

وصف القاهرة وبولاق ومصر العتيقة والجيزة

شهدت المناطق المحيطة بالقاهرة تغيرات جذرية خلال الأحد عشر قرناً الماضية، أي بعد أن حكم المسلمون مصر ودمروا بعض المدن، وأهملوا أخرى، وبنوا بعضها الآخر في مكانها. بعيد وصولهم إلى مصر، استولوا على مدينة مصر، بعد أن غادر المقوقس ولا يزال موقع هذه المدينة غير محدّد، رغم أن مؤلفي **«التاريخ العالمي»** يؤمنون بأنها مدينة ممفيس الشهيرة. ولكن استناداً إلى رواية المؤرخين الشرقيين، انسحب المقوقس مع حاميته إلى إحدى جزر النيل بينما سلك اليونانيون الذين كانوا يساندونه الطريق المقابلة باتجاه الإسكندرية(*).

كانت مصر تقع إذن على الضفة الغربية للنيل؛ بينما يقع كل من ممفيس والإسكندرية على الضفة الشرقية منه. وعند مغادرتهم هذه المدينة، لم يضطر اليونانيون لاجتياز النيل، حتى يعودوا إلى الإسكندرية. ولعل مصر هذه هي بابل، التي تحدث عنها المؤلفون اليونان، والواقعة جنوبي القاهرة، بين جبل المقطّم والنيل، إننا نجد في هذه المنطقة، أنقاض كنائس قديمة، يجلُّها الأقباط؛ كما وأن اليهود، الذين كانوا كثراً في مصر(**)، يملكون مقبرة في هذا المكان، رغم بعده عن القاهرة، وخطورة السبل المؤدية إليه.

أطلق المسلمون على المدينة الأولى التي بنوها اسم الفسطاط؛ وتحدث بعض المؤلفين العرب عن أصلها(***). فبعد أن استولى عمرو، قائد الخليفة عمر، على هذا القسم من مصر كان يستعد هو ورجاله للتقدّم نحو الإسكندرية. ولكنه ترك في تلك المنطقة خيمة، بنت عليها حمامة عشها، فقال العرب إن هذا الأمر فأل حسن، وارتأوا بناء مدينة في تلك البقعة. ولكن كانت لديهم أسباب أخرى للاستقرار في هذه المنطقة؛ فالمسلمون الذين وصلوا حديثاً إلى تلك البلاد، فضّلوا عدم الإقامة داخل المدينة، بين السكان المسيحيين. وارتأوا أن يبنوا مكاناً لهم خارجها، حيث حطّوا رحالهم، وذلك في سبيل حماية أنفسهم. فاستقر قربهم العرب الذين كانوا يعملون في مصر، فضلاً عن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام؛ فأدّى ذلك إلى ولادة مدينة الفسطاط. ولئن كان اليونان والرومان قد جعلوا من الإسكندرية عاصمة البلاد نظراً لقربها، فقد اختار العرب ضواحي الفسطاط للسبب نفسه. كما أن الحاكم المقيم في وسط

(*) التاريخ العالمي الحديث، الجزء الأول ص ٣٢٨ ــ ٣٢٥، العدد الثاني.

(**) سير رحلة بنيامين تودلانسيس، ص ١١.

(***) جغرافية السودان، الجزء ٣.

البلاد، يستطيع أن يرسل الجيوش، من هذه البقعة إلى الأقاليم كافة، إن دعت الحاجة لذلك.

وبعد أن أصبحت الفسطاط عاصمة بلاد مصر، سميت مصر؛ ولكنها لم تستمتع طويلاً بهذا الشرف، إذ بدأت تضعف شيئاً فشيئاً، والقاهرة تزداد قوة. وبعد أن تحولت القاهرة إلى عاصمة للبلاد، أسميت مصر أيضاً، بينما عرفت الفسطاط، التي كانت تحمل هذا الاسم أصلاً، بمصر العتيقة. ورغم ذلك حافظ المصريون على الأسماء القديمة، وأطلقوا على مدينة مصر، اسم القاهرة، وعلى الشارع الطويل المطل على النيل، والذي يشكّل جزءاً من مصر العتيقة، اسم الفسطاط. والأوروبيون وحدهم بدّلوا اسم هذه المدينة الأخيرة؛ فهم يسمّون الفسطاط أو مصر العتيق. القاهرة القديمة، رغم أن سكان البلاد الأصليين لم يسموها أبداً القاهرة.

نعلم جيداً أن مدينة القاهرة قد بنيت عام ٣٥٨ أو ٣٥٩ للهجرة، على يد جوهر، قائد جيش الخليفة الفاطمي المعز(*) ولكن هذه المدينة الجديدة لم تعتبر ضاحية الفسطاط إلا عام ٥٧٢، بعد أن سوّرها صلاح الدين، وبنى فيها جوامع جميلة، ومدارس ومستشفيات؛ فالشريف الإدريسي، الذي وضع كتبه قبل هذه الحقبة، لم يأتِ على ذكر القاهرة، واكتفى بالتحدث عن الفسطاط، التي كانت معروفة يومها بمصر. نشاهد اليوم في القاهرة بقايا سورين من أسوار المدينة: يقع السور الداخلي بين باب الفتوح وباب نصر وباب غريب وباب المشرق وباب الفولي؛ ويقع السور الخارجي بين باب الحديد وباب الشاري بين باب المشرق والقصر، قرب باب القرافه. وأنا لا أعرف أياً من هذين السورين بناه صلاح الدين لأنني لم أنقل أية نقوش عربية من هذه البلدة، رغم توافرها بكثرة؛ ولكنني أعتقد أنه بنى السور الداخلي. وكانت حدود مدينة القاهرة كما وصفها جان ليو، على النحو التالي: تشمل ضواحي هذه المناطق، والأماكن الواقعة خارج باب الفتوح وباب النصر وباب الفولي؛ فهذه البوابات الثلاث تضاهي الأخريات عظمة وجمالاً. ولاحظ الأمير رادزفيل الذي وصف حدود القاهرة كذلك، أن الشارع الممتد من باب الفولي إلى القصر يعد من الضواحي. ويقول السيد جان وايلد الذي قضى عدة سنوات في القاهرة في بداية القرن السابع عشر، إن المدينة كانت مسورة؛ وأظنه يقصد السور الخارجي.

ومن الصعب أن نعرف إن كانت مساحة مدينة القاهرة قد زادت أو تقلصت خلال القرون الأخيرة، ولا نملك خارطة لها.

ثم إنه من خلال وصف جان ليو لهذه المدينة، يمكننا القول إنها لم تشهد تغيرات جذرية منذ عهده؛ ورغم أن شارع تيلون (Teilûn) قد صغر بعض الشيء وأن القرافة تضم عدداً أكبر من المقابر؛ ورغم أن عدد المنازل بين القاهرة وبولاق ومصر العتيقة كان في تلك الحقبة يفوق عددها الحالي؛ علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا المؤلف لا يأتي على ذكر شوارع كثيرة واقعة على الطرف الآخر للمدينة. ولعل الضواحي لم تكن متلاصقة، ولا قريبة من القاهرة، كما هي اليوم. وهو لا يشير إلى تاريخ هذه المدينة

(*) وصف عبد الحكم لمصر، وتاريخ الحكام المصريين.

أبداً؛ ولذلك سأكتفي بالتحدث عن موقعها ومساحتها. انطلاقاً من هذا المنظار، رسمت خارطة للقاهرة والمدن المجاورة لبولاق ومصر العتيق والجيزة (اللوحة ١٢). والجدير ذكره أن تنفيذ هذه الخارطة تطلب عناء طويلاً، كما وأن فظاظة سكان القاهرة تجاه كل من يتبع ديانة مختلفة عن ديانتهم، زادت الأمر خطورة ولا إخال أن أحد الأوروبيين حاول الإقدام على هذه الخطوة من قبل. ولكنني جازفت بقياس الشوارع، خاصة تلك التي لها منفذان، وبتحديد موقعها بواسطة بوصلة صغيرة. نجد بين هذه الشوارع الرئيسية أحياء مختلفة، تضم شوارع صغيرة لها منفذ على الشوارع الرئيسية. ويقطن في هذه الأحياء الحرفيون والسكان الفقراء الذين يعملون في المدن الشرقية في دكاكين صغيرة في السوق. ولما كان الزوج يغيب عن منزله طوال النهار، ولما كان الشرقي غير معتاد على زيارة زوجة صديقه أو ابنته، فالأجنبي الذي يشاهد في حي مماثل، هو حتماً تائه، ويحاول أول شخص يصادفه، إعلامه بأن الشارع لا ينفذ إلى الطرف الآخر وعليه أن يعود أدراجه. وبالتالي لا يتمكن الأجنبي إلا من زيارة الأحياء المنفصلة. بيد أنه أتيحت لي فرصة رؤية بعض الأحياء الشعبية؛ وقد أشرت إليها على خارطتي، لأعطي مثالاً عن مواقع شوارع القاهرة المميزة. وعلى غرار كافة المدن التي رأيتها في الشرق، عمدت إلى الإشارة إلى موقعها ومساحتها وأبوابها على الخارطة. في حين أنه قلّما يهم الأوروبيين التعرف إلى شوارع مدن الشرق، ولا أحد يجبر الرحالة على التعرض لهذه المخاطر من أجل مسألة سخيفة إلى هذا الحد. وسأشرح لكم في ما يلي معنى الأحرف والأرقام التي تشاهدونها على اللوحة المذكورة:

على خارطة مدينة القاهرة أو مصر

أ ـ محل إقامة الباشا الحاكم، ب ـ حي الانكشاريين أو بمعنى آخر، القصر، ج ـ حي الغربيين؛ تقع الأماكن أ وب ج على صخرة، تسمى القصر أو الحصن، د ـ محلة قره ميدان، هـ ـ محلة الرميلة، و ـ قلعة الكبش؛ وهي عبارة عن قصر متداع، يقع بقربه جامع طولون ـ سلطان حسن؛ وهو عبارة عن جامع رائع، على مقربة من سوق عقال، حيث يجتمع التجار كلهم، ح ـ جامع الأزهر، وهو جامع ومعهد، ط ـ بطركية الأقباط؛ يقيم فيها بطرك مصر الإغريقي، ي ـ كنيسة القديس نقولا اليونانية؛ ونجد على مقربة منها عقال حمزاوي، ك ـ كنيسة قبطية مبنية فوق أنقاض كنيسة أرمنية، ل ـ كنيسة ومقر أسقف جبل طور اليوناني، م ـ مقر القاضي، ن ـ خان الخليل، س ـ المارستان أو الحجر الصحي، ع ـ مقر القنصل الفرنسي والتجار الفرنسيين، ف ـ مقر قنصل البندقية، ص ـ حي اليهود ق ـ قبة الغربيين؛ كانت قديماً مقر جيوش الغربيين، وفيها حصن وجامع كبير؛ لكن في هذا المكان يستقبل سكان القاهرة الباشاوات الذين يصلون براً، ر ـ مقابر البندقيين والأقباط، ش ـ المسلخ، ت ـ فرن لتفقيس البيض؛ ونجد أيضاً في هذا الحي مصنعاً للبارود، ث ـ فرن الكلس.

أسماء الجسور على القناة التي تجتاز القاهرة

أ ـ قنطرة فم الخليج، ب ـ قنطرة الجنينة، ج ـ قنطرة السباع، د ـ قنطرة أمرشي، هـ ـ قنطرة الجماميز، و ـ قنطرة سنقر، ز ـ قنطرة عبد الرحمن كخيا، ح ـ قنطرة باب الخرق، ط ـ قنطرة الأمير حسين، ي ـ قنطرة الموسكي، ك ـ قنطرة الجديدة، ل ـ قنطرة باب الشعرية، م ـ قنطرة الخروبي، ن ـ قنطرة الضاهر بيبرس.

أسماء البرك

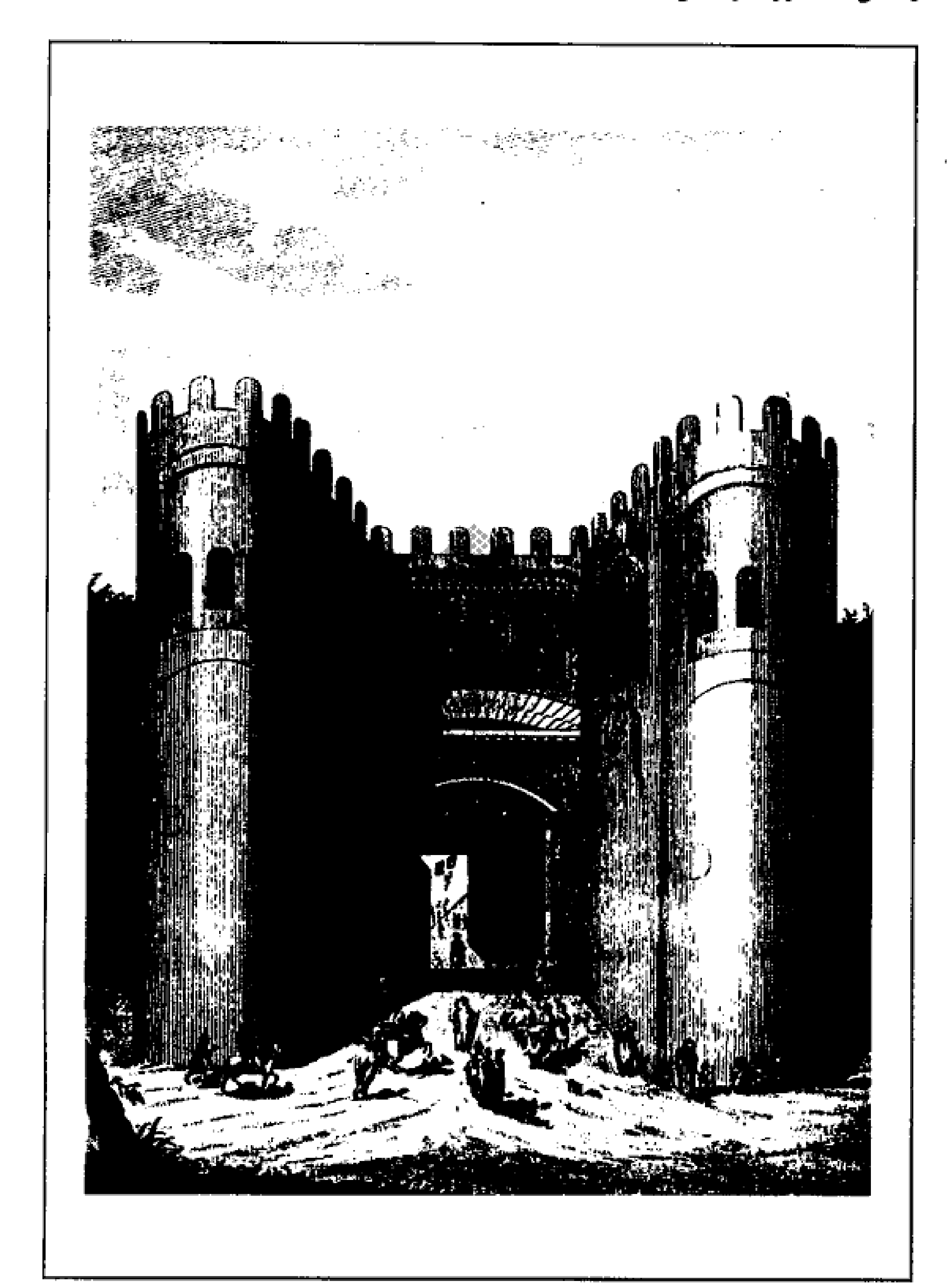
س ـ بركة الشيخ قمر، ع ـ بركة الرطلي، ف ـ بركة اليزبكية، ص بركة الفواله، ق ـ بركة أبو شوارب، ر ـ بركة النصرية، ش ـ بركة القصارين، ت ـ بركة أيوب به، ث ـ بركة الفيل.

أسماء أبواب القاهرة

١ ـ باب النصر، ٢ ـ باب الفتوح، (راجعوا اللوحة XIII) ٣ ـ باب المدبح، ٤ ـ معمل النشي، ٥ ـ باب الشعرية، ٦ ـ باب البكري ٧ ـ باب الشيخ شايب، ٨ ـ باب الحديد، ٩ ـ باب ولاد عنان، ١٠ ـ باب الهوى، ١١ ـ باب الفوالة، ١٢ ـ باب سوق البكري، ١٣ ـ باب المدابغ، ١٤ ـ باب الشيخ ريحان ١٥ ـ باب الناصرية، ١٦ ـ باب غيط الباشا، ١٧ ـ باب أيوب به، ١٨ ـ باب سقي زينب، ١٩ ـ باب طولون، ٢٠ ـ باب الخليفي، ٢١ ـ باب القرافة، ٢٢ ـ باب الجبل، ٢٣ ـ باب ليسار، ٢٤ ـ باب قره ميدن، ٢٥ ـ باب العزب ٢٦ ـ باب الانكشارية، ٢٧ ـ باب الوزير، ٢٨ ـ باب الحطاب، ٢٩ ـ باب المعروف، ٣٠ ـ باب الغريب، ٣١ ـ باب السويلي.

في بولاق ومصر العتيقة والجيزة

٣٢ ـ الهالة، صرح متداع يستقبل فيه سكان القاهرة الباشاوات الذين يعبرون النيل ٣٣ ـ متجر خشب ٣٤ ـ مستودع قديم للأسلحة ٣٥ ـ متجر الملح ٣٦ ـ الجمارك ٣٧ ـ سوق كبير أو قيسارية ٣٨ ـ مصنع آجر ٣٩ ـ أماكن تنزل فيها حجارة ممفيس، وغيرها من المدن القديمة، وينقل منها سكان القاهرة مياه النيل على الجمال ٤٠ ـ منزل بيه ريفي كان يقيم فيه الباشا الذي عزله سكان القاهرة ٤١ ـ المصطبة حيث يتعلم أسياد القاهرة لعبة رمي القوس. ٤٢ ـ كفر العين، صرح كبير يسكن فيه حالياً الدراويش ٤٣ ـ منزل متواضع ينزل فيه الباشا عند حفر سد القناة؛ وتشيد العروس بين النيل والسد، عند تنظيف القناة ٤٤ ـ كنائس ومقابر قبطية؛ ويقال إن الهياكل العظمية تتحرك فيها مرة في السنة ٤٥ ـ صرح ٥ شاهق، له خمس نواعير، ترفع بواسطتها مياه النيل، لتنقل بعده إلى خزان قرب القصر ٤٦



ـ جامع كبير ٤٧ ـ جامع أبو زكي، باني القناة ٤٨ ـ كنيسة قبطية ٤٩ ـ جامع عمرو ٥٠ ـ بقعة مسورة، يسكن فيها المسيحيون ٥١ ـ متجر يوسف للقمح ٥٢ ـ البزار ٥٣ ـ الجمارك ٥٤ ـ فرن في الجيزة ٥٥ ـ مصانع فخار.

لم أرسم سوى مياه البرك، التي لم تكن جافة في شباط/فبراير وآذار/مارس. ولم أستطع تحديد سعة الجنائن المغلقة، على هذه الخارطة؛ ولكنها تكثر في الأماكن التي رسمت فيها أشجار، وتمثل إشارة L L L L المقابر فحسب. وتحمل شوارع القاهرة أسماء الأبواب والجسور المحاذية لها.

تقع بلدة القاهرة، مصر أو القاهرة الكبيرة، كما يسميها الأوروبيون، على بعد فرسخ عن بولاق والنيل، في بقعة رملية، على سفح جبل المقطم. ويمكننا رؤية المدينة جيداً من قمة الجبل علماً أنها محاطة من الجهات الأخرى بمرتفعات من الأقذار التي تجمع يومياً من المدينة وتنقل إليها على ظهر الحمير. ورغم أن القاهرة مدينة كبيرة، لا يمكننا القول إنها مكتظة بالسكان أكثر من المدن الأوروبية التي توازيها مساحة. نجد في هذه العاصمة المصرية مستنقعات كبيرة، تتحول إلى بحيرات صغيرة عندما تمتلىء بالمياه. وتحتل الجوامع المساحة الأكبر من هذه المدينة. ونرى في بعض الأحياء كحي باب الفولي وطولون وحنفي وباب اللوق، والتي لا أعرف شوارعها الأساسية جيداً، رغم أنني أشرت إليها على خارطتي، حدائق فسيحة وأماكن فارغة خاصة بين القناة وبركة الفوال، التي عاينتها عن كثب. وعلى خلاف المنازل الأوروبية، لا تتميز منازل القاهرة بارتفاعها. كما وأن معظمها مبني من القرميد غير المشوي ولا يتألف إلا من طبقة واحدة. يخال، بعض الأوروبيين، أن مدينة القاهرة مكتظة بالسكان، علماً أنهم لم يعيروا مواقع الأحياء انتباهاً. ففي بعض الأماكن، يستطيع جاران، أن يتبادلا الأحاديث من خلف منزليهما، رغم أنهما يقطنان في حيين منفصلين؛ بينما يتوجب عليهما قطع ربع فرسخ ليلتقيا معاً؛ إذ إن الحي له منفذ واحد على الشارع الرئيسي. وبالتالي، يرى الأجنبي هذه الشوارع الكبيرة مكتظة بالناس خلال النهار، خاصة وأنها تشبه شوارع مدن الشرق كلها من حيث ضيقها. لكننا غالباً ما نجد الطرقات الأساسية خالية من الناس، خاصة وأنها بعيدة عن وسط المدينة، ولا يكثر فيها الحرفيون؛ ويبدو الفرق جلياً عند دخولنا إلى الأحياء المنفصلة.

قدمت لنا الكتابات الأخرى شرحاً مفصلاً للغاية عن أحياء مصر وأبنيتها، حتى أننا نستطيع الاكتفاء بذكر موقعها على الخارطة. ولكنني سأضيف بعض الأشياء على ما سبق وذكر. يقع القصر بين المدينة وجبل المقطم على صخرة منفصلة عنه. ولا يمكننا تحديد زمن تشييده على هذا الارتفاع ويقال إنه كان مأهولاً بالسكان ويشكل جزءاً من بابل مصر، التي كانت خاضعة آنذاك لحكم اليونان. يطلق بنيامين دوتودالا على القصر اسم الصوان؛ ويبدو أن يهود مصر، كانوا يعتقدون أن مدينة زوان، المذكورة في

الكتاب المقدس، كانت تقع في هذه المنطقة(*) واللافت للنظر أن موقع هذه الصخرة ملائم للغاية، حتى أن البعض يظن أن المسلمين وجدوها حصينة.لعام ٢١٧ للهجرة. ولقد بنى الخليفة المأمون على جبل المقطم، قبالة القصر المذكور، قصر قبة الهوى، ولكنه مهجور تماماً(**).

يتألف القصر من ٣ أقسام؛ جناح الباشا، جناح الانكشاريين، وجناح العفافرة. أما جناح الباشا، فمهدم كلياً، ولا يليق بحكام مصر. ولما كان الباشاوات لا يطيلون البقاء في منطقة واحدة، لم يحاول أي منهم بناء قصر جديد؛ وبالتالي فهم ينزلون في أماكن لا تليق بهم. يتصل هذا الجناح بالجناحين الآخرين، عبر بابين منفصلين؛ ولكن الباشا لا يحتفظ بمفتاحيهما، بل بمفتاحي البابين اللذين يؤديان إلى الميدان، والجبل والحقول. وعملاً بتقليد هذا البلد، تقفل الأبواب ليلاً بواسطة أقفال خشبية. ونجد في جناح الباشا، قسماً لصك الأموال، تضرب فيه عملة سكين الذهبية، والبارة الفضية، والبورب النحاسية؛ ولكنها لا توازي الأموال التي تضرب في القسطنطينية قيمة. يشبه جناح الانكشاري قلعة منيعة؛ فهو محاط بسور محصن بأبراج شاهقة على غرار القلعات التركية الأخرى. يتكفل السلطان بدفع رواتب الانكشاريين؛ ولما كان معظم الضباط عبيداً عند علية القوم في القاهرة، نراهم أكثر تعلقاً بأسيادهم من السلطان. وهم يلجؤون إلى طرد الباشا، الذي يعينه المصريون، إن رفض الانسحاب خلال الفترة التي يحددها له البهاوات. لكن العرب لا يخشون الانكشاريين، لأنهم يسرقون الأماكن المجاورة للقصر، والمأهولة بالسكان. ويقع في هذه المنطقة، ينبوع يوسف الشهير والذي يزوره الرحالة كلهم. ومما لا شك فيه أن بناء هذا الينبوع يتطلب عناء ومالاً وفيراً، لأنه عميق جداً ومنحوت في الصخر؛ ولكن الصخر حجارة من الكلس اللين والعمل عليها لا يتطلب عناء كبيراً، مقارنة بالمعالم التاريخية الأخرى، مثل الباغود في الهند، المحفورة في الصخور الصلبة. ورسم نوردن صورة واضحة جداً لينبوع يوسف. يعتبر قصر يوسف أكثر الأماكن جمالاً في جناح العفافرة؛ وتصنع فيه الأقمشة الفاخرة (الكسوة)، التي ترسل سنوياً إلى مكة على حساب السلطان؛ ونرى اليوم في هذا البناء، أنقاضاً كثيرة تدل على عظمته السابقة. فقد زينت جدران جناح النساء بصور أشجار ومنازل وخلافها وفسيفساء من عرق اللؤلؤ، والحجارة الكريمة والزجاج الملون. ونرى اليوم في الغرفة التي كان يطرز فيها القماش، بعض النقوش على الجدران. ونشاهد في غرفة ثالثة، رسومات جميلة على السقف. أما فوق هذا الجناح من القصر، حيث البناء مدعوم بسور ضخم فنصادف شرفة مغطاة تطل على الأهرام والجيزة ومصر العتيقة وبولاق، وتشرف على منظر فاتن. والملاحظ أننا نقع في هذا المكان، على أسماء بعض حكام مصر القدامى، محفورة على الجدران. ويقال إن خلفاء مصر وسلاطينها أقاموا في هذا القصر؛ والمدهش أن الحكام الأتراك لم يحذوا حذوهم، ولقد رآني المشرف على العمال،

(*) يعتقد بريانت أن هيليوبوليس كانت تسمى قديماً زوان، راجعوا كتاب ملاحظات حول التاريخ القديم.

(**) التاريخ العالمي الحديث، الجزء الثاني ص ١٣٦.

الذين يصنعون القماش المذكور آنفاً، وأنا أتأمل القصر، فدعاني لشرب القهوة في منزله. فسألته عن يوسف الذي يحمل هذا البناء الجميل والينبوع المذكور اسمه آنفاً، فقال لي إنهما بنيا منذ ٦٠٠ سنة، على يد صلاح الدين. وهذا الأمر ليس خالياً من الصحة لأن الأمير المذكور بنى عدة أماكن عظيمة. وكان يسمى يوسف والد المظفّر، ابن أيوب. أما الأسماء الأخرى التي حملها، مثل السلطان والملك والنصر، وصلاح الدين، فهي ألقاب شرف، ونشاهد قرب قصر يوسف هذا حوالي الثلاثين عموداً من الغرانيت الأحمر؛ ولكنها لا تضاهي عمود بومبي، في الإسكندرية، جمالاً وعظمة. أما الطريق المؤدي إلى صف الأعمدة هذا فهو محفور في الصخر؛ ونشاهد على سور أحد الأبنية صقراً منقوشاً عليه، زالت ملامحه مع مرور الزمن.

لم تعد القرافة مأهولة بالسكان؛ لكننا نرى فيها جوامع جميلة مهدمة جزئياً، وأضرحة ملوك مصر القدامى. وفي هذا المكان بالذات، دفن الشافعي، مؤسس أحد المذاهب الأربعة التابعة لأهل السنة. وكانت النساء المسلمات تزرن هذا المكان، خاصة نهار الجمعة، إما للعبادة أو للتنزه. في الجهة الأخرى للقصر، بين جبل المقطم والمدينة، نشاهد عدداً كبيراً من الجوامع المتداعية، ودور عبادة مجاورة لقبور المسلمين الأثرياء، والتي يبلغ طولها حوالي الميل(*).

ونجد أنفسنا أمام خيارين: إما اعتبار قاعد بيه نبياً، بين هؤلاء الأثرياء المدفونين أم إنه كان يدرك أن الآخرين لن يتلفوا جامعه؛ لأن المعبد الذي شيده في هذا المكان هو في حالة جيدة وقد بنيت حوله عدة منازل وباتت تشكل قرية كبيرة. يرقد اليزبك الذي شيد جامعاً كبيراً بالقاهرة، في الشارع الذي يحمل اسمه في أحد جوامع قاعد بيه، في الجهة الشمالية ـ الشرقية، وضريحه محاط بعدد وافر من المنازل. فيبدو جلياً أن أسياد المسلمين في مصر، أسرفوا في بناء المعابد، شأنهم شأن سلاطين القسطنطينية؛ ولعلهم بالغوا أكثر منهم. سمعت أنه يوم كان ملك البلاد يقيم في القاهرة، كان الشيوخ الفقراء ينتقلون من جامع إلى آخر، حيث يؤمنون لهم الطعام والمأوى مجاناً.

يتميز حي طولون بجامعه الكبير، الذي يبلغ طوله ٢٠٠ قدم، وبقلعة الكبش القديمة. بنى هذه القلعة المدعو أحمد بن طولون، الذي ثار، عام ٢٦٥ للهجرة في وجه خليفة بغداد. مما يعني أن هذا القصر أقدم من مدينة القاهرة(*) ومن بين جوامع هذه المدينة كلها، يعد جامع الأزهر أكثرها قدماً وغنىً وأكبرها مساحة. حيث يؤمن يومياً المأكل والمأوى لعدد كبير من الفقراء. ونجد هنا معهداً إسلامياً شهيراً، على

(*) يسمى ماراي هذا المكان الصحراء وهو لا يتحدث عن ضريح قاعد بيه فحسب، بل عن جوامع وأضرحة في القاهرة وضواحيها.

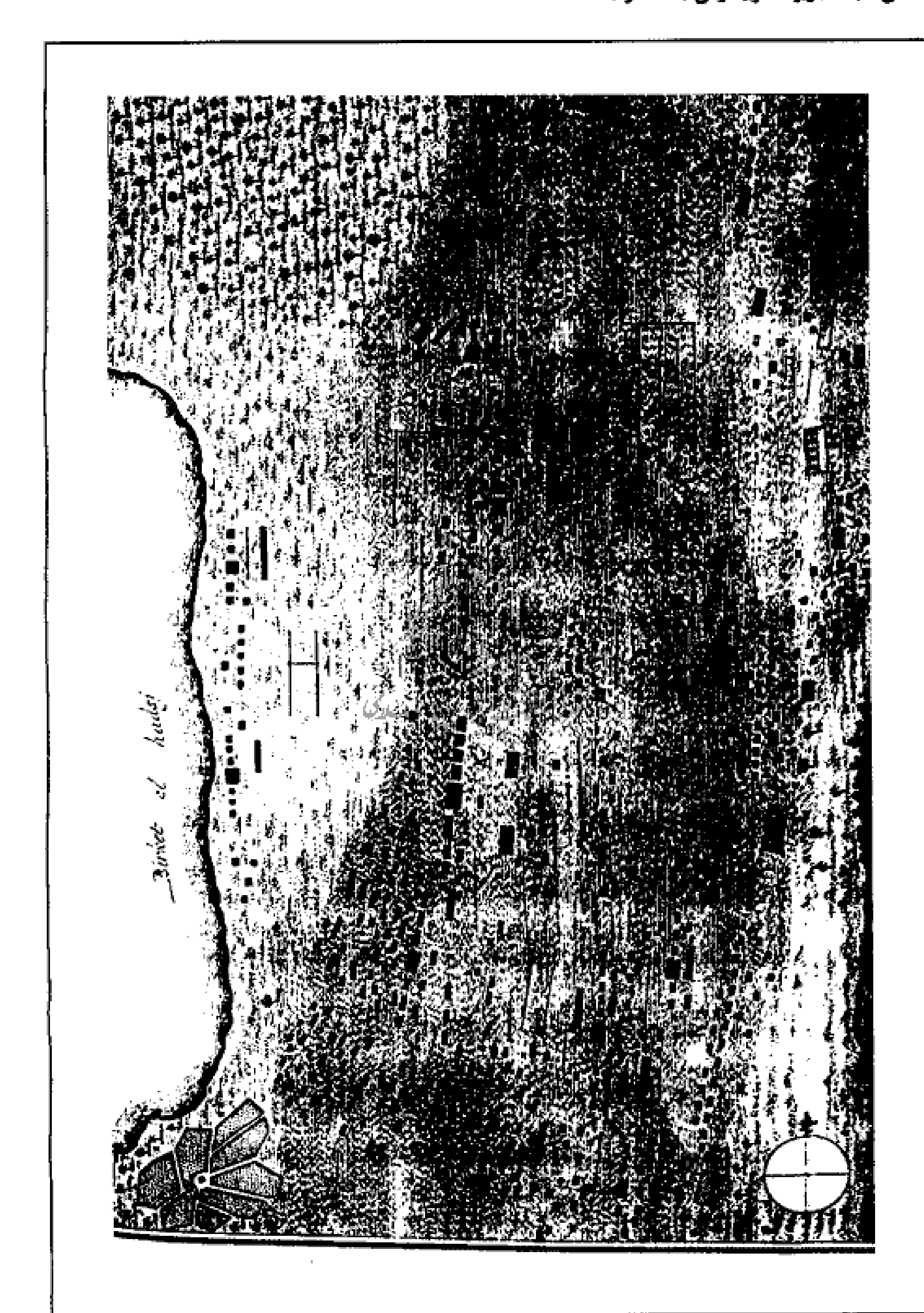
(*) **وصف تاريخي لأفريقيا**، جان ليون. **التاريخ العالمي الحديث**، الجزء الثاني، ص ١٨٤. و**تاريخ ملوك مصر**، ماراي. يقول هذا الأخير: إن أحمد بن طولون بدأ بتشييد جامعه عام ٢٦٣، وانتهى منه عام ٢٦٥، وأن السلطان لجين المنصوري زوده بأموال طائلة، وأنه بنى قرب الجامع مدارس كثيرة.

رأسه ٤ مفتين يمثلون المذاهب الأربعة: الشافعي، والحنفي، والحنبلي والمالكي. يتميز جامع السلطان حسن، الواقع على مقربة من الرميل، بجماله وارتفاعه وصلابته. ولما كان يستعمل قديماً كمربض للمدافع، أحيطت بوابات المعبد بالأسوار. والجدير ذكره أن عدد الجوامع في القاهرة كبير جداً، وأظن أن تعدادها وذكر أسمائها والإشارة إلى موقعها على الخارطة قد يثير ملل القارىء. سأكتفي إذن بالقول: إن عدداً كبيراً منها له أكثر من منارة، محاطة برواق أو أكثر، تستعمل لدعوة الناس إلى الصلاة. يقول المسلمون، إن رنين الأجراس خاص بالدواب؛ يعلقون أجراساً صغيرة بالجمال والبغال التي تستعمل في القوافل. وتقتصر زينة الجوامع على السجاد الفاخر أو الحصر البسيطة، والنقوش الذهبية على الجدران، التي تتضمن آيات قرآنية وقناديل غير جميلة معلقة أفقياً بسلسلة من الحلقات. ومن الجهة المقابلة لمكة، نرى كوة من المرمر، تسمى القبلة، وضع أمامها شمعدانان كبيران فيهما شموع طويلة وخلال الصلاة يوجّه المسلمون كلهم وجوههم نحو القبلة. أما المارستان فهو مستشفى المجانين والمرضى ويقال إن مؤلفات العرب تتحدث تفصيلياً عن عائدات المستشفى والجوامع الكبيرة. واللافت للنظر أن المشرفين على إدارة هذه الأموال يغتنون بسرعة، بينما تفتقر الجوامع شيئاً فشيئاً، إلا أن يظهر ورثة جدد يحاولون إصلاح الأضرار التي تسببها هذه العمليات. ومما لا شك فيه أن هذا المستشفى مجهز بكل ما يحتاجه المريض، حتى الموسيقى. ومن المعروف أنه لسنوات خلت حرم المرضى من هذه التسلية؛ ولكن الفضل يعود لعبد الرحمن الكخيا في التمتع بها ثانية. ولم أرَ من هذا المبنى إلا جناح المرضى، الذين كانوا قلّة، مقارنة بكبر مساحة المدينة. وتكثر في القاهرة المباني الحجرية الصلبة المجهزة بغرف صغيرة ودكاكين للتجار. ومن الملاحظ أيضاً أن عدد الحمامات العامة مرتفع جداً؛ ورغم أن منظرها الخارجي ليس لائقاً إلا أنها فسيحة ونظيفة من الداخل. فالأرض مغطاة بالمرمر الفاخر، ويسهر الخدم فيها على راحة الزوار. والجدير ذكره أن الاحتفالات التي يقومون بها مع الذين يرتادون الحمام، تبدو في غاية الغرابة بالنسبة للأوروبي، حتى أنه يخالهم يسخرون منه. لكن هذا ليس من شيم الشرقيين. ومن الأفضل أن يذعن الفرد لإرادتهم، ويحاول الاسترخاء، نجد في داخل المبنى غرفة صغيرة، وضع في وسطها عمود طوله حوالي قدمين ونصف القدم، يجلس عليه كل من يشاء انتزاع الشعر عن أعضائه التناسلية بواسطة مرهم يباع في الحمامات. وما لفت انتباهي في هذا المكان، هو أنني رأيت بين رسومات القدامى، صوراً لأشخاص عراة جالسين على هذا العمود. وهذا الأمر يدفعني للاستنتاج أن هذه العادة الرائجة اليوم في الحمامات، هي قديمة العهد. ومن بين المباني العامة في القاهرة، نذكر أيضاً المنازل التي يقدم أهلها يومياً الماء مجاناً للمارة. وتتميز بعض هذه المنازل بمظهرها الجميل؛ ويحتفظ أهلها على الشرفات بكؤوس نحاسية نظيفة مملوءة بالمياه، تقدم للمارة. وتكثر في القاهرة أيضاً البرك التي هي عبارة عن أماكن منخفضة، تتحول في غضون ١٢ شهراً إلى بحيرات صغيرة، لتصبح بعدها حدائق غنّاء ومروجاً خضراء ثم لتمسي أخيراً صحراء. ويقيم في هذه المناطق، وخاصة في محيط بركة الفيل، أسياد المدينة. لكن المسلمين لا يظهرون أبداً عظمتهم على منازلهم؛ ولهذا السبب لا نرى من قصورهم إلا الأسوار الشاهقة.

تحدثت سابقاً عن أنقاض هيليوبوليس، التي نراها على بعد فرسخين شمالي الشمال الشرقي للقاهرة. ونجد على مقربة من هنا قرية مطاره، حيث نرى أشجار جميز يجله مسيحيو الشرق؛ إذ يُزعم أنها فتحت أغصانها لتخبيء بينها العائلة المقدسة، خلال هروبها من مصر، إلى أن مر مضطهدوها. تحدث السيد بريتباخ والأمير رادزفيل، وغيرهما عن هذه الأعجوبة ولكن يجدر بنا ألا نتوقع العثور هنا على الشجرة نفسها التي يزيد عمرها على ١٨٠٠ سنة. ويقول الأمير رادزفيل إنها شاهقة وكثيفة ومشقوقة؛ بينما يدّعي ويلد أنها منقسمة إلى ٣ أقسام ولا أذكر أنني شاهدت شجرة تحمل هذه المواصفات؛ مما يجعلني أشك بأن الشجرة التي كانت تُجل منذ ٢٠٠ سنة، لا تزال موجودة حتى اليوم. ولكن المسيحيين الذين يعبرون من هنا، يأخذون قطعة من هذه الشجرة التي يزعمون أنها مقدسة. ونرى بالقرب منها ينبوعاً تدفقت منه المياه العذبة، عند مرور العائلة المقدسة بمحاذاته. فضلاً عن شجر اللبان، الذي قضى عام ١٦١٥ بفعل فيضان مياه النيل، وفقاً لكلام هنري رانتزوف؛ ومنذ خضوع مصر لحكم الأتراك، لم يتكبد أحد عناء زراعة نباتات جديدة من هذه الفصيلة من الأشجار.

وعلى بعد ٤ فراسخ شرقي القاهرة، تقع بركة الحاج، التي تصب فيها مياه النيل؛ ويتجمع سنوياً حولها الحجاج قبيل انطلاقهم إلى مكة، وبعد عودتهم منها. وتكثر حول هذه البركة القرى والمنازل القروية المتداعية، التي تعود لسكان القاهرة، وبعض بساتين البلح؛ وهي تتميز بالبقعة الفسيحة التي يخيم فيها الحجاج. وبعد عودتي من دمياط، في ٢٠ أيار/مايو عام ١٧٦٢، أي قبل يومين من انطلاق الحجاج، أسرعت لمشاهدة هذه القوافل الشهيرة قرب بركة الحاج ووصفت مشروع التخييم (راجعوا اللوحة ١٤) بيد أنني لم أنقل بصورة صحيحة الفوضى التي كانت تعم المخيم؛ فكل مسافر ينصب خيمته حيثما يحلو له. لكن أمير الحج وحده هو الذي كان يملك خيماً كثيرة، كان ينصبها بشكل منظم. وإليكم شرحاً للأحرف المشار إليها على الخارطة المذكورة آنفاً. أ ـ خيم أمير الحج، وفي وسطها خيمة صغيرة يوضع فيها القماش الفاخر، الذي سينقل إلى مكة، ب ـ مقر الأمير خلال النهار؛ نجد أمامها ٣ مدافع صغيرة؛ وأربعة أمام المقر (ج)، د ـ خيم بائعي المؤن. وتمثل الخطوط المستقيمة الحبال التي تربط فيها الخيول والجمال، هـ ـ قرية فقيرة، و ـ منازل قروية ملك أسياد القاهرة. تشير الأحرف المتبقية إلى خيم مستديرة ومستطيلة. وإنني لم أشاهد هذه القافلة وهي تغادر القاهرة؛ ولكن تناول بعض الكتاب هذا الموضوع بتفصيل دقيق. وينضم إلى هذه القافلة المغربيون أو عرب الغرب، ويتابعون رحلتهم برفقتها؛ علماً أن المغربيين الذين يمارسون الأعمال التجارية، يسافرون مع المصريين؛ أما الجزائريون والتونسيون، وأهالي طرابلس الغرب، فيسبقون الآخرين أو يحطون رحالهم بعدهم بيوم واحد؛ كما وأنهم لا يدفعون رسم العبور للحكومة المصرية.

يقام في بولاق بازار كبير يعرف بالكيساري (Kissarie)؛ أخبرني صديق لي مقيم في القاهرة، أن الأباطرة الإغريق أو الرومان أطلقوا عليه هذه التسمية. ولكننا نجد في مدن أخرى، كبيروت مثلاً، أسواقاً هائلة، تسمى كيساري (Kissarie)؛ فهذه التسمية مرادفة إذن للبزستان في القسطنطينية، وعقال في


Birket el hadj

القاهرة(*). وتعد بولاق اليوم مدينة مهمة، ومرفأً أساسياً من مرافيء القاهرة؛ إذ تمر فيها كل البضائع التي ترسل عبر النيل، من دمياط ورشيد إلى العاصمة، أو إلى المتوسط؛ مما يعني أننا نجد فيها أهم مركز للجمارك. وتكثر في بولاق مستودعات الأرزّ، والملح، والبارود الأبيض والخشب، والزعفران، الذي ينمو في مصر العليا، ولكن الزعفران الذي تنتجه مصر الوسطى يصدَّر إلى القاهرة. ونجد أيضاً في بولاق مستودعاً خاصاً بالسلطان، يجمع فيه القمح الذي يرسل سنوياً من مصر إلى مكة والمدينة وآخر قديماً، يوضع فيه عتاد السفن العائدة إلى الحقبة التي كانوا يملكون فيها أسطولاً في السويس.

تعد الفسطاط أو مصر العتيقة ـ كما اعتاد الأوروبيون على تسميتها، مدينة بحد ذاتها ـ ولكنها صغيرة جداً مقارنة بمدينة الفسطاط القديمة، التي كانت عاصمة مصر. ونجد فيها مركزاً للجمارك تدفع فيه رسوم عبور البضائع المرسلة من مصر العليا، فضلاً عن مكان فسيح محاط بسور حصين تجمع فيه الحكومة القمح في الهواء الطلق؛ ولقد شيّد هذا البناء في عهد الخلفاء المسلمين. أما المؤلفون الذين يؤكدون أن يوسف بنى مستودع القمح هذا، فقد خدعهم بنيامين دوتولا، الذي يقول في سير رحلته (ص ١٠٤) إنه وجد في مصر العتيق بقايا مستودعات قمح، بناها يوسف. ولكنه يتحدث عن ممفيس الواقعة على بعد فرسخين من مصر العتيق. ويقع الجامع الذي بناه القائد العربي، عمرو بن العاص، بين مصر العتيق وجبل المقطم. يزوره علية القوم في القاهرة مرة في السنة احتفاءً بذكرى بناء المسجد الأول في المكان نفسه؛ ونرى في الجوار بناء محاطاً بسور قديم. (راجعوا الصورة على اللوحة ١٢) ولعل حصن مدينة مصر، المذكورة في حديث العرب عن غزو مصر، كانت مبنية في هذا المكان؛ والجدير ذكره أن هذا الحصن المتداعي مأهول اليوم بالمسيحيين. ونجد في هذا المكان أيضاً عدة كنائس ومقابر إغريقية وقبطية وديراً للنساء الأقباط، ومغارة مقدسة، إذ يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيها لبعض الوقت. يحتفظ الإنكليز والفرنسيون بمقبرة هنا، وكنيسة صغيرة، يقيم بقربها راهب فرانسيسكاني. تشتهر كنيسة القديس غريغوريوس الإغريقية بعجائبها الكثيرة، يقال إن المجانين من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، يستعيدون رشدهم إن أوثقوا بغلاً مربوطاً بأحد أعمدة الكنيسة، وتليت الصلوات لراحة أنفسهم. وعلى مقربة من الكنيسة، شاهدت بئراً عميقاً، يمتلىء سنوياً بالمياه عند ارتفاع منسوب مياه النهر. وقيل لي، إن ضفة النيل، كانت قديماً في هذه البقعة؛ وهذا الأمر ليس بعارٍ تماماً من الصحة، إن أخذنا بعين الاعتبار تغير مجاري الأنهر مع مرور الزمن، خاصة في النقاط التي تمر فيها أمام المدن. وبالتالي فالقناة الممتدة بين الفسطاط وجزيرة الروضة تبقى جافة عند انخفاض منسوب المياه. ولقد أشار الأمير رادزفيل، أنه منذ حوالي ٢٠٠ سنة كان الناس يعبرون من مصر العتيق إلى جزيرة الروضة مشياً على الأقدام، نظراً لانخفاض منسوب المياه. ولعل ضفة النيل الشرقية لم تشهد تغيرات ملحوظة منذ عدة قرون.

رسمت على الخارطة القناة التي تنقل بواسطتها مياه النيل إلى قصر القاهرة، والتي شيّدت حسب

(*) تسمى الأبنية العامة في بلاد بربر كيساري (Casserie)؛ تاريخ بلاد البربر، يار دان، ص ١٦٨.

تقرير ماراي على يد السلطان الغوري الذي استلم الحكم العام ١٥٠١ ميلادية، ونجد على الضفة الأخرى للقناة التي تجتاز القاهرة وعلى مقربة من النيل، صرح كفر العين الذي تعلوه قبة. ويشير الدراويش الذين يقطنون فيه حالياً ـ ويجنون منه مبالغ طائلة ـ إلى البقعة التي قتل فيها السلطان سليم. كما وأنهم يملكون طرائق أخرى معلقة فوق باب هذا الدير، ومنها حذاء يبلغ طول نعله ٢٢ بوصة، قيل إن درويشاً يدعى إبراهيم ارتداه في عهد السلطان بيبرس؛ وغليون رأسه كبير، وغيرها من النوادر التي جمعتها هذه الأخوية خلال رحلاتها، واحتفظت بها للذكرى. وعلى مقربة من هذا الدير، اعتاد أسياد القاهرة وأفراد عائلتهم، التمرن بالبنادق والأقواس، نهاري الأربعاء والسبت؛ إذ أقام بعض منهم في هذا المكان حجارة تدل على بعد مرمى السهام.

تقع مدينة الجيزة على الضفة الغربية للنيل، قبالة مصر العتيق؛ إلاّ أني أجهل أصل هذه المدينة. ولكنها ليست بجديدة نظراً للمرتفعات المحيطة بها التي تشكلت بفعل القمامة التي تجمع من الطرقات وتنقل خارج المدينة. وأخالها برزت مع بروز مدينة الفسطاط، وانحلت مع انحلالها. أما سكانها فمعظمهم من الحرفيين، الذين كانوا يعملون في الفسطاط، وارتأوا العودة إلى القاهرة، بعد انحلال الفسطاط. لم يلفت انتباهي في الجيزة إلا المنازل القروية وبعض المصانع.

تقع جزيرة الروضة بين مصر العتيقة والجيزة. وخلال القرون العشرة الأخيرة، لم يطرأ أي تغير على مساحة هذه الجزيرة؛ وإن شئنا وصف مساحتها وصورتها، علينا أن نقرأ كتاب الشريف الإدريسي. ففي زمن هذا المؤلف شهدت مصر العتيق ازدهاراً ملموساً. بينما كانت تضم هذه الجزيرة حدائق غناء ومنازل قروية جميلة، ونظراً لتكاثر أعمال سكان العاصمة على الضفة المقابلة للنيل، بني جسر للسفن بين الفسطاط والروضة وبين الروضة والجيزة. لكن أصبحت القاهرة العاصمة، وهدم الجسر الذي يصل الفسطاط بهذه الجزيرة؛ إذ نقل سكان القاهرة منازلهم القروية إلى مصر العتيق وبولاق، وبركة الحاج. وبالتالي، فقدت الروضة معالمها المميزة باستثناء سور كبير على الطرف الجنوبي، وبعض الصروح القديمة ومنها الجامع الذي يحوي المقياس الشهير. رسم عدة رحالة هذا الصرح؛ ولكن نوردن وحده الذي أجاد رسمه. والجدير ذكره أن الصورة أجمل من الأصل الذي نقلت عنه.

لست أدري إن حاول أحدهم قياس عرض النيل؛ ولقد قسته بواسطة قاعدة طولها ٢٣٣ قدماً وزاويتين متلاصقتين فوجدت أن عرض النيل قرب الجيزة يبلغ ٢٩٤٦ قدماً بما فيها عرض جزيرة المقياس التي ظهرت منذ سنوات قليلة. لكن يبلغ عرض النيل قرب رشيد ٦٥٠ قدماً وقرب دمياط ١٠٠ قدم في الواقع. ويرتفع منسوب النهر في شهر حزيران/يونيو لمدة ٤٠ أو ٥٠ يوماً حتى يعود وينخفض شيئاً فشيئاً؛ إذ إن السماء تمطر بغزارة خلال أشهر الصيف الحارة، في الحبشة والجهة الغربية لجبال اليمن، مما يؤدي إلى فيضان مياه النيل. كما وأن أنهر اليمن تفيض في الموسم نفسه، لتصب في البحر أو تمتصها الرمال؛ بينما تتجمع الأنهر والجداول في الحبشة لتشكل نهراً واحداً يجتاز بلاد مصر كلها. ولما لم يسمح لي بقياس انخفاض منسوب المياه قرب المقياس، بحثت في الجيزة على أحد الجدران الوعرة على دليل عن أعلى

نسبة لفيضان مياه النيل الأخير، ووجدت أنه في ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٧٦٢، كانت على ارتفاع ١٥ قدماً، فوق سطح المياه، وانخفضت بمعدل ٢٤ قدماً في الأول من حزيران/يونيو التالي. من المؤكد إذن أنه في ضواحي القاهرة ترتفع مياه النيل بمعدل ٢٤ قدماً. بينما أكدوا لي في دمياط والقاهرة أن ارتفاع منسوب المياه لا يزيد على الأربعة أقدام، فإن تأملنا في فيضان النيل، نرَ أنه في البقعة التي يضيق فيها المجرى يرتفع منسوب المياه في أكثر من جهة المتوسط وذلك بعد أن يروي الحقول اليابسة المجاورة للقاهرة، ويملأ البرك أو البحيرات الصغيرة وينقسم إلى فروع صغيرة. ولكن لا أحد يتوقع هذا الفرق في ارتفاع منسوب المياه ضمن هذه المسافة الصغيرة. وعند ارتفاع منسوب النيل، تسد وتنظف القنوات التي اشتقت من النهر الكبير لدى الأرياف المجاورة؛ ولا تفتح إلا بعد أن يبلغ منسوب المياه ارتفاعاً محدداً. مقياس جزيرة الروضة وحده الذي يحدد هذا الارتفاع. وقد أوكلت لأحد الشيوخ مهمة الإعلان عن ارتفاع منسوب المياه. ويسارع الفقراء الذين يسمعون الخبر في مصر العتيق والفسطاط إلى القاهرة لنشره في شوارعهم وأحيائهم. ويعودون بعدها إلى الفسطاط، ليصرح لهم الشيخ من جزيرة الروضة عن مقدار ارتفاع منسوب المياه. فينشر هذا الخبر أيضاً، إلى أن يبلغ النيل الارتفاع المطلوب، لفتح القناة التي تجتاز القاهرة؛ وهذا يعني أنه يتوجب دفع الضريبة للسلطان، وأنه لا داعي للخوف من الجفاف. ولكن لا أحد يعتمد على الأخبار التي تذاع حول فيضان النيل. الشيخ وحده يقترب من المقياس، ويعلن في البداية عن ارتفاع بسيط لمنسوب المياه، ليخبرهم لاحقاً عن تدفقها بشكل قوي؛ فإن لم يرتفع المنسوب كثيراً، فلا يخشى السكان من عدم بلوغه الارتفاع المطلوب قبل فتح القناة. شاهدت مصبها في القاهرة، وحاولت مراقبة اختلاف ارتفاع منسوب المياه على سور وعر؛ وفي اليوم نفسه قيل في البلدة إن منسوب المياه ارتفع ٣ مرات أكثر مما كنت أظن. وكنت أتمنى أن يشيد يوماً ما، تاجر أوروبي من القاهرة، أو أحد رهبان هذه المدينة، أو رحالة أوروبي، مقياساً شبيهاً بمقياس المسلمين. وإليكم أفضل طريقة للقيام بذلك. فعند بلوغ منسوب المياه أدنى ارتفاع، يقاس علو السور المحاذي للنهر، وتحصى الحجارة التي تعلو سطح المياه، ويراقب ارتفاع منسوب المياه يوماً بيوم. خلال ارتفاع منسوب المياه، نلاحظ أحياناً انخفاضه بشكل فجائي؛ ولعل ذلك عائد إلى صب المياه في أحد القنوات. وهذا يؤدي إلى اختلاف واضح في فيضان النيل. في السنة التي قصدت فيها بلاد مصر، نشر للمرة الأولى في ٢٩ كانون الثاني/يناير أن منسوب مياه النيل بدأ بالارتفاع؛ ونشر في ٨ آب/أغسطس أن ارتفاعه بلغ ١٦ ذراعاً. عند ذلك شُيّد سد القناة التي تجتاز القاهرة، في ٩ آب/أغسطس، ورافق ذلك احتفالات تقليدية تحدث عنها مطولاً عدة مؤلفين. انتظرنا طويلاً لنشاهد تدفق المياه في المدينة، ولكن انتظارنا ذهب سدىً؛ لأن القناة لم تنظف جيداً تلك السنة، ولم نشاهد تدفق المياه إلا مساءَ العاشر من آب/أغسطس. وأثار هذا الحادث الاستثنائي بلبلة بين سكان القاهرة؛ وقيل إنهم سينزلون العقاب بكل من أساء تنظيف القناة؛ ولكنه دفع مبلغاً كبيراً للملك، وبنى على حسابه سداً جديداً للقناة، ووضع حجر الأساس له في ١٢ آب/أغسطس، بعد حفر قناة القاهرة، فتحت القنوات الأخرى شيئاً فشيئاً؛ إذ لا يحق لكل منطقة بنزح ماء النيل عند ارتفاع منسوبها.

ولهذا السبب وضع المصريون قوانين خاصة بهم تنظم عملية سد القنوات الصغيرة. وتبقى مجاري البرك في القاهرة وضواحيها مسدودة ثلاثة أيام حتى تصب مياهها في القناة التي تجتاز القاهرة. وفي تلك السنة، لم تصل المياه إلى بركة اليزبكي إلا في ١٨ آب/أغسطس.

بين سد القناة التي تجتاز القاهرة والنيل شيّد عمود من التراب في وسط القناة؛ ويطلق المصريون على هذه الحفنة من التراب اسم العروس. ولقد علمت أن المصريين الوثنيين كانوا يقدمون سنوياً عذراء كأضحية للنيل. لكن المسلمين أرادوا بناء مقياس للشعب من خلال عمود العروس هذا؛ قبل أن يبنى السد، فمجرى المياه ليس قوياً كفاية إذا لم يصل لقلب العروس التي تدل على مدى ارتفاع منسوب مياه النيل. لكن بعد القيام ببناء السد أمكن التخلي عن خدمات العروس؛ ولما كان المجرى يقوى كثيراً في القناة خاصة في الأيام الأولى فالمياه ستقلبها حتماً. وذكر غابريال سيونيتا في ملحق كتاب الشريف الإدريسي، أن المصريين يجرون اختبارات لتحديد ارتفاع منسوب مياه النيل مسبقاً. ويقال في بلاد مصر، إنه من مساء ١٧ حزيران/يونيو إلى ١٨ منه، يبدأ منسوب مياه النيل بالارتفاع في الحبشة، أو تسقط النقطة التي تسبب فيضان النيل. وفي الليلة المذكورة، تضع النساء عجيناً على سطوح منازلهنّ؛ فإن زاد وزنه فذلك يشير إلى سقوط النقطة؛ ومن خلال هذه التجربة، يحاول المصريون تحديد مدى ارتفاع منسوب مياه النيل وأسعار الفاكهة للسنة المقبلة. ولما كانت الحرارة في بلاد مصر، معتدلة جداً، فقد يتساقط الندى ليلاً في ذلك الفصل ويؤدي إلى زيادة وزن العجين. ولما كانت النساء تعرضّن العجين للمرة الأولى في الليلة المذكورة، فذلك يعزز إيمانهنّ بصحة اختبارهنّ. بيد أن النساء لم يتّفقن تلك السنة حول الليلة التي سقطت فيها النقطة؛ إذ إن بعضاً منهنّ لم يحسنّ الترتيب الزمني القبطي. من المؤكد إذن أنه تجري كل سنة في بلاد مصر، تجارب لتحديد زمن ارتفاع منسوب مياه النيل والتنبؤ بالجفاف أو بوفرة المياه. لكن علماء المسلمين يعتبرون هذا الأمر مجرد تسلية نسائية. وقال لي أحدهم إن علماء الفلك العرب يسمون النقطة دخول الشمس في برج السرطان؛ ولعل هذه التسمية حثّت الناس على القيام بهذه التجارب التافهة. وأظن أن السيد فورسكال قام بنفسه ببعض التجارب؛ وإليكم شرحه لهذا الموضوع:

وفي ليلة ١٧ حزيران/يونيو ينتظر سكان القاهرة سقوط النقطة؛ ولما كانت أشهر المسلمين لا تصادف دوماً في الموسم نفسه فهم يتبعون الترتيب الزمني القبطي. يظن المصريون أن النقاط تتساقط من السماء في الليل في النيل، وتؤدي إلى فيضان النهر بعد أسبوعين أو ثلاثة. ويتم التكهن حول فيضان النيل المقبل، وخصوبة السنة القادمة. في هذه الليلة بالذات. وإليكم ما يفعلونه: يوضع رطل من الطين في وعاء عميق، يضاف إليه رطل من ماء النيل ونتركه يرتاح طوال الليلة التي نتوقع فيها سقوط النقطة سواءً داخل المنزل أو خارجه. فإن شرب الطين الماء كانت السنة جافة؛ لكن إن بقي بعض الماء كانت السنة غنية بالمياه. قمت بنفسي بهذا الاختبار عدة مرات؛ وكانت المياه تبقى في الوعاء دوماً. غير أنني لا أظن أن تراب

النيل، يمتص كمية كبيرة من المياه؛ والدليل على ذلك فيضان نهر النيل سنوياً. فالكمية المتبقية من المياه لا تعني شيئاً؛ غير أن كل إنسان يحاول التكهن بما يحلو له.

وإليكم طريقة أخرى للتنبؤ: تصنع ١٢ علبة صغيرة من الورق، ويكتب على كل منها اسم شهر قبطي. ويوضع في كل علبة حبة قمح من الوزن نفسه. لكن إن زاد وزن إحدى العلب، قيل إن مياه النيل ستفيض في الشهر المدون على العلبة. بيد أنني أجد هذا الاختبار أكثر غرابة من الأول.

ويقال أيضاً إن العجينة التي توضع في الهواء الطلق عشية سقوط النقطة، تتحول إلى خميرة. وإن شاء أفراد العائلة أن يتسلوا وضع كل واحد منهم قطعة من العجين في صحن منفرد؛ ومن ترفخ عجينته أكثر سيسعد أكثر من سواه. أجريت هذا الاختبار عدة مرات. وفي الليلة التي سبقت ١٧ حزيران/يونيو، لم ترفخ العجينة؛ ولكن في الليالي الثلاث التالية رفخت كثيراً. ومما لا شك فيه أن ارتفاع الحرارة هو الذي أدى إلى ذلك، وليس النقطة العجائبية.

ذكرت لكم سابقاً أنهم ينظفون قناة القاهرة سنوياً؛ لتستعمل بعدها كشارع؛ غير أن ذلك لا يدوم طويلاً، لأن السد سيخرق قريباً. خلال الأشهر التالية، ويستمتع أصحاب المنازل الواقعة على الضفاف بالمياه الجارية؛ ولكن سرعان ما تتكدس عليها أوساخ المدينة كلها باعثة رائحة كريهة للغاية.

لا تتوافر مياه الشفة في القاهرة؛ وهي تنقل إليها يومياً من المناطق المجاورة، على ظهر الجمال والحمير. ونجد تحت المساجد الكبيرة خزانات عامة، تملأ بالمياه لتزود المدينة بها، عند ارتفاع منسوب مياه النيل، وتعكر صفوها. لكن إن فرك داخل الأوعية باللوز أصبحت المياه صافية وصالحة للشرب. ويقال إن مياه النيل تسبب طفحاً جلدياً، في أحد فصول السنة؛ غير أنه ليس مزعجاً ولا يضر بالصحة.



سكان مدينة القاهرة وشكل الحكم والتجارة فيها

إن غالبية سكان القاهرة من العرب والأتراك وغيرهم من المسلمين من كافة الولايات التركية. وهناك المغربيون أو عرب بلاد البربر والأفريقيون والتتر والفارسيون. والمسلمون أباً عن جد هم من أهل السنة وينتمون بغالبيتهم إلى المذهب الشافعي. ويعتبر الأقباط المسيحيون الأكثر عدداً بعد المسلمين. وهم ينحدرون من المصريين القدامى والأتراك يدعوهم بسخرية: خلف فرعون. ويسكن الأقباط في الشوارع الكبيرة المجاورة لبركة اليزبكية (Birket el Jüsbekie) ولقنطرة الشرق (Kantaret el Charq) ولباب شيخ رهان (Bâb Schech Rihân) وفي أماكن أخرى. لهم كنيستان في القاهرة وعدة كنائس أخرى في مصر العتيق (Masr el atik) وهي المدينة التي اتخذها البطريرك القبطي مسكناً له علماً أن كافة الكهنة الأقباط في مصر يخضعون له كما ويرسل إلى الحبشة رئيساً للإكليروس.

أما اليهود فيحتلون المرتبة الثالثة من حيث العدد بعد المسلمين والأقباط. ينقسم اليهود إلى الفريسيين والتلموديين وأيضاً القرائين (Karaites) ولهم كنيس خاص بهم بالرغم من صغر عددهم. يحتل التلموديون مركزاً جيداً في مصر، فلقد وضعوا يدهم منذ عدة سنوات على كافة الجمارك في بولاق (Bulák) ومصر العتيقة والإسكندرية ودمياط. ولهذا السبب، يمكنهم أن يحصلوا على الحماية والدعم في مصر أكثر من ولايات الإمبراطورية التركية حيث يكون رجال الجمارك من جماعة الباشاوات أو مدير عام الجمارك الذي يسكن في القسطنطينية. ونذكر من أهم الأدلة على نفوذ اليهود في الجمارك أن الدوائر الجمركية تقفل أيام السبت في وجه كافة البضائع سواء كان أصحابها من المسلمين أو من المسيحيين. ولليونانيين كنيستان في القاهرة يستقر في إحداها بطريركهم وفي الثانية مطران جبل سيناء. ويقل عدد الأرمن في القاهرة لكن لديهم كنيسة صغيرة جميلة تابعة لكنيسة الأقباط في قنطرة جديد. أما فيما يتعلق بالجاليات الأوروبية فهناك قنصلية فرنسية في القاهرة وأخرى هولندية وثالثة إيطالية. كما ونجد تجاراً فرنسيين وإيطاليين، أما التاجر الهولندي الوحيد الذي كان قد استقر في القاهرة قبل مجيئنا إليها بقليل فقد عاد إلى إزمير ونحن لا نزال في القاهرة. ويكثر الكهنة في هذه المدينة من يسوعيين وكبوشيين وآباء التبشير وآباء الأرض المقدسة والفرنسيسكان يجدون للحصول على أتباع لهم وغالباً ما ينجحون في هداية بعض مسيحيي الشرق إلى الكنيسة الرومانية. ومع أن هؤلاء المهتدين الجدد يسوء سلوكهم كمواطنين على حسب ظن المسلمين، إلا أن الحكومة لا تتدخل في منع المبشرين الأوروبيين لأن الشجار غالباً ما يندلع بين المهتدين الجدد والمخلصين للكنيسة القديمة فيضطر الفريق المعتدي إلى دفع غرامة

للباشاوات وأحياناً يضطر الرهبان أنفسهم إلى دفع مبالغ طائلة.

يلتزم زمام الحكم في القاهرة باشا لكن سلطته ليست كبيرة مثل الباشاوات في الولايات الأخرى، ذلك لأنه يخضع خضوعاً شبه كامل للجمهورية أو لديوان الجمهورية أي للبهوات ولرؤساء الجيوش المصرية ولغيرهم من المديرين في القاهرة. ولأن نمط تفكير المصريين يختلف عن نمط تفكير الباشا، يعتبره هؤلاء جائراً ويقصونه عن الحكم عندما لا يكون سياسياً محنكاً يعرف كيف يحرّض الأحزاب بعضها على بعض. وعندما كنت في الإسكندرية، قام أهل القاهرة بطرد أحد الباشاوات. أما مصطفى باشا فقد عيّن مرتين وزيراً كبيراً ثم مرة ثالثة لاحقاً. وكان قد تلقى الأمر بالتوجه إلى جدة لكنه ادّعى المرض ولم يذهب مع القافلة الكبيرة التي كانت متجهة إليها بل أرسل مكانه وزيراً مفوضاً مطلق الصلاحية وبقي في مصر. ثم بعد ذلك اختاره المصريون باشا عليهم وتصرفوا بطريقة جعلت السلطان يعينه حاكماً على مصر بالرغم من استيائه من مصطفى باشا ومن المصريين. إلا أن هذا الأخير لم يشغل منصبه إلا لمدة سبعة أشهر إذ أرغم على التخلي عنه لصالح باشا آخر قادم من القسطنطينية إلى القاهرة. وتبع الاثنان كايجي باشي (Kapidsji Bâschi) لكن الباشا الجديد توفي فجأة أثناء الليلة التالية. وهكذا فقد توالى على الحكم ثلاثة رجال في الفترة القصيرة التي مكثت فيها بمصر. كما ويستبدل قاضي القاهرة الأول كل سنة بقاضٍ آخر من القسطنطينية. ولست أدري إذا ما كان هناك مناصب أخرى في القاهرة تخضع مباشرة لقرار السلطان أو المفتي الكبير.

بعد منصب الباشا أو حاكم السلطان، يأتي مباشرة منصب البهوات. ومع أن السلطان هو الآمر الناهي في موضوع تعيينهم إلا أن المصريين هم الذين يقترحون أسماء المرشحين. وكثيراً ما يكون هؤلاء من المسيحيين الذين أحضروا في سنٍ مبكرة من جورجيا إلى القسطنطينية ومنها إلى القاهرة فبيعوا بستين أو مئة قرش إلى البهوات والمسؤولين الكبار في القاهرة فيعلمهم هؤلاء وكأنهم أبناؤهم تماماً كما كان الأسياد المسلمون المحترمون يعاملون عبيدهم. ثم كانوا يدبرون لهم وظائف مدنية أو عسكرية في فرقهم الخاصة إذا ما وجدوهم أهلاً لهذه المناصب إذ كان لكل بيه حراسه الخلّص أو حتى جيش صغير خاص به كمؤشر على عظمته وكوسيلة لحفظ الأمن في الولاية والمقاطعات التي يسيطر عليها. ولأن هؤلاء العبيد يدينون بكل ما لديهم لأسيادهم، نجدهم يخلصون لهم الإخلاص كله. وعندما يلاحظ أحد الأسياد في عبده قدراتٍ واعدة وإخلاصاً كبيراً، يسخو في تنشئته ويصرف عليه أموالاً تفوق الأموال التي يصرفها على نفسه لأنه يساهم بهذه الطريقة في تعزيز شأنه في الحكومة. ولقد عرفت أحد التجار الأغنياء وكان لديه خادم واحد وحمار واحد يمتطيه عندما يخرج لإدارة أعماله. لكنه كان قد وضع بعض عبيده في مناصب ضباط رفيعي المستوى في الجيش المصري وكانوا يظهرون بأبهة وجلال في الشوارع لكن ذلك لم يحل دون تفانيهم في الدفاع عمّن أحسن إليهم. يحكى عن رجلٍ يدعى حسن الكخيا (Hassan

(Kichja) أوصل عبيده إلى مراكز رفيعة جداً. ومن بين هؤلاء رجل هو عثمان الكخيا كان بدوره سيداً لعبدٍ هو إبراهيم الكخيا. وقد دفع هذا الأخير أموالاً طائلة لتنشئة عبيده وخدمه ووضعهم في أرقى المناصب حتى استطاع في السنوات الأخيرة أن يحكم تقريباً مصر بكاملها مع أن منصبه الشخصي كان متواضعاً فقد كان (الكخيا) أي كان يشغل المنصب الأول بعد آغا الانكشاريين. في الوقت الذي كنت فيه بمصر كان يحكم البلاد عبد الرحمن الكخيا ابن حسن الكخيا الآنف الذكر. ولم يكن لديه نفوذ كبير لكنه كان مسنوداً من قبل عدد كبير من البهوات والآغاوات لأنهم كانوا يدينون بثرواتهم لعائلته ولأنه كان غنياً ولديه فرق عسكرية عديدة وحائزاً على احترام رجال الدين والشعب. ويقال إن بهوات مصر كافة ينحدرون من أهلٍ مسيحيين وإنهم بيعوا كعبيد في سنٍ مبكرة: لكن ثمة بهوات مسلمون أباً عن جد ولم يكونوا يوماً عبيداً. وهذه قائمة بأسماء بهوات مصر كافة في الوقت الذي مكثت فيها:

١ ـ خليل بيه، اشتراه إبراهيم الكخيا وربّاه، وعام ١٧٦٢ تولى منصب دفتردار مصر أي أمين الصندوق.

٢ ـ حسني بيه وكان في العام نفسه «أمير الحج» (Emir Hadsj) أو قائد قافلة مصر وقد كان عبداً عند إبراهيم الكخيا.

٣ ـ علي بيه، من عبيد إبراهيم الكخيا، كان يحتل منصب شيخ البلد أو حاكم مدينة القاهرة. كان يطلق عليه اسم الصُغَيِّر أو علي بيه الصغير. في السنة التالية قام هو وحزبه بإجبار الباشا أن يأمر عبد الرحمن الكخيا الذي كان يصحب رفاقه إلى بركة الحاج (Birket el Hadsji) في طريقهم إلى مكة ألا يعود إلى القاهرة وأن يرحل هو والقافلة. وهكذا أصبح علي بيه أكثر نفوذاً من عبد الرحمن الكخيا. إلا أن سلطته لم تدم كثيراً إذ أخرج هو الآخر من مصر وأرسل إلى غزة. عام ١٧٦٨ عاد إلى القاهرة وقتل أربعة بهوات في ليلة واحدة وأرغم الباشا على عدم السماح لأربعة بهوات آخرين بالعودة إلى القاهرة بعد أن كانوا قد هربوا منها. ومنذ ذلك الحين أصبح رئيساً لحزبه الذي لم يكن قد حُلّ، والآمر الناهي في القاهرة. ولقد علمت من المجلدات أنه طرد الباشا وأعلن نفسه ضد السلطان إلى أن جاء محمد أبو الذهب وطرده فلجأ إلى الضاهر عمر (Dáhher Omar) والي عكا. ولم أوفق في معرفة المناصب التي كان يشغلها البهوات الآخرون لكن إليكم أسماء البهوات الثلاثة الذين ذكرتهم آنفاً.

٤ ـ عثمان بيه وكان من عبيد إبراهيم كخيا.

٥ ـ حسن بيه وكان عبداً عند سليمان آغا.

٦ ـ حسن بيه من عبيد عمر بيه الألكتار (Electeâr) وكان يسمى حسن بيه رضوان لتمييزه عن حسن بيه السابق.

٧ ـ خليل بيه الملقّب بالبلفي (Belfie). كان والده يدعى إبراهيم بيه وبالتالي كان ينحدر من أصل مسلم. ولقد كان رجلاً مميزاً.

٨ ـ حسن بيه الملقّب باسم داماد (Damûd). كان عبداً عند سليمان آغا.

٩ ـ صالح باشا وكان من عبيده مصطفى بيه الكرد (El Kerd).

١٠ ـ عثمان بيه الملقب بأبي سيف لأنه يحسن استعمال السيف. كان تركي الأصل من القسطنطينية ولم يكن عبداً قط. كان في خدمة إبراهيم كخيا الذي رقاه إلى أفضل المناصب في الجيش ثم أعطاه لقب بيه.

١١ ـ خليل بيه الملقب بالسكران، كان عبداً عند حسين بيه أمير الحج.

١٢ ـ أحمد بيه السكّري، أبوه بائع سكر مسلم في القاهرة. فهو لم يكن مسيحياً قط ولقد نشأ في منزل إبراهيم كخيا، وفي أيامي كان حاكم السويس.

١٣ ـ إسماعيل بيه، من عبيد إبراهيم كخيا.

١٤ ـ محمود بيه، من عبيد عثمان كخيا.

١٥ ـ حمزة بيه ابن حسن بيه عباسة وهو مسلم الأصل.

١٦ ـ محمد بيه الملقب باسم حنفي. كان عبداً عند سليمان آغا.

١٧ ـ محمد بيه دالي (Dâli). هو ابن إسماعيل بيه الدالي أي مسلم الأصل.

١٨ ـ علي بيه الملقب بعلي بيه الكبير لتمييزه عن شيخ البلد، ولأنه كان واسع النفوذ في القاهرة منذ بضع سنوات. عندما كنا في مصر، أرسل إلى غزة ثم عاد إلى القاهرة قبل رحيلنا منها ومات بعد ذلك بقليل، ويعزى موته إلى عباءة مبطنة بفرو مسموم أهداه إياها أحد أصدقائه البهوات. علي بيه كان من عبيد إبراهيم باشا، اشتراه هذا الأخير وأنشأه عنده. يقال إن والده كاهن من جيورجيا وإن أهله وأشقاءه وشقيقاته كانوا يأتون لزيارته في القاهرة وقد بقيت عنده شقيقة وشقيقان من أشقائه وبعد أن تظاهر هذان الأخيران باعتناق الدين الإسلامي، عيّنهما علي بيه حاكمين على مقاطعتين صغيرتين.

إن عدد البهوات في مصر هو ٢٤ لكن هذا العدد لم يكتمل أبداً ربما لأن عائدات البلد لم تعد كافية كما في السابق أو ربما لأن الباشاوات والبهوات يقتسمون فيما بينهم عائدات الآخرين ومداخيلهم. وإليكم أسماء الذين يتبعون البهوات في ديوان القاهرة:

١ ـ الآغا أو رئيس فوج المتفرقة (Metafárraka). أما الشخص الذي يشغل حالياً هذا المنصب فلقد كان عبداً عند إبراهيم كخيا.

٢ ـ (Katschuda Tsjauschân) وكان عبداً عند عثمان كخيا.

٣ ـ آغا فوج الغلمان (Dsjümlán)، كان عبداً عند إبراهيم كخيا.

٤ ـ آغا فوج التفكشان (Teffekschán)، من عبيد إبراهيم كخيا.

٥ ـ آغا فوج الشركس (Tsjaraksa)، من عبيد عثمان كخيا.

٦ ـ آغا الانكشاريين. إن الشخص الذي يشغل هذا المنصب كل سنة من عبيد إبراهيم كخيا.

٧ ـ آغا فوج أصّب (Assab)، من عبيد إبراهيم كخيا.

وبالإضافة إلى هؤلاء كلهم، هناك أشخاص آخرون يقيمون في ديوان الباشا ككخيا الأفواج وعدد كبير من رجال القانون ورجال الدين... ولأني لا أعلم شيئاً عن مهامهم، لن أستطيع أن أنقل أخبارهم. كنت أتمنى لو أن السيد مايّيه (Maillet) دخل في تفاصيل شكل الحكم في مصر لأنه أمضى سنوات عديدة في هذا البلد وتعرّف على أهم رجالاته لذا فهو من سينقل أخباره. ويبدو أن شكل الدولة لا يزال حتى اليوم كما هو وكما وجده الأتراك وكما لم يستطيعوا تغييره بالرغم من كبريائهم وسلطتهم.

قد يظن البعض أن الأمن ينعدم في القاهرة لأنها معقل عدد كبير من الطغاة المتناصرين فيما بينهم على السلطة. لكن الجدير بالذكر أن أخبار السرقات وجرائم القتل هي أقل بكثير في القاهرة من غيرها من المدن الكبيرة في أوروبا. فإلى جانب القاضي الكبير، هناك قضاة آخرون مجبرون على عقد جلساتٍ يومية في الشوارع التي تعيّن لهم وفي بعض المنازل لإحقاق الحق. وللانكشاريين وجود في كافة الشوارع للحفاظ على الأمن. ولكل مهنةٍ خبير محلف يعرف كل الذين يعملون فيها وحتى فتيات الهوى واللصوص لديهم مخاتيرهم في بلاد الشرق، لكن لا يحق للصوص السرقة إلا أنه عندما يشتكي أحد الناس من سرقة شيءٍ ما ويتوجه إلى مختار اللصوص يمكنه غالباً أن يستعيد الشيء المسروق لقاء مبلغ ما(*). ويقوم مسؤولو العدالة والشرطة بالتنقل ليلاً ونهاراً في شوارع المدينة لمراقبة الكيل والقياسات والبضائع المتوجهة نحو السوق وللقبض على الأشخاص المشتبه بأمرهم لضربهم ولشنقهم حالاً من دون أي محاكمة في حال وجدوا متلبسين. وهكذا، فإن الخوف من القضاة ومن هذه الإجراءات الصارمة يرمي الرعب في قلوب المشاغبين. ولقد لاحظت الذعر بين المصريين عندما يصادفون أحد هؤلاء المسؤولين في الشارع وكان خادمي المسلم يتمنى أن يعود أدراجه في كل مرة يصادف فيها أحد هؤلاء المسؤولين في الشارع خوفاً من أن يشاهدوه بصحبة غريب في شوارع لا يمر بها الأوروبيون ولولا

(*) علمت أنه في طرابلس الغرب، يختار العبيد السود مختاراً لهم ويعلن نفسه أمام السلطة. وتشير التجارب إلى أن وجود مثل هؤلاء الأشخاص ضروري جداً. فهم يعرفون نظراءهم كافة ويبقون عيناً ساهرة على نشاطاتهم. فإن حدث أن فرّ أحد العبيد من سيده، يبلّغ هذا الأخير مختار العبيد الذي لا يتأخر في معرفة الطريق التي هرب إليها العبد.

إصراري على الذهاب إليها لما وافق على مرافقتي. ويساهم عدد الأبواب الكبير في المناطق المنفصلة وفي الشوارع الأساسية من المدينة في زيادة اطمئنان سكانها لأنها تغلق كل ليلةٍ ما عدا شهر رمضان. وأمام كل باب يقف بواب، ولقاء أجرٍ زهيد يفتح الباب لكل من يأتي في عملٍ ما إلى المدينة أثناء الليل حاملاً بيده قنديلاً، إلا أنه يغلق الباب في وجه الأشخاص المشبوهين. وهكذا فإن اللصوص الذين يخرجون أثناء الليل للسرقة لا يمكنهم الابتعاد كثيراً. وعلى كل حال، هناك غرف بالقرب من هذه الأبواب تتسع لانكشاريٍ أو اثنين. ولا أحد يعرف متى تنتهي نوبة حراستهم وهم لا يقدمون السلاح عند مرور أحد شخصيات المدينة ويمكن أن يشغلوا منصبهم هذا لمدة سنوات أحياناً فيمضون أيامهم في التدخين ولعب الشطرنج... وينام أحدهم على الأقل في الغرفة أثناء الليل. وإن واجب هؤلاء هو حفظ الأمن في الأحياء مقابل أجر محدّد. وعندما يهملون واجبهم يخسرون مورد رزقهم. وهم يلعبون دوراً بارزاً في الشجارات التي تنشأ بين كبار شخصيات المدينة. في هذه الحال، تغلق الأبواب لمنع الناس من التجمهر. ويقال إن البهوات يتعاركون دائماً في المدينة وفي الريف، من دون أن يؤدي عراكهم إلى أي شغبٍ بين صفوف البورجوازيين.

كنت قد ذكرت في «وصف شبه جزيرة العرب» أنه لا يسمح لليهود أو النصارى وحتى الأوروبيين بامتطاء دابة غير الحمار في القاهرة وإنهم يجبرون على الترجل عن دابتهم عندما يلتقون بأحد البهوات أو أعيان المدينة. وهؤلاء لا يظهرون في الشارع إلا على ظهر أحصنتهم ويتبعهم أحد خدمهم الوقحين حاملاً بيده عصاً غليظة فيقول لليهودي أو المسيحي الذي يصادفه في الطريق «انزل» إذا لم ينزل من تلقاء نفسه. وفي حال عصى أمره بادره الخادم بالضرب مباشرةً دون أن يكلف نفسه عناء تحذيره مرة ثانية. ومنذ سنوات، تسببت حادثة مماثلة بعطب تاجر فرنسي لبقيّة حياته. كما وتعرض طبيبنا للشتم لأنه لم يترجل في الوقت المناسب. لذا، لا يمكن لأي أوروبي أن يخرج على ظهر دابته إذا لم يرافقه رجل يعرف الأسياد كلهم الذين يفرضون على أبناء الديانات الأخرى أن يترجلوا لدى رؤياهم. وكنت أجعل انكشارياً يسبقني وخادماً يتبعني وكانا كلاهما من المسلمين، فيبقيان على حماريهما بينما أترجّل وحدي. ولشدة ما كنت أشعر بالذل من هذا الأمر، قررت أن أخرج دائماً مشياً على قدمي. وفاتني أن أذكر أن اليهود والنصارى لا يتجرؤون على البقاء على ظهر مطيّهم أمام بيت القاضي الكبير وأمام ٢٤ بيتاً آخر حيث يعمل القضاة، وقرب باب الانكشاريين وجامع الأزهر والمساجد الأخرى، ويسمح لهم بالمرور أمامها على أقدامهم. غير أنه لا يسمح لهم بالمرور سواء مترجلين أو غير مترجلين بالقرب من مسجد الست زينب بجوار قنطرة السبع (Kantaretes Sabá) وبالقرب من مسجدٍ مجاورٍ لباب نصر ومساجد أخرى لحكام القاهرة السابقين، ولا حتى في شارع القرافة (El Karáfe) بل يحتم عليهم تغيير وجهة سيرهم. ولقد لاحظت وجود مساجد كبيرة من جهتي هذه الشوارع. ولا بدّ أن عامة الشعب تعتبر المرور بين هذه المساجد مقدساً. ولست أكيداً من أنه يمنع على الأوروبيين امتطاء الخيل. فمنذ فترةٍ غير بعيدة، عاش في

المدينة قنصلٌ إنكليزي ثري وكان يرتدي زي سيدٍ تركي ويمتطي الخيل. وكانت ثروته الكبيرة تسمح له بتقديم الهدايا والولائم لكبار شخصيات القاهرة الذين كانوا يعاملونه بالمثل. عندما كان يظهر في الشوارع، كان يوزع الأموال على الناس فكان الشعب يحبّه. أما اليوم فما عاد القناصل يمتطون الخيل إلا يوم يذهبون للجلوس في حضرة الباشا، فيرتدون الزي الأوروبي ويزينون أنفسهم بأبهى زينة. ولا أتفاجأ قط عندما أجدهم يسمعون آلاف الشتائم تنهمر عليهم من قبل عامة الشعب إذ إن الشرقيين يعتبرون لباسنا القصير غير محتشم خاصة أن أهل القاهرة لا يزينون ثيابهم لا ذهباً ولا فضة. وفي الأيام العادية، يرتدي القناصل لباس الأتراك الطويل وعليهم ـ شأنهم شأن التجار الأوروبيين والنصارى الشرقيين واليهود ـ أن يترجلوا عن حميرهم عند مرورهم في المناطق الآنفة الذكر، أو عند مرورهم بسيدٍ مسلم.

ومع أن كثافة السكان في مصر قد انخفضت، إلا أن منتجات البلد لم تنقص، ولأنها العاصمة ولأنها تقع في موقع استراتيجي بالنسبة للتجارة، فيها عدد كبير من التجار الأغنياء الذين يتعاطون التجارة مع أوروبا وآسيا وأفريقيا. تتلقى مصر عبر الخليج العربي كافة منتجات الهند وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية. ويسهل النيل التجارة مع السودان ومن جهة البحر المتوسط مع سوريا وتركيا وبلاد البربر وأوروبا. أما القوافل الكبيرة التي تأتي سنوياً من الأقطار والتي تصل براً فهي تقايض بضائع بلادها الفاخرة بما ينقصها من بضائع أخرى. ومع أن أضخم عمليات التجارة في بلادنا تجري عن طريق المراسلة وأنه في المدن الكبيرة يجتمع التجار بالسوق في ساعة معينة من النهار إلا أن التجار الشرقيين بغالبيتهم يسافرون بنفسهم أو يرسلون عبيدهم وخدمهم. وكل الذين يأتون من القطر نفسه والذين يحملون البضائع نفسها، ينزلون في المكان نفسه كلٌ على حدة كمسيحيي القاهرة الذين يقيمون في الحي نفسه أو بجوار بعضهم البعض. وهكذا يعلم الناس مقرّ التجار الأجانب. ويكثر عدد السماسرة وبواسطتهم يكثّف الباعة معارفهم كما ويسهل على الزبائن إيجاد البضائع. ولا شك أن المسافرين يفضلون المكوث إلى جانب بعضهم لأنهم بذلك يؤدون بعض الخدمات لبعضهم.

لست مؤهلاً للحديث على كافة تفاصيل التجارة عند المصريين، لكني تعرفت عن كثب على الاستيراد والتصدير بفضل المعلومات التي أعطاني إياها تاجر فرنسي وسوف أنقلها إليكم لنعرف ما هي المنتجات التي تعزز في هذه البلاد وتلك التي تستورد من الخارج.

يشكل الجلد الخام إنتاجاً مهماً تصدره البلاد. في كل سنة، تصدر ٧٠ إلى ٨٠ ألف قطعة من الجلد منها عشرة آلاف قطعة من جلد الجاموس تذهب إلى مرسيليا. وتصدّر كميات أكبر من الجلود إلى إيطاليا منها جلود الجاموس والثور والبقر والجمل. تصدّر جلود الجاموس إلى سوريا خاصةً وتتميز هذه الجلود بأنها ليست كبيرة بل أكثر سماكة ووزناً من غيرها. ولعل أفضل جلود هي التي تأتي من مصر السفلى حيث المراعي الشاسعة، ويستحسن قتل الحيوانات في أشهر كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير وآذار/مارس

ونيسان/أبريل لأنها ترعى العشب في هذه الآونة بينما تأكل من العلف في الأشهر الباقية. يمكننا الحصول على الجلد الخام على مدار السنة وخاصةً بعد عيد الأضحى عندما يجتمع الحجاج في مكة وعلى جبل عرفات. في هذه الأيام تذبح كميات هائلة من المواشي في مصر كما في سائر الدول الإسلامية. وفي أيام إبراهيم كخيا الذي حكم مصر وحده لمدة عشر سنوات تقريباً، ترسّخت هذه التجارة ثم أنشأ المزارعون متجراً في الإسكندرية لبيع الجلود بالمفرّق وصاروا يتحكمون بسعرها. ومنذ سنوات، عادت هذه التجارة لتصبح حرة لكننا لم نعد نشعر أن الأسعار تختلف كثيراً.

يحصد الزعفران في نهاية شهر أيار/مايو ومطلع شهر حزيران/يونيو. ينقل الزعفران الذي يحصد في القاهرة إلى السوق لكن لا يستطيع التجار الحصول عليه إلا مع نهاية شهر حزيران/يونيو ومطلع شهر تموز/يوليو. ويثمر الحصاد عن ١٥ إلى ١٨ ألف قنطار من الزعفران تذهب كميته الكبرى والأفضل نوعاً إلى مرسيليا وليفورن والبندقية أما الباقي فيتجه نحو إزمير وسوريا وجدة لأنه لا يستهلك في مصر. وفي مصر أكثر من عشرة أصناف من الزعفران لكنه يصنف وفقاً لتسميات أربع هي: البلدي والقبلاوي (Keblawi) والبحري (Bahhari) والصعيدي. يعتبر الصنف الأول الأفضل من حيث النوع ويزرع حول مدينة القاهرة، أما الصعيدي فهو الأسوأ.

يحصد الكتان في شهر تموز/يوليو ويعتبر الشتاء الفصل الأفضل لشرائه. تشتهر منطقة رشيد بتجارة الكتان وتنقل الكميات غير المستهلكة منه إلى تركيا وليفورن، وتركيا وسوريا وجدة وحتى اليمن، ويكون نسيج الكتان على عدة أنواع. يزرع القطن في مصر السفلى ويحصد في شهر تموز/يوليو، ويعتبر شهرا كانون الأول والثاني/ديسمبر ويناير الفترة الأكثر ملاءمة لشرائه. ينقل القطن الذي لا يستهلك في مصر إلى مرسيليا وليفورن. أما حصاد الأرز فيكون في شهر تشرين الأول/أكتوبر لكن الأرز الجديد لا يباع إلا في شهر كانون الأول/ديسمبر. ولا يسمح للأوروبيين اليوم بتحميل الأرز إلاّ إلى دمياط ولقد توطدت تجارته منذ بضع سنوات. تختص مصر العليا بزراعة قصب السكر الذي يحصد في شهر حزيران/يونيو لكن سعر السكر لا ينخفض إلا في شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر أي في الوقت الذي ينقل فيه من الصعيد إلى القاهرة. ومن غير المتفق عليه في مصر كيفية تحضير السكر من القصب، وعلى كل حال يمكن للأوروبيين الحصول عليه بالسعر نفسه من أميركا. ويمكن شراء الملح بسعر أدنى من رشيد، خاصة في فصل الشتاء. ويحمل ثلثا الملح إلى مرسيليا وليفورن بينما يوزع الباقي على الولايات التركية. ولقد ارتفع سعر الملح كثيراً في الآونة الأخيرة لأن تركيا طلبت كمية منه تفوق المعتاد.

يشكل الصمغ العربي إحدى البضائع التي تمر بمصر والتي يشتري منها الأوروبيون. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر من كل سنة، تحمل قافلتان أو ثلاث قوافل مؤلفة من العرب القادمين من طور سيناء من ستمئة إلى سبعمئة قنطار من الصمغ إلى القاهرة. تنحصر هذه التجارة بالتجار المسلمين ولا يدخل هؤلاء

بضاعتهم إلى المدينة بل يقفون على بعد ربع ميل من القاهرة مما يضطر المصريين إلى الخروج لملاقاتهم. ولا يبيع هؤلاء التجار بضائعهم وفقاً لوزن معين بل في جلودٍ صغيرة غير مخاطة. وقلما يسمحون للمشتري أن يفتح قطعة الجلد قبل إنهاء الصفقة وفي حال لم تعجبه البضاعة لا يقبلون أن يردّها إليهم. وبعض هؤلاء العرب يخلطون الصمغ بأحجار صغيرة أو بالرمل والخشب. وهم عادةً لا يقبلون بيع أحدٍ بالدين بل يقايضون بضائعهم لقاء ثيابٍ وأسلحة وأشياء أخرى يحتاجون إليها ويحملونها معهم إلى الصحراء. ولست أدري ما إذا كان كل ذلك يدل على أن العرب نصابون أم تجار تنقصهم الخبرة. وهم يحبون الحرية ويكرهون الخطابات الطويلة. والجدير بالذكر أنه يمكن تكرير صمغهم ثم بيعه بأسعار تفوق أسعار الشراء بكثير. يحمّل القسم الأكبر من هذه البضاعة إلى مرسيليا وليفورن. في أشهر نسيان/أبريل وأيار/مايو وحزيران/يونيو من كل سنة، يصل عدد أكبر من القوافل الإفريقية التي تحمل معها أصنافاً ثلاثة مختلفة من الصمغ بالإضافة إلى العاج والتمر الهندي والعبيد المخصيين وغير المخصيين، وطيور الببغاء وقراصنة الذهب وفي المقابل تحمل معها في طريق العودة نسيج الكتان واللآليء المزيفة وأحجار المرجان والعنبر الأصفر والخناجر وكافة أشكال الملابس التي يعدها المصريون خصيصاً لتنال إعجاب الإفريقيين. ولقد انخفض قبل بضع سنوات سعر الصمغ العربي أو قلّ الإفريقي كثيراً فلم تحمل القوافل معها منه إلا كميات قليلة. لكنه عاد وارتفع فصارت تصل منه كميات تتراوح ما بين ٤ إلى ٥ آلاف قنطار. وحتى الآن تصل كميات الصمغ من الحبشة إلى جدة ومنها عبر السويس إلى القاهرة إلا أنها ليست جيدة النوعية مثل التي تحضرها القوافل. كما وينقل قسمٌ منها إلى أوروبا.

أما السفن التي تبحر من جدة إلى السويس فهي تحمل معها سنوياً بين ٢٢ و٢٥ ألف طرد من البن اليمني. ولأن القهوة هي الشراب المفضل عند الأتراك، يمنع استيراد البن من أميركا أو من أوروبا كما يقال في الشرق كما ويمنع تصدير البن العربي إلى أوروبا. إلا أن هاتين التجارتين تمارسان ويكفي لتحقيق ذلك إرسال الهدايا إلى الحكومة وإلى مسؤولي الجمارك. وهكذا، تمرر ما بين ٤ إلى ٥ آلاف طرد من البن العربي سنوياً من مصر إلى البندقية وليفورن ومارسيليا. أما السفن القادمة من جدة والقوافل الآتية من مكة فتحمل معها كافة أنواع البهارات من الهند، وأوراق السنف من اليمن والحبشة، والمرا ممكاوي، وما يتراوح بين ألفي وثلاثة آلاف فرد من البخور اليمني والعربي. وفي هذه الأيام، انخفضت كمية البخور التي ترسل إلى مرسيليا وأصبحت من النوعية الأكثر تدنياً. وتأتي كميات أخرى إلى البندقية وليفورن أما الباقي فيرسل إلى تركيا. وتأتي كميات كبيرة من السفى من مصر العليا ويرسل القسم الأكبر منها إلى أوروبا. إن هذه التجارة تعود على الحكومة سنوياً بما يعادل ٦٠ بورصة علماً أن كل بورصة تساوي ٥٠٠ قرش.

في أيامنا هذه، يركز الفرنسيون تجارتهم في المشرق على نسيج لانغدوك (Languedoc) الذي تحتاج

منه مصر كل سنة ما بين سبعمئة وثمانمئة طرد. يشتد الطلب على هذا القماش في شهر رمضان خاصة لأن الأغنياء والفقراء في هذه الفترة يرتدون ثياباً جديدة بمناسبة عيد الفطر. والقافلة التي تنطلق من القاهرة إلى مكة في السابع والعشرين من شهر شوال من كل سنة تحتاج وحدها من ٦٠ إلى ٨٠ طرداً من هذا القماش حيث يستخدم أمير الحج أو قائد العربة معظمه في خياطة الثياب التي ينبغي إعطاؤها للعرب الذين يمرّون في أراضيهم ولسكان مكة. وإن تجارة هذا القماش تدر أموالاً طائلة على التجار الفرنسيين في القاهرة الذين باتوا يمسكون بها. إلا أن هذه التجارة كانت حرة في فرنسا أثناء الحرب الأخيرة مع الإنكليز وقد قام المسيحيون الشرقيون بشحن كمية كبيرة من أقمشة مرسيليا إلى ليفورن ومنها إلى مصر. ولقد ساهم انقطاع تجارة الفرنسيين مع الهند الشرقية أثناء هذه الحرب بالتأثير على تجارتهم مع المصريين، ففي نهاية الحرب كانت تمرّ بجدّة من مئتي إلى ثلاثمئة طرد من القماش وكان أغلبها يصل إلى بلاد الهند. يستخدم أهل القاهرة كثيراً أقمشة الحرير المصنّعة في أوروبا وخاصةً منذ بدأت جزيرة سيوه (Sio) بصناعة أقمشة فاخرة من الذهب والفضة. ومن الملاحظ أن هذه الملابس تروق لأهل الشرق أكثر بكثير مما تروق للفرنسيين والإيطاليين. لذا تحتاج مصر في كل عام من ٦٠ إلى ٨٠ بر أميال من الشرائق، وأثناء الحرب الأخيرة كانت تصل إلى الهند حمولة ٢٠٠ بر ميل عبر مصر. وتحضر مصر من فرنسا كل سنة ٤٠٠ طرد من البهار يتألف الواحد من ٣٠٠ رطل. ومنذ وقت غير بعيد، بات جزء من هذه البضائع يصل عن طريق جدة. وتصل إلى القاهرة من أوروبا كميات من كبش القرنفل والتوابل. وتستلم القاهرة كل عام من ٥٠ إلى ٦٠ بر أميال من القصدير، وكميات مماثلة من المطيلة وخيوط الحديد والزنجفر والزنجبيل والإبر واللآلىء الملونة والخواتم الزجاجية والزئبق والرصاص بالإضافة إلى السكاكين. ومن البندقية ومرسيليا يصل ما يقارب ١٠٠ طرد من الورق يستهلك قسم منها في القاهرة والقسم الآخر يرسل إلى جدة. وقبل استخدام الورق للكتابة، يجب صقله لأن أهل الشرق يستعملون ريشاً من القصب مع حبرٍ شديد الكثافة. وتستخدم كميات هائلة من الورق في مصانع السكر والمتاجر. ويعلق الحرفيون الورق على النوافذ المشبكة بالخشب أو الحديد إذ قلّما نجد زجاجاً على النوافذ في هذه البلدان الحارة.

لقد زالت تجارة البن الأميركي بين فرنسا ومصر أثناء الحرب الأخيرة. وبات المصريون يشترونه ليغشوا به البن العربي، لكن سعره في السنوات الأخيرة ارتفع كثيراً حتى صار أغلى ثمناً من البن العربي. في الماضي، كان بن المارتينيك (Martinique) وحده يستعمل في مصر العليا: إلا أنه أصبح غالياً ثم فرض إبراهيم كخيا ضريبة كبيرة على البن القادم من شبه جزيرة العرب عبر السويس فبحث سكان مصر العليا عن سبيل أقصر للحصول على البن، وأصبحوا يحضرونه من قصير (Kossir). وحالياً لديهم البن اليمني وسعره قريب من سعر بن المارتينيك الفرنسي.

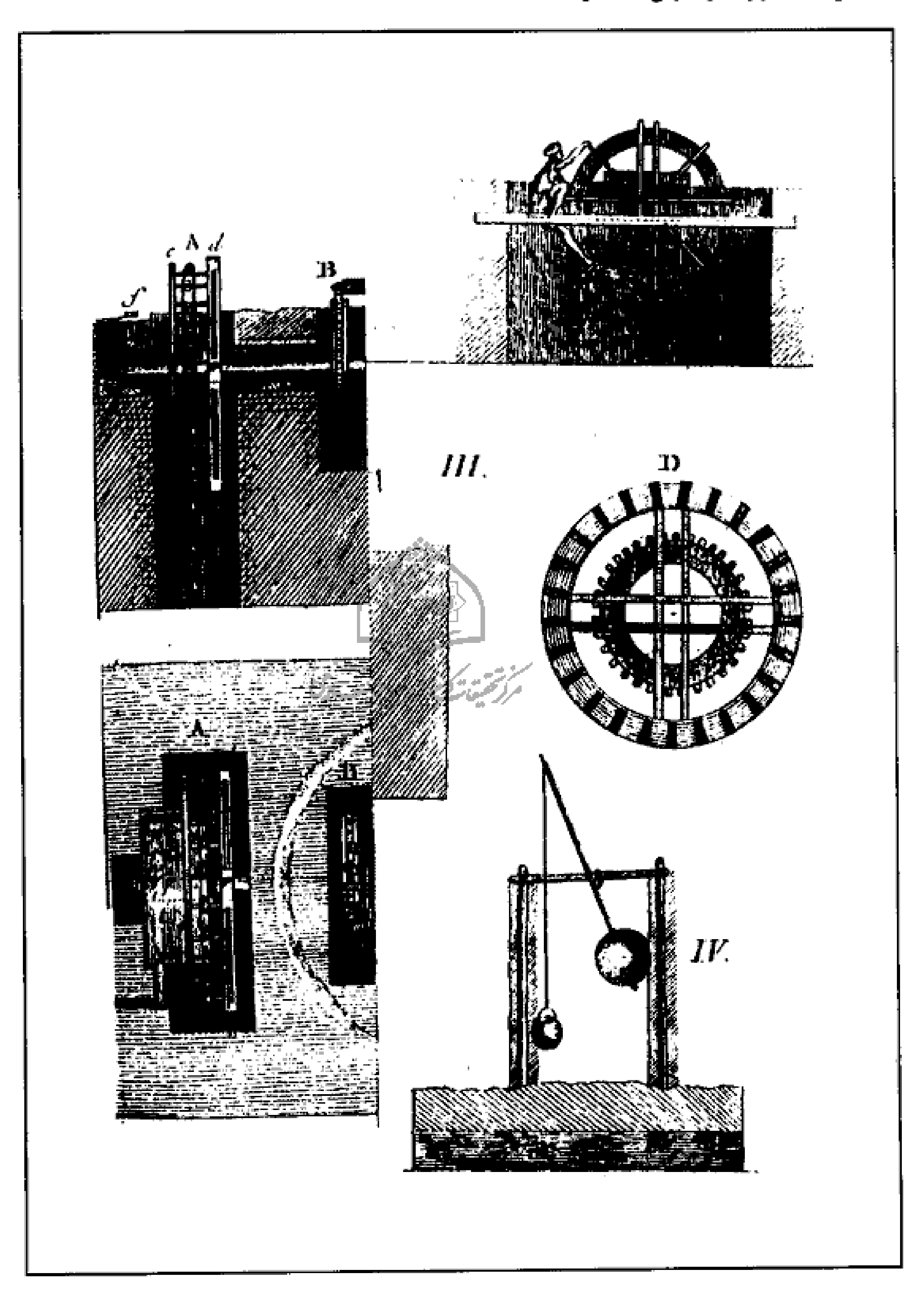
لست أعرف الكثير عن الكيل والأوزان المستعملة في مصر لكنني سأفيدكم بالقليل الذي أعرفه. تتراوح الأوزان في القاهرة بين الرطل والأوقية والمثقال والدرهم والقيراط. تعادل كل ١٦ قيراطاً درهماً واحداً، والدرهم ونصفه يساويان مثقالاً واحداً، وكل ١٢ درهماً تساوي أوقية واحدة، والاثنتا عشرة أوقية تساوي رطلاً. ثم إن الأوزان الثقيلة تقاس بالقنطار لكن القنطار في مصر يختلف باختلاف البضاعة فيرى بعض التجار أنه يساوي مئة رطل أما بالنسبة لغيرهم فهو يساوي ١٠٢ أو ١٠٥ أو ١١٠ وحتى ١٥٠ رطلاً. ومن غير المجدي في هذا الإطار ذكر البضائع التي تحول من القنطار إلى أرطال. إن هذا التحويل لا يهم إلا بعض التجار الذين يتاجرون في مصر ويمكن أن يجدوه في لائحة الأسعار للجوء إليه في تجارتهم من مصر إلى البلدان الأخرى. وأنا لن أقدم لكم أسعار البضائع المستوردة والمصدرة لأنها كثيرة التقلب، فالتجار الشرقيون شأنهم شأن غيرهم يبحثون دائماً عن مرسلين جدد للحصول على البضائع بأسعار رخيصة أو لإرسالها إلى بلاد أخرى بأسعار مربحة.

يسمى أكبر مقياس للحبوب رأيته عند تجار القمح في بولاق «بالوهبة» (Wèhbeh). وتساوي الوهبة الواحدة أربعة أرباع؛ والربع يساوي أربعة أقداس (Kuddes). ويبلغ القطر الواحد لكل وهبة ١٨ بوصة دانماركية أما كثافة الخشب فتعادل ٨/٧ البوصة. وهكذا فإن قطر القياس يبلغ من الداخل ١٧ بوصة ونصف. يبلغ قطر المقياس من الأعلى ١٢ بوصة ومن دون سماكة الخشب يبلغ ١١ بوصة ونصف. أما الارتفاع العمودي من الحافة العليا وحتى العمق فيبلغ ٨ بوصات. وعند القياس، تترك الحبوب التي تجاوزت حافة المقياس وتجمع حتى تؤلف مخروطاً. يبلغ سعر ربع واحد من الحنطة في القاهرة من ٥ إلى ٦,٥ بريزة. وهكذا فإن الوهبة الواحدة تكلف من ٢٠ إلى ٢٦ بريزة، أو من ليرتين إلى ليرتين وثمانية قروش بالعملة الدانماركية. إن ارتفاع الربع الذي قسته في القاهرة يبلغ ٦ ٨/٦ بوصات.

الآلات التي تعمل على الماء، الطواحين، معاصر الزيت، أدوات الفلاحة، فرن النشادر وآلات تفقيس البيض في مصر

يجب أن نولي أهمية خاصة لآلة السقاية المستخدمة في مصر بعد عودة النيل إلى حدوده. ويمكن سقاية الحقول بعدة طرق. والآلة الأكثر استعمالاً في مصر هي الموجودة في الصورة I من اللوحة (XV) الخامسة عشرة وتسمى ساقية الثور لأنها تحرك بواسطة الثيران. تتألف العجلة الكبيرة (أ) من هذه الآلة من دائرتين (د، هـ). الدائرة (هـ) هي الأكثر متانة وتتصل بالمحور بواسطة عدد من الشعاعات. أما الدائرة الأولى (د) الموصولة إلى الدائرة الأولى بواسطة قضبان أفقية فدورها الإمساك بالجرار وحسب. في الأسفل، داخل العجلة التي تعمل على الماء، يوضع الحوض (ز) الذي يستقبل الماء. يختلف عدد الجرار المربوطة إلى حبال من القش أو النخيل والمعلقة حول العجلات وفقاً لعمق الماء ولقوة العجلة والثور. ولقد لاحظت وجود ٢٢ جرة حول الآلة التي اتخذتها مرجعاً لأقوم بهذا الرسم. الجزء (أ) هو عريش متحرك بالقرب من (ج) يعلق على رقبة الثور. من العريش (أ) تخرج حبال تعلّق بالعريش (ب) وهو أضخم من الأول ويقال له العريش الأساسي لأنه يحرك العجلات (ج، ب، أ) وبالتالي. لجرّ الماء إلى الجزء المرتفع من البستان حيث تقع الآلة، نلجأ إلى رفع العجلات إلى أقصى الحدود حتى يكاد الثور يمر من تحتها، كما يظهر في خريطة مصر السفلى في كتاب الأسفار لِشو (Shaw). نجد في البساتين المصرية عدداً كبيراً من القنوات الصغيرة التي تساعد على ري أجزاء البساتين جزءاً بعد آخر. وتتميز هذه القنوات بدقة صناعتها خاصة تلك التي تستخدم في جرّ الماء إلى جذور النبات وحسب.

إليكم وصفاً لآلة أخرى يستخدمها المصريون لسقاية الأرض ولعلها هي نفسها التي يتكلم عنها موسى في الكتاب المقدس ١١ ـ ١٠، تدعى هذه الآلة «ساقية تدار بالرجل» أو آلة تعمل على الماء ويمكن تحريكها بواسطة الرجل. هذه الآلة أصغر حجماً من السابقة لكنها تشبهها إلى حدٍ بعيد. وجدت واحدة منها فقط في مصر وبالتحديد في بركة البوزبكير في القاهرة لكني وجدت مثلها في الهند. رأيت الأولى في القاهرة وكانت تستعمل في بستانٍ صغير. تتألف هذه الآلة من عجلة واحدة فيها ثمانية شعاعات معلّقة بالمحور وأربعة آخرين أصغر حجماً وضع كل اثنين منهما بجانب من جانبي العجلة. لاستعمال هذه الآلة نحفر بئراً نضع عليه رافدتين ويجلس عليها العامل. لا يحتاج العامل إلى مسندٍ آخر لكنه يعمل بيديه ورجليه كما يظهر في الصورة. ويكون الحوض محكم التثبيت تحت الجرار من داخل العجلة فتمنعها من التحرك.


A
B
D
III.
IV.

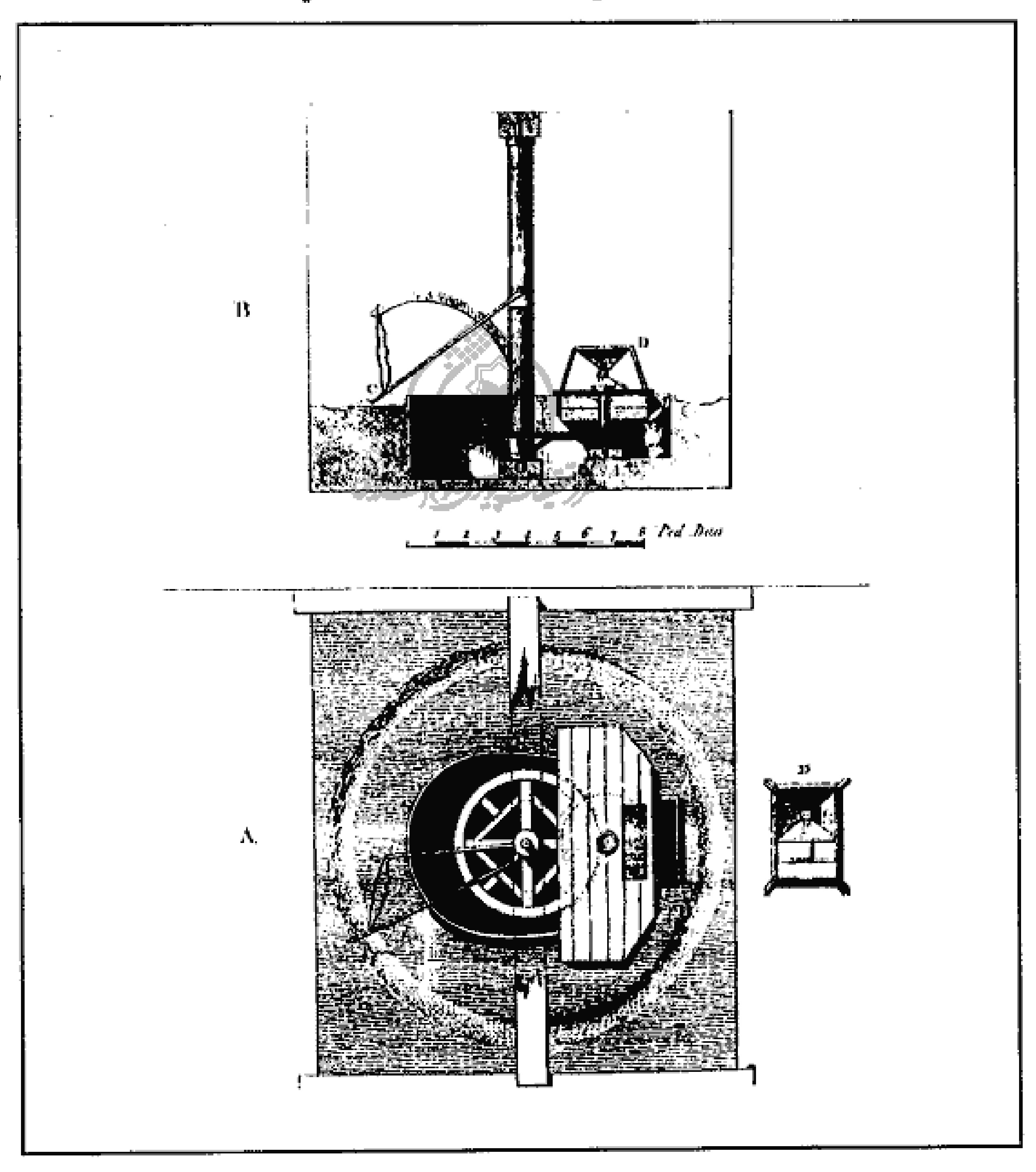
تستعمل الآلة (III) في محيط دمياط لأن ارتفاع النيل لا يتغير كثيراً هناك ولأن العجلات التي يبلغ قطرها من ١٠ إلى ١٣ قدماً يمكن أن تلمس الماء. تعتبر هذه الآلة الأغلى ثمناً لكنها قادرة على نقل كميات أكبر من الماء. تقسم حافة العجلة (د) إلى عدة أقسام فيها فتحات من جهة المحيط بالقرب منه، وهي محكمة الصناعة من الداخل، فبعد دخول الماء من الأسفل داخل المحيط وارتفاعها إلى فوق، يمكن أن تسيل من إحدى الجهات لتصب في حوضٍ قريبٍ من العجلة. ولخفض كمية المياه المهدورة، لا تكون هذه العجلة مسطحة بل مائلة قليلاً إلى خارج إطارها. ولتحريك بعض الآلات، يدور الثور حول العجلة الكبيرة ولتحريك الآلات الأخرى ليمر بين العجلة الكبيرة وبين العجلة ذات الأسنان. في الحالة الأخيرة، يمدّد العريش على العجلة الأفقية كما يبدو في الآلة (ط) وأحياناً تربط ثلاثة ثيران على عدة عرائش لجرّ هذه الآلة.

أما السكان الذين يعيشون في أطراف النيل والذين لا يسقون إلا جزءاً صغيراً من الأرض فيستعملون الآلة الرابعة. ولأن الخشب والحجارة باهظا الثمن في مصر، يستعمل الفلاحون أوتاداً وثقالة من الفخار. عندما ينخفض مستوى الماء في النيل نرى أحياناً في القاهرة أربع آلات تعمل معاً مما يدل على أن سقاية الحقول بهذه الطريقة مزعجة وصعبة عندما تقتصر مهمة المصريين على حمل المياه إلى ارتفاع بسيط، أو على تجفيف خندق، يستعمل هؤلاء سلة بأربعة حبال يقودها شخصان وذلك بدلاً من الرفْش. تسمّى هذه السلة قفة ويمكن رؤيتها في الصورة الخامسة ٧.

لم أرَ قط في مصر طواحين تدور على الماء أو الهواء. أما طاحون القاهرة العام الذي يستعمل في طحن القمح فموجود في اللوحة السادسة عشرة (XVI). تشير الصورة (أ) إلى الرسم البياني والصورة (ب) إلى ارتفاع هذه الآلة. أما الحرف (ج) فيشير إلى العريش الذي يربط إليه الحصان وحرف (د) يشير إلى عين الطاحون حيث يوضع القمح. ويستخدم هذا الطاحون أيضاً في طحن الحبوب التي يستخرج منها الزيت. أما المصريون فيستعملون المطاحن اليدوية لطحن القمح وهي مصورة في اللوحة السابعة عشرة (XVII). ويستعملونها أيضاً في جرش حبوب الفول التي تشكل طعام الحمير. تتألف الآلة (ب) من حجرة ممددة أفقياً ومن مِسَنّ عمودي يديره الثور. وهي لا تستعمل في طحن القمح بل في عصر الزعفران. بعد ذلك تستخلص العصارة باليد. إن شعبية هذه الزهرة في القاهرة قد تعود إلى طريقة تحضيرها إذ يكتفي سكان مصر العليا بتجفيفها بعد تقطيعها. ويختلف الطاحون (ج) عن الطاحون (ب) بمسنّه المنحني قليلاً ويستعمل في طحن الجبس وكربونات الكلسيوم.

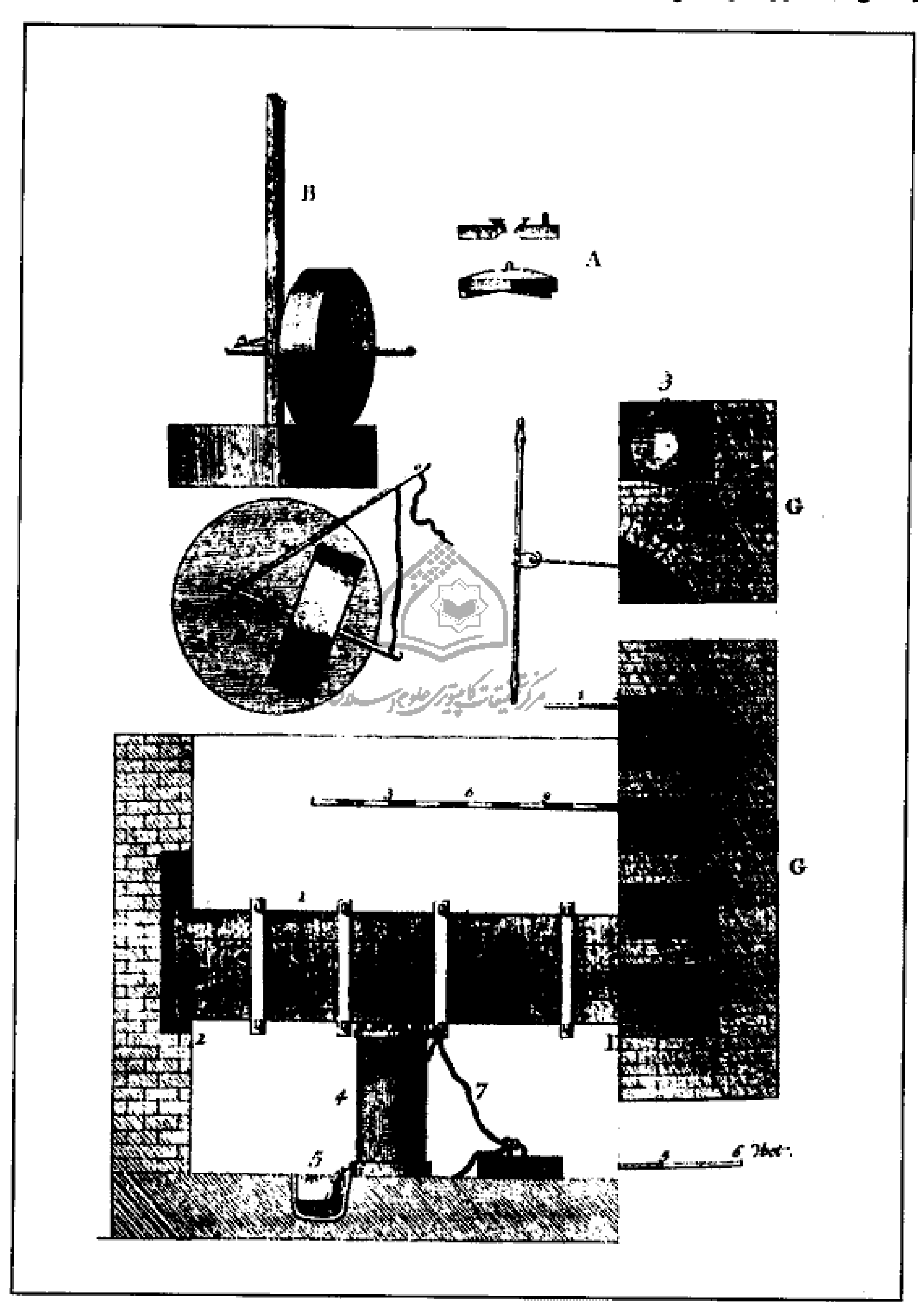
تحيط بالآلة حافة صغيرة لمنع الثور الذي يديرها من سحق الجبس الذي يتساقط منها. وتظهر في الصورة (د) عصارة الزيت التي تستعمل في مصر. يشير الرقم (١) إلى صندوق كبير مليء بالحجارة والخشب. أما الرقم (٢) فيشير إلى إحدى نقاط ارتكاز الصندوق على الحافة والرقم (٣) إلى حجرٍ كبير يدور فيه اللولب الذي يرتكز عليه الطرف الآخر من الصندوق. يظهر في الرقم (٤) أسطوانة من الحبوب المطحونة بواسطة الطاحون المصوّر في اللوحة (XVII)، وقد جمع على حجر على حصيرة مدورة مصنوعة من القش، وفي الرقم (٥)

نرى قدراً معدنية يجمع فيها الزيت المعصور. إذا أردنا أن نضع شيئاً تحت هذه الآلة، يدير الثور المربوط إلى العريش رقم (٦) اللولب إلى أن يقوم الحبل الموصول بالصندوق بإيقاف الآلة فتصبح الأسطوانة (٤) في الأسفل ويدار اللولب بالاتجاه المعاكس إلى أن يرتكز الصندوق على الأسطوانة ويرتفع الحجر (٣) عن الأرض فيساهم بذلك في زيادة الضغط على الحبوب. بعد ذلك، تصبح نقطة ارتكاز الصندوق على الحافة (٢) أعلى من الأسطوانة (٤) فيوضع الخشب فوقها كما يظهر في الصورة.



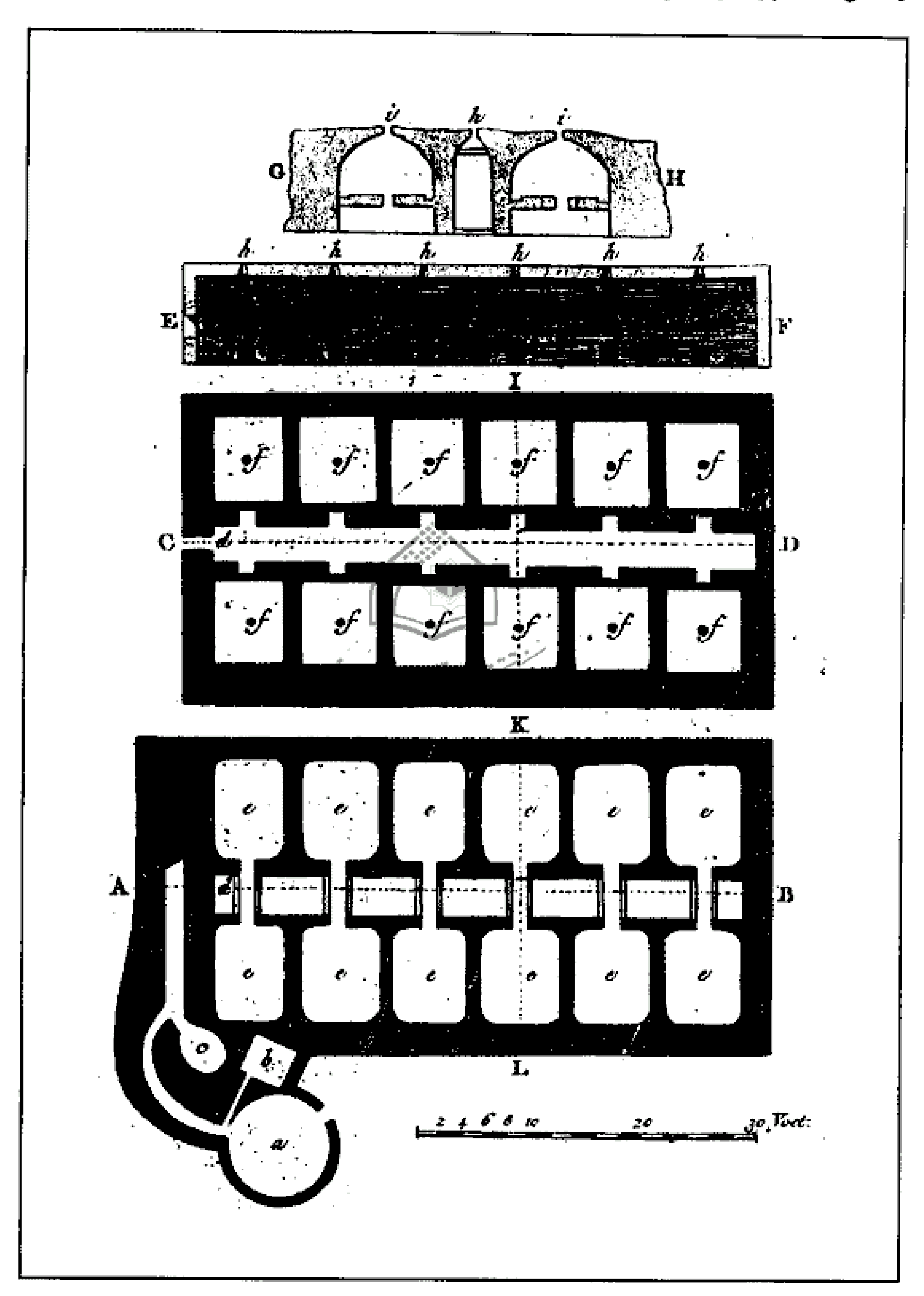
إن أدوات الفلاحة التي يستعملها المصريون سيئة جداً، والمحراث فيها ليس أفضل من تلك التي يستعملها العرب والتي ذكرتها في وصفي لشبه الجزيرة العربية، بدلاً من استعمال الأمشاط لتمهيد الأرض، يلجأ المصريون إلى شجرة أو خشبة سميكة يربطون على طرفيها حبلاً ويعلقونها بالثيران. يوضع النقّاف عادةً على الشجرة أو الخشبة لأن فلاحي مصر لا يحبون السير خاصة عندما تسنح الفرصة لجرّهم. ولا يزال المصريون حتى اليوم يستعملون الثيران لطحن القمح كما كان يفعل الإسرائيليون في أيام موسى (الكتاب المقدس، الفصل ٢٤، ٤) إلا أن الآلة التي يستخدمونها ليست حجراً كالذي يستعمله العرب، كما وأنه ليس مصنوعاً من الأخشاب المزودة من الأسفل بأحجار محدّدة كالذي يستعمله السوريون، وكما ذكرت في وصف شبه جزيرة العرب، بل هو زلاجة تظهر في اللوحة السابعة عشرة جانباً ومن فوق؛ ويشار إليها بحرف (هـ). تسمى هذه الآلة نورج وهي مزودة بثلاث لفيفات تدور حول محاورها وقد زوّدت كل واحدة بقطع حديدٍ مستديرة وملساء. وفي بداية شهر حزيران/يونيو، شاهدت أنا والسيد فورسكال كيفية طحن القمح في جوار الجيزة. كان كل فلاح يختار بقعة أرض موحدة يبلغ محيطها من ٨٠ إلى ١٠٠ قدم. وكانوا يحضرون رزماً من القمح يحملونها على ظهر الحمير والجمال ويجمعونها على شكل دائرة يتراوح عرضها بين ستة وثمانية أقدام ويبلغ ارتفاعها قدمين. وكان يجر المزلاج السابق ثوران. والمراقب يجلس على الكرسي الذي نراه على المزلاج وكان يسمح للثيران بالتبوّل على القش والحنطة لكنه يسارع في النزول من كرسيه إذا أرادت أن تفعل شيئاً آخر فيضع يديه على مؤخرتها ويتلقى ما يخرج منها ثم يستعملها لإيقاد النار بعد خلطها بالقش. تطحن كميتان مماثلتان من القمح كل يوم وتقلب كل واحدة ثماني مرات إلى خمس بواسطة مذراةٍ واحدة مصنوعة من الخشب. ثم يرمى القش في وسط الدائرة ويكدّس ثم يقلّب. وكلما أضفنا المزيد من القش في وسط الدائرة قلّبناه من جديد حتى يصبح مفروماً. ثم يُلقى الكل بواسطة المذراة بالاتجاه المعاكس للهواء فيطير القش ويبقى القمح غير المطحون. ثم يأتي رجل ويجمع كتل الرمل التي علق بها القمح ويرميها داخل الغربال. ثم توزع الأكوام بشكل مستدير وتكون لا تزال تحتوي على عدد كبير من السنابل فيجيء الفلاحون بما يعادل عشرة ثيران ويمررونها عليها لمدة ٤ أو ٥ ساعات رابطين كل ثورين ببعضهما إلى أن تنفصل حبوب القمح عن سنابلها فترمى في الهواء بواسطة الرفش بغية فصلها عن الأقذار. أما إعداد الشعير فلا يتطلب الكثير من الوقت.

وإني لم أرَ في مصر أو في شبه جزيرة العرب أية عربةٍ أو طنبر. وعندما جرت القناة إلى خارج القاهرة، ربط الفلاح ثورين بالآلة (و) المصورة في اللوحة السابعة عشرة وجلس عليها فأخذ يمرّ بين الأراضي الجافة إلى أن ملأها ماءً. وفي المدينة حيث لم تكن القناة قد جفّت بعد، نُثِر الغبار داخل الوحل ثم سكب في السلال ونقل خارج المدينة على ظهر الحمير. ولا شك أن الأوروبيين سينفذون هذه المهمة بكثير من الصعوبة.


B
A
3
G
G
1
2
4
5
7

يحصل المصريون على كميات كبيرة من الأمونياك من السخام المحروق. ذهبنا أنا والسيد فورسكال لزيارة معمل مماثل في الجيزة وسألنا رئيسه عن كيفية استخلاص هذا الغاز ثم رسمت الفرن الذي يستعملونه في اللوحة السابعة عشرة تحت الحرف (ز). يشير الرقم (١) إلى فوهة الفرن. أما الحافة (٢) فقد بنيت بشكل قوس كما يظهر من خلال الارتفاع. يظهر الرقم (٣) حوجلات مصنوعة من الزجاج السميك الغامق اللون عنقها واسع وقصير. وكان لصاحب المعمل فرن خاص به لصناعة هذه الحوجلات. وقبل استعمالها، تدهن من الخارج بالصلصال أو بوحل النيل الممزوج بالكتان وذلك أربع مرات. وبعد كل مرة، تترك في الهواء الطلق لتجفّ. والجدير بالذكر أن هذا الدهان ضروري جداً إذ بدونه لا يمكن للزجاج أن يقاوم الحرارة. بعد ذلك، تُملأ الحوجلات بسخام الزبل المحروق. وبعد ملء الفرن بالزبل الجاف، توضع الحوجلات بالقرب منه على الفتحات الموجودة بين الأقواس من دون إقفالها. ثم توزع قطع من القرميد حولها وتملأ الفراغات بالتراب إلى أن يغطي ثلثي ارتفاع الحوجلات. بعدئذٍ، نشعل الزبل داخل الفرن وكلما أكلته النار أضفنا المزيد منه لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متتالية. ويجب أن تبقى درجة الحرارة هي هي خلال هذه الفترة أو أن تكون في البداية أقوى مما هي في النهاية. إن هذه العملية شديدة الدقة فإذا أهملنا النار لبضع ساعات أو نسينا سدّ الثغرات في التراب حول الحوجلات يؤثر ذلك سلباً على الأمونياك، فيلاحظ صاحب المعمل ذلك عندما يستخلص الملح من الحوجلات ويعاقب العمال على إهمالهم. بعد مضي ١٨ ساعة، نجد أن الأمونياك الناتج عن السخام قد سدّ عنق الحوجلات. وبعد ثلاثة أيام تكسر الحوجلات في مكانها من الفرن ويسحب منها الملح الذي يكون في الأعلى. أما باقي محتوى الحوجلات فهو رمادٌ أخضر لا ينفع لشيء. نسحب من كل حوجلة كمية تتراوح بين سبعة واثني عشر رطلاً من الأمونياك. يباع القنطار الواحد المؤلف من ١٠٠ رطلٍ بستمئة بريزة. والجدير بالذكر أن الحرارة المرتفعة تجعل الفخار حول الحوجلات أكثر صلابة من القرميد.

أما الزبل، مصدر الأمونياك، فقلما يهم إذا كان زبل جمالٍ أو خيلٍ أو ثيرانٍ أو خرفان أو أي حيوانٍ آخر. وفي هذا البلد، غالباً ما يسافر الناس على ظهر الجمال والحمير، فتقوم فتيات صغيرات بلملمة الزبل من الطرقات. وتضاف كميات من القش المهشّم إلى الزبل فتخلط به وتصنع لتجففها أشعة الشمس. تكون سقوف غرف أهل الريف عادةً مغطاة بالصلصال الذي لم يصبح بعد قرميداً آجراً. فيستعمل هؤلاء قوالب الزبل الجافة لتدفئة الغرف في فصل الشتاء من خلال حرقها مع القش أو مع سيقان النباتات وذلك في أوانٍ حجرية. إن السخام الذي ينتج عن الدخان يعلق تحت السقوف ويباع بأسعار متدنية لمعامل الأمونياك. كما ويستعمل السخام الناتج عن دخان الزبل في أفران المعامل الآنفة الذكر. وكان صانعو السخام يتذوقونه لمعرفة كمية الملح فيه. وقيل لنا إن السخام الناتج عن دخان الخشب لا يحتوي على الأملاح وبالتالي لا يمكن أن يستخلص منه الأمونياك. وهناك مناطق في أوروبا لا يتوافر فيها الخشب فيلجأ سكانها إلى حرق زبل الحيوانات ولربما استطاعوا أن يصنعوا منه الأمونياك لو أنهم يحاولون.


G
H
E
F
I
C
D
K
A
B
L
2 4 6 8 10 20 30 Toet:

ولقد قام مسافرون آخرون بإعطاء معلومات دقيقة عن كيفية تفقيس البيض في الأفران. إلا أن رسومهم تختلف قليلاً عن الفرن الذي رأيته في القاهرة بالقرب من باب الشريعة (Bâb es Scharie) وبركة الرطلي (Birket er Roteli) الذي بينته في اللوحة الثامنة عشرة (XVIII). ولقد كان هذا الفرن مبنياً بكامله داخل تلة. تشير المساحة (أ ب) إلى خريطة الأفران الداخلية و(ج د) إلى خريطة الأفران الخارجية و(هـ و) إلى قطر المبنى من حيث الطول و(ز ح) إلى قطره جانبياً. تشير (أ) إلى المكان الذي يجلس فيه المسؤول عن تفقيس البيض و(ب) إلى الغرفة التي يحفظ فيها الرماد والنار و(ج) إلى غرفة البيض و(د) إلى مدخل الأفران: يقع الباب فوق الطابق الأرضي وهو باب صغير الحجم يغلق جيداً بعد إشعال النار. تشير الصورة (هـ) إلى أفران الطابق السفلي و(و) إلى أفران الطابق العلوي. في هذين الطابقين يوجد ما يشبه القنوات الصغيرة من الأمام ومن الخلف يُشعل الزبل الجاف فيها. أما (ز) فتبين الفراغات الموجودة في الحائط التي تخصص للإنارة. وكما يظهر في الرسم، هناك ١٢ فرناً في كل طابق من المبنى والكل موجود داخل التلة حتى أن المنافذ الأكثر علواً فوق الرواق (ح) وفوق الفرن (ط) تقع في الأرض. وقد قيل لنا إن ذلك ضروري للحفاظ على درجة الحرارة نفسها في كافة الأرجاء. على سبيل الاستعداد لتفقيس البيض، تمدّد حصيرة على أرض الفرن ويفرش القشّ عليها. توضع طبقة من البيض على القش ثم طبقة أخرى عليها بغية حشرها. لا تضرم النار إلا في القنوات الواقعة أمام أفران الطابق العلوي وخلفها. في المسافة الفاصلة بين الفرن الأعلى والفرن الأسفل، وهناك فتحة مستديرة تخرج منها الحرارة اللازمة لتبلغ الطابق السفلي. لدى إضرام النار، تقفل الفتحات الخارجية كلها بواسطة الزبل أو الفخار أو الكتان لتسريع عملية تسخين الفرن، وإن القاعدة الوحيدة المتبعة لتحديد درجة الحرارة هي معادلتها مع حرارة الحمامات. ولا يهم أن تكون الحرارة مرتفعة جداً في البداية، المهم تخفيضها تدريجياً عندما يشرف البيض على التفقيس. ويحرّك البيض مرتين خلال النهار وأربع مرات خلال الليل لكن بخفة حتى أن عملية التحريك تقتصر على تمرير اليد على البيض. وبعد مضي ثمانية أيام، تُفحص كل بيضة على الضوء لمعرفة التي سيخرج منها صوص، ثم يرمى البيض المتبقي. في اليوم الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين، تخرج الصيصان وحدها فتُخفض الحرارة وإلاّ تموت. وعلى أرض الممر بين الأفران، هناك فواصل مرتفعة على شكل مربعات، تحشر فيها الصيصان جيداً حتى لا يبقى فيها أي مكان شاغر. حيث تشكل هذه المربعات الأماكن الأفضل لتربية الصيصان فتجد فيها هذه الأخيرة حرارة الأم.

ذهبت لرؤية هذا الفرن مع السيد فورسكال في منتصف شهر حزيران/يونيو. وكان العمل فيه متوقفاً لأن تفقيس البيض لا يتم إلا في الأشهر الستة الأكثر برداً لأن تفقيس البيض يمكن أن يفسد في الأشهر الحارة. ومع أن النيران لم تكن مشتعلة في الفرن إلا أن أشعة الشمس القوية التي كانت تصل إليه جعلتنا نتصبب عرقاً. وقد علمنا أن مثل هذه الأفران لا توجد إلا في القاهرة وأنها ملكٌ للباشا. وعندما يحضر

الأجانب بيضهم لتفقيسه في الفرن، يتفقون مع رئيسه على كمية المواد اللازمة للتفقيس. ويضع صاحب البيض اسمه على كل بيضة مما يجبر مسؤول التفقيس على الاحتفاظ بالبيض الذي لم ينجح. تباع الصيصان وهي صغيرة بثمن ٢٠ بريزة عن كل ٣٠ صوصاً. يؤلف كل ثلاثين صوصاً ما يسمي بالربع وهي التسمية التي تستعمل في قياس الحبوب في القاهرة. لذلك، كان الأمر يختلط على بعض الأجانب الذين قالوا إن الصيصان تباع بالمكيال في مصر وهذا ما رواه لنا أصحاب الفرن.





لباس أهل الشرق

يرتدي الأتراك والعرب وكل المسلمين ثياباً طويلة وفضفاضة: إلا أن كل أمّة تتميز منذ النظرة الأولى بنمطٍ خاص في الملبس. ويغير أهل الشرق الذين يقيمون في المدن طريقة لبسهم تماماً كالأوروبيين. في عامي ١٧٠٧ و١٧٠٨، أحضر السيد دو فاريول (De Ferriol) رسماً للباس الشرقيين فنشر في نورمبورغ (Nuremberg) تحت عنوان تصوير البلاط العثماني. لعل هذه الصور قد نقلت بأمانة زي الشرقيين في ذلك الوقت لكننا إذا ما قارناها مع اللوحتين ١٤ و١٥ من كتاب روسال (Russel) وعنوانه **وصف حلب**، نجد أن طريقة الملبس قد تغيّرت كلياً بغالبيتها. إن ثياب الشتاء الشائعة حالياً بين الباشاوات وآغاوات الانكشاريين والقضاة والخدم الأتراك لم تتغير عن الصورة التي قدّمها الكتاب الآنف الذكر وكذلك بالنسبة إلى لباس عامة الشعب الأتراك والدراويش والمسيحيين. إن لباس المديرين من أهل القاهرة يشبه لباس الأتراك إلى حدٍ بعيد لأن الموضة في البلاد الشرقية تخضع لذوق أسياد عاصمة الأمبراطورية. ولأننا نحن أيضاً كنا نرتدي ثيابنا على الطريقة التركية، سوف أقوم بوصفٍ لثيابي الشخصية.

إن القميص الذي يرتديه الأتراك يشبه قمصان النساء الأوروبيات إلا أن الأكمام تكون أكثر اتساعاً ويرتدي أهل الشرق تحت القميص، لا فوقه، سراويل واسعة من نسيج الكتان الأبيض. ويغطون أرجلهم بواسطة خفينٍّ من نسيج الكتان وينتعلون من فوقه بابوجاً من جلدٍ ناعم يسمى ترليق (Terliks) ومن فوقه خفٌ من الجلد يسمى مست (Mests) قد خيّط إلى سروال أحمر شديد الوسع يُسمى شقشير (Schokschir). أما نعال الترليق والمست فهي مصنوعة من جلدٍ ناعم جداً ولأنها لا تستعمل إلا للمشي على السجاد والحصر وعلى كل ما هو نظيف وحيث يمكن للمرء أن يجلس. أما لما تبقى، فينتعل الناس أحذية شبيهة بأحذيتنا فوق الترليق والمست، إلا أنها من دون كعب. ومن فوق القميص والشرشير، يرتدي الشرقيون ما يسمى أنطاري (Entari)، وهو مبطن بنسيج الكتان ويتدلى كمه إلى تحت الركب. وفوق الأنطاري يرتدي الناس القفطان الذي يجب أن يتدلى إلى ما فوق القدمين. يلفون فوقه حزاماً على خصرهم يساعدهم على تثبيت القفطان وعلى المشي بحرية ويمكن أن يظهر من تحته كل من الأنطاري والشقشير. إن ارتداء هذا القدر من الملابس يذكّر بالخادم الذي صوّره روسال في اللوحة الخامسة عشرة من كتابه. حيث يحمل الأتراك في حزامهم خنجراً يكون أحياناً مرصعاً بالذهب والفضة وبالأحجار الكريمة. من فوق القفطان، يرتدون عباءة محشوة في الشتاء وغير محشوة في الصيف. ويكون كماها قصيرين يصلان إلى الكوع. من فوق العباءة، يرتدون فروة تصل إلى الأرض. يمكن رؤية الفروة في اللوحة ١٥ من كتاب وصف حلب لروسال والبنيش (Benisch) الذي يمكن ارتداؤه بدلاً منها في اللوحة

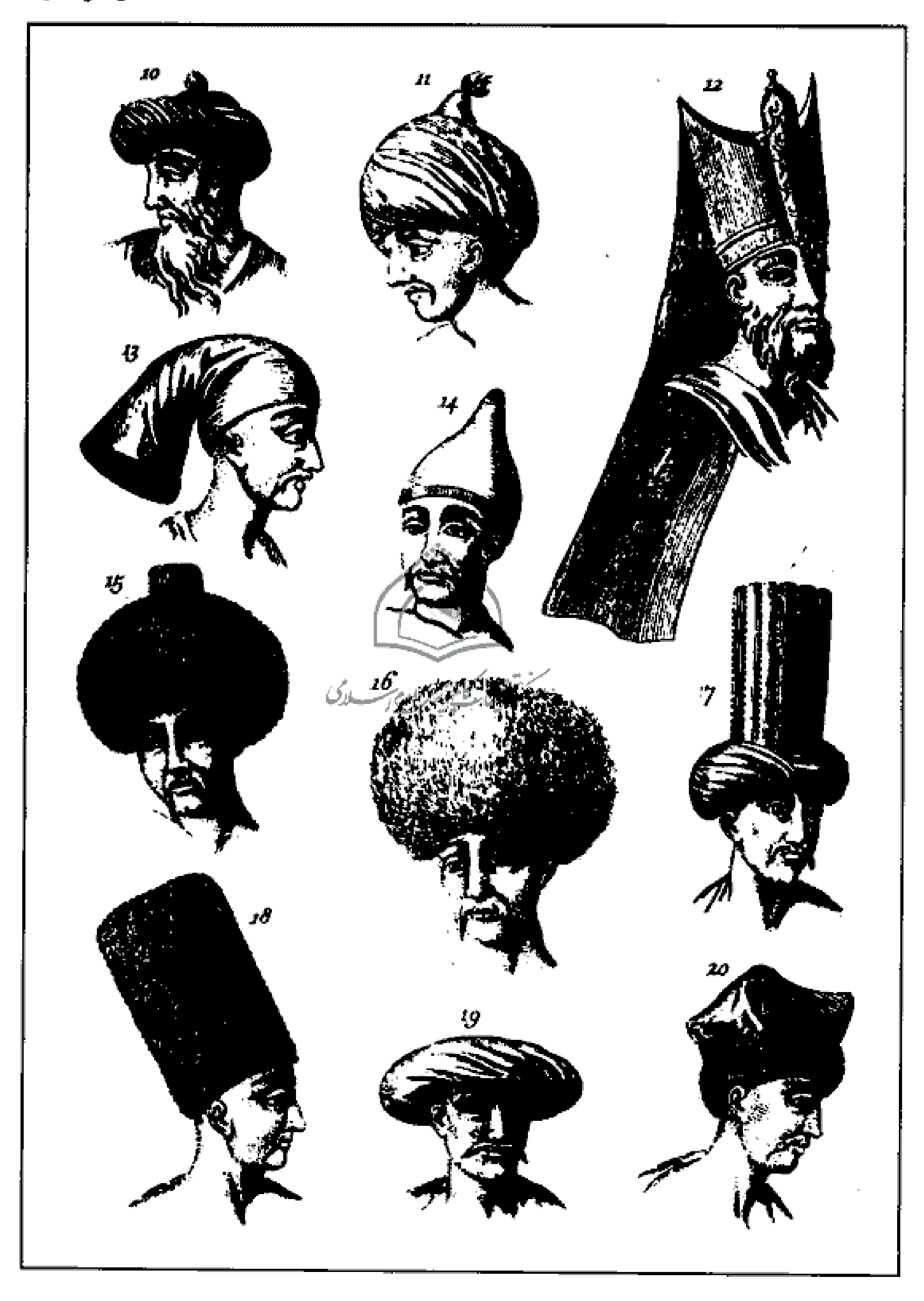
١٦ من كتابي وصف شبه جزيرة العرب. إن أكمام الأنطاري والقفطان والبينيش ليست شديدة الوسع لكنها طويلة جداً تخرج عن حدود اليد، لذا، يلجأ الناس إلى لفها على ذراعيهم وأحياناً يربطون الأنطاري فوق يديهم في أيام البرد. ولأن هذا القدر من الثياب مكلف بالنسبة للفقراء، يكتفي بعض الناس بارتداء السروال المصنوع من نسيج الكتان مع قميص والأنطاري والبينيش، وتكتفي عامة الشعب بالسروال والقميص. لكن لا أحد يتجاهل الحزام. ولا يرتدي الأتراك الشقشير في أسفارهم بل يفضلون عليه السروال ويكون لونه أزرق. ويغلف المسافرون الشرقيون أرجلهم بشرشف كبير من الصوف وينتعلون فوقه جزمة كبيرة مما يزعجهم في السير، إلا أن هذا الشرشف يحمي الأرجل من البرد أكثر من الجوارب العادية. وغالباً ما يرتدي الناس أثناء السفر ثيابهم الخارجية من تحت السروال وحينئذٍ يشبهون الفارس التركي المصوّر في اللوحة الرابعة والثلاثين من كتاب **«مجموعة الرسوم المائة»** أو من كتاب **«وصف البلاط العثماني»**. وغالباً ما يرتدي الانكشاريون الأنطاري والقفطان تحت السروال مع معطف من دون أكمام مع خفين أحمرين. ولا يسمح للمسيحيين ولا لليهود بارتداء الألوان الزاهية ويجبرون على ارتداء لون غامق عندما يريدون تلويث منازلهم. ويمكن للمصريين أن يختاروا بحرية ألوان ثيابهم باستثناء اللون الأخضر، لأن المسلمين الخاضعين للنظام التركي يحتفظون بحق ارتدائه حصرياً. ولا أظن أن هناك قانوناً صريحاً فيما يتعلق بهذا الموضوع. وإذا تجرأ أحد وارتدى اللون الأخضر، فيمكن أن يتعرض للشتم من الشعب لذا فمن المستحسن عدم ارتدائه ويحق للأوروبيين أن ينتعلوا أخفافاً صفراء ومست لكن ذلك يمنع على المسيحيين واليهود الشرقيين باعتبارهم من رعايا السلطان وعليهم أن يكتفوا بالجلود الحمراء والزرقاء والسوداء.

ولعل القطعة الأكثر تغيراً في لباس الشرقيين هي التي تغطي رؤوسهم. هناك ثلاث فئات رئيسية تختلف كثيراً فيما بينها. فيعتمر بعضهم قلنسوة عالية مغلفة بغطاء ومبطنة بالقطن ويغطونها بقطعة كبيرة من نسيج الكتان الناعم. تسمى هذه القلنسوة قاووق (Kaouk) وهي تركية الأصل. ويعتمر البعض الآخر قلنسوات صغيرة ملفوفة بقطعة طويلة من نسيج الكتان وتسمّى الشاش (Sasch) أو العمامة وهي بالأحرى عربية الأصل. أما الفئة الثالثة فتتألف من قلنسوة عالية مبطنة بالقطن يغلفها القماش من فوق ومن جلد الحمل من أسفل تدعى قلبق (Kalpák) يرتديها المسيحيون والتتر الشرقيون. بالإضافة إلى ذلك يعتمر أسياد القسطنطينية أنواعاً من القلنسوات الخاصة بأعمالهم: فضباط السلطان من جميع الفئات وجنود بعض القطع يعتمرون قلنسوات خاصة: ولو كان لدينا الوقت الكافي والرغبة في مشاهدة كافة أشكال القلنسوات التي يعتمرها أهل الشرق لألّفنا منها مجلداً كاملاً. ولأن هذه القطعة من اللباس تهدف إلى التمييز بين مختلف الشعوب الخاضعة للأتراك وبين الطبقات الاجتماعية ولأنها خاضعة دائماً للتغيير، قررت أن أصفها كلها. إلا أن مجموعتي ليست كاملة. كما ولا يمكنني أن أؤكد أن القلنسوات التي رأيتها على رأس أهل طبقة معينة لا يمكن أن يرتديها غيرهم من الناس.


1
2
3
4
5
6
7
8
9

يحلق الشرقيون رؤوسهم (ما عدا الدراويش والأولياء في مصر) ويتركون خصلة صغيرة على قمة رأسهم كما يظهر في الرسوم. ولست أدري ما هي أهمية هذه الخصلة لكني دخلت يوماً إلى دكان الحلاق فرأيته يربط خصلة شعر تركي عجوز بخيطٍ بغية إحكام إمساك رأسه فوق المغسلة لغسله خاصة أن الشرقيين يجدون شيئاً من اللذة وهم بين يدي الحلاق. وكل الناس يعتمرون مباشرة على رأسهم تحت القاووق أو العمامة أو القلبق قلنسوة حمراء تدعى الطربوش (Fâs). في الماضي كان الأوروبيون في مصر يعتمرون عمامة بيضاء لا تختلف عن عمامة المسلمين إلا من الأعلى حيث كان عليها خط أحمر من جانبٍ واحد. وكان التجار يسعدون بهذه العمامة لأنها يمكن أن تضلل شعب القاهرة الذين كانوا يظنون أنهم من المسلمين. أما اليوم فما عادوا يظهرون في الشوارع من دون القلبق الذي يظهر في الصورة الثالثة من اللوحة التاسعة عشرة. تلك هي العلامة الفارقة التي يتميز بها المترجمون الأوروبيون في القسطنطينية ويستعملونها ليحيّوا بها تماماً كالقبعة. إن إلقاء التحية بهذه الطريقة هو أمر غريب بالنسبة للشرقيين الذين لا يكشفون عن رأسهم حتى أمام الباشا أو السلطان. يعتمر الأوروبيون في بيوتهم الفاس ويغلفونه بنسيج الكتان أو الشاش أو العمامة. على أن كل إنسان يحضّر عمامته على طريقته. إن بعض الإيطاليين الذين يعيشون منذ زمنٍ بعيد في مصر لا يزالون يحتفظون بالعادة القديمة ويعتمرون في منازلهم وخارجها عمامة على شكل سفينة (الرسم رقم ١). ولقد رأيت مسلمين يرتدون العمامة نفسها لكنها كانت بيضاء وعمامة الأوروبيين كانت سمراء. تشير الصورتان ٤ و٥ إلى القاووق الذي كان يعتمره الأسياد الأتراك. يكون القاووق مزيناً بقماش أصفر ومغلفاً بنسيج الكتان الناعم الأبيض إذ لم يكن مرتديه من الشرفاء لأن هؤلاء يحيطون القاووق أو العمامة دائماً بقماش أخضر. وفي الحقيقة قلما نرى أحد الشرفاء في القاهرة لأن غالبية البهوات والأسياد الكبار هم مسيحيو الأصل وقد أحضروا إلى مصر وهم لا يزالون من العبيد. تشير الصورة السادسة إلى القاووق الذي يعتمره الأسياد الأتراك الذين يخدمون الباشا، وتشير السابعة إلى قاووق الضباط التابعين للباشاوات وللبهوات المصريين. أما الثامنة فهي صورة القاووق الذي يعتمره كبار الضباط في القاهرة وطرفها مغلف بكتان ناعم. ويظهر في الصورة التاسعة القاووق الخاص بضباط قطعة الانكشاريين.

نجد في الصورة العاشرة عمامة الانكشاريين البسيطين في مصر. وأحياناً يبدلونها بعمامة من الحرير الأسود. أما الصورة ١١ فتمثل عمامة الانكشاريين في القسطنطينية. إن القلنسوة رقم ١٢ هي التي يرتديها هؤلاء أثناء الاحتفالات في القسطنطنية وهم لا يعتمرونها إلا عندما يذهب السلطان إلى المسجد أو إلى الاحتفالات. وفي هذه الحال، يعتمر ضباط هذه القطعة قلنسوات مزينة بالريش مطوية من أمام ومن خلف كما يظهر في صورة اللوحة الثلاثين في «وصف البلاط العثماني» بقلم السيد فريول. القلنسوة رقم ٣ هي قلنسوة البستنجي وهي مغطاة بقماش أحمر سميك. والبستنجيون هم حرس السلطان وفي الماضي كانوا مسؤولين عن بيوت أسيادهم الريفية وعن العناية بحدائقها ولا شك أن سبب تسميتهم يعود

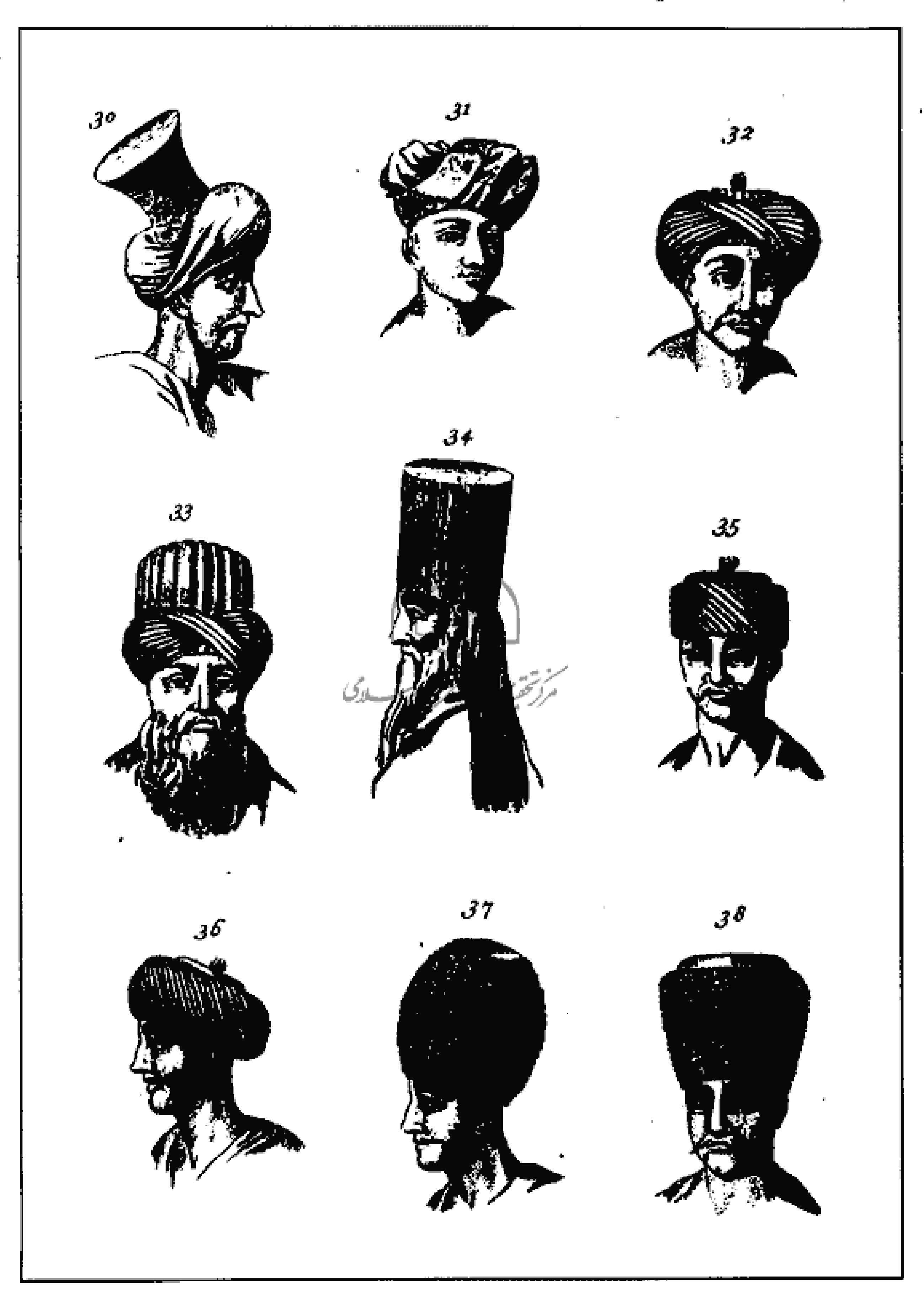

10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20

إلى مهمتهم السابقة. ويقول البعض إن طباخي السلطان كانوا يعتمرون قلنسوات مماثلة إلا أنهم استبدلوا بها لاحقاً قلنسوات من اللبد تظهر في الصورة الرابعة عشرة. ويتميز بعض ضباط السلطان والباشاوات بقلنسواتهم التي هي بمثابة لباس موحد. وتمثل الصورة الخامسة عشرة القلبق الخاص ببعض ضباط الباشا. إن رأس هذا القلبق مزين كثيراً ومغطى بالقماش. أما السادسة عشرة فهي قلبق البرطولي (Kolpa'k des Barátoli) وهم فريق المشاة الخاضع لباشا بغداد. ولقد رأيت القلنسوات نفسها في ولايات أخرى مما جعلني أظن أنها العلامة الفارقة التي يتميز بها بعض الضباط. يشير الرقم السابع عشر إلى بعض الفرق الخيالة التي هي في خدمة باشاوات بغداد والموصل وديار بكر التي تسمّى لفند (Lavend). ويعتمر الأتراك المتسكعون في سوريا القاووق نفسه. في الصورة ١٨ نرى القلبق الخاص بفرق الخيالة في حلب التي تسمى دلي (Deli). أما الصورة ١٩ فهي عمامة بحارة أسطول السلطان. تكون ثياب هؤلاء قصيرة كعامة الشعب اليوناني في جزر الأرخبيل. الرقم ٢٠ يبين قلبق التتر. ويشبه ما تبقى من ثيابهم ثياب البولونيين والفرس أكثر من ثياب الأتراك.

إن الصورة ٢١ تشبه عمامة المفتي في المدن التركية. أما الصورة ٢٢ فهي قاووق كبير مضرّب بالقطن ترتديه في القسطنطينية طبقة معينة من رجال القانون الذين يعقدون جلساتهم في الديوان. والصورة ٢٣ تشير إلى عمامة رجال القانون في القاهرة. أما الصورة ٢٤ فهي قاووق رجال الدين الرئيسيين في تركية كلها. والقاووق رقم ٢٥ هو ما يرتديه الشيوخ أو رجال الدين المميزون في القاهرة. أما القاووق رقم ٢٦ فهو ما يرتديه بعض رجال الدين في الأناضول. وفيما تبقى فإن لباس رجال الدين الأتراك يشبه لباس العلمانيين إلا أن ثيابهم الخارجية هي واسعة الأكمام كثياب العرب. ولن نتجرأ على وضع الأولياء المزعومين في عداد رجال الدين في مصر. إن هؤلاء الخرقى يرتدون ما شاؤوا من اللباس وبعضهم لا يرتدي ثياباً على الإطلاق. تظهر في الصورة ٢٧ قلنسوة شتى مراتب الدراويش وتكون عادةً من اللبد الرمادي. انظروا إلى الصورة ٢٨. إن مسيحيي قيصر يعتمرون القلنسوة نفسها. لكن عندما يغلفونها بقماش أبيض يجبرون على وضع علامة زرقاء عليها حتى يميّزهم جباة الخراج. ونرى في الصورة ٢٩ قلنسوة عالية ومسننة من اللبد الرمادي مغلفة بقطعة قماش كبيرة وهي تهدف إلى تمييز الأكراد الذين يسكنون في سوريا.

تشير الصورة ٣٠ في اللوحة ٢٢ إلى قاووق من اللبد يرتديه الناس في محيط قطيّة (Ku táhja). أما الصورة ٣١ فهي عمامة هندي مسلم شاب وهي العمامة الوحيدة التي كانت مغلفة بهذا الشكل. العمامة ٣٢ هي عمامة أقباط القاهرة والقاووق ٣٣ هو قاووق باقي أفراد الأمة نفسها. إن غالبية مسيحيي القاهرة الأقباط يعتمرون العمامة أو القاووق بعد أن يغلفوها بنسيج الكتان المقلم باللونين الأبيض والأزرق. أما اليسوعيون ودعاة المسيحية في مصر فيعتمرون القاووق نفسه ويرتدون ثياباً مماثلة لمسيحيي

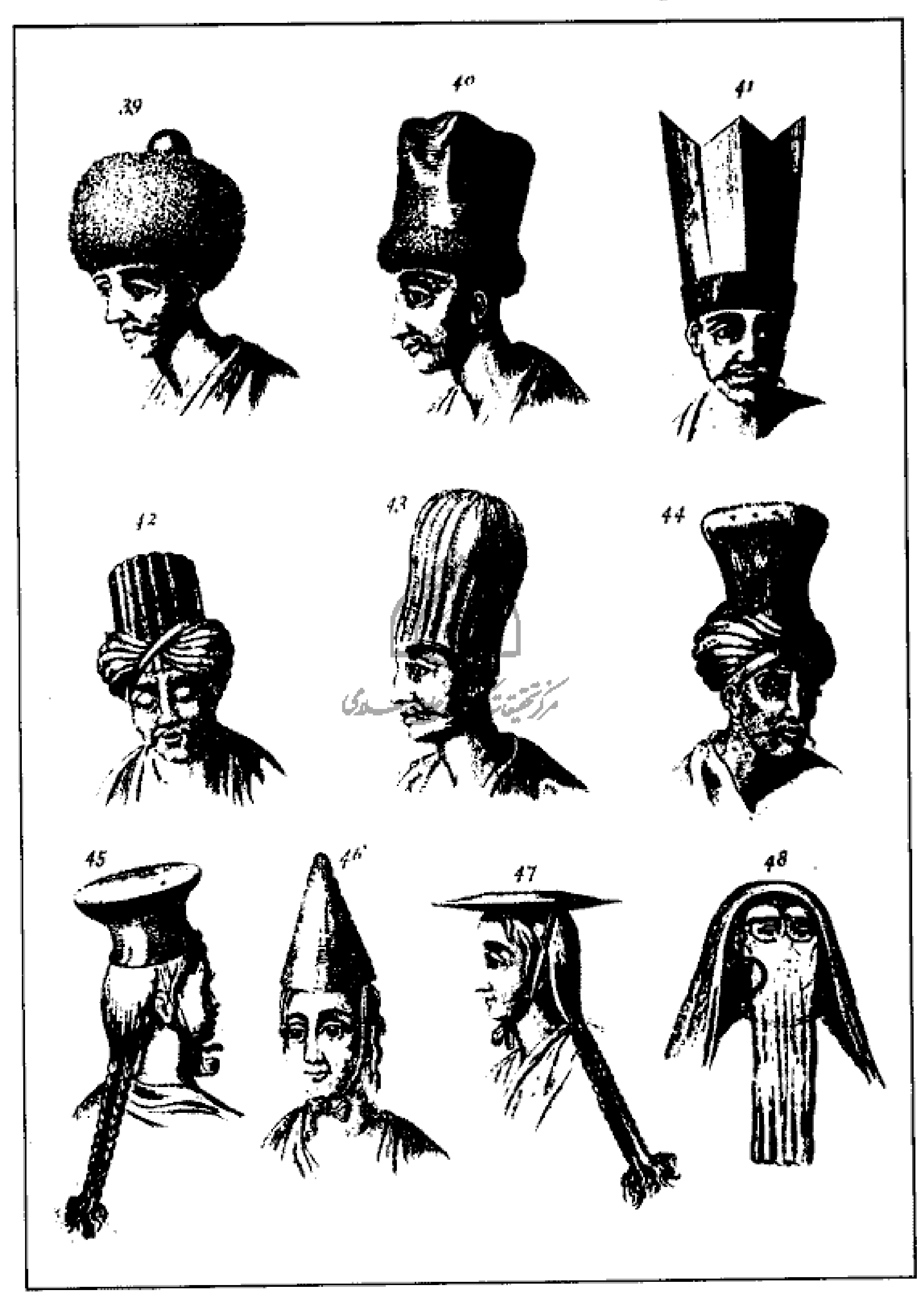

21
22
23
24
25
26
27
28
29


30
31
32
33
34
35
36
37
38

البلد. إلا أن الفرنسيسكان والكبوشيين يحافظون على لباس إخوتهم في الأمبراطورية العثمانية بكاملها وعادة تكون أيديهم وأرجلهم شديدة الاتساخ. وبما أن النظافة تعتبر واجباً دينياً شديد الأهمية بالنسبة إلى المسلمين، نرى هؤلاء يشمئزون كثيراً من هذه الوساخة؛ ومن هنا ينظرون إلى هؤلاء الآباء الطيبين نظرة الأوروبيين إلى أولياء مصر المزعومين. نرى في الصورة ٣٤ قلنسوة رجال الدين اليونانيين التي تكون عادة من اللبد الأسود. يترك هؤلاء شعرهم ينمو ويطول لكن الأرمن وغيرهم من الكهنة الشرقيين يحلقون رؤوسهم باستمرار. العمامة ٣٥ هي التي يرتديها بعض التجار اليونانيين من جزر الأرخبيل الذين رأيتهم في مصر. أما العمامة رقم ٣٦ فهي التي يعتمرها بعض المسيحيين السوريين في القاهرة. إن عمامة أو قاووق اليهود المصريين لا تختلف عن عمامة المسيحيين في القاهرة لكن بدلاً من اللون الأبيض المقلم باللون الأزرق، يلف اليهود عمامتهم بقماش أسمر اللون يميل إلى البني. ولقد أشرت في «وصف شبه جزيرة العرب» أن اليهود الشرقيين يشيرون إلى أنهم من سلالة إبراهيم من خلال الشعر الذي يتركونه ينمو في القسم الأعلى من ذقنهم. القلبق رقم ٣٧ هو قلبق اليونانيين ورقم ٣٨ هو قلبق الأرمن. يكون قلبق اليونان والأرمن مزيناً بالفراء ويختلف حجمه باختلاف الموضة في عواصمهم.

إن القلنسوة التي تظهر في الصورة ٣٩ من اللوحة ٢٣ هي قلبق الأرمن في قره حصار (Karahissar) في الأناضول. أما القلبق رقم ٤٠ فهو قلبق خدم المسيحيين. الصورة ٤١ هي قلنسوة من قماش أحمر وحافة من المخمل الأسود يتميز بها أرمن بلاد فارس الذين سكنوا الأناضول. أما القاووقان ٤٢ و٤٤ فهما يخصان مسيحيي حلب ودمشق وقد صنعا من القماش الأحمر المغلف من الأسفل بنسج الكتان المقلّم. والقاووق رقم ٤٣ هو الذي يرتديه عامة الشعب من مسيحيي الأناضول.

ويختلف ملبس النساء ويتنوع في مختلف بقاع الشرق: في ديار بكر تعتمر نساء النصارى واليهود قبعة من الشبهان أو القماش المطبع بالفضة كما يظهر في الصورة ٤٥ التي تمثل القلنسوة التي ترتديها نساء الدروز وهي أيضاً من الشبهان أو القماش المطبع بالفضة. أما القرويات فيرتدين قبعات من الكرتون. وبالنسبة إلى زينة الرأس الظاهرة في الصورة ٤٧ فهي تناسب ذوق الأوروبيات وهي مصنوعة من الشبهان أو من الفضة. ولقد رأيت النساء اليونانيات يعتمرن القبعات نفسها في الأناضول لكن داخل بيوتهن فقط إذ يغطين رأسهن بكامله عندما يخرجن إلى الشارع ويشبهن بالتالي نساء المسلمين والدروز والنصارى في ديار بكر. أما الصورة ٤٨ فتشير إلى زينة الرأس الخاصة بزوجة شيخ في وادي فران (Farán) بالقرب من جبل سيناء وهي تشبه ثياب النساء في مصر. حيث كانت هذه المرأة تضع على رأسها منديلاً كبيراً أسود اللون شأنها شأن سائر نساء القاهرة وبعض المدن الألمانية. وكانت تلف جبينها بضفائرها التي رصعتها بحجارة من المرجان. وكسائر النساء المصريات تغطي وجهها بقطعة قماش طويلة وضيقة معلقة من ثلاثة مواضع إلى شريط اي من الطرفين ومن فوق الأنف فلا يظهر من المرأة سوى عينيها. وكانت الأقراط في


39
40
41
42
43
44
45
46
47
48

أذنيها مصنوعة من الفضة على شكل دائرة كبيرة القطر حتى أنك لتخالها سواراً. وكانت تلف عنقها بعقد غليظ من الفضة وتصنع حول قدميها خلاخل من الفضة. بالإضافة إلى ذلك كانت تلف حول عنقها شريطاً من الحرير الملون ومن جانبي رأسها أشرطة صغيرة مماثلة يتدلى منها حجر من المرجان. وتضع في خنصريها خاتمين من الفضة مرصعين بالأحجار الشعبية. ولقد رأيت أن زينة ذراعيها تعيق الحركة تماماً كزينة قدميها. إذ تلف ذراعها بسوار من العظام المشغولة (كانت بعض النساء تضع سواراً من الكهرمان) بالإضافة إلى سلسلة من الفضة وسلسلة أخرى. أما ذراعها الأيسر فقد لفت عليه سواراً من الشبهان وآخر من عظام بشكل دائرة بالإضافة إلى سوار من زجاج ملون وسلسلة من الفضة. أما فيما يتعلق بلباسها فلا أستطيع وصفه لأني لم أعلّق عليه منذ البداية.

إن نساء المشرق كلهن يرتدين على أجسادهن العارية سراويل شديدة الاتساع. وترتدي القرويات المصريات والنساء من عامة الشعب في القاهرة فوقه قميصاً واسعاً أزرق اللون يتميز بكميه الواسعين الطويلين اللذين يتدليان من الكتفين إلى الوركين. وغالباً ما يزيّن شعرهن المجدول بأجراس صغيرة وكانت الفتيات الصغيرات يعلقن مثل هذه الأجراس على أقدامهن. وتلف الفتيات حول رؤوسهن صفوفاً من النقود الذهبية إلا أنهن لا يظهرن هذه الزينة وهنّ في الشارع ولا يظهر من وجوههن إلا ما نراه في الصورة رقم ٤٨(*). وتضع النساء من عامة الشعب أقراطاً في آذانهن وأحياناً في الأنف بينما تضع أخريات أساور حول الذراع وخلاخل حول الأقدام. وتضع بعض النساء زينة سوداء أو حمراء على شفاههن وذقنهن وصدورهن تماماً كما تفعل بعض المسيحيات اللواتي طبعن بعض العلامات على أذرعتهن عندما كنّ في القدس. كما وتصبغ النساء أيديهن وأرجلهن باللون الأصفر وأظافرهن باللون الأحمر.

إن القطعة الأكثر أهمية في لباس النساء الشرقيات هي البرقع الذي يغطين به وجوههن في حضور الرجال. ويحكى عن إنكليزي أنه رأى يوماً مصادفة امرأة تستحم في الفرات بالقرب من البصرة. وعندما تنبهت المرأة إلى وجوده سارعت إلى إخفاء وجهها ولم تهتم بستر جسدها العاري أمام الغريب(*). في الحمامات الشعبية تلف النساء قماشاً قطنياً حول الوركين يسمّى الإحرام (Ihhram) وقد ذكرته في **«وصف شبه جزيرة العرب»**. وأخبرتني فتاة من القسطنطينية أنها كانت يوماً جالسة في غرفة الانتظار التابعة للحمام وكانت إحدى خادمات الحمام ـ وهي تركية ـ تقف معي فدخل علينا رجل بغتة فما كان

(*) أخبرني شخص من طرابلس أن العادة كانت تجري بوضع نقود ذهبية حول رؤوس الفتيات ويعود السبب في ذلك إلى ورودها في القرآن. لذلك لا يزال الناس يحتفظون بالنقود الذهبية ويمكن للأوروبيين من هواة جمع العملات إكمال مجموعاتهم من حلي الفتيات المسلمات.

(*) لعل تلك الحركة الصادرة عن المرأة كانت تلقائية، وتدلّ على حشمتها؛ لأنها في خلوة بعيدة عن الأنظار، لا كما يصفه المؤلف فيما شاهد مختلساً النظرة. (المترجم)

من التركية الاّ أن سارعت إلى تغطية وجهها بالإحرام. وقلما يعطي الفلاحون المصريون فتياتهم قمصاناً قبل بلوغهن السابعة أو الثامنة من عمرهن إلا أنهن يرتدين قماشاً قطنياً طويلاً وضيقاً يربط حول الرأس حتى يسدل على الوجه فتغطيه الفتيات إذا مررن برجل غريب. ولقد رأيت بنفسي القرويات الشابات يسارعن إلى رؤيتنا وهن عاريات لم يحجبن إلا وجوههن.

إن الذين يودون معرفة لباس نساء الطبقات الراقية في الشرق عليهم أن يعودوا إلى رسائل مايلادي مونتاغو (Miladay Montagu). فلقد دخلت المرأة الإنكليزية هذه إلى حريم أحد الأسياد الأتراك وقد حاولت أنا الدخول لكنهم لم يسمحوا لي لأني رجل. ووفقاً لسلوك المسلمين، من غير اللائق أبداً تأمل أي امرأة في الطريق مهما كان لباسها ساتراً. وأنا لم أستطع مشاهدة المسلمات من الطبقات الراقية إلا عن طريق استراق النظر إليهن. ومع أن بعض الناس يشككون في مضمون الرسائل الآنفة الذكر حول روعة الحمامات والحريم في الشرق إلا أني أرى أنها غير مبالغ فيها قط وأستند بذلك إلى ما رأيته بعيني في بيوت طبقة معينة من المسيحيين والمسلمين. لكنني أظن أن الكاتبة قد اكتفت بنقل محاسن الأتراك وأنها قد غضت الطرف عن سيئاتهم. وتصور الرسوم رقم (ب) من اللوحة رقم ٢٨ اللباس الذي تخرج فيه نساء القسطنطينية إلى الشارع. فهن يغطين رأسهن ووجههن وعنقهن بأقمشة قطنية كبيرة ولا يظهر منهن إلا عيونهن. ويغطين أجسادهن بفستان خارجي ضيق ينزل من عنقهن حتى أخمص القدم. وفي القاهرة ترتدي ذوات النسب من النساء فستاناً واسعاً من نسيج الكتان الشعبي فوق ثيابهن الفاخرة ويغطين رؤوسهن بحجاب كبير ووجههن بقطعة من القماش القطني الطويل الضيق كما رأينا آنفاً. لكن لدى وصول النساء إلى الحمام أو إلى بيت صديقة ما، يخلعن هذه الثياب ليعرضن ما يلبسن من حلي ومن ثياب فاخرة.

إن عدداً كبيراً من أوروبيي المشرق يتزوج من نساء يونانيات أو من أصل يوناني لذا فلا يصعب على المرء مجالستهن. وهناك فرق بسيط جداً بين لباس هؤلاء ولباس النساء التركيات. سوف أصف لباسهن تماماً كما رأيته وسوف أزوّد القراء بصورةٍ للباس النساء اليونانيات كان السيد بورنفايند (Baurenfenid) قد رسمها في الإسكندرية. أحيلكم إذاً إلى اللوحة الرابعة والعشرين. كما ويمكن مراجعة اللوحة ١٦ من كتاب روسل «**وصف حلب**» لمشاهدة زي النساء التركيات. وجميعهن يرتدين سراويل طويلة تصل إلى أقدامهن. ينتعلن في أرجلهن خفين من الجلد الناعم ومن فوقهما حذاء من دون كعب. ومن فوق السروال يرتدين قميصاً من نسج الكتان الناعم ومن فوقه سترة طويلة الكمين ومن فوقها حزام عريض. تقفل سترة اليونانيات من الأمام أما سترة التركيات فتفتح على عرض اليد. ويرتدين فوق السترة فروة مزودة بكمين يتألف طولها من عرضي اليد. إن قصّة هذه الثياب معرضة دائماً للتغيير لكن التغيير الأكبر هو الذي يطرأ على لباس الرأس وهو يشغل النساء الشرقيات والأوروبيات، على حدٍ سواء. ولا بد أن



أعترف أن لباس الشرقيات أجمل بكثير من لباس الباقيات وأنا شخصياً أفضل لباس رأسهن على لباس رأس الأوروبيات لكن يجب ألا نراهن إلا وهن يجلسن على ارائكهنّ إذ طريقتهن في السير بشعة جداً كيف لا وهن يجلسن متربعات في غالبية الأوقات وينتعلن خفاً من الجلد داخل أحذيتهن الواسعة. هناك بعض النساء الأوروبيات الأصل في القسطنطينية وهن يرتدين الزي اليوناني وينتعلن أحذية أوروبية. لكن يمكننا أن نعرف من خلال طريقة سيرهن إذا ما كن يجلسن على الطريقة الأوروبية أو الشرقية.

يمكن أن تتجول ذوات النسب من نساء القسطنطينية في عربات إلا أنهن لا يستعملنها إلا نادراً في القاهرة حيث يقل عدد العربات قليلاً، مما يجبر النساء الرفيعات المستوى على امتطاء الحمير بدلاً من السير على الأقدام. والجدير بالذكر أن النساء المسيحيات واليهوديات لسن مجبرات على الترجل عن الحمير عندما يلتقين بأسياد القاهرة. والعربات التركيات تشبه العربات الأوروبيات إلى حد بعيد: ولأن الأتراك يتربعون في عرباتهم، نجد فيها اريكة كبيرة وتغيب عنها الأبواب العالية. ويمكن الصعود إلى هذه العربات بواسطة سلم صغير يتدلى عادة من خلف العربة. وبدلاً من مرايانا الجميلة، يستبدل بها الأتراك مشربية. وخلال سفر ذوات النسب من النساء، يستعملن محملاً يحمله بغلان أو جملان.

التمارين والتسليات التي يقوم بها الشرقيون في أوقات فراغهم

ليس من المهم معرفة كيف يمضي الشرقيون أوقات فراغهم. إن الألعاب الأكثر شعبية ما بين عامة الشعب هي بغالبيتها قديمة الأصل. وبما أن هذا الموضوع يمكن أن يلقي الضوء على بعض العبارات التي استعملها الكتّاب القدامى، سوف أذكر في هذا الإطار ما علمته عن التسليات التي يلجأ إليها أهل الشرق. وإني أعترف أنني لم أبذل أي جهد للتبصّر في هذا الموضوع.

إن «العثمليين» أي كبار الشخصيات التركية يمضون أفضل أوقاتهم على ظهر الخيل كما ويشكل ركوب الخيل أهم تمرين من تمريناتهم العسكرية. يجتمع كبار القوم في القاهرة مرتين في الأسبوع في ساحة كبيرة تسمى مصطبة. وأحيلكم هنا إلى خريطة القاهرة. ويتبع هؤلاء القوم مجموعة كبيرة من العبيد والخدم ويكونون جميعاً على ظهر الخيل. فيتجه بعضهم إلى التمرين «بالجريد» (Dsjerid) فينقسمون إلى جماعتين تتألف الواحدة منهما من شخصين ويمسكون بيدهم قضيباً من النخيل يصل طوله إلى أربعة أقدام (إن هذا المشهد يذكّر بالتركيين اللذين كانا يلاحقان بعضهما بالرمح، راجع اللوحة السادسة) فيرمونه أفقياً على بعضهم. وإذا لم يكن الذي يتلقى القضيب مستعداً يمكن أن يقع عن حصانه وأن تكسر عظامه. ولقد عرفت سيداً كسرت يده ورجله في هذه اللعبة عندما كان شاباً ويتسلى بعضهم بوضع إناء يسمى بردك (Bardak) على الرمل ويصوبون عليه أهدافاً وهم يسيرون بسرعة على ظهر الخيل. ومع أن المصريين لديهم قربينات مزودة بلولب إلا أنهم يستعملون سلاحاً بفتيل عندما يمارسون هذا التمرين لأن الهواء الذي يهب فجأة يعيق شرارات صوّانة البندقية فيمنعها من الوصول إلى البارود. ولا يزال ذو الشأن من الناس يتدربون على القوس والنشاب وقد شيّدت بعض الدعامات على شرف أمهر الناس في هذا التمرين. وعندما يرتفع مستوى الماء في النيل يتسلّى أبناء القاهرة في الإبحار بمراكبهم الفاخرة على مياه البرك الكبيرة ويشعلون حينئذٍ الألعاب النارية ولا ينسون الموسيقى. وبعد ذلك يمضي كل سيّدٍ ليلته في حريمه فلا يستطع المسافرون الأوروبيون معرفة ما يفعل هناك. وقد أخبرني أحد سكان طرابلس أن باشا المدينة كان ينصب اسقالتين مرة في السنة وكان يضع بينهما سفناً صغيرة تحمل مدافع ضخمة جداً وكان يمكن سحب السفن بواسطة الحبال. وكانت هذه السفن المعلقة في الهواء تجعل الناظر إليها يعتقد أنه يشاهد حرباً بحرية. وكان يجلس بالقرب من كل اسقاله قبطان يدير مناورات سفينته، أما الرابح فكان الذي يصيب سفينة غيره بالأضرار. لقد قيل لي إن هذه المعارك ليست إلا على سبيل التسلية

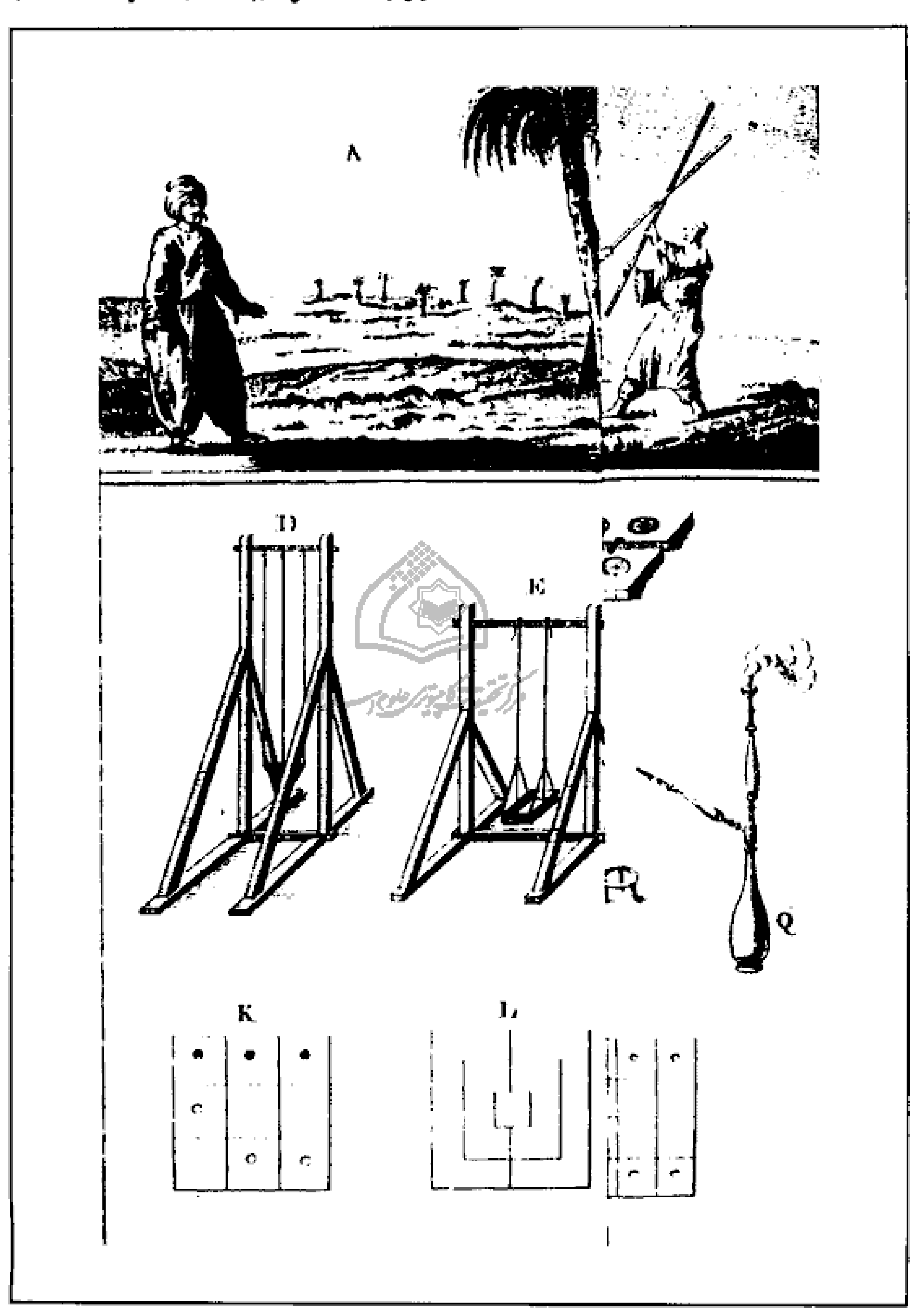
لكن لا بد من القول إنها كانت أحياناً سبباً لخلافات تنشب بين الضباط. إلا أن هذه التسلية قد ألغيت بعد أن افتعل رئيسا سفينتين معركة حقيقية.

شاهدت خدم بعض الأسياد المصريين يتمرنون على رمي قضيب يبلغ طوله من خمسة إلى ستة أقدام في اتجاه أفقي. (راجع الصورة (أ) من اللوحة (١٥). إن هذا التمرين هو الذي يعدّهم لرمي الجريد على ظهر الخيل. كما وأن عامة الشعب والفلاحين يتسابقون باللعب بالوحي وفقاً لبعض القواعد. (راجع الصورة ب) وتجري العادة على أن يقوم المتبارون ببعض الحركات بالعصا قبل بداية اللعبة وبعد ذلك يحاول كل واحد أن يضرب رأس خصمه بالعصا فيسارع الثاني إلى رد الضربة بعصاه. ونرى في الصورة (ج) مصارعين مصريين آخرين، يمسك كل منهما بعصا بيده اليمنى وأريكة بكم في اليد اليسرى ويوجه كل منهما ضرباته على ذراعي خصمه. وتسمى هذه اللعبة لعب الحكم (Läb El Hákkem). ولقد رأيت في الشوارع محاربين يرتدون سراويل ضيقة ولا شيء غيرها، وكانوا قد دهنوا أجسادهم بالزيت. والحق أنهم ليسوا ماهرين ولا يتجرؤون على عرض لعبهم في بلاد فارس. كما رأيت في شيراز بيتاً يتجمع فيه الناس ومنهم أشخاص بارزون للتمرن على القتال ولممارسة تمرينات أخرى للمحافظة على صحة جيدة. وسوف أدرج الرسم في الجزء الثاني من كتاب «رحلتي».

وحكى مسافرون آخرون عن التسليات الشعبية التي تجري في القاهرة عند رحيل الحجاج إلى مكة وعند جرّ مياه النهر عبر المدينة. كما ولكل مؤسس مسجدِ عبده السنوي فيتجه بعض الشيوخ بصحبة جماهير من الناس إلى المسجد ويتسلى الشعب في ساحة مجاورة. عندما تبدأ المسيرة عند المساء، يحمل المصريون بيدهم مشواة موصولة إلى قضبان ويحرقون بها قطعاً من الخشب بدلاً من المشاعل. وكان بعضهم يحمل أداة على شكل سكاكر القاهرة تكون من الخشب الخفيف المغطى بالورق والمثبت على قضيب يوجد في أسفل هذه الأداة ما يقارب العشرين قنديلاً زجاجياً وتكون مزدانة عادة، وفي هذه الحالة تحوي عدداً أكبر من القناديل.

أثناء الاحتفالات الكبرى الخاصة بالمسلمين والأقباط يرفع الناس في الساحات العامة الأدوات (د، هـ، و) فيديرها بعض الرجال والأطفال لقاء أجرٍ زهيد. يشير الحرف (د) إلى أرجوحة عادية بثلاثة حبال يتألف مقعدها من خشبة مثلثة الشكل وهي أكثر راحة وأماناً من أرجوحاتنا ذات الحبلين. أما الأرجوحة (هـ) فهي مشابهة للأرجوحة السابقة ويجلس عليها ولدان أو ثلاثة في آنٍ معاً. أما الحرف (و) فيشير إلى أرجوحة مؤلفة من عارضات أفقية تتدلى من أطرافها صناديق صغيرة تُدار كما تدار الأحصنة الخشبية التي نراها في أوروبا. ويمكن رؤية الآلة (ز) في قرى الأتراك بأوروبا.

إن ألعاب الأطفال في القرى تكون مشتركة عند كافة الشعوب وإني أذكر أني رأيت على ضفاف نهر الفرات بين البصرة والحلّة (Helle) أطفالاً يلعبون بخمس حجارات فيرمون واحدة في الهواء ثم يلتقطونها بعد أن يكونوا قد لموا حجرة أو أكثر أو الأربع التي كانت على الأرض. يطلق العرب على هذه اللعبة


A
D
E
Q
K
L

اسم اللقوط (La Kûd). وهناك ألعاب أخرى منها اللعبة التي تسمى «تختين وخمسة» (Tachtejn u Kamse) والتي يركض فيها الأولاد ثم يقفزون في الهواء. وفي بلاد فارس، رأيت القرويين يلعبون لعبة الراضية (ضرب من ألعاب كرة المضرب). ويتسلى العرب والأتراك بلعبة القسوم والإفرادي. ويلعب الشرقيون لعبة طاولة النرد التي يسمونها «طاولة» ولعبة الداما علماً أن داما هو اسمها العربي. ويتسلون بالشطرنج ويمضي بعض الناس نهارهم بكامله في هذه اللعبة. أما أحجار الشطرنج فتكون عادية جداً ليس لأن المسلمين يبتعدون عن كل ما يشبه الأصنام بل لأن حرفييهم لا يجيدون نحتها أو لأنهم لا يتقاضون لقاء ذلك أجراً كبيراً. وبدلاً من طاولات الداما والشطرنج خاصتنا المصنوعة من خشب فاخر، يستعملون قماشاً قطنياً طرزت عليه مربعات من مختلف الألوان وتلف به الأحجار عند نهاية اللعبة. أما الصورة (ح) من اللوحة ٢٥ فهي تصور ما يسمى بالعربية «المنقلة». تتألف المنقلة من خشبتين في كل منها ستة ثقوب. يمكن لشخصين أن يلعبا هذه اللعبة وإليكم الطريقة: يضع اللاعبان في كل من الثقوب ستة أحجار أو ست صدفات. بعد ذلك، يأخذ أحدهما كافة البيادق الموجودة في ثقب ما ويضع في كل ثقب بيدقاً واحداً مبتدئاً من اليمين إلى أن تنفد كلها. لكن إذا صادف أن لقي اللاعب الأرقام ٢ أو٤ أو٦ في أحد الثقوب التي وضع فيها بيدقه الأخير، يربحها كلها بالإضافة إلى كافة البيادق الموجودة في الثقوب المجاورة. وعندما تنفد البيادق في اللعبة، يعدّ كل لاعب مجموعه ويربح الحائز على العدد الأكبر. وهناك لعبة أخرى تدعى «أدريس ثلاثة» صوّرتها في الصورة (ك). تلعب هذه اللعبة بواسطة أوان ملونة. تحمل اللعبة (ل) أو (م) اسم إدريس تيسا. أما اللعبة المسماة لعب ألقاب (Laib El Kâb) فتلعب بعظام مستخلصة من ركب الخراف والماعز بشرط اتباع بعض القواعد التي تحدد قيمة الجهات الأربع الموجودة في الأعلى. ولعل هذه اللعبة هي التي أدّت إلى اختراع النرد. ويشتهر الشرقيون بلعبة «طاب ودك» التي حكى عنها العالم هايد (Hyde) والتي تمارس بواسطة أوانٍ من كافة الألوان يبلغ عددها ٢١ في سوريا و١٧ أو ١٩ في مصر أو بأي عددٍ إفرادي توضع جميعها في الصف الخارجي عند ابتداء اللعبة. لقد رأيت هذه اللعبة عند الموارنة في القاهرة وكانت تتألف من خشبة فيها أربعة صفوف وفي كل صف ٢١ مربعاً كما يظهر في الصورة (ص). يضاف إلى ذلك أربعة قضبان مسطحة سوداء من طرف وبيضاء من الطرف الآخر. أثناء اللعب في الهواء الطلق ترمى القضبان على سكين مثبت في الأرض أو على إبرة مغروزة في كتبة. وعندما يمارس اللعبة بعض التجار في بيوتهم، يبدأ اللاعب الأول من جهة اليمين والثاني من جهة اليسار حتى تلتقي البيادق ببعضها. عندما يحصل الأول على طاب أي ثلاثة بيض وواحد أسود(*) يقدّم أحد البيادق من الصف الأول إلى الخانة المجاورة في الصف الثاني. وإذا لم يحصل على

(*) يقول هايد إن الطاب يتألف من ثلاثة سود وواحد أبيض. فإما أن يكون أحدنا مخطئاً أو أن اللعبة تمارس بأشكال مختلفة وفقاً للمدن.

طاب، يقوم اللاعب الثاني بهذه العملية شرط أن يحصل هو أيضاً على طاب. إذاً، لا يمكن تحريك أي بيدق من الصف الأمامي إلا عند الحصول على طاب. وإليكم ما يمكن الحصول عليه أيضاً:

١ ـ دوق ونجم أي ٢ من اللون الأسود ٢ من اللون الأبيض عند الحصول على ذلك، نتقدّم بالبيدق خانتين.

٢ ـ دوق وطلعة أي ٣ من اللون الأسود ١ من اللون الأبيض. حينئذٍ يمكن أن نتقدم بالبيدق ثلاث خانات.

٣ ـ أربعة أو أربعة سود فيتقدم البيدق أربع خانات.

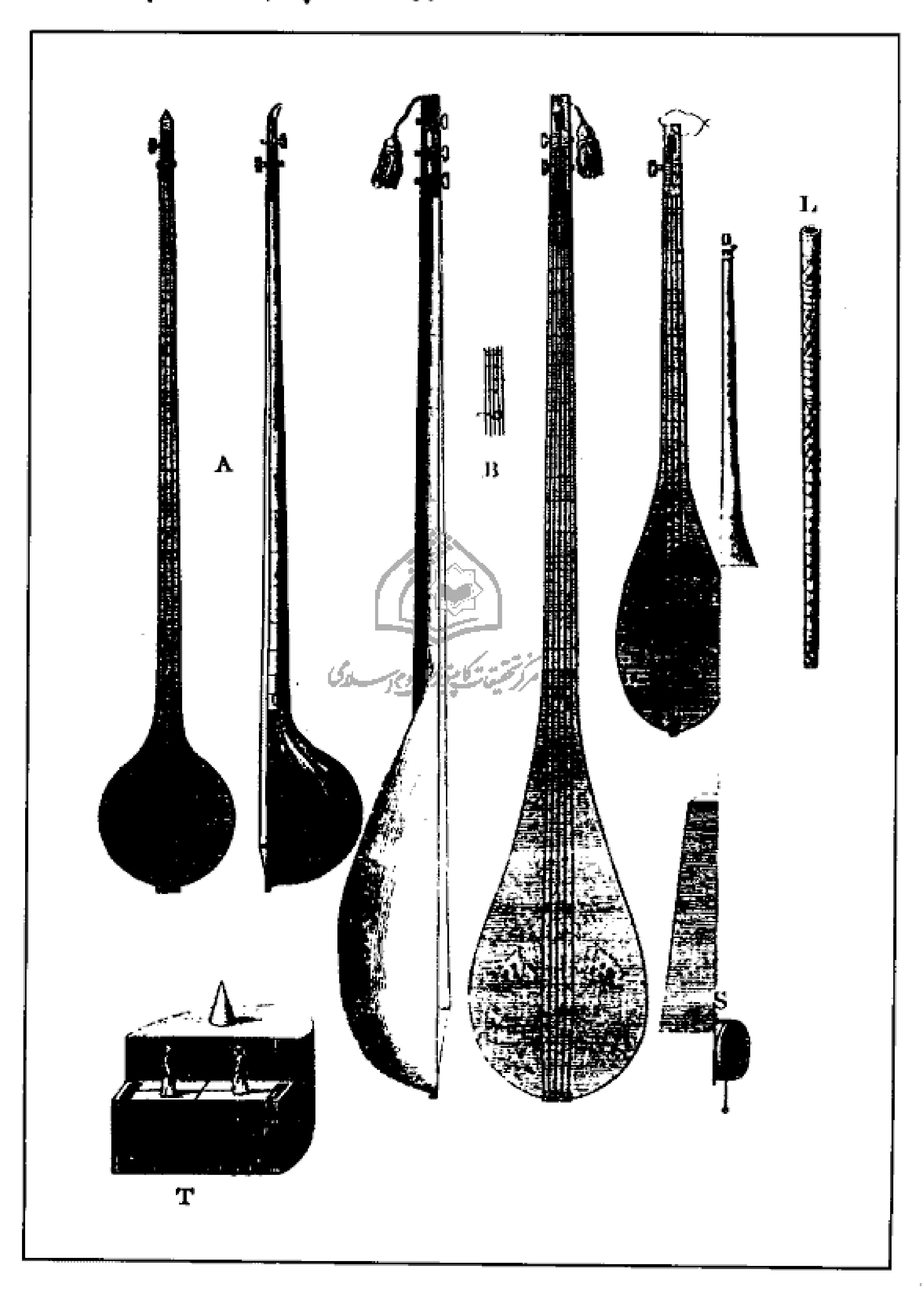
٤ ـ ستة أي عندما نحصل على ٤ بيض فيتقدم البيدق ست خانات وعندما يحصل اللاعب على طاب أو أربعة أو ستة، يمكنه أن يحتفظ بالدور. ويمكن للاعب الذي يوصل بيادقه إلى الصف الثالث دون أن يأخذها منه خصمه، يمكنه أن ينتقل إلى الصف الرابع طالما يوجد عليها بيدق من بيادق الآخر وإلا يتقهقر من الصف الثالث إلى الثاني وذلك إلى أن يفقد أحدهما بيادقه كافة. ورأيت في القاهرة بعض المسيحيين وقد غرزوا نقوداً في الأرض ثم يرمون طابةً للمسها. وهناك قواعد لتنظيم هذه اللعبة كما يجب أن يحصل عندما تصطدم طابة لاعب بطابة لاعب آخر. ولن أستفيض في ذكر تفاصيل الألعاب كلها لأن القارىء ولا شك سيملّ منها.

ولم أجد المسلمين يلعبون قط بالورق على عكس يونانيي القاهرة وقونية (Kónie). ويعتبر العرب لعب الورق قماراً. ولقد رأيت في بومباي تجاراً عرباً يلعبون بالورق الصيني السميك وغير المريح في اللعب، وأذكر أني رأيت أربعة أشخاص يلعبون بالورق الصيني ويمسكونه بصعوبة بكلتا يديهم. ويمنع القرآن المسلمين من اللعب في سبيل تحقيق المال، لذا لا يلعبون إلا على سبيل التسلية. إلا أن بعضهم لا يمتثل لأحكام القرآن. ففي يوم ذهبت لزيارة معارفي من المسلمين في بومباي فوجدتهم مشغولين باللعب بالورق. وعندما أخبرهم الخادم عن قدوم غريب إليهم، هرعوا يخفون المال خوفاً من أن يكون هذا الغريب أحد المسلمين المسنين. ولم تمض دقائق على وجودي معهم حتى استأنفوا اللعب. لكن المال الذي طرح في اللعبة كان زهيداً جداً لدرجة أن الخسارة كانت تنحصر بدرهم واحد في النهار كله.

ولعل تمضية الوقت المفضلة عند أهل مصر وسوريا والعرب على حدٍ سواء هي السهر في القهوة لتدخين الغليون وللإصغاء إلى الحكواتي والموسيقيين والمغنين الذي يقصدون هذه الأماكن لقاء أجرٍ زهيد. وكنت قد ذكرت في كتاب «**وصف شبه جزيرة العرب**» أن أهل الشرق يحبون الجلوس في القهوة ويمضون ساعات كاملة فيها من دون التحدث إلى جيرانهم. وفي مصر يستعمل الناس غليوناً

طويلاً خشبي القصبة وتكون هذه أحياناً مغلفة بالحرير أو بالقماش الناعم. في أيام الحر الشديد، يرطب بالماء لجعل الدخان أقل حرارةً. وعادةً تكون قصبة الغليون مصنوعة من القصب الرقيق الشائع، أما محرق التبغ فيكون عادة من الفخار. ويستعمل الناس أيضاً الغليون الفارسي الذي يمر فيه الدخان من خلال الماء. أما الغليون الذي يستعمله عامة الشعب فهو بسيط جداً: يتألف من جوزة هند مع محرق تبغ من الفخار علقت على طرفه قصبة من الخشب وأخرى من القصب السميك، ويمكن مشاهدته في الصورة (ص) من اللوحة ٢٥. أما طريقة استخدامها فهي سهلة. بعد ترطيب التبغ يُحشى في المحرق (أ). في كل مرة نود فيها تدخين نفس جديد، يُعبّأ نصف جوزة الهند بالماء إلى أن يصل الماء إلى الطرف السفلي من القصبة (ب). وعندما تضخ القصبة (ج) الهواء من فوق الماء، يطرد الهواء الخارجي الدخان من خلال القصبة (ب) والماء ليملأ الفراغ. ولا يلجأ الشعب إلى مثل هذا الغليون للتسلية وحسب بل بسبب الحرارة التي يؤمنها. وأثناء الرحلة التي قمت بها في فصل الشتاء عبر نهر الفرات كان البحارة مجبرين على النزول في الماء مراراً ولم يكونوا يتجرؤون على شرب الكحول فكنت أقدم لهم خدمة العمر كلما أعطيتهم غليوناً ليدخنوه لأنهم بهذه الطريقة يدخلون الهواء الساخن إلى زواياهم. نرى في الصورة (ع) شكلاً آخر من الغليون لا يزال موجوداً في بلاد فارس. الفرق الوحيد بينه وبين الغليون السابق هو أنه يوجد في أسفل جوزة الهند رأس من الفضة أو الشبهان. وبما أنه لا يمكن وضع هذا الغليون على الأرض إذا لم نشأ مسكه بيدنا، يمكن أن نستعين بأثفية خاصة نحملها معنا لوضعه عليها. نرى في الصورة (ق) الغليون الشائع حالياً في بلاد فارس. وهو عملي جداً أثناء الأسفار والمفضل عند الحاكم كريم خان. يسمّى هذا الغليون «كريم خاني». إن غليون ذوي الشأن من الفارسيين يكون أحياناً كله من الفضة لكنه عادة يكون من التنك المرصّع بالفضة أو الزجاج مع قصبتين من خشب. وفي الهند، تكون أدوات التدخين أقصر وأعرض من الأسفل كي لا تصبح عرضة للوقوع بسهولة لأن الهنود المميزين لا يمسكونها بيدهم. أما القصبة فتكون من الجلد الناعم. إن كل هذه الأنواع من أدوات التدخين لا تختلف أبداً بين بعضها من الداخل. شكلها الخارجي وحده الذي يختلف باختلاف الأذواق. ويمكن أن نرى في اللوحة ١٥ من كتاب روسل **«وصف حلب»** الغليون الأكثر رواجاً بين كبار الأتراك. إن هذا الغليون وغليون كريم خاني يصنعان من الزجاج في شيراز وغالباً ما يكونان مرصعين بأزهار من كل الألوان تكون ملصقة من الداخل.

يعتقد ذوو الشأن من الأتراك أن تعلم الموسيقى والرقص يقلل من شأنهم. إن كبار القوم في الشرق ليسوا من خبراء الموسيقى والذين يعزفونها لا يحصلون على أجور جيدة، لذلك ليس غريباً أن يسبقهم الأوروبيون في هذا المجال. ولم أعثر في مصر وشبه جزيرة العرب وبلاد الهند على أي عازفٍ يجيد وضع لحنٍ ما. ومع أني سمعت عن عازفين ماهرين في القسطنطينية، إلا أني لم ألتقِ بأحد يعرف النوتات وذلك حتى في صفوف الدراويش المولويين وهم من أهم الموسيقيين في تركيا. ومع كل ذلك، لا يمكن أن


A
B
L
O
S
T

نقول إن موسيقيي الشرق ومغنيه ليسوا ماهرين ولقد سمعت بعض الشيوخ يرتل القرآن وكنت أعجب بترتيلهم فهم لا يصرخون أبداً في محاولة رفع صوتهم. كما وحضرت بعض الحفلات الموسيقية التركية في بغداد والقسطنطينية، ومع أنها لا تشبه حفلاتنا إلا أني أكيد أنها ستعجب أي أوروبي لا يطلب المستحيل. إن أكثر ما يسمعه المسافر الأوروبي في البلدان المشرقية هو الموسيقى السيئة التي تعزف في الشوارع. قبيل سفرنا من القاهرة إلى دمياط، غنّى لنا البحارة أغنيات حب شبهوا فيها حبيباتهم بخيار دمشق وعيونهن بعيون الغزال وتغنّوا بجمال أيديهن الصفراء وأظافرهن الحمراء... وكان أحدهم يبدأ بغناء مقطع فيكرر الباقون الكلمات نفسها واللحن نفسه ثلاث أو أربع أو خمس مرات كل مرة بطبقة موسيقية مختلفة. وبدلاً من الطبلة كانوا يصفقون معاً. ولن يُعجب أي أوروبي بالزغاريد التي تطلقها الراقصات المصريات كما أن موسيقانا لا تعجب الأتراك والعرب. وتكون ألحان الشرقيين عادة بسيطة وهم يحبذون أن يفهم السامع كل كلمات الأغنية. عندما يعزف اللحن بعدة آلات موسيقية مع مرافقة غنائية، نسمعهم جميعاً يؤدون النغم نفسه. وسأذكر لكم مثلاً على أن موسيقانا ليست من ذوق الشرقيين كما أن موسيقاهم ليست من ذوقنا. أقمنا حفلاً موسيقياً في القاهرة تألف عازفوه من بعض التجار والرهبان والسيد بورنفايند وأنا. وفي أثناء عودتنا إلى المنزل، كنا أكيدين من أن عزفنا قد لاقى إعجاباً شديداً في هذا البلد فالتقينا في الظلام برجل مصري يغني وبآخر يصحبه على الناي. ولشدة ما أعجب أحد خدامنا بهذه الموسيقى صرخ: بارك الله، هذه موسيقى جميلة. عجبنا من قول الخادم وسألناه عن رأيه في موسيقانا فأجاب أنها تشبه الضجيج الصاخب الذي لا يمكن أن يتلذذ فيه المرء. ولقد عزفنا أحياناً أنا والسيد بورنفايند لبعض العرب من الطبقات الرفيعة، ومع أنهم لم يبدوا عدم إعجابهم بموسيقانا مباشرة إلا أنهم اعتبروا أن موسيقاهم فيها رجولة أكثر من موسيقانا وأنها أجمل منها.

ولأني عازف سيىء لم أجد الوقت أو الفرصة لتعلم موسيقى الشرقيين ووجدت أن خير سبيل لأعطي الأوروبيين فكرة عنها هو عن طريق رسم آلاتهم الموسيقية. وسأحيلكم في هذا الإطار إلى اللوحة ٢٦. الآلة (أ) هي التي يستعملها اليونانيون الآتون إلى مصر من جزر الأرخبيل. تسمى هذه الآلة «طمبورة» باللغة العربية. فيها وتران من الفولاذ. يسمي اليونانيون الآلة (ب) سيووري (Sewûri) وهي تتألف من أربعة أوتار من الفولاذ ومن وترٍ مزدوج من الشبهان. يسمي اليونانيون الآلة(ج) بقلاما (Baglamâ) وطمبورة (Tambûra). وربما يطلق اليونانيون على الآلات الموسيقية الوترية كافة الاسم الأول والعرب يطلقون عليها الاسم الثاني. لا تختلف هذه الآلة عن سابقتها إلا بالحجم وهي تتألف من ثلاثة أوتار واحد من الفولاذ واثنان من الشبهان. تلف حول مقبض هذه الآلات حبال من معي الحيوان لجعل الأنغام أكثر ارتفاعاً بتلمس هذه الأوتار بواسطة ريشة وغالباً ما يرافق الموسيقى الغناء. ويتألف هيكل هذه الآلات من الخشب الرقيق ولا يكون خوانها مقوساً ولا الملوى قريباً من المقبض. الصورة (د) هي صورة آلة بكمان (مقوس) يسميها اليونانيون ليرا (Lyra). فيها ثلاثة أوتار من معي الحيوان لا تلمس من الأعلى بل

من الطرف وبواسطة الأظافر كما نلمس أوتار القيثارة بواسطة المرعشة، وأظن أننا أحياناً كنا نمرّر القوس على الأوتار الثلاثة معاً للحصول على نغم عميقٍ وخفيض. ليست هذه الآلة مرتفعة لكن للعزف عليها نقف في الوضعيّة نفسها كما لو كنا نعزف على الأوتار الغليظة في الكمان الأوسط ويكون القوس فيها سيئاً شأنه شأن كافة الآلات التي تكون أوتارها من معي الحيوان والتي تشيع بين العرب. إن هذه الآلات تتألف من خشبة صغيرة أخذت مباشرة من الشجرة. يتكون هيكل الليرا من الخشب الصلب. وهناك نافذتان صوتيتان في الداخل ومشط مركز في النافذتين هاتين. ثم إن الرسم (هـ) هو لآلة بقوس يسميها اليونانيون رباب (Repâb) والعرب كمنجة (Seméndje). قيل لي إنها كانت تتألف في السابق من ثلاثة أوتارٍ من معي الحيوان لكن التي رأيتها في القاهرة كانت تحتوي على وترين كما وقوسها سيىء مثل قوس الليرا. أما قدمها فهي من الحديد. يتألف هيكلها عادة من جوزة هند أو من خشبٍ قاس. وخوانها من جلدٍ مشدود كجلد طبولنا. تلك هي الآلة التي يستعملها العازفون السيئون الذين يرافقون الراقصات المصريات. يمكن أن نجد النوتات الموسيقية بالقرب من هذه الآلة. ونرى في اللوحة ٢٧ أن العازفين المصريين يتخذون أثناء عزفهم على هذه الآلة الوضعية نفسها التي يتخذها موسيقيونا عندما يعزفون على الأوتار الغليظة في الكمان الأوسط. إن الصورة (و) من اللوحة ٢٦ تبين آلة بقوس شائعة الاستعمال بين العرب تسمّى مرابا (Marábba) قيل لي إن لها وترين لكن الآلة التي حملتها معي إلى الفندق لأرسمها كانت وحيدة الوتر. لا تتجاوز سماكة هذه الآلة الأصبعين وهي مغلفة من فوق ومن تحت بجلدٍ مشدود وهناك نافذة صوتية بالقرب من المقبض. وهكذا يمكن القول إن هذه الآلة هي في الوقت نفسه كمان وطبل. وكان الموسيقي الذي يستعملها ماهراً فيتعامل معها مرة على أنها كمان ويضرب الخوان مرة أخرى كأنها طبل. وجدير بالذكر أن ألحان المرابا تنسجم مع أصوات العازفين العاديين. الآلة (ز) هي أيضاً آلة بقوس فيها وتر وجلد مشدود يحل محل الخوان وقد رسمت صورتها في البصرة. شاهدت آلات موسيقية أخرى في بلاد الهند وبغداد والقسطنطينية لكني كنت منشغلاً بأمور أخرى غير تصوير رسومها. والحق أنني كنت قد اعتدت على آلات الشرقيين فما عادت تلفت انتباهي كالسابق.

يحب المصريون الآلات الموسيقية الصاخبة إلا أن سكان المناطق الإفريقية الجنوبية يفضلون الموسيقى الهادئة. وقد رأيت بين يدي البربر آلة موسيقية تشبه القيثار (الصورة (ح)) كانوا يسمونها قثير (Kussir) بينما يسميها العرب طمبورة وهو الاسم الذي يطلقونه على كافة الآلات شديدة الصخب. يتألف هيكلها من صحنٍ خشبي في أسفله نافذة موسيقية. وهي مغطاة من الأعلى بجلدٍ رقيق أكثر علواً في الوسط من الجوانب. هناك قضيبان معلقان بثالث أعلى منهما يمرّان منحرفين من خلال الجلد الذي يحمل خمسة أوتارٍ من معي الحيوان المثبتة بمشط. ولا نجد أي ملوى في هذه الآلة ويعلّق كل وتر حول القضيب بواسطة حزقة صغيرة من نسيج الكتان. وتشير النوتات المصورة قرب الصورة إلى النغم الذي يجب أن تُضبط عليه. ويمكن العزف على هذه الآلة بطريقتين فإما أن ننقرها أو أن نمرّر قطعة جلدٍ على

الأوتار وكان البربري الذي يعزف عليها يرقص في الآن نفسه. ولقد كان هناك شريط خلف الآلة يمكن استعماله لتركيز اليد أو الأصابع على الأوتار. وكأن هذه الآلة تشبه قيثار داود؟

ومن بين المزامير كافة الموجودة في تركيا، تعتبر الآلة التي يسميها المصريون صرم (Surme) الأكثر صخباً. ويتألف الصرم من سبعة أجزاء ويشبه بوقنا إلى حد بعيد. (راجع الصورة ن). ويطلق المصريون اسم صرم أيضاً على الآلة (ك). ويشبه الصرم المزمار وفيه سبعة ثقوب وثقب ثامن للإبهام. ثم إن هناك مزماراً آخر يشبه السابق ويبلغ طوله ٢١ بوصة. أما النغمات الصادرة عنه فهي عميقة ومنخفضة. وإن الآلات الموسيقية الثلاث المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية هي الطبل على أنواعه والبوق والمزمار وجميعها تصدر أصواتاً لا تعجب الأوروبيين. وتساهم هذه الآلات في الدلالة على الرتب. الصورة (ل) هي صورة السلمانية (Salamanie) أو الناي التركي المصنوع من القصب والمزوّد بحلقة من الفولاذ من جهته العليا إلا أنه يكون أحياناً مصنوعاً بكامله من الخشب الجيّد. ثم إن وضعية العزف عليه هي نفسها التي يتخذها عازفو الناي الأوروبي الهادىء. أما فم هذا الناي فهو صعب لأنه خال من أي لسان ومفتوح بكامله من الأعلى. ولقد رأيت هذه الآلة بين يدي رعاة الغنم الأتراك في بلاد فارس. فالأتراك إذاً قد حصلوا عليها من أسلافهم في تركستان. ويبرع الدراويش المولويون الذين يسميهم الأوروبيون الدراويش الراقصين في العزف على هذا الناي. لأن هؤلاء أدخلوا الموسيقى إلى عقيدتهم فأصبحوا من أهم الموسيقيين الأتراك وهم يفضلون الناي على سائر الآلات الأخرى. ثم إن الحرف (م) يشير إلى مزمار يسمى زمّارة (Sumâra) يتألف من قصبتين واحدة قصيرة وأخرى طويلة ومن فتحتين. ويمكن تقصير القصبة الطويلة أو تطويلها بواسطة بعض القطع الصغيرة المعلّقة عليها وذلك وفقاً للنغم المعروف. أما الصورة (ن) فهي لمزمار القربة الذي يسمّى زمارة القربة (Sumâra El Kürbe) ويستعمل في مصر. الجزء الأعلى من هذين المزمارين مكوّن من الخشب السميك. أما الفتحات الكبيرة السفلى فهي كالبوق. ليست هذه الآلة عظيمة الشأن إذا ما قارناها بمزمار القربة البلغاري فأنا لم أبتهج لسماعي أي آلة من آلات الشرقيين كما ابتهجت عند سماعي المزمار البلغاري، ولست أدري إذا ما كان السبب يعود إلى براعة العازفين أو إلى النغمات البلغارية التي هي أقرب إلى أذن الأوروبيين منها إلى أذن العرب والأتراك.

تختلف أشكال طبول أهل الشرق وقياساتها. وتشير الصورة (س) إلى ما يسميه العرب بالطبل الذي يُمسك أفقياً ويضرب عليه من جهة بقضيب من الخشب صنع خصيصاً لهذه الغاية، ومن الجهة الأخرى بعودٍ صغير. يشكل هذا الطبل جزءاً من الآلات المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية وفي حفلات الزفاف في القاهرة. فالصورة (ع) هي صورة دائرة واسعة مغلقة من جهة بجلدٍ طري. تكون حافته عادة مزينة بصفائح معدنية رقيقة ومستديرة تزيد من صوته. ويمسك هذا الطبل بيدٍ من الأسفل بينما تستعمل اليد الأخرى للضرب عليه. إن هذه الآلة هي الأكثر شيوعاً في تركيا وتستعمل في الحفلات التي تقيمها



النساء داخل الحريم، أما الاسم الذي يطلق عليها فهو «الدف» (Döff). يشير الحرف (ك) إلى نوع آخر من الطبول يكون قعره أحياناً من الخشب وأحياناً أخرى من النحاس. أما الطبل (ص) فيتألف من آنية من الفخار مغطاة بجلدٍ مشدود. يحمل تحت الذراع ويضرب عليه باليد الأخرى ويسمى دربكّة. يلجأ بعض الشحاذين في اليمن إلى غناء بعض الأناشيد للإعلان عن حضورهم ويرافقون غناءهم بضربٍ على الطبل. وبما أنه من غير المريح مسك الآلة بيد والضرب عليها باليد الأخرى، يصنعون طبلاً صوّرته في الصورة (ث) ويعلقون عليه من الجهتين كرة. وهكذا، عندما يديرون الطبل بسرعة تضرب الكرات حافته ويصل الشحاذون إلى مبتغاهم من دون غلبة. وأذكر أني رأيت بعض الدراويش الكلندريين أو القرندليين ينفخون في بوقٍ كبير أمام منازل المسلمين ليعلموهم بوجودهم وليحصلوا على الصدقة. ومن الآلات الموسيقية الأخرى الشائعة في الشرق نذكر الصناجات التي تحملها الراقصات فتضع الواحدة منهن اثنتين في كل يد واحدة حول الإبهام وأخرى حول إصبع آخر. ثم لعزف الموسيقى العسكرية تستعمل صحون معدنية على شكل الصناجات. أما المزمار الذي رأيته بين يدي فلاح في القاهرة فكان مصنوعاً من القصب. ولقد رأيت السنطور في بغداد وطريقة العزف عليه تشبه طريقتنا. إذ كانت العازفة امرأة من الإسكندرية وكانت تلمس أوتاره بأصابعها بعد أن سلحتها بأظافر من فضة بدلاً من لمسها بقضبان صغيرة.

إنه من غير المحتشم أن يرقص المسلمون الذكور لكن ذلك لا يطبّق على النساء. وهن لا يتدربن على الرقص لإرضاء أزواجهن وحسب بل للتبارز فيما بينهن أيضاً. ولقد أخبرني أحد سكان طرابلس في كوبنهاغن عن طريقة رقص سيدات مدينته أثناء الأعراس وأظنها لا تتغير في تركيا وشبه جزيرة العرب. ومع أن هذا الرجل لم يشاهدهن بأم عينه إلا أن زوجته كانت قد نقلت له كل شيء بالتفصيل. وقال لي إنه ما من امرأة تتجرأ على الظهور في هذا الجمع الغفير لو لم تكن جميلة أو تظن نفسها جميلة وترتدي ثياباً فاخرة. وفي أعراس الأشخاص البارزين، نجد عادة أكثر من ٥٠ امرأة شديدة الجمال يرتدين أفضل ما لديهن من ملابس. وتحضر كل واحدة منها أجمل خادماتها أو جارياتها اللواتي يجلسن في قاعة مجاورة إلى جانب صناديق مليئة بالثياب. بعد تقديم المرطبات للسيدات، تدخل خادماتهن الجميلات فيبدأن بالرقص والغناء لتسلية الحضور. ثم تبدأ أكثر السيدات تميزاً بعرض مواهبها في الرقص لكن بعد برهة تذهب إلى القاعة المجاورة وتبدل ثيابها كلها، حتى حذاءها الجميل المقصّب ذهباً أو فضة. إلا أنها تحافظ على زينة رأسها وأساورها المرصعة بالجواهر الثمينة. في هذه الفترة ترقص أخريات ثم يتركن الجمع لتبديل ملابسهن. وهكذا، فإن كل سيدة تبدل ثيابها من ٨ إلى ١٠ مرات تقريباً في الأمسية الواحدة. وتحاول كل سيدة أن تحظى بإعجاب الجمع مما يجعل الباقيات يتركن الحفل مستاءات وحتى اليونانيات يبدلن ثيابهن أثناء الاحتفالات. ولقد أخبرني أوروبي في القسطنطينية ذهب يوماً لزيارة صديقه اليوناني أن زوجة هذا الأخير بدلت ثيابها أكثر من خمس مرات في مدة ساعتين. أما الأوروبيون الذين يتذمرون من كون

نسائهم يصرفن أموالاً كثيرة على ملبسهن فيمكن تعزيتهن بأن الشرقيات أكثر إفراطاً في الإنفاق من نسائهن بكثير.

ويحلو للرجال مشاهدة الراقصات أثناء الأعراس أو في المجتمعات، وتسمى الراقصات في القسطنطينية تسيغان (Tschingane) والمصريات في القاهرة غازيات. تعيش هؤلاء بعيداً عن المسلمين ونادراً ما يتزوجن من غرباء. يمارس أزواجهن عادة مهنة المشير ويسمحون لنسائهن وبناتهن بالرقص والغناء في الاحتفالات لقاء أجرٍ ما. يصحب هؤلاء رجل واحد يعزف على الكمنجة بالإضافة إلى نساءٍ مسنّات يراقبن سلوكهن. ومن المعروف أن هؤلاء النساء لسن الأكثر عفة بين المسلمات. وبالرغم من ذلك، يمكن لأي مسلم أن يحضرهن إلى منزله من دون أن يعترض أحد. ويمكن لمسيحيي الشرق وللأوروبيين المتزوجين أن يحضروا هؤلاء النساء للرقص في منازلهم، لكن ذلك محظور على الأوروبيين غير المتزوجين وعلى التجار الفرنسيين لأن الملك يمنعهم من الزواج في الشرق. لذلك كنا نكتفي بمشاهدتهن في الطرقات أو في منازل أصدقائنا المتزوجين أو حتى في بعض المواخير خارج المدينة. ولأن منازل بعض التجار الأوروبيين الذين يسكنون القاهرة تقع على إحدى ضفاف القناة التي تمر بالمدينة، فإن الغازيات يستفدن كثيراً منهم في أيام تنظيف القناة قبل أن يصل النيل إلى الارتفاع المطلوب ليصبّ ماءه في القناة. لقد شاهدت هذه الأيام مباشرة قبل ذهابي إلى الصحراء لشدة ما كنا خائفين من سفرنا المقبل، كنا نحاول تمضية الوقت من خلال مشاهدة الغازيات يرقصن ويغنين في القناة الجافة التي كانت تستعمل كطريق. في بادىء الأمر لم تكن مشاهدتهن تسلّينا فقد كانت موسيقاهن تعتمد على الآلات أكثر من الصوت وكانت سيئة جداً، وكانت النساء يتخذن أوضاعاً جسدية غير محتشمة. ولقد وجدناهن قبيحات وأصابنا الاشمئزاز من أيديهن المطلاة باللون الأصفر ومن أظافرهن المطلاة بالأحمر ومن الزينة السوداء والزرقاء على وجوههن وأذرعتهن وصدورهن ومن خلاخيلهن وأقراطهن والكميات الهائلة من الدهون على شعرهن التي كنا نشمّ رائحتها حتى من بعيد... ومع أن أصواتهن كانت جدّ قبيحة، صرنا نظن في النهاية أنها جميلة وأنهن وسيمات وصرنا نشاهدهن ونسمعهن بفرح كما لو كنا نشاهد ونسمع أمهر الراقصات والمغنين في أوروبا. لقد رسم السيد بورنفايند إحدى هذه الفرق في اللوحة ٢٧. فيلاحظ أنه لا تختلف ثيابهن الخارجية عن ثياب عامة الشعب من المصريات. وأثناء الرقص يرفعن القماش السميك والضيق الذي يغطي وجوههن ثم يرمينه من الخلف. ثم يخلعن ثيابهن الخارجية ويبقين في ثيابهن الداخلية التي تشبه ثياب النساء التركيات أي قميص أبيض وتحته سروال طويل وواسع بالإضافة إلى تنورة تكون دائماً مفتوحة من الأمام ومن فوقها حزام بزرين كبيرين يكونان غالباً من الفضة. ووفقاً للوصف الذي سمعته عن التسيقان في القسطنطينية، رأيت أن هؤلاء يرقصن تماماً كالغازيات في مصر في بعض الملاهي الليلية اليونانية في غلطه (Galata)، تلك الملاهي التي يرتادها الأتراك العاطلون عن العمل، ورأيت صبياناً يرقصون بثياب خاصة. إن تجارة بعض المسيحيين بغيرهم من أبناء دينهم بغية تسلية المسلمين يجب أن

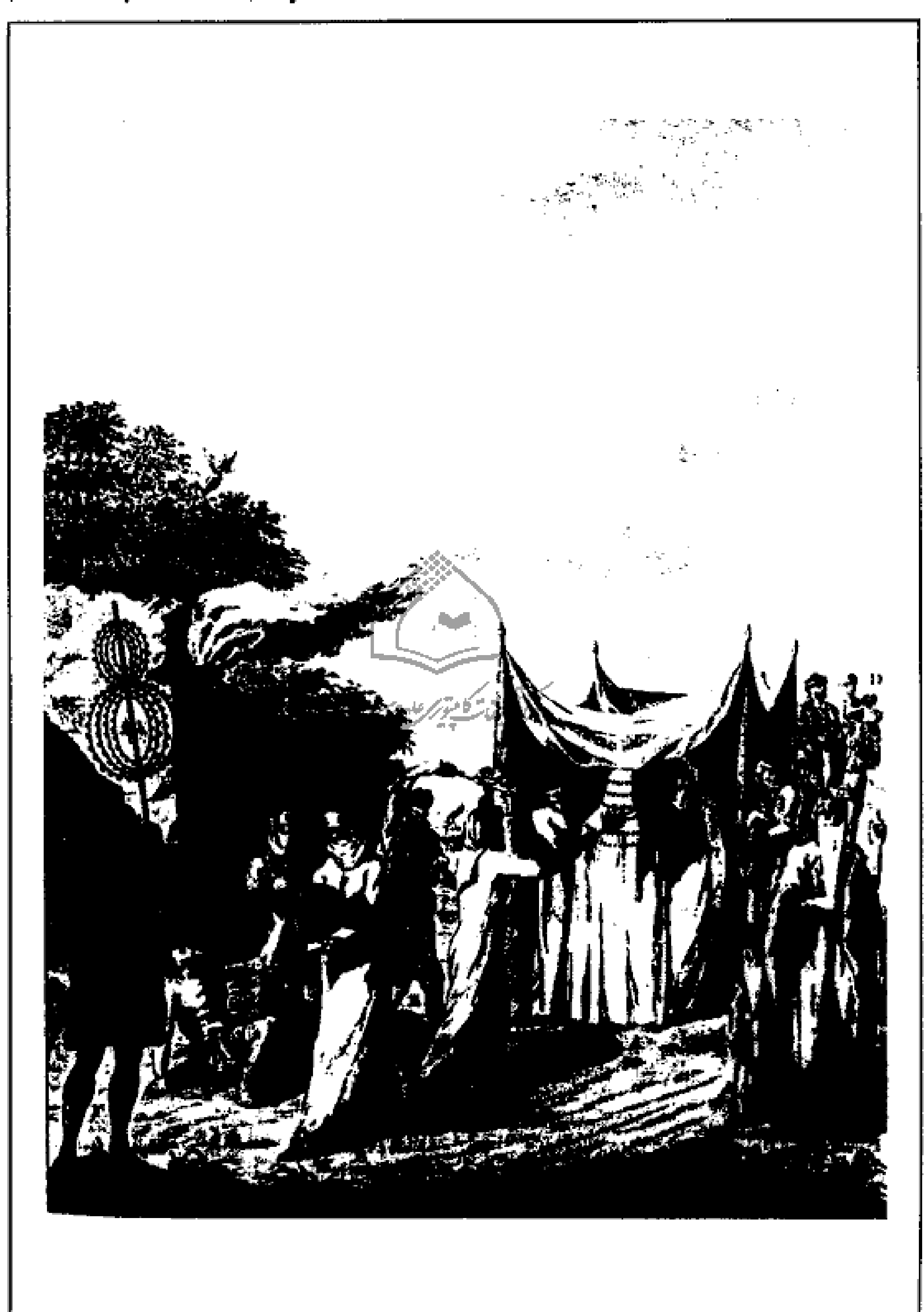
تحتقر أكثر من ممارسات المصريات التي تكلمت عليها آنفاً.

لكلٍ من الشعوب المسيحية المقيمة في الشرق موسيقاها ورقصها الخاصان بها كالإنكليز والفرنسيين والألمان والبولونيين... أذكر أني رأيت يوماً في الموصل دائرة مغلقة يرقص فيها اليعقوبيون والنسطوريون ويرقص اليونانيون في حلقة مفتوحة فيمسك بعضهم بعضاً ويقود الرقص واحد منهم. إن أكثر الناس حباً للرقص هم اليونانيون ورقصاتهم جميلة جداً خاصة حين تقود جميلاتهن الفرقة. وللبلغاريين أيضاً رقصهم الخاص إلا أنه ليس أجمل من رقص اليونانيين. وأنا لم أرَ أي روسي يرقص لكن البولونيين يقولون إن الرقص الروسي مليء بالقفزات ويتألف عدد الراقصين من اثنين.

ولأن الأتراك لا يرقصون أبداً، قد يظن البعض أن الأوروبيين في القسطنطينية يحذون حذوهم إلا أن هؤلاء يدّعون أن المسلمين يقبلون بكافة عاداتنا وتقاليدنا. والحقيقة أنه لا يوجد في بيرا (Péra) لا اوبرا ولا كوميديا، لكن هناك حفلات تنكرية وحفلات رقص. وأظن أن الأحرى بالأوروبيين أن يمتنعوا عن ملذاتهم في هذه البلاد لأن طبقات المسلمين الدنيا هي التي ترقص فيها، لذا فليس عجيباً أن يقارنونا بهم. وقد سمعتهم مراراً يقولون أشياء سيئة عن الأوروبيين وعن الحرية التي تتمتع بها نساؤهم. ولا شك أنهم كانوا سيحترمون نساء الأوروبيين أكثر لو أنهم لم يسمعوا أنهن يرقصن في الشارع مع الغرباء. أما عن الحفلات التنكرية، فإليكم هذه الحادثة التي رويت لي في الشرق: لدى عودة أحد الأتراك من أوروبا سئل عن الأشياء الغريبة التي رآها في البندقية فقال إنه في فترة من السنة، يصيب الجنون الناس كافة فيركضون في الشارع مقنعين مما يجعل رجال الدين ومن بينهم بعض السحرة يقودونهم إلى الكنيسة (أربعاء الرماد) فيضعون بعض الرماد على رأسهم فيهدأ الناس ويعود كل واحد إلى عمله.

نرى في اللوحة ٢٦ حفل عرس على طريقة مسلمي القاهرة ولقد صور الحفل السيد بورنفايند. يشير الحرف (A) إلى العروس المغطاة من رأسها حتى أخمص قدميها وأمام وجهها هناك كمية من النقود الذهبية. يشير الحرف (B) إلى الجواري والخادمات بالزي القسطنطيني. تقود هؤلاء العروس وتمسك واحدة منهن بمذبّة وتضرب الأخريات على الطبل. يشير الحرف (C) إلى لباس عامة الشعب من النساء في القاهرة، والحرف (D) إلى بعض الموسيقيين الجالسين على الحمير. أما الحرف (E) فيُظهر عامة الشعب من سكان القاهرة، عمل منهم أربعة ما يشبه الظلة فوق رأس العروس بينما يرشها آخر بالعطور. يشير الحرف (F) إلى رجال يقومون بألعاب الخفة. وهناك النساء اللواتي يزغردن احتفالاً بالعرس. ولقد رأينا خارج الإسكندرية عروساً عربية على ظهر الجمل يتبعها كل ما تلقت من هدايا الزفاف من دواب وأثاث... وكان الموكب يسير ببطء ويتوقف أحياناً. وكان العرب يعزفون الموسيقى ويطلقون الرصاص والنساء تزغردن.

يقوم أهل زوجة المسلم المتوفى باستئجار نساء لندب الفقيد إذا رأوا أنه يصعب عليهم بكاؤه وندبه مطولاً. فتقوم هؤلاء بالصراخ منذ وفاة الرجل وحتى دفنه. وإن عادة تغطية الوجه مفيدة لبعض النساء لأنه



لا تسمح بمعرفة ما إذا كنّ يذرفن الدمع أم يكتفين بالعويل. وفي الشرق هناك عددٌ معين من الأيام وفترة معينة من كل يوم على النساء أن يبكين فيها أمواتهن إما في منازلهن أو في المساجد أو على القبور. فمن غير العَجب إذاً، في هذه البلاد أن نرى النساء، يمررن سعيدات في الشارع في ساعة معينة من النهار ثم يتوجهن في ساعة أخرى إلى قبور أمواتهن أو إلى المسجد، ثم يبكين لساعة كاملة بعد ذلك، ثم يرحلن من دون أن يبدو عليهن أي أثرٍ للحزن. والنساء وحدهن يقمن بهذه الطقوس. فالرجال أقل خبثاً منهن وأحياناً يهدئون من روع النساء اللواتي يستفضن بالصراخ. ولا تنحصر عادة البكاء على الموتى بالنساء المسلمات وحسب بل إن زوجات المسيحيين الشرقيين يمارسن الطقوس نفسها ويستأجرن أحياناً بعض النساء لهذه الغاية.

وقد نعتقد أنه لا وجود للحفلات المسرحية في مصر إلا أن في القاهرة فرقة كبيرة من الممثلين مؤلفة من مسلمين ونصارى ويهود. من مظهر هؤلاء نعرف أنهم لا يحصلون على أجورٍ جيدة. وهم يقبلون بالتمثيل أمام أي كان مهما كان الأجر زهيداً. يستعملون باحة المنزل كمسرح أو يمثلون في الهواء الطلق. وفي جزء من مكان التمثيل، هناك ستار يغيرون ثيابهم خلفه. ولأن عدداً كبيراً من الأوروبيين لم يكن قد شاهد أي مسرحية عربية، اتفقنا مع هؤلاء الممثلين أن يعرضوا لنا تمثيلهم في منزل تاجر إيطالي متزوج. إلا أننا لم نُعجب لا بالموسيقى ولا بالممثلين. ولم أكن بعد أجيد اللغة العربية لأفهم كلامهم ولم أجد ضرورة في طلب التفسير لأن التمثيلية بكاملها كانت سيئة. وجل ما فهمت أن الممثل الأساسي كان امرأة (بل رجل في ثياب امرأة فشل في إخفاء لحيته) وكانت تدعو المسافرين إلى الدخول إلى خيمتها حيث تسليهم مالهم بطريقة فائقة التهذيب ثم تطردهم منها. كانت قد سرقت عدداً كبيراً منهم وبدا أن آخرين كانوا سيحظون بالمصير نفسه. إلا أن أحد التجار الشبان ملّ من رؤية هذه السخافات فأيده بعض المشاهدين وطلبوا من الممثلين إنهاء المسرحية التي لم تكن قد بلغت منتصفها.

الدمى المتحركة هي الأكثر شيوعاً في القاهرة. لقد شاهدت عرضها مراراً في الشارع. فيمكن لشخص واحد أن يحمل المسرح المصور تحت الحرف (خ) من اللوحة ٢٦. لكن لا شك أن المسرح الحقيقي أكبر منه بكثير. يقف الممثل وراء المسرح أو قل عليه حتى يتمكن من رؤية المشهد والمشاهدين من خلال الثقوب في اللوحة (أ) دون أن يراه أحد. ثم بعد ذلك، يمرّر دماه من خلال الثقوب (ب) ويحركها إلى الأمام والخلف وكيفما شاء من خلال خيط من الحديد يمسكه بيده. ولتغيير صوته، يستعمل الممثل آلة صغيرة يضعها في فمه ولو أن مضمون عرضه كان أفضل لكانت المسرحية رائعة. في بداية العرض تبدأ الدمى بإطراء بعضها ثم تتشاجر وينتهي العرض بالضرب. ولعله في ذلك يجاري ذوق مشاهديه إذ بدا الحضور معجباً بالمسرحية. ومن الشائع أيضاً في مدن الشرق القيام بعروض على الحائط بواسطة الظلال. إلا أني لم أحب حضور مثل هذه العروض لأنها تسخر من ثياب الأوروبيين ومن عاداتهم وتقاليدهم.

من بين المشعوذين الذين يؤمون القاهرة، رأيت واحداً لديه منبع متقطع من الحجارة كالذي يحمله

الدجالون. يسيل الماء منه لفترة ثم ينقطع ثم يستأنف السيلان. ولأنه يعرف طريقة عمل هذه الآلة، يدعي أنه يأمر الماء بالسيلان ثم بالانقطاع حسب الظروف وكان الناس يعطونه قروشاً معدودة لقاء شعوذته. وكان آخر يرمي الغبار في وعاء ثم يسحبه جافاً. وكان لثالث كأس مزودة بقعرين وبغطاء. في الجزء الأعلى هناك بيضة وفي الجزء السفلي هناك صوصان. بعد حديث طويل وخطابات على أنواعها، كان ينفخ على صدفة كبيرة ويسحب الغطاء ثم يظهر البيضة. وفي مرحلة ثانية وبعد خطابات مماثلة، كان يسحب الكأس الثانية مع الغطاء ويبيّن تحوّل البيضة إلى صوصين. وكان يعيد الكرة بواسطة كأسين آخرين وفي الجزء الأعلى رمل وفي الجزء الأسفل منها علف للدجاج علماً أن هؤلاء لا يسألون أحداً عن أجرٍ لقاء ألعابهم. فعند نهاية العرض يتركون للحضور حرية إعطائهم شيئاً.

كما ويحتاش بعض المصريين من قرودهم وهي غالباً ما تكون من النوع المتوحش الذي يعيش جماعات جماعات في غابات اليمن . إن مالك هذا الحيوان غالباً ما يكون لديه حيوانات أخرى كالحمار والعنزة والكلب. بعض الناس يرقّصون الثعابين. قد يعجب البعض من ذلك خاصة إذا كان لا يعلم شيئاً عن غرائز هذه الزواحف لكن هناك أنواع من الثعابين تحب الموسيقى فعندما تسمع صوت الطبل ترفع رأسها والجزء الأعلى من جسمها فيقال إنها ترقص. كما ومن السهل تعليم القرود الرقص. وقد أكد لي قبطان من الشركة الإنكليزية لبلاد الهند أنه رأى على شاطىء كورومنديل (Coromandel) هياكل قديمة تسكنها القرود من دون الخوف من سكانها الوثنيين وأنه أدخل الطبول عدة مرات إلى هذه الهياكل المهجورة فما كان من القرود حتى الأمهات منها إلا أن خرجت للرقص على إيقاعها وكانت الأمهات تحمل أطفالها بيدها وترقص وسط قرودٍ أخرى. ولأن الثياب الشرقية الطويلة لا تناسب هذه الحيوانات التي تسير على أربع قوائم، غالباً ما يلبس الناس قرودهم الزي الأوروبي. إن من شأن ذلك أن يجعل المسلمين يقارنون بيننا وبين القرود. وهذا ما يحصل دائماً عندما يرون أوروبيين مكشوفي الرأس يحملون سيفهم أفقياً فيخرج من ثيابهم من الخلف وكأنه ذيل القرد.

وكما يقوم بعض البحارة الذين احتجزوا لبضع سنواتٍ في بلاد البربر بإعطاء الشعب الأوروبي أفكاراً مشينة عن سلوك المسلمين تجاه المسيحيين عامةً، كذلك يقوم بعض أهل مصر بسرد أخبار كثيرة عن قسوة الأوروبيين. سأكتفي بالتكلم على ذلك الرجل الذي صادفته مراراً في القاهرة. كان يجلس في وسط الطريق ويظهر للناس القيود الضخمة التي كانت تكبّله عندما كان محتجزاً في مالطا ويحكي لهم عن الآلام التي عانى منها أثناء فترة عبوديته كإجباره مثلاً على رعاية الخنازير أثناء النهار وعلى النوم في حظيرتها أثناء الليل. ولشدة ما كان المسلمون يتعاطفون مع هذا الشحاذ كانوا لا يمطرونه بالحسنات وحسب بل بشتى أنواع السباب التي يوجهونها إلى الشعب الأوروبي الهمجي.

آثار مصر

ما من آثار مصرية تاريخية تسترعي الانتباه بقدر الأهرام، وقد بنيت الأولى منها على خط منحرف قبالة القاهرة، أي من الجهة الغربية للنيل، وعلى التلة الأولى من جهة هذا النهر. عندما يصل أوروبي إلى القاهرة، لا يغادر مصر قبل رؤية هذه الآثار المذهلة عن كثب، لذا وصلنا أكثر من وصف مفصل لها، لكن لا أظن أن ملاحظاتي حول هذه الأهرام ودراستي لها ستكون من دون جدوى بالنسبة للقراء.

وفي أول مرة أردت فيها رؤية الأهرام، شاركت في رحلة صيد مع الأوروبيين المقيمين في القاهرة الذين يملكون بيتاً ريفياً في الجيزة، فاجتزنا جسراً يعلو ساعداً عظيماً من النهر، في الطريق بين الجيزة والأهرام. وعندما وصلنا إلى هذا المكان، عادت البعثة، ولم يرافقني إلى الأهرام سوى السيد فورسكال، وأخذنا معنا بدويين التقينا بهما لتوّنا عند الجسر المذكور أعلاه، ليكونا دليلينا. كانا يمتطيان جوادين في حين ركبنا نحن حمارين، وكنت قد حملت معي اسطرلاباً (آلة قديمة لقياس ارتفاع الشمس أو النجوم) لاستخدامه إذا ما تسنت لي الفرصة. وعندما وصلنا سفح التلة التي تقوم عليها الأهرام، شكّلت قاعدة أ، ب من ٢٠٣ قدم (راجعوا اللوحة الخامسة، الصورة د). في المحطة الأولى، وجدت أن الزاوية الأفقية د، أ، ب الواقعة بين القاهرة وزاوية الهرم من الشمال الشرقي هي ٣٧°، ٢٠َ ، وأن الزاوية العمودية د، أ، ج هي ١°، ٣٤َ في المحطة الثانية، وجدت أن الزاوية د، ب، أ هي ١٤١°، ٣٠َ والزاوية د، ب، ج هي ١°، ٣٦َ وعند البحث عن الضلع أ، د للمثلث د، أ، ب، والضلع د، ج للمثلث د، أ، ج، تبين أن ارتفاع قاعدة الهرم الأول فوق أفق الآلة بلغ ١٧٠ قدماً. وبما أن الآلة كانت على ارتفاع ٣٠ قدماً بالنسبة للنيل، نستنتج أن قاعدة الهرم الأول أعلى من ضفة النيل بحوالي ٢٠٠ قدم.

وكان من السهل عليّ تحديد ارتفاع الهرم لو استطعنا اختيار موقع لقياس ارتفاع رأسه، لكن رأينا عربياً يعدو نحونا، ولأننا لم نكن قد اعتدنا بعد على البدو، سارعنا إلى إخفاء الآلة. كان هذا البدوي ابن أحد الشيوخ، ويبدو أكثر تميّزاً من مرافقينا، فسألنا بأدب واحترام عن سبب تواجدنا وحدنا في هذا المكان المعزول وعندما سمع جوابنا، عرض علينا مرافقتنا حتى الأهرام وإلى أين ما شئنا. رفضنا عرضه لأننا لم نكن بحاجة إلى دليل ثالث، لكنه أراد البقاء معنا، فأجبناه بطريقة جافة أننا لن نمنعه من مرافقتنا فأكد لنا أنه لن يزعجنا. واقتربنا من الأهرام، وحين وصلنا وراء تلّة صغيرة، رمى الشاب رمحه أمام السيد فورسكال ومنعه من التقدم أكثر إن لم يعطه مالاً، لكن هذا الأخير رفض إعطاءه أو وعده بشيء. وكنّا عزلاً نمتطي حمارين وبالتالي غير قادرينَ على مقاومة الشاب لا سيّما وأننا لا نستطيع الوثوق بالدليلين.

وأسرعت نحو التلة، ولم أكد أصرخ لصديقي فورسكال أن هناك أناساً في السهل يعملون حتى استعاد الشيخ هيئته المجاملة واللطيفة. ولم نشأ التقدم أكثر، فعدنا إلى قرية تبعد عن الجيزة حوالي نصف ميل، وَعَدَنا العرب بإيصالنا إليها. خلال الطريق، تصرّف الشيخ معنا بطريقة وقحة للغاية، وحاول إفقادنا صبرنا، وعندما افترقنا، طالبنا بالنقود، وكان ليكتفي بمبلغ لا يذكر لكن السيد فورسكال قرر عدم إعطائه المال. وحين رأى أنه لن يحصل على مبتغاه بالحسنى، نزع عن رأس صديقي عمامته، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن توجه إلى مرافقينا قائلاً: «أيها البدويون، يظنون في بلادنا أن الإفرنج في مأمن حين يكونون تحت حمايتكم، وأنا الآن تحت حمايتكم. لكن إن كنتم ترضون أن يسلبني صديقكم، سأروي لمواطنيّ ما يحصل، وأعلمهم أنكم غير صادقين وغير أمينين». أثارت هذه الكلمات حمية العربيين فأجبرا الثالث على ردّ العمامة، لكننا لم نتخلص منه، فتحوّل نحوي، ولم أشأ إعطاءه المال، فأراد الاستيلاء على أسطرلابي الذي وضعته أمامي على ظهر الحمار. ولم أضبط أعصابي كصديقي، بل أمسكته بقطعة القماش الكبيرة التي تلف خصره، وبما أنه لم يكن ممسكاً بلجام جواده، انطلق هذا الأخير ووقع الأعرابي أرضاً. واعتبر الشاب أنه تعرض لإهانة كبرى، إذ رماه أرضاً مسيحي، فأخذ مسدسه وصوّبه نحو صدري، ولا أنكر أني أحسست بأن نهايتي اقتربت، لكن المسدس لم يكن محشواً. وحاول الأعرابيان الآخران تهدئة الشيخ، ونجحت كلياً في ذلك حين منحته المال. وحين عدنا إلى الجيزة، سخر الآخرون منا، فقد أعلمونا بعدم الوثوق بالبدو وبأننا سنتعرض للنهب والسلب، لكني أعتبر أننا لو وعدنا الأعرابي الثالث منذ البدء بالمال، لجلنا في الأهرام بأمان. ولا يشكل العرب خطراً كبيراً بقدر ما يتصوّر الأوروبيون قبل اكتشاف طريقة تفكيرهم وتعلم لغتهم.

يعلو ذراع النيل الذي ذكرته والذي يجري بين الجيزة والأهرام جسران جميلان للغاية، يبلغ طول الأول ٦٠ قدماً مزدوجة والثانية ٥٠ قدماً مزدوجة. ينقسم كل جسر إلى ١٠ قناطر. ٩ منها مسدودة بالتراب أو بسور مرتفع بعض الشيء. كي لا تمر مياه النيل بسرعة عند ارتفاع المنسوب أو تتراجع بسرعة عند انخفاضه. ونجد من كل جهة، وبين الجسور سداً مبنياً من الآجر ومن الحجارة المقصوبة، ويبلغ طوله حوالي ١٥٠٠ قدم مزدوجة. يبدو لي أن المسلمين قاموا ببنائه، أو على الأقل عملوا على ترميمه، لأن الجسور تحمل كتابات عربية حديثة. وشاهدت في محيط الجيزة جسرين آخرين يقوم الأول على خمس قناطر والثاني على ثلاث قناطر، ويحملون كتابات عربية(*).

(*) كان السيد دي هافن المكلف بالأبحاث حول تاريخ شبه الجزيرة العربية ولغتها لا يزال على قيد الحياة حين كنا في مصر، لذا لم أهتم بالكتابات العربية التي تكثر في مصر والتي تسلط الضوء على تاريخ هذا البلد. واكتفيت بنقل الكتابات الهيروغليفية، لأنها تتطلب إلماماً بالرسم وهذا أمر كان يفتقر له السيد دي هافن. وإليكم الكتابات التي وجدها على أحد الجسور قرب الجزيرة:

«بسم الله الرحمن الرحيم أخذ بتجديد هذه القناطرة المباركة بأمر مولانا الوزير المعظم حسين باشا ابن... في شهر ربيع الأول سنة ١٠٨٧». =



وبعد فترة، توجهنا مجدداً إلى الأهرام يرافقنا عدد من التجار، وقاد البعثة السيد مينار، وهو تاجر فرنسي، أقام لسنوات عديدة في مصر وقصد الأهرام مراراً. وقد حاول حمايتنا قدر المستطاع، لكن إيطالياً حديث الوصول إلى البلاد تعرّض للسلب، بالرغم من عددنا الكبير. فحين وصلنا الأهرام، كان عدد كبير من سكان القرى المجاورة وبعض البدو قد اختلطوا بخدمنا العرب وبسائقي حميرنا. وخلعنا ثيابنا لدخول الأهرام، وسلّم كل منا ثيابه إلى خادمه الخاص أو إلى خادم يعرفه، باستثناء الإيطالي الذي سلّمها لأوّل عربي تقدم لأخذها، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن أخذها ورحل. وعندما خرجنا، فقد كلٌ منا بعض الأغراض، ففقد هذا مسدسه والآخر حذاءه الخ. لكنني أرفض نعت العرب باللصوص كما يفعل غيري من المسافرين، فهم لم يفعلوا إلاّ ما يحصل في أوروبا عندما تكثر الجموع. وفي هذا اليوم، رسم السيد بورنفايند لباس العرب في هذه المنطقة على اللوحة ٢٩.

وكان هدفي الرئيسي، من هذه الرحلة، هو تحديد ارتفاع الهرمين الكبيرين، واستناداً إلى البوصلة الصغيرة، تقابل جهات الهرم الأربع الغرب، والشرق والجنوب والشمال، ونجد من كل جانب أكواماً من الأنقاض والرمال التي تجمعت بفعل الزمان أو الرياح. ونرى عند زوايا الأهرام الصخرة التي قامت عليها، لأن الهواء يعصف بشدة فيحمل الرمال والأنقاض التي تساقطت من الأهرام شيئاً فشيئاً. ولتحديد ارتفاع أحد الأهرام، يكفي أن نقيس الزاوية التي تشكلها قمته في إحدى الزوايا مع الأفق (أو في الزاوية الممتدة،

---

* يبدو من هذه الكتابات أن حسين باشا بنى هذا الجسر في العام ١٠٨٧ للهجرة أو في العام ١٦٧٦ ميلادياً. ونقل رفيقي هذه الكتابات بخط يده. وفيما بعد، انتقل مع عالم من القاهرة إلى الجسر الكبير، القريب من الأهرام، ونقل بحضوره الكتابات التالية:

١) الكتابات من الجهة الشرقية للجسر الكبير قرب الأهرام:

«اللهم أدم نصر مولانا السلطان الملك الأشرف ابو الخير قايتباي السلطان الملك بثاني شهر ذي القعدة سنة ثمانمائة ومايئة».

يظن الدكتور ريسك الذي أرسلت إليه هذه النسخ أنه ينبغي قراءة ثمانمئة وثمانين أي ٨٨٠ في السطر الأخير، لأن قايتباي الذي بنى الجسر، وصل الى الحكم في العام ٨٧٢ وتوفي في العام ٩٠١.

٢) الكتابات من الجهة الغربية للجسر نفسه:

«باسم الله الرحمن الرحيم أدم لنا مدة السلطان بن مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون تغمده الله برحمته أمين في شهور سنة عشر وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

وجدنا الكتابات التالية على جسر آخر وطلب السيد دي هافن أن يتم نقلها، ووجد السيد ريسك أن الأخطاء تكثر فيها، ولعل السبب يعود إلى من قام بنقلها. لكن السيد ريسك يقول إن هذه النسخ تعلمنا أن هذا الجسر أيضاً، القائم على ١٠ قناطر، أمر بترميمه السلطان قايتباي في غضون ٢٠ يوماً، وأن العمل به بدأ في الثاني من شهر محرم من العام ٨٨٤، ثم فتح الجسر وسمح بعبوره سيراً على الأقدام أو على ظهر الجياد.

«من مولانا المعافر الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الذي تاريخه على طول الأرض خادم الحرمين الشريفين أنشأها العشر قناطر الجددة العالي الأشرف بأرباب العساكر المنصورة وبنا هذه القناطر في مدة عشرين يوماً في ثاني ذي الحجة الحرام سنة ثمانمائة وثمانين وتمامها في مدة ثلاثين يوماً ثاني شهر الله المحرم الحرام في ثمانين أربع وثمانين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

لأننا لا نرى القمة من أسفل الزاوية)، وأن نقيس الجوانب على مسافة متوازية. وعندما نفتقر للوقت في دراسة هذه الأصرحة الهائلة، ونكون محاطين بأناس نعتقدهم لصوصاً، لا نختار السبيل الأسهل والأدق، لذا أظن أن قياسي ليس بالدقة التي كنت أرجوها. ولم أقس جوانب الأهرام إلا بالقدم، وافترضت أن الخط أ، ب (راجع اللوحة الخامسة، الصورة هـ) بين الزاويتين الأقرب بين الهرمين تشكل خطاً مستقيماً مع الخط الممتد بين الزاوية ووسط قاعدة هذين الصرحين مع انحراف بسيط. بالرغم من ذلك، يمكن أن يكون لقياسي فائدة ما، لذا قررت نشره بواسطة حبل لمسح الأراضي، كنت قد قسته ووضعته مسبقاً، وتبين لي أن الخط أ، ب أو المسافة بين الزاويتين الأقرب بين الهرمين الكبيرين، تبلغ ٥٦٥ قدماً. وتبلغ الزاوية العمودية ب، أ، ج ٣°، ١٠َ ، وارتفاع الآلة ٣ أقدام، لكن عند قياس الخط ب، ج للمثلث ب، أ، ج، تبين أنّ طوله ٣٤ قدماً أي إن قاعدة الهرم الثاني ترتفع ٣٤ قدماً أكثر من قاعدة الهرم الأول.

ويبلغ عرض الجهة الشمالية للهرم الثاني أو الخط ب، ك ١٤١ قدماً مزدوجة، مما يعطينا طول الخط ب، ل أو المسافة بين زاوية الهرم ووسطه، إذا ما افترضنا أن جهات الهرم الأربع متساوية من حيث الطول. ويمكن تحديد ارتفاع الهرم الثاني، عند قياس ارتفاع قمة الأول من إحدى الزوايا. ووفقاً لتقديري، يبلغ طول ب، ك ٧٠٥ قدم، وب، ل ٤٩٨ قدماً، وأ، ج أي القاعدة المصغّرة أ، ب ٥٦٢ قدماً، والزاوية د، أ، ج ٢٤°، ٦َ ، وأ، ل ١٠٦٠ قدماً، ود، ن أو ارتفاع قمة الهرم الثاني فوق أفق الأول ٤٧٧ قدماً. ولاحظت أن قاعدة الهرم الثاني ترتفع ٣٤ قدماً أكثر من قاعدة الأول، أي إن ارتفاع الهرم الثاني يبلغ، بحسب تقديري، ٤٤٣ قدماً.

ويبلغ عرض الجهة الجنوبية للهرم الأول أو الخط أ، ط ١٤٢ خطوة مزدوجة، أو حوالي ٧١٠ أقدام. إذاً، يبلغ عرض أ، م ٥٠٢ قدم، أو حوالي ٦٠٠ نظراً إلى أن هذا الهرم لا يملك قمة. أما عرض أ، ج فيبلغ ٥٦١ قدماً، لأني لم أستطع وضع الإسطرلاب قرب الزاوية ب، وتبلغ الزاوية «هـ، ب، و» ٢٠°، ٤٨َ . ويرتفع «هـ، و» أو ارتفاع قمة الهرم الأول ٤٠٣ أقدام بالنسبة لأفق الآلة، لكن بما أن الخط ب، ج أو الآلة ترتفع عن قاعدة الهرم الأول ٣٧ قدماً، يبلغ ارتفاع هذا الصرح ٤٤٠ قدماً. وقد لاحظت أن التلة التي يقوم عليها هذا الهرم، تقع على ارتفاع ٢٠٠ قدم، وبالتالي، نستنتج أن قمة هذا الهرم أعلى من ضفة النيل بحوالي ٦٤٠ قدماً. وورد ارتفاع الهرم الأول في الأعمال التي وصفت مصر، لكن أحداً لم يعتقد أنها منخفضة كما ذكرت، وكادت ملاحظات العلماء الآخرين المشهورين تدفعني إلى عدم ذكر ملاحظاتي. لكن فضّلت أن أنشرها، وإن لم تكن غاية في الدقة، بدلاً من أن أنسخ ما ذكره الآخرون حول ارتفاع الأهرام(*).

(*) بعد كتابة ما ورد، وجدت ما يلي في **وصف سهول هيليوبوليس وممفيس**، للسيد فورمون (Fourmant) ص ٢٣٤، قال الميلورد شرلمون، الذي زار مصر في الوقت الذي كنت فيه في البلاد، أنه قاس الارتفاع العمودي للهرم الأول، وأكد لي أنه يبلغ ٤٤٤ قدماً. ويتناسب هذا القياس مع قياسي.

وتغطي الرمال أبا الهول جزئياً، وتبين لي أن ارتفاع الذقن يبلغ ١٠ أقدام و٦ بوصات، أما طول الرأس فسبعة عشر قدماً، أيّ إن ارتفاع الرأس والرقبة فوق الرمال يبلغ ٢٧ قدماً و٦ بوصات.

وقد بني الهرمان الكبيران من نوعية حجارة الصخرة التي يقومان عليها نفسها، وهي أحجار كلسية ليّنة، إذن، لا بد أنهم جمعوا الحجارة من المحيط ومن حول تمثال أبي الهول، لأن هذا الأخير يبدو وكأنه حفر في الصخر، أما ذاك الذي يسند الهرم الثاني فهو مسطّح ويشكل جزءاً لا يتجزأ من هذا النصب. وبالغ بعض المسافرين في وصف الأعمال الضخمة والكلفة العظيمة لهذه الكتل أو الجبال الحجرية، وأشاروا إلى أنها كانت مغطاة بالرخام، ويؤكد بول لوكا (Paul Lucas) أنها كانت مطلية بالإسمنت، لكن هذه الأقوال عارية عن الصحة، على الأقل بالنسبة للهرم الثاني. ونرى في أعلى هذا الصرح، حول قمته، جزءاً كبيراً من الرأس(*): وبالرغم من أنه يبدو متماسكاً من بعيد، ومن حجارة صلبة، لا سيّما حين يقع عليه ضوء الشمس، فهو مبني من الحجر الكلسي اللين نفسه الذي بني منه الهرم. ولدراسة هذا الأمر، تسلقت الهرم حتى قمته، وجلبت قطعة منه، وأعتقد أنه ليس من أوروبي تكبّد هذا العناء، إذ لا يتسلق المسافرون إلاّ الهرم الأول ولا يسترعي الثاني انتباههم لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى القمة. ويبدو أن عمل مهندس هذا الصرح الأخير قضي بقصّ الحجارة الناتئة، وتسوية الجهات الأربع من القمة وحتى القاعدة، وهكذا يتصدى للعوامل الطبيعية وللزمان أكثر مما لو كانت الأحجار متدرجة. ومع ذلك، وقع قسم كبير من سقف هذا الهرم، وحملته الرياح، ونستنتج من ذلك أن الأهرام نفسها ستضمحل يوماً تحت تأثير عوامل الزمن، لكن ينبغي انتظار آلاف السنين. ولماذا يتكبد المصريون عناء إحضار الحجارة من قمة الأهرام الكبيرة، في حين أنهم يستطيعون الحصول عليها بسهولة أكبر من جبل المقطّم أو من التلة التي تقوم عليها الأهرامات؟ لم أجد دليلاً على وجود رأس في أعلى الهرم الأول، ولعل الأمر يعود لقدمه أو لأنه مبني من أحجار ليّنة وبالتالي معرّض للهواء أكثر من الجزء الأعلى للهرم الثاني. ولا أظن أن بانيها يسعى إلى أن يتسلق الناس الهرم الأول، لأن ارتفاع درجاته غير متساوية كما في الهرم الثاني، والذي يحاول صعوده من أمكنة عدة، لن يجد عدد الدرجات نفسه.

ونجد قرب الهرم الثالث، المبني من حجارة كلسية، عدداً من أحجار الغرانيت، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه كان مغطى فيما مضى بهذه الحجارة، كما يؤكد المؤرخون القدامى. لكنني لم أكتشف، في الوقت القليل الذي تبقى لي لدراسة هذا الهرم، ما يؤكد أن الطبقة الخارجية كانت من الغرانيت. وتجدر الإشارة إلى أني وجدت بين الحجارة الكلسية أحجاراً كبيرة من الغرانيت غير مقطعة مواربة كأحجار سقف الهرم الثاني، لكنني أجهل إذا ما كانت تحمل كتابات مصرية قديمة. ولم أرَ هذه الحجارة عند دراستي للهرمين الكبيرين، كما لم أتوقع ذلك، لأن الحجارة الخارجية المغروسة في الأرض لم تعد موجودة.

(*) رحلة إلى مصر، بقلم نوردن، ص ٤٢ ــ ٤٥.

وتسلقت الهرم الأول للاستمتاع بالمشهد الذي وصفه العديد من المسافرين، كما دخلت هذا الهرم ورأيت ما ذكره العديدون. لكن لم يحالفني الحظ لأكتشف الغرفة التي كانت لا تزال مجهولة والتي اكتشفها بعد رحيلنا السيد دافيسون (Davison) الذي زار مصر مع السيد مونتاغي (Montagu). وبما أن السيد مايه (Maillet) الذي يفاخر بأنه دخل هذا الهرم أكثر من ٤٠ مرة(*)، لم يلاحظ هذه الغرفة، سيسامحني القراء والعلماء لأنني لم أقم بأبحاث من هذا النوع واكتفيت بدراسات أخرى. واستناداً إلى وصف السيد مينار (Meynard)، تقع هذه الغرفة فوق الغرفة الكبيرة المعروفة التي تحوي الصندوق، وهي تحتل المساحة نفسها، لكنها أقل علواً، ويعلو مدخلها المنحدر الذي يؤدي إلى الغرفة الكبرى بثلاثين قدماً.

ونجد في الحجارة الكلسية للأهرام، وعلى الصخرة القائمة عليها، أشياء متحجرة بحجم الدوكا إنما أسمك، ويطلق عليها العرب اسم فضة أبي الهول، كما نجد أشياء متحجرة أخرى على شكل العدس، من نوع الحلزونيات التي جمعتها في «أبو قير»، على الشاطىء المصري. وقيل لسترابون إنّ هذه المتحجرات الصغيرة تكوّنت في الفتات الذي أوقعه الذين بنوا الأهرام(**). لكن نجد كميات منها في صخور جبل المقطم قرب القاهرة. ويشير غرانجر (Granger) إلى أن الصخور قرب شيخ حاري (Schech Harrê) في مصر العليا مليئة بهذه المتحجرات على شكل العدس. إذاً، يحتمل أن تكون كافة الصخور في مصر الواقعة تحت خط عرض معين، مكوّنة من هذه المتحجرات، لأننا نعلم أن صخور القسم الأعلى للبلاد مكوّنة من الغرانيت. ويدفعنا هذا إلى التفكير حول قدم مصر، كم من السنوات مرّت، قبل أن يولد هذا الكمّ الكبير من الحلزون الصغير ويموت، كي تبلغ هذه الجبال علوها هذا؟ كم من سنوات مرّت، قبل أن تجف مصر لا سيّما إذا ما تراجعت المياه فيما مضى عن الشاطىء بالبطء الذي تراجعت فيه في القرون العشرة الأخيرة؟ كم سنة مضت قبل أن يكثر السكّان في مصر، وقبل أن يفكروا ببناء الهرم الأول؟ كم سنة مضت قبل أن تبنى هذه الأهرام التي نراها حالياً في مصر؟ ولا نعرف حالياً بدقة في أي قرن وبأمر ممن بني الهرم الأخير.

ولقد كان من الممكن أن نعرف تاريخ هذا البلد القديم، لو تمكنا من قراءة كتابات سكّانه القدامى، لأننا لا نجد في أيّ بلد في العالم صروحاً تكثر عليها الكتابات القديمة بقدر ما نجد في مصر. لكن لن نستفيد من جهد السكّان القدامى الذين حاولوا تخليد كتاباتهم بحفرها على حجارة صلبة لأننا لا نفقه منها شيئاً. ولا نجد سوى القليل من العلماء بين المجموعة الكبيرة الموجودة في أوروبا، الذين يتمتعون بالصبر والذكاء الكافيين لدراسة الآثار، ولا تسنح لهم الفرصة عادة لرؤية هذه الآثار إلاّ في مكتباتهم، ولعلهم لم يحصلوا حتى اليوم على نسخ عن الكتابات المصرية القديمة. وإني على ثقة بأنهم سيفسرون

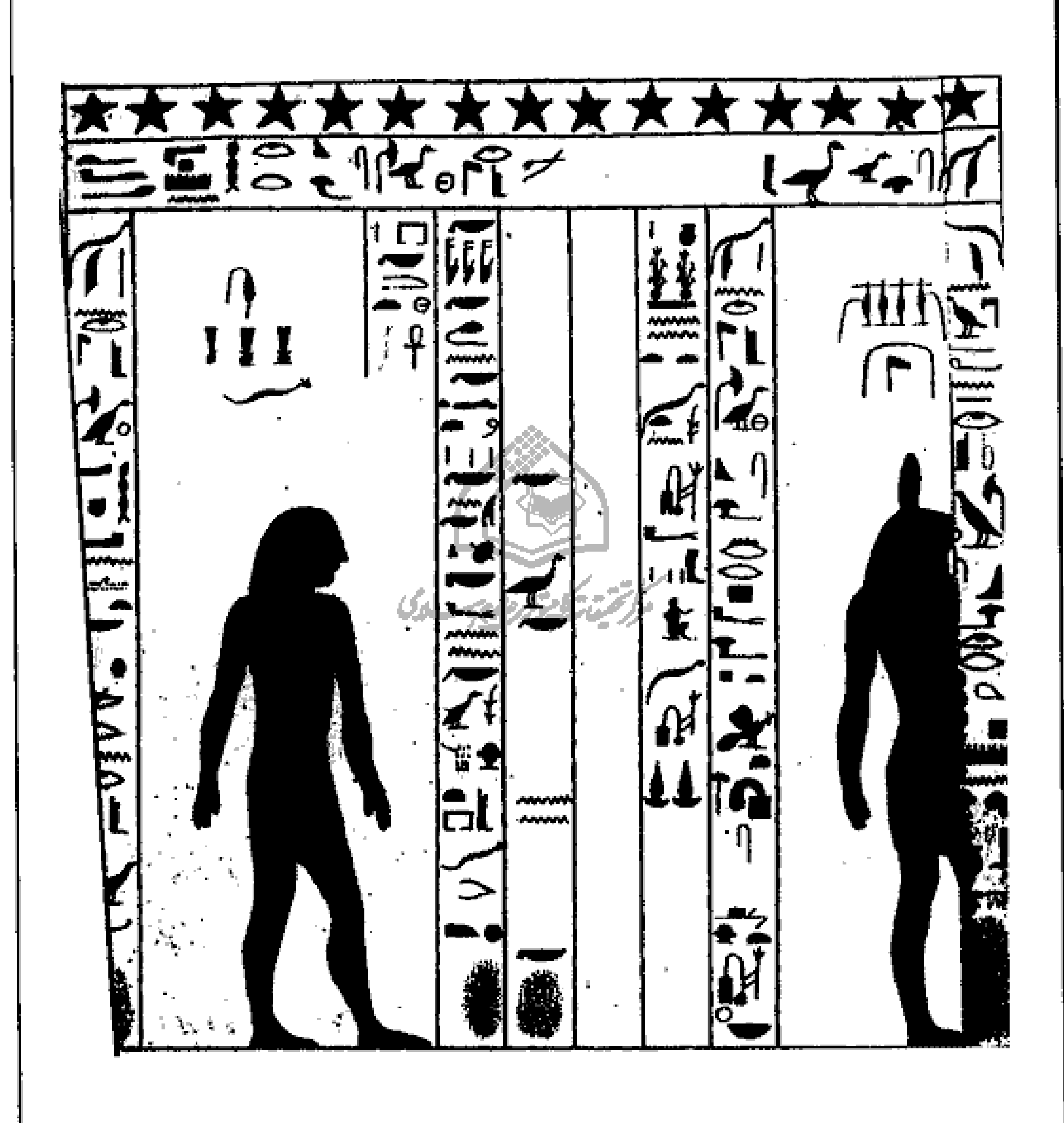
(*) وصف مصر، الجزء الأول، ص ٣٢٥.

(**) أضيف هنا أني رأيت قرب فايشاي، وفي مكان رملي، خشباً متحجراً، لا سيّما قطعة كبيرة من جزع شجرة.

العديد من الأمور، إن زودهم المسافرون بنسخ كثيرة، لا سيّما إذا كانوا على معرفة بلغة الأقباط التي كانت منتشرة في مصر قبل وصول اليونانيين، لأن معرفة هذه اللغة ضرورية لتفسير الحروف الهيروغليفية. ولقد حافظ الأقباط الأوائل، على الأرجح، على كتابات أسلافهم الوثنيين، كما حافظ العرب المسلمون على الكتابة الكوفية. ويبدو أن مصر لم تلقَ مصير البلاد الأخرى التي قهرتها أمم أجنبية، فأدخلت إليها دينها ولغتها، وقد اختبرت مصر هذا لاحقاً، ولم يكن أحد ليهتم بكتابة السكّان القدامى، وخاصة وأن الأغلبية كانوا يعتقدون بحقهم المستمد من السماء لاستئصال الديانة القديمة بالحديد والنار. وقد أشاد بعض اليونان المطلعين الذين زاروا مصر، بحكمة سكّان البلاد القدامى، ولا زالت الكتابات المتعددة والأصرحة الرائعة التي خلّفها هؤلاء تثير إعجابنا واستغرابنا. وإلا لجعلناهم في عداد الشعوب الوثنية الأخرى، واعتبرنا أنهم لم يعرفوا الكتابة كما لم يعرفوا الله.

وينبغي تشكيل مجموعة كتابات هيروغليفية كاملة إلى حدّ ما، كي يقوم بتفسيرها العلماء، لذا يجب أن يقيم أحد المسافرين بعض الوقت في مصر العليا، وأن ينسخ كافة الكتابات الكاملة (غير الناقصة) التي تملأ على ما أعتقد جدران المعابد القديمة، كما سيجد الكثير منها في مدافن المومياء قرب سقارة. ولعلنا سنجد في مساكن الموتى الجافة هذه، آثاراً وغرائب جديدة وحتى كتباً فضلاً عن المومياء والأواني المغطاة بالكتابات؟ من هو الأوروبي الذي تكبّد عناء كسب محبة عامة الشعب ليدرس كل هذا معهم كيفما شاء؟ نسارع عادة بالعودة إلى القاهرة ما إن نحصل على ما نريد لقاء بعض المال. ويبدو أن المسافرين يكتفون بنقل موقع الحجارة وشكلها ولا يهتمون بنسخ الكتابات المحفورة عليها. ويشتكي البعض منهم من الملل الذي أحسوا به لرسمهم البقايا وحسب، مع أن هذا الأمر لا يتطلب الكثير من الوقت، كرسم الكتابات الهيروغليفية التي لا ينبغي إهمال أيّ خط منها إذا ما أردنا الحصول على نسخ دقيقة ليفسرّها العلماء. إذاً، إن المشقات والمصاعب التي يتوقع أن يلاقيها المرء في مصر، عند الاهتمام بهذه الأمور، كادت أن تثنيني عن عزمي، لا سيّما وأن القاهرة ليست بالمكان الذي تكثر فيه الكتابات الهيروغليفية، وأني لم أكن مكلفاً بالأبحاث حول الآثار. لكن، حين كنت أرسم خارطة القاهرة، وقعت على كتابات هيروغليفية، فقررت نسخها لإرضاء نفسي، وتطلب نسخ الكتابات الأولى الكثير من الجهد لأنني كنت أجهل كافة الرموز، لكن نسخ الثانية بات أسهل، وفي النهاية، أصبحت الرموز الهيروغليفية مألوفة لدي، فاستطعت نسخها بالسهولة التي أنقل بها الحروف اليونانية أو الكوفية. وسأورد هنا الكتابات التي نسختها في مصر، ولا أشك في أن بعض الرموز ستساعد في تفسير وفهم الكتّاب القدامى.

إن أعظم كتابات رأيتها في مصر هي تلك الموجودة على صندوق كبير من الغرانيت الأسود، قرب مسجد طولون (Teilûn)، بالقرب من قلعة القبش (Kallà el Käbsch)، راجعوا اللوحة ٣٠ رسم بوكوك هذا الصندوق الذي أطلق عليه اسم «نبع الكنز» (The fountain of Treasura)، على اللوحة الثانية

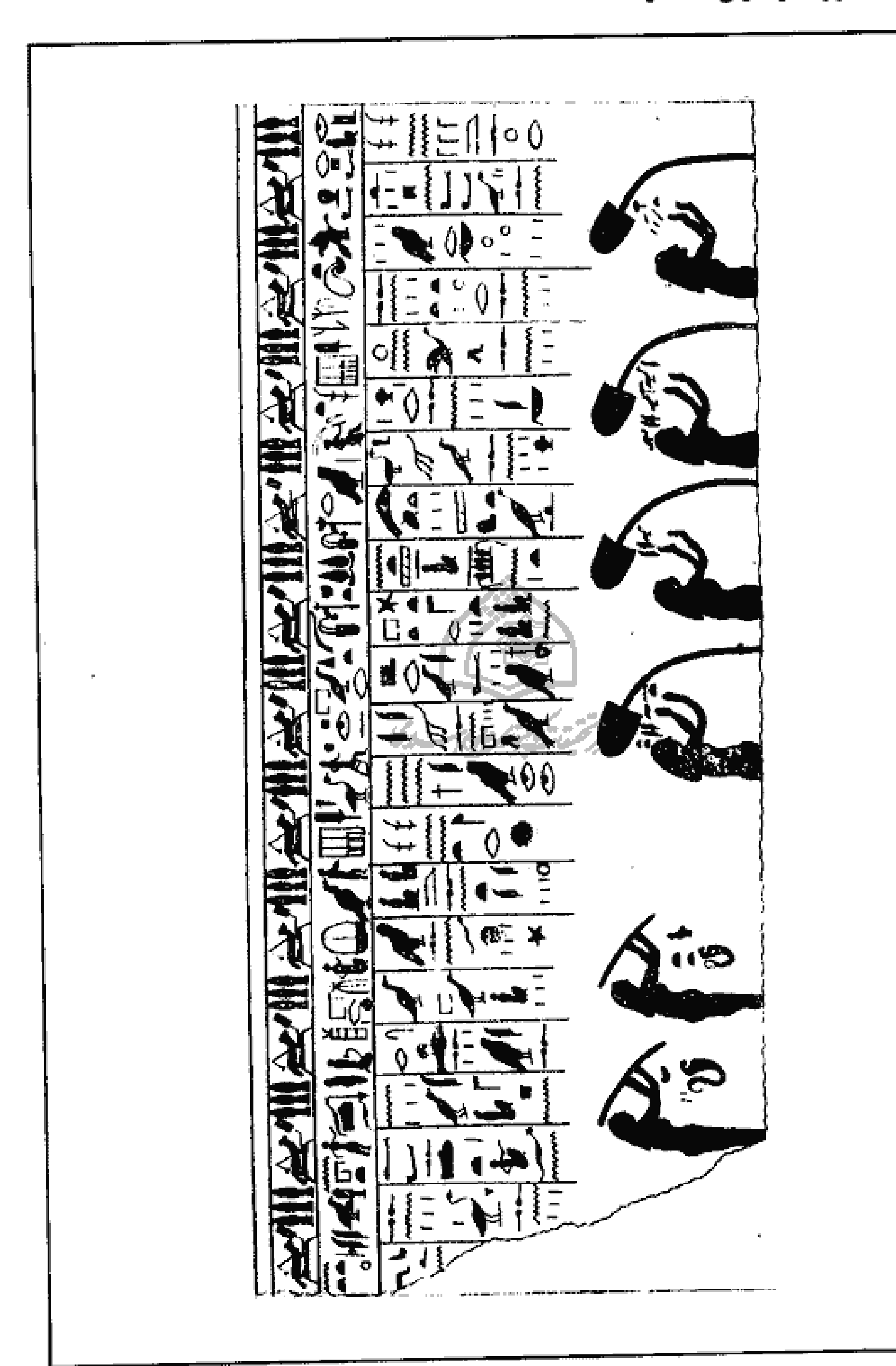


«وصف الشرق» (Description of the East)، كما رسم بيري صندوقاً مماثلاً، والحروف الهيروغليفية المنقوشة عليه على اللوحة ٣٣ من «رؤية للمشرق» (View of the Levant). ويبلغ طول هذا الصندوق حوالي ٧ أقدام، وهو أعرض من الأعلى منه في الأسفل، لذا من الطبيعي أن نستنتج أنه تابوت لمصري ما كريم النسب. وقد وضع الصندوق في مشكاة[1]، وبالتالي لا يمكن أن نرى سوى الكتابات المنقوشة على الجهة الأمامية، ويحمل الصندوق على الأرجح كتابات من الجهات الأخرى. كما نجد رموزاً هيروغليفية داخل الصندوق، لكنها مغطاة بالكلس لأنه يستعمل حالياً كمسقى. يفترض مايه (Maillet) أن هذا الصندوق الذي يسميه نبع العشّاق، أخذ من أحد الأهرامات ونقل إلى القاهرة، لكن الصندوق الذي نراه في الهرم الكبير غير مستدير من الأعلى. ولا يحمل كتابات هيروغليفية. وأظن أن بعض الأشخاص الكريمي النسب في مصر، والذين لا يتحملون نفقة بناء أهرام، أو الذين توفوا بعد أن ولّت عادة بنائها، دفنوا في هذه الصناديق الفخمة.

سجّل بعض اليونانيين، الذين كانوا في مصر في زمن كان المثقفون يجيدون قراءة الحروف الهيروغليفية، معنى بعض الرموز، لكني أشك في أن تفيد هذه التفسيرات لفهم الكتابة الهيروغليفية بحد ذاتها. وقد تصرفوا كما يتصرف المسافرون حالياً، إذ اكتفوا بالرموز الكبيرة التي تلفت الأنظار للوهلة الأولى. لكني أعتقد أن هذه الرسوم لا تمت لكتابة المصريين القدامى بصلة، ويبدو أنها رموز تدل على أشخاص معينين أو أحداث معينة، وتثبت معظم الكتابات التي نجدها اليوم ما تقدمت به دون أدنى شك. نرى ثلاثة من هذه الرسوم وبعض الرموز الصغيرة ضمن الكتابات المحفورة على الصندوق قرب قلعة القبش والذي أتيت على ذكره آنفاً. وتشكّل الرموز الصغيرة ما أسميه الكتابة الهيروغليفية، وأظن أنها نقشت لتفسير الرسوم الكبيرة، ويبدو من هذه اللوحة أن المصريين كانوا يرسمون الصور بشكل مستقيم وبالمقلوب، كالطيور على سبيل المثال التي تدير وجهها يمنة في أحد الجوانب ويسرة في جانب آخر. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الخطوط العمودية متساوية تقريباً فيما بينها، والصور وحدها تأتي معكوسة كما ذكرت سابقاً، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن المصريين نقشوا كتابات مختلفة تحمل الفحوى نفسها على حجر واحد فإذا ما تلفت إحداها بقيت الأخرى واضحة. وبالرغم مما تقدم، سأنقل للعلماء الكتابات الموجودة على جانب الصندوق وأترك لهم مهمة تفسيرها.

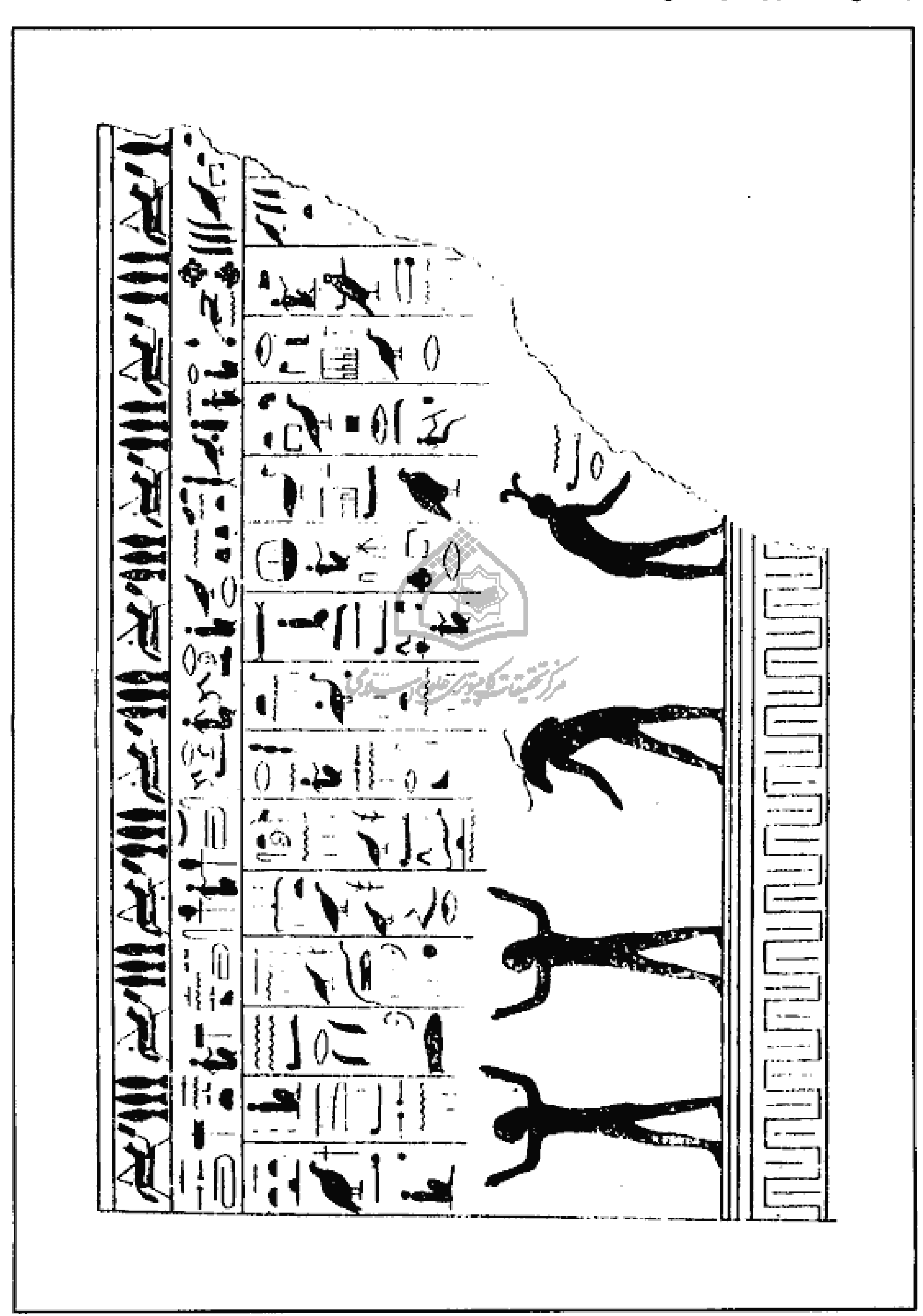
ولأكشف الحقيقة للذين سيتوهمون أني لم ألاقِ صعوبات في نقل هذه الكتابات الهيروغليفية، سآتي على ذكر المصاعب التي واجهتني وأنا أرسم هذه اللوحة. ظننت أنه من الأفضل القيام بهذا العمل بحضور مسلم مثقف، فقصدت المكان بصحبة شيخ. وبما أن الصندوق في شارع يكثر فيه مرور الناس، كثر من حولي المتفرجون، ولم يوجّه إلي أحد أية إهانة، لكنهم تفاجؤوا من حشرية الأوروبيين، وأعجبوا

(١) كوة في الحائط.



بقدرتي على نسخ الرموز كما هي على الصندوق وذلك بواسطة عود (قلم) لا أغطه في الحبر. وما إن نسخت ربع الكتابات حتى وصل سراج وهو حارس في خدمة البهاوات، يحاول أن يعطي لنفسه أهمية أمام عامة الشعب، ولا سيّما حين يستطيع شتم وإهانة يهودي أو مسيحي ما، لأن هذين الأخيرين لا يتجرآن على إهانة المسلم أو ضربه حتى ولو أسيئت معاملتهما. ولا أعلم إن كان مكلفاً الحفاظ على الهدوء والأمن في المنطقة، ولم يتحمل رؤية هذا الحشد أو أنه أراد إظهار سلطته في حضور هذا العدد من المشاهدين، لكنه تلفظ بكلام جارح، ورأى الشيخ الذي يرافقني ضرورة الرحيل إلا إذا أردت التعرض للضرب. ركبنا حمارينا، وعدنا، لكني كنت غاضباً من السراج، وأردت الاستعلام عن سيّده لأرفع إليه شكواي، لكن صديقي الذي يعرفهم أحسن مني، لم ينصحني بذلك وحاول تهدئتي راوياً لي حالات مماثلة لم تفضِ الشكوى إلى شيء. وقال لي: هل يمكنك منع كلبك من النباح ضدك، أو حين يرفسك حمارك هل تضربه بدورك؟ يمكنك أن تعود لاحقاً وتنسخ ما تشاء على مهل. وبعد أيام، عدت وصديقي إلى قلعة القبش، ومنحت أحد حراس الحيّ بعض المال ليحميني من أصدقائه، وتجمّع حولي الناس ومن بينهم سراج سألني عمن أعطاني الإذن لنقل الحروف الهيروغليفية عن الصندوق، فأجابه سراجي إن الإذن صدر عن معلمه، فرد الأول إن معلمه يرفض السماح لي بذلك. وهكذا غادرنا المكان، وبعد أيام عدت للمرة الثالثة، ولم أكن قد انتهيت من عملي كلياً، حين أخذ أحد الأئمة الذي رآني من منزل مجاور للمسجد يحدث ضجة، ولم أجد داعياً لأن أتعرض لمشاكل جديدة، فجمعت أغراضي وغادرت المكان. ونسخت بهذه الطريقة الكتابات شبه كاملة، من دون أن أتكلّف الكثير من المال. ولو أني توجهت إلى إمام المسجد أو إلى بعض الباهاوات، لكلفني الحصول على الإذن هدية قيّمة، أو لعلهم منعوني من نسخ أيّ حرف. ولا ينبغي أن يطلب الأوروبي، الذي يسافر إلى البلاد الشرقية، حماية الأشخاص النافذين بين المسلمين إذا ما أراد إرضاء فضوله. وأعترف أن الأمر يتطلب شجاعة وبرودة أعصاب، فلو أني سمحت للسراج الأول بإخافتي، لما نسخت إلا القليل من الكتابات الهيروغليفية والرموز. وباختصار، يجب توقّع المصاعب حين نسعى لرسم الآثار في بلاد الشرق، لكننا لا نتعرض لمخاطر جسام، ويبقى الأهم أن ينال المرء مبتغاه.

يدّعي البعض أن باحات المساجد في القاهرة تضم العديد من الصناديق التي نقشت عليها حروف هيروغليفية والتي تستخدم حالياً كأحواض. ومنذ حوالي ٢٠ عاماً اكتشف عثمان كخيا صندوقاً، ونقله في النيل لوضعه قرب مسجد، لكنه كسر عند وصوله إلى بولاق، فوضعت أجزاؤه حول شجرة لتغطية جذورها بالتراب بسهولة أكبر. تحمل اللوحات (XXXV XXXIV, XXXIII, XXXII, XXXI)، الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على أجزاء هذا الصندوق، ونجد بينها رموزاً، لكن السطر الأعلى لا يعدو كونه للزينة، كما يمكن أن يكون للرسوم التي تتكرر معنى معين وكتبت حروف اللوحات الثلاث الأولى بشكل مستقيم، أما الأخريات فبالمقلوب. ونجد الصورة الكبيرة نفسها المحفورة على اللوحة (XXXIII)،

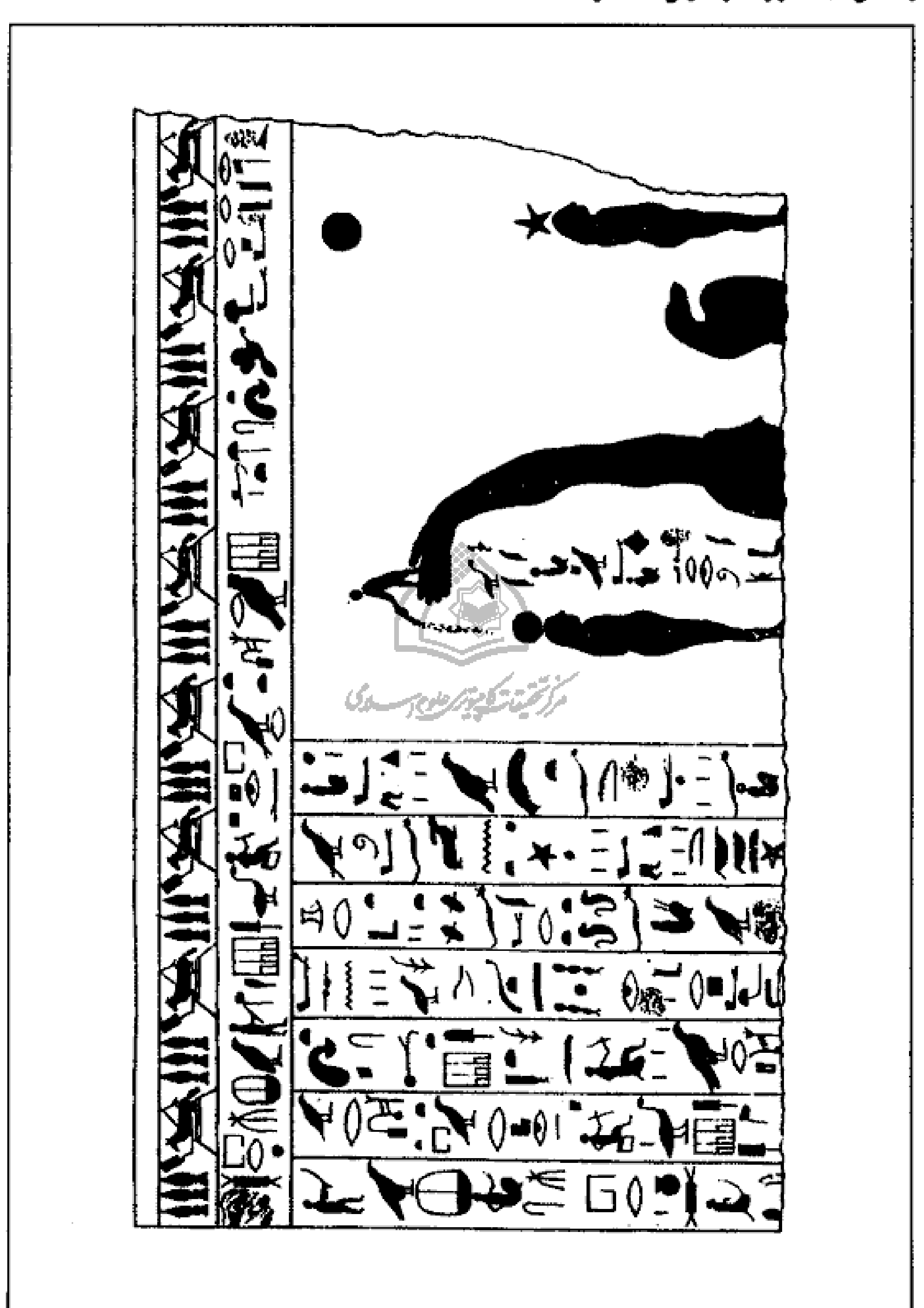


٣٣ لبيري (Perrey)، لكن الحروف الصغيرة التي ترافقها والتي تفسرها تختلف كلياً عن تلك التي ترافق صورتي الكبيرة، وينبغي مقارنة حروف لوحة بيري الهيروغليفية مع حروف لوحتي التي ذكرتها، ونجد قطع هذا الصندوق في ساحة كبرى أمام منزل الحاكم، وأمضيت هناك ساعتين رسمت خلالهما الرموز بحضور الكثير من المشاهدين ومن دون أن أتعرض للإساءة. لكن حين عدت مرة أخرى، وبعد أن عملت لبعض الوقت، حضر سراج وطلب مني مرافقته لرؤية سيده الحاكم، وسألني هذا الأخير عن سبب نقلي للكتابات الفرعونية، وعرضت عليه ورقتي، التي أعطاها لكبار القوم الحاضرين، فضحكوا من حشرية الأوروبيين التي بدت لهم غير مجدية. وأخيراً، أخذ السراج أوراقي وخرج من الغرفة، فرجوت الحاكم أن يردّها لي، فأجابني بأن أطلبها من حارسه، مما يعني أنه يسمح لهذا الأخير بأخذ الأوراق. واضطررت إلى منحه بعض المال، فأعاد لي الورقة، وسمح لي برسم رموز هذا الصندوق المكسور.

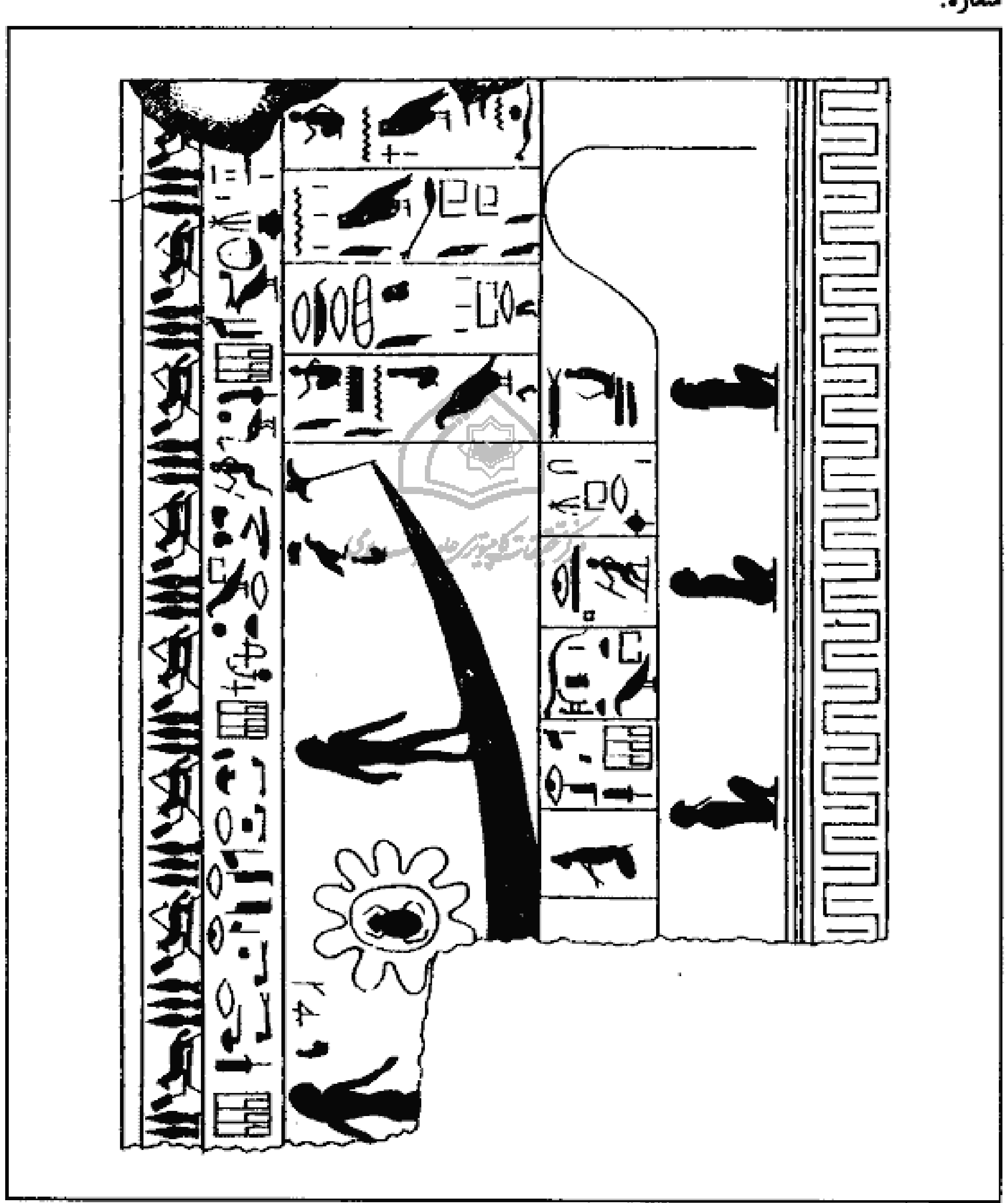
وتحمل اللوحة (XXXVI) قسماً من الكتابات الفرعونية المنقوشة على المسلتين الصغيرتين المكسورتين. واستخدمت القطعة أ، وهي من الرخام الأسود كعتبة لمسجد قصر القاهرة، وبين الصور التي أوردتها، فإن التي أشرت إليها بنجمة تستحق اهتماماً خاصاً، لأنها كانت ناتئة وبارزة في إحدى التجويفات. أما القطعة ب وهي من الغرانيت فاستعملت كدرجة أمام أحد المنازل قرب القنطرة الجديدة (Kántared Sjedid)، ويبلغ عرضها ٥ أقدام وربع، ويمكن أن نستنتج من هنا أنّ الصور المنقوشة كبيرة، وقد حفرت الصورتان المشار إليهما بنجمة بشكل عميق إنما ظاهر في الوسط.

تعتبر الأواني الصغيرة وجرار المرمر من بين الآثار المحفوظة جيداً والتي تحمل كتابات هيروغليفية، وقد رسمها نوردن بشكل جيد على اللوحة ٥٥، لذا اكتفيت بنقل الكتابات الهيروغليفية التي رأيتها في مصر على خمس جرار وذلك على اللوحة ٣٧ و٣٨. ونقش رأس امرأة على غطاء الإناء الذي يحمل الحرف أ، ورأس كلب على الذي يحمل حرف ج، ورأس عصفور على ذلك الذي يحمل حرف د، فيما فقد غطاء الإناءين الآخرين. ويبلغ ارتفاع الحرف أ، ٦ بوصات ونصف، أما ج، ود فسبع بوصات وربع.

ويندر أن نجد في بلاد أخرى كتابات قديمة محفورة في الصخور الصلبة كهذه، كما نجد في مصر رسوماً وكتابات مرسومة على الخشب وعلى القماش وهي قديمة جداً وقد حافظت على رونقها. ورأيت هذه الكتابات عند قنصل فرنسا في القاهرة على غطاء صندوق مومياء من الخشب، ونقلتها على اللوحة ٣٩. ووجدت هذه القطعة غريبة للغاية، لأنها تبرهن أن الكتابة الهيروغليفية المنقوشة في الوسط من الرأس وحتى القدمين مؤلفة من حروف تشكّل كتابة المصريين، لكن الرسوم التي تغطي باقي الغطاء من الجهتين والتي ينبغي أن تكون أكبر مقارنة مع الكتابات الهيروغليفية والتي لم أرسمها، لا بد أنها رموز مستوحاة من الأساطير. وتحمل اللوحة (XI) العديد من الكتابات القديمة، وقد نسخت الصف أ عن تمثال خشبي للمومياء، والصف ب عن غطاء صندوق مومياء، أما الكتابات الصغيرة ج فنقلتها عن جرّة صغيرة، يحمل

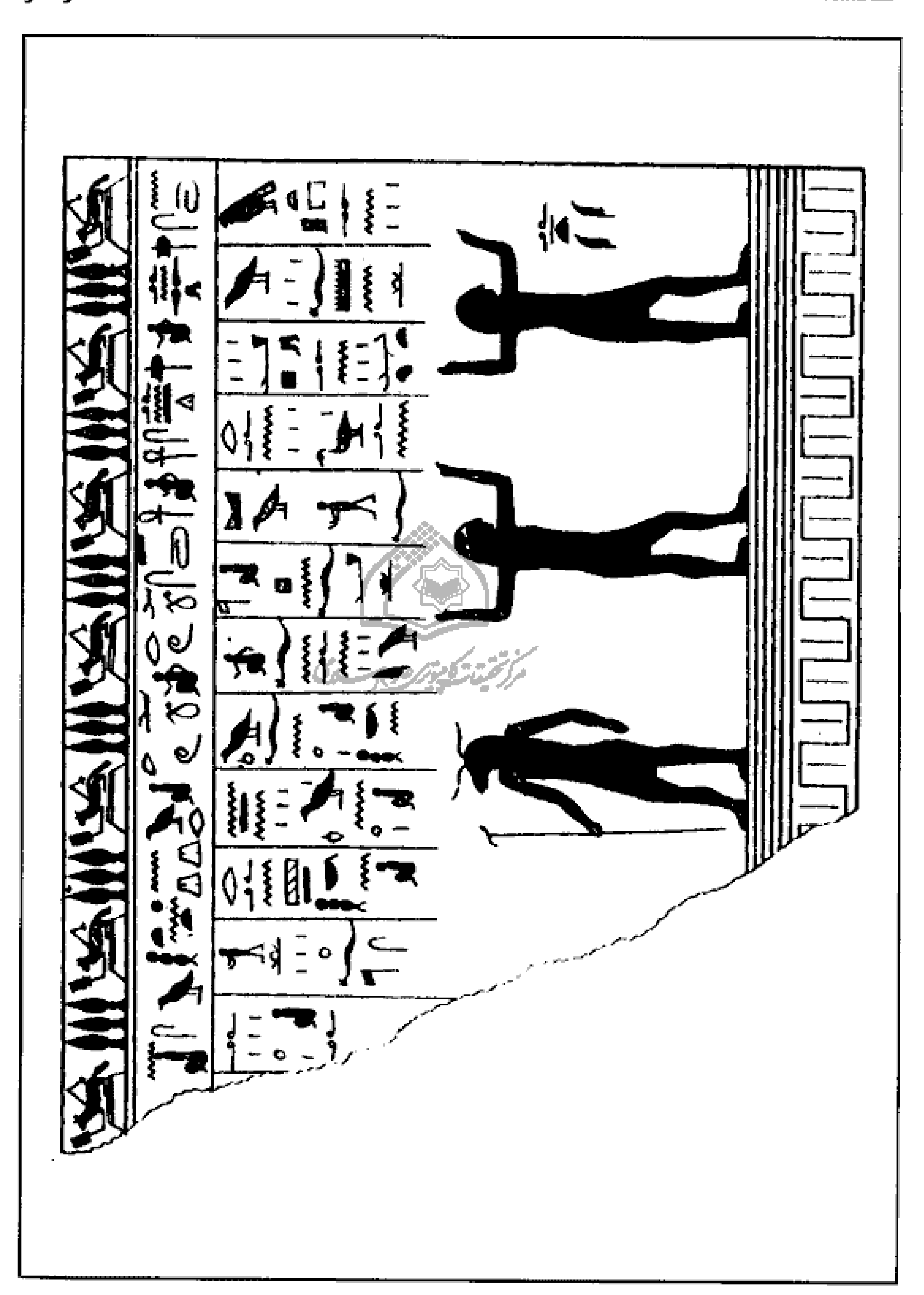


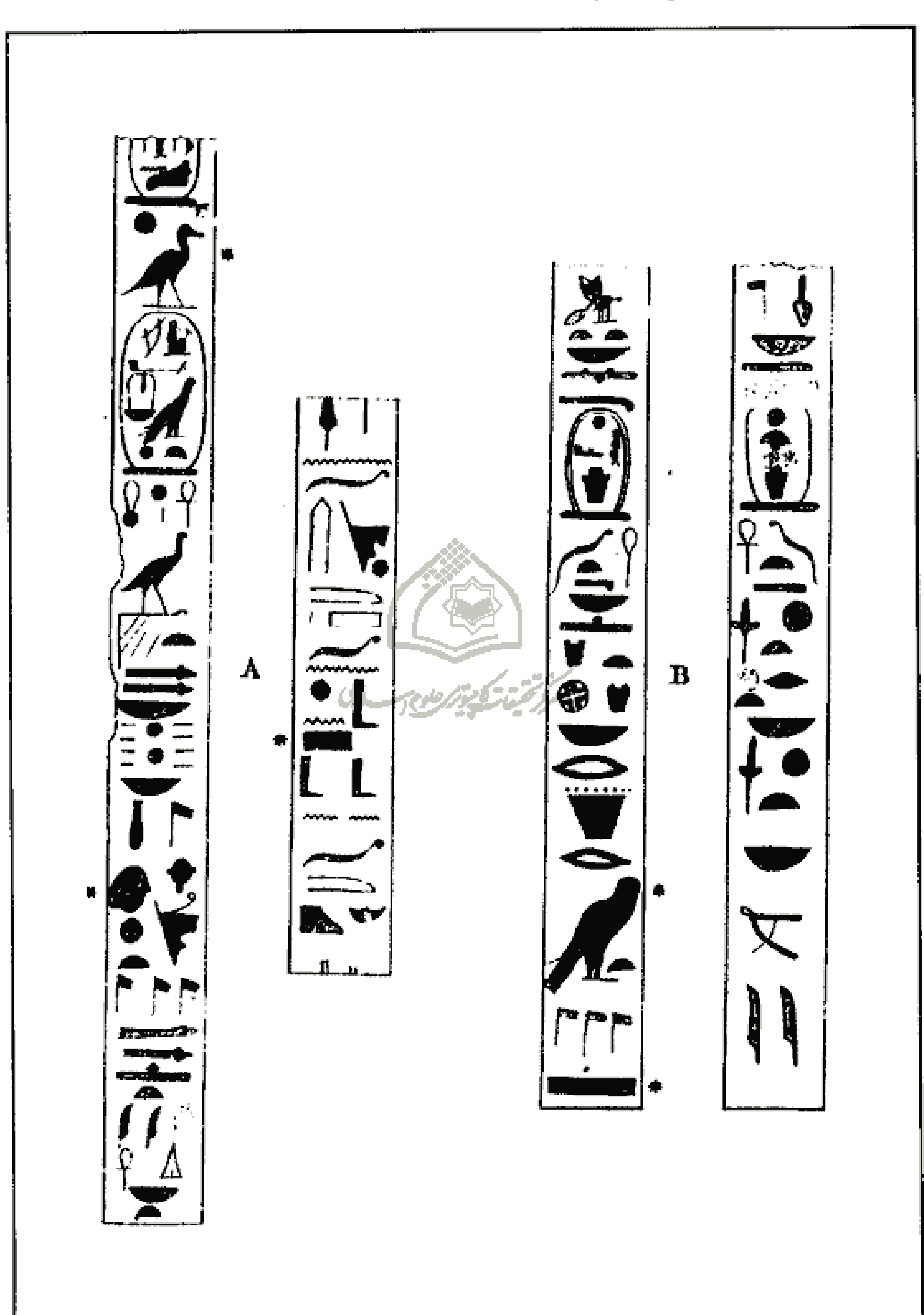
غطاؤها رأس عصفور، والصفوف الثلاثة ج نقلتها عن تماثيل خشبية صغيرة لمومياء، يبلغ طولها ١٠ بوصات، وهي مرسومة بشكل سيىء. ونسخت الكتابات حياً بالصورتين الموجودتين في الأسفل ويبدو أنهما رمزان، ولم تكونا مرسومتين إنما محفورتين في حجر كلسي لينّ استخرج من مدافن المومياء في سقارة.

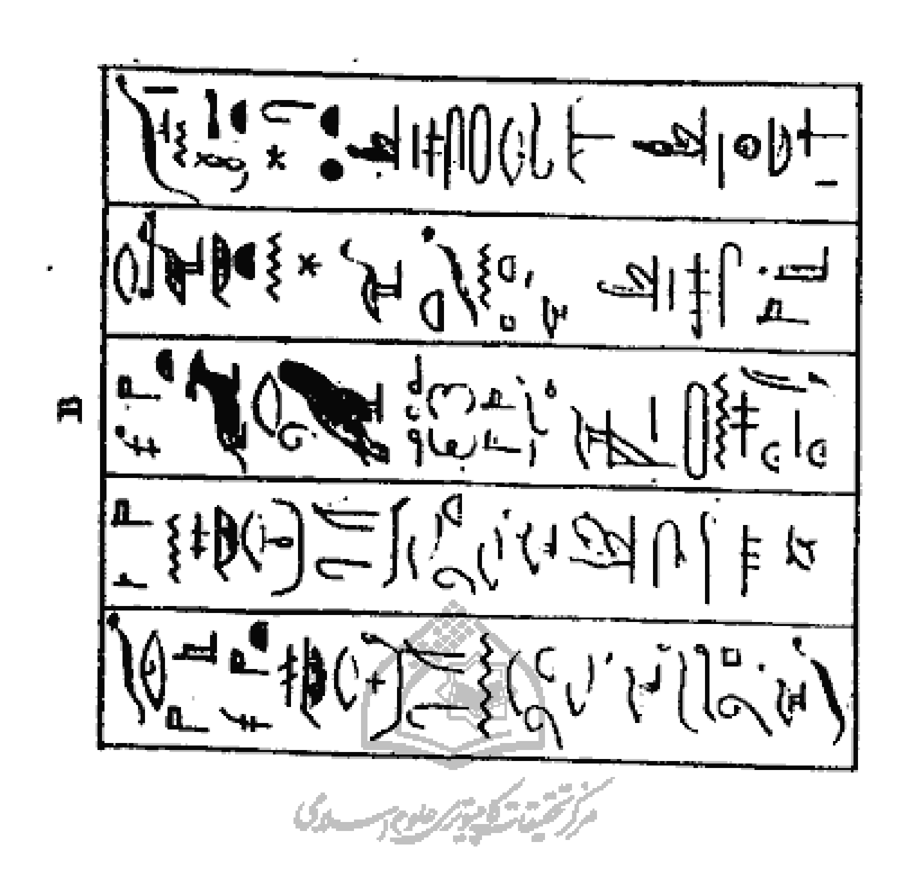


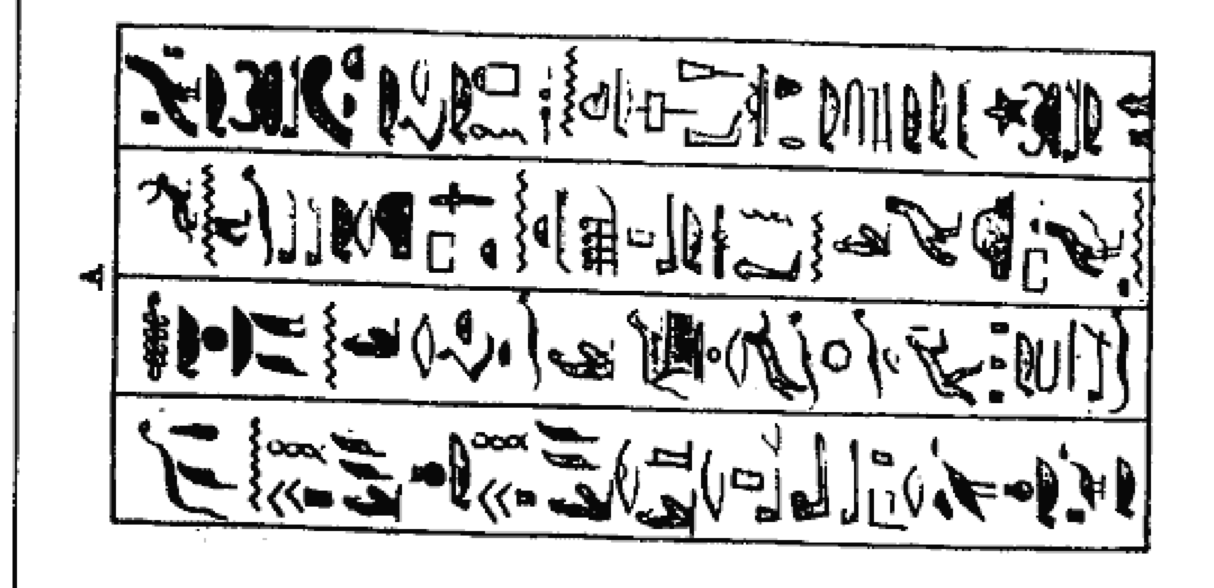
ويبدو أنّ الذين يهتمون بتفسير الكتابات الهيروغليفية، لم يعملوا إلا على الرسومات الكبيرة أو الرموز، لكن أود أن ينتبه العلماء للحروف التي تشكّل الكتابات الهيروغليفية. أما الذين يودون التعمق بالكتابة الهيروغليفية، فعليهم الحصول على الحروف والرسوم المختلفة التي تشكل هذه الكتابة. وبما أن النقوشات التي نسختها غير محفوظة كلها بشكل جيد، جمعت على اللوحة (XLI) كافة الحروف الظاهرة بوضوح في رسوماتي، ومن السهل إضافتها إلى الكتابات الهيروغليفية الأخرى المرسومة بشكل جيد، وإذا ما عمل المسافرون الذين يزورون مصر العليا على نسخ هذا النوع من الكتابات الأثرية، سنتمكن من معرفة كافة الحروف التي تشكّل الكتابة الهيروغليفية. وسنكتشف أن بعض الحروف ترد أكثر على المسلات، وأن غيرها ينقش أكثر على أحجار الأضرحة، الخ. وستساعد هذه الأمور على توجيه العالم الذي سيعمل على تفسير الهيروغليفية.

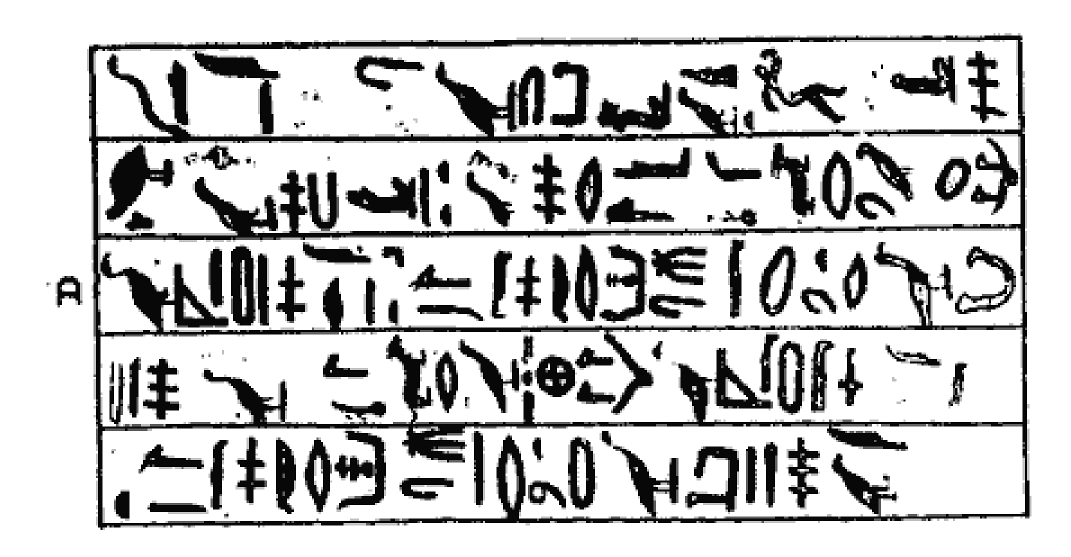





A
B

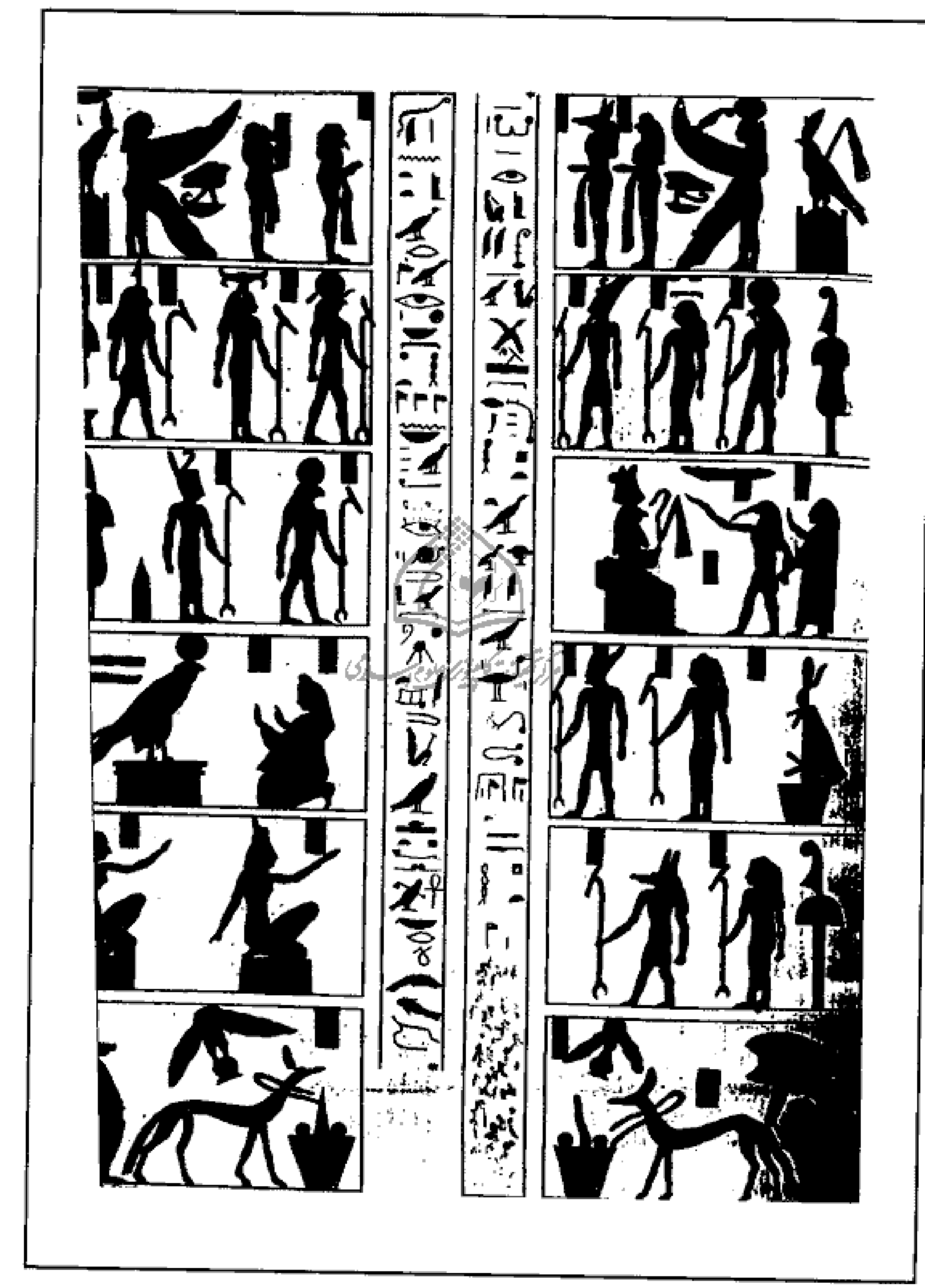

B

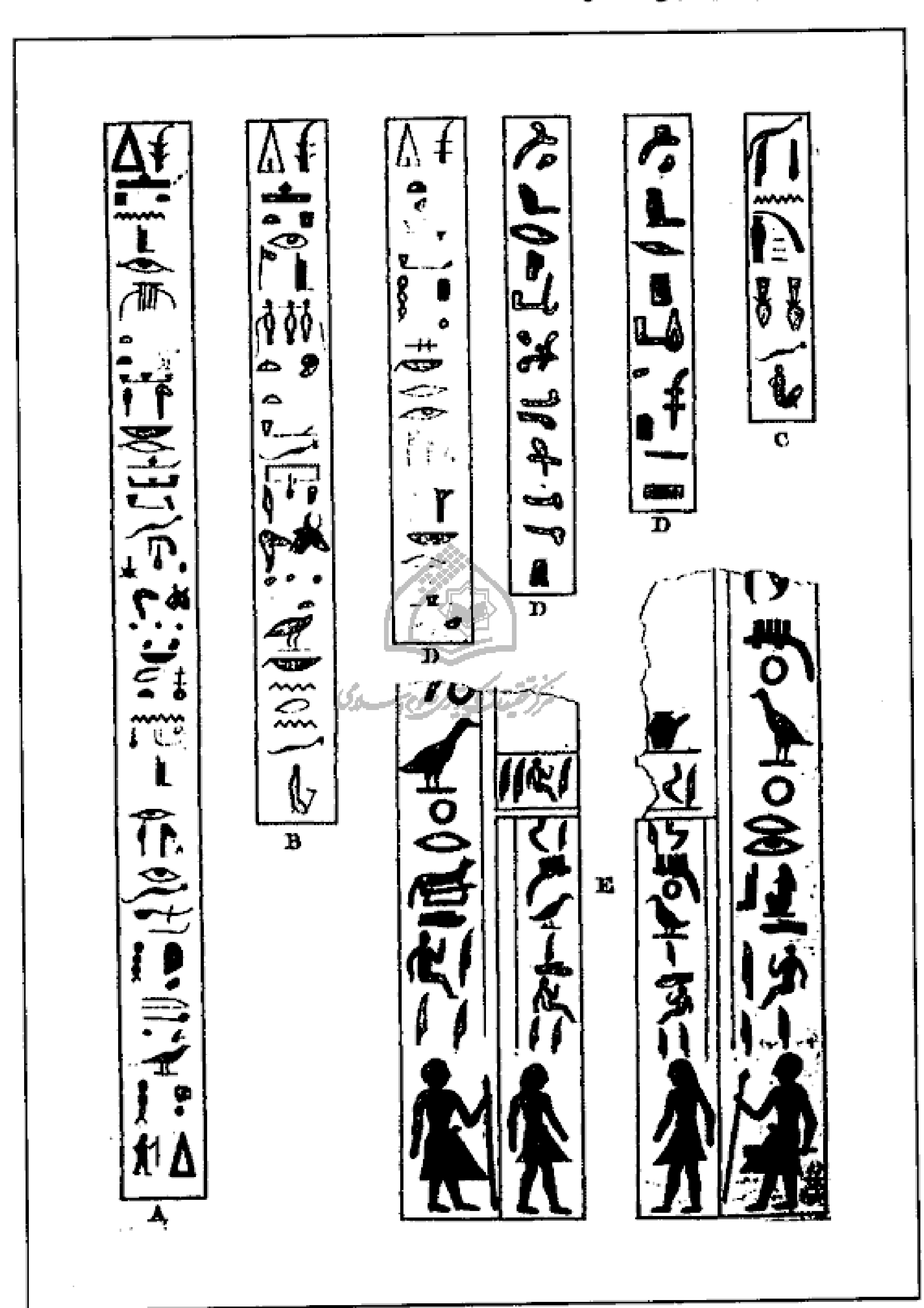

A


A


B


C

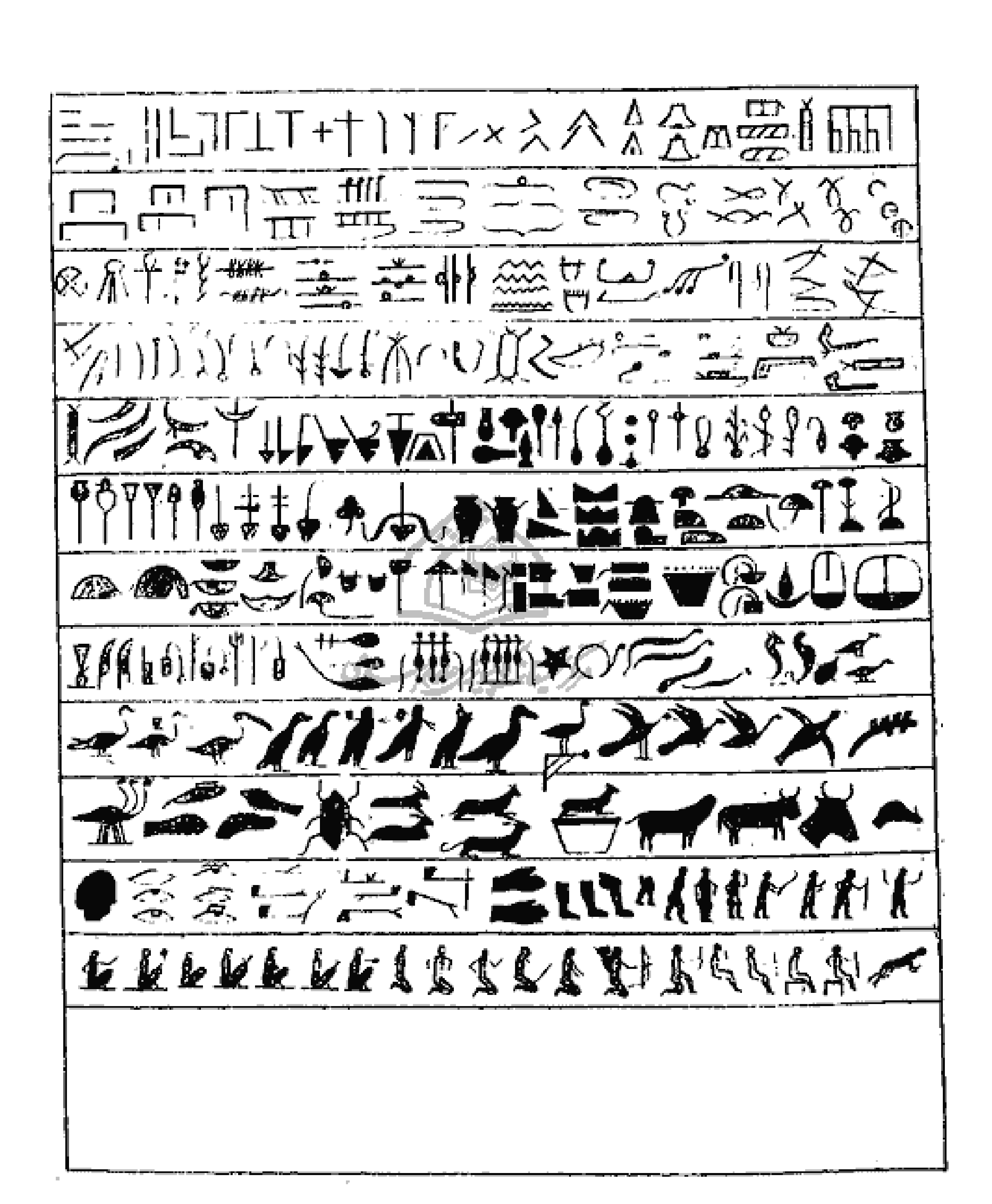


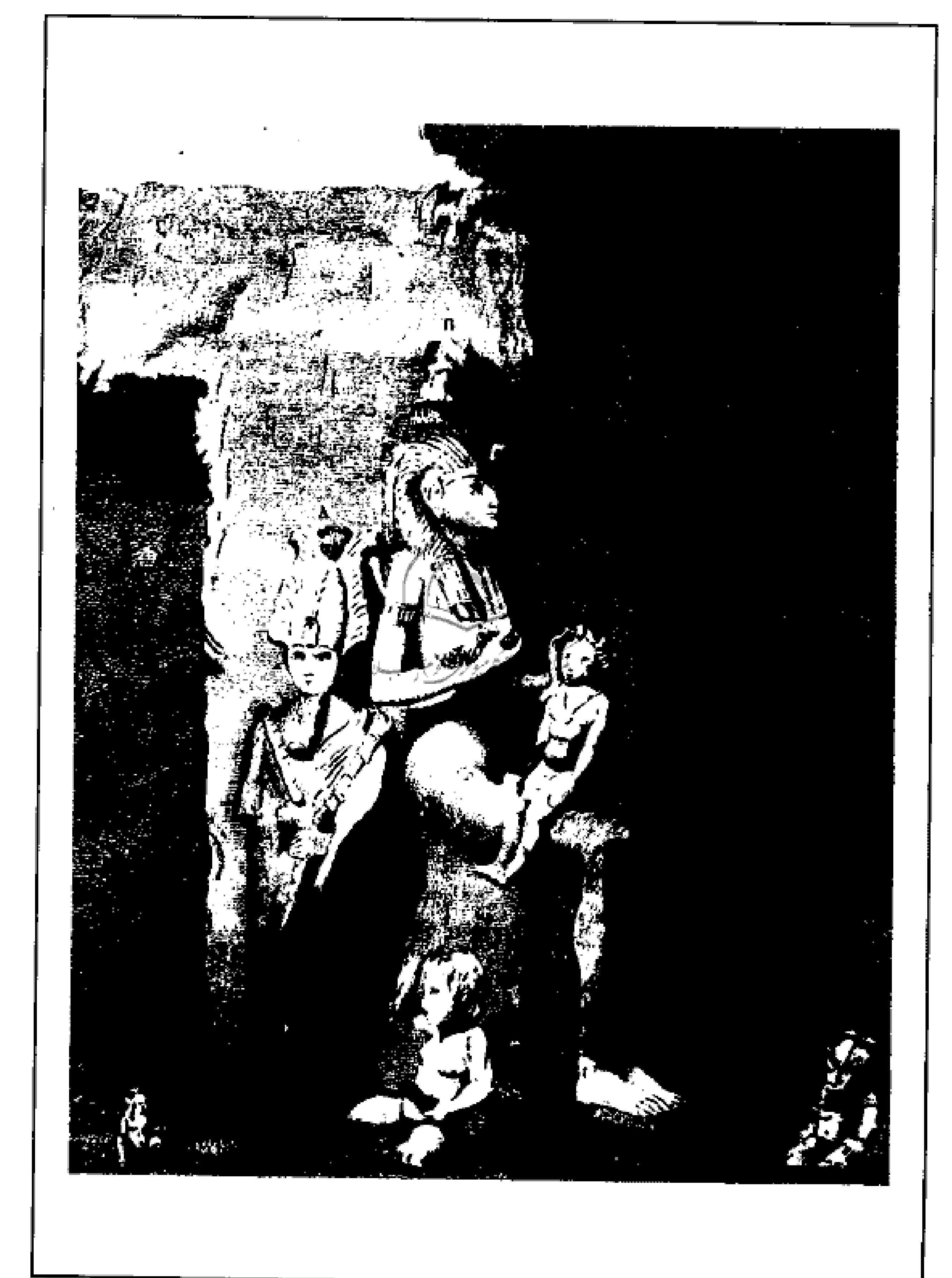


A
B
D
D
D
C
E

أخيراً، تحمل اللوحة (XLII)، بعض الأشكال التي نقلتها من مصر: الشكل أ مصنوع من النحاس، وقد صبّ في قالب، يبلغ طوله ٥ بوصات و٤/٣ من أخمص القدمين وحتى أعلى القلنسوة، ونستنتج من هذا حجم الأشكال الأخرى الكبيرة. ثم الشكل ب، من النحاس أيضاً، وقد قولبت جيداً، له كالأول دسار تحت القدمين، وقد نحتت المرأة وهي جالسة، لكن المقعد من مادة أخرى فلا أثر له، وهي تلبس أساور وحلقات حول القدمين كما يفعل الشرقيون حالياً، ولا ترتدي سروالاً كما هي العادة عند النساء في الشرق، إنما تلف قماشاً قطنياً حول وركيها كما تفعل الغسالات عند ضفاف الأنهر وشواطىء البحار. وقد تزين الولد، الذي تضعه في حضنها بعقد يحمل قلادة تصل حتى صدره، ونرى من الجهة اليمنى للرأس جديلة طويلة تصل حتى أكتافه، ويبدو أن للأم وللولد خصلة شعر مجدلة على الجبين، كالمرأة في وادي فاران. وقد لحق الأذى بأعلى زينة رأس هذا التمثال، كما يفتقد الشكل ج إلى ما كان يحمله بين يديه وإلا فهو من النحاس المقولب، ويبدو قديماً للغاية. أما الشكل د فمن النحاس، وقد وجد في مصر، لكنه يبدو أنه صنع على يد فنان يوناني ولعله كيوبيد (إله الحب) يحمل حمامة في كل يد، وهي حمامة بأجنحة مزدوجة أو مطوية من الأسفل. صنع الشكلان «هـ» و «و» من الفخار المشوي، ولهما حلقة على الرأس، وقد استخدما على الأرجح كزينة، أما الشكل «و» فمغطى بطلاء أخضر اللون.







سير الرحلة من القاهرة إلى السويس وإلى طور سيناء

تشكل شبه الجزيرة العربية، وخاصة القسم الجنوبي منها، موضوع رحلتنا الأساسي. ولما كان يحظر على المسيحيين السفر براً من القاهرة إلى مكة برفقة الحجاج، اضطررنا لانتظار الفصل الملائم للسفر براً من السويس إلى جدة. كما أننا لم نستطع القيام برحلتنا إلى طور سيناء، لاكتشاف جبل المقطم أو جبل النقوش، الذي شغل الأوروبيين في السنوات الأخيرة. خلال فصل الصيف، كان سكان القاهرة يحاربون القبيلة العربية الصغيرة المقيمة في ضواحي الطور (Tör) وإليكم سبب اندلاع هذه الحرب: وصلت إحدى السفن التي يرسلها سنوياً سكان القاهرة من السويس إلى جدة، محمّلة بالقمح إلى المرفأ المذكور، بغية التزود بالمياه، لأنها عذبة ومجانية، على عكس مياه السويس. فلم يستطع العرب الرحل المقيمون في جوار الطور، رؤية سفينة محملة بالقمح دون أن تخالجهم الرغبة بالسطو عليها. فأخذوا الربان والبحارة والركاب أسرى لديهم، بعد أن غادر معظمهم السفينة للتزود بالمياه ولرؤية أصدقائهم، علماً أن الأتراك يرفضون رفضاً قاطعاً منحهم جزءاً من حمولة سفنهم. واستعانوا بزوارق الإنقاذ ومراكب الصيد الخاصة بسكان الطور لنهب السفينة. فأثارت هذه الحادثة بلبلة كبيرة في القاهرة، ولم يعد يتجرأ عرب هذه القبيلة الصغيرة التي كانت تنقل بمساعدة عرب المنطقة البضائع من الطور إلى السويس، الذهاب إلى مصر حيث سيحاسبون على لصوصيتهم في البداية، لم يكترثوا للأمر. لكن بعد أن نفدت الغنيمة راحوا يسعون للتصالح. فكانوا يزعجون كل القوافل المسافرة من السويس إلى القاهرة ويقتلون الجمال غير المحمّلة، أو يسرقونها. وأعلموا سكان القاهرة، أنهم صمّموا على سرقة القوافل كلها، إن لم يستعيدوا حق مشاركة العرب الآخرين في نقل البضائع بغية كسب رزقهم. كانت هذه نقطة ضعف الحكومة المصرية، وحاكم هذا البلد المكتظ بالسكان، وسلطانها الذي يعتبر نفسه سيداً على شبه الجزيرة العربية. فهذه القبيلة العربية الصغيرة، كانت تجرؤ على غزو المدن، الواحدة تلو الأخرى، دون أن تهاب أحداً. أجبرتنا هذه الأحداث على التوقف في مصر سنة تقريباً. كانت الحكومة المصرية عاجزة عن معاقبة عرب الصحراء، وتخشى أن ينهبوا القمح الذي ترسله إلى مكة؛ كما وأن التجار كانوا قلقين على بضائعهم، والعرب الذين يهتمون بنقلها غير مستعدين لخسارة جمالهم؛ وبعبارة أخرى، كان الجميع يسعى لإحلال الأمن. ولقد استشرنا تجار البلاد بشأن التدابير التي يجب اتخاذها لرحلتنا المقبلة؛ فرأوا أنه من الأفضل انتظار عودة القافلة الكبيرة من مكة، للتأكد من سلامة الطريق غير أنهم علموا أن أمير الحج قد تلقى الأمر بالتصالح مع العرب خلال الرحلة. فأرجىء سفر القوافل إلى ذلك الحين، مما دفعنا لتأجيل رحلتنا.

يستحسن أن يعرف كل أوروبي يسافر إلى الشرق، لغة البلاد معرفة سطحية كما وأن السفر بصورة مريحة يتطلّب استخدام خدم، جابوا البلاد من قبل. وعند انطلاقنا من القاهرة، لم نكن نعي جيداً هذا الأمر. فخادمنا الأوروبي، المولود في السويد، والذي رافقنا من كوبنهاغن، لم يسبق له أن زار الشرق. وطباخنا اليوناني، المولود في إحدى جزر الأرخبيل، لم يحب الصحراء من قبل علماً أنه عمل عند تجار أوروبيين في القاهرة. وعلاوة عنهما، كان يعمل في خدمتنا يهودي من صنعاء، عمره ٢٦ سنة، قام برحلة مماثلة إلى بلاد مصر، فضلاً عن بلاد الهند وبلاد فارس؛ ولكن المسلمين المسافرين برفقتنا احتقروه أشد احتقار. كان الطبيب غرامر ملزماً بالتحدث مع مرافقينا المسلمين؛ وكم سرّ باصطحاب مترجم معنا؛ وهو يوناني الأصل، اضطر لاعتناق الإسلام بسبب سلوكه الشائن. تزودنا بكل ما يلزمنا للرحلة من مؤن وخيام وأسرّة. والجدير ذكره أن عدداً كبيراً من الرحالة، قدّموا لنا شرحاً تفصيلياً عن الأشياء اللازمة للرحلة في هذه البلاد، وهي بمعظمها مريحة للغاية، حتى أن الجيوش الأوروبية تستطيع استعمالها. كنا نحمل أواني مطبخية نحاسية، مقصدرة من الداخل والخارج. أما الزبدة، فكانت موضوعة في ظرف من الجلد السميك، واستبدلنا بالطاولة قطعة جلدية مستديرة، زيّن طرفها بحلقات من حديد، نعلق فيها الطاولة بالجمل.

ووضعنا فنجاين القهوة في علبة خشبية مغطاة بالجلد وأخرى شبيهة بها، تحوي الشموع؛ وكان غطاؤنا مزوداً بقسطل يوضع عليه الشمعدان. وكنا نحمل معنا علبة خشبية أخرى لها عدة أغطية وتضم وتحوي الملح والبهار والتوابل. واستبدلنا بالأواني الزجاجية أخرى نحاسية مقصدرة من الداخل والخارج. وكانت القناديل المصنوعة من النسيج الكتاني تطوى كالقناديل الورقية الصغيرة، التي يصنعها الأطفال في أوروبا. وكان كل واحد منا يملك إبريق ماء من الجلد السميك، يستعمله للشرب، ولم نكن نتوقع أن نصادف ينبوع ماء قبل بضعة أيام، فحرصنا بالتالي على ملء المطرات المصنوعة من جلد الماعز، وإضافتها إلى المؤن؛ حتى أننا أخذنا معنا وعاءين من الحجارة، للتزود بالمياه خلال رحلتنا من السويس إلى جدة. ووضعنا النبيذ في قوارير زجاجية، تتسع كل واحدة منها لـ ٢٠ قنينة؛ ولكنها تتكسر بسرعة إذا ما وقع الجمل، أو اصطدم بغيره. توضع جلود الحيوانات المخصصة لنقل المياه، في الخارج، بينما توضع تلك المخصصة لنقل النبيذ في الداخل؛ وهي مطلية جيداً بالزفت حتى لا يلتقط الكحول طعماً سيئاً. فإن كانت تبدو هذه الطريقة لحفظ المشروبات مقرفة، إلا أنها تحول دون تسرب النبيذ على الطريق، كما حصل معنا في بداية الرحلة. ونادراً ما يتزود الرحالة بالحطب أو الفحم؛ ففي الأماكن التي اعتادت القوافل أن تحط رحالها فيها، يكثر زبل الدواب التي تستعمل للتدفئة خاصة إن لم يتوافر الحطب أو الأشواك.

في ٢٧ آب/أغسطس ١٧٦٢، سمعنا طلقة مدفع من قصر القاهرة؛ هذا يعني أن القافلة الكبيرة قد بعثت رسولاً لتحديد الوقت الذي سيعود فيه الحجاج إلى بركة الحاج، حتى يتمكن كل من يريد مقابلة أصدقائه أن يوافيهم إلى هناك. ويمكننا الاستنتاج بالتالي أن عرب الطور كانوا مطمئنين إلى أن قافلتنا

ستجوب البلاد في أمان. وفي اليوم نفسه قصدنا مخيم الشيخ الذي حط رحاله قرب قرية سرياغوس، ليبيت فيها أهل بيته وخدامه. وكنا نرى قصر القاهرة في الجهة الجنوبية ـ الغربية وبعض البقايا في الجهة الشمالية على بعد ساعتين. يسمي العرب هذه البقايا تل اليهود أو تربة اليهود. لم نصادف أي قافلة في طريقنا على عكس ما كنا نتوقعه؛ ولكن العرب وكل من استأجر جمالاً نقلوا حمولهم إلى ديارهم، وتفرقوا كل في طريقه.

وفي صباح الثامن والعشرين، لم نكن قد تأكدنا بعد إن كانت القافلة ستجتمع اليوم أم لا ولكن عند اقتراب بعد الظهر، بدأنا نشاهد بعض الجماعات، فبدأنا الاستعداد للرحيل. انطلقنا من سيرياغوس، ومررنا بقرية حانقي، المجاورة لبركة الحاج وعند سلوكنا طريق السويس، كنا نتقدم شرقاً مع انحراف بسيط نحو الجنوب. ولم نشاهد في الطريق منازل أو ينابيع مياه، أو حتى مساحات خضراء. كان الطريق معبداً ومعظم الدروب الضيقة ممهدة بواسطة الجمال التي تتنقل على حريتها، حتى وإن كانت محملة بالأغراض. شاهدنا على بعد فرسخين و ١٠ دقائق من بركة الحاج، أرضاً منبسطة وتسمى المصطبة؛ يستقبل فيها أسياد القاهرة أمير الحاج عند عودته من مكة. ويسمي العرب المكان الذي يبعد ٥ فرسخات عن البقعة التي حططنا فيها، فرن البهاد (El furn Behād).

غالباً ما تكون القافلة الأخيرة التي تنطلق قبل البواخر إلى السويس كبيرة جداً. ولما كنا نريد مغادرة القاهرة بأقصى سرعة، كانت قافلتنا تتألف من ٤٠ جمل، محملة كلها بالقمح، ومعدات بناء السفن، والتي تصنع في السويس؛ وكان يلزمنا جملان أو ٤ لحمل المراسي. لم أشاهد في مصر أو شبه الجزيرة العربية عربات نقل أبداً. يترأس القافلات الكبرى المسافرة إلى مكة، أو التي تتنقل بين البصرة وحلب، أو تجتاز صحارى أخرى شاسعة، وبالتالي أراضي العرب المستقلين، كروان باشا أو سائق يدفع الضرائب اللازمة، ليجمعها لاحقاً من الرحالة. ولكن القوافل الأخرى التي تقوم برحلات صغيرة لا يعين على رأسها شخص مماثل. يقتدي المسافرون بكبار التجار أو بالعرب الذين يتحملون كافة الأعباء. فحين يحط هؤلاء رحالهم، يحذو الجميع حذوهم؛ وحين يستعدون للرحيل يسارع المسافرون إلى حزم أمتعتهم دون الإعلان عن ساعة الانطلاق؛ فلا أحد يحب البقاء وحيداً علماً أنه قد يتعذر عليه اللحاق بالقافلة. لم نكن نخشى أبداً أن تتعرض قافلتنا للاعتداء؛ ولكن بعض الرحالة الذين يسبقون سواهم، أو يتأخرون عن القافلة يخاطرون بالتعرض للسلب؛ لهذا السبب، حرصنا على البقاء في وسط القافلة. أما في الأماكن الآمنة، فكنت أسبق التجار للاستراحة قرب أحد الينابيع وتناول الطعام. لم يسافر في قافلتنا إلا عدد قليل من الجمالين، الذين كانوا يحملون بنادق دون أسياخ أو قوارير فارغة أو سيوف صدئة. أما الشيوخ الذين يملك معظمهم جمال القافلة فركبوا وحيد السنام، مزودين بالحراب والسيوف والبنادق. ولكننا لم نحاول الاتكال عليهم؛ لأن العربي لا يخاطر بحياته في سبيل إنقاذ أموال التجار الأتراك. والجدير ذكره أن معظم التجار يتسلحون جيداً في سبيل الدفاع بيأس عن بضائعهم.

ولقد اختار رفاقي الأربعة القيام بهذه الرحلة على الحصان، بينما فضلت ركوب وحيد السنام بدافع الفضول فحسب رغم أني كنت أخشى في البداية الوقوع من على ظهر هذه الدابة الضخمة. يبرك وحيد السنام أرضاً حتى يركبه الفارس؛ وحين يريد النهوض يرفع مؤخرته أولاً وعلى الفارس، أن يتمسك جيداً كي لا يقع من الأمام؛ وهو يمشي الهوينا شأنه شأن أي جمل بينما تسرع الأحصنة تارة في سيرها وتتهادى طوراً حتى تبقى قرب القافلة ولا حاجة لإيقاف وحيد السنام لركوبه؛ فهو معتاد على الانخفاض أرضاً، حتى يضع الفارس رجله على عنقه؛ يمتاز سرج الجمل بالحزم المتدلية من الجنبين كي لا تضغط على سنامه ولا يختلف سرج الجمل أو وحيد السنام عن سرج الحصان؛ مددت عليه مرتبتي وجلست عليها بارتياح، خاصة وأنني كنت أبدل وضعيتي حسب ما يحلو لي. بينما أجبر رفاقي المسافرون على الحصان على الحفاظ على الوضعية نفسها؛ وعند حلول المساء، لم أكن أشعر بالتعب إطلاقاً وكأنني أمضيت النهار كله جالساً على كرسي. مما لا شك فيه أن سير هذا الحيوان الضخم يثير الإزعاج؛ ولكن الجمال تخطو خطوات كبيرة وتمشي الهوينا حتى لا يشعر راكبها بالهدهدة. عند الساعة الرابعة من صباح ٢٩ آب/أغسطس رفعنا الخيام من جديد؛ وبعد أن سرنا خمس ساعات ونصف حططنا الرحال في مكان يسميه العرب يسرا (Dsjasra) وكنا ننوي الاستراحة فيها عدة ساعات؛ ولكن لم يتسنَّ لنا الوقت حتى نتناول الطعام، فحملنا الجمال ثانية وقطعنا فرسخين ونصف، حتى بلغنا جبل وهبة (Webbe) الواقع جنوبي الطريق. ومع حلول بعد الظهر كنا قد قطعنا خمسة فراسخ فحططنا على مقربة من جبل طاجا (Taja)؛ وكانت القافلة العائدة من مكة قد حطت في هذه البقعة في الليلة السابقة. وكنت أرغب برؤية مسيرتها، بيد أنها اتجهت جنوباً. وفي هذه المنطقة بالذات، كان العرب يثيرون خوف القوافل الصغيرة، عشية ذاك النهار أكّد لهم أمير الحاج، على لسان حكومة البلاد، أنهم يستطيعون العودة مع جمالهم دون أن يخشوا شيئاً.

وفي ٣٠ آب/أغسطس، غادرنا طاجا عند الساعة الواحدة صباحاً وبعد أن سرنا ٤ ساعات ثم بلغنا قصراً تركياً مهدماً، يسمى الأجرود، قربه ينبوع مياه عذبة؛ ويمكننا القول إنه يقع عند طرف الصحراء. بالنسبة للقادمين من القاهرة (سفر الأعداد، الفصل ٣٣) وعند مدخل الصحراء بالنسبة للقادمين من السويس (سفر الخروج الفصل ١٣)(*) تمر القوافل المسافرة من القاهرة إلى جبل سيناء أو إلى مكة شرقاً، عند طرف البحر الأحمر؛ ولكننا انعطفنا جنوباً (سفر الخروج الفصل ٤) حتى بلغنا بئر السويس، حيث

(*) يتحدث بيتر دیلافیلي، عن هذا القصر أيضاً في رسالته، ١١، ص ٢٥٢: ليل ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٦١٥، سرنا قليلاً مع هبوط الظلام، حتى تضرب رحالنا قرب أسوار قصر الأجرود، الذي بناه الأتراك منذ عدة سنوات، من أجل سلامة الطريق، والحفاظ على ينبوع المياه الغزير، الذي يأتي بيلون على ذكره، دون الإشارة إلى القصر الذي لم يكن له وجود في زمنه يحط الحجاج اليوم رحالهم قرب الينبوع المذكور. لكنني لا أعلم إن كان يضم جنوداً أتراكاً. شاهدت جزءاً من هذا القصر المهدم، ومنارة الجامع، على بعد ربع فرسخ. يقول بوكوك إنه العام ١٧٣٩، كان القصر مأهولاً بالجنود.

تستخرج المياه يدوياً، بواسطة أوانٍ أو أكياس جلدية، ولكن هذه المياه ملوّثة وغير صالحة للشرب. يحاط هذا البئر بسور شاهق مزود بباب حديدي يقفل من الداخل لتجنب العرب الأعداء. وبعد أن قطعنا الأجرود كان الخليج العربي يقع شرقاً حتى أننا لم نتمكن من العبور إلى الضفة الأخرى دون المرور به أو التوجه شمالاً لندور حوله. ويتطلب الانتقال من بئر السويس إلى مدينة السويس حوالي الساعة. وتشير حساباتي إلى ما يلي:

من القاهرة إلى بركة الحاج	٤ فراسخ
من بركة الحاج إلى المصطبة	فرسخان و١٠ دقائق
من المصطبة إلى فرن البهاد	٥ فراسخ
من فرن البهاد إلى جفرا	٥ فراسخ و٣٠ دقيقة
من جفرا إلى وهبة	فرسخان و١٥ دقيقة
من وهبة إلى طاجا	٥ فراسخ
من طاجا إلى أجرود	٤ فراسخ و٤٥ دقيقة
من أجرود إلى السويس	٤ فراسخ

وبالتالي تبعد القاهرة عن السويس ٣٢ فرسخاً و٤٠ دقيقة(*).

فإن كان الفرسخ يوازي ثلاثة أرباع الميل فذلك يعني أن المسافة بين هاتين البلدتين تقدر بـ ٢٣ ميلاً. وتقع السويس على بعد ميل ونصف جنوبي القاهرة، أي على خط العرض ٢٩° و٥٧´ . ويختلف خط الطول بين هاتين المدينتين بفارق ٨ دقائق و٣٠ استناداً للرصد الجوي.

في الأيام الغابرة يوم كانت السفن تمر شمالاً في الخليج العربي، كنا نشاهد في هذا المكان الذي بنيت عليه لاحقاً مدينة السويس، مدينة كلثوم الشهيرة جداً في كتب المؤلفين العرب. ولم يتبق منها اليوم سوى بعض الأنقاض والآثار التذكارية التي لا تلفت الانتباه؛ أما اسم هذه المدينة فظل متداولاً لأن أنقاضها تسمى اليوم أنقاض كلثوم. ولعل هذه المدينة نفسها حملت اسم كليسما وكليوباترا وأرسينواه؛ لأن الاسم اليوناني كليسما، يتألف من الأحرف الصامتة نفسها التي يتألف منها الاسم العربي كلثوم ولعل اليونانيين أطلقوا على هذه المدينة تسميات مختلفة في صحفهم؛ إلا أن سكانها حافظوا على اسمها القديم. يطلق اليونانيون مثلاً على مدينة بتولومي اسم عكون (Acon)؛ غير أنها تعرف اليوم باسم عكّا (Acca)، الذي يتداوله سكانها منذ زمن طويل. تبدو السويس مدينة حديثة. لم يأت السيد دو بريتنباخ الذي عبر العام ١٤٨٣ الجهة الشرقية للخليج قرب موقع هذه المدينة على ذكرها إطلاقاً؛ وفي تلك الحقبة كانت تور المرفأ الأساسي بين القاهرة

(*) يسمي الشريف إدريس بركة الحاج لاكوس الحيوب، وأجرود بروكوس أجرود، وبير السويس، بوتوس أجيوس، وأنقاض السويس كالظم.

وجدة. يقول أندريه كورسال، إنه العام ١٥٠٩ الذي بدؤوا فيه ببناء السفن الشراعية؛ واستناداً لتقرير مؤلف كتاب «رحلة سليمان باشا»، بدؤوا بناء السفن في السويس العام ١٥٣٨.

لا تزال صناعة السفن في هذه المدينة مزدهرة للغاية، علماً أن الخشب والحديد وخلافه، ينقل من القاهرة على الجمال، ويؤدي إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً ملحوظاً. ولا تسافر هذه السفن أبعد من جدة؛ وهي تسمى سفن القاهرة لأنها ملك سكان هذه المدينة. نسيت أن أعد بنفسي المراكب التي في السويس والمرافىء الأخرى وأكدوا لي أن أربع أو خمس سفن تنقل سنوياً القمح من السويس وقصير إلى جامبو وجدة، ليوزع بعدها في مكة والمدينة فضلاً عن أن أربع عشرة سفينة تجارية محملة بالبضائع والركاب تبحر من السويس إلى جدة، ولفتت انتباهي الرادفة الكبيرة تحت دفة السفينة (راجعوا مركب المدينة تور اللوحة ل أ)، وتلك التي تمتد من أمام غرفة الربان، حيث علقت أسلاك طويلة، وتجتاز رادفة الدفة حتى تتحكم بها. ورغم أن هذه الأسلاك معلقة فوق الماء، غالباً ما تلامس سطح البحر نظراً لثقلها معيقة بذلك سير السفن، لذا غيّر الأتراك والهنود دفات سفنهم، وجعلوها مشابهة لدفات السفن الأوروبية؛ ولكن ربابنة هذه المناطق شديدو التعلق بعاداتهم القديمة حتى أنهم بدلوا دفة إحدى السفن المبنية في السدرات والمباعة لأحد سكان القاهرة، حتى تتلاءم مع أهوائهم(*). لم أرَ على متن هذه السفن مضخات للمياه؛ ولكن المياه المالحة كانت تستخرج بواسطة الأكياس الجلدية وللاستعاضة عن البراميل، كانت هذه السفن تحمل على متنها خزاناً كبيراً للمياه موضوعاً قرب صاري السفينة؛ وهو لا يأخذ مكاناً كبيراً على خلاف البراميل الأخرى، ولكن إن تسربت المياه منه، تتبلل البضائع الموضوعة في جواره؛ كما أن المياه العذبة ستنفد من السفينة خاصة بعد ابتعادها عن المرفأ. تعرفت على رحالة إنكليزي عاش هذه التجربة بين سورات وجدة.

تقع مدينة السويس على الضفة الشرقية للخليج العربي، وليس عند طرفه. والجدير ذكره أن هذه المدينة ليست محاطة بالأسوار؛ ولكن منازلها محصنة جيداً، ضد هجومات العرب المفاجئة، وجدرانها متلاصقة جداً حتى أننا لا نستطيع الدخول إلى البلدة إلا من خلال شارعين فقط: واحد مفتوح يمر بمحاذاة البحر غرباً، وآخر رئيسي يغلق بواسطة بوابة غير ثابتة. أما بقايا القصر الذي بناه الأتراك على أنقاض مدينة كلثوم فلم يعد له أثر. لا نجد في المدينة منازل، أو فنادق كثيرة (شمس وعقال) وكما أن عدد سكانها ليس كبيراً؛ ونجد بينهم عائلات يونانية وقبطية. ولا تعج هذه المدينة بالناس إلا عند انطلاق البواخر إلى جدة أو العودة منها. تحيط بالمدينة سهول صخرية مغطاة بالرمل والحجارة؛ وهي أرض قاحلة وجافة ولا نرى فيها أثراً للنبات، باستثناء بعض الأشجار والحدائق والحقول(**). يشتري سكان هذه المدينة سلعهم

(*) من الملاحظ أن الخشب المستعمل لبناء المراكب في السورات أكثر ثباتاً من غيره. ويقال إن المركب المذكور بقي صالحاً للإبحار ٩٦ سنة؛ وهو لا يزال يبحر بين السويس وجدة.

(**) شاهدنا بين القاهرة والسويس، زهرة جريشو التي تنمو في تلك المنطقة بكثرة. تستعملها النساء الشرقية للقيام بتجارب خرافية؛ وبالتالي فهي تباع في المدن. تضعها النساء الحوامل في الماء، ظناً منها أنها قد تلد دون أوجاع، خاصة إن تفتحت الوردة.

الغذائية الأساسية من مصر، على بعد ثلاثة أيام، أو من جبل سيناء على بعد خمسة أو ستة أيام أو من غزة، على بعد سبعة وثمانية أيام؛ الأسماك والأصداف فقط هي التي تكثر في هذه المدينة. علماً أنها تشكل الغذاء الأساسي للمسيحيين المقيمين فيها، خاصة زمن الصوم. تفتقر هذه المنطقة للمياه العذبة الصالحة للشرب؛ ذكرت لكم آنفاً أن مياه بئر السويس ملوثة، غير أنها الأقرب لمتناولهم؛ لذلك يقصد السكان بئر السويس يومياً ليوردوا جزءاً من القطيع، ويجلبوا المياه لما تبقى منه. والجدير ذكره أن مياه أفضل بئر من آبار موسى ملوثة أيضاً؛ زد على ذلك أنها بعيدة جداً عن البلدة وتقع على الضفة الأخرى للخليج. تستخرج المياه الصالحة للشرب في السويس من بئر نبا (Naba)؛ ويبلغ سعر جلد الماعز المليء بهذه المياه ٣ أو ٤ قطع نقدية من عملة لويك.

يقع البئر المذكور على بعد فرسخين شرقي البلدة على الضفة المقابلة للخليج.

خلال إقامتنا في السويس، كان يحكمها بيه أو سنجق من القاهرة؛ ورغم أن عدد أفراد حاشيته كبير جداً لم يكن العرب يولونه اهتماماً بالغاً. فإن استاؤوا من الحاكم التركي أو من سكان المدينة، توقفوا عن تزويدهم بالمياه، ومنعوهم من الوصول إلى الآبار التي أتيت على ذكرها آنفاً حتى لا يستخرجوا المياه منها بأنفسهم. ومن السهل عليهم تدمير المدينة برمتها، في الوقت الذي لا تعج فيه بالرحالة، خاصة إن كانوا لا يكترثون لجمع المال من نقل البضائع بين السويس والقاهرة على جمالهم ومن تزويد المدينة بالمياه. ولما تخلّف العرب الذين رافقونا إلى جبل سيناء عن الإيفاء بوعودهم رفضنا أن ندفع لهم المبلغ الذي طلبوه معرّضين أنفسنا لفظاظتهم. وفي كل مرة كنا نغادر فيها المدينة كانوا يهددوننا بقتلنا رمياً بالرصاص، إن التقوا بنا في الريف. وفي المقابل، عرضنا أمامهم أسلحتنا التي كانت تضاهي خناجرهم وحرابهم وبنادقهم قوة.

وهددنا أحد وجهاء هؤلاء العرب بمنعنا من استخراج مياه بئر بيا حتى نموت عطشاً إن تجرأنا على المرور بقربه. فرد السيد هافن على الشيخ قائلاً له إن الأوروبيين ليسوا من شاربي الماء، ويفضلون احتساء النبيذ وبالتالي فتهديده ليس في محله. أثار هذا الجواب غير المتوقع ضحك الأتراك والمسيحيين. بينما أحدث بلبلة كبيرة بين العرب وفي اليوم التالي تمنى علينا بعض المسلمين الكريمي النسب أن نتصالح مع العرب. في أسرع وقت ممكن. وقال لنا الحاكم إنهم هددوا بحرمان المدينة من المياه بغية الانتقام منا؛ ففضلنا أن ندفع لهم ما يطلبونه حتى لا تتفاقم الأمور أكثر.

وفور وصولنا إلى السويس سألنا اليونانيين الذين زاروا طور سيناء من قبل عن جبل المقطم المشهور في أوروبا؛ فأجابونا جميعاً أنهم لم يسمعوا أبداً بهذا الاسم. وأحضروا لنا شيخاً من قبيلة سعيد، يدعي أنه قضى حياته بين السويس وطور سيناء؛ وهو لم يسمع أبداً عن اسم الجبل المذكور. لكن بعد أن علم أننا سنمنح جائزة قيمة لمن يدلنا عليه، عاد في اليوم التالي برفقة شيخ من قبيلة صويلحة يزعم أنه يعرف جيداً

الجبل المذكور والمناطق الصحراوية التي تكثر فيها النقوش. لكن بعد أن طرحنا عليه بعض الأسئلة، اتضح لنا أنه لا يعرف المكان الذي نريد زيارته. وفي نهاية الأمر، أحضروا لنا شيخاً من قبيلة لغات، استطاع أن يقنعنا من خلال حديثه أنه رأى حجارة نقشت عليها أحرف غريبة. وبعد أن أدرك أن الجبل الذي يثير فضولنا هو جبل المقطم أطلق على جبله الاسم نفسه، بعد أن أكد لنا أن العرب الذي يعرفونه يطلقون عليه التسمية نفسها.

ولقد شعرنا بالارتياح بعد أن عثرنا على مواطن واحد من الصحراء قادر على إرشادنا على المكان الذي تكثر فيه النقوش القديمة. فأردنا أن ننطلق على الفور؛ لكن رسامنا السيد بورنفايند أصيب بألم في رأسه قبيل وصولنا إلى السويس زادت حدّته بعد بضعة أيام حتى أننا فقدنا الأمل في شفائه. بيد أنه كان علينا الذهاب إلى جبل المقطم والعودة منه إلى السويس، قبل انطلاق السفن الأولى، أي في غضون شهر؛ علماً أن الإبحار في أواخر أيلول/سبتمبر أو في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر، أكثر أماناً. فالسفر من السويس إلى جدة في شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر، محفوف بالمخاطر لأن الهواء الشمالي يهب في ذلك الوقت من السنة(*). ولما طال مرض الرسام، غادرنا السويس، تاركين برفقته الطبيب كرامير فضلاً عن السيد فورسكال، الذي ارتأى أن لا يترك صديقنا المريض وحده خاصة وأننا نستعين به لرسم نوادر الطبيعة. فقصدت جبل النقوش إذاً برفقة السيد دوهافن.

وكان الشيخ قد أخبرنا أن الجبل يقع قرب منزله؛ فحسبنا أنه علينا الاتفاق معه وحده ليأخذنا لمشاهدته. ولكن الشيوخ الآخرين الذين أحضروه إلينا، اعترضوا على ذلك وأيّدهم سكان السويس الرأي، بعد أن أكّد لنا معظم القبائل العربية، المقيمة بين السويس والعقبة والطور خاصة قبائل سعيد وصوالحة ولغات، تحتل الطريق المؤدي إلى جبل سيناء ؛ وعلينا بالتالي أن نأخذ غفيراً من القبائل الثلاثة حتى ننتقل بأمان في هذه المنطقة وقيل لي إن هذا الغفير ضروري للغاية في هذه البلاد، وإن البحارة المسلمين والذين يسافرون من السويس إلى جدة، والبحارة اليونانيين المقيمين في السويس يختارون حامياً مماثلاً لهم. ويقدمون لهم هدية صغيرة بعد انتهاء الرحلة على خير وإن غرقت إحدى السفن بين السويس ورأس محمد وأنقذت البضائع المحمّلة فيها، يحاول كل واحد الاستعلام عن غفيره؛ وغالباً ما نجد هذا الأخير بين العرب الذين يسارعون لنهب السفينة؛ وتعود البضائع إلى السويس أو إلى القاهرة، دون أن يعترض أي عربي غريب على ذلك. وإن تغيب الغفير توضع البضائع على حدة وترسم حولها دائرة على الرمل، ويحظر عليهم لمسها إلى أن يعلم الغفير بالأمر. لكن إن ارتأى أحد الرحالة عدم استخدام غفير لديه، تعرض حتماً للسلب مسيحياً كان أم مسلماً. ولا نجد بين المسافرين بحراً عدداً كبيراً من المرشدين العرب؛ إما لأنهم يطلبون هدايا ثمينة، لأن التجار الأتراك يرفضون توطيد صداقتهم بشيوخ العرب؛ لأن

(*) في زمن أريان، أبحرت السفن في أيلول/سبتمبر، مسافرة من مصر إلى باب المندب.

هذه الرحلات القصيرة ليست محفوفة بالمخاطر؛ فالعرب المقيمون بين الخليج العربي وجدة لا يكترثون إطلاقاً لأمر الغفراء بين رأس محمد والسويس. أما نحن فكنا بحاجة إليهم. اتفقنا مع شيوخ القبائل الثلاثة على الذهاب إلى جبل المقطّم وطور سيناء. فأجّرونا جمالاً لنا ولخدمنا، ومن بينهم اليهودي والبحار اليوناني الذي عمل كطباخ لنا خلال هذه الرحلة علماً أن طباخنا الأساسي بقي قرب صديقنا المريض.

شهد القاضي وحاكم السويس على الاتفاق الذي تمّ بيننا وبين العرب، وكان سنجق مصر هذا منفياً من القاهرة، كما سبق وذكرت، وهو يكنّ احتراماً كبيراً لأسرار العالم التي يدعي الشرقيون التنبؤ من خلالها بالمستقبل. فطلب مني الفحص في النقوش الغريبة، التي نتوقع العثور عليها في الصحراء لتحديد مدة نفيه. فأردت أن أشرح له رأي الأوروبيين في هذا النوع من التنبؤات؛ ولكنه أكّد لي أن عالماً مسلماً حدّد له موعد عودته، وهو يريد أن يطابق تكهنات نقوش الصحراء بهذه النبوءة. وأعترف بأنني لم أتوقع أن يؤمن هذا الرجل الرفيع المستوى بالخرافات إلى هذا الحد. ولكن مهمتي في هذه البلاد لا تقضي بتحرير الناس من هذه الآراء السخيفة؛ لذلك اعتذرت منه لأنني لم أكن ملماً بهذا العلم العظيم.

وفي السادس من أيلول/سبتمبر، عبرت والسيد دوهافن الخليج الغربي في زورق صغير؛ ونمنا في المساء التالي في الهواء الطلق على الضفة الشرقية للخليج المذكور قبالة السويس حيث اجتمع مرافقونا العرب الجدد. صباح السابع من أيلول/سبتمبر، بدأنا رحلتنا إلى جبل المقطم برفقة الشيوخ الثلاثة المذكورين آنفاً، وعدد من أصدقائهم وخدمهم الذين أوكلت إليهم مهمة نقل المياه من بئر نبا إلى السويس منذ فترة طويلة، ووجدوا هذه الفرصة مناسبة لزيارة أهلهم في الصحراء خاصة وأننا نتكفل بمصاريف الرحلة كلها. فحين يسافر رجل عربي كريم النسب، يؤمن الطعام لمرافقيه كلهم؛ ولما كنا ندفع أموالاً طائلة، لمشاهدة بعض النقوش القديمة في الصحراء ظنوا أننا غاية في الثراء. يمتد الطريق نحو الجهة الجنوبية ـ الشرقية؛ ليتحول بعدها نحو الجهة الجنوبية ـ جنوبية ـ شرقية، وصولاً إلى عيون موسى حيث حططنا الرحال، تحت أشجار النخيل. وتقع السويس في الجهة الشمالية الغربية على بعد ٣٠ درجة، والخليج الفارسي في الجهة الغربية على بعد نصف فرسخ ويبدو أن عرض الخليج في هذه البقعة يفوق عرضه في المنطقة الممتدة من السويس إلى جبل عتقة؛ وتكثر آبار المياه في هذا المكان على عمق قدم فحسب؛ كما وأن عيون موسى التي يبلغ عددها ٥ ليست أكثر عمقاً. وهي تمتلىء أولاً بالتراب والأوساخ كما وأن الرمال تمتص الكمية الأكبر من مياهها. وقال لنا العرب، إن مياه عين واحدة منها صالحة للشرب؛ أما ما تبقى منها فهو ملوث. ولما كانت تحمل اسم موسى ظن العرب أن أولاد إسرائيل عبروا الخليج الفارسي في هذه البقعة فحملت بالتالي هذه العيون اسم زعيم الشعب اليهودي. وتكثر في هذه البقعة الأصداف التي تدل على تراجع مياه البحر بشكل ملحوظ.

وبعد أن غادرنا عيون موسى، عبرنا سهول الطواريق ووردان والطي في الجهة الجنوبية ـ شرقية والجهة

الجنوبية ـ جنوبية ـ شرقية؛ يسمي العرب هذه السهول أودية، لأن المياه تتجمع فيها بعد هطول الأمطار بغزارة. وبعد أن قطعنا خمسة أميال حططنا الرحال في السهل الأخير، على الرمال وفي الليل هبت رياح قوية وحملت معها الرمال؛ والجدير ذكره أننا لم نشعر بانزعاج كبير منها رغم أننا كنا سنعاني أكثر لو واجهنا ظرفاً مماثلاً في أوروبا.

تُعد المنطقة التي عبرنا فيها الأكثر تميزاً في الشرق لأنها الطريق التي مر بها أولاد إسرائيل ورسمها لنا موسى. وحرصت على قياس الطريق الذي قطعناه، ودراسة كل ما يمكنه مساعدتي على تصحيح الخرائط وعلى توضيح بعض المقاطع في الكتاب المقدس. أما الصعوبة الأكبر فكانت تكمن في حفظ الأسماء الصحيحة للأودية والجبال لأن العرب حرصوا على إعطائنا أسماء خاطئة، بعد أن عجزوا عن فهم سبب فضولنا هذا. ولكنني نجحت في كسب ثقة عربي من جماعتنا سواء بتقديم الهدايا له أو بالسماح له بالركوب خلفي على الجمل؛ وكنت أستجوبه في طريق الذهاب والإياب علّه يعطيني الأسماء نفسها. لم يشأ رفيقي في الرحلة أن يوطد علاقاته بهؤلاء البدو الذين كانوا يعطونه تارة أجوبة خاطئة وطوراً غير سارة. استطعت تحديد وجهة الطريق بواسطة بوصلة صغيرة دون أن يلاحظ العرب الأمر أو يثير استياءهم؛ ورغم أن العلماء المسلمين يستعينون ببوصلة لوضع القبلة في جوامعهم، لا يحسن العرب البدو استعمالها بتاتاً. ولا يمكننا بالتالي الاعتماد على كافة الكتب التي تناولت وصف شبه الجزيرة العربية، وخاصة تلك التي تزعم أن القوافل كانت تحدد مسارها بواسطة البوصلات. ومما لا شك فيه أن سير القوافل منتظم للغاية. كنت أعد يومياً، عدد الأقدام التي أقطعها سيراً على الأقدام صبحاً ومساءً، وعند حر الظهيرة؛ فوجدت أنني كنت أقطع ١٥٨٠ قدماً في الحر، و١٦٢٠ في الطراوة؛ أي بمعدل ١٦٠٠ قدم في ظرف نصف ساعة إن كانت الطريق معبدة. وكان علي بالتالي أن أدرس وجهة هذه أو تلك المنطقة والوقت الذي تأخذه للوصول إليها. وانطلاقاً من هذه المبادىء، قست طول الطريق بالأقدام والأميال؛ فحسبت أن ١١٨٠ قدماً توازي ربع ميل. في وصفي لشبه الجزيرة العربية لم أذكر إلا القياس الأخير؛ ولما كنت أخشى الدخول في تفاصيل مملة لبعض القراء، أطلب منكم مراجعة اللوحة ٢٣ من وصف رحلتي حيث يمكنكم إلقاء نظرة على رحلتي إلى طور سيناء. وأذكركم أن الأماكن التي تحمل إشارة تضم ينابيع مياه.

لا تدخل خطوات الجمال ضمن حساباتي؛ ولكنني أعرتها اهتماماً خاصاً بغية إعطاء القراء فكرة عن سرعة سير هذه الدابة. تقطع جمال قافلتنا الصغيرة ١٤٠٠ قدم في ظرف نصف ساعة؛ والملاحظ أن خطوات الجمال ليست كلها متساوية. أما جمال الصحراء فهي الأسوأ بين كافة الجمال التي رأيتها خلال رحلتي.

انطلقنا في الثامن من أيلول/سبتمبر، قبل شروق الشمس، وعبرنا سهل عيزدان الواقع في الجهة

الجنوبية ـ الشرقية، وبعد أن قطعنا ثلاثة أميال بلغنا حجر الرقبة؛ وهو عبارة عن كتلة حجرية، وقعت من أعلى الصخرة واعتاد العرب على الاستراحة في جوارها وارتشاف القهوة. في منتصف الطريق تسلقت هضبة مرتفعة، لا تطل على الخليج العربي. وسلكنا بعدها الطريق الجنوبي ـ الشرقي ـ الجنوبي لنبلغ وادي غيرانديل على بعد ميل تقريباً (Girandel)؛ واتجهنا لاحقاً جنوباً ـ جنوباً ـ غرباً، لنصل إلى جبل حمام فرعون. قطعنا في ذلك النهار خمسة أميال ونصف الميل وكنا نبعد عن السويس عشرة أميال ونصف الميل. خلال فصل الشتاء تسيل المياه الغزيرة في هذا الوادي لتصب بعدها في الخليج العربي. بيد أنه كان جافاً في ذلك الوقت مع أننا عثرنا على ينبوع مياه عذبة؛ ولكننا اضطررنا للحفر في الرمال، على عمق قدم ونصف القدم أو على عمق قدمين، لأنها لم تمطر منذ فترة طويلة. ولما كانت المياه لا تنضب في هذا الوادي كثرت فيه الأشجار المثمرة التي يحبها المسافر من القاهرة. ذكرت في كتاب **«وصف شبه الجزيرة العربية»** ص ٣٤٨، أنها قد تكون أشجار إيليم (Elim) المذكورة في الكتاب المقدس(*). يقطن عدد كبير من العرب الرحل في هذه المنطقة علماً أنهم لا يحطون رحالهم قرب الطريق. لم أسمع أحداً يتحدث في هذه المنطقة عن جبل مراح، الذي أتى على ذكره الرحالة الآخرون؛ ولم أحاول الاستعلام من العرب المرافقين لنا عن أسماء الجبال والينابيع، بعد أن لاحظت أنهم يجيبون بالإيجاب على هذا النوع من الأسئلة، ويسارعون لإرشادنا إلى الأماكن التي يخالونها تحمل الأسماء المذكورة. والجدير ذكره أن الحجارة التي شاهدنا ذاك النهار، تبدو كلسية، مع أنها بيضاء ومصقولة.

وفي صباح التاسع من أيلول/سبتمبر أرسلنا خدمنا والمؤن إلى طور سيناء، لأدخل برفقة السيد دوهافن واثنين من الشيوخ وادي غيروندل؛ فسلكنا الطريق الجنوبي ـ الغربي، عبر غابة صغيرة، لنصل إلى حمام فرعون، بعد أن قطعنا ربع ميل.

يمتاز هذا الحمام، الواقع على ارتفاع ١٠ أقدام عن مستوى المياه بفتحتيه المحفورتين في الصخر، فضلاً عن بخار الكبريت والمياه اللذين يتصاعدان منه. ويقال إن المرضى يؤمون هذا الحمام حيث ينزلون في الفتحتين المذكورتين بواسطة الحبال فيستحمون ٤٠ يوماً في المياه الحارة؛ وخلال هذه الفترة لا يأكلون سوى فاكهة اللسفة (Lassafa) التي تكثر في هذه المنطقة. لا أعرف ما هي نتائج هذا العلاج غير أنني شاهدت مقبرة كبيرة في الجوار. قال لنا العرب أنفسهم الذين ادعوا من قبل أن أولاد إسرائيل عبروا البحر الأحمر قرب عيون موسى، إن ذلك حصل قرب وادي غيرانديل. فعلى حد قولهم يرقد الملك فرعون الذي قضى في البحر الأحمر، خلال مطاردته الإسرائيليين في الفوهة التي يتصاعد منها البخار والكبريت والمياه الحارة؛ ولهذا السبب لا يحمل الحمام وحده اسم هذا الأمير بل أيضاً جزءاً من الخليج العربي المعروف اليوم ببركة فرعون.

(*) ذكر السيد بريتنباخ الأمر نفسه، في وصفه للرحلة التي قام بها عام ١٤٨٣ من جبل سيناء إلى القاهرة.

إنه مما لا شك فيه أن الضفة الغربية للخليج العربي، بدءاً من السويس وصولاً إلى جبل حمام فرعون كلها أرض سوية، باستثناء بعض الهضاب الصغيرة التي نراها على الجهة الأخرى؛ أما الضفة الشرقية فهي جبال شاهقة يفصل فيما بينها واديان يقع الأول قبالة العطي والثاني قبالة غيرانديل. يظن بعض العلماء أن أبناء إسرائيل اجتازوا الوادي الأول؛ بينما يؤكد بعضهم الآخر أنهم اجتازوا الوادي الثاني، ليعبروا بعدها البحر الأحمر. ولقد ذكرت في وصفي لشبه الجزيرة العربية أن النظريتين غير صحيحتين؛ فرغم أن البحر الأحمر يبدو ضيقاً جداً شمالي بركة فرعون، إلا أنه واسع وعميق للغاية حتى يتمكن موسى عبوره مع الإسرائيليين.

ولقد كان أحد الشيوخ مستاء للغاية خلال الرحلة ولم يشأ إعطاءنا أجوبة مرضية فاصطحبه السيد دوهافن خلف أحد الجبال حتى أتمكن من قياس عرض البحر. فأسرعت لنصب الإسطرلاب وغرز حربة في الأرض وقياس طول القاعدة وتحديد الزوايا اللازمة، قبل أن يعود العربي ويأخذ الحربة. ومن خلال عملية القياس هذه التي ليست صحيحة تماماً، اتضح لي أن بركة فرعون المجاورة لحمام فرعون، تبعد خمسة أميال عن هذا الأخير. كانت القاعدة صغيرة جداً بالنسبة إلى هذه المسافة الكبيرة علماً أن الظروف لم تسمح لي باستعمال واحدة أكبر. وتجدون ملاحظاتي حول المد والجزر في هذا المكان ، في وصفي لشبه الجزيرة العربية، ولم يشأ العرب منحي المزيد من الوقت لدرس هذه الأمور بدقة؛ فأسرعوا للحاق بالقافلة، وكان علي أن أحذو حذوهم.

ثم مررنا في وادٍ ضيق وعميق حفر في الصخر بفعل الأمطار الغزيرة. وكنا نسلك تارة الطريق الشمالي وطوراً الشرقي أو الجنوبي أو الغربي؛ وضربنا الخيام في عصيتو (Usaite)، حيث كان الخدم ومرافقونا العرب في انتظارنا. يقع وادي عصيتو في الجهة الجنوبية ـ الشرقية على بعد ميل تقريباً من البقعة التي حططنا فيها رحالنا آخر مرة. مع حلول بعد الظهر قطعنا أميالاً جنوباً ونصف الميل شرقاً، حتى بلغنا جبل تعل (Tāl)، حيث وجدنا ينبوع مياه. وتابعنا طريقنا وقطعنا نصف ميل جنوباً وأربعة أميال شرقاً ونصف ميل غرباً لنحط بعدها الرحال في سهل الحمر قرب جبل العطي. وكان هذا المأوى يبعد عن المأوى السابق أربعة أميال وربع الميل وعن السويس أربعة عشر ميلاً ونصف.

وقبل ساعة من نصب الخيام اتجه بعض المسافرين شمالاً للحصول على الملح. كنا نرغب بمرافقتهم، بيد أننا اكتفينا بالاستعلام عن الجبل الذي يستخرج منه الملح، علماً أننا نعتمد كلياً على شيوخنا، الذين لم يسمحوا لنا بالقيام بجولات صغيرة. وتتميز الجبال الممتدة من السويس إلى الحمر بحجارتها الكلسية. وشاهدت شرقاً سلسلة جبال مغطاة بحجارة من البارود وبأصداف متحجرة تكثر اليوم في الخليج العربي؛ وإن ابتعدنا أكثر رأينا صخرة قاسية وسوداء وعروقاً من الغرانيت التي يزداد عددها مع اقترابنا من طور سيناء.

وفي العاشر من أيلول/سبتمبر ارتأى العرب رفع الخيام عند الساعة الخامسة صباحاً قبل شروق الشمس. فاعتمدت على النجوم لتحدد وجهة الطريق ووجدت أننا نتجه شرقاً ـ جنوباً ـ شرقاً. وبعد شروق الشمس، حططنا رحالنا في سهل ورسان، تحت صخرة صغيرة حفر عليها اليونانيون، الذين





يحجون إلى طور سيناء، أسماءهم. في طريق العودة أطلقت اسماً على هذه الصخرة نظراً لغرابتها (راجعوا اللوحة XLIII). نصبة هي مكان إقامة بعض العرب الرحل؛ أرسلنا خدمنا إليهم لطلب الماء، إلا أن غفيرنا من قبيلة لغات، أرسل هؤلاء الخدم لإعلام العرب بوصولنا، بغية زيارة أصدقائه؛ ولم نستطع مغادرة المكان إلا عند الواحدة ظهراً لأنه اضطر لارتشاف القهوة مع الجميع. كما وأن نهارنا لم يشهد أي أحداث مهمة، لأننا تحولنا عدة مرات عن الطريق الرئيسي وضربنا الخيام جنوباً قرب مقر إقامة شيخ بني لغات المجاور للجبل الذي يطلق عليه العرب اسم جبل المقطم. وكان هذا المكان يبعد ثلاثة أميال عن مأوانا الأخير وثماني عشرة ميلاً عن السويس.

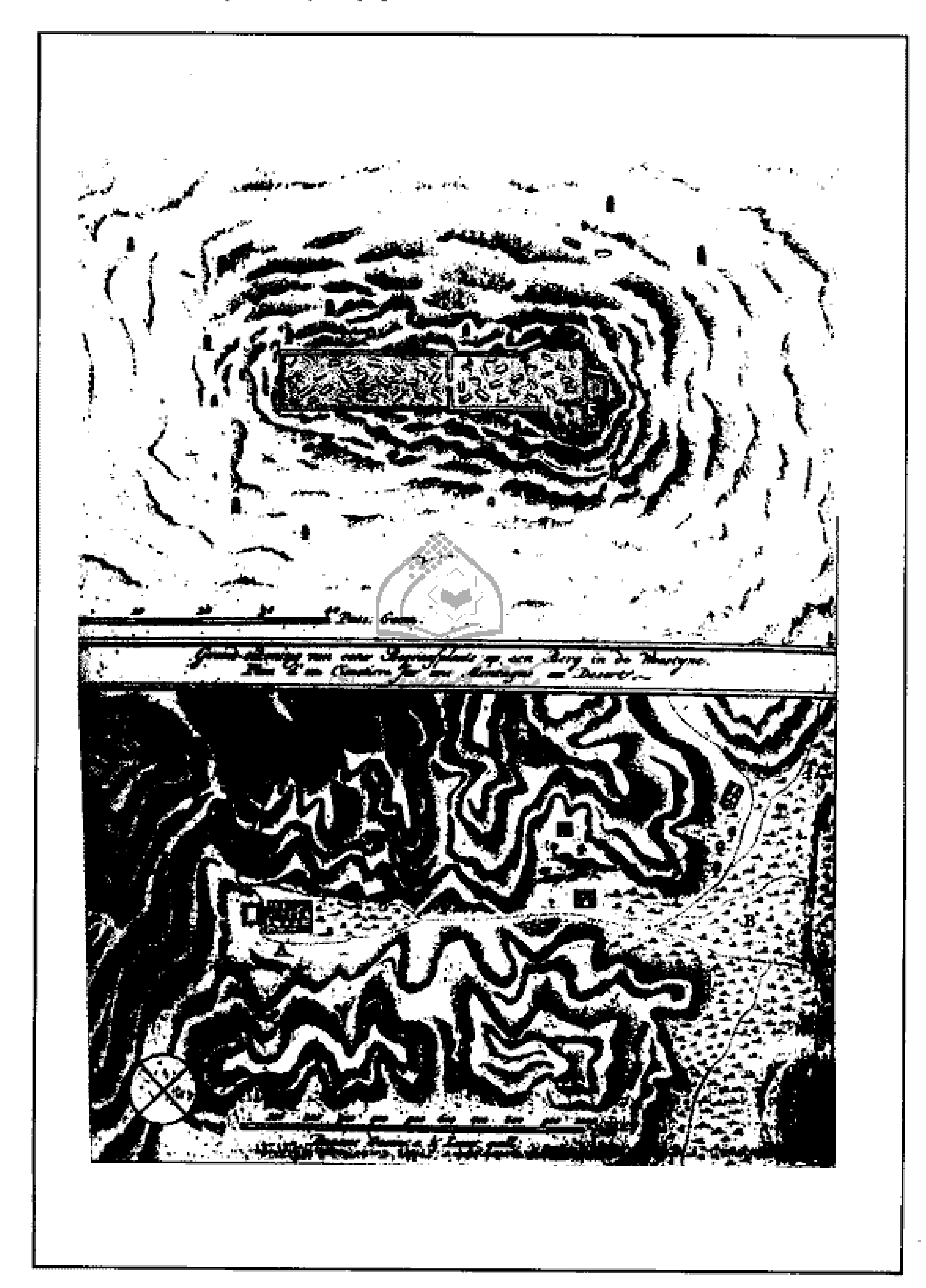
ولقد كنت في غاية السرور لأنني سأرى اليوم أخيراً النقوش الشهيرة التي تشكل موضوع رحلتنا في الصحراء حتى أنني كنت أخال الجبال مغطاة بها من جميع الجهات. لكن حديث العربي جعلني أظن أن رحلتنا كانت سدىً. قال لنا إن النقوش الوحيدة التي شاهدها تقع على قمة جبل شاهق ووعر لا يستطيع اصطحابنا لرؤيته إلا في الغد لأنه يتوقع زيارة صديق له؛ كما وأن عرب نصبة، يريدون تهنئتنا على عودتنا من الصحراء. فبدت لنا هذه الاحتفالات غير ملائمة في ذلك النهار، وغير متوقعة من البدو، ورغم أن العرب يعيشون في أماكن مختلفة، إلا أنهم غاية في التهذيب فحين يلتقي صديقان لم يتقابلا منذ فترة طويلة يتصافحان بشدة وتتلاصق خدودهما عدة مرات ولا يكفّان عن السؤال: كيف حالك؟ هل الأمور على ما يرام؟ وعند دخول الشيخ تقضي اللياقة بالوقوف له؛ بينما يصافح الأجنبي أفراد الجماعة كلهم ويقبلهم. يدعي بعض الأوروبيين الذين تكلموا عن عادات العرب أنهم يسألون بعضهم بعضاً: كيف حال جمالكم؟ ولما أراد السيد دو هافن أن يقوم باختبار صغير، قالوا له إن هذه الأسئلة لا تطرح للمجاملة(*). وبما أن العرب لا يصدرون الجرائد، لا تشكل السياسة محور كلامهم، خلافاً للأوروبيين؛ وبما أن حالة الجو عندهم أقل تقلباً من الجو عندنا، فهم لا يتناولونه أيضاً في أحاديثهم. وتدور أحاديث العرب البدو حول أعمالهم فإن حدث وسأل بدوي صديقه عن حال جماله أو حيواناته الأخرى، فهو يحذو حذو الفلاحين الأوروبيين الذين يسألون بعضهم عن القمح، والماشية وخلافه.

اجتمع حوالي ١٠ أو ١٢ شخصاً يحمل معظمهم لقب شيخ ويرتدون ثياباً أنيقة؛ فاستنتجت بالتالي أن هذا اللقب، يوازي لقب سيد في بلادنا. واستمتع الضيوف كلهم بارتشاف القهوة وتناول الطعام؛ وفي الليلة نفسها، ذُبح جدي والتُهم على الفور. وفي اليوم التالي ذُبح جديان آخران وبعد أن تناول شيخ قبيلة سعيد الطعام مع الشيخين الآخرين في بستان وادي فران، دعي الجميع للالتقاء عند عودتنا من طور سيناء، في مكان ما قرب الطريق، بغية ذبح جدي والتهامه.

(*) تاريخ بلاد البربر وقراصنتها، بيار دان، ص ٢٩٣؛ يسألون بعضهم البعض عن حال زوجاتهم وأولادهم، وأحصنتهم وبقراتهم، وثيرانهم وحتى دجاجاتهم؛ وهم لا ينسون الاستعلام عن صحة كلابهم وقططهم.

لا يختلف نمط حياة هؤلاء العرب عن نمط حياة العرب الرحل والأكراد والأتراك؛ فخيمهم مشابهة لخيم عرب مصر كما يبدو جلياً في لوحة نوردن رقم ٦٥. ترتكز الخيمة على سبع أو تسع عصي، ثلاث منها أعلى من سواها، والوسطى هي الأكثر ارتفاعاً. يتألف الفسطاط من قماش كتاني سميك أسود اللون، أو مقلم بالأبيض تحيكه نساء الصحراء بأنفسهن. تقسم الخيمة إلى جناحين أو ثلاثة واحد للنساء وآخر للرجال، وثالث للحيوانات، أما الذين لا يملكون ثمن خيمة فيضعون القماش على ٤ أو ٦ أوتاد، ليقيهم من الحرارة والأمطار؛ فالهواء العليل الذي ينسم تحت الأشجار ينعشهم ويمنحهم شعوراً لطيفاً في هذه البلاد الحارة. ويقتصر أثاث الخيم على الحصر التي تستعمل كطاولة ومقعد وسرير. ويحتفظ العرب بثيابهم في أكياس مغلقة موضوعة في شق القماش؛ كما وأن نقل الأدوات المطبخية سهل للغاية: فالأواني والصحون مصنوعة كلها من النحاس المبيّض، وبعد نصب الخيام، توضع الأواني على الحجارة أو في حفرة في الأرض ولا يستعملون الملاعق والشوك والسكاكين. وتحل رقعة جلدية مستديرة محل غطاء الطاولة، يحتفظون فيها ببقايا الطعام. أما الزبدة التي تذوب في البلاد الحارة، فتنقل في أوعية من الجلد. وأما المياه فتوضع في جلد الماعز لتسكب بعدها في طاسات من النحاس المبيّض من الداخل والخارج. ومن المؤكد أن سكان هذه البلاد لم يسمعوا بطواحين الهواء أو المياه؛ ولكنهم يطحنون القمح بواسطة مطحنة يدوية صغيرة. ولا نجد في الصحراء أفراناً للطهو؛ وبعد أن يعد العرب قالب حلوى مسطحاً يخبزونه على صفيحة معدنية مستديرة؛ وإن لم تتوافر هذه الصفيحة، أعدوا كبيسات من العجين ووضعوها فوق الجمر، وغطوها حتى تنضج جيداً. ويشكل الخبز الطازج غذاء الشرقيين الأساسي؛ فيتزودون بالتالي بكميات كبيرة من الطحين خلال تنقلهم في الصحراء.

ورغم أنه كانت تجتاحني رغبة شديدة في رؤية نموذج من تلك النقوش القديمة، لم أستطع إقناع أي عربي بمرافقتي في ذلك النهار. ولما كانت أرض غفيري غير محفوفة بالمخاطر جبت وحدي الوديان المجاورة وتسلقت الهضاب الوعرة. ولكنني عدت عند المساء منهكاً من دون أن أعثر على أي أثر للنقوش. وخلال نزهتي شاهدت خلف إحدى الهضاب خيمة صغيرة منعزلة أكبّت فيها زوجة الشيخ وأخته على طحن القمح وطهو الخبز. ولا تحرص نساء عامة الناس عند العرب على حجب وجوههن عند اقتراب رجل غريب منهنّ؛ خرجت إحداهن من الخيمة من دون أن تضع النقاب على وجهها وقدمت لي الصمغ وأظنها كانت تتوقع هدية في المقابل، لأنها قبلت المال الذي قدمته لها. وأعتقد أن العرب اعتادوا على تقديم الهدايا للأجانب. ولقد قابلت في مكان آخر ابن الشيخ قرب قطيع الماعز. وكان يعلم أن والده يرافقني في رحلتي بالصحراء. وبعد أن تحدثت إليه طويلاً، أعجبت بثقته بنفسه، التي ظهرت من خلال رده على أسئلتي. ورغم أنني لم أكن أحسن اللغة العربية جيداً، وأنه لم يتحدث من قبل مع رجل أجنبي لم يشعر أبداً بالخوف الذي ينتاب أولاد الفلاحين في وضع مماثل. ودعاني إلى منزله لشرب المياه العذبة. وكان ودوداً معي للغاية، حتى أنني لم أستطع رفض دعوته رغم أن الوقت كان متأخراً. ولقد لاحظت أن عرب هذه المنطقة يسمون خيمهم بالبيت أو الدار.



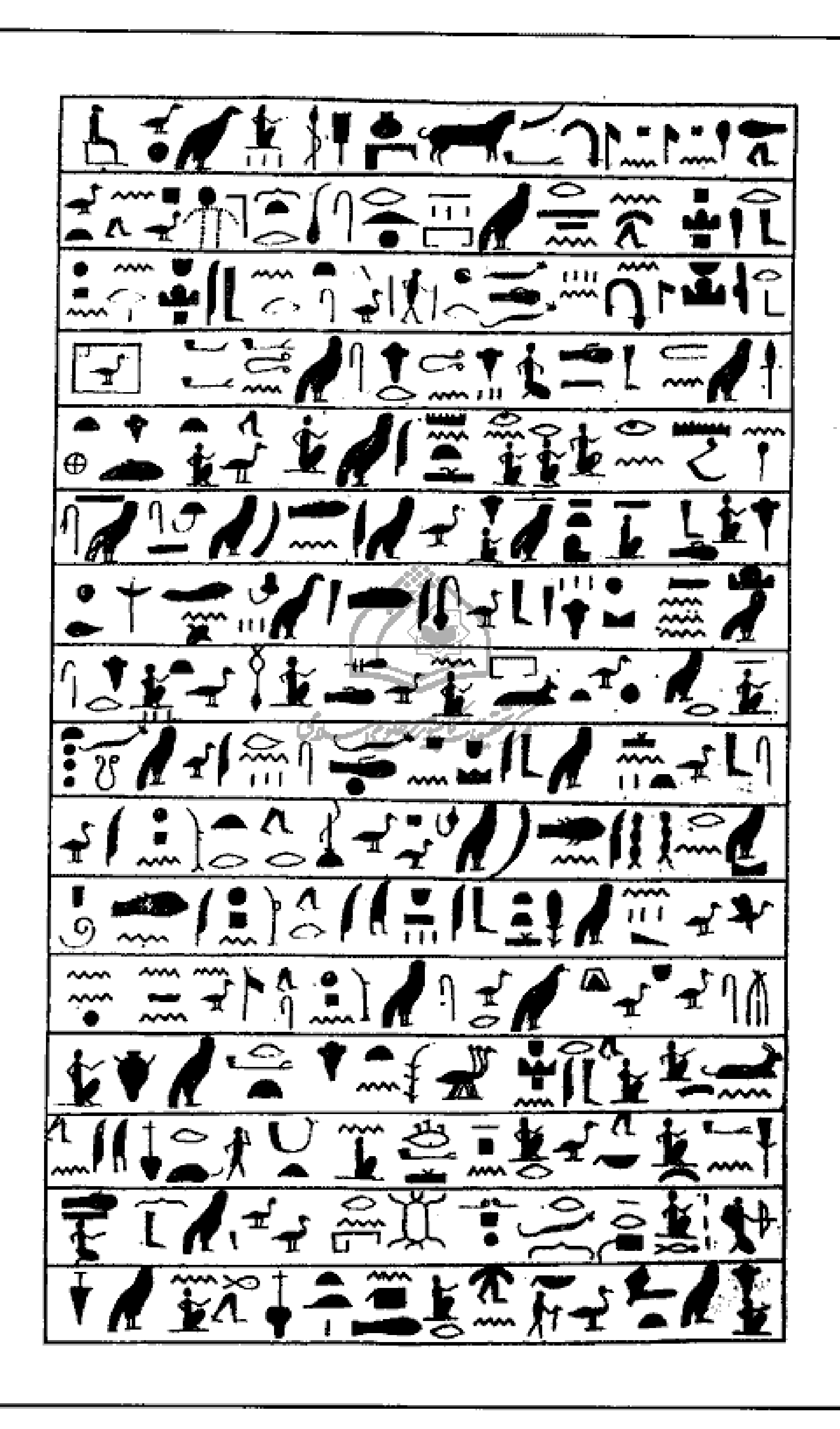
ركبت صباح ١١ أيلول/سبتمبر، والسيد دو هافن الجمال، وانطلقنا برفقة العرب المزودين بالأسلحة، باتجاه جبل المقطم المزعوم، وكان هذا الجبل شاهقاً ووعراً للغاية حتى أننا اضطررنا إلى ترك الجمال عند سفحه؛ وبعد أن سرنا ساعة ونصف تقريباً بلغنا القمة، فخلنا أننا سنعثر على النقوش محفورة في الصخر خاصة وأننا بذلنا عناءً كبيراً للوصول إلى تلك البقعة. وكم كانت دهشتنا عظيمة حين رأينا مقبرة مصرية في وسط الصحراء وعلى قمة جبل وعر؛ وأقول إنها مقبرة مصرية لأن الأوروبيين يطلقون عليها هذه التسمية، رغم أنهم لم يشاهدوا شيئاً مماثلاً في مصر، حيث دفن الزمن معظم الآثار القديمة في الرمل. وشاهدنا في هذه البقعة عدداً كبيراً من الحجارة التي يبلغ طولها خمس أو سبع أقدام وعرضها حوالي القدمين؛ وهي مغطاة برسوم هيروغليفية مصرية؛ وهذا الأمر جعلني أؤكد أنها حجارة ضريح. ونستطيع أن نرى في اللوحة (XLIV)، صورة صرح قديم، لم يتبق منه إلا أسواره؛ ويبدو أن داخله أكثر عمقاً من الأرض المحيطة به. يحوي هذا الصرح عدداً من الحجارة المغطاة بالصور الهيروغليفية. ونرى في الجهة العريضة منه غرفة صغيرة مدعومة بركيزة مربعة مغطاة أيضاً بالرسوم الهيروغليفية. ونجد أيضاً في هذا الصرح تماثيل نصفية تتلاءم مع أذواق المصريين القدامى، ونصباً قديمة تدل على فن الهندسة المعمارية، مشابهة لتلك التي رسمها نوردن في مصر العليا، وعموداً مربعاً له أربعة تيجان. واللافت للنظر أن هذه الآثار كلها من الحجارة الرقيقة الصلبة علماً أن النصب المصرية القديمة المغطاة بالرسوم الهيروغليفية مصنوعة كلها من الغرانيت الصلب.

ولقد سمح لنا العرب بفحص المكان كله وتدوين الملاحظات اللازمة. لكنني أردت نقل بعض هذه النقوش، حتى أتمكن من إثبات انتمائها للهيروغليفية المصرية عند عودتي إلى أوروبا واتضح أن العرب كانوا ينتظرون هذه اللحظة، إذ أسرعوا جميعاً لمنعي من نقل أي شيء من دون موافقة شيخ هذا الجبل. ولما كان الغفراء يعلمون أننا لم نأتِ لمشاهدة النقوش فحسب، بل نرغب بنقلها أيضاً، اتفقوا على العشاء أن يعطوا أحد أصدقائهم الشيوخ، لقب شيخ جبل المقطم، حتى يقبض منا مبلغاً من المال. وعند وصولنا إلى قمة الجبل، وجدناه في انتظارنا ولم يمنعنا من تفحص كل شيء بدقة. ولكنه قال إنه لن يسمح لنا بنقل النقوش عن الحجارة إلا مقابل مئة ريال، مدّعياً أنه لا يستطيع الموافقة على أن يضع الأجانب أيديهم على الكنوز المطمورة تحت التراب. ويظن هؤلاء العرب أن الأوروبيين والمغتربين أو عرب الغرب، قادرون على اكتشاف الكنوز المخبأة تحت الأرض، وعلى نقلها إلى بلادهم، للحصول على النقوش. ولكنني أعتقد أنهم يختلقون هذه الأعذار للحصول على المال؛ كما وأن العربي لن يتوانى عن المطالبة بحقه في الكنوز التي لا يأمل يوماً الحصول على جزء بسيط منها. وفي سبيل بلوغ هدفنا علينا إتقان لغتهم، وفهم طريقة تفكيرهم، ومعاملتهم بطريقة حسنة؛ وبعد أن يقروا بالكنوز المخبأة نحاول إقناعهم بخطئهم. اقترحوا علي عدة عروض حتى أعد شيخ الجبل بإعطائه ربع الكنز الذي سأعثر عليه وربعه الآخر للغفراء، في حال رفضت دفع مئة ريال للشيخ أو احتفظت بالكنز كله لنفسي. وبذلت قصارى جهدي لإعطائهم رداً

ملائماً. فرحت أهزأ من اقتراحاتهم، مؤكداً لهم أنني لا أعرف شيئاً عن الكنوز المدفونة، وأنني أريد نقل النقوش فحسب، وأنهم يستطيعون الاحتفاظ بالكنز لأنفسهم. وبعد أن لاحظت أنني لن أتمكن من العمل ذاك النهار، اتفقت سراً مع الغفير أن يحضرني وحدي إلى هذا المكان بعد عودتنا من طور سيناء وأن يمنحني الوقت اللازم لنقل النقوش، على أن أعطيه في المقابل أربعة ريالات. ولعل شيخ الجبل كان سيكتفي بهذا المبلغ؛ ولكنني لم أكن أرغب بإعطائه شيئاً حتى لا يذهب تسلق هذا الجبل الشاهق والوعر هباءً؛ وجلّ ما جنيته من هذه المسألة هو تكبد عناء تسلق هذا الجبل ثانية. وفي طريق العودة وفى الغفير بوعده، ونقلت أكبر عدد من الصور الهيروغليفية. (راجعوا اللوحتين (XLV وXLVI). ومما لا شك فيه أن هذه الصور هيروغليفية حقاً. لأننا شاهدنا معظمها على النصب القديمة في مصر. ولفت نظري في هذه المنطقة، التي تكثر فيها الماعز، بروز صورة هذه الحيوانات على كل الحجارة تقريباً؛ بينما تقع غالباً في مصر، على صور الأبقار محفورة على النصب التذكارية نظراً لكثرة الحيوانات القرنية في هذه المنطقة. ولئن أثارت هذه النصب التذكارية فضول الرحالة الآخرين، أتمنى عليهم أن يحفروا الأرض في هذه البقعة، علهم يعثرون على بقايا جثث قديمة. ومن الصعب أن يقنع أوروبي العرب بهذا الأمر، ولكن الخدم الشرقيين وخاصة إن كان الغفير شيخاً مستقيماً من بني لغات، قد ينجحون في إتمام هذه المهمة في المنطقة المجاورة للجبل.

إن جبل المقطم هذا، لا يشبه الجبل الذي وصفه رؤساء الأديرة الفرنسيسكانية في القاهرة؛ ولكن يبدو لي أكثر تميزاً، خاصة بعد أن تأكدنا من أن النقوش التي تكثر على الجبال ليست قديمة أو جميلة بل هي من فعل الرحالة السابقين؛ غير أن الرسوم الهيروغليفية التي أتحدث عنها، توازي رسوم مصر الهيروغليفية جمالاً. وهذا يثبت أن الفنون ازدهرت في هذه المنطقة التي كانت تحوي مدينة قديمة غنية بالثروات؛ ويقال إن بعض سكان مصر الذين لم يحنّطوا موتاهم، كانوا يقدسون هذه الصحراء وينقلون إليها جثث الموتى. ولقد لاحظت أن المياه ليست نادرة في الصحراء، كما وأن هذه المناطق الجبلية مأهولة بالسكان، خلافاً لما كان يظنه الرحالة؛ إذ يصطحبهم العرب دوماً إلى أماكن خالية من الخيم. ولعل هذه البلاد، كانت قديماً مكتظة بالسكان، وكانت تشهد عمليات تجارية برية مكثفة بين شبه الجزيرة العربية ومصر، ساهمت في ازدهار مدن هذه البلاد.

ثم ألا تقع في هذه المنطقة ضرائح الطمع (قبروت هتأوة)، المذكورة في سفر العدد الفصل ١١، أو جبل هور المذكور في سفر العدد الفصل ٣٣؟ وسواء كانت مقبرة للإسرائيليين أم لسكان هذه البلاد القدامى فهي تشكل موضوع دراسة للعلماء. إنه لم يكن محظراً على الإسرائيليين استعمال الرسوم الهيروغليفية أو صور الإنسان والحيوانات؛ ولكن لم يسمح لهم عبادتها. ولا يزال الإسرائيليون، حتى اليوم يحفرون صوراً ورسومات على ضرائحهم.



وعند نزولنا من الجبل المذكور، شاهدت حجراً مغطى ببعض الصور التي تسلى برسمها أحد الرعاة. (راجعوا اللوحة Le) ولكننا لا نتوقع أن يعطي السكان المقيمون في هذه المنطقة منذ ١٠٠ سنة أو أكثر نتاجاً أفضل.

تتطابق الأوصاف التي أعطيت لجبل آخر، يحمل اسم جبل المقطم ويقع في هذه المنطقة مع أوصاف الجبل الذي نبحث عنه؛ وتبين لنا أننا نحتاج إلى شهر على الأقل لنقل النقوش التي يزعم أنه مغطى بها؛ بيد أنه كان يلزمنا يوم واحد لإرضاء فضولنا حول هذا الموضوع. فقررنا متابعة طريقنا إلى جبل سيناء، علماً أن السفن لن تنطلق قريباً من السويس. فمررنا في ١٢ أيلول/سبتمبر، من الجهة الشمالية للجبل الذي قرأنا أوصافه. وبعد أن سرنا ساعتين، شاهدنا طور سيناء او جبل موسى في الجهة الجنوبية ـ الشرقية؛ بنيت في هذه البقعة، مقبرة للعرب، كانت تنقل إليها الجثث من أماكن بعيدة ومررنا بعد ذلك، بوادي شامل الذي تحدّه من الجهتين جبال صخرية فيها عروق من الغرانيت؛ مع حلول بعد الظهر، عبرنا وادي ديبور وبراك، حيث أخذنا قسطاً من الراحة قرب جبل طمعان. شاهدنا في هذا المكان مقبرتين مبنيتين من الحجارة المتراصة منذ عدة قرون. واحتجزنا في وقت لاحق احد الجبال، لنصل إلى وادي عصريت (Asraite)، حيث وجدنا ينبوع مياه عذبة. عند المساء، حططنا رحالنا في وادي الجن حيث عثرنا على ينبوع مياه لذيذة على بعد نصف ساعة منه. والجدير ذكره أننا قطعنا، بعد ظهر ذلك اليوم ميلين ونصف، وكنا نبعد ٢٣ أميلاً عن السويس.

قلما يهم العلماء مشاهدة الجبال والوديان ولكنني رسمت في طريق العودة منظر وادي عصريت، لأثبت لهم أننا نستمتع أحياناً بالمناظر الخلابة التي تقدمها لنا الصحراء. (راجعوا اللوحة XLIII). وصادفنا في هذا الوادي، امرأة عربية برفقة خادمها؛ ولكنها بدلت وجهة سيرها، وترجلت عن جملها، ومرت أمامنا سيراً على الأقدام، احتراماً للشيوخ الذين كانوا يرافقوننا(*). والتقينا بامرأة أخرى، محجبة كلياً في وادي الجني؛ فجلست على حافة الطريق، وأدارت لنا ظهرها حتى نستطيع المرور. وتذكرت في هذه المناسبة قصة ثمار. ولما لاحظ العرب جهلي التام لعاداتهم قالوا لي إنها أدارت لنا ظهرها احتراماً للأجانب، وأنه ما كان يجدر بي أبداً إلقاء التحية عليها.

يقع منزل غفير بني سعيد في وادي فران، بمحاذاة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء؛ وعند اقترابنا من تلك المنطقة ركب الغفير وحيد السنام، وتقدمنا جميعاً، ليلقي التحية على أهله فلحقنا به جميعاً، في ١٣ أيلول/سبتمبر، وعبرنا وادي عرتيم (Ertame)؛ وكانت هذه المنطقة تبعد ٢٤ ميلاً عن السويس. وانحرفنا عن الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، وسرنا شمالاً قرابة النصف ساعة، مروراً بجبل سيربال حيث مقر قبيلة شيخنا. نصب العرب خيمتنا قرب الأشجار وطلبوا منا أن نرتاح قليلاً بينما يذهبون للقاء أصدقائهم في حدائق البلح المحيطة بالمكان. علمت أن في هذه المنطقة بقايا مدينة قديمة، وشعرت برغبة شديدة برؤيتها؛

(*) أتيت على ذكر هذا الأمر في وصف رحلتي في شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن لاحظ العرب الأمر، تركوني من دون أن يزودوني بأية معلومات حول الموضوع. يتألف مخيم شيخنا من تسع أو عشر خيم تكثر حولها الماعز، والجمال والحمير والدجاج والكلاب.

بلغنا إذن وادي فران الشهير؛ ولم يتغير اسم هذه المنطقة منذ أيام موسى. قال لنا العرب إن هذا الوادي يمتد نحو الجهة الشرقية ـ الشمالية على بعد نصف نهار من البقعة التي خيمنا فيها ونحو الجهة الغربية ـ الجنوبية على بعد نهار من الخليج العربي. وتحد هذا الوادي جبال وعرة من الحجارة الكبيرة الممزوجة بالغرانيت والمبقعة بالأحمر والأسود. كان الوادي جافاً في ذلك الوقت؛ ولكن بعد هطول الأمطار بغزارة، تغمره مياه الجبال المجاورة، إلى حد أن العرب يضطرون لرفع خيمهم من عدة بقع والهرب إلى المرتفعات. شاهدنا جزءاً صغيراً من هذا الوادي، مكسواً ببساط أخضر؛ وأكد لنا العرب أنه تكثر في الجوار بساتين البلح التي تطعم عدداً كبيراً من الناس. كما وأن عرب هذه المنطقة وأولئك المقيمين غربي جبل موسى، ينقلون سنوياً إلى القاهرة والسويس كميات وافرة من البلح والعنب والتفاح والإجاص وغيرها من الفواكه. ويبيع العرب الآخرون في المدينتين المذكورتين الماعز والصمغ والفحم الخشبي ومسنات المطاحن اليدوية؛ وهم يشترون منها في المقابل المواد الغذائية والملابس التي يحملونها معهم إلى الصحراء.

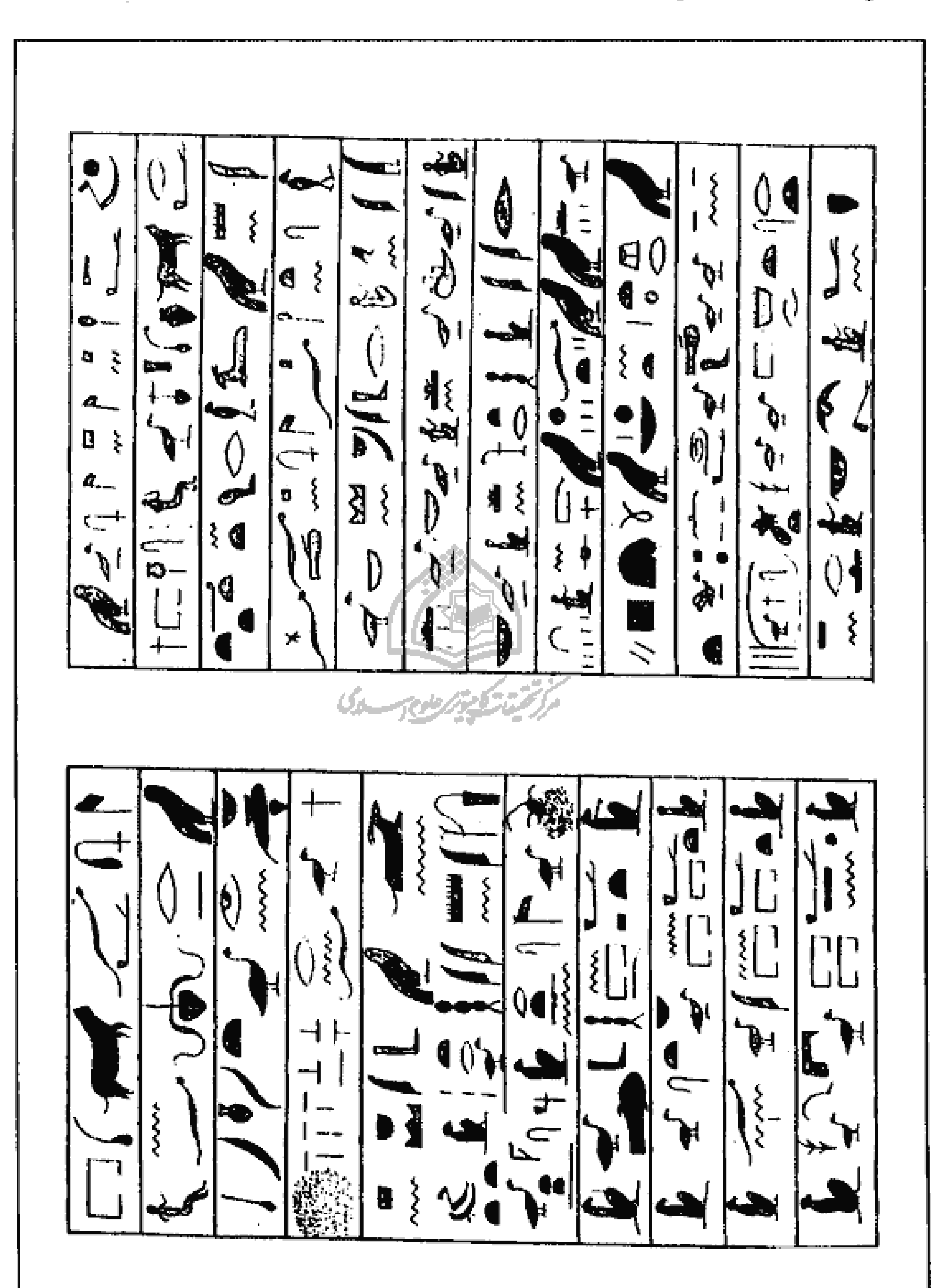
إننا نعلم جيداً أن العربي يستطيع أن يتزوج أربع نساء في آن واحد. لكن يكتفي معظمهم باتخاذ زوجة واحدة له، ويبقى مخلصاً لها طوال حياته، شرط أن تخضع لإرادة زوجها. كان شيخ بني سعيد متزوجاً من امرأتين، واحدة منهما تقيم قرب خيمتنا، وتراقب الخدم الذين يحرسون الماشية؛ أما الثانية فتقيم في مكان آخر، وتهتم ببستان البلح. تقوم إذن هاتان المرأتان بالأعمال المنزلية، حين يذهب الزوج لمقابلة أصدقائه أو حين يقصد السويس لجمع المال من نقل الماء، أو حين ينقل البضائع إلى السويس والقاهرة. وقامت سيدة المخيم الأولى، بزيارتنا بعد الظهر، برفقة أربع نساء عربيات أخريات، وقدمت لنا دجاجة وبيضاً، ورغم أنني أقمت فترة طويلة في البلاد الشرقية إلا أنها المرة الأولى التي أتحدث فيها مع امرأة مسلمة، باستثناء الراقصات في القاهرة. ولقد رفضت النساء العربيات الدخول إلى خيمتنا وفضلن الجلوس في الخارج، في الظل، حتى نتمكن من محادثتهنّ بسهولة. وكم أعجبن بالقانون الذي يحظر على المسيحي اتخاذ أكثر من زوجة له، من بين كل ما أخبرناهنّ عن العادات الأوروبية، وتذمرت زوجة شيخنا من ضرتها التي يحبها زوجها أكثر منها، رغم أنها الزوجة الأولى. وتركت لرفيقي في السفر حرية التحدث مع هذه السيدة، فأخبرته أن زوجها يقضي معظم أيام السنة متنقلاً بين السويس والقاهرة ويطلق على مصر اسم الريف، الذي ليس المقصود به مصر العليا والدلتا فحسب، كما ظن بعض العلماء. ولقد قال دون كافترو والأب لوبو إن مصر العليا تحمل الاسم نفسه. بينما كان السيد دو هافن مسترسلاً في الحديث مع هذه السيدة العربية، رحت أرسم لباسها، كما صورته على اللوحة (XLVIII)، ٤٨. تلفت هذه الملابس وخاصة أقراط الأذن وعقد الرقبة وأساور اليد والرجل انتباه العلماء، خاصة وأن الإسرائيليين أقاموا في هذه المنطقة، وأن الأزياء لم تتبدل كثيراً بين نساء العرب الرحل.

سأصف لكم ملابس عرب هذه المنطقة: فمن يمارس الأعمال التجارية في المدينة يتبع صيحات الموضة؛ فهم يعتمرون عمامة ويرتدون قمصاناً فضفاضة، وسراويل مريحة، تعلوها أثواب مريحة، تضم على الردفين بحزام عريض. ولفتت انتباهي أحذية هؤلاء العرب التي نراها في اللوحة (II)؛ فهي ليست مشغولة بمهارة، كما تشير إليه صور الرسامين الأوروبيين؛ بل مصنوعة من الجلد الخام. ولم أشاهد في هذه المنطقة العباءة التي يرتديها عرب شبه الجزيرة العربية، ويستبدل بها عرب مصر ثوباً كتانياً طويلاً، يلتفون به، كما هو ظاهر في اللوحة (XXIX). ويفتخر العربي بسرجه الذي نراه في اللوحة نفسها المصنوع من الحديد الثقيل؛ وهو يحمل دوماً على خصره خنجراً مستدق الرأس، يسمى الجمبة؛ كما وأنه يحمل أسلحة أخرى عند تنقله في الصحراء؛ ونذكر منها السيف الذي يتدلى في حزام جلدي يعقده حول كتفه الأيسر؛ إن كان العربي معتاداً على استعمال يده اليمنى،أما الأعسر منهم، فيضعه حول كتفهِ الأيمن. ويحمل العربي عادة بندقية لها فتيل واحد ويعلق جعبة الرصاص حول خصره. ورغم أن العرب يملكون أسلحة نارية. إلا أنه غالباً ما تنقصهم الذخيرة اللازمة لها. وهم يحملون دوماً الحراب، عند امتطائهم الجمال أو الأحصنة؛ ومن يفضّل منهم السير على الأقدام يحمل حراباً أقصر من الأخرى. ولم أشاهد لدى العرب أقواساً أو سهاماً أو نقافات.

استقبلنا في اليوم نفسه عدداً كبيراً من الرجال الذين أحضروا لنا بلحاً أصفر طازجاً. عاد الغفير عند المساء فانطلقنا صباح ١٤ أيلول/سبتمبر، وقطعنا نصف فرسخ من الطريق نفسها التي سلكناها سابقاً، وصولاً إلى جبل سيناء. وبعد أن اجتزنا جنوبي ـ شرقي وادي فران، بلغنا سفح جبل موسى. وبعد أن قطعنا ميلاً وربع الميل باتجاه الجنوب ـ الشرقي، عبر دروب وعرة، حططنا رحالنا مساء على بعد ٢٧ ميلاً عن السويس قرب صخرة قطرها ١٦ قدماً تقريباً. لاحظت أن الصخرة المذكورة مشقوقة في الوسط؛ ولكن العرب قالوا لنا إن موسى شقها بواسطة سيفه. تكثر على هذه الجبال ينابيع المياه العذبة المنعشة التي استمتعت بشربها أكثر من النبيذ؛ ولا داعي للعجب لأني لم أشرب مياهاً لذيذة إلى هذا الحد لا في مصر ولا في المناطق المجاورة للسويس.

ولقد شاهدت في ذلك النهار نقوشاً غريبة نقلت بعضاً منها في طريق العودة (راجعوا اللوحة (XLIX، أ، ب، ج، د). وتكثر على حافة الطريق الصخور الوعرة التي جوفت معظمها مياه الأمطار المتدفقة من أعلى.

وعند حلول الخامس عشر من أيلول/سبتمبر كان علينا قطع فرسخ وربع الفرسخ، نحو الجهة الجنوبية الغربية لجبل موسى وصولاً إلى دير القديسة كاترين. وأظن أن الدير المذكور يقع على بعد ٢٨ فرسخاً وربع الفرسخ من السويس راجعوا اللوحة (XLIV). وتتميز الأرض التي بني عليها الدير بانحدارها أي إنها أكثر ارتفاعاً من الجهة الجنوبية ـ الغربية منه من الجهة الشرقية، ويبلغ طول الدير ١٢٠ قدماً وعرضه ٥٥ قدماً وهو مبني من الحجارة المنحوتة، التي يتطلب العمل فيها مالاً وجهداً كبيرين. ونرى أمام هذا



الصرح صرحاً آخر، أصغر منه، وأقل منه جمالاً. ولا يملك الدير إلا بوابة واحدة مسورة؛ فترفع بواسطة حبل يمر في بكرة. نرى أمام الدير بستاناً مملوءاً بالأشجار المثمرة؛ ولقد أكد لي العرب أن الكهنة يستعملون سرداباً للدخول إلى الدير والخروج منه.

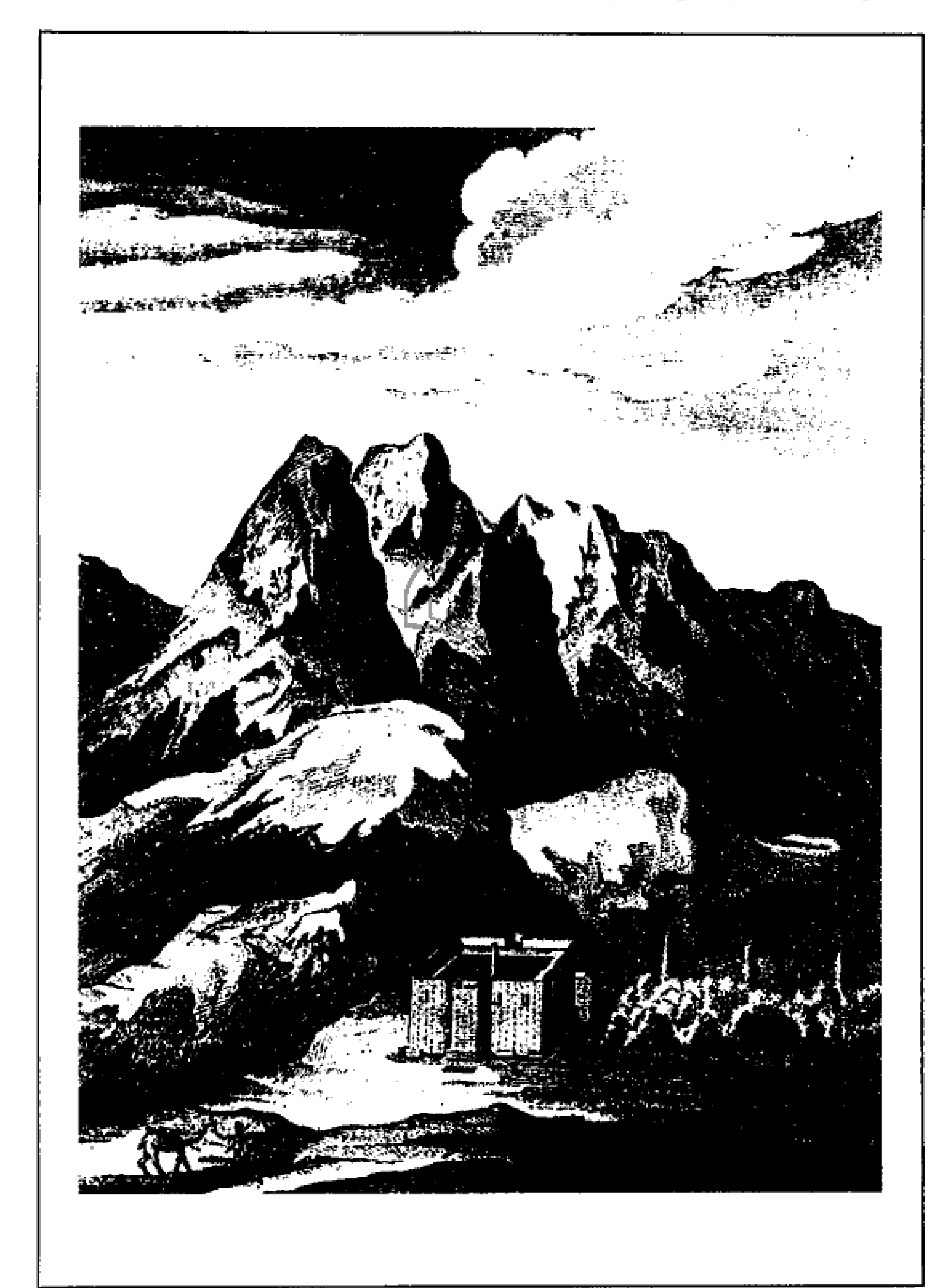
يحظر استقبال الغرباء في الدير أو الأوروبيين، إلا إذا كانوا يحملون رسالة من أسقف طور سيناء، المقيم في القاهرة. وعلمنا بالأمر في مصر، وحاولنا مقابلة الأسقف المذكور؛ ولكنه كان يقوم بزيارة القسطنطينية؛ فلم نستطع الحصول على رسالة من قبله لكهنة الدير. غير أن سفير إنكلترا في القسطنطينية سلمنا رسالة من البطريرك المعزول الذي أمضى أكثر من ثلاث سنوات في هذا الدير وعاد إليه منذ فترة قصيرة. ولم يخطر في بالنا أبداً أنهم لن يسمحوا لنا بالدخول بناء على توصيته. وانتظرنا وقتاً طويلاً قبل أن يرسل لنا الكهنة موفداً عنهم. ولما علم أننا أوروبيون، طلب منا رسالة الأسقف، فشرحنا له ما حصل وحاولنا أن نعرض عليه رسالة البطريرك المعزول. ولكن طلبوا منا الانتظار قليلاً قبل أن يقترحوا علينا إدخالها من خلال حفرة في السور.

في تلك الأثناء، تجمع العرب الذين رأوا من الجبال المجاورة، وصول أجانب إلى الدير. ويقال إنهم كانوا يطلقون النار على الدير من أعالي الجبال ويختطفون الزوّار عند خروجهم من الدير، ويطلبون فدية مقابل إطلاق سراحهم. كما وأنهم يطلبون مبلغاً محدداً من كل حاج يحمل الإذن بالدخول إلى الدير، وخلال زيارة الأسقف تبقى بوابة الدير مفتوحة، ويقدم الطعام لكافة العرب الذين يؤمون الدير خلال هذه الفترة؛ وهذا الأمر يكلف الكهنة أموالاً طائلة، خاصة وأنهم يعيشون من الصدقات؛ علماً أنهم يجلبون مؤنهم من مصر، وتتعرض قوافلهم للسلب في الطريق. وشاهدنا نموذجاً عن معاملة العرب للكهنة. واحتد واحد من الذين أتوا بدافع الفضول لمقابلة الأجانب لحث الكهنة على إعطائه خبزاً. ولما حاولت تهدئته نعتهم بالوحوش، لأنهم رفضوا إعطاء الخبز لكائن حي دق بابهم جائعاً.

خلال انتظارنا أمام بوابة الدير، اغتنمت الفرصة لرسم الصرح وجزء من الجبال التي يطلق اليونانيون على واحد منها اسم جبل سيناء راجعوا اللوحة (XLVIII). ورسمت لاحقاً الدير من زاوية أخرى، ومن على مسافة بعيدة (راجعوا اللوحة (XLVIII))(*).

وبعد أن درس الكهنة أمرنا مطولاً، أعيدت الرسالة دون أن تفض. واعتذروا عن استقبالنا في الدير، رغم أن الرسالة موجهة من البطريرك؛ فهم لا يستطيعون فضها، لأنها ليست مرفقة برسالة من الأسقف الذي يحق له وحده منح الإذن بالدخول. عدنا إذن أدراجنا حتى نحول دون تجمع المزيد من الناس حول

(*) نجد في كتاب نيتشه صورة لجبل سيناء، ولكنها تختلف تماماً عن صورتي. وأظنه أخذ رسمته عن اليونانيين دون أن يراها بنفسه، لأنني اشتريت في القاهرة صورة حفرها يوناني على الخشب. وتظهر فيها جبال سيناء وحريب والقديسة كاترين مصورة بالطريقة نفسها. ويبدو أن الكهنة اليونانيين لم يحظوا حتى اليوم على صورة أفضل لهذه المنطقة المميزة، رغم أنهم يقطنون فيها منذ عدة أجيال والتقيت في منزل اسقف جبل سيناء، رساماً اسبانياً، أتى من مانيلا إلى القاهرة بعد أن قطع بلاد الهند والخليج العربي واعتنق الديانة المسيحية في القاهرة. وكان يرسم المنظر نفسه بالألوان الزيفية ولوحته على قدر كبير من الجمال.





الدير، ونعرض الكهنة للإزعاج فأرسلوا لنا على الفور هدية عناقيد عنب مقطوفة من بستانهم؛ ومما لا شك فيه أنها كانت لذيذة، خاصة وأننا أمضينا وقتاً طويلاً في التنقل في أراضٍ قاحلة.

ولما تعذر علينا الدخول إلى الدير أردت تسلق جبل سيناء. وعلمنا أننا تقدمنا كثيراً في الصحراء. وكنت أتمنى أن يرافقني أشخاص يعرفون البلاد حق المعرفة حتى يعرضوا علي الأماكن المميزة فيها؛ ولما كنت محاطاً بمجموعة من العرب المنتمين إلى هذه المنطقة، كان علي أن أختار الشخص الملائم ليصطحبني اليوم بالذات إلى ذلك الجبل الشهير. ولكن عرض علي الغفراء اصطحابي في الغد، حتى أشبع فضولي. ولاحظ العرب الذين اجتمعوا حول قافلتنا أنني أنوي اختيار واحد منهم لمرافقتي إلى جبل سيناء؛ فتشاجروا حول هذا الموضوع مع الغفراء، ظناً منهم أنهم سيجنون بعض المال. ولكنني لم أكن أعرفهم جيداً، ولا أريد أن أتخاصم مع مرافقينا؛ لذلك فضلت الإذعان لمشيئة هؤلاء المرافقين.

وفي صباح السادس عشر من شهر أيلول/سبتمبر، أحضر لي الغفراء شيخ جبال سيناء؛ الذي انضم إلينا على مقربة من المكان. وقد وقع عليه الاختيار لمرافقتي إلى الجبل مقابل مكافأة جيدة. وفضلت عدم الاعتراض على ذلك، حتى لا أضيع المزيد من الوقت. فعدت إلى الدير مع الشيخ العتيد وأحد الغفراء. وفضل السيد دو هافن، الذي جرح رجله في السويس، وذاق الأمرين خلال تسلّق الجبال، حيث وجدنا نقوشاً غريبة، فضل العودة مع العرب الآخرين، مسافة ربع ساعة على طريق السويس لأن المكان الذي أمضينا فيه الليل، ليس آمناً على حد قول العرب.

قلت إن طور سيناء يقع جنوبي الدير؛ وهو وعر للغاية ولا يعقل أن يكون موسى قد تسلقه من هذه الجهة. ولكن اليونانيين، شقوا درجات في الأماكن الوعرة حتى يسهلوا على الناس تسلق الجبل. وعلى بعد مئة قدم من الدير شاهدنا ينبوع ماء لا ينضب أبداً؛ فهو مغطى بصخرة كبيرة تقيه أشعة الشمس ومياه الأمطار. تعلو هذا الينبوع كنيسة صغيرة ركع أمامها الشيخ والمرافق العربيين وراحا يصليان بورع؛ وعند دخولنا إليها قبلا صورة السيد المسيح والعذراء مريم، رغم أنهما مسلمان. ولعلهما رأيا الحجاج اليونانيين يفعلون ذلك فحذوا حذوهم إرضاءً لي وبذلت عناء كبيراً لإقناع العربيين بمتابعة الطريق. وبعد أن لاحظا إصراري على الذهاب وحدي، ارتأيا مرافقتي. فاجتزنا بوابتين صغيرتين، تؤديان إلى سهل واسع، فيه مصلى للمسلمين وكنيسة صغيرة لليونانيين. فصلى العربيان أمام الصور وقبلاها كلها بيد أنهما لم يعرفا لمن خصصت هاتان الكنيستان أو أنهما لم يشاءا إخباري بذلك. وكانا يصران على أننا بلغنا قمة جبل سيناء؛ غير أن السيد بوكوك يقول: إن هناك ٥٠٠ درجة من الدير إلى الينبوع المذكور آنفاً و١٠٠٠ درجة من الينبوع إلى كنيسة السيدة العذراء و٥٠٠ أخرى إلى السهل، حيث شاهدنا الكنيسة المبنية تكريماً للنبي إيليا. ويعد بوكوك ١٠٠٠ درجة أخرى لبلوغ قمة طور سيناء التي لم أصل إليها بعد. رأيت في السهل المذكور، شجرتين كبيرتين اعتاد العرب على ذبح المواشي تحتهما خلال الأعياد والتهامها على

حساب اليونانيين. وأثناء تسلق الجبل رأيت بعض النقوش العربية على الحجارة وخلتها أسماء فحسب؛ وكان جبل القديسة كاثرين يقع في الجهة الجنوبية ـ الغربية؛ أما من الطور، فكنا نشاهده في الجهة الشمالية ـ الشرقية. واستناداً إلى ملاحظاتي الفلكية تقع تور على خط العرض ٢٨° و١٢َ ، علماً أنها تبعد ستة أو سبعة أميال عن جبلي القديسة كاثرين وسيناء. وتقع حال وعقبة وعيلا في الجهة الشرقية ـ الجنوبية على بعد خمسة أو سبعة أيام من الطريق، وذلك استناداً إلى أقوال الشيوخ؛ ولكنني لا أستطيع الاعتماد على كلامهم لأنهم لم يقوموا بهذه الرحلة، من طور سيناء. ولقد أشرت في كتاب **«وصف شبه الجزيرة العربية»**، إلى أن خليج العقبة ليس بالعرض الذي كما يظهر فيه على الخرائط.

لم أستطع إقناع الشيخ والمرافق بمتابعة الطريق أو بمرافقتي إلى جبل القديسة كاثرين؛ فعدنا أدراجنا وانضممنا إلى القافلة. وفي ذلك النهار، غادرنا جبل موسى وضربنا الخيام في وادي فران.

استناداً إلى ما تقدم، لا يقع الجبل الذي يسميه اليونانيون جبل سيناء، في سهل شاسع كما يظن بعض الناس. كما وأن سيناء اليونانيين يختلف عن سيناء الحقيقي؛ لأن العرب يطلقون على سلسلة الجبال الممتدة من وادي فاران، إلى طور سيناء، حيث يقع الدير، اسم جبل موسى. ويظن العلماء الأوروبيون الذين عاينوا هذه المنطقة بدقة، أن موسى تلقى الشريعة فوق هذا الجبل. ولكننا لا نجد من هذه الجهة، قرب طور سيناء مكاناً ليحط فيه شعب إسرائيل ـ الكثير العدد ـ رحاله؛ ولعلنا نقع في الجهة الأخرى على سهول فسيحة أو أنهم ضربوا خيمهم قرب جبل موسى وبالتالي في وادي فاران.

وفي ١٧ أيلول/سبتمبر قطعنا ثلاثة فراسخ فحسب، أي إننا بلغنا مضرب خيام شيخ بني سعيد. تركنا الغفراء وحدنا ليقصدوا بساتين البلح في وادي فاران. وفي ذلك النهار انضم إلى قافلتنا شاب عربي ثمل يركب جملاً وحيد السنام. ولما علم أننا مسيحيون، امتحن صبرنا، وراح يسخر منا، كما سخر الأوروبي الثمل من اليهود. ويبدو أن العرب البدو يصنعون النبيذ بأنفسهم. وإنني أشكر السماء لأن محمداً حظّر على أتباع القرآن احتساء الكحول المركزة؛ ورغم أن المسلمين يثملون في المدن، فهم يخفون ذلك حتى لا يعاقبوا، أو لأنهم يخجلون من خرق القانون. ولا أذكر أنني شاهدت خلال رحلتي عربياً ثملاً وفظاً، باستثناء هذا الأخير.

ولقد عاد الغفراء مساء يوم ١٩ أيلول/سبتمبر، وتابعنا سيرنا في العشرين منه سالكين الطريق نفسه الذي أتينا منه صباح ٢١ منه. وسبقت الآخرين، لأتسلق مرة أخرى الجبل الشاهق، الذي أسماه العرب جبل المقطم، ولأنقل بعض النقوش كما أشرت سابقاً وانضممت بعد الظهر إلى القافلة قرب سهل وردان المذكور سابقاً.

وفي ٢٢ أيلول/سبتمبر اجتزنا نهاراً المنطقة التي عبرناها ليلاً في طريق الذهاب ولاحظت أن الصخور الوعرة المغطاة بالنقوش الغريبة، تحد الطريق من الجهتين؛ وأظنها مشابهة لتلك التي نقلتها من جبل المقطم.

فترجلت سريعاً عن وحيد السنام، لتفحصها عن كثب ونقلها؛ غير أن العرب اعتبروا ذلك مضيعة للوقت؛ فبذل السيد دو هافن جهده لإقناعهم بالانتظار قليلاً؛ فنقلت النقوش هـ، و، ز، ط، ي، ك، ل، م، ن، خلال هذا الوقت القصير (راجعوا اللوحات ش، أ XLIV). قال لنا تاجر يوناني في القاهرة، إنه على حافة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، نجد ممراً ضيقاً يعرف بأم الرجلين تكثر فيه النقوش المنحوتة على الصخر. لست أدري لماذا ادّعى العرب أنهم لا يعرفون اسم هذا المكان ولا سمعوا عن النقوش الموجودة فعلاً. والواقع أنه قلما أثارت هذه النقوش اهتمام الغفراء، وإلا لأطلقوا على أم الرجلين اسم جبل المقطم أيضاً أو على أي صخرة أخرى مغطاة بالنقوش؛ ولو فعلوا ذلك لما اكتشفنا المقبرة، المصرية القديمة، التي تحدثت عنها سابقاً.

وحين نشر أسقف كلوغر، كتاب «رحلة قس فرانسيسكاني من القاهرة إلى طور سيناء»، كان أول شخص يلفت انتباه العلماء إلى نقوش الصحراء ولكن نيتشه أتى على ذكرها في كتابه SiebenŸjohrige Weltbeschaug ص ١٤٥، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٧. كما نجد صوراً عدة في كتاب مونكونيس **«رحلات»** ص ٤٤٩، وفي مؤلف بوكوك (راجعوا اللوحتين ٥٤ و٥٥). استناداً إلى تقرير مدير دروس الآباء الفرانسيسكانيين، ولا أظن أن الجبال المغطاة بالنقوش التي شاهدها، تبعد كثيراً عن المكان الذي قصدناه. علاوة على ذلك لا أخالها مثيرة للاهتمام أكثر من تلك التي نقلتها أنا وبوكوك؛ كما وأنها لا تستحق أن يتكبد علماء أوروبا عناء فك رموزها؛ فهي لم تحفر يدوياً على الصخر بل بواسطة خنجر مستدق الرأس على السطح الخشبي منها. فضلاً عن أن خطوطها ليست متساوية ولا مستقيمة. ولا أظنها تدل على شيء باستثناء أسماء الرحالة الذي حذوا حذو اليونانيين الذين يحفرون أسماءهم على جبل سهل ورسان، المذكور آنفاً. والنصب التذكارية فقط هي التي تدل على الذرية وهي التي تثير اهتمامي؛ وأظن أن الحجارة القبرية التي عثرنا عليها على الجبل، كما أشرت سابقاً، والنقوش التي شاهدتها على صخرة برسيبوليس تنتمي إلى هذا النوع. فصخرة برسيبوليس تمتاز بصلابتها واستوائها، أما الخطوط التي تغطيها فهي مستقيمة، وحروفها واضحة.

ونقل السيد دوناتي، النقوش س، من الصحراء وأعطى نسخة عنها لأسقف طور سيناء. وخطر لي أن أدرجها في هذا الفصل، لأن حروفها تختلف عن تلك التي عثرت عليها في هذه المنطقة ولأنه لم تسنح لهذا العالم الإيطالي فرصة العودة إلى أوروبا، وقد لا تطبع أوراقه أبداً.

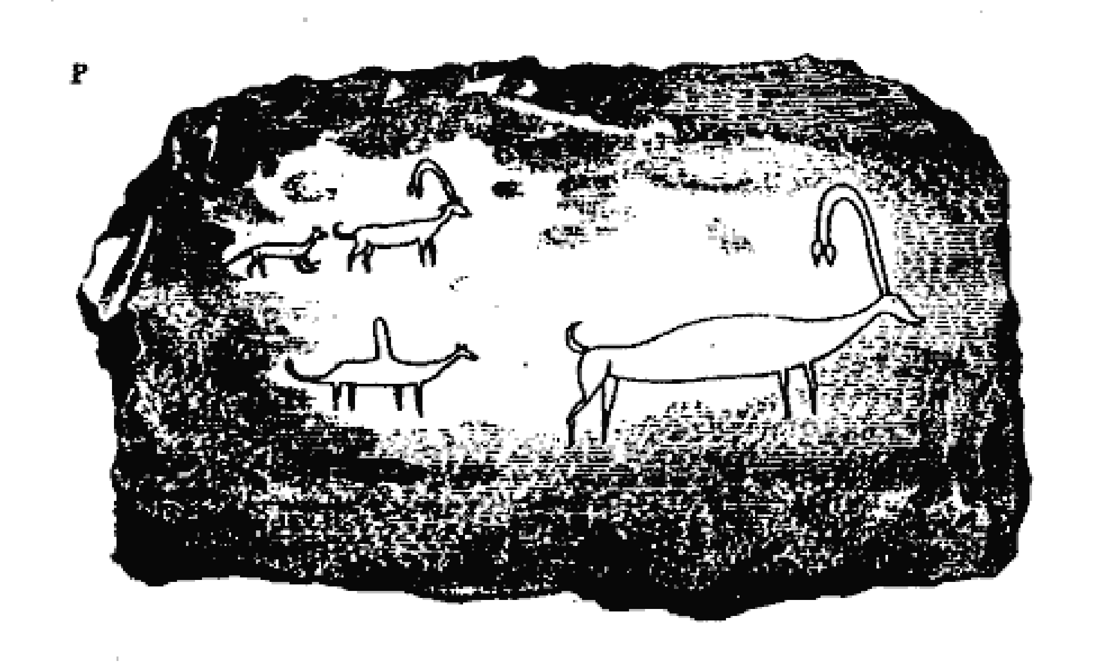
وفي سبيل قياس عرض الخليج العربي ابتعدت في ٢٤ أيلول/سبتمبر عن القافلة، حوالي ٥ أميال جنوبي السويس، باتجاه سهل العطي أو الطواريق، كما يقول العرب. واستناداً لملاحظاتي وحساباتي، كانت تبعد حوالي ثلاثة أميال. ولكنني لم أستطع هذه المرة أيضاً بناء قاعدة طويلة لأقيس العرض بدقة. وفي ٢٥ منه عدنا إلى السويس، ووجدنا أن السيد بورانفيد قد تماثل للشفاء. وأكد لنا الغفراء أننا قد

F



O

P



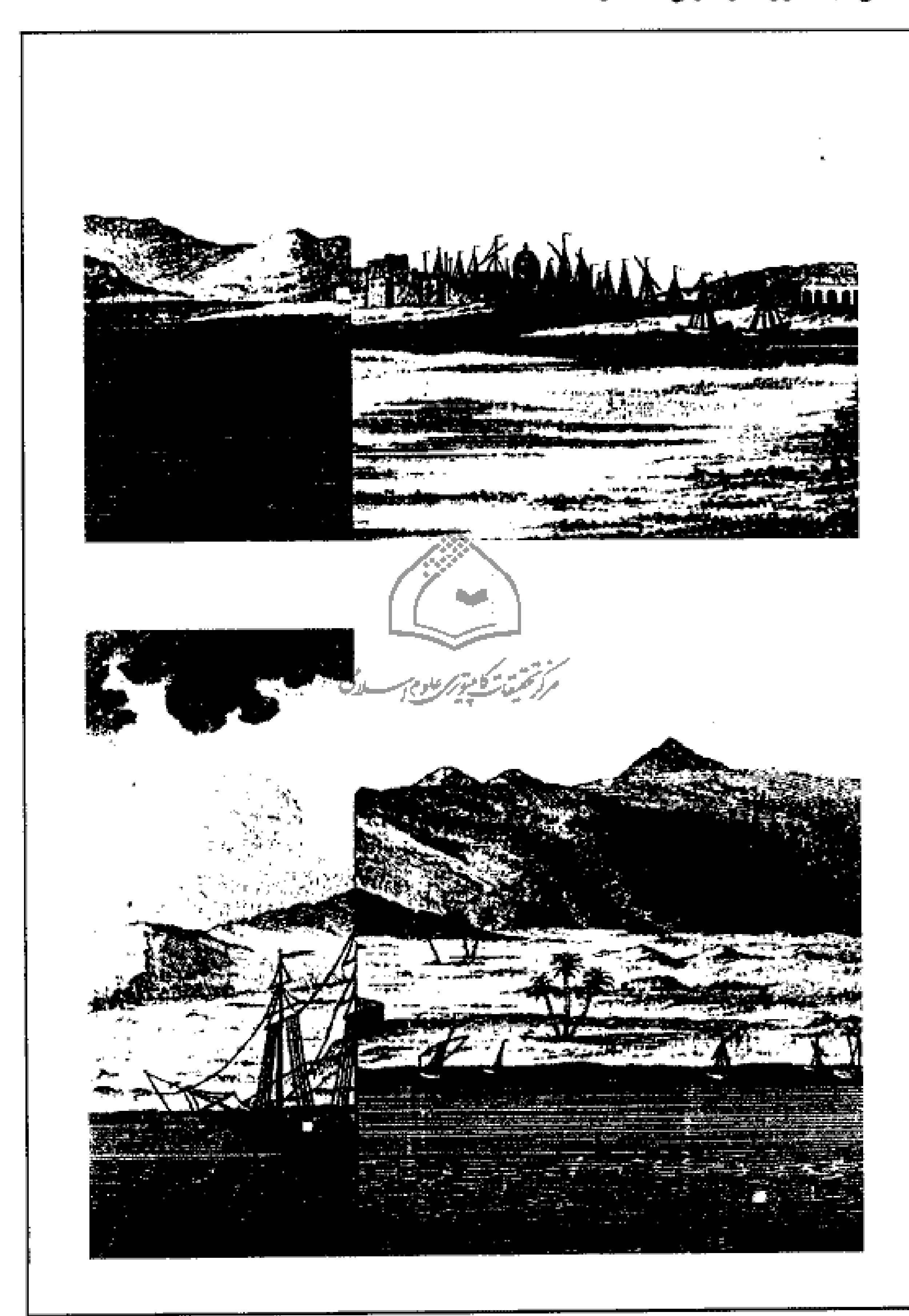
نضطر لحط رحالنا بضع ساعات قبالة المدينة، نظراً لحركات مياه البحر، إلا إن كنا نفضل أن ندور حول الخليج أو اجتيازه في زوارق صغيرة. وعند وصولنا، لم يكن منسوب المياه قد ارتفع كثيراً، فعبرنا ساعد النيل الشمالي وبلغنا أنقاض كلثوم الواقعة غربي الخليج.

لا أذكر أنني قرأت يوماً أن أوروبياً اجتاز البحر الأحمر قرب السويس مشياً على الأقدام. ولعل منسوب المياه كان مرتفعاً عند عودتنا من طور سيناء، فارتأوا اجتياز الخليج في الزوارق بدلاً من البقاء في الصحراء. فعند ارتفاع منسوب المياه، تكثر الزوارق الصغيرة، التي يسارع أصحابها إلى الضفة عند مشاهدتهم الرحالة العائدين من جبل سيناء، أو العرب الذين ينقلون المياه من بئر نبا. غير أننا لم نشاهد أي زورق على الضفة الشرقية للخليج، عند وصولنا(*).

ولقد قست قرب السويس عرض الخليج بدقة بالغة؛ فوضعت الإسطرلاب على الضفة الشرقية للبحر؛ وكان عرض القاعدة يبلغ ٨٣ قدماً مزدوجة؛ ووجدت أن الزاوية بين قاعدتي والطرف الجنوبي ـ الشرقي للمدينة تبلغ ٧٦°، ٥َ ؛ ويمكننا الاستنتاج بالتالي أن عرض ساعد البحر الأحمر يبلغ ٧٥٧ قدماً مزدوجة أو ٣٤٥٠ قدماً. يغطي المد الجزر المجاورة للسويس؛ أما بعضها الآخر فمرتفع جداً عن سطح المياه حتى أننا نستطيع مشاهدتها خلال المد العالي.

ومما لا شك فيه أن عبور الإسرائيليين من هذا المكان، زاده شهرة؛ وكان علي بالتالي أن أرسمه بدقة متناهية. غير أنني وضعت هذه اللوحات في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، ولم أشأ إعادة نشرها من جديد. وتمثل اللوحة ٢٠ في هذا الكتاب رحلتنا من القاهرة إلى السويس، واللوحة ٣٣ رحلتنا إلى جبل سيناء، واللوحة ٣٤، رسم طرف الخليج العربي، ومدينة السويس. رسمت اللوحتين الأوليين، بناء على الملاحظات التي دونتها خلال رحلتي مع القافلة. ولكني اضطررت للمخاطرة والابتعاد وحدي عن المدينة، بغية رسم اللوحة الأخيرة؛ وكانت مخاطرة فإن صادفنا في هذه المنطقة عرباً رحلاً، تعرضنا للسطو، أكثر من احتمال ذلك في الصحراء. إذ لم يتجرأ أي عربي على مرافقتي في هذه النزهة، باستثناء شاب شجاع؛ فغادرنا السويس سالكين الخط؛ كما ورد في اللوحة ٣٤، واتجهنا غرباً على طول الضفة، بغية الوصول إلى سفح جبل عتقة؛ لكنني وجدت الدرب طويلة جداً؛ فاتجهت شمالاً نحو بئر السويس، لنعود بعدها إلى البلدة. وخرجنا من السويس في اليوم التالي، ودرنا حول طرف الخليج، وعدنا إلى البلدة في القارب برفقة العرب المحملين بمياه بئر نبا. وما إن شاهد مرافقي العرب من بعيد حتى راح يرتجف

(*) يتحدث كريستوفر فورير عن هذا المكان في وصف سير رحلاته، ص. ٤١ ـ ٧٤. لكن وصف بيترو ديلا فالي له أقرب إلى الواقع؛ فهو يقول بلغنا بقعة يسميها العرب موية، تكثر فيها القوارب التي تنقل أولئك الذين يريدون الذهاب إلى السويس الواقعة على الطرف الآخر للبحر، على الضفة الشرقية؛ أما الذي يفضل الانتقال براً، فعليه أن يدور حول الخليج؛ ولكن البحر ضيق جداً في هذه البقعة، فصعدت إلى القارب برفقة أصدقائي وعبرت البحر بشكل يختلف عن عبور العبريين له. بينما ذهبت الجمال براً.



خوفاً؛ غير أن من حسبناهم أعداء كانوا يخافون منا أيضاً؛ وكان أحد رجال العرب الذين رأيناهم من بعيد يمتطي جمله، ويتأرجح في الهواء؛ فخلته في البداية شبحاً غريباً؛ ولكن اتضح لي لاحقاً أنه تأثير انكسار الأشعة فحسب. وخلاصة الكلام قمت بالدراسات اللازمة لوضع خارطة طرف الخليج الغربي؛ وأظن أنني استطعت معاينة هذه المنطقة أكثر من أي أوروبي آخر. وتجدون في اللوحة (LI) منظراً عاماً لمدينة السويس، كما رسمه السيد بورانفيد.

ولقد بدا لي ساعد الخليج المجاور للسويس ضيقاً للغاية حتى يطوي في جوفه الفرعون وجيشه؛ كما وأنه لم يخطر في بالي خلال إقامتي في السويس أن الإسرائيليين قد عبروا البحر الأحمر قرب كلثوم؛ وذلك لأنني لم أحدد الساعة التي عبرنا فيها البحر في هذه النقطة، خلال عودتنا من جبل سيناء. ولكن بعد أن عاينت الخرائط التي رسمتها لهذه المنطقة، وقرأت كتب المؤلفين الآخرين الذين تحدثوا عن هذه الحادثة، تأكدت من أن الإسرائيليين عبروا من هنا، كما سبق لي أن أشرت في كتاب **«وصف شبه الجزيرة العربية»**. وأتمنى على الرحالة اللاحقين أن يعاينوا أنقاض كلثوم بدقة أكبر.

ولم أستطع جمع معلومات وافية عن القناة المتصلة بالنيل، وتلك التي تصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج العربي؛ كما وأنني لم أنجح في إقناع العرب بمرافقتي في نزهة في الجوار، إذ زعموا أن أعداءهم يقطنون في هذه البقعة. ولم أشاهد في المناطق المجاورة للسويس إلا وادي مصيحة، الواقع بين بئر السويس والمدينة. فبعد هطول الأمطار بغزارة تتجمع المياه في الوادي بكثرة فينقل السكان بعضاً منها؛ وبعد أن تجف ينبت العشب مكانها.



الرحلة من السويس إلى جدة

خلال رحلتنا إلى طور سيناء، وصلت إلى السويس قوافل عديدة صغيرة، فمعظم التجار والحجاج الذين يريدون الذهاب إلى جدة بحراً، لا يغادرون القاهرة إلا قبل إبحار السفن بقليل ويشكّلون قافلة كبيرة. ووصلت هذه القافلة في ٢٩ أيلول/سبتمبر، وأصبحت مدينة السويس فجأة أكثر ازدحاماً من القاهرة مقارنة مع حجمها. وإن لم نسمع بقراصنة في الخليج العربي. يفضّل السفر ضمن قوافل، وكان ينبغي أن تبحر أربع سفن في آن واحد، ربما كي تعظم القوافل الآتية من القاهرة إلى السويس فتتمكن من مواجهة العرب، وربما خوفاً من البدو في محيط طور الذين نهبوا مركباً رسا وحيداً في المرفأ، كما ذكرت آنفاً.

لكن المسافرين كلهم حجزوا أماكن معينة لهم على المراكب، وكان بعض تجار القاهرة قد زودونا برسائل توصية لريّسين، فتفحصنا مركبيهما، وحجزنا لنا وحدنا الغرفة العليا في المركب الأكبر، كي نتبعد عن المسلمين حين نود البقاء في معزل عنهم. وبالرغم من أننا سافرنا من قبل مع مسلمين بحراً وبراً، وبالتالي اعتدنا عليهم، لم نشعر قط بخوف كخوفنا من هذه الرحلة بين السويس وجدة، لأننا كنا لا نزال نعتقد أن المسلمين يعتبرون المسيحيين غير جديرين بالقيام بهذه الرحلة التي يعتبرونها مقدسة. وأكد لنا اليونان أننا سنُمنع من انتعال الأحذية على المركب للسبب نفسه، وهذا بالفعل ما تمّ إعلامنا به ما إن غادرنا غرفتنا. ولا أظن أن السبب يعود إلى أن المسلمين يعتبرون الرحلة مقدسة بل لأنهم ينظرون إلى سطح السفينة كله كشقة لذا يخلع الجميع حذاءه. ونجد على المركب العديد من الحجاج البسطاء الذين ينظرون شزراً إلى المسيحيين، شأنهم في ذلك شأن راهب من الفرنسيسكان يصادف في طريقه إلى القدس ملحدين أو مشككين. وحين لاحظ بعض المسلمين خوفنا، استفادوا من الوضع على حسابنا، كما يفعل المسيحيون مع اليهود، وهم يعلمون أن هؤلاء لن يتجرؤوا على الرد، ونادراً ما يدافع عنهم العقلاء من المسيحيين، طالما أن الأمر لا يتعدى السخرية. إذاً، لم نكن مرتاحين خلال الرحلة، لكن لحسن الحظ كان لدينا غرفتنا الخاصة التي لا يدخلها أحد من دون إذننا، واستطعت أن أقوم فيها بدراساتي الفلكية من دون أن أتعرض للإزعاج. وبالرغم من أن وجهتنا هي الجنوب، كنا نبحر معظم الوقت نحو الشرق إذ تمكنت من رؤية الشمس في الهاجرة بسهولة من على متن السفينة، وعندما ترسو كانت مؤخرة السفينة تتجه نحو الجنوب بسبب الرياح الشمالية المستمرة.

ولقد كانت سفينتنا محمّلة للغاية، وكان هناك في الغرفة السفلى والأكبر من غرفتنا ما يفوق الأربعين امرأة وجارية مع أولادهن. وأقام قبالة غرفتنا خصي أسود ثري، كان متجهاً إلى المدينة، وكان يملك كالأسياد الأتراك حريمه الخاص. وأحاط كل تاجر المكان الذي حجزه على ظهر السفينة بالصناديق والطرود، فلم يبقَ له سوى مكان ضيق يغلي فيه قهوته ويحضّر نرجيلته، وينام فيه. ولم يكن سطح

السفينة محملاً بالأشخاص والبضائع فقط، إنما علّق العديد من الطرود الخفيفة على جوانب السفينة الخارجية. ولا تقوم هذه السفن إلا برحلة واحدة سنوياً بين السويس وجدة، لذا أظهر البحارة عدم مهارة، وافتقروا إلى المساحة اللازمة للعمل، فعندما ينبغي طوي الأشرعة، كانوا ينزلون السارية، وكان البحّارة، وهم بغالبيتهم من اليونان، يضطرون أحياناً إلى الدوس على بضائع التجار، فتنشب الخلافات بين الطرفين. ولقد كان ريس سفينتنا، ـ ويدعى شريب (Schoreibe) ـ تاجراً من القاهرة، وغير خبير بقيادة السفن لذا أوكل الأمر لربانيه اللذين بقيا على مقدمة السفينة للتنبه بنفسهما للصخور الناتئة في المحيط. وأظن أنهما أكثر مهارة وانتباهاً من الربابنة الأوروبيين الذين يبحرون دوماً في عرض البحر، لأنهما تمكنا من الانتقال من السويس إلى جدة قرابة الشاطىء وعبر الأرصفة البحرية المتعددة. أما مراكب الإنقاذ فغير موضوعة على سطح السفينة كما في أوروبا بل معلقة وراءها، وكان مركبنا الذي يتسع لأربعين أو خمسة وأربعين مدفعاً، يحمل أربعة مراكب، يرفع أكبرها شراعاً. أما المراكب الباقية فتجرها السفينة، ونجد فيها كلها باستثناء أصغرها، مسافرين وجياداً وخرافاً، ونساء من العامة يقصدن مكة لنيل لقب حاجة أو للبحث عن الثروة خلال الرحلة. ولحسن الحظ، يهب الهواء باستمرار على الخليج العربي، وإلا لما أبحر فيه أحد، بعد كل ما ذكرته.

ولو أننا أبحرنا على متن مركب أوروبي، لما اضطررنا إلى الصعود إليه أولاً، لكن بما أننا كنا نعرف أن سطح سفينتنا كان سيمتلىء بالصناديق والطرود، ركبنا في ٥ تشرين الأول/أكتوبر، كي لا نحتك بالمسلمين الذين سنمر أمامهم محملين بمتاعنا. وكنا قد دفعنا كلفة السفر من السويس إلى جدة سلفاً، ما إن اتفقنا مع قائد السفينة، كما أعطينا البحارة بعض المال قبل أن ينقلوا أغراضنا إلى متن السفينة، وفاجأنا ذلك، فاضطررنا للخضوع لعادات البلاد. ونجد في الشرق، كما في أوروبا، مسافرين يعدون البحارة بمكافآت عظيمة، ولا يعطونهم شيئاً في نهاية المطاف، لذا يطالب بحارة السويس بالدفع سلفاً، وحين يصلون إلى جدة، يغادر المسافرون السفينة من دون أن يسألوهم مزيداً من المال.

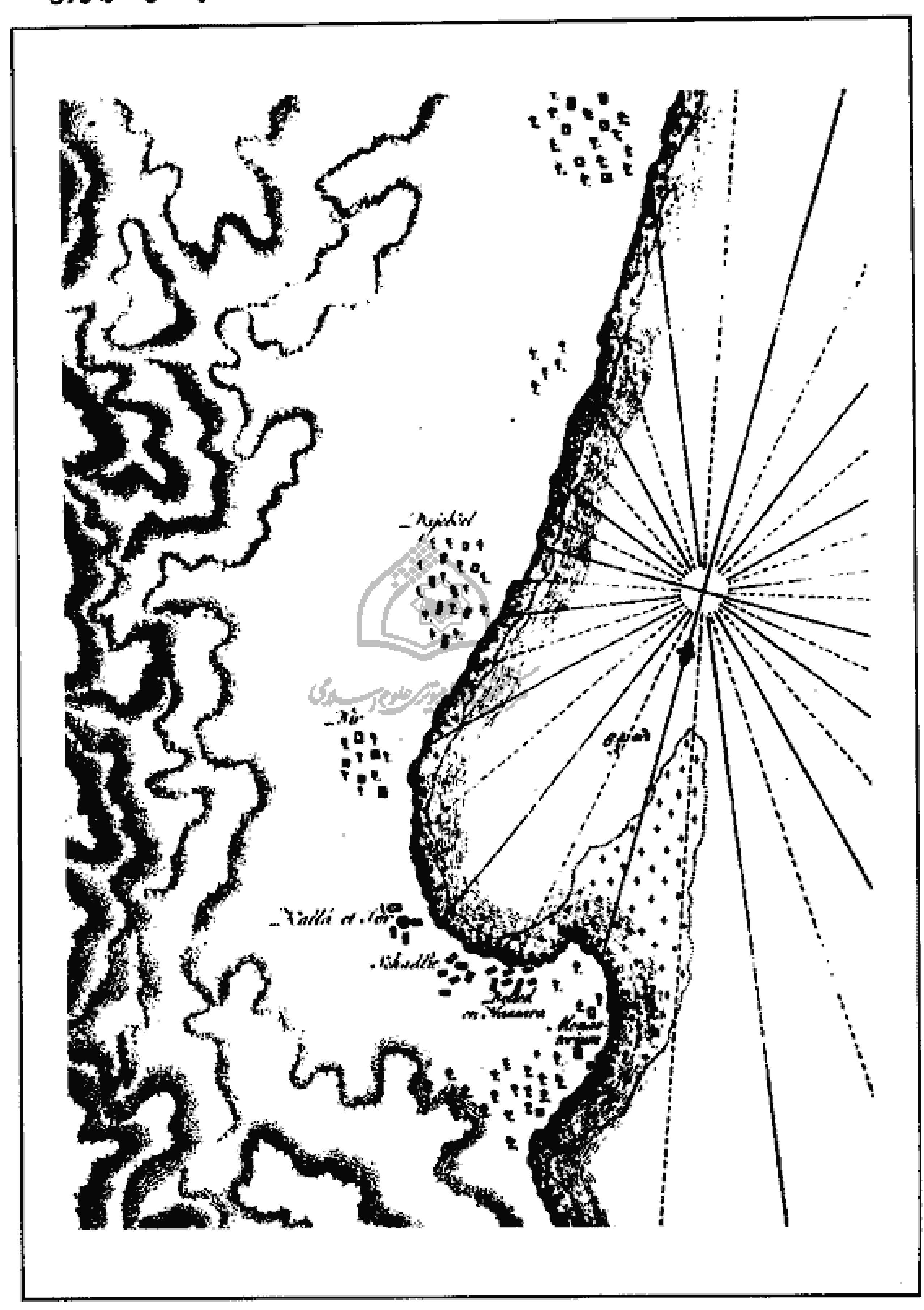
في ٦ و ٧ من الشهر نفسه، صعد التجار إلى متن السفينة. وفي ذاك اليوم، وعند الظهر، قست ارتفاع الشمس، ووجدت أن سفينتنا في مرسى السويس تقع على خط عرض ٢٩°، ٥٥´ ، ويبلغ ارتفاع المياه أربع باعات ونصف الباع. ولم يركب الريّس إلا في ٨ تشرين الأول/أكتوبر، أما الأمر الوحيد الذي بقي يؤخر إبحارنا فهو عادة حاكم السويس بتفحص كافة السفن التي توشك على الإبحار للتأكد من أنها غير محمّلة كثيراً، أو على الأرجح ليجمع المال بفضل هذه المهمة الموكلة إليه، وهذا ما فعله في التاسع من الشهر نفسه قبل الظهر. وما إن غادر حتى أبحرت قافلتنا المؤلفة من أربعة مراكب، ودارت ساعة ونصف للتأكد من أنها محملة كما يجب، بعدها، رسونا في مكان يبلغ عمق المياه فيه ١٤ باعاً، وتم نقل البضائع من جهة إلى أخرى في كل مركب، استناداً إلى رأي الريّس بغية تسهيل الملاحة.

وبغياب الصخور البارزة بين السويس وجيروندل (Girondel)، أبحرت السفن الأربع في ١٠ تشرين

الأول/أكتوبر بعد منتصف الليل بنصف ساعة، ووصلنا قرب جيروندل قبل الظهر، وبما أن السفن لم تعتمد الذهاب أبعد من ذلك في اليوم الأول، رسونا قرب الشاطىء في مياه يبلغ عمقها ١٣ باعاً، وعلى خط عرض ٢٩°، و١٠َ . ونزل كل من السيد فورسكال والسيد كرامر إلى اليابسة لرؤية حمّام فرعون الواقع إلى الجنوب، لكنهما وجدا الطريق طويلة فعادا. إن هذا الجزء في الخليج العربي، المسمى بركة فرعون، والذي سنمرّ فيه أعرض بكثير من الدرب بين السويس وجيروندل، لكنه ليس خطيراً بالنسبة للسفن المبحرة نحو الجنوب. وأبحرنا في الساعة التاسعة مساءً، وفي الحادي عشر رأينا الكثير من الأرصفة المرجانية التي لم نكن لنمر من بينها من دون أن يحدق بنا الخطر إذا ما هبّت رياح معاكسة. لكن الرياح كانت مؤاتية، فوصلنا في الثالثة من بعد الظهر قرب الطور (Tör)، خلف رصيف مرجاني تكاد لا تخفيه المياه أثناء الجزر، ورسونا في مياه يبلغ عمقها ٥ باعات و٢/٣ الباع. وينتصب تمثال حجري على الطرف الأكثر ارتفاعاً لهذه الصخرة، ينبّه البحارة إلى وجوب توخي الحذر، علماً أن الأرصفة المرجانية تكثر على هذا الشاطىء. ونظرياً، يبلغ عرض البحر هنا أكثر من خمسة إلى ستة أميال، وتشير البوصلة من السويس إلى طور تقريباً إلى الجنوب والجنوب الشرقي أو الجنوب الشرقي الجنوب، وتميل سلسلة الجبال، التي تمتد من حمّام فرعون على طول الشاطىء إلى داخل البلاد على بعد حوالي فرسخ ونصف إلى الشمال من تور، ثم تتجه نحو الجنوب، وتشكل على الشاطىء سهولاً واسعة ترتفع فيها التلال حتى رأس محمد. وتبين لي من دراستين دقيقتين أننا كنا على خط عرض ٢٨°، ١٢َ ، كما يقع جبل القديسة كاثرين، وهو أعلى من الجبال الأخرى المحيطة به وبالتالي أعلى من جبل سيناء إلى الشمال الشرقي، وقد رسم السيد بورنفايند هذا المنظر على اللوحة LI.

يحيط بمرفأ طور العديد من القرى الصغيرة، وكانت قلعة الطور فيما مضى حصناً، لكنه تداعى ولم تقم فيه حامية منذ مدة طويلة. ويعيش في البلاد النصارى الروم، ويملك الرهبان ديراً في المكان الذي قامت فيه إيليم (Elim) على ما يدّعون. ويقيم المسلمون في قرية شاذلي قرب بلاد النصارى، ويعيش سكان هذه المنطقة من الصيد، ويقع البئر الذي يؤمن حاجاتهم من مياه عذبة قرب المكان الذي رسونا فيه، وهي مياه أفضل من مياه آبار نابه (Naba) قرب السويس، لكنها ليست بأعذب من المياه التي يزود بها العرب السفن حين ترسو في هذا المكان والتي يحملونها على الجمال من المناطق الجبلية. وتثير قرية الجبل الاهتمام، إذ يقيم فيها كافة الربابنة الذين يقودون السفن من السويس إلى جدة ويعيدونها من جدة إلى السويس. ويتلقى كل ربّان ٥٠٠ ريال مقابل كل رحلة، فضلاً عن الأرباح التي يجنيها والأموال التي يقبضها من أولئك الذين يعلّمهم مهنته، لأننا عادة ما نجد على متن السفينة فتياناً أتوا لتعلم هذه المهنة أو على الأرجح لتعلّم كيفية التنبه للأرصفة الرملية والأرصفة المرجانية واكتشافها.

رسمت على اللوحة (LII) خارطة محيط طور، استناداً إلى نظري وإلى روايات الربابنة لا استناداً إلى



دراسات هندسية كانت لتعرضني للخطر. وكان السيد فورسكال الوحيد الذي ابتعد أكثر من بئر طور، ولم يجد في بلاد النصارى سوى كاهن واحد، أكرمه في منزله وأرسل معه مرافقين حتى اليم المزعومة حيث رأى العديد من الحدائق المزروعة بالنخيل والتي يملك جزءاً منها الروم والجزء الأخير المسلمون. وقد أثار غيابه الطويل تساؤل العرب، وأعلموا بعض الانكشاريين من القاهرة، فقرروا البحث عن الإفرنجي الذي نزل إلى البرّ لرسم جبالهم، وسارعوا إلى بلاد النصارى، وصادفوا السيد فورسكال وهو عائد من الحدائق فأعادوه إلى السفينة على الفور وبكل أمان. هل نجد الكثير من المسيحيين الذين يتكبدون مشقة قطع نصف فرسخ لإنقاذ يهودي لا يعرفونه من خطر محدق؟ لم أكن أتوقع هذه الشهامة وهذا الكرم من المسلمين بشكل عام ومن الانكشاريين بشكل خاص. لكن هؤلاء كانوا من التجار الذين اعتادوا التعامل مع الأمم الأجنبية، فظنوا أن من واجبهم حمايتنا، كأجانب نبحث عن أمننا بينهم.

وفي الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر، خرجنا من مرفأ طور بعد أن هبّت رياح رملية، وتوجهنا نحو الجنوب أولاً، ثم نحو الجنوب الشرقي وذلك بين أرصفة المرجان. وبعد الظهر رسونا قرب رأس محمد أو رأس محمود كما يقول البعض، على عمق ١٠ باعات. وبعد قياس ارتفاع نجمتين، تبين لي أننا على خط عرض ٢٧°، و٥٤´ ، تقريباً، علماً أن الأفق لم يكن صافياً كلياً، لكن هذه الملاحظة دقيقة بما يكفي لتصحيح الخرائط البحرية. لاحظت أن البحر أعرض هنا منه قرب طور، ويمتد الشاطىء أبعد نحو الجنوب ثم نحو الشرق حيث نجد الخليج الثاني للبحر الأحمر والذي يمتد حتى العقبة. وحتى الآن، لم نبحر سوى قرب اليابسة، ورسونا كل ليلة، لكن بين رأس محمد وشاطىء شبه الجزيرة العربية، اضطررنا للإبحار في عرض البحر لأيام وليالٍ عدة. وسيعتبر كل أوروبي هذه الطريق آمن من الطريق بين السويس وجدة في غياب الأرصفة المرجانية والصخور، لكن المسلمين، الذين لم يعد باستطاعتهم رؤية اليابسة، اعتبروها خطرة، وكانوا يفضلون على الأرجح لو مررنا من رأس محمد إلى جزيرة تيران (Tyrân) ومنها إلى شواطىء شبه الجزيرة العربية، لكن الرياح كانت مؤاتية لنا للسفر في طريق مستقيم. وبقيت الرياح شمالية إلى شمالية غربية فتمكنا من التوجه نحو المرفأ الذي نصبو إليه.

في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر وعند الظهر، كنا على خط عرض ٢٧°، ٢٩´ ، وكنا قد مررنا صباحاً أمام جزيرة سفن البحر (Safâni el Bahhr)، وكانت جزيرة شدوان (Scheduân) مباشرة إلى الغرب على بعد ٤ أميال، وبالتالي على خط العرض نفسه. وكانت جزيرة تيران الواقعة أمام بحر العقبة إلى الشمال الشرقي على بعد حوالي ٥ أميال (استنتجت ذلك من تغييرات البوصلة) وعلى خط عرض ٢٧°، ٤٣´ . وعند غياب الشمس، كانت الشواطىء المصرية لا تزال بادية أما شبه الجزيرة العربية فغابت عن أنظارنا.

ثم في ١٦ من الشهر نفسه، وعند الظهر، كنا على خط عرض ٢٦° و ٩´ ، أما عند المغيب فأصبحنا على خط عرض٢٥°، ٥٤´ ، وشاهدنا على الشاطىء المصري جبال الزمرد التي تحدث عنها الكتّاب

القدامى من يونان وعرب. إذا ما احتسبنا وسط كافة الاتجاهات التي سلكناها، واستناداً إلى بوصلتنا الخاصة نجد أننا أبحرنا باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي منذ رأس محمد. ولم يتبع ربابنة السفن الاتجاه نفسه حتى وإن كانت الرياح مؤاتية للغاية. ووضع الريس بين بوصلتيه ـ حيث يضع الأوروبيون عادة الضوء ـ قطعة كبيرة من المغنطيس، ظناً منه أنه يحافظ على مزاياهما، لأنه قيل له إن المغنطيس يعيد المزايا لمن فقدها. ونستنتج من ذلك، جهل البحارة في هذه البلاد لذا لم نلاقِ صعوبة في إقناع الريس بنزع المغنطيس من مكانه لأنه يضلل البوصلة.

وفي ١٧، تحضرت في الجانب الصغير وراء غرفتنا لمراقبة كسوف الشمس، وسجلت نهايته عند الثانية عشرة و٢٨ ثانية ظهراً بواسطة منظار كبير بأربع قوائم. ومنعتني حركة السفينة، وإن كانت خفيفة، من تحديد خط الطول، لا سيما وأنه كان يتوجب عليّ تحديد ارتفاع القطب، واستخدام ثمن الدائرة حيناً والمنظار حيناً آخر. وكنا على خط عرض ٢٥°، ٣٣ً ، وبعيدين عن شاطىء شبه الجزيرة، فبالكاد نرى جبل الغراب. وأبحرنا خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة تقريباً نحو الجنوب والجنوب الشرقي.

وحدّث السيد فورسكال ريسنا مسبقاً عن الكسوف الذي سيحدث في ذاك اليوم، ولإسعاده والقيام بتجاربي من دون التعرض للإزعاج، قمت بتسويد بعض العدسات التي استخدمها السيد فورسكال ليشاهد الريّس وبعض التجار هذه الظاهرة وقد أعربوا جميعاً عن رضاهم. ويُعتبر الذين يستطيعون التنبؤ بالكسوف بين المسلمين أطباء ماهرين، عالمين بالقوانين الدينية والمدنية، فاقتنع المسلمون أن السيد فورسكال طبيب عظيم لأن الواقع أظهر صحة تنبوئه، فكثر المرضى بينهم. وطلب كل منهم دواء لمرضه المزعوم، وأشار إليهم الطبيب الجديد بالعلاج الأفضل، فنصح العديد منهم بالنوم وباتباع حمية غذائية أفضل. وأخيراً، تقدم منه حاج اشتكى من أنه لا يرى شيئاً أثناء الليل، فنصحه السيد فورسكال بإشعال شمعة فأثارت هذه النصيحة موجة من الضحك، وبدا أن جميع المرضى السابقين أضحوا أصحاء. ولا يُكسب العلم الأوروبي عطف المسلمين واحترامهم دوماً، بل ينجح في كسبهما إذا ما اتّبع عاداتهم واحترمها، وهكذا كسب السيد فورسكال، مع القليل الذي يعرفه عن الطب، محبة العرب أكثر من أيّ طبيب عظيم.

وفي ١٨ تشرين الأول/أكتوبر، كنّا على خط عرض ٢٥°، ٤ً، كان جبل هوان (HawaŸne)، الذي يقع على شاطىء شبه الجزيرة العربية، على بعد خمسة أميال إلى الشمال الشرقي، أي إنه يقع على خط عرض ٢٥°، ٥ً. وخلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، أبحرنا تقريباً نحو الجنوب الشرقي والجنوب، وكذلك الأمر بالنسبة للأربع وعشرين ساعة اللاحقة. في ١٩ تشرين الأول، ظهراً، كنا على خط عرض ٢٤°، ٤٠ً ، وكانت أكبر جزيرتي حسّاني وأكثرهما إلى الجنوب إلى شمال مركبنا، على بعد حوالي ثلاثة أميال ونصف. وترسو المراكب الآتية من رأس محمد عادة قرب هذه الجزيرة، وهي تقع على خط

عرض ٢٤°، ٥٤´ . وبعد الظهر دنونا من الشاطىء بعد أن درنا حول رصيف مرجاني كبير، ورسونا قرب مهار (Mahar). فأرسل الريّس بطلب عربياً كان يمشي على الشاطىء ليسأله إن كانت القبائل المختلفة في حالة حرب أم في حالة سلم. ووصل أحد المراكب التي أبحرت معنا من رأس محمد في اليوم نفسه أما المركبان الأخيران فلم يتمكنا من اللحاق بنا.

وبما أن الرياح كانت مؤاتية للغاية، نجونا من الخطر المحدق بنا، فاثنان من المراكب الثلاثة التي انطلقت متأخرة قليلاً من السويس في السنة الماضية، غرقت في هذه المنطقة. وكان على متن سفينتنا، بعض الأشخاص الذين مرّوا بهذه التجربة، ورووا لنا أن عاصفة فاجأتهم قرب حسّاني، فسادت الفوضى في السفينة، وسارع الركاب والبحارة إلى مراكب الإنقاذ وتوجهوا نحو اليابسة، ورأوا من هناك المركب الأول يتكسّر على الصخور. وعند المساء، هدأت الرياح، وشاهدوا في اليوم التالي المركب الثاني يطوف على سطح الماء، مما دفع بالريس وبحارته إلى العودة نحوه، لكنه عاد وغرق قبل أن يغادروا اليابسة. وقام الريّس الثالث بعمله بشكل أفضل، إذ خشي أن يلوذ البحارة بالفرار ففك الحبال التي تربط مراكب الإنقاذ بالسفينة ما إن عمّت الفوضى بين الركاب، وعرّض نفسه بالتالي لغضبهم. لكن حين عرض لهم المخاطر التي تتعرض لها سفينة من دون قبطان، وحين ادّعى قدرته على إنقاذهم وبضائعهم، إذا ما أفسحوا له ولرجاله المجال ليعملوا، هدؤوا وساهموا في العمل، واستطاعوا النجاة، فأكملوا طريقهم ووصلوا بأمان. وكادت تحلّ بمركبنا كارثة غير الغرق بين رأس محمد وحسّاني، وذلك بسبب طيش النساء اللواتي يسكنّ الغرفة السفلى والتي يزعجننا دائماً بصراخهن ونقاشهن، فقد شبّ حريق مرتين بسبب قطع من القماش، وكاد هذا الحادث أن يؤدي بنا إلى كارثة لو لم يصرخن طلباً للنجدة. وحين شبّت النيران للمرة الثانية، خاف المسلمون، مما اضطر الريس إلى إرسال أحد البحارة إلى الحريم، فأخذت النساء أولاً بإصدار أصوات مزعجة ثمّ حلّ صمت عميق دام ٢٤ ساعة من دون انقطاع.

بعد اجتيازنا الدرب المهلكة بين رأس محمد وحسّاني، عمّت السعادة، وأُطلق المدفع طلقات عدة. وعند المساء، تمّ إشعال كافة القناديل والمصابيح، وأُطلقت النار ابتهاجاً، وتعالت الزغاريد الشائعة بين الشرقيين من الجهات كلها. وتوقّع الربان مكافأة جيدة من المسافرين لقاء الخدمات العظام التي قدّمها، كما طلب البحارة بعض المكافآت الصغيرة لقاء تعبهم وسهرهم طوال الليل. واستخدم هؤلاء مركباً صغيراً، كما يصنع الأولاد في أوروبا، لجمع المكافآت، ثم رموه في البحر، ولم يجمعوا الكثير لأن لكل واحد من الركاب الحرية في إعطاء ما يشاء.

وفي ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، وعند شروق الشمس، أبحرنا من جديد، وكان الهدوء سائداً، وكنا عند الظهر لا نزال على خط عرض ٢٤°، ٣٢´ . وكانت مهار (Mahar) تبعد عنّا حوالي فرسخ ونصف إلى الشمال والشمال الشرقي، إذاً، نستنتج أننا رسونا على خط عرض ٢٤°، ٣٧´ ، وبعد الظهر، رسونا إلى الجنوب في أبي دبي (Abu Dàbea) وهي على خط عرض ٢٨°، ٢٨´ ، ويصل ارتفاع المياه فيها إلى عشرة باعات، وتمتد أرصفة المرجان على طول ٢٠٠ قدم. في ٢١ من الشهر نفسه، ومنذ الصباح،

كانت الرياح معاكسة تماماً، لكنها ما لبثت أن تغيرت، وتقدمنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي. وعند الظهر، كنا على خط عرض ٢٤°، ٢٤´ وكانت جبال النبط (Nabat) مباشرة إلى الشرق أمام جبال رضوى (Radwa) الكبيرة. وعند المساء، درنا حول جمجم أو السبعة رؤوس والخطر يحيق بنا لأن الصخور تكثر في هذا المكان، وكان الظلام قد حلّ، وريسنا قد ثمل. فما إن وصلنا إلى متن السفينة حتى طلب منا الكحول بحجة أنه لا يمكنه التعرف على الشواطيء والجبال ما لم يشرب القليل من الخمر، فرفضنا إعطاءه لأنه مسلم ولكي لا نقع في متاعب مع المسافرين الآخرين في حال ثمل، وكان يطلب منا كل صباح ربع زجاجة عن طريق خدمه، ولعل التجار اليونانيين اعتادوا إعطاءه الكحول. ثم في وقت متأخر من تلك الليلة، رسونا قرب قبة ينبع (Kubbet Yanbo)، وهي جزيرة صغيرة تحوي رفات قديس مزعوم.

في ٢٢، لم نتمكن من التقدم بسبب الرياح المعاكسة، التي هبّت من الشرق نحو الجنوب وإلى الغرب، وسجلت ظهراً، ارتفاع القطب، ووجدت أن قمة ينبع تقع على خط عرض ٢٤°، ١٤´ . وفي اليوم التالي ٢٣، أبحرنا نحو الجنوب الشرقي والجنوب، وعند الظهر كنا على خط عرض ٢٤°، ١٠´ ، وصادفنا رصيف مرجاني إلى الغرب، والقسم الجنوبي لجبال رضوى الشاهقة في الشمال الشرقي. وكانت السماء ملبّدة بالغيوم، أثناء هذين اليومين، ثم مررنا بعد الظهر أمام مرسى جيد، يطلق عليه اسم شرم، ورسونا قرب مدينة ينبع. إننا لم نرَ منزلاً واحداً منذ غادرنا طور. والآن ظهرت مدينة ينبع تحيط بها الأسوار، ويبدو منظرها العام جيداً من جهة البحر، أما مدخل المرفأ فضيق للغاية، لكن المرفأ بحد ذاته آمن حتى أننا لا نحتاج لإنزال المرساة، لذا اكتفينا بربط حبل من سفينتنا بحجر من رصيف المرجان الذي تغطيه المياه بالكاد أثناء الجزْر.

ولقد غادر المسافرون الذين ينوون التوجه إلى المدينة مباشرة ومن ضمنهم الخصي الذي ذكرته سابقاً. وتمّ تحضير مركب الريس الخاص له ولبعض المسافرين ذوي الشأن، ولوّث أحد أعضاء بعثتنا هذا المركب إذ لم ينتبه إلى أنه تحت غرفتنا، مما أغضب البحارة الذين نظفوه وغطوه بالسجاد. ولحسن حظنا، لم ينسَ أحد طيش النساء اللواتي يسافرن في الطبقة السفلى، فاتهمن بهذه الفعلة بالرغم من إنكارهن لذلك. وكانت غرفهن ملاصقة لغرفتنا، وهي غرف واسعة يمكن أن يقيم في كل واحدة منها أربعة إلى خمسة أشخاص، لكن النزول إلى غرفتنا يتطلب استخدام السلالم. ولم أفاجأ بسماع أصوات نساء بالقرب مني، ودفعتني حشريتي إلى البحث عن فتحة، ووجدت واحدة صغيرة. ومنذ رحيلي من السويس، وبصعوبة رأيت وجه مسلمة مكشوفاً، لكن في أثناء هذه الرحلة كنت أرى أحياناً وعند الصباح ٣ أو ٤ نساء عاريات يغتسلن.

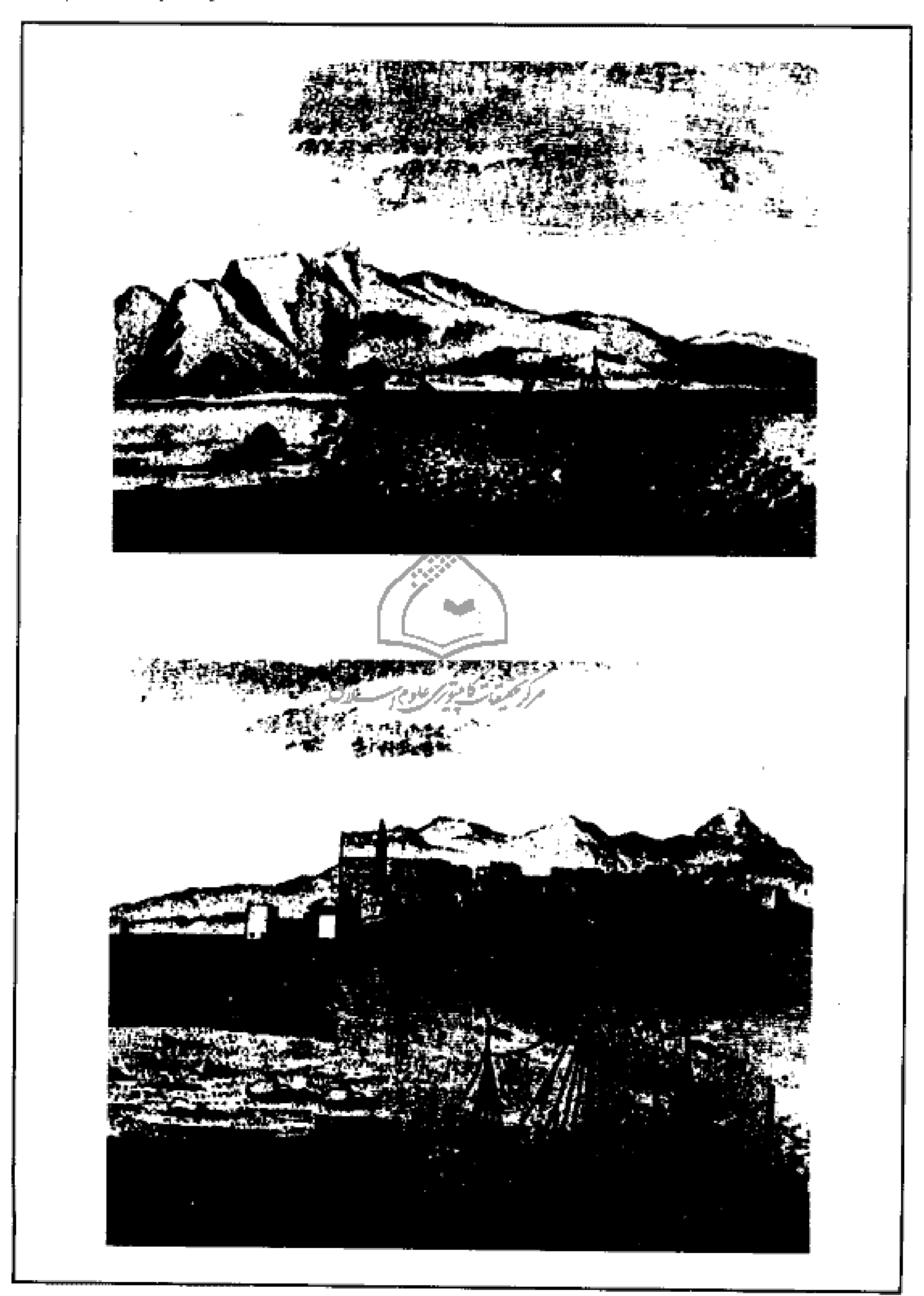
وبقيت على متن السفينة، لأقوم بدراسات فلكية، ولأحدد موقع ينبع التقريبي، راجعوا اللوحة (LVIII)، وقد رسم السيد بورنفيد منظر هذه المدينة على اللوحة (LIII). ونزل إلى اليابسة ثلاثة

أشخاص من بعثتنا، وحمل كل منهم سيفه كباقي المسافرين ولم يكونوا يعلمون أن ذلك سيجلب لهم المشاكل. إذ رمى أحد سكان المدينة عليهم السلام، بعد أن ظنهم مسلمين بسبب اللباس التركي الذي يرتدونه، وحين علم أنهم إفرنج، استشاط غيظاً، بسبب الخطأ الذي ارتكبه بإلقاء السلام عليهم، وراح يشتم الكافرين الذين وصلت فيهم الجرأة حدّ النزول إلى الشاطىء مسلحين. ومن حسن حظهم أن العرب الحاضرين المسالمين أكثر لذلك لم يمنعوهم من العودة إلى السفينة.

وسرّني أني رأيت بعض النجوم في الهاجرة، لكن الانتظار أتعبني. وفي ٢٤، تبددت الغيوم قبل إبحارنا، وتمكنت من قياس ارتفاع القطب، فوجدت أن ينبع تقع على خط عرض ٢٤°، ٥ وعند الظهر، كنا لا نزال على خط عرض ٢٣°، ٥٧ً ، وكانت مدينة ينبع إلى الشمال وعلى ١٨° إلى الشرق، على بعد ميلين ونصف، ولأنني كنت على ارتفاع ١٨ قدماً فوق مستوى المياه أمكنني رؤية منازل المدينة بوضوح. وبعد الظهر، شاهدنا الكثير من أشجار النخيل على الشاطىء، وعند المساء، رسونا قرب ديار (Dsjar)، على خط عرض ٢٣°، ٣٦ً ، وفي مياه يبلغ عمقها ١٤ باعاً.

في ٢٥ ظهراً، كنا على خط عرض ٢٣°، ٢٩ً ، وإلى الغرب من وسط جبال صفرا (Safra)، وكنا نبحر على بعد ميل ونصف من الشاطىء، وتحيط بنا صخور مرجانية كبيرة. وعند المساء، رسونا قرب أبو أعين (Abu Aijân) على خط عرض ٢٣°، ١٦ً . وفي ٢٦، أبحرنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي كما فعلنا خلال معظم الرحلة، ومررنا بين الأرصفة المرجانية، كما شاهدنا قناة على صخرة كبيرة من المرجان، يطلق عليها اسم جيبراد (جيب رعد) (Dsjebrâd). وعند الظهر، كنا في الجنوب الغربي، على بعد ميل ونصف من مدينة مستورة (Mastûra) الواقعة على سفح جبل يحمل الاسم نفسه، وبعد الظهر اجتزنا رأس وردان (Wardân)، ورسونا مساءً قرب رابوخ (Rabogh) على خط عرض ٢٢°، ٤٥ً ، بين بعض الجزر الصغيرة، وهي قرية أو مسكن ثابت للبدو، وقيل لنا مسبقاً إن عرب الرابوخ يحملون الماء والزاد إلى الشاطىء لبيعه، ووجدنا الكثير منها بالفعل.

ولقد كنت قد ذكرت سابقاً في **وصفي لشبه الجزيرة العربية**، أن على المسلمين، الذين يحجّون للمرة الأولى، أن يرتدوا لباس الإحرام، إذا ما سمحت صحتهم بذلك. وهذا ما يجب أن يفعله القادمون من السويس بحراً، لدى وصولهم إلى رأس وردان الذي اجتزناه في هذا اليوم. ولباس الإحرام هو قطعة من القماش تربط حول الخصر كما في الحمّامات، وهو اللباس الذي يسمح للحاج الجديد بارتدائه حتى يزور الكعبة في مكة. كما يمكنه ارتداء قطعة أخرى من القماش فوق كتفه، كذلك التركي الذي رسمه السيد بورنفاند على اللوحة (LIV). وحافظ العديد من المسافرين الحجاج على ثيابهم العادية، إما لأنهم مرضى وإما لأنهم يدّعون ذلك، في حين ارتدى العديد من المسلمين المتدينين لباس الإحرام من دون أن يلزمهم القانون بذلك بما أنهم زاروا مكة من قبل. وهكذا، رأينا عند المساء، العديد من المسافرين على متن سفينتنا يرتدون ملابس مغايرة لتلك التي كانوا يرتدونها عند الصباح.





قد نستغرب أن يأمر محمد أتباعه بزيارة الكعبة للمرة الأولى حاسري الرأس وشبه عراة. ولعله يقصد عامة الشعب من عرب الحجاز واليمن وعمان ومكة بهذا الزيّ. ولعله لم يسعَ إلاّ إلى جعل الحجاج يدخلون أرض مكة خاشعين متواضعين، أي مرتدين اللباس نفسه كعامة الشعب. وأعتقد أنه لم يكن ليضع قانوناً كهذا، لو علم أن حجاجاً من البلاد الباردة سيقصدون مكة يوماً ما، فالإحرام غير مريح للأتراك، وقد يؤذي صحتهم لأنهم اعتادوا الإكثار من الثياب حتى في الصيف ويناسب لباس الإحرام عربياً أحرقته الشمس، لكنه لا يناسب تركياً حاسر الرأس، وملتحياً ذا بشرة بيضاء كلياً.

ومنذ انطلقنا من السويس، أبحرنا نحو الشرق، فتمكنت من رؤية الشمس في الهاجرة، وأنا في المقصورة. في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر، وقبل الظهر بدقائق، توجهنا نحو الجنوب مباشرة، مما منعني من تحديد ارتفاع القطب بدقة، لكن لا أظنني أخطىء كثيراً إن اعتبرت أن جبل قليع (Kleia) الذي لم نكن بعيدين عنه يقع على خط عرض ٢٢°، ٢٣َ ، استناداً إلى ارتفاع الشمس الأخير. وبعد الظهر، أبحرنا نحو الجنوب والجنوب الغربي، ويمتد شاطىء شبه الجزيرة جنوباً حتى جدة. وعند الساعة الواحدة، مررنا أمام أم المسك، وهي جزيرة صغيرة قرب الشاطىء، وبعد الساعة الثانية، كانت جزيرة حرام، وهي جزيرة صغيرة أخرى، إلى الغرب منا. ثم بعد ذلك، أبحرنا في قناة ضيقة للغاية بين أرصفة المرجان، ويحاول أي بحّار أوروبي التوجه إلى عرض البحر، لكن ريس سفينتنا ارتأى عدم الابتعاد عن الشاطىء حتى يتمكن والركاب من الهرب إلى اليابسة إن غرقت السفينة. وعند المساء، رسونا قرب رأس الحطبة (Râs el Hatba) في مياه يبلغ عمقها ١٥ ذراعاً. ويقع كل من جبل قليع وهذا المرسى تحت خط الهاجرة نفسه تقريباً، لكن الشاطىء الذي يمتد بينهما يشكل انحناءً كبيراً نحو الشرق. ولم أتمكن طوال الليل من مراقبة نجمة واحدة ثابتة، ويقع رأس الحطبة، وفقاً لدراستي، على خط العرض ٢٢°، ٣َ .

وفي ٢٨ ظهراً، وصلنا قبالة جبل وكر (Wakr)، وأمضينا الليلة أمام أبحر (Obhâr)، حيث يدخل الخليج عميقاً في اليابسة حتى ليظنه المرء نهراً. إن مدخل هذا المرسى ضيق للغاية، لكنه آمن حتى أننا لم ننزل المرساة، واكتفينا بربط السفينة من الجهتين بحجارة كبيرة في أرصفة مرجانية. وتقع أبهر على خط عرض ٢١°، ٢٠َ ، إلاّ في حال وجود شاطىء مستقيم بعيد يقع قرب الهاجرة، جعلني أخطىء في تقديري.

وفي الـ ٢٩ منه صباحاً، غادرنا أبحر بعد هبوب رياح رملية، ووصلنا عند الثانية من بعد الظهر إلى جدة، ورسونا على بعد نصف ميل إلى غرب المدينة، على خط عرض ٢١°، ٢٧َ بين أرصفة المرجان. وفيما يلي، حددت موقع جدة على خط العرض بدقة بواسطة ربع الدائرة. وبقينا في السفينة ليومين بعد مغادرة كافة المسافرين المسلمين للسبب نفسه الذي دفعنا إلى الصعود على متنها قبلهم (كي لا نزعج المسلمين). ودخل العديد منهم المدينة إما لزيارة الأصدقاء والأهل وإما لاستقاء الأخبار، وإما لإدخال

أموالهم على دفعات وسراً، لأن رسم الدخول يبلغ ٢ إلى ٢ ونصف بالمئة. وتمكن البعض من دخول المدينة من دون أن يدفع المال، أما الذي تكثر الأغراض معه، فتم توقيفه وإجباره على دفع الموجبات. ويبدو أنهم لا يعرفون معنىً لحجز الأغراض ومعاقبة المخالف، وقيل لنا إنهم يكتفون بالسخرية ممن يحاول خداع الجمارك ولا يفلح في ذلك. وأذكر أنني سمعت في مناطق أخرى تركية، أن من يحاول إدخال بضاعة ما خلسة يدفع المبلغ المستحق مضاعفاً. وتعرّض أحد أصدقائنا، الذي حاول إدخال ماله من دون أن يدفع، لعقاب أكثر صرامة، فحين نزل من السفينة، انفتح كيس ماله، الذي ربطه حول خصره، ووقع منه حوالي ١٠٠ درهم في البحر.

وبما أن الذين، عادوا من المدينة اشتكوا من أن الجمارك صارمة هذه السنة أكثر من المعتاد، اتخذنا كافة التدابير الممكنة كي لا نتعرض للمشاكل. ولم نكن ننقل بضائع وبالتالي ما من شيء نخشاه من هذه الناحية، لكن المسلمين لا يستخدمون الكمبيالات، لذا اضطررنا إلى إبدالها بالمال في القاهرة، وسعينا إلى إخفاء الأمر عن العرب كي لا تسوّل لهم أنفسهم القيام بأمر ما. ولم نكن نحمل سوى نقود البندقية التي تستخدم في جدة أكثر من النقود الذهبية التي ضربت في تركيا، وكان يمكن لكل منا أن يخفي حصته لو لم نخشَ التعرض للتفتيش. فقررنا إخفاء مالنا في جرار الأدوية، وهي أفضل طريقة لإخفائه عن عيون العرب الذين لا يتوقعون أن يحمل طبيب ما المال، وبالرغم من أن المسلمين لا يحبون أن يدفعوا المال لأطبائهم، يرحبون بهم أينما حلّوا.

ولم يتمكن من اللحاق بنا سوى مركب واحد من المراكب الثلاثة التي انطلقت معنا من السويس ثم من رأس محمد، وقد وصل إلى جدة حين وصل مركبنا، فيما وصل الثاني في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر، بعد أن فقد أحد مراكب الإنقاذ وعانى الأمرّين للحفاظ على المراكب الأخرى، ولم يصل الثالث إلا في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر صباحاً. وعند المساء، ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة، سمعنا فجأة صوت دوي مدفع، وهي الإشارة إلى حصول كارثة ما لأحد المراكب الراسية. وخُشي أن تكون النيران قد اندلعت في إحداها، فأرسلت كافة المراكب الصغيرة النجدة، وبعد حين عاد بعض منها لإخبارنا أنّ المركب الذي وصل متأخراً قد انقلب، وأن كمية من البضائع وقعت في الماء لأن البحارة أثقلوا الحمل وأكثروا من البضائع والصناديق بعد أن رجاهم التجّار إذ أرادوا الحصول على بضائعهم في اليوم التالي. وأرادت القلة التي بقيت على متن المركب إرسال إشارة إلى الضباط والبحارة الذين نزلوا إلى البرّ كي يرجعوا ويساعدوا في إعادة المركب إلى وضعه الصحيح. هؤلاء هم الناس الذين تسلّم لهم حياتك بين السويس وجدة، فشكرنا الرب وحمدناه لأننا أنهينا رحلتنا بخير وسلام، هذه الرحلة التي تجدون خارطة لها على اللوحة ٢٠ في وصف شبه الجزيرة العربية.

ملاحظات في جدة

لم يساورنا الشعور بالخوف قط من سكّان مدينة بقدر ما خفنا من سكان جدة قبل أن ندخلها، وذلك بعد أن رأينا الازدراء الذي يعامل به الأوروبيون في مصر، إذ ظننا أن عداوة المسلمين للمسيحيين ستزداد مع اقترابنا من المدن التي يعتبرونها مقدسة، وقد زادتنا طريقة تصرف سكّان ينبع مع رفاقي اقتناعاً بهذا المنطق، لكن تبين لنا أننا على خطأ. إذ لم يعتد أهالي جدة إلا على رؤية الأوروبيين القادمين من الهند للتجارة، وهم يرتدون الملابس الأوروبية، وبما أننا قادمون من منطقة أخرى، وقد لبسنا الثياب الشرقية، ساور أهالي المدينة الشك تجاهنا في البداية، لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا خطأهم. وقد عرفنا من قبل العديد من المسافرين الذين وصلوا حديثاً، ولم يعد سكان المدينة يعيروننا اهتماماً لأنهم لم يجدوا في لباسنا ما يريب. فزرنا المقاهي والأسواق، وتنزهنا قرب البحر وفي المدينة ومحيطها دون أن يتعرّض لنا أحد. والأمر الوحيد الذي لا يسمح به أهالي المدينة لغير المسلمين هو الاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة، وقد أعلمنا بالأمر، فالتزمنا به.

وساعدتنا رسائل التوصية التي حملناها، فقد أوصى بنا السيد دي غابلر الباشا حاكم جدة والذي يعرفه معرفة شخصية من القسطنطينية. وكنا نحمل رسالتي توصية من تاجرين في القاهرة إلى أكبر تجار جدة، وأخرى من شيخ إلى كخيا المدينة، وهذا الشيخ هو كاتب أحد أكبر علماء جامع الأزهر في القاهرة. ولم نكن نتوقع الكثير من رسالة التوصية التي زودنا بها الشيخ، لكنها أفادتنا أكثر من الأخريات. وهذا الأخير هو من من أصل تركي، وبالتحديد من الجزء الأوروبي منها، وقد سمع في موطنه وفي القسطنطينية الكثير عن تفوق الأوروبيين على المسلمين في مجال العلوم، ولم يكن بإمكانه قراءة كتبنا، ولم يصادف علماء أوروبيين من قبل، فاعتاد زيارتنا. وبالرغم من كونه مسلماً مؤمناً، ومتطيّراً للغاية، ومتفاخراً حيال أتباع الديانات الأخرى، إلا أنه رجل شريف وصديق وفيّ لغيره من الرجال. وعلّمه السيد فورسكال كيفية استخدام المجهر، وأعطاه معلومات عامة عن النباتات، أما أنا فعلّمته الرسم، ودللته على توابع الزّهرة، وحلقات زحل وغيرها من الأمور التي لم يسمع بها من قبل، وقد شهد ليالٍ طوالاً معي وأنا أقوم بدراساتي الفلكية. واستفدنا من وجوده إذ تمرّنا على اللغة العربية، واطلعنا على أمور ما كنّا لنعلم بها لولاه. وكان هذا الشيخ قد علّم الكخيا (Kichja) في جدة كيفية استخدام الكرة، وكتب له يوصيه بنا وبعث برسالته مع آخر قافلة من دون أن يعلمنا، ثم أعطانا رسالة موجهة إلى الكخيا يطلب منه الاهتمام بنا، وسألنا أن نعلّم هذا الأخير ما أطلعناه عليه.

وقررنا تسليم الرسائل الموجهة للباشا والكخيا شخصياً، فأرسلنا خادمنا اليوناني إلى المدينة وهو يحمل

الرسالتين المبعوثتين للتاجرين ورجوناهما أن يجدا منزلاً. لكن، حين علما بكثرة عددنا، وعلماً منهما بأن الأوروبيين لا يستطيعون العيش كالعرب بسهولة، اعتذرا عن تقديم هذه الخدمة لنا. وأحسسنا بسيئات كثرة العدد مراراً، فلو كنا قلائل لتمكنا من استئجار بعض الغرف في فندق عام. وحين لم يجد لنا خادمنا منزلاً مع رسائل التوصية التي نحملها، توجّه إلى أحد مواطنيه، وهو صائغ شريف مكة ويحظى بمكانة جيدة عند الباشا والكخيا، فأعلمه أن هذا الأخير على علم بوصولنا وقد طلب منه مساعدتنا على النزول إلى اليابسة، وعرض علينا منزله لليلة وأكدّ لنا أنه سيستأجر لنا منزلاً آخر. أسعدنا هذا الخبر، وفي ٣١ تشرين الأول/نوفمبر نزلنا إلى البرّ، واستقبلنا الصائغ بتهذيب عميق.

وسارعنا بتسليم الكخيا رسالة الشيخ، واستقبلنا الأول بالترحاب، وسألنا عن أحوال الشيخ وغيره من الأصدقاء في القاهرة. واعتدنا بعد ذلك زيارته، وكان يطرح علينا أحياناً أسئلة حول الدين والعادات والتقاليد عند الأوروبيين، واستفدنا من الفرصة لإعطائه والحضور فكرة أفضل من تلك التي يملكونها عن بلدنا. أما فكرتهم عن الأوروبيين فشبيهة بفكرتنا عن الصينيين. ويعتبرون أنفسهم أكثر حكمة من الأمم الأخرى، بالرغم من أنهم لا ينكرون جهلهم للعلوم أكثر من الشعوب الأخرى. وأريت الكخيا الكواكب من خلال المقراب، وكان يحلو له التحدث عن علم الفلك. ودفعه السيد فورسكال، الذي اعتاد التردد عليه أكثر من غيره، إلى إنشاء حديقة قرب منزله، خلال إقامتنا في جدة، واستقدام بعض النباتات والشجيرات التي تنتج بلسم مكة من محيط المدينة. واستغرب العرب كيف لم يفكروا بالموضوع، علماً أنهم يلاقون صعوبة في الحصول على هذا البلسم.

وبعد أيام، سلّمنا الباشا رسالة السيد دي غابلر. وكان الباشا يميل نحو علم الفلك. وأراد مني أن أحضر ساعتي الشمسية وأقيس ارتفاع الشمس أمامه، وطلب مني إعطاءه وصفاً مفصلاً للآلة، وأجبر أحد العلماء على احتساب خط عرض جدة استناداً إلى ارتفاع الشمس الذي راقبته. وأعطيت الأفضلية لآلتي على حساب الساعات الخشبية الصغيرة التي يستخدمها علماء الفلك المسلمون، وبما أن حساباتي اختلفت قليلاً عن حسابات الشيخ، أعطيت الأفضلية للوائح علماء الفلك الأوروبيين. ولا يتكلم الباشا والشيخ سوى التركية، لكنني كنت محاطاً بالمترجمين، فخادمنا اليوناني يتكلم التركية، فضلاً عن ثلاثة مرتدين يعملون لدى الباشا، أحدهم فرنسي والآخرين إيطاليين، لكن أياً منهم لم يكن ضليعاً بمصطلحات علم الفلك، فاضطررت لشرح الأمور للكخيا بالعربية مما تطلب مني جهداً كبيراً لأني قلما أتحدث مع العرب في مواضيع كهذه.

وزرنا منازل عدة منذ اليوم الأول، واستأجرنا واحداً كبيراً، يقع على البحر. في ١ تشرين الثاني/نوفمبر، نقلنا متاعنا إلى اليابسة، وكان الكخيا حاضراً في الجمارك، ولم يبقَ في غرفة منفردة كما يفعل الأوروبيون، بل جلس مع بعض الموظفين في مكان مرتفع تمرّ به كافة البضائع. وتبين لنا أن هناك من يسهل لنا أمورنا، فلم يكتفِ الموظفون بفتح صناديق التجار، بل قاموا بعدّها وتفتيشها بدقة، وبما أن

الكخيا مقتنع بأننا لم نقصد البلاد بهدف التجارة، وأراد مساعدتنا اكتفى الموظفون بفتح صناديقنا. ولم يقوموا بتفتيش صندوق الأدوية لشدة حاجتهم إليها، وبهذه الطريقة، لم يعثروا سوى على ٢٠٠ دوكا كنا قد وضعناها لهذا الهدف في مكان بارز لنظهر أننا لا نحمل سوى هذا القدر من المال الكافي لإقامتنا في هذه المدينة. وحين يتعامل موظفو الجمارك العرب بأمان وصدق مع المسافرين يتوقعون الحصول على مكافأة شأنهم في ذلك شأن موظفي الجمارك في أوروبا، لكن تعطى المكافأة خفية لهؤلاء الأخيرين، فلقد قام الصائغ اليوناني المكلّف بالاهتمام بمصاريفنا، بمكافأة موظفي جمارك جدة بحضور الجميع.

وانتشر خبر وصول أوروبيين، وبينهم عالم فلك بين الناس حتى وصل إلى مكة. وكان أخو الشريف الحاكم قد جمع جيشاً عظيماً، وهدد بمهاجمة المدينة، فأرسل الشريف الصائغ اليوناني، الذي ذكرته مراراً، ليسألني ما إذا كان سيحافظ على الحكم أم سيضطر للتنازل عنه لأخيه. واعتذرت عن الرد على موضوع كهذا، متحججاً بجهلي لكيفية التنبؤ بالمستقبل، وأضفت أن الأوروبيين طوروا علم الفلك لتحسين الملاحة، وهو الرد الذي أعطيه كلما استشارني أحدهم بصفتي عالم فلك. وترضي هذه الإجابة المسلمين دوماً، لأنهم يعلمون أن الأوروبيين يقطعون أشواطاً كبيرة بحراً، اعتادوا خلالها على قياس ارتفاع الشمس. وأجاب السيد دي هافن، الذي كان حاضراً حين طرح عليّ السؤال، أن النصر سيكون حليف من يشبه الحسن بن علي الذي يتحدر من سلالته الشرفاء كلهم. وأرسل الصائغ هذا الجواب إلى مكة وأظن أنه لاقى استحساناً، وبقي الشريف في الحكم، ولعله تخيّل أنه يشبه الحسن تمام الشبه. وفي يوم آخر، أعلمني أحد وجهاء جدة أن ٢٠٠ دوكا سرقت منه، وتمنى عليّ اكتشاف اللص، فاعتذرت قائلاً إني أترك هذا العلم العظيم لعلماء المسلمين، من بعدها أظهر أحد كبار الشيوخ جهله للأمر، فقد صفّ الخدم كلهم صفاً واحداً، وصلى طويلاً، ثم وضع في فم كل منهم ورقة صغيرة، وأمرهم بابتلاعها بعد أن أكد لهم أنها لن تضرّ البريء وأن قصاص السماء سيحلّ على المذنب. بعدها، تفحص فمّ كل منهم، واعترف أحدهم، إذ لم يبتلع الورقة، بأنه سرق المال. لكن لا يسهل إخافة لصوص المسلمين كلهم، إذ علمت من تاجر من بغداد، أن خادمه لم يأبه لأي رُقْيَة، بالرغم من أن معظم الشكوك كانت تحوم حوله، وأسف التاجر على العشرة قروش التي دفعها للشيوخ أكثر من أسفه على المال الذي سرق منه.

واستناداً إلى روايات العرب. لم تتراجع مياه البحر المحيطة بشواطىء هذه البلاد أبداً أو بشكل لا يذكر، منذ تكوّن العالم وحتى اليوم، ويدلونك على ضريح حوّاء قرب جدة[*]. لكن هذا الشاطىء،

(*) أمنا حوّاء هو الاسم الذي يطلقه العرب على حوّاء. يدّعون أن ضريحها يحمل آثاراً تدل أن طول حوّاء بلغ ٤٠ ذراعاً. يقال إن هذا الضريح كان محجاً، ولا بد أن معبداً عظيماً قام في هذا المكان، إنما لم يبق منه سوى مصلّى صغير أو قبة، تقع بحسب ما يؤكدون، فوق سرّة حواء مباشرة. ويعتقد المسلمون أن ضريح آدم موجود في جزيرة سيلان، فيما يؤكد اليهود أن عظامه مدفونة في الخليل مع الآباء الأولين، ويظن رهبان القدس أن رأسه مدفون على جبل الآلام في كنيستهم الكبيرة.

برأيي، تعرّض لتغييرات عدة، ونجد في شمال غرب المدينة، وعلى مسافة قريبة من الضريح المذكور، تلالاً عالية، تكثر فيها الأصداف وأحجار المرجان المتحجرة أو المدفونة في الرمال، ويكفي أن نراها وأن نقارنها مع صخور المرجان الموجودة بكثرة تدريجياً في هذا المكان. ولا أظن أن مدينة جدة تقوم حالياً في المكان نفسه الذي قامت فيه المدينة التي تحمل الاسم نفسه والمذكورة في سيرة محمد(*). وتتوسع جدة أكثر وأكثر نحو الغرب، أما مستوى مياه المرفأ فمنخفض للغاية، حتى أن المراكب الصغيرة تضطر لانتظار المدّ لتنقل البضائع إلى اليابسة أو لتحملها.

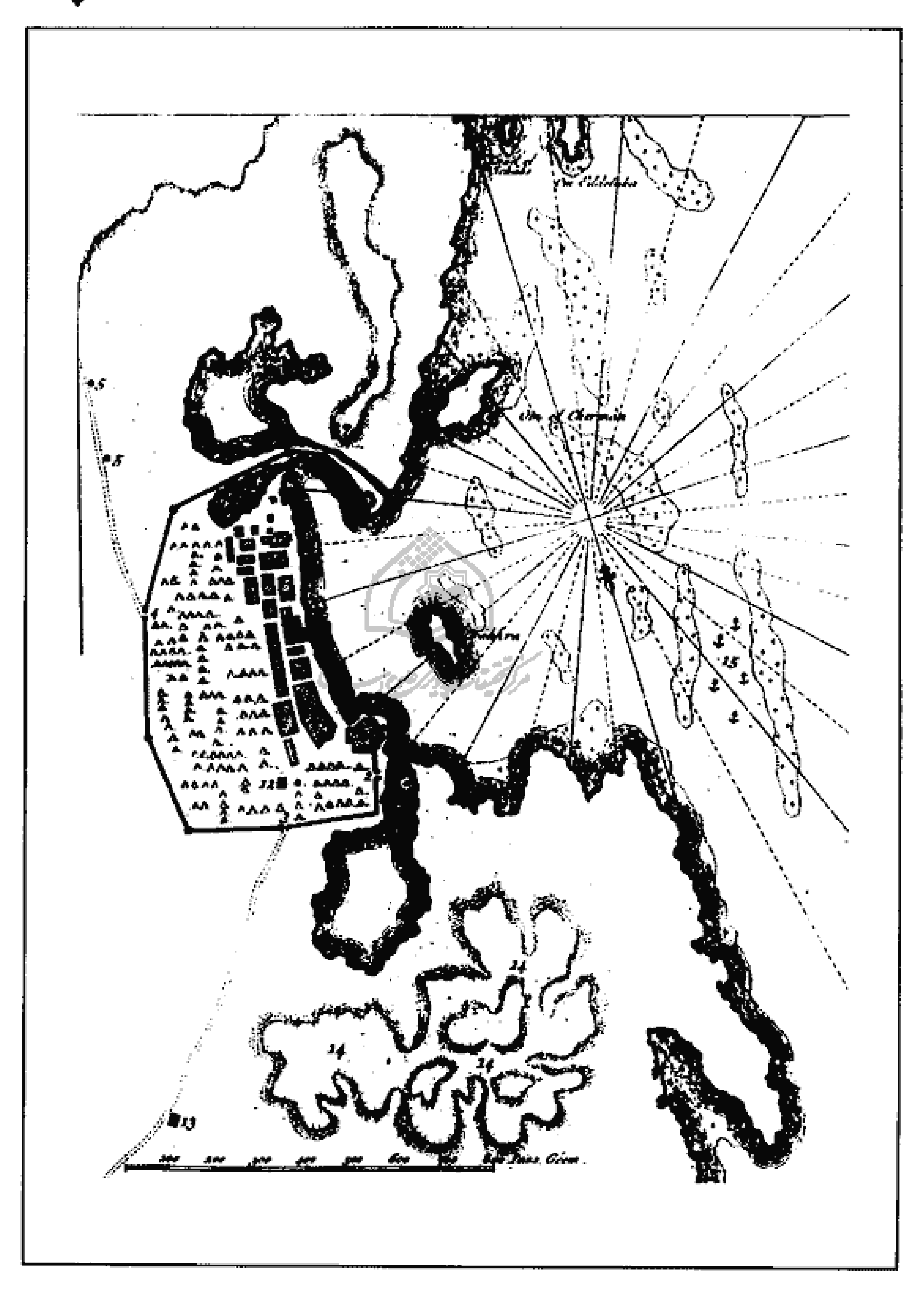
ولا تحافظ مياه البحر التي تغطي هذه الشواطىء على الارتفاع نفسه طوال فصول السنة، إنما ترتفع تدريجياً من شهر تشرين الثاني/نوفمبر وحتى شهر نيسان/إبريل، حين تهبّ الرياح الجنوبية، ثم تنخفض أثناء الأشهر الستة الأخرى، حين تهب الرياح من الشمال(**). ولا يظهر الفرق شاسعاً بشكل عام، لكن، حين وصلت إلى جدة، رأيت المسافة بين المرفأ الكبير ومرفأ السفن الشراعية جافة خلال الجزر، وعندما حان موعد رحيلنا، وجدت المياه تغطي المكان باستمرار. كما تغطي المياه، حين يرتفع مستواها، سهلاً، يقع في الجنوب خارج المدينة، وبعد أن تتبخر بفعل حرارة الشمس المرتفعة تترك وراءها ترسبات من الملح. زد على ذلك أن ضواحي جدة رملية وغير صالحة للزراعة.

رسمت خارطة هذه المدينة ومحيطها على اللوحة (IV)، لكن تجدر الإشارة إلى أني لم أقس إلا الجزء الواقع من جهة البحر، ولم يكن بإمكاني أن أجول في المدينة كلها كما ذكرت سابقاً. لكني حددت موقع جزء من السور، وعددت من بعيد خطى عربي رأيته يمشي قرب هذا السور. ولم أستطع إدراج كافة الشوارع، إذ لم يكن يسمح لي بالاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة. ونجد في هذا الحيّ عدداً من الأكواخ الخشبية، المغطاة بالقش أو بالعشب، وقد نجد بعض المنازل الحجرية المتفرقة حيث أشرت إلى وجود أكواخ فقط. وسأضيف هنا تفسير الأرقام التي دوّنتها على الخارطة: ١) منزل الباشا، ٢) باب الشريف، ٣) باب الحديد، ٤) باب مكة، ٥) مراقب قرب الدرب المؤدي إلى مكة، ٦) سهل، يجمع منه الملح الذي تركته المياه بعد تبخرها، ٧) مدافن المسيحيين، ٨) برج، تهدم كلياً، وفيه مدافع، ٩) مرفأ السفن الحربية، ولم أسمع بسفن حربية يملكها الباشا في الخليج العربي، ١٠) منزلنا، وبالتالي المكان الذي أجريت فيه الدراسات الفلكية، ١١) الجمارك، ١٢) منزل الكخيا، ١٣) أمنا حوّا أو ضريح حوّاء، ١٤) تلال عالية مغطاة بالأصداف وأحجار المرجان، ١٥) مرسى السفن القادمة من السويس والهند.

إننا لا نجد إلاّ القليل من المياه في الخليج الصغير الذي يسمى مرفأ السفن، وبما أني غالباً ما ترددت إلى هذا المكان، لمراقبة المدّ والجزر، تسنّى لي أن أرى كيف يصطاد العرب البط. حين تظهر إحدى هذه

(*) التاريخ العالمي المعاصر، الجزء الأول، ص ٤١.

(**) وصف شبه الجزيرة العربية.



الطيور في المياه، يتعرى الواحد منهم ويغطي رأسه بالطحالب، ويغطس تحت المياه حتى يقترب من البطة التي لا تفزع من الطحالب، ثم يمسك بها من قائمتيها ويأخذها(*).

يروي في تاريخ ملوك مصر، الذي كتبه ماراي (Marai) وترجمه ريسك (Reiske)، أنّ في العام ٩٢٠ للهجرة (١٥١٤)، أمر السلطان الغوري (Sultân el Guri) بتحصين مدينة جدة، خوفاً من البرتغاليين الذين تعاظمت قوتهم حتى أنهم أرسلوا سفناً حربية إلى الخليج العربي. ولا تزال هذه المدينة محاطة بسور من جهة اليابسة، لكنه متداعٍ في أكثر من مكان حتى أن المرء يمكن أن يتخطاه ليدخل المدينة أو ليخرج منها. ولا يعتبر المرفأ أكثر حصانة، لأن البطارية مخربة كلياً، ولا تضمّ سوى مدفع وحيد قديم لا يستخدم، أما المدافع القليلة الموضوعة أمام منزل الباشا، في الجهة الأخرى للمدينة وقرب المرفأ، فلا تستخدم إلا لرد تحية السفن. وقصر الباشا غير منظم شأنه في ذلك شأن مساكن الأسياد في مقاطعات السلطنة الأخرى، إذ لا يبقى الواحد منهم في الحكم نفسه طويلاً، فلا يهتمون ببناء قصر عظيم لخلفائهم. ونجد في المدينة ـ ولا سيّما من جهة البحر ـ العديد من المنازل الجميلة وفنادق كبيرة ومحال مبنية من حجر المرجان، وهي أحجار سهلة الاستعمال، يزيد الهواء من بياضها، مما يضفي لمسة جميلة على المنظر العام. ولا يشرب السكان سوى المياه التي يجمعها العرب في خزانات كبيرة بين الجبال، وينقلونها تباعاً إلى المدينة على ظهور الجمال.

وتزدهر في جدة التجارة، لكن هذه المدينة لا تتعدى كونها مخزناً للبضائع الأجنبية، إذ تصل إليها مرة في السنة السفن المحمّلة من السويس والهند فضلاً عن القوافل الكبيرة التي تقوم برحلة واحدة في السنة من مصر وسوريا إلى مكة وجدة، وتحمل معها كميات من البضائع الثمينة. ولم أسمع في المدينة ببضائع محلية تصدّر إلى الخارج باستثناء لوز الطائف، الذي ينقل منه الإنكليز وحدهم إلى الهند حوالي ٦٠٠ بالة، ويبلغ وزن الواحدة ٨٠٠ ليبرة. ويصدّر التجّار أيضاً بلسم مكة، والمسك والزباد، لكن البلسم ينتج في ضواحي المدينة، ويأتي المسك والزباد على الأرجح من الحبشة. وتشتري جدة ومدينتا مكة والمدينة المقدستان الكثير من الحنطة، والأرز، والعدس، والسكر، وشراب السكر، والعسل والزيت وغيرها من مصر، حتى أن سكان مكة اعتادوا القول إنه إن بادت البلاد المجاورة، باستثناء مصر، لن تصاب شبه الجزيرة العربية بخسارة كبيرة، وإن العالم كله، من دون مصر، لن ينفعها. وتزوّد القاهرة جدة بالكثير من الصبغة الصفراء أو الزعفران المزيف (من زهرة تستخدم للصباغ باللون الأحمر)، وبالشباك العريضة، وخيوط الذهب والفضة، وملح النشادر، والبارود، وتبغ سوريا الخ. أما بالنسبة إلى البضائع الأوروبية،

(*) سمع بوكوك في مصر العليا بهذه الطريقة لصيد البط، لكن بدت له الرواية مختلقة. **وصف الشرق**، الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل التاسع. لم يصدق النقاد الفرنسيون الإنكليزي الذي روى أن الصينيين يصطادون بهذه الطريقة الطيور البحرية. **الموسوعة الصحافية** (.Journal Encyclop)، شباط/فبراير ١٧٧٣. ص ٥٣٣. ولا أدّعي أنهم سيصدقونني أكثر من غيري، لكن حين حاولت التأكد من طريقة صيد البط التي تبدو غير معقولة، يمكنني أن أؤكد أني كنت شاهد عيان مرتين.

التي تصدّر جزئياً، فتزوّدها مصر بالجوخ الفرنسي، وبالورق، وبالقصدير، وبالرصاص، وبالحديد، وبصفائح الفولاذ، وبالزئبق، وبالإبر، وبالسيوف، وبالسكاكين، وبالزجاجيات الملوّنة والأساور التي تستخدمها النساء من عامة الشعب للزينة. وينتقل سنوياً من جدة إلى اليمن والهند عدد كبير من دوقيات البندقية، والنقود الألمانية. كما تموّن جدة القاهرة بمنتجات اليمن من بن وأوراق حنة فقط، فيما تموّنها الهند بالشباك الناعمة والأقمشة الثمينة، والأحجار الكريمة، واللؤلؤ، والعطور المختلفة، والبهارات وغيرها من البضائع القيّمة. وينبغي دفع الرسوم لجدة على هذه البضائع إن جاءت من مصر، أو اليمن أو الهند، وتبلغ هذه الرسوم عشرة بالمئة من قيمتها التي تقوم الجمارك بتحديدها فيضطر التجار أحياناً إلى دفع ١٢ إلى ١٥ بالمئة. ويتمتع الإنكليز ـ وهم الوحيدون بين الأمم الأوروبية الذين يقصدون جدة اليوم ـ بالأفضلية على التجار الهنود المسلمين، وعلى رعايا السلطان، فلا يدفعون سوى ٨٪ من قيمة البضاعة، ولا يدفعونها نقداً بل يستعيضون عن المال بتقديم البضائع. أما بالنسبة لتلك التي تباع بالوزن، كالسكر، والبهارات، إلخ فيضطرون إلى دفع ٨٪ نقداً استناداً إلى القيمة التي تحددها الجمارك.

ويعتقد مايه (Maillet) أن قيام تجارة في الهند، تمرّ عبر مصر والخليج العربي تفيد الفرنسيين، لكن إن اضطروا إلى دفع الرسوم، يُخشى ألا يربحوا الكثير من المال، ولا نضمن أن يُسمح لهم بعبور مرفأ جدّة. ومنذ سنوات قليلة، لم يتمكن مركب من السراة (Surât)، دفعته الرياح الجنوبية بقوة نحو الشمال، من الوصول إلى هذا المرفأ، فتوجه إلى السويس ومنها عاد إلى الهند. وفي السنة التالية، أرغم التجار على دفع الرسوم عن هذه الشحنة، وزجّ القبطان، وهو مسلم من الهند، في السجن حتى دفعت كفالته. ولم يمنح أحد الأوروبيين على الأرجح إذناً بالتوجه من جدة إلى السويس، وسمعت أن تجاراً من جدة عرضوا حمولة ما على قبطان إنكليزي ـ ولا أشك أن التجار المسلمين يفضلون استخدام السفن الأوروبية ـ لكن حاول ربابنة القاهرة، وهم من كبار التجار، وضع العراقيل في طريقهم كي لا يفقدوا أرباحهم، ويمكنهم وبسهولة أن يسببوا مشاكل عدة للربابنة الأوروبيين الذين يقصدون السويس. وقد أمضى تاجر إنكليزي سنوات عدة في هذا العمل، لكن هذه الأمة تستفيد أكثر حالياً من عودة رعاياها وسفنها سنوياً.

ويتقاسم باشا المدينة وشريف مكة مردود جمارك جدة، لهذا، يبقى كخيا الباشا ومندوب الشريف، الذي يحمل لقب وزير، يومياً في الجمارك عند وصول السفن وقبيل رحيلها. ولا يبدو أن كخيا جدة خاضع للباشا فقط، كما هو الحال في المقاطعات التركية الأخرى، إذ يبقى في منصبه لسنوات عدة في حين يتمّ تغيير الباشا تقريباً سنوياً، علماً أن الباشا، حين كنا في جدة، أرسل موظفاً آخر إلى الجمارك لأن الكخيا رفض تفتيش البضائع بالصرامة التي يطلبها، لكنه استمر في تأدية المهام الأخرى المسندة إليه. ويخضع رعايا الشريف، المقيمين في جدة، لسلطة الوزير الذي ينبغي أن يكون من إحدى العائلات التي يحقّ لها المطالبة بمهام السيادة في مكة أو بلقب الشريف. وإن استدعي الشريف، أي المولود في إحدى عائلات الحجاز الأولى النبيلة، للمثول أمام القضاء، يرفض المثول أمام قاض أدنى منه من حيث المستوى الاجتماعي.

وتفتقر الحكومة دوماً للمال أو على الأصح، بما أن المسلمين لا يحسنون استخدام الأموال العامة، لا يبقى منها إلا القليل لمصاريف الدولة، وغالباً ما يضطر تجار الهند ومصر إلى دفع مبالغ مالية معينة سلفاً لجمارك جدة. على أن تحتسب لهم في رحلتهم القادمة. وطُلب الأمر نفسه من الإنكليز الذين يترددون على هذا المرفأ، لكنهم رفضوا حتى اليوم دفع المال سلفاً للجمارك أو لغيرها، وقد أوردت مثلاً على ذلك في وصفي لشبه الجزيرة العربية.

ولقد كنت قد أشرت سابقاً إلى أن المركب الذي غادرنا السويس على متنه كان يعجّ بالتجار الذين يدّعون أنهم انكشاريون. إن تجار القاهرة والمدن التركية الأخرى يلتحقون بالجيش كانكشاريين، للتأكد من أن الحكومة لن تستولي على بضائعهم أو لن تعاقبهم بطريقة ما، لأن من يلتحق كانكشاري وإن كان لا يقبض أجراً ولا يخدم في مكان ما، وإنما يمارس مهنة مدنية، يتمتع بامتيازات عدة مرتبطة بهذا الفوج. ولا يخضع للمحكمة المدنية إنما للفوج الذي يحميه أو يعاقبه. يقال إن الانكشاري الذي يسافر في البلاد الخاضعة للسلطان، لا يدفع رسماً جمركياً على صندوقٍ وقفتين وهذا ما يعود بالفائدة عليه كتاجر، وقد عرفت تجاراً، وربابنة وبحارة من الانكشاريين ويرتدون الزيّ الخاص بهم، لكنهم لا يتمتعون بالميزات نفسها التي يتمتع بها رعايا السلطان، والتحقوا على الأرجح بهذا الفوج ليكتسبوا مكانة بين الأتراك في جدة والبصرة، وليحصلوا على مساعدة رفاقهم عند الحاجة. وحين كنا في جدة، حاول التجار الانكشاريون عصيان الكخيا والوزير علناً، لأنهما، برأيهم، يأمران بتفتيش متاعهم تفتيشاً دقيقاً، مما دفع الباشا إلى إرسال عدد كبير من الجند لمرافقة الكخيا إلى الجمارك يومياً، كما حضر الوزير ومعه عدد من جند الشريف، فاضطر الانكشاريون إلى الانصياع حتى انتهاء عملية تفتيش أغراضهم. وبعد رحيلنا بمدة قصيرة، اجتمع الانكشاريون مجدداً، وتسلحوا، لكن ما إن علم الباشا بالأمر حتى أمر بتصويب المدافع نحو المنزل الذي يجتمع فيه زعماء هذه الحركة، فتفرق الجميع من دون القيام بأية محاولة أخرى.

ولا تسك أية عملة في الحجاز، وتستعمل في البلاد النقود المستخدمة في القسطنطينية أو في القاهرة خصوصاً، كالقطع النقدية الذهبية التي تأتي من البندقية، وتتداول في القاهرة والقسطنطينية أو الدرهم، ونصف الدرهم، وربع الدرهم الألماني، أو البريزة في القاهرة والقسطنطينية والتي تسمّى فدّا (Fadda). لكن يتمّ العدّ في جدة بعملة وهمية وهي القرش والديواني (Diwáni): فيساوي الدرهم ٩٢ بريزا في جدة في حين يساوي ٨٥ في القاهرة، وتعادل أربع برايز من القاهرة ٥ ديوانيات. كما يعادل ٤٠ ديواني قرشاً في جدة، وبالتالي يساوي الدرهم الواحد قرشين و٣٥ ديواني. ويعادل الديواني ٢٠ جديداً، وهي قطع صغيرة من النحاس لا تحمل أية كتابات أو أية علامة. ويقدّر التجار الإنكليز أن ٢٥٠ قرشاً من جدة تعادل ١٠٠ درهم أسباني.



وقد يبدو غريباً للقارىء، أن يعادل الدرهم ٨٥ بريزة في القاهرة و٩٢ في جدة، في حين أن العملة الصغيرة في البلاد الأخرى تندر في المدن البعيدة أكثر من المكان الذي تسك فيه. ويعود الأمر برأيي إلى أعداد الحجاج الكبيرة التي تتوجه إلى مكة، محمّلة بالكمية الكبيرة من القطع النقدية الصغيرة لحاجاتها اليومية وللتصدق بها. والصدقة فرض رئيسي في الديانة الإسلامية، ويمارسه المؤمنون ولا سيّما حين يتوجهون إلى مكة. وتنتقل القطع النقدية الكبيرة بمعظمها إلى اليمن والهند، وبما أن إعادة القطع الصغيرة إلى مصر أمر عسير تصبح أقل قيمة في الحجاز منها في الأقاليم التركية الأخرى. ولا أظن أن تذويب هذه القطع النقدية الصغيرة أمر يعود بالفائدة، لأن قيمة النقد الأصلية في الشرق كما في أوروبا أدنى من سعره العادي.

وبما أننا نحب في أوروبا رؤية لباس الأمم الغريبة، أدرجت بعض الرسومات التي رسمها السيد بورنفاند في جدة. وتصوّر اللوحة (LVI) صيّاداً يحمل الأسماك التي اصطادها إلى السوق. ولا يرتدي بدو هذه البلاد سوى الإحرام وزنّاراً. أما هذا الصياد وعامة الشعب في جدة فلا يلبسون الإحرام بل يكتفون بقميص (جلباب) واسعة وزنّار حول الخصر يدسون فيه سكيناً صغيراً يقطعون به أعناق الأسماك ما إن يصطادونها. ويتبع الأعيان في جدة طريقة الأتراك في القاهرة وفي القسطنطينية في اللباس، باستثناء القماش فهو أرق لأنهم يعيشون في مناخ حار. تحمل اللوحة (LVII) صورة امرأة تبيع الخبز، وترتدي الثياب نفسها كنساء العامة في مصر أي قميص واسعة من دون زنار (جلباب)، وتضع على رأسها حجاباً، وأمام وجهها خماراً صغيراً. وتحمل في يدها قطعة من أوراق النخيل المشبوكة لإبعاد الذباب، وتجلس على حصيرة من القش عرضت عليها خبزها، أما المظلة الكبيرة التي تقيها من الشمس فمبطنة بحصيرة.

الرحلة من جدة إلى لحيّة

وطُلب منا التوجه في أسرع وقت ممكن إلى مملكة اليمن، وألاّ نتوقف إلاّ في حالة الضرورة، ولم تبقنا في جدة سوى الرياح الشمالية التي منعت مراكب اليمن المحملة بالبن من أن تسير نحو عالية الخليج العربي، وهي الطريقة الوحيدة لمغادرة جدة. وفي بداية شهر كانون الأول/ديسمبر، وصلت بعض هذه السفن، وكان بينها سفينة قادمة من عُمان، فنصحنا الأصدقاء بالسفر على متنها، ويطلق عليها اسم طرّاد (Tarâd). فسارعنا لرؤيتها، ونحن نتوقع أن نجدها كبيرة ومريحة، ففوجئنا حين أشاروا إلى مركب أشبه بعربة مكشوفة منه بسفينة، إذ لا يتعدى طوله سبع قامات وعرضه قامتين ونصف القامة، ويفتقر إلى سطح، كما لم أر فيه أي مسمار، بل أخشاب رقيقة وكأنها مخيّطة بعضها، وقد نزعت صواريه ووضع أرضاً لإصلاح هيكله. وكان الريّس يرتدي زي عامة الشعب من العرب، أي إنه شبه عار، تحيط بردفيه قطعة قماش، يعلوها حزام، يتدلى منه خنجر معكوف (راجعوا الصورة ١٠ على اللوحة (XVI) في **وصف شبه الجزيرة العربية**). أما البحارة فمن العبيد، استقدم قسم منهم من أفريقيا ويتميز بشفاهه الغليظة وأنفه الأفطس، والقسم الآخر من شواطىء مالبار، حيث يشبه السود الأوروبيين تقريباً، أما بشرتهم فليست سوداء ولماعة كبشرة الأفريقيين. كانوا يعتمرون قلنسوة صغيرة أو عمامة، ويحملون حبلاً حول خصرهم، ويضعون قطعة من القماش بعرض اليد بين افخاذهم لستر عوارتهم. ولم يشأ أي منّا تسليم أمره لهؤلاء البحارة ولمركبهم، لكن كافة أصدقائنا نصحونا بالسفر مع هذا الريّس لا مع ريّس من اليمن، لأن أشرعة سفينته ستكون من الحصر، ويعرف عنهم أنهم بحارة غير ماهرين، بينما الربابنة من مسقط ومرافىء عمان الأخرى يستخدمون أشرعة كأشرعة الأوروبيين والأتراك والهنود، وهم بحارة ماهرون.

وتأكدنا من أن إنكليزاً من الهند سيصلون إلى المخا، وارتأينا أننا بحاجة لعونهم لدخول البلاد، فقررنا التوجه إليها مباشرة من جدة. وكنا لا نعرف لحية والحديدة وهما المرفآن الخاضعان لسيطرة الإمام، وجلّ ما كنا نعرفه أنه علينا اجتياز مسافة كبيرة براً للوصول إلى المخا، وهي مسافة أقلقتنا لأن رأينا بعرب اليمن لم يكن أفضل من رأينا بيدو مصر والحجاز. وعلمنا أن الريس سيتوجه إلى الحديدة لتحميل كمية من البن لمسقط، وأكدوا لنا أن اجتياز القسم الجنوبي للخليج العربي، في هذا الموسم، يتطلب وقتاً طويلاً بسبب الرياح المعاكسة. ونصحنا أصدقاؤنا بالنزول في لحية، مضيفين أن الطرقات آمنة في دول الإمام لذا يمكننا الوصول في وقت قصير إلى المخا براً. وبالتالي، اتفقنا مع الريّس على إيصالنا حتى الحديدة، وزوّدنا كل



من الكخيا برسائل توصية لأصحاب الدولة في لحية والحديدة، والتجار لتجار آخرين في المدينتين المذكورتين، لأنهم يعرفون أن الريس سيتوقف في لحية لأعماله الخاصة وإن لم نقرر نحن النزول من المركب في هذه المدينة. وأمر الباشا بترك أمتعتنا تمرّ من دون تفتيش، وهكذا صعدنا على متن السفينة في ١٣ كانون الأول/ديسمبر.

وبالرغم من أننا استأجرنا المركب بأكلمه، وجدناه محمّلاً بالبضائع، واعتذر الريّس معللاً بأن مركبه الخفيف لو حمّل أمتعتنا فقط لما تمكن من الإبحار. وكانت أسرّتنا، وهي عبارة عن قاعدة مربعة ومستطيلة، محشوة بحبال من قش، وقد علّقت فوق الصناديق والرزم، فكانت لنا مجلساً خلال النهار، ومكاناً للنوم في العراء عندما يحلّ الليل. ولا ينبغي أن يفكر المرء بالتنزه على هذا المركب، فهو مليء بالبضائع، باستثناء زاوية صغيرة في مقدمة السفينة خصصت لطهو طعامنا ولتحضير خبز العرب. ومنذ الليلة الأولى، فقد طبينا ساعته بين الألواح الخشبية، والحصر التي مدّت مسبقاً على هيكل المركب كي لا تبتل البضائع إذا ما بلغت المياه المركب، وفقدنا الأمل برؤيتها، قبل إنزال البضائع كلها، وهذا ما لن يحصل في وقت قريب. وظنّ السيد كرامر أن ساعته فقدت، لأن المياه التي تتسرب عبر الألواح الخشبية ستعطلها، إنما حين نزل في لحية وجدها بحالة جيدة. إذاً، لا بد أن هذه المراكب لا تسرب المياه بعكس ما يبدو للأوروبي للوهلة الأولى.

ولم نرَ إلاّ القليل من القرى والمدن بين السويس وجدة، وبين هذه المدينة واليمن. لكن بما أن البعض قد يهتم بمعرفة أسماء الأماكن غير المسكونة في هذه البلاد والمجهولة في أوروبا، سأستمر في إعطاء أسماء الجزر والمراسي التي نراها خلال رحلتنا كما تقال لي. ولا تضاهي المرافىء على هذه الطريق، المرافىء الممتدة بين السويس وجدة، لأن كلمة مرسى تطلق على كافة الأماكن التي يمكن لمركبنا الصغير أن يرسو فيها. وكان الريس غريباً عن هذه الناحية، لكن القبطان وهو من الحديدة يعرفها خير معرفة وهو الذي زودني بأسماء الأماكن التي سترد لاحقاً، وكان مهذباً للغاية معي، فلا أظنه أعطاني أسماء خطأ لغاية في نفسه.

وفي ١٤ كانون الأول/ديسمبر من العام ١٧٦٢، أبحرنا والرياح مواتية، وفي اليوم نفسه رأينا أبي سعد، وهي أكبر الجزر الأربع قرب جدة، ثم رأس العلم، وجبل الهداء (Dsjäbbel Hadda) ورأس أسود (Râs Aswad). ونجد قبالة هذا الرأس الأخير، وعلى الشاطىء الغربي للخليج العربي، رأساً يدعى رأس عبود (Râs Abûd). وإلى الجنوب، دلّني القبطان على مرفأين صغيرين على شاطىء شبه الجزيرة وهما سروم (Sarûm)، وملك سروم (Malek Sarûm) أو صعدة (Sâade). وعند المساء، رسونا قرب غيدان (Ghedân)، ويقع هذا المرسى في الجنوب، على بعد حوالي ١٠ أميال من جدة، إذ تقدر المسافة بين هذين المكانين بيومين سفر براً. ولم نرَ أرصفة مرجان بالرغم من أننا كنا على بعد ميل ونصف من الشاطىء، لكن يدّعون أن هذه الأرصفة تكثر في الغرب، وأن أخطرها هو المسمى مسماري حيث اعتاد قادة السفن الأوروبية المتجهة إلى جدة اتخاذ قبطان لاجتيازه.

في ١٥ كانون الأول/ديسمبر، وقبيل بزوغ الشمس، انطلقنا مجدداً، ورأينا في الصباح، على شاطىء شبه الجزيرة العربية، جبلاً شاهقاً، يحمل اسم عمر كبير (Amer Kbir). وعند الظهر، وصلنا خط عرض ٢٠°، ٢٨َ ، وكان رأس محرم إلى الجنوب الشرقي، على بعد ٤/٥ الميل، ونستنتج بالتالي أنه يقع على خط عرض ٢٠°، ٢٥َ . وعند المساء، اجتزنا مرافىء مرشد (Marchâd) وأشرا (Oschera) أو كشر (Kuschera)، لنرسو قرب سمّار (Sumâr) ويقع جبل حادم (Haddem) على مقربة منها. ويمتد الشاطىء من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وفي ذاك اليوم، رأينا بعض الأسماك الطائرة التي يطلق عليها العرب اسم جراد البحر، لكنها لا تكاد ترتفع عن الماء حتى لتعود وتغطس فيها.

في ١٦ كانون الأول/ديسمبر، هبّت رياح جنوبية، وعند الظهر، كنا على خط عرض ٢٠°، ٤َ ، وكانت جزيرة عبلة (Abellât) إلى الجنوب، على بعد ميل وربع منا، أيّ إنها تقع على خط عرض ١٩°، ٥٩َ . وكان مرسى إبراهيم إلى الشمال الشرقي، على بعد ميل ونصف أي على خط عرض ٢٠°، ٨َ . وبعد العشاء، مررنا أمام قارسي (Karsi)، ثم رسونا قرب رقة (Rakka) في مياه بلغ عمقها ٣ أذرع. ولاحظت يومها أن الشاطىء يمتد نحو الجنوب الشرقي.

في ١٧ كانون الأول/ديسمبر ظهراً، أصبحنا على ارتفاع ١٩°، ٥٠َ ، وكان بندر جلاجي (Bender Dsjeladsjie) إلى الشمال الشرقي، ورأس العسكر إلى الشرق. ونجد من هنا وحتى القنفذة (Ghùnfude) وجزيرة السبايا (Sabaia)، العديد من الجزر الصغيرة البعيدة عن الشاطىء. ويشكّل المرور، في بعض الأماكن، بين هذه الجزر، خطراً نظراً لكثرة أرصفة المرجان المحيطة بها. ويمتد شاطىء شبه الجزيرة العربية في هذا المحيط نحو الجنوب والجنوب الغربي، واشتدّ الهواء بعد العشاء، فاضطررنا للرسو قرب جزيرة صغيرة لم أعرف اسمها.

وأبحرنا مجدداً في ١٨ كانون الأول/ديسمبر صباحاً، وبعد ساعات قليلة رأينا إلى الغرب منا، وعلى جزيرة سرين (Serene) جبلاً شاهقاً، وتعتبر هذه الجزيرة من أكبر الجزر من محيط رأس العسكر، وفيها مرسى جيد، وجاء كتاب الجغرافيا، الطقس ٢، ص ٥٠، على ذكر حصن، يسمى سرين، في هذا المحيط، على بعد ٥ أيام من حالي، ولعله على هذه الجزيرة أو قبالتها على اليابسة. وعند الظهر، كنا على خط عرض ١٩°، ٣٤َ ، وكانت جزيرة الظهر (Addáhhr) إلى الجنوب منا، وجزيرة الغراب إلى الشمال الشرقي، ورأس كفيل (Râs Kefil) إلى الغرب، فيما بندر دجي (Bender Dodsja) إلى الشرق. ويمتد الشاطىء في هذه الناحية إلى الجنوب والجنوب الشرقي. وبعد الظهر، رسونا قرب جزيرة الغراب الصغيرة حيث وجدنا الكثير من حطب التدفئة.

وفي ١٩ كانون الأول/ديسمبر، عاكستنا الرياح للغاية، فاضطررنا إلى الرسو ولم تكن الساعة قد تعدّت العاشرة. ثم أبحرنا مجدداً قبل الظهر بقليل، وتمكنت من تحديد ارتفاع القطب ١٩°، ٢١َ ،

بصعوبة، لكن الرياح كانت عاصفة، وحركة مركبنا الصغير قوية. وكانت جزيرة فراء (Farà) على بعد ٤/٣ الميل منا إلى الجنوب الغربي، أي إنها تقع على خط عرض ١٩°، ١٩َ . وعند الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر، اضطررنا إلى إنزال المرساة قرب جزيرة صغيرة بسبب الرياح المعاكسة، وهذا دليل على أن مركبنا أفضل من مراكب اليمن التي لا يمكنها أن تغادر المرفأ إذا ما هبت رياح خفيفة معاكسة بسبب أشرعتها المصنوعة من الحصر. ورأينا خلال هذه الرحلة العديد من المراكب الصغيرة المحمّلة بالبن والقادمة من اليمن إلى جدة، ولم تكن هذه المراكب تنتقل في قوافل إنما منفردة، مما يدل على أن العرب لا يخافون من غيرهم من العرب مثل الأتراك.

وأبحرنا في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر نحو الجنوب خلال ساعتين ونصف، ثم لساعة ونصف نحو الشرق، ووصلنا مرسى سيئاً يسمى ساروم الخشم (Sarûm el Káchme) ويقع على خط عرض ١٩°، ١٣َ . وأمر الريّس بجلب المياه التي وجدناها غير صالحة للشرب. ونرى من هذا المكان مدينة القنفذة (Ghûnfude) الواقعة في الجنوب الشرقي. لكن تكثر أرصفة المرجان على شواطىء هذه الناحية، فاضطررنا إلى التوجه نحو الجنوب وإلى الدوران حول جزيرة صغيرة لدخول المرفأ بمركبنا الصغير، بعد أن أبحرنا في ٢١ من الشهر نفسه قبل بزوغ الشمس. رسونا بين الجزيرة المذكورة والمدينة على ارتفاع ١٩°، ٧َ .

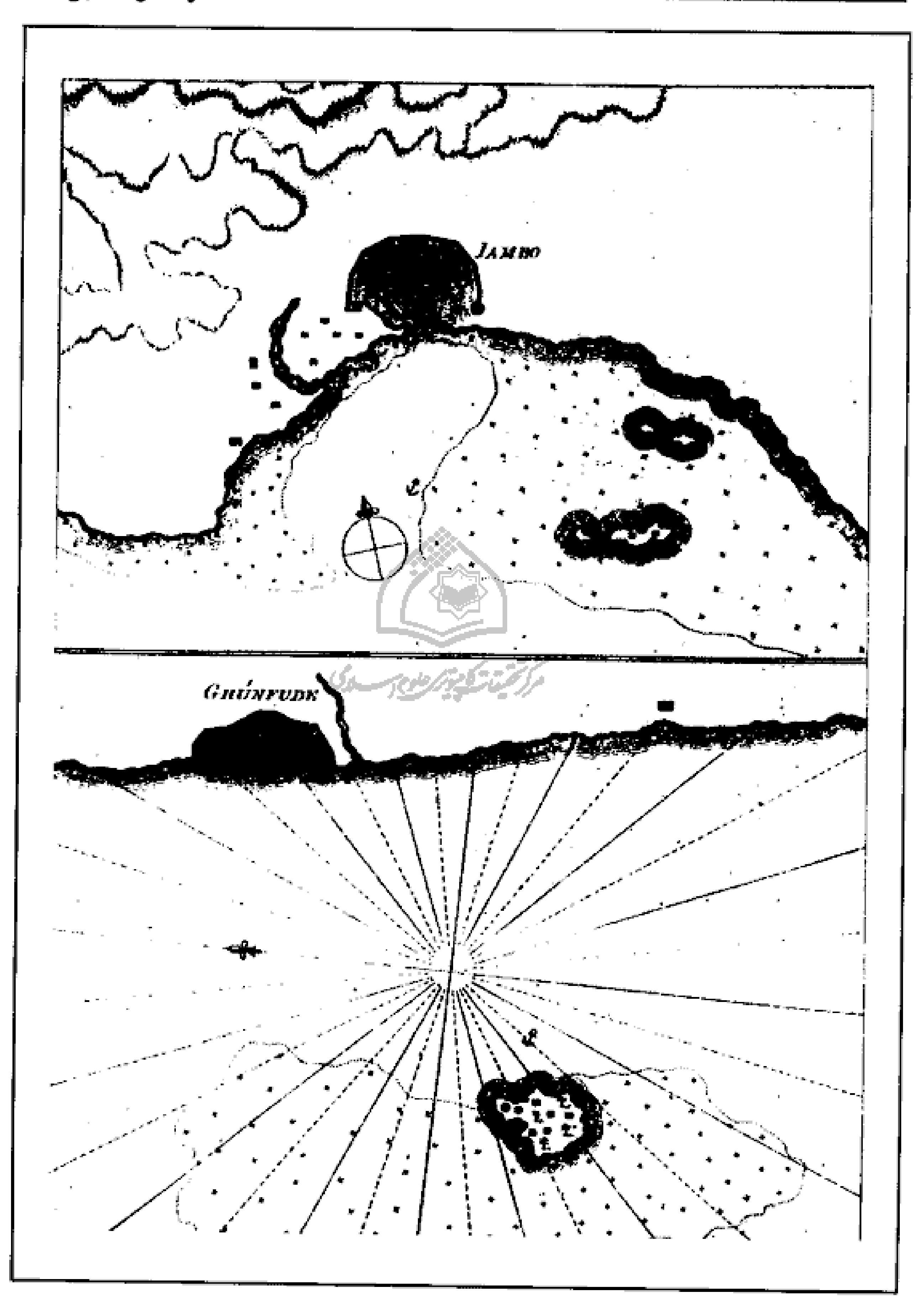
والقنفذة مدينة كبيرة، لكنها سيئة البناء، فمعظم المنازل لا تتعدّى كونها أكواخاً في لغة الأوروبيين، وتتميز المدينة بمياهها العذبة وبمؤنها الأخرى. وتضطر السفن، الآتية من اليمن، والمحملة بالبن، إلى دفع رسوم تبلغ قيمتها، إن لم أكن مخطئاً، بالة واحدة لكل حمولة، وتحصل بالمقابل على إيصال. وفي طريق العودة، يسمح لها بالمرور، لكن إذا ما رست، تلزم بدفع ريالين نقداً، أو هذا على الأقل ما طلبه منا الريّس، بحجة أنه سيضطر لدفع هذا المبلغ إذا ما دخل المرفأ. ويخضع حاكم القنفذة لشريف مكة وجدة، وليس لسلطان القسطنطينية أية سلطة عليه. ويقيم في هذه الجزيرة الصغيرة التي ذكرتها، لكنه ينزل إلى المدينة يومياً ليتواجد في الجمارك. ورسمت موقع هذه المدينة التقريبي على اللوحة (LVIII)، ولم أرَ ما يثير الاهتمام، سوى فوج حرس في جنوب المدينة، عند شاطىء البحر، وبعض المدافع على الجزيرة، قرب برج صغير يسمى حصن.

في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، أبحرنا قبيل طلوع الشمس، وشاهدت على بعد ميلين، إلى الجنوب من القنفذة، جزيرتين صغيرتين يطلق عليهما اسم فدعة وجبيس (Fadáha) (Dsjabis). وعند الظهر، كنا على خط عرض ١٨°، ٥٤َ ، وكان رصيف المرجان الكبير المسمى لينده (Lindáh) أو أنده (Andâh) على بعد ميل إلى الجنوب الشرقي، فيقع بالتالي على خط العرض ١٨°، ٥٠َ ، وبعد الظهر، رأينا رصيفاً مرجانياً آخر. ومررنا أمام مرسى يسمى أبي كلب (Abu Kälb)، ثم رسونا على مقربة منه، قرب رأس حالي (Râs Hâli). وأمضيت الليل في قياس ارتفاع بعض النجوم، لكن الظلمة، والأفق الضبابي لم

يمكنني من قياس إلاّ ارتفاع المشتري، ولم أستطع بالدقة اللازمة. لكن هذه الدراسة، سمحت لي بتحديد موقع رأس حالي على خط العرض ١٨°، ٣٦ً . وعند المغيب، رأينا جبل صَبْيّا (Sabia)، على الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، وذلك إلى الغرب، وعلى مسافة بعيدة من اليابسة، على مقربة من رأس حالي، على حدود الحجاز كما كانت في أيام أبي الفدا. وتعتبر الإمارات الصغيرة، الواقعة إلى الجنوب من حالي، جزءاً من مملكة اليمن.

وفي ٢٣ صباحاً، وفي الساعة المعتادة، أبحرنا لكن الرياح عاكستنا. وعند الظهر، كنّا على خط عرض ١٨°، ٢٠ً ، وكان رأس يشوف (Yachasûf) على بعد حوالي ميل إلى الجنوب والجنوبي الشرقي، وبالتالي على خط عرض ١٨°، ٣١ً . ويمتد الشاطيء تقريباً من الشمال إلى الجنوب، ومررنا في ذلك اليوم فوق رصيف مرجاني، في مياه بلغ عمقها ثلاثة أذرع. ونجد إلى الغرب، بحسب ما قال لنا القبطان، جزيرة كبيرة تحمل اسم ميركت (Meerket)، وعند المساء، رسونا على خط عرض ١٨°، ٢٠ً ، قرب فجّ الثعالب(Fedsj el Sjâlbe)، على مسافة بعيدة من اليابسة. وتتميز أرصفة المرجان في هذا المحيط بحجمها الكبير وارتفاعها مما اضطرنا إلى استخدام مراكب الإنقاذ الصغيرة، والقيام بمحاولات عدة للنزول إلى الشاطيء، وحين تمكنّا من ذلك أخيراً، مررنا في مياه عميقة للغاية مرات عدة بغية الوصول إلى بعض خيام العرب.

ويخضع العرب، الذين يقيمون بين حالي وعطود (Attuêd) ـ وهي حدود شريف أبي عريش ـ لشيوخهم المستقلين، ويتبعون ديانة أخرى غير الإسلام. (راجعوا **وصف شبه الجزيرة العربية**) ويدّعي البعض أنهم يحبون لباس المسافرين كثيراً، لأنهم يجدونه أفضل مما يلبسونه، ويقال عنهم إنهم لا يقتلون امرأ لا يقاومهم، شأنهم في ذلك شأن البدو كافة. وارتديت والسيد فورسكال أبسط ثيابنا أي إننا لبسنا قميصاً واسعاً كالذي يلبسه العرب، وسروالاً، فيما غطى أفراد طاقم المركب، الذين لم يعتادوا هذا اللباس، أردافهم ورؤوسهم بأقبح القماش، ونزلنا إلى اليابسة، عزّلاً كي لا يظنونا من الأعداء. ويصل شعرهم إلى أكتافهم، وهذا ما لم نسمع به من قبل، ويضعون حبلاً حول رؤوسهم بدلاً من العمامة، ويعتمر بعض منهم نوعاً من القلنسوة مصنوعة من أوراق النخيل الخضراء المتشابكة، ولا يرتدون سوى قطعة قماش يلفونها على أردافهم، كما يحمل كل منهم رمحاً في يده. وبعد السلام، أخذ اثنان من البحارة رماح العرب، وكأنهما يريان شيئاً فريداً، وأراد رئيسنا الحصول على رمح الأكبر سناً، فاستنتج العربي أننا نرتاب به، فسلّم رمحه للرئيس، مؤكداً لنا أننا في مأمن بينهم، ورموا جميعاً رماحهم أرضاً لتأكيد ذلك. وبما أننا رسونا بهدف شراء المؤن، رافقنا العرب إلى خيامهم القريبة، وحين دنونا منها، لاقتنا امرأتان، وقبلتا يد الشيخ باحترام بالغ، فردّ بتقبيل رأسيهما. ولم يكن وجههما مغطى، وقد رسمتا عينيهما ورموشهما بالكحل، المصنوع من الرصاص، وزيّنتا جبينهما، وخدودهما، وذقنيهما بنقوش سوداء.


JAMBO
GRÚNFUDE

وطلبت هاتان الحسناوتان منا الكحل والحنة لزيادة محاسنهما، وتأسفنا لأننا لم نفكر بحمل هدايا كهذه من جدة للجنس العربي الجميل. ويبدو أن هؤلاء العرب متحضّرون نوعاً ما، بالرغم من أنهم يتسكعون في الصحراء، ولا يتعاملون مع سكان المدن. فقدموا لنا الحليب الذي يحفظونه في جلد الماعز، والزبدة التي تصنّع في جلود الماعز، والخبز السيىء بالرغم من أنه أفضل ما يخبزون. واشترينا بعض المؤن، لكن العرب اضطروا إلى الصعود على متن المركب لقبض المال وقد وافقوا على ذلك دون صعوبة تذكر.

في ٢٤ صباحاً، أبحرنا والرياح شمالية شرقية، ومررنا قرب مرفأ صغير يسمى نهود (Nhûd). وعند الظهر، كنا على خط عرض ١٨°، ٤َ ، وكانت ظبان (Dhabân) إلى الشرق، والوسّوم إلى الجنوب الشرقي، لكنهما بعيدتان، ويمتد شاطىء شبه الجزيرة العربية تقريباً نحو الجنوب والجنوب الشرقي. وعند المغيب، رسونا بين كرمبل (Kolümbel) واليابسة، وكرمبل جبل صغير في البحر كان فيما مضى بركاناً، على ما يدعي العرب، ومما جعل هذه الجزيرة الصغيرة مميزة هو أننا اضطررنا لإعطاء القبطان بعض المال. ولم أتمكن من تحديد ارتفاع القطب إلا بتحديد ارتفاع المشتري، وبالتالي كنا على خط عرض ١٧°، ٥٧َ ، قرب كرمبل. وقيل لنا إنه لا يوجد جزر أخرى بين هذه الجزيرة وجزيرة فران (Firân) إنما العديد من أرصفة المرجان.

وفي ٢٥ ظهراً، كنا على خط عرض ١٧°، ٣٩َ ، وكان جبل عطود والمرسى الذي يحمل الاسم نفسه إلى الجنوب الشرقي، استناداً إلى أقوال قبطاننا، لكن على مسافة بعيدة، وعند المساء، رسونا على مسافة كبيرة من اليابسة، إلى الغرب والجنوب الغربي من جبل عطوي (Attuie) أو عطود أي على الحدود الشمالية لإمارة أبي عريش. ومنذ غادرنا جدة، لم نرَ سوى جزء صغير من هذه السلسلة الجبلية التي تقطع شبه الجزيرة العربية بالطول، وفي هذا اليوم لم نرَ منها شيئاً لكثرة ما ابتعدنا عنها.

وفي ٢٦، رأينا من بعيد مرسى شط البقر (Chabt el Bakkar)، ومرسى حمرين (Hämerejn). وعند الظهر، كنا على خط عرض ١٧°، ٢٢َ ، ولم نرَ من حولنا جبلاً، أو مرسى، أو جزيرة. وعند المساء، رسونا قرب شعب الكبير (Schāb el Kabir)، وكانت جزيرة فرسان التي يكثر فيها صيد اللؤلؤ إلى الجنوب الغربي منا. وتبين لي أن ارتفاع شعب الكبير هو ١٧°، ١٢َ ، استناداً إلى ارتفاع زُحل الذي قسته بدقة، ولاحظت في ذاك اليوم أن الشاطىء يمتد نحو الجنوب الشرقي والجنوب.

وفي ٢٧ صباحاً، مررنا أمام جزيرة الدروجي (Dsjesiret ed Drédsji)، ومرسى (Mersa)، الطرفة (Turfa)، ورأس جيزان (Râs Dsjesân)، ويبرز هذا الرأس الأخير كثيراً في البحر، ولا ينبغي خلطه بالجبل أو بلسان الأرض الذي تقوم عليه مدينة جيزان، وعند الظهر، أبحرنا في عرض البحر، فلم نعد نرى اليابسة مما منعني من تحديد موقع أي مكان على الارتفاع الذي كنا عليه أي على ارتفاع ١٦°، ٥٦َ . وبعد الظهر، مررنا قرب جزيرتي أبي شريجة (Abu Schureija) ودراكة (Duraka). وعند الرابعة

والنصف كنا بين جزيرتي هابور (Habôr) وجيزان (Dsjesân)، لكننا لم نرسُ لأن شريف هذه البلاد مشهور بسوء استقباله للأجانب ولرعايا إمام اليمن، لذا لا يمكنني أن أقول سوى أنّ مدينة جيزان تقع على لسان أرض وقرب جبل متقدم في البحر. وعلى بُعد حوالي ميل إلى الجنوب من جيزان، حددت ارتفاعنا على ١٦°، ٣٩َ ، استناداً إلى ارتفاع زُحل، وعلى بعد ربع ميل نحو الجنوب، أصبح ارتفاعنا ١٦°، ٤٠َ ، استناداً إلى ارتفاع المشتري. ومنعتني الظلمة من القيام بهاتين الدراستين بالدقة اللازمة، لكن إذا ما انطلقنا من الوسط، تقع مدينة جيزان على خط عرض ١٦°، ٤٤َ . وأبحرنا طوال الليل، لأن الرياح كانت تدور حول الشفق، وبالتالي كانت مؤاتية لنا أكثر منها خلال النهار حيث استمرت تعاكسنا. في ٢٨ ظهراً، كنا على خط عرض ١٦°، ١٢َ ، وكانت جزيرة الغراب الصغيرة على بعد ميل منا إلى الجنوب والجنوب الشرقي أي على ارتفاع ١٦°، ٨ ؛ أما جزيرة بيكيلام (Bikillâm) فإلى الشمال الغربي. وكنا بالكاد نرى القارة، وبعد الظهر مررنا أمام جزيرة بحيس (Baheis)، وأمام قرية صغيرة على اليابسة أعطت اسمها للجزيرة، وهي تحوي قبر أحد كبار أولياء المسلمين.

وفي ٢٩ صباحاً، وصلنا مرفأ مخيّة، ورسونا على بعد ٤/٣ الميل من المدينة. وخلال رحلتنا من السويس إلى المخيّة، سمعنا عن كثير من الأسياد المستقلين الذين لا يهتمون بالتعامل مع الأجانب، ولهذا يصعّبون عليهم مرورهم في بلادهم التي ظنناها رائعة لفرط ما سمعنا عن الأمان في المناطق التابعة لإمام اليمن. وعلمنا، خلال الرحلة، أن الشيخ مكرامي من نجران يخيّم مع جيشه في منطقة أبي عريش، وبالتالي عزز الإمام حامية المخيّة، وأمر حاكم المدينة ببناء برج جديد أو حصن كما يسميه العرب، خوفاً من أن يزحف الشيخ مكرامي على مدينة المخيّة. وودِدنا أن نتوجه مباشرة عبر البحر إلى المخا أو على الأقل إلى الحديدة، لكن تاجرين من المخا، رافقانا من جدة، قررا متابعة الرحلة عبر البر. وكنا قد تعبنا من السفر بحراً بسبب الرياح المعاكسة، فنزلنا إلى اليابسة وتوجهنا إلى منزل الحاكم، لنعرف منه إن كنا نستطيع السفر بأمان من المخيّة إلى المخا عبر البر.

ويطلق عرب اليمن لقب صاحب الدولة أو أمير على حكّام المدن. أما حاكم لحية فيدعى الأمير فرحان، وهو أفريقي، أسود البشرة. أتوا به إلى اليمن حين كان فتى لبيعه، فاشتراه باشا يدعى الماس، وكان صاحب الدولة في بيت الفقيه لسنوات عدة ثم أصبح أحد أبرز وزراء الإمام في صنعاء. وبعد أن علّم الباشا فرحان، أمّن له وظائف صغيرة، لكن قدراته جعلت نجمه يلمع في البلاط، فرقّيَ إلى رتبة بايلي (Bailli) أو حاكم إقليم كبير. وهو سيد مهذب، مستقيم السيرة، وصديق للأجانب، قلنا له إننا أوروبيون، وإننا نستعد للذهاب إلى المخا عبر الحديدة ومن ثم إلى الهند الشرقية على متن مراكب إنكليزية، وإن كخيا جدة حمّلنا رسالة توصية موجهة إليه وإن السيد يحيى رمضان أحد أبرز التجّار في جدة أعطانا واحدة أخرى لمحسن المكاويش (Mâhsen el Makáwisch)، أبرز تاجر في مخيّة

لاستخدامهما إذا ما توقف المركب لأيام في المدينة. وكنّا نرتدي ثياباً طويلة، وقد أرخيت والسيد فورسكال لحيتنا، وكان الأمير قد عاشر الكثير من الإفرنج في مخا، لكنه لم يرحب يوماً بهذا المظهر، كما لم يسمع يوماً بأوروبيين يقصدون اليمن عبر الخليج العربي، وعرف النصارى ورآهم يرتدون ثياباً طويلة كما هي العادة في الشرق. وسألنا إن كنا نصارى أم افرنج، فأجبنا أننا ندين بالنصرانية وأننا من أوروبا، لأننا نعلم أن المسلمين ينظرون إلى المسيحيين نظرة أفضل من تلك التي ينظرونها إلى من يتبع الديانات الأخرى، ولم نكن ندري إن كانوا يعتبرون الأوروبيين وثنيين. سلّمنا الأمير الرسالة واستقدم كاتب التاجر محسن لاستلام الرسالة لأنّ هذا الأخير مريض، ولقراءة الفقرة التي تعنينا للحاكم.

ولم يعرف الحاكم، حتى هذا اليوم، من الأوروبيين سوى التجار الذين تدفعهم تجارتهم نحو اليمن. وبعد قراءة الرسائل، تبين له أن أحدنا طبيب، والآخر يبحث عن النبات والثالث يهتم بالنجوم، الخ. وأننا لا نحمل معنا أية بضائع تدفعنا إلى استعجال وصولنا إلى المخا، فطلب منا أن نبقى في لحية لبعض الوقت، ووعدنا بنقلنا إلى المخا على إبله. ورجانا التاجر، الذي كان بأمس الحاجة لطبيب، أن نأتي لزيارته، وقدم لنا أحد منازله للإقامة فيه، ولم نكن نتوقع عروضات كهذه من العرب. لكن، لنخفي هدف رحلتنا الأساسي وأعني رؤية أكبر عدد ممكن من المدن والسفر براً في اليمن، تحججنا بخوفنا من أن تندلع الحرب بين الشيخ مركامي وشريف أبي عريش فتمنعنا بالتالي من السفر بأمان في البلاد. عندها، أكد لنا الأمير، أن لا خوف علينا في لحية، وأنه بإمكاننا السفر بكل أمان على كافة أراضي الإمام، سيده. ثم عرض لنا صعوبات السفر بحراً مع الرياح المعاكسة التي تسيطر خلال هذا الفصل في محيط مكرم، وأضاف أن السفر براً أكثر راحة، وباختصار، فإن أفضل نصيحة يسديها لنا هي أن نغادر المركب. وسعدنا للقائنا مسلمين أكثر تحضراً كلما ابتعدنا عن مصر، لاسيّما وأن سكان هذا البلد، الذي نسعى لزيارته وإجراء دراسات فيه، عاملونا بأدب وتهذيب. وبما أن الفرصة تسنت لنا لزيارة هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، من دون أن نثير الشك، بأننا نود الانتقال إلى اليابسة، لم نتردد في ترك المركب.

ودخلنا المدينة لرؤية المنزل الذي خصّصه التاجر لإقامتنا. ولم يطلب الريّس منا أن ندفع كلفة الرحلة كاملة سلفاً، كما يفعل الذين يملكون قوارب بين القاهرة والسويس، فخشي ألاّ ندفع له الكلفة الكاملة حتى الحديدة، ورجا الأمير، كما قيل لنا لاحقاً، ألا يدعنا نسافر أو أن يجبرنا على دفع أجره كاملاً، فوعده هذا الأمير بدفع المبلغ إن نحن تخلفنا عن ذلك، لكن الريّس لم يرضَ بالجواب، فتوجه إلى التاجر محسن الذي عرض عليه أن يضمننا. وفي الواقع، لم نكلف هذين السيدين هذا العناء، لكن بدا لي عرض هذين المسلمين كريماً للغاية، فبالكاد تلاقي بعثة عربية هذه المعاملة في أوروبا.

وما إن قررنا نقل متاعنا إلى اليابسة، حتى أمر الأمير طاقم مركبه بجلبها، ولم يرضَ بأن يكلفنا أيّ شيء سوى الإكراميات المعتادة للبحارة، وكي لا نتعرض لأي إشكال مع موظفي الجمارك أو الحمّالين،

عمل كاتب التاجر على إرضائهم. وعند المساء، أرسل لنا الأمير نعجة للترحيب بقدومنا، مع رسالة مجاملة للغاية، راجعوا اللوحة (XIV) في وصف شبه الجزيرة العربية، دعانا فيها ضيوفه وأكد لنا أننا نلقى الترحيب في مرفأ اليمن هذا كما يمكننا البقاء فيه بكل أمان.

وكان مركب الأمير، الذي استخدم لنقل متاعنا، مبنياً بطريقة متينة، لكن، ووفقاً لعادات البلاد، صنعت الأشرعة من الحصر التي لا يدفعها الهواء والتي يصعب التحكم بها، لذا عدنا متأخرين، وبما أن المياه تنسرب كلياً تقريباً أمام المدينة عند المدّ، اضطررنا إلى انتظار أول جزر لنرسو عند الجسر. ولم نتمكن من نقل متاعنا إلى اليابسة في تلك الليلة، فسألنا إن كانت في مأمن قرب الشاطىء، وحين علم الأمير بقلقنا أرسل جندياً لحراسة المركب طوال الليل. وأكّدوا لنا أننا يمكن أن نسلّمه كل ما نملك، لكننا لم نكن لنثق بجندي عربي، فبقي أحد أعضاء البعثة وخادمنا على متن المركب، وتمّ نقل أسرّة الآخرين إلى اليابسة من دون أن يطالب أحد بتفتيشها. وبقيت عُدّة الطبخ في المركب، فأرسل لنا التاجر عشاءً لذيذاً، أعاد لنا نشاطنا، إذ لم نأكل طبقاً ساخناً منذ غادرنا جدة. ولم يكن ينقصنا سوى النبيذ، وبقي لدينا القليل من الكحول السيئة التي حملناها معنا من المدينة، واستعلمنا أولاً عن إمكانية الحصول على مشروبات روحية، لكنها غير متوفرة في لحية، ولم يكن بإمكاننا استقدامها من صنعاء حيث تكثر عند اليهود، إذ ينبغي نقلها في أوعية نحاسية مما يجعلها مضرّة للصحة. وأخيراً، أحضروا لنا شراباً قوياً، ظننته بوظة (Busa)، لكنه تسبب لنا غثياناً قوياً، فقررنا الاستغناء عن المشروبات الروحية لبضعة أشهر.

وفي اليوم التالي، نقلت صناديقنا إلى الجمارك حيث تمّ فتحها، وخشينا أن يفتشوها بصرامة ودقة، لكن الموظفين قاموا بعملهم بتهذيب فائق. ولاحظنا أن الأمير يود رؤية معداتنا ومعرفة كيفية استخدامها، فعرضنا له ما ظنناه يسعده والأعيان الذين اجتمعوا في الجمارك. وطلب السيد فورسكال ـ الذي كان يعرض على الحضور أشياء عدة تحت المجهر ـ من الخدم إعطاءه قملة حيّة، وبدا أن هؤلاء أحسوا بالإهانة إذ ظن الأوروبي أنهم مصابون بهامّة كهذه، لكن حين وعدهم بدفع بعض المال، قدم له أحدهم ما طلبه، ولم يسعد الأمير شيئاً بقدر ما أسعده رؤية هذه القملة مكبّرة، وتأملها كافة الأعيان، وأخيراً، نادى على الخادم الذي أقسم أنه لم يرَ قملة عربية كبيرة كهذه، ولا بد أن هذه الموضوعة تحت الزجاجة قملة أوروبية. لكنه روى لأصدقائه أنه باع في ذاك اليوم للأوروبيين قملة واحدة بأربعة قروش، وكان الجميع يعلم أننا لسنا من أولئك التجار الأوروبيين الذين يأتون من الهند إلى المخا، فظن الشعب أننا تجار من نوع آخر، وأننا نجيد استعمال القمل أحسن من العرب، لذا حضر في اليوم التالي شخص وعرض علينا قبضة من القمل، ثمن الواحدة قرشاً. وفيما بعد، طلب السيد فورسكال من الصبية جمع البزاق وحشرات أخرى متنوعة مقابل بضعة قروش، فجاءنا آخرون، يعرضون الحشرات للبيع، ونستنتج مما تقدم أن سكان اليمن أقدر على التجارة من باقي العرب. ومن بين كافة الأدوات التي عرضتها على عرب لحية، أثار

منظاري الفلكي، الذي يظهر الأشياء مقلوبة، الإعجاب. ورأوا من بعيد سيدة تسير، وتفاجؤوا حين رأوها تسير وقدماها إلى الأعلى دون أن تنقلب ملابسها، الخ. وعند كل جديد، كانوا يصرخون الله أكبر، وسعد الجميع بوجود أجانب فريدين في مدينتهم، وسرّنا أن نلاقي هذا القدر من المودّة بين سكان هذه البلاد.

أما المنزل، الذي خصّصوه لإقامتنا، على الطراز الشرقي، حول ساحة مربعة، فلم تكن فيه غرف مؤثثة بشكل جميل، إنما تحيط به محال يمكن إقفالها، وأمامها ممر مفتوح. ويعتبر هذا المكان سيئاً إذا ما قورن بفنادق أوروبا الجيدة، لكنه عملي ومريح في تلك البلاد. خلال الأيام الأولى، عجّت الساحة بالعرب الذين دفعهم فضولهم إلى المجيء لرؤية الأوروبيين، لكن وجودهم أزعجنا في بعض الأحيان، لأنهم يستغربون كل ما يرونه حتى ما لا يدعو للاستغراب. ودفعنا هذا إلى توظيف بواب، أمرناه بعدم إدخال أحد إلاّ أصحاب بعض المهن، وهكذا ارتحنا قليلاً، لكن جاءنا الكثيرون بحجة رؤية الطبيب. وحين يستعلم هذا الأخير عن أوجاعهم، يصفونها بشكل يثير ضحكنا. فقد طلب أحدهم من السيد كرامر أن يجس نبضه وأن يطلعه على ما ينقص، ولم يستطع شخص آخر النوم فجاء يسأل الطبيب عن السبب الخ. ولم يذع صيت السيد كرامر في هذه المدينة إلا حين وصف لباش كاتب مقيئاً، فقد أعطى هذا الدواء مفعوله من الأعلى والأسفل حتى فقد المريض عزمه. لكن بما أن العرب يفضلون المسهلات القوية، طلب العديد منهم من السيد كرامر دواء كالذي استعمله الباش كاتب. واستدعى الأمير بحر (Bahhr)، وهو المشرف على المركب، والذي يمنع دخول أو خروج أية بضاعة لم تدفع الرسوم، لطبيبنا. وحين لم يذهب على الفور، قيل له إن حصان الأمير بحر ينتظره أمام بابنا وعليه سرجه، ويتم وضع السرج على الجياد العربية في الإسطبلات كي تمتطى في أي وقت كان. وظنّ السيد كرامر أن الأمير أرسل الجواد ليسرع إليه، فأراد امتطاءه، لكن أشاروا إليه أن الحصان هو المريض الذي ينبغي شفاؤه. ولا يخجل الطبيب العربي من ممارسة مهنته على الحيوانات بعكس السيد كرامر، لكن لحسن حظنا اكتشفنا طبيباً آخر في بعثتنا، وهو خادمنا، الذي خدم لسنوات في فوج الخيالة السويدي، وتعلّم العناية بالجياد، فعمل على علاج الجواد ونجح في ذلك، فاعتبره العرب طبيباً، واستدعي لعلاج الناس.

وفي أحد الأيام، حضر عربيان لرؤيتنا نأكل على الطريقة الأوروبية، وأحدهما شاب من أعيان صنعاء، تظهر تصرفاته أنه تلقى تربية حسنة، أما الآخر فمن قحطان، حيث قلما يرون أجانب، وهو رجل ذو مكانة بين شعبه لكنه بسيط، وبدا لنا أن رفيقه اصطحبه معه ليتسلى ويهزأ به. وكان القحطاني قد سمع أموراً غريبة عجيبة عن الأوروبيين، وحين دعوناه ليأكل معنا، أجاب ببساطة أعوذ بالله من الأكل مع الكفّار الذين لا يؤمنون بالله. وسجلت اسم موطنه، وطرحت عليه بعض الأسئلة حول مدنه وقراه، فسألني: «بم يهمك موطني؟ أتنوي التوجه إليه والاستيلاء عليه؟» وبما أننا كنا لا نزال نعيش على النمط

الأوروبي قدر المستطاع، أثارت الطاولة والمقاعد والصحون والملاعق والسكاكين والشوك استغرابه. وطرح بعض الأسئلة وأعطى ملاحظات جدية حول عاداتنا، ولما ضحكنا من بساطته، خرج خجلاً، لكن صديقه نجح في العودة معه مرات عدة. ويقدم العرب اللحم مقطعاً، فرأى على مائدتنا فراريج مشوية كاملة، وكنا قد أكثرنا من الطعام برأيه، فظنّ أن علينا التوقف عن الأكل، إنما حين رأى السيد دي هافن يتحضر لتقطيع فروج آخر، شده من ذراعه وسأله عن الكمية التي ينوي التهامها، وأثار سؤاله ضحكنا، فخرج الرجل بسرعة ولم يتمكن صديقه من اللحاق به. وتمنى علينا هذا الأخير ألاّ نستاء من قلة التهذيب التي أظهرها رفيقه لشدة بساطته وانسحب بدوره. لا بد أن هذا العربي سيروي في موطنه الأخبار عن غرائب عادات الأوروبيين، وسيستمع إليه الجميع بحماسة كما يستمع الأوروبيون لأولئك الذين يروون مغامراتهم المزعومة في بلاد بعيدة.

واستمتعنا بإقامتنا في المخية، حتى طاب لي وللسيد بورنفند أن نعزف على كمانينا عند المساء كتنائي. مما جعل جيراننا والمارة يظنون أننا موسيقيون. وطلب منا تاجر عجوز، سمع بأخبار موسيقانا، أن نزوره ونحضر معنا القيان، لكننا رفضنا لعلمنا أن الموسيقيين لا يتمتعون بالمكانة والاحترام اللازمين بين العرب. ودفعت الحشرية لرؤية الأوروبيين هذا العجوز، الذي لم يكن قادراً على السير، إلى الطلب من خدمه بأن يضعوه على حماره، وأن يسندوه كي يتمكن من زيارتنا. وكان الرجل مهذباً للغاية وأكّد لنا أنه لا يكره المسيحيين، وأن ديانته لا تسمح له بذلك لأن الله خلق الناس أجمعين ويتقبل الديانات كلها، وأنه يفضّل المسيحيين على أولئك الذين يتبعون ديانات غريبة، وذكر لنا حديثاً من الصحيح يقول فيه محمد إنه يمكن أن تأمن جانب المسيحي أكثر من اليهودي. وبعد تناول مواضيع متعددة، تحوّل الحديث إلى الموسيقى، وأعرب العجوز عن رغبته برؤية آلاتنا، وبسماعنا نعزف عليها، فقمنا بعزف بعض المقطوعات الهادئة التي تعجب الشرقيين وإن كانوا لا يتذوقون موسيقانا. وسرّ العجوز كثيراً، وأراد إعطاء كل واحد منا نصف درهم لدى مغادرته، ولا يردّ العرب عامة أيّة هدية مهما كانت صغيرة، لذا فاجأ رفضنا للمال العجوز الذي كان يعتقد أن ما من أحد يتكبّد مشقة تعلّم العزف إلاّ لكسب المال، وأننا نحتاج لبعض المساعدة لأننا نصرف الكثير من دون أن نكسب من تجارة ما.

وكان هذا التاجر من القلائل الذين رأيت لحاهم مصبوغة باللون الأحمر، ولم يذكر لي أي سبب لذلك سوى أنّ اللحية الحمراء أجمل من اللحية البيضاء، في حين يرى الآخرون أنه يحاول إخفاء تقدمه بالسن. واستنتجت من ذلك أن العاقلين بين العرب لا يوافقون على عادة صبغ اللحية باللون الأحمر، ولاحظت في هذا المناسبة، وفي مناسبات أخرى، أن المسلمين لا يكترثون أبداً لسنّهم. وحين نستعلم عن أعمارهم يجيبون أنهم ولدوا حين كان فلان أو فلان في الحكم أو أنهم كانوا فتياناً حين وقع هذا الحدث أو ذاك، لكن تاجرنا هذا أوضح الأمور أكثر، فهو يعلم أنه في السبعين من عمره ولا يظن أنه تجاوز



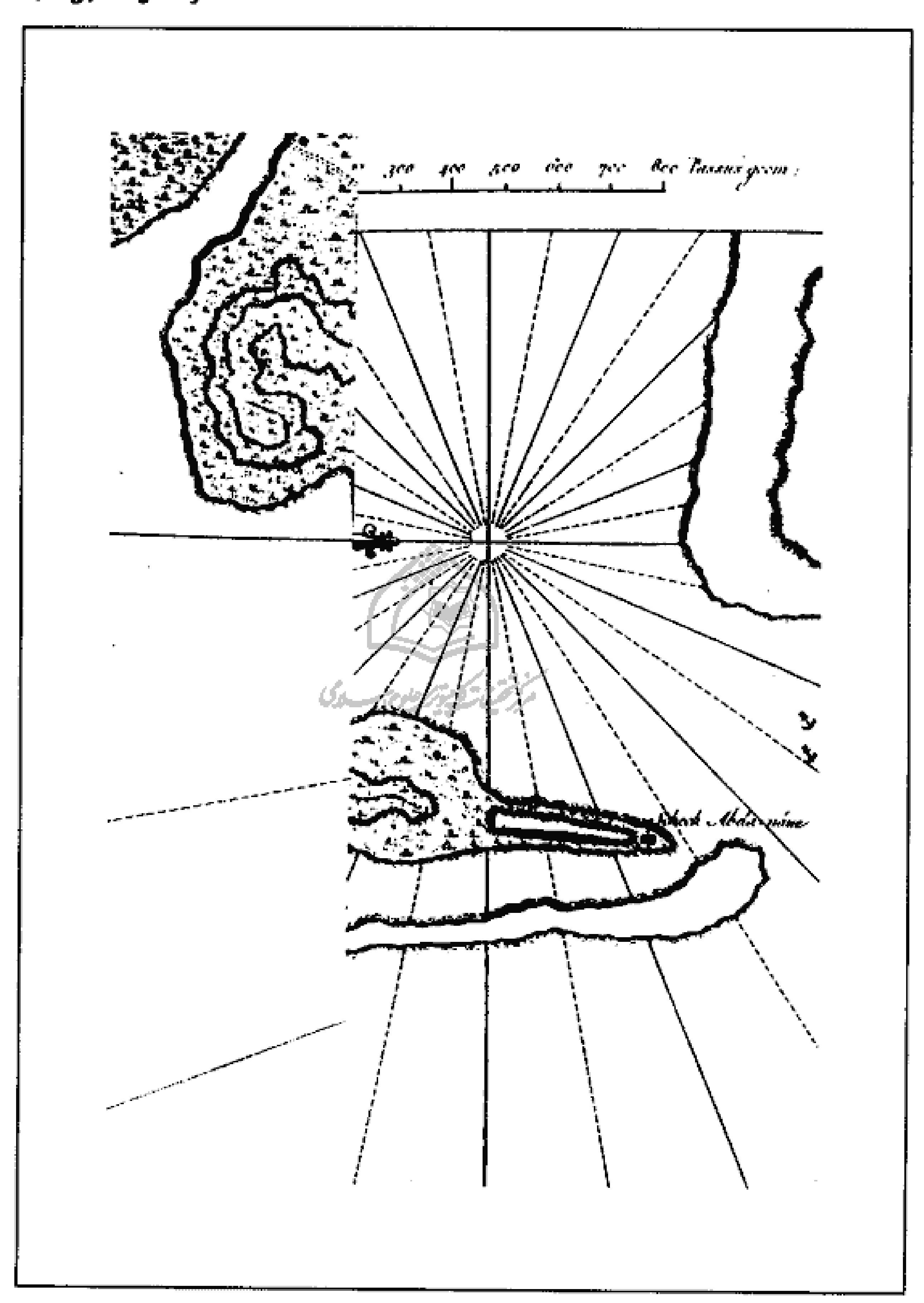
الثمانين، في حين أن معارفه يعتقدون أنه قارب التسعين. وتوطدت الصداقة بيننا حتى أنه دعانا مراراً لزيارته وقدّم لنا أفخر القهوة والتبغ والمربى، ولم يتزوج يوماً وفقاً للأصول لكنه يتبجح بأنه غرر بعدد من الجواري (٨٨ إن لم أكن مخطئاً)، وأنه باعهن فيما بعد، أو تزوجهن، أو أعتقهن. وقال لنا إنه يملك، منذ بضع سنوات، جاريتين شابتين وجميلتين وأنه يتمنى أن يفعل بهما ما فعل بسالفاتهما وبعدها يموت عن طيب خاطر، ووعد طبيبنا بهدية قيّمة إن مكّنه، بفضل علمه، من تحقيق رغبته. وكنا قد تعرفنا على تاجر ثري في جدة، زرناه غالباً، يعاني المشكلة نفسها، وكان في العقد الخامس، ويملك منزلاً في مكة يقصده لبضعة أشهر، لكن من دون طيب خاطر، إذ يملك فيه جاريتين جميلتين تسعيان دوماً لتأجيج نار حبه لكن خيبته تجعله حزيناً، فقدّم لطبيبنا مئة ريال إن استطاع مساعدته ليشفي غليله مرّة واحدة. ولفرط ما تناول من أدوية وصفها له الأطباء الإنكليز لم يتمكن السيد كرامر من مساعدته(*). لكن أعود لوصف مدينة لحية: بنيت هذه المدينة منذ حوالي ٣٠٠ عام، على يد وليّ مسلم، يدعى الشيخ صالح (Sälei)، ويعتبر اليوم شفيع هذه المدينة لأن عرب تهامة من أصل السنّة ويجلّون كثيراً هؤلاء الأولياء المزعومين بالرغم من أن دينهم يحرّم تقديسهم. بنى هذا الشيخ لنفسه كوخاً على شاطىء البحر، خارج لحية، في المكان الذي نجد فيه اليوم ضريحه، وعاش فيه متنسكاً. وبعد موته، تمّ بناء قبّة فوق قبره، ومع الأيام، تمّ تكبيرها، وتجميلها، واعتبارها وقفاً: وبما أن المسلمين المؤمنين يتوقعون أن يباركهم الله في هذه الدنيا وفي الآخرة، إذا ما أقاموا وماتوا في جوار هذا المزار، بنوا لهم بيوتاً في محيطه. وفي ذاك الوقت، كان حاكم الإقليم يقيم في مرابع (Marábea)، وهي مدينة صغيرة، على بعد ميل إلى الشمال من لحيّة، لكن حالة مرفئها ازدادت سوءاً، فهجرت المدينة، وتوسعت لحية، وأضحت فيما بعد مكان إقامة صاحب الدولة. وأشير هنا إلى أن ذريّة أولياء السنّة في التهامة يتمتعون بمكانة ذرية محمد في العالم الإسلامي كله إنما بقدر أقلّ، ويطلق عليهم لقب شيخ، كما يطلق على سلالة محمد لقب، شريف، وسيّد، وأمير ومولى، ويعتقد الناس أن التقوى وحب الفضيلة من شيم هؤلاء أكثر من عامة الشعب. ويتمتع زعماء العائلات هذه بهيبة واحترام بين الناس لأنهم ولدوا رجال دين، لذا لا يستغرب أن يشيدوا بقداستهم، ويحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم قديسين. ويعتبر ابن الشيخ صالح المدفون في مّوْر (Môr)، وابنه الآخر المدفون في بهاس (Bahâs) شفيعي هذين المكانين.

(*) تضع نساء مخيّة، عندما يخرجن إلى الشارع، خماراً كبيراً يغطين به وجوههن فبالكاد نرى إحدى عينيهن. لكنهن لسن متشددات كفاية فهن قد تنسين أحياناً إسدال الستارة لاسيّما حين تظن الواحدة منهن أنها جميلة وأنها تستطيع كشف وجهها وكأن شيئاً لم يكن. رسم السيد بورنفايند إحدى نساء لحية، وقد نقشت على وجهها بعض الزينة باللون الأسود وصف شبه **الجزيرة العربية**، ورسمت حاجبيها بالسواد، ووضعت حلقات عدة في معصميها، وقرطين في أذنيها، وعقداً من اللؤلؤ المزيف حول جيدها... راجعوا اللوحة (LIX). لكن هذه الصورة تحمل مغالطة واحدة وهي أن كمّي القميص ينبغي أن يكونا بنفس العرض من أعلاهما وحتى آخرهما.

وتقع مدينة لحية في مكان مجدب، وقاحل، وفي بعض الأحيان على جزيرة، لأن الأرض منخفضة نحو الشمال حتى أن الرياح الجنوبية حين تعصف لوقت طويل، وتعلو المياه، يغطي المدّ هذا الجزء من المدينة، وقلما يحدث هذا خلال عام واحد. وهي على خط عرض ١٥°، ٤٢´ ، وعلى بعد فرسخين و٣٩ دقيقة و١٤ ثانية على خط الطول إلى الشرق من باريس. وهو المرفأ الأكثر إلى الجنوب في المناطق الخاضعة للإمام، لكن حالته سيئة إذ إنّ المراكب الصغيرة التي تقصده تضطر للرسو على مسافة بعيدة من المدينة، حيث الجزر فلا تستطيع القوارب الصغيرة الاقتراب منه. وتبقى التجارة الأولى في هذه المدينة هي البن الذي ينتزعون بزوره ويبيعونه. ولا يضاهي هذا البن جودة بن بيت الفقيه الذي يتم نقله عبر مخا وحديدة، وهو أرخص ثمناً، ولا تعتبر كلفة نقله إلى جدة عالية نظراً إلى أن المسافة التي تفصل المنطقتين ليست بكبيرة. ولهذا السبب، نجد تجّاراً من القاهرة يقيمون في لحية ويشترون البن لأصحاب عملهم أو أصدقائهم في جدة، ومصر وتركيا، كما يقصد الكثير من أبناء القاهرة لحية سنوياً لشراء البن لحسابهم الخاص. ويقيم حوالي ٤٠ بنيانياً في المدينة، لكن غالبيتهم من الحرفيين الفقراء أو من الخدم لدى من يتبعون الديانة نفسها.

وبالرغم من أن مخيّة غير محاطة بالأسوار، فهي ليست بالمدينة المفتوحة كلياً، إذ نجد فيها ١٢ برجاً من جهة اليابسة، يبعد الواحد منها عن الآخر ١٢٠ خطوة مزدوجة، وتشبه هذه الأبراج أبراج المراقبة القديمة في ألمانيا، فأبوابها مرتفعة لا يمكن ولوجها من دون الاستعانة بسلّم. ويقيم الجنود، الذين يشكّلون حامية المدن التركية، قرب الأبواب أو في المدينة نفسها، ونجد حراساً في كل برج من أبراج لحية تقريباً. وكان معظم جنود المدينة يجلسون في الفيء في أسفل الأبراج، يدخنّون النرجيلة ويشربون الكيشر (وهو شراب يحضّر من سِنفة البن)، لكن رؤيتي في هذا المكان المنعزل أثارت انتباههم. وجدير بالذكر أن تسجيل الخطوط والزوايا في طرف كهذا يشكل خطراً عليّ في تركيا وفي أوروبا، لكنني لم أكن أخشى شيئاً بين العرب، حتى أن الضابط المسؤول دعاني للجلوس بينهم، ومشاركتهم بما قدموه لي من اهتمام، وسألني عن كيفية بناء الحصون في أوروبا، فضلاً عن طريقة خوض الحروب، الخ. واستمعوا إليّ باستغراب وأنا أقص عليهم أخبار أوروبا، وعرضت عليهم اختراع الكتابة من دون حبر (بقلم)، وأخذت أسجل أمامهم الخطوط والزوايا من دون أن يرتابوا بالأمر، حتى أنهم نادوا رفاقهم في الأبراج القريبة ليروا الغرائب التي رأوها. وهكذا، رسمت خارطة مدينة لحية ومحيطها على اللوحة (LX)، فيما حملت اللوحة (LXI) منظراً عاماً للمدينة.

بنيت غالبية هذه الأبراج بطريقة تمكّنهم من الدفاع عنها بالسلاح الأبيض. أما البرج، الذي أمر الأمير فرحان ببنائه فجهّز لوضع مدافع فيه، ونجد قرب البرج الخامس مبنى فيه بعض الأسلحة. ونشاهد أمام البرجين الرابع والخامس حفرة في الصخر. وتعتبر هذه التحصينات غير مجدية، حتى أن عرب حاشد،



منذ سنوات، اجتازوها وأحرقوا المدينة، لذا لا يتكل أهالي مخيّة عليها كثيراً، إذ علمنا، في شهر أيار/مايو في مخا، أن عدداً كبيراً منهم لجأ إلى جزيرة يرموك (Ormúk) الصغيرة، ونقلوا إليها أغلى ما عندهم حين علموا أن بضع مئات من رجال حاشد وبكيل دخلوا تهامة وتقدموا حتى مور (Môr). وغادر العديدون بيت الفقيه، وتوجهوا إلى مرفأ الحديدة، ليتمكنوا من الانسحاب بسرعة نحو بعض الجزر إذا ما تقدم العدو أكثر، لكنه تراجع حين لاقاه الأمير فرحان مع جنده(*).

بني العديد من منازل مخيّة من الحجارة، لكن معظمها كتلك المرسومة في الصورة I للوحة الأولى في وصف شبه الجزيرة العربية أي كمنازل تهامة عامة، ولا يكلّف بناء منزل كهذا الكثير من المال فهيكله من الخشب الرقيق الذي يقطع من الأشجار أو الدغل، وتطلى الجدران بالصلصال الممزوج بالروث ثم تطلى من الداخل بالكلس، وتصنع السطوح من أعشاب تكثر في هذه البلاد. وتفتقر هذه المنازل للنوافذ، وتسدّ الأبواب بالحصر المصنوعة من القش. ويؤثث داخل هذه المنازل بالأسرة كتلك المرسومة في الصورة «ز» من اللوحة الأولى في وصف شبه الجزيرة العربية، ولا تغطى هذه الأسرة سوى بحبال من القش، وهي مريحة جداً للجلوس والنوم، لا سيّما أن أرض تهامة رملية، لجدبها، مما يجعل النوم عليها مزعجاً للغاية. ولا تقسم هذه المنازل إلى غرف عدة، وحين تكون عائلة العربي كبيرة ويملك ماشية، يقوم ببناء أكواخ عدة ويحيطها بسور عال، لذا تحتل المنازل مساحة واسعة ولا يمكن أن نعتبر عدد سكان تهامة بعدد سكان أي مدينة في أوروبا وتركيا تمتد على المساحة نفسها.

نجد خارج المدينة العديد من أفران الكلس، حيث تكلّس أحجار المرجان الكبيرة المستخرجة من البحر عند الجزر. وتكسر هذه الحجارة، وتكلّس في الهواء الطلق دون بناء أفران، وفي وسط هذه الحجارة المكسورة شاهدنا عدداً من الأصداف المستطيلة المخيّة. ونجد في الخليج العربي الكثير من الأصداف والأسماك الجميلة. وقد أعطيت سابقاً فكرة عن مراكب الصيادين في لحية في وصف شبه الجزيرة العربية.

وتعتبر مياه مخيّة غير صالحة للشرب، وتشرب العامة من مياه الوادي ومن مياه بئر نعمان الذي يقع على بعد ٣/٤ الميل إلى الشرق من المدينة، أما مياه بئر كندي الواقع على بعد ميلين و٢/٣ الميل إلى الجنوب الشرقي فأعذب، وتبقى أفضل مياه في مخيّة هي مياه فتيت التي تقع على مسافة ميلين ونصف الميل إلى الشمال الشرقي من المدينة. ولا ينقل أهالي مخيّة الماء إلى المدينة في عربات بل على ظهور الحمير والجمال، ولا يستخدمون لذلك جلود الماعز، كما في السويس، أو الأكياس الجلدية، كما في تركيا والقاهرة، إنما جراراً حجرية بيضاوية الشكل، تتدلى عن جانبي الجمل، كما تظهر في اللوحة ١٦

(*) تفسير أرقام اللوحة LX: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢ أبراج مراقبة خارج المدينة. ١٣، منزل الحاكم والجمارك ويرجان بالقرب من هذا المكان. ١٤، المبنى الذي يجمع فيه البن، وينتزع بذره ويباع. ١٥، المسجد فوق قبر الشيخ صالح حيث يصلي الحاكم نهار الجمعة. ١٦، مقابر. ١٧، الأتون. ١٨، الطريق إلى بيت الفقيه. ١٩، الدرب الذي يؤدي إلى آبار فتيت (Ftite).

في وصف شبه الجزيرة العربية. وإلى الشرق من مخيّة وعلى بعد ميل و٣/٤ منها، نجد جبلاً صغيراً يحمل اسم كوخشا (Kóscha) وتكثر فيه الأملاح المعدنية التي تستخرج منه بسهولة.

وجمعنا في مخيّة كمية كبيرة من الغرائب الطبيعية، وبما أن نقلها براً مكلف للغاية، أرسلناها إلى المخا بحراً مع أمتعتنا التي لم نكن بحاجة إليها خلال رحلتنا عبر اليابسة. وأضاف الأمير فرحان إليها رسالة موجهة إلى صاحب الدولة في المخا، يرجوه فيها أن يسمح بإبقاء أمتعتنا في الجمارك لحين وصولنا. وبعد أن جمعنا كافة المعلومات التي تهمّنا حول هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، أعربنا عن رغبتنا بزيارة مدن أخرى من هذه المملكة. ووجدنا الحجة المثلى في خبر وصلنا عن مركب إنكليزي وصل إلى المخا من الهند في أواسط شهر شباط/فبراير، وأعلمنا صديقنا الأمير فرحان بنيتنا التوجه إلى بيت الفقيه، والاستراحة فيها ثم إكمال طريقنا إلى المخا. فسألنا عمّا يثير استياءنا في مخيّة وأكد لنا أنّ ما من حاكم في بلاد الإمام سيهتم لأمرنا بقدره هو، وكان محقاً فيما قاله. وبعد ذلك أصبح الحكّام، الذين لم يأبهوا لأمرنا من أعزّ أصدقائنا. وكان الأمير فرحان يعلم أن ما من مركب يعود إلى الهند قبل حزيران/يونيو، وأراد أن نبقى عنده حتى ذاك الحين، لكن حين أعربنا عن حاجاتنا للتحدث مع مواطنينا (يصبح الأوروبيون كلهم مواطنين في هذه البلاد البعيدة) وافق على ما أردناه، فقمنا باستئجار الجمال والحمير في الحال لنقلنا ومتاعنا إلى بيت الفقيه.

ويوم أردنا توديع الأمير فرحان، لم نتمكن من التحدث إليه لمرض ألمّ به في ذاك اليوم، فطلبنا إعلامه بسبب زيارتنا، وبأننا سنسافر إلى بيت الفقيه في اليوم التالي. وطلب منا البقاء ليوم أو يومين في مخيّة، لكننا لم نشأ ذلك لأننا كنا جاهزين للمغادرة، فأرسل بطلبنا في وقت متأخر من الليلة نفسها. وكان قد طلب مني حين وصلنا إلى مخيّة أن أعيره جهاز رصد النجوم الإنكليزي الرباعي القاعدة خلال فترة إقامتنا في المدينة. ولم أرغب بطلبه منه، لأن أيّ مسلم كان ليظن أني قدمته له هدية، لكن الأمير فرحان وضعه أمامه بعد أن لفّه بقطعة قماش حريرية وجعل عليه كمية كبيرة من الدراهم الألمانية وهي أكبر عملة تستخدم عادة في اليمن، وبعد أن سألنا، إن كنّا لا نزال نصرّ على السفر في اليوم التالي، وقال مازحاً للعرب الحاضرين إن الإقامة في مخيّة لا تعجبنا ـ دون شك ـ لأننا نغادر المدينة بسرعة، الخ، أراد إعادة الجهاز لي، لكنني رجوته أن يحتفظ به، فأكّد لي بعد اعتذارات جمّة أنّ هذه الهدية تسعده للغاية. ثم منح طبيبنا قطعة القماش وفيها ٢٠ درهماً فاعتبر الأخير أن بإمكانه قبولها لأنه أعطى الأمير أدوية عدة. وقدم لنا مبلغاً من المال لدفع بدل استئجار الحمير والجمال التي ستنقلنا إلى بيت الفقيه، فرفضناه معللين السبب أننا لم نأتِ شبه الجزيرة العربية لنعيش على حساب أهلها. وبما أننا كنا ننوي التجوال في كافة البلاد الخاضعة للإمام، فخشينا ألا يساعدنا حكام الأقاليم الأخرى، الذين قد يفتقرون لكرم الأمير فرحان، إن شكوا بأننا ننتظر منهم أن يقدموا لنا الهدايا. وفاجأ رفضنا العرب كثيراً، إذ لم يكتفِ بعض

المسافرين الأتراك الذين وصلوا إلى مخيّة بطلب المال لرحلتهم بل طالبوا بمعاش لهم. ولم يكن خادمنا الأوروبي، الذي شفى أحد خيول الحاكم، حاضراً فأرسل له عشرة دراهم كمكافأة، ولم يرَ هذا الأخير أي داعٍ لردّ المال.

وبما أن الأمير قدم لطبيبنا ولخادمنا الهدايا دون موافقتنا، وبما أننا لم نشأ أن ندين لعربي بشيء، قررنا أن نقدم له بالمقابل ساعة أسعدته كثيراً، وإن أصرّ لبعض الوقت على رفضها قائلاً إنه لا يستطيع أن يقبل هدية كهذه منا لأننا مسافرون. وسببت لنا لياقتنا مع الأمير فرحان الطيب الكثير من المتاعب لاحقاً، فقد ذاع خبر كرمنا تجاهه، فظن حكّام المدن الأخرى أن من حقهم توقّع هدايا منا قبل أن يقدموا لنا أية خدمة. ولم يكن الأمير فرحان يملك ساعة ولا يعرف كيفية استخدامها، لكن تاجراً من القاهرة، من بين الأجانب الذين اعتادوا زيارة الأمير يومياً، كان يملك فيما مضى ساعة، فوعد بتعبئتها كل يوم.

ومن بين العرب الذين اعتادوا زيارتنا، مثقفان فقيران، أعطياني توضيحات عدة حول الجغرافيا وحول مواضيع أخرى، وقد استخدمتها في وصفي لشبه الجزيرة العربية، لذا لا داعي لذكرها هنا.

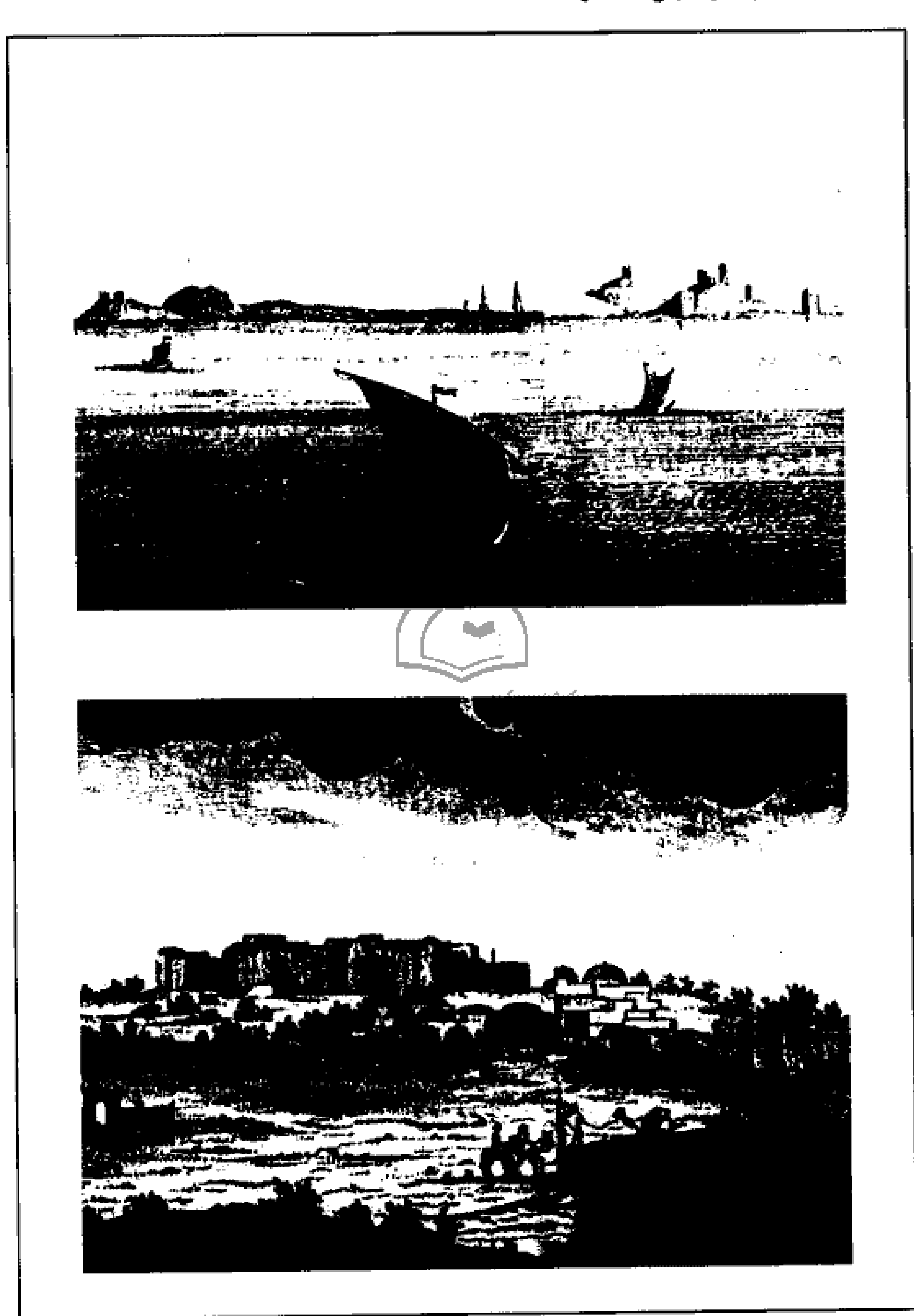


رحلة من مخية إلى بيت الفقيه

في اليمن يمتطي الناس عادة الحمير ـ ليس لأنه لا يحق للمسيحيين ركوب الخيل كما في القاهرة ـ بل لأن استئجار الخيل صعب في هذا البلد. إلا أن الحمير المستعملة في المدن الشرقية وللسفر هي من جنس خاص فهي كبيرة الحجم وشجاعة ولا تزعج في السير. ولشدة قدرة هذه الحمير على المشي، يجبر الرجل الذي يسير خلفها على القيام بـ ١٧٥٠ خطوة مزدوجة في نصف ساعة. وكنت بحاجة لأدقق في هذا الموضوع لأتمكن من تصحيح خارطة اليمن. بعد أن عرفت سرعة سيرنا، لم يبقَ لي إلا مراقبة الوقت الذي نستهلكه للانتقال من مكانٍ إلى آخر وتحويله إلى خطوات مزدوجة وأميال لأتمكن من معرفة طول المناطق(*). لمعرفة وجهة الطريق اكتفيت باستعمال بوصلة جيب تماماً كما فعلت للذهاب إلى طور سيناء. ولا شك أنه لا يمكن قياس الزوايا بدقة بواسطة آلة صغيرة لكن على ظهر الحمار تصبح عملية المراقبة أسهل. وحرصت أثناء الرحلة على قياس ارتفاع القطب كلما وجدت ذلك ضرورياً. وكنت كلما سرت بضعة أيام، أصحح اتجاه الطريق من خلال قياس ارتفاع القطب والبوصلة. ثم جمعت أسفاري إلى اليمن كافة وصرت أملأ المكان الشاغر بأسماء المدن والقرى التي لم أكن قد رأيتها بل تأكدت من وجودها. وهكذا، دوّنت خريطتي التي أضفتها إلى هذا المجلّد.

ولا يمكن أن نتوقع أن الخارطة التي رسمتها لليمن هي شديدة الدقة كتلك التي رسمها مسافرون أوروبيون لجؤوا إلى الملاحظات الفلكية والهندسية. إلا أني لم أوفر جهداً لمعرفة جغرافية البلد ولأوجّه أسفاري لمعرفة مواقع الأماكن الرئيسية التي يسيطر عليها الإمام. وإني أعلم أن قارئي سيملّ من قراءة كافة الأسماء الغريبة التي تعود إلى هذه الأمكنة: لكن بما أننا نجهل مناطق شبه الجزيرة العربية قررت ألا أكتفي بذكر أسماء القرى بل أيضاً أسماء الأكواخ التي تُعتبر كالمقاهي والتي تكون معزولة على طول الطريق. وغالباً ما تسمى هذه الأكواخ باسم القرى المجاورة ويمضي صاحبها نهاره كله فيها لكنه يبيت ليله في القرية في منزل عائلته. من هنا نعلم أن هذا الجزء من شبه الجزيرة شديد الاكتظاظ بالسكان.

(*) لن يستغرب القرّاء من قياسي سرعة الجمال اليمنية إذ كنت قد قست سرعة الجمال قرب جبل سيناء بالرغم من أننا لم نسر قرب الجمال إلا نادراً. كنا نستعمل جمالاً صغيرة وكبيرة في قافلتنا لحمل المتاع. وفقاً لساعتي، كانت الجمال الكبيرة تمشي ٦٥ خطوة مزدوجة في الدقيقتين. أما الصغيرة فتمشي ٧٥ خطوة. وهكذا فعلى الأشخاص الذين يمشون إلى جانبها أن يخطوا ١٠٠ خطوة مزدوجة بدقيقتين أو ١٥٠٠ خطوة في كل نصف ساعة.



ولأن السفر إلى تهامة آمن تماماً كالسفر إلى أوروبا، لم نكن بحاجة إلى انتظار انتقال القافلة. لكن بما أننا توقفنا في ٢٠ آذار/مارس للذهاب إلى مخيّة أرسلنا في ذلك اليوم جمالنا محملة بأغراضنا بالإضافة إلى خادمين ليهتموا بها. وبعد مرور ساعات، لحقنا بهم على ظهر الحمير. ثم مررنا بمنطقة قاحلة وصحراوية بالقرب من الخليج ثم ارتحنا في مقهى ليس سوى كوخ قريب من قرية تدعى عكام (Okêm). تقع هذه القرية على الخط المستقيم الذي يعد ميلين ألمانيين عن جنوبي شرقي مخيّة وتبعد قليلاً عن البحر ولا نجد في جوارها ماءً عذباً.

وخلال وصفي لهذه الطريقة سأستعمل دوماً كلمة كوخ للإشارة إلى المقهى ويسمي العرب هذه الأكواخ مقيلة (Mokeija). وحتى لا يظن القارىء أن الخدمة في هذه الأكواخ جيدة مثل خدمة المقاهي الأوروبية سأقول لهم أولاً إن هذا المقهى سيىء البناء لدرجة أن بيوت مخيّة الأكثر فقراً تظل أفخر منه. فأحياناً لا نجد فيه أي سرير وتنحصر فيه الضيافة على القهوة التي تقدم في فناجين من فخار. والعرب الأثرياء الذين لم يعتادوا على شرب القهوة في أقداح مماثلة يحملون معهم أثناء السفر فناجينهم الصينية المصنوعة من الخزف. ويقدم الماء العذب مجاناً في هذه الأكواخ ويعتبر المرطب الوحيد.

انطلقنا في اليوم نفسه من «أُقام» وبعد أن اجتزنا أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي، وصلنا إلى قرية الجالية عند منتصف الليل. ولقد كانت المياه فيها سيئة للغاية وكنا في هذا اليوم قد سرنا ستة أميال ألمانية.

في ٢١ شباط/فبراير توجهنا نحو الجنوب الشرقي ووصلنا إلى حميان (Hamjân) وهي القرية الأولى التي وصلنا إليها بعد أن اجتزنا ميلاً وربع الميل. ومن حميان وصلنا إلى سبأ (Sâbea) التي تبعد ربع ميل عنها ومنها إلى منير (Meneyre) وهي تبعد ربع ميل عن سبأ. إن قرية منير متوسطة الكبر وفيها مسجد جميل ونزل يقصده المسافرون فيتلقون الخدمة مجاناً لو شاؤوا الاكتفاء بنمط حياة أهل البلد فيستقبلون في كوخ مشترك ويعطون سريراً وخبز الذرة الساخن وحليب الناقة والزبدة. وجدير بالذكر أن مثل هذا النزل لا يفرغ أبداً من المسافرين. ولو كانت هذه الضيافة موجودة في أوروبا لكان عدد النازلين هنا أكبر بكثير. ثم ما إن علم صاحب نزلنا بوجود أشخاص أوروبيين في دياره حتى سارع إلينا شخصياً لمعرفة ما إذا كنا نحظى بمعاملة حسنة ولو أننا تمكنا من المكوث لفترةٍ أطول لذبح نعجة على شرفنا. ولقد خبز لنا خبز الحنطة وهو نادر في القرى ثم أحضر لنا خدمه حليب البقر بعد أن لاحظوا أننا غير معتادين على شرب حليب النوق. ويقال إن هذا الحليب منعش وصحي في البلاد الحارة لكنه لزج كثيراً فإذا وضعنا إصبعنا فيه ثم رفعناه، يمتد الحليب مثل الخيط. ورأى خدامنا العرب أن صاحب النزل سيستاء إن نحن عرضنا عليه دفع مصروف إقامتنا عنده لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ما حدث لاحقاً لكنا عرضنا عليه هدية وحسب. فلقد استأذنا للرحيل دون أن ندفع شيئاً ودون أن يسألونا أن ندفع شيئاً لكن الخادم الذي لم يتجرأ على طلب أي شيء في حضور سيّده تبعنا للحصول على هديّة بعد أن تأكد أننا ابتعدنا مسافة لا تسمح لسيّده برؤيته.

يقع جبل القمة في الجنوب الغربي من المنير. وقرب هذا الجبل من جهة الغرب هناك قرية كبيرة تدعى صعدة (Sädie) ولقد ذهب السيد فروسكال لرؤيتها عندما كان يجمع العشب في وادي سُرْدد (Surdûd)(*).

انطلقنا من المنير وسرنا مسافة ميل وربع نحو الجنوب الشرقي فوصلنا إلى بيت الفقيه. أما المحجم (El Máhhjâm) الذي ذكره أبو الفدا فليس بعيداً من هنا لكنه مدمّر ما عدا المسجد القديم الشهير الذي رقمه الأمير فرحان. وكان يلزمنا نصف ميل للوصول إلى بيت الشيخ ومنه ميلاً للوصول إلى الضِحِي (Dahhi) حيث قضينا الليل. وفي هذا اليوم لم نمش إلا أربعة أميال ونصف الميل.

تعتبر الضِحِي قرية كبيرة فيها مسجد وقبر ولي من الأولياء وقلما نرى فيها منازل من الحجارة. وفي خارج القرية هناك مصبغة ومعمل قرميد حيث يشوى القرميد لا في الفرن لكن في الهواء الطلق. كما ورأينا في ثلاثة أماكن مختلفة كمية كبيرة من الآنية التي يصنع فيها اللون الأزرق. إن ثمن هذا اللون رخيص في اليمن إذ يباع كل ٢٥ رطلاً بدرهم واحد إلا أنه سيىء النوعية. يستعمل هذا اللون كثيراً في اليمن لأن النساء كافةً يرتدين قمصاناً وسراويل زرقاء. يقيم في ضاحي وفي الجالية مساعد صاحب الدولة الذي يكون على رأس مجموعة من العسكر علماً أن هاتين القريتين تخضعان لحاكم مخيّة. وكان الأمير فرحان الذي أعطانا رسائل توصية قد أمر السكان أن يعطونا نعجة. إلا أننا أبينا خاصة أننا وصلنا إلى الجالية في ساعة متأخرة لكننا علمنا لاحقاً أن أحد خدم الأمير فرحان الذي سافر معنا بغية تحصيل أعماله الخاصة تقاسم ثمن هذه النعجة مع قاضي القرية. وبعد أن علمنا أن الفلاحين يدفعون على كل حال، أخذنا منهم في الضِحِي كل ما أمرهم حاكم مخيّة بدفعه.

وقضينا يوم ٢٢ من شباط/فبراير في الضحي، واستطعنا قياس ارتفاع هذه القرية ١٥°، ١٣َ. للذهاب من مخيّة إلى صنعاء يجب المرور بهذه القرية.

أما الطريق الأقصر للذهاب من الضحي إلى بيت الفقيه فهو من خلال المرور بمروة (Maráua). لكن بما أن هذه الطريق خالية من الماء ومن القرى، تركنا ضاحي في ٢٣ شباط/فبراير وبعد أن اجتزنا غابة صغيرة وصلنا بعد سيرنا ٨/٣ الميل إلى كوخ يدعى سباريد (Sabarid). تشكل نقطة هذا الكوخ الحدود بين مخيّة وبيت الفقيه. وبعد ذلك سرنا ميلين ووصلنا إلى مكان فيه عدة قرى مبعثرة يسميها القرويون كافة بني عفيف. رأينا بئرين على الطريق، وعلى مسافة ربع ميل وجدنا القرية المسماة شرجو (Schirdsjâu). وعلى مسافة ٨/٣ الميل من هذه القرية وإلى غرب الطريق تقع قرية دير الخليل وبعدها بـ ٥/٤ الميل تقع دير العفة. وكانت الطريق مزروعة بالآبار هنا وهناك.

(*) لقد دوّنت على خريطتي كافة الأسفار التي قام بها السيد فروسكال إلى مورو وادي سردود. فرسمت بالقلم الأحمر السفرات الرئيسية (أي الطرقات) التي قامت بها الجماعة كلها وباللون الأخضر السفرات الخاصة.

إلى هنا كنا قد مشينا باتجاه الجنوب الشرقي وبعد أن سرنا نصف ميل آخر بالاتجاه نفسه وصلنا إلى وادي شعب الحجر الذي يتلقى الماء في أيام المطر من جبل برّه (Burra) وفي شماله هناك جبل آخر يدعى حفّاش (Hofäsch) ويمتد إلى صنعاء. وبعد اجتياز ثلاثة أرباع الميل جنوبي شرقي شعب الحجر نصل إلى قرية لم اعرف اسمها. تتميز آبار تهامة كافة بأرضيتها المنحنية فنرى الرجال والثيران والحمير تنزل للحصول على مياهها مما يسهل عليهم هذه العملية. ويرفع الماء في أكياس كبيرة من الجلد تكون مربوطة إلى حبل معلق على بكرة. والجدير بالذكر أن هذه الآبار عميقة بمجملها. يبلغ انحدار البئر ٣٤ قدماً أو من ١٦٠ إلى ١٧٠ خطوة من حيث الطول وهذا هو طول الحبل وبالتالي عمق البئر. من هناك مررنا بوادي شعب دفين حيث لا نجد الماء الجاري إلا في أيام المطر. وبالقرب من هذا الوادي من جهة الشرق وعلى بعد نصف ميل من الطريق، هناك قرية كبيرة تدعى مدوّر. وعلى بعد ٢/٣ الميل من البئر السابق رأينا قرية صغيرة تدعى دفين (Defûn) وهناك ربع ميل من دفين إلى قرية غانمية القريبة من الجبال على ارتفاع ١٤°، ٥٨ً . إن هذه القرية كبيرة مثل ضاحي تقريباً لكن ليس فيها أي بناء حجري سوى المسجدين. وحتى مساعد صاحب الدولة الخاضع لحاكم بيت الفقيه كان يعيش في مسكن شعبي يشبه البيوت العادية في تهامة.

في ٢٤ شباط/فبراير تركنا غانمية وتوجهنا نحو الجنوب الغربي وبعد أن سرنا ميلاً وثمن الميل وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى قطية (Kataja). حيث هناك نزل مجاني في القرية لاستقبال المسافرين لكننا لم نتوقف فيه. في الفترة الباقية من النهار سرنا نحو الجنوب أحياناً بسرعة وأحياناً ببطء مما حال دون تمكني من أخذ طول الطريق من خلال الوقت الذي صرفناه في اجتيازها. وبالقرب من جبل عالٍ في شرق الدرب رأينا «قرى» كثيرة تدعى كلها شعارى (Schäâra) على اسم قبيلة أو عائلة عربية. بعد ذلك وصلنا إلى وادي شام وهي شأنها شأن سائر وديان تهامة، لا تغمرها المياه إلا أثناء المطر. وفي منتصف الطريق بين غانمية وبيت الفقيه هناك وادٍ آخر واسع يدعى البلي (El Belle) وقربه قرية تحمل الاسم نفسه. ثم وصلنا إلى قرية تدعى التماني (El Téamâni) ورأينا بعدها عدة قرى أخرى. أخيراً وصلنا بعد منتصف الليل بنصف ساعة إلى كوخ أو ما يشبه مقهى فقضينا الليل فيه ولم نجد فيه إلا شاباً لديه ستة أصابع في كل يد وكل قدم.

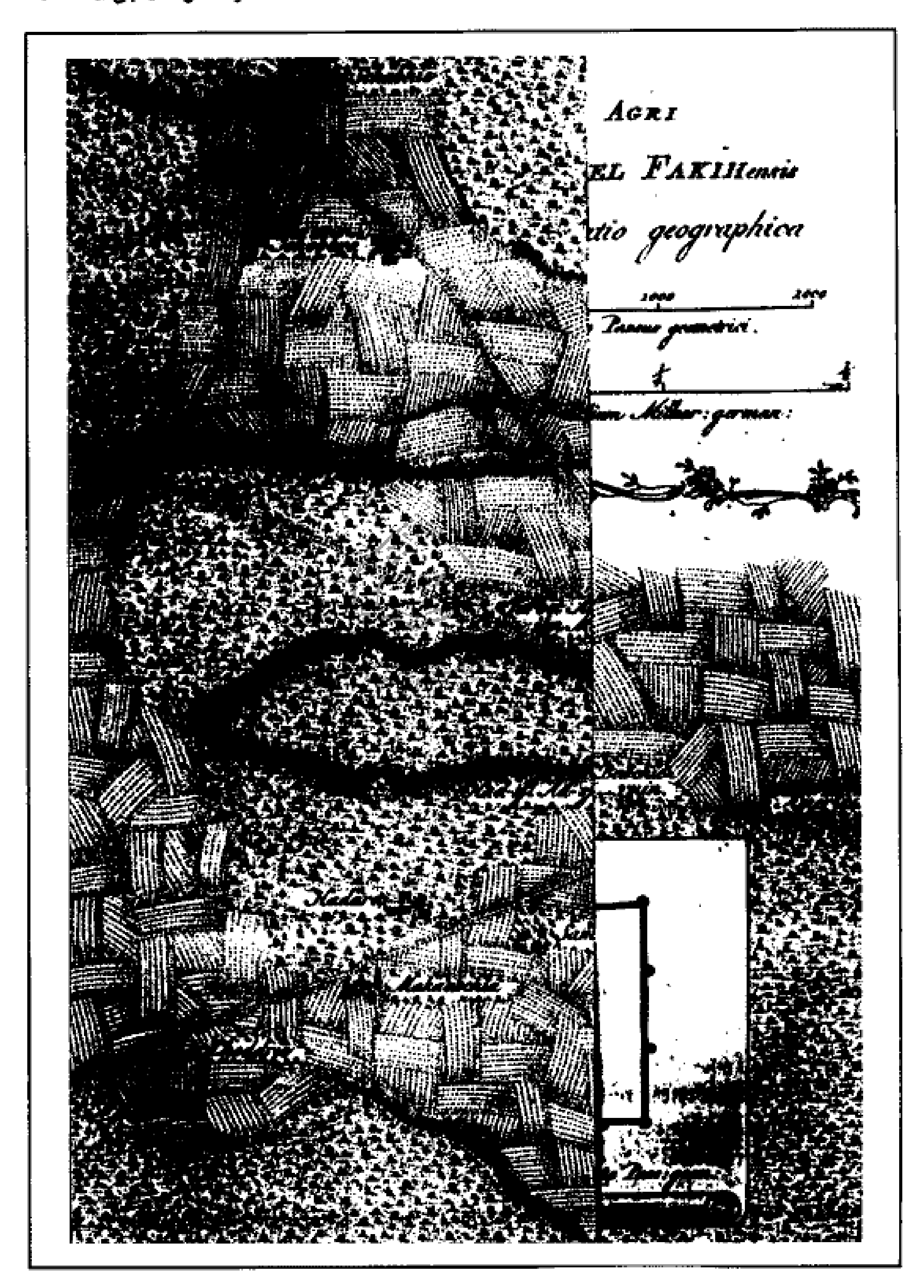
ثم في ٢٥ شباط/فبراير كنا على بعد ميل واحد من بيت الفقيه. وصلنا إلى بيت الفقيه في الصباح الباكر فنقلنا أغراضنا أولاً إلى الجمرك لكن لم نتمكن من فتح صناديقنا إلا عند الظهر. وفي هذه الأثناء سلّمنا رسالة من محسن المكويش (Machsen el Mekawisch) من المخيّة إلى عنبر سيف أحد أهم تجار بيت الفقيه الذي استقبلنا بحفاوة بالغة ولم يكتف بأن نقل أغراضنا من الجمارك إلى منزل استأجره لنا بل دعانا جميعاً إلى العشاء في ضيافته لأننا لم نكن قد استقررنا بعد.

إن بيت الفقيه هي مسكن صاحب الدولة الذي يحكم ولاية كبيرة تقع على ارتفاع ١٤°، ٣١ً .

وهناك قلعة في هذه المدينة يعتبرها أهلها شديدة الأهمية. ثم إن المدينة مفتوحة والمنازل بعيدة عن بعضها وهناك الكثير من الحجارة المستعملة في تدعيم البناء إلا أن غالبية المنازل قد بنيت على الطريقة الهندسية في تهامة أي إنها تتألف من أكواخ طويلة مستديرة السطوح ومغطاة بالعشب. نزلنا في بناء حجري هرب منه صاحبه للتخلص من حشرات حجمها كحجم النمل تسمى أرضة (Ard). كانت هذه الحشرات الموجودة في كافة الغرف تشق طريقاً لها مغطى بالتراب اعتباراً من الأرض وحتى المكان الذي تبحث فيه عن الطعام. وهي تأكل الفاكهة والثياب وكل ما تجد، فليس إذاً من الغريب أن يكره العرب شغل منزل تملؤه الحشرات. كما وتحدث هذه الحشرات أضراراً كبيرة في المنزل. تشق طريقها من جذور الشجرة حتى رأسها فتأكل الخشب الجديد وتقضي على الشجرة. ويقال إنها لا تهجم على كافة الأشجار بل تقصد الشجر ذا الخشب الناعم. ولأن البستانيين يعرفونها يقومون بتدمير ممراتها. أما نحن فطمرنا طرقاتها في الغرف لكنها كانت تعيد شقها دائماً. وتعمل هذه الحشرات بسرعة في الظلام لكن حركاتها تبطئ على ضوء الشموع. وعلى طول الطريق في تهامة رأينا نباتات كبيرة مغطاة بالتراب وعندما كنا نهزها لإبعاد التراب عنها كنا نرى أعداداً من هذه الممرات المغطاة وكانت النباتات جافة تماماً.

إن موقع هذه المدينة يعتبر استراتيجياً بالنسبة للتجارة فهي تبعد مسافة نصف يوم عن الجبال التي تنتج البن ومسافة يوم ونصف عن مرفأ حديدة ومسافة أربعة أيام عن المخا وأربعة أيام ونصف عن مخيّة وستة أيام عن صنعاء. وفي بيت الفقيه تقوم أكبر تجارة للبن على صعيد اليمن كلها وربما على صعيد العالم بأسره. تجتذب هذه التجارة إلى المدينة تجاراً من الحجاز ومصر وسوريا والقسطنطينية وفاس والمغرب والحبشة والساحل الشرقي في شبه الجزيرة العرب وبلاد فارس وبلاد الهند وحتى أوروبا. ومن سكان هذه المدينة هناك وثنيون من الهند وغالبية من الديو (Diu). يتمتع هؤلاء بحرية ممارسة دينهم علناً لكن يمنع عليهم حرق موتاهم وإحضار نسائهم معهم إلى اليمن؛ ومن هنا نجدهم يسرعون إلى العودة إلى بلادهم ما إن يجمعوا بعض المال. وفي أيامنا كان في المدينة أكثر من ١٢٠ من البانيان والراسبوت منهم التجار الأثرياء والحرفيون البارعون.

ليست مدينة الفقيه بالمدينة القديمة لأن عمرها بعض القرون مثل مخيّة. ويعود أصلها إلى شيخ شهير يعتبره العرب في تهامة فقيهاً لذا فإن اسمها أي بيت الفقيه يعود إليه. يدعى هذا العربي أحمد بن موسى ولا يزال ضريحه قائماً إلى اليوم داخل مسجد مبني على تلة رملية خارج المدينة. وحتى اليوم يحتفل به الشعب مرة كل سنة في شهر ربيع الأول. وفي السنوات الأولى كان المؤمنون يشيدون منازلهم حول ضريح فقيههم. ثم مع تدهور الحركة في مرفأ غلفقة، تدهور حال التجارة فيها كما في زبيد وبدأت تزدهر في مدن أخرى منها بيت الفقيه. وبعد أن كبرت هذه المدينة لدرجة أن سيّد الولاية قرر أن يشيّد فيها قلعة، اختار مكاناً يسهل فيه جلب المياه لكن ذلك كلفه عناءً كبيراً. فمن دون ذلك لما كانت القلعة شديدة الأهمية. ولا شك


AGRI
EL FAKIHensis
atio geographica
Passus geometrici.
Milliar: german:

أن العرب بعد ذلك وجدوا أن صاحب الدولة والقلعة يوفران الأمن أكثر من فقيههم. وصاروا يشيدون بيوتهم قرب القلعة، لذلك لا نجد قرب مسجد أحمد بن موسى إلا بعض الأكواخ.

وإليكم بعض الكرامات التي تعزى إلى هذا الفقيه المسلم: كان أحد الباشاوات الأتراك محجوزاً لأكثر من ٢٠ سنة في إسبانيا وكان قد تضرع من دون جدوى لعدد كبير من الأولياء، إلى أن تذكر الفقيه أحمد فتضرع إليه. فما كان من الفقيه إلا أن أخرج يده من ضريحه وفي اللحظة نفسها وصل الباشا من إسبانيا إلى بيت الفقيه مكبلاً بالسلاسل ومربوطاً إلى حجرين. ويقال إن هذه المعجزة حصلت أثناء الليل بينما كان الناس يحتفلون بعيد الفقيه أحمد وفي حضور عدد كبير من الناس ولا تزال السلاسل والحجران موجودة إلى جانب ضريح الولي.

وباعتبار أن هذه المدينة ليست عريقة الأصل، فلن أتوقف عند آثارها. فانا لم أجد فيها إلا الكتابة الكوفية القديمة التي أدرجتها في اللوحة السادسة من كتاب «**وصف شبه الجزيرة العربية**». ولقد نقلت الكتابة في حضور عدد كبير من المشاهدين دون أن يتهمني أحد بالتنقيب عن الكنوز أو بممارسة الشعوذة كما فعل المصريون، وكما يفعلون عادة بغية الحصول على المال. لقد كان المشاهدون شديدي التهذيب وخاصة الشيوخ والعلماء المسلمون منهم. ولقد شعر هؤلاء بالغبطة لرؤية أجانب يتكبدون عناء فك رموز كتاباتهم لتعلم اللغة العربية القديمة.

تقع بيت الفقيه فيما يشبه الوادي. ومع أنها ليست شديدة الخصوبة إلا أن الزرع لا ينقصها، كما يظهر في اللوحة (LXII) التي حددت فيها القرى التي رأيتها على الطريق. والمناطق التي بدت مغطاة بالعشب الأخضر في هذه اللوحة هي المناطق غير المزروعة والموصلة المغطاة بالعشب الذي يفرش على سطوح المنازل في تهامة. وتشير العلامة إلى الآبار المحفورة في كافة الأرجاء. وهناك مصنع قرميد في جنوب المدينة، وتقع القلعة في الشمال (راجع الخريطة أ). كما ونرى في اللوحة (LXI) منظراً عاماً لبيت الفقيه.

بعد أن علم حاكم لحية أن السيد فروسكال بقي مرة وحيداً في مور رأى أن سفرنا وحدنا يعرضنا للخطر. وسمح لنا بالذهاب حيث شئنا شرط إعلامه مسبقاً لتزويدنا بأحد الجنود ولإرسال رسائل لمساعديه ولغيرهم من رؤساء القرى؛ وكنا نتخلى بسرور عن صحبة هؤلاء المرافقين إذا اشتبهنا في أنهم ينقلون أخبارنا وأخبار أبحاثنا إلى الحكومة ثم إن سكان اليمن كانوا شديدي التمدّن لدرجة أننا لم نكن بحاجة لحماية أحد حتى القضاة. ولم يكترث بأمرنا صاحب الدولة في بيت الفقيه فنعمنا بالحرية الكاملة في هذه المدينة. ولقد تعرّفنا على فقهاء فقراء وعلى تجار وحظيت بمعلومات كثيرة حول الجغرافيا وغيرها من الأمور التي أدرجتها في كتاب «**وصف شبه جزيرة العرب**».

رحلة من بيت الفقيه إلى غلفقة والحديدة والزبيد والتحيتا (Tahate) والقحمة (Kahhma) وهدية وإلى الجبال المنتجة للبنّ

كثيراً ما نسمع في تهامة بالمدن التي يذكرها أبو الفدا وغيره من الكتّاب العرب والتي تهدمت كلياً فلم تعد تمثل شيئاً اليوم. ولأن قدامى الكتاب العرب يهتمون كثيراً بموقع هذه المدن قررت أن أذهب بنفسي إلى أماكنها ليس لأحدد موقعها الجغرافي وحسب بل لأقوم بدراسات على الآثار المتبقية. ومع أني لم أجد سوى بعض الكتابات القليلة الأهمية رأيت أنها تهم أولئك الذين يدرسون اللغات لمعرفة أي حرف عربي كان يستعمل في تلك العصور في بهذا الجزء من شبه جزيرة العرب.

وبعد أن اطمأنيت إلى أن السفر آمن إلى تلك المنطقة قررت الذهاب أولاً إلى غلفقة والحديدة. ولم أجهّز نفسي كثيراً لهذه الرحلة. ثم استأجرت حماراً لنقلي وخرجاً وضعت فيه بعض الثياب والكتب. كانت ثياب سفري تنحصر في عمامة ومعطف من دون أكمام وقميص واسع على الطريقة العربية بالإضافة إلى سراويل واسعة من نسيج الكتان وزوج من الأحذية. ومع أن السرقة شبه منعدمة في تهامة إلا أنه لا بد للمرء أن يتسلّح. لذا زوّدت نفسي بسيف يتدلى من تحت ذراعي بالإضافة إلى زوج من المسدسات تحت حزامي. أما المكاري الذي كان في الوقت نفسه دليلي وخادمي والذي كان يتبعني مشياً على القدمين فكان يحمل سكيناً كبيراً وسيفاً وترساً. وجدير بالذكر أن فقراء العرب يحملون في أسفارهم رمحاً وفأساً صغيرة بدلاً من السيف. كنت أستعمل سجادة عتيقة كغطاء وكطاولة وكرسي داخل البيت وكشراشف أثناء الليل. وكنت أحمل معي أريكة صغيرة أضعها على السرج أثناء النهار وتحت رأسي أثناء الليل. وكنت أتغطى ليلاً بقماش كبير يضعه العرب عادة فوق كتفهم للاتقاء به من الشمس والمطر. كما وحملت معي جرة للماء علقتها على السرج. إن أي عربي كان معه في سفره قدرته (Kiddre) وهي الغليون الموجود في الصورة (س) من اللوحة ١٥ في صرّة في الجلد إلا أني لم أتكبّد عناء حملها معي لأني لم أكن معتاداً على التدخين ولقد عودت نفسي على العيش على الطريقة العربية فلم أحتج إلى الملاعق والشوك والسكاكين. ثم إن ذوي الشأن من العرب يحرصون على تأمين سبل الراحة أثناء السفر إلا أن ذلك مكلف جداً ويعرضهم إلى بعض المخاطر بسبب غناهم.

في ٧ آذار/مارس تركت بيت الفقيه متجهاً إلى الغرب نحو باب غلفقة الذي كان ذائع الصيت في السابق. وإليكم أسماء القرى التي رأيتها على يمين الطريق ويسارها: حاجي آجي (Hadsji Adsji)، ثمانية، حضارة، مقوشية (Makauschia)، وخضرية (Choddrie). ومن هذه القرية حتى غلفقة لم أشاهد أي

قرية لكن على بعد ٣ أميال رأيت أربعة آبار محفورة مما يدل على وجود قرى قريبة منعتني الجنيبات من رؤيتها. ولقد كانت المسافة من البئر الأخير وحتى غلفقة ميل ونصف. وكانت الطريق مغطاة بالرمال من هنا وهناك مما جعل دليلي يضلّ طريقه أحياناً لأن الهواء غيّر الكثبان المؤلفة من الرمل وكنا أحياناً نعود أدراجنا بسبب الكثبان الحديثة التكوين. ووفقاً لهذا الحساب هناك مسافة ٥ أميال و٨/٣ من بيت الفقيه إلى غلفقة وهناك مسافة مماثلة منها إلى زبيد.

كانت مدينة غلفقة شهيرة في الماضي لأنها كانت مرفأ زبيد إلا أنه لم يعد ناشطاً، ليس لأن مياه الخليج العربي تراجعت ولأن أرصفة المرجان تضخّمت وحسب بل أيضاً بسبب التلال الرملية التي كوّنها الهواء في هذا المكان منذ بضع سنوات. وتقتصر غلفقة اليوم على ٢٠ أو ٣٠ كوخاً حقيراً مشتتاً بين شجر النخيل، ويعتاش أهل هذه القرية من التمر والخراف لأن صيدهم شديد التواضع. ثم إن ثروة هذا الشاطىء هي الملح ويسمح لأي كان بأن يأخذ منه قدر ما يشاء شرط أن يدفع للحاكم (وهو أمين سر صاحب دولة بيت الفقيه) ضريبة على كل حمولة جمل. إن الجدران المقلوبة التي تبقت من مقام السيد علي المدفون في مشيد هي التي تراها فقط في هذه المدينة القديمة. ولا يزال سكان غلفقة إلى اليوم يوجهون صدقاتهم إلى السيد علي. وفي أماكن عديدة على طريق الحُديدة وجدت مياهاً غير صالحة للشرب كالتي وجدتها في غلفقة.

ولقد رأيت في مقبرة هذه المدينة حجرين عليهما كتابة كوفية وكان واحد منهما لا يزال واقفاً بينما الآخر ممدداً على ضريح ما. وعندما كنت أنقل الكتابة عن الحجر الأول مرّ بي بعض سكان القرية البسطاء فاستغربوا ما أفعل، وفي اليوم الثاني عندما جئت أنقل كتابة الحجر الثاني لم أجده ولا بد أن القرويين قد أخفوه ظناً منهم أني سأستعمل الكتابة لألحق الضرر بأهل القرية أو لأجني بعض المال. ثم توجهت إلى حكيم القرية ووعدته بمبلغ زهيد إن أتى لي هذا الحجر. فقادني في طرق ضيقة إلى أن وصلنا إلى كوخ حقير مبني على قبر شيخ يسمى صالح وأكد لي أن سكان البلد لم يخفوا الحجر بل هو هذا الشيخ الذي أخذه ليحميه. وبالرغم من ذلك نقلت الكتابات دون أن أخشى إغضاب الشيخ صالح وعرض عليّ الحكيم نقل الحجر إلى بيت الفقيه لقاء مبلغ من المال. وتجدون هذه الكتابات في اللوحتين السابعة والثامنة من كتاب **«وصف شبه جزيرة العرب»**.

في اليوم التالي غادرت غلفقة بصحبة المكاري وحسب وبعد أن سرنا غالبية الوقت على طول الشاطىء باتجاه الشمال والشمال الغربي وصلنا إلى الحديدة. فوجدنا على جانبي الطريق أشجار النخيل لكن المنازل قليلة العدد. ووفقاً لحساباتي هناك ميلان وثلاثة أرباع الميل من غلفقة إلى الكوخ المسمّى قرام (Kurêm) الذي يبعد نصف ميل عن قرية شرام الشروم. وفي شمال القرية نجد بعض المنازل وسط النخيل لكن أصحابها لا يسكنون فيها إلا عندما يثمر البلح. وهناك مسافة نصف ميل بين شرام

وسماحي. ثم بعد ذلك سرت في الليل ميلين ألمانيين خلال ساعتين وأربعين دقيقة إلى أن وصلت إلى الحديدة. إذن إن المسافة الواقعة بين غلفقة والحديدة هي خمسة أميال وربع تقريباً.

إن مرفأ الحديدة أفضل من مرفأ مخيّة إلا أن السفن الكبيرة لا ترسو فيه. ويخضع صاحب دولة الحديدة إلى الإمام مباشرة إلا أن ولايته لا تمتد إلى خارج المدينة أما عائداته فيأخذها من الضرائب المفروضة على البن المصدّر. وتتألف منازل صاحب الدولة والجمرك والتجار الأساسيين من الحجارة أما المنازل الباقية فهي تتماشى مع إمكانات العامة أي تكون مبنية بطريقة سيئة جداً. وهناك قلعة صغيرة من جهة البحر. دفن فيها شفيع الحديدة الشيخ صادق وتقع خارج المدينة. ويحتفل بذكراه في ١٥ شعبان.

التقيت السيدين دو هافن (De Haven) وكرامر (Cramer) وكانا قد قاما بجولة في الحديدة لتسليم رسائل توصية من أصدقائنا في جدة ومن صاحب الدولة إلى تاجر استقبلهما بحفاوة بالغة. ولأنني لم أرغب بإضاعة الوقت في الزيارات الرسمية، عدت إلى بيت الفقيه في اليوم التالي أي في ٩ آذار/مارس.

في هذه الفترة من السنة، لا يسافر الناس إلى تهامة إلا أثناء الليل. وباعتبار أن هذا الأمر يمنعني من رؤية الأماكن ومن رسم خارطة البلد، لذا فضلت التخلي عن برودة الليل والسفر خلال النهار وفي حرارة الشمس. تمتد الطريق باتجاه الشرق والجنوب الشرقي وقليلاً نحو الجنوب. ونجد على طول الطريق عدداً من الأكواخ يستريح المسافر لارتشاف القهوة فيها، لكن المنازل تغيب تقريباً ولقد قيل لي إن هذه الأكواخ أخذت أسماءها من القرى التي كانت بقربها. وتبعد الحديدة ٤/٣ الميل عن مشورية (Muschuria) التي تبعد ربع ميل عن أسوية (Iswie) ومنها لأشيل (Uschile) مسافة ربع ميل. أما المياه فهي عذبة في هذا المكان لذا يقصده سكان الحديدة لهذه الغاية. وتبعد أشيل مسافة ٨/٧ الميل عن مخاج (Maschdadsje) التي تبعد ثلاثة أرباع الميل عن شبير (Chabeiar) ومنها ثلاثة أثمان الميل عن موسى (Mussie) وهي القرية الأولى التي رأيتها على الطريق وتبعد ٨/٣ الميل عن وادي عباسي. ثم إن القرية التي أعطت اسمها لهذا الوادي تقع في جنوب الطريق وفي الشمال هناك قرية تدعى لوع تقع على بعد ربع ميل من غاري (Garri). ومن غاري هناك ثمن الميل إلى قرية قاما (Qama) التي تبعد ٤/٣ الميل عن مشفور ومنها نصف ميل حتى الكوخ المسمّى شعبيّة (Shābbie). من هذه القرية اجتزت مسافة ميل وثمن الميل إلى أن وصلت إلى المدينة. إذاً هناك مسافة سبعة أميال وثمن الميل من الحديدة إلى بيت الفقيه اجتزتها كلها في يوم واحد على ظهر حمار استأجرته وبرفقة دليلي الذي كان يسير على قدميه.

ولأنني لم ألقَ أي ازعاج من العرب أثناء رحلاتي، قررت القيام بالمزيد منها فتركت بيت الفقيه في ١١ آذار/مارس متجهاً نحو زبيد لأرى ما تبقى من هذه المدينة التي كانت في الماضي عاصمة تهامة ولأزور مدينة التحيتا (Tahāte) الصغيرة القريبة منها بعد أن أكد لي سكان بيت الفقيه أني سأجد فيها بعض الكتابات الكوفية. ولقد رافقني في رحلتي هذه عربي فقير لكنه يجيد القراءة والكتابة واغتنم فرصة الذهاب معي ليزور أحد معارفه في زبيد. ولقد سعدت لذهابه معي.

تمتد الطريق إلى الجنوب الغربي من بيت الفقيه. وتقع قرية جنة على بعد ٨/٣ الميل من المدينة. ثم على بعد نصف ميل من المدينة نجد كوخ أثم (Ussum) حيث يمكن ارتشاف القهوة. وبعد أن سرت نصف ميل تقريباً وصلت إلى وادي كوة وهو وادٍ صغير نجد فيه الماء في أيام المطر ويؤدي طريقه المتجهة نحو الجنوب الغربي إلى كوخ يدعى مفتئة (Mefâtea) يبعد عنه ثلثي الميل. وهناك مسافة ٨/٣ الميل إلى كوخ يدعى دمنة (Dimne) يقع على بعد نصف ميل من قرية المحِلّة (Mehálle) باتجاه الجنوب الشرقي. ولقد رأيت بئرين على هذه الطريق. ومن المحلّة نجتاز مسافة نصف ميل لنصل إلى قرية أخرى هي قرية مهاد. ولقد رأيت على هذه الطريق ثلاثة آبار محفورة. إن هذه القرية تقع في وادٍ واسع وخصب يسميه سكان المنطقة وادي المهاد. يتلقى مياهه في أيام المطر من جبل ريما (Rêma) قبل أن تتوزع في عدة قنوات. ويكثر شجر النيلة في هذا الوادي.

بعد أن اجتزت ربع ميل جنوبي غربي المهاد وصلت إلى كوخ يسمي جرّة ويمر بقربه ساعد من سواعد وادي ريما. ولقد وجدت فيه بعض الماء لكن المياه بدت راكدة وعندما مررت به مرة أخرى في ٢ آب/ أغسطس وجدت المياه لا تزال هي هي. لكن من الممكن وجود نبع في هذا المكان. ويقول الناس إنه على بعد ربع فرسخ جنوباً كانت هنالك مدينة كبيرة تدعى المهاد لكن لم يتبق منها أي منزل.

فإذا توجهنا من جرّة نحو الجنوب واجتزنا نصف ميل نصل إلى كوخ جبل ومن هذا الكوخ هناك مسافة نصف ميل وصولاً إلى زبيد. إذاً فالمسافة بين بيت الفقيه وزبيد هي خمسة أميال ألمانية و٨/٣ الميل وقد اجتزناها خلال ست ساعات وخمسين دقيقة. وعلى بعد ربع ساعة من المدينة، أراني دليلي كومة من الحجار قائلاً إنها ما تبقى من قلعة كانت لا تزال موجودة منذ بضع سنوات وإنه في العصور الماضية كان هناك مدينة كبيرة في هذا المكان وكانت تسمّى البود (El Baud).

تقع مدينة زبيد بالقرب من الوادي الأكبر حجماً والأكثر خصوبة في تهامة كلها. وكان هذا الوادي جافاً لكن موسم المطر يحمل إليه كميات هائلة من الماء تصب عليه من الجبال فيصبح نهراً كبيراً مثل النيل في مصر يسقي القرى المجاورة ويخصّبها. وفي الماضي كانت هذه المدينة مكان إقامة أمير مسلم وكانت من أهم المدن التجارية في تهامة. لكن بعد أن أصبح مرفأ غلفقة غير صالح وبعد أن انتقلت التجارة إلى المخا والحديدة ومخية وبيت الفقيه لم يتبقّ من زبيد إلا شهرة الماضي البائدة. لكن لا بد من القول إن زبيد تتمتع بأفضل مظهر خارجي من بين مدن تهامة كافة ويعود الفضل في ذلك إلى رجال الدين الذين عرفوا كيف يجذبون الكثير من الثروات، علماً أن السكان لا يحصلون اليوم إلا على خمس عائدات المدينة والبقاع المجاورة ويحصل الأمير على الخمس الثاني بينما يحتفظ رجال الدين بالأخماس الثلاثة الباقية. لذلك نجد في المدينة الكثير من المساجد والقبب التي تبيّض قبيل حلول شهر رمضان. وهذه القبب هي بناء صغير يوضع على قبر المسلمين الأثرياء الذين يعتقد الشعب أنهم بمثابة أولياء. ويقال إن

القبة المسماة جامع ابن عمر عبد الأحد حيث يؤدي صاحب الدولة الصلاة كل يوم جمعة قد شيّدها إمام كان يقيم في جبلة (Dsjöbla) وإن قبة الأشعر (El Ashär) قد بناها أحد صحابة الرسول محمد. ويقال إن مسجد باش القريب من باب شباريق والمسجد القريب من باب القرطاب وغيرها من المساجد هي من بناء الباشاوات الأتراك الذين كانوا يقيمون في المدينة وأن مسجد الإسكندرية الذي يقع اليوم داخل القصر بالإضافة إلى مسجد كمالية المجاور له قد بنتهما نساء تركيات. ونرى في هذه المدينة دور عبادة أخرى يقول أهلها إنها رائعة الجمال. ويمكننا مشاهدة آثار قناة ماء تمر في الجبال وتصل إلى المدينة ولا شك أن أحد الباشاوات الأتراك هو الذي بناها. إلا أن هذه القناة لم تعد صالحة منذ عدة سنوات. وحالياً يجلب السكان الماء من الآبار المحفورة علماً أن مياه المدينة ليست سيئة. حيث نجد في زبيد وفي جوارها بساتين غناء كثيرة.

يزعم أبو الفدا أنه كان لزبيد في الماضي ثمانية أبواب إلا أنني لم أسمع إلا بخمسة أبواب؛ كان باب النحل يقع في جنوب المدينة الغربي وقد اقتلعته المياه من أساسه منذ سنوات. ولا يزال باب القرطاب قائماً لكنه في الأغلب سيلقى مصير الباب السابق. وباب شباريق يقع في الشمال الشرقي وباب الشام في الشمال. ولم يبق من هذا الباب الأخير إلا الجدران الجانبية. ولقد هدت أسوار المدينة بكاملها تقريباً لأن الفقراء من سكانها يقومون ببيع حجارتها. ولقد دققت في أبواب المدينة وأسوارها واستغرق مني المرور حولها ساعة وبضع دقائق. وبالكاد تحتل المدينة اليوم نصف المساحة التي تقع داخل السور لكن لا نزال نجد فيها عدة مساجد وقبب.

إن جلّ ما تتميز به زبيد هو المدرسة الإسلامية التي تحتاجها تهامة كما يحتاجها قسم كبير من بلاد اليمن. إن هذه المدرسة ذائعة الصيت منذ سنوات. ولا يزال شبان السنة يتعلمون فيها إلى اليوم العلوم الشائعة بين المسلمين. وبالإضافة إلى صاحب الدولة الذي يعيش في هذه المدينة هناك أيضاً مفتٍ وقاضٍ من المذهب الشافعي، وقاضيان آخران من المذهب الزيدي كما ينتمي إمام صنعاء إلى هذا المذهب نفسه وكذلك أتباعه في المناطق الجبلية؛ كما ذكرت في **«وصف شبه الجزيرة العربية»**.

لم ألتق بين المسلمين كافة بعربي أكثر فخراً من ذلك الذي التقيت به في نزل زبيد. ولقد كان يعتاش من التجول في البلاد على حساب أثرياء الدين. وكان قد زار الحبشة ومصر وسوريا بهذه الطريقة. وكان شريفاً من الشرفاء ويسبغ على نفسه صورة الأسياد العظام. ظننت في بادىء الأمر أن حديثه سيعود عليّ بالفائدة لأنه قد زار الكثير من المدن لكنه لم يستطع إخباري بخصائصها وجلّ ما استطعت أخذه من حديثه هو أن الشيوخ وأصحاب الدولة والباشاوات وغيرهم كانوا يكرمونه خير إكرام عندما يحلّ عليهم لأنه شريف سيد من الدرجة الأولى. وكان يؤكد لأصحابه أنه يتكلم التركية والإيطالية والفرنسية واللغة الحبشية لكني وجدت أنه لا يعرف من اللغات الثلاث الأولى إلا شتيمة أو بعض الكلمات التي يسمعها من الأوروبيين والأتراك الذين يمرّون ببلاد اليمن. وبدلاً من أن يقوم المسافر كما في أوروبا باستئجار غرفة

مفروشة في النزل عليه أن يكتفي في اليمن بأن يستأجر لكل شخص كرسياً أو سريراً يجلس عليه أثناء النهار وينام عليه أثناء الليل. ولأن الشريف السابق الذي لم يكن معه ما يكفي من المال لاستئجار سريرين له ولابنه البالغ من العمر اثنا عشر عاماً ادعى أنه يفضّل أن ينام ابنه بجواره في السرير نفسه لأنه يخشى عليه أن ينام وحده. وكان يرسله أحياناً ليقول للخدم أن يقوموا بمهمة ما إلا أننا اكتشفنا أن الصبي المسكين كان يؤديها بنفسه لأن الشريف لم يكن عنده أي خادم. أما عن زوجته المسكينة فكان يناديها بلقب «شريفة» وقد حكى لي بالتفصيل عن أصلها وفصلها من بعد أن فصّل لي شجرة عائلته بالطبع وذلك لإخباري أن أحداً من أسلافه الذين يصلون إلى علي بن أبي طالب لم يتزوّج امرأة من عامة الشعب كان يحتقر نسب شرفاء تركيا وأسياد اليمن لأنهم تزوجوا من نساء غريبات. وكنت قد سألت يوماً تركياً إذا كان باستطاعة ابن أحد الشرفاء من أم أمَةٍ أن يحافظ على لقب الشرف فقال لي إن عراقة هذا الابن تفقد جزءاً من قيمتها فتصبح تماماً كقطعة الذهب المخبأة داخل خرقة من القماش البالي. إلا أن الشريف الذي كنت بصحبته أخبرني أن هذا التشبيه ليس صحيحاً. وقال لي إن ابن الإمام الذي كان أسلافه من الأسياد البيض هو شديد السواد لأن أمه أمَةٌ حبشية. وكان الشريف ينادي ابنه بالشريف أحمد لكن عندما يخرج الولد عن طوعه يسمّيه كلب ابن كلب وعندما سألته إذا ما كان يسمح للشرفاء بالتفوه بكلام كهذا قال لي إن ذلك لا يؤثر أبداً على العراقة.

كلنا يعرف أن اسم «أبو» لا يعني بالضرورة والد. يسمّي العرب رجلاً له شاربان أبو شوارب مثلاً، وأبو حمار رجلاً يملك حماراً. كذلك يسمّون المرأة التي تبيع الزبد أم الزبد. وعلى الطريق بين البصرة وزبير هناك مكان سقط فيه حمار مرة فأوقع حمولته من الحنطة في الماء. ومنذ ذلك الحين يسمى ذلك المكان أم الحنطة... وقد أخبرني المسلمون مراراً أنه لا يمكن تسمية المسيح بابن الله لأن الله لم يجعل مريم تلده بالطريقة التي نولد بها نحن. ظننت إذاً أن كلمة ابن باللغة العربية لا تعني إلا الولد من نسل أمّه وأبيه ولعله لهذا السبب لا يسمّي المسلمون المسيح ابن الله بل روح الله. إلا أن شتيمة ابن كلب لها عدة معانٍ.

وبعد أن قمت بالأبحاث اللازمة في زبيد، انطلقنا في ١٢ آذار/مارس باتجاه التحيتا (Tahäte) ووصلنا إليها بعد أن اجتزنا مسافة ميلين وربع إلى الشمال الغربي. سرنا كل الوقت في وادي زبيد. وهذا الوادي جاف عادة كما في جوار مدينة زبيد، لكن في الأماكن حيث لم يحضر الشلال معه الحجارة تتوضع الأتربة الخصبة فنرى أجمل الحقول(*). ويشتهر هذا الوادي بشجر النيل الذي يكثر في وديان تهامة.

(*) قيل لي إنه منذ سنوات قليلة جرف الشلال قبة في قرية فاسا (Fäsa) الواقعة عند الوادي. كان بوكوك قد سمع في السويس عن تصدير البن من فسقة (Feseca) إلى جدة. إلا أني لم أجد في اليمن كله أي اسم قريب من اسم فسقة ما عدا قرية فاسا، وهي خالية من أي مرفأ.

وقرب قرية التحيتا هناك أكثر من ٦٠٠ مكان مختص في صناعة اللون الأزرق.

إننا لا نزال نجد في هذه القرية عدداً من المساجد والبيوت الحجرية المبنية على قبور الأثرياء من السكان والأولياء منذ كانت التحيتا لا تزال مدينة. وابن حسن هو اسم أحد هؤلاء الأولياء ومع أن مسجده ليس الأكثر جمالاً إلا أن الناس لا يزالون يشعلون القناديل كل ليلة أمام ضريحه كما ويملك أحد أهل بيته نزلاً مجانياً في القرية. لكنني دخلت إلى نزل آخر غير مجاني وما إن علم صاحبه أني غريب حتى جاء بنفسه ليطلب مني التوجه إلى النزل الآخر. لكن لأني لم أشأ تغيير مسكني لتلك الليلة، أرسل إلي عشاء شهياً بدلاً من الطعام العادي الذي يتناوله العرب. ولقد قيل لي في منير إن أصحاب النزل لا يأخذون المال لكن هديتي المالية قبلت بعرفان الجميل نفسه الذي قبلت به العشاء.

وكما في زبيد، لم أجد في التحيتا أي أثر قديم جدير بأن أنقله. وقد قال لي العرب إن هناك كتابات كوفية داخل المساجد لكني لم أتجرأ على الدخول إليها خوفاً من إثارة نعرات عند السكان.

في ١٣ آذار/مارس عدنا من التحيتا إلى بيت الفقيه. سرنا مسافة ميلين إلى الشمال الغربي قبل أن نصل إلى مُرّة (Murra). وعلى طول هذه المسافة لم أرَ أي منزل وجل ما وجدته كان بئراً محفوراً، ومُرّة هي قرية كبيرة تقع في وادي المهاد تحتوي عدداً من القبب وعلى نزل كبير يقدم فيه الطعام يومياً إلى ٣٠ أو ٤٠ شخصاً. من هذا النزل إلى الكوخ المسمى الدمنة (Dimne) والواقع على الحدود بين بيت الفقيه وزبيد هناك ٤/٥ الميل. ولقد وصفت آنفاً الطريق من الدمنة إلى بيت الفقيه لكني لم أجد شيئاً يستحق النقل.

وباعتبار أني أعرف أن السفر في اليمن أكثر أماناً منه في البلدان الأوروبية كلها، فما أن عُدت من سفرتي الثانية حتى بدأت أخطط للثالثة. لكن بما أن شهر الصوم رمضان كان على وشك الحلول في ١٦ آذار/مارس خشيت أن يصبح مسلمو تهامة شديدي التقوى في هذا الشهر مثل مسلمي مصر. فقد كان مسلمو مصر الذين رافقوا السيد فورسكال من القاهرة إلى الإسكندرية شديدي التقيد بأصول الصيام كما لو كانوا في بيوتهم؛ فما كانوا يأكلون أو يشربون شيئاً طوال النهار وكانوا يستاؤون عندما يأكل السيد فورسكال أو عندما تكون الرحلة شاقة. إلا أن مسلمي اليمن لم يكونوا شديدي التقيد بأصول دينهم إذ يصومون شهر رمضان عندما يكونون في بيوتهم ويأكلون ويشربون كالعادة إذا كانوا على سفر ويبررون ذلك بقولهم إنهم سيعيدون صوم هذه الأيام في أيام أخر، إلا أنهم غالباً لا يفون بوعدهم. وبعد أن تأكدت أن عرب اليمن يأكلون ويشربون في أثناء السفر في شهر رمضان، استأجرت حماراً وانطلقت نحو (القحمة) في ١٩ آذار/مارس بصحبة المكاري. إذ كنت قد علمت بوجود بقايا مدينة قديمة تدعى ليلو (Lélue). ولأني لم أشأ أن أبوح للعرب بأني أجول في بلادهم بهدف رسم خريطتها، تذرّعت بأني أبحث عن الكتابات في ليلو لمعرفة الحروف التي كان يستعملها العرب في الكتابة بالعصور الغابرة.

إننا نجد على هذه الطريق وعلى بعد نصف ميل من بيت الفقيه مكاناً يدعى الأقصى لم يبقَ منه سوى مسجد لا يزال بصورة حسنة. يحتوي المسجد قبر ولي مسلم يدعى شيخ الأقصى وهو ابن أحمد الموسى الشهير ولي مدينة بيت الفقيه وشفيعها. ومن الأقصى نصل إلى كوخ يسمى ركتان (Rachtên) يقع على بعد ٨/٣ الميل ومنه إلى القحمة مسافة ميل واحد. إذاً تقع هذه القرية على بعد ميل و٤/٣ الميل عن بيت الفقيه وعند الشمال الشرقي من المدينة. ولسلك هذه الطريق ينبغي أن نمرّ بوادي الحنش وهو شأنه شأن باقي الوديان في تهامة؛ تغمره المياه أثناء مواسم المطر فيلتقي بوادي الريما ويصب في الخليج العربي بين شرام (Schurêm) وسماحي بعد أن يأخذ اسم وادي عباسي.

وبعد وصولي إلى القحمة مباشرة جمعت معلومات حول آثار مدينة ليلو لكني لم أجد إلا مقبرة تملؤها حجارة مخمسة الزوايا يبلغ إطارها ثماني بوصات تقريباً وطولها من أربعة إلى خمسة أقدام. ولشدة ما كانت هذه الحجارة شديدة الدقة في القياس ظننت بادىء ذي بدء أنها من صنع أحد النحاتين؛ إلا أني سرعان ما اكتشفت بالقرب من المقبرة تلة تدعى جبل قحم تتألف من حجارة مماثلة قام السكان بنقل بعض منها إلى المقبرة. ولقد كانت طبقات الحجارة في هذه التلة مصفوفة عمودياً الواحدة قرب الأخرى والواحدة فوق الأخرى وكأن بنّاء وضعها. ثم في ٢١ آذار/مارس وفي ١ آب/أغسطس رأيت أعمالاً مماثلة من أعمال الطبيعة في أماكن أخرى وبعد عودتي إلى كوبنهاغن قرأت في مخطوطة السيد كونيغ وهو عالم دانماركي أنه رأى في إيسلندا أحجاراً مماثلة مخمّسة الزوايا يبلغ ارتفاعها من ثلاثة أذرع إلى ثلاثة أذرع ونصف وقطرها نصف ذراع. كانت هذه الأحجار مستقيمة ومصفوفة طبقات طبقات الواحدة فوق الأخرى. ومن القحمة عدت إلى بيت الفقيه وأنا أخطط إلى رحلة رابعة.

كان السيد فروسكال متفرغاً للقيام بأبحاث حول النبات في الجبال؛ تماماً مثلما كنت أنا متفرغاً للقيام بأبحاث جغرافية في تهامة. ولشدة ما كان بحثه الذي تناول المناطق المنتجة للبن ناجحاً؛ رافقه السيدان كرايمر وبورنفاند في المرة التالية. أما أنا، فبعد أن تفحصت محيط بيت الفقيه من جهة الجنوب والشمال والغرب ذهبت في ٢١ آذار/مارس إلى الجبال وفي نيتي الانضمام إلى أصدقاء رحلتي بغية تنشق الهواء البارد النقي وشرب المياه العذبة سرت ٨/٥ الميل نحو الشمال الغربي لبيت الفقيه ووصلت إلى الجلّ (Dsjelle) والعمرية (Amerie) بعد أن تجاوزت ٨/٥ الميل إلى الجنوب الشرقي. ولقد كان هنالك قرية بين هاتين السابقتين إلا أنني لم أجد أي أثرٍ لها. وبعد أن سرت ٤/٣ الميل نحو الجنوب الشرقي وصلت إلى (صعيد). حيث هناك مسجد كبير في هذه القرية له قبة جميلة. وتقع سراب (Soräb) على مسافة ٤/٣ الميل، وعلى بعد ٨/١ الميل منها تقع قرية قفل (Kufl) وعلى بعد ٨/٥ الميل عن قفل تقع قرية سنّف (Sennef) القريبة من الجبال. ومن هذا المكان نرى مدينة هادية (Hadie) الصغيرة لكن كان عليّ السير لمدة ٧/٤ الساعة قبل الوصول إليها. إن الطرقات في هذا المكان وعرة لكن يمكننا أن نرى هنا وهناك بقايا طرق يقال إن الأتراك قد شقوها.

كان رفاق سفري في الجبال حيث ينمو شجر البن. فتبعتهم في اليوم ذاته سالكاً طريق القزمة (Kusma) ووصلت إليهم بعد ساعتين بالقرب من قرية بو القوف (Buigôfe) التي تعيش من البن. إنه لا يمكن الوصول إلى هذا الجبل إلا مشياً على القدمين ومع أن الطريق شديد الوعورة إلا أنني أحببته، كيف لا وأنا الذي قضيت رحلتي بين حقول تهامة القاحلة، والآن وجدت نفسي محاطاً هنا بالبساتين وأشجار البن من كل مكان.

لم أرَ بالقرب من القحمة إلا تلة واحدة مغطاة بالصخور المخمسة الزوايا لكن كانت الجبال بغالبيتها هنا على هذا الشكل. إن منظر هذه الصخور جميل جداً خاصة في الأماكن التي تسيل منها المياه من رأس الصخور على شكل شلالات مسنودة إلى أعمدة مستقيمة. ومن السهل انتزاع هذه الأحجار عن الصخور ويمكن استعمالها كدرجات على الطريق أو كجدران لتثبيت بساتين البن عند منحدرات الجبال.

إن شجرة البن معروفة في أوروبا. ولقد رأيتها مزهرة هنا قرب بو القوف تنبعث منها رائحة زكية. تقع البساتين الواحد فوق الآخر وبعضها لا يتلقى الماء إلا من الأمطار بينما هناك برك في البساتين العليا تجر منها المياه العذبة إلى كافة البساتين الأخرى. ولشدة ما تكون الأشجار مرصوصة الواحدة قرب الأخرى يصعب على أشعة الشمس اختراقها. قيل لي إن الأشجار التي تُسقى من غير مياه الأمطار لا تثمر إلا مرتين في السنة وإن ثمارها لا تنضج إلا مرة واحدة وإن الثمار التي لا تنضج تكون أقل جودة من الناضجة.

وبما أن الحجارة لا تنقص هنا، فإن المنازل كلها مصنوعة منها. ومع أنها سيئة البناء بالمقارنة مع منازل أوروبا إلا أن منظرها جميل من بعيد وخاصة تلك التي تقع على أعلى القمم والجبال والتي تحيط بها الحدائق والبساتين المزروعة شجراً والتي تكون على شكل جلول. ولقد كنا في منطقة أعلى من تهامة لكن في منتصف الطريق المؤدية إلى القزمة يقع منزل صاحب دولة هذا الأقليم على رأس أعلى جبل. إن المنظر جميل من كل النواحي. وفي مكان آخر حيث منزل مشيد خلف صخرة منحرفة، رأينا منظراً رائعاً رسمه السيد بورنفايند (راجع اللوحة LXIII).

قضينا الليل في بو القوف حيث جاء عدد كبير من عرب القرية لزيارتنا. وبعد رحيلهم، جاءت مضيفتنا مصحوبة ببعض النساء والفتيات الراغبات برؤية أوروبيين. لم يظهر أي ارتباك عليهن لأنهن بعكس مسلمات المدينة لم يكن يرتدين نقاباً على وجههن وكن يتكلمن معنا بحرية تامة. رسم السيد بورنفايند لباس قروية كانت متجهة لجلب الماء، يمكن رؤيته في اللوحة (LXIV). كان قميصها وسروالها من نسيج الكتان المقلم بالأبيض والأزرق. وكان القميص مزيناً بعدة ألوان مطرزة بالإبرة حول العنق وأمام الركبتين والسروال من الأسفل حول الرجلين. وبما أن مناخ الجبال أقل حرارة من تهامة، وجدت بشرة الناس فيه أكثر بياضاً.





نزلنا من الجبال في ٢٢ آذار/مارس واتجهنا نحو هادية. حيث غالباً ما يأتي التجار الأوروبيون من بيت الفقيه إلى هذا المكان لقضاء بضعة أيام لأن المناخ غير حار والطبيعة جميلة والماء أكثر عذوبة من ماء تهامة. ومن المستحسن لو تسمى هادية بالقرية الكبيرة بدلاً من المدينة الصغيرة. فبيوتها فقيرة وينحصر نشاطها بتجارة البن. وفي أيام معينة من الأسبوع، يحضر سكان الجبال كميات من البن إليها فيعطون بعضاً منها إلى صاحب دولة القزمة على أنها خراج ثم يحملون الباقي على ظهر الجمال إلى بيت الفقيه أو مباشرة إلى حديدة.

إن منظر المنطقة من بيت مساعد صاحب دولة هادية لرائع خلاب. فأمام البيت نرى وادياً عميقاً فيه جلول مزروعة قمحاً وبقولاً ووراءه هناك جبال منحدرة ولشدة ما كان المنظر جميلاً رسمته في اللوحة (LXV).

عدنا من هادية إلى بيت الفقيه من الطريق عينه الذي جئنا منه والذي وصفته سابقاً.

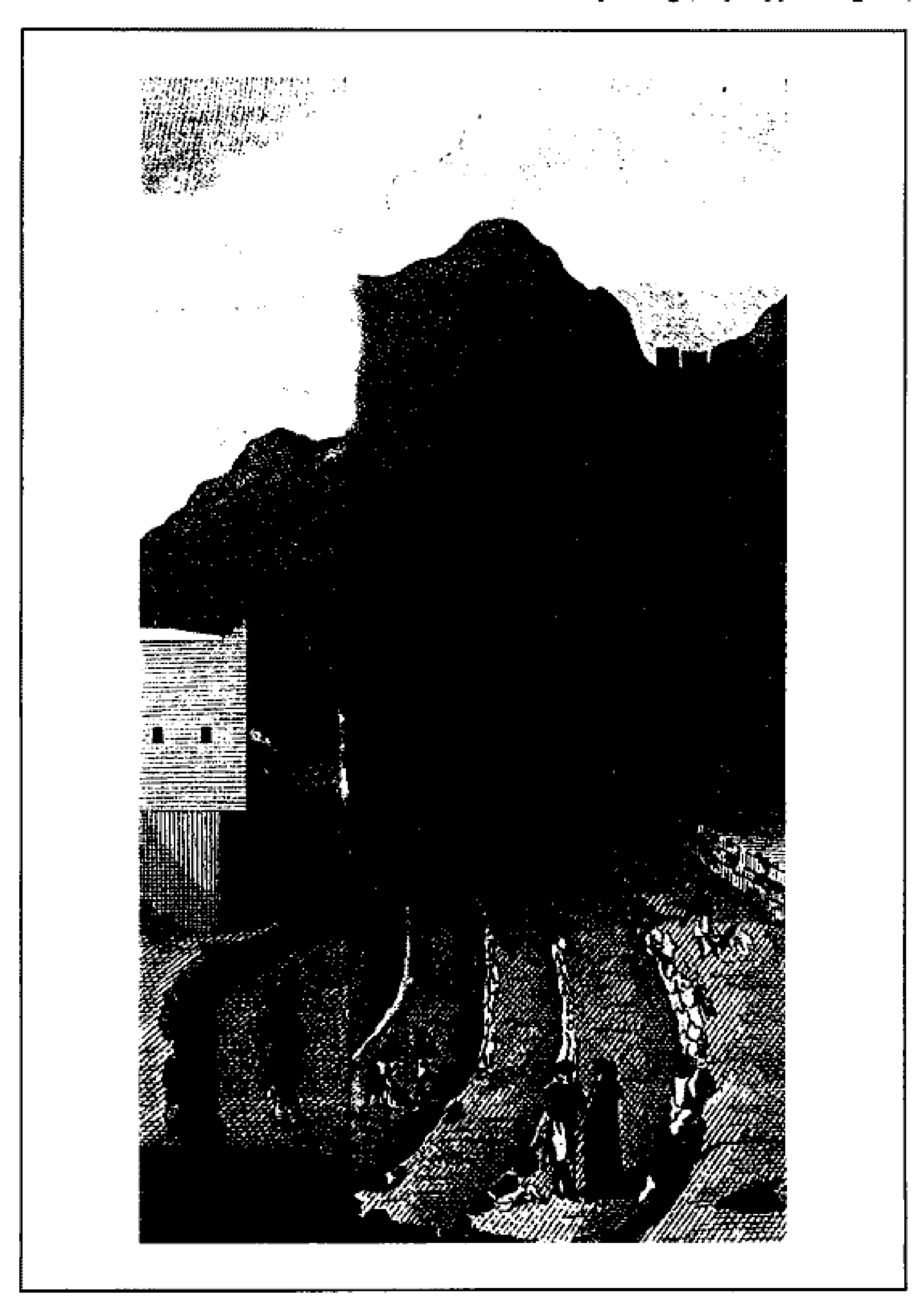


سير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن، وجبلة وتعز وحاس

لم نواجه في بيت الفقيه عراقيل تعيق أبحاثنا لأن السكان لم يعيرونا اهتماماً بالغاً، خاصة وأنهم اعتادوا على مشاهدة تجار القهوة الأوروبيين باستمرار؛ وإن حاولوا الاستعلام عن جولاتنا قلنا لهم إنها مفيدة للصحة. تعجّب العرب الذين كنا نستشيرهم دوماً حول هذا المكان أو ذاك، من استعدادنا الدائم للتنقل من مكان إلى آخر، رغم شدة الحر؛ فهم يفضلون ملازمة منازلهم، خلال فصل الصيد وعدم مغادرتها إلا عند الضرورة القصوى. ولما كنا ننوي السفر إلى فرانكبار في بلاد الهند نصحونا بتفادي الجولات الخاصة حفاظاً منهم على صحتنا وكانوا يسألون عن السبب الذي حثنا على قطع هذه المسافات كلها، رغم أننا لا نرغب بممارسة الأعمال دون الحصول على شيء في المقابل. خطر لهم أننا نحسن صناعة الذهب؛ ولهذا السبب كان عالم النبات يجوب الجبال بحثاً عن نبتة ضرورية لهذه الصناعة، حسب ظنهم. وخطر لهم أيضاً أنني أمارس السحر، خاصة وأنني أرصد النجوم.

لم تخطر هذه الأفكار إلا لأصدقائنا من العرب. فصاحب الدولة لم يرسل أحداً ليستعلم عن موضوع رحلاتنا؛ فاستغليت هذا الظرف للقيام ببعض الرحلات الجغرافية. وكنت أعرف جيداً مناطق تهامة، وخاصة القسم الشرقي من مملكة اليمن؛ وكنت أنوي التعرف على المناطق الباقية خلال رحلتي إلى المخا؛ لأننا اقترحنا الانتقال من المخا إلى تعز وصنعاء، والعودة بعدها إلى بيت الفقيه. كنت آمل إذن أن أشاهد خلال هذه الرحلة القسم الجنوبي والشرقي والداخلي من المنطقة الجبلية في هذه البلاد. وفي سبيل رسم خارطة لليمن خطر لي أن أتعرف على طرقات بيت الفقيه الواقعة في وسط تهامة، وعلى مدن أخرى واقعة في وسط المنطقة الوعرة. أما بالنسبة لطرقات عدن، وجبلة وتعز فهي واقعة شمالاً.

يستطيع المرء التنقل في تهامة ليلاً ونهاراً دون التعرض لأي سوء؛ ولكن لا أحد يحب السفر ليلاً في المناطق الجبلية، كما وأن التنقل وحيداً على الطرقات المنعزلة محفوف بالمخاطر. خاصة وأنني لا أجيد اللهجة التي يستعملها عرب الجبال. فطلبت من صديقي فورسكال مرافقتي في هذه الرحلة، حتى يترجم لي اللغة السائدة في البلاد؛ فبعد إقامته في الجبال حيث ينمو البن تعلم عدداً كبيراً من الكلمات التي لا تستعمل أبداً في تهامة وبالتالي غريبة عني كلياً. فلم يتردد بالقيام بهذه الرحلة التي ستأتي عليه بالفائدة أيضاً؛ فاستأجرنا حمارين من عربي رافقنا سيراً على الأقدام، وقام مقام مرشد سياحي لنا، وخادم وترجمان. وكنا قد أرخينا لحيتنا مثلما يفعل العرب، وارتدينا ثياباً طويلة أضفت علينا طابعاً شرقياً، غير



أننا استعملنا اسمين عربيين حتى لا يتعرف علينا الأوروبيون؛ وبعد أن اتخذنا هذه التدابير كلها، شك سائق الحمير في أمرنا، وحسبنا من مسيحيي الشرق.

في ٢٦ آذار/مارس انطلقت برفقة السيد فورسكال والسائق من بيت الفقيه؛ وبعد أن قطعنا نصف ميل جنوباً، بلغنا قرية محل القوس؛ فاتجهنا من هناك جنوباً أو جنوباً ـ شرقاً، لنصل إلى كوخ دياب، حيث ارتشفنا القهوة. وبعد أن سرنا حوالي الميل ونصف الميل، بلغنا قرية عربين الواقعة في وادي المهاد. وسلكنا لاحقاً الطريق الجنوبي ـ الغربي، لنصل إلى منجد، ومنها إلى قرية بساد، على بعد نصف ميل، وإلى قرية أرجود على بعد ربع ميل. وتبعد هذه القرية نصف ميل عن محلة الشيخ المجاورة لربوع؛ وهي قرية كبيرة يقام فيها أسبوعياً سوق كبير، يجتمع فيه التجار والحرفيون والعاطلون عن العمل من القرى المجاورة بهدف جني المال أو اللهو (راجعوا كتاب **«وصف شبه الجزيرة العربية»** ومن يقطن في قرية ربوع شيخ يخضع لصاحب الدولة في زبيد؛ ويبدو بالتالي أن ربوع تبعد خمسة أميال ونصف الميل عن بيت الفقيه.

وفي ٢٧ آذار/مارس، غادرنا (ربوع) عند شروق الشمس؛ وبعد أن قطعنا نصف ميل جنوباً وصلنا إلى عقبي، ومنها إلى سلامة، الواقعة عند سفح الجبل الذي يبعد نصف ميل عن مشعل، شاهدت قرب هذه القرية للمرة الأولى مياهاً جارية في اليمن؛ هي نهر وادي زبيد قبل أن يدخل إلى تهامة. واللافت للنظر أن مجرى هذا النهر عريض جداً في هذه البقعة؛ ولكن الأمطار لم تهطل منذ فترة طويلة، ولذلك لم يكن عرضه يتعدى ٢٠ أو ٢٤ قدماً. وبعد أن يدخل النهر أراضي تهامة القاحلة، تصب مياهه في الأرياف المجاورة، وتضيع بكاملها. ثم عبرنا قرب المياه جنوبي الجبل واهتدينا إلى النهر قرب متعة وهي القرية الأخيرة التي نشاهدها في هذه الجهة من زبيد.

ويمكننا تحديد موقع المدن إن جبنا المناطق السهلية في هذه البلاد: ولكننا نخفق في ذلك بالمناطق الجبلية، نظراً لتعرجات الطرقات ووعورتها. ولتدارك هذه العقبة، غالباً ما نستعمل البوصلة، لتحديد المسافات بدقة متناهية. واستناداً لحساباتي، تقع متعة في الجهة الجنوبية ـ الشرقية، على بعد نصف ميل من مشعل. وبعد أن قطعنا ميلاً ونصف الميل، وصلنا إلى جبل سلام. ولقد قال لي عربي في الحديدة إننا نجد في هذا المكان صوراً منقوشة على الصخور وعلى الجبل لكافة أنواع الحيوانات. وبناءً على هذه المعلومة كنت آمل اكتشاف نقوش قديمة، وهيروغليفية في هذه البقعة؛ ولكن آمالي ذهبت هباء. فقد حفر عربي عاطل عن العمل على هذه الصخور صوراً كئيبة، كتلك التي تحدثت عنها سابقاً.

وعلى بعد نصف ميل من جبل سلام، توقفنا في كوخ سلام لارتشاف القهوة؛ وهو يبعد ربع ميل عن قرية سلام، حيث يقام أسبوعياً سوق شعبي. وكنا نسير تارة في وادي زبيد، وطوراً بمحاذاة هذا الوادي الشاسع؛ وبعد مضي ساعتين تقريباً، بلغنا ضفاف النهر الجنوبية؛ وشاهدنا من بعيد قريتين صغيرتين، لم

يفصح لي أحد عن اسمهما ورقدنا تلك الليلة في مشعا (Mascha)، الواقعة جنوبي - شرقي سلام.

لا يسلك الرحالة هذه الطريق إلا لماماً؛ فهي وعرة وخالية تقريباً من السكان ومحفوفة بالمخاطر؛ لكن منذ بضع سنوات عين سيد عدن في مشعا نائباً لصاحب الدولة يعاونه على حفظ الأمن عدد من الجنود؛ ولقد قيل لنا إن هذا النائب يعوض على الأشخاص الذين يتعرضون للسرقة في مناطق نفوذه وأن لا شيء يدعو للخوف. وفرض علينا نائب صاحب الدولة دفع ربع ريال للمرور في المنطقة. فوجدت أن هذه الضريبة وغيرها من الضرائب التي تفرضها الحكومة العربية على الرحالة زهيدة للغاية مقارنة بتلك التي تفرض في أوروبا.

ويقام في مشعا، سوق شعبي مرة في الأسبوع؛ وهي تمتاز بأكواخها الرديئة المصنوعة من الأنسجة المصلبة، والمغطاة بالقصب وبعد عناء طويل، وجدنا كوخاً صغيراً لنبيت فيه؛ غير أننا لا نستطيع الوقوف وسطه بارتياح كما وأن أرضه ضيقة للغاية، ولا تتسع لاثنين منا؛ وكان يكفي أن يوضع في داخله سرير واحد من تلك التي تكثر في منازل تهامة؛ غير أن هذه الأسرة لا تستعمل إطلاقاً في مناطق اليمن الجبلية؛ ويفضل الجميع الجلوس أرضاً شأنهم في ذلك شأن سكان مصر وتركيا. أما عامة الشعب في مناطق اليمن الجبلية، حيث درجات الحرارة منخفضة فيستعملون أسرة مختلفة عن تلك المستعملة في تهامة. يندس العربي الجبلي عارياً في كيس كبير، دون أن يقفله فوق رأسه؛ فتحول حرارة لهاثه دون إحساسه بالبرد، ويوضع الكيس مقلوباً في النهار على سطح المنزل حتى لا تتكاثر الحشرات الطفيلية ليلاً. ولم أحاول أبداً أن أنام في الكيس، ولكنني اعتدت على تغطية وجهي خلال الليل، خاصة في الهواء الطلق، تفادياً للندى المضر بالصحة، والرياح المؤذية **(وصف شبه الجزيرة العربية)** ولم نجد في القرى الواقعة على طريقنا إلا بعض الخبز السيىء المصنوع من الذرة وكميات قليلة من حليب النوق؛ لكني وجدت المياه لذيذة للغاية في الجبال الواقعة خارج تهامة.

وفي ٢٨ من شهر آذار/مارس، غادرنا مشعا؛ وسلكنا طرقات متعرجات ووعرة حتى بلغنا مصيل (Masil) بعد أن قطعنا ميلاً تقريباً. ثم عبرنا بين هاتين القريتين سهلاً فسيحاً تكثر فيه الأشواك والأعشاب؛ ولاحظنا أن الأراضي أكثر خصباً والمنازل أكثر جمالاً؛ فهي مبنية من الحجارة المتراصة والتي يعلوها سقف ترابي. ويقع وادي زبيد على الجهة الشمالية للطريق على مسافة بعيدة جداً عنه.

ويقام سوق شعبي في مصيل؛ غير أننا لم نكن نحمل جوازات سفر أو رسائل توصية، ونفضل التنقل متخفين وتجنب الأماكن المكتظة بالناس؛ لهذا السبب تابعنا طريقنا دون أن نتوقف للهو قليلاً. ويقع على الطرف الآخر للبلدة جبل نخيل الشاهق الذي يتطلب تسلقه حوالي ٤٥ دقيقة؛ شاهدنا على سفح هذا الجبل رمالاً لماعة أو حجارة الميكا؛ وهذا ما حثّ عرب العامة على الاستنتاج بأن هذا الجبل يحوي عروق ذهب. وعند الظهر وصلنا إلى كوخ حيران حيث شربنا القهوة بعد أن مررنا أمام قبة تعلو ضريح أحد

الأولياء، وبئر يستعمل الناس مياهه لإرواء الماشية التي تمر في هذا المكان وأظن أن حيران تقع على بعد ربع ميل جنوبي - شرقي مصيل.

ثم مررنا في وقت لاحق بقرية سهل، الواقعة على قمة الجبل، وأمام قبر الشيخ تاري الواقع على قمة جبل آخر. زعم السيد فورسكال أن جبال هذه المنطقة غنية بعروق الحديد. ولقد توقفنا ليلاً قرب كوخ الوشفاد، بعد أن أنهك التعب الحمير، حتى يتمكن السيد فورسكال من جمع الأعشاب قرب جدول صغير. ولم نصادف في تلك المنطقة إلا صبي القهوة. وكانت المنازل متداعية وخالية تماماً حتى لتحسبنّ المكان مهجوراً حقاً. أما الطريق الممتد من حيران إلى الوشفاد فيمتاز بتعرجاته الكثيرة. وتبلغ المسافة بينهما حوالي الربع ميل. ويمكننا بالتالي القول إن مشعا تبعد ثلاثة أميال عن الوشفاد.

لما كان سكان المنطقة يتوقعون هطول الأمطار في أوقات متقاربة، بنوا قرب الجبال سدوداً من الحجارة والأشواك حتى تصب المياه المتدفقة من أعالي الجبال في الحقول المجاورة؛ فهذه الحقول متدرجة ولها من الجهة السفلى سور ترابي، يحول دون تسرب المياه. يجدر بالبلدان الأخرى أن تقلد هذه الطريقة في ري الحقول. غير أنني لا أحبذ أبداً طريقتهم في قطع الخشب؛ فهم يشعلون النار عند أسفل الجذع، حتى يشتعل جيداً وتقع الشجرة كلها.

وفي ٢٩ آذار/مارس، غادرنا عند الساعة الثانية ظهراً الوشفاد، فعبرنا الجدول الصغير الذي أشرت إليه سابقاً، وبعض الهضاب الصغيرة حتى بلغنا جدولاً آخر ينبع من شرقي أعالي الجبال، ويصب في وادي زبيد بعد أن ينضم إلى سواقي المنطقة فشاهدنا أولى بساتين البن، على الطريق التي قطعناها من بيت الفقيه؛ ولو اعتبرنا الطريق مستقيمة، وقع هذا المكان على بعد نصف ميل من الوشفاد. ولقد صادفنا في طريقنا ثلاثة جبال شاهقة، وشاهدنا على الأخير جامعاً متداعياً توقفنا قربه لارتشاف القهوة. وبعد مرور نصف ساعة عدنا إلى وادي زبيد، الذي لم نشاهده منذ مغادرتنا مشعا. وتكثر في هذه المنطقة بساتين البن. ثم عبرنا لاحقاً ساعد الوادي الآخر الذي كان جافاً، ومليئاً بقضبان القصب، التي يبلغ طول كل واحد منها ٢٠ قدماً، منصوبة على جانبي الطريق أو على ضفاف الجدول الجاف. والجدير ذكره أن عدن تقع على مقربة من هنا استناداً إلى حساباتي وتبعد الوشفاد ميلين عن الجامع أو ما يعادل أربع ساعات ونصف.

إن مدينة عدن مفتوحة وصغيرة؛ لا يزيد عدد منازلها على ٣٠٠ وهي مبنية من الحجارة والملاط يمر أمام البلدة من الجهة الشمالية جدول يصب في وادي زبيد. والجدير ذكره أن الطريق الممتدة من تهامة إلى عدن شبه خالية من السكان؛ بينما يحتشد الناس في أماكن أخرى من هذا الأقليم. ويؤمن البن مردوداً كبيراً علماً أن بن عدن هو الأفضل في اليمن وفي العالم أجمع ولا أظن أن الإمام يعين صاحباً للدولة في هذا المكان، تستلم عائلة الشيخ التي تقيم في قصر خارج البلدة زمام السلطة؛ غير أن الشيخ العالم يخضع لسيادة الإمام.

ثم غادرنا عدن صباح ٣٠ آذار/مارس، وبعد أن قطعنا ربع ميل، بلغنا وادي زبيد الغني بالقصب. وبعد أن اجتزنا ربع ميل آخر، بلغنا بلدة شيخ شهاري، حيث صادفنا كوخ حطبة على جبل مسعد فتوقفنا فيه لارتشاف القهوة. وكانت عدن واقعة على الجهة الغربية. قطعنا من الكوخ المذكور نصف ميل لنبلغ وادي زبيد. وبعد أن سرنا صعوداً حوالي النصف ميل بلغنا بلدة عصل (Osle)؛ وشاهدنا في جوارها حقولاً مزروعة بقصب السكر ورغم أن عصل مرتفعة عن سطح المياه إلا أننا سرنا ٩ أرباع الساعة للوصول إلى قمة الجبل.

ولقد كانت طريق هذا الجبل الوعر مبلطة جزئياً. ولكن لم يحاول أحد ترميمها منذ عدة سنوات. ولاحظت أن سكان اليمن يتخذون إجراءات كثيرة لتأمين الراحة للرحالة؛ فقد وجدنا على هذا الجبل ثلاثة خزانات صغيرة مليئة بالمياه العذبة مخصصة لاستعمال المارة. يبلغ عرض هذه الخزانات قدمين ونصف وطولها خمس أو سبع أقدام وهي مستديرة أو محددة الرأس من الأعلى ولها فتحة واحدة تسكب منها المياه. ونجد أحياناً قرب هذه الخزانات يقطينة مقعرة، أو مجرفة خشبية؛ ولكن يستحسن أن يجلب المسافر معه كأسه أو إبريقاً للرحلات الطويلة ولما كانت الأمطار تهطل بغزارة في هذه المنطقة الجبلية خلال وقت محدد من السنة بني على هذا الجبل منزلان أو قبتان يحتمي فيهما المسافر من وابل الأمطار. تقع بلدة رعكة (Ráka) على ارتفاع ٣/٢ من الجبل بينما نجد بلدة مشوار على الجهة الشمالية من الطريق. وإن وقفنا على قمة الجبل شاهدنا مدينة عدة على الجهة الغربية وعب على الجهة الشرقية. وتقع مدينة جبلة خلف جبل شاهق على بعد ميل تقريباً؛ مما يعني أن عدن تبعد ثلاثة أميال عن جبلة.

لقد حملنا معنا محر ريومور الذي كنا نعود إليه في كافة الظروف، بينما كان السيد بورانفايند يقيس الارتفاع في بيت الفقيه مستنداً إلى محر فهرنهايت. أما محر ريومور فسجل ذلك النهار عند الواحدة ظهراً، ١٧ درجة ونصف، بينما سجل محر فهرنهايت ٧١ درجة؛ وفي الوقت عينه، سجل محري في بيت الفقيه ٥٦ درجة؛ وهذا يعني أن الطقس كان ألطف حيث كنا منه في تهامة. وتعتبر الملابس نوعاً آخر من العناصر التي تشير إلى الفرق في الحرارة. فبينما ينتقل سكان تهامة شبه عراة يرتدي عامة الشعب في هذه المنطقة الوعرة جلد الخراف.

ولقد شاهدنا بين الجبل المذكور وجبلة عدة قرى منها مدينتا بني حسان وعقاب. وكانت التلال مغطاة بحقول الشيلم المتدرجة، غير أن البن لا ينمو في هذه المنطقة رغم خصوبتها.

إن عرب اليمن يعترضون ـ وخاصة الجبليون منهم ـ المارة ويسألونهم عن القرية التي غادروها عند الصباح، وتلك التي ينوون قضاء الليلة فيها؛ ولما كانت غايتهم الاطمئنان عليهم فحسب فمن قلة التهذيب عدم الإجابة على هذه الأسئلة كلها. فأعطيناهم أجوبة صريحة على السؤال الأخير. وفضلنا التكتم حول السؤال الأول: لأننا كنا نردد دوماً أننا قادمون من الشام (الشمال)؛ والشام هي دمشق في سوريا.

وإن حاول أحدهم أن يسألنا إن كنا أتراكاً قلنا له إننا نصارى؛ فظن أننا يونانيون أو أرمن. وفي الحقيقة كان باستطاعتنا الاعتراف بهويتنا الأوروبية من دون التعرض لأي سوء؛ لكننا حاولنا أن نتجنب هذا الأمر كي لا نثير فضول الشعب. ولقد ظنت صاحبة أحد المقاهي في أجرود أننا رجال دين أتراك؛ لأنها طلبت منا أن نتلو لها الفاتحة (وهي صلاة شائعة عند المسلمين). وقبيل مغادرتنا المكان عند وصولنا إلى جبلة، أسماني أحدهم الحاج أحمد، وادعى أنه يعرفني بهذا الاسم منذ عدة سنوات. ولم يحاولوا الاستعلام عن جوازات السفر، أو ضرائب العبور أو أي شيء آخر يفرض على الرحالة الأوروبيين؛ ورغم أننا كنا في شهر رمضان وجدنا في بعض المقاهي ـ وبشكل خاص ـ في المنعزلة منها أشخاصاً يعدون الطعام للمسافرين.

تعد جبلة عاصمة إقليم أم علا (Iemo Ala)، ومقر صاحب الدولة. يبلغ طولها ٥٠٠ قدم هندسية وتقع قرب واد ضيق وعميق؛ ولكنني لاحظت أنها ليست كثيرة العرض مما يجعلني أظن أن عدد منازلها لا يزيد على الـ ٦٠٠.

وتمتاز هذه المدينة بطرقاتها المعبدة، ومنازلها الكبيرة المبنية على الطراز العربي؛ غير أني لم أرَ فيها قصوراً أو سوراً، ولم أحاول أن أوطد علاقاتي بسكان البلدة الأصليين الذين يعرفون الجوار جيداً كي لا أثير الشكوك حولي ولقد لاحظت أن اليهود يقيمون خارج البلدة ويبلغ طول شارعهم ١٠٠ قدم ويقع غربي المدينة.

إن مدينة جبلة قد اشتهرت منذ عدة قرون؛ غير أنني لم أشاهد فيها نقوشاً ذات أهمية كبرى. اصطحبونا خارج البلدة لمشاهدة جامع متداع وبعض الصروح القديمة التي ادعوا أن عمر بن سعيد المعروف بصاحب الكلام الذهب هو الذي بناها. لكن النقوش التي رأيتها على بقايا الجدران ليست أثرية إلى هذا الحد. وقيل لي إننا نجد قرب قرية عقاب جوامع هائلة مهدمة، غير أنها لا تستحق عناء الذهاب لرؤيتها. وعند مغادرتي المدينة، أرشدوني إلى صرح صغير شرقي البلدة محاط بالأسوار، دفن فيه باشا تركي. ولم يسمح لي الوقت لنقل النقوش التي تغطيه؛ ولا يهمنا أن نعرف اسم باشا جبلة الذي توفي منذ ١٥٠ سنة.

ثم في ٣١ آذار/مارس، غادرنا جبلة بعد العشاء وسلكنا طريق تعز. وقضينا الليلة في خان واقع على الجهة الجنوبية لجبل محراث، حيث تبعد محراث عن جبلة حوالي ثلاث ساعات أو ميل ونصف في الجهة الجنوبية ـ الشرقية.

وفي صباح اليوم التالي، استخدمنا مرشداً سياحياً وتسلقنا جبل شدرا الشاهق لنرى بقايا أحد القصور. ويعد جبل محراث عالياً جداً مقارنة بالوادي الواقع جنوباً؛ لكن كان يلزمنا ساعة تقريباً لتسلق جبل شدرا. وبعد أن بلغنا أعلى قمة، رأينا آثاراً قديمة شبيهة بتلك التي نشاهدها في ألمانيا قرب القصور المتداعية الواقعة على الجبال. وتتألف جدران هذا القصر العربي وأبراجه من الحجارة الصلبة غير المنحوتة. ورأينا في

إحدى جهات السور فتحات طويلة وضيقة، كانت تستعمل قديماً ككوى لإطلاق السهام. ولقد انهارت مباني هذا القصر كله ولم يتبق منه إلا خزان كبير مربع وآخر مستدير لا تزال آثار المدافع بارزة على جدرانه. ويقال إن هذا القصر وآخر على جبل ثقل (Tákel)، المجاور لبلدة جبلة، قد بنيا على يديّ حسان الجاهلي؛ وغالباً ما يستعمل العرب كلمة جاهلي للدلالة على أسلافهم الملحدين. ولم أسمعهم يوماً ينعتون الملحدين بالكفار رغم أن هذه العبارة رائجة الاستعمال. ولم أجد أثراً للنقوش في قصر جبل شدرا؛ لكن طريقة بناء الحجارة تدل على انتمائه للعصور القديمة.

ومن أعالي هذا الجبل نشاهد جنوباً حوالي ٢٠ قرية وبلدة؛ ولما كنت أخشى تدوين أسمائها في حضرة المرشد اكتفيت بمراقبة موقع تعز وبلدة الشروق في الجهة الجنوبية ـ الغربية، وجناد في الجهة الجنوبية، وخان محراث في الجهة الجنوبية ـ الغربية، وجبل أحبور في الجهة الشرقية ـ الجنوبية، وجبل شيرمان في الجهة الجنوبية ـ الشرقية.

ثم في الأول من نيسان/أبريل، غادرنا الخان الساعة ١١ صباحاً. والجدير ذكره أن كل البضائع التي تنقل من المخا إلى صنعاء تمر بهذا المكان؛ ولهذا السبب يعد الطريق الرئيسي للبلاد؛ كما وأن العرب يعتنون أكثر بالطريق الذي يمر أمام هذا الجبل الوعر من ذلك الذي يمر بين جبلة وعدن قرب الحادي وأماكن أخرى لا يتردد عليها الناس كثيراً. ورغم أن الطريق كثير التعرجات، إلا أنه معبد معظمه مما يجعل التنقل عليه أكثر سهولة(*). وبعد مرور نصف ساعة وصلنا إلى كوخ شربنا فيه القهوة ووجدنا على بعد ٢٠ دقيقة من هذا المكان كوخاً آخر شبيهاً به. اقتضى إذن النزول من الجبل ٥٠ دقيقة تقريباً؛ أي ما يعادل الربع ميل تقريباً.

اتجهنا جنوباً، لنصل إلى قرية كمدى، الواقعة على إحدى الهضاب. ومررنا بعدها بسهل فسيح، لنبلغ بلدة عماقي (Amàki)، التي تبعد ميلين ونصف عن جبل محراث. وبعد أن قطعنا حوالي الميل، اتجهنا شرقاً لننعطف بعدها جنوباً ونبلغ كوخ جعفر الذي يحمل اسم الشيخ جعفر المدفون على مقربة من هنا. وخلال الرحلة كنت أدوّن أسماء الأماكن المميزة، التي كنا نعبر فيها أو نراها من بعيد، فضلاً عن الملاحظات التي كانت تخطر على بالي؛ وهذا ما فعلته للمرة الأخيرة في جبلة. إذ سجلت أسماء المدن التي شاهدتها لاحقاً على محفظتي؛ ولكنني أضعتها في ذلك النهار ولم أعد أذكر أياً من تلك الأسماء.

وعند وصولنا إلى كوخ جعفر، كان الظلام قد هبط، ففضلنا قضاء الليل فيه، رغم أن صاحب المقهى رفض في البداية الذهاب لإحضار العلف لحميرنا. ورغم بساطة العشاء الذي تناولناه تلك الليلة استمتعنا به للغاية بعد أن أمضينا نهاراً متعباً جداً.

(*) علم رحالتنا أنه ثمة طرق رئيسية كثيرة، بعضها معبّد، ويزيد طولها عن ١٠٠ فرسخ؛ وهذا الأمر مشار إليه في كتاب آخر. ولا أعتقد أن الناشر قد عثر على هذا المقطع في مخطوطة الرحالة، الذين لم يروا طرقاً معبدة في اليمن إلا تلك التي تمرّ بمحاذاة الجبال الوعرة.

غادرنا جعفر صباح الثاني من نيسان/أبريل، وبعد أن قطعنا ميلاً في السهل بلغنا تعز. ويقع في الجهة الجنوبية لهذا السهل جبل صابر الشاهق والخصب والذي يضم ثلاث خانات ومجلسين. واستناداً لحساباتي، تبعد تعز عن محراث خمسة أميال و٨/٧ الميل، وعن جبلة سبعة أميال و٨/٣ الميل. والجدير بالذكر أننا لا نستطيع رؤية تعز إلا من فوق هضبة مجاورة للبلدة؛ بينما يظهر حصن قاهر، الواقع على الجبل المحاذي لأسوار تعز عن بعد.

ولما كنا ننوي العودة ثانية إلى تعز ونخشى أن يتعرف علينا أحدهم، ويحاول الاستعلام عن جولاتنا اكتفينا بأخذ قسطٍ من الراحة في أحد المنازل، وتابعنا بعدها طريقنا. وتبعد تعز عن قرية قرة (Kerra) حوالي ميل و٨/٣ الميل؛ أما طريقها فوعر وكثير الحجارة، وتحده المرتفعات من الجهتين. وتبعد قرة عن بلدة ربيع (Robey)، التي يقام فيها أسبوعياً سوق شعبي، نصف ميل تقريباً؛ ونشاهد شرقاً حصن قاهر الواقع على قمة الجبل. وبعد أن غادرنا ربيع، سلكنا درباً كثيرة الحجارة لنصل إلى بقعة ينفصل فيها طريق تعز عن طريق المخا الذي يمتد جنوباً. وبعد أن نزلنا جبلاً شاهقاً بلغنا بلدة ربى (Roba)، حيث تقام أسبوعياً سوق شعبيّة. وتقع ربى على بعد ٨/٥ الميل من ربيع، ونجد قربها مجلساً.

وفي صباح الثالث من نيسان/أبريل، غادرنا ربى بعد أن تزودنا بالمؤن من خبز، وبيض، وخلافهما، وبعد أن اجتزنا الجبال، رأينا على بعد نصف ميل تقريباً البئر الثاني. على هذه الطريق؛ وعلى مسافة ٤/٣ الميل من هنا، عبرنا أمام مجلس لنبلغ بعدها ينبوع مياه يتفرع منه جدول صغير؛ والجدير ذكره أن المنطقة التي مررنا بها ذاك النهار، كانت شبه خالية من السكان. أما الأراضي القليلة الصالحة للفلاحة على طول الطريق فهي مغطاة كلياً بالحصى، التي تحول دون جفاف الأرض من شدة حرارة الشمس؛ غير أنني لم أرَ الحقول مغطاة بهذه الحصى في المناطق اليمنية التي تشهد ازدهاراً زراعياً ملحوظاً. ثم شاهدنا لاحقاً نهراً صغيراً وخان الشيخ عيسى الواقع في سهل فسيح تكثر فيه أشجار البلح، ويبعد حوالي ٨/٣ الميل عن الينبوع المذكور آنفاً. وبعد أن سرنا حوالي الميل و٨/١ الميل، بلغنا قرية حيدان، الواقعة في منطقة نفوذ ابن عقلان. واللافت للنظر، أن أراضي هذه المنطقة الصالحة للزراعة لم تكن مغطاة بالحصى كتلك التي أشرت إليها سابقاً؛ غير أن معظمها كان بائراً، والأسوار المحيطة بها متداعية، وهذه هي مخلفات الحرب؛ فلسنوات خلت، كانت هذه الولاية التي تخضع اليوم لسلطة شيخ من بني عقلان مستقلة تماماً؛ ومما لا شك فيه أن الشيخ المذكور يمتثل اليوم لأوامر الإمام، ولا يملك حق حشد الجيوش. وكان علينا أن نسير حوالي الميل و٨/٣ الميل لبلوغ خان بني سيف؛ وشاهدنا على طول الطريق، عدة آبار محفورة في الأرض وخانات كثيرة، لم أحفظ أسماءها كلها. ثم وصلنا في وقت لاحق إلى خان عودة (Oude) المنعزل، حيث لم يعتد المسافرون على قضاء الليل؛ ولكن أكد لنا المرشد أن الخان التالي يقع على مسافة بعيدة من هنا؛ فارتأينا قضاء الليلة فيه، وطلبنا من صاحب الخان الذي حزم أغراضه كلها عند وصولنا أن يعود إلى

أقرب قرية، ليقضي الليل وسط عائلته. والجدير ذكره أننا لم نشعر أبداً بالانزعاج في هذا الكوخ كما وأننا لم نتذمر من عدم توافر وسائل الراحة التي نتمتع بها في فنادق كوبنهاغن؛ بل كنا في غاية السرور، لأن رحلتنا كانت تسير حتى الآن على خير ما يرام دون أن نتعرض للأخطار.

وغادرنا عودة صباح الرابع من نيسان/أبريل، واجتزنا طرقات وعرة، وهضاباً مرتفعة، ووادي سراجي، ونهراً غزير المياه دون أن نصادف أي قرية؛ غير أننا شاهدنا شمالاً جبل سودان الشاهق.

لقد اكتشف السيد فورسكال بعد ميل من عودة شجرة بيلسان مغطاة بالزهر؛ وبعد أن أجرى عليها تجارب كثيرة، أيقن أنه عثر على الشجيرة التي تعطي بلسم مكة. فطار فرحاً باكتشافه هذا؛ كما وأنه احتفظ بكمية من الأزهار ليقدم دليلاً على اكتشافه هذا، وليثبت صحة وصفه(*). ويسمي العرب هذه الشجرة أبو الشم، أي الشجرة الطيبة الرائحة؛ ويقال إنها تكثر في اليمن؛ ولكن السكان يحرقونها للاستمتاع برائحتها، ولا يحسنون استعمالها لشيء آخر.

قطعنا من هنا طرقاً وعرة وأودية صغيرة تصب كلها في وادٍ كبير، بمحاذاة الطريق؛ وبعد أن سرنا ميلاً ونصف بلغنا خان مضروب. وتقع على الجهة الجنوبية من الطريق سلسلة جبال مبرشة (Embarascha)؛ التي بني على مقربة منها خانا حمارة وحسيب. وبعد أن غادرنا مضروب مررنا أمام خانين آخرين، ووادي دامي (Dhami)، الذي يصب في وادي سراجي الكبير. وبلغنا أخيراً بلدة سلامة، التي تبعد ميلاً و٣/٢ الميل عن مضروب. حيث تكثر في هذه البلدة القبب، أو دور العبادة المبنية فوق أضرحة المسلمين الكريمي النسب. وكان علينا أن نقطع بعد ٨/٥ الميل لنصل إلى حاس. وبعد أن جمعت هذه المسافات الصغيرة، وجدت أن مدينة تعز تبعد ١٢ ميلاً ونصف الميل عن حاس.

أما بلدة حاس الصغيرة فتقع في تهامة؛ وهي تعد عاصمة منطقة عصاب الأسفل، حيث يقيم صاحب الدولة في حصن صغير، وتكثر فيها مصانع الفخار، والمنازل الحجرية. وتتميز بغناها بالقمح والبلح؛ غير أن مناطق نفوذ آل عقلان تمتد إلى حاس وشرج، التي تبعد ميلاً غرباً، وتشكل جزءاً من إقليم زبيد.

ثم غادرنا هذه المنطقة في الخامس من نيسان/أبريل، قبيل شروق الشمس؛ وبعد أن قطعنا ٨/٣ الميل، بلغنا خاناً عند سفح جبل دباس. وسرنا بعدها ٨/٧ الميل لنصل إلى خان مسقط، المجاور لجامع مهدم. وفي الطريق عبرنا قرب أربع قرى لم أستطع حفظ أسمائها. واجتزنا من مسقط نصف ميل تقريباً لنصل إلى وادي فراجي (كتبت اسم هذه البلدة استناداً للفظ عربي من البلاد غير أنه كان يجدر بي القول وادي سراجي) فوجدناه جافاً، شأنه في ذلك شأن وديان تهامة الأخرى.

وسرنا بعدها حوالي ٣/٢ الميل لنصل إلى بلدة قرطاب ومنها إلى وادي زبيد الخصب أو المنطقة التي

(*) نجد الرسالة التي بعثها السيد فورسكال حول هذا الموضوع إلى الفارس لين في البحث التالي: **Opabolsamum declaratum**.

تتغذى منه. وانتقلنا بعدها إلى ممت (Máte) ومنها إلى زبيد، بعد أن سرنا ميلاً عبر الأرياف الجميلة ويمكننا أن نستنتج بالتالي أن حاس تبعد عن زبيد أربعة أميال و٤/٣ الميل.

كان الحر شديداً في تهامة، عند خروجنا من المنطقة الجبلية، حيث الطقس بارد بعض الشيء. وترجلنا عن الحمير في قرطاب قرب خان خارج البلدة. وكانت جدران هذا المنزل الأربعة مبنية من الأحجار الخام الموضوعة الواحدة منها فوق الأخرى. ورغم أن الحر لا يحتمل في الخارج، شعرنا في الداخل بالهواء المتسرب من الشقوق فمنحنا إحساساً لذيذاً بالانتعاش. وكان يجدر بي أن أتغطى بالقماش القطني الطويل، الذي يلف عادة حول الكتف؛ إلا أنني تمددت أرضاً واسترسلت في النوم بعد أن أنهكني الحر، وتعب السفر. فأصبت بالحمى يوم وصولنا إلى زبيد. وبعد أن تحسنت حالتي تابعنا في السادس من نيسان/أبريل طريقنا من زبيد إلى بيت الفقيه، سالكين الطريق نفسها التي وصفتها آنفاً. ولكنني عانيت لبعض الوقت من الحمى الثالثة التي أضعفتني كثيراً إلى حد أنني لم أعد أقوى على فعل أي شيء.

وعند عودتنا إلى بيت الفقيه وجدنا السيد دوهافن متوعكاً، نظراً لإصابته بداء الحفر؛ فهو يشعر بالاشمئزاز من طبيعة الحياة التي كنا نعيشها خلال رحلتنا. فمنذ فترة طويلة لم نستطع التزود بالنبيذ والمشروبات الروحية واكتفينا بشرب المياه والقهوة. ومياه تهامة كانت بمعظمها ملوثة فضلاً عن أن القهوة تهيج الدم. أما الكيشر فمذاقه لا يعجبنا، رغم أن العرب يعتبرونه مفيداً للصحة. ولقد طلبوا منا أيضاً أن نمتنع عن أكل اللحمة؛ وكان هذا صعباً علينا خلافاً لحال سكان البلاد الذين يتزودون بأطعمة أخرى أكثر بساطة، فيمكنهم الاستغناء عنها بسهولة. غير أن طباخنا لم يعثر في شبه الجزيرة العربية على مكونات أخرى لتحضير أطباق أوروبية شهية؛ لهذا السبب كنا نتناول اللحوم يومياً في مقرنا العام، إن كان يصح أن أطلق على المكان الذي أقمنا فيه هذه التسمية؛ فتدهورت بالتالي صحة الأشخاص الذين لا يتنقلون كثيراً خاصة السيد دوهافن الذي لا يغادر المنزل، ولا حتى مقعده أو سريره إلا لتناول الطعام.

في تلك السنة، صادف اليوم الأول من عيد الفطر، في بيت الفقيه في ١٤ نيسان/أبريل، حيث غادر صاحب الدولة البلدة برفقة عدد كبير من السكان، وقصدوا صرحاً كبيراً محاطاً بالأسوار يسمى المصلّى (راجعوا اللوحة LXII) بغية الصلاة في الهواء الطلق. يستمر هذا العيد ثلاثة أيام، لا يمكنك خلالها إقناع أي عربي بالسفر معك، أو بتأدية خدمة لك إلا إن دعت الحاجة الماسّة لذلك.

وفي ١٧ نيسان/أبريل، شاهدت في بيت الفقيه مثالاً على صلابة العرب في المآسي. اندلعت النار في ذاك اليوم في منزل واقع في الجهة الجنوبية للبلدة؛ ولما كان الهواء الجنوبي يعصف بشدة التهمت النيران جزءاً كبيراً من المدينة. غير أن العرب لم يفقدوا رباطة جأشهم، ولم نسمعهم يصرخون أو ينتحبون؛ وإن عبّر أحدهم عن أسفه لحالهم، قالوا له إنها إرادة الله. كنا نقيم في منزل حجري على مقربة من المدينة المشتعلة؛ ورغم أن الأكواخ المحيطة بنا تحولت رماداً لم نتعرض لأي سوء. وعندما صعدنا إلى السطح

شاهدنا سكان المنازل الحجرية تتأمل الحريق بأعصاب باردة. ولقد أتى لزيارتنا يومها فقيه من البلدة، بعد أن وضع أثاث منزله في مكان آمن؛ وأعلمنا بنبرة تنم عن عدم المبالاة أن منزله يحترق. وأظن أن خسارة العربي في ظرف مماثل لا توازي أبداً خسارة الأوروبي؛ فهو يحمل متاعه على ظهره وينتقل إلى حي آخر، أو يقيم في الهواء الطلق، إن احتدمت النيران أكثر؛ فلا يخسر بالتالي سوى كوخه الذي يستطيع إعادة بنائه بسهولة؛ ومما لا شك فيه أن هذه الخسارة تعد فادحة بالنسبة إلى الفقراء منهم.



الرحلة من بيت الفقيه إلى المخا

بعد أن عاينا محيط بيت الفقيه معاينة دقيقة، وبعد أن استعدنا أنا والسيد دوهافن عافيتنا، استعدت القافلة كلها للسفر إلى المخا؛ فغادرنا بيت الفقيه في ٢٠ نيسان/أبريل، بعد تناول العشاء، وسلكنا الطريق نفسها التي وصفتها آنفاً.

وغالباً ما نسافر ليلاً في تهامة؛ ولكنني قررت أنا والسيد فورسكال، أن نسبق الآخرين مع حمار، حتى يتمكن هو من جمع الأعشاب وأنا من تحديد موقع القرى؛ بينما تابع القافلة سيرها ليلاً مع الخدم والمتاع. ولقد نصبت المزولة عشية وصولنا إلى زبيد؛ وبعد أن حددت ارتفاع نجمتين وجدت أن هذه المدينة تقع على خط العرض ١٤°. وفي صباح ٢١ منه، تابعت أنا والسيد فورسكال طريقنا إلى وادي زبيد، عبر حقول مروية بالماء؛ وبعد أن قطعنا نصف ميل بلغنا قرية طوارق، الواقعة في وادي جرصة؛ الذي يقع على الساعد الصغير لوادي زبيد؛ وهو يتفرع من ساعده الأكبر، لإخصاب أكبر مساحة من أراضي تهامة. إن حقول هذه المنطقة تحاط بسدود ترابية تساعد على تجميع الكميات اللازمة من المياه لري الأراضي المجاورة. وبعد مغادرتنا طوارق قطعنا ٨/٣ الميل، وبلغنا صاحب القواس، ومنها إلى جواهر على مسافة ٤/٣ الميل؛ على مقربة من هذا المكان، تنتهي الحقول التي يرويها وادي زبيد والتي يبلغ عرضها ميلاً و٨/١ الميل، بما فيها الأنهر الأخرى. إننا لا نجد قرى كثيرة بين وادي زبيد والمخا، حيث الأرض رملية قاحلة، تكثر فيها الجنيبات التي تستعمل في تهامة لتغطية سطوح المنازل. ونظراً لشدة الحر في هذه المنطقة الرملية سارعت أنا والسيد فورسكال إلى الظل وأخذنا قسطاً من الراحة في خان جواهر الحقير. ثم غادرنا الخان عند الساعة الثالثة بعد الظهر. وبعد أن قطعنا نصف ميل وصلنا إلى قرية عدج (Udge)، المطلة على جبل سوكار الواقع على جزيرة صغيرة في الخليج العربي. وبعد أن سرنا ربع ميل بلغنا قرية جوهار، ومنها إلى قرية شيرج التي تبعد ثلاثة أميال و٨/٣ الميل، أو أربعة فراسخ و٢٤ دقيقة من زبيد. وعند وصول قافلتنا ومتاعنا نصبت مزولتي لأقيس شيرج عن خط الطول الذي بلغ ١٣°، ٥٩َ .

يقول أبو الفدا إن الشرقية هي مرفأ على البحر؛ لكن إن كان هذا المكان يقع في عهده على الخليج العربي فمياهه تراجعت بشكل ملحوظ، والقرية لا تمت إلى وصف أبي الفدا بصلة إلا من حيث رداءة منازلها. ويقيم اليوم في شيرج شيخ (قاض) يخضع لسلطة صاحب الدولة في زبيد.

في ٢٢ نيسان/أبريل، سبقت أنا والسيد فورسكال والمرشد المرافق لنا، الآخرين ووصلنا إلى مشيد

(Mauschid). ولم نشاهد على هذه الطريق سوى خانات للقوافل. سرنا ٥/٨ الميل لنصل إلى جوربان (Dsjurbän)، ومنها إلى النهاري (Ennahäri)، التي تبعد نصف ميل. ورأينا قرب هذا الكوخ ضريح نبي مزعوم علق بعض المسافرين قطعة من ثيابهم على الجنيبات المحيطة به حتى يذكرهم الشيخ في صلواته، وتستجاب دعواتهم. ثم قطعنا بعدها ٣/٨ الميل لنصل إلى دونان (Dönnën)، ومنها إلى مهجان (Moheijän). وعند الثالثة من بعد الظهر، وبعد أن قطعنا نصف ميل جنوباً وصلنا إلى جبلي. ومنها إلى قرية مشيد الكبيرة الواقعة على بعد مئة قدم تقريباً من البحر. وبالتالي إلى شبرج التي تبعد أربعة أميال و١/٨ الميل عن مشيد، أو ٥ ساعات و٤٠ دقيقة.

وعند وصولنا إلى مشيد، سمعنا الناس يتحدثون عن حرب عائلية قتل خلالها أحد المحاربين تحت أشجار النخيل المجاورة للبلدة. فخفنا أن تصاب قافلتنا بمكروه، خاصة وأننا نتوقع وصولها ليلاً. ولكن أكد لنا السكان أن هذه الخلافات لا تعكر الأمن العام أبداً. حين يقتل عربي من تهامة عربياً آخر، تختار عائلة المغدور حلاً من ثلاثة: إما الثأر من عائلة القاتل، أو تسليمه للقاضي الذي سيقتله بدوره؛ أو مبارزة القاتل أو أحد أفراد عائلته(*)؛ وفي الحالة الأخيرة يلزم القاتل بالدخول إلى السجن إلا أن يدفع للقاضي ٢٠٠ ريال إن لم أكن مخطئاً. ولسنوات خلت، قتل أحد الفلاحين فلاحاً من مشيد؛ فأعلنت عائلة الفقيد أنها ستنتقم بنفسها من القاتل أو من أحد أفراد عائلته لكن عشية وصولنا، التقى رجلان من الفريقين المختصمين في المكان المذكور وتعاركا حتى الموت؛ غير أن عائلة الفقيد الأول فجعت ثانية بموت فرد آخر من أفرادها فاضطر القاتل إلى أن يدفع مبلغاً آخر للقاضي، كما وأن عائلة الفقيد وجدت نفسها مضطرة لقتل شخصين أو للتصالح ووضع حد لهذه الحرب. وفي صباح اليوم التالي التقيت أنا والسيد فورسكال برجل من الفريق المنتصر في خان على طريق المخا ولم يكن مستاءً أبداً من هذه الحرب، لأنها مسألة شرف؛ غير أنه اشتكى من المبالغ التي اضطرت عائلته لدفعها إلى القاضي خلال فترة قصيرة.

وبعد ذلك وصلت القافلة في ساعة متأخرة من الليل أو فجر ٢٣ نيسان/أبريل. فسارعت لاستعمال مزولتي. كانت السماء ملبدة بالغيوم التي حجبت النجم الظهري؛ غير أنني تمكنت أخيراً من مراقبة ارتفاع النجم من النسر الواقع الذي يشير إلى بعد مشيد بمسافة ١٣°، ٤٣َ ، عن خط العرض. ويقيم في مشيد نائب لصاحب الدولة وبعض الجنود التابعين لصاحب الدولة في حاس. ولما فرضوا على جمالنا المحمّلة بالأغراض دفع رسم عبور في زبيد، خطر لي أنهم سيفرضون علينا رسوماً مماثلة في المناطق الأخرى فاتفقنا مع جمّالنا على أن يتكفل بهذه المصاريف الصغيرة غير أنه اتفق مع موظفي الجمرك على فرض رسم العبور علينا، وإلا فتشوا متاعنا فاعترضنا عليه وطلبنا مقابلة القاضي الذي سمح لنا بالرحيل على الفور لعدم صحة ادعاءاتهم.

(*) انظر: وصف شبه الجزيرة العربية.

كنت أنوي الوصول هذا المساء إلى المخا قبل أن تغلق الأبواب؛ فانطلقت برفقة السيد فورسكال عند طلوع الفجر رغم أنه لم يغمض لنا جفن في الليلة السابقة. بعد أن سرنا ٣/١ الميل بلغنا خان دربه، وعبرنا لاحقاً منطقة مملح التي تنقل إليها مياه البحر وتبخر حتى يجمع الملح ويرسل جزءاً منه إلى المناطق الجبلية، شاهدت في جوار عدن جمالاً محمّلة بالملح، وبعد أن قطعنا تربة (Turbo) وصلنا على بعد ٨/٧ الميل إلى خان جردان (Djurden)؛ ومنه إلى خان سمعال (SemaŸhhle)؛ حيث تمر بين هذين الخانين الحدود التي تفصل بين المخا وحاس. وبعد أن غادرنا سمعال، وصلنا إلى خان سهاري، بعد أن قطعنا ٨/١ الميل. وسرنا بعدها ميلاً تقريباً لنصل قرية رواس (RuaŸs)، حيث أخذنا قسطاً من الراحة نظراً لارتفاع الحر. ويتفرع من رواس طريق يؤدي إلى المخا مروراً بقبة سابا؛ وهي دار عبادة تضم أضرحة سبعة أشقاء. غير أننا سلكنا طريقاً آخر مختصراً، رغم أنه رملي ووعر. وبعد أن سرنا ٨/١ الميل، وصلنا إلى بلدة عشتيل التي تبعد ميلين عن المخا. واستناداً لهذه الحسابات تبعد مشيد عن المخا خمسة أميال و٤/٣ الميل؛ لكن أرصادي الجوية تشير إلى أنهما يقعان على بعد ستة فراسخ، قطعناها في ظرف سبع ساعات على ظهر الحمير؛ ومما لا شك فيه أننا كنا نسرع في سيرنا.

يمر المسافرون إلى المخا براً بمدينة باب شاذلي؛ ويتبع الأوروبيون العادة المشينة السائدة في القاهرة للدخول من بابها، أي إنهم يترجلون عن حميرهم ويدخلون سيراً على الأقدام. ترجلنا إذن عن الحمير حتى يفتشوا الخرج. ولم يحاول أحد طرح الأسئلة حول أسمائنا وجوازات سفرنا على خلاف المناطق الأخرى؛ فمررنا بالتالي دون أن يتعرف علينا أحد. وأرشدونا إلى خان، اعتاد الأتراك على النزول فيه، حتى نلتقي بمواطنينا حسب رأي موظفي الجمارك.

وكان يقيم في المخا تاجر إنكليزي وصل إليها على متن باخرة من بومباي. ولكن العرب استقبلونا بالترحاب في اليمن، حتى أننا لم نجد من داعٍ للتحدث إليه أولاً كما وأننا لا نحمل رسائل للإنكليز. وكنا نخشى أن يحسبنا متشردين أو خونة، غير أننا كنا نحمل رسائل توصية متعددة، واحدة من كخيا جدة إلى صاحب الدولة في المخا، وأخرى من تاجر في جدة إلى سمسار الإنكليز، وثالثة من تاجر في بيت الفقيه، إلى تاجر في المخا يدعى سيد صالح. فلم نعلم جيداً أن الأمير فرحان لم يكتفِ بأن يوصي بنا في رسالته صاحب الدولة في المخا، بل كتب له في مناسبة أخرى معدداً له ميزاتنا. وعلاوة على ذلك، وطدنا صداقتنا في المخا بابن سيد صالح واسمه إسماعيل. كان والده قد أرسله إلى جدة لنقل كمية من البن، فحاول أن يكسب صداقتنا وقدم لنا شهادة تثبت أنه كان مترجم الربابنة الهولنديين في المخا، علماً أنه تعلم الهولندية من أحد المرتدين عن الدين؛ وكم كانت دهشتنا عظيمة لأننا لم نقابل منذ فترة طويلة مسلماً يحسن لغة أوروبية. ولما كان يحسن الإطراء على الأوروبيين، ويمتاز برزانته رافقناه من جدة إلى مخيّه.

أحسنا صنيعاً بمقابلة سمسار الإنكليز عند وصولنا إلى المخا؛ فقد كان يُعدّ من كبار تجار المدينة الذين حظوا بثقة صاحب الدولة فيهم؛ غير أنه كان بانيانياً، أو ملحداً من بلاد الهند؛ ولاحظنا في بيت الفقيه

ومخيّة أن المسلمين لا يعيرون هذه الأمة اهتماماً، كما أننا لا نعير اليهود اهتماماً لذلك فضلنا أن لا نتقرب منه. قصدت برفقة السيد فورسكال منزل إسماعيل الذي استقبلنا بالترحاب، وأمّن لنا منزلاً لنقضي الليل فيه؛ ورغم أنه مسلم، قدم لنا شراب البانش، الذي أنعشنا كثيراً خاصة وأننا لم نحتس الكحول منذ فترة طويلة. ولكن إسماعيل لم يذق البانش وأحضر لنا شخصاً هندياً مرتداً عن الدين المسيحي، يعمل تاجراً في المخا، ويسرف كثيراً في شرب الكحول. وكنا على وشك أن نثمل برفقته لو لم نعِ أن الشراب قوي للغاية. غير أن إسماعيل شدّد على صداقته لنا، وعرض علينا خدماته، واقترح علينا حلق ذقنينا وارتداء ملابس أوروبية، شأننا شأن الإنكليز الذين يحبون ممارسة التجارة في المخا، وعدم التحدث بالعربية، حتى لا يظن أحد أننا أصبحنا مسيحيين. لكننا حسبنا كلامه مزاحاً. وبعد أن استشرناه حول الطريق الأسرع للوصول إلى صنعاء وغيرها من المدن الجبلية، حذرنا من القيام بهذه الرحلة واصفاً الجبليين بالفظّين والقليلي التهذيب؛ وأضاف أن الإمام المسلم يعامل بازدراء من أتباع الديانات الأخرى. والجدير ذكره أنني كنت أعرف اليمن أفضل من إسماعيل الذي لم يرَ من بلده سوى الطريق من المخا إلى مخيّة؛ فأخبرته تفصيلياً عن الرحلات التي قمنا بها، بدءاً من مخيّة؛ وشكرته على استقباله الحسن لنا الذي لم نحظ بمثله في أي مكان آخر. غير أنه ادعى معرفته بسكان المخا أكثر منا؛ وأكد لنا أن شعبها يكره الأوروبيين كرهاً شديداً؛ ولكن والده يتمتع بمكانة مرموقة في المدينة ويستطيع أن يقدم لنا خدمات كثيرة.

كان إسماعيل يحب التقرب من الأجانب لمصلحته الشخصية؛ ولعله انكب على تعلّم اللغة الهولندية من أجل هذه الغاية فحسب. وكتب والده عدة رسائل إلى باتافيا عبر المرتدين الهولنديين الذين كانوا في المخا، واستطاع إقناع التجار الهولنديين بإرسال مركب لهم. فوصل هذا الأخير منذ سنتين تقريباً قبل عدة أشهر من وصول الإنكليز؛ ولما كانت المرة الأولى التي يزور فيها الربان المخا، قصد أولاً منزل سيد صالح الذي أعطاه فكرة مريعة عن سكان هذه البلدة، وخاصة البانيانيين منهم؛ فشكر الهولندي الله لأنه وقع بين يدي رجل طيب إلى هذا الحد. واستأجر له سيد صالح منزلاً ووضع ابنه في خدمته فأمن له كل ما يلزمه، إلى حد أن الهولندي اعتمد كلياً على سيد صالح وابنه. وحين أتى بعض التجار الهنود الذين يحسنون اللغة البرتغالية لزيارته طردوا من المنزل؛ كما وأن الخدم الذين يتكلمون البرتغالية مع الربان كانوا يؤكدون له ادعاءات إسماعيل حول فظاظة سكان المخا، خوفاً من إسماعيل وأبيه لكي لا يتسببا في طردهم من عملهم. أما التجار العرب فلا يثيرون القلق، لأنهم لا يحسنون إلا العربية وإسماعيل يترجم كلامهم كما يحلو له. فأخذ الهولندي عن سكان المخا فكرة سيئة للغاية حتى أنه كان يتفادى الخروج إلى الشارع خوفاً من أن يأخذوه رهينة. وبقيت هذه الأفكار راسخة في ذهنه إلى حين وصول الإنكليز الذين أثبتوا له أنه وضع ثقته في أشخاص أشرار؛ غير أنه كان قد تورط جداً مع إسماعيل وأبيه، ولم يعد باستطاعته التنصل منهما؛ ولا أظن أن تجار باتافيا سيرسلون مركباً آخر إلى المخا، بعد وقوع ذاك الهولندي ضحية الخداع.

وخلال الرحلة من جدة إلى مخيّة حاول إسماعيل إقناعنا بأن الدانمركيين أيضاً يجنون أموالاً طائلة من ممارسة التجارة في المخا. ولكن بعد أن لاحظ عدم رغبتنا بالتورط في الأعمال التجارية حاول تضليلنا قدر المستطاع. ونلاحظ بالتالي أن المسافر يقع بسهولة في الفخ، إن لم يحسن لغة البلاد، أو إن وضع ثقته بأول شخص يصادفه ويعرض عليه خدماته. وهكذا لم يفلح إسماعيل بخداعنا ولكنه سبب لنا خيبة أمل كبيرة؛ فلو أتينا إلى المخا من بلاد الهند دون أن نتعلم العربية ووضعنا ثقتنا فيه، لما حاولنا التعرف على سكان البلاد ولما كانت دراستنا مطابقة للواقع. وعند وصولنا سلمنا رسالة التوصية الموجهة إلى سيد صالح لابنه إسماعيل ولم نقابل والده إلا في اليوم التالي الواقع فيه ٢٤ نيسان/أبريل. ولما كان تجار مخيّة وبيت الفقيه، الذين أوصوا بنا، قد دفعوا لنا رسوم الجمارك ونقلوا لنا متاعنا، طلبنا من سيد صالح وابنه أن يؤديا لنا الخدمة نفسها؛ فأظهرا استعدادهما التام للقيام بذلك. غير أنني أخالهما يضمران لنا نية مختلفة ويسعيان لإقناع موظفي الجمارك بتعذيبنا.

وعند الساعة التاسعة صباحاً، وصلت القافلة والخدم والمتاع. وعملاً بعادة هذا البلد نقل المتاع إلى الجمارك حيث كان صاحب الدولة موجوداً بنفسه. فطلبنا أن تفتش أولاً الأغراض التي نقلت براً حتى نأخذ أواني المطبخ والأسرّة؛ لكن موظفي الجمارك ارتأوا تفتيش الصناديق التي وصلت إلى مخيّة والمخا بحراً، ومن بينها برميل صغير فيه أسماك من الخليج العربي؛ وطلب السيد فورسكال عدم فتحه حتى لا يتبخر عرق النبيذ أو تفوح رائحة السمك الكريهة؛ غير أن الموظف فتحه وأخرج الأسماك وحرك السائل بقضيب من حديد ليتأكد من أننا لا نخفي داخل البرميل أحجاراً كريمة؛ ورغم المساعي التي بذلناها أوقع البرميل وفاحت رائحة الأسماك وعرق النبيذ في المكان، ويمكنك أن تتخيل ردة فعل العرب في ظرف مماثل، خاصة وأن ديانتهم تحظر عليهم شرب الكحول فضلاً عن الإحراج الذي شعرنا به أمام صاحب الدولة ومساعديه. لقد طلبنا منهم أن يفتشوا أسرتنا أولاً؛ ولكنهم فضلوا البحث عن النوادر الطبيعية؛ وكنا قد حملنا معنا من مخية حشرات بحرية تبعث أيضاً روائح نتنة أثارت سخط الحاضرين وحملتهم على شتم الفرنسيين؛ أما الأصداف التي كنا قد حزمناها بعناية فائقة فانتزعوا بعضها من قعر الصندوق بينما ثقبوا بعضها الآخر بواسطة قضيب حديدي مستدق الرأس؛ إذ لا يصدق العرب أن رجلاً عاقلاً يجمع هذه الأشياء بغية استعمالها لاحقاً؛ بل خطر لهم أننا أرسلناها لنسخر من صاحب الدولة وموظفي الجمارك. وظن آخرون أننا خبأنا بين هذه الأغراض بضائع ثمينة. ولكن صاحب الدولة لم يصدق أبداً هذه الادعاءات. وأحضروا له أخيراً حقيبة وضع فيها السيد فورسكال أنواعاً مختلفة من الأفاعي؛ فأثار هذا المنظر خوف الجميع. فزعم أحد خدام صاحب الدولة أن الفرنسيين أتوا إلى اليمن ليدسوا السم للمسلمين وأحضروا معهم طبيباً كي ينفذوا هذه المهمة بنجاح. وكان صاحب الدولة يظهر تعاطفه نحونا دون أن يكنّ لنا الاحتقار؛ لكن عندما سمعهم يقولون إننا ننوي إلحاق الضرر بالسكان ثار غضباً وقال: أقسم بالله أن هؤلاء الأشخاص لن يمضوا الليلة في بلدتنا وأقفلوا مركز الجمارك دون إعطائنا حاجاتنا الأساسية من أوانٍ مطبخية وأسرة.

ثم جاءنا أحد الخدم مسرعاً لإخبارنا أنهم رموا الكتب والحقائب التي نقلناها على ظهر الحمير من النوافذ، وأنهم أقفلوا المنزل؛ ولما أراد السيدان فورسكال ودوهافن الاستعلام عن السبب أجابوهما إنها أوامر إسماعيل. ومما لا شك فيه أن وصف إسماعيل لسكان المخا قد ثبتت صحته حتى الآن. ولكننا اضطررنا للاستماع إلى كلامهم بصبر وأناة. كان إسماعيل ووالده قد اختفيا عن الأنظار ما أن بدأ موظفو الجمارك بإزعاجنا. ولم نستطع العثور عليهما أو على صاحب المنزل؛ فرحنا نبحث عن منزل آخر علماً أن الجميع رفضوا إيواءنا في هذه الظروف خوفاً من أن يعاقبوا. وفي نهاية المطاف قبل أحدهم أن يؤجرنا منزله شرط أن يؤكد له القاضي أن الحكومة لن تتعرض له. كان قضاة تركيا يهتمون بحبهم الشديد لمصلحتهم الخاصة على خلاف قضاة اليمن بمن فيهم قاضي المخا الذي أثبت لنا استقامته. وقصدناه برفقة النبيل ليؤكد له أنه يستطيع أن يؤجرنا منزله.

ولقد أرسلت حكومة بومباي في تلك السنة سفينتين إلى المخا مع تاجر يدعى فرانسوا سكوت وهو اسكوتلندي الأصل. وصل هذا الأخير، إلى المدينة على متن السفينة الأولى منذ بضعة أشهر. فأعلم بوصولنا وبحجز أغراضنا في مركز الجمارك. ورغم أننا لم نحاول الاتصال به، دعانا إلى العشاء؛ وأعد لنا طاولة مليئة بالأطايب التي لم نذق مثلها منذ مغادرتنا القاهرة؛ وأثبت لنا أنه صديق مخلص ووفي. فسلمناه عندها رسائلنا إلى سمساره واكتشفنا متأخرين أننا أخطأنا بعدم الاتصال به أو بالسيد سكوت فور وصولنا. ورغم أننا استرجعنا شجاعتنا إلا أننا لم نحاول إبداء رأينا الحقيقي في إسماعيل ووالده مخافة أن يثيرا لنا مشاكل جديدة.

ولم نستطع حلّ المشكلة مع الجمارك وفي ٢٥ نيسان/أبريل؛ نصحنا إسماعيل بأن نعرض على صاحب الدولة ٥٠ دوقية بغية كسب رضاه. وكنا قد ارتأينا أن نقدم له هدية. ولكن ليس بهذا الحجم؛ كما وأن الشكوك ساورتنا في مسألة إرسالها مع إسماعيل؛ ولما كنا ننوي الذهاب إلى صنعاء وقضاء سنة بكاملها في البلاد. ولما كان أمر مغادرتنا المخا مرهون بموافقة صاحب الدولة، قررنا أن نضحي بهذا المبلغ، وأن نسلمه له بأنفسنا حتى نستغل الفرصة ونحاول أن ننال حظوة لديه. وكان خدمه يمنعوننا من مقابلته كلما قصدنا منزله؛ وأكد لنا إسماعيل أن صاحب الدولة لا يتنازل ويتحدث مع المسيحيين؛ وفي ٢٦ نيسان/أبريل قررت المجموعة أن أسلمه الـ ٥٠ دوقيه بنفسي. علمت في الطريق أنه أصيب عند الصباح برصاصة في رجله بينما كان يدرب جنوده؛ فعدت أدراجي عند سماعي هذا الخبر آملاً أن يستدعي طبيبنا لمعالجته ونحتفظ بالتالي بالمال. ولكن أحداً لم يستدع السيد كرامر؛ فحين اقترحوا على صاحب الدولة استدعاءه رفض رفضاً قاطعاً لأنه لا يثق بالفرنسيين الذين قد ينتقمون منه ويستعملون عقاقير مسخنة؛ فالعرب يميزون بين العقاقير المسخنة والعقاقير المنعشة ويعتبرون الأولى مضرة بالصحة. ولعل العبارة وحدها تثير خوفهم نظراً لشدة الحر في بلادهم. استغل نبيل من نبلاء العرب هذه المناسبة ليقول لنا

إن الله عاقب صاحب الدولة لأنه أساء معاملتنا؛ غير أننا كنا على ثقة بأنه ليس شريراً وأن بعض الأشخاص السيئي النية أثاروه ضدنا؛ ولذلك لو أتيحت لنا فرصة التعرف عليه من قبل لعاملنا بطريقة مختلفة تماماً.

وفي ٢٧ نيسان/أبريل، أعاد لنا موظفو الجمرك أسرتنا بعد أن فتشوها تفتيشاً دقيقاً؛ وفي ٢٩ منه، أعادوا لنا بعض الأشياء البسيطة بعد أن عاينوها بدقة؛ فبدا لنا واضحاً أنهم يريدون إرغامنا على تقديم هدية قيمة. فقررنا حينها أن نضحي بال ٥٠ دوقية المخصصة لهذه الغاية؛ وكان إسماعيل قد استطاع طوال هذه الفترة رشوة الخدم حتى لا يسمحوا لنا أبداً بمقابلة صاحب الدولة؛ فكانوا يرددون لنا إنه لا يسمح لأحد بالتحدث في شأننا باستثناء إسماعيل ووالده؛ ولكن في ذلك النهار لم يطردوا السيد فورسكال خاصة بعد أن علموا أنه يحمل الهدية؛ فلقد قبل صاحب الدولة الـ ٥٠ دوقية ووافق على طلب السيد فورسكال الذي سأله أن يسمح لنا بالدفاع عن قضيتنا بأنفسنا؛ وكم كانت دهشته عظيمة حين أدرك أننا نحسن اللغة العربية ولم نحاول الاتصال به منذ البداية. وفي اليوم التالي أرسل لنا هدية بدوره وهي أربع نعاج وكيسين من الأرز. وعلمنا في الوقت نفسه أن موظفي الجمارك تلقوا الأمر بإعادة متاعنا دون فتحه. وتحسنت علاقتنا بإسماعيل على الفور خاصة وأنه تكفل بدفع مصاريف موظفي الجمارك والحمالين بدلاً منا رغم أنها بلغت ثلاثة أضعاف المبلغ الذي دفعناه في مخيّة وبيت الفقيه.

واقترح أعيان البلدة على صاحب الدولة أن يستدعي طبيبنا؛ لكنه كان يخشى أن يعطيه دواء مضراً بالصحة بغية الانتقام منه. بيد أن القاضي أكد له أنه لم يتلق أي شكوى ضدنا وأن احتفاظ الطبيب بأفاعٍ ميتة لا يثير القلق لأن سمّها يستعمل في بعض العقاقير؛ وأن الأصداف والحشرات البحرية لها فائدة كبيرة. أرسل صاحب الدولة في طلبنا في ٤ أيار/مايو بعد أن استعان بـ أربعة أو خمسة أطباء دجالين وبعد أن زاد مرضه خطورة. وكم كانت فرحتنا كبيرة حين أدركنا أن صاحب الدولة لم يعد يخشانا؛ فأرسل الطبيب كرامر يعلمه بموافقته على تقديم خدماته له. وما إن تبلغ ردنا حتى أرسل لنا صاحب الدولة أحد خدامه مع بغل لينقل السيد كرامر إلى منزله.

أتيحت لنا لاحقاً الفرصة لزيارة صاحب الدولة عدة مرات والتأكد من صداقته لنا؛ وفي أحد الأيام أخبره السيد فورسكال أن أحد النبلاء شتمه في الشارع يوم كان صاحب الدولة مستاء منا؛ ودون أن يسعى للتأكد من صحة الموضوع وعد بالتعويض عليه وزج النبيل المزعوم في السجن. وصدم إسماعيل برؤية صديقه معاقباً بسببنا وأكد لنا أن السكان ثائرون ضدنا وأن حياتنا باتت في خطر حتى داخل المنزل، فقصد السيد فورسكال منزل صاحب الدولة على الفور طالباً منه إطلاق سراح السجين على أن يعده بأن يعامل الأجانب بطريقة حضارية من الآن فصاعداً. لبى صاحب الدولة طلبه معرباً له عن استعداده لزجه ثمانية أيام في السجن إن شئنا ذلك.

وبعيد وصولنا إلى المخا أصبت بإسهال حاد لم أشف منه إلا بعد مضي خمسة عشر يوماً؛ أما توعك السيد دوهافن الذي ظهرت بوادره في بيت الفقيه فازداد سوءاً في المخا؛ فكان يشعر بالارتياح عند حلول المساء خاصة إن ذهب في نزهة في الطراوة؛ غير أنه لم يكن قادراً على احتمال حرّ النهار. وفي ٢٢ و٢٣ أيار/مايو نام على سطح المنزل في الهواء الطلق حتى يستمتع بالهواء العليل.

إنه ورغم هبوب رياح قوية في اليوم التالي جازف في ٢٤ و٢٥ منه بالنوم على السطح فأصيب بالبرد ولم يعد يقوى على النزول وحده إلى المنزل. وراحت صحته تتدهور حتى أن نبضه بدأ يخف تدريجياً؛ كما وأنه طلب كتابة وصيته. ولكننا لم نفقد الأمل في شفائه؛ وعند الساعة الثامنة مساءً راح يهذي بكلمات لا معنى لها تارة بالعربية وطوراً بالفرنسية ومرة بالإيطالية وأخرى بالألمانية؛ غير أنه ما لبث أن استرسل في سبات عميق ليلفظ أنفاسه الأخيرة عند الساعة العاشرة ففقد العلم بالتالي واحداً من كبار رجال الأدب الشرقي.

إن سكان البلاد لا يضعون شاهدة على قبور موتاهم؛ غير أننا صنعنا واحدة وأرسل لنا الربان في ٢٦ أيار/مايو ستة بحارة كاثوليكيين لدفنه خارج المدينة في مقابر الفرنسيين. فسار إنكليز المخا كلهم خلف النعش وحضروا الجنازة التي جرت على الطريقة الأوروبية على خلاف جنازة السيد فيرو قنصل البندقية التي جرت في القاهرة في ٤ نيسان/أبريل ١٧٦٣، إذ عند خروج النعش من المنزل عبر الحمّالون الشارع بسرعة حتى لا يتجمع الرعاع حولهم فتفرق الأوروبيون الذين كانوا يتبعونهم - في القاهرة - وتجمعوا لاحقاً خارج البلدة قرب الضريح؛ ولما كنا نخشى أن يسرق بدو مصر الجثة ألبسنا الفقيد ثوب ناسك حقير لا ينتفع منه العرب بشيء. أما في المخا فيدفن الناس أمواتهم دون أن يخشوا تعرضهم للسلب أو للنهب من قبل الرعاع.

وبعد موت السيد دوهافن ارتأينا مغادرة المخا والتوغل أكثر في البلاد؛ ورغم أن بعض أفراد المجموعة كانوا يفضلون قضاء سنة أخرى في اليمن لزيارة قرى المنطقة الجبلية كلها ارتأى البعض الآخر العودة سريعاً إلى أوروبا. علماً أننا واجهنا مشاكل جمّة في المخا. لم نكن نعلم كيف سيستقبلنا السكان داخل البلاد خاصة بعد عودة الإنكليز إلى بلاد الهند. ولما كنا قد زرنا الجزء الأكبر من اليمن ولم يتبق لنا من مناطق نفوذ الإمام إلا الطريق المؤدية من المخا إلى صنعاء؛ قررنا الذهاب إلى العاصمة في أسرع وقت ممكن علّ الإقامة فيها تروق لنا أو إن لم ترق لنا حتى نتمكن من العودة إلى المخا قبل رحيل الإنكليز.

كان باستطاعتي أنا والسيد فورسكال أن نقوم بجولات خاصة، كما فعلنا خلال إقامتنا في بيت الفقيه؛ ولكن رفيقانا في السفر كانا يتوقان مثلنا لمشاهدة مقر إقامة الإمام. والجدير ذكره أننا لم نستطع مغادرة المكان قبل أن يعالج طبيبنا رِجْل صاحب الدولة ويشفيها تماماً. فادعينا أننا لم نعد نحتمل الحر الشديد خاصة وأن أحد رفاقنا قد قضى بسببه ونفضل الذهاب إلى صنعاء حفاظاً منا على صحتنا والبقاء

فيها حتى يقرر السيد سكوت العودة إلى الهند. وفي البداية رفض صاحب الدولة طلبنا هذا مدعياً أنه يريد إعلام رئيسه أولاً برغبتنا هذه حتى يعطينا الإمام الإذن بدخول صنعاء؛ فقد كان يظن أننا نسعى لمقابلة الإمام؛ وقد جرت العادة في البلاد أن يبلغ الإمام مسبقاً بقدوم الأجانب الذين يرغبون بمقابلته وتقديم الهدايا له بغية الحصول على بعض الامتيازات التجارية. غير أن صاحب الدولة وعدنا بمراسلته سريعاً وبإعلامنا برده فور تبلغه إياه.

ولما رفضوا السماح لنا بالذهاب حالاً وإلى صنعاء قررنا الذهاب إلى تعز في انتظار رد الإمام؛ غير أنهم رفضوا هذا الطلب أيضاً وسمحوا لنا بالذهاب إلى موسى (Mussa). وأكد لنا البعض أن صاحب الدولة لن يأذن لنا بمغادرة المخا قبل أن تشفى رجله تماماً؛ ولا يمكننا أن نلومه على ذلك لأنه لن يجد في شبه الجزيرة العربية طبيباً واحداً ماهراً. فاقترحنا بالتالي ترك طبيبنا في المخا شرط أن يسمحوا لنا بالرحيل؛ غير أن العرب خافوا أن يخفق في العلاج من شدة حزنه على رحيل أصدقائه.

فاشتكينا أمام أعيان البلاد من رفض حاكمهم السماح لنا بالذهاب لإنفاق أموالنا في مكان آخر. فسألوا عن سبب رفضنا انتظار انطلاق السفن من المخا وحذرونا من التجول في المناطق الجبلية، في هذا الفصل من السنة؛ فمن ينتقل من حرّ تهامة إلى برودة الجبال قد يصاب بحمى قوية. ولما كان هدف رحلتنا التعرف على هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية لم نستطع العدول عن قرارنا.

سر صاحب الدولة بشفاء رجله خلال أسابيع قليلة؛ فقد قال طبيبنا إن جرحه ليس بالغاً ولكن شفاءه يتطلب وقتاً طويلاً(*). ثم وصل رجل عربي إلى المدينة ووعد صاحب الدولة بشفائه في ظرف ثمانية أيام؛ فاستقبل الطبيب الجديد بالترحاب ولبى صاحب الدولة طلبنا؛ وأعطى السيد كرامر الإذن بالرحيل وقدم له بغلاً وسرجاً وبعض الملابس العربية. وتلقينا في الوقت نفسه الأمر بالذهاب إلى تعز فحسب، لأن صاحب الدولة ينتظر رد الإمام. وعلاوة على ذلك أعطانا صاحب الدولة رسالة توصية لصاحب دولة تعز وأرسل معنا أحد خدامه حتى نسافر بأمان وراحة. وكنا نتمنى أن لا يفعل ذلك لأن هذا الخادم كان يراقبنا باستمرار؛ مما جعلنا نتوخى الحذر في تصرفاتنا.

ولما كنا نجهل إن كان بوسعنا العودة إلى المخا خلال هذه السنة اتخذنا الإجراءات المناسبة كافة؛ فأخذنا معنا الأغراض اللازمة علماً أننا قد نقضي سنة تقريباً في المناطق الجبلية. ولكننا فضلنا أن نحتفظ بجزء من أموالنا النقدية مع سمسار الإنكليز الذي حملنا رسائل لبانيانيي تعز وصنعاء.

(*) في السنة التالية، كنت في بومباي، حين وصلت إلى مخا سفينة انكليزية، من بلاد الهند الشرقية؛ فقال لي جرّاح هذه السفينة إن رجل صاحب الدولة لم تشف بعد، وقد لا تشفى أبداً.

الرحلة من المخا إلى تعز

غادرنا المخا في ١٣ حزيران/يونيو عند غروب الشمس؛ سرنا ليلاً حوالي ست ساعات أو أربعة أميال ونصف لنصل إلى موسى. وجدنا قرب المخا بئر الشاذلي الشهير؛ الذي يشرب منه الفقراء فقط علماً أن السكان يفضلون مياه بئر بليل الذي يبعد فرسخاً عن المدينة؛ أما الأثرياء فيجلبون الماء من موسى. وتمتاز المنطقة الممتدة من المخا إلى موسى بجفافها وخلوها من السكان؛ ولم أر على الطريق إلا خانات دبولي (Dabulie) وبصي (Bsie) وفترا (Fatra). وتقع بلدة موسى على مدخل المنطقة الجبلية؛ ويقيم فيها صاحب الدولة وعدد من الجنود في حصن صغير. وغالباً ما يزور الأوروبيون القادمون من الهند إلى المخا بلدة موسى لقضاء وقت ممتع؛ غير أنني لا أظنهم يستمتعون كثيراً؛ إذ لا نجد فيها سوى مياه عذبة ومنازل حقيرة وحراً شديداً. وبعد أن استنتجنا أن مياه الخليج العربي قد تراجعت في هذه البقعة؛ كان علينا أن نبحث هنا على مرفأ موسى الذي يتحدث عنه علماء الجغرافيا اليونانيون. تمتد مناطق نفوذ أولاد يقظان من موسى على طريق سفار وجبل الشرق (سفر التكوين الفصل ١٠).

وفي ١٠ حزيران/يونيو غادرنا موسى عند الساعة الرابعة من بعد الظهر متجهين شمالاً وبعدها شرقاً؛ فعبرنا وادياً كبيراً تصب مياهه بعد هطول الأمطار الغزيرة في بحر مجاور لمخا، لتتلاشى بعدها في أراضي تهامة. ولقد سلكنا بعدها طرقات وعرة حتى بلغنا خان الميجم (El Meijâm)، ومنه إلى خان سبلة الواقعة على بعد ٨/٣ الميل. وقطعنا ذاك النهار ميلاً ونصف الميل لنصل إلى بلدة عريش الواقعة على حدود المخا حيث يقام سوق شعبي كل نهار أحد. وعلى مسافة نصف فرسخ من البلدة المذكورة نجد منزلاً صغيراً تدفع فيه مبالغ زهيدة على حمولات الملح التي ينقلها العرب من رواس إلى إقليم جاوه المستقل؛ غير أن لا أحد يطالب بدفع رسوم على البضائع التي تنقل من المخا وتعبر صنعاء أو غيرها من المدن الواقعة في مناطق نفوذ الإمام.

قابلنا ذاك النهار فرداً من سلالة الشيخ الشاذلي الشهير. ورغم جنون هذا الشاب كان يضحك ويلعب مع بعض شبان مجموعتنا الذين كانوا يحثونه على القيام بهذه الدعابة أو تلك؛ ولكن لم يحاول أحد إهانته رغم أنهم لم يكنوا له أي احترام. لأننا نعرف أن المجانين في مصر يعدون من الشيوخ وحتى أنهم يعدّون من الأنبياء بعد وفاتهم؛ غير أننا اكتفينا بتسميته شيخاً تيمناً بالشيخ الشاذلي الذي يتحدر من عائلته. ويقال إنه لسنوات خلت أفقد أحد النجارين عقله بعد أن احتال عليه.

ونظراً لوعورة الطرقات في هذه المنطقة الجبلية ارتأينا عدم السفر ليلاً؛ ففي ١١ حزيران/يونيو غادرنا عريش عند شروق الشمس وسرنا شمالاً مروراً بدحواحة (Dahuaha)، فوصلنا بعد مسافة ميل و١/٣ الميل إلى بلدة البراش (El Brach)، حيث يقام أسبوعياً سوق شعبي. وتقع شرقي الطريق جبال كامار الخصبة؛ وهي تخضع لنفوذ شيخ ابن عقلان المقيم في دوربات؛ علماً أن السكان لا يخشونه كثيراً. فمنذ بضع سنوات علم الشيخ بمقتل شخصين من المنطقة؛ فأرسل فرقة من جنوده للبحث عن الجناة دون جدوى؛ فقد اختبأ هؤلاء الآخرون في أعالي الجبال حيث لا يتمكن الجنود من القبض عليهم. ثم غادرنا هذه المنطقة وقطعنا ٣/٤ الميل لنصل إلى خان متراح حيث اجتمع ذاك النهار عدد كبير من المسافرين؛ فدخلنا إليه لنرتاح قليلاً من حرّ النهار. فما لبثت أن هبت عاصفة رعدية قوية ترافقت مع أمطار غزيرة أدّت إلى تدفق المياه من أعالي الجبال معيقة بذلك طريقنا علماً أن الدرب تحولت إلى سيل جارف.

ثم غادرنا متراح في ١٢ حزيران/يونيو، وبلغنا على مسافة ٣/٤ الميل إلى ميسار ومنه إلى مقهى رحابة (Rehabe)، الواقع على بعد ٣/٤ الميل؛ وتقع بين هذين الخانين قرية دجانة (Djāne) الجبلية. وبعد أن سلكنا طريقاً وعرة للغاية وصلنا إلى مقهى الباب ومنه إلى دربات على بعد ٣/٨ الميل؛ مما يعني أن دربات تبعد ٦ أميال ونصف عن موسى.

وتُعد دربات عاصمة مناطق نفوذ ابن عقلان ومقر الشيخ المتحدر من العائلة الحاكمة حالياً. يقيم فيها عدد من جنود الإمام وتدفع لهم في المقابل رواتب مرتفعة. تقع هذه البلدة على قمة الجبل، وتتميز بسجنها الأكثر بشاعة في اليمن كلها؛ وأظنه يشبه المغارة البنغالية السوداء حيث قضى منذ بضع سنوات عدد كبير من الإنكليز خنقاً من شدة الحرّ. حفر سجن سوق دربات في الصخر، بحيث لا يتسلل إليه الضوء إلا عبر كوة صغيرة دخل منها السجناء. ويقع قبالة هذه الكوة، السجن العام حيث يحجز مرتكبو الجرائم البسيطة بعد أن يقيدوا بسلاسل طويلة.

بعد مغادرتنا دوربات سرنا ١/٤ الميل لنصل إلى مقهى شوفادي (Chofadie)، ومنه إلى بلدة سلامة حيث يقام سوق شعبي كل أسبوع. ورأينا على الطريق مقهى آخر، وخزانين للمياه، وبئرين. وأرغمتنا العاصفة القوية التي هبّت بعد ظهر ذلك اليوم على قضاء الليل في سلامة؛ وفي صباح ١٣ حزيران/يونيو، قطعنا ٥/٨ الميل لنبلغ مقهى رماد (Rhomâde). وبعد أن سلكنا طريقاً متعرجة شاهدنا قرية ربيع التي يقام فيها سوق شعبي كل أسبوع وهي تطل على حصن قاهر الواقع على جبل مجاور لتعـز؛ غير أن الطريق المؤدي إليها يمر بقرية قرة (Kerra) على بعد ١/٣ الميل، وبمقهى رحسن (Rahssen) على بعد ميل تقريباً، وصولاً إلى تعز؛ مما يعني أن تعز تبعد ٤ أميال و١/٨ الميل من دربات. والجدير ذكره أننا شاهدنا على الطريق من سلامة إلى تعز ثلاث خزانات للمياه مخصصة لراحة المسافرين.

وفور وصولنا إلى تعز، أرسلنا خادم صاحب دولة المخا الذي لم يؤد لنا أي خدمة حتى الآن ليسلم

صاحب الدولة في هذه المنطقة رسالة معلمه. فأرسل في طلبنا على الفور وبدا لنا لطيف المعشر. فقدم لنا الكيشر والنراجيل وشاهدنا على الأريكة أفنان شجرة يمضغها العرب في أوقات اللهو، كما نمضغ التبغ، وكما يمضغ الهنود التنبول. غير أن هذه الحلوى العربية لم ترق لنا أبداً. وأخبرنا صاحب الدولة أنه يقال في تعز إننا نحمل معنا من المخا صناديق مليئة بالأفاعي: هكذا يغالي العرب في نقل الأخبار. واصطحبنا إلى أحد المنازل التي زج صاحبها في السجن منذ فترة وجيزة؛ وأرسل لنا نعجتين وكمية من الطحين والشعير. فقدمنا له في المقابل قطعة قماش من الهند توازي قيمتها ٢٤ ريالاً؛ كان خادمنا الأوروبي قد قصد بيت صاحب الدولة ليسلم له هديتنا فاعترض البواب طريقه طالباً منه أن يدفع له بقشيشاً فما كان عليه إلا أن رد قائلاً: إن جرت العادة في بلادكم أن يتبادل الخدم البقشيش فعليك أن تدفع لي مبلغاً كبيراً من المال لأنني أحمل هدية لسيدك فضحك البواب منه وسمح له أن يتابع طريقه.

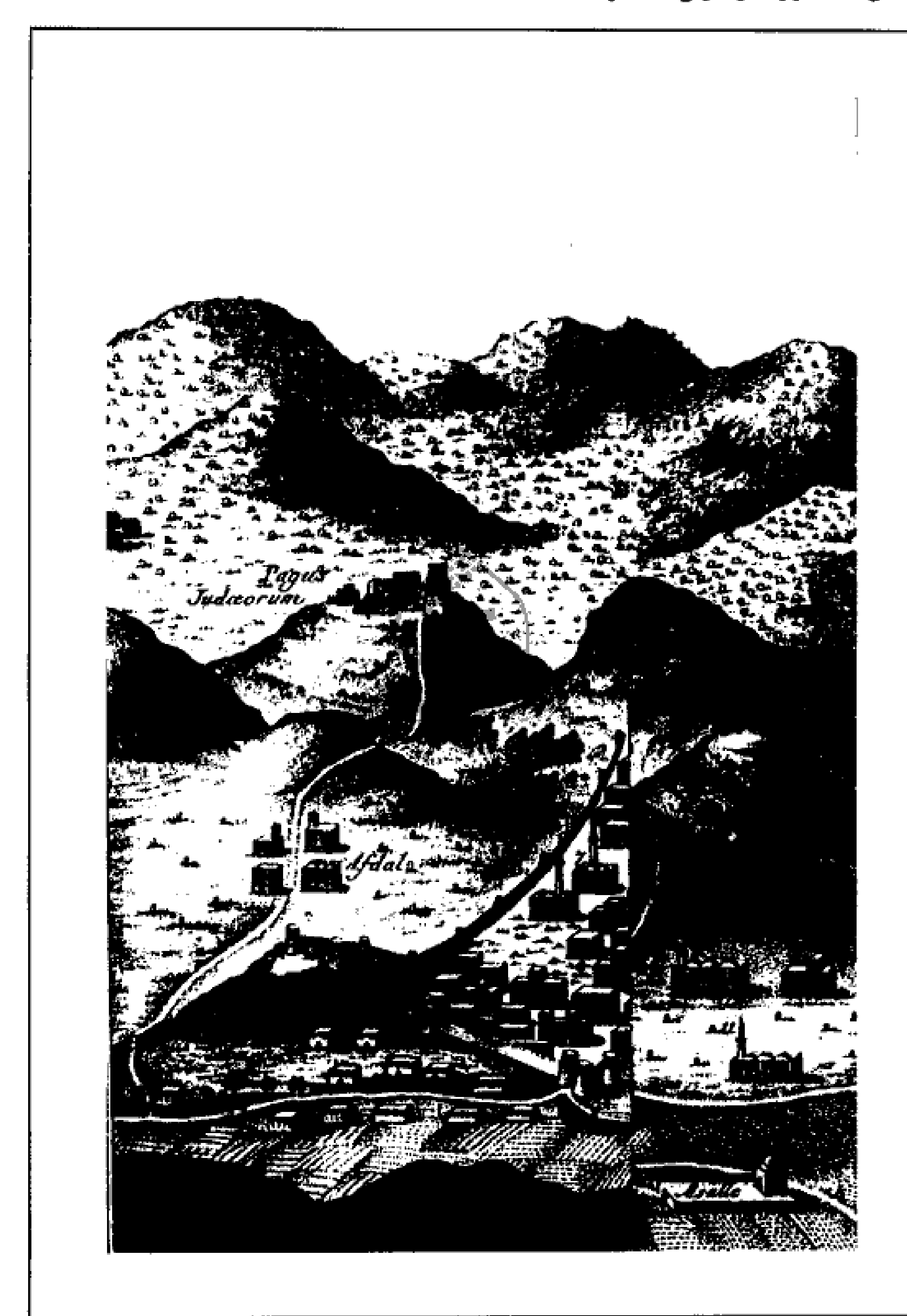
ثم في اليوم التالي سلمنا الرسائل التي أوصانا بها أصدقاؤنا في المخا إلى أصحابها؛ ومنها واحدة للباش كاتب، وثانية للقائم بأعمال عائلة أحمد الذي كان أمير تعز، وثالثة لنبيل يدعى سيد، ورابعة لبانياني؛ والجدير ذكره أن الجميع استقبلنا بالترحاب غير أن خادم صاحب الدولة في المخا كان يلاحقنا حيثما ذهبنا؛ حتى أنه كان يدخل إلى غرفتنا حين يأتي أحدهم لزيارتنا؛ ولعله كان يحاول أن يعلم العرب أننا نسافر تحت رعاية سيده، ولكن تصرفاته هذه كانت تحد من حريتنا وتثير سخطنا. فحاولنا أن نفهمه أن وجوده ليس مشجعاً في هذه المناسبات. ومن ناحية أخرى كان الطقس في تعز جميلاً جداً؛ فبدلاً من الحرارة الخانقة والجفاف اللذين يسودان في تهامة، كانت السماء تمطر كل مساء حاملة معها هواءً منعشاً.

إن مدينة تعز تقع شمالاً، عند سفح جبل صابر الخصيب، على خط العرض ١٣°، ٣٤´ ؛ وهي محاطة بأسوار تتراوح سماكتها بين ١٦ و٣٠ قدماً، وتعلوها أبراج صغيرة؛ كما وأنها مغطاة من الخارج بآجر مشوي؛ ونجد داخل الجدران صخرة متعرجة يبلغ ارتفاعها حوالي ٤٠٠ قدم بني عليها حصن قاهر المنيع.

وللمدينة بابان، باب الشيخ موسى، وباب الكبير، يصلان على الطريق المؤدي من المخا إلى صنعاء؛ وهما مبنيان على الطراز العربي؛ ونجد باباً آخر يصل قصر قاهر بجبل صابر، وباباً رابعاً في سور المدينة بين قاهر وباب الكبير؛ والجدير ذكره أننا لم نشاهد أثراً للمدافع إلا في قلعة قاهر، وعلى بابي المدينة؛ لكن خلال إقامتنا في تعز، تمّ بناء برج جديد وضع عليه عدد من المدافع. تتألف حامية تعز من ٥٠٠ أو٦٠٠ عنصر يقيم ٦٠ منهم في القصر، بينما يوزع الباقون على أبواب وأبراج المدينة.

وقد تبدو تعز محصنة جداً ضد الأعداء؛ لكن وفقاً للأسلوب الذي يعتمده الأوروبيون في حروبهم، لا أظن أن بلدة تعز وحصنها قد يصمدا طويلاً أمام العدو. وإليكم ما تدل عليه الأرقام التي وضعتها على اللوحتين (LXVI و LXVII): ١) باب الشيخ موسى، ٢) باب الكبير، ٣) البرج الجديد الذي وضعت


Kähhre
Kähhre


Pagus
Judæorum
Afdal

عليها المدافع، ٤) قصر المرحوم سيد أحمد، ٥) جامع الشريفة الكبير الذي يعلو أقبية تستعمل لتخزين القمح، ٦) إسماعيل ملك أو جامع تعز الكبير؛ وهو كبير جداً، ويعلو أقبية تستعمل كمخازن للأسلحة، ٧) قبة الحسنية المبنية على ضريح باشا تركي، ٨) جامع قصر، ٩) السوق، ١٠) جوامع متداعية خارج البلدة، ١١) المصلى حيث يصلي صاحب الدولة أيام الأعياد. ونجد في كافة مدن اليمن أماكن مماثلة يصلي فيها المسلمون في الهواء الطلق، خلال الأعياد والمناسبات. غير أن بعضها يفوق بعضها الآخر جمالاً. أما هذا المصلى فهو محاط بسور كبير فيه بعض الحجرات التي يستعملها المسلمون للوضوء قبل أداء صلاتهم ١٢) طريق صنعاء ١٣) طريق المخا. قست حرم المدينة وحددت موقعها بواسطة البوصلة مع أنني لم أتعرف على شوارعها كلها. وأشرت على اللوحة (LXVI) إلى ارتفاع الهضاب التي بنيت عليها أسوار المدينة.

ويدعى ولي مدينة تعز إسماعيل ملك. ويقال إن هذا الولي الذي يجلّه سنّة اليمن كان ملكاً؛ وهو يرقد في جامع يحمل اسمه؛ لكن منذ أن تبين أنه يصنع العجائب، حظّر على الجميع الاقتراب من ضريحه. وإليكم وقائع القصة التي رووها لي: طلب متسولان صدقة من حاكم تعز فلم يتصدق إلا على واحد منهما؛ فلجأ الآخر إلى قبر الملك إسماعيل وتضرع إليه أن يغيثه؛ فلم يشأ إسماعيل الذي كان كريماً جداً في حياته أن يدع هذا الرجل المؤمن يرحل دون أن يلبي له طلبه. ففتح ضريحه المطيّن وسلم المتسول رسالة إلى الحاكم تقضي بدفع ١٠٠ ريال لصاحبها. وبعد معاينة الرسالة بدقة تبين أن إسماعيل كتبها بيده ومهرها بختمه. فما كان من الحاكم إلا أن استجاب لطلب هذا الملك النبي العظيم؛ غير أنه حظر بعدها الدخول إلى القبر حتى لا يتلقى بعد اليوم رسائل مماثلة.

إننا نجد قرب جامع إسماعيل ملك، حديقة جميلة كانت مخصصة لعيسى بن إسماعيل ملك. وهي تضم حوض ماء كبيراً يحيط به بقل زراعي تمر فوقه القنوات التي تنقل المياه إلى هذه الحديقة. شاهدنا خارج أسوار المدينة جامع نبي شهير يدعى الشيخ موسى الذي يحمل اسمه أحد أبواب المدينة. أما في الجهة الشرقية للمدينة فنشاهد جامعاً رائع الجمال وصرحاً يعلو ضريح أفضل وعائلته. فعاينت بدقة هذين الصرحين ولاحظت أن هندستهما المعمارية شبيهة من حيث أبعادها وزخرفاتها بالهندسة المعمارية التركية؛ مما جعلني أستنتج أن أفضل هذا كان باشا من تعز. وتكثر هنا كما تكثر في الجوامع الأخرى النقوش العربية الحديثة التي تتشابك أحرفها إلى حد بعيد حتى أن العربي الأصيل لا يستطيع قراءتها بسهولة. ومما لا شك فيه أن المدينة تعج بالمساجد الصغيرة ولكن معظمها متداع جزئياً.

ورغم أن أسياد تعز كانوا زيديين وليسوا من أهل السنّة إلا أنهم يفوقون أسلافهم نباهة. فقد بنوا قصوراً فخمة ليستمتعوا بالعيش فيها في حياتهم، بدلاً من استعمال هذه الأموال لترميم الجوامع

والمساجد. واكتفى كل واحد منهم ببناء قبة خلف منزله استعملها كمصلى له في حياته ومدفناً بعد مماته. والجدير ذكره أن الحرب هدمت معظم المنازل وجعلت الحقول والبساتين شبه مهجورة.

نجد في جوار تعز بقايا مدينتين قديمتين؛ ومنها مدينة عدين، المقابلة لمدينة تعز؛ لم يتبق منها إلا أنقاض جوامع صغيرة. يقول العرب إنها كانت قديماً مقر الملوك أو أسياد هذه المنطقة. ويروى أن إسماعيل ملك، بدأ بتشييد ضريحه وجامعه عند سفح جبل قاهر؛ فتبعه سكان عدين الذين كانوا يعانون من تسلق الجبل أو الذين كانوا يفضلون الإقامة قرب نبيهم؛ ويمكننا القول بالتالي إن تعز تدين بأصلها إلى النبي محمد المسلم شأنها شأن مخيّة وبيت الفقيه والمخا. أما المدينة الأخرى فهي تهيد (Thaheid)، الواقعة جنوبي شرقي تعز، على بعد نصف ميل تقريباً. ونشاهد اليوم بقايا أسوار المدينة وجامعاً كبيراً متداعياً وأنقاض جامع مسقط الحمر المبني من حجارة حمراء غريبة؛ ولقد لفتت انتباهي في هذه البقعة نقوش غريبة نقلتها في اللوحة (IX) من كتاب «**وصف شبه الجزيرة العربية**».

ولم أستطع جمع معلومات وافرة عن تاريخ مدينة تعز؛ فالثورات التي وقعت في السنوات الأخيرة كانت ستحتل مكاناً مميزاً في التاريخ. لو أن العرب احتفظوا بالتواريخ أو لو أتيحت للأوروبيين فرصة الاطلاع على تفاصيلها. وسأروي لكم باختصار ما سمعته من أقاويل حولها: عين الإمام المنصور حسين أخاه حاكماً أو صاحباً للدولة في هذا الإقليم. فاستمتع هذا الأخير بمنصبه كثيراً إلى حد أنه رفض لاحقاً التخلي عنه. فأرسل الإمام جيوشه لإرغامه على الخضوع لمشيئته، غير أن أحمد استطاع الصمود ١٢ سنة، بمساعدة حاميته التي يبلغ عددها ٢٠٠٠ عنصر؛ فصك عملة باسمه في المدينة، وفرض ضرائب على البضائع التي تعبرها، وأجبر رعايا الإمام على سلوك طريق عدن خلال سفرهم من المخا إلى صنعاء. وخلال حديث السكان عن هذا الحاكم كانوا يسمونه ملكاً أو إمام تعز. أما هو فكان يكتفي بأن ينادوه سيدي أحمد، وهو لقب يحمله أمراء عائلة الإمام كلهم.

لقد ترك سيدي أحمد ستة أبناء: عبد الله، علي، وجاشا، ومحسن، ويعقوب، وحسين. استلم البكر عبد الله الحكم بعد وفاة أبيه وعاش في وئام مع الإمام وعند وفاته عام ١٧٥٩ ترك ابناً يدعى عبد الكريم، ويبلغ من العمر ١٣ سنة؛ وكان يفترض به أن يخلف والده، ويستلم الحكم غير أن حب السلطة كان يسيطر على أعمامه الثلاثة: علي، جاشا ومحسن، فشكل كل واحد منهم حزباً بغية السيطرة على مدينة تعز والأراضي المحيطة بها. فاستولى واحد منهم على قصر قاهر، وآخر على باب الشيخ موسى، والثالث على باب الكبير؛ غير أن إيراداتهم كانت ضئيلة للغاية، ولا تسمح لهم بإعالة الجنود أو حتى شراء الذخائر؛ فإن جمع أحدهم بعض المال استعمله لشراء الذخائر وإطلاق النار على أخيه حتى نفادها دون أن يبلغ هدفه المطلوب.

وفي وسط هذه الظروف، اضطر الأمير عبد الكريم لبعث رسالة للإمام الحالي الإمام المهدي يرجو منه

فيها أن يهب لنجدته، للمحافظة على أراضي والده وأجداده. فأرسل الإمام النقيب أو القائد الماس، على رأسه جيش كبير إلى تعز للسيطرة على المدينة، وجلب المتمردين إلى صنعاء. غير أن النقيب المذكور لم يزود بالمدافع اللازمة لإرغام المتمردين على الاستسلام.

ولما كانت جيوش الإمام تبذل جهدها لمحاصرة تعز كان الشيخ عبد الرب وأتباعه يتقدمون نحو المخا؛ فهذا الأخير نصب نفسه حاكماً على الحجيرية بعد أن فصلها عن مناطق نفوذ الإمام. ولما كان الإمام عاجزاً عن رد هذا الشيخ إلى صوابه، قرر أن يتصالح معه ويستغله لغزو تعز. فأقرت معاهدة السلام بحضور النقيب الماس الذي كان على رأس جيوش الإمام، والنقيب أحمد الحمر، قائد حلفاء حاشد وبكيل الذين يخضعون لنفوذ الإمام؛ وتم الاتفاق على أن يضم عبد الرب جنوده إلى جيوش الإمام ويساعدهم على غزو تعز. فانضم عبد الرب وأتباعه إلى الجيوش التي كانت تحاصر تعز؛ غير أنه كان يفتقر للمدافع اللازمة لمهاجمة المدينة؛ فخطر له أن يتبع الخطة التالية: كان الجنود موزعين على الأبراج التي تعلو أسوار المدينة؛ فوعد عبد الرب ١٢ جندياً منهم بـ ١٠٠٠ ريال إن حفروا كوة في البرج ليعبر منها رجال الإمام. وبعد أن وافقوا على ذلك، تسلل رجال الإمام ليلاً إلى المدينة التي نهبت برمتها؛ وكان ذلك عام ١٧٦٠.

وبعد غزو تعز، أظهر الإمام محبته العميقة تجاه سلالة سيدي أحمد وعبد الرب، ودعاهم لزيارة صنعاء. ورغم خوف عبد الرب من زيارة هذه المدينة؛ إلا أنه لبى الدعوة نظراً للخدمات التي أداها للإمام، وبناءً على إلحاح النقيبين الماس وأحمد ابن النقيب علي الحمر. غير أن الإمام خان ثقة الأبطال العرب وقادته المخلصين فيه، عند وصولهم إلى صنعاء؛ وقد شرحت هذه الحادثة تفصيلياً في رواية تاريخ اليمن **«وصف شبه الجزيرة العربية»**. كما وأنه لم يحاول أن يرسخ سلطة الأمير عبد الكريم في مناطق نفوذ والده. وعيّن صاحباً للدولة في تعز وفي الأقاليم الأخرى. وقابلت في وقت لاحق الأمير شاب في صنعاء؛ كان ذلك نهار الجمعة، بينما كان ذاهباً على حصانه إلى الجامع. وعند وصول سيدي جاشا وسيد محسن إلى صنعاء، اقتيدا على الفور إلى السجن. غير أن سيدي علي بقي حراً لأنه والد زوجة الإمام.

كان صاحب دولة تعز ضابطاً في جيش الإمام ويحمل لقب نقيب. ولسنوات خلت كان ضابط الحرس، ومفتشاً في الجمارك عند باب الشاذلي في المخا. والجدير ذكره أنه لا يد لأصله النبيل في حصوله على هذه الوظيفة شأنه في ذلك شأن معظم أصحاب الدولة الآخرين. ومما لا شك فيه أن المنطقة الواقعة تحت نفوذه شاسعة للغاية لأنها تضم جبل صابر ومناطق يوفروس والحجيرية. غير أننا نجد في جبل صابر وفي منطقة الحجيرية عدداً لا بأس به من الشيوخ الذين احتفظوا بسيادتهم في مقاطعاتهم رغم أنهم يدفعون الضرائب للإمام؛ وهم يفتخرون بأصلهم النبيل شأنهم شأن العرب الذين يقطنون على حدود

الأقاليم التركية؛ كما وأنهم يحتقرون أصحاب الدولة كما يحتقر أولئك الباشاوات فوجد صاحب دولة تعز نفسه مجبراً على التخلص من مضايقات شيوخ جبل صابر؛ فزج واحداً منهم، أتى إلى البلدة برفقة عبدة من عبيداته ـ وحاول مقاومته ـ في السجن؛ ووضع العبدة في مكان آمن. ورغم مطالبة الشيوخ الآخرين بالإفراج عنه لم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القاضي. عند ذلك قصد الشيخ صنعاء ليحضر أمراً من الفقيه أو وزير الدولة إلى صاحب الدولة ليسلمه العبدة على الفور. غير أن هذا الأخير، استشاط غيظاً وزج الشيخ ثانية في السجن. ثم أطلق سراح الشيخ وعبدته. ولكن صاحب الدولة بقي حاقداً على شيوخ جبل صابر وأرسل لهم في أول مناسبة خمسة أو ستة جنود تصرفوا معهم بفظاظة، بناءً على طلب معلمهم. غير أن الشيوخ لم يحتملوا أن يهانوا في عقر دارهم، فقتلوهم جميعاً. ومنذ ذلك الحين لم يعد يجازف أي جندي بالذهاب إلى قرى جبل صابر. وخلال إقامتنا في تعز قيل إن عدداً من الأشخاص، قتل خارج البلدة قرب جبل صابر. ويظن الناس أن الشيوخ لن يرتاحوا قبل أن يرسل الإمام صاحباً جديداً للدولة إلى تعز.

وكان السيد فورسكال يتأمل يومياً جبل صابر، حيث تنمو وفق كلام العرب كافة أنواع الأعشاب في العالم. غير أنه كان عاجزاً عن جمعها بسبب الخلافات القائمة بين الشيوخ وصاحب الدولة. فكان يفكر في استدعاء أحد الشيوخ ليرافقه في هذه الرحلة، حتى لا يتعرض لأي سوء؛ غير أن صاحب الدولة لم يسمح له بذلك. وعند ذلك طلب الإذن بالذهاب إلى جبل سوراق (Saurak)؛ ولقد وافق صاحب الدولة على طلبه، وأرسل جندياً ليرافقه في رحلته. كان السيد فورسكال قد أكد لنا في المخا أنه يريد الإسراع في الذهاب إلى تعز بغية جمع الأعشاب من جبل صابر. فأمر صاحب دولة المخا خادمه بمرافقة السيد فورسكال إلى جبل سوراق، علماً أنه كان يجهل نشوء خلافات بين صاحب دولة تعز والشيوخ. غير أن الخادم المذكور حثّه جندي صاحب دولة تعز على رفضه الذهاب إلى جبل سوراق، بحجة أن الأعياد على الأبواب. ظناً منه أنه لا يجدر به السماح لرفيقه في السفر لجمع الأعشاب إلا على جبل صابر. فأعلم صديقي صاحب الدولة الذي هدد الجندي بالسجن إن لم يرافقه على الفور. فغادر السيد فورسكال المدينة مساءً ١٨ حزيران/ يونيو؛ غير أنه لم يرَ جبل صابر إلا من بعيد. في ٢٠ حزيران/ يونيو، ثم وصل إلى بلدة مهجورة تماماً لأن صاحب الدولة أساء معاملة أهلها، ففضلوا الذهاب لكسب رزقهم في مكان آخر. ولما علم أن معظم القرى التي يبغي زيارتها قد هجرها أهلها، خاف أن يعوزه الطعام، أو أن يعرّض حياته للخطر فغادر إلى تعز مساءً ٢٠ حزيران/ يونيو.

نادراً ما نجد بين المسلمين علماء يدرسون كسوف الشمس وخسوف القمر بغية وضع جدول زمني؛ يستطيع الحاكم بوساطته أن يعلن قبل بضعة أسابيع أو أيام عن موعد حلول الأعياد. فلقد زعموا في تعز أنه في ٢١ حزيران/يونيو يصادف عيد عرفة أو الأضحى حيث يذبح حجاج جبل عرفات قرب مكة،

والمسلمون كافة الجمال والثيران والنعاج. وبهذه المناسبة تلقى صاحب الدولة وغيره من أعيان المدينة عدداً وافراً من النعاج والهدايا الأخرى ليلة ٢٠ حزيران/يونيو؛ فالعيد يدوم يومين أو ثلاثة تقفل خلالها الأسواق كلها؛ وعلى القرويين أن يتزودوا بكل ما يحتاجونه عشية العيد. فابتعنا لخدمنا المسلمين، الطحين والسكر والعسل لنصنع لهم قالباً من الحلوى، فضلاً عن نعجة صغيرة؛ بعبارة أخرى استعدت البلدة كلها لاستقبال العيد. لكن قبيل غروب الشمس، وصل مرسال يقول إن العيد قد أرجىء إلى اليوم التالي لأن القمر ظهر متأخراً في صنعاء. أما في المناطق التي لم تعلم شيئاً عن الأمر الصادر من صنعاء فاحتفلت بالعيد في ٢١ حزيران/يونيو، بينما راح سكان تعز يتأملون بحزن التحضيرات التي أعدوها. كما وأن البلدة لم تشهد حركة ملحوظة إلا عند غروب الشمس؛ وعندئذٍ أطلقت ثلاث طلقات من مدافع باب الشيخ موسى وطلقتان من قصر قاهر للإعلان عن الاحتفال بالعيد في اليوم التالي.

في ٢٣ حزيران/يونيو أطلقت المدافع طلقات جديدة حين غادر صاحب الدولة المدينة برفقة أتباعه قاصداً المصلى لتأدية الصلاة في الهواء الطلق؛ وبعد حوالي ساعة سمعت طلقات مدفعية أخرى وعاد صاحب الدولة وأتباعه إلى المدينة. وانصرف الجنود إلى تأدية تحركاتهم التعبدية. كما اعتادوا أن يفعلوا كل نهار جمعة عند عودة صاحب الدولة من الجامع، بينما راح أعيان البلاد يتدربون على حمل الرمح وهم على ظهر أحصنتهم. ولقد كان الأمير فرحان من لحية ماهراً جداً في هذه اللعبة، كما سبق لي أن أشرت في **«وصف شبه الجزيرة العربية»**. وعاد بعدها الجميع إلى منزله وأكل اللحم، ومضغ العشب وأشعل الطيب في منزله واستلقى على الأريكة، وأشعل غليونه الطويل.

كانت إقامتنا في هذه المدينة خالية من المشاكل. وكنت أتمنى أن أقوم بجولات داخل هذه المملكة كما فعلت في بيت الفقيه. غير أنني لم أجازف بمغادرة المدينة، نظراً للظروف الراهنة. ولما كنت قد قمت بدراسات فلكية في تعز، ووضعت خارطة ورسماً منظورياً لها، لم يتبق لي سوى زيارة قصر قاهر. وكنت أتمنى ذلك بهدف نقل النقوش المنحوتة على باب الصناديق. أما السيد فورسكال فلم يفقد الأمل بعد زيارة جبل صابر. ولما كان صاحب الدولة يستقبلنا بالترحاب قرر السيد فورسكال أن يطلب منه ثانية السماح له بإحضار شيخ من جبل صابر، لمرافقته في رحلة علمية إلى الجبل المذكور، فضلاً عن إعطائي الإذن بنقل النقوش التي تحدثت عنها آنفاً. فاستجاب صاحب الدولة لمطلبينا، بيد أنه عند منتصف الليل أبلغنا قراراً آخر. استدعي خادم صاحب دولة المخا، وأبلغ أن سيده بعث رسالة إلى صاحب دولة تعز يطلب فيها عودتنا إلى مدينته؛ فصدر لنا الأمر بالرحيل في ٢٥ حزيران/يونيو وتذكرنا أن صاحب دولة المخا وعدنا بإبلاغنا رد الإمام بشأن ذهابنا إلى صنعاء. وعند الصباح الباكر، كانت الجمال في انتظارنا عند الباب؛ غير أننا رفضنا الانطلاق على الفور بحجة أننا لم نحزم أمتعتنا بعد. فغادر الجمالون المكان على أن يعودوا في وقت لاحق.

خطر لنا أن صاحب الدولة يحاول ابتزازنا للحصول على هدية قيّمة كتلك التي قدمناها لصاحب

دولة المخا؛ كما وأنه مستاء لعدم تلقيه هدية منا عشية العيد؛ علماً أننا لم نأخذ هذا التقليد بعين الاعتبار. ولعله غضب أيضاً من إلحاح السيد فورسكال عليه للذهاب إلى جبل صابر؛ فلو عاد سليماً معافى، لثار سكان تعز ضده، لأن الرحالة الفرنسيين يتنقلون على هواهم في المنطقة، بينما أبناؤهم يموتون قتلاً؛ ولو قتل في الجبل لطلب الإمام من صاحب الدولة أن يثأر له. لهذا السبب تفهمنا جيداً سبب رفض صاحب الدولة السماح لنا بالتجول في جبل صابر.

ولقد طلبنا مقابلة صاحب الدولة لنعرف شخصياً سبب رفضه هذا. غير أننا لم نستطع رؤيته، بعد أن أكد لنا الخدم أنه مريض. فاستشرنا أصدقاءنا في الموضوع؛ ونصحونا بالتحدث مع الباش كاتب؛ فقال لنا إنهم قد يسمحون لنا بالبقاء بضعة أيام أخرى بانتظار وصول معلومات مفصلة من المخا؛ غير أن كلامه كان دون جدوى خاصة وأن صاحب الدولة أرسل لنا في ٢٦ حزيران/يونيو خدمه مصطحبين معهم الجمال والحمير، وطلبوا منا حزم متاعنا؛ فأكدنا لهم أننا لن نغادر المكان قبل مقابلة سيدهم؛ وأرسلنا أحد خدامنا ليبلغ صاحب الدولة قرارنا هذا؛ غير أنه لم يستطع مقابلته وطُرد خادمنا من بيت الحاكم؛ غير أنه قال لرجال الحاكم بأنه لن يبرح مكانه قبل أن يحصل على موافقة صاحب الدولة بمقابلة واحد منا؛ وتكفل السيد فورسكال بهذه المهمة، وحاول إرضاءه قدر المستطاع متجنباً التطرق إلى مسألة السفر إلى جبل صابر، على أمل أن يأذن لنا بالبقاء في تعز، حتى نتبلغ رد الإمام بشأن ذهابنا إلى صنعاء. غير أن صاحب الدولة رفض اقتراحاته هذه وأمرنا بالاستعداد فوراً للرحيل.

وبعد أن حزمنا أمتعتنا استعداداً للرحيل وفقدنا الأمل في البقاء مدة أطول في تعز، أو في الذهاب إلى صنعاء تبدل فجأة مجرى الأحداث إذ وصل وفد من قبل صاحب دولة المخا حاملاً لنا رسالة مختومة فيها واحدة موجهة للإمام وأخرى للفقيه أحمد وزيره الحالي وثالثة لصاحب دولة تعز. وهو يعلمنا فيها أن الإمام أعطانا الإذن بزيارة صنعاء شرط أن نأخذ معنا مجموعة النوادر التي جمعناها من كافة أنحاء البلاد. وهذا يثبت أن الرسالة التي أبلغنا بوصولها قبل بضعة أيام كانت ملفقة. فحمل السيد فورسكال هذا الخبر إلى صاحب الدولة، ولكنه لم يستطع مقابلته؛ لأنه دخل إلى الحريم ونادراً ما يتخلى حاكم مدينة عربية عن رفقة نسائه اللواتي يخصص لهنّ الليل بكامله، بعد أن يقضي نهاره محاطاً بالرجال. فسلم السيد فورسكال الرسالة لخدمه.

حسبنا أن سفرنا إلى صنعاء بات محتوماً؛ وكنا على وشك أن نغادر البلدة دون أن نأخذ موافقة صاحب الدولة أولاً، ولكننا لم نستطع أن نستأجر حميراً وجمالاً. فالتجار الذين يبحثون عن الجمال يتحدثون أولاً مع محلف المجموعة الذي يحدد عدد الجمال اللازمة للسفر. وبعد أن أبلغ صاحب الدولة باستعدادنا للرحيل، أعلمنا أن الجمال جاهزة لاصطحابنا إلى المخا، علماً أنه لم يتلق الأمر بإرسالنا إلى صنعاء، وأن هذه المسألة تتعلق بصاحب دولة المخا وحده. فأدركنا حينها أن الله وحده هو معيننا، لأننا لا

نستطيع مواجهة رجل يعمل تحت أمرته ٥٠٠ أو ٦٦٠ جندياً ويرفض الخضوع لأوامر سيده. فأخبرنا أصدقاؤنا قصة صاحب الدولة المذكور وشيخ جبل صابر حتى يوحوا لنا بفكرة اللجوء إلى القاضي. فقد سمعنا الكثير عن طيبة قلب قضاة اليمن. فأخذنا بعين الاعتبار الإشارة التي أعطونا إياها؛ وقصدنا القاضي وعرضنا عليه الرسائل التي استلمناها من المخا. فاعتبر القاضي تصرف صاحب الدولة تجاهنا مشيناً؛ فبعث له على الحال رسالة حذره فيها من معارضة أوامر الإمام. فرد عليه صاحب الدولة قائلاً إنه لا ينوي أن يثنينا عن رحلتنا إلى صنعاء، ولكنه يطلب منا الانتظار يوماً آخر حتى يتسنى له الوقت لكتابة الرسائل التي سيبعثها معنا. فاقترحنا تأجيل رحلتنا ثلاثة أيام إن كان صاحب الدولة يبغي ذلك. لكن صباح ٢٧ حزيران/يونيو أتى خدمه لزيارتنا وطلبوا منا الذهاب على الفور إلى المخا. وبعد أن لاحظنا أنهم يؤدون مهمتهم على مضض، أكدنا لهم أننا لن نرحل اليوم. ولما أعلمنا القاضي بالأمر كتب إلى صاحب الدولة ما يلي: «لا تحاول أن تخدم مصلحتك لأنهم من الأجانب».

أثبت لنا هذا الكلام أن صاحب الدولة يحاول ابتزازنا للحصول على هدية غير أنه سبب لنا مآسٍ كثيرة في الأيام الأخيرة، حتى أننا لم نعد نرغب بتقديم أي شيء له، علماً أن القاضي نفسه اعتبر طلبه هذا غير منصف. وعند الظهيرة، أرسل الباش كاتب في طلبنا. فأعرب عن دهشته لتقديمنا شكوى ضد صاحب الدولة أمام القاضي خاصة وأنه لم يعترض أبداً على ذهابنا إلى صنعاء؛ وأكد لنا أن خدمه تحدثوا باسمه كذباً وطلبوا منا مغادرة المخا على الفور. إثر ذلك سألنا القاضي أن يمد لنا يد العون لمتابعة رحلتنا.

حسبنا أن خادم صاحب دولة المخا سينحاز إلينا ضد صاحب دولة تعز بعد أن استلم رسائل سيده؛ غير أنه فضل أن يمتثل لأوامر صاحب دولة تعز نظراً لأنه يقيم في مناطق نفوذه. فارتأينا أن نعيده إلى المخا ونقدم له هدية مقابل الخدمات التي قدمها لنا سيده. غير أنه كان يجدر بنا أن نصطحب معنا عربياً يعرف البلاد جيداً ويحسن التحدث مع الحاكم، إن دعت الحاجة لذلك. فلجأنا إلى القاضي ليدلنا على مرشد سياحي ملائم. فأرسل لنا على الفور رجلاً رافقنا إلى صنعاء وعاد برفقتنا إلى المخا.

حددنا موعد الرحيل في ٢٨ حزيران/يونيو ووصلت الجمال بعد ظهر ذلك اليوم. وما إن بدأنا نحمل متاعنا حتى أرسل صاحب الدولة في طلبنا؛ غير أننا لم نحظ بشرف مقابلته بسبب توعكه الصحي؛ فبعد أن وقفنا في جهة واضطر لتقديم بعض التنازلات لنا، احتقره السكان وعكروا صفو مزاجه. وأبلغنا الباش كاتب أنه تلقى في اليوم السابق أمراً من الإمام بإرسالنا إلى صنعاء؛ ولهذا السبب رفض السماح لنا بمغادرة المكان من قبل؛ وأضاف الباش كاتب أن صاحب الدولة أمر أحد خدامه بمرافقتنا في رحلتنا حتى لا يعترض أحد طريقنا. كان الخادم يهودي الأصل اعتنق الإسلام منذ ٢٨ سنة ويتلهف لرؤية أهله في صنعاء، غير أنه لم يتوان عن تحديد المبلغ الذي يريده بحضور الباش كاتب وبعض الرجال العرب. أما القاضي فحملنا رسالة إلى الفقيه أحمد، كتب فيها ما يلي: «إن تحدث أحدهم أمامك بالسوء عن هؤلاء

الأجانب، إياك أن تصدقه». وكنا قد اتفقنا على إهدائه ساعة، كما فعلنا مع صديقنا الأمير فرحان في مخية. ولكن الخادم الذي أرسله لنا، أكد لنا أنه لن يقبلها مخافة أن نظن أنه حاول مساعدتنا لخدمة مصلحته الشخصية؛ اكتفينا بالتالي بتقديم جزيل شكرنا لهذا الرجل الذي أغدق علينا أفضاله. والجدير ذكره أنه عند عودتي إلى أوروبا، تحدثت عنه طويلاً لأثبت أن القضاة العرب ليسوا جميعاً خبثاء وظالمين شأنهم شأن القضاة الأتراك.

وبلغنا بالتالي هدفنا وأجبرنا صاحب دولة تعز على منحنا حرية السفر إلى صنعاء. غير أننا عانينا الكثير من المآسي خاصة وأن مرض السيد فورسكال أخذ يتفاقم. فخلال الأيام الأخيرة من إقامتنا في تعز، بدأ يشعر بالتوعك؛ غير أنه أخفى عنا ذلك، حتى لا يؤخر سفرنا. فأخذ مرضه يزداد خطورة، إلى أن أدى إلى وفاته، علماً أننا لم نكن نجد في طريقنا أماكن ملائمة لنرتاح فيها.



الرحلة من تعز (TAA'S) إلى صنعاء

يوم غادرنا تعز وصلنا فندقاً قرب المدينة ولم نبتعد أكثر، ثم رحلنا في اليوم التالي أي في ٢٩ حزيران/ يونيو، قبل أن تفتح أبواب المدينة. وبما أن الفوضى كانت تعمّ في قافلتنا الصغيرة، مما اضطرنا للبقاء قرب الإبل، لم أتمكن من تحديد المسافة بين الأماكن بالدقة نفسها التي اعتمدتها في الأماكن الأخرى حيث كنا نسبق القافلة على حميرنا. لكن استطيع تحديد الآتي: إذا توجهنا إلى الشرق من تعز، يمرّ الدرب قرب مقهى يسمى عدن، ويؤدي إلى جعفر التي تقع على بعد فرسخين. ولقد زار السيد فورسكال، أثناء الرحلة، جبل سراق (Saurek)، الذي إذا ما تقدمنا منه فرسخين نحو الشرق والشمال الشرقي، لوصلنا جناد (Dsjennad)، التي اشتهرت فيما مضى بمسجد معاذ بن جابل، لكن لم يبق منه حالياً سوى المسجد المذكور وبعض المنازل المعدودة. وتسمى المنطقة المحيطة بجعفر هبان (Hauban)، وقد أخذت اسمها من جبل هبان الواقع إلى جانب جبل صابر (Sabber).

ويؤدي الطريق من جعفر باتجاه الشمال والشمال الشرقي إلى عماقي (Amâki)، ولا نقع في هذه الدرب سوى على قرى حقيرة وهي: قرف (Korff)، عبّاد (Obáde) وعمور (Amûr). أما عماقي فتقع في سهل خصيب، وكانت فيما مضى مدينة صغيرة لكنها تعرضت منذ سنوات للدمار، فلم يبقَ فيها سوى بضعة منازل. ويقام فيها سوق أسبوعياً، وإذا ما توجهنا من عمّاقي إلى الشمال والشمال الشرقي نصل إلى كمده (Kaade).

في ٣٠ حزيران/يونيو، وصلنا إلى سمسرا في محراس (Simeserä Mhárras) بعد أن انطلقنا من كمدة نحو الشمال الشرقي. أما القرى الواقعة إلى غرب هذه الدرب فهي: جان المرستان (Gannue el Mursetên)، غرافا (Gurafa)، حمّارا (Hämâra) ودراس (Derras)، ودشرق (Duschruk) وهي مدينة صغيرة بين هذه القرى. ونرى إلى الشرق القرى الآتية: دمن (Dimne)، منسل (Mensil)، ونهل (Nahhi). ولقد حفرت المياه التي تتدفق من الجبال في هذه المنطقة، مجرى واسعاً وعميقاً بين الصخور، وعندما هبّت عاصفة هوجاء، بعد الظهر، كوّنت سيلاً عظيماً وسريعاً، لكن بما أن مياه هذه الأمطار تندفع بعنف من الجبال، جفّت مجاري السيل هذه كلياً بعد ساعتين. ومما يجدر ذكره أنه تمّ بناء جسر حجري صلب للغاية بعقد واحد قرب سمسرا على أحد هذه المجاري.

وتسمى النزل الكبيرة، التي نصادفها من تهامة وحتى هنا مطرح (Mattrach)، وهي لا تتعدى كونها

منازل خاصة لا يدفع أصحابها الكثير لصيانتها، ويكتفون بتأمين مأوى للضيوف والبضائع. ونجد من محراس حتى صنعاء، سمسرات كبيرة مبنية من الآجر المشوي، تبعد الواحدة عن الأخرى يوم سفر أو نصف يوم أحياناً. وقد بني هذه الصروح فضلاً عن الخانات أو الكرونسيرا في تركيا، رجال أغنياء لراحة المسافرين؛ لكن السمسرا تفتقر إلى وسائل الراحة المتوافرة في الفنادق في أوروبا، فالمسافر الذي لا يكتفي بالقهوة، والأرز، والخبز والزبدة التي لا تقدم هذه النزل غيرها، ينبغي أن يحمل أطعمة أخرى . زد على ذلك، أن هذه الأماكن ليست آمنة للغاية، ففيها باب واحد يقفل في المساء وقبل فتحه عند الصباح، يطلب من المسافرين في بعض الأماكن تفقد أغراضهم كي لا يفقدوا شيئاً منها.

وفي ١ تموز/يوليو، غادرنا النزل، وكنا نعرف أن تسلق قمة جبل محراس يحتاج إلى ٣/٤ الساعة. وكنت في أثناء رحلتي الأولى إلى هذه البلاد، قد لاحظت أن نزول الجبل انطلاقاً من النزل يتطلب ٥٠ دقيقة، ومن هنا يمكننا أن نستنتج تقريباً مدى ارتفاعه. أما الطريق الذي يؤدي إليه فمرصوف جزئياً، كما ذكرت سابقاً، ونجد على قمة الجبل قرية نجد وهي قرية كبيرة إلى شرق الدرب. وتسمى المنطقة الممتدة من هذه النقطة وحتى أود (Ode) ـ وهي قرية تقع إلى شرق مدينة جبلة ـ شيبان (Schebān). وينحدر الطريق من أود إلى أرما، وفيها مقهى بوعورة، ونجد هنا أيضاً مسجداً قديماً مزيناً بقبة. أما الأراضي الصالحة للزراعة التي تأخذ في هذه المنطقة الخصبة شكل مدرجات كالكروم في أوروبا فتضفي على المكان جمالاً وروعة. وتبعد أرما عن آب (Abb) حوالي نصف ميل، وتقع هذه القرية على بعد ميل من جبلة (Dsjōbla) إلى الشمال الشرقي، كما تبعد السمسرا عن جبل محراس حوالي ميل ونصف إلى الشمال الشرقي وعلى خط مستقيم. ولاحظت وجود ستة مجالس (Madsjils) على هذه الطريق القصيرة، ورأيت قرب أحدها، وهو لا يبعد كثيراً عن أرما، مسقى للمواشي التي تمرّ بالمكان، كما نجد ٤ منازل مبنية جيداً، إنما غير مسكونة، وهي تستخدم كملجأ للمسافرين الذين تفاجئهم الأمطار في المنطقة.

وتتبع مدينة آب قضاء اليمن الأعلى، ويخضع صاحب الدولة في هذه المدينة لذاك المقيم في جبلة. وتقع المدينة على قمة جبل، تحيط بها الأسوار والحصون، أما شوارعها فمرصوفة، ومنازلها مبنية من الحجارة ككافة المنازل في البلاد الجبلية. ويقدّر عدد المنازل في آب بربع المنازل الموجودة في جبلة، فلا نجد فيها بحسب تقديري إلا ٤٠٠ إلى ٥٠٠ منزل. ويملك العرب ٨٠٠ منزل في آب و١٢٠٠ في جبلة. ويقال إنّ في المدينة عدد كبيراً من المساجد الصغيرة، لكني لم أرَ سوى مسجدين بمنارات، ولعل الأمر يعود إلى أن الزيديين لاينفقون الكثير على مساجدهم كأهل السنّة. ويتبع العرب من آب وحتى سنّا (Sunna) المذهب الأول، فيما يتبع عرب تعز وتهامة المذهب الأخير (أهل السنة).

ونرى إلى شرق المدينة جبلاً شاهقاً يحمل اسم بعدان (Baadan)، تجرّ منه المياه في قناة يبلغ طولها ٣٠٠ قدم إلى مسجد كبير ومنه إلى المساجد الأخرى وإلى منازل المدينة. وبما أن المسجد يقع في

منخفض، يضطر الأهالي إلى غرف المياه كما لو أنهم يستخرجونها من بئر. وتمّ بناء سور عال قرب الخزان الكبير لهذه المياه، تعلوه بكرة عليها حبل غليظ ربط بأسفله دلو من الجلد أو على الأصح قربة واسعة. ويعمل الرجال والحمير والثيران على نقل المياه حتى خزّان آخر فتفرّغ فيه ثم توزع إلى أحياء المدينة المختلفة. ونجد هنا، كما في أماكن أخرى، في أعلى الآبار، في الريف، بكرات عدة الواحدة فيها جنب الأخرى، لكنها تحتاج إلى جهد كبير مضنٍ، وهي متعبة أكثر من الآلات التي تعمل على المياه والتي تستخدم في بلاد أخرى من الشرق.

ونجد على مسافة قريبة من آب وجبلة نبعين، يجري أحدهما نحو الغرب في جداول صغيرة عدة، ليصب بعد الأمطار في الخليج العربي تحت اسم وادي زبيد. ويجري الآخر في الجنوب، ويطلق عليه اسم ميدام (Meidam)، وبعد تساقط الأمطار، يعظم ويصب أخيراً في البحر قرب لحج (Lahadsj) وعدن.

في ٢ تموز/يوليو، غادرنا آب، ونزلنا جبلاً وعراً للغاية على مسافة ٤/٣ الفرسخ، لكن الدرب كان مرصوفاً وبالتالي يمكن سلوكه إلى أقصى حدّ ثم دخلنا السهل، وتوجهنا نحو الشمال ونحو الغرب بعض الشيء، فوصلنا قرية لهود (Lahuad) التي تبعد حوالي ٨/٧ الميل عن آب. وبعد أن اجتزنا ٨/٥ الميل إلى الشمال، بلغنا قرية تدعى سوق (Sûk)، وصادفنا على الدرب بين آب وهذا المكان ثلاثة مجالس ومآوي. ثم تصبح البلاد جبلية بعد سوق، ولقد قطعنا ميلاً و٨/٢ الميل لنصل إلى مشادر (Mechader) ورأينا على هذه الطريق خمسة مجالس، وثلاثة مآوي. وتبعد آب عن مشادر ميلين و٨/٥ الميل.

وتقع مشادر، وهي مدينة صغيرة، على جبل، ونجد بالقرب منها، وعلى مرتفع قصراً صغيراً يقيم فيه صاحب الدولة، ويقام في المدينة يوم الخميس سوق. ويمكننا أن نرى من هذا المكان قرى عدة منها دلم (Dolme) في الغرب، طلاب (Tullab) في الشمال وشنن (Schanen) في الشرق، كما نجد في المنطقة جبلاً يحمل اسم سهول (Sahûl). أما بالنسبة إلى قرية سهول والوادي الذي يحمل الاسم نفسه واللذين ذكرهما أبو الفدا، ويقال إنهما بالقرب من جناد (Dsjinnad)، فلم يتمكن أحد من إعطائي معلومات عنهما.

وكان السيد فورسكال مريضاً للغاية في ذاك اليوم، فاضطررنا إلى التأخر عن الجمال التي سبقتنا إلى قرية لهود، وعندما اجتازت مشادر، وقطعت نصف ميل أبعد من سمسرا برقان (Barkên)، فأجبرنا على اللحاق بها. ويتكوّن قرب برقان سيل عظيم، يضيع في الجبال.

وفي ٣ تموز/يوليو، سبقتنا الإبل منذ الصباح إلى (Mensil)، ولحقنا بها بعد شروق الشمس. وقطعنا حوالي ٨/٧ الميل في خط مستقيم، وأثناء الـ ٤/٣ الميل الأولى، لم يكن الدرب صعوداً، إنما فيما بعد وحتى جبل سمراء يصبح الدرب وعراً، حتى يستحيل سلوكه على الجمال المحمّلة لو لم تهيأ فيه تعرجات تجعل بلوغه ممكناً بصعوبة، ولو لم يرصف في أماكن عدة. إن هذا الجبل أعلى وأكثر وعورة من جبل محراس والجبل

العالي بين عدن وجبلة. ونجد في قرية منسل، التي تقع في نصف جبل سمّراء، سمسرا رائعة بني كل ما فيها من الحجارة المقصوبة لا من الخشب بما في ذلك السقف والعارضات. ولقد بقي الجمّالون والمكاريون في الأسفل مع الحقائب ومع بهائمهم. وكان على سطح هذه السمسرا شقة يمكننا البقاء فيها وحدنا، لذا وجدنا المكان مريحاً للسيد فورسكال الذي يحتاج للراحة بسبب مرضه.

وفي اليوم التالي (٤ تموز/يوليو) بقينا في منسل، وقست ارتفاع الشمس في الهاجرة، وحددت بالتالي خط العرض الذي تقع عليه القرية وهو ١٤°، ١٠´ . وأحسست يومها، بعد الظهر ببعض الحمّى، وبما أن وضع السيد فورسكال كان يزداد سوءاً، قررنا إطالة إقامتنا في هذا المكان حتى يتحسّن. لكن الجمّالين والمكارين أعلمونا أن هذا المكان لا يستطيع أن يؤمّن العلف للدواب والطعام لهذا العدد من الأشخاص، وأكدوا لنا أن مدينة يريم (Yerim) تقع على الجهة الأخرى لجبل سمّراء وتفصلها عن منسل إلى الشرق المسافة نفسها التي تفصل هذه الأخيرة عن برقان إلى الغرب. ووعدونا بتأمين أناس ليحملوا مريضنا حتى أعلى الجبل، ومن هناك يمكنه أن يقطع بسهولة على ظهر الجمل المسافة القصيرة المتبقية حتى يريم.

وأغرتنا هذه الوعود فغادرنا في ٥ تموز/يوليو. وسبقت والسيد بورنفاند، يرافقنا واحد من المكارين الذين مع البعثة عند الصباح كي نستفيد من برودة الجو، لكننا دفعنا ثمن هذه المجازفة غالياً، إذ لم أكثر من الثياب في هذا المناخ البارد وأصبت بالتالي برشح مزمن، ولكثرة ما رأينا من مياه قرب الطريق بين تعز ومنسل، لم نشكك للحظة أننا لن نجد قطرة واحدة في ذاك اليوم، وارتفعت الحرارة، وكان لا يزال أمامنا ساعة مسير، حين صادفنا في الريف فلاحاً أعارني إبريقه، وكنت بحاجة ماسة للمياه لأني لم أعانِ يوماً من ظمأ مضنٍ كهذا. ولحسن الحظ، وصلنا أخيراً إلى يريم، وتبين لي أن المسافة إلى هذه المدينة من منسل هي حوالي ميلين و٨/٧ الميل إلى ثلاثة أميال، إلى الشمال الشرقي، وهناك طرقات أكثر مما قال لنا الجمّالون. وأثار انتباهي على هذا الطريق قصر مهدّم يقع قبالة منسل على قمة جبل سمّراء، ويملكه آل حسن. ويؤدي الطريق من قصر بني حسن، نزولاً إلى مسجد صغير وإلى قرية مدّراس (Maddrasse)، ونلقي نحو الشرق سهلاً منبسطاً تقريباً لأن التضاريس التي نراها فيه لا تقارن بالجبال الممتدة بين سمراء وتهامة. ولم أرَ على طول الطريق، بين مدراس ويريم، إلا قريتين صغيرتين هما ربعة القلعة (Rabâd el Kalla) ومنسل الثاني (Mensil Asséni). وتعيش في هذه البلاد قبيلتا بنو يربع وبنو سعيد (Beni Séid)، لكنهما لا تقيمان في الخيام إنما في أكواخ، وتجدر الإشارة إلى أننا لا نجد بدواً في المناطق الخاضعة للإمام.

وبقي السيد كرامر مع خدمنا الأوروبيين بانتظار الأناس الذين ينبغي أن ينقلوا مريضنا إلى جبل سمّراء، لكن هؤلاء لم يستدعوا إما لأن العرب الذين يرافقوننا والذين قدروا المسافة بين المنطقتين بميل واحد من دون المنعطفات، يعرفون أنها ثلاثة أميال أو لأن العرب الآخرين لم يرضوا بحمل مسيحي، وبالتالي تم ربط السرير والمريض على ظهر جمل. وبالرغم من أنهم سافروا ببطء شديد، واتخذوا كافة

التدابير اللازمة لإراحته، وصل عند المساء إلى يريم وقد أصابه الإعياء، واشتد عليه مرضه. وكنا قد اعتدنا على العيش والسفر كالعرب، فلم نعد نحس بالانزعاج طالما أننا بصحة جيدة، لكن في مناسبة كهذه عشنا تجربة المرض وصعوبته في تلك البلاد حيث لا يتمكن المرء من الحصول على الطعام والشراب - وهذا شيء ما تعودناه في أوروبا - وتجربة المرض خلال الرحلة دون أن يتمكن المريض من الوصول في الوقت المناسب إلى مكان يرتاح فيه ويستعيد فيه عافيته كان شيئاً جديداً علينا.

وكنا قد قررنا الإقامة في يريم في نزل، لكن حشد المتفرجين الذين دفعتهم حشريتهم لرؤية الأوروبيين وسماعهم لم تسمح لنا بالراحة، فعزمنا على استئجار شقة في المدينة نقيم فيها بانتظار شفاء رفيقنا. وتمكنا هنا من معرفة السبب الحقيقي الذي منع العرب في منسل من نقل السيد فورسكال إلى أعلى الجبل، وهو أن خادمنا العربي لم يرضَ بنقله من منزل إلى آخر، ولذلك اضطررنا لنقله بأنفسنا مع خدمنا الأوروبيين.

ويريم مدينة صغيرة أو على الأصح بلدة كبيرة، لكن صاحب الدولة يقيم في قصر صغير على تلة وعرة في وسط البلدة. أما منازلها فجزء منها مبني من الحجارة، والجزء الآخر من الصلصال المدهون بمعجونة مؤلفة من الطين وروث البقر. ولم أتمكن من التعرف على المدينة والتجوال فيها بسبب مرضي ومرض رفيقي، لذا لا يمكنني الحديث عنها كثيراً، إلا أنني رسمت من نافذة غرفتنا واجهة القصر وقسماً من المدينة على اللوحة (LXVIII). وتقع يريم وفقاً لدراساتي على خط عرض ١٤°، ١٧َ .

وعلى مقربة من مدراس إلى الجنوب والجنوب الغربي من يريم، قامت فيما مضى، بحسب روايات عرب عدة، مدينة تدعى جعفر، لم يبقَ منها أي منزل وفقاً لما يقال. لكن نجد فيها، كما أكّد لي شيخ البلد، حجراً ضخماً يحمل كتابات لم يتمكن اليهود أو المسلمون من فهمها، لذا تستحق زيارة أوروبي جاء البلاد لهذا الغرض. ويبدو أنه المكان الذي قامت فيه مدينة ظفار (Tdaphar)، التي جعلها المؤرخون القدامى مكان إقامة الحميريين، وإذا ما تمكنّا من الحصول على كتابات حميرية، فستكون من دون شك من تحت هذه الأنقاض. وعندما نجد أحرفاً كوفية عادية أو كتابات أخرى لا تثير الاهتمام كثيراً يمكننا الاكتفاء بها، لأنني لطالما خدعت وأعطوني آمالاً كاذبة بإيجاد كتابات قديمة ومجهولة. ويحلو للعرب أن يؤكدوا أن مدينة جعفر، كانت منذ ٨٠٠ عام، في أوج ازدهارها، وكانت مكان إقامة سعد الكامل حاكم شبه الجزيرة كلها ، وأنها دمرت على يد العباسيين. ولم يرد ذكر حاكم يدعى سعد الكامل في كافة كتب التاريخ حول شبه الجزيرة العربية التي نملكها في أوروبا، وكلما استعلمت عنه في اليمن، قيل لي: إنه بطل عربي عظيم، وملك شهير، أقام في جعفر. ويقال: إن في نجرا (Nedsjera)، بإقليم عمران (Amran)، ضريح ملك عظيم يحمل الاسم نفسه، لكننا لا نعلم إن كان نفسه الذي حكم جعفر.

وبما أن مدينة جعفر تقع إلى الشرق من موسى (Musa)، وعلى سفح جبال عالية، استنتجت أننا يمكن أن نبحث هنا عن «سفار» (Sephar) التي جاء على ذكرها موسى. لكن قد تكون هذه المدينة هي جعفر،

لأن حضرموت وسبأ ومدناً أخرى وبلاداً أخذت أسماءها من أولاد قحطان، لا تقع بين بريم وموسى، بل بين هذا المرسى وميزا. (راجعوا **وصف شبه الجزيرة العربية**). وكان الطقس في شرق جبل سمراء مغايراً لطقس غربه، ففي تعز وآب والقرى المجاورة لمنسل، تساقطت الأمطار لأيام عدة في فترات بعد الظهر، ورأينا أراضٍ خصبة صالحة للزراعة، وباختصار يكثر في المنطقة الزرع ويطغى اللون الأخضر على الطبيعة. لكن، لم تسقط الأمطار في بريم منذ ثلاثة أشهر، وإن سمعنا الرعد في البعيد كل مساء تقريباً. ولقد تكاثر الجراد فالتهم كافة الثمار، لذا قرر أهالي بريم التوجه في ٨ تموز/يوليو بعد الظهر إلى مكان تقام فيه الصلاة جماعة خارج المدينة، للاستسقاء. وكانت المسيرة تتألف من شيوخ حقيري الملابس كما ينبغي في يوم تضرّع كهذا، يرأسها شيخان جليلان يحمل كل منهما على رأسه علبة مفتوحة فيها كتب، ويتبعهما الشيوخ الآخرون والناس، وهم يغنون ويرددون صلوات قصيرة لم أفهم منها سوى «لا إله إلا الله». تمّ كل ذلك في جو من التقوى والورع، وبدا أن هذه الشعائر التقية أعجبت القدير، فما إن عادت المسيرة إلى المدينة، حتى هبّت عاصفة، وتساقط البرد ثم المطر عند المساء. وفي ٩ تموز/يوليو، أعاد سكان بريم صلواتهم خارج المدينة، لكنها لم تكن فعّالة كاليوم السابق لتجلب المطر. وبعد أيام، تساقطت الأمطار، إما لأن الله استجاب لصلاة المسلمين المؤمنين وإما لأن موسم الأمطار قد حلّ، ولا سيما وأن هذا موعدها المعتاد كما هي الحال في غرب جبل سمراء وفي بلاد مدارية أخرى.

وكان الجراد يباع في الأسواق كلها بأرخص الأسعار، لكني لم أرَ يوماً هذا العدد الذي شاهدته في سهل جبل سمراء القاحل وفي بريم، حيث كان بالامكان التقاطها باليد. ورأينا عربياً يملأ كيساً من الجراد ليجففها ويحفظها كمؤونة للشتاء. وحين تتساقط الأمطار بتقطع ولساعات فقط، إلى الغرب من الجبل، تهاجم جحافل الجراد من الشرق حتى أن فلاحي منسل يضطرون إلى طردها من حقولهم كي لا تقضي كلياً على نتاجهم، فتراهم يتراكضون يمنة ويسرة، حاملين عصياً طويلة رُبط بأعلاها قطعة قماش، ويطلقون صيحات عالية. ولا تنفع هذه الوسيلة في بريم التي اعتاد عليها الجراد وكأنها موطنه لقلة ما تمطر.

وشاهدنا في بريم عريساً جديداً، يتوجه إلى الحمّام، ويتقدم المسيرة مجموعة من الشباب تمرح وترقص على وقع الطبول، تليها مجموعة كبيرة من الناس من أعمار مختلفة، يلهو بعضهم بإطلاق العيارات النارية، ويختمها أخيراً العريس وبعض أصدقائه. وتعود الجموع عند المساء ببطء. فنرى عند الغسق عدداً من المشاعل التي تشبه مشاعلنا إلى حدّ ما وإن كانت في حالة سيئة، لذا أعجبتني أكثر من تلك التي تستخدم في مصر والتي ذكرتها سابقاً.

وفي يوم آخر، رأينا مصارعين يعرضان قدراتهما أمام بعض الناس في الشارع، وكانا يرتديان القليل من الثياب، ويضعان على وجهيهما قناعاً كبيراً (وهو الأول الذي رأيته في الشرق)، مع لحية طويلة وشعر

يتدلى على أكتافهما. ويحملان في اليد اليمنى خنجراً طويلاً وفي اليسرى درعاً كبيراً، وظننا أنهما سيظهران براعة فائقة ولافتة في المبارزة، لكنهما اكتفيا بالوثب على وقع الطبول وبالقيام ببعض ألعاب الخفّة.

وصف الشريف الإدريسي في كتابه أسواق اليمن، ولم أحاول دراستها لأني كنت أتجنب الجموع الكثيرة. لكن بعد أن بقيت لبضعة أيام في يريم دون أن أغادر المنزل، توجهت إلى السوق كي أبدد كآبتي، وكان قد تجمّع فيه عدد من الناس جاؤوا من القرى المجاورة لشراء المؤن والمواد الضرورية للعائلة وبيعها. ولم أرَ في السوق أي محال غنية، بل خياطين، وإسكافيين، وحدادين وحرفيين آخرين يحيطون بالشارع أو على الأرجح بالساحة، أو يتوزعون حولها ضمن جدران منخفضة وسيئة البنيان ويعملون في الهواء الطلق. وصادفت هناك حجامين يشرطون ويجرحون العرب بسكين عادي ثم يضعون على الجرح قرون تيس قصّت من جذورها، ولا يملك هؤلاء معدات أفضل وهي كتلك التي استخدمت لشفاء الأب لوبو من الحمى(*).

وبدا أن السيد فورسكال يتماثل للشفاء في الأيام الأولى التي أمضيناها في يريم، لكن المرض استشرى من جديد حتى فقدنا الأمل بشفائه، ثم غطّ في سبات عميق في ١٠ تموز/يوليو مساءً، ووافته المنيّة في هذه الحالة، في اليوم التالي أي في ١١ تموز/يوليو قرابة الساعة الواحدة والنصف. وأسفنا لفقدانه كثيراً، لأن تعاطيه مع عامة الشعب، بسبب حبّه لجمع النبات، مكّنه من تعلم اللغة العربية أفضل من كافة أعضاء البعثة، فضلاً عن اللهجات المختلفة، فأصبح بالتالي الناطق باسمنا جميعاً، كما أن نجاح رحلتنا كان من أبرز همومه، وكأنه ولد ليقوم برحلة إلى شبه الجزيرة العربية، فلم تكن الصعوبات تثنيه، ولا نقص وسائل الراحة يرده عن هدفه. اعتاد أولاً على طريقة عيش السكان، وهو أمر ضروري إذا ما أردنا السفر في شبه الجزيرة العربية والوصول إلى الهدف المرسوم، ولا يمكن لعالم عظيم من دونه أن يقوم بالكثير من الاكتشافات في هذه البلاد. وكان يتوجب علينا إعلام الحاكم بوفاة رفيقنا وشراء مكان لقبره، فأرسلنا خادم قاضي تعز إلى صاحب الدولة وقاضي البلاد، فدلّه هذا الأخير على عربي يمكننا أن نشتري منه مكاناً لدفن صديقنا. وباعنا الرجل بالفعل أرضاً لكن هذه العملية التجارية لم تتمّ، إذ إن المكان يقع قرب قناة صغيرة تجرّ فيها المياه لريّ الحقول المجاورة، فهدد الجيران المالك بجعله يدفع الثمن إن شحّت المياه بسبب جسد هذا الإفرنجي. وبما أن الرجل يفضل عدم كسب المال على إثارة غضب ونقمة جيرانه الجهلة، اضطررنا إلى البحث عن مكان آخر ووجدناه بالسعر نفسه. وطاب لصاحب الدولة بعدها الاجتماع بأحد أعضاء البعثة والتشاور معه، فقال لي إنه يملك وبصفته حاكم هذه المقاطعة، حق الوراثة على تركة اليهود والبانيان الذين يموتون خلال سفرهم في منطقته، فأجبته أن الميت ليس يهودياً ولا بنيانياً

(*) رحلة إلى الحبشة، بقلم لوغران (Le Grand)، ص ٢٦.

إنما أوروبي، وأن صاحب الدولة في المخا لم يطالبنا بتركة صديق لنا توفي في مدينته. عندها، شرح لي ابن صاحب الدولة قصد والده، وأعلمني أنه يتوقع منا على الأقل هدية قيّمة، وحين قلت له إن الأوروبيين لا يدفعون قرشاً من دون إيصال، وأننا نحتاج إلى كتاب حول المبلغ الذي يطلبه بسبب وفاة رفيقنا في مقاطعته، توقفواعن إزعاجنا بهذا الموضوع. وكان صاحب الدولة يعلم بنيتنا السفر إلى صنعاء، ولعله خشي أن نقدّم شكوى ضده لوزير الإمام إن طالبنا بما لا يحق له طلبه.

ووقعنا في مأزق كبير عند دفن صديقنا إذ لم نتمكن من إيجاد حمّالين، وإن وعدنا بالدفع بسخاء، ووافقنا على دفنه ليلاً، وفي النهاية، حضر ستة رجال. لكنهم لم يحضروا لنقل الجثمان إلا في الصباح، ما بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة، حين يكون الجميع نياماً، وسارعوا إلى تنفيذ مهمتهم خلسة، فاستنتجنا أن المسلمين لا يرضون بحمل رجل من دين آخر ودفنه. أما أنا، فلم أتجرأ على الخروج في ساعة كهذه، لحضور الدفن، لأنني كنت مريضاً، فيما رافقه إلى مثواه الأخير السيد كرامر والسيد بورنفايند، والخدم الذين رافقونا من تعز، وخادما القاضي وشيخ البلد في يريم.

ولم نكن لنعتبر أننا أكملنا واجباتنا اتجاه رفيقنا، لو لم ندفنه في تابوت، لكن كان حريّاً بنا أن نلفه بكفن وندفنه. لأن وجود التابوت دفع العرب إلى الاعتقاد بأن الأوروبيين يدفنون كنوزاً مع موتاهم، وهذا ما شاع خبره حين طلبنا بصنع التابوت. وعلمنا، فيما بعد في صنعاء، أن أحدهم نبش القبر بعد رحيلنا من يريم، وكسر التابوت، وسرق الكفن. وحين علم صاحب الدولة بالأمر، أجبر اليهود على إعادة دفن الجثة، ومنحهم التابوت حين طالبوا بأجورهم.

وبعد دفن رفيقنا، أخذنا نستعد لمتابعة رحلتنا من يريم إلى صنعاء في ١٣ تموز/يوليو. لكن في الليلة التي سبقت رحيلنا، هطلت الأمطار بغزارة فلم نتمكن من الانطلاق إلا في وقت متأخر من النهار، وبعد أن قطعنا ميلاً و٣/٨ الميل إلى الشمال الشرقي، وصلنا إلى رباد (Rabâd)، وبعد ميلاً ونصف الميل إلى الشمال وصلنا إلى ديقسوب (Dikesûb)، ومن بعدها إلى ذمار (Damâr) بعد أن اجتزنا ميل ونصف نحو الشمال، وهي تقع على جبل صغير يحمل اسم نمارا (Numara). إذاً، تبعد يريم عن ذمّار أربعة أميال، ولقد لزمنا ست ساعات لنصل إليها، أما طريقها فحجرية، وأرضها قاحلة. وصادفنا في أماكن مختلفة أناساً يبيعون الكشر للمارة، لكنهم على الأرجح لا يجنون أرباحاً طائلة من هذه التجارة، لأنهم لا يعيشون حتى في أكواخ إنما ضمن أربع شقات جدران، ترتفع قدمين إلى أربع أقدام ومن دون سقف.

وبسبب إقامتنا الطويلة في يريم، كان سكان دمار على علم مسبقاً بأننا سنمرّ في قريتهم لنتابع طريقنا إلى صنعاء. وبما أن البلاد لم تشهد زيارة أوروبيين منذ سنوات عدة، أثار قدومنا حشرية الشعب، حتى أنهم لاقونا على مسافة ربع ميل خارج مدينتهم. وتزايد عدد الناس، وبما أننا كنا نخشى التعرض للإزعاج في الفندق من قبل المتفرجين، استأجرنا منزلاً لنرتاح ونمضي الليلة التالية، واضطررنا للانتظار طويلاً في الشارع فتجمهر المواطنون حولنا خارج المدينة، مما دفعنا إلى شق طريقنا بينهم لنصل إلى منزلنا. وعمل

السيد كرامر الذي ركب البغل المهدى إليه من صاحب دولة المخا على فتح الطريق لنتمكن من المرور. فوقع البعض على الأرض، وأخذ الموجودون يتهامسون حول وقاحة الكفّار. وسارعنا في الوصول إلى منزلنا، ورشق بعضهم بابنا ونوافذنا، أو على الأصح فتحات النوافذ إذ لا يعرف العرب استخدام الزجاج، بالحجارة، فأرسلنا خادمنا إلى الشارع لتفريق الجموع، لكننا لم نسترح إلاّ لفترة. وأردنا طلب حرّاس من صاحب الدولة، لكن قيل لنا إنه لا يملك إلا ٣٠ جندياً وأنه يخشى المواطنين. ولم يظن أحد أننا في خطر، وقيل لنا إنّ هناك عدداً كبيراً من الطلاب في الشارع، يودون رؤيتنا، وأنهم أرادوا لفت انتباهنا برشق نوافذنا بالحجارة. وزارنا شيخ البلد، وطلب من السيد كرامر أن يعطيه بعض الأدوية، وأملنا أن يتوقف رشق الحجارة احتراماً لهذا الرجل الجليل، لكنهم استمروا في ذلك. وبما أن شيخ البلد وصاحب المنزل ارتأيا أنه ينبغي ترك الشباب وشأنهم، أوصدنا الأبواب والنوافذ، فملّوا هذه اللعبة.

وتقع ذمار في منطقة خصبة ومنبسطة، اشتهرت في اليمن بمرابط الخيل الجميلة، وهي عاصمة إقليم مشارب العنز (Méchareb el Anes) وبالتالي مكان إقامة صاحب الدولة. ونجد فيها جامعة شهيرة للمسلمين، وتسمى الجامعة الزيدية، وأكدوا لي أنها تضم حوالي ٥٠٠ طالب شاب، أي إنهم يتعلمون فيها القراءة والقرآن. ونشاهد قرب المدينة قصراً ضخماً، أما المدينة نفسها فمفتوحة، وواسعة، وحسنة البنيان، وأشك أنها تحتوي على ٥٠٠٠ منزل كما يؤكد شيخ البلد. ويعيش يهود هذه المنطقة على طريقة أهل البلاد في قرية خارج المدينة، ونجد بعض البانيان الذين يعيشون بين المسلمين كما في المدن اليمنية الأخرى. ولم يحط بطبيبنا هذا العدد من المرضى في أيّ مكان آخر من اليمن، وبما أنه رفض مغادرة المنزل بسبب الإهانة التي لحقتنا حين رشقوا منزلنا بالحجارة، أحضروا له مريضاً على فراشه إلى المنزل، وسافر آخر معنا إلى صنعاء بسببه.

ويجري على مسافة قريبة من ذمار نهر صغير، ويتوجه نحو الشمال ليضيع في رمال بلاد يوف (Yof)، ولعله من الأنهار التي تتجمع في بلاد مأرب (Mareb) في سدّ أهل سبأ القديم[*]. ونجد في الشرق، على بعد أميال من دمار، جبلاً يسمى حيران (Hirrän)، حيث نجد أحجاراً ناعمة، لونها أحمر قانٍ، ويقع هذا الجبل إلى شمال غرب المدينة. ولقد ذكرت هذا الحجر الكريم في **وصف شبه الجزيرة العربية**.

وقع خادمنا الأوروبي فريسة المرض في يومنا الأخير، ولم يقوَ على السفر إلى صنعاء معنا، لذا تركناه في ذمار كي يتبعنا على مهل بحسب ما تسمح له قواه. وحين لحق بنا، اشتكى من أنه لم يجد مأوى أثناء محنته لأن العرب خشوا أن يموت عندهم فيتحملوا عناء دفنه، لكنه وجد الكثيرين ليؤجّروه حميراً ويسافروا معه بالبطء الذين يشاؤه.

(*) انظر: وصف شبه الجزيرة العربية.

وفي اليوم التالي (١٤ تموز/يوليو)، سافرنا ليوم كامل تقريباً باتجاه الشمال، حيث نجد إلى شرق الدرب الذي سلكناه سهلاً واسعاً، وإلى غربه جبلاً أجدب. ورأينا على بعد ٨/٥ الميل من ذمار، وإلى الشرق، قرب الطريق: قرية مواهب (Mawahheb) التي يقيم فيها الإمام، والتي زارها كاتب **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية السعيدة** في بداية القرن. كما نجد إلى غرب الدرب قرية تسمى ماضي (Madi)، وبقي علينا اجتياز ربع ميل لنصل إلى سمسرا. التي تبعد عن قرية ممراد (Mamrade) ٨/٣ الميل، وتبعد هذه القرية عن قرية سعاد (Sauâd) ٤/٣ الميل. وإذا ما سرنا ميلاً في منطقة المستنقعات هذه، لوصلنا إلى سمسرا التي تحمل اسم سعاد، ومن بعدها يمسي الدرب حجرياً، وقلما نجد حتى سراج على بعد ميلين، سهولاً مزروعة. ونصادف من هذا المكان الأخير وحتى صنعاء، وقرب القرى كلها، عدداً كبيراً من الحدائق المزروعة بالكرمة الجميلة والشهية فضلاً عن فواكه أخرى، في حين أن الجبال جرداء وقاحلة. وتبعد ذمار عن سراج، وفقاً لتقديري ثلاثة أميال أو ستة فراسخ و٤/٣ الفرسخ، وهطلت الأمطار الغزيرة أثناء رحلتنا كما تساقط البرد مترافقاً مع عواصف رعدية عنيفة. ولم نجد هنا أيّاً من المنازل التي يستخدمها المسافرون كمأوى أثناء العواصف والتي نصادفها في إقليم اليمن الأعلى، كما لم نرَ في ذاك اليوم سوى مجلس واحد قرب سمسرا.

في ١٥ تموز/يوليو، توجهنا نحو الشمال لكن الدرب لم يكن سهلاً كما في الأيام السابقة. انطلقنا من سراج، وسرنا ميلاً و٤/٣ الميل في الجبل، ووصلنا قرية عودي (Audi) على الحدود التي تفصل إقليم سراج عن بلاد شولان الصغيرة. ونجد على مقربة من هذا المكان قرية صغيرة تدعى حدّاثة (Haddâsa)، وتقع على تلة وعرة حيث نقشت، كما يقال، كتابات مثيرة للاهتمام على حائط قديم. وكنت قد علمت في تعز، أننا نرى كتابات عبرية في بلاد عنز لأن المسلمين لا يعرفون أي حرف منها، ولأنهم لم يسمعوا بلغة أخرى غير العبرية، باستثناء الكوفية والعبرية والعربية، لذا يظنون أنها باللغة العبرية. ووعدني جمالونا ومكاريونا باصطحابي لرؤيتها، لكنني كنت أظن أن بلاد عنز هو اسم قرية، وعلمت في ذاك اليوم أنه اسم إقليم، فاستعلمت من أحد المواطنين وعلمت أن هذه الكتابات موجودة في حداثة. وكنا قد تجاوزنا هذه القرية بحوالي فرسخ ونصف، وأخفى عليّ الجمّالون والمكاريون الأمر عمداً كي لا أؤخرهم في رحلتي. وعلمت لاحقاً في صنعاء من يهود رأوا هذه الكتابات مرات عدة، أن الحروف ليست حروفاً عبرية وأنهم لم يتمكنوا من فهمها شأنهم في ذلك شأن المسلمين. وبما أن حداثة تقع قرب الطريق المؤدي من المخا إلى صنعاء، أودّ لو يتكبد أي أوروبي، يسافر إلى تلك البلاد، مشقة نسخ هذه الكتابات، لأنها قد تكون من زمن الحميريين، وقد تساهم في تسليط الضوء على كتابة هذه الأمّة واكتشافها. ويعتقد يهود صنعاء أنهم رأوا كتابات أخرى مجهولة في نقيل أسور (Nakil Assur) إلى الجنوب الغربي من صنعاء.

ونجد قبالة حداثة قرية تدعى كمن (Komen)، وتؤدي الدرب منها إلى سمسرا تسمى ظيلة (Dsilé)،

يجري قربها نهر يبقى داخل البلاد. ونجد على مسافة قريبة من هذا المكان مقهى مقيل (Makil)، على بعد ٤/٣ الميل من عودة. وقطعنا من مقيل ٨/٧ الميل ووصلنا سمسرا التي تحمل اسم سنان (Sinnân) وتقع في سهل واسع، ويلزمنا ٤/٣ الميل لنبلغ نجداً وهو مكان مهجور تقريباً إلا في اليوم الذي يقام فيه السوق حيث يقصدها التجّار الصغار والعمّال فيجدون أكواخاً فارغة أو أماكن محاطة بسور منخفض. ونجد في الجوار قرية صغيرة تدعى مسعود (Messaud)، ثم سرنا في نجد ميلاً فوصلنا إلى سيّان (Seiyan) وهي قرية كبيرة، عدد من منازلها مهدم. ويأخذ أمراء عائلة الإمام حصة من مردود مسعود وسيان. ويبعد هذان المكانان عن بعضهما، أربعة أميال ونصف أو سبعة فراسخ، وفقاً لحساباتي، ولم نرَ على هذه الطريق سوى مجلس واحد أي خزان تسكب منه المياه للمسافرين.

وبما أن الأمطار لا تتساقط في هذه البلاد بغزارة كافية لترويها كلها، نجد في أماكن مختلفة خزانات كبيرة ورائعة من مختلف الأشكال بنيت على سفوح التلال. ويصعب جمع مياه الأمطار من الجبال والتلال في الأماكن المنبسطة، لذا نرى آباراً عظيمة وضعت في أعلاها أحياناً ست بكرات الواحدة جنب الأخرى. وتستخدم في رفع المياه بقوة الذراع لريّ الحقول، مما جعل الزراعة مضنية ومكلفة.

ولقد أملنا دخول صنعاء في ١٦ تموز/يوليو، وكنا قد اعتدنا على طريقة العرب بعدم ترتيب هندامنا، لكن أردنا الظهور بمظهر حسن في مكان إقامة الإمام، فارتدينا ثياباً كالأتراك. قبل مغادرتنا سيان، وهي ثياب أفضل من تلك التي نرتديها حالياً وإن لم تكن فخمة. واتجهنا نحو الشمال الغربي، فوصلنا قرية تدعى ابن عاد (Ibn Had)، ومررنا قرب أرض شيخ أو نبيل عربي، وبلغنا رامة (Rama)، وهي قرية تقع على مرتفع، على بعد ميل و٨/٥ الميل من سيان. ويؤدي الدرب من هذه القرية إلى سهل واقع في الشمال الغربي، ونجد في هذه المنطقة نهراً صغيراً، تحيط بضفتيه السهول الخصبة، لكنه لا يقطع مسافة طويلة، إذ يضيع في الرمال أو في الحقول، ويعلو هذا النهر جسر حجري. واجتزنا من رامة ٨/١ الميل لنصل إلى مقهى قرب قرية حدّ، حيث يملك الإمام منزلاً ريفياً، وحديقة تكثر فيها الدوالي، وأشجار البندق والمشمش والإجاص وغيرها. وتقع قرية دار سلم (Darshelm) قبالة حدّ (Hadde)، وتبعد عن أسوار صنعاء حوالي ميل و٤/١ الميل، وبالتالي تبعد سيان عن صنعاء ثلاثة أميال أو حوالي أربعة فراسخ و٤/١ الفرسخ.

وفي ذاك اليوم، أرسلنا باكراً أحد الخدم وحمّلناه رسالة موجهة إلى الفقيه أحمد، وهو وزير الإمام، نعلمه فيها بوصولنا، لكنه علم بالأمر مسبقاً وأوفد واحداً من أهم كتّابه يستقبلنا على بعد نصف ميل من المدينة. وأبلغنا هذا الموفد بأن الجميع بانتظارنا منذ فترة، وأن الإمام استأجر لنا منزلاً ريفياً في بئر القصب (Bir el Assab) لمدة شهر كامل، ولم يحمل لنا سوى أخبار حسنة. وعلمنا أن الفقيه يملك بيتاً للراحة في بئر القصب، ولما وصلنا إلى الحديقة، طلب منا الكاتب الترجل، فظننا أنه سيقودنا إلى الفقيه أحمد وأن

منزله في الجوار، لكن تبين لنا أنه بقي والخدم المسلمين على ظهور حميرهم، وأن مسافة طويلة تفصلنا عن المنزل الذي سنقيم فيه، واستقبلنا أسوأ استقبال في ذاك اليوم كما لم يحصل معنا قط من قبل في أية قرية يمنية. وكان يمكن أن نصادف في منزل ما، أناساً يوفرون لنا الماء والخبز، فيما لم نجد في منزلنا سوى غرف فارغة. وبما أننا كنّا نتوقع دخول عاصمة المملكة في ذاك اليوم، لم نتزود بالمؤن اللازمة، وانتظرنا طويلاً لنحصل على مرطبات من المدينة، وكنا نودّ أكل العنب. عدا ذلك، لم نقم منذ فترة طويلة في منزل نزه كذاك الذي خصصه لنا الإمام، ففيه شقق جميلة، وتحيط به حديقة غنّاء تكثر فيها الأشجار المثمرة التي تبدو وكأنها نمت من دون زراعة، وقد تمّ تنسيقها على الطراز العربي، فلا تجد فيها فيئاً أو ممرات.

وفي اليوم التالي لوصولنا إلى بئر القصب، أي في ١٧ تموز/يوليو صباحاً، أرسل لنا الإمام هدية، وهي خمسة خراف، وحمل ثلاثة جمال من الخشب، وكمية كبيرة من الشمع، والأرز، والتوابل المختلفة. واعتذر المكلّف بتقديم هذه الهدية منا، لأن الإمام غير قادر على استقبالنا في هذا اليوم وفي اليوم التالي لأنه مشغول بدفع أجور جنود حاشد وبكيل الخاضعين له. ولم يؤثر علينا هذا الخبر إذ لم نقصد صنعاء بهدف تقديم الطاعة للإمام بل لزيارة المدينة والمناطق المجاورة وللتعرف على أناس يعطوننا معلومات حول هذه البلاد. لكن فُرض علينا عدم الخروج من المنزل قبل مقابلة الإمام، وأثار هذا الأمر استياءنا، إذ لم نشأ تضييع الوقت، ولم نكن واثقين كل الثقة من أن الإمام سيدعونا بعد يومين.

ولم يعلمونا بأن استقبال شخص من أهالي البلاد، قبل مقابلة الإمام، مخالف لأصول اللياقة تجاهه؛ وكنا قد تعرّفنا من قبل على شخص من صنعاء وهو يهودي، سافر معنا من القاهرة إلى لحية. وبالرغم من أنه من أغنى عائلات اليهود وأهمها، رافقنا كخادم لتوفير مصاريف الرحلة من جهة، لأن يهود شبه الجزيرة العربية يعرفون قيمة المال كإخوانهم في أوروبا، وللسفر في حمايتنا بسهولة أكبر من جهة أخرى، لأن الأتراك، الذين يحجون من القاهرة إلى جدة، يحتقرون اليهود ويسيئون معاملتهم حين يصادفونهم. وحين علم هذا اليهودي بقدومنا، زارنا مع واحد من أكبر علماء الفلك عندهم، ليشرح لي الاسم العبري لبعض النجوم التي ذكرت في الكتب المقدسة (**وصف شبه الجزيرة العربية**). ووصل في الوقت نفسه كاتب الفقيه أحمد، فوقف اليهوديان لكنه لم يسرّ لرؤيتهما، واستاء من كونهما تجرآ ودخلا بيتنا قبل أن نقابل الإمام، وطردوهما من بيتنا كما كلّف خدمنا المسلمين بمنع دخول أي شخص كان قبل أن يرانا سيّده. وأثارت هذه الأعراف العربية استياءنا، لكن السفراء العرب لدى الملوك الأجانب يلتزمون بها، ولم يرضَ سفير باشا طرابلس بتوجيه الكلام إلى أحد عند دخوله كوبنهاغن قبل مقابلة وزير الدولة. ولعل الكاتب المذكور أعلاه ظن أن رفقة اليهود لا تسرّنا كما لا تسعده هو، وأنه أسدى لنا معروفاً بطردهم من منزلنا.

وفي ١٩ تموز/يوليو صباحاً، تمّ تبليغنا بأن الإمام سيستقبلنا، وقادنا كاتب الفقيه أحمد إلى قصر بستان المتوكل. وكنا نتوقع أن ندخل على الإمام بحضور بعض ضباطه ومسؤوليه، لكن فوجئنا بالتحضيرات الكثيرة. وكان فناء القصر يعجّ بالخيول، والمسؤولين، وغيرهم من العرب، وكان من الصعب علينا شق طريقنا وسط هذا الحشد، لو لم يصل النقيب خير الله (Nakib Gheir Allah)، وهو عبد سابق ومروّض لجياد الإمام حالياً، حاملاً عصا طويلة، ليفسح لنا المجال. أما مجلس الإمام فهو في قاعة مربّعة ومقببة، وتتوسطه بركة كبيرة، ترتفع مياه النوافير فيها حوالي ١٤ قدماً. ونجد وراء الحوض تعلية يبلغ طولها قدماً ونصف، وعرضها خمس إلى خمس أقدام فوق مستوى المجلس كله، ويليها إعلاء صغير يقوم قرب أدراج عرش الإمام مباشرة. ويغطي السجاد العجمي الأرض كلها، بما في ذلك محيط الحوض والعرش، ولم أرَ على العرش سوى أعلاء رباعي الزاوية مغطى بأقمشة حريرية، وضعت وسائد عريضة ومطرزة وراءه وعلى جانبيه. وتربع الإمام على عرشه بين الوسائد، على طريقة الشرقيين، وكان يرتدي ثوباً أخضر اللون، بأكمام واسعة وطويلة على الطراز العربي(*)، وعلّق على جانبي صدره، ككبار الأتراك، شبكة ذهبية كبيرة واعتمر عمامة بيضاء عريضة. وجلس أبناؤه إلى يمينه وإخوته إلى يساره، فيما جلس الفقيه أحمد قبالته، وبقينا على الإعلاء الأول، وبالتالي على مستوى منخفض بالنسبة للفقيه، وجلس على جانبي القاعة نفر من إخوة الإمام وأولاده وعند الباب عدد من وجهاء العرب، يلاصق أحدهم الآخر.

وقادونا مباشرة إلى الإمام، كيّ نقبّل ظهر يده اليمنى وراحتها، فضلاً عن طرف ثوبه، ويسمح الأمراء المسلمون بالأولى والأخيرة، وهي نعمة عظيمة حين يسمحون للأجانب بتقبيل راحة يدهم. وكان الصمت سائداً في القاعة، لكن ما إن لمس أحدنا يد الإمام حتى تلفظ أحد البشراء ببعض الكلمات التي تعني: «ليحفظ الله الإمام»، وما إن صمت حتى ردد الحضور كلماته بصوت عال. وبما أني كنت أول شخص في الوفد، وكنت أحاول التركيز للفظ إطرائي بلغة عربية صحيحة قدر المستطاع، وأخذت أفكر بهذا الحفل الباذخ الذي لم أرَ يوماً مثيلاً له في شبه الجزيرة العربية، ولم أتمكن من إخفاء اضطرابي من هذا الحشد الصاخب، لاسيّما حين أخذوا يصرخون عندما لمست يد الإمام، لكني عدت وتمالكت نفسي. وعندما هتفوا من جديد فيما كان رفاقي يقبّلون يد الإمام، تذكرت أن الأمر نفسه يحدث عندما يصرخ طلاّب الجامعات في ألمانيا «يعيش» إكراماً لشخص ما، ويرددونها مراراً.

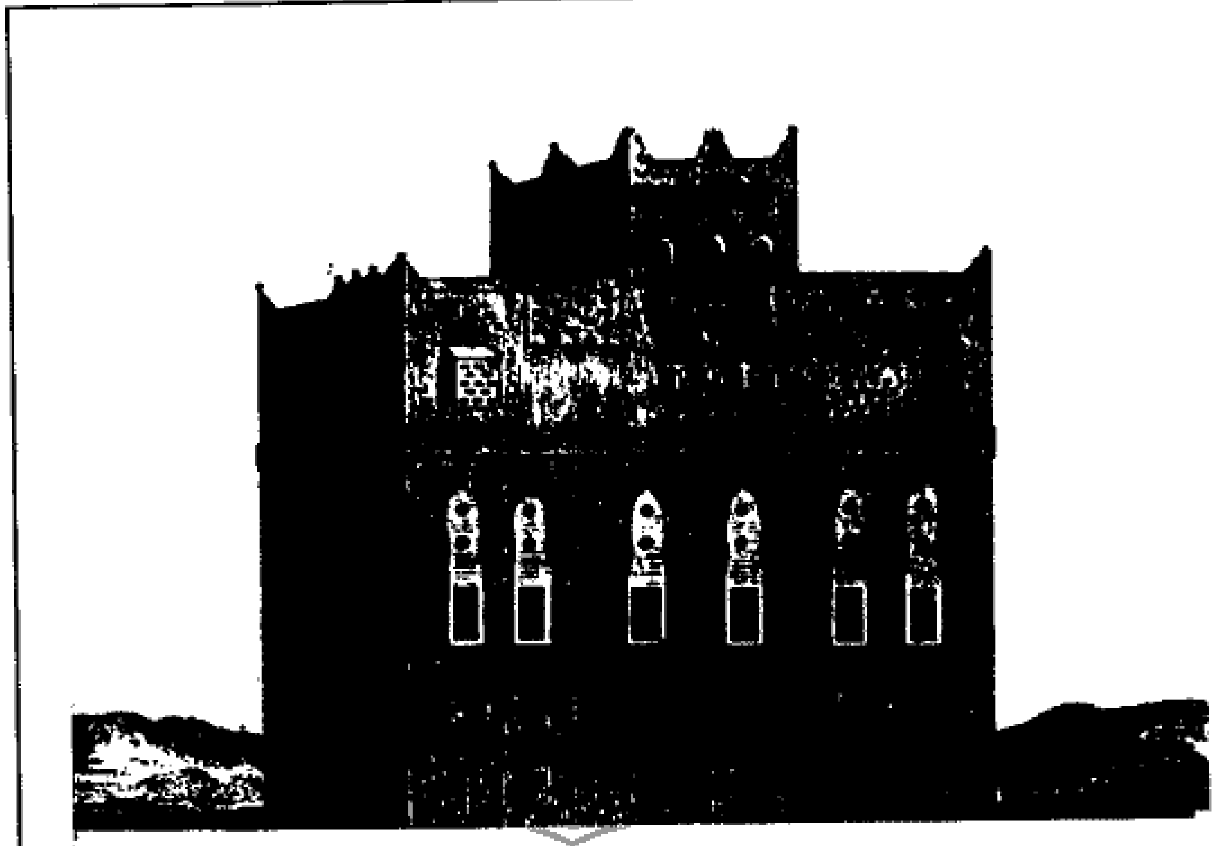
وتختلف لغة البلاط في صنعاء اختلافاً عظيماً عن لغة العامة في المناطق الجبلية، فضلاً عن تهامة، ولم نكن نتكلم إلا لهجة هذه البلاد الأخيرة وبركاكة، فاستعنا بخادمنا الذي اعتاد سوء لفظنا، وهو رجل من المخا، كناطق بلساننا، فيما ترجم الفقيه أحمد، الذي أقام طويلاً في تهامة وتعلّم اللغة العامية، كلام الإمام. ولم أتمكن من فهم الكثير من كلامهما، حين كانا يتحدثان معاً، وينطبق الأمر ذاته على خادمنا الذي ولد

(*) وهو لباس الخلفاء. راجعوا التاريخ العالمي الحديث للعصور الأخيرة، العدد III، ص ٦٩.

في المخا وبالتالي في هذه المملكة، والذي أكدّ لنا أنه لم يفهم الكثير من الإمام. وبما أننا لم نتمكن من التحدث مباشرة، إنما عن طريق غرباء، أوجزنا الحديث، ولم نرَ ضرورة لإعلامهم بأننا قطعنا هذه المسافات الطويلة، فأوضحنا للإمام أننا أبحرنا عبر الخليج العربي لأنه الطريق الأقصر للوصول إلى الهند من أوروبا. ولم ننسَ أن نذكر، أننا سمعنا الكثير من الإطراء والمديح حول الثقة والأمن المستتبين في الدول الخاضعة للإمام، فدفعتنا رغبتنا لرؤية هذه المملكة قبل رحيل آخر سفينة إنكليزية، كي نتمكن، بصفتنا شهود عيان، من الثناء على هذه البلاد. فردّ الإمام مرحّباً بنا في بلاده، ومنحنا حرية الإقامة فيها بقدر ما يحلو لنا أو بقدر ما تسمح به أعمالنا. وبعد أخذ ورد، استأذنا، بعد أن قبّلنا يد الإمام من جديد وسط الهتافات المعتادة، وقطعنا صالة طويلة ثم خرجنا من الباب دون أن نضيف أية إطراءات. ولقد حفرت هذه الجلسة على اللوحة (LXIX).

وعند عودتنا، أرسل لنا الإمام أحد عشر كيس نقود، واحد منها لخادمنا من المخا، الذي عمل كمترجم لنا، يحتوي على ٩٩ خماسي وهي قطع نقدية تبلغ قيمة كل ٣٢ منها درهماً واحداً. واحتفظ الصراف لنفسه بدرهم بالمئة، إما لأنها عادة في البلاد وإما إنه يفعل ذلك من دون علم الإمام. وقد تبدو هذه الهدية التي أرسلها الإمام بالعملة المحلية منافية للياقة، لكن إذا ما اعتبرنا أنّ ما من إنسان يمكن أن يعيش في هذه البلاد بالدين، أو في فندق، وأننا مضطرون لشراء حاجاتنا من السوق نقداً ولتحضير طعامنا بأنفسنا، تعتبر هذه الفعلة لطفاً منهم اتجاه الغرباء، كي لا يخدعهم الصرافون ولتجنيبهم هذا العناء. واحترنا في قبول أو عدم قبول هذه الهدية لاسيّما وأننا لم نشأ العيش على حساب العرب كي لا نعطيهم حجة ليتمنوا رحيلنا، لكن رفضها سيعتبر إهانة لذا قررنا الاحتفاظ بها.

ولا يقابل السلطان، في تركيا، شخصاً ما إن لم يكن الوزير قد رآه، لكن العادة مختلفة في اليمن فبعد أن نلنا شرف مقابلة الإمام في الصباح، أرسل الفقيه أحمد بطلبنا بعد الظهر إلى منزله الريفي في بئر القصب، وطلب منا إحضار الغرائب التي شاهدها معنا الأمير فرحان في لحية، وبعض أعيان العرب في المدن الأخرى. لكن هذه النوادر الجميلة لم تكن سوى المجاهر والمحراث، والمناظير، والكتب العربية المطبوعة، والألواح، وأدوات الرسم فضلاً عن الخرائط الجغرافية والهيدروغرافية، والإبر الممغنطة الخ والتي حملناها معنا لاستعمالنا الخاص، لكننا عرضناها لاحقاً عن طريق الإمام. وتبينت أن خوفي هذا لم يكن مستنداً إلى أيّ أساس منطقي، لأن الفقيه استقبلنا بتهذيب وأدب بالغين، وأعرب عن إعجابه بما عرضناه أمامه، وطرح علينا بعض الأسئلة التي دلّت على اطلاعه على العلوم أكثر من أبناء بلاده الآخرين، وعلى كثرة تعامله مع الأجانب من أتراك وفرس وهنود، مما مكنه من جمع معلومات واسعة حول الجغرافيا. ويظن معظم العرب أن أوروبا تقع إلى الجنوب من بلادهم، لأن السفن الأوروبية التي ترسو في مرافئهم تأتي من المناطق الجنوبية، لكن الفقيه أحمد يعرف موقع دول أوروبا كافة، ويعرف الدول الأقوى براً







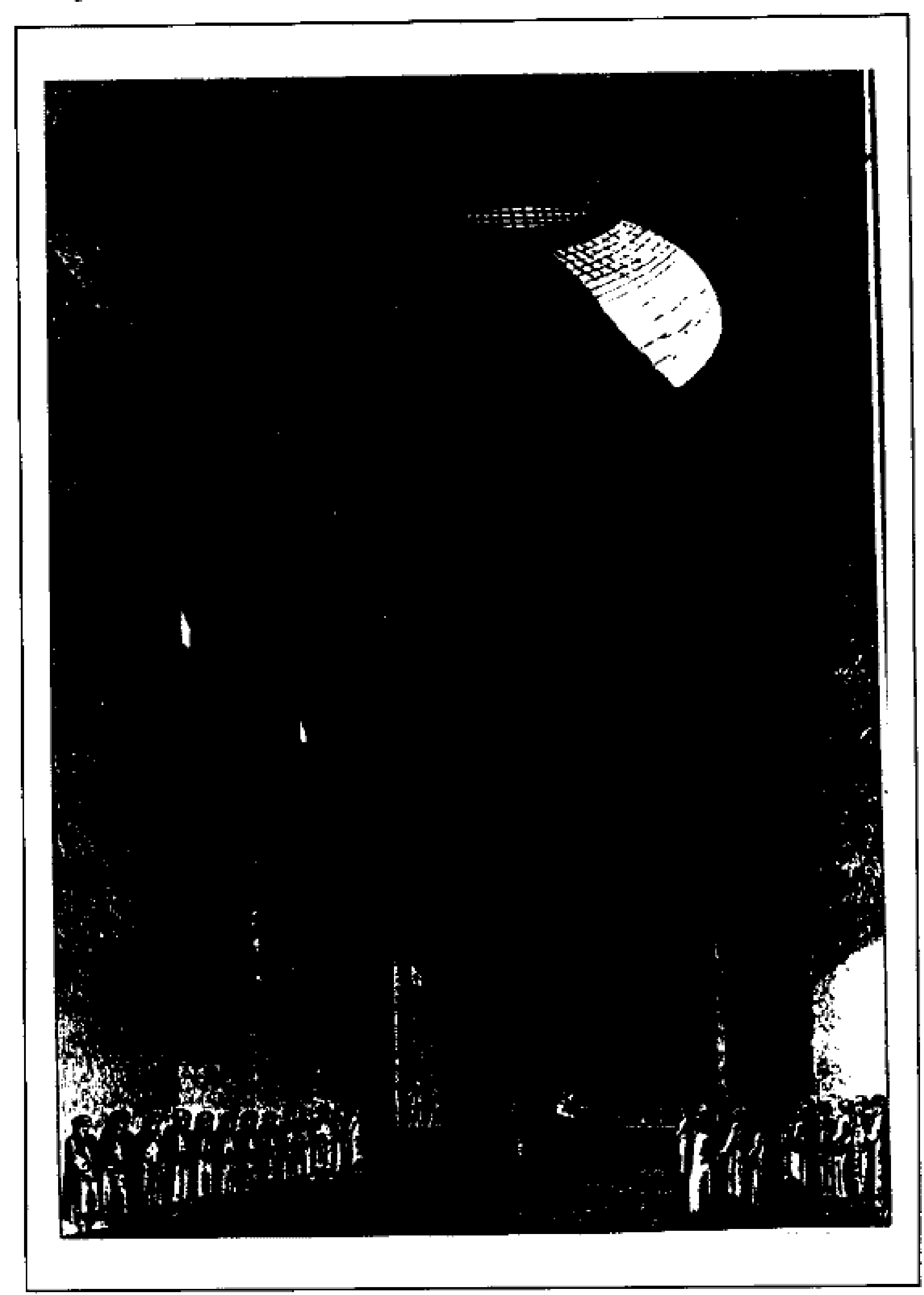
وبحراً. وهل يمكن أن نتوقع أكثر من ذلك من عالم في شبه الجزيرة العربية، لم يرَ يوماً خرائط جغرافية؟

وللرد على اللطف الذي أحاطونا به، والهدايا الصغيرة التي تلقيناها، ولأننا قرأنا في كتب عدة أن ما من أوروبي يتجرأ على مقابلة أحد أعيان العرب من دون أن يحمل له هدية، قررنا أن نستغل هذه الفرصة لنقدّم هدية للإمام وللفقيه، وهي عبارة عن قطع ميكانيكية أوروبية كالساعات وأدوات الفيزياء وغيرها، وهي أشياء تندر في اليمن. وعرفنا لاحقاً أنهما لم ينتظرا منا هدية لأننا لسنا تجاراً، ولا نطلب أية حظوة من الإمام وإنما من المفترض أن نسافر كالدراويش، لكن الهدية لاقت إعجابهما. يعتبر الأتراك هدية الأوروبيين لهم، إن لم أكن مخطئاً، ضريبة يدفعونها، ويظنون أنهم يظهرون لنا شرفاً عظيماً حين يقدمون لنا قفطاناً مقابل هدية مميزة. ونستنتج من المعاملة المميزة التي تلقيناها في صنعاء أن الإمام ووزيره لا يريدان أية هدية مجانية من الغرباء.

تكثر الأشجار المثمرة في حديقة الفقيه أحمد، ولم يكن بيته كبيراً جداً، إنما لاحظت أنه مفتوح كلياً من جهة الجنوب، في حين أن الشمس في هذه المنطقة تتواجد في أشهر القيظ إلى شمال سمتها. ونجد في الوسط، قبالة المبنى حوض ماء كذلك الذي رأيناه عند الإمام، وترتفع المياه فيه أعلى من مياه قناة آب. كما نجد قرب البئر حائطاً يبلغ ارتفاعه ٢٠ إلى ٣٠ قدماً، يخفي وراءه أرضاً يبلغ انحدارها ٣٠ إلى ٣٦ درجة، يتحرك فيها مكاري وحماره نزولاً وصعوداً لإخراج المياه. ولا تضفي هذه النوافير جمالاً على الحديقة، إنما تساعد في ترطيب جو المنزل وتبريده، وهي نعمة في بلد حار كهذا. ورأينا في حدائق أعيان صنعاء نوافير كهذه أيضاً.

وتقع مدينة صنعاء على خط عرض ١٥ °، ٢١ َ ، وعلى سفح جبل يحمل اسم نقوم (Nikkum) أو لقوم (Lakkum)، نرى عليه بقايا قصر قديم، بناه سام، على حدّ اعتقاد العرب، ويجري في جهة أخرى، أي في غرب المدينة، جدول صغير. ونجد من جهة الجبل القصر الواقع، بحسب ما أكدوا لي، على تلة خمدان (Chomdâm) الشهيرة، ويمتد إلى جانب النهر بستان المتوكل، وهو حديقة فسيحة، أو على الأصح ضاحية بناها الإمام المتوكل، وزينها الإمام الحالي بقصر بناه فيها. ويحيط بالكل حائط واحد، أو بالأحرى، حاجز من تراب، مغطى بالصلصال، ويعلو فوقه عدد من الأبراج الصغيرة يبعد الواحد منها عن الآخر ٦٠ قدماً. وتفصل الأسوار المدينة عن القصر من جهة وعن بستان المتوكل من الجهة الأخرى. ولا تعتبر مساحة المدينة والقصر، إذا ما استثنينا بستان المتوكل، شاسعة، ويمكننا زيارتها بساعة وثماني دقائق.

وأردت رسم خارطة المدينة بدقة، لكن حين كنت أتجول في الشوارع، كانت الحشود تحيط بي، تدفعها إلى ذلك حشريتها، وتسير معي كيفما تحركت، فرأيت أنه من الأفضل، في ظروف كهذه، عدم استعمال البوصلة لكنني رسمت خارطتها على اللوحة (LXX). وللمدينة أربعة أبـواب هي: ١) باب اليمين (El Yemen) ٢) باب السبع (Bâb es Sebbá) ٣) باب شعيب (Bâb Schaûb) ٤) باب الستران



(Bâb es Strân). ولم يفتح الباب الأخير والذي يؤدي إلى القصر منذ سنوات عدة، كما نجد أيضاً ثلاثة أبواب صغيرة أخرى هي ٥) باب الشرارة (Bâb Schărâra) ٦) باب الحديد (Bâb Hadid) ٧) باب الصغير (Bâb Sogair)(*). يبدو أن عدد السكان في صنعاء مرتفع، كما نجد فيها عدداً كبيراً من الحدائق وبالتالي قد لا يكون حرم المدينة مبنياً بالكامل. ولم ألاحظ سوى تسع إلى عشر مآذن تعلو المساجد، ويقوم الجامع أو الجامع الرئيس في وسط المدينة تقريباً وتعلوه مئذنتان. أما المساجد الأخرى فبمئذنة واحدة وتحمل الأسماء التالية: المدرسة (El Mădrasse)، صلاح الدين (Salech eddin)، الطعس (El Thaâs)، والبكيري (El Bekirie)، فضلاً عن مسجد القصر. وقد بنى بعض هذه المساجد باشاوات أتراك، كما شيّد الإمام الحاكم حالياً مسجداً جميلاً، وجرّ إليه الماء للرجال والحيوانات، وبنى إلى جانبه ضريحاً صغيراً لرفاته. ولا يتعدى عدد الحمامات الكبيرة الاثني عشر حمّاماً، لكن نجد فيها قصوراً رائعة بنيت على الطراز العربي ومنها: بستان السلطان، ودار الفتح التي شيّدها الإمام الحالي. ونجد بالقرب منها قصر الإمام المنصور، وأبنية عظيمة أخرى تملكها عائلة الإمام الكبيرة وأعيان آخرون. إن القصور العربية لا تبنى بما يتلاءم والذوق الأوروبي، لكنها مبنية من الآجر المشوي وبعضها من الحجر فيما تبنى بيوت العامة في صنعاء من الصلصال(**). وأظن أني لم أرَ زجاجاً في فتحات النوافذ إلاّ في قصر واحد، أما نوافذ المنازل الأخرى فمزودة بمصراعين يبقيان مفتوحين في أيام الصحو ومغلقين أثناء موسم المطر، ويدخل النور إلى المنازل عبر نوافذ صغيرة مستديرة تعلو المصراعين. ونجد في منازل أعيان العرب زجاجاً مرسوماً عليه، يستقدمونه من البندقية.

ونجد في صنعاء، كما في كافة المدن الكبرى التجارية في الشرق، نزلاً للتجّار والمسافرين، فضلاً عن ساحات خاصة أو أسواق يباع فيها الخشب، والفحم، والحديد، والعنب، والقمح، والزبدة، والملح والخبز. ولا نرى في سوق الخبز سوى النساء، كما نجد في صنعاء سوقاً حيث يمكنك أن تستبدل بثيابك القديمة ثياباً جديدة. ويملك البضائع تجار من الهند وبلاد فارس وتركيا، فضلاً عن أولئك الذين يبيعون التوابل على أنواعها، والأدوية، والذين يبيعون أوراق القات (Kăâd)، والفواكه المجففة أو الطازجة من إجاص ومشمش ودراق وتين الخ، والنجارون، والحدادون، والإسكافيون، والخياطون، وصانعو السُرُج والحجّارون، والصاغة، والحلاقون، والطباخون، ومجلدو الكتب، وحتى الكتّاب الذين يخطون عريضة للإمام لقاء بضعة قروش أو لبعض الأعيان، فضلاً عن أنهم يعلمون الأولاد وينقلون الكتب، أماكنهم

(*) أعطاني الدليل هذه الأسماء بينما كنت أتنزه في المدينة. وذكر آخر ٨ أبواب، وأطلق على الأبواب الستة الأولى الأسماء نفسها، لكن بدل باب الصغير ذكر اسم باب النصر وباب عتابة (Bâb Intaba). رُسمت شوارع هذه الخارطة اعتباطياً.

(**) لم أتمكن من رسم القصور المذكورة أعلاه، لكني وجدت بين أوراق السيد بورنفايند رسماً لمنزل مميز في بئر القصب، يمكننا رؤيته في منزلنا. ويمكن رؤيته على اللوحة (LXVIII). وانطلاقاً من هذا الرسم يمكن أن نكوّن فكرة عن فن العمارة العربي في اليمن.

المحددة في محالهم الصغيرة المحمولة. أما خشب البناء فمرتفع الثمن في اليمن ولا يقل خشب التدفئة عنه غلاء في صنعاء لأن الجبال جرداء، فيتطلب نقل خشب التدفئة يومين إلى ثلاثة أيام ليصل إلى المدينة، وتبلغ كلفة حمل الجمل الواحد عادة درهمين، لكن يتم التعويض عن نقص الخشب بالفحم الحجري. ورأيت الكثير من الخثّ في تلك البلاد، لكنه سيىء للغاية فيضطرون إلى خلطه بالقش ليؤججوا النار فيه. وتكثر الفواكه في صنعاء، إذ نجد في أسواقها أكثر من عشرين صنفاً من العنب، وبما أنها لا تنضج في وقت واحد، يمكننا أن نشتري عنباً جديداً خلال أشهر عدة من السنة، كما يقوم بعض العرب وبعض الأتراك في الأناضول بتعليق عناقيد العنب في سقوف الأقبية، فتتوفر هذه الفاكهة اللذيذة على مدار السنة. ويعصر يهود المنطقة العنب لصنع النبيذ، ويمكنهم الحصول على كميات ضخمة فيجعلون منها بالتالي تجارة مربحة شأنهم في ذلك شأن أرمن شيراز. لكن يبدو أن العرب كالفرس يكرهون المشروبات القوية، فيضطر اليهود إلى اتخاذ إجراءات عدة عندما يريدون تزويد البعض بالمشروبات في المدن الأخرى، إذ يعاقبون بشدة إذا ما تمّ العثور على النبيذ بحوزتهم وهم ينقلونه إلى أحد العرب. ويتم تجفيف الكثير من العنب لتصديره، ومن بينها عناقيد عنب بيضاء تبدو وكأنها من دون بزور، لكن نجد في داخلها بدل البزر القاسي حبوباً طرية لا نحس بها أثناء الأكل إنما يمكن رؤيتها عند قطع حبة العنب.

ويقع قصر صنعاء كما ذكرت سابقاً على تلة حمدان التي اشتهرت في الماضي، وينقسم إلى جناحين يحملان اسم دار الذهب ودار عمر. ورأيت الكثير من بقايا الأبنية القديمة، لكني لم أكتشف أية كتابات كوفية وبالتالي حميرية، لأن البيوت القديمة في صنعاء، كما في المدن القديمة الأخرى التي سكنت دوماً، هدمت ليبنى مكانها بيوت جديدة. ويقيم الإمام عادة في المدينة، لكن بعض أفراد عائلته يعيشون في القصر. ويضم القصر المبنى الذي تسكّ فيه الأموال، وسجون مختلفة، كبيرة وصغيرة للأعيان أو للعامة، ولم يسمحوا لي برؤية أعلى مكان في القصر، أي مركز المدفعية، وكأنه أمر فريد للغاية، ورأيت بالفعل شيئاً لافتاً وهو مدفع هاون ألماني قديم، كتبت فوقه بعض السطور، وهي كتابات رهبانية محاها الزمن تقريباً. ورأيت في هذا المركز ستة إلى سبعة مدافع حديدية صغيرة، ثبت أكبرها في الرمل، والأخريات على ركائز مكسورة. ويعلو كل من الأبواب الثلاثة أي باب اليمن، وباب السبع، وباب شعيب مدفعان يستخدمان في المناسبات الكبرى. وتقتصر المدفعية الثقيلة في عاصمة اليمن على الأسلحة التي ذكرتها آنفاً.

وتقع بئر القصب إلى الشرق من صنعاء، وهي قرية أو ضاحية، فيها مسجد كبير تزيّنه مئذنة، وتتوزع بيوتها في الجنائن قرب جدول صغير. ويمتد في الشمال على بعد فرسخ ونصف أو فرسخين من صنعاء، سهل يحمل اسم روضة (Rodda) تحيط به الحدائق وتجري فيه جداول صغيرة. ويشبه موقع هذا المكان موقع مدينة دمشق، في حين أن صنعاء التي شبّهها المؤرخون العرب بدمشق تقع على ربوة قاحلة جرداء جزئياً. وبعد موسم أمطار طويل، يجري جدول صغير آتياً من تنام (Tanaim)، ويمرّ في المدينة، ليكمل طريقه إلى الشمال نحو بلاد جوف، لكنه كان جافاً كلياً حين كنا في صنعاء. ونجد أقنية مياه، تمتد من

جبل نقوم (Nikkum)، وتتوزع على المدينة وعلى القصر، فلا تشح المياه في أي فصل من فصول السنة، فالمياه رفاهية تحاول مدن الشرق كلها الحصول عليها، إما لأن المياه مشروب المسلمين الرئيسي، وإما لأن المؤمنين بهذه الديانة مجبرون على الاغتسال غالباً.

ولا يبقى اليهود في مدينة صنعاء، إنما يعيشون في قرية كبيرة خاصة بهم تسمى قاع اليهود (Kda el Ihûd)، وتقع قرب بئر القصب، ويبلغ عددهم ٢٠٠٠ يهودي. ويُعامل اليهود في اليمن باحتقار كما في تركيا، لكنهم أمهر الصاغة والفخارين والعمّال يقصدون المدينة ليعملوا أثناء النهار في محالهم الصغيرة ويغادروها عند المساء إلى منازلهم. ونجد بين اليهود عدداً من التجار الأثرياء، ومنهم رجل يدعى أراكي (Oräki) كسب ثقة الإمامين، وشغل منصب المفتش الأول للجمارك، والأبنية والحدائق لمدة ثلاثة عشر عاماً أثناء حكم المنصور ولمدة خمسة عشر عاماً أثناء حكم الإمام الحالي، وهو مركز مهم للغاية في صنعاء. لكن قبل وصولنا بسنتين، غضب عليه الإمام الحالي، فسجن وأجبر على دفع غرامة بلغت قيمتها ٥٠٠٠٠ درهم، وفقاً لما يقوله اليهود، وفي الوقت نفسه، تمّ هدم اثنا عشر معبداً من المعابد الأربعة عشر التي يملكونها. وكان في هذه القرية منازل جميلة كمنازل الأعيان المسلمين في صنعاء، لكنهم هدموا تلكم التي يتعدى ارتفاعها ١٤ ذراعاً، ومنعوا أي يهودي من بناء منزله بارتفاع يتجاوز الأربعة عشر ذراعاً. وبما أن المشروبات الروحية تحفظ هنا، كما في شيراز في بلاد فارس، داخل جرار كبيرة من الفخار، قاموا بكسر الجرار مسببين لهم المزيد من الأضرار. وأطلق سراح المدعو أراكي قبل وصولنا بخمسة عشر يوماً، وقدّم له الإمام، استناداً إلى أقوال اليهود، ٥٠٠ درهماً. وهو رجل عجوز، يملك معارف واسعة، ويرتدي ثياباً زرقاء اللون ككافة يهود اليمن، ولا يلفّ قلنسوته بأي شاش أو عمامة، وأكدوا لي أنه يفضل تغيير طريقة لباسه بالرغم من أن الإمام سمح له بذلك. وخصّني بصداقته، بعد أن روى له أحد خدمنا الذي رافقنا من القاهرة إلى مخية، وهو من أقاربه، الكثير عنا، وكان قد خرج لتوه من السجن فلم أجرؤ على زيارته مراراً كما كنت أتمنى.

ويعيش في صنعاء حوالي ١٢٥ بانيانياً، ويضطرون لدفع ٣٠٠ درهم للإمام شهرياً، في حين لا تدفع قرية قاع اليهود سوى ١٢٥ درهماً. عندما يموت أيّ بانياني في صنعاء، يدفع ورثته للإمام ١٠ إلى ١٥ درهماً نقداً، وإن لم يكن للفقيد أقرباء في اليمن، تعود تركته كلها للإمام. ويروي البانيانيون أن اثنين من أبناء دينهم، زجّا في السجن، منذ بضعة أشهر، فدفعا للإمام ١٥٠٠ درهم من تركة ورثاها في الهند ولم يقبضاها بعد، كي يطلق سراحهما. ولعل الإمام طلب هذا المبلغ لسبب آخر لم يرد البانيان الاعتراف به، لئلا يقروا بذنب اقترفوه. وهذا أمر موجود في تلك البلاد كما هو موجود في أوروبا.

يزور سلطان القسطنطينية المسجد أيام الجمعة عندما تسمح له صحته بذلك فيتبع إمام صنعاء هذه العادة الدينية أيضاً فيقصد المسجد في موكب بهيّ، لكننا لم نره إلا في طريق العودة، إذ وصف لنا

بطريقة غريبة لأنه يسلك الدرب الطويل، وينضم للموكب عدد كبير من الذين أدّوا واجباتهم الدينية في المساجد الأخرى. ولقد غادر الإمام الجامع الرئيس بعد أن أدّى الصلاة في ذاك اليوم (٢٢ تموز/يوليو)، وتوجه عبر باب اليمن إلى باب شرارة (Schärâra) ومنه إلى خارج المدينة. ويسبق الإمام بضع مئات من الجند، ويحمل الخدم إلى جانب الإمام وكل أمير من عائلته مظلة أو شمسية كبيرة، وهي مزيّة لا تحقّ إلا للأمراء الأقحاح، لذا لا يسمح السلطان في القسطنطينية إلا لوزيره بالحصول على نوع من الجندول المغطى من الأمام لاتقاء حرارة الشمس. ويقال إن الأمراء المستقلين في أقاليم اليمن الأخرى كمشايخ يافع وحاشد وبكيل، وشريف أبي عريش وغيرهم، يخصصون خدماً لحمل هذه المظلة (Madâlla) كدليل على استقلالهم. ويتبع الإمام، فضلاً عن الأمراء، حوالي ٦٠٠ رجل من الأعيان، من رجال دين وعلماء، وعسكريين، يمتطي بعض منهم جياداً رائعة، ويرافق عدد من الشعب الإمام سيراً على الأقدام. ويسير إلى جنب الإمام حملة الأعلام من الجهتين، لكنها أعلام مختلفة عن تلك التي نراها في بلادنا أو تعلوها مجمرة عطور صغيرة من الفضة، ويقال إنها تحمل تعويذات تجعل الإمام لا يقهر. وينتشر حملة البيارق مع مجمرات ضمن المسيرة لكن لا يبدو أن لها مكاناً محدداً؛ باختصار كانت المسيرة ضخمة ورائعة جزئياً، لكنها غير منظمة بحسب ما بدا لي، إذ يركض البعض، ويمتطي البعض الآخر الجياد، ويتداخلون من دون مراعاة أي نظام. وعلى مقربة من باب شرارة، وقفت جمال، تحمل هوادج فيها بعض نساء الإمام اللواتي يشاركن بالمسيرة لكن يقال إنها كانت فارغة وأنها نقلت إلى خارج المدينة كي لا يخالفوا العادة، ويتبع هذه الجمال بعض الإبل غير المحملة، لا يحمل الواحد منها على سرجه سوى أعلام للزينة وأطلق الجنود عيارات نارية عند باب خرارة بارتباك لم أشهد له مثيلاً في اليمن. وبما أني كنت مريضاً، لم أشأ التعرض لأشعة الشمس وأنا أتجول هنا وهناك، فعدت على أعقابي إلى بئر القصب. وأجرى الجنود بعض العروض العسكرية أمام منزل الإمام، وأظهر مسؤولوهم براعة في السباق، ولم يجد السيد كرامر، الذي حضر الاستعراض، الجنود أبرع من أولئك الذين شاهدناهم مراراً في الأقاليم، ويكون ذلك عند عودة صاحب الدولة من المسجد. وتقفل أبواب المدينة كلها أثناء الصلاة ـ على ما يبدو ـ للسبب نفسه الذي يدفع الأوروبيين لإقفال مدنهم خلال الوعظ، وليس خوفاً، كما قرأته في بعض الروايات، من أن يفاجئهم المسيحيون نهار الجمعة كما تقول نبوءة مزعومة.

واستقبلنا في صنعاء بلياقة وصداقة لم نكن نتوقعهما، وأراد بعض الأعيان إقناعنا بالبقاء لعام آخر في اليمن، وبعدم الإبحار مع السفن الإنكليزية. ولم نكن لنخشى شيئاً من الشعب لو قررنا اتباع هذه النصيحة، لكن بما أن الموت حرمنا من الأستاذين ولم نعد نأمل باكتشافات جديدة حول اللغة والتاريخ الطبيعي للبلاد، وبما أنني رأيت القسم الأكبر من مدن هذه المملكة المهمة ووضعت مشروع خارطة جديدة خاصة باليمن، وبما أننا عرفنا سمات البخل عند الإمام الحالي، وبعد أن تعرضنا لمشاكل عدة مع صاحب دولة تعز والمخا، ـ ولو أننا لم نعد نخشى هذه الأمور ـ وبعد الصعوبات الدائمة التي واجهناها،

وتغييرات الطقس والماء التي تعرضنا لها في الجبال والسهول، فمرضنا الواحد تلو الآخر، فررنا التوجه إلى المخا ومنها إلى الهند حفاظاً على أرواحنا وأوراقنا. وحصلنا على إذن مغادرة صنعاء ساعة نشاء، لكن كان ينبغي أن نستأذن وفقاً للأصول وأن نعرض على الإمام في الوقت نفسه ما شاهده الفقيه أحمد سابقاً مما أخّر سفرنا لأيام عدة.

وأُرسل بطلبنا للمرة الثانية في ٢٣ تموز/يوليو، واقتدنا إلى القاعة نفسها في بستان المتوكل حيث قابلنا الإمام في المرة السابقة. لكن الأمور حصلت في صمت تام ذاك اليوم، وجلس الإمام على الارتفاع الأول، لا أمام العرض، إنما في إحدى جهات القاعة على كرسي أوروبي، صنعه هندي من القصب في صنعاء. وقبلّنا راحة يده وظهرها، وفقاً لعادات العرب، فضلاً عن انحناء على مستوى الركبة، ولم يكن حاضراً سوى الفقيه أحمد والكاتب الذي أحضرنا وستة إلى سبعة عبيد وخدم. ولم يسمح لأي من خدمنا بالدخول، لأن الفقيه أحمد اعتبر أنني قادر على التكلم بالعربية. وبدا أن ما عرضناه على الإمام أثار إعجابه، وطرح علينا أسئلة حول التجارة والفنون والعلوم في أوروبا، وتمّ إحضار علبة مليئة بالأدوية قدمها إنكليزي للإمام فشرح السيد كرامر اسم كل دواء وكيفية استعماله وأمر الإمام بكتابة ما ذكره الطبيب بالعربية.

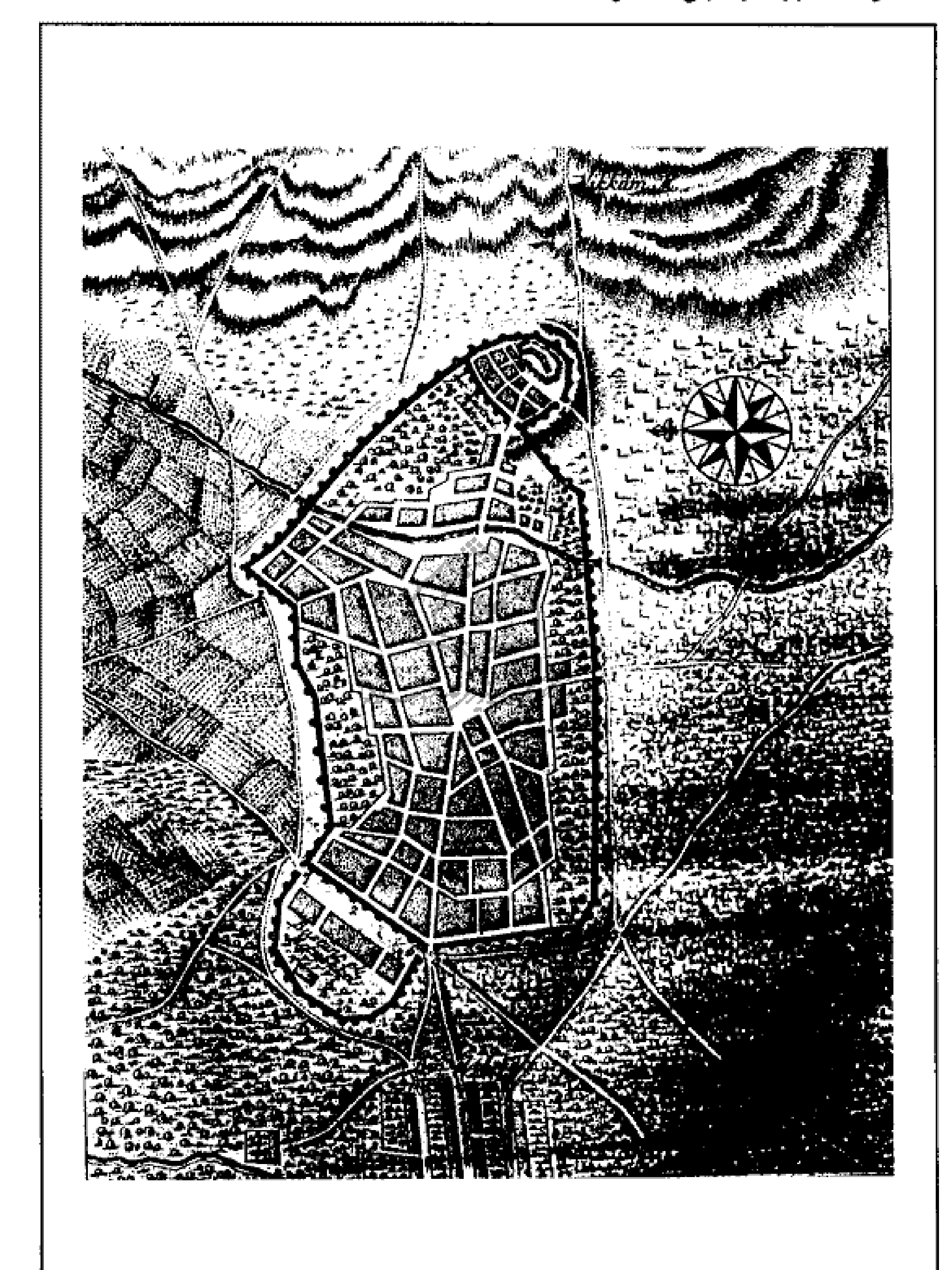
وغادرت المنزل مريضاً، وازدادت حالي سوءاً من الوقوف طويلاً، فطلبت الإذن للخروج من القاعة، ووجدت أمام الباب عدداً من ضباط البلاط، يجلسون على حجارة في الفيء ومن بينهم النقيب خير الله الذي تحدثت معه في السابق مرات عدة. وترك لي هذا الأخير مكانه وأخذ يحمل بعض الحجارة لبناء مقعد آخر لنفسه، وطرحوا عليّ العديد من الأسئلة حول عادات الأوروبيين وتقاليدهم ومن بينها عادة شرب الكحول التي لم ترق لهم. لكن حين أكدت لهم أن السُكْر ممنوع على المسيحيين أيضاً، وأنهم يعاقبون على ذلك، وأن ما من أوروبي عاقل يشرب أكثر مما تسمح به صحته، أغضبتهم هذه العادة أكثر من قوانينهم التي تمنعهم من شرب الكحول نهائياً في حين أنها تكثر في بلادهم، وأنهم يشربونها أحياناً كعلاج. وعدتُ إلى القاعة، واستأذنا من الإمام بالطريقة نفسها التي دخلنا بها عليه، بعد أن شرح له السيد كرامر كيفية استعمال الأدوية وأجبنا على أسئلة عدة. وبعد الظهر، ودعنا الفقيه أحمد وبعض الأعيان.

إن لسلوك الدرب الذي يمرّ عبر يريم وتعز، في طريق العودة من صنعاء إلى المخا، سبباً وجيهاً ومهماً وهو نسخ كتابات حراتة وجعفر التي أعتقد أنها كتابات حميرية، لكن بما أن الهدف الأول للرحلة ليس البحث عن الآثار، وبما أنني لا أجد عادة سوى بقايا غير مهمة حيث يعلمني العرب بوجود آثار شهيرة وكتابات غريبة، اخترنا أن نسلك الدرب الذي يمر في موفاق (Möfhåk) وفي بيت الفقيه. وباختياري هذا الطريق، سأتمكن من تحسين خرائطي عن اليمن، وسنتمكن من رؤية تهامة في فصل آخر من السنة أي في موسم الأمطار. ولم يكتف الفقيه أحمد، الذي عرضنا له صراحة أننا نفضل الوصول إلى بيت الفقيه عبر طريق لم نسلكها من قبل، بإعطائنا حرية اختيار طريقنا، بل وعدنا بأنّ يؤمّن لنا الإمام الحمير والجمال.

ثم في ٢٥ تموز/يوليو، أرسل الإمام لكل منا لباساً عربياً كاملاً، أي قميصاً وسروالاً، فضلاً عن رسالة موجهة إلى صاحب الدولة في المخا كي يدفع لنا مئتي درهم نقداً كهدية وداع. وخشينا أن يظن الإمام أننا، وفقاً لعادة رائجة بين الأتراك، لم نقصد صنعاء سوى لكسب المال لرحلتنا، أو أننا قدمنا له الهدايا ليرد لنا الصاع صاعين. لكن حين نتذكر المشاكل التي تعرضنا لها عند وصولنا إلى المخا، وأننا اضطررنا إلى دفع ٣٠ دوكا من البندقية لإخلاء سبيلنا، اهتممنا بهذه الحوالة التي ما إن أعطيناها لاحقاً لصاحب الدولة حتى أرسلنا إلى صرافه، وهو بانياني، فدفع لنا المبلغ كاملاً عن غير طيب خاطر.

وبالكاد صدّقنا الفقيه أحمد حين قال لنا إن الإمام سيهتم بأمر تحضير الحمير والجمال لرحلتنا، وخشينا أن تنطلق آخر سفينة إنكليزية قبل وصولنا، لذا أردنا استئجار الدواب بأنفسنا، على أمل أن يسرّع ذلك بعودتنا إلى المخا. وتحدثنا مع كاتب الفقيه أحمد الذي شرح لنا كلام سيده، وأعلمنا بأن الإمام سيتكفل فقط بنقل أغراضنا على حسابه الخاص، وبالتالي استأجرنا حميراً لنا ولخدمنا، ولم نكن واثقين من أننا سنجد جمالاً أخرى في موفاق، فاتفقنا مع الذي أجّرنا الجمال على أن ينقل أغراضنا إلى بيت الفقيه. واعتقدنا أننا جاهزون للانطلاق في ٢٦ تموز/يوليو، لكن في ذاك اليوم، وعند الصباح، أعلمنا الكاتب المذكور آنفاً أنه يتوجب علينا دفع نصف درهم إضافي عن كل جمل للوصول إلى بيت الفقيه، فوافقنا على أمل ألا تتأجل الرحلة. ووصلت جمالنا، لكنها لم تكن بحالة جيدة، فشككنا في أن تصل ومتاعنا إلى بيت الفقيه، وقال لنا الجمّالون، الذين يجهلون أمر الصفقات المعقودة بين الكاتب وصاحب عملهم، إنهم سيعودون مع جمالهم من موفاق. وهكذا، وقعنا في ورطة جديدة، ولم يكن بإمكاننا تحميل أغراضنا قبل التحدث إلى الكاتب ومؤجر الجمال أو بالتالي رئيس البريد عند العرب، لكن لم نجد أيّاً منهما. وبالرغم من أننا نكره إزعاج الفقيه أحمد الكريم، اضطررنا إلى عرض حالتنا عليه واكتشفنا الخدعة، فقد أعطى الفقيه كاتبه رسالة مفتوحة موقعة من الإمام في أعلاها لا في أسفلها، يؤمّن لنا بموجبها في كل أقليم نمرّ فيه، جمالاً أبدالاً ورأس غنم (على حد تعبير العرب)(*). كما تلقى الكاتب لبعثتنا بعض الهدايا التي لم يأتِ على ذكرها، وبما أننا كنا على عجلة من أمرنا، لم نتمكّن على الأرجح من الاتفاق بسرعة مع صاحب الإبل حول تقسيم الأموال المخصصة لدفع بدل الإيجار. لكن في أثناء ذلك، طلب من الكاتب عدم تأخيرنا، وهكذا أحضر لنا رسالة الإمام المذكورة، وبعض الأقمشة لخدمنا العديدين، أما الثياب المخصصة لنا فوعدنا بتسليمها في غضون ساعات قليلة، لكننا فضّلنا الرحيل فوراً لبلوغ المخا بسرعة. إذاً، احتفظ الكاتب على الأرجح بهذه الهدايا الأخيرة التي تعود لنا، فضلاً عن المال المخصص لاستئجار حميرنا.

(*) وصف شبه الجزيرة العربية، اللوحة XIV.





ويشبه اللباس الذي تلقيته من الإمام لباس أعيان العرب في اليمن، وقد رسمنا طريقة لباسهم على اللوحة (LXXI). يرتدي العرب القميص فوق سروال واسع، ثم يلبسون سترة أكمامها ضيقة وفوقها معطف واسع (عباءة)، ويضعون في زنارهم خنجراً. وظنّ بعض أصدقائي الأوروبيين الذين رأوا هذا الخنجر، أن العرب يستخدمون هذا السلاح كما يستعمل البحارة سكاكينهم، لكني رسمت استعمالاته على اللوحة المذكورة أعلاه. أما السلسلة التي تدلت من الخنجر فليست سوى سبحة يستخدمها المسلمون أثناء صلاتهم، كما يستعملونها للتسلية في أوقات الفراغ. ويعتمر سكان اليمن عمامة عريضة للغاية، تتدلى من الخلف ما بين أكتافهم، كما ذكرت سابقاً في **وصف شبه الجزيرة العربية**، ولا يرتدون الجوارب إنما ينتعلون الحذاء أو الخفّ مباشرة.

ويبدو أن الأتراك يعرفون ـ أفضل منا ـ كيف يستغلون سخاء الإمام، إذ يتوجه الكثير من الحجاج الفقراء من هذه الأمة، من جدة إلى مخيّة أو إلى الحديدة ومنها إلى صنعاء حيث يتحمل الإمام نفقتهم من أربعة إلى خمسة أشهر، كما يحصلون منه على سفتجة (حوالة)، يدفعها لهم بعض أصحاب الدولة في أحد مرافىء البلاد كي يتمكنوا من العودة. ولا يعطى لهم هذا المبلغ الأخير على الحدود، إلا ليتأكدوا من أنهم سيغادرون البلاد ولن يتحمل نفقتهم أكثر. وعرفت بعض هؤلاء المتسولين الطفيليين، فضلاً عن يوناني مرتد من عامة الشعب في بيت الفقيه، حصل على كمبيالة بعشرة دراهم يدفعها له صاحب الدولة في الحديدة، بعد أن أقام لفترة طويلة في صنعاء على نفقة الإمام. كما عرفت تركياً عمل في القاهرة لحساب شخص يدعى عبد الرحمن كخيا، وتبع سيده إلى مكة، ثم توجه من جدة إلى الحديدة ومنها إلى صنعاء على أمل أن يعيّنه الإمام في منصب رفيع في جيشه، إذ يعتبر الأتراك أنفسهم بارعين للغاية في ركوب الخيل وفي الحرب، ويظنون أن عرب اليمن محظوظون إن تمكنوا من ضمّ ضابط تركي إلى جيوشهم. لكن الإمام أنفق عليه لفترة في صنعاء، وأرسله عائداً إلى الحديدة، كما خصص له مبلغاً من المال ليعود إلى البصرة. ورأيت هذا التركي عند عودتي من الهند في قافلتنا المتوجهة من ديار بكر إلى حلب، فروى لي أنه توجه من الحديدة إلى البصرة على متن أحد مراكب مسقط التي تقوم سنوياً برحلة إلى اليمن لشراء البن، وأنه رأى كافة المرافىء الواقعة إلى جنوب شبه الجزيرة، وأن الطريق ليست أخطر من الطريق المؤدية من جدة إلى اليمن. وأدرجت هذه الملاحظة للمسافرين الذين يعتبرون أن هذه الطريق لا يمكن سلوكها.

الرحلة من صنعاء إلى المخا

غادرنا صنعاء في ٢٦ تموز/يوليو، وقطعنا مسافة ميلين و٨/٧ الميل نحو الجنوب الغربي، كانت الطريق وعرة والجبال جرداء قاحلة. أما القرى التي رأيناها فهي أسوّر (Assur) وتقع على جبل يحمل الاسم نفسه، ويحطنة (Ochténa)، والمسائل (El Misâkil)، ومند (Mund)، ونزلنا في قرية موطن (Möttene).

في اليوم التالي ٢٧ تموز/يوليو، سلكنا أسوأ طريق عرفته في اليمن،إذ يمرّ عبر جبال صخرية، ولم يصلّح منذ قرن، ونجد على هذا الجبل قرية حقيرة تدعى يافل (Yafil). وتبعد قرية بعن (Boân) ميلاً واحداً عن موطن، وحالها ليست أفضل من الأخرى، لكن نجد فيها نزلاً مبنياً من الحجارة، ويقام قربها سوق يوم الجمعة. يجري قرب هذه القرية جدول صغير، يتوجه نحو الشرق، لكنه لا يلبث أن يغيّر اتجاهه، ويلتقي بجداول أخرى فيعظم ويحمل اسم خان (Schan). وتبعد بعن عن سوق الخميس حوالي ميل ونصف وبالتالي تبعد موطن عن هذا المكان ميلين و٨/٢ الميل إلى الجنوب الغربي تقريباً. ويحاذي جزء كبير من هذا الدرب جبالاً جرداء، تحيط بها وديان وقرى عدة من الجهة الجنوبية، لكني لم أعرف سوى اسم قرية واحدة وهي كملان (Kamelan). ويقام في سوق الخميس سوق كل نهار خميس، ونجد فيها نزلاً كبيراً، ومجلساً قرب القرية (خزانات مياه صغيرة للمسافرين)، وهو أول مجلس صادفته خلال هذه الرحلة. وتتبع هذه القرية إقليم حيم (Heim) الواقع إلى الشمال الغربي من هذا المكان، ويحاذيها إقليم بلاد عنز في الجنوب الشرقي.

وسرنا في ٢٨ تموز/يوليو، في طريق منحدر للغاية، تملو هذه الجبال بعض النباتات والأشجار، وصادفنا على هذه الطريق إبلاً محملة بخشب سيىء للتدفئة تتجه نحو صنعاء. ولم نقطع في ذاك اليوم أكثر من ميل و٨/٣ الميل من قرية خميس وحتى موفاق. ولم نرَ على هذه الدرب سوى قرية واحدة تحمل اسم حدين (Hadein) ومجلس يقوم بقربها. وعند الواحدة بعد الظهر، اجتاحت جحافل الجراد المنطقة لكن هبّت عاصفة قوية ترافقت مع أمطار غزيرة استمرت طوال الليل فأبعدتها.

تقع مدينة موفاق الصغيرة على قمّة جبل وعر، ونجد على سفحه بعض المنازل التي يأوي إليها المسافرون عادة، وهي على خط عرض ١٥°، ٦َ . يقيم في المدينة صاحب الدولة الذي يقدم حساباً عن إيرادات هذه المقاطعة لأحد أبناء الإمام، لكن الحامية والقضاء خاضعان للإمام. وأوفدنا خادم صاحب الدولة في تعز وخادم قاضيها ليحملا رسالة الإمام إلى صاحب الدولة في المدينة، فحضّر الجمال اللازمة

لإكمال رحلتنا إلى بيت الفقيه، وقدّم العشاء لخدمنا وحصلنا على علف لحميرنا، ورأس غنم لعشائنا، كما دفع إيجار منزلنا.

في ٢٩ تموز/يوليو، توجهنا من موفاق إلى سهّان (Schân)، فسرنا ميلين و٨/٥ الميل إلى الجنوب الغربي تقريباً. يحاذي الدرب الجبال حيناً، ويمر فوقها حيناً آخر، لكنه سيىء معظم الوقت فاحتجنا إلى خمس ساعات على الحمير، واحتاجت الجمال لثماني ساعات لقطعه. وتقع قرية جراني (Dsjurani) قرب موفاق، فيما تفصل مسافة قصيرة بين سهان وقريتي يوان (Yoan) ومنقلا (Mángala). ونجد بين موفاق وسهان، ستة خزانات كبيرة، تتجمع فيها مياه الأمطار لتستخدم للشرب لكنها غير صالحة في بعض المواسم لأن الخزانات نادراً ما تنظف، ولا تغطى أبداً. وهبت عاصفة هوجاء، بعد الظهر، ترافقت مع سقوط أمطار وبرد كثيف.

ورأينا في ذاك اليوم، عائلة متشردة، وهي المرة الأولى التي نصادف عائلة كهذه في اليمن، ولم يكن يملك هؤلاء أيّ خيام، إنما يكتفون بالتخييم تحت شجرة ما، ويجرّون وراءهم الحمير والكلاب والغنم والدجاج. ونسيت أن أسأل عن الاسم الذي يطلق على هذه الجماعات التي تشبه إلى حدّ بعيد جماعات الغجر، لأنهم لا يبقون مطولاً في المكان عينه، بل ينتقلون من قرية إلى قرية يتسولون ويسرقون. ويتصدق عليهم الفلاحون بطيب خاطر كي يتخلصوا منهم بسرعة، وتقدمت منا فتاة حاسرة عن وجهها طالبةً منّا حسنة.

في ٣٠ تموز/يوليو، غادرنا سهان، وكان إقليم موفاق إلى الجنوب الشرقي من الدرب التي سلكناها، فيما كان الجبل وإقليم حرّاث (Harras) إلى الشمال الغربي. وأخذ الدرب يسوء، لكنه تحسّن فيما بعد، وأصبح متعرجاً حول الجبال إلى الجنوب الغربي تقريباً. وتقع حالسي (Halesi) على جبل حراث قرب سهان، وبعد ساعة، وصلنا إلى معبر ضيّق بالكاد يمرّ منه جمل واحد. نجد على جهتي هذا الدرب صخوراً وعرة، وقد حفرت مياه الأمطار التي سقطت بغزارة في الليلة الماضية، في هذا المضيق حفرة بلغ عمقها سبع إلى ثماني أقدام، مما جعل عبوره مستحيلاً على جمالنا وحميرنا. وفقد العرب الذين يرافقوننا الأمل بالوصول، وبغياب أي سبيل آخر في الجوار، رأى معظمهم أنّ علينا العودة إلى صنعاء، ومنها إلى ذمار وتعز. لكن بما أننا لم نشأ سلوك هذه الدرب الطويلة، وبما أنّ الوقت لا يسمح لنا بذلك، قررنا إقامة جسر فوق هذه الحفرة، ففاجأ العرب من مشروع كهذا، ظنّاً منهم أنه يتطلب على الأقل يومي عمل. وباشرنا بالعمل، فأخذنا نجمع الحجارة، وساعدونا بعد أن رجونا بعضهم وقطعنا وعوداً للبعض الآخر، وبعد ساعتين ونصف من العمل الجاد، تمكنّت جمالنا وحميرنا من المرور. ويعتقد العرب الذين يرافقوننا، أن صاحب الدولة الأول في اليمن، لو وصل إلى هذا المعبر لفضّل العودة إلى صنعاء على القيام بعمل كهذا.

وعلى مسافة قريبة من هذا المكان، وصلنا إلى مقهى يدعى أدورة (Eddora)، ووقفنا قربه على أرض

مزروعة بالبن، وهي الأولى التي أراها منذ ٢٩ آذار/مارس. وأمضينا الليلة في قرية بائسة تدعى سمفور (Samfûr)، بنيت منازلها من حجارة مكوّمة، وغطّت السطوح بالقصب، وبالتالي ليست مسطحة بل على الطراز الأوروبي، ورأينا هنا كما في تهامة هياكل أسرّة تأخذ شكل الأرائك. وتقع القرية على بعد ميلين و٣/٤ الميل من سهان. ويحمل النهر الصغير، الذي رأيناه قرب بعن، هنا اسم وادي سهان، وكانت مياهه كثيرة فقطعناه بصعوبة على ظهور حميرنا، ويجري هنا أيضاً بين الصخور، لكن مجراه عريض.

وفقدت البوصلة في مأوانا في سمفور، لذا لم أتمكن من تحديد موقع الأمكنة بدقة من هنا وحتى بيت الفقيه كما لم أتمكن من ذلك على الدروب المتعرجة من صنعاء إلى هذا المكان. وأعتقد أننا في ٣١ تموز/يوليو، توجهنا نحو الغرب. حيث تبعد سمفور عن مقهى يدعى كعبة (Kâba) نصف ميل تقريباً، لكن الطريق غير سالكة في هذا الفصل لعمق المياه وسرعتها في الأماكن التي تلتطم فيها بالصخور الوعرة. ولا يتوفر الأمان في هذه المنطقة على الطرقات، لذا اضطررنا للبقاء قرب متاعنا. وينفصل الطريق المؤدي من صنعاء إلى مخيّة هنا عن ذاك المؤدي إلى بيت الفقيه، ويجري النهر نحو الشمال. وتبعد كعبة عن فيل (Fil) حوالي ميل ونصف الميل، ورأينا على هذه الدرب الكثير من البيلسان الذي ينمو من دون زراعة لأن سكان اليمن لا يعرفون فوائده.

وصادفنا في نزل فيل عدداً من الحجاج العائدين من مكة، ومن بينهم عربي من مدينة دوان (Doan) الواقعة على بعد ٢٥ يوم سفر إلى الشرق من صنعاء بحسب ما قيل لي، وعلى بعد ١٢ يوم من كشين (Keschin)، وبالتالي في منطقة لا يعرفها الأوروبيون إطلاقاً. وأسفت لأني لم أتمكن من البقاء مع هذا العربي لوقت طويل، ولأن لغته بدت لي غريبة. وبدا لي أنه لا يعرف فقط موطنه حضرموت بل يعرف مناطق أخرى بعيدة كالحبشة (Habbesch) التي عاد منها للتو. ويبعد مقهى فيل عن هجير (Hadsjir) ٣/٤ الميل، ويمرّ الدرب عبر وادٍ أخضر، يحمل اسم سير (Seir)، حيث تصبّ المياه من الجبال المجاورة، بعد تساقط الأمطار الغزيرة، في وادي سهان. وتقع هجير على جبل في إقليم جابي (Dsjêbi)، وتجد فيها نزلاً جيداً ومسجداً والثاني مياه الشرب للماشية، وتستخدم مياه الثالث للاغتسال والتنظيف. ويغطي الاخضرار هذه المنطقة كما تقوم فوق الجبال قرى كبيرة، وتبعد سمفور عن هجير ميلين و٣/٤ الميل استناداً إلى الحسابات السابقة.

في الأول من شهر تموز/يوليو ١٧٦٣، وصلنا موضعاً بعيداً بعض الشيء عن هجير، حيث ألفينا نبعاً ضخماً يشكل جدولاً، لكنه لا يلبث أن يضيع في وسط الدرب على بعد حوالي ٢٠٠ خطوة مزدوجة(*)، ثم يعود ويظهر من جديد بحجم أكبر، ويقطعه بعد ذلك حجر عريض، فيكمل جريانه من جهة فيما يضيع القسم الآخر في الرمل، ولا يختفي الساعد الأول كلياً بقدر ما رأينا، لكن المنسوب يتراجع فيه للغاية، فلا

(*) السؤال XCIV من أسئلة السيد ميكائيليس.

شك أن جزءاً من الجدول يضيع تحت الأرض، ولعلنا لم نكن لنراه أبداً في هذه الأمكنة لو أتيناها في غير موسم الأمطار. ويجري هذا الجدول المسمى قلاب (Kulãbe) من الجبل، ويتوزع في تهامة على الأرياف المحيطة، ثم يختفي كلياً، وبالتالي لا يصل إلى الخليج العربي علماً أن الآثار التي يتركها على الصخور تشير إلى أنه يعظم كثيراً في هذا الأقليم، بعد أن تتساقط الأمطار بغزارة ولوقت طويل.

وتبعد هجير عن مقهى يحمل اسم أبي كرش ميلاً و٤/٣ الميل إلى الغرب والجنوب الغربي انحداراً، ويؤدي هذا الدرب إلى منحدر صعب على بعد ميل و٤/٣ الميل، ويمرّ عبر وادي كلاب (Wadi Kulãbe) حتى حدود تهامة. نرى بعض الجبال الصغيرة بين الحين والآخر إلى الشمال، وتغطي المنطقة الذرة التي يصنع منها العامة في اليمن خبزهم. يبني العرب في المناطق الجبلية خياماً في الأشجار لحراسة حقولهم، فيما يجعلون لها في تهامة أربعة قوائم مرتفعة للغاية يعلوها سقف(*).

بعد أن تركنا المكان المذكور آنفاً، اتجهنا نحو الجنوب الغربي، ووصلنا حدود تهامة، وبعد ميل ونصف الميل بلغنا مقهى أنجور (Andsjor)، بعد أن قطعنا وادي رما (Rema). وبعد تساقط الأمطار، يلتقي هذا الوادي بوادي حنش ويحملان معاً اسم وادي عباسي (Wadi Abassi) الذي يصب في الخليج. وتتكوّن الجبال، في بلاد انجور، من حجارة مخمّسة الزوايا كتلك التي رأيتها في ١٩ آذار/مارس في كحم (Kachme) وفي ٢١ آذار/مارس على جبال البن قرب هادي (Hadie)، وانفصلت بعض هذه الحجارة عن الجبال وتجمعت على سفحها حيث وجدناها. قطعنا ٨/٧ الميل لنصل من أنجور إلى قرية متاهن (Mattáhen)، ورأينا بين هذين المكانين، وادياً صغيراً، يختفي لاحقاً ولا يصل إلى البحر. وتركنا بعض أعضاء البعثة وبعض الخدم مع المتاع في متاهن، وركبنا حميراً استأجرناها هنا، وقطعنا في تلك الليلة ميلين ونصف الميل لنصل إلى بيت الفقيه، وبالتالي سرنا في ذاك اليوم سبعة أميال و٨/١ الميل. وتقع بين متاهن وبيت الفقيه على القرى التالية: قتف (Kitf)، ضرب (Djurb) أبو برثن (Abuberten)، ورحتن (Rachten)، فضلاً عن وادي الحنش. وبما أن القسم الأكبر من بيت الفقيه التهمته النيران في ١٠ نيسان/أبريل، فتوقعنا ألاّ نجد سوى صحراء قاحلة، لكنهم أعادوا بناء غالبية المنازل أو على الأصح الأكواخ، كما تمّ تشييد منازل حجرية تقاوم النيران.

وصلت جمالنا إلى بيت الفقيه صباح الثاني من شهر تموز/يوليو، وأبلغنا صاحب الدولة بوصولنا، ورجوناه أن يأمر بتحضير الجمال التي نحتاجها لإكمال رحلتنا. وأراد خدمنا العرب طلب المؤن منه كي يأكلوا على حساب الإمام أو على الأرجح على حساب أهالي المنطقة وكي يظهروا مكانتنا الرفيعة عند الإمام في صنعاء، لكن بما أن هذه المدينة أحسنت استقبالنا من قبل وقدمت لنا المساعدة، لم نسمح لهم بذلك واكتفينا بطلب رأس غنم.

(*) وصف شبه الجزيرة العربية، اللوحة XV، صورة «د».

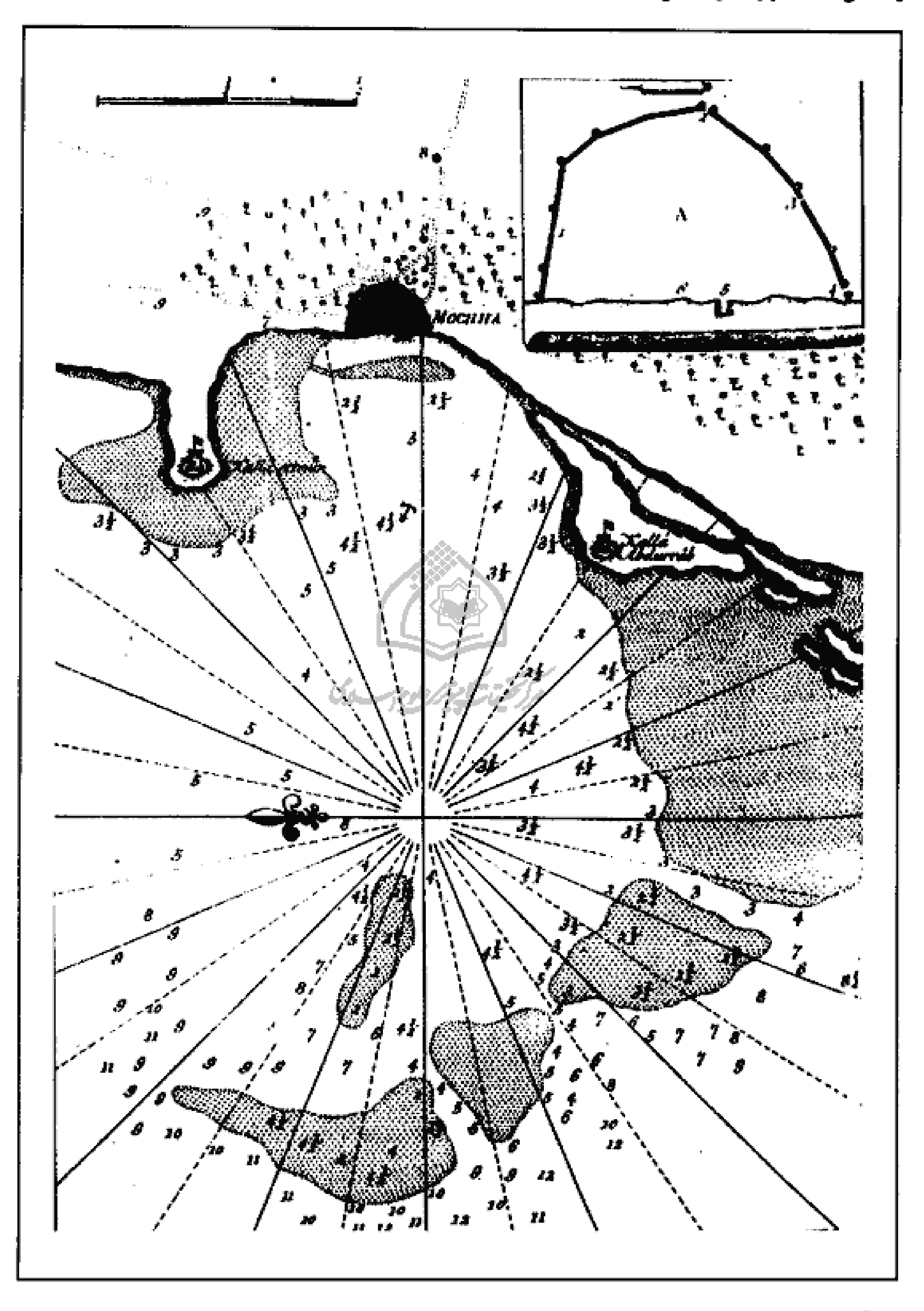
كنت قد رأيت من قبل الطريق المؤدي من بيت الفقيه إلى المخا، ورسمت خارطة له، ونظراً إلى أن الحرارة مرتفعة للغاية في تهامة، وبالتالي مضرّة لنا بعد اعتدال المناطق الجبلية، رحنا نسافر ليلاً ونرتاح أثناء النهار. وليلة الثالث من شهر آب/أغسطس، صادفنا على الطريق بين بيت الفقيه وزبيد، رجلان يسوقان ستة حمير محملة بالمال الذي تلقاه تجّار بيت الفقيه من مصر وتركيا لقاء البنّ الذي يرسلونه من المخا إلى خارج البلاد بغية شراء البضائع من الهند، مما يدلّ على أن أهالي هذه البلاد لا يخشون اللصوص.

في ٣ آب/أغسطس، اضطر صاحب دولة زبيد إلى تزويدنا بالمؤن والجمال لإكمال رحلتنا إلى المخا. وظننا أننا سنجد منسوب المياه في وادي زبيد، في هذا الفصل من السنة، مرتفعاً، فألفيناه جافاً قرب المدينة، لكن تمّ تحويل المياه في الجنوب إلى بعض الحقول المحاطة بسدود عالية، حيث حفظت في حفر عميقة. ولا يدعون المياه على الأرجح تجري في وادي زبيد قبل ريّ كافة الحقول المجاورة، وقد تمّ بناء الحواجز المحيطة بالسهول المذكورة آنفاً بطريقة فريدة. فبعد فلاحة الأرض، يربط العرب ثورين بثلاثة حبال أو ثلاث سلاسل حديدية يربطونها بخشبة عريضة للغاية، وتجرّ هذه الخشبة على الأرض المفلوحة لتمتلىء، فينقلونها إلى الحاجز المذكور كما أظهرنا في الصورة أ من اللوحة ١٥ في **وصف شبه الجزيرة العربية**. ولم نصل شرج (Scherdsje) سوى في منتصف الليل، وبعد أن ارتحنا قليلاً، أكملنا سيرنا نحو مشيد (Mauschid)، التي غادرناها في ٤ آب/أغسطس عند المغيب، ودخلنا المخا في الخامس من الشهر نفسه عند التاسعة صباحاً وقد أضنانا التعب.

واستعجلنا في رحلتنا كي لا يفوتنا المركب الذي ننوي مغادرة البلاد على متنه، لكنه لم يكن بإمكانه أن يبحر بالسرعة التي تصورناها، وهكذا وصلنا باكراً إلى هذا الطقس المحرق. وكنت مريضاً للغاية وفي ٨ آب/أغسطس وبعد أيام، لزم رسامنا السيد بورنفايند الفراش، ولحقه السيد كرامر فضلاً عن كافة خدمنا الأوروبيين. والتقينا هنا صديقنا السيد فر. سكوت (FR. Scott)، الذي أمّن لنا مرطبات أوروبية متنوعة أفادتنا في حالتنا هذه أكثر من أي دواء كنّا لنتناوله لو اضطررنا للعيش كالعرب.

وتقع مدينة المخا على خط العرض ١٣°، ١٩´ ، في منطقة جافة وجرداء لافتقارها للأمطار، ويحيط بها سور. ونجد بين المخا وبئر بليل (Beleile) كما نجد على طرفي المرفأ، قلعتين متماثلتين مزودتين ببعض المدافع. وتسمى الواقعة إلى الشمال قلعة الطيّار (Kallà Teiár)، تيمناً بولي مسلم دفن في مكان قريب، وهي القلعة الأهم والأعظم، أما القلعة الأخرى فصغيرة، ونظراً لأن ضريح أحد أولاد الشيخ الشاذلي قريب منها حملت اسمه وهي قلعة عبد عرب (Kallà Abed Urráb)

وبني قسم من المنازل الواقعة في حرم هذه الأسوار من الحجر، وبعضها شيّد بشكل متين وجميل على طراز المنازل التي رأيناها في بئر القصب والتي رسمناها على اللوحة (LXVIII). لكن شاهدنا داخل المدينة وخارجها منازل حقيرة كالأكواخ العادية في تهامة والتي رسمنا نموذجاً عنها على اللوحة الأولى في


MOCHHA
A

وصف شبه الجزيرة العربية، كما نجد خارج المدينة العديد من أشجار البلح التي تتوسطها حدائق غنّاء منسّقة. ولقد رسمت خارطة مدينة المخا ومحيطها على اللوحة (LXXII)، وتجدر الإشارة إلى أنني لم أقس إلاّ حرم سور المدينة المرسوم قرب الحرف أ، واستناداً إلى سلم خارطة القاهرة. وقد أمنّ لي شخص إنكليزي خارطة المرفأ ومعلومات حول العمـق المسجّـل للمياه. وتدل الأرقام المدوّنة على الخارطة على ما يلي: ١) باب العامود (Bâb el Amudi)، ٢) باب شاذلي (Bâb Schädeli)، ٣) باب صغير (Bâb Sagair)، ٤) باب صندل (Bâb Sandel)، ٥) باب الساحل (Bâb Sahhel)، ٦) مقر إقامة صاحب الدولة، ٧) مقبرة الأوروبيين حيث دفن السيد دو هافن، ٨) الأبراج أو القلاع الصغيرة على طريق موسى، ٩) طريق بيت الفقيه.

واعتدت زيارة الإنكليز في المخا أكثر من العرب، لذا لم أقم باكتشافات دقيقة حول قدم المدينة، لكن من المؤكد أن المخا من المدن الجديدة في تهامة وأن عمرها لا يتعدى ٤٠٠ عام. ويقال إنه في ذاك الوقت، كان يعيش في المنطقة رجل وحيد شهير يدعى الشيخ الشاذلي ويعتبر مؤسس المدينة. وقد اشتهر بزهده وتقواه، فأخذت الجموع تؤمّ المكان للاستماع لتعاليمه. ورووا لي قصة عنه تقول إن مركباً قادماً من الهند ومتوجهاً إلى جدة، رسا في الجوار، ورأى البحارة كوخاً منفرداً في هذه الصحراء فدفعهم الفضول إلى النزول إلى اليابسة واستقبل الشيخ زواره أحسن استقبال، وقدم لهم القهوة وهي شراب يحبه كثيراً ويعزو إليه منافع عديدة، واعتبر الهنود الذين لم يألفوا القهوة هذا الشراب الساخن علاجاً، وظنّوا أنه سيساعد على شفاء التاجر صاحب مركبهم، وأكّد لهم الشيخ شاذلي أن هذا الشراب وصلاته لن يشفيا المريض وحسب بل سيؤمنان له ربحاً عظيماً إن أنزل بضائعه. وتنبأ في اليوم نفسه، أن مدينة تجارية ستبنى يوماً ما في هذا المكان، وأن الهنود سيقصدونها لبيع قسم كبير من بضائعهم. وبدا هذا الكلام فريداً بالنسبة للتاجر الذي أراد أن يُنقل في اليوم التالي إلى اليابسة كي يرى بنفسه هذا الرجل المميز ويتحدث معه. وفي اليوم نفسه، زار الكثير من العرب هذا الزاهد لسماع أقواله، وكان التاجر قد شرب القهوة التي حضّرها له الشيخ وأحسّ بتحسن. ومن بين الوفود التي زارت الشيخ العديد من التجار الذين اشتروا حمولة المركب كلها، فعاد التاجر إلى الهند سعيداً، وذاع صيت الشيخ بين مواطنيه. وبُني قرب كوخ الشيخ العديد من الأكواخ الأخرى وازداد عدد التجار الذين يقصدون المكان عبر البر وعدد المراكب التي ترسو قربه، فتكونت قرية ثم تحولت إلى مدينة المخا التجارية المعروفة. وتمّ تشييد مسجد كبير يحمل اسم الشيخ شاذلي فوق ضريحه الواقع خارج المدينة. كما يطلق اسمه على البئر التي تؤمن المياه لعامة الشعب من الفقراء غير القادرين على دفع المال لشراء مياه أفضل، فضلاً عن أحد أبواب المدينة. وتتمتع سلالته بمكانة بين الناس ويحملون لقب شيخ تيمناً به، ويقسم أبناء المخا باسمه عادة، باختصار لن ينسى هذا الشيخ طالما المخا موجودة. وأبدى تاجر من مكة، تحدثت معه مراراً في بومباي، ملاحظة حول هؤلاء الأولياء لم أكن أتوقعها من مسلم، إذ قال إن الشعب بحاجة لشيء ملموس يحترمه ويخشاه، لذا يقسم

الناس باسم محمد بدلاً من الله في مكة والمدينة، ولا أثق بيمين رجل من المخا إن أقسم بالله، وأصدقه إن أقسم باسم الشاذلي الذي يرى ضريحه ومسجده دوماً. ولاحظت أن الشعب في جدة يقسم باسم محمد، وفي المخا باسم الشاذلي، وفي مشهد باسم علي، وفي مشهد الحسين باسم الحسين.

ولا يعتبر الشاذلي شفيع المخا وحسب، بل شفيع أصحاب المقاهي المسلمين من أتباع المذهب السني كلهم. ويقال إنهم يقرؤون الفاتحة كل صباح على روحه، ولا يعني ذلك أنهم يتضرعون إليه، إنما يشكرون الله لأنه علّم الإنسان استخدام القهوة عن طريق الشيخ الشاذلي، ويرجون منه أن يرحم الشيخ المذكور وآله(*).

المخا هي آخر مدينة يمنية بقيت تحت سيطرة الأتراك، ويقال إن العرب لم يستردوها بقوة السلاح إنما اشتروها، ومنذ ذلك الحين وهي تخضع للأئمة. جمع أحد أصحاب الدولة في هذا الأقليم الكثير من الثروات، وأمر بحفر خندق حول المدينة، لكنه طمر فيما بعد، ثم حصّن المدينة، وأظهر ميلاً إلى الاستقلال فزج في السجن. ومنذ ذلك الوقت، لا يبقى صاحب الدولة في هذا الأقليم الغني في منصبه أكثر من عامين أو ثلاثة. ويضطر إلى تقديم حساباته سنوياً بعد الموسم(**)، وينتظر عندها فإما أن تجدد ولايته لعام آخر وإما يتم استدعاؤه مباشرة إلى صنعاء. ولم أعرف الكثير عن تاريخ المخا، وجلّ ما عرفته هو أن الفرنسيين قاموا بقصفها مرة، وسأورد لكم سبب ذلك: يسحب صاحب الدولة هنا غالباً، لحساب الإمام، بضائع من الهند من التجار الذين ترسو سفنهم هنا، أكثر مما يتطلب رسم الجمارك والرسومات الأخرى التي يتوجب عليهم دفعها، ويعد كل مرة بأن ديون الإمام ستحسم في العام التالي من رسوم الدخول، لكن هذه الديون تتراكم أكثر فأكثر. وبلغت ديون الإمام للشركة الفرنسية للهند الشرقية ٨٢٠٠٠ درهم، وبما أنها أرادت الحصول على المبلغ، من دون أن تستخدم أساليب تفقدها تجارتها في المخا، أرسلت في العام ١٧٣٨ سفنها التجارية ترافقها سفينة حربية. وأعلم القبطان صاحب الدولة أنهم قصدوا البلاد لبيع بضائعهم، لكنهم لن ينزلوها إلى اليابسة ما لم يقبضوا الديون السابقة، فحاول صاحب الدولة استمالتهم بالكلام المعسول وإقناعهم بإنزال البضائع أولاً. لكن الفرنسيين أظهروا ما كان

(*) ونجد في البصرة وبغداد وفي كافة المدن السنية على الأرجح، شفيعاً لكل فئة من العمّال، فسلمان باك (Salman Pâk) مثلاً، الذي يُقال إنه كان حلاّق محمد، التاريخ العالمي المعاصر، الجزء الأول، القسم ٧١، النسخة الألمانية. هو شفيع الحلاقين الذين يزورون، سنوياً وفي يوم محدد، قبره الموجود في المدائن (El Madeini) وهي مدينة اشتهرت فيما مضى لكن لم يبق منها سوى البقايا التي نشاهدها علي بعد ميل من بغداد. وداود أو دايفيد هو شفيع الحدادين إذ ورد ذكره في الفصل ٢١ من القرآن على أنه أول من اخترع الشكة. النبي تثيث (Schid) هو شفيع الحائكين. إبراهيم الخليل شفيع البنائين والطباخين. النبي إدريس هو شفيع الخياطين. حبيب الذي نجد قبره في منطقة بغداد هو شفيع النجارين. النبي جرجس (Gorgis) هو شفيع النحاسين، محمد اليمني هو شفيع الحذائين، محمد الجواد هو شفيع اللحامين.

(**) يسمى موسم في اليمن الزمن الذي يشمل الأشهر الأربعة التالية: نيسان /أبريل، أيار/ مايو، حزيران/يونيو وتموز/يوليو، واعتادت سفن الهند الإبحار خلال هذا الوقت.

بمقدورهم، وقصفوا القلعة الشمالية قبل أن يفكر العرب جدياً باستخدام العنف. واستؤنفت بعد ذلك المفاوضات واعتذر صاحب الدولة معللاً أنه لا يملك المال ولا أمراً من الإمام بدفع الديون المذكورة، وطلب مهلة مدتها ١٥ يوماً حتى يتلقى رداً من الإمام. وبعد انتهاء المهلة، أطلق الفرنسيون قذيفة نحو منزل صاحب الدولة فقتلوا عربياً، ولم يؤدّ ذلك إلى أية نتيجة، فاستهدفوا المسجد يوم الجمعة فيما كان صاحب الدولة يؤدي صلاته، وقتلوا بعض العرب. عندها فقد المواطنون، الذين دفعوا دين الإمام من دمهم، صبرهم وأجبروا الحكومة على اتخاذ تدابير ترضي العدو. وبعد إقرار المعاهدة، أنزل الفرنسيون بضائعهم واستأنفوا تجارتهم كالمعتاد، ولم يفقدوا سوى أحد الربابنة الذي قتل أثناء نومه أمام باب منزله، على يد جندي مات أحد أهله أثناء القصف فثأر له. **(وصف شبه الجزيرة العربية)**.

ونرى مما تقدم أن صاحب الدولة الذي كان عاجزاً عن الدفاع عن نفسه فعل ما بمقدوره لخدمة سيده، لكن الإمام لم يسرّ بما حصل فصادر قصر الأول في صنعاء(*). كما لم يسترد تجار من المخا قدموا مبلغاً كبيراً لإرضاء الفرنسيين المال الذي دفعوه حتى تاريخ وجودنا في المدينة.

ويتذكر العديدون هذه المواجهات، لا سيّما قنابل النار، على حدّ تعبيرهم، التي لاحقت صاحب الدولة، وقد كوّن العرب فكرة عظيمة عن طريقة الأوروبيين في خوض الحروب. ولو شنت دولة أوروبية هجوماً كهذا على مدينة تركية لما سلمت الأمم الأوروبية الأخرى الموجودة في المدينة من غضب الشعب، والدليل على ذلك أنه ما إن يقترب مركب من مالطا من مدينة يافا، حتى يدفع رهبان المدينة جزيات كبيرة. لكن الإنكليز والهولنديين الذين كانوا في المخا عند وصول الفرنسيين بقوا في أمان ولم يتعرضوا للأذية.

لم أسمع بمسيحيين شرقيين يقيمون في المخا أو في أيّ مدينة أخرى في اليمن، إنما نجد فيها يهوداً يعيشون خارج الأسوار كما في تعز، وجبلة وصنعاء وغيرها. كما يعيش في المخا حالياً من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ بانياني وهندي من الطوائف الأخرى. يعمل قسم منهم في التجارة فيما يكسب القسم الآخر رزقه من مزاولة بعض الحرف والأعمال الصغيرة، ويبقى هؤلاء في اليمن لسنوات، لكن بما أنه لا يسمح لهم باستقدام زوجاتهم، يعودون إلى بلادهم ما إن يجمعوا ثروة. وتحتفظ الشركة الإنكليزية للهند الكبرى ببعض البيوت المستأجرة في المخا وبيت الفقيه علماً أنها لا ترسل عادة سوى مركب واحد لتحميل البن كل سنتين. ولعل تجارتهم في الخليج العربي لا تدرّ عليهم أرباحاً كثيرة، لكن التجار الإنكليز في الهند يجنون أرباحاً طائلة منها، ووصلت إلى المخا هذه السنة، لحسابهم، سفينتان من البنغال، وواحدة من بومباي وأخرى من سورات فضلاً عن مركب أبحر من سورات تحت إمرة قبطان إنكليزي، كما أرسل الإنكليز في السنة نفسها من الهند ثلاثة مراكب إلى جدة. وقد تركوا تاجراً في المخا لسنوات، لكنه

(*) كان هذا القصر يحمل اسم دار مخا، فأطلق الإمام منصور عليه لاحقاً اسم دار السودان وهو الاسم الذي يعرف به حالياً.

تعرّض يوماً لسوء معاملة من قبل السكان بغياب السفن، فقرر التجار بعد ذلك العودة إلى الهند سنوياً وترك البضائع غير المباعة مع الوسطاء. ولم يبحر الفرنسيون في الخليج العربي منذ سبع سنوات بسبب حربهم ضد إنكلترا، لكنهم يدفعون بدل إيجار المنازل التي يقيمون فيها عادة في المخا وبيت الفقيه عن طريق عميلهم في اليمن، وهو رجل بانياني. أما الهولنديون فقد أشرنا سابقاً إلى أنهم أرسلوا مركبين إلى المخا منذ عامين، فيما لم يعد البرتغاليون، الذين اشتهروا في الماضي بتجارتهم في الخليج العربي، يرسلون سفنهم إلى المنطقة.

جئت سابقاً على ذكر التجارة والقياسات والأوزان في المخا في **وصف شبه الجزيرة العربية**. إن التجارة فيها لا يستهان بها، وتدرّ الكثير من الأموال على جمارك الإمام، ويضطر العرب والأتراك والهنود إلى نقل بضائعهم إلى المكتب مباشرة، وإخضاعها للتفتيش، فضلاً عن دفع ٨ إلى ١٠ بالمئة من قيمتها، وفقاً للنسبة التي يحلو للموظف أن يحددها. ولا يدفع الأوروبيون سوى ثلاثة بالمئة من قيمة البضائع كلها التي ينقلونها من أوروبا والبنغال والصين إلى المخا، ويحق لهم نقل بضائعهم مباشرة إلى محالهم فيقوم الموظفون بتفتيشها هناك. ومنذ أن عظمت سلطة الإنكليز على شواطىء مالابار، وأخذ تجارهم يرسلون من بومباي وسورات إلى المخا البضائع على متن مراكبهم، بعد أن كانت المراكب الهندية تنقلها، أصبحوا يدفعون ثلاثة بالمئة كرسم لدخولها. لكن يضطر تجار المخا إلى دفع الثلاثة بالمئة المتبقية، وهكذا يحافظ العرب على اتفاقاتهم مع الأوروبيين، معززين بالوقت نفسه انتشار التجارة الإنكليزية. ويدفع الأوروبيون ثلاثة بالمئة على تصدير البن وعلى توضيبه، كما تضطر المراكب التي ترسو هنا إلى دفع رسم تبلغ قيمته بضع مئات الدراهم فضلاً عن رسوم الجمارك، ويراعي العرب في فرض هذا الرسم حجم المركب وعدد أشرعته فيدفع مركب بثلاثة أشرعة ضعف ما يدفعه مركب بشراعين وإن كان بالحجم نفسه تقريباً. لكن يحصل التاجر الذي يحمّل هنا مركباً أوروبياً بالبن على مكافأة قيمتها ٤٠٠ درهم من صاحب دولة المخا.

واستناداً إلى ملاحظات عربية، يهبّ الهواء في المنطقة دورياً ستة أشهر من الشمال وستة أخرى من الجنوب، لكن هذا لا يعني أنهم لا يعرفون رياحاً أخرى، ففي شهر آب/أغسطس، تهبّ الرياح الشمالية، لكنها تتحول أحياناً إلى غربية، وأحياناً أخرى إلى جنوبية غربية، حتى أنها تستحيل جنوبية. واضطرت السفن الهندية التي كانت تستعد للتوجه إلى جدة والعودة في العام نفسه إلى الهند، إلى الإرساء في المخا، كما وصلت إلى المخا سفينتان من سورات بقيادة مسلمين، وأخرى من البنغال بقيادة ربان إنكليزي، في السنة نفسها لكن في وقت لاحق، ولم تتمكن سوى السفينة الأخيرة من الوصول إلى مرفأ جدة لأن قبطانها توجه نحو عرض البحر في وسط الخليج العربي. أما الأخيرتان اللتان أبحرتا في الوقت نفسه من المخا فاضطرتا إلى العودة إلى هذا المرفأ وإلى الانتظار بضعة أشهر حتى تهبّ الرياح الجنوبية.

أما بالنسبة للسفن الإنكليزية الأربع التي كانت في المخا هذه السنة، فقد غادرت ثلاث منها نحو الهند عند عودتنا من صنعاء، وعادت أولى السفن التي أبحرت نحو جدة في ٩ آب/أغسطس، والثانية في ١٠ والأخيرة في ١٧ من الشهر عينه إلى المخا على أن تعاود الإبحار نحو الهند. وبما أن العرب لا يملكون سوى البن يبادلون به البضائع الأوروبية، وبما أن الهنود لا يستسيغون هذا الشراب كثيراً، عادت السفن بأغلبها إلى الهند شبه فارغة، إلا أن السفن الأخيرة تكسب أكثر عند عودتها منها عند رحيلها، لأن تجار المدينة يؤجلون إرسال ثمن البضائع الهندية حتى تبحر آخر سفينة(*)، لذا حمل المركب الأخير القادم من جدة على متنه حوالي مليون قرش من جدة نقداً، فيما حمل المركب الذي انتقلنا على متنه إلى المخا ٢٥٠٠٠٠ درهم نقداً، وقد كلّف نقل هذه المبالغ الضخمة الكثير من المال.

وتتألف هذه المبالغ من عملة البندقية وعملة ألمانيا وعملة الأمبراطور وبالتالي من أموال أوروبية، ويمكننا أن نتصور بسهولة أن السفن الإنكليزية والهندية الأخرى حملت معها مبالغ طائلة من جدة والمخا، كما تعود المراكب من البصرة إلى الهند محملة بالنقود التي انتقلت قبل ذلك من أوروبا إلى تركيا. وإذا ما لاحظنا كمية النقود التي تنتقل سنوياً من أوروبا إلى الهند وإلى الصين، هل ينبغي أن نستغرب إذا ما فقدت أوروبا مخزونها من الذهب والفضة، إذا ما استثنينا كنوز أميركا؟

ذكرت سابقاً الأمم الأوروبية التي تاجرت ولا زالت تتاجر مع المخا، والتي تتمتع بامتيازات فيما يتعلق برسوم الدخول لا ينالها المسلمون، وإذا ما فكرت أمة أوروبية أخرى بإرسال سفن إلى المنطقة، يسهل عليها نيل التسهيلات نفسها. وعند وصول سفينة غريبة إلى مرفأ المخا، لا ينبغي أن تحيي بطلقة مدفع إنما عليها رفع علمها، فيرسل صاحب الدولة مركباً للاستطلاع ولمعرفة سبب قدومها البلاد. وإذا ما تعرض القبطان لبعض المصاعب، عليه أن يكتفي بالقول إن هدفه هو الوصول إلى الحديدة وإلى مخية، وهذا ما لا يقبله صاحب الدولة بسهولة، خوفاً من أن يفقد الهدايا التي يحملها مركب كهذا، ورسوم الدخول التي يدفعها دائماً. لكن الدول التي لا تملك مراكز لها في الهند، لن تجني الكثير من التجارة في الخليج العربي، إذ إن البضائع الأوروبية التي يستخدمها العرب قليلة. وينبغي أن يحمل الأوروبيون، الذين يتاجرون مع المخا، معهم بضائع من الهند، ولا يجدون ما يشترونه بالمقابل سوى البن الذي يمكنهم الحصول عليه بكلفة أرخص مما لو أرسلوا سفينة إلى الخليج لهذا الهدف فقط، وذلك من المراكب التي تحمّله كي لا تعود إلى الهند فارغة. ويتم استهلاك كمية كبيرة من الحديد في شبه الجزيرة العربية، كما ذكرت في (**وصف شبه الجزيرة العربية**)، ويشتريه الإنكليز من الدانمارك ثم ينقلونه إلى المخا وجدة،

(*) يدفع تجار مخا ما يتوجب عليهم على ثلاث دفعات في السنة، تتراوح مهلة كل دفعة حوالي ١٠٠ يوم، الأولى من ١٧ أيلول/سبتمبر إلى ٢٣ ك١/ديسمبر، الثانية من ٢٣ ك١/ديسمبر حتى ٢ نيسان/إبريل، والثالثة من ٣ نيسان/إبريل وحتى ١٠ تموز/يوليو، وينبغي أن يدفع ثمن البضائع التي تشترى خلال هذه الفترة، واستناداً إلى تلك القوانين، قبل انتهاء المهلة المحددة.

وبالتالي يمكن للداناركيين ممارسة تجارة مربحة كتجارة الإنكليز مع مستعمراتهم وذلك عبر بيع حديد أوروبا، وشباك البنغال وبضائع هندية أخرى ينقلونها من ترنكبار إلى الخليج.

وألفت انتباه كافة التجار الذين يقصدون المخا إلى ضرورة التنبه للصرّافين المسلمين، ويمكنهم كالفرنسيين والإنكليز التوجه إلى البانيانيين الذين نجد بينهم تجّاراً أثرياء وصادقين، إذ يمكن الوثوق بوثني أكثر من مسلم. ويحاول تجار المسلمين في كافة البلاد إغاظة المسيحيين فيغضب هؤلاء ويلومونهم، عندها، يأخذ التجار بالصراخ بحجة أن المسيحي أساء الحديث عن الديانة الإسلامية، ويهددونه بالقضاء فيضطر إلى دفع المبالغ الطائلة كي ينالوا البراءة.

سير الرحلة من المخا إلى بومباي

من بين السفن الهندية والإنكليزية كلها، التي وصلت هذه السنة إلى الخليج العربي، لم يبق هنا إلا سفينة السيد سكوت التي كنا سنغادر على متنها. كان السيد سكوت يحبذ العودة سريعاً إلى الهند، خاصة وأن الرياح تشهد تغيراً ملحوظاً؛ غير أن تجار المخا لم يتمكنوا من تسديد المبالغ الكبيرة التي يتوجب عليهم إرسالها إلى الهند؛ وبعد أن دفعوا أجرة السفينة، قبل السيد سكوت بتأجيل الإبحار إلى ظهر ٢٣ آب/أغسطس. غير أن السيد كرامر والسيد بورنفايند، وخادمنا الأوروبي، كانوا مرضى جميعاً متوعكين، ولا أحد سواي قادر على السفر.

وفي ٢٣ آب/أغسطس، استعدّ الربّان ج. مارتن للإقلاع؛ ولكن الرياح القوية منعتنا من الإبحار، كما وأن الحرارة انخفضت بصورة ملحوظة، إذ انخفض محرر فهرنهايت إلى ٨٣ درجة، بينما لم يتعد ليلاً ٨٨ درجة. وعند الرابعة من بعد الظهر، هدأت العاصفة بعض الشيء، فتمكنا من الإقلاع؛ ولكنها ما لبثت أن عصفت متأخره معيقة بذلك سير السفينة.وفي صباح ٢٤ آب/أغسطس، تحسنت حالة الطقس. وبعد أن قست ارتفاع الشمس في خط الهاجرة، وجدت أن السفينة تقع على خط العرض ١٢°، ٥َ ، ولما كنا على مسافة ١٠ أو١٢ دقيقة شمالي باب المندب، استطعت أن أقيس عرض هذا المضيق الشهير بسهولة.

فظهر لي أن عرضه خمسة أميال في البقعة الأكثر ضيقاً. وتقع في هذا المضيق جزيرة بريم (Perim)، التي تبعد ميلاً تقريباً عن الساحل الإفريقي؛ ويبلغ طول هذه الجزيرة ٤/٣ الميل، وهي تضم مرفأً كبيراً. ومع تقدمنا جنوباً، شاهدنا قرب الشواطيء الإفريقية جزراً صغيرة كثيرة، رسمتها كلها في اللوحة ٢٠ من كتاب **وصف شبه الجزيرة العربية**. ولفت انتباهي ارتفاع الجبال المحاذية للساحل الإفريقي على عكس أنوف الجبال الخارجة منها والداخلة في البحر، في شبه الجزيرة العربية. وتعبر السفن عادة القناة الواقعة بين بريم والساحل الإفريقي؛ غير أن مجرى المياه كان قوياً للغاية، والرياح كانت عاصفة جداً ففضلنا الاتجاه نحو القناة العريضة الواقعة بين الجزيرة والساحل الإفريقي؛ وأتيحت لنا بالتالي الفرصة للسير عكس الرياح دون أن نخشى شيئاً.

وسأنقل لكم الملاحظات التي دوّنتها خلال عبوري باب المندب؛ أما بالنسبة للسؤال الذي أرسله لنا أحد الوزراء الألمان بشأن الآثار التي تثبت أن طرفي كل من شبه الجزيرة العربية والحبشة، كانا يلتقيان في مضيق جرفته المياه أو هدمته الزلازل؛ فإنني أعترف بعجزي عن إعطائه رداً حاسماً؛ ولا أظن أن الرحالة

على استعداد لإعطاء أجوبة مرضية على هذا السؤال وعلى الأسئلة الأخرى التي وجهها لنا السيد باستور، إلا بعد مراجعة دراسات الشرقيين وملاحظاتهم(*).

ولم نستطع أن نثبت بعد، تحدر الحبشيين من الأصل العربي؛ علماً أنهم من الزنوج؛ وقد أكدوا لي أن العرب المقيمين غربي الخليج العربي لم يقترنوا بالحبشيات، وأنهم احتفظوا دوماً ببشرتهم البيضاء. ويدّعي بعض العلماء أن الطقس الحار أدى إلى اكتشاف سلالة البرتغاليين المقيمين على الضفة الشمالية اللون الأسود؛ وشاهدت في الهند عدداً من هؤلاء البرتغاليين الزنوج؛ لكن إن كان الطقس الحار يؤدي إلى اكتساب هذا اللون الأسود، لماذا احتفظ البرامانيون والبانيانيون وغيرهم من الشعوب الذين يتفادون الارتباط بالأجانب، ببشرتهم البيضاء رغم أنهم يعيشون في منطقة مناخية حارة، شأنهم شأن زنوج أفريقيا وسواحل مالابار؟ وإن تساورنا الشكوك في مسألة اختلاط العرب والحبشيين بجيرانهم في الأيام الغابرة فعلينا أن نلقي نظرة على كتاب **(وصف شبه الجزيرة العربية)**، حيث وصفت مركب صيد استعمل في القرون الأولى لعبور باب المندب وصولاً إلى الخليج العربي.

ثم في ٢٥ آب/أغسطس ١٧٦٣، دخلنا في القناة التي تصل الخليج بالمحيط، على خط العرض ١٢°، ١٩َ . كانت تقع تحت أنظارنا سواحل القارتين، فضلاً عن رأس القديس أنطونيوس، الواقع على بعد ٢١ دقيقة من الجهة الشمالية الشرقية، أي على خط العرض ١٢°،٣٢َ .

وفي ٢٦ منه، راقبنا السواحل الإفريقية وسواحل شبه الجزيرة العربية، انطلاقاً من خط العرض ١٢°، ٣٢َ ؛ وكانت الرياح تتلاءم مع خط سيرنا، حتى أننا استطعنا الانحراف قليلاً نحو الشرق. ولاحظنا في ٢٧ أننا تقدمنا شمالاً بعض الشيء؛ فتابعنا سيرنا بخط مستقيم، إلى أن رأينا صباح ٢٨ الجبال على الساحل الجنوبي؛ وكنا عند الظهيرة قد بلغنا خط العرض ١٢°، ٠َ. أبحرنا بعد الظهر باتجاه الشرق، ولاحظت ليلاً أن ارتفاع القطب لم يتعد ١١°، ٥٨َ ، علماً أنني قست النسر الواقع شمالاً والعقاب جنوبي السمت.

ولقد لاحظ الرحالة الآخرون، الذين وصفوا رحلتهم إلى المخا، سرعة مجرى مياه هذه القناة؛ وهذا ما أثبتته ملاحظاتنا لأنه كان يدفعنا تارة صوب الشمال وطوراً صوب الجنوب؛ غير أن سرعته خفت مع طلوع النهار.

(*) لما كانت أسئلة هذا العالم لم تطبع بعد، سأدرجها في كتابي هذا:
«كتب رئيس قضاة موشيم ما يلي: يقول العلماء الأولون إن الحبشيين هم من أصل عربي، راجعوا بحث كالميه حول الكتاب المقدّس، الجزء الأول. فإليكم الأسئلة التي تأتت عن هذا الرأي ١) إن كان الشعب الأول الذي بعد الطوفان قد تكوّن في هذا المكان. ٢) إن تعرّض الحبشيون الأوائل للاعتداء والطرد والنفي من قبل العرب، فهذا البلد قد عمّر ثانية. ٣) متى حصل ذلك؟ ٤) كيف وصل العرب إلى الحبشة؟ ٥) هل وصلوا براً أم بحراً؟ ٦) وإن وصلوا بحراً، هل اجتازوا البحر الأبيض المتوسط، ومصر، والسودان؟ ٧) هل نجد آثاراً تثبت ذلك؟.

في ٢٩ منه، كنا على خط العرض ١٢°، ٣٠َ، وفي ٣٠ منه، على خط العرض ١٣°، ٤٩َ جنوبي رأس غردافة.

وكانت صحة السيد كرامر تتحسن منذ إبحارنا. أما السيد بورنفايند، فكان مرضه يزداد سوءاً إلى أن بلغ منه مبلغاً، ولم يعد قادراً على الإجابة على أسئلتنا؛ واسترسل بعدها في سبات عميق، لم يكن يستفيق منه إلا لتناول الأدوية والطعام. غير أنه ما لبث أن أسلم الروح في ٢٩ آب/أغسطس عند الساعة الحادية عشرة مساءً.

ولا داعي لأن أثني على أعمال هذا الفنان، المتناثرة في هذا الكتاب، والتي تشهد على مهارته وفعاليته. غير أنني آسف جداً، لعدم تمكنه من العودة إلى الدانمارك، ليقدم أعماله بنفسه للناس.

كان خادمنا برغرن مريضاً جداً عند صعودنا إلى الباخرة؛ وقد عمل في خدمة رجل سويدي، قاد حروباً عدة ضد البروسيين. وعند مغادرتنا من كوبنهاغن، كان يتميز ببنية قوية قادرة على احتمال متاعب الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية؛ غير أنه ما لبث أن أصيب بالمرض ولفظ أنفاسه الأخيرة في ٣٠ آب/أغسطس؛ فرميت الجثتين في البحر.

وبعد عبورنا رأس غردافة، انتقلنا إلى مناخ مختلف كلياً، فالهواء كان بارداً للغاية إلى حد أننا ارتدينا ملابس سميكة. وكان الهواء شمالياً غربياً من باب المندب إلى رأس غردافة؛ غير أنه كان جنوبياً غربياً من هنا إلى ساحل مالابار؛ وإن كان الربّان محنكاً، استطاع أن يحدد موعد وصول السفينة إلى سورات أو بومباي، ما إن يبلغ رأس غردافة.

ويدّعي الإنكليز الذين عبروا عدة مرات من ساحل مالابار إلى الخليج العربي، أن المسافة التي تفصل بين بومباي وباب المندب تقع على خط الطول ٣٠ درجة؛ غير أن هذه المسألة لم تتعد ٢٦ درجة في طريق العودة، نظراً لسرعة مجرى النهر، الذي كان يدفعهم نحو الشرق. أما السفن الأوروبية الأولى، التي أبحرت بهذا الاتجاه، ولم تستطع العثور على ساحل مالابار بفعل الأمطار والضباب، فقد تعرضت لخطر الغرق على سواحل بلاد الهند. ولكننا نستطيع اليوم القيام بهذه الرحلة، دون التعرض لأي خطر، لأننا نشاهد شرقي بومباي في قعر المياه، وغربها أفاعٍ مائية، يتراوح طولها بين ١٢ و١٨ بوصة، تطفو على سطح المياه. فما إن يبعد الربابنة ٢٤ درجة شرقي باب المندب، يبدؤون بالبحث عن هذه الأفاعي التي تشير إلى ابتعادهم عن الساحل درجتين تقريباً(*).

شاهدنا الأفاعي المائية، لأول مرة في التاسع من أيلول/سبتمبر؛ فعند الواحدة من بعد الظهر، كان عمق المياه يبلغ ٥٣ باعاً؛ ومع اقترابنا من السواحل، راح مستوى المياه ينخفض. حرص الربّان على التقدم

(*) أشار أربان إلى هذه الأفاعي المائية في كتابه، ص ٢٢ - ٢٣.

شمالاً، لأن الرياح الجنوبية كانت تعيق عملية الإرساء. وبعد عناء وجهد، ألقينا المرساة في ١١ أيلول/سبتمبر في مرفأ بومباي، ودخلنا إلى المدينة، صباح اليوم التالي.

علم القراء أن ملك سردينيا، أرسل إلى البلدان الشرقية، مجموعة من العلماء، أثاروا خلافات حادة عند وصولهم إلى الاسكندرية في مصر، ولم يسمح إلا للسيد دوناتي، الذي كان يترأس المجموعة، بمتابعة الرحلة بينما عاد الآخرون إلى أوروبا. ويبدو أن أحداً لم يسمع شيئاً عن السيد دوناتي، حتى العام ١٧٧٢، لذلك وجدت نفسي مجبراً على ذكر الموضوع. فالذين أتيحت لهم فرصة التعرف على هذا العالم، في الشرق، يثنون على مهارته في التاريخ وعلى فعاليته في الأبحاث الأثرية، وأخبرني القنصل فيرو في القاهرة القصة التالية: وصل السيد دوناتي إلى القاهرة، آتياً من الإسكندرية؛ وعبر بعدها النيل ليصل إلى مصر العليا. وفي أحد الأيام، غادر سفينته ليرسم بعض الآثار، فاعترض فارسان عربيان طريقه؛ فتوسل إليه خدمه وبعض التجار المرافقين له، أن يعود أدراجه، حتى لا يقع ضحية هذين اللصين؛ غير أنه تابع الرسم، بينما عاد رفاقه إلى السفينة. انقض الفارسان على السيد دوناتي، وحاولا ضربه برماحهما؛ ولكنه كان مسترسلاً للغاية في الرسم إلى حد أنه لم يعرهما اهتماماً، ولم تظهر عليه بوادر الخوف منهما. فتعجب الفارسان من تصرفات هذا الرجل؛ فترجلا عن جواديهما، وجلسا بقربه، إلى أن أنهى الرسم، وتركاه بعدها يعود سليماً معافى إلى سفينته. ولعل الناس غالوا في رواية هذه القصة، غير أن السيد دوناتي تابع أبحاثه بثقة ونشاط؛ وعلى كل رحالة يبغي الاستفادة من رحلة مماثلة أن يحذو حذوه.

قبل ستة أشهر من وصولنا إلى القاهرة قصد السيد دوناتي دمشق، ومنها إلى بغداد وإلى البصرة برفقة خادم إيطالي، وشاب من القاهرة يجيد اللهجات الشرقية كلها. وبعد وصوله إلى البصرة، أبحر برفقة أربعة رهبان كرمليين إلى مسقط، على متن زورق إنقاذ صغير، علماً أنه لا تكثر في ذلك الفصل السفن المغادرة إلى الهند. وبعد أن ملّ من مسقط، أبحر ثانية برفقة الرهبان المذكورين آنفاً، باتجاه مرفأ مانغلور، على ساحل مالابار. غير أنه مرض في الطريق، وأسلم الروح بعد ثلاثة أيام، قبل أن يبلغ مركبه المرفأ المذكور. ترك دوناتي مبلغاً من المال لترجمانه، حتى يتمكن من العودة إلى مصر، ولخادمه، ليعود إلى إيطاليا؛ فقصد بومباي، ومنها إلى مسقط، قبل بضعة أشهر من وصولي إلى المدينة. قيل لي في البصرة إن تاجراً إنكليزياً اصطحب الترجمان معه إلى حلب. أما الخادم الإيطالي فخسر جزءاً كبيراً من أمواله في بومباي، واعتنق الإسلام في مسقط.

يبدو أن السيد دوناتي اتخذ الإجراءات اللازمة، ليبلغ بلاده بآخر أخباره، ويرسل إلى إيطاليا أوراقه وأمواله مع الرهبان الأربعة. ولقد قابلت في بومباي أحد الرهبان الكرمليين، الذي أكّد لي أنه سلّم أغراض السيد دوناتي إلى السيد فيرير. مما يشير إلى أنهم لم يستلموا شيئاً في تورين، كما وأنهم لم يعرفوا شيئاً

عن أخبار هذا العالم العظيم؛ وشاع في إيطاليا أنه رحل إلى بلاد فارس حاملاً معه أمواله كلها، واعتنق الدين الإسلامي.

ولما كان من الصعب العثور على الأوراق التي تركها السيد دوناتي، علماً أنه تمّ استجواب الرهبان الكرمليين، الذين قصدوا عام ١٧٦٢ أو ١٧٦٣، ساحل مالابار، فضلاً عن نائب ملك غوا، يمكننا الافتراض أن نفقات ملك سردينيا على هذه المجموعات قد ذهبت سدىً. أما بالنسبة إلى مجموعتنا، فلم يصل منا إلى بومباي، سوى السيد كرامير وأنا. غير أن الموت ما لبث أن سلبني رفيقي في السفر، بعد بضعة أيام من وصولنا إلى هذه المدينة. فلم يتبق بالتالي من المجموعة التي أرسلها ملك الدانمارك إلى شبه الجزيرة العربية سواي أنا. غير أنني أرجو أن لا تؤثر هذه الأحداث على حب الملوك لدعم هذه الرحلات أو على حماسة العلماء للقيام بها. فلو لم يسرع السيد دوناتي بالذهاب إلى الهند، ولو كنا ملقحين ضد الزكام؛ ولو حاولنا أن نعتاد على طريقة عيش الشرقيين؛ ولو أظهر أفراد هذه المجتمعات انفتاحاً أكبر تجاه بعضهم بعضاً ولم يعرقلوا سير رحلاتنا، لعدنا جميعاً إلى أوروبا. ولنفترض أننا متنا في هذه الرحلة، فإنه لفخر لنا أن نقضي في سبيل العلم. وإن عدنا سالمين إلى بلادنا استرجعنا بالذاكرة المتاعب التي واجهناها، والشعوب التي تعرفنا عليها، والتي تختلف صورتها كلياً عن تلك التي وضعها لها الأوروبيون.

وفي هذه المناسبة، سأنقل لكم قصة عالم آخر، أرسلته فرنسا إلى الشرق، ولم يسمع به أحد في أوروبا الشمالية. كان هذا العالم يدعى سيمون، وهو عضو في جمعية العلوم في باريس، ويعمل عالماً بالطبيعيات وطبيباً وعالم فلك؛ أبحر هذا العالم من فرنسا إلى حلب. وحاول مواطنوه المقيمون في هذه المنطقة، أن يجعلوا إقامته فيها ممتعة. غير أن رحلته ليست بهدف الاستمتاع برفقة الرعايا الأوروبيين. فقرر عندئذ الانتقال إلى ديار بكر، علّه يستطيع متابعة أبحاثه من غير إزعاج. فلم يقابل في هذه المنطقة سوى رهبان كبوشيين استقبلوه في ديارهم بالترحاب؛ غير أن هذه الجماعة كانت تعاني من الانشقاق؛ وأخذ الرهبان ينغصون على السيد سيمون عيشه، خاصة بعد أن لاحظوا أنه يجني أموالاً طائلة من ممارسة الطب، مقارنة بالمكاسب التي يجنونها. ولما عجز السيد سيمون عن تحمل تصرفات الأوروبيين معه، قرر اللجوء إلى الجامع الأكبر واعتناق الإسلام. فبذل الرهبان الكبوشيون قصارى جهدهم لثنيه عن مراده، غير أنه أصرّ على الخضوع لعملية الختان. ولعله ظن أن الأتراك سيغدقون عليه المال، نظراً لمهاراته، التي لا مثيل لها في بلادهم. ورغم أن الأتراك سمحوا له بممارسة مهنته بحرية، إلا أنهم لم يكفوا عن احتقاره لأنه ارتدّ عن دينه وخان بلاده. وعند ذلك، انتقل السيد سيمون إلى بغداد حيث كان يبيع العقاقير، ويمارس الطب. ورغم كل ما جرى له، لم يفقد حبه لمهنته ولعمله. وفي تلك الحقبة كانت بلاد فارس تعاني من الحروب المدنية، فقد اكتسب أحد الضباط الفرس واسمه نادر شاه: لقب خان، وحاول الفرس بقيادته السيطرة على عدة أقاليم مثيرين بذلك حروباً دموية. ثم أصاب المرض الخان، بعد أن استولى على إحدى

المدن المحاذية للحدود التركية؛ ولما علم بأمر الطبيب الأوروبي المقيم في بغداد، أرسل بطلب السيد سيمون، الذي رفض تلبية هذه الدعوة. فغضب الضابط الفارسي من رفض الطبيب طلبه هذا، وكان عاجزاً عن إخراجه بالقوة من بغداد؛ لذلك استغل فرصة خروجه إلى الجبال لجمع الأعشاب وأرسل رجاله ليقبضوا عليه، وليرغموه بالقوة على معالجة الخان، لخطورة حالته. والجدير ذكره أن الفرس لا يدفعون أجراً للأطباء. وإن قضى المريض ألقوا اللوم على الطبيب المعالج. وبعد موت الخان، تعرّض السيد سيمون للضرب وزجّ في السجن. غير أنه استلم الحكم في البلاد خان آخر، مصاب أيضاً بالمرض؛ ولما علم بوجود طبيب أوروبي في السجن أطلق سراحه على الفور؛ وبعد أن عالجه، وساهم في شفائه، طلب الطبيب من الخان الإذن بالعودة إلى بغداد. فما كان من هذا الأخير إلا أن أجبر السيد سيمون على مرافقته في غزواته ليقضي الطبيب في واحدة منها.

ولقد أسف الأوروبيون، الذين تعرفوا على السيد سيمون لموته. الذي كتب للسفير الفرنسي خلال إقامته في بلاد فارس، في البصرة رسائل غريبة للغاية، جعلت البعض يقول إنه مضطرب عقلياً. ولعله قرر اعتناق الإسلام في ديار بكر، خلال إصابته بإحدى نوباته المشؤومة.

سير رحلة هولندي في مناطق يمنية لم تذكر في الصفحات السابقة

هذا الهولندي هو المرتد نفسه الذي تحدثت عنه في كتاب (**وصف شبه الجزيرة العربية**)؛ فقد عرض علي الملاحظات الجغرافية التي دوّنها خلال رحلاته في اليمن؛ ولاحظت أنه يصف فيها مدناً لم أزرها، فطلبت منه نسخة عنها؛ وحرصت على ترجمتها من الهولندية وإدراجها في هذا الكتاب علماً أنها تروق لهواة علم الجغرافيا. غير أنني نسيت أن أدوّن اسم هذا الرجل الطيب، لأنني أصبت بالمرض خلال إقامتي في المخا؛ والجدير ذكره أنه دوّن في نهاية رواياته، الأحرف التالية (DWIIR)؛ وهي تمثل الأحرف الأولى من اسمه.

I ـ الطريق المؤدية من صنعاء إلى بيت الفقيه عبر ريما

عند مغادرتنا صنعاء، نقطع ثلاثة فراسخ تقريباً لنصل إلى قرية حوص المسوّرة؛ ونعبر بعدها ودياناً وجبالاً، لنبلغ قرية ويسان (Weisan) الغنية بالمزروعات؛ وهي ملك عائلة إسحاق ابن الإمام المهدي أحمد، صاحب شار. وعلى مقربة من قرية ويسان، نشاهد قصراً كبيراً، مبنياً على قمة جبل شاهق. قطعنا بعده طرقات وعرة، مرصوفة بمعظمها لنبلغ قرية ضفة الصغيرة؛ ونرى على مقربة منها بقايا صرح قديم، وحجارة مقصوبة، مغطاة بنقوش غريبة(*). تمتد على بعد ثلاثة فراسخ تقريباً من ضفة أراضٍ قاحلة، تضم قريتين صغيرتين، وتؤدي إلى بلدة منجا، حيث نجد خاناً للقوافل مبنياً من الحجارة. وتقع، على مسافة نصف فرسخ ضواحي مدينة دوران؛ يحد بها من الشمال سهل فسيح، ومن الشرق والجنوب والغرب، مرتفعات وهضاب. وشق على الجبل الوعر، الذي تقع عليه المدينة، طريق مرصوف يصل إلى القمة؛ ونصادف في منتصف الطريق، باباً مطيناً يشرف على مقر الشيخ حسان كابالي. أما على قمة الجبل، فنجد جامعاً كبيراً، يعلو قبر المتوكل إسماعيل بن قاسم الكبير، الذي يقدسه الناس؛ وعلى مقربة من هنا، نجد ضريح حسان بن قاسم الكبير، والإمام المجد بلال بن المتوكل؛ فضلاً عن مخزنين محفورين في الصخر، يسميان جهنام والبنو(**). يبلغ طول مساحة الجبل، يوم سفر بكامله؛ والتربة فيه محروثة جيداً.

(*) أظن أنها النقوش، التي أتيت على ذكرها في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. واعتبرتها نقوشاً حجرية.

(**) أظن أن هذين المخزنين قد استعملا سابقاً كفندق للحجاج الذين يعبرون من هنا، أو كمخازن للقمح؛ وهي تسمى أيضاً جهنام، أو ابن جهنام.

عند مغادرتنا دوران، نجد قرية صغيرة، على اليسار وقرية أخرى على اليمين، وبعد أن نسلك منحدراً وعراً، نصل إلى مقر نقيب من بيت الكرمي، ومنه إلى خان جرف ابن عامر، الواقع على حافة جدول صغير، بين الجبال في إقليم جميل، تكثر فيه مزارع البن؛ وتتابع بعدها طريقنا نزولاً، لنعبر سهلاً رملياً، ونصل إلى مضيق ديك ابن عامر؛ ويبلغ طول هذا المضيق الواقع عمودياً، حوالي فرسخ تقريباً بينما يتراوح عرضه بين ست وسبع أقدام. ونقع بعدها على نهر راما الذي ينبع من هذا الأقليم. غير أننا اضطررنا لعبور النهر المذكور الذي تحدّه جبال وعرة حتى نبلغ خان زومان. وبعد أن قطعنا ثلاثة فراسخ، وهضاباً وأودية متعرجة، بلغنا مدينة العبيد؛ وهي بلدة كبيرة، تقع على تلة خصبة بالقمح، وبمزارع البن.

وبعد أن سرنا خمسة أميال ونصف من عبيد، بلغنا مضيقاً شمالي الجبل، يبعد فرسخين تقريباً عن بلدة سوق الحد. ومررنا لاحقاً بقرية لوما، وقرية سوق السبت، وقصر شيخ سيلفيا الواقع على جبل شاهق، المحاذي لخان القوافل مبني من الحجارة؛ كما وأن قصر المدعو علي بن منصور واقع على القسم الأعلى من الجبل نفسه، وسلك الهولندي بعدها منحدرات كثيرة، ولاحظ في طريقه، أشجاراً غريبة؛ لكن من خلال وصفه لها، تبين لي أنها شجرة التين المعروفة في الهند، التي تكثر عليها حشرة المغافير؛ وشاهد أيضاً على هذه الطريق بساتين ينمو فيها البن تحاذي مقهى سقل (Sochol). ومرّ بعدها بقرية مقيجا العين، وبمقهى بيت الشغلي، ووادي دهيجان؛ غير أنه اتجه بعدها يميناً ليصل إلى خان سوق الهال. يتفرّع من هذه المنطقة طريقان؛ واحدة تؤدي يميناً إلى جبي وأخرى يساراً إلى قسمة؛ ففضل رحالتنا أن يتجه يساراً ليصل إلى مقهى عشب، ومنه إلى قصر منور (ManoŸr). وبعد أن قطع فرسخين ونصف، شاهد على يساره، قصراً متداعياً كلياً؛ فتابع طريقه، ليبلغ مقهى متاع. وبعد أن قطع الجبال والتلال المجاورة، وصل إلى بلدة قسمة حيث يقيم صاحب دولة هذا الأقليم؛ وبعد نصف فرسخ جنوبي غربي المدينة، يقيم الشيخ محسن بن أحمد الدير.

يتميز الطريق المؤدي من قسمة إلى بيت الفقيه بمنحدراته الوعرة، وبساتين البن الكثيرة، وقراه المتناثرة هنا وهناك ومنها قرية منيرة، وخان العرس. ومقهى قبة الشريف. وإن تابعنا طريقنا إلى ألوج (Aludjse)، قطعنا طريقاً رملياً، يتحول إلى سيل جارف، خلال فصل الشتاء. تضم بلدة ألوج سوقاً شعبياً وخاناً للقوافل؛ وهي تبعد فرسخاً على مقيا الدراية، وفرسخين ونصف عن أرض مغطاة بالأشجار، تمتد بعد الجبال الوعرة التي تصل هذا الإقليم بتهامة.

تتميز الحقول المجاورة لجبال تهامة بغناها بالمزروعات. وفي طريقنا من ألوج إلى بيت الفقيه، نعبر أولاً بقرية سعيد، الواقعة على بعد فرسخ من الجبل ونصف فرسخ جنوبي مطاحن. وأظن أن قرية سعيد هذه هي قرية صعود (SauŸd)، التي مررت بها في طريقي إلى حدي (Hadie)؛ ومما لا شك فيه أن هذا الهولندي، سلك الطريق نفسه الذي وصفته سابقاً، للوصول إلى بيت الفقيه.

في الطريق من مدينة العبيد إلى قسمة نستطيع أن نسلك طريقاً مختصرة ومريحة؛ غير أن العرب يدّعون أن هواءها ملوّث، وبالتالي، لا أحد يمر بها، تسمى هذه الطريق وادي دهيسان، وهي توصل منطقة سيلفيا عن مقاطعة أتوما (Othuma)، وتمتد إلى منطقة مسوار (Masuär)، ومنطقة دوبارا لتنتهي في منطقة جمان (Jäman)؛ ونقطع بعده منحدرات ومرتفعات كثيرة، لنصل إلى منطقة زيل الشفا (Zêl el Siva)، على سفح جبل قسمة الوعر. ونجد على هذه الطريق أربعة مقاهٍ؛ نسي الهولندي اسم أولها. أما البقية، فهي بيت الغزيلي، المجاور لمقر الشيخ صحبي حسين الغزيلي والجامع جميل مزين بقبة، ومقية معن، ومقية السيفا.

II ـ الطريق المؤدية من قسمة إلى جبي

للذهاب من قسمة إلى سوق الهال، علينا أن نسلك طريق عبيد؛ وهي وعرة بمعظمها، ومتعرجة حول الجبال، وتؤدي إلى مقر المدعو الشيخ سيد بن مفيد، وإلى قصر محمد بن مفيد شقيق الشيخ المذكور. وبعد أن نتجه نزولاً نصل إلى جامع صغير وخزان للمياه. وتقع على مقربة من هنا بلدة سوق التلعب (SuŸk el TeluŸb)، على سفح جبل وعر. وعلى بعد فرسخ من هنا، بلدة جبي حيث يقيم صاحب دولة هذا الأقليم. ويقام كل نهار ثلاثاء سوق شعبي؛ وأحيطت هذه البلدة بسور عالٍ وبني لها بابان.

III ـ الطريق المؤدية من جبي إلى بيت الفقيه

ينحدر الطريق من جبي، شرقاً وتحد به من الجهتين قرى صغيرة، ويؤدي على مسافة فرسخ ونصف إلى فندق ابن هذان المجاور لجامع رائع، حيث بني خزان للمياه. وبعد أن نقطع فرسخين من الأراضي المزروعة، نصل إلى قرية تضم قبر النبي العلوي، الذي يحتفل بعيده في شهر شعبان، وبعد أن نسير قرابة الساعة، مروراً بوادي رباط النهري، نصل إلى بلدة كبيرة، يقام فيها سوق شعبي؛ وتشاهد على الجبل المحاذي لها، ضريح النبي عمر النهري، الذي يعلوه جامع جميل، فضلاً عن مقر المدعو زبد بو الغيث النهري، الذي يهتم بالجامع المذكور، ويدير نزلاً كبيراً، يلجأ إليه المسافرون للراحة. ونمر بعدها ببلدة بلبيل، ومقية الخادم، ومطاحن، لنصل إلى بيت الفقيه؛ ويمكننا القول بالتالي إن جبي تبعد مسافة نهار ونصف عن بيت الفقيه (أظنه يقصد نهارين ونصف).

IV ـ الطريق المؤدية من جبي إلى سمفور

تتميز هذه الطريق بكثرة تعرجاتها حول الجبال، وهي تؤدي إلى بلدة قطفان، التي تضم خاناً للقوافل. وبعد أن نبعد عن الوادي، نصل إلى قرية سوق الجمعة الواقعة على سفح الجبل، ونعبر بعدها قرية مقية الفيل، لنرحل إلى سمفور. ويمكننا القول بالتالي إن هذه الطريق تحتاج نهاراً ونصف.

V ـ الطريق المؤدية من صنعاء إلى قسمة عبر لومة

بعد مغادرتنا صنعاء، مررنا ببلدة حسيس الصغيرة والمذكورة آنفاً؛ وانتقلنا بعدها إلى بلدة سوق الآسس (Sük el Ass)، الواقعة على الجبل، حيث تكثر مزارع البن. وبعد مغادرتنا هذا المكان، بلغنا بلدة سوق الحد، ومنها إلى سوق الجمعة، التابعة لدوران. وبعد اجتيازنا مناطق جبلية وعرة، غنية بالأشجار وصلنا إلى قرية لومة التابعة لنفوذ حاكم سوق السبت؛ ومنها إلى قسمة التي أتيت على ذكرها سابقاً؛ ويمكننا القول بالتالي إن صنعاء تبعد مسافة ثلاثة أيام عن لومة.

VI ـ الطريق المؤدية من ذمار إلى دوران

خلال سفرنا من ذمار إلى دوران، نعبر في جوار بلدة حيران، لنصل إلى قرية الخاما (El KhaŸma)، ومنها إلى قباتل (Kubatel). وبعد أن نعبر سهولاً رملية، وجبالاً وعرة نصل إلى قرية مابر (Maber) حيث يقيم عدد كبير من النساجين، وتقع على مقربة من هنا، قرية منجا، المحاذية لمدينة دوران.

VII ـ الطريق المؤدية من صنعاء إلى صعدة

بعد مغادرة صنعاء، نمر ببلاد همذان، التي تبعد نصف نهار عن بلدة جربان، ونهاراً بكامله، عن عمران. وهذه البلدة المسوّرة تقع في أرض وعرة، جميلة وخصبة. فيها بابان، يقام قرب الباب الشرقي منها سوق شعبي كل أسبوع. وبعد أن نجتاز منطقة سوية وخصبة، تعرف ببقاع البون، نبلغ بلدة خباذ المسوّرة، ومنها إلى دوبار، وجبل علا، ونجد على بعد فرسخ منها، خان رهيد، المبني على سفح جبل تقع على قمته بلدة بيت الأدهم.

يمتد الطريق من رهيد غرباً، إلى بلدة حمدة حيث يقام سوق شعبي كل خميس. أما الطريق الشرقي الذي يمر بسوق زيد وخان الشمس فيؤدي إلى دبين.

ويمتد من رهيد طريق آخر شمالاً نحو جبال مزروعة مروراً ببلدة سبرا وقرية مهامة الواقعة على بعد نصف فرسخ؛ ونرى شرقاً قرية جليدي (Djelledi) الكبيرة. وإن تابعنا طريقنا عبر الجبال والسهول الخصبة نصل إلى قريتين، تقع الأولى على منحدر وعر، والثانية في سهل منبسط، وتسمى مفاس، وتخضع لنفوذ بني كلبان. ونجتاز بعدها قرية القصر المسوّرة، لنتابع طريقنا نحو قرية غولة، علماً أن القرى الصغيرة، تحد الطريق من الجانبين. وننتقل بعدها إلى مدينة شامير التابعة لإمام صنعاء؛ الذي عيّن سيدي ابن محسن، شقيق المرحوم الإمام المتوكل قاسم بن حسين، حاكماً عليها؛ والجدير ذكره أن منطقة شامير تقع في مناطق نفوذ بني سريم. وعلى مسافة أربعة فراسخ نصل إلى خان مقية بن عامر الذي يبعد فرسخاً عن بلدة أسيرة. ونقع بعدها على مقر إقامة المدعو النقيب صلاح بن نصر، من عائلة حاشد؛ وتسمى هذه

المنطقة بني شعر. ونصادف بعدها قريتي مفوة وقاطرين، شرقي الطريق؛ ونمر في بلدة حود المسورة الواقعة بين جبلي الجمار وورومية في مناطق نفوذ بني أسمد. على بعد فرسخ ونصف شمالاً نصل إلى البلدة التي تقيم فيها عائلة النقيب علي بن واسر الأحمر الذي قطع رأسه في صنعاء. وإن تقدمنا في البلاد بلغنا مقهى الفوق؛ لنتوجه بعدها إلى بلدة شوان المفتوحة، والمجاورة لبقايا قصور الأئمة الذين حكموا صنعاء في الماضي. (تعود هذه البقايا إلى زمن بني توبة الذين أشرت إليهم في كتاب **وصف شبه الجزيرة العربية**). وتقع غربي الطريق قريتا بوبان، وبيت التوبة. وبعد أن نجتاز جبل أسود، نصل إلى بلدة سوق الحرف، في إقليم سفيان، ثم على بعد نصف فرسخ من هنا تقع بلدة مبروكة المسوّرة التابعة لعائلة جيش. وبعد مغادرتنا سوق الحرف نجد على مسافة أربعة أو خمسة فراسخ بلدة بركان على حدود إقليم سفيان.

يسمى الإقليم الممتد من بركان إلى بلدة قدة (Kuddet)، أماسيا (Amasia)؛ وهو إقليم شبه خال من السكان ويشكل خطراً على المسافرين. ثم نجد في منتصف الطريق خزاناً للمياه، اعتاد المسافرون على المبيت بقربه. وبعد أن نقطع نصف نهار في الأراضي الخصبة، نصل إلى مدينة سعد المسورة، والتي تفوق صنعاء مساحة؛ ولها ثلاثة أبواب: باب هادي، باب منصور، وباب القصر. وتضم قصراً كبيراً وحصناً منيعاً فضلاً عن جامع مزين بقبة وضريح الإمام المهدي، نبي الأنبياء. ويقول صاحب هذه الرحلات إن معظم سكان هذه المدينة هم من اللصوص والنصابين؛ وهم يرفضون منح حاكمهم يوسف بن قاسم مقراً له في المدينة، علماً أنه يقطن على بعد نصف نهار غربي سعد. ونجد على مسافة فرسخين أو ثلاثة من سعد، جامعاً كبيراً، يدّعي العرب أنه ضريح أيوب، المعروف بصبره(*). تكثر في سعد مناجم الحديد؛ ويقال إنها تبعد سبعة أيام عن صنعاء.

VIII ـ الطريق المؤدية من صنعاء إلى كوكبان

عند خروجنا من صنعاء نعبر في بئر الغرب، ومنه إلى خان مطبخ، الواقع على حدود إقليم حمدان. ونقع على بعد فرسخين ونصف على خان طويلة الكبير. والجدير ذكره أن الجبل يحد الطريق من يمنيها. وبعد أن نقطع حوالي فرسخ ونصف نصل إلى خان بيت النوم. ونمر بعدها بجدول صغير، وجبل شاهق، محاذيين لقرية مناكب، الواقعة في وادٍ رملي؛ وننتقل بعدها إلى قرية حجر سيد، التي تضم قصراً كبيراً. أما إقليم حيم فيقع جنوبي الطريق، وإن تابعنا طريقنا، نصل إلى مقهى، على الحدود الفاصلة بين همذان وكوكبان، وإن قطعنا فرسخاً آخر عبر أرياف مزروعة نصل إلى بلدة شبام المسوّرة والواقعة على سفح جبل وعر. ونشاهد خارج البلدة، بساتين جميلة وجامعاً كبيراً يضم قبر محمد بن حسين ابن سيدي أحمد الحاكم حالياً. وإن قطعنا نصف فرسخ عبر طريق مرصوف، في جبل متعرج، نصل إلى مدينة

(*) أرشدوني إلى ضريح أيوب في شرقي شبه الجزيرة العربية، على ضفاف الفرات، في جوار هالة أو بابل.

كوكبان؛ وهي مسورة من الشمال، ولها ثلاثة أبوب محصنة بثلاثة أبراج؛ منذ بضع سنوات، ولقد بنى الملك الحاكم، قصراً فخماً على جبل نقم، قرب صنعاء.

VIIII ـ الطريق المؤدية من شبام إلى عمران

على الطريق المؤدية من شبام إلى عمران، نقطع أولاً بساتين خصبة، ومنها إلى مناطق وعرة، لنصل على بعد فرسخ ونصف إلى بلدة تولا، المسورة؛ وهي تتميز ببرجيها: باب هادي وباب عمران؛ ونجد أيضاً هنا قصراً محصناً مبنياً على صخرة وعرة، علاوة عن ضريح أحد أبناء الإمام الهادي، الذي دفن في جامع في صعدة. وعلى بعد فرسخ ونصف نزولاً نصل إلى قرية دهان المسورة، ومنها إلى بلدة قريتين، بحيث يمتد الطريق عبر أرياف مزروعة، مروراً بقرية نجرا، ومنها إلى عمران، على بعد فرسخ تقريباً.

طريق كوكبان، عبر حشيش في تهامة

بعد مغادرتنا كوكبان، نقطع حوالي ثلاثة فراسخ في سهل واسع، لنصل إلى مقهى محاذٍ لجدول صغير. ونشاهد في طريقنا، قرى صغيرة متعددة، مروراً ببلدة طويلة المفتوحة، التي تضم قصراً محصناً مبنياً على صخرة وعرة، وسوقاً شعبياً. وبعد أن نسير حوالي فرسخين عبر طريق متعرجة نصل إلى قرية أخرى تضم خاناً للقوافل. غير أننا نسلك بعدها درباً سوياً ورملياً لنجد على اليسار قصراً عالياً. ونتابع بعدها الطريق نزولاً، ونعبر أراضٍ مغطاة بالأشجار، لنبلغ قرية واقعة شمالي الطريق. إلا أن الطريق الممتد إلى إقليم حبشة يؤدي إلى قرية رجم، الواقعة على منحدر وعر؛ ومنها إلى بلدة مهاود، حيث نجد بقايا قرى قديمة؛ وتعد بلدة مهاود من البلدات الكبيرة، ويقام فيها نهاري الثلاثاء والأحد، سوق شعبي؛ وإن تابعنا طريقنا من هنا، نشاهد بعض القرى على حافتي الطريق، وبعض الأراضي المغطاة بالأشجار المثمرة؛ ونصل إلى مقهى على حدود إمارة كوكبان؛ غير أن الطريق الممتدة من هنا، محفوفة بالمخاطر، ومغطاة بالغابات الكثيفة؛ وهي تؤدي إلى جبل وعر، يعرف بجبل حفاش (Hofasch)، يبعد فرسخاً تقريباً عن مركز لحرس صاحب دولة سفكين، حيث يتم تفتيش المسافرين؛ ويبعد هذا المكان حوالي فرسخين عن بلدة سفكين حيث يقيم صاحب دولة إقليم حشيش.

تكثر الطرقات التي تؤدي إلى سفكين في تهامة؛ وتقع واحدة منها غرباً، وتؤدي إلى حدود محافظة حشيش ويتفرع من هنا طريق باتجاه ولاج، مروراً بملهان.

ملاحظة: تبعد صنعاء عن روضة مسافة خمسة أيام.

وتبعد روضة عن قطبة مسافة يومين، وتعز عن قطبة يومين تقريباً، وقطبة عن عدن ثلاثة أيام ونصف(*)، وتعز عن عدن أربعة أيام والمخا عن عدن ثمانية أيام.

(*) لعل بلدتي روضة وقطبة تقعان في الجهة الجنوبية الشرقية كما أشرت على خارطة اليمن.

ملاحظات حول الجو
في كل من القسطنطينية والقاهرة
وشبه الجزيرة العربية وبومباي

إن محرّ فهرنهايت الذي استعملته في سفري كان من صنع تموتنغ وقد أشرف على صناعته البروفسور هولمان وهو معروف بدقته الشديدة. أما مِحرّ ريومور فهو من صنع مارسيليا تحت إشراف السيد نوبي. وكان البروفسور كراتزنشتاين قد بيّن في القسم العاشر من دراسات الأكاديمية الملكية للعلوم في كوبنهاغن (ص ٣٢٩) وفي كتاب الفيزياء (ص ٣٠٠) أن محرّ ريومور الجديد لا تتفق نتائجه مع محرّ ريومور الأصلي. أما عن الملاحظات القليلة التي قمت بها حول محرّ ريومور فقد حولتها إلى مقياس فهرنهايت لكني لن أذكرها هنا.

وفي دراساتي كافة كان المحرّ معلقاً في الهواء الطلق وفي الظل. ففي بيرا (Pera) علقته على نافذة مفتوحة باتجاه الشمال الشرقي تقريباً، وفي القاهرة وجهته نحو جنوب الجنوب الشرقي وفي جدة نحو غرب الشمال الغربي وفي لحية وبيت الفقيه نحو الشمال. أما غرفتي في المخا فلم تكن تسمح بهذه الدراسات. لذا كنت أضع المحرّ كل يوم عند الظهر في غرفة على مصطبة المنزل وكنت أفتح النوافذ والأبواب كي أسمح للهواء بالدخول بحرية. فكنت أعلقه في الصباح وأخرجه من البيت أثناء الليل.

وبما أن الشمس هي المصدر الأساسي لحرارة الجو، وبما أن القراء لا يعرفون بالضرورة تحديد موقعها خلال فترة زمنية ما وفي مكان محدّد، قررت أنه من الضرورة أن أحدد في كل جدول درجة ابتعاد الشمس عن سمت المدينة التي قمت فيها بوضع هذه الملاحظات.

تدوين السيد كرايمر في السويس لدرجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت خاصتي أثناء رحلتي إلى جبل سيناء عام ١٧٦٢.

اليوم	ارتفاع الحرّ عند الصباح	ارتفاع الحرّ عند الظهيرة	ارتفاع الحرّ عند المساء	الضباب في السويس
أيلول ٥	٨٤°	٩٤°	٨٨°	
٦	٨٦	٩٨	٨٢	
٧	٨٤	٩٦	٨٠	عند الصباح الباكر
٨	٨٠	٩٤	—	
٩	٧٦	٩٦	٨١	
١٠	٧٤	٩٨	٨٤	عند المساء
١١	٨١	٩٨	٨٥	عند المساء
١٢	٨٨	٩٨	٨١	عند المساء
١٣	٧١	٩٤	٨٩	عند الظهيرة
٢٠	٨٠	٩٢	٨٦	
٢١	٨٠	٩٢	٨٠	عند الصباح الباكر
٢٢	٧٦	٨٢	٨٠	
٢٣	٨٠	٩٢	٨٦	
٢٤	٧٢	٩٠	٨٨	
٢٥	٧٦	٩٦	٨٤	
٢٦	٧٨	٩٨	٨٠	
٢٧	٧١	٨٤	٨٢	طيلة بعد الظهر
٢٨	٧٢	٨٤	—	طيلة بعد الظهر
٢٩	٧٤	٨٤	٨٠	طيلة بعد الظهر
٣٠	٧١	٨٠	—	طيلة بعد الظهر
ت ١ ١	٧٠	٨٦	٨٠	
٢	٧٢	٨٢	٧٨	

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
٣	٧	٧٨°	١٢	٨٨ ٢/١°	١٠	٨٣ ٢/١	
٤	٧	٨٠	١٢	٨٦ ٢/١	—	—	
٥	٧	٧٧	٢	٩٠	٩	٨٢	
٦	٧	٧٩	١	٨٦ ٢/١	١٠	٨١	
٧	٧	٧٨	١	٨٤	٨ ٢/١	٨٠	
٨	٧	٤٧	٩	٨١ ٢/١	—	—	
٩	٧	٧٤	٢	٩١	٩ ٢/١	٨١	
١٠	٧	٧٦	١	٨٥	٨	٨٣	ش.غ
١١	٧	٧٨	١	٨٤	٩	٨١	
١٢	٦ ٢/١	٧٥ ٢/١	١	٨٥	٩	٨١	
١٣	٣	٧٨	١	٨٥	١٠	٨١	
١٤	٣	٧٨	١	٨٦	٩	٨١	
١٥	٧	٧٩	٢	٩٠	٩	٨٣	
١٦	٧	٨٠ ٢/١	٢	٨٨	٩	٨٣	
١٧	٧	٨١ ٢/١	١	٨٤	٩	٨١	ج
١٨	٨	٧٥	١	٨٦	٨	٨١	ج
١٩	٨	٧٧	٢	٨٧	١٠	٧٤	ج
٢٠	٧	٧٣	١	٨٤	٩	٨١	ج
٢١	١	٨٧	—	—	٩	٧٩	ش.غ
٢٢	٧	٧٧	—	—	٨	٨٠	
٢٣	٨	٧٦	٢	٨٥	٩	٨٠	ش.غ
٢٤	٨	٦،	٢	٥	١٠	٨١ ٢/١	عند نهاية الشهر
٢٥	٨	٨٠	٢	٨٧	—	—	كان يتراوح بين
٢٦	٨	٨٢	٣	٨٩	٩	٨٣	الجنوبي والغربي
٢٧	٧	٨١	١	٨٥	٩	٨٢	
٢٨	٨	٨١	٣	٨٦	٩	٨٢	
٢٩	٧	٧٧	١	—	—	—	
٣٠	٧	٨١	٢	٨٩	٩	٨٢ ٢/١	

تنخفض جدة بنسبة ٢١° ٢٨َ ، عن القطب. في ٣٠ ت٢/نوفمبر كانت الشمس تبعد عن السمت بمسافة ٤٣° ١١َ .

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في جدّة في بداية شهر كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المحرّ	ساعات المساء	ارتفاع المحرّ	الريح
١	٧	٧٩°	١٢	٨٦	٩	٨٤°	ج.غ
٢	٧	٨٠	٢	٨٦	٩	٨٢	ج.غ
٣	٧	٨٠	١	٨٨	٩	٨٢	ج
٤	٧	٧٩	١	٨٩	٩	٨٣	ج
٥	٧	٨٠	٢	٨٩	—	—	ش.غ
٦	٧	٧٩	١	٨٤	٩	٨٠	ش.غ
٧	٧	٧٦	١	٨٥	٩	٨٢	ش.غ
٨	٧	٧٧	١	٨٣	٩	٨١	ش.غ
٩	٧	٧٨ ١/٢	١	٨٤ ١/٢	—	٩	٨١ش.غ
١٠	٧	٧٩	١	٨٢	٩	٧٨ ١/٢	ش.غ

ملاحظات محرّ ريومور حول الخليج العربي بين جدّة ولحية في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢، وقد سجّلت على محرّ فهرنهايت في المكان نفسه.

١٦	٦	٧٧°	١٢	٨٧°	—	—	في ١٤ و١٥ كانت الريح شمالية. لكن منذ ١٦ وحتى نهاية الشهر كانت الريح جنوبية.
١٧	٦	—	٧٦	١٢	٨٧	—	
١٨	٦ ١/٢	٧٩	—	—	—	—	
١٩	٧	٧٧	١٢	٨٥	—	—	
٢٠	٧	٧٧	١٢	٨٥	—	—	
٢١	٦	٧٢	—	—	—	—	
٢٢	٦	٧٦	١٢	٨٥	—	—	
٢٣	٦	٧٦	١٢	٨٥	—	—	
٢٤	١٢	٨٤	—	—	—	—	
٢٥	١٢	٨٢	—	—	—	—	
٢٦	٦	٧٦	١٢	٨١	—	—	
٢٧	٦	٧٦	١٢	٨١	—	—	
٢٨	٧	٧٧	١٢	٨٣	—	—	

إن المسافة التي كانت تفصل الشمس عن السمت في ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢ في جدة كانت توازي ٤٤°، ٢٦َ .

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في مخيّة في شهر كانون الثاني/يناير ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المحرّ	ساعات المساء	ارتفاع المحرّ	الريح
١	٧	٧٣°	١٢	٨٣ ١/٢	١٠	٧٦°	
٢	٧	٧٢	١٢	٨٣	١٠	٧٤	
٣	٧	٧٤	١٢	٨٣	١٠	٧٦	
٤	٧	٧٤	١٢	٨٣	١٠	٧٩	
٥	٧	٧٦	١٢	٨٥	١٠	٧٩	
٦	٧	٧٩	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
٧	٧	٨٠	١٢	٨٤	١٠	٧٠	
٨	٧	٨٠	١٢	٨٢	١٠	٧٩	
٩	٧	٧٨	١٢	٨٢	١٠	٧٩	
١٠	٧	٧٦	١٢	٨٢	١٠	٧٩	
١١	٧	٧٦	١٢	٨٣	١٠	٧٩	
١٢	٧	٧٦	١٢	٨٣	١٠	٧٧	
١٣	٧	٧٦	١٢	٨٤ ١/٢	١٠	٧٩	
١٤	٧	٧٥	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
١٥	٧	٧٤ ١/٢	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
١٦	٧	٧٦	١٢	٨٥	١٠	٧٩	
١٧	٧	٧٨	١٢	٨٤	١٠	٧٨	
١٨	٧	٧٩	١٢	٨٤	١٠	٧٧ ١/٢	
١٩	٧	٧٦ ١/٢	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
٢٠	٧	٧٨	١٢	٨٥	١٠	٧٨	
٢١	٧	٧٤ ١/٢	١	٨٤	١٠	٧٩	
٢٢	٨	٧٦	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
٢٣	٧	٧٧ ١/٢	١	٨٤	١٠	٧٩	
٢٤	٧	٧٨	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
٢٥	٧	٧٥	١٢	٨٣ ١/٢	١٠	٨٠	
٢٦	٧	٧٨	١٢	٨٤	١٠	٨٠	
٢٧	٨	٨٠	١٢	٨٤ ١/٢	١٠	٨١	
٢٨	٧	٨١	١٢	٨٥	١٠	٨١	
٢٩	٧	٨٠	١٢	٨٦	١٠	٨١	
٣٠	٧	٧٩	١٠	٨٠	—	—	
٣١	٧	٧٨	١٢	٨٤	١٠	٧٩	

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في مخيّة في شباط/فبراير ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٨	°٧٥	١٢	°٧٨	١٠	°٧٦	[illegible]
٢	٧	٧٦	١٢	٨٣	١٠	٧٨ ٢/١	
٣	٧ ٢/١	٧٦	١٢	٨٣ ٢/١	١٠	٧٧	
٤	٧	٧٦ ٢/١	١٢	٨٢	١٠	٧٧	
٥	٧	٧٣	١٢	٧٩	١٠	٦٩ ٢/١	
٦	٧ ٢/١	٧٢	١٢	٧٨ ٢/١	١٠	٧٥	
٧	٧	٧٣	١٢	٧٩	١٠	٧٦	
٨	٧	٧٤	١٢	٨٢	١٠	٧٨	
٩	٧	٧٥	١٢	٨٢	١٠	٧٨	
١٠	٧	٧٦	١٢	٨٢ ٢/١	١٠	٧٧	
١١	٧	٧٤ ٢/١	١٢	٨٣	١٠	٧٨	
١٢	٧	٧٤	١٢	٨٢	١٠	٧٧ ٢/١	
١٣	٧	٧٥	١٢	٨٣ ٢/١	١٠	٧٩	
١٤	٧	٧٦	١٢	٨٣ ٢/١	١٠	٧٨	
١٥	٧	٧٥	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
١٦	٧	٧٦	١٢	٨٤ ٢/١	١٠	٧٩	
١٧	٧	٧٧	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
١٨	٧	٧٧	١٢	٨٤	١٠	٧٩	
١٩	٧	٧٦	١٢	٨٤	١٠	٧٩	

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في الشهر نفسه في بيت الفقيه

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
٢٦	٧	°٧٧	١٢	°٨٣	١٠	°٧٦	
٢٧	٧	٧٧	١٢	٨٦	١٠	٨٠	
٢٨	٧	٧٨	١٢	٨٨	١٠	٧٩ ٢/١	

في ١٩ شباط/فبراير كانت الشمس في لحية على مسافة ٢٦° ٥٨َ من السمت في ٢٨ شباط/فبراير وكانت على مسافة ٢٢° ٢٨َ ، في بيت الفقيه.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في بيت الفقيه في شهر آذار/مارس ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٧	٧٦°	١	٩٠°	١٠	٨٠°	سيطرت الريح الجنوبية السائدة طوال هذا الشهر على الغالب
٢	٧	٧٥	١	٩٠	١٠	٧٩	
٣	٧	٧٦	١	٨٩	١٠	٢/١ ٨٠	
٤	٧	٧٦	١	٢/١ ٨٧	١٠	٧٨	
٥	٧	٧٨	١	٩٠	١٠	٨٠	
٦	٧	٧٨	١	٩٢	—	—	
٧	٧	٢/١ ٧٧	١	٩٤	١٠	٨١	
٨	—	—	١	٩٣	١٠	٨١	
٩	—	—	١	٩٤	١٠	٨٤	
١٠	—	—	١	٩٣	١٠	٢/١ ٨٣	
١١	—	—	١	٩٣	١٠	٨١	
١٢	—	—	١	٩٣	١٠	٨١	
١٣	—	—	١	٩١	١٠	٨٢	
١٤	—	—	١	٩٣	١٠	٢/١ ٨٥	
١٥	٧	٨١	١	٩٥	١٠	٨١	
١٦	٧	٧٦	١	٩٥	١٠	٨١	
١٧	٧	٧٧	١	٩٥	١٠	٨٢	
١٨	٧	٧٧	١	٩٥	١٠	٨١	
١٩	—	—	١	٩٥	١٠	٨١	
٢٠	—	—	١	٩٥	١٠	٨٢	
٢١	—	—	١	٩٥	—	—	
٢٢	—	—	١	٩٥	—	—	
٢٣	—	—	١	٢/١ ٩٤	١٠	٨٥	
٢٤	٧	٨٠	١	٩٠	١٠	٨٢	
٢٥	٧	٨١	١	٢/١ ٩١	١٠	٢/١ ٨٤	
٢٦	٧	٨٤	١	٩٥	١٠	٨٥	
٢٧	٧	٨٢	١	٩٣	١٠	٨٤	
٢٨	٧	٨٠	١	٢/١ ٩٣	١٠	٨٨	
٢٩	٧	٨٢	١	٩٤	١٠	٨٩	
٣٠	٧	٨٤	١	٩٦	١٠	٨٨	
٣١	٧	٨٤	١	١٠٠	١٠	٨٦	

إن بيت الفقيه على ارتفاع ١٤° ٣١َ من القطب. وفي ٣١ آذار/مارس عند الظهر كانت الشمس تبعد عن السمت ١٠° ٢٢َ إلى الجنوب.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في بيت الفقيه في شهر نيسان/أبريل ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات الظهر	بعد ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٧	°٨٩	١	٩٩ ١/٢	١٠	°٨٩	
٢	٧	٨٤	١	٨٥ ١/٢	١٠	٨٨	
٣	٧	٨٢	١	٩٧	١٠	٨٨	
٤	٧	٨٣ ١/٢	١	٩٧	١٠	٨٧ ١/٢	
٥	٧	٨٦	١	٩٢	١٠	٨٥	
٦	٧	٨٤	١	–	١٠	٨٦	
٧	٧	٨٢	١	٩٤	١٠	٨٧	
٨	٧	٨٠	١	٩٧	١٠	٨٧	
٩	٧	—	١	٨٩	—	٩٧	
١٠	٧	—	١	٩٨ ١/٢	١٠	٩٠	
١١	٧	٨٤	١	—	—	٩٥	
١٢	٧	٨٤	١	٩٢	١٠	٨٤	
١٣	٧	٨٢ ١/٢	١	٩٣	—	—	
١٤	٧	٨٠	١	٩٤ ١/٢	١٠	٨٦ ١/٢	
١٥	٧	٨٤	١	٩٤ ١/٢	١٠	٨٦	
١٦	٧	٨٤	١	٩٩	١٠	٨٦	
١٧	٧	٨٢	١	٩٩	١٠	٨٧ ١/٢	
١٨	٧	٨٤	١	١٠١	١٠	٨٢ ١/٢	
١٩	٧	٨٤	١	٩٥ ١/٢	١٠	٨٨	

في ١٩ نيسان/أبريل عند الظهر كانت الشمس على بعد °٣ ٢٠َ عن جنوب السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في المخا في شهر أيار/مايو ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٧	٢/١ ٨٥°	١	٢/١ ٨٨°	١٠	٨٤°	رياح جنوبية
٢	٧	٨٣	١	٢/١ ٨٨	–	–	
٣	٧	٨٤	١	٨٩	١٠	٨٤	
٤	٧	٨٤	١	٩٠	١٠	٨٥	
٥	٧	٨٤	١	٩٠	١٠	٨٥	
٦	٦	٨٣	١	٩٠	١٠	٢/١ ٨٥	
٧	٦	٨٤	١	٩٠	١٠	٢/١ ٨٥	
٨	٦	٨٤	١	٨٩	١٠	٢/١ ٨٣	
٩	٧	٨٢	١	٢/١ ٨٩	–	–	جنوبية وشمالية
١٠	٧	٨٥	١	٢/١ ٨٩	١٠	٨٥	
١١	٧	٨٦	١	٩٠	١٠	٨٥	
١٢	—	—	—	—	—	—	
١٣	٦	٨٥	١	٨٩	٩	٨٥	رياح جنوبية
١٤	٦	٨٣	١	٨٩	٩	٨٦	
١٥	٦	٨٤	١	٩٠	٩	٨٦	
١٦	٦	٨٤	١	٩٢	٩	٨٥	
١٧	٦	٨٥	١	٩٠	—	—	
١٨	٦	٨٥	١	٩٢	٩	٨٨	
١٩	٦	٨٤	١	٩٣	٩	٨٨	
٢٠	٦	٨٤	١	٩٢	٩	٨٦	
٢١	٦	٨٥	١	٩٥	—	—	رياح شرقية
٢٢	٦	٨٤	١	٩٣	—	—	
٢٣	٦	٨٣	١	٩٤	٩	٩٠	
٢٤	٦	٨٦	١	٢/١ ٩٤	٩	٨٩	
٢٥	٦	٨٦	١	٩٤	٩	٩٠	رياح شمالية بالإجمال
٢٦	٦	٢/١ ٨٦	١	٩٣	٩	٢/١ ٨٩	
٢٧	٦	٢/١ ٨٦	١	٩٤	٩	٩١	
٢٨	٦	٢/١ ٨٦	١	٩٦	٩	٩١	
٢٩	٦	٨٧	١	٩٥	٩	٩١	
٣٠	٦	٨٧	١	٩٦	٩	٩١	رياح غربية
٣١	٦	٨٧	١	٩٦	٩	٢/١ ٩٠	

يبلغ ارتفاع القطب في المخا ١٣° ١٩َ . وفي ١ أيار/مايو عند الظهر كانت الشمس على مسافة ١° ٤٥َ عن السمت وفي ٣١ منه كانت على بعد ٨° ٣٦َ عن شمال السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في جدة في بداية شهر كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٦	٨٦ ٢/١°	١	٩٥°	٩	٨٩°	ش.غ
٢	٦	٨٥	١	٩٤	٩	٩٠ ٢/١	ج.غ
٣	٦	٨٨	١	٩٥	٩	٩٠	ج.وشرقي
٤	٦	٨٧ ٢/١	١	٩٥	٩	٨٩ ٢/١	ش.غ
٥	٦	٨٨	١	٩٤	٩	٩٠	ش.غ
٦	٦	٨٨	١	٩٦	٩	٩٧	ش.غ
٧	٦	٨٩	١	٩٣ ٢/١	٩	٨٧	ش.غ
٨	٦	٨٧	١	٩٤	٩	٨٨	ش.غ

في تعز في نهاية شهر حزيران/يونيو ١٧٦٣

١٤	٦	٧٧°	١	٨٧ ٢/١°	٨	٨٣°	
١٥	٦	٧٧	١	٨٨ ٢/١	٨	٨٣	
١٦	٦	٧٦ ٢/١	١	٨٧ ٢/١	٨	٧٨	
١٧	٦	٧٤	١	٨٦	٨	٩٧	
١٨	٦	٧٥	١	٨٦	٨	٨١ ٢/١	
١٩	٦	٧٦	١	٨٧	٨	٨٢ ٢/١	
٢٠	٦	٧٦ ٢/١	١	٨٧ ٢/١	٨	٧٩	
٢١	٦	٧٤ ٢/١	١	٨٧	٨	٧٨	
٢٢	٦	٧٥ ٢/١	١	٨٦	٨	٧٨	
٢٣	٦	٧٥	١	٨٧	٨	٨١	
٢٤	٦	٧٨	١	٨٦	٨	٨٣	
٢٥	٦	٧٨	١	٨٧	٨	٨٣	

إن ارتفاع القطب في تعز يبلغ ١٣° ٣٤َ . وفي ٢٥ حزيران/يونيو كانت الشمس على بعد ٩° ٥٢َ عن شمال السمت.

خلال سفري من تعز إلى صنعاء لاحظت ارتفاع مستوى محرّ ريومور.

	ريومور	فهرنهايت
في ٢٩ حزيران قبل طلوع الشمس بقليل على سهل جوبان (Haubân)	١٣°	٦١ ٢/١°
في ٣٠ حزيران قبل طلوع الشمس بالقرب من معد	١٠ ٢/١	٥٥ ٢/١
بعد الظهر عند الواحدة تقريباً في محرّس (Mharras)	١٩ ٢/١	٧٦
في ٣ تموز عند الظهر في منزل (Mensil)	١٨	٧٢ ٢/١
في ٣ تموز في منزل قبل طلوع الشمس	١٣	٦١
في ١٠ تموز قبل طلوع الشمس في يريم	٨ ٤/١	٥٢

درجات الحرارة وفقاً لمحزّ فهرنهايت في تموز/يوليو ١٧٦٣ في بئر القصب قرب صنعاء

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المحز	ساعات المساء	ارتفاع المحز
١٨	٦	°٥٨	٣	°٨٠	١٠	°٦٧
١٩	٦	٥٨ ٢/١	١٢	٨٥	١٠ ٢/١	٦٥
٢٠	٦	٦١	١٠	٧٠	-	–
٢١	٦	٦٠	٢	٨١	-	–
٢٢	٦ ٢/١	٥٨	–	–	–	–
٢٣	٦ ٢/١	٦٠ ٢/١	–	–	١١	٦٠
٢٥	٦	٥٧	١	٧٨	٣	٧٤ ٢/١

درجات الحرارة وفقاً للمحزّ نفسه في المخا في شهر آب/أغسطس ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المحز	ساعات المساء	ارتفاع المحز
٦	—	—	—	١٢	°٩٥	—
٧		°٨٩	١٢	٩٥ ٢/١	١٠	°٨٩
٨		٨٥ ٢/١	٢	٩٧	—	—
٩		٨٨	٢	٩٧	—	—
١٠		٨٧	٢	٩٨	—	—
١١		٨٨	—	—	—	—
١٢		—	٢	٩٤	—	—
١٣		٩٠	٢	٩٤	—	—
١٤		—	—	—	—	—
١٥		٨٩	٢	٩٥	—	—
١٦		٨٨	٢	٩٠	—	—
١٧		٨٤	٢	٩٤	—	—
١٨		٨٩	٢	٩٥	—	—
١٩			٢	٩٤	—	—
٢٠		٨٨	٢	٩٤	—	—
٢١		٨٩	—	—	—	—

تبعد بئر القصب عن ارتفاع القطب °١٥ ´٢١ . في ٢٤ تموز/يوليو، وعند الظهر كانت الشمس على بعد °٤ ´٣٥ من السمت إلى الشمال وفي ٢٠ آب، وعند الظهر كانت تبعد صفر° ´٤٩ عن النقطة العمودية نفسها.

إن السيد بورنفايند هو الذي لاحظ في نهاية شهر آذار/مارس وبداية نيسان/أبريل ١٧٦٣ في بيت الفقيه ارتفاع مستوى ميزان فهرنهايت المذكور في ص ٣٩٢ و٣٩٣ (من النسخة الفرنسية). وفي هذا الوقت كنت أجول في الجبال وكنت أنقل من وقتٍ إلى آخر ارتفاع مستوى ميزان ريومور. وسنلاحظ في هذا الإطار اختلافاً كبيراً في حرارة البقاع المختلفة من بلاد الإمام الصغيرة.

	فهرنهايت	ريومور
في ٢٨ آذار بعد الظهر بربع ساعة كنت في حيران على طريق عدين (Uddên) وكان المحرّ يشير إلى ارتفاع	°٨٥	°٢٣ ٢/١
في ٢٩ عند السادسة صباحاً في الوصفد (Wachfâd)	٦٦	١٥
في المكان نفسه عند الظهيرة	٨٨	٢٥
في ٣٠ عند السادسة صباحاً قرب عدين	٧٧	٢٠
عند الثانية بعد الظهر على الجبل العالي بين عدين وجبلة	٧١	١٧ ٢/١
في ٣١ عند السادسة والربع صباحاً في جبلة	٦٧	١٥ ٢/١
في ٢ نيسان عند السادسة والربع على بعد ميلين من شرق تعز على السهل	٥٥	١٠ ٢/١
في ٣ نيسان الساعة السادسة والربع في ربعة شرقي تعز	٧١	١٧ ٢/١
في ٤ نيسان الساعة السادسة والربع صباحاً في عود (Oude)	٧٠	١٧

وفي لهية وصنعاء دوّنت ارتفاعات البارومتر في ساعات معينة سأعاود كتابتها هنا لنرى كيفية تحرك المحرّ صعوداً ونزولاً في هذا البلد:

في ٢٥ كانون الثاني/يناير في مخية		في ٨ تموز/يوليو في صنعاء	
الساعة	ارتفاع المحرّ	الساعة	ارتفاع المحرّ
٦	°٧٤ ٢/١	السادسة صباحاً	°٥٨
٧	٧٥	٧ والنصف	٦١
٨	٧٧	٨ و٤٥ دقيقة	٦٧
٩	٨٠ ٢/١	٩ والنصف	٧١ ٢/١
١٠	٨٢	١٠ و٤٥ دقيقة	٧٤ ٢/١
١١	٨٣	الواحدة بعد الظهر	٧٦
١٢	٨٣ ٢/١	الثالثة	٨٠
١	٨٤	٣ و٤٥ د.	٧٨ ٢/١
٢	٨٤	٤ و٤٥ د.	٧٦
٥	٨٣	٦	٧٣ ٢/١
٦	٨٠ ٢/١	٧	٧٢
٧	٨٠	٨	٦٨
٩	٨٠	١٠	٦٧
١٠	٨٠	—	—
١١	٧٩ ٢/١	—	—

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في بيرا (Pera) قرب القسطنطينية في شهر آب/أغسطس ١٧٦١

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	عند الظهيرة	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ
١	٧	°٧٦	١٢	٢/١ ٧٩°	٦	٢/١ ٧٣°
٢	٧	٧٧	١٢	٢/١ ٨٤	٦	٧٦
٣	—	—	—	—	٧	٦٦
٤	٨	٢/١ ٦٨	١٢	٧٤	٧	٦٩
٥	٧	٢/١ ٧٣	١٢	٢/١ ٧٩	٩	٧٢
٦	٧	٢/١ ٧٨	١٢	٢/١ ٨٢	٦	٧٨
٧	٨	٨٢	—	—	٨	٧٤
٨	٧	٧٨	١٢	٨٦	٦	٢/١ ٧٨
٩	٧	٢/١ ٧٩	١٢	٨٤	٧	٧٦
١٠	٧	٧٩	١٢	٨٦	٧	٧٧
١١	٧	٧٩	١٢	٢/١ ٨٧	٧	٧٦
١٢	٧	٨٦	١٢	٨٩	—	—
١٣	٧	٧٦	١٢	٨١	٨	٧٢
١٤	٨	٢/١ ٧٤	١٢	—	—	٧٨
١٥	٧	٢/١ ٧٢	١٢	٢/١ ٧٨	٨	٧٢
١٦	٨	٧٧	١٢	٨٠	٨	٧٢
١٧	٨	٧٣	١٢	٧٨	٨	٦٩
١٨	٨	٧٢	١٢	٢/١ ٧٧	—	—
١٩	٣	٢/١ ٦٥	١٢	٢/١ ٧٧	٧	٧٦
٢٠	٨	٢/١ ٧٦	١٢	٢/١ ٧٨	٧	٧٣
٢١	٨	٧٥	٨	٧١	—	—
٢٢	٨	٧٥	١٢	٢/١ ٨٠	١٠	٧٠
٢٣	٨	٢/١ ٧١	١٢	٢/١ ٧٨	٨	٦٩
٢٤	٨	٧٦	١٢	٢/١ ٧٥	٨	٢/١ ٦٨
٢٥	٨	٧٤	١٢	٧٨	٧	٧٠
٢٦	٨	٧٤	١٢	٧٣	—	—
٢٧	٨	٧٤	١٢	٢/١ ٧٩	٨	٧٢
٢٨	٨	٢/١ ٧٥	—	—	—	—
٢٩	٨	٢/١ ٧٤	١٢	٢/١ ٧٩	٨	٢/١ ٧٢
٣٠	—	—	—	—	٨	٧٥
٣١	٨	٧٦	١٢	٧٧	—	—

في بيرا يبلغ ارتفاع القطب ٤١° ٢َ . وفي ٣١ آب/أغسطس كانت الشمس على مسافة ٣٢° ٣١َ من السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٦١

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهيرة	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ
١٤	٨	°٦٧	١	٧١	١١	°٦٩
١٥	٨	٦٧	١٠	٦٩	—	—
١٦	٨	٦٧ ٢/١	١	٧٢	١٠	٦٩
١٧	٨	٦٦	١	٧٢	١٠	٦٨ ٢/١
١٨	٨	٦٦	١	٧٣	١٠	٦٩
١٩	٨	٦٦	١	٧٠	١١	٦٦
٢٠	٨	٦٤	١	٦٩ ٢/١	١٠	٦٧
٢١	٨	٦٤	١١	٦٥	—	—
٢٢	٨	٦٣	١١	٦٦	—	—
٢٣	٨	٦٢	١	٦٨	—	—
٢٤	٨	٦٤	١	٧١	١١	٦٦
٢٥	٨	٦٢	٢	٧٤	١١	٦٤
٢٦	٨	٥٩ ٢/١	١	٧١	١١	٦٤
٢٧	٨	٦٠	٢	٧١	—	—
٢٨	١١	٦٢	—	—	—	—
٢٩	٩	٦٠ ٢/١	٣	٧١	١١	٦١ ٢/١
٣٠	٨	٦١	—	—	١١	٦١

ويبلغ ارتفاع القاهرة ٣٠° ٣َ . في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر، وكانت الشمس على مسافة ٥١° ٤٨َ من السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في كانون الأول ١٧٦١

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحر	ساعات المساء	ارتفاع الحر
١	٨	٥٧°	٣	٧١°	١١	٦٢°
٢	٨	٢/١ ٥٥	—	—	١١	٦١
٣	٨	٥٦	٣	٢/١ ٧١	—	—
٤	٨	٢/١ ٥٦	١٢	٦٦	١٢	٥٧
٥	١٠	٥٧	—	—	١١	٥٩
٦	٨	٥٥	٣	٦٤	١٢	٢/١ ٥٢
٧	٨	٥٣	–	–	١١	٥٠
٨	٨	٥٠	١٢	٦١	١١	٥٣
٩	٨	٥٣	٢	٢/١ ٦٣	١١	٥٤
١٠	٨	٢/١ ٥٢	–	–	١٣	٥١
١١	٩	٥٨	٢	٦٨	١٢	٢/١ ٥٢
١٢	٨	٤٩	٣	٦٥	١١	٥٣
١٣	٩	٢/١ ٥١	٢	٦٥	١٠	٢/١ ٥٤
١٤	٨	٥٠	٢	٦٦	١٢	٢/١ ٥٥
١٥	—	—	—	٦٧	١٢	٢/١ ٥٣
١٦	٣	٥١	٢	٦٤	١٢	٥٦
١٧	٩	٥٦	٢	٦٧	١٢	٢/١ ٥٦
١٨	٩	٦٠	٢	٧١	١١	٦٢
١٩	٩	٦٦	٢	٧٢	١٢	٦١
٢٠	٩	٢/١ ٦٣	٢	٧٧	١١	٧١
٢١	٩	٦٨	٢	٧٤	١١	٦٥
٢٢	٩	٦٦	–	–	١١	٦٥
٢٣	٩	٦٠	٢	٦٤	١١	٥٧
٢٤	٦	٥٢	٤	٦٣	١١	٥٥
٢٥	٩	٥٥	—	—	١١	٥٧
٢٦	٨	٥٦	٢	٢/١ ٦٦	١١	٥٧
٢٧	٧	٥٢	—	—	١١	٥٧
٢٨	٩	٥٦	٤	٦٢	١١	٥٧
٢٩	٧	٢/١ ٥٤	٢	٦٤	١٢	٢/١ ٥٤
٣٠	٨	٥٤	٢	٦٢	١١	٥٧
٣١	٨	٥٥	٢	٦٣	١١	٥٨

في ٣١ كانون الأول/ديسمبر، كانت الشمس تبعد ٥٣° ٨َ عن السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في كانون الثاني/يناير ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحز	ساعات المساء	ارتفاع الحز
١	٨	°٥٧	٢	°٦٥	١١	°٦٢
٢	٨	٥٩	٢	٦٣	١٢	٥٥
٣	٨	٥٢	٢	٦٤	١٣	٥٧
٤	٨	٥٦	٢	٦٤	١٢	٥٦
٥	٨	٥٥	٢	٦٠ ٢/١	١٠	٥٦
٦	٨	٥٦	٢	٦١	١٢	٥٨
٧	٨	٥٨	٢	٦٢	١٢	٥٢
٨	٨	٥٣	٢	٦١	١١	٥٣
٩	٨	٥٠	٢	٦١	١٢	٥٦
١٠	٨	٥٢	٢	٦٢	١٢	٥٦
١١	٨	٥٢	٢	٦١	١٢	٥٢
١٢	٨	٥٤	٢	٦١	١٢	٤٨
١٣	٩	٤٨	٤	٦٢	١٢	٤٨
١٤	٨	٤٧ ٢/١	٢	٦٣ ٢/١	١٢	٥٠
١٥	٨	٤٦ ٢/١	٢	٦٣ ٢/١	١١	٥١
١٦	٨	٤٢	٢	٦٣ ٢/١	١١	٤٨
١٧	٨	٤٨	٢	٦٣	١١	٤٨
١٨	٨	٤٨	٢	٦٣	١٢	٥٥
١٩	—	—	—	—	—	—
٢٠	—	—	—	—	—	—
٢١	—	—	—	—	—	—
٢٢	—	—	—	—	—	—
٢٣	٨	٤٩	٢	٦٤	١١	٥٢
٢٤	٨	٤٩	٢	٦٤	١٠	٥٢
٢٥	٨	٤٩	٢	٦٥	١٠	٥٣
٢٦	٥	٤٦	٢	٦٤	١٠	٥٤
٢٧	٩	٥٣	٢	٦٦	١٠	٥٧
٢٨	٨	٥٦	٢	٦٩	١٠	٥٧
٢٩	٨	٥٧	٢	٦٩	١٠	٥٨
٣٠	٨	٥٦	٢	٦٢	١٠	٥٣
٣١	٧	٤٧ ٢/١	٢	٦٠	١٠	٥٣

في ٣١ كانون الثاني/يناير كانت الشمس تبعد عن السمت ٤٧° ٢٠َ .

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شباط/فبراير ١٧٦٢.

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ
١	٧	٤٨ ١/٢°	٢	٥٥°	١٠	٤٧°
٢	٨	٤٣	٢	٥٦	١٠	٤٤ ١/٢
٣	٨	٤٢	٢	٦٠ ١/٢	١٠	٥٠
٤	٨	٤٩	٢	٦٦	١٠	٥٢
٥	٨	٥٤	٢	٦٤	١١	٥٢
٦	٧	٤٨	٢	٦٤	١١	٥٦
٧	٨	٥٣	٢	٦٧	١١	٥٦ ١/٢
٨	٨	٥٤	٢	٧١	١١	٥٧
٩	٨	٥٣	٢	٧٢	١١	٦٢ ١/٢
١٠	٨	٥٢	٢	٦٨	١١	٥٥
١١	٨	٥٢	٢	٦٤	١٣	٥١
١٢	٨	٥٣	٢	٦٢	١١	٥٦
١٣	٨	٥٤	٢	٧١	١٢	٥٩
١٤	٨	٥٣	٢	٦٤	١١	٥٦
١٥	٨	٥٢	٢	٦٦	١١	٥٦
١٦	٧	٥٢	٢	٦٣	١١	٥٤
١٧	٧	٥١	٢	٦٤	١١	٥٣
١٨	٧	٥٠	٢	٦٤	١١	٥٣
١٩	٨	٥١	٢	٦٥	١١	٥٤
٢٠	٨	٥٤	٢	٦٧	١١	٥٧
٢١	٨	٥٥	٢	٦٨	١١	٥٥
٢٢	٨	٥٢	٢	٦٩	١١	٦٠
٢٣	٨	٥٩	٢	٧٣	١١	٦٠
٢٤	٨	٥٦ ١/٢	٢	٦٩	١١	٥٦
٢٥	٨	٥٣	٢	٦٨	١٢	٥٧
٢٦	٨	٥٧	٢	٦٩	١١	٥٦
٢٧	٨	٥٨	٢	٧١	١١	٥٧
٢٨	٨	٥٤	٢	٧٠	١٤	٥٧

في ٢٨ شباط/فبراير كانت الشمس تبعد عن السمت ٣٧° ٥٤َ .

ملاحظة: في ١ و٢و٣ شباط/فبراير كنت في الجيزة أي بالقرب من النيل.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في آذار/مارس ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٨	°٥٧	٢	°٦٩	١١	°٥٦	—
٢	٨	٥٤	٢	٦٧	—	—	—
٣	٨	٥٩	٢	٧٢	١١	٦٢	ج.غ
٤	٨	٥٨	٢	٧٥	١١	٦٣ ١/٢	ج.غ
٥	٨	٥٩	٢	٧٠ ١/٢	١١	٥٩	—
٦	٨	٥٥	٢	٧٠ ١/٢	١١	٦٢	—
٧	٨	٦٢	٢	٨٣	١١	٧٢	ج
٨	٨	٦١	٢	٨١	١١	٦٨	ش.غ
٩	٨	٦٠	٢	٨٠	١١	٦٨	شمالي
١٠	٨	٦١ ١/٢	٢	٧٣ ١/٢	—	—	ش.غ
١١	٨	٦١	٢	٧٢	١٣	٥٦	ش.غ
١٢	٨	٥٦	٢	٧٠	١١	٥٩	ش.غ
١٣	٨	٥٩	٢	٧٠	١١	٥٨	ش.غ
١٤	٨	٥٨	٢	٧٢	١١	٥٩	ش.غ
١٥	٨	٥٧	٢	٧٧	١١	٦٢	غ.ج.غ
١٦	٢	٨٠	١١	٦٨	—	—	ج.غ
١٧	٢	٨٥	١١	٧٠	—	—	ج.غ
١٨	٨	٦٥	٢	٨٠	١١	٦٦	غ
١٩	٨	٦٤	٢	٧٩	١١	٦٦	غ
٢٠	٨	٦٤	٢	٧٧	١٢	٦٣	غ
٢١	٨	٦٢	٢	٧٢	١٢	٥٩	شمالي
٢٢	٨	٥٩	٢	٧٥	١١	٦٤	ج.غ
٢٣	٨	٦٣	٢	٧٣	١١	٦٠	غ
٢٤	٢	٧٢ ١/٢	١١	٥٩	—	—	ش.غ
٢٥	٨	٥٩	٢	٧٥	١١	٦٠	غ
٢٦	٨	٥٨	٢	٨٠	١١	٦٤	ج.غ
٢٧	٢	٨٦	١١	٦٧	—	—	—
٢٨	٦٦	٢	٨١	١١	٦٦	—	ش.غ
٢٩	٨	٦٤	٢	٨١	١١	٦٧	شمالي جنوبي
٣٠	٨	٦٢	٢	٧٣	١١	٦١	غربي وشمالي
٣١	٨	٦٢	٢	١١	٦٢	—	ج. غربي

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في نيسان/أبريل ١٧٦٢.

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٨	°٦٠	٢	°٧٤	١١	°٦٥	شمالي
٢	٢	٨١	١٠	٦٦	—	—	شرقي
٣	٨	٤٥	٢	٨١	١١	٧٠	ش.ش
٤	٨	٦٤	٢	٨١	١١	٦٥	شمالي
٥	٨	٦٤	٢	٨٠	١١	٦٢	ش.غ
٦	٨	٦١	٢	٧٣	١١	٦٤	غ
٧	٢	٧٤	١١	٦٣	—	—	ش.غ
٨	٨	٦٦	٢	٨١	١١	٧٠	شرقي
٩	٨	٧٢	٤	٨٣	١٢	٦٦	—
١٠	٨	٦٦	٢	٨٠	١١	٦٥	—
١١	٨	٦٦	١١	٦٦	—	—	—
١٢	٨	٦٦	٢	٧٦	١١	٦٦	شمالي.غ
١٣	٨	٦٥	٢	٧٨	١١	٦٣ ٢/١	غ
١٤	٨	٦٦	٢	٧٧	١٠	٦٥	شمالي
١٥	٦	٦٢	٢	٧٧	١١	٦٤	ش.ش
١٦	٨	٦٤	٢	٨٢	١١	٦٨	شمالي
١٧	٨	٦٨	٢	٨٤	١١	٦٩	ج.غ
١٨	٨	٦٧	٥	٨٠	١١	٦٨	ج.غ
١٩	٨	٦٥	٢	٧٩	١١	٦٧	شمالي وشمالي.غ
٢٠	٨	٦٧	٢	٨٧	١١	٦٨	شمالي.شرقي
٢١	٨	٦٨	١٣	٦٦	—	—	—
٢٢	٨	٦٦	٢	٨٣	١١	٦٨	غ
٢٣	٨	٦٧	٢	٧٨	١١	٦١	شمالي وش.غ
٢٤	٨	٦٥	٢	٧٩	١١	٦٣	شمالي وش.غ
٢٥	٨	٦٤	٢	٨٤	١١	٦٨	ج
٢٦	٨	٦٨	٢	٧٩	١١	٦٤	غربي
٢٧	٨	٦٧	٢	٧٦ ٢/١	١١	٦٦	غ.وشمالي
٢٨	٨	٦٤	٢	٧٦	١١	٦٤	ش.ش وج
٢٩	٨	٦٥	١١	٦٦	—	—	شمالي
٣٠	٨	٦٦	١٠	٦٨	—	—	—

في ٣٠ نيسان/أبريل كانت الشمس على مسافة ٣٠° ١٣َ عن السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر أيار/مايو ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١		٧٥°	–	٧١°	–	٧١°	شمالي وش.ش
٢		٧٠		٧٦		٧٦	ج.غ
٣		٧٣		٨٠		٧٦	ج.غ
٤		٧٢		٧٦ ٢/١		٧٣	ج.غ
٥		٧٢		٧٥		٧٤	ش.غ
٦		٧١		٧٥		٧٥	ج.غ
٧		٧٤		٧٨		٧٨	ج
٨		٧٦		٨١		٧٩	ج
٩		٧٨		٧٤		٨٢	ش.ش
١٠		٨٢		٨٨		٨٤	ش.ش
١١		٧٧		٨٣		٧٩	شمالي
١٢		٧٥		٧٨		٧٧	شمالي
١٣		٧٣		٧٨		٧٤	ش.ش
١٤		٧٣		٧٧		٧٦	ش.ش
١٥		٧٣		٧٧		٧٤	شمالي
١٦		٧٠		٧٧		٧٤	شمالي
١٧		٧٢		٧٦		٧٤	ش.ش
١٨		٧٢		٧٩		٧٩	ش.ش
١٩		٧٢		٨٠		٨٠	ش.ش
٢٠		٧٨		٨٤		٨٢	ش.ش
٢١		٧٨		٨٢		٨٠	ش.ش
٢٢		٧٧		٨٤		٨١	شمالي
٢٣		٧٧		٨٤		٨٠	شمالي
٢٤		٧٥	٢	٨٨		٧٣	شمالي
٢٥	٧	٧٢	٢	٨٨	١٠	٧٦	شمالي
٢٦	٧	٧٤	٢	٨٨ ٢/١	١١	٧٦	شمالي
٢٧	٧	٧٣	٣	٩٤	١١	٧٦	شمالي
٢٨	٧	٧٤	٢	٩٢	١١	٧٦	شرقي
٢٩	٧	٧٥	٤	٩٦	١٢	٨٤	ش.ش
٣٠	٦	٧٦	٢	٨٧	١١	٨١ ٢/١	ش.وش. غربي
٣١	٥	٧٢	٢	٨٨	١٠	٨٥	شمالي

في ٣١ أيار/مايو كانت الشمس على بعد ٨° ٦َ من السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر حزيران/يونيو ١٧٦٢.

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٥	°٧٦	١	°٩٠	—	—	شمالي
٢	٦	٧٧	٢	٩٤	١٠	°٧٩	جنوبي وغربي
٣	٥	٧٦	١	٨٧	١٠	٧٧	شمالي وغربي
٤	٥	٧١	١	٨٥	—	—	—
٥	٦	٧٢	٣	٨٦	—	—	جنوبي وشمالي
٦	٦	٧١	٣	٨٥	١٠	٧٩	ش.غ
٧	٥	٧٦	٣	٨٨	١٠	٧٩	ش.ش
٨	٦	٧٦	٣	٨٧	١٠	٧٩	غ
٩	٦	٧٥	٣	٩٢	١٠	٧٨	شمالي
١٠	٦	٧١	٣	٨٨	١١	٧٦	شمالي
١١	٦	٧١	٢	٩١	—	—	ش.غ
١٢	٦	٧٥	٣	١٠١	١٠	٨٢	ج. وشمالي
١٣	٦	٧٩	٣	٩٢	١٠	٧٩	شمالي
١٤	٦	٧٤	٢	٨٧	١٠	٧٥	شمالي
١٥	٦	٧٥	٢	٨٧	١٠	٧٦	شمالي
١٦	٦	٧٥	٢	٨٨	١٠	٧٦	شمالي
١٧	٦	٧٦	٣	٩٥	١٠	٨٠	شمالي
١٨	٦	٧٥	٣	٩٦	١٠	٨٢	ش.غ
١٩	٦	٧٦	٣	٩٩	١٠	٨٦	ش.ش
٢٠	٦	٨٠	٣	٩٦	١١	٧٧	شمالي
٢١	٦	٧٥	٣	٩١	١٠	٧٨	—
٢٢	٦	٧٥	٤	٩٣	١٠	٨٢	—
٢٣	٦	٧٥	٤	٩٨	١١	٨٦	شرقي
٢٤	٦	٨٢	٣	٩٩	١٠	٧٩	شرقي
٢٥	٦	٧٥	٣	٩١	١١	٧٦	شمالي
٢٦	٦	٧٣	٣	٩١	١١	٧٧	غربي وشمالي
٢٧	٦	٧٢	٣	٩٠	١١	٧٦	ش.ش
٢٨	٦	٧٤	٣	٩٣	١١	٧٩	ش.ش
٢٩	٦	٧٤	٣	٩٧	١١	٨٤	شمالي
٣٠	٨	٧٦	٣	٩٤	١١	٨٠	شمالي

في ٣٠ حزيران/يونيو كانت الشمس تبعد عن السمت مسافة ٦° ٥٢َ .

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر تموز/يوليو ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٨	°٧٦	٣	°٩٤	١١	°٧٧	شمالي
٢	٦	٧٧	٣	٩٣	١١	٧٨	شمالي
٣	٦	٧٧	٣	٩٦	١١	٨٤	شمالي
٤	٦	٧٧	٣	٩٧	١١	٨٤	شمالي
٥	٧	٧٩	٣	١٠١	١١	٨٦	شمالي
٦	٧	٧٨	٣	٩٨	١١	٨٥	شمالي
٧	٧	٧٨	٣	٩٧	١١	٨٣	شمالي
٨	٦	٧٧	٣	٩٥	١١	٨٢	شمالي
٩	٦	٧٧	٣	٩٥	١١	٨٠	شمالي
١٠	٦	٧٧	٣	٩٥	١١	٨٢	ش.ش
١١	٦	٨٠	٣	٩٤	١١	٨١	شمالي
١٢	٧	٨٠	٣	٩٤	١١	٨١	شمالي
١٣	٧	٧٨	٣	٩٢	١١	٧٨	ش.ش
١٤	٦	٧٦	٣	٩٢	١١	٧٩	شمالي
١٥	٦	٧٧	٣	٩٥	١١	٨١	ش.ش
١٦	٦	٧٨	١١	٨٢	—	—	ش.ش
١٧	٧	٧٦	٣	٩٧	١١	٨٢	ش.ش
١٨	٣	٩٦	١١	٨٤	—	—	ش.ش
١٩	٧	٨٠	٣	٩٧	١١	٨٤	ش.ش
٢٠	٣	٩٧	١١	٨٤	—	—	ش.ش
٢١	٧	٨٢	٣	٩٧	١١	٨٣	ش.ش
٢٢	٦	٨١	٣	٩٦	١١	٨٢	ش.ش
٢٣	٦	٧٨	٣	٩٦	١١	٨٢	ش.ش
٢٤	٥	٧٥	٣	٩٣	١٠	٨٢	شمالي
٢٥	٦	٧٦	٣	٩٣	١٠	٨٣	شمالي
٢٦	٦	٧٦	٣	٩٣	١٠	٨٤	شمالي
٢٧	٦	٧٦	٣	٩٦	١٠	٨٢	شمالي
٢٨	٧	٨٢	٣	٩٩	١٠	٨٣	شمالي
٢٩	٧	٨٣	٣	٩٦	١٠	٨٣	شمالي
٣٠	٧	٨٣	٣	٩٧	١٠	٨٥	شمالي
٣١	٧	٧٩	٣	٩٥	١٠	٨٤	شمالي

في ٣١ تموز/يوليو كانت الشمس على بعد ١١° ٤٨´ من السمت.

درجات الحرارة وفقاً لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر آب/أغسطس ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرّ	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرّ	ساعات المساء	ارتفاع الحرّ	الريح
١	٧	٧٨°	٣	٩٥°	١٠	٨٤°	—
٢	٧	٧٨	٣	٩٤	١٠	٨٤	—
٣	٣	٩٦	١٠	٨٤	—	—	—
٤	٧	٨٠	٣	٩٦	١٠	٨٦	—
٥	٧	٨٠	٣	٩٦	١٠	٨٦	—
٦	٧	٨٢	٣	٩٦	١٠	٨٦	—
٧	٣	٩٦	١٠	٨٥	—	—	—
٨	٧	٨٢	٣	٩٦	١٠	٨٤	—
٩	٧	٨٠	—	—	—	—	—
١٠	٧	٨٢	—	—	—	—	—
١١	٨	٨٤	١٠	٨٦	—	—	—
١٢	٨	٨٠	١٠	٨٦	—	—	—
١٣	٣	٩٨	٨	٨٩	—	—	—
١٤	٧	٨٠	٣	٩٥	١٠	٨٦	—
١٥	٣	٩٥	١٠	٨٨	—	—	—
١٦	٦	٨١	١٢	٩٧	١٠	٨٥	—
١٧	٦	٨١	١	٩٥	١٠	٨٧	—
١٨	٧	٨١	١٢	٩٨	١٠	٨٨	—
١٩	٧ ٢/١	٨٣	١٢	٩٩	١٠	٨٧	—
٢٠	٧	٨١	٣	٩٦	—	—	—
٢١	٨	٨١	٣	٩٥	—	—	—
٢٢	٧	٨٠	٣	٩٥	١٠	٨٥	—
٢٣	٧	٨١	٣	٩٤	١٠	٨٤	—
٢٤	٧	٨١	٣	٩٤	١٠	٨٤	—

في ٢٤ آب/أغسطس كانت الشمس تبعد ١٨° ٥٨´ عن السمت.

في بومباي على ارتفاع ١٨° ٥٥´ كنت أراجع محرّ فهرنهايت ثلاث مرات في اليوم. لكن بما أن الحرارة هنا كانت ثابتة لم أجد ضرورة في وضع أي جدول كامل. لذا كنت لا أدوّن إلا أهم الأحداث آخر الشهر وسوف أدرجها هنا:

في شهر أيلول/سبتمبر ١٧٦٣

في الأيام الأولى من وصولنا إلى بومباي أي من ١١ إلى ١٥ أيلول/سبتمبر، كانت السماء صافية. ثم من ١٦ إلى ٢٤ كانت الأمطار تهطل كل يوم وأحياناً طوال الليل والنهار. في هذه الفترة إن أقصى ارتفاع بلغه المحرّ كان في اليوم الثالث والعشرين وكان ١/٢ ٨٣ أما المستوى الأشد انخفاضاً فهو ٧٩° وقد سُجّل في ١٩ أيلول/سبتمبر في الصباح الباكر. وفي الأيام التي يتساقط فيها المطر من دون انقطاع بقي ارتفاع الزئبق هو هو. ومنذ اليوم ٢٤ وحتى نهاية الشهر صار الجو لطيفاً وارتفع الزئبق في اليوم الثلاثين حتى المستوى ٨٨°.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٦٣

في هذا الشهر كانت الدرجة العليا التي وصل إليها المحرّ ٩١° وذلك في اليوم ١٧. أما الدرجة السفلى فكانت ٧٩°. وإن الفوارق في كل يوم كانت في بداية الشهر ٤° أما في نهايته فقد تراوحت بين ٨° و٩°. إن اليوم ١١ هو الوحيد الذي أمطرت فيه. لكن حتى نهاية الشهر ظلت السماء صافية. في اليوم ٢٣ هبّ هواء شديد القوة.

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٦٣

في بداية هذا الشهر بلغ ارتفاع المحرّ في بومباي ٨٨°، أما في نهايته فانخفض إلى ٨١° وفي اليوم التالي في الصباح إلى ٧٣°. أما التراوح فسجل ٩°. وفي ليل ٢٧ ـ ٢٨ هبّ هواء قوي جداً من الشرق، وفي اليوم التالي كان الطقس سيئاً.

في شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٧٦٣

كان المناخ سيئاً منذ بداية الشهر وحتى ١٥ منه وفي اليومين الأخيرين هطلت الأمطار. ارتفع مستوى المحرّ في هذا اليوم إلى ٧٢° في الصباح وإلى ٨٤° بعد الظهر، وفي ٢٠ ك١/ديسمبر سجل ١/٢ ٨٧°. لكن في نهاية الشهر انخفض في الصباح إلى ٧١° وبعد الظهر إلى ٨٢°.

في شهر كانون الثاني/ يناير ١٧٦٤

تراوحت الحرارة على طول هذا الشهر بين ٧١° و٦٩° وبعد الظهر بين ٨٠° و٨٣°. وفي ٢٦ ك٢/ يناير انخفضت في الصباح إلى ٦٤° وسجلت بعد الظهر ٧٦°.

في شهر شباط/ فبراير ١٧٦٤

بقي المحرّ طوال هذا الشهر مسجلاً ٦٩° بينما تراوح بعد الظهر بين ٧٩° و٨٢°. وفي اليوم التاسع هطلت بعض الأمطار.

في شهر آذار/ مارس ١٧٦٤

في ١١ آذار/مارس ارتفعت الحرارة إلى ٨٨° بسبب الهواء الشمالي الغربي العنيف وفي ١٣ آذار/ مارس بلغت ٨٩°. وفي الأيام التالية وحتى منتصف آذار/مارس لم تتجاوز ٨٣° في بومباي.

في الأيام الخمسة عشر المتبقية من شهر آذار/مارس، توجهت إلى سرات (Surât) وهي مدينة واقعة على بعد ٢° ١٢َ عن شمالي بومباي وما يقارب ثلاثة أميال ألمانية عن البحر. حيث هنا ارتفعت الحرارة إلى ٩٣° وفي اليوم ٢٩° إلى ٩٨° بسبب الهواء الشمالي. وكان محرّ ريومور قد تحطم في شبه جزيرة العرب. في الطريق إلى سرات تعطل محرّ فهرنهايت فلم يبق لي أي أداة لإكمال أبحاثي عن حال الطقس. وفي بومباي بلغت الحرارة وفقاً لمحرّ أحد الجراحين ٩٣°.

ولقد أثبتت التجربة أن مستوى الزئبق في الميزان يمكن أن يختلف في المدينة نفسها. فمثلاً لو أن أحداً لاحظ معي في مثل هذا المناخ ارتفاع الزئبق في منطقة منخفضة وكثيفة السكان في القسطنطينية أو غالاتا لما حصل على الارتفاع نفسه الذي حصلت عليه في بيرا المعرّضة للتأثر بالريح بسبب موقعها على هضبة. كما وجدت فروقات كبيرة في مستوى الزئبق في الجيزة والقاهرة. فعلى ضفاف النيل لم ترتفع الحرارة عن ٥٥° لكن في اليوم الرابع من الشهر بلغت ٦٦° في القاهرة. إذاً لا يمكن أن نتوقع الحصول على الحرارة نفسها في مدينتين تقعان على الارتفاع نفسه وعلى البعد ذاته عن الشمس لأن هناك عوامل عديدة يمكن أن تتحكم بالحرارة وبالتالي بمستوى الزئبق في المحرّ، كموقع المدينة: قرب البحر أو على سهل مزروع أو غير مزروع أو على رأس جبل أو في أسفله أو في منطقة تهيمن عليها الرياح الدافئة أو الباردة... فلا عجب إذاً أن أكون قد وجدت الحرارة مرتفعة في لحية في شهر كانون الثاني/يناير حتى أكثر ارتفاعاً من حرارة صنعاء في شهر تموز/يونيو؛ علماً أن هاتين المدينتين تقعان على فرق دقائق معدودة من حيث الارتفاع: تقع الأولى في سهل منخفض وقاحل عند الخليج العربي بينما تقع صنعاء في منطقة جبلية مرتفعة وخصبة. وعندما كنت فيها كانت الأمطار تتساقط كل يوم. ويمكن أن يشير المحرّ إلى الحرارة نفسها في مدن أخرى تقع على ارتفاع مختلف شرط أن تكونا متساويتي الارتفاع عن البحر والابتعاد عن الشمس. إن الفرق في الارتفاع مثلاً بين كوبنهاغن ولحية هو ٤٠° تقريباً. وتقع هاتان المدينتان على الساحل لكن إحداهما تقع في مكان خصب والأخرى في سهل جاف. وفي كوبنهاغن تكون الشمس في شهر تموز/يونيو على مستوى البعد نفسه عن السمت كما في لحية في شهر كانون الثاني/يناير واكتشفت أن الحرارة في لحية في هذا الشهر كانت أكثر ارتفاعاً من الحرارة في كوبنهاغن بشهر تموز/ يوليو كما وجدها البروفسور كراتزنشتاين.

وباعتبار أني لم أصرف كثيراً من الوقت في التحقق من درجة الحرارة في غالبية المدن المذكورة أعلاه. لن يستطيع القارىء معرفة درجة الحرارة فيها بدقة. إن هذه المهمة تتطلب سنوات عديدة. لكن يمكن أن

يستفيد الفيزيائيون من هذه الأعمال الأولية للتدقيق في حرارة البلاد التي وصفتها حتى الآن ثم يقارنها مع ملاحظات الآخرين. ففي شهر تموز/يوليو في صنعاء كان المستويان الأكثر انخفاضاً والأكثر ارتفاعاً في المحرّ موازيين تقريباً للمستويين الأعلى والأكثر انخفاضاً في كوبنهاغن في الشهر نفسه حسب ملاحظات البروفسور كراتزنشتاين. كما وقد لاحظت أن الحرارة في شهر كانون الثاني/يناير في القاهرة قريبة جداً من حرارة كوبنهاغن في شهر أيار/مايو. لكن لا تكون الحرارة في شهر شباط/فبراير في القاهرة أكثر ارتفاعاً منها في شهر تموز/يوليو بكوبنهاغن. في شهري آذار/مارس ونيسان /أبريل في القاهرة يكون مستوى الزئبق في المحرّ أعلى منه بكوبنهاغن في أشهر الصيف الأكثر حرارة. إن حرارة شهر آب/أغسطس في بيرا وحرارة شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر في جدة وحرارة شهر حزيران/يونيو في تعز تكون تقريباً متوازية. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر في القاهرة وشهر آب/أغسطس في كوبنهاغن يكون ارتفاع المحرّ هو هو، أما ارتفاعه في كانون الأول/أكتوبر في القاهرة فهو قريب جداً منه في كوبنهاغن في حزيران/يونيو. في المخا والقاهرة تكون الحرارة هي نفسها في شهر حزيران/يونيو. وفي منتصف هذا الشهر، تكون الشمس على مستوى الارتفاع نفسه في هاتين المدينتين وبالتحديد على ١٠° إلى الشمال في المخا و١٠° جنوبي السمت في حلب. لكن كلنا يعرف أن مدينة حلب شديدة الارتفاع عن سطح البحر.

ملاحظات حول حرارة الهواء في القسطنطينية

في بداية شهر آب/أغسطس كان المناخ جيداً في القسطنطينية. وفي ١٢ آب/أغسطس وصلت عاصفة من الشمال محمّلة بالبرق والرعد وفي ٢٠ منه تساقطت الأمطار. وفي ٢٤ و٢٥ من الشهر نفسه كان الطقس عاصفاً وممطراً وفي ٢٦ خيّم الضباب على المنطقة لكن عند نهاية الشهر كانت السماء صافية.

في الإسكندرية

في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٧٦١ استمرت الريح بالهبوب من الشمال أو الشمال الشرقي.

ولقد جاء في أقوال بعض المسافرين وبعض مقولات الكتّاب غير الموثوقين أن المطر لا يتساقط أو نادراً ما يتساقط في مصر. إلا أن مصر شديدة الامتداد من الشمال إلى الجنوب.وإن جزءها الواقع في أقصى الشمال وهو الجزء الأكثر وسعاً يمتد على طول الشاطىء وليس بقربه أي جبل. ثم إن الجزء الجنوبي منها ضيق في بعض الأنحاء وفي طرف أو طرفين منه هناك جبال عالية. وهكذا فإن الفيزيائيين الذين لا يهتمون إلا بموقع هذا البلد يقررون أن حرارة الهواء لا يمكن أن تكون متشابهة في كافة المناطق. وقد حاول البعض أن يؤكد لي أن بعض المناطق في مصر العليا لا ترى المطر أبداً. أما في مصر السفلى فغالباً ما يتساقط المطر كل يوم في شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر. وليست الأمطار نادرة في القاهرة كما زعم البعض وقد قالوا لي إنها تمطر أحياناً مرات

معدودة في السنتين، لكن أثناء إقامتي فيها هطل المطر كثيراً وسأفصّل ذلك لاحقاً.

في القاهرة

تشرين الثاني/نوفمبر: بعد وصولنا إلى القاهرة مباشرة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٦١ هطلت الأمطار بشدة في ليل ١٣ ـ ١٤ فدخلت المياه إلى مصطبة منزلنا وأجبرت على تغيير مكان سريري. ولأن شوارع القاهرة غير مرصوفة، أصابتها الأمطار بأضرار بالغة فصار من المستحيل التجول فيها في اليومين التاليين دون التلّوث بالوحول. ثم في الأيام التالية صارت السماء شديدة الصفاء لكنها عادت واكفهرّت لاحقاً.

كانون الأول/ ديسمبر: في ٣٠ من هذا الشهر بعد الظهر، هطل الماء بغزارة لمدة عشر دقائق. في اليوم السابع من الشهر هطلت بعض الأمطار عند الظهر. وفي مساء اليوم العشرين كثر البرق والرعد وفي ليل اليوم ٢١ هطلت الأمطار من جديد. وفي صباح اليوم ٢٢ تساقط المطر لمدة ساعتين وبعد الظهر لمدة ست ساعات دون انقطاع. لكن سرعان ما صفا الجو. ثم في ليل ٢٧ ـ ٢٨ تساقطت الأمطار بغزارة كذلك في ليل ٢٨ ـ ٢٩ وخيّم الطقس الكئيب على الأجواء من ٣ إلى ٩ ومن ١٧ حتى نهاية الشهر.

كانون الثاني/ يناير: في اليوم الأول من الشهر استمرت الأمطار من طلوع الشمس حتى الساعة العاشرة وبقي الجو متكدراً طوال النهار. وبعد ظهر اليوم السابع تساقط المطر بغزارة وفي اليوم الثامن تساقط قليلاً. ثم منذ اليوم ١١ وحتى نهاية الشهر أصبح الطقس لطيفاً. وفي صباح اليوم ١٣ وجد أحد خدامنا العرب جليداً على ملفوفة أحضرها الفلاحون إلى المدينة. وعرضها على عدد من الأوروبيين متباهياً بوجود الجليد في مصر. وفي الأيام الأخيرة من الشهر صارت الريح تهبّ من الشمال وكانت شديدة. أما في اليومين ٢٧ و٢٨ وحتى اليوم ٣٠ فلقد كان الضباب يغطي الأرجاء في الصباح وتتلبّد السماء أثناء الليل.

شباط/ فبراير: في بداية هذا الشهر تساقط المطر بغزارة وهبّت عاصفة قوية آتية من الجنوب طيلة بعد الظهر. وفي صباح اليوم السادس لم تمطر كثيراً. أما في اليومين التاليين فلقد كان الجو متلبداً. ثم أمطرت في ليل اليوم ١٥ وصباح اليوم ١٦.

آذار/ مارس: لم تمطر قط في القاهرة طوال هذا الشهر. إلا أن الجو كان متلبداً في الأيام ٣، ٤، ٨، ٩، ٢٤، ٢٩. أما في اليوم السابع فقد هبّت عاصفة قوية.

نيسان/ أبريل: في اليوم الثاني من هذا الشهر هبّت ريح قوية من الشرق. وفي اليوم الثالث تجهم الجو وتساقطت الأمطار. ثم في اليوم ١٧ هبّت ريح ساخنة من الشرق أي من جهة ليبيا ولشدة ما كانت هوجاء امتلأ هواء القاهرة بالغبار والرمال التي شكّلت سحباً كثيفة. وعند ظهيرة اليوم ١٨ هبّت ريح عاصفة. أما في اليوم ٢٠ فهبّت رياح شمالية شرقية. وتسمى الريح الحارة في القاهرة (الخماسين) لأنها تهبّ في الأيام الخمسين بين عيد الفصح وعيد العنصرة عند الأقباط وعادة تأتي من الجنوب الغربي. وإن الغبار الذي تحمله معها دقيق للغاية فلا يكتفي بالتسرب من خلال النوافذ المحكمة الإقفال إلى بيوت

الأوروبيين بل ويدخل في القوارير المغلقة. لا شك أن هذا الغبار هو سبب العمى في مصر. وهكذا فإن البخار الفاسد الذي يتصاعد من القناة التي تجري في القاهرة يتسبب بموت عدد من الأطفال أو بآلام في عيونهم. وفي اليوم ٢٧ ظهر البرق خلف الشفق ثم أمطرت. وفي اليوم ٣٠ اشتد المطر.

وفي أيار/ مايو: رافقت السيد بورنفايند إلى دمياط في هذا الشهر. راقب السيد كرايمر في غيابي ارتفاع مستوى الزئبق في المحرّ وحرارة الهواء في القاهرة. وفي اليوم الثاني هبّت في المدينة وعلى الطريق المؤدية إلى دمياط ريح جنوبية عاصفة جعلت غيوماً من الغبار تملأ الأجواء. وفي اليوم السابع هبّ هواء قوي من الجنوب وفي اليوم ٣١ هبّت ريح أخرى هوجاء من الشمال.

وفي حزيران/ يونيو: في اليوم الأول من الشهر هبّت ريح قوية من الشمال ورافقتها سحب كثيرة. وفي اليوم الثاني بدأت الرياح تعصف من الجنوب ثم من الغرب وكان الهواء محملاً بالغبار. ثم في اليوم السادس كان الجو مكفهراً. وفي السابع هبّت ريح هوجاء من الشمال وفي اليومين ٢٤ و٢٥ تلبّدت السماء بالغيوم في شهري أيار/مايو وحزيران/يونيو ولكن لم يتساقط المطر قط.

أما في تموز/ يوليو: فلم تمطر قط في القاهرة أثناء هذا الشهر. لكن السماء كانت دائماً ملبّدة بالغيوم عند الصباح وأحياناً خلال باقي النهار.

آب/ أغسطس: في اليوم ١٣ من شهر آب/أغسطس كان الضباب كثيفاً في القاهرة وكان يتحول إلى مياه. في اليوم ١٥ بعد الظهر هبت عاصفة قوية محمّلة بالأمطار على النيل وفي المدينة وفي منتصف الطريق بين القاهرة ورشيد.

الأشهر الثلاثة الأخيرة شديدة الحرارة في مصر لكن في القاهرة يمكن الهرب من أشعة الشمس اللاذعة داخل المباني المؤلفة من أكثر من طابق واحد. كما وأن شوارع المدينة ضيقة لذا فهي تؤمن بعض الظل. أضف إلى ذلك أن الشوارع تسقى عدة مرات في اليوم الواحد وخاصة أمام بيوت الأعيان لترطيب الجوّ. كما وتلعب الريح الشمالية دوراً في تخفيف حدة الحرارة عن سكان مصر فيضع الأعيان أنبوباً قصيراً على الدار في بيتهم يكون ثقبه الأعلى موجهاً نحو الشمال بغية جذب الهواء البارد(*). في هذه الغرف لا تكون الحرارة مرتفعة أبداً لذا لا نعجب إذا رأينا فيها أهل الطبقات الرفيعة يجلسون النهار بكامله ويغطون أنفسهم بالفراء. كما ويملك بعض السكان الأغنياء مياهاً جارية في الغرف المكشوفة من منازلهم. وباختصار أقول إن الأغنياء من المصريين يعرفون كيف يستعملون مواردهم ليردّوا عنهم الحرارة وهم أمهر من سكان البلدان الشمالية الذين يحاولون حماية أنفسهم من البرد.

(*) رأيت مثل أدوات الهواء هذه في كرك (Karck) وهي جزيرة واقعة في الخليج العربي، ثم رأيتها في بغداد حيث كانت شبيهة بمداخننا لأن الأنبوب كان طويلاً وضيقاً وكان الهواء يدخل إلى غرفة تحت الأرض بواسطة مدخنة أعدت لهذه الغاية.

والجدير بالذكر أنه في أيام الحر الشديد في مصر تكثر الغيوم ويهب هواء الشمال باستمرار وفي الأيام نفسها تمطر كل يوم تقريباً في الحبشة وفي المناطق الجبلية في اليمن.

في شبه جزيرة العرب

تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٦٢: قضينا الجزء الأكبر من هذا الشهر على الخليج العربي بين السويس وجدة. وفي الأيام ٢١ و٢٢ و٢٤ كنا نرى البرق كل ليلة من جهة الغرب وفي اليوم ٢٣ من جهة الشرق والجنوب الشرقي وفي اليومين ٢٧ و٢٩ من جهة الشفق. في نهاية الشهر كان الجو مكفهراً خلال النهار والليل.

تشرين الثاني/ نوفمبر: في ليل ١٢ ـ ١٣ كنا نرى البرق في جدة من جميع الجهات. في اليوم ١٣ كان الجو مكفهراً وسمعنا أصوات الرعد. في اليوم ١٧ كان الجو عاصفاً. في اليومين ١٨ و١٩ كان الجو قاتماً فأمطرت وكنا نسمع البرق والرعد أحياناً. بعد ظهر اليوم ٢٠ بدت السماء صافية وبعد ظهر اليوم ٢١ قرب جدة هطلت الأمطار الغزيرة القادمة من الشمال الغربي. عند صباح اليوم ٢٢ رأينا البرق من جهة الشمال الغربي.

كانون الأول/ ديسمبر: في بداية هذا الشهر حافظت الحرارة على استقرارها في جدة وفي اليوم الرابع هبّ هواء قوي من الجنوب وفي مساء اليوم الخامس هبّ هواء آخر من الشمال الغربي. وفي اليوم التاسع عند المساء سمعنا الرعد وهطل المطر من الشمال الغربي. في اليوم ١٦ بدا الجو قاتماً في الخليج بين لحية وجدة. في اليوم ١٧ بقي الجو قاتماً وجاءت عاصفة في المساء وهطلت الأمطار. في اليوم ١٨ عند المساء رأينا البرق في الشمال على الشفق وفي اليومين ٢٤ و٢٥ بدت السماء متلبدة بالغيوم.

وفي شهر كانون الثاني/ يناير ١٧٦٣: في مساء اليوم السادس وطيلة اليوم السابع بدا الجو قاتماً في لحية. وفي صباح اليوم الثامن هطل وابل من المطر وبقي الجو متكدراً إلى اليوم التاسع مساءً. ومنذ اليوم ١٧ وحتى نهاية الشهر كنا نرى الجو متكدراً كل صباح. وفي ليل ١٩ ـ ٢٠ هبّت ريح قوية من الجنوب وفي ٢١ هطل المطر بغزارة. ثم في مساء اليوم ٢٥ عبرت السماء عدة غيوم شفافة وبدا مدار القمر متوجاً بإطار جميل رأينا مثله في مساء اليوم ٢٨. ولقد دام الأول منذ التاسعة وحتى العاشرة والربع، والثاني دام أكثر من ساعتين ونصف. إن نصف القوس هذا كان في كل مرة على ٢٣° وربع.

وفي شباط/ فبراير: في بداية هذا الشهر هطلت بعض الأمطار في لحية لكن اشتد المطر من ١ شباط إلى ٥ منه. في اليوم السادس واليوم السابع كان الجو متكدراً ثم عاد الصفاء بعد ذلك. في ليل ٢٥ ـ ٢٦ هطلت بعض الأمطار على بيت الفقيه.

وفي آذار/ مارس: في اليومين ٦ و١٢ كان الهواء في بيت الفقيه أقوى من العادة فامتلأ الهواء بالغبار والرمل. ومما لا شك فيه أن هذا الغبار الدقيق قدم من غلفقة إذ غالباً ما كانت التلال الرملية تغير مكانها

كما ذكرنا في السابق. وفي اليومين ٢٤ و٢٥ اشتد الرعد ثم هطلت الأمطار. وفي الأيام التالية بقي الجو صافياً.

ونيسان/ أبريل: من اليوم ١١ وحتى اليوم ١٩ كانت السماء متلبدة بالغيوم في بيت الفقيه ورأينا في المخا اعتباراً من ٢٤ نيسان/أبريل وحتى نهايته الكثير من الغيوم لكن دون مطر. وكانت تمطر بغزارة في الجهات الجبلية حتى أنه في اليوم ٢٨ تدفقت المياه في وادٍ جاف فجرفت معها عدة أكواخ من خارج أسوار المدينة. وبعد فترة غير طويلة عاد قعر الوادي إلى الجفاف.

وفي أيار/ مايو: في بداية هذا الشهر كنا نرى البرق على الشفق في المخا. في ليل ٤ ـ ٥ وليل ٥ ـ ٦ هبّت ريح هوجاء من الجنوب. وفي اليوم الثامن عند الظهر، هبّت عاصفة قوية مصحوبة بالأمطار. وفي اليومين التاسع والعاشر اشتد صوت الرعد وهطلت الأمطار طوال الليل.

وفي حزيران/ يونيو: بعد ظهر اليوم الأول، سمعنا الرعد في المخا وبقيت السماء ملبدة بالغيوم طوال الليالي إلى خروجنا من هذه المدينة. وبما أن موسم المطر كان قد حلّ في البلدان الجبلية قبل وصولنا إليها، وجدنا الطقس في تعز مختلفاً عن الطقس الذي اعتدنا عليه في تهامة. وسمعنا البرق ورأينا المطر في فترات بعد الظهر كافة ما عدا في الأيام ١٥ و١٦ و٢٤. أما في اليوم ٢٣ فتساقط القليل من المطر. علماً أن الجو في هذه الأيام لم يكن أقل تكدراً من السابقة. في رحلتنا من تعز إلى جبل سمارة (Sumâra) كانت تمطر في فترات بعد الظهر كلها.

وفي تموز/ يوليو: أثناء فترة إقامتنا في صنعاء كان الجو لطيفاً طيلة الأيام منذ شروق الشمس وحتى الساعة ١١ لكن كانت السماء تتلبد بالغيوم بعد الظهر وأثناء الليل فتحجب الشمس أو النجوم. وكانت تمطر أحياناً بعد الظهر ونادراً أثناء الليل. ويحكى عن وجود الجليد أحياناً في فصل الشتاء لكنه سرعان ما يذوب بفعل حرارة الشمس خلال النهار. وفي طريق عودتنا إلى صنعاء تساقط المطر أحياناً. أما في المخا فكانت الأمطار تهطل بغزارة مصحوبة بالرعد في ٢٩ تموز/يوليو.

وفي شهر آب/ أغسطس ١٧٦٣: عدنا إلى تهامة في بداية هذا الشهر وقلّما تمطر السماء في تهامة. في ليل ١٥ ـ ١٦ اشتد الرعد والمطر في المخا. أما خلال باقي الشهر فكان الجو لطيفاً والهواء ساكناً مما جعل الحرارة لا تطاق في هذه المدينة.

تتفاوت الحرارة في مختلف مناطق شبه الجزيرة الهندية تماماً كما في شبه الجزيرة العربية. لا يبدأ موسم المطر على ساحل كورومندال (Coromandel) وفي إقليم البنغال (Bengale) إلا عندما ينتهي على شاطىء ملابار (Malabare). أما في هذه المنطقة أي في غرب الجبال الكبيرة التي تخترق الهند من الشمال إلى الجنوب تمطر ابتداءً من منتصف حزيران/يونيو وحتى منتصف تشرين الأول/أكتوبر أي في الموسم نفسه حيث تمطر في المناطق الجبلية من اليمن وفي الحبشة. ويقول البعض إن موسم الشتاء في بومباي يبدأ برعد

قوي وبرق آتٍ من الشمال الشرقي ثم ينتهي بعد ذلك. وعندما كنت في بومباي شهدنا في بداية شهر أيار/مايو الرعد المصحوب بالمطر الغزير ثم صفا الجو بعد ذلك. وفي نهاية أيار/ مايو وبداية حزيران/يونيو بات الجو متكدراً. ومن ١٠ إلى ٢٨ حزيران/يونيو صار المطر ينهمر قليلاً وأحياناً كانت تمر أيام بكاملها والجو شديد الصفاء. أما في مساء ٢٩ حزيران/يونيو فقد وصلت عاصفة هوجاء من الشمال الشرقي ومنذ ذلك الحين لم تمضِ ٢٤ ساعة من دون أن تتساقط فيها الأمطار. وبعدها سيطر مناخ لطيف على الأجواء وذلك حتى ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر إذ انتهى موسم الشتاء بعاصفة من الشمال الغربي.

كلّف السيد بوير Boyer نفسه وهو تاجر من مرسيليا مقيم في القاهرة بتسجيل ارتفاع مستوى الزئبق في محرّ ريومور لمدة سنتين. لكن بدلاً من وضع المحرّ في الهواء الطلق وضعه في غرفة مغلقة. أضف إلى ذلك أنه لم يدوّن ساعات الصباح والمساء بدقة بل اكتفى بتدوين ساعات الظهيرة. وسوف أرفق بهذا الكتاب النسخة التي أعطاني إياها لربما اهتم بها الفيزيائيون.



ارتفاع مستوى الزئبق في محرّ ريومور في القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ١٧٥٩

اليوم	ك٢ يناير	شباط فبراير	آذار مارس	نيسان ابريل	أيار مايو	حزيران يوليو	تموز يوليو	آب أغسطس	أيلول سبتمبر	ت١ أكتوبر	ت٢ نوفمبر	ك١ ديسمبر
١	٢/١ °١٠	٢/١ ١٠	°١٤	°١٥	°١٩	٢/١ °٢٢	°٢٤	°٢٤	°٢٣	°٢٠	٢/١ °١٧	°١٤
٢	١١	١٠	٢/١ ١٤	١٥	١٩	٢٢	٢٣	٢٤	٢٣	/١ ٢٠	١٧	٢/١ ١٣
٣	١١	١٠	٢/١ ١٤	١٥	٢٠	٢٢	٢/١ ٢٣	٢٤	٢٣	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٧	٢/١ ١٣
٤	١١	١٠	٢/١ ١٤	١٥	٢٠	٢٢	٢٥	٢٤	٢/١ ٢٢	٢/١ ٢٠	١٧	٢/١ ١٣
٥	٢/١ ١٠	١٠	١٤	١٦	٢/١ ١٩	٢/١ ٢٢	٢٤	٢٤	٢/١ ٢١	٢/١ ٢٠	١٦	٢/١ ١٣
٦	٢/١ ١٠	١٠	١٤	١٦	٢/١ ١٩	٢/١ ٢٢	٢/١ ٢٣	٢٤	٢٢	٢١	٢/١ ١٤	٢/١ ١٣
٧	٢/١ ١٠	٢/١ ١٠	٢/١ ١٤	١٦	٢/١ ١٨	٢٣	٢٣	٢/١ ٢٤	٢٢	٢/١ ٢١	٢/١ ١٤	٢/١ ١٣
٨	٢/١ ١١	٢/١ ١٠	١٤	١٧	١٩	٢٣	٢٣	٢٤	٢٢	٢١	٢/١ ١٤	١٣
٩	١٢	٢/١ ١٠	٢/١ ١٤	١٧	٢/١ ٢٠	٢٣	٢/١ ٢٢	٢٤	٢/١ ٢١	٢١	٢/١ ١٤	٢/١ ١٣
١٠	١٢	٢/١ ٩	٢/١ ١٤	٢/١ ١٦	٢/١ ٢٠	٢٣	٢٢	٢٤	٢/١ ٢٢	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٤	١٣
١١	١٢	٢/١ ٩	١٥	١٦	٢١	٢٣	٢/١ ٢٢	٢٣	٢/١ ٢٢	٢٠	٢/١ ١٤	٢/١ ١٢
١٢	٢/١ ١١	٩	١٥	١٦	٢١	٢٣	٢/١ ٢٢	٢٤	٢٢	٢/١ ١٩	١٥	١٢
١٣	١١	٢/١ ٨	١٥	١٦	٢١	٢/١ ٢٢	٢٢٢/١	٢/١ ٢٣	٢٢	٢/١ ١٩	٢/١ ١٥	١٢
١٤	١١	٢/١ ٨	٢/١ ١٤	١٦	٢١	٢/١ ٢٢	٢/١ ٢٢	٢٣	٢٢	٢/١ ١٩	١٥	١٢
١٥	١١	٢/١ ٨	١٤	١٦	٢١	٢٢	٢٣	٢٣	٢/١ ٢١	٢/١ ١٩	١٥	٢/١ ١٢
١٦	٢/١ ١٠	٢/١ ٨	١٤	١٦	٢٢	٢/١ ٢٢	٢٣	٢٣	٢١	١٩	٢/١ ١٥	١٣
١٧	١١	٢/١ ٨	١٤	١٦	٢١	٢٣	٢٣	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٠	١٩	٢/١ ١٥	١٣
١٨	١١	٨	٢/١ ١٣	٢/١ ١٦	٢٠	٢/١ ٢٢	٢١ ٢٣	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٩	٢/١ ١٥	١٣
١٩	١١	٨	٢/١ ١٣	١٨	١٩	٢٣	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٠	١٩	١٦	١٣
٢٠	٢/١ ١٠	٢/١ ٨	١٤	٢/١ ١٨	١٩	٢٣	٢٤	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٠	١٩	٢/١ ١٥	٢/١ ١٣
٢١	١٠	٩	١٤	١٨	١٩	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٤	٢٤	٢/١ ٢٠	١٩	٢/١ ١٥	٢/١ ١٢
٢٢	١٠	٩	٢/١ ١٤	١٧	٢٠	٢٣	٢٥	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٠	١٩	١٥	٢/١ ١٢
٢٣	١٠	٢/١ ١٠	١٦	٢/١ ١٦	٢١	٢٣	٢٥	٢/١ ٢٣	٢١	٢/١ ١٩	١٥	٢/١ ١٢
٢٤	١٠	٢/١ ١٠	١٦	١٦	٢٢	٢٣	٢٤	٢٣	٢٢	٢/١ ١٩	١٥	٢/١ ١٢
٢٥	١٠	١٠	٢/١ ١٦	١٦	٢٢	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٣	٢٣	٢٢	٢/١ ١٩	١٥	٢/١ ١٢
٢٦	٢/١ ١٠	١١	٢/١ ١٧	٢/١ ١٦	٢٣	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٣	٢١	١٨	١٥	١٢٢/١
٢٧	٢/١ ١٠	١٢	٢/١ ١٧	٢/١ ١٧	٢١	٢٤	٢/١ ٢٣	٢٣	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٧	١٥	١٣
٢٨	١٠	٢/١ ١٢	١٦	١٩	٢/١ ٢٠	٢٤	٢٣	٢/١ ٢٢	٢١	١٨	٢/١ ١٤	١٣
٢٩	٢/١ ١٠		١٤	١٩	٢/١ ٢٠	٢٣	٢/١ ٢٣	٢٣	٢١	٢/١ ١٧	١٤	١٢
٣٠	٢/١ ١٠	٢/١ ١٤	١٨	٢١	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٣	٢٣	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٧	١٤	١٢	—
٣١	٢/١ ١٠	٢/١ ١٤	٢/١ ٢١	٢/١ ٢٣	٢٣	٢/١ ١٧	١٤	١٢	—	—	—	—

ارتفاع مستوى الزئبق في محرّ ريومور في القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ١٧٦٠

اليوم	ك٢/ يناير	شباط/ فبراير	آذار/ مارس	نيسان/ أبريل	أيار/ مايو	حزيران/ يونيو	تموز/ يوليو	آب/ أغسطس	أيلول/ سبتمبر	ت١/ أكتوبر	ت٢/ نوفمبر	ك١/ ديسمبر
١	١٢°	١١°	٢٣°	١٥°	١٩°	٢٣°	٢٤°	٢٥°	٢/١ ٩٣	٢١°	٢/١ ١٨	١٢°
٢	١٢	١١	٢/١ ١٣	١٧	١٩	٢٤	٢٤	٢٥	٢٤	٢١	٢/١ ١٨	٢/١ ١٢
٣	٢/١ ١١	١١	١٤	١٧	٢٠	٢٣	٢٤	٢٥	٢٣	٢١	١٨	١٢
٤	٢/١ ١١	٢/١ ١١	١٤	٢/١ ١٦	٢/١ ٢٠	٢/١ ٢٢	٢/١ ٢٣	٢٥	٢٣	٢١	١٨	١٢
٥	١١	٢/١ ١١	٢/١ ١٤	١٥	٢٠	٢٢	٢٣	٢٥	٢٣	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٧	٢/١ ١٢
٦	٢/١ ١٠	١٢	١٤	١٥	٢٠	٢٢	٢٣	٢/١ ٢٥	٢٢	٢/١ ٢٠	١٧	١٢
٧	١١	١٢	١٤	٢/١ ١٤	٢٠	٢٣	٢٤	٢٦	٢٢	٢/١ ٢٠	١٧	٢/١ ١٢
٨	٢/١ ١٠	١٢	١٤	٢/١ ١٥	٢٠	٢٣	٢٤	٢٦	٢٢	٢/١ ٢٠	١٧	١٢
٩	٢/١ ١٠	١٢	٢/١ ١٣	٢/١ ١٦	٢٠	٢٣	٢٤	٢٦	٢٢	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٦	٢/١ ١٢
١٠	٢/١ ١٠	١٢	٢/١ ١٣	٢/١ ١٦	٢١	٢/١ ٢٢	٢٤	٢٦	٢٢	٢٠	١٦	١٣
١١	٢/١ ١٠	١١	١٢	٢/١ ١٦	٢١	٢٢	٢/١ ٢٤	٢٦	٢٢	٢٠	١٦	١٣
١٢	١١	١١	١٢	١٧	٢٠	٢٢	٢/١ ٢٤	٢/١ ٢٥	٢/١ ٢١	٢٠	١٦	١٣
١٣	١٢	١١	٢/١ ١١	١٧	٢٠	٢/١ ٢١	٢٤	٢/١ ٢٥	٢١	٢/١ ١٩	١٦	١٣
١٤	١٣	٢/١ ٩	١٢	١٧	٢١	٢/١ ٢١	٢/١ ٢٤	٢٥	٢/١ ٢٠	٢/١ ١٩	٢/١ ١٦	١٣
١٥	٢/١ ١٣	٢/١ ٩	١٢	٢/١ ١٦	٢/١ ٢١	٢/١ ٢١	٢/١ ٢٤	٢٥	٢٠	١٩	٢/١ ١٦	١٣
١٦	١٣	١٠	١٢	١٦	٢٢	٢٢	٢/١ ٢٤	٢٥	٢١	١٩	٢/١ ١٦	٢/١ ١٢
١٧	٢/١ ١٢	٢/١ ١٠	١٣	١٥	٢٢	٢٣	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٤	٢١	١٩	١٦	٢/١ ١٢
١٨	١٢	١١	٢/١ ١٣	٢/١ ١٥	٢/١ ٢١	٢٣	٢/١ ٢٣	٢٤	٢/١ ٢١	١٩	١٦	١٢
١٩	١٢	١١	١٤	٢/١ ١٦	٢١	٢٥	٢٤	٢٤	٢١	٢/١ ١٥	١٦	١٢
٢٠	١٢	١٢	٢/١ ١٤	١٧	٢/١ ٢٠	٢٤	٢٤	٢٤	٢١	٢/١ ١٨	٢/١ ١٥	١٢
٢١	١٢	١٢	١٦	١٧	٢/١ ٢٠	٢٤	٢٤	٢/١ ٢٤	٢/١ ٢٠	١٨	٢/١ ١٥	٢/١ ١٢
٢٢	١١	١٢	١٦	١٧	٢٠	٢٤	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٤	٢/١ ٢١	١٩	٢/١ ١٥	٢/١ ١١
٢٣	١١	١٢	١٦	١٨	٢/١ ٢٠	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٣	٢٤	٢١	١٨	١٥	١١
٢٤	٢/١ ١١	٢/١ ١٢	٢/١ ١٦	٢/١ ١٧	٢/١ ٢٠	٢٤	٢٤	٢٤	٢١	٢/١ ١٨	٢/١ ١٥	١٢
٢٥	١١	٢/١ ١٢	٢/١ ١٦	١٧	٢١	٢٤	٢٤	٢/١ ٢٢	٢٢	٢/١ ١٨	١٥	٢/١ ١٢
٢٦	١١	١٢	٢/١ ١٦	١٧	٢١	٢/١ ٢٥	٢٤	٢٢	٢٢	٢/١ ١٨	١٤	٢/١ ١٢
٢٧	٢١ ١٠	٢/١ ١٢	١٦	١٨	٢/١ ٢١	٢/١ ٢٥	٢٥	٢٢	١/١ ٢٢	١٨	١٤	١٢
٢٨	٢/١ ١٠	١٢	١٦	١٩	٢/١ ٢١	٢٥	٢٥	٢٢	٢٢	١٨	١٤	١٢
٢٩	١١	٢/١ ١٢	٢/١ ١٦	١٩	٢٢	٢٤	٢٥	٢٢	٢٢	١٨	١٤	١٢
٣٠	٢/١ ١١	١٦	١٩	٢/١ ٢٣	٢/١ ٢٤	٢٥	٢٤	٢٢	١٨	١٣	—	٢/١ ١١
٣١	١١	١٦	٢/١ ٢٢	٢٥	٢٤	١٨	٢/١ ١١	—	—	—	—	—

ارتفاع مستوى الزئبق في محرّ ريومور في القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ١٧٦٠

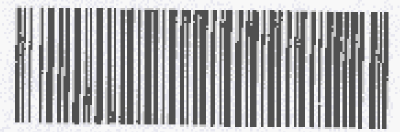
اليوم	ك٢ يناير	شباط/ فبراير	آذار/ مارس	نيسان/ ابريل	أيار/ مايو	حزيران/ يوليو	تموز/ يوليو	آب/ أغسطس	أيلول/ سبتمبر	ت١ أكتوبر	ت٢ نوفمبر	ك١ ديسمبر
١	١٢°	١١°	٢٣°	١٥°	١٩°	٢٣°	٢٤°	٢٥°	٢٣ ٢/١	٢١°	١٨ ٢/١	١٢°
٢	١٢	١١	١٣ ٢/١	١٧	١٩	٢٤	٢٤	٢٥	٢٤	٢١	١٨ ٢/١	١٢ ٢/١
٣	١١ ٢/١	١١	١٤	١٧	٢٠	٢٣	٢٤	٢٥	٢٣	٢١	١٨	١٢
٤	١١ ٢/١	١١ ٢/١	١٤	١٦ ٢/١	٢٠ ٢/١	٢٢ ٢/١	٢٣ ٢/١	٢٥	٢٣	٢١	١٨	١٢
٥	١١	١١ ٢/١	١٤ ٢/١	١٥	٢٠	٢٢	٢٣	٢٥	٢٣	٢٠ ٢/١	١٧ ٢/١	١٢ ٢/١
٦	١٠ ٢/١	١٢	١٤	١٥	٢٠	٢٢	٢٣	٢٥ ٢/١	٢٢	٢٠ ٢/١	١٧	١٢
٧	١١	١٢	١٤	١٤ ٢/١	٢٠	٢٣	٢٤	٢٦	٢٢	٢٠ ٢/١	١٧	١٢ ٢/١
٨	١٠ ٢/١	١٢	١٤	١٥ ٢/١	٢٠	٢٣	٢٤	٢٦	٢٢	٢٠ ٢/١	١٧	١٢
٩	١٠ ٢/١	١٢	١٣ ٢/١	١٦ ٢/١	٢٠	٢٣	٢٤	٢٦	٢٢	٢٠ ٢/١	١٦ ٢/١	١٢ ٢/١
١٠	١٠ ٢/١	١٢	١٢ ٢/١	١٦ ٢/١	٢١	٢٢ ٢/١	٢٤	٢٦	٢٢	٢٠	١٦	١٣
١١	١٠ ٢/١	١١	١٢	١٦ ٢/١	٢١	٢٢	٢٤ ٢/١	٢٦	٢٢	٢٠	١٦	١٣
١٢	١١	١١	١٢	١٧	٢٠	٢٢	٢٤ ٢/١	٢٥ ٢/١	٢١ ٢/١	٢٠	١٦	١٣
١٣	١٢	١١	١١ ٢/١	١٧	٢٠	٢١ ٢/١	٢٤	٢٥ ٢/١	٢١	١٩ ٢/١	١٦	١٣
١٤	١٣	٩ ٢/١	١٢	١٧	٢١	٢١ ٢/١	٢٤ ٢/١	٢٥	٢٠ ٢/١	١٩ ٢/١	١٦ ٢/١	١٣
١٥	١٣ ٢/١	٩ ٢/١	١٢	١٦ ٢/١	٢١ ٢/١	٢١ ٢/١	٢٤ ٢/١	٢٥	٢٠	١٩	١٦ ٢/١	١٣
١٦	١٣	١٠	١٢	١٦	٢٢	٢٢	٢٤ ٢/١	٢٥	٢١	١٩	١٦ ٢/١	١٢ ٢/١
١٧	١٢ ٢/١	١٠ ١/١	١٣	١٥	٢٢	٢٣	٢٣ ٢/١	٢٤ ٢/١	٢١	١٩	١٦	١٢ ٢/١
١٨	١٢	١١	١٣ ٢/١	١٥ ٢/١	٢١ ٢/١	٢٣	٢٣ ٢/١	٢٤	٢١ ٢/١	١٩	١٦	١٢
١٩	١٢	١١	١٤	١٦ ٢/١	٢١	٢٥	٢٤	٢٤	٢١	١٥ ٢/١	١٦	١٢
٢٠	١٢	١٢	١٤ ٢/١	١٧	٢٠ ٢/١	٢٤	٢٤	٢٤	٢١	١٨ ٢/١	١٥ ٢/١	١٢
٢١	١٢	١٢	١٦	١٧	٢٠ ٢/١	٢٤	٢٤	٢٤ ٢/١	٢٠ ٢/١	١٨	١٥ ٢/١	١٢ ٢/١
٢٢	١١	١٢	١٦	١٧	٢٠	٢٤	٢٣ ٢/١	٢٤ ٢/١	٢١ ٢/١	١٩	١٥ ٢/١	١١ ٢/١
٢٣	١١	١٢	١٦	١٨	٢٠ ٢/١	٢٢ ٢/١	٢٣ ٢/١	٢٤	٢١	١٨	١٥	١١
٢٤	١١ ٢/١	١٢ ٢/١	١٦ ٢/١	١٧ ٢/١	٢٠ ٢/١	٢٤	٢٤	٢٤	٢١	١٨ ٢/١	١٥ ٢/١	١٢
٢٥	١١	١٢ ٢/١	١٦ ٢/١	١٧	٢١	٢٤	٢٤	٢٢ ٢/١	٢٢	١٨ ٢/١	١٥	١٢ ٢/١
٢٦	١١	١٢	١٦ ٢/١	١٧	٢١	٢٥ ٢/١	٢٤	٢٢	٢٢	١٨ ٢/١	١٤	١٢ ٢/١
٢٧	١٠ ٢١	١٢ ٢/١	١٦	١٨	٢١ ٢/١	٢٥ ٢/١	٢٥	٢٢	٢٢ ١/١	١٨	١٤	١٢
٢٨	١٠ ٢/١	١٢	١٦	١٩	٢١ ٢/١	٢٥	٢٥	٢٣	٢٢	١٨	١٤	١٢
٢٩	١١	١٢ ٢/١	١٦ ٢/١	١٩	٢٢	٢٤	٢٥	٢٣	٢٢	١٨	١٤	١٢
٣٠	١١ ٢/١	١٦	١٩	٢٢ ٢/١	٢٤ ٢/١	٢٥	٢٤	٢٢	١٨	١٣	—	١١ ٢/١
٣١	١١	١٦	٢٢ ٢/١	٢٥	٢٤	١٨	١١ ٢/١	—	—	—	—	—

شغلت هذه الرحلة الشهيرة حيِّزاً مهماً في التاريخ الأدبي لقرننا هذا ، حتى أن إحدى الإمم التي حاولت أن تستأثر بالفنون والعلم حسدت عظمة هذه الرحلة . واهتم علماء البلاد قاطبة بنجاح هذه المهمة فحاولوا قطف ثمارها دون أن يقاسمونا مخاطرها . وعاد السيد نيبور وحده من شبه الجزيرة العربية من بين الخمسة الذين تشرفت الدانمارك بإرسالهم بكنوز علمية ، وقد حاول بعض النمامين الحسّاد الادعاء أن موت زملاء الأول أودى بثمار الأبحاث كافة ، لكن ما إن أصدر وصفه لشبه الجزيرة العربية حتى سارع العلماء البارزون إلى مدحه والثناء على ملاحظاته المفيدة والبنّاءة .

ولا يجهل أحد في عالم الأدب انطلاقة هذه الرحلة وتطوراتها ونتائجها .

استهل السيد نيبور عمله بالإشارة إلى أن «سكان اليمن ، أي سكان الجزء الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، الذي يعرفه الأوروبيون باسم العربية السعيدة» ، ويمكن لشبه الجزيرة العربية أن تشكل حقلاً واسعاً للاكتشافات بالنسبة لعلماء الطبيعات . وتحصد الجغرافيا فوائد عدة من رحلة كهذه ، كما أتت الكتابات المقدّسة على ذكر مدن عربية عدة .

ويضيف السيد نيبور : « إن الذين يقرؤون العمل للتسلية وإجزاء الوقت ، يستمعون حين يروي المسافر قصصاً هزلية عن طريقة حياة الغرباء وعن المصاعب التي واجهها ، لكني لم أتمكن من كبت شعوري حين وجدت أن العرب لا يقلّون إنسانية عن الأمم الأخرى التي تدّعي الأدب والتهذيب .



9 789953 476834

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الثاني



VOYAGE
EN
ARABIE

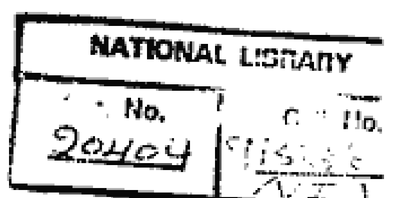
& en d'autres Pays circonvoisins,

par

C. NIEBUHR.

TOME SECOND.

Traduit de l'Allemand.





À AMSTERDAM chez *S. J. BAALDE*,
À UTRECHT chez *BARTHELEMY WILD*.
M D C C L X X X.



رحلة إلى شبه الجزيرة العربية
وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الثاني

كارستن نيبور



ترجمة عبير المنذر



Arab Diffusion Company

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية

والى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الثاني



ص.ب 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت-لبنان
هاتف ٩٦١-١٦٥٩١٤٨ فاكس ٩٦١-١٦٥٩١٥٠

ISBN 9953-476-83-7

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

فهرس المواد التي يتضمنها الجزء الثاني

ملاحظات في بومباي وسورات

وصف جزيرة بومباي تجارة الشركة الانكليزية للهند الشرقية في هذه البلاد وسلطتها وتجارة موظفيها في مرافىء أخرى فيما وراء رأس الرجاء الصالح. سكان جزيرة بومباي من اوروبيين، وكاثوليك مولودين في الهند أو برتغاليين مزعومين، وهندوس أو وثنيين، فارسيين أو عبدة النار ومسلمين وصف لباغود (هيكل) جزيرة الفيل. وصف لمدينة سورات سلطة الانكليز في سورات. السكان الاخرون الخ..الخ.. .... ١٣

الرحلة من بومباي إلى مسقط وبو شهر

الرحلة من بومباي إلى مسقط. وصف لهده المدينة وسكانها. الرحلة من مسقط إلى بو شهر. ٧٨

ملاحظات في بو شهر وشيراز وبرسيبوليس

وصف لمدينة بو شهر. ملاحظات خلال الرحلة إلى شيراز. في الأكراد والتركمان البدو وفي جيش من الفرس اجتاح البلاد. ملاحظات في شيراز وصف لبقايا قصر برسيبوليس ولآثار أخرى في هذه البلاد. ملاحظات لاحقة في شيراز. العودة إلى بو شهر ٨٨

ملاحظات في الخرج (Charedesch)

موقع هذه الجزيرة الخاضعة للهولنديين. الحرب بين الفرس وسيد بندريخ (Benderrigh) والتي شارك فيها الانكليز. ملاحظات في الخرج وحول سكانها. الرحلة إلى البصرة ملاحظات حول البوصلات العربية. ١٦٥

ملاحظات في البصرة

وصف هذه المدينة وطريقة الحكم فيها. سكانها. موقع البصرة القديمة. حرب قبيلة كعب العربية ضد الغفس، والاتراك والانكليز، ثم ما بين قبيلة كعب وقبيلة منتفع، وسرقة بساتين البلح في البصرة. الدروب عبر الصحراء من البصرة وبغداد إلى حلب. بريد الحمام الزاجل ١٨٣

الرحلة من البصرة إلى بغداد

الرحلة على الفرات من البصرة إلى لملوم (Lemllum). مدن هذه البلاد وقبائلها العربية. رحلة من الرماحية (Rumahie) إلى مشهد علي. وصف هذه المدينة ومسجد الشيعة الرائع الموجود فيها، فضلاً عن بقايا الكوفة. رحلة إلى ضريح حزقيال، والى الحلة (Helle) ومشهد حسين وصف كربلاء وضريح الحسين. الفرق بين السنة والشيعة، تغير ديانة هؤلاء الاخيرين تحت حكم نادر شاه، معلومات أخرى حول بطل بلاد الفرس هذا. وصف مدينة الحلة موقع جنائن بابل المعلقة، ومعبد بيلوز (Belus). الرحلة من الحلة إلى بغداد ٢٠١

ملاحظات في بغداد

وصف هذه المدينة، وموقع بغداد القديمة. ضريح موسى الكاظم، وأبي حنيفة مؤسس أحد مذاهب السنة. عقرقوف (Agerkuf) والمؤلف. تجارة مدينة بغداد. تاريخ بغداد الحديث. طريقة حكم هذه المنطقة. سلطة الباشا. ملاحظات حول كردستان، بما في ذلك المنطقة الخاضعة لحاكم بغداد والاخرى المستقلة. ٢٣٧

الرحلة من بغداد إلى الموصل

ملاحظات في ينكشا (Yankasha)، الطاق (Tauk)، كركوك، التان (Altan)، كوبري (Kupri)، اربيل أو اربيلا. مبادىء اليزيدية التي يقال إن اتباعها يتعبدون الشيطان. ملاحظات في كرمليس (Carmelies)، والتقدم الكبير الذي أحرزه المرسلون الكاثوليك في هذه البلاد. في اللغة

الكلدانية الحيّة في بعض الأحياء. موقع مدينة نينوى. الطرق المختلفة بين الموصل وبغداد.
وصف مدينة الموصل وسكانها. أسماء القرى التابعة لولاية هذا الباشا. ٢٦٤

الرحلة من الموصل إلى ماردين

تحضيرات الشرقيين للسفر في الصحراء. رحلة قافلة كبيرة إلى نصيبين (Nissabin). ملاحظات حول هذه المدينة القديمة والاقاليم الواقعة على طرفي الطريق بين الموصل وماردين. وصف مدينة ماردين وحكمها، وسكانها المختلفين سيّما الشمسيين وهم أتباع ديانة قديمة للغاية وضعوا أنفسهم تحت حماية بطريرك اليعقوبيين. ٢٨٨

الرحلة من ماردين إلى حلب عبر ديار بكر

وصف مدن ديار بكر، سويريك (Sovereck)، عرفه وبيراجيك (Biradsjik)، وملاحظات أخرى حول الطريق من ماردين إلى حلب. لائحة بأهم قبائل الاكراد والتركمان التي تهيم مع خيامها في ارمينيا والاناضول وسوريا. المسافة بين مدن عدة في ارمينيا وفي الاناضول. ٣٠٧

ملاحظات حول سوريا ولاسيما سكان جبل لبنان

أقسام هذه البلاد. الامم واللغات المختلفة. في السنة والمتاولة واليهود والمسيحيين. ملاحظات حول الدروز، أصلهم، وطبعهم ودينهم. منازل النصيريين والاسماعيليين وديانتهم. طريقة الحكم عند الدروز. تاريخ هذه الامة الحديث. النبلاء منهم. وصف جغرافي لمنطقتهم. سيطرة الموارنة على جبل لبنان. النبلاء بين الموارنة. امراء جبل لبنان المزعومون. وصف منطقة كسروان ومدينة بيروت. احياء طرابلس الخاضعة لولاية الباشا والتي يسكنها المسيحيون. تغييرات جديدة في جبل لبنان. ٣٢٩

فهرس بلوحات الجزء الثاني

١ ـ جزيرة بومباي ١٥

٢ ـ أ، ب، ت ثلاثة خروف مختلفة للهنود ث، ج حروف الفرس وح حرف الصابئة. . . ٢٧

٣ ـ تصميم لمعبد جزيرة الفيل ٣٤

٤ ـ تنسيق اعمدة المعبد ٣٧

٥ ـ رسم لصور المعبد الرئيسة، قرب الأرقام ١، ٢، ٣ على تصميم اللوحة III ٣٨

٦ ـ رسم للصور قرب الرقم ٤، اللوحة III ٣٩

٧ ـ رسم للصور قرب الرقم ٥، اللوحة III ٤١

٨ ـ رسم للصور قرب الرقم ٦ و١٢ اللوحة III ٤٣

٩ ـ رسم للصور قرب الرقم ٧ اللوحة III ٤٤

١٠ ـ رسم لأهم صورة قرب الرقم ٩ اللوحة III ٤٦

١١ ـ رسم للصور قرب الرقم ١٣ و١٤ اللوحة III ٤٧

١٢ ـ أ. هكريس (Hakkris) ٦٦

ب. لباس الهنود ٦٦

ج ـ المعطف الواقي من المطر عند الفلاحين الهنود ٦٦

١٣ ـ أ. محفّة يستخدمها الهنود في الصيف ٦٧

ب ـ محفّة يستخدمونها في الشتاء ٦٧

١٤ ـ موقع مدينة سورات على نهر تابي (Tappi)، وخارطة لحديقة قرب سورات ٧٦

١٥ ـ خارطة لمدينة مسقط ٨١

١٦ ـ خارطة لمحيط بو شهر ٨٧

١٧ ـ خارطة السير من بو شهر إلى برسيبوليس ١٠٦

١٨ ـ تصميم لآثار قصر برسيبوليس ١٠٨

١٩ ـ صورة لبقايا برسيبوليس ١٠٩

٢٠ ـ أ. ب: رسم للحيوانات الموجودة على السور أو على اللوحة XVIII ١١٣

٢١ ـ صورة لرسوم السور ج اللوحة XVIII ١١٥

٢٢ ـ صورة لرسوم السور د اللوحة XVIII ١١٦

٢٣ ـ صور لرسوم السور «د» الاخرى، اللوحة XVIII، وحروف الكتابة الفارسية القديمة الاخرى. ١١٨

٢٤ ـ كتابات متنوعة من برسيبوليس بحروف ابجدية ثلاثة مختلفة ١٢٥

٢٥ ـ أ. ب، رسم لعامود من برسيبوليس، ج، رسم لشخص من الاعيان، لابد أنه كاهن د. هـ. رسم لأبطال قدامى و. ز، ح، ط، ك، جرار حملها أشخاص آخرون رسموا في هذه البقايا. ١٢٦

٢٦ ـ مشهد للصرح «ز» اللوحة XVIII ١٢٨

٢٧ ـ كتابات كوفية، عربية، وغيرها من برسيبوليس، نقشي رجب ونقشي رستم. ١٣٠

٢٨ ـ منظر للصرح «ط» اللوحة XVIII ١٣١

٢٩ ـ رسم للصور الموجودة على عواميد البايين W.W ١٣٤

٣٠ ـ رسم للصور الموجودة على عواميد البايين XX ١٣٧

٣١ ـ كتابات من برسيبوليس بحروف ابجدية ثلاثة مختلفة. ١٣٨

٣٢ ـ رسم الصور الموجودة قرب نقشي رجب. ١٤٣

٣٣ ـ رسم لبعض صور نقشي رستم. ١٤٤

٣٤ ـ كتابات نقشي رستم. ١٤٧

٣٦ ـ المشهد العام لمدينة شيراز. ١٥٣
٣٧ ـ تمارين الفرس. ١٥٧
٣٨ ـ خارطة مدينة خرج وقلعتها. ١٦٤
٣٩ ـ خارطة مدينة البصرة. ١٨٢
٤٠ ـ خارطة سير من الخليج الفارسي حتى السماوة. ٢٠٣
٤١ ـ خارطة السير من السماوة حتى قره طوبه. ٢١١
٤٢ ـ خارطة مدينة مشهد علي (أ) مشهد عام لمسجد هذه المدينة الكبير (ب) خارطة مسجد الكوفة (ج) مشهد عام لمسجد مشهد الحسين (د) (هـ) حجارة من الطين يستخدمها الشيعة في صلاتهم. (و) سيف عليّ الشهير. (ز) ختم محمد النبوي (ح) مشهد عام لمسجد موسى الكاظم قرب بغداد. ٢١٤
٤٣ ـ أ، ب، ج، د، كتابات من الكوفة. هـ، جزء من كتابة طينية من بغداد. و، كتابه من اسكي موصل ز، كتابة على حجر في قصر شنيج على الطريق بين الموصل ونصيبين. ٢١٧
٤٤ ـ خارطة مدينة بغداد. ٢٣٦
٤٥ ـ خارطة السير من قرة طوبة حتى زاخو (Sacho) ٢٧٥
٤٦ ـ خارطة مدينة الموصل ٢٨٢
٤٧ ـ خارطة مدينة ماردين، وقرية نونيه ٣٠٣
٤٨ ـ خارطة مدينة ديار بكر ٣١١
٤٩ ـ كتابات كوفية على سور مدينة ديار بكر ٣١٣
٥٠ ـ خارطة السير من عناد حتى اورفة ٣١٦
٥١ ـ خارطة السير من اورفة حتى عدن ٣٢١

إشعار من الكاتب

أقدم اعتذاري للقراء الذين انتظروا طويلاً ظهور الجزء الثاني من عملي بعد وصفي لرحلتي. وأرجو ألاّ يلومني هواة التاريخ الطبيعي، لأنهم جمعوا، منذ صدر الجزء الاول من هذا العمل، ثماراً أخرى من الرحلة وذلك من «شبه الجزيرة»، ومن «وصف الحيوانات والنبات في مصر وبلاد العرب»، وهما ما كتبه المرحوم البروفسور فورسكال، فضلاً عن «الايقونات الطبيعية» التي طلب من الرسام بورنفند رسمها استناداً إلى الصور الاصلية. ومنحني الملك، الذي يشجع عادة العلوم ويطلع العلماء على الملاحظات حول الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية، شرف مساعدته، وطلب مني العمل على نشر الكتب المذكورة أعلاه، فقمت بهذه المهمة انطلاقاً من واجبي وبفرح لأحيي ذكرى رفاق رحلتي الذين أصبحوا ضحايا العلم.

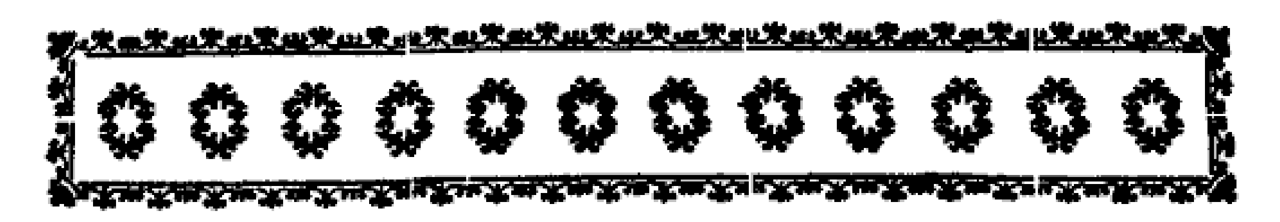
وبما أنني فقدت رفاقي في بداية العام ١٧٦٤، عدت وحيداً من الهند عبر البصرة وحلب، لا يتوقع مني عشاق التاريخ الطبيعي ملاحظات من هذا النوع في بلاد زرتها وحيداً، وينبغي أن يستخدموا نتاج هذه الرحلة التي أمر بها عاهل الدانمارك. لكني واثق من أنّ الجغرافيا جنت الكثير، وترتدي هذه الملاحظات الجغرافية طابعاً من الأهمية سيّما وأن البلد الذي زرته هو أقدم بلد نعرفه. حاولت في كافة الأمكنة وضع خرائط للمدن التي صادفتها كي يتمكن العلماء من تحديد مساحتها، وعدد سكانها، واستخدمت لذلك المقياس نفسه لذا يمكن أن نقارن مساحة المدن بعضها ببعض بسهولة. ولا نجد أثراً لبابل ونينوى، هاتين المدينتين اشتهرتا في ما مضى، فقد بنيتا في مناطق منخفضة ورطبة حيث تندر حجارة البناء، فاستعملوا لتشييدها مواد سيئة، نقلت منذ زمن إلى مدن أخرى أو هُدِمت كلياً.

وقد يهتم هواة الآثار برسوم الآثار الهندية في جزيرة الفيل (Ile d'Elephauta) ولا أظن أن رحلتي إلى برسيبوليس (Persepolis) لا جدوى منها، بالرغم من أننا نملك اكثر من وصف مفصل لهذه المدينة، وسيجد هواة اللغات هنا بعض الكتابات التي لم يروها من قبل أو لم

يحصلوا عليها واضحة. وبما أن رسومات الاثار التي نشرها كل من شاردان ولوبرن (Chardin, le Brayn) مختلفة من نواح عدة، ليحكم القارىء وليرى مَنْ أخطأ. وسيجد هواة الديانة الإسلامية معلومات وافية حول المذاهب المختلفة التي لم يعرفوها حتى اليوم أو سمعوا باسمها فقط واعتبروها وثنية.

وسأخصص الجزء الثالث لرحلتي من حلب إلى جزيرة قبرص والقدس والى مدن أخرى في هذه البلاد، فضلاً عن رحلتي من حلب إلى القسطنطينية عبر الأناضول، والى بولونيا غير القسم الاوروبي من تركيا، زد على ذلك مجموعة من الملاحظات حول افريقيا. وسأصدر هذا الجزء الثالث قريباً، إن أطال الله بعمري وأمدني بالصحة، وسأختمه بفهرس للمواد التي تضمنتها الاجزاء الثلاثة.





ملاحظات

في بومباي وفي سورات

تقع جزيرة بومباي على الشاطىء الغربي للهند وتملكها منذ مئة عام الشركة الانكليزية للهند الشرقية التي أقامت هنا وصاية تخضع لها المصانع على طول هذا الشاطىء نحو الشمال من سيلان وحتى البصرة. وتتميز بمرفئها الكبير والمحمي من الرياح مما يجعله ثروة للأمة، أما الجزيرة نفسها فليست بشاسعة كثيراً، إذ لا يتعدى عرضها في بعض الاماكن نصف ميل وطولها ميلان إن لم نضف اليها جزيرة صغيرة قريبة يطلق عليها الانكليز اسم «جزيرة النساء المسنّات». ويتكون قعر البحر بين هاتين الجزيرتين من صخرة ضخمة، يمكنك العبور عليها من جزيرة إلى اخرى اثناء الجزر من دون أن تبتل. وحول ما اذا كانت المياه تتراجع على شواطىء مالابار كما في الخليج العربي وفي مناطق أخرى من العالم، نملك هناك الدليل على ذلك إذ تؤلف بومباي وجزيرة النساء المسنات جزيرة واحدة احياناً. وتشتهر بومباي بإنتاج جوز الهند والارز كما تؤمّن الشواطىء الملح، ويضطر السكان كلهم تقريباً إلى تأمين مؤنهم من اليابسة سيّما من سلفات (Slfet) وهي جزيرة كبيرة وخصبة لا يفصلها عن بومباي سوى مضيق صغير. كانت تخضع في ما مضى للبرتغاليين، ويملكها حالياً الماراتيون. ومنذ رحيلي عن تلك البلاد، حاول الانكليز السيطرة على هذه الجزيرة وقد تمكنوا من ذلك وفقاً للأخبار التي وردتني لكني لست واثقاً من قدرتهم على الدفاع عن أجهزة سلفات ضد قوات الماراتيني. تمثل اللوحة الاول خريطة بومباي التي نسختها على الجزيرة نفسها ثم قمت بتقليص حجمها.

وتقع مدينة بومباي في وسط الجزيرة على ارتفاع القطب ١٨°، ٥٥´ ، ٤٣˝ ، ويبلغ طولها حوالي ربع ميل أما عرضها فقليل للغاية. وتقع من جهة البحر على قصر قديم لا يثير الاهتمام، أما

من جهة اليابسة الجزيرة فهي محاطة بسور ضخم، وبحفرة واسعة، وبحصون نصف دائرية أمام ابوابها الثلاثة.

وقد بنيت هذه التحصينات بمعظمها خلال الحرب الاخيرة ضد الفرنسيين، اذ يؤكد البعض أن الانكليز صرفوا سنوياً ٣٠٠٠٠٠ روبية (حوالي ٢٠٠٠٠٠ درهم) لتحصين هذه الجزيرة، وبما أن السلام كان قد حلّ منذ فترة عندما زرت البلاد، لم يكن العمل فيها حثيثاً، لكن هدف الانكليز إلى انهاء هذه التحصينات تباعاً وفقاً للرسم الجديد حتى تصبح بومباي في ما بعد من أمنع المدن وأقواها في الهند. وتؤمّن الجزيرة نفسها الحجارة المستخدمة في بناء التحصينات وهي تتميز بليونتها في المقالع مما يجعل استخراجها واستعمالها سهلاً، لكنها تستحيل صلبة للغاية مع مرور الوقت وتعرضها للهواء.

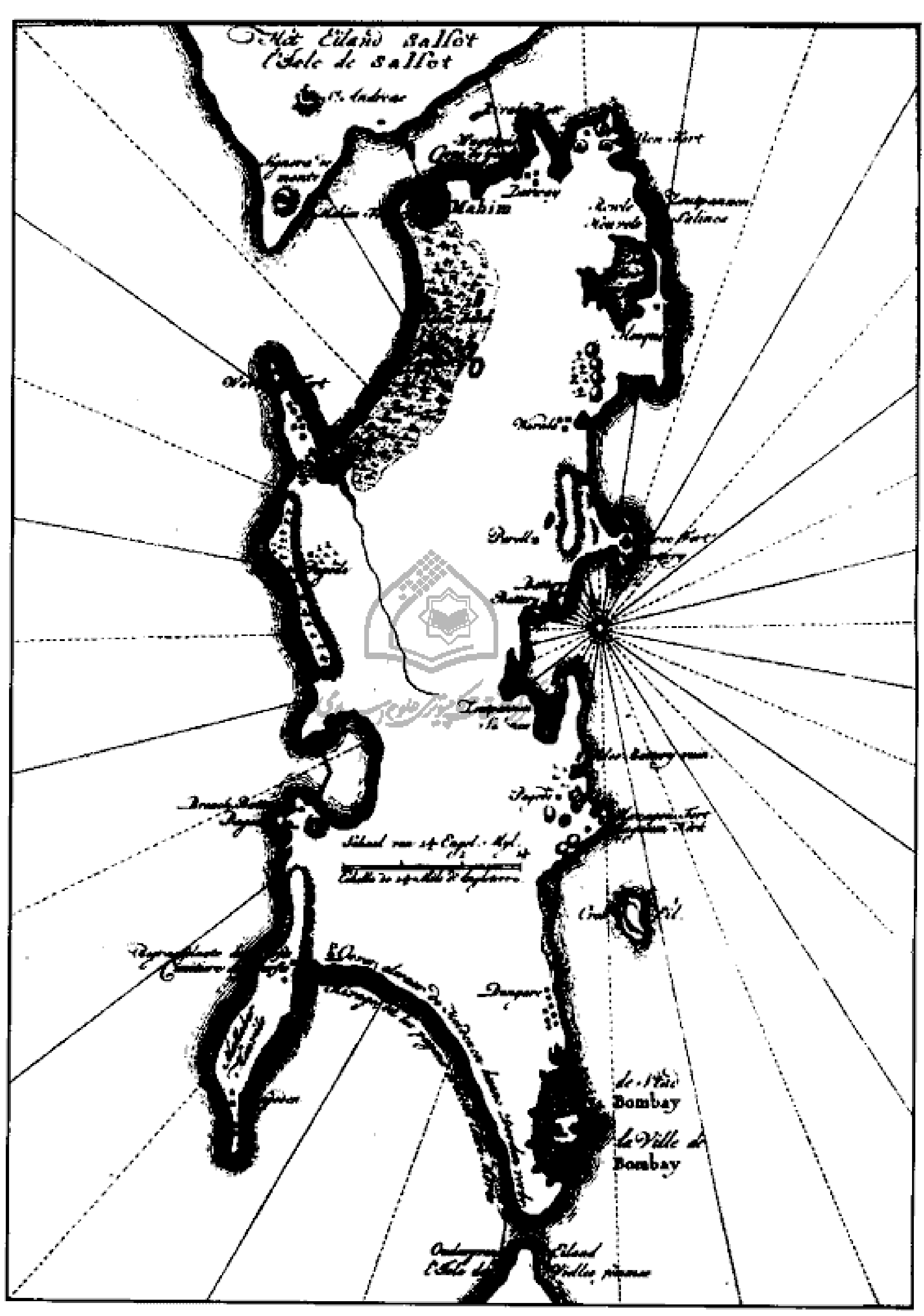
ونجد على جزيرة بومباي، فضلاً عن القلعة الرئيسية، العديد من الحصون الصغيرة كذلك القصر الصغير الواقع قرب ضاحية ماحيم (Mahim) في شمال الجزيرة، والحصون قرب ريفال (Rivale)، وصيون (Sion)، وسوري (Suré)، ومازاغون (Mazagon)، وورله (Worlé) وغيرها. وبالرغم من أن هذه التحصينات ليست عظيمة إلاّ أنها قادرة على مقاومة الاعداء لا سيّما هجوم الهنود.

ويتمتع سكان بومباي بالحرية تحت الحكم الانكليزي، لذا يزداد عددهم منذ طرد البرتغاليين من المنطقة. وأكّد لي انكليزي، قدم إلى الجزيرة منذ أقل من عشرين سنة، أن عدد السكان في ذلك الوقت لم يتعدّ ٧٠٠٠٠ شخص وأنه يتجاوز اليوم، أي في العام ١٧٦٤، ١٤٠ الف نسمة. ويشكل الاوروبيون نسبة قليلة من السكان أما البقية فمن الهنود الكاثوليك أو البرتغاليين كما يدعون هنا، ومن الهندوس أو الوثنيين، ومن المسلمين لا سيّما السنة والشيعة منهم، فضلاً عن الفرس أو عبدة النار. وتنسجم هذه الديانات المختلفة بعضها مع بعض، فتمارس كل منها شعائرها الدينية بحرية وأمان في معابدها، كما تقيم مسيرات عامة من دون أن يبدي الاخرون انزعاجاً. وصادفت بعض الارمن واليونانيين في بومباي، ولا أدري إن كنا نجد في تلك البلاد مسيحيين من أتباع القديس توما الذين يترأسهم أسقف لعموم سوريا يقيم في حلب.

يسيطر في بومباي مناخ معتدل من جراء هواء البحر المنعش والامطار الغزيرة التي تهطل في الاشهر التي تكون فيها الشمس في الموقع الاقرب من السمت(*). ومنذ تمّ تجفيف بعض المستنقعات في المدينة ومحيطها، لم يعد الهواء غير صحي كما وصف في ما مضى (**). لا يزال

(*) راجع الجزء الاول.

(**) رحلة أوفنغتون (Ovingtin) الجزء الاول ص ١٣٦.


Het Eiland Sallot
l'Isle de Sallot
Mahim
Bombay
de Ville de
Bombay

بعض الانكليز هنا يموتون ميتة فجائية، لكن مردّ السبب برأيي إلى تصرفهم الخاص، إذ يأكلون الكثير من اللحوم الشهية كلحم العجل ولحم الخنزير التي منع المشرعون القدامى الهنود من أكلها. كما يشربون خمراً مركزاً من البرتغال في ساعات القيظ الشديد، زد على ذلك أنهم يرتدون هنا كما في أوروبا ثياباً ضيقة لا تصلح لهذه البلاد لأنها تلتصق ببعض أعضاء الجسد فتعيق الدورة الدموية وتجعلهم اكثر تأثراً بالحرارة من الهنود الذين يرتدون ثياباً طويلة وفضفاضة.

ويحلو لهم أن يقللوا من الثياب التي يرتدونها عند المساء مما يعرضهم للاصابة برشح خطير، في حين أن الشرقيين يأكلون أول وجباتهم عند الصباح، ويتناولون وجبتهم الاساسية عند المغيب ويقللون من أكل اللحوم وشرب الكحول، ويغطون عند المساء رؤوسهم وصدورهم مما يقيهم من أمراض البلاد الحارة ويجعلهم يعمّرون طويلاً.

يقيم الاوروبيون في وسط المدينة، في الحي الذي يقوم فيه منزل الحاكم، وهو منزل كبير ورائع، وتقع بالقرب منه كنيسة ضخمة، ولا يعتمد الاوروبيون في بناء منازلهم السطوح المتساوية انما تلك المائلة المغطاة بالقرميد. ويستخدم الانكليز الزجاج لنوافذهم، أو أصدافاً رقيقة جداً مرصوفة في الخشب مما يجعل الشقق مظلمة، إلاّ أنّ هذه النوافذ أفضل عند هطول المطر من الشبابيك الخشبية أو الحديدية ومن المصراعين، لأن الاولى لا ترد المطر كلياً فيما تحجب الأخيرة النور عن الشقق. ويحب الشرقيون التمتع بالهواء في المواسم الجافة لذا يقيمون في منازل مفتوحة من إحدى الجهات، ولا تتوفر في هذه المنازل وسائل الراحة كما لا تلفت هندستها الانظار.

ومن بين التحسينات التي أضفاها الانكليز على بومباي لتسهيل التجارة والملاحة، يبقى الرصيف أهمها واعظمها، اذ كان يتسع، حين كنت في البلاد، لوضع مركبين، الواحد وراء الآخر واصلاحهما، وكانوا يعملون على توسيعه لمركب ثالث. شيّد جزء من هذا الرصيف من الصخور والجزء الاخر من الحجارة المقصوبة. ولا بد أنه كلّف الشركة كثيراً لأنها لا تسمح فقط لتجار بلدهم بالدخول وتصليح سفنهم إنما يستعين به الاجانب فقط، كما رست بقربه حين كنت في بومباي سفينة حربية من سفن امام عُمان. ويرتفع منسوب المياه هنا عندما يكون القمر بدراً أو جديداً ويصل من ١٦ إلى ١٨ قدماً، وتسجل أعلى نسبة عند مدخل المرفأ (حوالي ميل و ٤/١ أو ميل و١/ ٢ نحو الجنوب من بومباي) في الساعة الحادية عشرة، وقرب المدينة قرابة الساعة الثانية عشرة، ويرتفع المدّ في بعض فصول السنة (استناداً إلى اقوال البحارة) الليل اكثر منه اثناء النهار، ويحصل العكس في فصول أخرى. وكانت الابرة الممغنطة تميل حوالي درجتين نحو الغرب.

تملك شركة الهند الشرقية في مستعمراتها على شواطىء مالابار، والتي تعتبر بومباي مركزها،

سبع عشرة سرية مشاة وثلاث سرايا مدفعية، مؤلفة بمعظمها من أوروبيين والباقي من التوباز أي الهنود الكاثوليك الذين يرتدون اللباس الاوروبي.

وتتألف كل سرية من ١٠٠ إلى ١٢٠ رجلاً واذا ما انضم اليها بعض المجندين من اوروبا وأضفنا التوباز يصل العدد إلى ١٧٠ عنصراً. ويخضع للانكليز في جزيرة بومباي وحدها حوالي ٣٠٠٠ جندي هندي، ومعظمهم من المسلمين أو الوثنيين، وهم يرتدون اللباس الهندي ويخضعون لضباطهم الخاصين الذين يعاونهم رتباء أوروبيون يعلمونهم القتال، كما يخضع لهم في سورات بعض العرب الذين يقبضون رواتب أكبر من رواتب الهنود، واكد لي ضباط انكليز أن هؤلاء أشجع من الهنود، ولكثرة ما يشاد بقيمة العرب وشجاعتهم (يبدو أن المقصود هم عرب عمان أو الخليج الفارسي وليس عرب اليمن)، ما من امير وثني إلا ويجعل بعضاً منهم في خدمته. ويقدم الهنود خدمات جيدة ما إن يخضعوا لإمرة الاوروبيين.

إن حالة المدفعية الانكليزية في بومباي جيدة جداً. ففي العام ١٧٥١ أو ١٧٥٢، أرسلت الشركة إلى البلاد مهندس سويدي (عمل لسنوات في فرنسا) ونقيب مدفعية مع سرية كاملة جنّدها بنفسه من المانيا مما مدّ الجزيرة بحرفيين بارعين من نجارين وبنّائين، ونجد العديد من الالمان والهولنديين الذين يقصدون الانكليز، ونرى العديدين منهم في عداد الجنود والضباط الاكفاء.

لا يمكن للاوروبيين الاجانب أن يثروا هنا من التجارة، لكن لا يتم التفريق بينهم وبين الانكليز والايرلنديين والاسكوتلنديين على الصعيد العسكري، وقد صادفت هنا بين الضباط، ضابطاً بولونياً وبعض السويسريين والهولنديين والسويديين فضلاً عن العديد من الالمان. ويبدأون جميعهم كتلاميذ بحريين، ثم يتدرجون بحسب أعمارهم حتى يصبحوا آمري سرية. وهذا ما يحصل بسرعة لأن الكثيرين يريدون العيش هنا على النمط الاوروبي فتوافيهم المنية بسرعة. ويقضي غيرهم اثناء الحروب. ويتحول آخرون نحو التجارة، ويعود القليل منهم إلى أوروبا للتمتع بما جمعوه من ثروات أو لأنهم لم يجدوا في الهند ما كانوا يتوقعونه. وكان الضابط الاول من رتبة رائد حين كنت في بومباي. ويتلقى العسكريون أجوراً جيدة هنا، وهذا ما يجعل التجار يستسيغون الخدمة العسكرية، لأن أقل رجل علم قد يغدو جنرالاً (رئيساً، حاكماً) في بومباي. ويظن هؤلاء الشباب أنهم أهم من الضباط المسنين الذين خاطروا بحياتهم أكثر من مرة بغية حماية تجارة الانكليز.

وبما أن الملاويين (Malvanes)، والسنغاريين (Sangeriens)، والكوليين (Kulis) وغيرهم من الأمم الصغيرة على هذا الشاطىء، فضلاً عن عرب الخليج الفارسي هم من القراصنة، تضطر الشركة إلى الاحتفاظ بسفن حربية، فلها في بومباي وسورات عادة من ثمانية إلى عشرة مراكب حربية صغيرة، فضلاً عن العديد من المراكب الصغيرة المسلحة. أما ضباط هذه المراكب وربابنتها

فمن الانكليز، ويعمل على متنها وعلى متن المراكب التجارية بحارة من الهنود الكاثوليك والمسلمين، ويسهل على الانكليز القضاء على هؤلاء القراصنة لأنهم لا يجنون أي فائدة من ذلك، إذ إن سفنهم الحربية والتجارية تحمّل البضائع أولاً، وإن أرادت السفن الهندية بعد ذلك الانتقال من مرفأ إلى آخر تشكلّ قافلة وتطلب مواكبة من الانكليز وتدفع لقاء ذلك مبلغاً من المال.

ولا يخشى الانكليز أحداً على شواطئهم، باستثناء المارايون لأنهم أسياد اليابسة والجزر المحيطة ببومباي، ويمدونهم بجزء كبير من مؤنهم، ويقيم رئيسهم في بونا (Puna)، ولا يملك قوى بحرية عظيمة أو على الاقل لا يخشاه الانكليز، لكن اكدوا لي أن بإمكانه جمع حوالي ٨٠٠٠٠ فارس مما يجعل قواته البرية خطيرة بالنسبة لجيرانه. ولا تزال هذه الامة الوثنية قوية في الهند حتى أن اورنجزاب (Aurengzeb) الاكبر اضطر إلى التنازل لها عن ربع رسم الدخول إلى العديد من مدن امبراطوريته لتتركه وشأنه وليسود السلام، كما اضطر المغول إلى قبول وجود موظف من هذه الامة في جماركهم يسجّل ايرادات. إن زعيم هذه الأمة وكبار موظفيها هم من البراهمانيين (Bramans) الواسعي النفوذ شأنهم في ذلك شأن المسلمين، ويدعون ان النظام والعدالة يسودان بينهم وأن الزراعة والصناعة مزدهرتان لذا يكثر السكان في بلادهم. ويتحينون الفرص للانقضاض على الاقاليم المجاورة التي يحكمها المسلمون، فيسرقونها وينهبونها ويحرقونها كالبرابرة كما يتصرفون بكبرياء ازاء الانكليز أنفسهم.وفي العام ١٧٦٤، قادوا طرّادة من بومباي إلى مرفئهم، وتوقّع الجميع ان يعلن الانكليز الحرب عليهم لكن بما أنهم أرسلوا الجيوش إلى البنغال ومدراس، وأعدوا العدة لمهاجمة الملاويين (Malvanes) في العام الثاني، ولأن حكومة بومباي، التي لن تبقى في مكانها طويلاً، لم تشأ الاساءة إلى تجارتها الخاصة مع الماراتيون، سعت إلى حلّ هذا الاشكال سلمياً.

ويختلف شكل حكم الانكليز في الهند عن حكم الهولنديين والفرنسيين والبرتغاليين، اذ تخضع مستعمرات هذه الامم الثلاث الاخيرة في الهند لحكومة باتافيا (Batavia)، وبونديشاري (Pondicherie) وغوا (Goa)، فيما تتوزع السلطة عند الانكليز على أربعة مراكز رئيسة: ١) بومباي على شواطىء مالابار ٢) كالكوتا في البنغال ٣) مدراس على شواطىء الكورمندل ٤) بنكولا في سومطره. وهي مراكز مستقلة كلياً بعضها عن بعض ولا تتلقى اوامرها إلا من لندن مباشرة، لكنها ملزمة بمساعدة بعضها بعض عند الحاجة. عندما كنت في الهند، تم إرسال قوى من بومباي إلى البنغال على أثر مشاكل وقعت في هذه المنطقة الاخيرة من دون انتظار أوامر انكلترا. تتم محاكمة كافة المواطنين هنا أيّاً كانت جنسيتهم ودياناتهم وفقاً للقوانين الانكليزية من دون محامين أو قضاة يعرفون هذه القوانين.

تتألف حكومة بومباي من شخص الحاكم أو الرئيس واثني عشر مستشاراً، وجميعهم من التجار باستثناء الرائد الذي يملك الصوت الثالث في المجلس (*). أما الموظفون المدنيون الآخرون في الشركة فهم إما تجار كبار، وإما مساعدو تجار، وإما وسطاء وإما كتاب، ويتدرجون عادة بحسب اعمارهم من وظيفة كاتب إلى مركز مستشار، لكن إن عاد الرئيس إلى انكلترا وتوفي هناك، يخلفه المستشار الذي يتمتع بصداقات واسعة في لندن ـ ويتم نقلهم أحياناً من منصب إلى آخر كما حصل مع السيد سبنسر، وهو رجل مستقيم وبارع كان مستشاراً في بومباي عند وصولي وعيّن حاكماً للبنغال قبيل رحيلي.

وينبغي أن يقيم الحاكم على الجزيرة بشكل مستديم، ويضطلع المستشارون بمهامهم هنا، فمنهم أمين الصندوق، ومفتش المحال وماسك الدفاتر الخ أو يعملون كمدراء للتجارة في مستعمرات أخرى تابعة لهذه الحكومة. وحين كنت في تلك البلاد، كان للحكومة مستشار في سورات (surat) وآخر في تليشري (Tellichery) وثالث في انجنغو (Anjengo)، وتملك الشركة في هذه الاماكن الثلاثة قصوراً وحاميات عديدة، وكان لها في البصرة مستشاراً. كما أرسلت واحداً إلى بلاد الملاويين في بداية العام ١٧٦٥ (أي بعد رحيلي) بعد أن تغلبت عليهم، وسيطروا منذ رحيلي على بردش (Baradsh) وهي مدينة كبيرة إلى شمال سورات، لها حاكمها الخاص، ويملك فيها الهولنديون مركزاً تجارياً مهماً، فأقام فيها مستشاراً في بومباي، كما يملك الانكليز على هذا الشاطىء العديد من المؤسسات الصغيرة، يرسلون اليها التجار والمساعدين والوسطاء كما في تاتا (Tatta) وهي مدينة كبيرة يقيم فيها زعيم بلاد السند، وفي لاربندر (Lar Bunder) وفي شاه بندر، ثم في بو شهر في الخليج الفارسي، وفي كمباي (Cambay) وفي اونور (Onor)، وفي كلكوتا (Calecut)، وفي حصن فيكتوار. ويقع هذا الحصن الاخير على ساعد نهر كبير، يجري داخل البلاد ويصل إلى بونا مقر اقامة زعيم الماراتيين، وقد بادله الانكليز ببعض القرى الواقعة قبالة غيري (Gueri) وهي قلعة استردوها من القرصان الشهير انجريا (Angeria). وأملوا بهذه الطريقة أن يقيموا تجارة مثمرة مع بلاد الماراثيين، لكن هذا المشروع لم ينجح على النحو المتوقع، إنما استفادوا من الماشية في هذا المكان حيث يكثر المسلمون في حين أن الوثنيين في محيط بومباي لا يذبحون الحيوانات ولا يبيعونها لتقتل. ويتم نقل الكتّاب والتجار وحتى المستشارين أحياناً

(*) منذ رحيلي من الهند، تغيّر كل هذا النظام: اذ قام الانكليز بفتوحات عدة، وزادوا قواتهم البرية والبحرية، وأصبح الضابط الاول في بومباي حالياً برتبة عميد. وفيما كانوا يكتفون بطلب رأي الرائد في المسائل الحربية، اصبح للعميد الصوت الثالث في المجلس في كافة المسائل، وأصبح لرئيس البحرية الصوت الرابع في هذا المجلس علماً انه لم يكن عضواً فيه من قبل. وفي ما بعد اصبح حاكم بومباي يختار من بين العسكريين وليس بين التجار.

وينالون بحسب أعمارهم مراكز مربحة اكثر، مما يتيح لهم الفرصة للتعرف على تجارة كافة الامكنة، وبالتالي يعود عليهم ذلك بالفائدة عندما يحتلون منصباً في مجلس بومباي يتطلب منهم مراقبة كافة الأعمال.

إن الأجور التي تدفعها الشركة لموظفيها في الهند قليلة للغاية، لكنها تسمح لهم بالتجارة في كافة المرافىء بدءاً من دلغوا (Delegoa) قرب رأس الرجاء الصالح في الشرق وحتى الصين، وحتى جدة والبصرة في الشمال، ويجمعون بهذه الطريقة الثروات الضخمة التي ذاع صيتها في اوروبا. ويؤدي ذلك إلى تجاوزات، تعاني منها الشركة احياناً، لكنه تدبير جيد بشكل عام اذ إنه يدفع الموظفين إلى الجدّ، فيؤمنون للشركة فوائد اثناء سعيهم لتوسيع تجارتهم الخاصة ما كانت لتنالها لولا ذلك، ويسمح للجميع بممارسة التجارة وذلك بدءاً من رئيس المؤسسة وحتى اصغر كاتب. تفرض السلطة التي تتمتع بها هذه الحكومة احترام علم بلادها، وتدفعها ثرواتها إلى نشر تجارتها أكثر فأكثر، ذكرت في الجزء الأول أن الأوروبيين لا يتجاوزون عادة مرفأ جدة ويبحرون مباشرة من الهند إلى السويس، لكن منذ ذاك اليوم حاول الانكليز ذلك. في البدء، حين أخذ الاوروبيون يترددون على مرفأ جدة كانت رسوم الدخول وغيرها المفروضة عليهم قليلة مقارنة بتلك المفروضة على التجار المسلمين، اذ إن السلطات سعت لتشجيع الاولين على زيارة مرافئها اعتقاداً منها ان الاخيرين مضطرون للمرور فيها. واتسع نفوذ الانكليز، وكثرت رحلاتهم نحو الخليج العربي في حين أن عدد مراكب التجار المسلمين تراجع تدريجياً مما أثر سلباً على جمارك جدة. ولم يكن بالامكان مطالبة الاوروبيين بدفع رسوم اكثر من تلك المحددة في الاتفاقات، لكن فرض على التجار الذين يشترون منهم نسبة مئوية، فتمكنت الحكومة من جمع مبالغ اكبر مما لو وصلت البضائع على متن سفن التجار المسلمين، واستاء الانكليز من هذا الوضع اذ اضطروا إلى بيع بضائعهم بأسعار أرخص، وقد اعتاد هؤلاء في الهند على تحديد ما يعطونه للحكام وللمغول حسب ما يشاؤون، لذا لم يحتملوا تصرف مسؤولي الجمارك في جدة، وكان بامكانهم القضاء على تجارة هذه المدينة لو ارسلوا بعض السفن الحربية الصغيرة واوقفوا كافة السفن المتوجهة من السويس إلى الهند، ولكنهم يخاطرون بفقدان تجارتهم في هذه المناطق، وبما أن الباشا والشريف التزما بهذه المعاهدات ظاهرياً، قد يعتبر السلطان انه تعرّض للاهانة، ويطرد الانكليز كلهم من الشرق. وهدد الانكليز بتجاهل مرفأ جدة والتوجه إلى السويس مباشرة انتقاماً من هذه الاجراءات، لكن احداً لم يصدق أنهم يتجرأون على الابحار في طريق يعتبرها كافة البحارة الاخطر في العالم، ولعلهم هم نفسهم لا يودون ذلك لأنهم لا يملكون خارطة لهذا الجزء من الخليج. واخيراً، فكر السيد هولفرد، وهو بحار ماهر تعرض لمشاكل عدة في جمارك جدة، جدياً بتنفيذ هذه التهديدات،

فحصل على نسخة عن الخارطة التي وضعتها للخليج العربي (وصف شبه الجزيرة اللوحة XX) والتي سلمتها لصديق في بومباي. ولا يمكن أن يتوقع السيد هولفرد الكثير من المنفعة إلاّ من خارطة بحرية دقيقة، لأن الاوروبيين يبحرون في عرض البحر في حين أن المركب التركي الذي قمت بالرحلة على متنه حاذى الشواطىء لذا لم أضع سوى تصميماً لهذه الاخيرة، لكن الانكليز وجدوها ملائمة لهم ولم يكن ينقصهم سوى تأكيد حاكم القاهرة انهم يستطيعون نقل بضائعهم بأمان وانزالها في المدينة. في الامبراطورية العثمانية، حيث يتم استئجار الاقاليم، يسعى كل حاكم وراء مصلحته الخاصة من دون أن يأبه للباشاوات الآخرين، وقلما يترك فرصة كهذه تفوته. ولا تستفيد حكومة القاهرة من الأقمشة الرائعة التي تنتقل من البنغال إلى جدة ومنها براً بواسطة القافلة الكبيرة إلى مصر، ولم يكن علي بك صاحب السلطة المطلقة حينذاك ينتظر من الانكليز دفع رسوم كبيرة وحسب بل حمل هدايا قيّمة له، لذا لم يهتم بردة فعل باشا جدة وشريف مكة وحتى السلطان، فوعد الانكليز بتنفيذ ما طلبوه.

عندما، ارسل تجار البنغال إلى السويس، في العام ١٧٧٢، مركباً لم يكمل الرحلة بل عاد إلى البلاد إثر تعرضه لأضرار في خليج البنغال. وفي العام ١٧٧٣، قام السيد هولفرد بهذه الرحلة ونجح فأصبح بالتالي أول انكليزي يقود مركباً إلى السويس. وفي السنة التالية، وصلت مراكب أخرى، ويقال إن خمسة مراكب خاصة، في العام ١٧٧٦، قامت بالرحلة مباشرة من الهند إلى السويس(*)، وقد استخدم هذا الطريق اكثر من مرة كطريق للبريد، لأن حكومة الهند أخذت ترسل بريدها في حالات الضرورة من السويس إلى انكلترا فتتلقى الرد بوقت أقصر مما لو أرسلت رسائلها إلى أوروبا

(*) توقفت تجارة الانكليز في القاهرة اثناء طباعة هذا العمل: في السابق، كانت الرسوم على البضائع القادمة من الهند تدفع كلها في جدة. ثم تنقل عبر البر الى مصر وسوريا، فيغدو سعرها مرتفعاً في الشرق، ثم استحال سعرها رخيصاً فلم تعد تستقدم من انكلترا، وهكذا استفاد موظفو الشركة من تجارة الهند مع مصر، لكن جدة كانت تخسر لذا منعت ارسال السفن الى السويس. انما اضحى الدرب معروفاً ويعود بالفوائد على الاوروبيين فأخذوا يسلكونه اكثر فأكثر. ولعل الشركة الانكليزية سترسل موظفاً من البنغال الى القاهرة. كما فعلت من بومباي الى البصرة، ولعل التجار المصريين سيستقدمون في المستقبل البن اليمني على متن سفن اوروبية مباشرة الى السويس، واذا ما حصل ذلك، لن تتوقف ملاحة الاتراك على الخليج العربي وحسب انما ستفقد كل من مكة وجدة موقعهما كمخزن لبضائع شبه الجزيرة العربية والهند. وسيخسر الباشا هنا والشريف فضلاً عن البدو الذين ينقلون البضائع عبر البرّ الكثير من الايرادات، ولن نجد بين حجاج البلاد الشمالية تجاراً كباراً، بل عدداً كبيراً من المرتزقة (يحجون بدلاً عن المتوفين) والجنود الذين يذودون عن القافلة ضد العرب (وصف شبه الجزيرة العربية)، ومهما بدت تجارة الاوروبيين مباشرة مع مصر مربحة، أظنها خطرة للغاية بسبب عدم ثبات حكومة القاهرة.

عبر الطريق المعتادة. أي عبر رأس الرجاء الصالح. وتتوجه سفن الشركة، القادمة من اوروبا، إلى أحد المراكز الاساسية، فتلك المخصصة لساحل مالابار تتجه نحو بومباي مباشرة، وتستغرق هذه الرحلة خمسة أشهر تقريباً حين ينطلقون في فصل مناسب، وقد قام أحد الربابنة بهذه الرحلة خلال ثلاث أشهر وثمانية عشر يوماً، وهي أقصر رحلة سجلت. وقلة هي السفن التي تعود من بومباي إلى انكلترا، فمنها من يقوم برحلة إلى فوكه في الخليج الفارسي والبنغال، ومدراس، وبنكولا وحتى إلى الصين، ويكسب ربابنة هذه السفن الكثير من المال اثناء هذه الرحلات التي لا يتمتعون بحرية القيام بها إنما يخضعون للرئيس الذي يرسل من يشاء مساعدته وتفضيله، ويأتي سنوياً إلى هذه البلاد أربع سفن من لندن، وخلال الحرب الأخيرة قلّ عددها، لكن خلال عام ١٧٦٤، توقع وصول ست سفن. كانت كل سفينة تحمل في ما مضى ٤٠٠٠٠ درهم نقداً إلى بومباي فضلاً عن الاموال التي ترسلها انكلترا إلى مراكزها الاخرى، لكن أكدوا لي أن الاموال لم تعد ضرورية منذ سيطرت الشركة على البنغال وأنها قادرة أيضاً على ارسال الكثير من المال إلى الصين.

ويبقى القماش أهم بضاعة يحملها الانكليز من بومباي إلى بلاد فارس والبصرة، أما البضائع الاخرى فهي دودة الحرير، والعاج، والحديد، والصلب، والقصدير، والنحاس، والحديد الأبيض، والمراسي، والمدافع وأسلحة أخرى، ويحمل أصحاب السفن بضائع أخرى بغية بيعها لحسابهم الخاص. وتباع البضائع الاوروبية في المزاد العلني ما إن تصل السفن، وبالتالي، وفي مواسم معينة يعرفها كافة التجار الهنود، يتم ارسال ما لا يباع هنا إلى المستعمرات الصغيرة. ويتم ارسال توابل من سواحل مالابار، وملح النشادر من السند، وأقمشة مختلفة من سورات إلى انكلترا عبر بومباي، كما يتم ارسال عدد كبير من هذه الاقمشة من لندن إلى غينيا، وينقل أصحاب المراكب لحسابهم الخاص العطور والصمغ والعقاقير المختلفة من الهند والخليج العربي والفارسي.

أشرت آنفاً إلى أن الانكليز يملكون كنيسة كبيرة وجميلة في بومباي، يشرف عليها كاهن لكنه توفي. وبالتالي لم يعد هناك رجل دين انكليزي واحد على طول الساحل بانتظار وصول احدهم من اوروبا، ولا تضم السفن الانكليزية التي تتوجه إلى الهند كاهناً ضمن طاقمها كالأمم الأخرى، كما أننا لا نجد كنيسة أو كاهناً من سورات (surât) وتليشري (Tellichery) وانجنغو (Anjengo) بالرغم من أن عدد الانكليز المقيمين في هذه المدن مرتفع. وحين يود المقيمون في المدينتين الاخيرتين تعميد ولد من اولادهم، يستقدمون كاهناً دانماركياً، لكن عدد المتزوجين بين الانكليز الموجودين في الهند قليل للغاية وبالتالي قلما نسمع بعمادة طفل في بومباي. إن نسبة الكاثوليك المقيمين في الهند اكبر من نسبة البروتستانت، ولا ينقصهم كهنة، وعلمت أن البابا أرسل منذ سنوات مطراناً إلى بومباي لكن الحاكم أعلمه عند وصوله أن لا حاجة للبلاد برجل دين يحمل

هذا اللقب الرفيع. ونجد هنا اربعة رهبان كرمليين، يرأسهم عدد من الكهنة درسوا في غوا (Goà) أو في بومباي، وقد أقام الأكبر سناً بين الرهبان في هذه البلاد لسنوات، ثم عاد إلى أوروبا، ليعود من جديد إلى بومباي، وهو أمر لا يلام عليه لأنه يعيش هنا بحرية أكبر وراحة أكثر، فضلاً عن أنه يتمتع هنا باحترام أكثر مما لو بقي في ديره في أوروبا. ويخدم الثاني في كنيسة (سيدة الرجاء) سينيورا اسبرانزا، وهو صرح رائع خارج المدينة لم يكتمل بناؤه، والثالث في كنيسة سان ميشال في محيم (Mahim)، أما الرابع ففي كنيسة سلفاسيوني (Salvatione). ويملك الكاثوليك ايضاً كنيسة صغيرة في المدينة وأخرى في مازاغون، وكان للآباء اليسوعيين ديراً جميلاً قرب قرية باريل (Barell) في وسط الجزيرة، لكنّه تحوّل منذ سنوات إلى منزل ريفي للحاكم، وأصبحت الكنيسة غرفة طعام ورقص رائعة لا مثيل لها في الهند كلها.

يمنح الانكليز رعاياهم حرية الاعتقاد، لكنهم لا يسمحون للرهبان بهداية الناس كما يحلو لهم، فحين يود شخص من دين آخر أن يصبح كاثوليكياً، يضطر الرهبان إلى إبلاغ الحكومة مسبقاً، فتدرس الاسباب التي دعت المعني إلى اتباع الدين وإن وجدتها مقنعة سمحت بتنصيره، لكن يبدو أن هذا نادراً ما يحصل لأن الراهب الكرملي في محيم اشتكى من أنه لم يحصل على إذن تنصير امرأة وثنية، تعيش مع كاثوليكي كزوجة له وقد انجبت له أطفالاً عدة. ويحضر عبيد الانكليز والبرتغاليين قدّاس الكنيسة الكاثوليكية، وحين يصل افريقيون جدد إلى البلاد يعتادون لبس قلادة تحمل صورة احد القديسين، واشتريت هنا فتى اسود، في السادسة عشرة من العمر، ولد من أبوين افريقيين اتبعا الديانة الكاثوليكية، وعلّمته الديانة المسيحية على يد كاهن كاثوليكي. وأردت اصطحابه معي إلى الدانمارك عبر الصين، لكن حين قررت العودة عبر البصرة وتركيا، فضلّت اهداءه لأحدهم في بومباي خوفاً من أن يأخذه المسلمون مني، وقد أتعرض لمشاكل عدة بسببه لأن العادة لم تدرج في تركيا أن يحصل الاروبيون على عبيد من افريقيا، ولعلهم اتهمونني بأني آخذ إلى اوروبا فتى من أبوين مسلمين لأجعله مسيحياً.

ويسمى سكان هذه البلاد القدامى، والذين نصادف الكثيرين منهم في بومباي، هندوس أو هنود، وقد اعتدنا نحن الاوربيين على تسميتهم كفرة أو وثنيين، لذا نكوّن فكرة خاطئة عنهم. لكن يتبين للذين يتعرفون اليهم عن كثب أنهم لطفاء، وفاضلون وجادّون ويتجنبون الاساءة إلى غيرهم أكثر من أيّ أمة أخرى، ولكنهم من جهة أخرى الامة الاكثر انطواء على نفسها خوفاً من رجال الدين عندهم فيعيشون منفصلين عن الأمم الأخرى ولا يتواصلون مع بعضهم البعض. وبالرغم من أن اليهود والشيعة يعتبرون اتباع الديانات الاخرى غير طاهرين ولا يأكلون معهم، يأكل اليهودي مع اليهودي والشيعي مع الشيعي من أيّ بلد كان، في حين أن صاحب النسب الرفيع عند الهندوس

كالبراهمي مثلاً الذي يخدم أحد البنيان الاثرياء لا يتجرأ على الأكل لأنه أعظم منه نسباً. استناداً إلى المعلومات التي جمعتها والافكار التي كونتها عن الهندوس في الشمال، ينقسم هؤلاء إلى أربع قبائل رئيسة:

١ ـ البراهمانيون أو رجال الدين ٢) الرسبوطيون أو الجنود ٣) البنيان أو التجار ٤) الفلاحون. وتنقسم كل قبيلة من هذه القبائل أو كل فئة من هذه الفئات إلى طبقات عدة أدنى، ولا يأكل أعضاء الطبقة العليا مع الطبقة الادنى منهم. وأكدوا لي أن لكل طبقة، وهي تتعدى الثمانين، شعائرها الدينية الخاصة، ولا أدري إن كانوا يتبعون الديانة نفسها من حيث الجوهر، وينبغي اعتبارهم بالتالي مجموعات مختلفة، لكل منها رئيسها الخاص، وكهنتها المعتمدين، والهها الثانوي الذي يكرّم في مناسبات معينة عبر شعائر خاصة.

ويسود الاعتقاد في أوروبا، أنّ الابن في الهند يتبع خطى أبيه ويعمل في المهنة نفسها، لكن هذا ليس ضرورياً لأن البرهمانيين وهم رجال دين يمكن أن يكونوا حكّاماً كما رأينا آنفاً عند الماراتيين. ويحتل البراهمانيون عند الأمراء الوثنيين الآخرين من الرسبوطيين وظائف مدنية، ويعملون عند المسلمين كموظفي جمارك أو كمزارعين. وعرفت تجاراً من البراهمانيين وحرفيين من البنيان أو الرسبوطيين، إنما يحملون اسم قبيلتهم التي ولدوا فيها، على ما يبدو كي لا ينسوا مركز اجدادهم، وكي تتمكن ذريتهم من الانضمام اليهم حين يحلولها، أو كي يكرموا بعض القديسين من اسلافهم.

ولا ينتقل أيّ هندي من جماعة إلى أخرى أعلى منها شأناً، وقد سمعت بأمير علماني أضحى من البراهمانيين وأصبح بالتالي أنبل لكن هذه القضية ترافقت مع الكثير من الظروف والكلفة فلا أظنّ أن أحدهم سيتبع مثله. يحكى أن شخصاً من طبقة الجنود في جنوب الهند أخذ يخضع تدريجياً جيرانه فأمسى سيد بلاد شاسعة وغنية للغاية، ثم أراد أن يصبح من البراهمانيين. اعترض الكهنة على ذلك واعتبروا الأمر مستحيلاً لأنهم يدّعون تحدرهم من الالهة وأن المولود كرجل عادي لا يمكن أن يولد من جديد، لكن تمّ له أخيراً، ما أراد شرط أن يبني معبداً ضخماً وأن يقدم له بقرة من ذهب، عظيمة الحجم حتى أنه يمكن لرجل ما أن يدخلها من دُبرها ويخرج منها من الفم، فقام الامير ببناء المعبد وقدّم للبراهمانيين البقرة الذهبية (ومعها ايرادات طائلة تكفي لعدد كبير من الكهنة على الأرجح) ومرّ شخصياً أكثر من مرة بالبقرة حسب الطريقة المذكورة آنفاً، فاعتبر بعد ذلك من البراهمانيين. وقد ينظر العالم بأسره إلى هذا الامر على أنه مهين حتى لرجلٍ من العامة، لكن في الهند حيث تقدّس البقرة الحيّة، لا بدّ أن الكثيرين تمنّوا أن يمروا عبر بقرة كهذه (لأن الامر يستحيل مع بقرة حية) ولم ينالوا هذا الشرف. ولا بد أن البراهمانيين، وبهذه الشعائر، أي بإدخال الامير من دُبُرِ البقرة يذكرونه

بأصله الوضيع وبإخراجه من الفم يعلمونه أنّ الاله اعتبره من سلالته أي براهماني.

وإذ يصعب أن ينتقل الشخص من طبقة الجنود إلى طبقة الكهنة، ويصعب أن يتدرج من طبقة دنيا إلى طبقة أرفع، يستحيل أن ينضم مسيحي أو مسلم أو أي إنسان من أية ديانة أخرى إلى إحدى الطبقات الهندية. أي إن الهنود لا يستقبلون مهتدين جدد. وهذا هو برأيي السبب الرئيس الذي جعل الهنود في الوضع المزري الذي هم عليه اليوم، لأنهم لو رضوا بجعل الافغان والتتار الذين سيطروا أولاً على بلادهم من البراهمانيين أو الرسبوطيين، لاعتنق هؤلاء مع الوقت ديانة أهل البلاد كفاتحي الصين، ولأصبحت الهند اليوم مملكة مزدهرة، لكن بهذه الطريقة بقوا رعايا هادئين ومكافحين تحت سيطرة أسيادهم الأغراب كما لو أنهم يخضعون لزعمائهم، وبقوا فخورين بأصلهم الهندي.

ولا يلائم الحكّام الأجانب ألاّ يتمكنوا من أن يتجنسوا في بلاد يحكمونها استبدادياً، وألاّ يرضى السكان بالأكل معهم حتى أنهم يعتبرونهم غير طاهرين، لكنهم يحتملون ذلك لأن الوثنيين يملؤون خزاناتهم بالمال. ويتقبل الفاتحون المسلمون كأبناء دينهم أولئك الذين يصرحون علناً باعتناقه، لكنهم لا يحاولون هداية الكفّار بالاقناع أو بالاكراه وذلك لأن الهنود الذين يعتنقون الدين الإسلامي يكفّون عن العمل الجاد ويصبحون مجرد جنود، في حين أن الزعماء المسلمين يستقدمون الافغان والتتار لإبقاء هذه البلاد الغنية تحت سيطرتهم ولتوسيع نفوذهم. وما لم يهدمه المسلمون، هدمه لاحقاً الاوروبيون الذين ارادوا جمع الثروات على حساب الهنود المادحين. إنما نجد في البلاد امراء هنود واسعي النفوذ. وتخلّص الحكّام المسلمون في الاقاليم الكبيرة تدريجياً من سلطة زعيمهم المشترك المغولي، إذ إن سلطة هذا الأخير ضعفت للغاية حتى عزله ملك بلاد فارس، وأخذ ملك الأفغان أي أبناء دينهم ومن بعدهما التجار الانكليز في الهند. ولا يخضع المغولي وحده لسلطة الانكليز بل بعض الحكّام الكبار أيضاً مما جعل حكم المسلمين ضعيفاً للغاية في الهند. واذا ما امتدت سلطة الانكليز حتى تلك البلاد النائية، وهذا ما قد يحصل في وقت أقرب مما نتوقعه اليوم، قد يستعيد الهنود قوتهم ويعيدون ضم الأقاليم التي كانت مكتظة بالسكان، والتي خربتها الامم الغربية إلى دولتهم المزدهرة.

يعتبر الهنود الامة الأكثر تسامحاً في العالم، ففي أيّ بلد أوروبي يسمح لأناس من ديانة أخرى أن يدعوا علناً إلى ديانة تخالف تلك المسيطرة في البلاد؟ يبدون في الهند وكأنهم لا يكترثون للأمر، كما أن طريقة حكمهم تختلف عن تلك المعتمدة لدينا أو لدى الامم الاخرى. وتحرص كل طبقة على حسن تصرف أعضائها. وبالتالي نادراً ما يضطر القاضي إلى معاقبة تجاوز ما. حين يخالف أحدهم القوانين، يفرض عليه القيام بحج أو دفع غرامة نقدية أو أي عقاب آخر، وحين

يرتكب جريمة كبرى، ما من وسيلة لتأديبه سوى إقصائه عن طبقته أو قبيلته، وعندها لا تستقبله هو وذريته أية طبقة أخرى باستثناء أدناها، فيعيش دوماً في الفقر والمهانة. ويعتبر وجود المسلمين والمسيحيين بالنسبة لهؤلاء الهنود نعمة إذ يبحثون عن ملجأ لهم بينهم، وأكدّ لي أوروبيون أمضوا سنوات عدة على سواحل الكورومندل (Coromandel) أن الذين يعمل المبشرون الاوروبيون على هدايتهم إلى الدين في الهند هم اناس من هذا النوع أو من أحقر الطبقات أو القبائل، يعتنق هؤلاء المسيحية أو الإسلام ليتمكنوا من العيش بكرامة في المجتمع إن هم اجتهدوا في عملهم. وفي بلاد الاتراك، يدفع الرهبان الاوروبيون كاهناً ما أو حتى اسقفاً من طائفة مسيحية أخرى للاعتراف بالبابا كرئيس للكنيسة لقاء مبلغ سنوي معين، لكنهم يكسبون الكثير في المقابل لأن العديدين يتبعون مثلَ رجل ذي نفوذ كهذا. يقال إنهم لم يتمكنوا في الهند من هداية أي براهماني بالرغم من جهلهم وفقرهم المدقع، ويقال إن اليسوعيين على شواطىء الكورومندل استمالوا يوماً فتى يافعاً من البراهمانيين، وقاموا بتربيته على الدين المسيحي الكاثوليكي، ولم يكشفوا له عن أصله إلا حين تأكدوا من أنه مسيحي متديّن إلى حدّ أنهم قرروا الاستعانة به كمبشر. وأعطوه البراهين القاطعة بأنه من سلالة البراهمانيين كي يمكنوه من التقرب من مواطنيه، لكن ما إن علم بذلك حتى توجه، حسب ما يروى، إلى أبناء طبقته، وتلقى عقاباً صارماً أو على الاصح عانى الامرين حتى الشهادة ليتطهر من المسيحية بحسب رأيه وليتقبلوه كبراهماني.

يصعب علينا نحن الاوروبيين أن نعرف ديانة الهنود ومذاهبهم المختلفة لأن كتب الشريعة القديمة لديهم والتي يعتبرونها إلهية كتبت بلغة قلة هم الذين يفهمونها بين علماء البراهمانيين ولأن الهنود اليوم يتكلمون لغات مختلفة وتتنوع طرق كتاباتهم. يمكننا رؤية ذلك على اللوحة II، من كتابات مختلفة أخذتها عن بنيان لا تبعد أمكنة ولادتهم عن بعضها كثيراً. ولم تكتب الحروف بشكل جيد للغاية، لكني أعتقد أن محبي اللغات سيقدرونها بانتظار الحصول على نسخ أفضل، ولا أظن أنّ أي مسافر أوروبي يعرفها.

أ. حروف الأبجدية التي يستخدمها البنيان في مقاطعة كوجورات (Guzurat) وقد أخذتها عن تاجر هندي في المخا؛ ب، حروف ابجدية هنود ملتني بنجاب (Multuni Ben Penjab)) وكتبها بنياني في خرج، وسلمني الحروف الابجدية «ج» بنياني من دفولي (Devuli) في أبي شهر. إن الرموز التي يستعملها الهنود كأرقام أقرب إلى الأرقام التي نستخدمها عن تلك التي يستعملها العرب.

ومن المؤسف بالنسبة لمسافر اوروبي يودّ الاستعلام عن ديانة الهنود، أن العلماء البراهمانيين لا يهتمون ابداً باللغات الأجنبية. ولا أظن أنه من الصعب، على من يستطيع التحدث معهم، أن يكسب صداقة رجل منهم، وأن يحصل بالتالي على معلومات قيّمة لأنهم لا يحيطون مبادىء

Tab. II.

A

Xa Kha ga gha na ḡa ḡcha dja djcha no ta tha da dha

ne ta tha da dha na pa fa ba bha ma dji

ra la wa so Xan hah u o

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

B

a gha Xa cha gia nga gcha gcha dja ja

nja ta tha dah ra tha da na pa fa

bah ba ma fe ra la wa fa nha Xa

C

a i u e ga Xa cha gha gqna djcha

gcha dja je nja ta ra ta tah dah da na

pa fa ba bha ma je ra la wa wont

D

schin sin ce re dal Khe he tchin ce te b a

lamaleph he vau nun mim lam qaf gaf je zhen soad suade

E

ebechs cha afja ja fa ha la na ga Xa Xa gha gha gho gho gho

pa ba ra da ta da da da e i a na fa cha

an e u an o i o u a ra ma ba

دينهم بالسرية كالدروز والنصيريين والزيديين الذين يعيشون تحت سطوة الاتراك فيدّعون انتماءهم للإسلام. ولم أتمكن من التفاهم مع علماء الهنود سوى بواسطة مترجم لذا لم أجمع الكثير من المعلومات حولهم، لكن نجد بين التجار الهنود من يتكلم البرتغالية والانكليزية، ومنهم بعض الاشخاص المطلعين على الدين وقد أكّدوا لي أن المثقفين والحكماء بينهم لا يعبدون كخالق لكل شيء، سوى إله قدير، حاضر وغير مرئي، لكن البراهمانيين اخترعوا آلهة ثانوية أعطوها أشكالاً معينة ووظائف محددة لأن الشعب البسيط عاجز عن فهم الأفكار المجردة (*). ويطلقون على آلهتهم الثلاثة الرئيسة الأسماء التالية: براهما (Brama). فيشنو (Wistnu) ومادو (Madeo)، ويعلمون الشعب أنّ براهما هو الخالق الأعظم الذي أوكل لفيشنو مهمة العناية بكافة المخلوقات الحيّة، ولمادو مهمة العناية بأرواح الموتى(**). اختلق البراهمانيون على مدى السنين روايات مقدّسة، وكلفوا أتباعهم بشعائر كثيرة حتى أن معظمهم نسي ديانته القديمة. ويعتني البنيان الذي أكدوا لي أنهم لا يعبدون سوى الاله القادر، الأبدي وغير المنظور، بأبقارهم إلى حدّ كبير وكأنها الهة، وحين ابديت ملاحظات حول هذا الموضوع، أكدّوا لي أنهم يمجدون الخالق عبر مخلوقاته، وأن على الانسان أن يشكر الرب الذي أهداه هذا الحيوان الوديع الذي يحرث حقله ويؤمن له الحليب. عندما رأيت هذه العناية الفائقة التي يوليها البنيان للأبقار وسعيهم الدائم لحصول على تماثيل مختلفة، تساءلت إذا كان بين المصريين القدامي من اتبع إحدى هذه المذاهب الهندية، وحتى بين الاسرائيليين الذين أرادوا صنع عجل من ذهب قرب طور سيناء، لكن دراسة كهذه ليست من اختصاصي اذ قد أخطيء.

(*) إنه تقريباً الرد الذي تلقاه برنييه (Bernier) من علماء البراهمانيين في بنارس (Banares) وهي من أشهر الجامعات في الهند. (رحلة السيد برنييه الجزء الثاني ١٥٨) ويؤكد دوي (Dow) الأمر نفسه استناداً الى الكتب التي يعتبرها الهنود مقدسة. ولا أعرف مسافراً تمكن من التعرف عن كثب على الهنود، وحاول البحث بتجرد لفهم دينهم اكثر من هذين الاثنين، واذا ما أردنا الحكم على دينهم انطلاقاً من تصرفات العامة لأخطأنا. يروي تفنو (Thevenot) أن الوثنيين في بشان (Bassain) يزورون احياناً صورة مريم التي يعتقد الكاثوليك انها عجائبية، ويعتبرونها صورة شيتا (Cheta) زوجة الههم رام (Ram)، وفي البدء ارادوا مسح اجسادهم بالزيت امام التمثال، وحمل الفواكه للرهبان، وفقاً لعاداتهم الوثنية، لكن هؤلاء الآخرين رفضوا ذلك، وطلبوا منهم حمل الشموع والزيت للقناديل ورمي المال في صندوق الفقراء. إن الوثنيين الذين يتضرعون لصورة مريم ويحملون الهدايا للرهبان يفكرون مثل عامة المسلمين الذين يحبّون الحجابات ان كان من كتبها مسيحي او مسلم او يهودي. ويقولون انها لن تضر ان لم تنفع. وسمعت في الهند ان المسيحيين الذين كانوا سابقاً من الوثنيين، يمارسون الشعائر الدينية المسيحية والوثنية في آن معاً عند ولادة اطفالهم وعند الزواج والدفن لأنهم يعتبرون ان الاكثار من التعبّد افضل من الاقلال منه.

(**) كان احد صاغة بومباي وهو من طبقة البنيان يسمي براما وفيشنو ومادو الثالوث، الاب والابن والروح القدس، ويعتقد استناداً الى ما سمعه من البرتغاليين الهنود ان ديانته لا تختلف كثيراً عن الديانة المسيحية.

يعتقد الهنود أن نفس الانسان تنتقل من جسد إلى آخر حتى تتطهر كلياً، وأعلمني بعض البنيان أنهم يعتقدون أن روح الانسان قد تنتقل إلى جسد حيوان ما.لكن هذا ليس بالسبب الذي يمنع البنيان والبراهمانيين من تناول ما ينبض بالحياة لأن الرسبوطيين (وهم من الوثنيين أيضاً) يأكلون لحم الخراف، ولا يمنع الامراء الهنود رعاياهم من مسيحيين ومسلمين من ذبح الأبقار. وتحدثت مع قبطان سفينة أوروبية وتاجر زجّا في السجن عن الماراتيين، فأعلنا أنهما لا يستطيعان العيش من دون لحم فقدموا لهما يومياً لحم الخراف والدجاج (*). ولو اعتقد الهنود بأن أرواح أسلافهم تعيش في هذه الحيوانات لما سمحوا لرعاياهم المسيحيين والمسلمين بذبح أيٍّ من هذه الحيوانات لا سيّما الأبقار ولما قدّم البراهمانيون لسجنائهم لحم الخراف والدجاج.

ولعل الهنود لا يأكلون لحم الأبقار لأسباب صحية، فمسلمو مصر وسوريا وحتى القسطنطينية، حيث الحرارة ليست مرتفعة كما في الهند، يعتبرون أن لحم البقر غير صحي لا سيّما في الفصول الحارة لذا قلما يأكلون منها. ولعل المشرّعون اليهود، ظنّوا أنه ضروري للصحة تحريم اللحم لأن الشعب يتبع المعتقدات الدينية أكثر من نصائح الطبيب، كما اعتقد أن القوانين الدينية الشرقية أمرت بتنظيف الجسد مراراً لأسباب صحية أيضاً.

إن البراهمانيين والبنيان متعاطفون جداً مع كافة الحيوانات، وقد اعتاد تاجر ثري من المخا أن يحمل كل صباح الشمير حتى سطح منزله لإطعام الحمام والطيور التي تحط عليه. وفي بومباي، رأيت خادم أحد البنيان يطعم الطيور الكواسر خارج المدينة، وبدت هذه الطيور وكأنها تعرفة اذ تحلقت حوله ما إن رأته، أما رؤيتها وهي تلتقط كسرة الخبز أثناء طيرانها فمتعة للعين. وقد أكدوا لي أن الهنود يطعمون النمل، وقال لي التجّار أنه يضع في متجره طعاماً للفئران والجرذان كي لا تقترب من بضائعه، ويدعي البعض أنهم لا يرمون الماء أرضاً خوفاً من أن يقتلوا بعض الحشرات. ويستغلّ بعض اتباع الديانات الأخرى حبّ الهنود للحيوانات، فقد اعتاد جندي أوروبي في بومباي أن يجرّ كلباً بحبل في الشارع التجاري وأن يهدده ويضربه، فيتقدم منه أحد الوثنيين ويقدم له شراباً ليمنعه من إساءة معاملة مخلوق بريء(**). ويبيع صيادو الأسماك المسلمون في المخا سلاحف للبنيان كي يقوم هؤلاء بعمل صالح بإطلاق سراحها.

يضع البنيان موتاهم على كومة حطب ويحرقونهم عند المدّ، حتى يحمل اول جزر رمادهم معه،

(*) نجد امثلة مشابهة في الصفحة ٨١ من «Fryers Account of East India and Persia».

(**) يشير اوفنغتون في الجزء الثاني من كتابه، صفحة ١٣٢ الى تصرفات كهذه يقوم بها الاوروبيون الفقراء لكسب المال من البنيان.

وهذا ما شاهدته شخصياً وأكثر من مرة(*). ويتم دفن أولادهم الذين لم يتعدَ عمرهم ثمانية عشر شهراً، ويقال إنهم يشقون بطن المرأة الحامل وينتزعون الجنين ويدفنونه في حين أنهم يحرقون الأم.

وقلما يسمح في بومباي وفي مدن أخرى خاضعة لحكم المسلمين بحرق النساء وهنّ أحياء مع أزواجهن المتوفين، حتى أن هذا الأمر لا يسمح به غالباً في مناطق حكم الهنود. روى لي تاجر من البراهمانيين في مسقط أن عائلته نالت شرفاً عالياً يفوق العائلات الاخرى لأنه سمح لها بحرق جدته مع زوجها المتوفى، ولأن هذا الشرف لا يمنح إلا للتي تثبت للقاضي بأدلة قاطعة عفتها وحبها لزوجها.

يقسم البراهمانيون الوقت منذ تكوين العالم وحتى نهايته إلى أربع فترات، تمتد كل منها كما يلي:

١) وقت ساتا ياغ (Sata Jug)، ويمتد على ١٧٢٨٠٠٠ عام

٢) وقت تريتا ياغ (Treta Jug)، ويمتد على ١٢٩٦٠٠٠ عام

٣) وقت دوبور ياغ (Doapor Jug)، ويمتد على ٨٦٤٠٠٠ عام

٤) وقت كالاياغ (Calla Yug)، ويمتد على ٤٣٢٠٠٠ عام

وقد مرّ من الفترة الاخيرة ٤٨٦٥ سنة وذلك في نهاية العام ١٧٦٤ للميلاد، وبالتالي، ووفقاً لحسابات البراهمانيين، بقي للعالم ٤٢٧١٣٥ عام.

ونجد ما حصل في الفترات الاربع في الكتب التالية:

١) كتاب راغر ويد (Ruger Wed) حول وقت ساتا ياغ.

٢) كتاب سدسفور ويد (Sudsfur Wed) حول وقت تريتا ياغ.

٣) كتاب شام ويد (Scham Wed) حول وقت دوبور ياغ.

٤) كتاب اتوروا (Attorwa) حول وقت كالاياغ(**).

(*) شاهد بروز (Prose) هنا امرأة من طبقة الجنود تدفن. ويحرق الاعيان موتاهم في البنغال، في حين ان غيرهم يرميهم في نهر الغانج، ويتركهم آخرون لتأكلهم الطيور الكواسر وحيوانات مفترسة اخرى، رحلة برنييه، الجزء الثاني، صفحة ١٢٠.

(**) يسمي الكولونيل داو (Daw) هذه الكتب براس اي ري بدا (Ruy Beda)، شهام بدا (Scheham) بيدجر بدا (Judger) وابتار باه (Obatar Bah)، فيما يطلق برنييه عليها اسم ازربد (Atherbed)، زاغر بد (Zagerbed)، ركباد (Reckbed) وسناباد (Sannabed).

يحسب الهنود الزمن أيضاً وفقاً لنظام آخر، فيعتبرون العام ١٧٦٤ للميلاد هو العام ١٦٨٦ بعد شاه ليوان (Schach Liwâun) (الذي يسميه البعض سلاوان (Sallawan) وسنكه راديه (Sancka Radsia) ملك منجيباتان (Mundsijipatan). ويبدو أن تغييرات عدة طرأت على النظام السياسي والكهني في عهده. تدوم هذه السنة ٣٦٥ يوماً وست ساعات واثنتي عشرة دقيقة، أما الأشهر فهي:

جيتر ٣١ يوماً (Scheiter).

يَيشاك ٣١ يوماً (Weisâck).

دياد ٣١ يوماً (Dfiad).

آشار ٣١ يوماً (Afar)

أسفو ٣٠ يوماً (Asfo).

كارتكُ ٢٩ يوماً (Kartig).

موكَشر ٣٠ يوماً (Mogfir).



بوش ٢٩ يوماً (Poos).

شرابن ٣١ يوماً (Srauren).

بدروا ٣١ يوماً (Badrowa).

ماك ٣٠ يوماً (Maag).

بالكن ٣٠ يوماً (Paggen)(*).

استناداً إلى الحساب المدني، يعتبر هنود ساحل مالابار نهاية العام ١٧٦٤ للميلاد، العام ١٨٢١ بعد راجا وير ويكرام ماندي (Radsja Wir Wilkkram Mandsji) ملك يوج (Udsje) في مالاوا (Mallawa) ووالد الشاه ليوان الذي ذكرته آنفاً. وهي سنوات قمرية، تبدأ أشهرها عند التقاء الشمس والقمر، ويتم أحياناً زيادة شهر بأكمله، كي تقع أيام الأعياد في الموعد دائماً، وتسمّى هذه الأشهر اديك مينو (Adik Meino) أي الشهر المضاف، لكنه لا يعتبر مقدساً أكثر من أيّ شهر آخر في السنة العادية.

(*) وفقاً لهذا الحساب، تتألف السنة من ٣٦٤ يوماً، اذاً لا بد ان احد الاشهر ينقص يوماً، حصلت على هذه المعلومات من براهماني ترجم لي حديثه ترجمان يجهل مصطلحات علم الفلك باللغتين الانكليزية والهندية. لمعرفة الادوات التي يستخدمها هذا البرهماني، يمكن مراجعة وصف شبه الجزيرة العربية.

تبدأ السنة المدنية عند هنود قوجارات والسند بالشهر الذي وصل فيه بطلهم العظيم رامشي، الذي يقيمون له احتفالات عدة، إلى مقاطعاتهم، لذا يُحتفل برأس السنة في قوجارات وفي بومباي في شهر كارتك في حين أن سكان السند يحتفلون به في شهر آشار. وتلي الأشهر المدنية بعضها البعض بترتيب الأشهر الفلكية نفسها. أما بالنسبة لأيام الأعياد عند الهنود، فما عرفته يطلعنا على كبار قديسيهم وأبطالهم ويعطينا فكرة عن دياناتهم اليوم.

وتدوم حفلة الدوالي (Dwali) أو رأس السنة ثلاثة أيام، وتمتد من اليومين الأخيرين للسنة الماضية واليوم الأول للسنة الجديدة، لكن بما أن السنة لا تبدأ في اليوم نفسه في كافة الأقاليم، يحتفل بهذا العيد في أوقات مختلفة. ويطلق الهنود الاسهم النارية والمفرقعات في أعيادهم كما يضيئون بيوتهم بالقناديل.

خطف راوان (Rawan)، وهو ملك جبار في سيلان، يوصف بأنه ذو عشرة رؤوس وبأنه غول كجدته، زوجة راجا رامشي (Radsja Ramcshi)، فقصد هذا الاخير سيلان وقضى على راوان وجدته. واحتفاءً بهذه المناسبة، يحتفل بعيد هولي (Hulli) في ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ من شهر ماك. وعندما نرى الهنود، المعروفين بجديتهم، خلال هذه الأيام، نحكم عليهم كما حكم التركي على الأوروبيين أثناء الكرنفال واعتبرهم مجانين اذ يصبغون ثيابهم ووجوههم وأيديهم باللونين الأحمر والأصفر كما كانت ثياب رامشي وجماعته مخضّبة بالدماء بعد معركة سيلان. ويركضون في الشوارع بأيديهم الملوّنة وحقن مليئة بالألوان يرشقون بها أبناء دينهم ولا يمسحها أحد منهم لأن آخر سيعود ويلوّنه بها. وقد منع القاضي المسلم هنود سورات من الاحتفال بهذه المناسبة علناً لكنه عاد وسمح بذلك لقاء مبلغ من المال. وحين كنت في بومباي، تمّ الاحتفال بهذه المناسبة مع كافة الشعائر.

ويعتبر اليوم الاول من شهر جيتر يوم عيد لكني لا أعرف مناسبة ذلك، ويصادف في التاسع منه يوم عيد في ذكرى قصة ما لبطلهم رامشي. ويصومون في ١٤ ويزاك في ذكرى نشينغا وانتر (Neschinga wanter). وفي الخامس من شهر شرابن، ترمى ثمرة جوز الهند ذهبية في الماء ويترافق ذلك مع شعائر عدة، وهو يعتبر يوم عيد ايضاً. ويروي الهنود حكاية حول هذا اليوم وهي أنّ براهماني تنبأ لراوان، الذي ذكرته آنفاً، أن فتاة ما ستهلكه، فشدد عليها الحراسة منذ ذاك الحين. وعندما بلغت الستة أشهر، هطلت أمطار غزيرة فغرق من حولها كلهم، لكن المياه حملت الفتاة الموضوعة في صندوق من جزيرة سيلان حتى اليابسة قرب شاطىء شخص يدعى راجا (Radja) الذي سعد برؤيتها فأخذ يرمي سنوياً جوزة هند في البحر في الموعد نفسه. وتزوجت هذه الفتاة لاحقاً رامشي الذي قضى على راوان. ولا يقتصر هذا العيد، الذي يقام تخليداً لبقاء

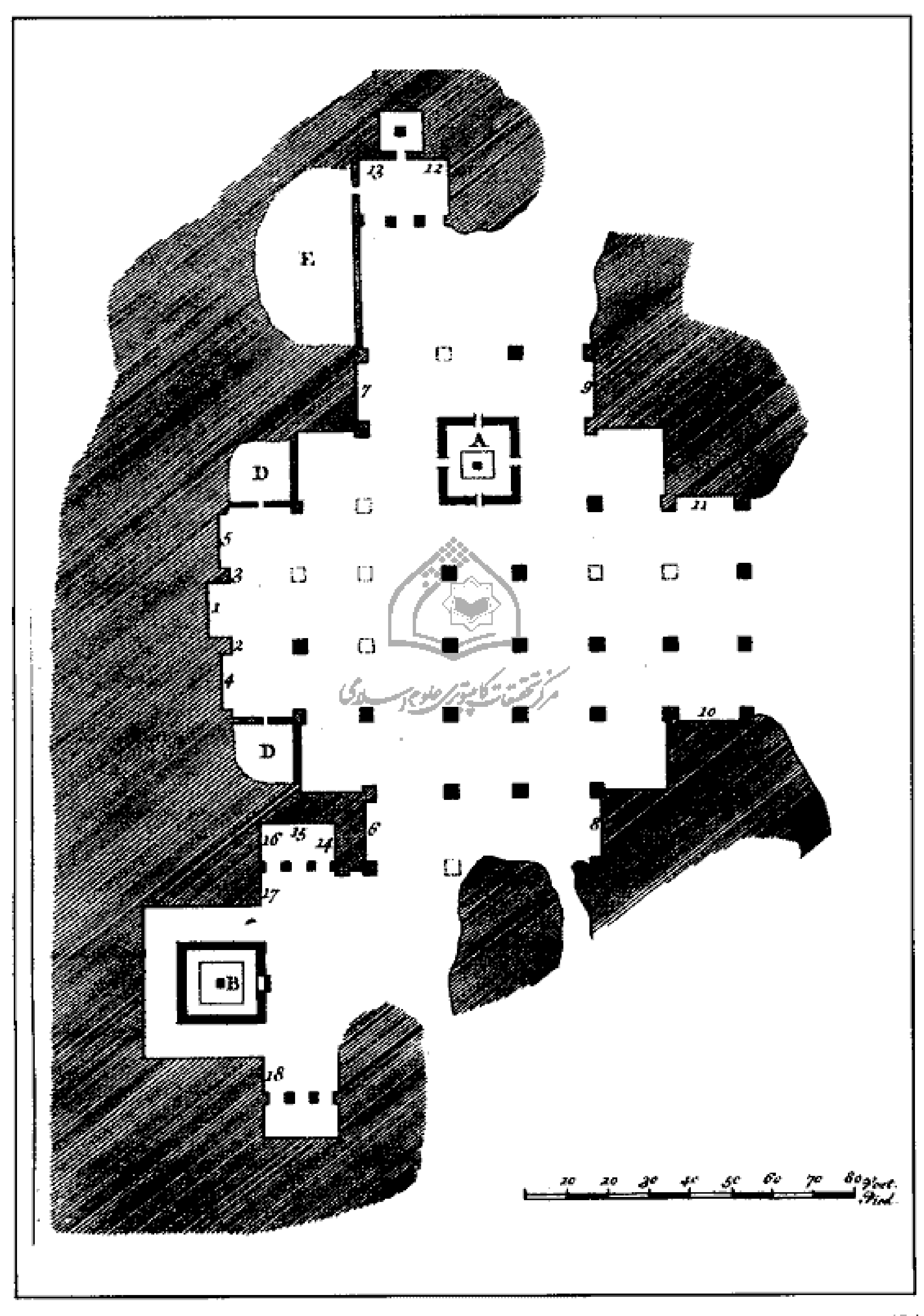
هذه الفتاة العجائبي على قيد الحياة، على هنود سواحل مالابار، ويحتفلون به دائماً عند نهاية موسم الامطار. ويبقى البحر ثائراً هائجاً في الأشهر التي تسبق هذا الاحتفال، فلا يتجرأ أي مركب هندي على الخروج من المرفأ، لكن ما أن يضحّى بجوزة الهند، إذا ما صح التعبير، يبحر الوثنيون من دون خوف. ويصادف هذا الاحتفال في السند قوجارات في الشهر التالي، ولعل الامر يعود إلى أن الأمطار تتوقف عن الهطول في وقت لاحق.

في ١١ شرابن، يحتفل بوالادة كيش ناوانتر (Kisch Nawanter)، ويدّعون أن المعجزة التالية حصلت في ذاك اليوم: تنبأ براهماني لملك عظيم يدعى كنس (Kauns) أن أخته ياسادا (Jassada) المتزوجة من المدعو نودادجي (Naudadsji)، ستضع فتى يغدو في ما بعد رجلاً عظيماً ويقتله، فأمر كنس بقتل أولادها الستة. وحين حملت من جديد، قيّدها بجدار منزلها. وأنجبت طفلاً اطلقت عليه اسم كيتس ناوانتر أي كيتس الجبار. واتّسم الفتى بالذكاء، فأوصى لأبيه أن يبادله بفتاة ولدت في الوقت نفسه الذي ولد فيه، لكن هذه الفتاة تعيش على الضفة الأخرى من نهر عظيم وعميق، وحار نانجي كيف يقطعه فقال له ابنه أن يكمل طريقه بأمان، فاجتاز النهر سيراً على الأقدام وبادل ابنه بالفتاة وعاد إلى منزله. وما إن علم كنس بأن أخته انجبت حتى أمر بقتل الرضيع، فماتت الفتاة.

وفي ١٠ أسفو، يحتفل الهنود بعيد يسمونه دسفارا (Desfara)، ويتم في هذا اليوم تعظيم وتمجيد شجرة الساموري (Samorie) لأن رامشي جلس في فيئها حين جمع جنده للتوجه إلى سيلان وقتل راوان. ورأى في هذا اليوم طيراً يطلق عليه اسم نيلشاه (Nilschahs)، فأمل أن تمرّ عليه سنة سعيدة.

سأورد المعلومات الاساسية التي تلقيتها حول الوضع الحالي لديانة الهنود. اذا ما قارناها اليوم بما علمّه الفلاسفة القدامى في الكتب التي يعتبرونها مقدسة والتي ترجم الكولونيل دوي (Dow) شيئاً منها لوجدنا أن ديانة الهنود كديانات غيرهم شهدت تغييرات عظيمة خلال القرون التي مرّت عليها وإن حاول العلماء البراهمانيون المحافظة على ديانة أسلافهم كاملة.

ويقتصر غذاء الهنود الاساسي على الأرز والحليب والزبدة، ويكتفي عامة الشعب بخبز الذرة، ويحبون اضافة التوابل سيّما الحرّ إلى أطباقهم كما يحبون السكّر، ولا يأكل أي جندي، من أي طائفة كان، لحم البقر، لكن الراسبوطيين أو طبقة الجند تأكل لحم الخراف وربما لحوماً أخرى. وتعتبر قوانين البراهمانيين في ما يتعلق بالطعام أصعبها، إذ لا يتجرأون على أكل ما هو نابض بالحياة، واذا ما أرادوا التقيّد بدقة بما تفرضه عليهم طبقتهم لما أكلوا البصل والفجل وخضاراً أخرى تأكلها الطبقات الأخرى بحرية مطلقة. وينبغي أن يحضّر براهماني الطعام الذي يأكلونه، وأن


13
12
E
7
9
A
D
11
5
3
1
2
4
10
D
6
8
16
15
14
17
B
18
10 20 30 40 50 60 70 80

يحضر الماء الذي يشربونه في انائه الخاص وذلك في وقت لا يحضر فيه أحدهم الماء من البئر نفسها، كما يصومون نصف أيام السنة ولا يأكلون خلالها إلاّ أصناف محددة. باختصار، إن واجبات البراهماني متعددة وصعبة للغاية، حتى أن تاجراً براهمانياً في مسقط أكّد لي أن قلائل من طبقته هم الذين يتمكنون من التقيّد بهذه التعاليم وتنفيذها كلها من دون استثناء. ولا يأكل البنيان أيضاً ما ينبض بالحياة، لكنهم لا يتوافقون على العيش كالهنود، ونادراً ما يصاب هؤلاء الأخيرون بالأمراض، كما يتجدّدون دائماً في عملهم، على عكس الأوروبيين الذين لكثرة ما يأكلون ويشربون وفي أوقات غير منظّمة لا يقوون على العمل ويصابون بأمراض تؤدي إلى موتهم غالباً.

وضع البراهمانيون قواعد عدة للهنود حول الأكل والشرب، فيجلسون متربعين على سجاد أو أرائك كالاتراك والعرب(*) وبعيدين عن بعضهم البعض حتى أن ملابس أحدهم لا تلمس ملابس الآخر. ولا يستخدمون للأكل شوكة أو سكينة أو ملعقة، بل صحوناً هي عادة أوراق كبيرة يرمونها خارجاً ما أن ينهوا وجبتهم، ولا يشربون أبداً من إناء استخدمه شخص من ديانة أخرى. عندما أبحرت نحو جزيرة الفيل، كان البحارة يحتفظون بجرّة مياه مشتركة، يشربون مباشرة من دون أن تلمس الجرة شفاههم، ولعل الجرّة تعود لوثنيين. وهناك بين البحارة مسلمون أو أن الوثنيين من طبقات أُخرى. ويطلب من الهنود المحافظة على نظافتهم، حتى أكثر من المسلمين، فلا يكتفون بالاغتسال قبل الوجبات وبعدها وفي اوقات معينة، انما ينبغي أن يغتسلوا كلياً صباحاً ومساءً.

ونجد في الهند حالياً، حيث ازدهرت الفنون والعلوم في الوقت نفسه الذي ازدهرت فيه في مصر، أعمالاً قديمة تثير العجب. لكن يبدو أن الأوروبيين لم يكترثوا لها، فقد ذكر العديد من المسافرين المعبد الوثني القديم على جزيرة الفيل الصغيرة قرب بومباي عرضاً. وألفيته غريباً وجديراً باهتمام محبي الآثار، حتى أني زرته ثلاث مرات ورسمت كل ما أثار انتباهي. ويقع هذا المعبد عالياً في الجبل حيث حفر في الصخور الصلبة، ويبلغ طوله ١٢٠ قدماً وعرضه المساحة نفسها تقريباً اذا ما استثنينا المذابح القائمة على الجهتين، ونجد رسماً له على اللوحة III. ويقوم المدخل الرئيس في الجهة الشمالية ويمتد أمامه سهل نشق بفن ويطل على البحر والجزر المجاورة، كما نجد مداخل من جهتي الغرب والشرق لذا لا يفتقر المعبد للهواء المنعش اذا ما نظّف، لكنه يستخدم حالياً كزريبة للحيوانات لا سيّما ذوات القرون التي تدخله عند اشتداد القيظ. إن سطح المعبد غير مرتفع بسبب الغبار الذي يحمله الهواء والتراب الذي تجرفه الامطار، لكن الكمية قليلة مما يدعو للاعتقاد بأن المعبد نظّف منذ سنوات.

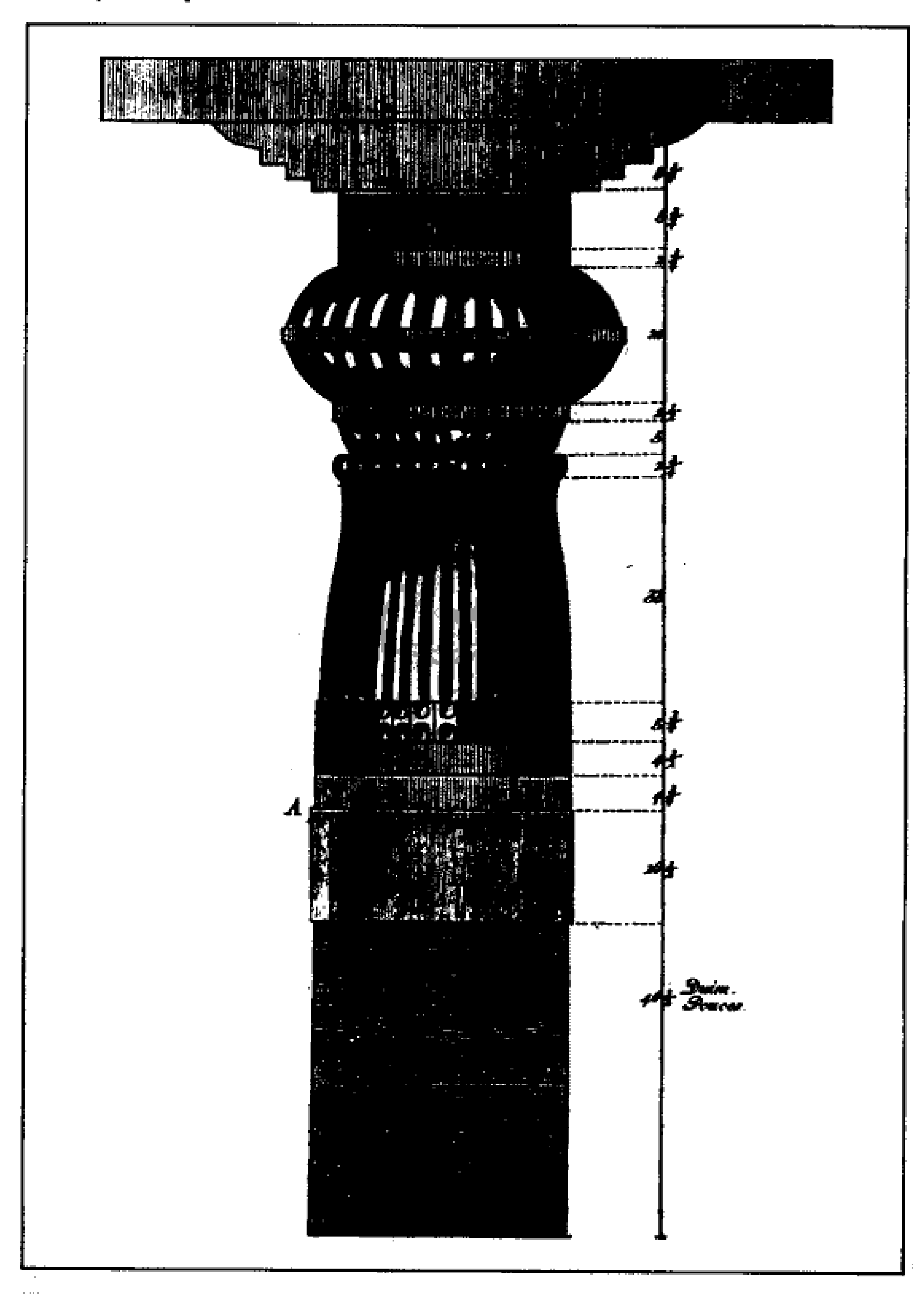
(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

ويبلغ ارتفاع الصرح الرئيسي الداخلي أربع عشرة قدماً ونصف. ويستند الجبل الذي حفر المعبد فيه إلى اعمدة عدة نحتت من الصخرة نفسها، وهدمت العوامل الطبيعية وعامل الوقت بعضها من الأسفل، وقد أشرت اليها بنقاط على الرسم. وأشير إلى أننا نرى على بعض هذه الاعمدة، عند النقطة من اللوحة IV، صورة للإله غونيس (Gonnis) وهو إنسان برأس فيل، لكني لم أوردها هنا. ونجد أيضاً في الصرح الرئيسي غرفة أ، لوحة III، حفرها الباني في الصخر حين بنى المعبد، ولها أربعة مداخل وتطالعنا صورة بشري من كل جهة من هذه الابواب يبلغ ارتفاعها ثلاث عشرة قدماً وهي ناتئة فلا يستند إلى الحائط سوى الظهر، وقد نحتت في الصخر نفسه عند بدء العمل. وقد تعرضت هذه الصور الثماني للأذى من الأسفل، ولا يعود السبب إلى قصف البرتغاليين كما يدعي المسافرون إنما لمياه الأمطار التي تتساقط على المعبد منذ سنوات وتبقى فيه لوقت طويل. ولو أراد البرتغاليون إلحاق الضرر بهذه الصور الوثنية لما حملوا المدفعية على جبل عال كهذا واكتفوا باستعمال المطرقة، ولعل البعض استخدمها بالفعل لهدم بعض التماثيل والمنحوتات.

وتكثر الصور العالية، والمنحوتة في الصخر على الجدران الجانبية، ولا بد انها تصوّر تاريخ آلهة الهنود وأبطالهم، لذا تفتح آفاقاً جديدة امام العلماء وتزودهم بمواضيع للدراسة. ولا يضاهي جمال هذه التماثيل جمال المنحوتات الاغريقية والرومانية لكن رسمها وموضعها افضل من الرسومات المصرية وأبهى نظراً لقدمها. نجد قرب الرقم ١ من الخارطة وبالتالي عند المدخل التمثال الاساسي الذي يمثل على ما يبدو راما فشنو ومادو أو إلهاً آخر بني المعبد من أجله. وقد رسمته على اللوحة V مع التماثيل الموجودة قرب العامودين ٢ و٣، وهو عبارة عن تمثال نصفي بثلاثة رؤوس، وأربع أيدٍ، ويبلغ ارتفاعه ثلاث عشرة قدماً. ويتميز هذا التمثال كغيره بشفاه سفلى غليظة، وأقراط كبيرة تتدلى حتى الاكتاف وهي موضة ما لا زالت سائدة في الهند اليوم. ويحمل أحد الرؤوس شاربين، أما الرأسان الآخران والتماثيل الاخرى فلا تحمل شاربين أو ذقناً (يطلق الشباب الهنود شواربهم ويرخي العجزة ذقونهم). ويتميز وجهان من هذه الوجوه بسمات جدية أما الوجه الثالث فيبتسم لحيّة (كوبرا كابيلا) (*)، ولا يمكن اكتشاف ما يحمله التمثال في يديه اليسريين. تمّ حفر القبعات بمهارة، ويبدو أنها من المعدن، استناداً إلى الزينة التي تعلوها، ويبدو أن التمثال الأمامي كان يحمل على جبينه حجراً كريماً وفي رقبته عقداً رائعاً من الأحجار الكريمة واللؤلؤ. أما الرأس الذي يحمل شاربين فيعلو قبعته رأس ميت.

يبلغ ارتفاع التمثال الموجود إلى يمين المذكور أعلاه وقرب الرقم ٢ على الخارطة، عشرة

(*) يدّعون ان هذا النوع من الافاعي يكثر على جزيرة الفيل، وأن الهنود لا يقتلونها، ويعتبرونها صديقة للانسان ويقولون إنها لا تهاجم احداً الا اذا تعرضت للأذية.


A
Duim.
Pouces.





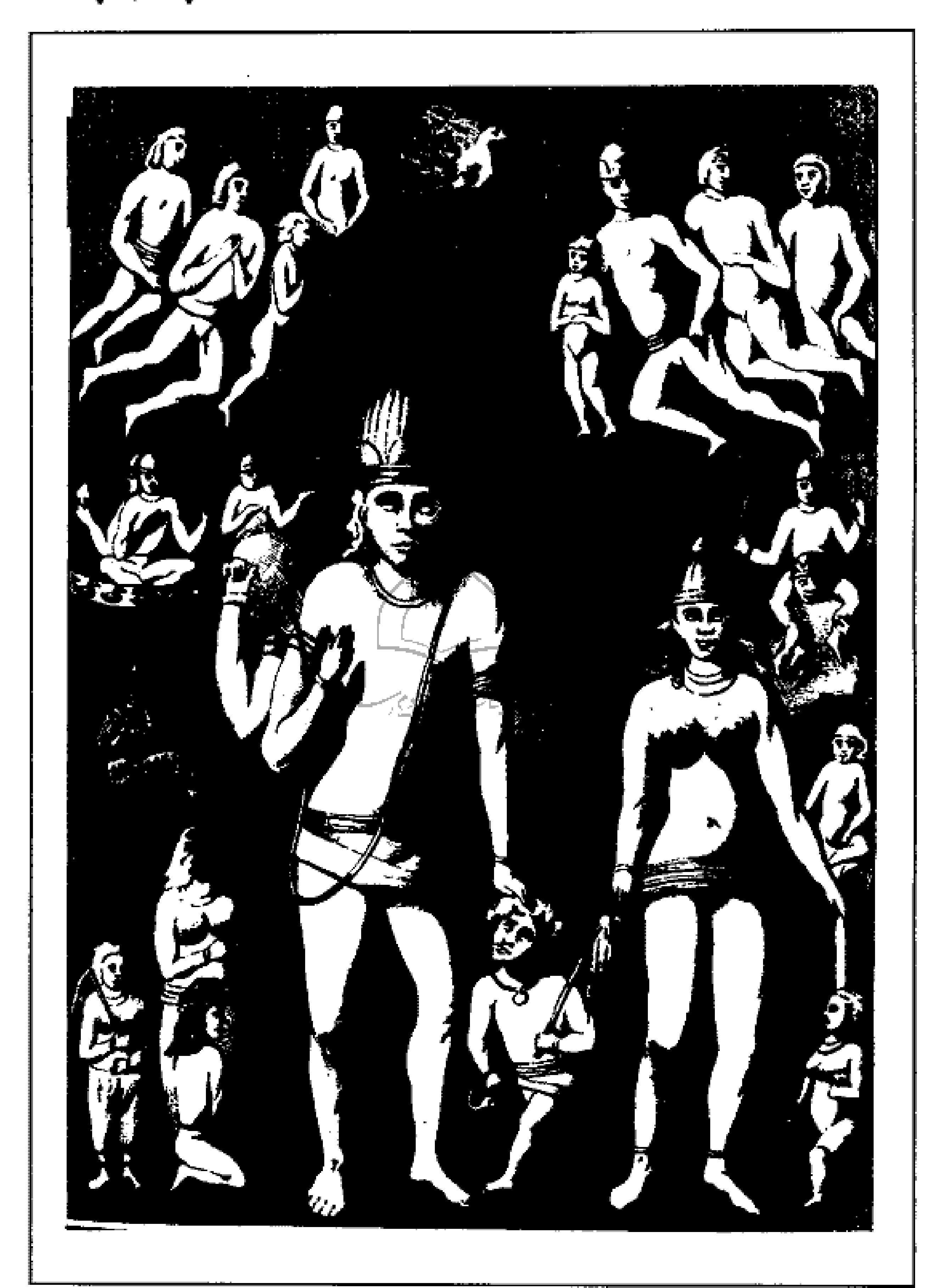
أقدام، لكنه فقد قدميه وإحدى يديه مع الزمن، ويبدو وكأنه يتكىء بيده اليمنى على رأس شخص آخر يجلس قربه مبتسماً. ويستند التمثال الرئيسي من الجهة الاخرى (قرب الرقم ٣ على الخارطة) بذراعه اليسرى على رأس قدم، ويلتف حبل رفيع حول اكتاف التماثيل الكبيرة، وتتدلى من آذانهم أقراط ثقيلة، ويزيّن سواعدهم سوار فوق الكوع وآخر تحته، كما يظهر على اللوحة.

نرى قرب الرقم ٤ على الخارطة حوالي ٣٠ تمثالاً تمثّل من دون شك مغامرات بطل ما أو اله ما من آلهة الهنود، واكتفيت برسم اهمها على اللوحة IV. أما التمثال الرئيسي فيمثل امرأة بثدي وحيد، وأربع أيدٍ، ولعلها فارسة تستند بيدها اليمنى الامامية على رأس ثور، وتمسك بيدها اليمنى الخلفية أفعى، وبيدها اليسرى الأمامية قطعة قماش أو ما شابه ذلك، وبالخلفية ترساً صغيراً. وتعتمر القبعة نفسها التي تعتمرها التماثيل الاساسية في هذا المعبد، وتضع ايضاً اقراطاً وعقداً وحزاماً، فضلاً عن الاساور في يديها. وتقوم على صخرة منحوتة لكن العوامل الزمنية حتّتها، أما في الجهة الشمالية، فنجد امرأة صغيرة تحمل في يدها مذبّة كتلك التي تستخدم في الهند حالياً.

واثار انتباهي تمثال يقوم إلى اليمين وقبالة رأس الفيل، فله ثلاثة رؤوس وأربع ايدٍ ورسم على مقعده عيون، ونرى الصورة المحفورة على كتف احد التماثيل في أماكن اخرى. اذا ما كانت الصور تمثّل نبتون الهند، واذا ما كانت التي تتحرك في الأعلى تمثّل الملائكة، وما يعني كل هذا أتركه لعلماء الآثار الهندية، ولعلنا اذا ما حصلنا على معلومات حول ديانة الهندوس واذا ما أطلع بعض المسافرين علماء البراهمانيين على هذه الصور نتمكن من تفسيرها.

يمكن أن نرى المغارة على اللوحة VII وعلى الخارطة قرب الرقم ٥. يبلغ طول التمثال الرئيسي إحدى عشرة قدماً ويتكىء بيده اليسرى الأمامية على قزم ينظر إلى الأعلى بطريقة تدعو إلى الرثاء كما يشتكي من ثقل وزن معلمه. ويحمل القزم بيسراه مذبّة كبيرة وتلتف حول يده اليمنى حيّة، ويعتمر ما يشبه العمامة. ويستند تمثال المرأة الكبير على أنثى قزم تبدو وكأنها ترزح تحت هذا الثقل، ونرى إلى اليمين امرأة صغيرة ترتدي سروالاً.

وتطالعنا قرب د. (على الخارطة المرسومة على اللوحة III) شقق مظلمة، تكثر فيها المياه، في الفصل الذي زرت فيه المعبد، وهي مياه تعبّ منها الابقار التي ترتاد المكان، ونجد قرب «٥» شقة كبيرة مظلمة ايضاً. وقد اعتاد المسافرون، حين يزورون السراديب أن يطلقوا عيارات نارية لطرد الحيوانات المفترسة التي تختبىء فيها، أما أنا ففضلت ألا ألج هذه المغارة أو غيرها. حيث يحتمل وجود حيوانات مفترسة لا سيّما حين لا أكون متأكداً من وجود مخرج آخر لها أو امكانية لتراجعها بعد اخافتها. اطلق الكسندر هاملتون عياراً نارياً في أحد الممرات، فخرجت أفعى يبلغ



طولها ١٥ قدماً وعرضها قدمين ففرّ ورفاقه من المعبد واضطر إلى انهاء دراساته(*) كما أطلق ضابط من بومباي النار في معبد مماثل في كناري في جزيرة سلفت (Salfet)، فهاجمه سرب من الزنبور ورماه أرضاً، وسارع أصحابه حين سمعوا الطلق الناري لرؤية اذا ما تعرض لهجوم أيّ حيوان مفترس فوجدوه في حالة مزرية. وتعيش هذه الزنابير في أعشاش كبيرة مستديرة معلقة في القبة، ولم تكن لتهاجم الضابط لو لم يزعجها أولاً (**).

تمثل الصورة أعلى اللوحة IIIV مغارة حدد موقعها قرب الرقم ٦ على خارطة هذا المعبد يظهر التمثال الرئيس جالساً، وله أربعة اذرع، ثلاثة منها مقطوعة، وفقد التمثال الصغير الجالس إلى يمينه رأسه كما لحق الضرر بأسفل الصخرة التي يقومان عليها. ونجد في الجهة اليسرى للتمثال الرئيس امرأة تحمل طفلها كما تفعل نساء الهند حالياً(١).

وتختلف هذه المغارة عن غيرها لوجود تمثالين وكأنهما غارقان في الارض، ويبدو على وجهيهما الالم، أما ما يضعه احد الشخصين على رأسه فيشبه الشعر المستعار مما يدفعنا للاعتقاد بأن الاوروبيين ليسوا أول من عرف هذه الزينة. ويعلو هذين التمثالين، عدد من التماثيل التي تطير في الهواء ومن بينها واحد بلحية.

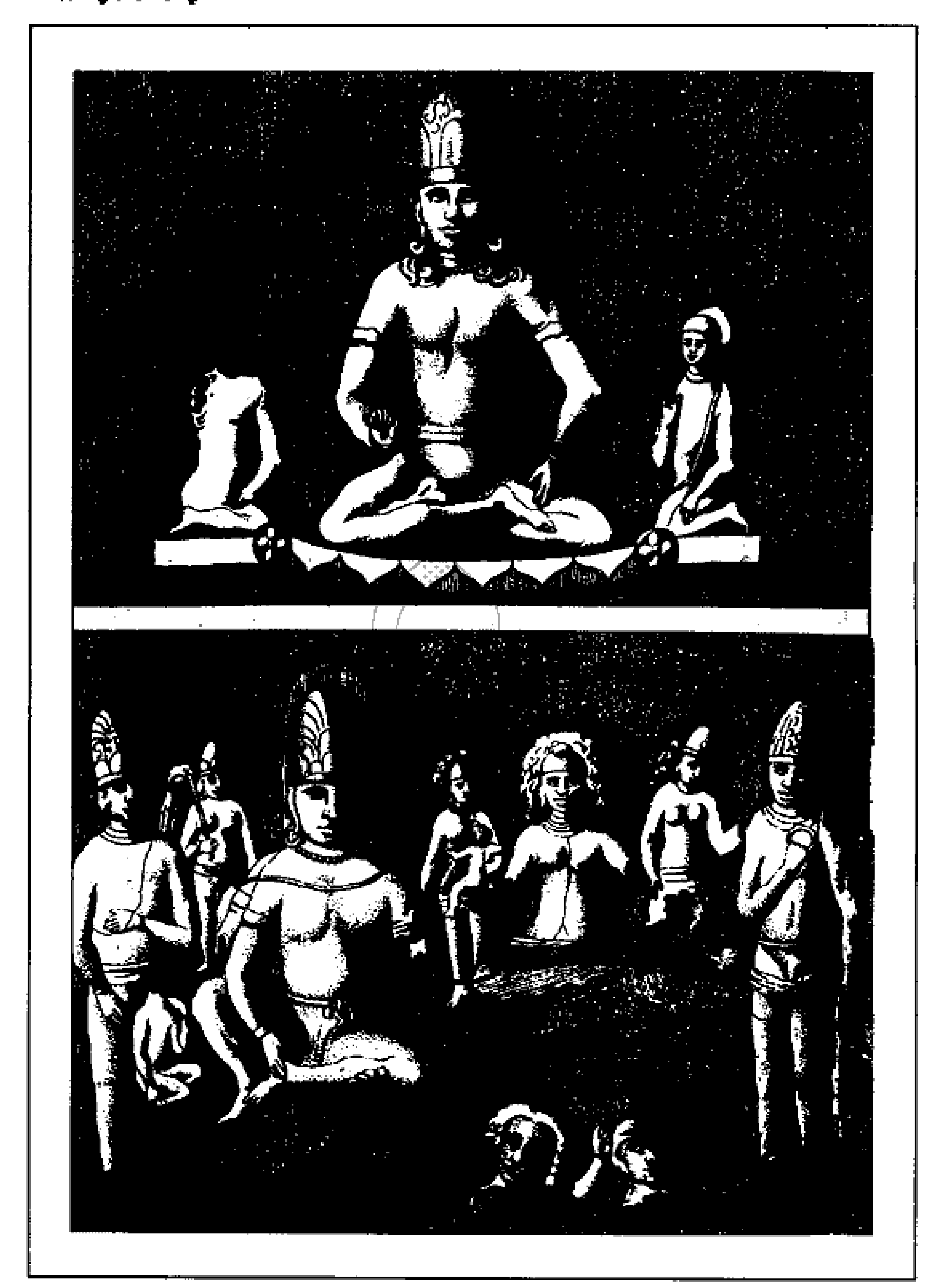
ونرى قرب الرقم ٧ مغارة اللوحة XI، أما التمثال الاساسي هنا فامرأة بأربعة أذرع تمثل على ما يبدو أحد الآلهة، ونجد إلى الشمال تمثالاً بأربعة أذرع واقفاً. يعلو الهاً جالساً وله ثلاثة رؤوس، كما نلاحظ على هذه اللوحة تسريحات عدة شبيهة بالشعر المستعار.

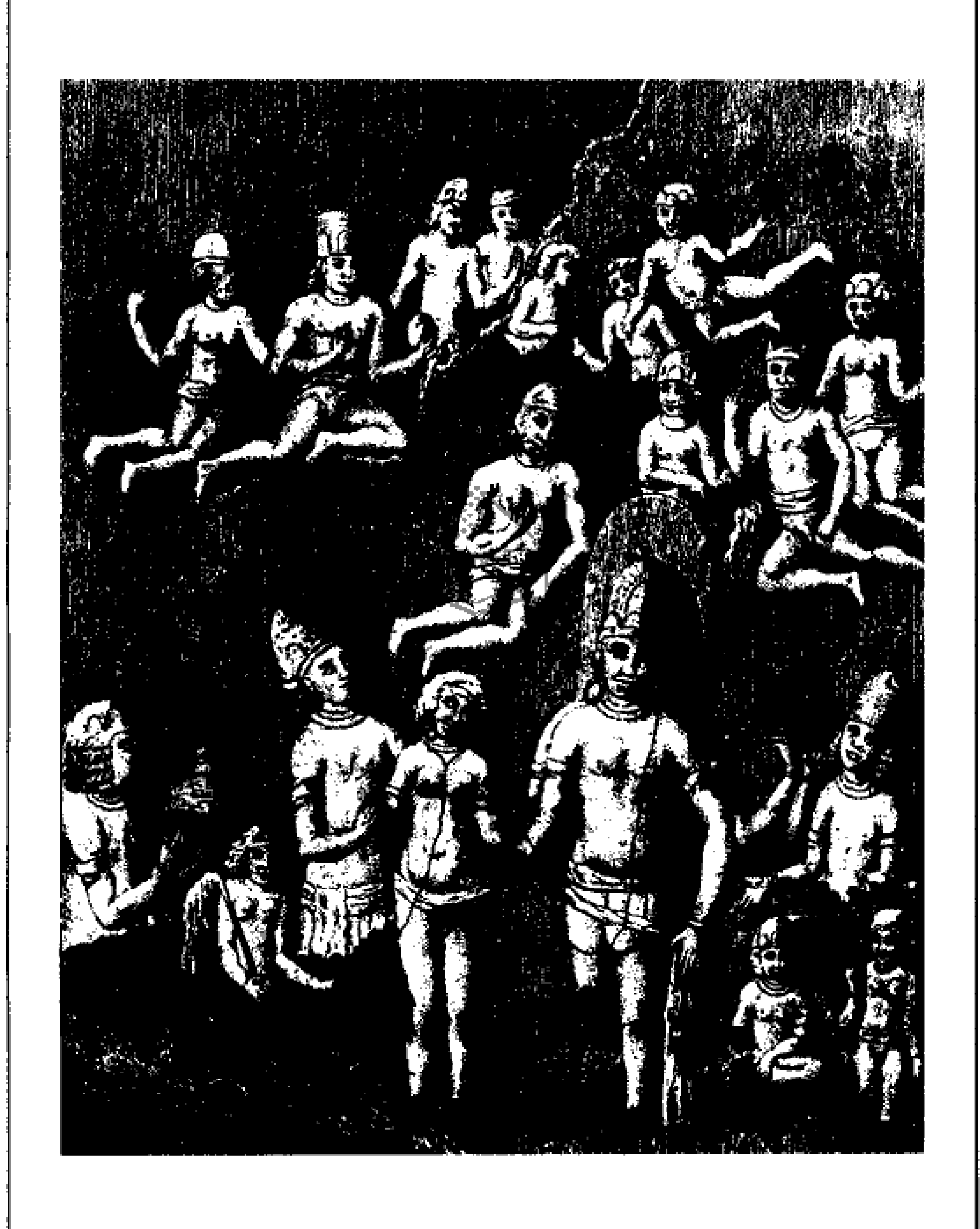
تم إلحاق الضرر عمداً بتماثيل المغارة الواقعة قرب الرقم ٨ على الخارطة، إذ إنها فقدت رؤوسها، ويبدو التمثال الرئيسي جالساً، وله ستة أذرع ويمسك بيده امرأة. ونرى قرب الرقم ٩، اللوحة III تمثالاً كبيراً للغاية بثمانية أذرع كما يبدو على اللوحة X، وقد فغر فاه وبدا عليه

(*) رواية من شرق الهند، الجزء الاول ص ٢٤٢ (Account of the East India).

(**) روى لي السيد هولمبرغ، وهو سويدي يعمل لدى الشركة الهولندية للهند الشرقية، وكان في سورات حين وصلت البلاد، ان عند عودته من رحلة الى كوبنهاغن طاردته زنابير المعبد في كناري. اذ اراد رجاله تحضير طعامهم عند المعبد، هاجت الزنابير بسبب الدخان فلم تكتف بطرد البعثة كلها من المعبد بل طاردتها عبر الريف، وألحقت الضرر بجواد السيد بوي (Boye) وهو كابتن انكليزي في بومباي حتى انه نفق في صباح اليوم التالي.

(١) لست ادري اذا كانت هذه الطريقة في حمل الاطفال هي السبب الاساسي الذي يجعل الهنديات يمشين مستقيمات من دون الحاجة الى معلم رقص، لأن الولد حين يوضع على الورك، يمكن للوالدة ان تسند ظهره بيدها، وتبقى الساقين حرتين أكثر مما لو حمل بين الذراعين كما تفعل الاوروبيات، كما لا يقمّط الطفل في هذه البلاد.





الغضب كما فقد يديه ورجليه الاماميين بفعل الزمن. ويمسك هذا التمثال بيده اليمنى حساماً كبيراً، والاخرى طفلاً من ساقه، أما بيده اليسرى فيحمل حوضاً، وبالتالية جرساً صغيراً، ويرفع بيديه الخلفيتين حبلاً طويلاً. ونجد حول هذا التمثال الكبير، العديد من التماثيل الاخرى الصغيرة التي يبدو عليها الخوف.

اعتبر بعض المسافرين هذا المشهد صورة الحساب الاول لسليمان، وقال لي هندي انه يمثّل كوس (Kos) أو كنس (Kanus) الذي اتيت على ذكره سابقاً، والذي قتل عدداً من أولاد عائلته يظهرون هنا على شكل سلسلة رؤوس، ويشير الصحن إلى أنه جمع فيه دماء الاطفال، فيما يعلن الجرس قدومه. في النهاية، أنبّه ضميره للغاية عندما تذكر الجرائم التي ارتكبها، فحاول ان يتوارى عن أنظار الناس وهذا ما يشير اليه الحبل الذي يرفعه بيديه الخلفيتين.

شوّهت تماثيل المغارة القائمة قرب الرقم ١٠ (اللوحة III) كلياً تقريباً، ونجد فيها العديد من التماثيل الشبيهة بالتي وصفتها سابقاً باستثناء واحد يمتطي جواداً.

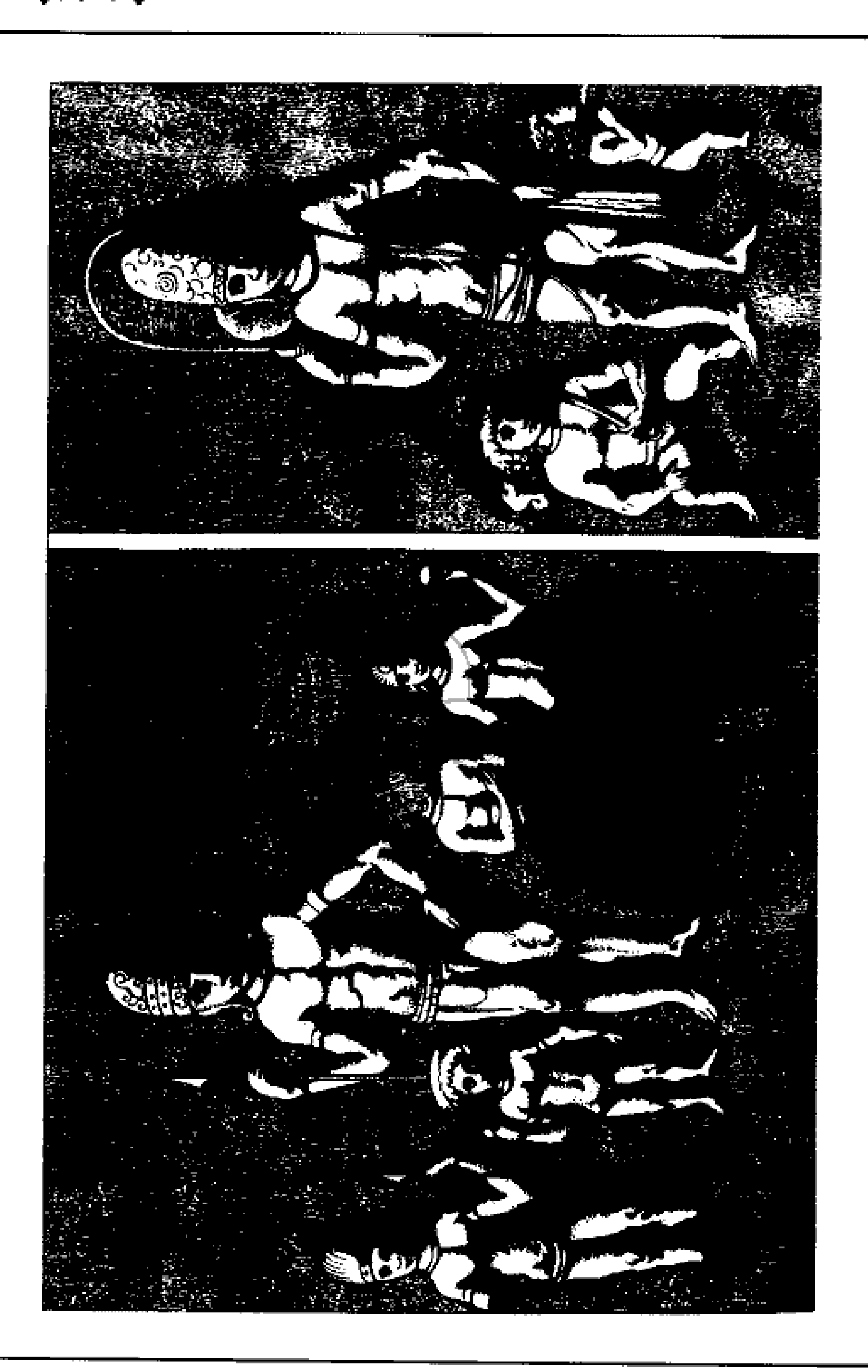
إن التمثال الموجود قرب الرقم ١١ ضخم للغاية، له ستة أذرع، لكنه تعرّض للضرر ونرى إلى شماله ثلاث نساء والى يمينه تمثال يحمل رمحاً في يده، ونلاحظ فوقه رأس فيل وشخصين يجلس احدهما فوق الاخر، وقبالته شخص جالس وله ثلاثة رؤوس. كما نجد بين التماثيل الصغيرة المعلقة، اذا ما صح التعبير، في الهواء غونيس أوهاناوانت (Gonnis ou Hannawant) شاهراً سيفه وسأصفه بالتفصيل لاحقاً.

يبلغ الارتفاع الداخلي للمصليات حوالي ٩ أقدام وبالتالي ليست أعلى من الصرح الرئيس، وقد حفرت ايضاً في الصخر. ونجد خلف احداها غرفة صغيرة «ج» لم أرَ فيها سوى حجر مقلوب، وتغطي التماثيل الجميلة جدران المصلى الأمامي الجانبية، وهي تضاهي تماثيل المعبد الكبير من حيث الجمال لكنها أصغر من حيث الحجم.

رسمت التماثيل الاساسية في المغارة الموجودة قرب الرقم ١٢، اللوحة II على اللوحة IIV قرب الحرف «ب». ويبدو الشخص الرئيسي جالساً بالطريقة نفسها التي يجلس فيها الشرقيون اليوم، عندما يكونون وحيدين أو مع أمثالهم مع فارق بسيط وهو أن إظهار باطن القدم يعتبر اليوم منافٍ للآداب. ويجلس الشخصان الموجودان إلى جانب التمثال الاول على عقبيهما كما يجلس مسلم من طبقة دنيا في حضرة شخص من الأعيان (*). ونرى في الأعلى تماثيل أخرى صغيرة لكنها تعرضت للضرر.

(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.





ونجد الصور الثلاث II، اللوحة IX، قرب الرقم ١٣ من اللوحة III، وهي لم تتعرض للضرر. يبلغ طول التمثال الاساسي ٦ أقدام وبوصتين، يقف على جانبيه قدمان غطّاهما شعر مستعار ضخم، ويحمل أحدهما أفعى كبيرة على كتفه. ونقع بالقرب منه على مغارة أخرى فيها تماثيل عدة متضررة، وكان للتمثال الرئيس فيها أربعة أذرع، ونلاحظ بين التماثيل الصغيرة، واحداً فوق الآخر وللأعلى أيضاً أربعة أذرع فيمثّل إنساناً بثلاثة رؤوس يركب جاموساً عظيم القرنين فضلاً عن حيّة كبيرة.

إن المصلى الواقع في الجهة الأخرى للمعبد أكبر من ذاك الذي وصفته، لكنه بالارتفاع نفسه. وقد تعرضت عواميد المدخل الرئيس لعامل الزمن. فبالكاد نكتشف أثراً لها، لكن الرسوم المنحوتة على الحائط لازالت في حالة جيدة. نرى قرب الرقم ٣ من اللوحة III كهفاً رسمت منحوتاته الاساسية قرب الحرف ب على اللوحة IX، يبلغ ارتفاع أكبرها سبعة أقدام ونصف ويستند برمح على رأس امرأة صغيرة وضعت عليه وسادة لهذه الغاية على ما يبدو. ومن بين الرسوم التي لم أنسخها، شخص بثلاثة رؤوس يجلس على مقعد مزّين بالعيون، وشخص بأربعة أذرع يجلس على كتفي شخص آخر ويعلوها رسوم صغيرة عديدة.

تعرضت الرسوم على الحائطين ١٥ و١٦ لأضرار عديدة بفعل مرور الزمن، أما الرسوم الاساسية فكبيرة الحجم وبالتالي أقل تضرراً. وهي تمثل إلهاً ثانوياً هو غونيس أوهاناوانت. إن قصته معروفة، وقد أوردها مسافرون عدة، لكنني سآتي على ذكرها هنا كما سمعتها على لسان البحارة الذين أوصلوني من بومباي، رووا لي أن بارفوتي (Parvotti) زوجة ماديو (Madeo) كانت تسبح يوماً في نهر، وطاب لها المقام فلم تعد باكراً إلى المنزل، لذا صنعت من الاوساخ التي غسلتها عن جسدها فتى اسمته غونيس وأرسلته إلى المنزل ليحرسه أثناء غيابها. في هذه الاثناء، عاد ماديو وسأل الفتى عن نفسه وعما يفعله في المنزل، فأجابه أنه ابن بارفوتي وأنها أرسلته لحماية المنزل، فغضب ماديو غضباً شديداً وقطع رأسه. بعد ذلك، روت بارفوتي لزوجها كيف كوّنت ابنها، وتبين لماديو أن زوجته ليست بمذنبة، فتأثر لجريمته وأراد بعث الفتى غونيس من جديد لكنه لم يجد رأسه وبما أن الفتى لا يمكن أن يعيش من دون رأس، قطع ماديو رأس فيل صغير ووضعه على جسد الفتى. ولهذا السبب، يصوّر غونيس كرجل برأس فيل، ويعبده سكان شواطىء مالابار اليوم.

ولا يهتم سكان جزيرة الفيل، وهم حوالي مئة عائلة فقيرة، إلا بهذا المصلى الصغير في المعبد كله، ولازالوا يرتادونه اليوم وهذا ما رأيته شخصياً، ففي أحد الأيام، بينما كنت في المعبد الكبير، دخل أحد هؤلاء وأخذ يصلي. وتتم المحافظة على نظافته، وقد صبغ تمثال غونيس فضلاً عن بعض الحجارة منذ فترة وجيزة باللون الأحمر. وتمثّل هذه الحجارة، على الأرجح، بعض الآلهة

الثانوية أو بعض الابطال أو القديسين، لأننا نجد مثلها في بومباي غالباً ، لا سيّما تحت بعض الاشجار التي يعتبرها الهنود مقدسة. وتفاجأت لوجود هذه الحجارة في معبد تكثر فيه هذه الكمية من الابطال والالهة، لكن لعل الهنود لا يعبدون حالياً من آلهة البلاد القديمة الا غونيس ولعل كومة الحجارة تمثّل بعض الابطال الجدد الذين لا نجد لهم تماثيل من هذا المعبد ولا يجيد البراهمانيون رسمهم بغياب نحاتين ماهرين أو مؤمنين اغنياء. وأترك لمن سيسافر لاحقاً أمر الاستعلام حول هذا الموضوع من البنيان.

ونرى قرب الرقم ١٧ من اللوحة III رسماً كبيراً لشخص يحمل حيّة بيده اليمنى الثانية ويتكيء بكوعه الامامي الايسر على تمثال صغير، ونشاهد قرب الرقم ١٨ تمثالاً كبيراً وآخرين صغيرين لكنها مشوّهة.

ونجد في هذا المصلى غرفة «ب» حفرت في الصخر كالغرفة «أ»، لكنها تختلف عنها بكونها بمدخل واحد، وبأن جدرانها مستوية، ونلاحظ أنها أعلى من المصلى لأن السقف نظيف، وتطالعنا في وسط هذه الغرفة حفرة سدّت بحجر. وبالتالي، لكل معبد غرفة خاصة، خصصت على الأرجح للغرض نفسه، واترك للآخرين اكتشاف ما اذا تم دفن رماد المؤسسين هنا، أو ما اذا تم الاحتفاظ هنا بالاشياء المقدسة التابعة للمعبد، أو استخدمت لأغراض دينية، وأشير إلى أنني لم أجد أية كتابات.

ولا يعرف سكان الجزيرة الصغيرة الحاليين شيئاً حول الاثار وحول تاريخ هذا المعبد، واستناداً إلى رأيهم، وصل، في يوم من الأيام، وعند المساء، أناس إلى المنطقة وحفروا هذا المعبد في الصخر ثم غادروا عند الصباح. وهي الفكرة التي تسود بين المصريين حول الاضرحة الرائعة التي خلّفها اسلافهم.

ويدّعون أن معبداً آخر صغيراً حفر في الصخر يقع بالقرب من هذا المكان، لكنني لم أره وبغياب طريق ممهد ومع ارتفاع العشب لم يتجرأ الدليل الذي يرافقني على التقدم خوفاً من الافاعي والحيوانات المفترسة الاخرى.

ونشاهد على مقربة من شاطيء البحر فيلاً مصنوعاً من حجر أسود صلب. ولعل الاوروبيين اطلقوا على هذه الجزيرة اسم جزيرة الفيل لهذا السبب علماً أن الهنود يسمونها غالي بوري (Gali Pouri). ولا يضاهي حجم هذا التمثال حجم الفيل الكبير الذي رأيته في سورات، وهو يحمل على ظهره شيئاً يصعب اكتشاف ماهّيته، وقد تعرّض هذا التمثال للعوامل الطبيعية فكاد أن ينهار. أما بالنسبة للحصان الذي أتى على ذكره كل من اوفنغتون وهاملتون فلم أره.

ونجد في جزيرة سلفت، التي تحدثت عنها، العديد من المعابد الاثرية المحفورة في الصخور كتلك الموجودة على جزيرة الفيل، وتخضع هذه الاخيرة للماراتيين، لكن صغر حجمها وقلة السكّان فيها لا تجعلها موضع اهتمام فيقصدها الانكليز ساعة يشاؤون. لكن إذا أراد اوروبي ما زيارة المعابد القديمة على جزيرة سلفت الخصبة والكبيرة، فعليه أن يطلب الاذن من حاكم تانا (Tana)، ومن قائد الماراتيين في بونا (Puna).

ولم أقم بالرحلة لأن المارابين، استولوا قبيل وصولي إلى بومباي، على مركب دانماركي، واحتجزوا بعض الاشخاص. كما وقعت خلافات بينهم وبين الانكليز، لذا لم يكن من الحكمة طلب الاذن.

ونجد بالقرب من حصن فيكتوار، حسب ما قيل لي، معبداً كبيراً حفر في الصخر، أو ٢٥ منزلاً مع غرف حفرت في الصخر(*) على حدّ تعبير البعض. واكدّ لي ضابط انكليزي انه وقع قرب تريجانابولي (Teridschonapoli) على معبد عظيم حفر في الصخر. باختصار، نجد لدى هذه الامة العريقة العديد من البقايا الاثرية التي تستحق عناية واهتمام العلماء الاوروبيين، اهتماماً أكبر من الذي أبدوه حتى اليوم.

إن هذه الاصرحة لا تظهر للعيان واضحة كأهرام مصر، لكنها استلزمت الكثير من العمل والفن، لأن بناء الاهرام الموجودة قرب القاهرة لم يتطلب سوى المال والعمال، وقد وجد المهندس قربه الحجارة التي تلزمه وهي حجارة كلسية لينة تسهل معالجتها ولا يستوجب تكديسها ووضعها

(*) زار فراير (Freyer) معبداً مماثلاً في دونغاسف (Dunganself)، ورأى تفنو (Thevenot) معبداً آخر في اليروا (Elora)، ووصف انكاتيل (Anquetil) هذا المعبد ومعبد جزيرة الفيل، وكناري وبونيسير وموميزر (Mompeser) على جزيرة سلفت، ونسخ بعض الكتابات التي قد تكون مهمة لهواة اللغات لكن ما يرويه عن نفسه لا يشرّفه.

يسمح الماراتيون، وهم من الوثنيين، لرعاياهم الكاثوليك في سلفت بممارسة شعائرهم الدينية علناً، كما في اوروبا، لكن السيد انكاتيل وهو كاثوليكي وأوروبي وعالم تصرف بطريقة متخلفة وهمجية حين نزع من معبد بونيسر تمثال بقرة مسحه البراهمانيون بالزيت تكريماً لها. ورجا البراهمانيون، وهم في بلادهم، الضباط المرافقين للعالم بأن يعيدوا لهم هذا التمثال المقدس. ولم يكن بامكانهم استعادته بالقوة لأنه مسلح. ونستنتج من هذا المثل ومن أمثلة اخرى يوردها السيد انكاتيل ان الهنود هادئون ورفيقون بطبعهم. ولنقرأ وصف رحلته ولنحكم بعدها، فإن تصرف اي براهماني او اجنبي بالطريقة نفسها في اوروبا مع المسيحيين لن تحمد عاقبة فعلته. ويشتكي العديد من المسافرين من أن السكان يجعلون ابحاثهم صعبة، وأنهم لا يتمكنون غالباً من الوصول الى الامور المثيرة للاهتمام، ولكن هل ينبغي ان نستغرب ذلك بعد ان تصرف اسلافهم كما تصرف السيد انكاتيل، ومن يلوم براهمانيي سلفت اذا ما منعوا ايّ اوروبي من رؤية المعبد القديم على الجزيرة طالما انها تحت سيطرة الماراتيون.

الواحدة فوق الاخرى سوى آلات بسيطة لأن الاهرام عالية لكن قاعدتها عريضة مما يجعل رأسها على شكل منحدر سهل يمكن رفع الحجر اليه بواسطة بكرة. وبعد أن يتم تكديس الحجارة بعضها فوق بعض على شكل درجات، تقطع الزوايا الناتئة فتصبح الاهرام مستوية، وهذا ما نتبينه من بعض البقايا قرب الهرم الثاني.

ويتطلب بناء أحد هذه المعابد الهندية التي ذكرناها الكثير من العمل، لحفر الصخور ونقش هذا العدد الكبير من التماثيل على جدران الكهوف، كما يستوجب مهارة في الرسم والنحت، وهي مهارة يفتقر اليها المصريون.

تطابق ديانة الهنود القدامى ديانة المصريين إلى حدّ كبير، ولا نعرف عن تاريخ آلهة المصريين القدامى وأبطالهم سوى ما نقله اليونان وهم بالتالي أمة غريبة، لأن المصريين خضعوا غالباً للأمم الأخرى، فتغيّرت لغتهم وتبدل دينهم كما فقدوا كتبهم. وتعرضت كل من ديانة الهنود ولغتهم لتغييرات عدة، على مرّ السنين، لكن ليس بقدر ديانة المصريين ولغتهم، اذ لم يتأثروا كلياً بالأمم الأجنبية، وبقوا على دينهم في الاقاليم الخاضعة لسيطرة المسلمين، ولازالوا يحتفظون بالكتب القديمة التي يجيد البراهمانيون قراءتها. وإن كان هناك آلهة ثانويون وأبطال قدامى نقشت رسومهم على جدران المعابد وبطلت عبادتهم حالياً، نجد براهمانيين يعرفون تاريخهم، لذا ينبغي ارسال عالم متجرد ونزيه إلى الهند يرافقه رسّام ماهر، ويجب أن يتعلم الاول اللغة الهندية ليتمكن من التحدّث إلى البراهمانيين. وبعد أن يرسم النقوش الموجودة في المعابد، وما رسمته في جزيرة الفيل لا يشكل سوى جزء صغير منها، يتوجه إلى البراهمانيين بالسؤال ولا بد من أن يجد من يشرحها له، فلربما ساهم هذا في فهم الكتاب اليونان والوثنيين القدامى.

لا يمكن أن نطلب من عالم ما أن يسافر إلى الهند على حسابه الخاص ليقوم بأبحاث حول الآثار ولغة السكان ودينهم، فإن قدرات العالم محدودة وحين نجد عالماً ثرياً قد لا يرضى بتكبدّ هذا العناء. وقد أرسل ملك الدانمارك بعثة من خمسة اشخاص إلى شبه الجزيرة العربية هدفها تقدّم العلوم، فهل نأمل بأن ترسل أمم أخرى، قامت بفتوحات عدة في الهند، بعض الاشخاص للتعرف عن كتب على هذا البلد الشهير، شرط أن يتمنى العلماء ذلك بشدّة. وتتوفر هذه الفرصة للإنكليز(*) اذ يمكنهم

(*) تم في السنة الماضية وبمبادرة من حاكم البنغال وعلى حساب الشركة الانكليزية للهند في لندن نشر الكتاب التـالـي: «A Code of Gentoo Laws of ordinations of the Pundits from a Persian Translation made from the Original written in the shanfiat language.» ويبدو هذا الكتاب مهماً، لذا يرجى ان يستمر ضباط الشركة الانكليزية للهند الشرقية بتزويد الاوروبيين بترجمات كتابات كهذه، لأنها الوسيلة الاكيدة للتعرف على ديانة الهنود وعاداتهم وتقاليدهم.

السفر على متن سفن أمتهم إلى بومباي، والعيش في الهند بين مواطنيهم في أغلب الاحيان، ولن يضطروا إلى قطع مسافات بعيدة عن مستعمراتهم. ولن تكون هذه الرحلة بكلفة وصعوبة الرحلات إلى الشرق التي أمر بها فردريك الخامس وموّلها حتى نهايتها كريستيان السابع. وإن لم يقوموا بمبادرة كهذه، سيبقى الهنود بالنسبة لنا أمّة غريبة، علماً ان الانكليز سيطروا لمئة عام على بومباي ولا تبعد هذه الاخيرة كثيراً عن جزيرة الفيل وعن سلفت. ويقوم كل اوروبي يزور بومباي تقريباً برحلة إلى المعابد الرائعة المجاورة، لكننا لا نجد حتى اليوم سوى تقارير غير مكتملة حول هذه الاصرحة الاثرية، لذا لا يمكن أن نتوقع المزيد، لأن المسافرين يهتمون بأمور أخرى لا تسمح لهم بصبّ اهتمامهم على هذه المعابد. وقد خضعت كل من سلفت وجزيرة الفيل، منذ قرون، لسيطرة البرتغاليين، حتى أنهم حوّلوا أحد المعابد في كناري إلى كنيسة، وبالتالي أتيحت لهم الفرصة لإعطائنا تفاصيل ورسوماً حول هذه الآثار الغريبة، لكنهم غطّوا عوضاً عن ذلك هذه التماثيل الرائعة المنحوتة في الصخر بالكلس ليطويها النسيان كلياً.

ويقيم في الهند الكثير من الفرس الذين طردهم العرب المسلمون من موطنهم منذ ١١٠٠ عام، واذا ما أراد شخص ما الاستعلام عن ديانة قدامى الفرس، يكفي أن يقرأ كتابهم الاساسي الذي نشر السيد انكاتيل ترجمته الفرنسية(*) منذ فترة وجيزة. وقام هذا الاخير برحلته إلى الهند للحصول على كتب شريعة الفرس ولتعلم اللغة القديمة التي كتبت فيها، وبالتالي قام بأبحاث واسعة حول ديانتهم وعاداتهم اكثر من تلك التي قمت بها شخصياً لانشغالي بأمور أخرى، لكني سأورد هنا ما عرفته حول هذا الموضوع من أحاديثهم وما لاحظته.

يعبد الفرس، اتباع زرادشت، إلهاً واحداً قادراً وأبدياً، خالق الكون وحافظه، لكن بما أن الانسان بحاجة لشيء ملموس يذكّره بالخالق، وجّه الفرس صلواتهم للشمس والقمر والنجوم والى أمور أخرى أهمها النار على أنها أكثر العناصر طهارة ونقاء وفعالية، لذا يبقون النار مستعرة في معابدهم ويأججونها بأخشاب عطرية، كما يجعل التجار الاغنياء في منازلهم ناراً مماثلة. في احد معابدهم في بومباي، بقيت هذه النار مشتعلة حوالي ٢٠٠ عام، وتصل عبادتهم للنار إلى حدّ أنهم لا ينفخون على شعلة خوفاً من أن يدنسوها بأنفاسهم كما لا يطفئون النار بالماء حتى لو أحرقت منزلهم بالكامل. إن تطهير الجسد نقطة اساسية في ديانة الفرس، فضلاً عن المسلمين والهنود كما يؤدّون صلاتهم وقوفاً، وقلما يقومون بختان اولادهم شأنهم في ذلك شأن الهنود، ويزوجون اولادهم كهؤلاء الاخيرين قبل بلوغهم سن السادسة ويكتفون بامرأة واحدة فإن كانت عاقر يتزوج

(*) يحمل العمل اسم زند افستا (Zend Avesta) وقد كتبه زرادشت، ويضم افكار هذا المشرع اللاهوتية والفيزيائية والاخلاقية فضلاً عن طقوس الديانة التي وضعها. والخطوط العريضة المهمة المتعلقة بتاريخ بلاد فارس القديم.

الرجل امرأة اخرى. ولا يتجرؤون على شرب الخمر والكحول، كما لا يحرم عليهم دينهم وقانونهم أكل لحم البقر، لكن لدى وصولهم إلى الهند وعدوا الامير الوثني الذي حماهم بعدم قتل هذه الحيوانات، واستحال هذا الوعد مع الايام قانوناً صارماً لدى الفرس فامتنع عن اكله حتى أولئك الذين يعيشون في المناطق الخاضعة لسيطرة المسلمين أو الأنكليز، ويعتبر القواع (الارنب البري) الحيوان الاكثر نجاسة عندهم(*). ويلبسون الزيّ الهندي تقريباً، ويحلقون شعر رأسهم، لكنهم يتركون فوق أذنيهم خصلة شعر كاليهود.

ويُعتبر الفرس ضليعين بعلم الفلك ككافة الامم الشرقية المتحضرة والعريقة، ويستشيرون هذا العلم عند ولادة أي ولد وعند الزواج وفي الحالات المهمة الاخرى، مما ساهم في ابقائه وتناقله. ويمكننا أن نفهم بسهولة ان علم الفلك لم يتطور ويتقدم عند الفرس بالرغم من أنهم يستخدمون أفضل الالواح في بلاد الشرق، وهي الاولوغ بيغ (Ulugh Beigh) التي أخذوها عن أبناء دينهم، فضلاً عن التي أخذوها عن المسلمين يحتسبون أيامهم منذ شروق الشمس وحتى الشروق الجديد، وتضم سنتهم اثني عشر شهراً يتألف كل منها من ثلاثين يوماً، لكن يضاف إلى الشهر الاخير خمسة أيام، فتصبح سنتهم ٣٦٥ يوماً. ولا يعلمون شيئاً عن السنة الكبيسة، لكن كي يصادف عيد رأس السنة الجديدة في الموعد نفسه يضيفون، كل ١٢٠ عاماً، شهراً كاملاً إلى السنة فضلاً عن الخمسة أيام المذكورة أعلاه، فتصبح السنة بالتالي مؤلفة من ١٣ شهراً. يبدأ توقيتهم للأحداث بعد يزدجرد (Jesdejerd)، ملكهم الاخير الذي طرده المسلمون من الحكم، وذلك في خريف العام ٦٣١ بعد الميلاد، لأن الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٧٦٤ تزامن واليوم العاشر من الشهر الثاني للعام ١١٣٣ عند الفرس في بومباي. وصادف يوم رأس السنة عندهم في ١٨ تشرين الاول ١٧٦٣، و١٧ تشرين الاول ١٧٦٤ (وهي سنة كبيس).

وأكدوا لي أن توقيت الفرس في كرمان (Kirman) يفرق شهراً بأكمله عن توقيت فرس الهند ونستنتج من ذلك أن هؤلاء الاخيرين انفصلوا كلياً عن فرس كرمان. ولعل السبب يعود إلى أن الفرس في بلاد فارس استخدموا الواح المسلمين المصححة، أما اسماء الاشهر الفارسية فهي:

١ ـ فروردين (Forwardin).

٢ ـ ارديبهشت (Ardibescht).

(*) يعمل مع التجار الاوروبيين خدم من بينهم هنود وفرس ومسلمين وكاثوليك، ولكن بعض الخدمات لا يستطيعون طلبها الا من الاخيرين. مثلاً: لا يحمل الخادم الهندي ارنباً برياً مطبوخاً ويضعه على الطاولة لأن دينه يحرم قتل الحيوانات، ولا يلمس الفارسي هذا الطبق لأن الحيوان دنس. اما المسلم فلا يلمسه لأنه طُهي بشحم الخنزير. وبالتالي يعتبر هؤلاء سيّدهم غير طاهر.

٣ ـ خرداذ (Gordad).

٤ ـ تير (Tir).

٥ ـ مرداذ (Amerdad).

٦ ـ شهريور (Scherwar).

٧ ـ مهر (Mer).

٨ ـ آبان (Auan).

٩ ـ آذر (Ader).

١٠ ـ دى (Dah).

١١ ـ بهمن (Boman).

١٢ ـ اسفندار (Asfendar).

ولم استعلم حول الاسم الذي يطلق على الشهر الذي يضاف كل ١٢٠ عاماً، لكنه لا يعتبر مقدساً اكثر من غيره من الاشهر.

يحتفل الفرس بأعيادهم في أيام معينة تسمى غمبار (Ghumbar)، يكرمون خلالها عملية الخلق، وتستمر الاحتفالات خمسة ايام متتالية. يحتفلون في الغمبار الذي يبدأ في ١١ ارديبهشت بخلق السماء، وفي الذي يبدأ في ١١ تير بخلق الماء، ومن ٢٦ إلى ٣٠ شهربور يحتفلون بخلق الارض، ومن ٢٦ إلى ٣٠ مهر بخلق العشب والنبات، ومن ١٦ إلى ٢٠ دى بخلق الحيوانات. ويحتفل الفرس في الايام الخمسة التي يضيفونها إلى السنة بذكرى خلق الله للانسان، وهو أكبر أعيادهم ويطلق عليه اسم غاتا غمبار.

لم ألاحظ شعائر ظاهرة يمارسها الفرس في هذه الاعياد، كما يفعل الهنود في عيد جوز الهند والهولي (Hulli)، والسنّة في عيدي الفطر والأضحى والشيعة في الحسين، الخ. بل يحتفلون بالعبادة في منازلهم ومعابدهم، ويحسنون من هندامهم ويزورون أصدقاءهم. واستعلمت حول ما اذا كان كهنتهم ينشغلون بالتنبوءات في هذا اليوم خاصة، وإن كانوا يؤجلون اعراسهم وامورهم الرسمية الاخرى حتى هذا اليوم، فقيل لي العكس. ويعيش هؤلاء بشكل عام بسلام وطمأنينة، ويمارسون الاعمال المختلفة ويجدّون فيها، ويتمتعون بمكانة جيدة بين الهنود، فيزداد عددهم في هذه البلاد في حين أن عدد أتباع ديانتهم يتراجع في بلاد فارس تحت نير المسلمين. ويساندون

فقراءهم ولا يسمحون لأي شخص من دينهم بطلب الاحسان من اتباع ديانة أخرى وحين يلقى القبض على أحدهم، لا يألون جهداً ولا مالاً لتخليصه، لكن إذا اساء شخص ما التصرّف ولم يتمكنوا من رده إلى الطريق المستقيم، يطردونه من جماعتهم. وقد تمّ اعدام فارسي شنقاً حين كنت في البلاد بتهمة الشذوذ، لكن قيل لي إنه ليس من أمتهم أصلاً، وإن تاجراً اشتراه كعبد. ولا يستبعدون اتباع الديانات الاخرى كما يفعل الهندوس بل يستقبلون المهتدين.

ويتبع الفرس طريقة فريدة في دفن موتاهم، فلا يرضون بتركهم في باطن الارض كاليهود والمسيحيين والمسلمين، ولا يحرقونهم كالهنود، بل يتركونهم لتأكلهم الطيور الكواسر(*). ويملكون في بومباي برجاً مستديراً على جبل، بعيداً عن المدينة، مسقوفاً بأخشاب، يضعون فيه أمواتهم، وبعد أن تلتهم الطيور اللحم يجمعون العظام ويرمونها في قعر البرج، فاصلين الرجال عن النساء. وتم اغلاق هذا المبنى، منذ أن زار عاشق عشيقته الشابة الجميلة التي ماتت فجأة ودفنت على الفور في هذا المكان الكئيب.

وبما اني تمكنت من الحصول على حروف ابجدية قديمة يستخدمها الفرس قمت بحفرها على اللوحة التالية، وتسمى المشار اليها بحرف «د» البهلوي (Pelvi) وهي الحروف المستخدمة لتدوين كتبهم المقدسة، أما تلك المشار اليها بحرف «هـ» فهي الحروف الجنحان (Dsjnanchan) ويستخدمونها للكتب الاخرى. وقد كتب هذه الحروف احد رجال الدين المهمين في سورات، وهو واحد من الذين اجبرهم السيد انكاتيل على مساعدته في ترجمة زند افستا، لكني لم اتلقاها منه مباشرة بل من الأب ميدارد، وهو كاهن كبوشي من الالزاس، تربطه به صداقة منذ سنوات لذا اعتقدها صحيحة(**). كتب الاب ميدارد اسماء الأحرف المختلفة استناداً إلى لفظ الكاهن الذي ذكرته آنفاً.

عرف القارىء في نهاية الجزء الاول انني وصلت والسيد كرامر إلى بومباي في أيلول/سبتمبر العام ١٧٦٣ مريضين، وساعدنا هنا طبيب انكليزي ماهر، كما حصلنا على الراحة التي حرمنا منها في شبه الجزيرة العربية. وأملنا ان نبحر إلى البصرة على متن سفينة ستغادر بومباي في كانون الثاني/يناير ١٧٦٤، لكني كنت ضعيفاً وتدهورت حالة السيد كرامر، ثم وافته المنية في العاشر من

(*) علمت في القسطنطينية أنّ في الجزء الجنوبي من روسيا أمّة تعتقد انّ أعظم شرف وتقدير توليهما لأمواتها هو بأكلهم.

(**) يطلق السيد انكاتيل اسم جان ـ شان سند على الحروف الابجدية. يجب مقارنة هذه الحروف بالنسخ التي حفرها هذا العالم على اللوحة IIIV من الجزء الثاني من ترجمته لزرادشت ص ٤٢٤. وقد أخذت هذه النسخ عن المخطوطة القديمة التي تختلف قليلاً عن هذه الحروف.

شهر شباط/فبراير. ولم يبق من بعثتنا الكبيرة غيري، وحين فكرت بطريق العودة المرسوم لنا عبر البصرة ومنها تركيا، توقعت مصاعب كتلك التي تعرضنا لها أثناء رحلتنا من مصر إلى بومباي لذا تضاءل املي برؤية أوروبا. واعتبرت أن أول واجباتي هي المحافظة على صحتي لأني اذا متّ قد لا تصل اوراقي إلى أوروبا(*)، ودفعتني هذه الفكرة وغيرها إلى اتخاذ القرار بالسفر مباشرة من بومباي إلى لندن على متن سفينة من الشركة الانكليزية للهند الشرقية، لكني وجدت سفينة انكليزية كبيرة (القبطان جيمس مسات James Massat) تستعد للابحار نحو سورات حيث ستحمل بضائع للصين، فقررت أن أسافر على متنها إلى هذه المدينة التجارية الشهيرة.

الرحلة من بومباي إلى سورات

في ٢٤ اذار/مارس ١٧٦٤ قبل الظهر، غادرنا مرفأ بومباي، وكانت الرياح مؤاتية فوصلنا عند المساء إلى مهيم(**). ومن هنا أصبحت أسرع، لأننا رسونا في ٢٦ صباحاً في مرفأ سورات على ارتفاع ٢١ درجة، وتبعد المدينة عن المرسى حوالي ثلاثة أميال، لكن بما أن الريح وحركة الموج عاكسانا، توجهت والقبطان وبعض الانكليز إلى دوموس (Domus)، لنكمل الرحلة عبر البرّ إلى سورات.

ودوموس هي قرية صغيرة، لا يلفت الانتباه فيها سوى أن رتباء اوروبيين يقيمون بها، ويضطرون إلى اعلام التجار المقيمين في المدينة بالمراكب التي تصل كلها، كما نجد هنا شجرة عظيمة تستخدم كعلامة للتجارة. وتتميز هذه الشجرة بأن أغصانها تنمو نحو الاسفل، وما أن تلمس الافنان الارض حتى تضرب جذورها وتسند بالتالي الشجرة، وهذا الامر ليس بنادرٍ في الهند لذا

(*) هكذا ضاعت اوراق السيد دوناتي، راجعوا الجزء الاول وكتب لي احد اصدقائي في حلب في العام ١٧٧٣ ليعلمني ان شخصاً يدعى السيد تورتي (Toretti) مرّ بالمدينة متجهاً الى الهند لاكتشاف مصير اوراق هذا العالم.

(**) تقع مهيم، وهي مدينة صغيرة فيها قصر يقيم فيه مستشار من بومباي، في الطرف الشمالي للجزيرة. ونجد هنا رصيفاً رملياً يتقدم في المياه غرز فيه صيادو الاسماك عصيّاً عدة يبلغ طولها ٢٠ الى ٣٠ قدماً قد يعتقدها المرء بسهولة أشرعة مراكب صغيرة سيما عند الجزر، وهذا ما ظنه البرتغاليون منذ فترة فأطلقوا النار باتجاهها. ولازالت هذه الامة في حرب ضد الهنود كلهم فلا يتجرأ احد رعاياها على الابحار من دون ان ترافقه سفينة حربية. عندما كنت في بومباي، وصلت اليها مراكب صغيرة حربية وعدد من السفن التي تمارس التجارة بحماية هذه المراكب وتريد الوصول الى ديو (Diu). وسمعنا ليلة أبحروا طلقات مدفع مما دفعنا الى الاعتقاد بأن البرتغاليين صادفوا ماراتيين، لكن في اليوم التالي تبين لنا انهم ظنوا هذه العصي اسطولاً هندياً، واجبروا مركب صيادي اسماك على الاقتراب منهم، وبما انهم يعتبرون هؤلاء وثنيين وبالتالي اتباعاً لأعدائهم، اطلقوا عليهم النار واصابوا بعضهم اصابات بالغة. لكن حين تبين انهم صيادون من مهيم وبالتالي من رعايا انكلترا، اجبر السيد كروملين حاكم بومباي القنصل البرتغالي المقيم هنا على رعاية هؤلاء حتى شفائهم ودفع عطل وضرر لهم.

وصفه المسافرون القدماء منهم والمعاصرون. كما يعبد الهنود هذا النوع من الاشجار، لأنه حين يعمّر، يمتد أكثر وتكثر جذوعه فتغذّى رأس الشجرة حتى وإن فسد الجذع الاساسي.

وسافرنا من دوموس إلى سورات على عربة بعجلتين تجرّها الثيران، ولم أنزعج يوماً من الغبار في قوافل الجمال والخيول والبغال بقدر ما انزعجت على هذه الدرب حيث أحاطت بنا غيوم كثيفة من الغبار في غياب أيّ هواء، ولكن ينبغي التأقلم مع الاماكن والاوقات اثناء الرحلات.

ملاحظات في سورات

تقع مدينة سورات في سهل خصيب، وعلى ضفة نهر كبير يدعى تابي (Tappi) نجد خارطة صغيرة له على اللوحة XIV. وتأخذ المدينة شكل نصف قمر، يحيط بها سور من جهة النهر وسور مزدوج من ناحية اليابسة، فتنقسم بالتالي إلى مدينة داخلية، وأخرى خارجية. وهي مدينة كبيرة، تتطلب الجولة فيها ساعتين وربع(*)، لكن ربع المدينة الخارجية أو الجزء الممتد بين السورين مسكون أما المساحة الباقية فتكثر فيها الحدائق. ويقع القصر على ضفة النهر وفي المدينة، وتحيط به حفرة تمتلىء بالمياه في موسم الامطار. ونجد في السور الواقع من جهة الماء خمسة أبواب، وفي السور الداخلي للمدينة من جهة اليابسة ستة، أما في السور الخارجي فاثني عشر باباً(**). وبما أنّ المدينة خضعت لفترة طويلة لسيطرة المسلمين، نجد العديد من المساجد، لكنها ليست رائعة مقارنة مع المساجد التركية، وقلّة هي تلك التي تعلوها مآذن، في حين أن المساجد

(*) وفقاً لتقرير روبرت كوفرتس، كانت سورات مدينة تجارية مهمة في العام ١٦٠٩، الجزء الثاني من، Collection of Voyages and travels compiled from the library of the Earl of oxford. وفي العام ١٦٦٦، بدأ بناء السور الداخلي والوحيد في ذاك الوقت من الآجر المشوي، علماً انه كان من مبنياً من الطين. لكن الاعمال استمرت طويلاً ففي العام ١٦٧٤، لم يكن بناءه قد اكتمل.Freyers Account of East India et Persia ص ٩٩ ولم يبن السور الخارجي إلاّ في هذا القرن. الجزء الاول، Hamiltons Account of the East Indias ص ١٤٩.

(**) تحمل الابواب الواقعة من جهة المياه الاسماء التالية: باساي باغل، (Passay Bagel) تشباتني (Tschappachni) باغل، رجيا باغل ميربارسو (Mirbarsu) باغل وسيّد سعدالله (Said Sadulla) باغل. وتسمى الابواب الستة في السور الداخلي: برجي باغل (Borju).

سيّد بورا باغل (Saiid Poera)، برامبورت باغل (Bramport) نصارى باغل (Nussari)، ماسورا باغل (Masura)، ونانبورا باغل (Naanpura)، اما الاثنا عشر باباً في السور الخارجي فتدعى: برجي درواجي (Borgu Derwaji)، كترخان درواجي (Katarckhan)، لال درواجي (Lal)، دهلي درواجي (Dehli)، سارا درواجي (Sara)، صلوات بورا (Salwat Pura) درواجي، مان(Man) درواجي، نصاري درواجي، جعفر علي درواجي، ماسور درواجي، عتوه (Attuwa) درواجي، توثيك (Tottik) درواجي.

التركية الكبيرة تعلوها مئذنتان أو أربع احياناً. أما سطوح المنازل الكبيرة فمستوية كبيوت شبه الجزيرة العربية، يتوسطها فناء مربع، في حين أن سطوح المنازل الاخرى مائلة. كما نجد في هذه المدينة مساحات فارغة وشوارع واسعة أكثر من القاهرة، لكنها قلما تكون مرصوفة كما في المدن الشرقية الاخرى، مما يجعلها مزعجة بسبب الغبار الذي يتصاعد منها. ولكل شارع رئيسي باب يغلق ليلاً لا سيّما في فترات المشاكل الداخلية التي تكثر هنا كما في العاصمة المصرية.

وتعتبر سورات المرفأ الاساسي لامبراطورية المغول كلها، لذا لا تشهد التجارة فيها ازدهاراً عظيماً، ويرسل تجارها سفنهم إلى الخليجين العربي والفارسي. والى الشواطىء الافريقية، وشاطىء مالابار وكورمندل وحتى إلى الصين. أما بالنسبة لكمية البضائع الكبيرة التي تحضّر في أقاليم ومدن الامبراطورية المختلفة، فتصل المدينة في قوافل كبيرة. ويقلّد السكان الاوروبيين فيما يتعلق ببناء السفن لكن نوعية سفنهم جيدة، ويجدون في الهند نفسها معظم المواد التي يحتاجونها وبأسعار معقولة، ويستخدمون لهذه الغاية خشباً لا تجرؤ الديدان على نخره لشدة سماكته، لذا تبقى سفنهم صالحة من ٨٠ إلى ٩٠ عاماً، وبالتالي فهي أفضل من سفننا(*). ويمكن شراء المؤن في هذه

(*) يسمي الهنود الخشب الذي يستعملونه لبناء سفنهم تاك (Tak)، وتستقدم افضل نوعية من غنداوي (Guindawie) وكالكوتا وبيسان (Calecut et Bassain). واعطاني ضابط الماني، كان في بومباي عندما بنيت التحصينات، المعلومات التالية حول انواع الخشب الاخرى المستخدمة في هذه البلاد: زيسفوي (Zisfow) ويستخدم للادوات المنزلية، ويطلق عليه الانكليز اسم الخشب الاسود، وينتج في كالكوتا.

(Bible) (الخشب التوراتي) وهو خشب رقيق، يستعمل في العربات، واذا ما امتلأت العربة بالماء لليلة واحدة، يصبح لونها اخضر، وبالتالي فإن قطعة خشب واحدة منه تفسد مستنقعاً بأكمله.

ايزنهولز (Eisenholz) (خشب الحديد) وهو خشب ثقيل اللون، لا يستخدمه سوى الخرّاطين.

(Het)، وقد يبلغ طول هذا الخشب ٣٠ الى ٤٠ قدماً، لكنه غير سميك، ويستعمل في صناعة صنارات الصيد.

اسانا(Assana) خشب اصفر يستخدمه الخرّاطون.

دمون (Dammon) يستخدم في بناء عربات الفلاحين المسماة هكري (Hakkris)

بندي (Bendi) ويستخدم ايضا في بناء الهكري، وينمو بكميات كبيرة على هذا الشاطىء.

سيوان(Siwan) وهو خشب خفيف، يستخدم للعربات الفاخرة والمحفات والالات الموسيقية الوترية.

تتار (Tattar) وهو خشب رقيق وسيىء النوعية، لا يستعمله الهنود الا للجدران التي تطيّن.

جوز الهند ويستخدم في البناء، لكن ينبغي الاحتفاظ به في مكان جاف والاّ فلا يصمد طويلاً. (ولهذه الشجرة منافع عدة، اذ تعطي شراباً منعشاً، ويمكن اكل ثمرتها، سيّما في الكاري وهو طبق لذيذ يقدمه الهنود فضلاً عن البيلاف (الارز المبخّر) (Pilau) الذي يحضره الاتراك والعرب. وتعطي القشرة صبغة سوداء تستخدم لطلي المنازل. وتستعمل الالياف المحيطة بالثمرة وبقشرة الشجرة في صنع الحبال وتغطي المنازل بأوراق هذه الشجرة كما تستعمل هذه الاوراق في صناعة السلال وادوات اخرى مفيدة)

المدينة بأسعار رخيصة، أما هواؤها فصحي، وينعم الجميع بحرية المعتقد فيها، وبما أن هذه البلاد لا تعرف الاستاذية، يتمتع كل شخص بحرية كسب رزقه بطريقة شريفة. زد على ذلك، أن الهندي الفقير سعيد في كوخه. فبالكاد يرتدي ثياباً، ولا يشرب سوى الماء ولا يأكل سوى خبز الذرة والزبدة ويعمل جاداً، فلا يستغرب أن تكون مدينة كسورات مكتظة حيث المواطن المجتهد يكدّ دائماً، ولا يفتقر التاجر للبضائع. لكن عدد سكانها ليس كبيراً كما يعتقد البعض، حتى أن الاوروبيين الذين أقاموا لسنوات يعتبرون أن عدد السكان يبلغ مليون نسمة، لكن إذا ما أحصيناهم أخشى ألاّ يتعدى عددهم الثلث.

يبلغ ارتفاع القطب في سورات، وفقاً لتقديراتي، ٢١°، ٢١َ ، وترتفع الحرارة في المدينة خلال شهر آذار/مارس فتصل في الايام الاكثر برودة إلى ٩٢° درجة على مقياس فهرنهايت، ووصلت في ٢٩ آذار/مارس وبسبب الرياح الشمالية إلى ٩٨°، في حين أن الحرارة في بومباي الواقعة على ٢°، ١٦َ ، لا تصل في شهر أيار/مايو إلاّ إلى ٩٣° كما ذكرت في الجزء الاول.

لم أتمكّن هنا من مراقبة حركة المدّ والجزر، لكن استناداً إلى معلومات وثيقة، عند أقصى مدّ، وعندما يكون القمر هلالاً أو بدراً، تبلغ المياه أقصى ارتفاع لها عند الساعة الثانية عند المرسى، وعند الساعة الرابعة قرب المدينة. أما الفرق بين أقصى مدّ وأدنى جزر فثمانية عشر قدماً قرب المرسى واربعة عشر قدماً قرب المدينة، ولا يدوم الجزر عادة قرب المدينة الا ثلاث ساعات في حين أن المدّ يستمر تسع ساعات. وتبقى مياه النهر هنا عذبة خلال ثمانية أشهر، وتصبح مالحة قليلة خلال الاشهر الاربعة الباقية، ويدعون أنهم لاحظوا أن المدّ يرتفع أثناء النهار خمسة أقدام أكثر منه أثناء الليل وذلك خلال تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الاول/ديسمبر كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير حين تعصف الرياح الشمالية، وأن المدّ يرتفع في الليل ستة أقدام أكثر منه أثناء النهار وذلك في الاشهر الاخرى. ويرتفع المدّ في خليج كمباي (Cambay) أكثر مما يرتفع في منطقة سورات، وأكّد لي تاجر، أقام لسنوات في كمباي أن السفن، عندما يكون القمر هلالاً أو بدراً سيّما في الربيع أو الخريف، تبدو في الجهة الاخرى للخليج وكأن قسماً منها يبحر من جهة والقسم الاخر من الجهة الاخرى، ويعود السبب على الارجح إلى المدّ القوي للغاية في هذا الخليج.

وتكثر في الثاني الارصفة الرملية، وسيصبح من الصعب في المستقبل انزال سفن جديدة فارغة بنيت في سورات إلى النهر. لكن منسوب المياه يرتفع احياناً، في موسم الامطار، ليبلغ ٢٨ قدماً

= الاراك (Areque) الذي ينمو كجوز الهند، لكنه ليس بسماكته، ويزرع من أجل ثمرته التي يأكلها الهنود بكثرة. ياك (Jak)، يعطي خشباً اصغر يستخدم في الادوات المنزلية، ويحمل ثمرة طيبة، يستعمل خشب تمر الهندي لصنع قدّة الشراع خاصة اما البامبو (الخيزران) فهو قصبة او أسلة مرونة.

قرب المدينة فتجرف الأرصفة الرملية ويمكن للسفينة المحملة عندها الوصول اليها. واذا ما فكر الحاكم باحتواء النهر ضمن حدوده بواسطة سدود، لاستفاد السكان من أرض صالحة للزراعة تفيض عليها المياه حالياً ولتخلص النهر من الارصفة وأضحى صالحاً للملاحة، لكن اهتمام الحاكم المسلم برعاياه لا يصل إلى هذا الحد.

خضعت سورات منذ سنوات للامبراطور المغولي، لكن منذ أن نهب نادر خان دلهي (Delhi)، لم يعد رجال الحكم في أقاليم بعيدة يهتمون بالمغول، وبقيت سورات خاضعة لهم بالاسم. سيطر حكام هذه المدينة على الحكم بالقوة أو بالحيلة، ثم جعلوا الامبراطور المغولي يثبتهم في منصبهم، كما يفعل الباشاوات في بغداد اذ يعينون انفسهم ثم يجبرون السلطان على تأكيد سلطتهم. كان للمغولي حاكمان في سورات مستقلين عن بعضهما كلياً، ولكل منهما جيشه الخاص الصغير. ويحكم احدهما في المدينة والآخر في القصر، وكان الاخير في الوقت نفسه قائد أسطول المغولي، ويتقاضى ايرادات كبيرة من بعض الأقاليم ليدفع لجيشه وللبحارة ولإبقاء اسطوله الصغير في حالة جيدة بغية مواجهة القراصنة. وسعى البلاط في دلهي إلى تعزيز الخلافات بين الحاكمين ليظلا خاضعين له، لكن تك بغ خان (Teck Beg Khan)، وهو حاكم المدينة، نجح في تعيين اخيه حاكماً للقصر عندما كان حكم دلهي ضعيفاً. واتحد الاخوان وأخذا يعتبران سورات وضواحيها ملكاً لهما، وجمعا ثروات ضخمة ولم يعودا يهتمان بأوامر المغولي.

توفي تك بغ خان في العام ١٧٤٦، ووزع الثروات الضخمة التي جمعها خلال فترة حكمه للمدينة بين أهله وخدمه. وهكذا، أصبح البعض منهم نافذين فطمعوا بالحكم، أو أخذوا يساندون أحد أقرباء معلمهم ضد الآخر. وفي العام ١٧٤٧ توفي أخوه حاكم القصر مخلفاً وراءه أرملة غاية في الثراء والطموح، فحاولت جعل صهرها حاكماً للقصر وحاكماً للمدينة أيضاً، مما أدى إلى حروب داخلية شارك فيها أعيان المدينة كلهم، فأخذ كل منهم يجمع الناس حوله ليسيطر على الحكم لنفسه أو لأحد أصدقائه. وراح هؤلاء الطغاة يهاجمون بعضهم البعض ويعلنون هذا أو ذاك حاكماً للمدينة أو للقصر، في هذه الاثناء، لم يرسل المغولي حاكماً آخر أو جيشاً ليثبت شخصاً ما في الحكم، وإن تمكن أحدهم من الحصول على فرمان من البلاط يعلنه حاكماً، لا يتورع الاخرون عن طرده من مركزه إن استطاعوا ذلك.

وعرفت الامم الاوروبية التي تتاجر في سورات كالهولنديين والانكليز نفوذاً واسعاً، وكان لكل منها جندها ومدافعها في المدينة للدفاع عن مصالحها في حال حصول شغب طارىء. وخلال الحرب الداخلية الطويلة، أحضر الاوروبيون المزيد من الجند والسلاح والذخيرة، كما أقاموا تحصينات في منازلهم وحدائقهم كأعيان البلاد. ورأى الاخيرون ضرورة اكتساب صداقة هؤلاء

التجار. وبما أنهم يدفعون أموالاً طائلة ويعدون بمكاسب عدة إن ساندوهم للوصول إلى الحكم، زودهم الاوروبيون بالذخائر وشاركوا معهم في القتال. وأرادت كل من الامم الاوروبية الاعتراف بالحاكم الذي يعدها بمكاسب اكثر، ولعل الاتفاق مع كل طرف نصّ على ألاّ تمنح الامم الاخرى الامتيازات التجارية والحرية نفسها.

كما طلب بعض هؤلاء المستبدين مساعدة الماراتيين، ونال هؤلاء مكاسب عديدة لأنهم اعتادوا أن يطالبوا من يصل إلى الحكم بتنفيذ وعود من جاؤوا لمناصرته وإلا فيهددونه بالحرب ويضطر للدفع لتجنب المواجهة معهم.

ومنذ ذاك الحين، يحصل الماراتيون على ثلث الرسوم التي تدفع في سورات، في حين كانوا يحصلون على الربع في ما مضى، ويبقى في الجمارك حالياً أحد ضباطهم لمراقبة المداخيل.

وفي خضّم هذه المشاكل الداخلية، عرفت التجارة ازدهاراً ملفتاً، فحين كانت الصراعات تنشب بين الطغاة، كان سكان المدينة يقفلون أبواب الشوارع الاخرى ويعودون إلى اعمالهم (كما فعل سكان القاهرة اثناء الحرب الاهلية بين البكوات).

ولم يتعرض البرجوازيون للنهب، وإن حصل ذلك أو شبّت النيران في منزل أحدهم، يتم التعويض عليه عادة.

أخيراً، طرد الحاكم الذي يسانده الانكليز من سوارت، ثم عاد في العام ١٧٥٨، ولم يألُ حماته، الذين ذكرتهم آنفاً، جهداً ولم يوفرّوا مالاً حتى أن الحاكم الموجود تنازل له تلقائياً عن الحكم. وكان الانكليز يسعون للسيطرة على القصر، فأرسلت حكومة بومباي في بداية العام ١٧٥٩ السيد سبنسر (أحد المستشارين، وهو رجل يحبه الاوروبيون والهنود على حد سواء) إلى سورات على رأس قوة عظيمة، ولزمهم وقت طويل للوصول بسفنهم إلى المدينة بسبب الارصفة الرملية في التابي.

ووصلوا المدينة، وأكّدوا لحاكمها أنه سيبقى في منصبه إن فتح للانكليز أبواب مدينته وإن لم يعيقهم في عملية الاستيلاء على القصر، فوافق على ذلك، واستسلم القصر بعد بضعة أيام من دون أن يقع الكثير من الضحايا.

في هذه الاثناء، لم يكن الانكليز ليربحوا الكثير إن اضطروا إلى صيانة القصر وإعالة الحامية اللازمة من مردود تجارتهم في سورات. وإن كانوا واثقين من صداقة الحاكم، وجدوا بين أعيان المدينة معارضين نافذين يرفضون الخضوع لسلطة أمة أوروبية.

وخشي التجار أن تتعرض مصالحهم للخطر على يد اعداء انكلترا لا سيّما الفرنسيين منهم، لذا بقي على السيد سبنسر وضع أمور عدة في نصابها بعد السيطرة على القصر، لكنه تخطى هذه العقبات كلها بفضل حذره ولطفه. أكّد للسكّان بأنهم لن يعتبروا رعايا انكليز، وأن الانكليز لم يسيطروا على القصر لمصلحتهم الخاصة إنما باسم المغولي، وقام برفع علم هذا الاخير على القصر. وذكّر أعيان المدينة بأن الاسياد الذين سيطروا على الحكم في السنوات الاخيرة، استخدموا الايرادات لمصلحتهم الخاصة في حين أنها مرصودة لصيانة الاسطول ولتغطية التجارة وبأن البحر يعجّ بالقراصنة. ووعد، من جهة أخرى، بأن الانكليز سيدافعون عن تجارتهم، إذا ما منحهم المغولي المردود المخصص لصيانة الاسطول والتحصينات ولتمويل الحامية. فسُر التجار بهذه الوعود، ولم يشكّوا في أن الانكليز التجار سيقضون على القراصنة في حين أن أسلافهم استخدموا الاموال التي جمعوها لزيادة عدد جيشهم للبقاء في الحكم.

وأرسل حاكم بومباي إلى الامبراطور في دلهي تفصيلاً عما حصل في سورات، وأورد أن المدينة عانت الأمرّين خلال هذه الحروب الداخلية، سيّما وأن الطغاة أهملوا الاسطول ومكّنوا القراصنة من مهاجمة سفن المدينة، وأن السكّان رجوا الانكليز أن يحموهم. وقد وقّع هذا الكتاب أعيان وتجّار عدة من المدينة، وطلب الانكليز من المغولي أن يعيّن مدير تجارتهم المقيم في سورات حاكماً للقصر وقائداً للأسطول، مما يعني أنهم يطالبون بالإيرادات المرتبطة بهذين المنصبين، وبما أن المغولي لم يكن قادراً على القضاء على بعض العصاة في المدينة، كان أمله بطرد الانكليز من القصر ضعيفاً، لا سيّما وأنّ هذا الاخير بعيد عنه وقريب من أهم مراكز الانكليز، فمنحهم ما طلبوه.

إذاً يتولى الانكليز، منذ ذاك الحين، منصب حاكم القصر في سورات، وقائد الاسطول تحت سيادة المغولي، ويحصلون على ثلث الرسوم وعلى مبالغ أخرى ضخمة تكفي لصيانة القصر واعالة الحامية اللازمة فضلاً عن العديد من المراكب الحربية التي تساعد تجارتهم. ولو أرادوا حكم البرجوازيين لتكبدوا إذن الكثير من العناء والتعب، لذا فإنهم يتركون هذه المهمة لحاكم آخر يخضع للمغولي بالاسم فقط، ويملك قواته الخاصة، لكن يرجع للانكليز ابقاؤه في منصبه أو خلعه وبالتالي عليه أن يحكم وفقاً لإرادتهم ويسمحون له بدخل كبير للغاية يمكّنه من العيش في بذخ وترف، لكنه يحدّون من امتيازاته كي لا يغدو ثرياً وذا نفوذ. ويحافظون بدقة على حقوق الحكّام السابقين، حتى أنه أثناء مسيرات الاعياد، حين يمارس السنة شعائرهم الدينية في ساحة خارج المدينة، يرافقهم انكليزي على ظهر جواده وسأورد في ما بعد مثلاً على ذلك.

ولم يعد يخشى التجار الكبار في سورات، وهم اصدقاء للانكليز، أن يحاول الحاكم الحصول

على مبالغ ضخمة منهم كما كان يحصل في السابق، لكنهم يبدون غير راضين من جهة أخرى عن الحكم السائد حالياً، اذ يضطرون مثلاً إلى الحصول على إذن مرور لسفنهم من مدير التجارة الانكليزية، وإن اراد الانكليز ارسال سفنهم نحو هذا المرفأ يهمهم ألاّ يسبقهم أحد اليه. ومن هنا، يقال إنه غالباً ما يتم حجز اذونات السفن الهندية حتى نهاية المنسن (Monson) وأن السفن لا يمكنها أن تصل إلى المرفأ في هذا الموسم. وصادفت سفينة من سورات في بومباي، كانت متوجهة إلى جدّة، لكنها عادت من سُقطره (Socatra)، وبقيت في المرفأ لبضعة أشهر بانتظار الفصل الذي تستطيع فيه أن تكمل رحلتها إلى الخليج العربي، مما يشكّل خسارة كبيرة للتجار. ووصلت المراكب الانكليزية، التي يقودها ربابنة أوروبيين، وبالتالي بحّارة أفضل من المسلمين، في الوقت الملائم إلى جدة وبالتالي نالوا أسعاراً جيدة لقاء بضائعهم.

ويأتي الهولنديون في المرتبة الثانية بعد الانكليز من حيث الحضور والنفوذ في سورات، ويمثلهم فيها مدير، وتاجر أول، وتجار، ومساعدو تجار، وعدد كبير من رجال الدين الاوروبيين، فضلاً عن الموظفين وبعض الجنود. لكن تجارتهم لم تعد بالحجم الذي كانت عليه، ويبدو أن أمورهم غير منظمة، انما لا يعود لي ابداء ملاحظات حول هذا الموضوع.

أما حال تجارة الفرنسيين (١٧٦٤) في هذه المدينة فأسوأ مما وصفه فراير (Freyer) قبل مئة عام(*). وإن لم أكن مخطئاً، لا يرفعون علماً فوق وكالتهم، وهو امتياز يتبجح به الاوروبيون هنا، ولم يتلق وكيلهم أو مديرهم أيّ إعانة منذ أن فقدوا بونديشري (Pondichery)، ولم يعد يتوفر لديه المال ليعيش عيشة بسيطة. كان الاب مدارد وهو راهب كبوشي من هذه الامة، ذكرته سابقاً، يعيش هنا جيداً بالنسبة لوضعه، ويحظى بمحبة الاوروبيين والشرقيين على حد سواء. ويقيم الكبوشيون في سورات منذ العام ١٦٣٨ والعام ١٦٧٦، وقد سجلوا كافة التغييرات المهمة في الحكم وبين الاوروبيين المقيمين هنا، وهي ملاحظات مختصرة، دونوها لاستعمالاتهم الخاصة ليتذكروا تاريخ هذا الحدث أو ذاك، لكنها بالتالي تفيد كل من يود معرفة التغييرات التي طرأت هنا منذ مئة عام وحتى اليوم.

إن تجارة البرتغاليين في سورات محدودة، ويمثلهم وكيل أو مدير لتجارتهم وهو يهودي من مواليد هامبورغ(**).

(*) ان مصالح الفرنسيين غنية بالرجال لا بالمال، يعيشون عيشة جيدة، يقترضون المال ويظهرون بمظهر لائق، نجد هنا رهباناً كبوشيين فرنسيين يعيشون في ديرهم ويحظون بتقدير الناس واحترامهم.

(**) منذ رحيلي، ارسل البرتغاليون الى سورات مديراً من أمتهم من مواليد غوا (Goa)، ويبدو ان تجارتهم مزدهرة اليوم في المدينة.

ولا تملك أية أمة أوروبية أخرى غير الانكليز، والهولنديين، والفرنسيين، والبرتغاليين وكالة لها في سورات. حين استولى الانكليز على القصر، كان هناك سفينة دانماركية تعمل في التجارة في المنطقة، ولم يكن التجار الانكليز يتمتعون بالنفوذ كاليوم، زد على ذلك أن قبطان هذه السفينة اعتاد أنّ يؤدي لهم خدمات عظام فتركوا له المكاسب التي يمكن أن ينالها. وبعد سنوات، وصلت المدينة سفينة سويدية، وحصلت على إذن من حاكم المدينة للتجارة لقاء بدل مالي معين. وبما أن السويديين يبيعون الحديد والنحاس بأسعار أرخص من أسعار الانكليز، نفدت حمولة سفينتهم، لكن حين استعدوا للرحيل إلى الصين، طالبهم الحاكم بمبلغ طائل قيمته مئة الف روبية (حوالي ٢/١ ٦٦٦٦٦ درهم) وأمر التاجر بعدم مغادرة المدينة وبالتالي عدم الابحار قبل دفع هذا المبلغ. ووقع السويدي في مأزق، اذ لم يكن بإمكانه طلب المساعدة من الانكليز، حتى انه كان مقتنعاً بأن هؤلاء الاخرين أعطوا الحاكم فكرة المطالبة بالمال، وظنّ أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو الطلب من قبطان السفينة أن يرفع المرساة ويكمل رحلته إلى الصين، وبقي هو في المدينة فاكتفى الحاكم بمبلغ ٢٠٠٠٠ روبية، وشكّل هذا الامر انذراً وتنبيهاً له بعدم العودة ثانية، ومنذ أن سيطر الانكليز على القصر، ابتزّ الحاكم بالطريقة نفسها ٩٠٠٠٠ روبية من الهولنديين وأجبرهم على ازالة مدافعهم كلها من سورات، باستثناء بعض القطع الخفيفة التي يستعملونها لاداء التحية. وهكذا، أخذ الانكليز يسيطرون تدريجياً على تجارة هذه المدينة، وفقدت الامم الاوروبية رغبتها بالسعي وراء الثروات فيها.

ويتبع الحاكم والموظفون المهمون الديانة الإسلامية، لكن يبدو أنهم لا يتقيدون بتعاليم دينهم كأمثالهم في مصر وتركيا، فعلى سبيل المثال يملك أحد الحكام الذين خلعوا من منصبهم، كلباً كبيراً يجلسه بجانبه ويلاعبه في حين أن الاتراك والعرب يعتبرون أن الكلب نجس لذا فهو ينجسهم ما ان يلمس ثيابهم، كما يشغّل الهنود المسلمون اموالهم بالفائدة، ويشربون الخمر علناً. ويتكلم الاعيان في الهند اللغة الفارسية ويستعملونها في مراسلاتهم، كما تعتبر لغة البلاط، في كافة الاقاليم الخاضعة لسلطة المسلمين. وتستخدم الطبقات الوسطى والدنيا الاحرف الهندية، فلا نجد بينهم من يتكلم الفارسية.

في ٢ نيسان/أبريل، وعند العاشرة مساء، أعلم الحاكم المدير الانكليزي، السيد هوجز، أن الهلال ظهر وطلب منه اعلان انتهاء شهر رمضان وبدء أيام عيد الفطر بطلقات من مدفع القصر. وتم ذلك في كافة الحصون كي يتمكن الشعب من التحضير للعيد، ولأنهم لا يعتمدون تقويماً ولا يترقب الجميع القمر أو يستعلم لدى القاضي الذي يتوجب عليه التنبه لهذه الامور وابلاغ الحاكم بها من الضروري اعلام العامة بانتهاء الصوم. وبما أن الانكليز يدّعون أنهم حكّام القصر باسم المغولي ويستفيدون من العائدات المرتبطة بذلك، كان بامكانهم أن يظهروا القليل من الاهتمام

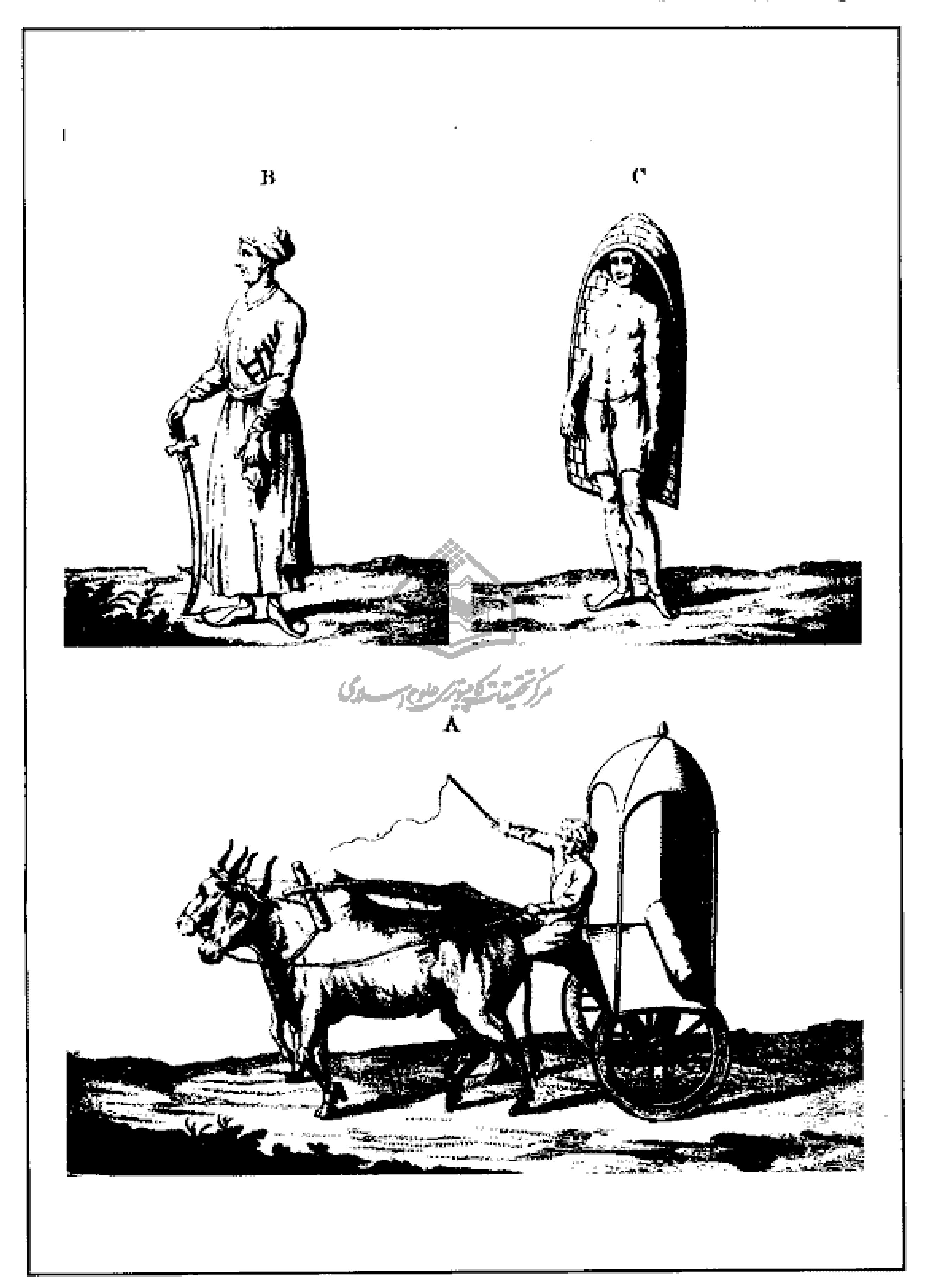
وابلاغ السكان المسلمين بأن اليوم الثاني هو يوم عيد، لكن السيد هوجز أبلغ الحاكم أن الوقت متأخر لإطلاق ضربات المدفع وأن كل شيء سيكون من جهته جاهزاً للعيد، أي إن تاجراً انكليزياً بصفته حاكم القصر، وفرقة من الجند سيرافقان المسيرة حتى مكان الصلاة خارج المدينة ثم يطلقون عدداً محدداً من طلقات المدفع. ولم أرَ المسيرة إلا عند عودتها واليكم النظام المتبع:

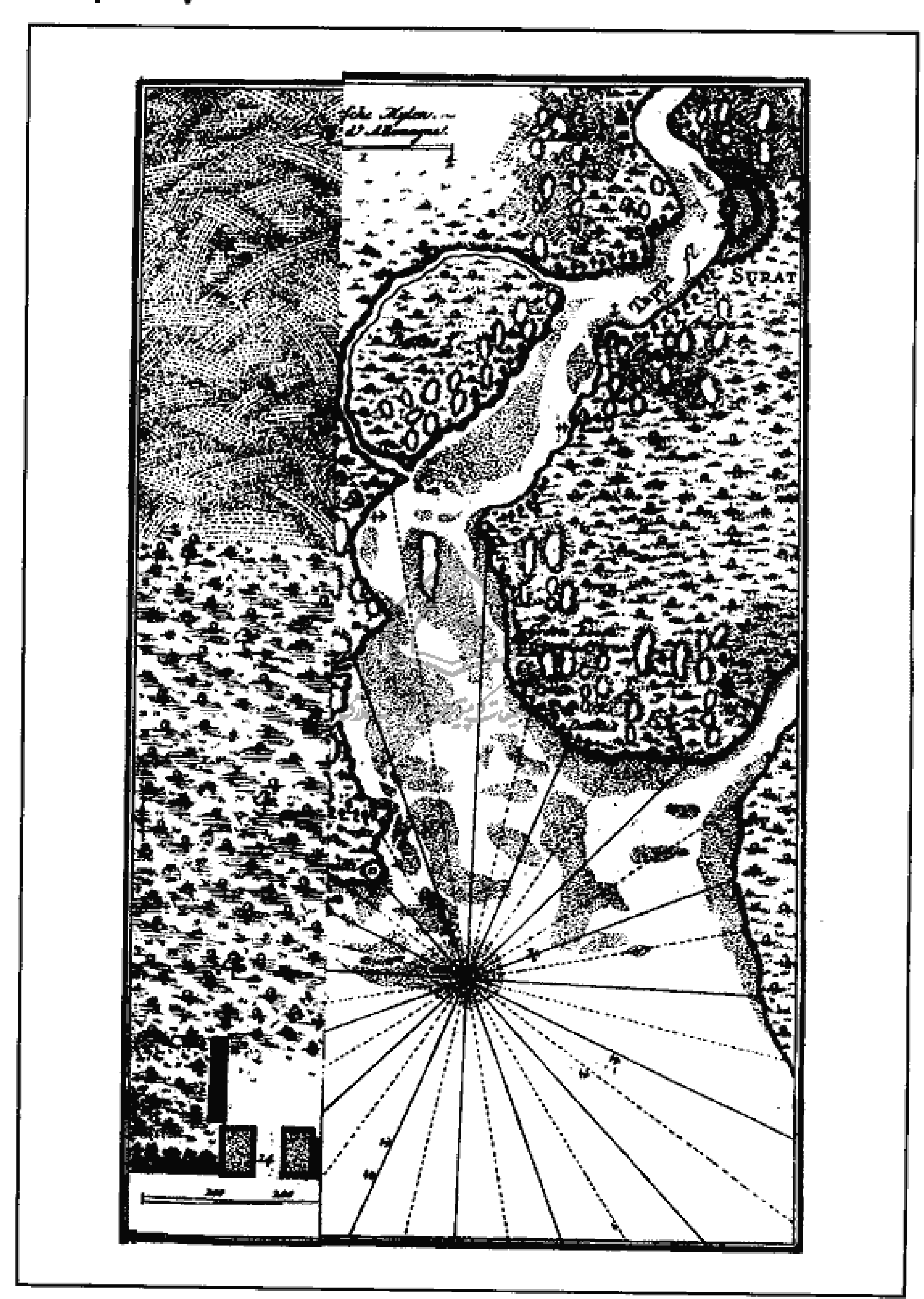
يرأس المسيرة عدد من البرجوازيين الذين يركبون عربات صغيرة وخفيفة بعجلتين، ونرى رسماً لها على اللوحة XII قرب الحرف «أ». يجلس السيد داخل العربة أو على الاصح فوقها متربعاً على وسادة، وتكون العربة مغطاة من الاعلى والخلف، وعادة ما يضعون ستائر حريرية من الجهات الثلاث الأخرى. ويجلس الحوذي على عريش عريض مصنوع من الخيزران، فيما يجر العربة ثوران كبيران، تنتهي قرونهما برأس من فضة أو من الشبهان. ولا تلائم هذه العربات المسافر الاوروبي وقد اشتكيت آنفاً من رحلتي من دوموس إلى سورات، لكن تلك التي سافرت فيها لم تكن حسنة الصنع اذ لم تتعد كونها صندوقاً كبيراً ينقل فيه الفلاحون المؤن إلى المدينة، وبما أننا كنا نرتدي ثياباً أوروبية لم يكن من السهل التربع فاضطررنا للجلوس قرب الحافة وازعجنا الغبار المتصاعد من الارض الجافة. ويجدها الهنود الهاكري التي يستعملونها للتنقل في المدن مريحة للغاية وهي كالعربات ذات العجلتين الاوروبية، لكن الثيران لا تسرع كالجياد. ويدفع هنا ٦٠٠ روبية (٤٠٠ درهم) لقاء زوج من الثيران البيضاء حتى أن اوروبيين في بومباي يستخدمونها احياناً لجرّ عرباتهم، ولهذه الثيران قطعة شحم كبيرة على ظهورها فوق القائمتين الامامتين.

وتلي العربات المسيرة بحد ذاتها التي يرأسها الموسيقيون وهم يحملون آلات موسيقية عسكرية تركية، ويحمل بعضهم ابواقاً يبلغ طولها ٥ إلى ٦ أقدام، وتصدر أصواتاً أشبه بصراخ الحيوانات. ولا أذكر إن كان هناك حاجب يعلن وصول الحاكم، لكني لا أشك في ذلك إذ علمت لاحقاً أنها العادة في سورات عندما يخرج الحاكم على صهوة جواده وحين يخرج بعض مدراء الوكالات الاوروبية في عرباتهم أو على جيادهم. فحين يخرج المدير الانكليزي مثلاً، يصرخ حاجبه باللغة الهندية «افسحوا الطريق، للسيد فلان قائد اسطول المغولي وحاكم قصره في سورات، مدير الشركة الانكليزية للهند الشرقية في المدينة، الخ»[*].

وتلي ستة مدافع صغيرة، وضابط مدفعية، وبعض المدفعيين مع اعلام صغيرة على ظهر فيل، ثم عدد من الاعيان على صهوة جيادهم العربية والفارسية الرائعة (نقش على بعض منها بالحنّة كثيران العربات)، ويسبق هؤلاء الاخيرين فرق من الجند وموسيقيون عسكريون.

(*) اتى كتاب الف ليلة وليلة في الليلة ٨٨ على ذكر تقاليد هندية مماثلة.


I
B
C
A


SURAT

ثم يأتي التاجر الانكليزي على فرسه، بصفته حاكماً للقصر، ويرتدي لباساً أوروبياً، يمشي إلى جانبيه خادمان يحملان مذبّتين، وامامه فرقة من الجند، تحمل اسلحة اوروبية في ما يحمل جند الحاكم بنادق بفتيل.

ونرى بعد ذلك بعض المحفّات الرائعة، التي يأمر الاعيان بحملها فارغة لإضفاء المزيد من الترف على المسيرة، ويستخدم الاوروبيون والاعيان بين الهنود هذه المحفّات لتنقل عوضاً عن العربات التي نعرفها في اوروبا. ونجد رسماً لها على اللوحة XIII، ويشار إلى المحفة الصيفية بالحرف «أ»، وتغطى عادة بستار كبير يقي من الشمس لكني لم أرسمه كي أظهر بوضوح التفاصيل الاخرى، ويتبين لنا أن المحفة ليست سوى سرير صغير مربوط بقصبة خيزران سميكة، يحمله أربعة رجال من الطرفين، ويعلوه أزرار كبيرة مغطاة بالفضة. وتصنع الارجل من المعدن نفسه فضلاً عن قبضة عقدة الحرير الرائعة، ويغطي الفراش والوسادة قماش حريري رائع، باختصار، نجد محفات تكلف اصحابها مئات أو الآف الدراهم، ولن يتفاجأ القارىء مما تقدّم لو علم أن كلفة قصبة الخيزران في محفة حاكم بومباي بلغت الف روبية (١/٢ ٦٦٦ درهم) بسبب سماكتها وانحنائها الرائع(*). في موسم الامطار، تغطى هذه المحفّات بسقف مصنوع من أوراق شجر جوز الهند، المبطّن بالقماش، (الصورة ب). ويرفع كلياً من احدى الجهات عندما يستلقي فيها أحدهم، وللمحفة نافذة من كل جهة تسمح بتنشق الهواء ورؤية المارة. وتشبه محفات النساء الهنديات الخزائن المربعة، وتحمل بعصيان مستقيمة، وهي قبيحة للغاية فلا تستحق ان نذكرها أو أن نصفها، فضلاً عن ذلك، لم تشارك في هذه المسيرة محفات للشتاء أو للنساء.

ثم يتبع المحفات خدم الحاكم وبعض الاعيان فضلاً عن الجنود والموسيقيين، وأخيراً يتقدم الحاكم نفسه على ظهر فيل ضخم نُقش عليه بالحنّة، ويتربع الحاكم على مقعد أو عرش رائع تظلله قبّة قائمة على أربعة أعمدة، ويجلس أمامه ووراءه خدم يحركون المذبّات، فيما يجلس السائق على عنق الفيل. وينثر الحاكم من الجهتين أزهار الفضة (كما تسمى هناك) على الشعب، لكن هذا السخاء ليس بعظيم، كما يخيل للبعض، اذ إن هذه الازهار ليست سوى قطع صغيرة من الفضة المسكوكة حزّت اطرافها ثم طويت. ويلي الحاكم فيل غير محمل، وآخر مع طبّال ليختم المسيرة جمل هزيل جداً. ما إن تنتهي المسيرة، حتى يتوجه كل سني الى منزله ليتناول الطعام.

(*) يجلس هذا الحاكم على كرسي في محفته ليتميز عن غيره من الاوروبيين والهنود الذين يضطجعون فيها. لكني لا أعتقد ان الذي يجلس فيها يحمل براحة وسهولة اكثر من الذي ينام.

ويتمتع الشيعة بحرية تامة في بومباي وفي سورات حتى أنهم يحتفلون بذكرى الحسين، وينظمون مسيرات عامة، وهذا ما لم يكن ليسمح به في مدن تركيا وفي مدن شبه الجزيرة العربية.

نجد في سورات عدداً كبيراً من الهنود من طبقة البراهمانيين، ويعمل البنيان كجباة للمدينة وملتزمي ضرائب ومكاسين لدى المسلمين لأنهم خبراء بالحساب ماهرين ورجال اقتصاد مجتهدين. وولدوا، اذا صحّ التعبير، تجاراً، وتراهم يسيطرون على تجارة الهند، فما من أمة اجنبية إلاّ وتستخدمهم كوسطاء، كما أنّ التجار هنا راضون عن عملهم أكثر من رضا تجار القسطنطينية والقاهرة على وسطائهم من اليهود. وغالباً ما يسلم الاوروبي أعماله وأمواله لأحد البنيان، ونسمع غالباً أمثلة عن وفاء هؤلاء وتفانيهم مما يثير العجب.

وبالرغم من أن التجار الهنود يملكون كميات ضخمة من الذهب، تراهم يرتدون ثياباً بسيطة من القطن الابيض (وفقاً للذوق الاوروبي). ويلبسون سراويل أو أحياناً يكتفون بقطعة قماش كبيرة تتدلى نحو الاسفل وتربط حول الردفين ويضعون فوقها لباساً طويلاً، ضيقاً من الاعلى وواسعاً بطيّات من الأسفل كتنانير النساء الاوروبيات، راجعوا الصورة XII. ويتميز هذا اللباس بأكمام طويلة للغاية لكنها ضيقة ومقلوبة نحو اليد، ويتمنطقون بحزام حول خصرهم، أما الخفّ فكبير ومرفوع الطرف كالمزلاج عندنا. ويضعون في آذانهم اقراطاً ذهبية، كما يضع التجار الاثرياء لؤلؤة حقيقية كبيرة في آذانهم. ويختلف شكل عمامتهم وسكينهم الذي يضعونه في الحزام. وباختصار يختلف لباسهم كله عن لباس العرب والاتراك والفرس(*)، لكنه يلائم طقسهم. ويعيش الهنود الفقراء ككافة الفقراء في البلاد الحارة أيّ إنهم شبه عراة، يكتفون بحزام أو أحياناً بحبل حول خصرهم عليه قطعة قماش تمرّ بين أفخاذهم، كأولئك الذين يحملون المحفة «أ» على اللوحة XIII، مع اختلاف بسيط هو أن هؤلاء يعتمرون قلنسوة صغيرة مميزة أشبه بحلة الخدم(**). ويعتمر عامّة الهنود عمامة، وعندما تمطر يلبسون معطفاً من أوراق النخيل وأوراق جوز الهند على الشكل «ج» على اللوحة XII، ولا بد أنه لباس الهنود الذي وصفه هيرودوتوس في كتابه الثالث، الفصل ٩٣.

وتضع النساء الهنديات من العامة، قطعة قماش كبيرة مضلعة بالاحمر حول اوراكهن، ويرفعن الطرف عالياً بين الفخذين فيصبح اللباس أشبه بسروال قصير وواسع، ويغطين أجسادهن ورؤوسهن بقطعة قماش عريضة. إن ثديي المرأة الهندية ليسا طويلين ومتهدلين كاثداء المسلمات، إذ ترفعهما

(*) راجعوا الجزء الأول ووصف شبه الجزيرة العربية.

(**) تتفاجأ الاوروبيات اللواتي يأتين الى الهند، اولاً برؤية هؤلاء الرجال العراة، ثم لا يلبثن ان يعتدن على رؤيتهم يحملونهن. كما توكلن اليهم مهام عدة في المنازل ومنها عملية تنظيفها.

في ما يشبه القراب من الحجم المناسب في صديرية صغيرة ذات أكمام قصيرة لا تغطي سوى الصدر. ويبقي هذا اللباس الشديين في حالة جيدة حتى أن العديد من الاوروبيات اللواتي يعشن في الهند، يحصلن عليه كما يضطررن لتقليد الهنديات في ما يتعلق بالنظافة كي لا يفقدن حب أزواجهن. وتعمل الهنديات باجتهاد كأزواجهن، ورأيت العديد منهن في بومباي، وهن يحملن الحطب فيكسبن قوتهن بصعوبة. لكنهن يضعن الكثير من الحلي من ذهب وفضة وأحجار كريمة، وهي حلي سيستفيد منها اولادهن أو احفادهن. ويضعن مثلاً خاتماً يحمل حجراً كريماً في انوفهن، وآخر في آذانهن، وخواتم في أصابع ايديهن وأقدامهن، فضلاً عن أساور في معاصمهن وارجلهن، وإذا خرجت امرأة مسلمة، تجدها محجبة كلياً، كنساء شبه الجزيرة وتركيا، نساء لا يتجرأن على كشف وجوههن وحتى أيديهن امام الأجانب، فلا يمكنهن بالتالي كسب أي شيء خارج منازلهن.

لم أحضر اجتماعاً للهنود خلال ايام أعيادهم إلاّ مرّة واحدة وذلك في شبه الجزيرة العربية. كان هناك حوالي ١٢ بنيانياً متحلقين، يحمل كل منهم طبقين من المعدن وطبل صغير، وبعد أن يغني أحدهم مقطعاً باللغة الهندية، يردد الآخرون الكلمات نفسها وهم يضربون على آلاتهم. ورافقني في ذاك اليوم أحد المسلمين، ولاحظت أن حضورنا غير مرغوب به بين البنيان، فغادرت المكان بعد أقل من ربع ساعة كي لا أعكر عليهم صفو تعبّدهم.

لم أتكمن من معرفة كافة المهام التي يتوجب على البراهماني القيام بها بصفته رجل دين، لكن حين يولد طفل هندوسي، يجب أن يعرف البراهماني واستناداً إلى قواعد علم الفلك، ما اذا كان قد ولد في ساعة سعيدة أو ساعة تعيسة، وبعد ذلك، يعلّق على أكتاف الطفل حبلاً رفيعاً وهو يعتبر علامة امته المميزة ويحمله مدى العمر. ويبدو أن هذه العادة قديمة للغاية، إذ نلاحظ أن العديد من تماثيل معبد جزيرة الفيل يحمل حبلاً كهذا على كتفيه. واذا ما أراد بنياني تزويج ابنه، وهذا ما يفكر به حين يبلغ الولد سن السادسة أو الثامنة، يجب أن يحدد أحد البراهمانيين الزمن الذي ينبغي أن يبحث فيه الاب عن العروس فضلاً عن موعد الزواج، في هذه الاثناء يبقى الاولاد في منزل أهلهم حتى سن البلوغ، كما يتوجب على البراهمانيين تحديد أيام الاعياد واعلام الشعب مسبقاً بذلك(*).

يضطر كل بنياني بعد أن يغتسل صباحاً، إلى الطلب من أحد البراهمانيين وضع نوع من الختم على جبينه، وتقع هذه المهمة على عاتق كهنتهم العاديين، ورأيت يوماً، مجموعة جالسة قرب النهر

(*) تحدثت سابقاً عن ضلوع البرهمانيين في علم الفلك وفي التنبؤات وذلك في وصف شبه الجزيرة العربية كما ورد ذكر ذلك آنفاً في هذا الكتاب.

على مقربة من القصر، حيث تأتي النساء والفتيات للاغتسال والصلاة عند الصباح. وتعطي كل منهن الثياب النظيفة لأحد الكهنة، ثم ينزلن إلى النهر، بعدها يبدلن ملابسهن الرطبة ويرتدين الملابس الجافة على الشاطىء، ويقمن بذلك برشاقة وسرعة وحشمة حتى أن المتنبه لا يرى الاجزاء التي يقضي الاحتشام بسترها. ويضع البراهماني اصبعه في صباغ أحمر ويطبع نوعاً من الختم على جبين الفتاة فتثبته قليلاً وإلاّ صبغ جبينها كله باللون الاحمر في لحظات. ثم يأخذ الشخص المختوم أو المطهر علبة الصباغ ويؤدي صلاة قصيرة، ويعطي الكاهن حفنة من الارز أو أكثر، ويعود إلى منزله حاملاً ثيابه المبللة. وتحمل بعضهن القليل من ماء النهر معهن ليسقين شجرتهن المفضلة أو لاستعمالات أخرى.

ولا يملك الهنود في سورات مستشفى للناس، انما مصحاً كبيراً للحيوانات، فحين يعطيهم شخص من ديانة أخرى جواداً عجوزاً أو مريضاً، أو بقرة أو أي حيوان آخر يعتنون به حتى ينفق. ورأيت هناك سلحفاة كبيرة، عرجاء وعمياء ويعتقد أن عمرها يفوق المئة وخمس وعشرين سنة(*)، كما وجدت كمية من الحيوانات ذوات القرون، والنعاج، والارانب والدجاج الخ وكلها حيوانات كسيحة، يعمل طبيب واحد على العناية بها.

ونجد بين الهنود أناساً يختارون تعذيب أنفسهم بغية كسب رضا الله ومحبته، ويقال إن بعضهم يطلبون أن يدفنوا أحياء ووجوههم نحو الاسفل. واختار أحدهم أن يعيش ٢٠ عاماً في قفص في الهواء الطلق، مكتف اليدين وهو يرفعهما نحو الاعلى، ثم أن ينقل في ما بعد إلى المعبد في دلهي ليقطع رأسه. وبقي بالفعل لسنوات في القفص أمام حديقة خارج سورات، لكن المنية وافته قبل وصولي إلى المدينة وقبل مرور العشرين عاماً المذكورين. وبما أنه لم يكن يتحرك، عقدت اعضاءه في الوضعية التي اخذها، ولم يتلفظ بكلمة واحدة في السنوات الاخيرة، وبقي ينظر نحو الاسفل أمامه وعيناه لا تفارقان نقطة معينة، ولم يقص شعره أو أظافره خلال المدة التي قضاها في القفص لذا يمكن أن نتخيل منظره المرعب بسهولة. ولم ينقصه يوماً الخدم الذين ظنوا أنهم يكتسبون بعض القداسة من جراء الخدمات التي يقدمونها لهذا القديس المزعوم أو الذين اختاروا أن يعيشوا من الصدقات الكثيرة التي يحضرها الناس له. ونذر شخص آخر أن تبقى ذراعه دائماً مرفوعة نحو الاعلى، ويقال إن هذا ما فعله لسنوات عدة، وظن آخر أنه يظهر ورعه لله إن حمل سلسلة غليظة تنتهي بحجر. ويقال إن امرأة اعتادت تدريجياً على الصوم، حتى أنها لم تتناول خلال ٤٠ يوماً سوى بعض الماء العذب يومياً.

(*) في قصر بومباي سلحفاة يقال ان الانكليز وجدوها هناك حين استولوا على الجزيرة وطردوا البرتغاليين منها.

باختصار، إن صوم الرهبان المسيحيين وتقشّفهم وإماتة الجسد عندهم ليست سوى نقطة من بحر العقوبات التي يفرضها الهنود على أنفسهم.

ونجد بين الهندوس أيضاً رهبانيتين لقدّيسين متسولين أو حجاج. يطلق عليهم اسم بارغي وغيساين (Bargus et Gusseins)، وهم اعداء، يسافرون دوماً مسلحين وضمن مجموعات كبيرة احياناً، وحين يلتقون في مكان ما تقع معارك دامية بينهم. وخيّم منذ سنوات عدد كبير منهم لأشهر قرب سورات، وبدا الحاكم خائفاً منهم، فلم يسمح يومياً الا لعدد قليل منهم بدخول المدينة لشراء المؤن والحاجيات.

كما لا تخلو المدينة من دراويش مسلمين، يحلو لهم أن يجلسوا قرب حفرة أو تحت شجرة، ويجعلون قربهم جراراً كبيرة تملأها العجائز بالماء بغية تكريم الله. ولا يبخل هؤلاء بالماء، كما يباركون المارّة ويدعون للاوروبيين والمسلمين وغيرهم على حدّ سواء. لكنهم في الوقت نفسه متسولون وقحون، يجلسون احياناً أمام منزل ما، ويرفضون المغادرة حتى يدفع لهم أهل البيت المبلغ الذي يطلبونه أو المبلغ الذي يتفقون عليه معهم. ولا تتدخل الشرطة في أمورهم حتى يضطر الناس إلى تهدئتهم بأي طريقة ليخلصوا من صراخهم وطلباتهم.

ونجد في سورات عدداً كبيراً من الفرس، وهم تجار ماهرون، وحرفيون بارعون وخدّام جيّدون، كما يقيم في المدينة بعض الأرمن والجيورجيين واليهود، فضلاً عن العديد من الكاثوليك الهنود ويسمّى هؤلاء برتغاليون، ويجب على البرتغاليين القادمين من اوروبا تعلّم لغتهم السيئة لأنها المستعملة في الهند، شأنها في ذلك شأن الايطالية العامية التي يستخدمها الاوروبيون في الشرق.

يبدأ المسلمون في سورات يومهم عند غياب الشمس كالعرب والاتراك، لكنهم لا يحسبونه بالساعات، بل يستخدمون طريقة سكان البلاد القدامى أي البوار، (Beâr) والغاري (Garri) والبول (Poll) والويبول (Wipol)، ويقسمون الليل والنهار إلى ٧ بوار أو ٦٠ غاري، والغاري إلى ٦٠ بول، والبول إلى ٦٠ ويبول. لتسجيل وقت الغاري، يستخدم الهنود ساعة مائية(*) وهي كناية عن طاس من النحاس دائرية القاعدة على شكل أقداحنا الصغيرة، وفي قعرها ثقب تدخل منه المياه بقوة. ولاحظت أن المياه ملأتها خلال ٣ دقائق، وفقاً لساعاتي، ثم غرقت الطاسة. لو كانت

(*) تستخدم هذه الساعة المائية في سيام ايضاً. رحلة اوفنغتون الجزء الاول ص ٢٩. اذكر اني قرأت ان قدامى الفرس يضعون طبقاً على الماء، فلا يغرق إلاّ بعد مرور ٣ ساعات، ويعلن الوقت عندها بالطبول والابواق. يبدو مما تقدم انهم يحتسبون الوقت بالبوار ايضاً كما يفعل الهنود اليوم. كما يبدو ان البراهمانيين وحدهم يستخدمون البول والويبول في حساباتهم الفلكية.

الستون غاري تعادل ٢٤ ساعة، ما كان يجب أن تغرق الطاس إلا بعد ٢٤ دقيقة، لكن تبيّن من التجربة أن مراقب هذه الساعات لا ينتبه إلى وضع الطاس على الماء أولاً والى أن الثقب الذي تدخل منه الماء يكون كبيراً احياناً. إن جرس الهنود عبارة عن قطعة نحاس مسطحة سميكة ومستديرة، يبلغ قطرها حوالي قدمين ونصف. يعلق هذا الجرس، وعند كل غاري أي كل ما لمست الساعة المائية قعر الماء يضرب بمطرقة خشبية.

إذا عادلت ٨ بوار ٦٠ غاري، يساوي كل بوار ٧ غاري و ٣/٢ الغاري، لكن هذه الحسابات لا تتبع بدقة في الحساب المدني، نعتبر أن أول وثالث بوار يساويان ٧ غاري، والثاني والرابع يساويان ٨ غاري. حيث يمرّ بوار بأكمله، ويضرب السبعة أو الثمانية غاري، يضرب بعدها ببطء عدد البوار، لكن لا يتعدى ذلك الاربعة، كما لا تدق أجراسنا سوى الثانية عشرة. ويبدأ النهار ببوار، وفي سورات يعد ٣٢ غاري في أطول يوم و٢٨ في أقصر يوم.

رأيت هذه الساعات المائية، وهذه الاجراس في منزل حاكم مخلوع، حيث تكثر الساعات على أنواعها، وقد تمّ الاحتفاظ بها على سبيل العادة أو للترف اذ قيل لي إن الاعيان يكلّفون الخدم بحمل هذه الاجراس أمامهم في المسيرات، لكنهم يستخدمون الساعات الرملية عوضاً عن الساعات المائية. وقلما نجد هنا ساعات تعلو الابراج كما في تركيا وشبه الجزيرة العربية.

وتلفت الانتباه، من بين حدائق سورات، تلك التي أمر بزرعها وبنائها تك بغ خان (ذكرته سابقاً)، والتي كلفته ٥ لاك روبية (حوالي ٣٣٣٠٠٠ درهم). نجد من بين أبنية هذه الحديقة المديدة، الكثير من الغرف الكبيرة المفتوحة من احدى الجهات يعلوها سقف كبير يضفي مزيداً من الفيء عليها، كما نجد حمامات رائعة، وشلال وبحيرات عدة تتصاعد منها المياه في نوافير، وهذا ما يتلاءم والمناخ. لكن الدرب المؤدي من المدخل الرئيسي إلى المبنى الاساسي ضيق للغاية ومتعرج تكثر على جوانبه الابواب حتى أن المرء يمكن أن يضيع في وضح النهار، وينطبق الامر نفسه على الممرات الاخرى بين الابنية، ويعود السبب إلى أن سيّد القصر يخشى الهجمات المفاجئة. وتتميز الدروب في الحديقة والعديد من السهول بأنها مرصوفة، لكن هذا البناء الرائع وهذه الحديقة الغنّاء لا يوليان العناية اللازمة، لأن المسلمين هنا كما في تركيا وفي شبه الجزيرة العربية يفضلون بناء قصور كبيرة ليخلّدوا اسماءهم ويرفضون صرف المال لصيانة بناء شيّده شخص آخر.

رسمت خارطة لأجزاء هذه الحديقة الاساسية على اللوحة XIV، لاعطاء القارىء فكرة عن كيفية تنسيقها: ١) المبنى الرئيسي المؤلف من ثلاثة طوابق مع شرفة في الأعلى. ٢) شرفة كبيرة على سور الحديقة. ٣) الأجنحة المؤلفة من طابق واحد، مع ديوان مفتوح لكل منها وشقق صغيرة

عدة. ٤) خزانات مياه كبيرة وصغيرة مع نوافير. ٥) دروب ومساحات مرصوفة بالزجاج. ٦) مركز الحرس الداخلي في اسفل المبنى وفوقه غرف عادية. ٧) حريم مقفل أو منازل لزوجتي المالك مع حدائق ونوافير ماء، وذلك في مكان أعلى من الحديقة الرئيسة، كي لا يتمكن أحد من رؤية ما في الداخل. ويتم تجهيز هذه الاماكن بطريقة تجعل كل زوجة مستقلة عن الاخرى وتتوفر لديها كل وسائل الراحة ويمكنها أن تستخدم العديد من الخدم والحشم٨) مكان اقامة الزوجة المفضلة على الارجح، وفيه حمام رائع مع نوافذ زجاجية مصقولة كالمرآة. اعتاد الحاكم العجوز التوجه غالباً إلى هذا الحمام لتحيط به نساء جميلات عاريات يضطررن إلى بذل أقصى جهدهن لإثارة اهتمامه. ٩) بناء من طبقتين، فيه دواوين مفتوحة ومكاتب عدة صغيرة. ١٠) بناء متواضع، فيه دواوين عدة مفتوحة، يمكن استخدامه كحريم.

ونجد من جهتي سور الحديقة شققاً صغيرة ملاصقة له مخصصة لخادمات وعبيد الزوجة التي يجعلها السيد تقيم في هذا المبنى المنفرد، ١١) مبنى واسع مؤلف من طبقة واحدة، فيه دواوين عدة مفتوحة وحمامات وشقق صغيرة، وقد اعتاد تلك بغ خان استقبال ضيوفه وعقد اجتماعاته فيه. ١٢) مبانٍ صغيرة قرب شلال. ١٣) حائطان مثقوبان على شكل قوس. ١٤) باب عظيم، مع اماكن اقامة عدة للحرس، ويقع هذا الباب خارج الحديقة، اذ لا نجد في سور هذه الاخيرة الا ابواباً صغيرة. ١٥) ثلاثة آبار، تستخرج منها المياه بآلة تعمل على المياه على شكل ناعورة(*)، ثم تجمع هذه المياه في خزانات وتجر منها إلى الينابيع والنوافير.

وتعتبر حديقة الهولنديين أجمل حديقة بين تلك التي زرعها الاوروبيون، وتتميز بموقعها قرب نهر تابي. وللاوروبيين في سورات مقبرة خاصة، فيها بعض الاضرحة التي تستحق الزيارة والاهتمام، أما أكبر كنيسة في مدفن الانكليز فعبارة عن مبنى يبلغ علوه ٤٠ قدماً ينتهي بقبة جميلة للغاية وابراج على الزاويتين. وقد دفن فيها الاخوان كريستوف وجورج اوكسندن، وتوفي الاول في سورات في العام ١٦٥٩، والثاني، وكان حاكماً لبومباي، في العام ١٦٦٩. ويعود أبهى قبر في مدافن الهولنديين لهنري ادريان بارون رهدن في دراكنشتين، وقد ارسلته الشركة الهولندية للهند الشرقية إلى سورات بغية مراقبة سير أعمال وكالتها وموظفيها، لكنه لقي مصير الذين اتوا قبله في المهمة نفسها، فتوفي في العام ١٦٩٧، وهو في طريقه من باتافيا إلى سورات ودفن في المدينة الاخيرة في مأتم مهيب.

وكانت مدة اقامتي في المدينة قصيرة فلم تسمح لي برسم خارطتها، فضلاً عن أن هذا العمل

(*) راجعوا الوصف في الجزء الاول، فضلاً عن اللوحة XV الصورة ١.

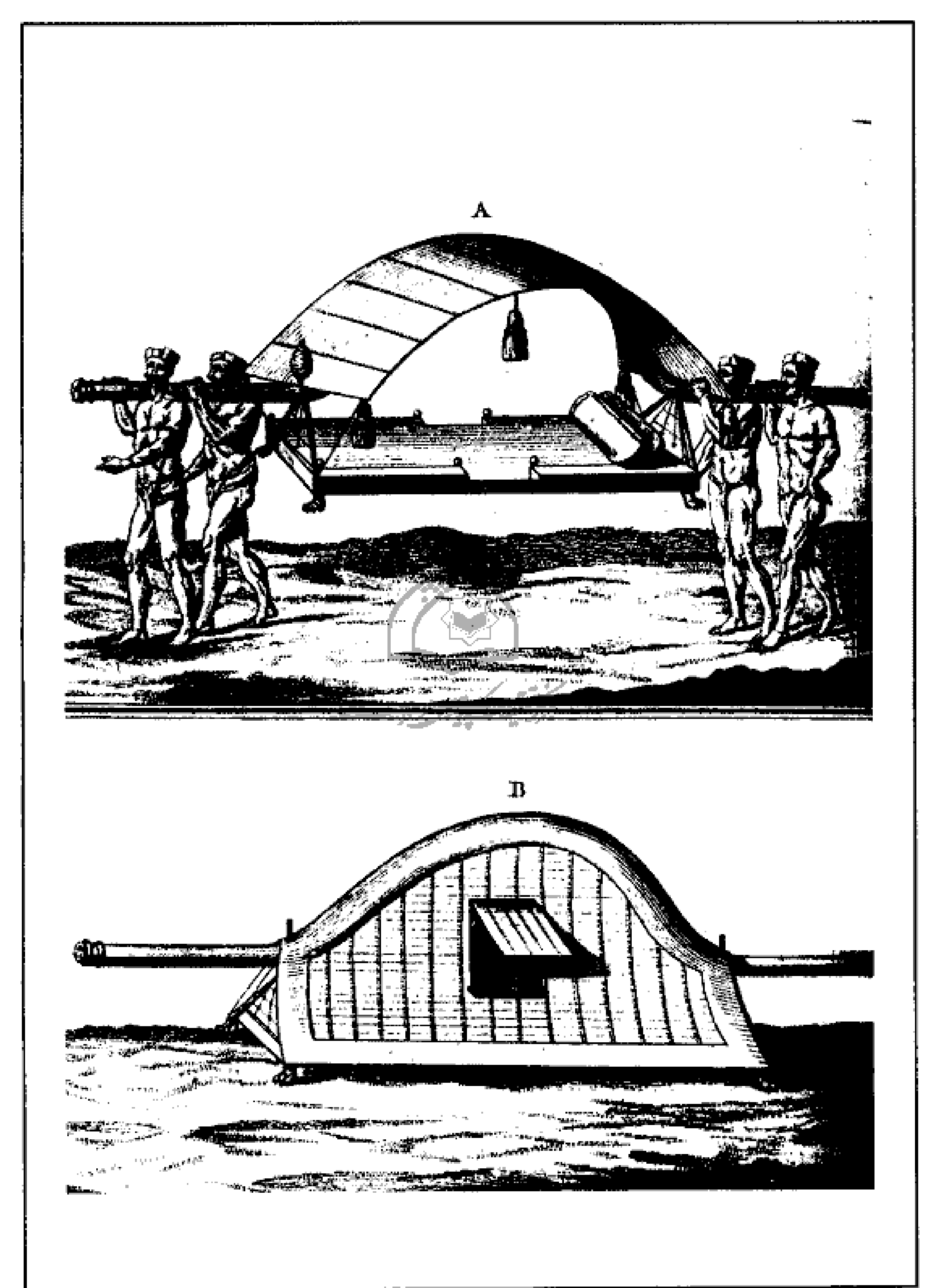
أخطر في الهند بين الاوروبيين منه بين الاتراك والعرب، ولم أشأ أن يشك بي الانكليز الذين تعاملوا معي بلياقة وأدب إن شاهدوني أرسم ممتلكاتهم(*). وتلقيت خارطة لمصب التابي، رسمها انكليزي منذ سنوات، صحّح فيها بحار هولندي أقام لسنوات في سورات الموقع الحالي للأرصفة الرملية، وقد طبقت هذه الخارطة على اللوحة XIV لأعطي القارىء فكرة دقيقة عن هذه المدينة.

العودة من سورات إلى بومباي

في ٨ نيسان/أبريل، غادرت سورات لأعود إلى بومباي على متن السفينة نفسها التي قدمت بها. واتفقنا على المغادرة باكراً، لكننا لم نترك المدينة الا في الساعة العاشرة. ولم نبلغ السفينة الا في الثالثة بعد منتصف الليل، ولم أكن مستعداً لرحلة كهذه أثناء الليل في مركب مفتوح فأصبت بزكام شديد. وغادر جايمس ماسات، قبطان سفينتنا في سورات، في اليوم التالي عند الخامسة صباحاً، فوصل على متن السفينة في الواحدة بعد الظهر، وأبحر مركب صغير آخر بعد ساعة ولم يبلغ السفينة الا في العاشرة وفي الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر، نستنتج من ذلك، أن الرياح وحركة الموج يمكن أن تعيق المسافرين فضلاً عن أن سفينتنا كانت ترسو بعيداً عن اليابسة.

في ١١ نيسان/أبريل، أبحرنا مع حوالي خمسين مركباً صغيراً، اجتمعت لتصل إلى بومباي في حمانا. في ١٢ من الشهر نفسه، صادفنا بعض القراصنة، أرادوا الاقتراب من موكبنا فتجمعت المراكب الصغيرة حول سفينتنا، وأطلق القبطان بعض القذائف المدفعية لكنهم لم يكترثوا للأمر حتى أصابتهم احدى القذائف. وابتعد القراصنة لكنهم لم يختفوا كلياً، مما جعلنا نخشى أن يعاودوا الاقتراب منّا ليلاً لأنهم يستغلون الظلمة ليهاجموا عادة من جميع الجهات، وحين تطلق السفينة الانكليزية النار من احدى الجهات يخطفون المراكب الصغيرة من الجهة الاخرى. ولم يجسروا على الاقتراب منا، فوصلنا بومباي في ١٣ نيسان/أبريل.

(*) اتقيد حلاّق خلال الحرب الاخيرة مع فرنسيين آخرين الى بومباي كسجناء حرب، وأكد لي ضابط انكليزي انّ الاول لا يجيد الرسم ابداً. لكنه حلّ رزمة فيها مجمعات للشمر وقلم على السور، فاتهم بالتجسس ونفي الى جزيرة القديسة هيلانة. قدم فتى الى بومباي، حين كنت في المدينة وباع مركبه للانكليز واخذ ينفق ماله، وكان يتبجح بقدرته على رسم خارطة التحصينات بسهولة، ولعله قال انه لا يتجرأ لهذا السبب على الخروج من غرفته الواقعة في منزل عال قرب السور. وتلقى صاحب المنزل الامر بطرد الفتى من منزله، لكنه لم يمتنع من التنزه اينما شاء على السور، ولعل الحاكم يجهل انه يمكنه رسم الخارطة بسهولة اكبر مما لو بقي في منزل عال حيث لا يرى سوى المدينة وجزء من السور، لكن بشكل عام، لا يشكل هذا الرجل ايّ خطر على الانكليز. وعلمت في المخا، ان الهولنديين حكموا على تاجر عربي من اليمن بسنة سجن لأنه قاس طول مدفع كبير وسماكته.


A
B

عند عودتي، كان الانكليز ينتظرون سفينتين لإرسالهما إلى اوروبا قبل موسم الامطار، وأملت أن أجدهما في بومباي، لكنني علمت انهما لن تصلا قبل موسم الامطار، لأنه تم إرسالهما من البنغال ومدراس إلى باتافيا وبنكولن، وقررت أن أسافر على متن السفينة التي جئت معها من سورات إلى الصين لأبحر بعد ذلك نحو كوبنهاغن على متن سفينة دانماركية، لكن في ٢٠ آب/أغسطس، وعند موعد ابحار السفينة، مرضت ولم يكن بامكاني السفر من دون أن أعرّض حياتي للخطر. وبقيت في بومباي مرغماً خلال موسم الامطار، فقررت العودة عبر البصرة حالما تسمح لي صحتي بذلك. كنت والسيد كرامر قد أرسلنا من ترنكبار كافة الغرائب الطبيعية التي جمعناها في الخليج العربي ثم بعثت مخطوطات رفاقي كلها وجزءاً من أوراقي مباشرة عبر لندن إلى كوبنهاغن. ولأنني لا يسعني التكهن بما ينتظرني في طريق العودة، اعتبرت أن الحذر يتطلب أن أرسل هذه الاوراق كافة عن طريق آخر كي لا تصبح الرحلة غير مجدية اذا ماوافتني المنية أو اذا ما تعرضت للسرقة.



رحلة من بومباي إلى مسقط وبوشهر

تركت بومباي أخيراً في ٨ كانون الاول/ديسمبر ١٧٦٤ على متن سفينة حربية صغيرة تابعة لشركة بلاد الهند كان عليها السفر من مسقط ومن الخليج الفارسي. قلما تتغير وجهة الريح في هذه الأنحاء وعادة يعرف البحارة الماهرون مسبقاً أي ريح ستقابلهم في هذا الموسم أو ذاك. في بعض الاشهر يسافر البحارة من بومباي إلى مسقط مباشرة أو حتى إلى البصرة دون أن يحتاجوا إلى طيّ شراع مصطبة السفينة. لكن في أشهر أخرى يجب أن يتجهوا نحو الجنوب أولاً ثم ينزلوا شراعهم نحو الغرب إلى أن يلتقوا بالرياح فبواسطتها يمكنهم العودة إلى الشواطىء العربية والخليج الفارسي. عندما حزمنا أمتعتنا للرحيل لم نكن في الموسم الافضل ولا حتى في الموسم الاسوأ للسفر. كان القبطان يترقب هبوب الرياح الشمالية مما جعله يحترس من التوجه كثيراً منذ بداية السفر نحو الغرب لأن الهواء الشمالي كان سيعاكسه حتماً.

وعلى طول الساحل الهندي على بعد درجتين أو ثلاث درجات منه فقط كنا نرى حيات البحر الصغيرة التي ذكرتها في المجلد الاول. يقال ان الخليج الفارسي مليء بها كذلك. في مساء ١٢ كانون الاول/ديسمبر اشتد لمعان مياه البحر كما لم أر مثله في حياتي فبدا سطح الماء وكأنه مغطئ بشعلات من النار على مساحة نصف ميل ألماني بينما لم نكن نرى في مناطق أخرى إلا لمعاناً بسيطاً جداً عندما يهتاج ماء البحر[1]. وكنت قد ذكرت سابقاً أن سبب هذا اللمعان يعود إلى قناديل البحر. في اليوم التالي عندما كان الجو لطيفاً رأيت كمية كبيرة من هذه القناديل وكان بعضها كبير الحجم كما لم أر مثله قط. تشير الدلائل إلى وجود حيوانات بحرية أخرى تعطي أشعة أثناء الظلام. في بومباي لطالما رأيت نوراً يشبه الفوسفور على الطرقات وكنت في بادىء الامر أحسبه خشباً عفناً لكنني اكتشفت انه بقايا سمك لزج يشكل طعام الفقراء في هذا المكان.

أثناء رحلتي إلى مسقط كنت أنتظر المساء عندما يكون الجو صافياً لرؤية ضوء النجوم المشع الذي سأل عنه السيد ميكائيليس في سؤاله رقم ٨٨ خاصةً وقد أكد بعض المسافرين أن النجوم الثابتة لا تلمع قط في بعض المناطق الشرقية كما في اوروبا تماماً. في ١٥ كانون الاول/ديسمبر،

---

(١) رأى القبطان ساريس Sarries المنظر نفسه عام ١٦١٢ على ارتفاع ٨° ١٢´ من القطب ثم اكتشف ان سبب هذه الظاهرة هي عناكب الماء.

كانت السماء على درجة عالية من الصفاء فرأينا كوكب المشتري وكوكب الشعرى ما إن ظهرا، لكن لم نتمكن من رؤية كوكب بروريون (Proryon) إلا عندما صعد إلى ارتفاع ٢° والنجوم الصغيرة الا على ارتفاع ١٠°. أما النجوم الاكبر حجماً فرأيناها تلمع على ارتفاع ٢٥° درجة كما لو لم تلمع أبداً في أوروبا في ليالي الصيف.

في ٢١ و٢٢ من الشهر نفسه، رأينا مجموعة كبيرة من الدلافين التي بدت وكأنها تسير معنا والتي كانت تسبقنا بالرغم من أن سفينتنا كانت تسير بسرعة ٤/٣ الميل في الساعة. رأينا من ٨ إلى ١٠ دلافين تقفز في الماء دون أن تضيّع طريقها ودون أن تتأخر عنا. في هذا اليوم الأخير أي (٢٢ كانون الأول/ديسمبر) رأينا رأس قلحت (Ras Kalhat) على ساحل عمان. اعتاد المسافرون الانكليز على اعتبار هذا الرأس جزءاً من بلاد اليمن. في اليوم ٢٣ اقتربنا من مسقط. أصبح الهواء هادئاً ولشدة ما كان الجزر قوياً على الشاطىء تراجعنا عنه أثناء الليل ستة أميال ألمانية. في اليوم التالي، كانت وجهة الريح معاكسة بالنسبة إلينا وكان المدّ لا يزال قوياً فتكبدنا الكثير من الصعاب كي نبقى بعيدين عن اليابسة. إن الساحل العماني شديد الخطورة ومياهه شديدة العمق تصل بالقرب من اليابسة إلى ٥٠ باعاً. في اليوم ٢٨ كنا لا نزال بالقرب من رأس قلحت. منذ هذا اليوم حاولنا الوصول إلى عرض البحر ثم أصبحنا في مأمنٍ من تحطّم السفينة.

خلال باقي الرحلة واجهتنا رياح معاكسة ومد وجزر إلى اليوم الثاني من شهر كانون الثاني/يناير ١٧٦٥. منذ ذلك اليوم كثرت العواصف والأمطار وتواصلت وبما اني لم أكن أحمل ثياباً شتوية (لأني استعدت لباسي الأوروبي في بومباي) تأثرت بالهواء البارد. لكن في اليوم الذي ذكرته آنفاً أصبح الهواء جيداً ووصلنا إلى مرفأ مسقط في ٣ كانون الثاني/يناير.

في اليوم الرابع وصلت إلى المرفأ عدة سفن هندية وكانت تعبر عن فرحها بالوصول على طريقة بلادها فتقرع الطبول وتنفخ في الابواق. رست إحدى السفن بالقرب من سفينتنا وكم عجبت لرؤية فرنسيين توجها إلى الهند بعد هزيمة بونديشري وهم يعملون في الوقت الراهن كجنود عند قبطان هندي. هناك العديد من أهل بلادنا الذين تفرقوا خلال الحرب الاخيرة وأجبروا على العمل بكدٍ لكسب رزقهم لدى المسلمين وعبدة الاصنام.

إن صاحب مسقط هو أمير عربي يعيش في قصر ويدعى إمام عمان، أما سكانها فهم جميعاً من المسلمين. إن القرآن هو كتاب شريعتهم ودينهم وهم ينتمون إلى المذهب الإباضي. ومع انه معروف جداً وقد حكى عنه الكتاب العرب لكن لم يذكره أحد من المسافرين الاوروبيين يسميهم السنة والشيعة باسم الخوارج وهو لقب شنيع في عمان تماماً كما هو اسم الارفاض بالنسبة للفرس. تكلم ابو الفرج على الخوارج واعتقد ان سال (Sales) ذكرهم أيضاً ويسميهم البعض الخارجين.

ان مبادئهم التي ذكرت بعضها في كتاب وصف شبه جزيرة العرب تتفق مع مبادىء الخوارج وهم لا يميزون أهل بيت محمد وعلي أو يفضلونهم عن أي عربي ينحدر من عائلة عريقة. لم أعرف مسلمين يعيشون بتقشف شديد مثل الإباضيين فهم لا يدخنون التبغ ولا يشربون لا القهوة ولا الكحول، إن الأغنياء منهم يلبسون مثل ثياب الفقراء. والفرق الوحيد في الملبس يتجلى من خلال العمامة التي تكون من قماش افخر ومن خلال السيف الذي يضعه في وسطه والخنجر الذي يحمله في الجهة الامامية من جسمه. والإباضيون لا يسمحون لأنفسهم بالانقياد وراء الشهوات وهم مهذبون مع الغرباء ويسمحون لهم بالعيش بحرية في مسقط وفقاً لقوانينهم. وعلى عكس البانيان الذين يجبرون على دفن موتاهم في اليمن، يسمح لهم أن يحرقوهم في مسقط كما ويسمح لليهود بارتداء زي العرب إذ لا يجبرون هنا كما في البلدان العربية الاخرى بارتداء ثيابٍ تميّزهم. في البلاد السنية عندما يعثر على يهودي أو مسيحي أو بانياني بصحبة مسلمة يجبر على اعتناق الدين الإسلامي أو على دفع غرامة نقدية ضخمة، أما عند إباضيي مسقط فلا ينزعج الحكم من هذه الظاهرة شرط أن تكون المرأة من بنات الهوى اللاتي يحصلن على المال أجراً لما يفعلن علماً ان هناك عدداً كبيراً من النساء المتعطلات اللواتي يقمن في حي خارج المدينة[1].

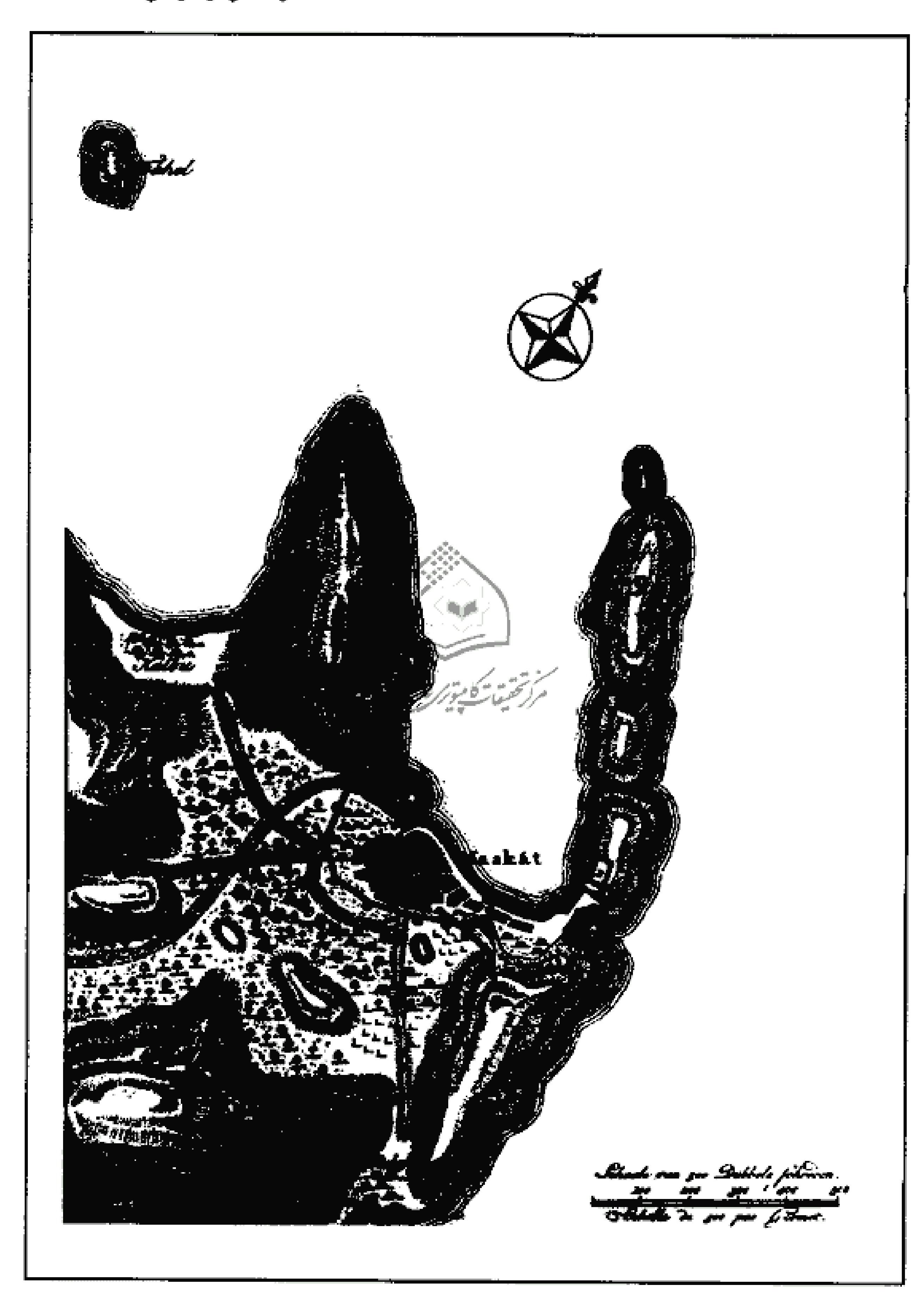
للشرطة سلطة واسعة في هذه البلاد فنحن لا نسمع بحوادث سرقة بالرغم من أننا نرى البضائع معروضة دائماً في الشارع لأسابيع متتالية. لا يتجرأ أحد على النزول إلى الشارع ليلاً من دون نور ولا يسمح لأي مركب بالرسو بعد مغيب الشمس أو بالانتقال من سفينة إلى أخرى وذلك حفاظاً على رسوم الجمارك.

---

(١) ما بين الطبقات الهندية المختلفة هناك الراقصات اللواتي يرقصن ويغنين لقاء الماء عند كل من يرغب فيهن وهن كالغازيات في مصر والغجريات في القسطنطينية. اما الراقصات الوثنيات فلا يتزوجن ابداً بل تتعلم بناتهن مهنة الامهات ويصبح الفتيان جنوداً في الجيش.

في إحدى الامسيات في مسقط أحضرنا انا وانكليزيان بضع راقصات لكني لم اجد موسيقاهن افضل من موسيقى الغازيات في مصر. في أمسية اخرى احضرنا ثلاثة هنود يعزف أحدهم على الكمان (يمكن رؤيته في اللوحة ٢٦ من المجلد الاول) ويحمل الثاني صحنين من المعدن بينما يضرب الثالث على طبل علقه على جسده وكان الثلاثة يغنون ويرقصون.

سمعت غناء هؤلاء ورأيت رقصتهم فأعجبت بهما. ومع اني لم أفهم كلماتهم الهندية الا ان موسيقاهم وحركاتهم جعلتني افهم الموضوع. كانوا يغنون اغاني حب ثم مثلوا مسرحية تصوّر برتغاليين في وضعهم الراهن اليوم. لم يعد هؤلاء ابطالاً كما كانوا يوم غزوا الهند، ولم يبقَ لديهم إلا القليل من ممتلكاتهم في هذه البلاد. الا انهم لا يزالون يتصرفون بشيء من الفخر والكبرياء ولقد مثل الهنود الادوار بكثير من الدقة وافضل من أي ممثل اوروبي. وبينما تستمر الراقصات عادة في مكانهن مكتفيات بتحريك أجسادهن، يقفز هؤلاء احياناً في الهواء ويرقصون مع اللحن تماماً. كانت ألحانهم تشبه ألحان العرب والفرس والاتراك.



يخضع للامام كل من الوالي، والوكيل، وهو المسؤول عن الضرائب وعن التجار والغرباء، والقاضي. يبلغ عدد الهنود أو البانيان والتجار والحرفيين والخدم ١٢٠٠ وهناك أقلية من الهنود لكن وجود الاوروبيين معدوم تماماً. كنت أحمل معي رسائل توصية من بومباي إلى الوكيل والى سمسار الانكليز وهو بانياني وقد تعاملا معي بكثير من اللطف. لم أزر الوكيل الا نادراً كي لا أكون مجبراً على الإفصاح له عن سبب تجوالي داخل المدينة وخارجها. أما الثاني فقد عرفني على عربيين وعلى شيخ الهند فأعطوني معلومات جغرافية قيمة عن عمان تجدونها في كتاب «وصف شبه جزيرة العرب» تجدون في اللوحة ١٥ خارطة مدينة مسقط. لقد خصت الطبيعة مسقط بأسوار طبيعية فعلى الصخور الموجودة من جهتي المرفأ حيث تحتمي أكبر السفن من الرياح، هناك سرايا عديدة مدججة بالاسلحة ومزودة بالمدافع. من بين القلاع اثنتان تستحقان أن تذكرا هما قلعة مراني وقلعة جلالي لأنهما الاكبر حجماً وبسبب موقعهما على الصخور الشديدة الانحدار والمجاورة للمدينة. أما البروج فهي صغيرة. يحيط بالمدينة سور ليس شديد الحصانة مزود بثمانية بروج مسلحة بالمدافع.

الأسوار ضعيفة من الجهة الشمالية الغربية إذ يتخلل حائط المدينة دقران من الخشب لتمر منه المياه المتساقطة بغزارة من الجبال المجاورة. أما منازل السكان فهي بسيطة جداً لأنهم لا يبحثون عن الفخامة. وحتى مسجداهم صغيران ومعتمان ولا تعلوهما أية مئذنة. إن أفضل ما بني في هذه المدينة كنيستان برتغاليتان احداهما تحولت اليوم إلى منزل الوالي والثانية إلى متجر. هناك سهل خارج المدينة، مساحته لا بأس بها بالاضافة إلى بساتين يطيب الجلوس في ظلالها في المواسم الحارة تحت شجر النخيل وغيره. يغيب الفن عن هذه المدينة أما البيوت المبنية خارج اسوارها أي في ضواحي مسقط فهي أكواخٌ حقيرة مغطاة بالحصر نرى مثلها أحياناً داخل المدينة. لقد قامت الطبيعة بتعزيز كل شيء. تحيط بالسهل صخور شديدة الانحدار وللسهل ثلاثة طرق تؤدي اليه يمكن نزولها بسهولة. يؤدي أحد هذه المخارج إلى صدوف (Soddof) وآخر إلى قلبو(٦) (Kolbu) والثالث إلى مطرح (Mattrach). إن المكانين الاولين هما قريتان حقيرتان. أما المكان الاخير فهو مدينة فيها قلعة والكل يقع على شاطىء البحر.

إذاً تقع مسقط عند طرف الخليج بين الصخور المنحدرة على رأسٍ أو تل على شبه جزيرة على °٢٣ ٣٧´ من القطب وتبعد عن بومباي °١٢ إلى الغرب وفقاً لحسابات القباطنة الانكليز. يزعم هؤلاء أنه عندما يكون القمر بدراً أو عند ولادته يسجل أعلى مستوى للمياه عند الساعة ١١ وان ارتفاع المد يصل أحياناً إلى ١٢ أو ١٤ قدماً. أما انحراف البوصلة فهو ٤ درجات أو ٥ درجات إلى الغرب.

على قدم أحد الجبال (قرب ٨) هناك بئر يزود مسقط بالمياه المنعشة أثناء فترات الجفاف. يتم

جلب هذه المياه بكثير من الصعوبة بواسطة ثور في كيس كبير من الجلد ثم تصبّ في خزان وتقودها الانابيب إلى القناة. يبدو أن هذه القناة هي أيضاً من عمل البرتغاليين. بالقرب من (٩) هناك أنبوبان من الحديد كانت تغلق في الماضي بواسطة حنفيات أما اليوم فتغلق بواسطة قطعة جلد يجب انتزاعها كلما أردنا الحصول على الماء. في القلعتين (١و ٢) هناك خزانات كبيرة للمياه تكون دائماً مليئة بماء البئر الآنف الذكر.

أكد بعض المسافرين انها تمطر مرة في السنة في مسقط[١] لكن طوال اقامتي في هذه المدينة كانت السماء تمطر وذلك ابتداء من ١٢ وحتى ١٧ كانون الثاني/يناير. ولشدة ما كان الجو متكدراً كنت سأضطر إلى مغادرة المكان دون أن أدون أي ملاحظات قيمة تتعلق بارتفاع القطب. أما في أيام الصيف عندما تقترب الشمس من السمت وعندما تعكس الصخور الجرداء أشعتها تشتد الحرارة في هذه المدينة لدرجة لم أشهدها قط في أي مكان آخر في العالم.

تبدو الجبال على شاطىء عمان جرداء قاحلة. أما الوديان فهي خصبة شديدة الزرع لذا نجد الكثير من الفاكهة في مسقط. كذلك اللحوم جيدة ويكثر السمك في المواسم[٢]. إن أهم المنتوجات التي تصدرها عمان هي البلح. تنطلق سفن محملة بالتمور من عدة مرافىء فتتجه نحو الخليج العربي وبلاد العرب وغيرها من البقاع. وتشكل مسقط مخزناً لغالبية البضائع التي تنقل من الخليج الفارسي إلى حضرموت واليمن والحجاز. ولقد تكلم آريان وغيره من الكتاب اليونانيين القدامى على مرفأ يدعى مسقا (Mosca) في هذه الأنحاء وبدا يشبه مسقط إلى حدٍ بعيد فلا شك أنّه هو نفسه. فبالاضافة إلى أن الاسماء متشابهة تكثر الصخور على الشاطئين والماء فيهما شديد العمق لذا يمكننا القول إن مرفأ مسقط لم يتغير منذ العصور السالفة. لم أجد أي كتابة حول مسقط في كتاب أبو الفدا وفي جداول نصير الدين.

كانت صهار حينئذٍ أهم مدينة تجارية في عمان. ولربما كانت حكومة مسقط في ذلك العهد تمنع التعامل الخارجي مع الغرباء، لذا لم يرد اسم مسقط في مؤلفات الكتاب السابقي الذكر.

إن أحداً من الاوروبيين لم يترك مسقط ليتجول داخل البلاد إلا أن ولاية عمان تستحق أن

---

(١) **رحلة اوفنغتون** (Voyage D'ovington) الجزء الثاني ص ١٢. ان وصف هذه الرحلة جيد جداً لكنها دليل على ان المسافرين لا يستطيعون دائماً الحصول على معلومات صحيحة.

(٢) أكّد الكسندر هاملتون ان العرب في مسقط يعرفون كيف يسحرون السمك ويدعي انه رأى شخصاً على الشاطىء ينادي تعال تعال فأتت اليه الاسماك بكميات هائلة. ومع اني رأيت اسماكاً كثيرة على الشاطىء الا اني لم أرَ احداً يناديها فتحضر. يستعمل الصيادون مراكب صغيرة كالتي يستعملها الصيادون في الخليج الفارسي وكانوا يصطادون السمك بالشباك او الصنانير.

يتوغل فيها الجغرافيون والفيزيائيون كما أن السفر فيها أكثر أمناً حتى من اليمن[1]. لم تسمح لي حالتي الصحية بالقيام بهذه الرحلة. دائماً تسنح الفرصة هنا بالذهاب إلى الخليج الفارسي على متن سفينة صغيرة يسميها العرب طراد (Tarad) أو ترانكي (Tranki) ولقد وصفت تركيبتها في الجزء الاول. إلا اني قررت عدم القيام بهذه الرحلة نظراً إلى أن حالة الرياح لا تكون ثابتة في هذا الوقت من السنة وبسبب القراصنة. علماً اننا لا نخشاهم قط على متن السفن الاوروبية. كنت قد تركت القبطان الذي جئت معه من بومباي إلى الخليج الفارسي لأنني كنت انتظر سفينة اوروبية كانت ستترك بومباي من بعدنا بفترة وجيزة. وصلت هذه السفينة في اليوم ١٢ وخوفاً من الا تسنح لي الفرصة مجدداً بالذهاب إلى الخليج الفارسي، تركت رحلة التوغل داخل عمان إلى من سيأتي بعدي لعل الظروف والطقس تسمح لهم بذلك وانطلقت من مسقط في اليوم ١٨.

في مساء اليوم ١٩ منذ الساعة الثامنة والنصف وحتى الساعة التاسعة والنصف بلغت سفينتنا سرعتها القصوى فاجتزنا في ساعة واحدة ٤/٥ الميل الالماني وكان سطح الماء على مدّ بصرنا أبيض اللون كأنه سهل مغطى بالثلوج. بعد العاشرة رأينا خطاً أبيض يتجه من الشرق نحونا لكنه لم يصل إلى سفينتنا. أما سبب هذا البياض الظاهر فلا شك انه نفسه سبب لمعان المياه الذي رأيته مساء ١٢ كانون الأول/ديسمبر بين بومباي ومسقط لكنني في هذا اليوم لم أرَ أي لمعان بل خطاً أبيض وحسب[2].

لم يكن القمر قد بلغ الشفق بعد لكن الجو كان هادئاً والسماء مليئة بالنجوم مع بعض الغيوم هنا وهناك.

من مساء اليوم العشرين رأينا رأس جسك (Jask) الواقع على الشواطىء الفارسية. بعد ظهر اليوم ٢١ كنا على ارتفاع ٢٥° ٤٨´ من القطب. كان كوه مبارك المسمى بومبارك (Bombareck) على الخرائط الاوروبية يبعد ٣ ٣/٤ الميل شرقاً باتجاه الشمال ويقع عند ٢٥° ٥١´ بعد ظهر اليوم ٢٣ كان ارتفاع القطب من السفينة يبلغ ٢٦° ٣٨´ ومن جزيرة سلامة ٢٦° ٢٨´، لكن ربما لم يكن مرصدي هنا شديد الدقة لأن رأس مسندم كان يعيق نظري إذ ان الجزيرة التي كانت عليه حجبت بعضاً من خط الشفق عني. في اليوم ٢٤ وجدت ارتفاع القطب في جزيرة طنب وكان ٢٦° ١٤´ . حتى في هذا الوقت كان الهواء شديد التقلب فيهدأ أحياناً ثم يكفهر الجو وتمطر

(١) إن ما ذكره اوفنغتون في الجزء الثاني من كتابه وهاملتون في الجزء الاول من كتابه عن سلوك عرب عمان قد أعاد ذكره ادوارد ساي الذي غرق بالقرب من شواطئهم وقد اكد بالتالي ما جئت به أنا.

(٢) حكى المدعو السيد دو روفيل عن هذه الظاهرة التي رآها في ١٤ تموز/يوليو ١٧٥٤ عند التاسعة مساءً على ارتفاع ٥٨° ٢٧´ .

أحياناً واستمر هذا المناخ المتغير إلى ان اقتربنا من بوشهر (Abushahhr)[1].

منذ ٢٧ كانون الثاني/يناير وحتى ٣١ منه، كان الطقس متكدراً والسماء تمطر ولم استطع قياس ارتفاع القطب الا مرة واحدة. لم أكن قد شهدت قط كل هذا التغيير في الهواء لفترة وجيزة جداً. فالجو يكون هادئاً تارة ثم تأتي عاصفة فجأة ثم تهب الريح باتجاه معاكس تارة أخرى كنت أتوقع رؤية أعمدة الماء[2] التي يقال إنها تكثر في الخليج لكنني لم أر شيئاً منها. ولن أستفيض في ذكر المخاطر التي كانت تحف بنا في تلك الايام وهي مخاطر لطالما تعرض لها البحارة لذا فمن غير العدل أن نتذمر منها في هذه الرحلة البحرية الوجيزة.

في الاول من شباط/فبراير تجاوزنا رأس بردستان (Berditsan). يرى البحارة الهولنديون ان هذا الممر هو الاكثر خطورة في الرحلة كلها ليس لكثرة الصخور التي تجتاح البحر أمام رأس بردستان وحسب بل وأيضاً بسبب الجزيرة التي لاحظ وجودها أحد الانكليزيين والتي لم تدوّن بعد على الخارطة فيخشى أنه إذا ما انحرفت السفينة عن الصخور كي لا تصطدم بها، فلربما تصطدم بالجزيرة المغطاة بالماء كلياً أثناء المدّ، مع العلم ان الانكليزي رآها في أيام الجزر. أراد عرب بوشهر إقناعي ان هذه الجزيرة الصغيرة تقع في الوسط بين رأس بردستان وجزيرة البحرين.

أخيراً في مساء الرابع من شباط/فبراير، وصلنا إلى مرسى بوشهر، لكن نظراً لضيق مدخل المرفأ ولكبر سفينتنا، ألقينا بالمرساة على بعد ميلين ألمانيين من غرب المدينة.

بعد وصولنا بقليل تلقينا الاخبار من انكليزي يدعى سازرلند يترأس سفينة من البنغال، كنا قد التقينا به في اليوم ٢٥ من الشهر السابق قرب جزيرة صورده (Surdé) أو شيخ صوره (Schech Suré) وكان قد ترك بوشهر قبل ستة أيام. وكان هو والربانان ورئيس البحارة أوروبيين. من بين البحارة كان هناك أسباني من مانيلا. أما الباقون فكانوا من الهنود وهم معروفون بجبنهم لكنهم يضطرون إلى تنفيذ أوامر رؤسائهم.

لأن غالبية هؤلاء البحارة هم من الهنود الكاثوليك أو كما يقال من البرتغاليين، يضطر الانكليز وغيرهم إلى تعلم اللغة البرتغالية حتى يتمكنوا من إعطاء التعليمات ومن الاستماع إلى البحارة. وعلى كل فلا يهتم أحد بأصل البحارة أو بدينهم أو حتى باللغة التي يتخاطبون بها إذ انهم لم يثوروا يوماً ضد قبطانهم. وكان سازرلند قد فقد عدة أشخاص خلال رحلته مما اضطره إلى أخذ ١٢ بحاراً عربياً مكانهم.

---

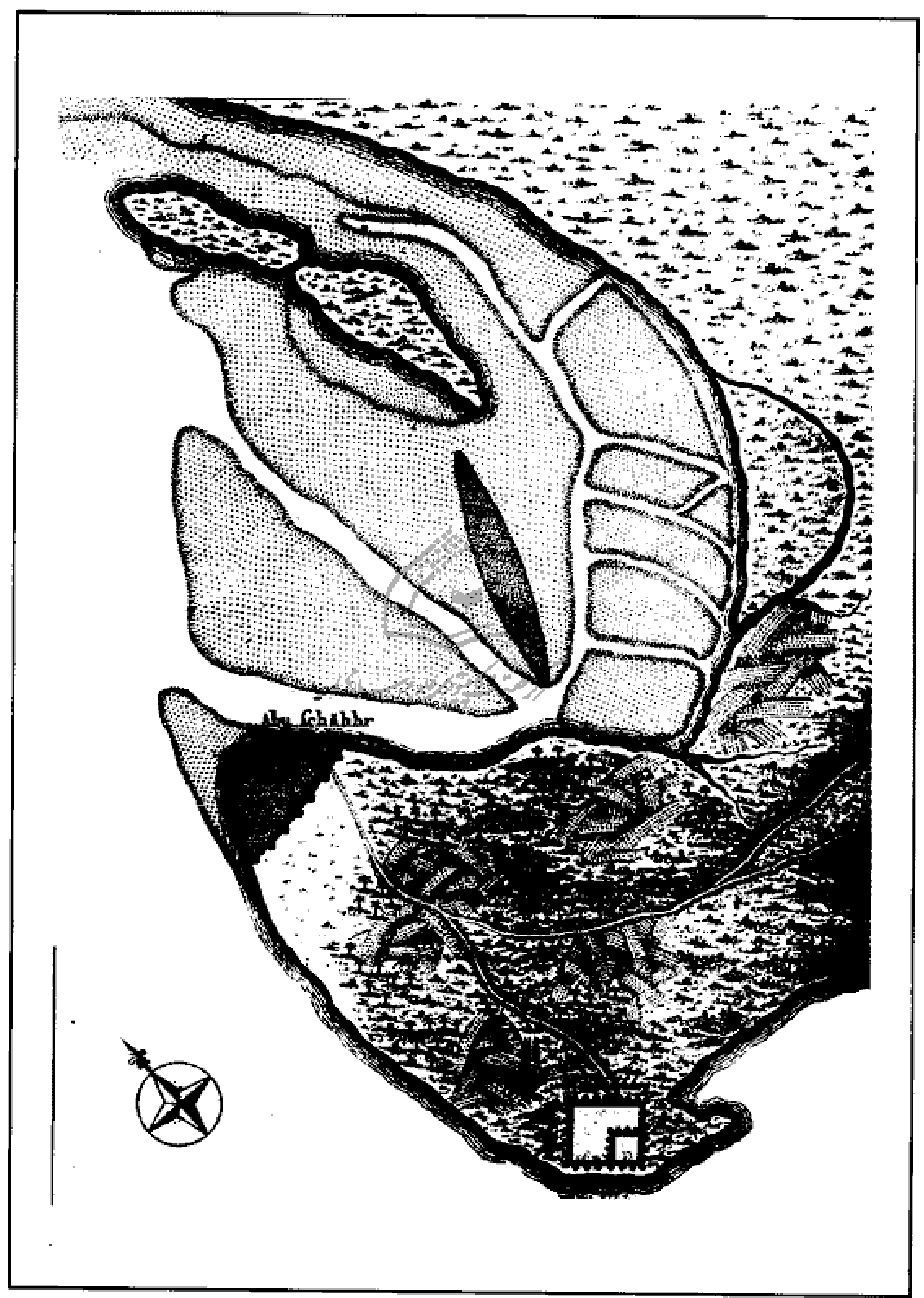
(١) راجع وصف شبه الجزيرة العربية حيث اوردنا المعلومات الاساسية حول هذه المنطقة.

(٢) مياه تجذبها الشمس فتصاعد بشكل عمود يسقط لاحقاً.

اعتاد هؤلاء المسلمون على تلقي معاملة حسنة من أبناء دينهم. تنشأ دائماً الحروب بين أصحاب الاراضي بالقرب من الخليج الفارسي. من هنا نرى البحارة العرب أكثر شجاعة من الهنود وهم يغارون على دينهم فيزدرون أصحاب الديانات الاخرى تماماً كما نزدري نحن اليهود. ولربما كان السبب في ذلك أنهم لا يحبون الخضوع لأوامر مجموعة قليلة من النصارى أو أنهم يخشون من طريق الهند الطويلة أو أن روح القرصنة تتملكهم فينصبون أنفسهم آمري السفينة قبل خروجها حتى من الخليج الفارسي.

بعد مرور يومين على حديثنا مع القبطان سازرلند، ألقى بالمرساة قرب جزيرة قس (Kas) بسبب عاصفةٍ هوجاء تعرض لها. ثم أرسل أحد بحارته إلى البر لجلب الماء فاستغل البحارة العرب الفرصة للقضاء على الاوروبيين. أما ربان السفينة الذي بقي على متنها فلقي حتفه بضربة واحدة على السطح. وعندما أحس القبطان بهذه الجلبة خرج من حجرته فرموه برمح اخترقه لكنه لم يمت في الحال فطعنوه عدة مرات بالخناجر. أراد رئيس البحارة أن يختبيء لكنهم أحضروه وقتلوه، وحتى القبطان الثاني لقي حتفه بطلقة رصاصٍ في الزورق. وهكذا تحول الاثنا عشر عربياً إلى رؤساء للسفينة لأن البحارة الهنود وبعض التجار الارمن اختبأوا جميعاً في أسفل السفينة وظنوا أن الخطر بعيد عنهم، وبما أن العرب لم يكونوا يعرفون كيفية قيادة هذه السفينة الكبيرة وعلماً منهم انها لن تبقى لهم ولأنهم كانوا يبحثون عن السيولة ويعرفون أن سفن البنغال تحمل معها كميات كبيرة من الاموال قرروا أن يتركوا السفينة ويحملوا معهم الاموال بالاضافة إلى بضائع أخرى قيمة وصغيرة الحجم. فنادوا تاجراً أرمنياً ليدلهم على هذه البضائع لكنهم تشاجروا معه ثم قتلوه. بعدئذٍ حملوا كل ما وجدوا أمامهم وركبوا في مركب صغير وهربوا.

أما الاشخاص الذين كانوا قد ذهبوا لجلب الماء والذين رأوا ربانهم يموت فقد توجهوا في مركبهم إلى قس وَفَوْرَ عِلْمِ شيخ هذه الجزيرة بثورة على السفينة حتى أرسل سفينة مسلحة إلى البحر، فلاحقت باديء ذي بدء القراصنة الذين كانوا ينزلون من السفينة. عندما تنبه هؤلاء إلى ما يجري وعلموا أن لا مفر لهم أرادوا العودة إلى السفينة لكن الاسباني أطلق عليهم قذيفة مدفع فلم يجدوا مهرباً من الاستسلام. فما كان من شيخ قس الا أن استولى على كل ما كان بحوزة القراصنة بالاضافة إلى حمولة السفينة. لكن سرعان ما طالبه سيّده شيخ الشارقة (Isjarck) بحصته من الغنائم وتقاسمها مع جيرانه حاكم هرمز (Ormus) وناصر خان حاكم لارستان (Laristan) الحالي ليتجنب نشوب حربٍ معهما لهذا السبب. وهكذا تم تقاسم الاموال على أحسن حال ولم يحصل أصحابها الأصليون على أي شيءٍ منها.


Abu Schähhr

ملاحظات في بوشهر وشيراز وبرسيبوليس (Perspolis)

لم تكن مدينة بوشهر أو بوشير كما يسميها الانكليز معروفة من قبل الغرباء إلى أن سرت عادة القيام بفتوحات بحرية في نادر شاه. فقام الشاه بتشييد سفن حربية واشترى غيرها من الاجانب ثم جهّز أسطولاً من ٢٢ إلى ٢٥ سفينة تجمعت في بوشهر. أدى ذلك إلى شهرة المدينة وقد أصبحت حالياً مرفأ شيراز وتخضع أكثر من باقي المدن الموجودة على هذا الساحل إلى الوكيل أو حاكم بلاد فارس الحالي. وكما للوكيل عدة سفن كذلك لشيخ بوشهر وهو حاكم البحرين عدة سفن بحرية صغيرة ومركب كبير.

يمكننا رؤية موقع بوشهر والمدن المحيطة بها في اللوحة ١٦ التي نسختها عن رسم قام به أحد الانكليز. المدينة مثلثة الشكل وتطل بجانب من جوانبها الثلاثة على البحر. يحيط بالجهة الثالثة سور سيىء وبعض الابراج. وفي أيام المدّ تغمر المياه المدينة تماماً كما في لحية في اليمن فتبدو المدينة كما لو أنها تقع حيناً في قارة وحيناً في جزيرة. وفقاً لملاحظاتي فإن ارتفاع القطب هنا يبلغ ٢٨° ٥٩´ وتميل إبرة البوصلة فيها ٧° ٣٠´ إلى الغرب. لا يمكن قياس ارتفاع مستوى الماء وانخفاضه أثناء المد والجزر بدقة في هذه المدينة بسبب عدد الجزر وأرصفة الرمل الكثيرة الموجودة في الجوار. يقال إن المياه ترتفع لمدة تسع ساعات. ثم تنخفض في ثلاث ساعات يقال إن نسبة المياه تكون أكثر ارتفاعاً في النهار منها في الليل في فصل الصيف والعكس صحيح في الشتاء، أما الفرق بين المستوى الاعلى والأكثر انخفاضاً فقلّما يصل إلى ستة أقدام. ترتفع الحرارة كثيراً في الصيف في هذه الأرجاء وتهطل الأمطار في الشتاء وقد ذكرت ذلك عندما تكلمت على رحلتي من مسقط إلى بوشهر. أثناء إقامتي في هذه المدينة كان الجو متلبداً في الايام ٤ و٥ و٦ من شباط/فبراير وتساقطت الأمطار، أما في اليوم ٧ فسمعنا الرعد وتساقط البرد، وتغطت الجبال التي كنا نراها على بعد ٧ أو ٨ أميال بالثلج.

قبل أن تتدهور الأوضاع في بلاد فارس كان أحد مستشاري بومباي يقيم في أصفهان بينما يقيم التجار الانكليز في كرمان (Kerman) وغمبرون (بندر عباس) وكان هذا الاخير أحد أهم مرافىء بلاد فارس. وفي كافة المدن كنا نلتقي بتجار من الشركات الغربية لهولندا وفرنسا. ترك الفرنسيون بغالبيتهم بلاد فارس ولم يبقَ من الأوروبيين إلا تاجر انكليزي في بوشهر. عندما كنت هناك كان يقيم فيها السيد جرقس وهو رجل كان يهتم بالعلوم في شبابه ويكرس لها ساعات فراغه

عندما ينتهي من أعمال التجارة. ولم يكن يتكلم الفارسية وحسب بل ويجيد كتابتها وقراءتها. وكان يهوى جمع المخطوطات الفارسية[١]. ولا شك أن العلوم ستستفيد كثيراً من مكونه في بلاد فارس عندما سيعود إلى أوروبا. كان المسؤول عن هذه المطبعة ابن النحات الشهير ناطر (Natter) وهو معروف جداً في أوروبا. بالاضافة إلى هؤلاء يوجد راهبان هنا أحدهما يلقب نفسه بمطران اصفهان وأنا لم ألتقِ بأي أوروبي في بوشهر.

يرسل الانكليز إلى هذا المرفأ كميات من الانسجة الاوروبية ومن البضائع الآتية من سرات والبنغال، أما عن الصادرات فهي أقمشة الحرير من يزد (Yezed) كاشان (Kashan) والحرير الاحمر من غيلان (Ghilan) والسجاد (الأفخر نوعاً هو الأصفهاني)، والصوف الناعم وكميات كبيرة من العقاقير الطبية القادمة من بلاد فارس، بالاضافة إلى القطن. وشعر الماعز من كرمان[٢] وشتى أنواع الفاكهة الجبلية وماء الورد وكميات كبيرة من نبيذ شيراز. إن هذه المنتوجات هي جزء من تجارة السيد جرقس الخاصة الذي عين وسيطاً شاباً يدير أعماله في شيراز كما وتُستقدم أعداد كبيرة من البغال والخيل من بلاد فارس إلى بلاد الهند.

أما مير مهنا التي ذكرتها في «وصف شبه جزيرة العرب» فهي في حالة حربٍ مفتوحة مع كريم خان حاكم بلاد فارس وبالتالي مع شيخ بوشهر المسمى مُقْلَع الحاكم. قام مرة بمهاجمة القوافل بين بوشهر وشيراز فسبب انقطاعاً في التجارة بين هاتين المدينتين. منذ فترة وجيزة أحضر كميات كبيرة من الماشية بالقرب من بوشهر. حالياً يوجد في كور موج (Kor mudsch) جيش صغير لكريم خان يستعد للهجوم على مير مهنا في عاصمته بندر رغق (Bender Rigk) ولم يكن المسافرون في هذه المناطق يخشون على أنفسهم من أي أذىً لأن الاثنين كانا يحاولان كسب ودّ الانكليز كان كريم خان يريد أن يتحالف مع شيخ بوشهر للهجوم على مير مهنا من البحر في عقر

(١) من بين هذه المخطوطات وجدت حياة نادر شاه وامين سره الخاص محمد مهدي خان وكان عمر المخطوطة ٨ سنوات وكانت نادرة وغالية جداً في بلاد فارس لأن احد شخصيات بلاد فارس لا يعير مخطوطته النادرة لاحد وذلك لسببين اولاً كي لا تصبح شعبية، خاصة انه دفع لقاءها مالاً كثيراً وثانياً كي لا تفسدها ايدي الناس اثناء نسخها. ولشدة ما كان صيت هذه المخطوطة الاصلية رائجاً حاولت المستحيل في شيراز الحصول على نسخة منها لوضعها في المكتبة الملكية علماً ان هذه النسخة هي فعلاً النسخة الاصلية لسيرة نادر شاه وقد ترجمها الفارس جونز الى الفرنسية عام ١٧٧٠ ثم طبعت عام ١٧٧٣ في غريسوولد ترجمتها الالمانية.

(٢) ومن كرمان ايضاً يجلبون قططاً طويلة الوبر تعتبر نادرة من نوعها. رأيت مثل هذه القطط في القسطنطينية وكانت آتية من أنغورا (Angora). يقال ان هذا النوع من القطط لا يتكاثر الا في هذه المناطق حيث يكثر الماعز الطويلة الشعر ويسمى شعرها بشعر الجمل.

داره على أن تهاجمه جيوش المشاة بَراً. أما مير مهنا فكان يتمنى أن تتمركز الجيوش الانكليزية في بندر رغق بدلاً من بوشهر إلا أنه كان يعرف أن هذا لن يحدث إذ أن الانكليز لم يكونوا يدعمون حالياً شيخ بوشهر بل كانوا يتركونه يهرب بحراً محملاً بثرواته في حال لم يستطع الوقوف في وجه جيوش كريم خان البرية. كان السيد جرقس يلعب على الحبلين لحماية تجارته الشخصية وتجارة شركة بلاد الهند. بعد وصولي بفترة وجيزة، أرسل حملة كبيرة من البضائع إلى شيراز عبر كور موج. في هذه المناسبة تجمع عدد كبير من المسافرين منهم التجار الصغار والعائلات الفقيرة وكانوا قد تركوا بلاد فارس هرباً من الاضطرابات وأرادوا الآن العودة إليها. على هذا النحو تكونت قافلة لا بأس بها. ومع أنني كنت مضطراً للعودة إلى أوروبا بسرعة لم أكن أرغب بالتخلي عن فرصة الذهاب إلى شيراز ورؤية آثار برسيبوليس التي تبعد مسافة يومين وحسب عن هذه المدينة. وهكذا اتخذت قراراً بالرحيل في ١٥ شباط/فبراير كواحدٍ من ركاب القافلة.

أثناء رحلتي إلى برسيبوليس احتفظت باللباس الأوروبي الذي حملته معي من الهند لكن هذه الثياب القصيرة كانت تزعجني في القافلة. في هذا اليوم لم نصل أبعد من تنكشير (Tankesir). من كافة الجهات رأينا بساتين النخيل وكانت القرى المجاورة لها مهدمة جزئياً أو كلياً والأراضي وعرة بعض الشيء. وجدت عرائش عنبٍ في كرمشير (Karmasir) مع اني كنت أستبعد وجودها في هذه البلاد الحارة. كانت العرائش تقع في أرضٍ ملأى بالصخور أو قل في آبارٍ يتراوح عمقها بين ستة وعشرة أقدام. كانت الأغصان العليا تستند إلى أحجار البئر وكي لا يتأذى العنب بفعل الرطوبة، حُفرت قنواتٌ لجلب المياه إلى ساق العرائش.

لم تكن قافلتنا تحتوي على جمل واحد وكانت البضائع محملة على ظهر الحمير. وكان بعض التجار قد حمّل بضائعه على الخيل أو امتطى الخيل بنفسه بينما ركب الباقون الحمير أو مشوا على أقدامهم. من بين رفاق رحلتي كان هناك تاجر أرمني ولد في فارس لكنه عاش بعض السنوات في إيطاليا وكان يرتدي الزي الاوروبي ليخاله الناس من أوروبا. لقد سررت كثيراً بصحبة هذا الرجل لأنه كان يلعب دور ترجماني أمام الفارسيين. أضف إلى ذلك اني التقيت ببعض الناطقين بالعربية في القافلة فكانت فرصة للتكلم معهم.

قبل وصولنا إلى تنكشير بقليل سمعنا أصوات المدافع والطبول والمزامير وصيحات الفرح. ظن البعض من أصحاب سفري ان قسماً من الجيش الرابض قرب كور موج قد وصل إلى القرية وخشي البعض من الالتقاء بجيوش مير مهنا أما أنا فلم ينشغل بالي مع اني لم أكن أحمل بطاقة هوية. ادعيت اني انكليزي ولم أشك قط أن هذا الاسم سينقذني. لدى وصولنا إلى تنكشير علمنا أن الخان قد قدم إلى كور موج وأرسل إلى الريّس (أي الشيخ بالعربية) لباساً تكريمياً وكان الشعب يحتفل بهذه المناسبة.

خيّمنا في هذا المكان بالقرب من قلعةٍ حديثة البناء يستعملها السكان كمكانٍ لحفظ مواشيهم في حال شُنّ هجوم مفاجىء عليهم من أحد الثوار. ان هذه القلعة مربعة الشكل ويبلغ كل ضلعٍ من ضلوعها ١٦٠ خطوة مزدوجة. في كل زاوية هناك سور صغير يمثل برجاً مستديراً بالاضافة إلى وجود برجين من كل جهة والكل يتألف من الصلصال. في هذا السور هناك باب كبير وبابان صغيران لدرجة أنه لا يمكن لأحد الولوج منهما دون أن ينحني. يحيط بالقلعة خندق يبلغ عرضه ستة أقدام لكنه مطمور في عدة أماكن. بالقرب من الباب الكبير هناك مدفعان كبيران من الحديد. لم أر أي بيت من حجر أو طين لا خارج السور ولا داخله ويعيش الرئيس وجماعته في أكواخ صغيرة مغطاة بالقش. كان يظن نفسه الآمر الناهي في أراضيه: مجيء جيش كورموج كان يجبر التجار المارين في أراضيه على اصطحاب مرافقيه لقاء أجر كبير من المال.

في الليلة التالية مرّ قطيع من الخنازير البرية بالقرب من مخيمنا لكن أحداً من المسيحيين لم يكلف نفسه عناء قتل احدها لأنه لو فعل لما استطاع حملها إلى المخيم دون أن يحظى باحتقار المسلمين. إن الفرس يظهرون قدراً أكبر من الاحترام للأجانب مقارنةً مع الأتراك والعرب. ولا شك أن سبب إطلاق اسم فرنسيي الشرق عليهم يعود إلى ذلك. ومع أن بعض المسافرين يقول إنهم غشاشون وإنهم لا يحترمون وعودهم إلا إني أصر ان الاوروبيين من غير التجار يسعدون في سفرهم عند الفرس أكثر منه عند الاتراك والعرب. وأكثر ما يزعج لدى الفرس انهم لا يأكلون ولا يشربون مع الوثنيين أو الهنود أو عبدة النار أو المسيحيين أو اليهود أو حتى المسلمين من أصحاب المذاهب الاخرى ويعتقدون أن هؤلاء جميعاً مدنسون. أما السنة فلا يزعجهم تناول الطعام مع أصحاب الديانات الاخرى شرط الا يكون هذا الطعام محرّماً.

في اليوم السادس عشر أجبرنا على تمضية اليوم بكامله في تنكشير لأن صاحب أكبر عددٍ من الماشية في قافلتنا أي قروان باشي لم يكن ليغادر بوشهر قبل هذا اليوم. وهكذا سنحت لي فرصة قياس ارتفاع القطب. أضف إلى ذلك أن رحلتي هذه قد سمحت لي بوضع ملاحظاتٍ ملكية كثيرة كما لم أفعل في أي رحلة أخرى. سجّلت بدقة فائقة مواقع القرى تماماً كما فعلت عندما كنت في شبه جزيرة العرب لكنني لا أجد ضرورة من تقديمها للقارىء. في اللوحة ١٧ رسمت خارطةً يمكنكم في نظرة واحدة اليها رؤية الطريق من بوشهر إلى برسيبوليس.

في الصباح الباكر من اليوم السابع عشر تابعنا رحلتنا ورأينا المزيد من النخيل من جميع الجهات لكن لم نرَ الاكواخ السيئة البناء الا بالقرب من عدد ضئيل من هذه الاشجار. أما السهول التي مررنا بالقرب منها فتدعى أطّة (Utta) ودستي (Dasti). وتدعى سلسلة التلال الممتدة غربي الدرب دْراسي (Drasi) والجبال الشاهقة من الجهة الشرقية أهرام.

من المعروف أن العديد من الأتراك والأكراد يجولون بقطعانهم في بلاد فارس. في هذا اليوم التقينا براعٍ تركي يعزف على ناي أزرق اللون يمكن رؤيته في اللوحة ٢٦ من الجزء الاول. كان الناي مصنوعاً من القصب يزيد طوله عن القدمين وفيه خمسة ثقوب من الجهة نفسها. وبالكاد استطاع رفيق سفري الذي ذكرته آنفاً أن يفهم لغة هذا الراعي مع انه كان قد تعلم اللغة التركية في البصرة حيث تشكل العربية اللغة الاساسية والتركية لغة البلاط. وهذا امر طبيعي لأن اللغة الواحدة يمكن ان تتخذ عدة لهجات.

بعد أن أرسلت خادمي لشراء علفٍ للحصان، كان علي أن ألعب دور الطاهي وهذا ما جعلني ألاحظ تطيّر الأرمن الذي لم أكن قد لاحظته بعد. فعندما هممت بذبح دجاجةٍ كنت ملتفتاً باتجاه الشرق لكن سرعان ما أخبرني الارمن انه على المسيحيين الالتفات نحو الشرق عند ذبح الدجاج كما لو أنهم يريدون الصلاة. إلا أن البعض ظن انني أدرت رأسي باتجاه مكة كي يأكل خادمي المسلم من هذه الذبيحة. ثم فطنت إلى انهم يريدون معرفة صحة ديني من الطريقة التي أقطع بها رأس الدجاجة ففضلت منذ ذلك الحين عدم الخوض في أمورٍ كهذه.

في اليوم ١٨ أمضينا خمس ساعات في سهلٍ إلى أن بلغنا كورموج وتجاوزنا خليجاً من بوشهر إلى داخل البلاد حيث يصير يشبه النهر ثم ينحرف نحو الجنوب ويصب أخيراً في الخليج الفارسي، إن جزءاً كبيراً من كرمشير هو جزيرة بكل معنى الكلمة وسيصبح يوماً أرضاً صلبة إذا كان الخليج ضيقاً وقليل العمق في أماكن عديدة كما في هذه المنطقة. إن الارض بالقرب من هذا النهر خصبة. وتنغمر أحياناً بماء البحر لكن اذا ابتعدنا قليلاً تصبح الارض صالحة للزراعة مع أن القسم الاكبر منها غير مزروع بسبب قلة السكان.

تقع كورموج في منطقة جبلية وسط سهلٍ خصب، ويسكن فيها أمير ولاية شهيرة. عندما بدأ كريم خان يستولي على الولايات الواحدة تلو الآخرى في هذه المملكة، صار يجبر رؤساء القبائل الذين ارادوا اعتبار أنفسهم أسياداً بالوراثة أو أسياداً مستقلين على المكوث في مدينة شيراز أو على الانخراط في الجيش بحجة أنه يريدهم بجانبه لاستشارتهم عندما تدعو الحاجة أو لمساندته في المعارك لإحلال الأمن في بلاد فارس. إلا أن نية الوكيل الحقيقية كانت وضع هؤلاء الاسياد تحت رقابته كي لا تتملكهم الرغبة في الانتفاض عليه. من ضمن هؤلاء الاسياد هناك أيضاً سيّد كورموج. عندما كان هذا الأخير يغيب كان يوكل عمه ليحل مكانه باعتبار أن عمه رجل ثقة إلا أن أخيه الامام جعفر سَمَلَ عيني العم واستولى على الحكم منصباً نفسه الحاكم وآملاً في أن أخيه لن يعود. في هذه الاثناء أرسل كريم خان جيشاً إلى هذه المنطقة ولم يكن جعفر قد اكتفى بفقيء عيني عمه بل تعدى ذلك إلى ارتكاب فظاعات أخرى ولم يكن ينتظر الخير من جيش كريم خان

مع أنه يقال إن الامير كُنَيْه خان سردار أو القائد كان مكلفاً بإعطائه ثياب الشرف كدليل على احتفاظه بالحكم. لكن الأمير جعفر الذي كان مقتنعاً بالعكس كان يحضّر نفسه للقاء عدو. احتل ممراً ضيقاً في المنطقة الجبلية حيث كان على الجيش أن يمرّ لكنه لم يكن يتمتع بقوة كبيرة فهرب إلى الجبال المجاورة لكن سرعان ما ألقي القبض عليه ورفاقه واقتيدوا للمثول أمام القائد فأرسله إلى شيراز حيث حكم عليه بنقل تلةٍ من المدينة إلى خارج بابها[1]. مع تقهقر فريق الثوار هذا وتشتته ومع إخضاع مير مهنا إلى حكم كريم خان، قد يظن البعض أن قائد الجيش سيترك هذه المنطقة وسيسير مباشرة نحو بندرريغ إلا أن هذا العفو ليس من شيم الفرس أثناء المعارك. ما إن وصل الأمير كنيه خان إلى كورموج حتى قاد سكانها إلى القلعة وأجبرهم على هدم منازلهم وحرق أكواخهم ولم ينجُ من ذلك إلا المسجد وقبر أحد الأئمة (ويقال إنه من الأولياء). وجدنا سكان هذه المنطقة بحالة يأس شديد. استوليت على أحد منازل الأمير جعفر وكانت مدمرة جزئياً فوجدت فيها غرفتين صالحتين للاستعمال. كنت أظن أن بلاد فارس كثيفة السكان مثل اليمن حيث ننام كل ليلة تحت سقفٍ ما. لكن قبل رحيلي من بوشهر بفترة وجيزة سمعت أن احداً من المسافرين (وجميعهم من الفقراء) لا يحمل خيمةً معه وبما أني لم أشأ لعب دور الغني لأنه مكلف في هذا البلد، تركت خيمتي خلفي مما جعلني أعاني الكثير أثناء سفري إذ أمطرت كثيراً أثناء الرحلة وكنا مجبرين على النوم في الهواء الطلق في غالبية الليالي.

إن أسوار كورموج ليست أفضل من أسوار تنكشير. كنا نرى هنا وهناك حصىً وحجارة داخل السور. إن جدران المنزل الذي سكنت فيه كانت مصنوعة من الصلصال الممزوج بالقرميد والحصى. كان الخندق الذي يحيط بالقلعة جافاً مثل خندق تنكشير لكنه أكثر عمقاً ويبلغ وسعه عشرة أقدام وحيث تقع أكواخ الفقراء نجد حفراً عميقة كانت مزروعة قمحاً قبل أن يقتلعه منها القائد.

عندما عاد القائد الفارسي إلى جوار قلعته حفر خندقاً حول مخيّمه وبنى سوراً ارتفاعه خمسة أقدام من طين وحجار ونخيل اقتلعه من أرزاق السكان. وقيل إن الجيش الذي جمعه يتألف من ٤٠٠٠ فارس و٢٠٠٠ من المشاة إلا أن أحد الجيورجيين أخبرني ان عدد الفرسان لم يتجاوز ١١٠٠ والمشاة ٥٠٠ رجل قادرين على الحرب. وكان هؤلاء بعيدين كل البعد عن النظام. نصب كل واحدٍ خيمته أو بنى كوخه حيث أراد وربط حصانه في المكان الذي حلا له. إن الخيل الفارسية جميلة. يحمل الفرسان قربينات ومسدسات مزودة بحلقات إطلاق. يضع كل واحدٍ

(١) قد يجد الاوروبيون الكثير من العنف في عقاب كهذا خاصة ان الامير جعفر ينحدر من اصل عريق الا انها تتلاءم مع طباع كريم خان الذي يحب تعذيب اعدائه الضعفاء جسدياً.

مسدسين في وسطه، واحد من الامام وآخر من الوراء. يحمل المشاة بنادق مزودة بفتيل مع أن الأتراك لا يسمحون للمسيحيين بأن يصبحوا انكشاريين إلا أن الفرس لا يميزون بين مسيحي صالح ومسلم. ولقد التقيت في هذا الجيش بضباط وجنود جيورجيين ومسيحيين. ومع هذا فإن الأرمن واليونان يكونون ليّنين جداً في حضور العثماني الا اني وجدت الجيورجيين على جانب كبير من الفخر وكان ذلك يليق بهم كثيراً. وكانوا يحملون أسلحة جميلة كالبنادق والمسدسات والسيوف ويرتدون ثياب المسلمين.

لا يزال الفرس يقسّمون جيشهم كما في القديم ويعطون أسماء لضباطهم وفقاً لعدد الجنود الذين يرأسونهم. إلا اننا لا يمكن ان نقدر عدد جيش كريم خان من خلال عدد ضباطه إذ تعرفت على ضباط يجب أن يترأسوا ١٠٠ نفر لكنهم لا يترأسون إلا ٥٠ أو ٦٠ شخصاً، إن الضابط الذي يترأس عشرة عناصر يسمّى داغ باشي (Dag Baschi) والذي يترأس ٥٠ يسمّى ينشا باشي والذي يترأس ١٠٠ يسمّى أوزباشي وينسد باشي الذي يترأس ٥٠٠ ومم باشي الذي يترأس ألف عنصر. إن رئيس المم باشي هو السلطان وهو مرؤوس من قبل الخان. من المعروف أن التتر يلقبون رئيسهم بالخان والأتراك بالسلطان. يبدو أن رؤساء الفرس الأعلون المسمون شاه وباد شاه هم الذين يطلقون على ضباطهم الرئيسيين لقب خان وسلطان لزيادة أهميتهم في نظر أتباعهم حتى يظن الناس انهم يحكمون أعداداً كبيرة من السلاطين والخان.

عندما كنت ماراً أمام خيمة الأمير كنيه خان ناداني أحدهم وطلب مني أن أجلس. وجدت القائد جالساً على سجاد فاخرٍ يغطي أرض الخيمة لكني لم أجد أي أريكة كما عند الأتراك. أمام الخيمة رأيت عدداً من الخدم وجلاداً وكانوا جميعاً في وضعية الخضوع وقد كتّفوا أيديهم أمام جسدهم وكان الضباط من خانٍ وسلطان وأصحاب الرتب الدنيا لدى دخولهم وخروجهم ينحنون كثيراً أمامه وقد أسدلوا أيديهم حتى تشرف على ملامسة الأرض. كان الضباط المجتمعون يتكلمون الفارسية والتركية لكن احداً منهم لا يتكلم العربية. لكن بالقرب من السردار أي القائد جلس رجل دين يتكلم العربية بطلاقة ويصلح لأن يكون مترجمي. وكان الجالسون في الخيمة يعرفون مسبقاً أن بحوزتي آلة أراقب فيها الشمس في النهار والنجوم في الليل. طلب مني الامير كنيه خان بأدب أن أطلعه عليها. ظننت انه على اطلاع بعلم الفلك كما كان الباشا جدة (الجزء الاول) لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذا العلم. وهكذا حملت بعد الظهر آلتي إلى المخيّم لكن السردار أعفاني من مهمة تركيبها واكتفى بأن رأى قدمها ظناً منه أن الحديد فيها هو مرقب لرصد النجوم. في هذه الاثناء قدموا لي القهوة والفاكهة وطرح علي السردار أسئلة عديدة حول الحجاز واليمن وحالة الانكليز حالياً في بلاد الهند.

في مساء ١٩ مات فجأة بغّال من قافلتنا فصار أخوه يعرب عن حزنه من خلال بكاء حاد وصريخ وعويل. وكان احياناً يضرب رأسه أو يقرع صدره أو يضرب فخذيه ولشدة ما كان حزنه صادقاً حزنت من أجله وتمنيت لو أنه مات بين أهله في المدينة كي يبكوا عليه جميعاً ويحضروا نساءً لندبه إذ إن أحداً من جماعة القافلة لم يشاركه حزنه.

في اليوم ٢٠ انطلقنا من كورموج إلى لوار (Lauwar). بعد رحيلنا بقليل أوقف الحراس قافلتنا لأنا لم نأخذ تصريح مرور من السارادار. فتوقفنا ثم انتظرنا ساعتين وحسب إلى أن أحضر القروان باشي التصريح. في هذه الفترة تعرفت على عربٍ أخذهم نادر شاه بالقوة من بغداد وكانوا يعملون كجنود مرة عنده وأخرى عند خان الفرس الثاني.

تقع قرية لوار في سهلٍ شديد الخصوبة في منطقة جبلية وفيها قلعة ويحكمها رئيس بالوراثة كما في تنكشير. إن والد الريس الحالي قد مات على يد الامير جعفر السابق الذكر. وكان ابنه قد لجأ إلى كريم خان طالباً منه الثأر لأبيه ووعده بتزويد الجيش الذي سيأتي إلى المنطقة لهذه الغاية بالأعتدة. لكنه لم يستطع أن يلبي كافة طلبات الخان فعوقب بالجلد والفلق في قلعة كورموج.

في اليوم ٢١ مررنا بالقرب من لوار بطاحون على الماء لم أرَ مثله لا في مصر ولا في شبه جزيرة العرب. تُجر المياه على حائط طوله سبعة أقدام من جبل لا يبعد كثيراً عن الطاحون، وتكون شديدة السخونة يرتفع منها البخار[1]. ما أن ابتعدنا عنها مسافة نصف ساعة فوجئت لرؤيتي من الجهة الاخرى للجبل مياهاً تحرّك الطاحون. إن مياه الأمطار التي تنحدر من الجبال كانت قد تجمعت مشكّلة ما يشبه النهر ثم قطعت الوريد مما أدى بها إلى الصب في النهر كما لو انها آتية من المنبع. أدى ذلك إلى تعطيل عمل الطاحون مما أجبر صاحبه على إزالة الحائط من جهة الوادي الذي شكل النهر لجرّ ما يلزمه من ماء من جبلٍ إلى آخر. إن الطريق الذي يجب سلوكه من الجبل الأخير يبلغ ربع ميلٍ من حيث الطول وكانت المياه التي جرّت من الجبل أقل سخونة من المياه قرب الطاحون. إذاً لا شك أن هناك مصدراً آخر لتسخين المياه لتشبه القادمة من الجبل. إن الجبال في هذه الانحاء مكونة من صخور هشة).

من هنا كانت طرقنا صعبة المسلك في هذا اليوم، وأنا لم أجد أسوأ منها في اليمن. ولشدة ما كانت ضيقة أحياناً كان الحمار المحمل يتجاوزها بالكاد كما وأجبرنا من ١٢ إلى ١٦ مرة على عبور جداول صغيرة. رأينا على هذه الطريق الوعرة الملأى بالحجارة هياكل عظمية لخيلٍ وحمير سقطت هنا. من قافلتنا وقع حمار محمّل بالمتاع فكسر رقبته. فما كان من صاحبه إلا أن سلخ

---

(١) يقال انه بالقرب من فورموج هناك طاحون آخر يعمل على الماء الساخن.

جلده وباعه قطعاً قطعاً إلى أصدقائه الذين حولوا تلك القطعة في اليوم نفسه إلى أحذية إذ ان صناعة الأحذية كانت تقتصر على فتح ثقوبٍ في أطراف الجلد ووضع حزامٍ فيها ثم ربطها إلى الأرجل.

وصلنا عند بعض أشجار النخيل ثم اتجهنا شرقاً فبلغنا قرية تدعى سهو (Sehu) دمّرها لوار منذ بعض الوقت. في مكان أكثر علواً رأينا أن أمير كورموج قد دمّر لوار وأن جيش كريم خان قد دمّر كورموج أيضاً.

لا تزال أحوال الفرس مضطربة إلى اليوم ورغم ذلك كله يقال إن كريم خان قد أعاد إلى حدٍ كبير الأمان إلى هذه المملكة. ومع ان كريم خان ليس لديه أعداء إلا أن كل سيد قرية هنا يمكن أن يطالب باستقلاليته. الجار القوي يسيطر على أرض جاره الاضعف ولا يتدخل وكيل بلاد فارس بهذه النزاعات الصغيرة إلا أن يحصل أحد ما على ثروات طائلة أو يرفض دفع الجزية حينئذٍ يرسل الوكيل جيشاً يتابع هدم ما تبقى من القرى أو المدن التي يصادفها في طرقه والتي نجت من المعارك الاولى. لقد استمرت هذه الاضطرابات أعواماً كثيرة في بلاد فارس، ولم نعد نعجب من أن مملكة كثيفة السكان كما كانت بلاد فارس قد أصبحت اليوم قليلة العدد.

ليس الحكم التركي أفضل من الحكم الفارسي فأهل الحكم الكبار يؤجرون للباشاوات ولاياتٍ كبيرة كانت تشكل في الماضي ممالك قوية يؤجر الباشاوات بدورهم مقاطعات صغيرة للآغاوات وكل واحدٍ يفتش عن مصلحته فالجار القوي يستولي على أملاك جاره الضعيف دون أن يتدخل السلطان أو الباشا وكل ما يهم هو دفع الايجار السنوي. لكن في حال تأخر الايجار يحاسب الباشا الاغاوات ويحاسب السلطان الباشاوات ولا يكتفون بمعاقبة الجاني بل ويسلبون الأبرياء أرزاقهم. عندما يستحيل على هؤلاء المساكين بعد ذلك كسب قوتهم من العمل أو من صناعاتهم الصغيرة، يحاولون جاهدين الانخراط في جيش الحكام والعيش على حساب غيرهم من المواطنين وفي حال لم ينجحوا يتجمعون في فرقٍ كبيرة ويسرقون القوافل. ولعل هذه الاوضاع هي وراء وجود هذا العدد الكبير من الجنود وقطّاع الطرق في البلدان الإسلامية.

في اليوم نفسه رأينا مجموعة أخرى من سكان هذه الأنحاء وكانت تتألف من كميات هائلة من الجراد لكنه جراد مختلف لا يشبه الذي نراه في شبه جزيرة العرب والذي يؤكل[1]. كان رأسه أخضر اللون وجسمه مكسواً ببقعٍ سوداء وكان ضخماً لدرجةٍ تعيق طيرانه.

---

(١) السؤال ٣٢ للسيد ميكائيليس. (راجع وصف شبه جزيرة العرب).

في اليوم ٢٢ كانت الطريق وعرة كذلك. مررنا بقرية قناربندر التي لم يتبقَ منها إلا شجر النخيل، من كل الجهات كنا نرى مدافن كبيرة وقنوات ماءٍ مهدمة وجبال واسعة بدا أنها كانت مزروعة منذ سنوات قليلة. في هذا اليوم نصبنا خيامنا على بعد ٣ ٣/١ الميل من المكان الذي كنا قد خيمنا فيه الليلة الماضية في منطقة غير مزروعة تدعى سارمسبك أو سربيشه. وهنا أيضاً دونت ارتفاع القطب.

في اليوم ٢٣ مشينا ثلاثة أميال ألمانية نحو الشمال الغربي بدلاً من الشرق. نصبنا خيامنا قرب قريةٍ مدمرة تدعى تسانير (Tsenir) تنتمي إلى منطقة بوسقون (Busgun) التي كان رئيسها يجبر المسافرين المارين بها على دفع ضريبة مرور، أما اليوم وقد تمركز جيش بالقرب من القرية فلم يعد يتجرأ على ذلك. وكنا كلما تغلغلنا صعوداً باتجاه الجبال كلما وجدنا الجو بارداً. نحو الشمال الشرقي رأينا جبالاً مغطاة بالثلج.

في اليوم ٢٤ مررنا بجبلٍ عالٍ يدعى صندل (Sandel) وخيمّنا بالقرب من أويس (Auis) الواقعة بجانب سلسلة من الجبال الشاهقة نجد هنا عدة ينابيع مياه ساخنة وهناك واحدة نجد بالقرب منها غرفة يستعملها كل من يرغب بالاستحمام في هذه المياه. على الطريق نرى هنا وهناك صفوفاً من الحجارة كما لو أنها أساسات متينة ربما تكون بقايا القنوات التي أهملت مع مرور الزمن. منذ أشهر معدودة كانت أويس قرية معتبرة لكن مير مهنا سلبها وهدّمها فما كان من أهلها إلا أن هجروها. ويقال أيضاً إن فراش بند وهي قرية أخرى قريبة قد أصبحت تحوي ربع سكانها وحسب.

من قنار بندر إلى هنا سمعت الكثير عن أتراك يعيشون بالجوار لذا عدت أدراجي قليلاً للمرور بخيامهم. إن نمط حياتهم يشبه نمط حياة العرب المتجولين وخيامهم منصوبة على الطريقة العربية وقد ذكرتها في «وصف شبه الجزيرة العربية». أما ثروتهم فتتألف من الجمال والخيل والحمير والبقر والماعز. وهم لا يربون الماعز لحاجتهم اليها وحسب بل لأن الفرس أيضاً يحتاجونها إذ إن هؤلاء لا يعتمرون قبعاتٍ وحسب بل ويرتدون فروات من جلد الماعز وكلما كان الجلد شديد التجاعيد كلما دفعوا لقاءه مالاً أكثر، يقتل التركمان الماعز للحصول على جلدها فقط ويذبحون معها الحملان حتى قبل أن تولد. ومع أن الفرس والاتراك والعرب في المدن يخفون نساءهم عن عيون الغرباء إلا أن نساء التركمان لا يخجلن من إبراز وجوهن تماماً كالبدويات. ومن المعروف انهن نساء كادحات ويقال إنهن وراء صناعة السجاد الصغير الذي تصدّر منه بلاد فارس كميات كبيرة كل عام.

ومع ان صناعة هذا السجاد تعتبر أدنى نوعية من الصناعات المماثلة في المدينة إلا انك تعجب من أن هؤلاء البسطاء يجيدون صباغة الصوف وحياكة السجاد. تكلمت مع راع ينتمي إلى إحدى هذه العائلات المتجولة في بغداد ويعمل عند تركماني من هذه الانحاء وكان يتكلم العربية فأخبرني أن سيده يعطيه كل عام ١٢ حملاً وهكذا علمت أن الشعوب المتجولة في بلاد الشرق لا تزال إلى اليوم تعطي رعاة الغنم جزءاً من قطيعها كما في العهود السالفة.

في اليوم ٢٥ نصبنا خيامنا من الجهة الاخرى لقرية خانياك الواقعة في سهلٍ كبير وكنا قد رأينا عدداً من المستنقعات والجداول على طريقنا وكانت مياهها سيئة. بالقرب من هذه القرية رأينا قلعة سيئة المظهر بنيت بعد موت نادر شاه وكانت هي والقرية خاليتين من السكان الذين هربوا إلى قرية مجاورة تدعى نودجون (Naudjun). يقول ديودور (Diodore) إن سميرامس التي كانت في بلاد فارس جعلت قومها يحملون عدداً من التلال قبل أن تنصب عليها خيمتها بغية رؤية المخيّم بكامله من أعلى. نرى بالقرب من خانياك تلة مرتفعة لها شكل الوتد المقصوص. إلا أنها لا تبدو قديمة العهد إذ نرى كثيراً في تركيا الأوروبية تلالاً حملها الجيش التركي لينصب عليها خيمة السلطان وهي بالتالي حديثة العهد ومن الممكن أن يكون شاه بلاد فارس قد وضع هذه التلة قرب خانياك للغاية نفسها.

في المنطقة نفسها رأيت عائلة من الأكراد المتجولين. لم تكتف هذه الأمة بالانتشار في بلاد فارس بل وأيضاً في سوريا وبلاد ما بين النهرين وقد حافظت في كل هذه الانحاء على لغتها المتعددة اللهجات والتي تحتوي كلمات فارسية وتركية وعربية.

كانت قافلتنا تتألف من السنة والشيعة والأرمن والجيورجين أو اليونانيين وكاثوليكي واحد وبعض اليهود. كان السنة والشيعة يصومون منذ بداية شهر رمضان. في هذا الشهر لا يأكلون إلا أثناء الليل ويفرطون في الأكل لكن منذ طلوع الشمس وحتى غروبها لا يجرؤون على تناول شيء ولا حتى التدخين. إذاً فصيامهم متعب. في هذا اليوم نفسه بدأ شهر الصوم عند المسيحيين الشرقيين ولا يتجرأ هؤلاء على تناول اللحم أو السمك أو الحليب أو الزبدة طيلة هذه الفترة. إن الأرمن دقيقون جداً في الصوم ويجبرون أولادهم الصغار على الالتزام به. ولشدة ما تعب طفل منهم يبلغ من العمر ثلاث سنوات أعطيته بنفسي بعض الحليب. لم يكن رفيقي الأرمني الإيطالي قد تناول اللحم منذ ثمانية أيام وكنت أنا واليهود نصوم معه معظم الأيام إذ نادراً ما كنا نحصل على اللحم. وهكذا يمكن القول إن القافلة بكاملها كانت تصوم.

في اليوم ٢٦ لم نمشِ أكثر من ميلين ألمانيين وتابعنا السير إلى قرع (Cara) وهي قرية حديثة العهد قرب جدول صغير يصب في جدول أكبر. بالقرب منها نجد على جزيرتين قلعتين اثنين

حالتهما مثل حالة قلاع كورموج. لا نرى من قلعة قرية قرع القديمة إلا بعض الآثار علماً انها كانت تشكل في الماضي مكان إقامة بغ (Beg lerbeg)[1].

في هذه المنطقة رأينا الكثير من الأراضي المزروعة ومن القنوات المحفورة تحت الأرض والتي كانت تستعمل لجرّ الماء إلى الأراضي المفلوحة بغية ترطيبها. في العصور الغابرة كانت الزراعة متقدمة جداً بفضل هذه القنوات.

وقد حافظ المسلمون عليها لكن منذ أن صار الحكم جائراً وبالتحديد في أيام الاضطرابات الداخلية، أصبحت المنطقة فقيرة وخالية من السكان فلم تعد هناك إمكانية للاستمرار بهذا النشاط.

على بعد ثمانية فراسخ من قرية قرع هناك مدينة تدعى كازرون. وبين هذين الموقعين يقع جبل قمريش (Kammeritsch) وقد هزم أسد خان يوماً بالقرب منه على يد كريم خان.

في اليوم ٢٧ مررنا بجبل شديد الارتفاع لكنه لم يكن أكثر ارتفاعاً وتعرجاً من جبل سمارة أو معرّس (M'harras) في اليمن. نصبنا خيامنا في الجهة الثانية بالقرب من نهر. إن أسماء الجبال والأنهار في اليمن معروفة كأسماء المدن والقرى. هنا لم يعرف الناس اسم هذا الجبل العالي وهذا النهر مع انه كان كبيراً. قال لي البعض انه يدعى مسغون (Mosgun) وربما كان هذا الاسم يطلق على قرية في هذه الأنحاء.

ومع أن الجبال المجاورة كانت كلها مغطاة بالثلج في هذا اليوم إلا ان الثلج زال بكامله في اليوم الثاني بعد هطول وابل من الأمطار.

في ٢٨ شباط/فبراير سرنا فوق تلالٍ مكسوة بشجر اللوز البري والسنديان. كانت رحلتنا متعثرة بعض الشيء بسبب الأمطار والبرد. فبعد أن سرنا ميلاً ونصف الميل نصبنا خيامنا لمدة ثلاث ساعات ونصف. توجهت نحو قرية رمشون المجاورة فاستأجرت فيها بيتاً أتقي فيه الطقس الرديء وأحضرت الخشب ورجوت بعض الأرمن مقاسمتي سبل الراحة هذه. ثم جاءت بعض النساء الأرمنيات مع أولادهن وكن سعيدات بالمكان الذي أعطيتهن إياه قرب الباب لكني خرجت قليلاً فاستبدلن مكانهن مع الرجال ولدى عودتي وجدت أن الحريم قد أصبحن أمام موقدي. كانت النساء جميعهن قد أخفين وجوههن أثناء الرحلة وابتعدن عن صحبة الرجال الغرباء. لذا وجدت أنه من غير الأدب أن أجلس إلى جانبهن أو أن أطردهن من قرب الموقد.

---

(١) إن القرى التالية حتى اليوم تنتمي الى اراضي قرع وهي: شارد، دستش، كفر علي، سويسكون، صاركون، كوروشان، بولاده، غريب عبد، مكرم علاده، كولوشرد، دحدين، تموم، أنطاري، بدست.

كنت أود إشعال النار في جهة أخرى من المنزل لكن الرجال كانوا يدخنون فيها بكثرة ولم أكن أحتمل المكوث في جوٍ كهذا كما لم أستطع استئجار منزلٍ آخر. وهكذا لم يبق لي إلا أن أنتظر بصبر أن تجف ثياب رفاق رحلتي قبل أن أقترب من النار كما اضطررت إلى التنازل عن أفضل مكانٍ في منزلي لتنام فيه النساء وأولادهن. كانت العاصفة هوجاء ومصحوبة بالمطر والبرد والثلج. ولأن النوافذ لم تكن مزودة بمصاريع ولأن السقف كان شديد الرداءة، صار المطر يتسرّب إلينا. فأجبرت على نقل فراشي من مكانٍ إلى مكان دون أن أجد مكاناً جافاً أقضي ليلي فيه. في الليل طرأت حادثة أخرى: تستند منازل هذه القرية إلى جبل منحرف. كان بيتي في الطابق الثاني وكان حصاني في اسطبل لا يبعد عني كثيراً إلا أن أرض الاسطبل هبطت ووقع الحصان من المنزل إلى منزل مضيفي تحتي. في صباح اليوم التالي علمنا انه لكثرة ما ازداد مستوى المياه في نهرٍ كنا سنبحر فيه استحال علينا متابعة سفرنا من خلاله لكني بالرغم من ذلك سعدت لإمكانية بقائي ٢٤ ساعة أخرى في القرية بسبب كميات المطر والبرد المتدفقة.

كانت الجبال المجاورة لا تزال مكسوة بالثلج. يقال إنه بالقرب من رمشون هناك جبل يستخرج منه الملح الصخري.

في ٢ آذار/مارس مررنا بنهرٍ يلتقي بعدة أنهارٍ أخرى ثم يتجه نحو قرية قرع قبل أن يصب في الخليج الفارسي بين بوشهر وبندر ريغ. بعد ذلك مررنا بنهرٍ آخر أكبر حجماً يدعى رضبونا (Radbune) ووضعنا الرجال عند شرقه. يقال إن هذا النهر يتابع طريقه نحو فيروز آباد، وإنه بين هذين النهرين تقع قرى مفر (Mofor) وبندو ودسلب (Desalb) ورتشي وقتلي وقربس (Karabas) وقرى أخرى.

في ليل ٢ ـ ٣ آذار/مارس تساقط البرد بغزارة وصارت طبقة الجليد فوق الماء بسماكة ظهر سكين. في هذا اليوم مشينا ٣ أميال ونصف ألمانية وخيمنا قرب تشينار رضّار حيث يدفع المكس في منزلٍ عند النهر. على الطريق بين بوشهر وشيراز هناك ستة مراكز لجني المكوس. يقول البعض إن الأوروبيين غير مجبرين على دفع أي ضريبة إلا أن موظفي الجمارك في بلاد فارس يحبون الحصول على بعض المال. ويستحسن في هذه الحالات ألا نحاول التمسك بحقوقنا. إن مدينة شيراز التي وصلنا اليها في ٤ آذار/مارس لا تبعد عن تشينار رضّار إلا ميلاً ونصف باتجاه الشرق.

لقد صرفنا إذاً ١٨ يوماً للذهاب من بوشهر إلى شيراز مع ان أي كان يمكن أن يقوم به في ستة أيام. ولم يكن سبب تأخرنا يكمن وراء رداءة الطقس والتحول عن الطريق عبر كورموج وحسب بل وأيضاً لأن غالبية بضائعنا كانت محملة على حمير سيئة يصعب عليها القيام برحلات طويلة.

في شيراز نزلت عند السيد هركول وهو تاجر انكليزي ينحدر من عائلة عريقة ويهتم بأعمال السيد جرقس في هذه المنطقة. ولقد عاملني السيد هركول بكثير من اللياقة والتهذيب تماماً كما فعل السيد جرقس في بوشهر.

وكان يعيش في هذا المكان بعيداً عن العالم لأنه كان الأوروبي الوحيد في شيراز ولأن علاقة الصداقة الحميمة لا يمكن أن تنشأ بين مسيّحي وفارسي. فالفرس كالشيعة تماماً يعتبرون أبناء الديانات الاخرى مدنسين وذلك بالرغم من أنهم شديدو التهذيب في التعامل[1]. من بين عدد الأرمن القليل هنا، هناك ضابط في المدفعية في جيش كريم خان يمكن أن يزوره السيد هركول. تعلم هذا الضابط اللغة الانكليزية عندما كان يمارس التجارة في البنغال وكان حالياً مترجم السيد هركول. وكانت إقامة هذا الأخير في شيراز مزعجة لأنه كان عليه احترام أسياد المدينة وتجارها الكبار كان يتكلم بطريقة معينة وألا يظهر إلا على ظهر الخيل في الشارع وأن يصحب معه دائماً عدداً كبيراً من الخدم.

في مدنٍ أخرى كنت أرتدي دائماً ثيابي الغربية من دون أن ينتبه الناس إلى شخصي لم يكن يهمني ما إذا كانوا يعتبرونني أوروبياً أو مسيحياً من الشرق أم شخصية بارزة أو أحد الفقراء إذ لم أكن أكترث إلا بمتابعة ملاحظاتي. في شيراز كنت أقدم نفسي على أني أوروبي فحرمني ذلك من التجول في كافة الأنحاء بسبب مضيفي. إلا إني تعرفت هنا على شخصياتٍ فارسية بارزة كانت تأتي لزيارة السيد هركول وقد سعدت بمعرفتها. من بين هؤلاء هناك تاجر كبير يتكلم العربية بطلاقة. لقد أطلعني على معلوماتٍ هامة تتعلق خاصة بالثورات الرئيسية التي حصلت في هذه المملكة منذ موت نادر شاه إلى اليوم حيث لا يزال التاريخ مصبوغاً بقصة هذا البطل أو ربما هذا الطاغية[2].

تقع مدينة شيراز في سهل شديد الخصوبة، تحيط بها الأسوار والخنادق. إلا أن السور مصنوع من الصلصال والطين مثل باقي الأسوار الفارسية الحديثة العهد. من الداخل ثلث المدينة فيه أبنية أما المساحة الباقية فهي إما مهدمة أو مزروعة قمحاً.

ويبدو أن كريم خان الذي ذاع صيته بسبب شجاعته وبأسه ووفاء الشعب له لا يألو جهداً

(١) إن شاردان (Chardin) الذي أمضى عدة سنوات في بلاد فارس والذي تعرّف عن كثب الى عادات سكانها يصف طباع هؤلاء بدقة في كتاب «اسفاره» في الجزء III ص ٤٥ ولاحقاتها.

(٢) تاريخ نادر شاه بقلم ميرزا محمد مهدي خان، ترجمه من الفارسية الى الفرنسية السيد غيوم جونز ومنها الى الالمانية.

للنهوض بهذه المدينة وجعلها تستعيد عزّها الماضي. فقد بنى لنفسه فيها قصراً وزرع حوله حديقة رائعة الجمال وأجبر عدداً من الشخصيات البارزة من مختلف المناطق الفارسية على الإقامة في شيراز نتيجة لذلك تجمّلت المدينة وصار هؤلاء ينفقون أموالهم فيها فاستعادت التجارة نشاطها. في المدن الشرقية عادة، قلما يهتم السكان بالداخلين والخارجين إليها، أما في شيراز فيستطيع من شاء أن يدخل إلى المدينة، لكن إذا أراد شخص غير معروف أن يخرج منها فإن عليه أن يبرز تصريحاً بالمرور للحرس. ولا يسمح لأي امرأة بالخروج من المدينة خوفاً من أن يكن مساجين تنكروا بزي النساء للفرار. وهكذا كان على نساء الأرمنيّات اللواتي أتين في قافلتنا أن يبقين بالقرب من باب المدينة.

في الخامس من آذار/مارس، قدّمني السيد هركول إلى بكلربك فرسستان[1] المقيم في هذه المدينة. امتطينا أنا والسيد هركول والمترجم الخيل بينما مشى الخدم الأرمن الأربعة أمامنا وقد أمسكوا عصيّهم بأيديهم. قلّما يذهب أي قنصل أوروبي لحضور الاجتماع العام الذي يعقده باشا القاهرة دون أن يسمع الشتائم من عامة الشعب وهذا بالرغم من أن بعض الانكشاريين يمتطون خيلهم ويسيرون أمامه، أما في شيراز فلم نسمع أي كلمة خارجة عن حدود الأدب. عندما مررنا بشارع السوق حيث تبلغ الزحمة ذروتها من جهتي الطريق لم يخشّ الأرمن من تخويف المسلمين بعصيهم إذا لم يفسحوا الطريق أمامنا. بني قصر البكلربك منذ فترة غير طويلة ويقع في ساحة كبيرة مزروعة. المبنى الخارجي لا يختلف عن منزل أي بورجوازي ووراءه هناك السكن الأساسي والساحة حيث يوجد خزان كبير للمياه وبعض النوافير. اقتادونا إلى صالة كبيرة تكسو أرضها سجادة كبيرة رائعة الجمال لكن بدلاً من الكنبات التي نراها دائماً مسنودة إلى الجدران في غرف الأتراك لم أرَ إلا سجاداً من اللبد أقل جمالاً من السجاد الفارسي العادي كما ولم أرَ أية أرائك مسنودة إلى الحائط مما يدلنا أن الفرس لا يتوقون مثل الأتراك إلى الحصول على سبل الراحة. استقبلنا رئيس التشريفات أنا والسيد هركول أمام باب هذه الصالة وقادنا إلى البكلربك.

أثناء حضوري الجلسة العامة أنا وأصدقاء رحلتي عند باشا القاهرة، قبلنا جميعاً طرف ثوبه. في جدة انحنينا أمامه كثيراً. أما في صنعاء فقد قبلنا ظهر يد الإمام وباطنها وثوبه وركبته. وفي كل هذه الأماكن لم يطلب منا أحد أن نجلس. هنا في شيراز وجدنا كرسيين في وسط القاعة جلسنا عليهما بعد أن انحنينا كثيراً لإلقاء التحية. كان البكلربك يدعى صادق خان وكان الأخ الأكبر

(١) في النسخ الاولى من كتاب محمد مهدي خان الذي تكملت عليه آنفاً، رأيت صور نادر شاه وصوراً للمغول (Mogol).

للوكيل كريم خان ومع ان هذا الأخير لم يتوصل إلى حمل لقب حاكم بلاد فارس كذلك أخوه لم يكن سعيد الحظ كثيراً لكن يقال إنه يتعلم منذ فترة هو وأبناءه القراءة والكتابة فهو إذاً أكثر ثقافة من أخيه الوكيل. هناك أشخاص متخصصون يديرون الأعمال الهامة في هذه الولاية أما البكلربك فيهتم بأمور الشرطة خاصةً تماماً كسلطان القسطنطينية.

قبل وصولي إلى هذه المدينة بيومين أمر باعتقال لحامين يبيعان لحوماً فاسدة فعلقهما بمسمارٍ من آذانهما إلى عامود وتركهما فترة بعد الظهر كلها على هذه الحال. في هذه المناسبة عممّ على الجميع أن كل لحام يقترف هذه الجنحة سوف يقطع إلى قسمين. وهو يتكلم وجدته وقوراً جداً. وقد أكّد انه سيقطع رأس كل من سيتعرض لي بالأذى خلال رحلتي.

كان رئيس التشريفات يمسك غصن أسل بيده ويقف بيننا وبين البكلربك تماماً كما كان يقف الفقيه أحمد بيننا وبين الامام في صنعاء. تكلم السيد هركول بالانكليزية مع مترجمه الذي خاطب رئيس التشريفات بالفارسية وهي اللغة التي يفهمها البكلربك إلا أن رئيس التشريفات عاد وكرر الكلام على مسمعه. (لست أذكر ما إذا كان هذا الاخير يتقن اللغة التركية لأن ذوي الحسب والنسب من الفرس يتكلمونها). ولاحظت أن رئيس التشريفات لا يكتفي بالانحناء عندما يخاطب البكلربك بل ويترك عصاه تسقط منه فوجدت في الأمر الكثير من الغرابة.

بعد الجلسة قادنا أحد أصدقاء السيد هركول المقربين من بكلربك في جولة داخل القصر وأراني بعض الأجنحة. في جناحٍ منها مجاورٍ لقاعة الجلسات كانت الجدران مغطاة بالمرمر الجميل والأرض بالسجاد الفاخر.

على طول الجدران رأيت مرايا أوروبية الصنع ووجدت أكثر من عشر لوحات تصور أشخاصاً وهذا لم أكن أتوقع رؤيته في بيتٍ مسلم. إلا أن الشيعة لا يخشون كالسنة من عرض صور الأشخاص خوفاً من اتهامهم بالوثنية. إن رسوم الفرس سيئة لكن ألوانهم رائعة الجمال، كانت غالبية الصور تظهر أزياءً فارسية، إحداها تبرز امرأة نصفها مكشوف وأخرى تبرز امرأة شبه عارية تستحم.

بعد ذلك زرنا حريم النساء ولم يكن قد جُهِّزَ بعد وبالتالي كان خالياً من النساء. كانت غرفه صغيرة جداً. في إحدى هذه الغرف رأيت عامودين مستطيلي الشكل ملبسين بالمرايا وفوق المرايا أعمال نحتٍ جميلة تغطي المفاصل: رأيت مرايا بشكل نجوم في السقف وفي غرفةٍ أخرى كان السقف والجدران مزينة كلها بالمرايا التي بلغ طول بعضها أكثر من قدمين. أما في الغرف الاخرى فكانت المرآة الأكثر ارتفاعاً لا تتجاوز القدم الواحدة. وجدير بالذكر ان المرايا وزجاج النوافذ

الأبيض والملون كانت من صنع شيراز. كان البكلربك ينام في قلعة مستديرة بناها خلف المنزل وكانت الحراسة حولها وفيها مشددة.

لم أجد في شيراز بستاناً يستحق الذكر سوى البستان الذي أمر كريم خان بزرعه. ومن غير المجدي البحث عن نباتات نادرة هنا أو في أي مكان في البساتين الشرقية إلا أننا نرى هنا عدداً من الاشجار المثمرة. في وسط البستان هناك مبنى مستطيلاً مرتفعاً سقفه صيني وله جناحان. إن البهو في المبنى الأساسي مستطيل الشكل هو أيضاً ويمرّ بالطابقين. في الأعلى هناك رواق وفي الزوايا حجرات صغيرة. أما زجاج النوافذ فصغير الحجم وكله ملوّن. في الأسفل كانت الجدران مغطاة بالمرمر. أما ما تبقى فكان مغطىً بزينةٍ من الأزهار المكسوة باللون الذهبي وبألوان مشرقة أخرى. وحتى خارج المبنى الرئيسي رأيت لوحاتٍ تمثل الأشخاص وكانت ملونة. داخل البهو الكبير وأمامه هناك نوافير ماءٍ في كلا الجناحين وفي الطابق الثاني رأيت بهواً كبيراً مفتوحاً من جهة. وباختصار لم أجد في تركيا كلها ومصر وشبه الجزيرة العربية منزلاً مشيّداً بهذا الذوق الرفيع كما المنزل هذا. كان أحد أطراف أحد الجناحين يستند إلى جدار الحديقة وكانت فيه ساحة مربعة محاطة بجدارٍ لا بأس به فيها مساكن صغيرة تشبه الثكنات وتستعمل عندما ينزل الوكيل هناك لبعض الوقت. من الجهة الأخرى من الساحة هناك مبنىً مرتفع وضيق المساحة يقال إن الموسيقيين يقفون تحته كالعازفين على الطبل. والنافخين في المزمار لأن الموسيقى العسكرية الفارسية سيئة كموسيقى الأتراك. كما ويستعملون في غرفهم آلات وترية وآلات أخرى عذبة الصوت وتكون هذه الموسيقى أقل بشاعة من موسيقى العرب والأتراك.

إن الزجاج الذي يصنّع في شيراز يكون أبيض اللون بعض الشيء ونوعيته جيدة. وإني لم أرَ قط زجاجاً أسود اللون إذ حتى الزجاجات التي يعبّأ فيها النبيذ كانت مصنوعة من زجاجٍ أبيض أملس يغطى كلياً بالسوحر.

تشتهر آلات التبغ بجودتها لأن الطلب عليها كثير ويعني ذلك ان المصنعين يبذلون الجهود في إتقانها شرط أن يُدفع لهم جيداً. لهذه الآلات شكل غليون كريم خان المعدني الذي ذكرته في المجلّد الأول والمرسوم في اللوحة ١٥ أما قعرها فهو مغطى بزهراتٍ زجاجية ملونة ليست مرسومة من الداخل بل ترتكز عمودياً على الساق مما يعطي تأثيراً جميلاً.

في أحد الأيام رأيت هنا المدافع بالقرب من الترسانة كانت تقف كلها على عرباتٍ رديئة لها ثلاثة دواليب وبين المدافع رأيت مدفعي هاون يرتكزان على عرباتٍ مماثلة. إن المسؤول عن هذه المدافع هو جيورجي كان يخدم في الجيش الفارسي في الماضي ثم اعتنق دين محمد (الدين الإسلامي) وأصبح اليوم خاناً يخدم عند الوكيل. ومن المعروف انه من أهم عناصر المدفعية في

بلاد فارس. يقال إن نادر شاه لطالما أراد أن يقطع هذه المدافع أجزاءً صغيرة ليتمكن من نقلها على ظهر الجمال والبغال لكن ذلك يجبره على تذويبها أمام المدينة التي يريد مهاجمتها مما يكلفه الكثير من المال والوقت، لذلك عدل عن تنفيذ فكرته هذه. ويقال إن الخان الذي تكلمت عليه آنفاً ذوب عدة مدافع هنا مؤلفة من قطع صغيرة يمكن نقلها على ظهور البغال[1].

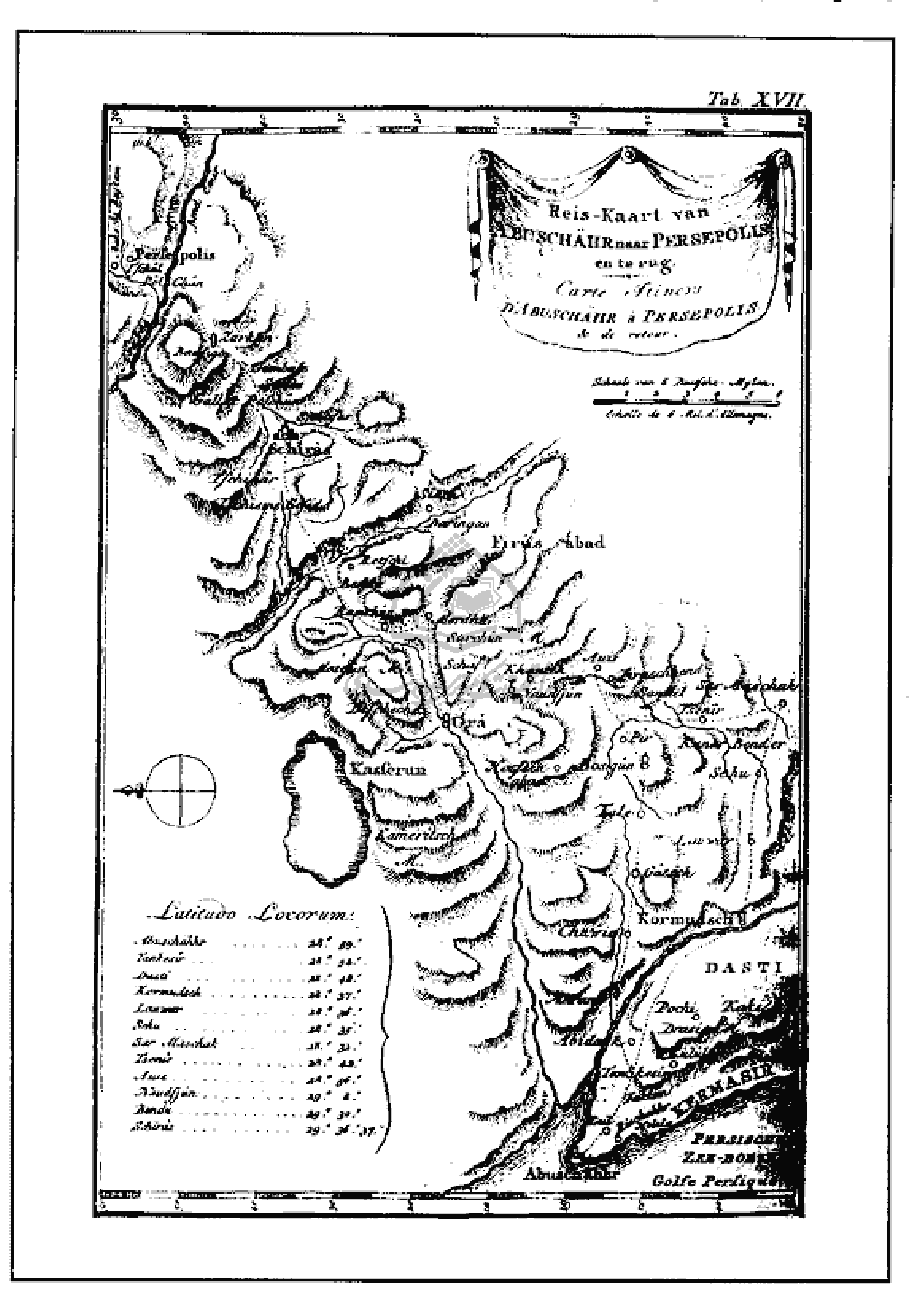
وقد وصفوا لي شكل أحد هذه المدافع الذي يقذف ٩٠ ليبرة من النحاس[2]. يتألف هذا المدفع من ٤٠ قطعة يحملها عشرون بغلاً. لكلٍ من هذه القطع أو الحلقات ثمانية ثقوب حول الدائرة تمرّ فيها ثمانية قضبان من الحديد عند تجهيز المدفع. يقال إن هذه المدافع من الباب الاول من حيث الصناعة والاستعمال وهي أفضل من مدفعٍ آخر جمع الخان قطعه بواسطة البراغي. في ما تبقى فإن القطع الفنية الصغيرة هذه ليس لها قيمة خاصة. لا يزال مدفعيو بلاد فارس لا يجيدون استعمال القذائف وعلمت في الشارقة أن الأمير كنيه خان كان لديه مدفع قرب بندر رغق لكن القذيفة التي كان يفترض بالضابط أن يرميها على المدينة قتلت عناصر من جماعته.

إن الفرس لا يرتابون أبداً إذا عرفوا أن أجنبياً يريد رؤية آثار بلادهم ولو اني ذهبت إلى برسيبوليس دون أن أبوح بأي تفصيل لما ارتاب احد في أمري. لكن بما أن جابي الضرائب في القرى المجاورة للآثار يسكن في شيراز طلبت عنوانه من السيد هركول ورجوته إعطائي رسالة توصية أعطيها لرئيس القرية. ولم يكتف هذا السيد الفارسي بمنحي الرسالة التي أردت بل أرسل أحد خدمه لمرافقتي في رحلتي. انطلقنا في اليوم ١٢ من شيراز. بعد أن تجاوزنا باب المدينة قطعنا جسراً طويلاً عالياً بُني على نهرٍ يجري من الشمال إلى الجنوب. على بعد ربع ميلٍ ألماني من المدينة وصلنا إلى بابٍ ضخم ورائع الجمال مصنوع من الحجر المنقوش.

لم يبقَ من المباني العديدة التي كانت تقع خارج باب المدينة وقرب الجبال المجاورة إلا أطلال حزينة ولم يتبق من الضاحية التي كانت تقع بين هذه المنطقة وشيراز إلا مسجدين. وصلنا إلى زركان بعد خمس ساعاتٍ ونصف بعد أن مشينا في طرقاتٍ جبلية وصخرية. لقد أصبحت السهول الأكثر خصوبة جرداء قاحلة وحتى الأشجار بدت وكأنها تشتكي من الحروب الداخلية التي لا تنتهي والتي تركت آثاراً كبيرة في المنطقة. فالجداول وقنوات الماء التي كانت تسقي جذورها قد تحوّل مجراها أو هُدمت كلياً. ولم أرَ أي أثرٍ لقرية كانت مبنية في الجوار. على

(١) في بلاد فارس يكثر النحاس فيستعمل في صناعة قذائف المدافع.

(٢) اشرت الى الاعمدة المنتصبة، بدائرة مزدوجة، على الخارطة والى الاعمدة المتهدمة بدائرة واحدة، اما العلامة ٨ فتشير الى وجود قنوات للمياه.


Tab. XVII.
Reis-Kaart van
ABUSCHÄHR naar PERSEPOLIS
en te rug.
D'ABUSCHÄHR à PERSEPOLIS
Persepolis
Schirâs
Firûs ábad
Ará
Kasferun
Kormudsch
DASTI
KERMASIR
Abuschähr
Golfe Persique
Latitudo Locorum:
Kormudsch .... 28.° 37.'
Bendu .... 29.° 30.'

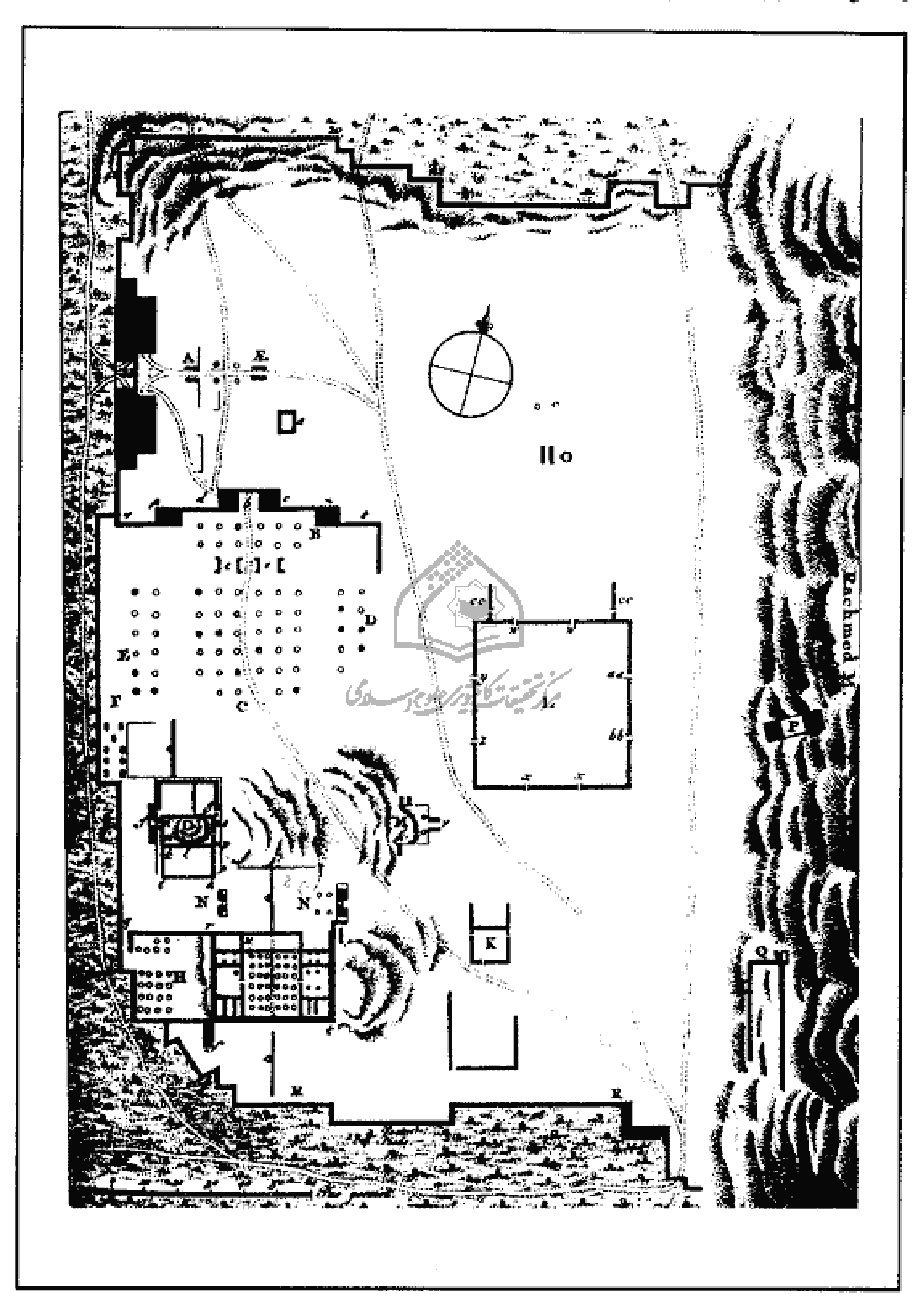
الطريق نفسها أروني آثار منزلٍ واقعٍ بالقرب من شجرة ذائعة الصيت اضطر حاكم من حكام شيراز أن يرتدي بزّة الشرف بقربها وأن يذهب على ظهر الخيل في مسيرة إلى المدينة لأن الشاه كلّفه بذلك.

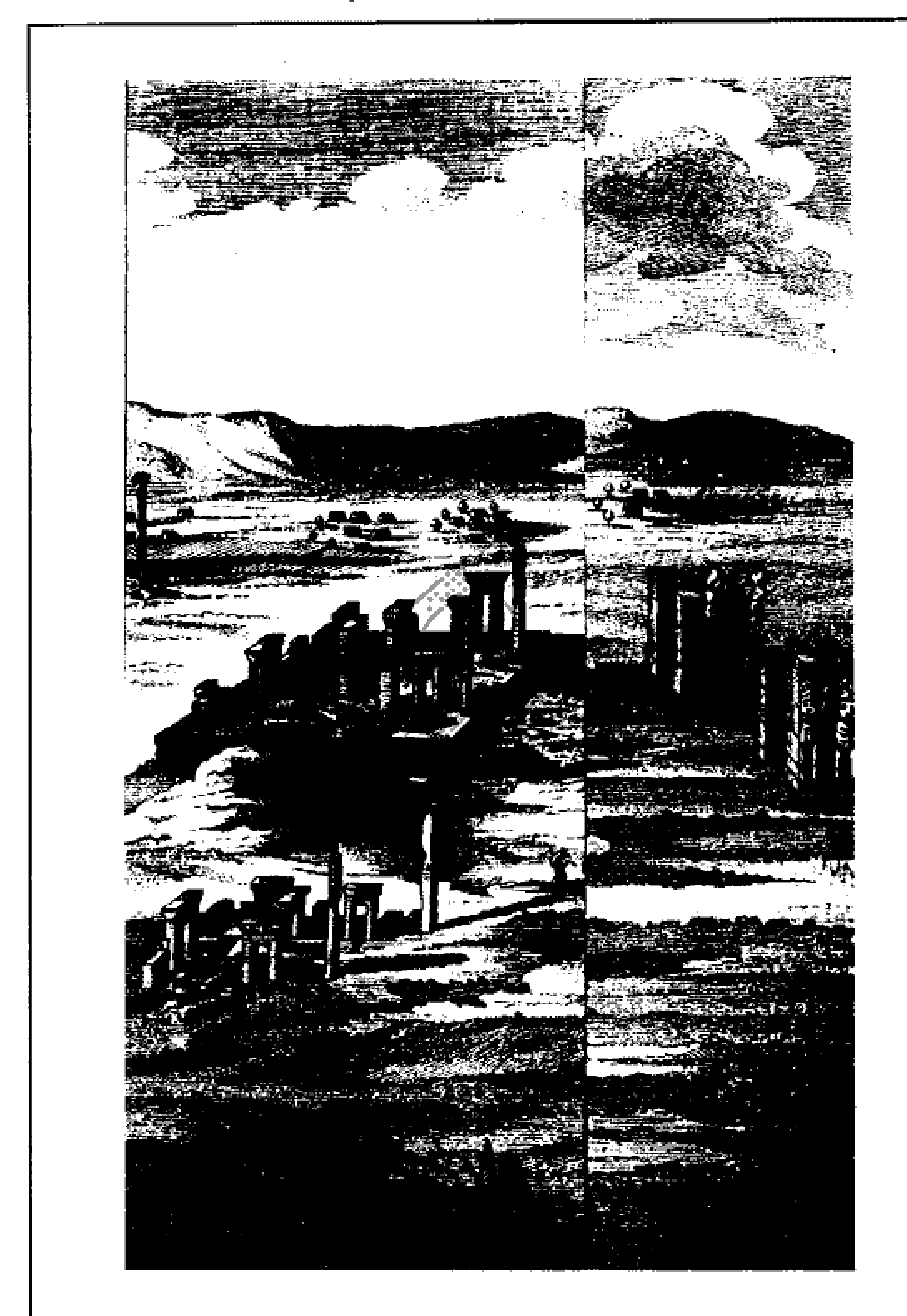
يشبه شكل قرية زركان شكل الهلال وتقع على جبلٍ عالٍ. في طرفها الأسفل هناك سور ضعيف ارتفاعه سبعة أقدام. في جوار هذا المكان نشبت معركة منذ عدة سنوات بين خانين فما كان من الرابح، إلّا أن سجن كافة السكان وهدم منازلهم لذلك لا نجد إلا بقعة صغيرة من جهة الجبل مأهولة بالسكان. كانت جدران منازل المزارعين تتألف من الطين أو القرميد المجفّف بأشعة الشمس كما في سائر القرى الفارسية التي رأيتها أما السقوف فكانت منحنية ومغطاة بالقش. كنا في شهر رمضان شهر الصوم عند المسلمين فلم يكونوا يأكلون ويشربون طيلة النهار. وكان دليلي يأكل في المساء ويعد ثلاث وجبات ما بين غروب الشمس وشروقها. في إحدى الأمسيات أرسلوا إلي دجاجة عظامها سوداء ولست أدري إذا ما كانت دجاجة من جنسٍ خاص أم أن العظام تصبح سوداء بسبب العلف الذي يطعمونها إياه إلا أن هذا الصنف رائج في بلاد فارس ويعتبر أفضل نوعية من الدجاج ذات العظام البيض.

في اليوم ١٣ من شهر آذار/مارس صرفنا ساعتين إلى أن وصلنا إلى نهر بند أمير (Bend Emir) وهو الأراكسس (Araxes) الذي ذكره الكتّاب اليونانيون. على امتداد هذه الطريق لم أرَ قريةً واحدة. إن النهر السابق الذكر سريع جداً ويبلغ طول الجسر المبني فوقه من القرميد ٣٠٠ قدم. منذ شيراز وحتى الجسر كنا نسلك طريق اصفهان فتركناه هنا واتجهنا نحو الشرق مباشرةً نحو آثار برسيبوليس ومع اني كنت متأكداً من عدم وجود أي قرية مجاورة أحطّ فيها رحالي إلا اني كوّنت أفكاراً مسبقة عن روعة هذه الآثار وفقاً لما قرأته وسمعته عنها ولم أستطع التخلي عن فكرة عدم رؤيتها. قادني دليلي عند المساء إلى مردست (Merdast) وهي قرية تعيسة تقع على بعد فرسخٍ جنوبي الآثار. هنا توددّت إلى القلنطار أو رئيس القرية الذي رحب بي واستقبلني بأدب ثم دلني إلى غرفة في منزلٍ صغير كانت تعتبر مسكناً للمسافرين.

وصف انقاض برسيبوليس

لم تعد انقاض مدينة هليوبوليس، عاصمة مصر قديماً، وانقاض مدينة ممفيس، الواقعة في منطقة سهلية خصبة، في مكانها الأساسي، فبعد تهدمها، نقلت حجارة الاصرحة إلى العواصم الجديدة، بينما دفن ما تبقّى منها تحت التراب، كما واستعملت اراضيها لزراعة القمح. أما أهم بقايا مدينة برسيبوليس، التي لا تزال تثير اعجابنا، فهي بقايا معبد أو قصر ملكي، يتميز بعظمة حجارته، وموقعه


Rachmed



الجميل، وارضه المغطاة بالرخام، شأنه شأن الأهرام، في جوار القاهرة. يسمي الفارسيون هذه الآثار تخت جمشيد أي مقر جمشيد ظناً منهم ان هذا الأخير وهو أحد ملوكهم القدامى، قد وضع حجرها الأساسي. ويعرفها البعض باسم تشيل ـ منار أو الأربعين عاموداً، ولعلهم اطلقوا عليها هذا الاسم لأن المسلمين وجدوا فيها عاموداً منتصباً عند وصولهم إلى بلاد فارس. أما اليوم فنشاهد داخل الأسوار ١٩ عاموداً، واحد في الركن الجنوبي ـ الغربي، وآخر على بعد ميلين ونصف، واثنان في إصطخر Istakr. يبلغ طول الطريق الممتد من شيراز إلى تشيل ـ منار سبعة أميال، وتقع شيراز على ارتفاع ٢٩°، ٣٦´ ، ع، من القطب وبالتالي تشيل ـ منار على ارتفاع ٣٠°.

ادعى بعض الرحالة ان تشيل منار كانت قديماً معبداً بينما يدعي بعضهم الآخر انها كانت قصر زعيم علماني. أما أنا فأقول إنها أقرب إلى المعبد منها إلى القصر، فبدلاً من أن نجد عند المدخل سفينكساً كبيراً، كما في المعابد المصرية الأخرى، نشاهد هنا حيوانات ضخمة للغاية. أما الصورة التي نشاهدها عند مقدم الضريح، أمام المذبح، علاوة عن تلك التي نراها في اللوحة XXV، فهي صورة بعض الكهنة، لعل الزعيم الفارسي كان اميراً علمانياً ورجل دين في آن معاً وان هذا المعبد كان بالتعاقب مقراً للخلفاء أو للبابا (ان كان بوسعي ان اطلق على زعيم الديانة الفارسية القديمة هذا اللقب)، ولعل هذا المعبد تحول إلى مقر الزعيم العلماني بعد ارتداده عن دينه. وأخال انه القصر نفسه الذي حرقه الاسكندر دون روية.

وفي سبيل اعطاء القارىء فكرة واضحة، عن حالة بقايا هذا القصر أو هذا المعبد، وعن موقعه، رسمت الخارطة XVIII وأشرت فيها إلى أقسامه الأساسية، غير انني لم ارسم منظراً عاماً له، لأن شاردين رسمه مرتين وبدا لي كذلك الأمر ولما كنت قد رسمت صورة لنفس المكان، ارتأيت ان انقلها على اللوحة XIX، خاصة وان القراء لا يملكون كتب هذين المسافرين. تقع هذه الانقاض على سفح جبل شاهق وتحدها من جهاتها الثلاث، اسوار محصنة، في الجهة الشمالية الغربية، نلاحظ ان حجارة السور قد انتزعت بمعظمها واستعملت في تشييد ابنية أخرى.

تشير الأدلة إلى أن بناء هذا المكان لم يتم دفعة واحدة، فمن الجهة الشمالية، وعلى مقربة من الجبال، وسع السور عمداً لتوسيع مساحة البناء فنلاحظ بالتالي ان الزوايا لا تتلاءم مع خارطة البناء الجميل.

على القارىء مراجعة الخارطة، خلال مراجعته هذا المؤلف.

تتألف هذه الأسوار من حجارة مرمرية رمادية، صلبة، تتحول إلى اللون الأسود بعد صقلها. أظن أن جبل رحمة وهضابه تتألف من هذا النوع من الحجارة. مما يعني ان المقاول عثر على الحجارة

في المكان نفسه. لم يستعمل المهندسون الفرس الطين لبناء الأسوار أو الصروح، صحيح ان الحجارة قد ثبتت بواسطة مخالب حديدية، إلا انها صدأت مع مرور الزمن، دون أن تؤدي إلى تهدم الحجارة أو تداعيها بعبارة أخرى من الصعب ان نشاهد في اوروبا سوراً من المرمر يضاهي سور تشيل منار اتقاناً.

إن سطح الهضبة التي وجدنا عليها هذه البقايا ليست مسطحة، مما يعني ان علو السور الخارجي ليس سوياً. فقد فتت الارتفاع في عدة اماكن. كما اشرت على الخارطة ووجدت انه يتروح بين ١٤ قدماً ونصف و١٨ قدماً في الجهة الجنوبية، وبين ٣٢ و٤١ قدماً في الجهة الغربية، وبين ١٦ و٢٧ قدماً في الجهة الشمالية، يعتبر الصرح (ط) الأكثر ارتفاعاً (٥٠ قدماً فوق الأفق) والأكثر قدماً، اما الصرح (ح) فهو الأكثر انخفاضاً. يقع الصرح (ز) على الارتفاع نفسه من الصرح (ح) ولكن الأرض التي تفصل بينهما هي اكثر انخفاضاً، وهذا ما تثبته الصور الظاهرة على السور، والتي يغطيها التراب الذي تحمله الرياح القوية. ان صف الاعمدة (ب)، و(ج) و(د) و(هـ) هو أكثر انخفاضاً من الشارع (ز) وأكثر ارتفاعاً من الصروح (ح) و(هـ) و(أ). إن الانقاض (س) و(د) هي أكثر انخفاضاً من المنطقة (أ) و(أ) (هـ)، والجدير ذكره ان الصرح (ك) هو الأكثر انخفاضاً، لذلك دفنت بقاياه تحت التراب. أما قرب مجموعة الأعمدة (ح) و(ط)، وعلى مقربة من ب. ج. د. هـ. فلا نشاهد ارضاً غباراً فحسب، بل حجارة مرمرية في غاية الجمال.

تهدم السور الخارجي بمعظمه. ونقلت حجارته إلى إصطخر وشيراز وغيرها من المدن. من الجهتين الشمالية والجنوبية، تعرض السور للتلف بفعل مرور الزمن. وللوصول إلى هذه الانقاض نجد سلماً مزدوجاً مصنوعاً من المرمر الصلب الذي يكثر في هذه المنطقة. أما الحجارة فهي كبيرة الحجم، ورغم مرور ألفي سنة على تهدم القصر، يمكننا تسلق الدرج على الحصان.

نشاهد عند اعلى السلم ثقوباً في الحجارة، كانت قديماً مفاصل للأبواب، مما يعني انه كان للقصر ثلاثة أبواب. وأن السور المحاذي للدرج كان أكثر ارتفاعاً منه اليوم.

نجد أمام الدرج سورين من الحجارة الصلبة، كانا قديماً بابين، رغم ان عرضهما لا يتعدى ١٣ قدماً أما الأرض فمغطاة بالمرمر المصقول المخصص للمشاة. يبلغ ارتفاع الأسوار ٣٠ قدماً، وهي خالية من النوافذ. نشاهد على ارتفاع ٤ أقدام و٨ بوصات من السور صورة حيوان (كما في اللوحة XX، الصورة أ)، من السهل تحديد كبره والمسافة التي تفصل بين الحافرين الأماميين والخلفيين، والتي توازي ١٨ قدماً. والملاحظ ان جسم هذا الحيوان منحوت بشكل بارز، بينما رأسه وحافراه الاماميان تتجاوز حدود السور، حتى تبقى حرة تماماً ويبدو جلياً ان هذه الحيوانات تجسد القارن الاسطوري، الذي تتردد صوره في كافة انحاء هذه البقايا. نشاهد في الجهة الشرقية

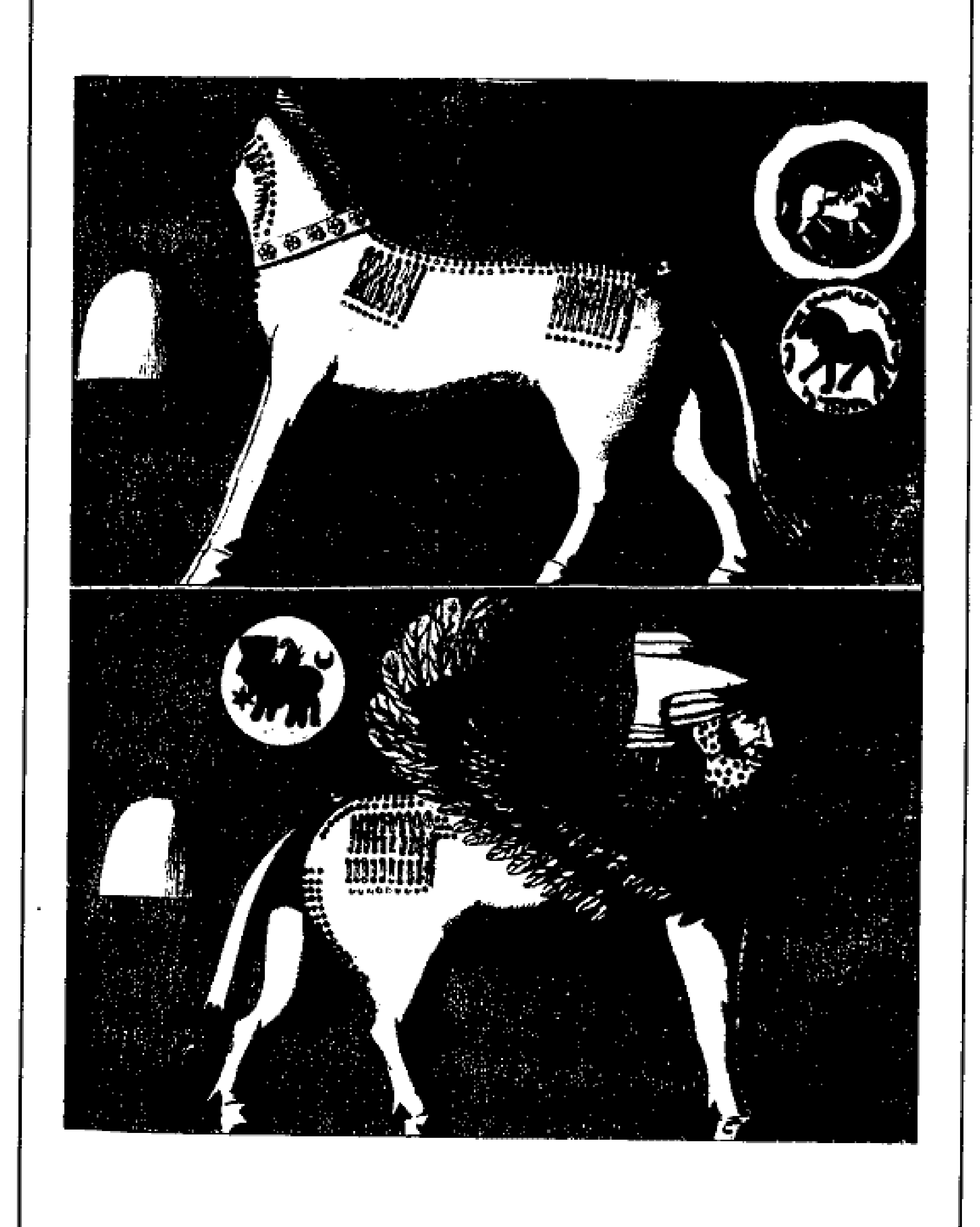
سورين مماثلين، رسمت على كل واحد منهما صورة الحيوان الذي نقلته في الصورة ب من اللوحة XX، وهي تقع على علو ٤ أقدام و٨ بوصات من الأرض، وتبلغ المسافة بين الحافرين الامامين والحافرين الخلفيين ١٧ قدماً و٦ بوصات. ويبدو جلياً انهم حاولوا نقل رأس هذا السفينكس من بلاد فارس إلا أنهم هشموا أنفه دون ان يتمكنوا من انتزاعه. نشاهد فوق الرسومات الأربع، ثلاثة نقوش، تتألف حروفها من خطوط مستقيمة. والجدير ذكره ان الصور على السور (أ)، تجسد الحيوانات وهي متجهة برؤوسها صوب الغرب بينما تلك التي على السور (أ هـ)، رؤوسها تتجه شرقاً.

في هذه المناسبة، سآتي على ذكر حجارة العقيق اللتين رسمتهما في الصورتين آ وج، واللتين حصلت عليهما في البصرة وحلب. مما لا شك فيه ان الرسم (B ب) هو صورة مكبرة للرسم (ب B) غير ان عمل الحفار اسوأ من عمل النحّاس، في الصورة (د) (D) فمخالب الحيوان ورأسه بارزة مما يدل على أنه ليس القارن المزعوم. ولكن هذه الصورة تثير فضول علماء اللغة نظراً للأحرف التي تحيط بها، وأظنها من النوع نفسه الذي نجده على العملات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، في اللوحة XI، في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. كما وانها حفرت بعد تهدم القصر(*). مما يعني ان عالماً باللغة الفارسية القديمة يحسن فك رموزها بسهولة. ولا أخال ان الأحرف التي نشاهدها على العملات الفارسية تختلف عن تلك المحفورة على هذه الحجارة.

نجد بين المدخلين (أ) و(هـ) الذين اتيت على ذكرهما آنفاً. عامودين منتصبين وآثاراً أخرى متهدمة. أما المنتصب منها، فلا يتعدى الأسوار ارتفاعاً مما يعني انها كانت كلها مسقوفة. ونجد ايضاً ركائز صروح صغيرة وحجارة مبعثرة هنا وهناك، غير أن الرحالة لا يعيرها اهتمامه لأنها لا توازي الآثار الأخرى جمالاً. على مقربة من هذه البقعة نشاهد حوضاً طوله ثلاثة أقدام ونصف مزدوجة وعرضه ثلاثة أقدام وارتفاعه قدمين عن الأرض. ونشاهد ايضاً صوب الجنوب، صف اعمدة (ب، ج، د) يزيد طولها عن ٨ أقدام مقارنة بالأصرحة التي وصفتها آنفاً. ويمكننا الوصول اليها عبر ادراج يزيد عدد درجات كل منها عن الثلاثين علماً ان علو الدرجة لا يزيد عن ثلاث بوصات.

تداعت وجهة الأدراج جزئياً، ولكننا نرى عليها بقايا صور حراب ودروع تكثر بين الانقاض، وصور اشجار الصور، وصور الأسد الذي يهاجم القارن الأسطوري وتغطي رسومات الاشخاص السور مثيرة بالتالي فضول هواة الآثار القديمة.

(*) كان الفارسيون القدامى يسدلون شعرهم، ويزينونه بأشياء غريبة وكانوا يحبون ارتداء العقود والاساور الذهبية، او الحجارة الكريمة، او اللآلىء. كتاب Einleitung in die Alterthumer Von Moldenhaer ص ٣٩.



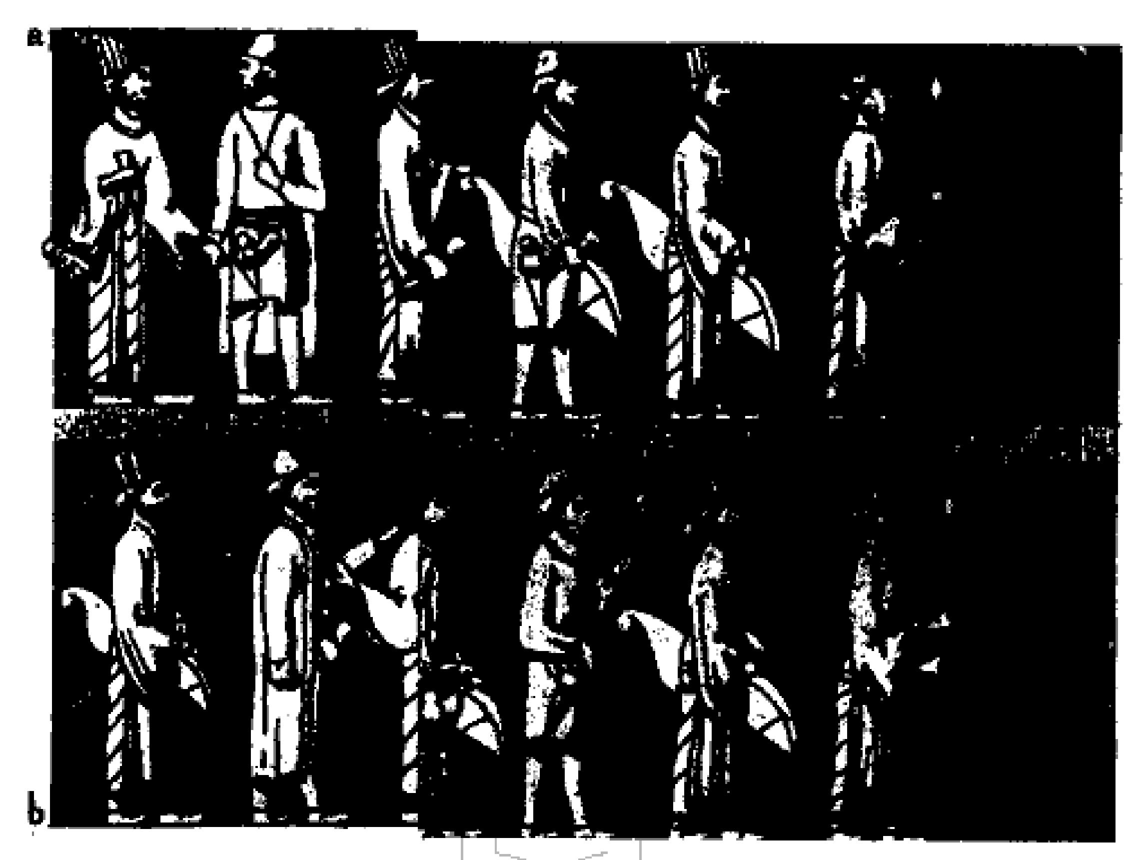
اذاً لا يتجاوز ارتفاعها الثمانية اقدام، شأنها في ذلك شأن السلالم، غير انه كان لها درابزيناً، تهدم مع مرور الزمن، هذا ما نلاحظه في صف الصور العلوي، الذي لم يتبق منه إلا نصفه. ويحد الدرج من الجهتين، صفان من الصور يبلغ ارتفاع كل واحد منهما قدمين ونصف. أما الرسوم التي نراها شرقي الدرج فقد نقلتها على اللوحة XXI، غير اني حذفت من كل صف ٢٧ صورة، لأنها تشبه كلها الصورة الأولى من حيث ارتداء الفرد فيها الثوب الطويل، وحمله الحية بيديه الاثنتين. واشير إلى أن الصف السفلي كان مغطى بالتراب، واضطررت لمسحه، حتى انقل الصور، ولهذا السبب بالذات، لم يرسمها شارين أو براين.

لفت نظري تشابه هذه الصور إلى حد بعيد، رغم اننا نجد فيها نوعين من الملابس، مختلفين تماماً، يشبهان ملابس الفرس التي تحدث عنها هيرودوتس وكوينت كورس، واكزونفون. ونجد ايضاً قبعات عالية، شبيهة بقاووق Kauk الأتراك، باستثناء ان هؤلاء الآخرين يلفون حولها قماشاً قطنياً. والملفت للنظر ان من يعتمر هذه القبعات، يرتدي تحتها ثوباً فضفاضاً ومن يحمل الحربة، يلف حبلاً حول رأسه. أما الباقون، فيعتمرون قبعة صغيرة، غير مطرزة، أو قلنسوة لها شريط كبير من الخلف، ويرتدون، ثوباً طويلاً، ضيق الكمين. والملاحظ ان لحاهم مرخية،، وشعرهم كث، ويضعون عقوداً حول رقابهم، وخواتم في اصابعهم، وحلقاً في آذانهم. كما وانهم يضعون احزمة حول خصورهم ويحملون قوساً، أو سلاحاً آخر. غير ان خناجرهم ليست متشابهة، فمن يرتدي منهم الأثواب الطويلة يضعه في حزامه، أما من يرتدي الثوب القصير، فيتركه متدلياً على ردفيه.

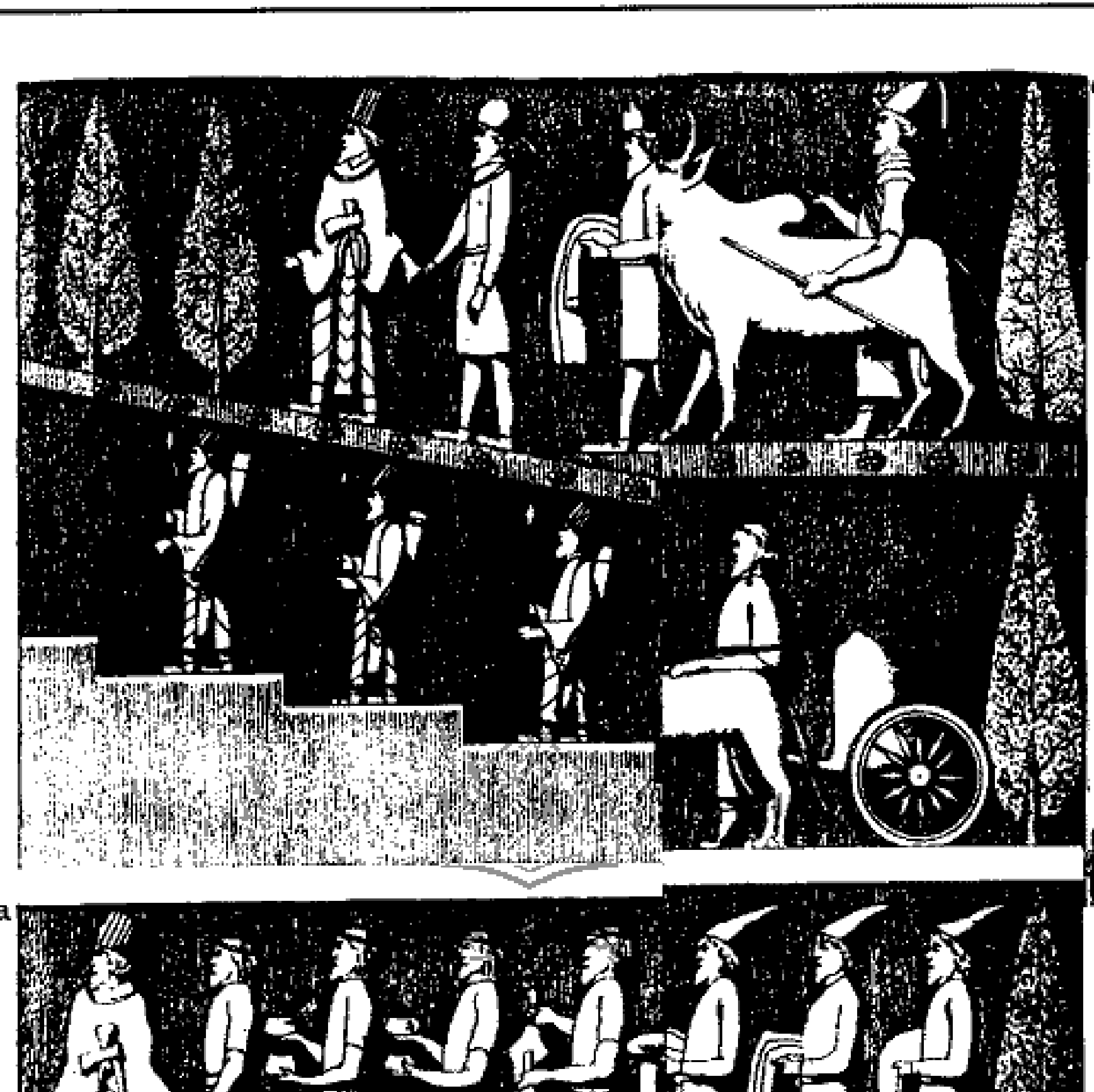
من الصعب تحديد المعنى الحقيقي لهذه الصور، ولعلها تمثل مجموعة من الحراس، علماً انهم مزودون جميعاً بالأسلحة، وما لاشك فيه انها تدل على اشخاص كريمي النسب، يعملون في خدمة حاكم هذا المكان، أو لدى رجل دين ذي منصب مرموق، أو أمير مقيم في المنطقة، غير أن الأشخاص الذين يرتدون الأثواب الطويلة والفضفاضة، يمثلون القادة، لأنهم يتصدرون الجميع، كما وانه توكل اليهم مهمة حراسة مدخل الصرح، علماً انهم يقفون دوماً عند عتبة الأبواب، حاملين الحراب في ايديهم.

في الصف العلوي، حيث لا يبلغ عدد الصور نصف العدد الموجود في الصف السفلي، نشاهد قرب السلم (ب) (b) ٤٣ رجلاً، يرتدون الاثواب الطويلة ويحملون الحراب؛ يليهم خمسة رجال، في ملابس مختلفة، وثلاثة أحصنة، وعربتان تجرهما الخيل. واظن ان ترتيب هذا الصف له صلة بالترتيب الوارد في اللوحة التالية.

تغطي السور (د) (d)، من الجهة الأخرى للدرج (b) (ب). صوراً مختلفة، ولا أظن ان الآثار الأخرى تعرضت للتلف، بقدر آثار هذه البقعة، فقد فقدت معظم الصور رأسها، رغم أن بترها


a
b


a
b





اقتضى عناء كبيراً. لأننا نشاهد اليوم، بقايا قليلة منها، علاوة عن صور القبعات التي كانوا يعتمرونها، كما هو ظاهر في اللوحتين XXIII و XXII، وما لاشك فيه ان هذه اللوحة تمثل استعداد الافراد لاستقبال العيد، غير انني اترك للآخرين عناء الاختيار بين القول انهم يحملون الهدايا أو الغرامات لملكهم، أو انهم يحملون القربان لأحد المعابد.

يتألف كل صف من عدة أقسام، تفصل في ما بينها أشجار السرو. يرتدي الافراد في القسم الاول من الصف السفلي، الأثواب الطويلة، نفسها التي تحدثنا عنها في اللوحة السابقة. ويحمل كل منهم جعبة على ظهره وقوساً في اليسرى، وحربة في اليمنى، مما يعني انهم يمثلون فرقة من الحرس. نجد في هذا المكان (كما على الجهة الاخرى من الدرج) صورة على كل درجة، اي ٢٨ أو ٣٠ صورة، غير انني لم أرسم إلا ٦ منها(*). أمّا في القسمين الآخرين، فلا نشاهد إلا ضابطاً واحداً من الضابطين اللذين نراهما غالباً في اللوحة XXI. وفي اختصار، سأطلق على الضابط الذي يرتدي الثوب الطويل، لقب الاول، وعلى ذاك الذي يرتدي الثوب القصير، لقب الثاني.

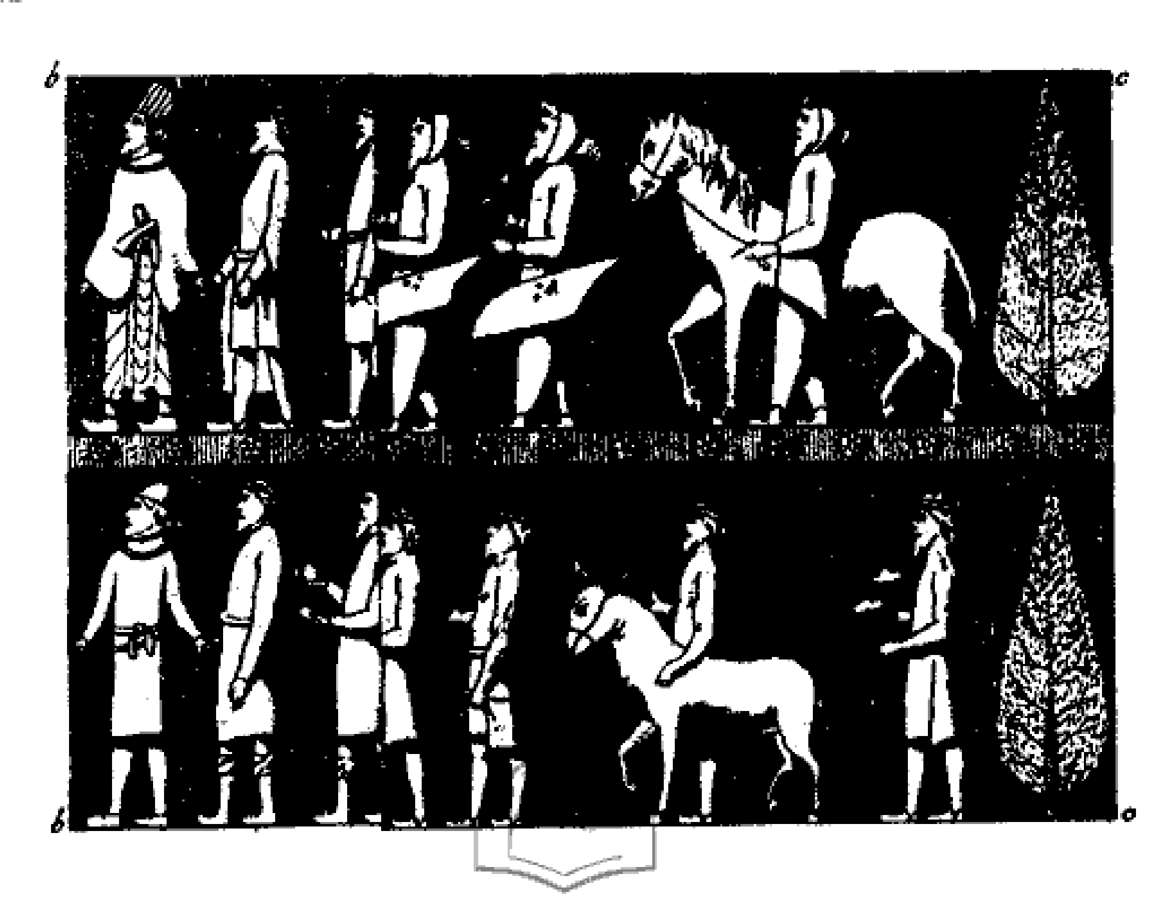
في القسم الثاني، يقود الاول مجموعة من ٦ أجانب، حاملاً عصاً في يده (مثل رئيس التشريفات في شيراز - (ص ٩٤) وممسكاً أحد الأجانب بيده الأخرى، واخال ان هذا الأخير هو ممثل المجموعة أو القبيلة أو الأمة. يحمل فردان من المجموعة، مزهريتين في يديها، بينما يضع الآخر خاتماً مستطيلاً، حفر عليه راسا أفعى. تتبع هذه المجموعة عربة خيل، حفرت جيداً على الصخر، حتى ان مسامير العجلة بارزة للغاية، ويشبه سرج الخيل ذاك الذي شاهدته في القاهرة، في طاحونة تحركها الخيل، وفي زبيد، على ظهر ثور. يستعمل في استخراج المياه من أحد الآبار.

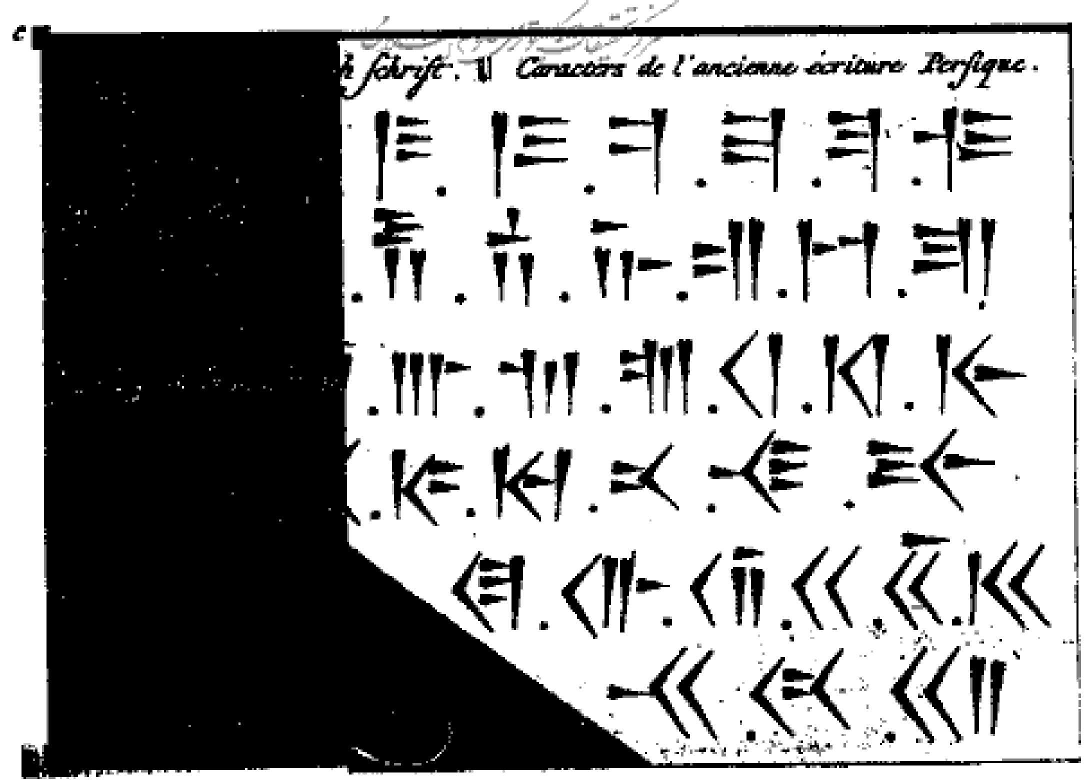
والملفت للنظر في هذا القسم، انه يتدلى من الأذن اليسرى لأفراد المجموعة، حجر مرجاني، معلق بخيط رفيع.

في القسم الثالث من الصف السفلي، يقود الثاني ٦ أجانب إلى الاجتماع، والجدير ذكره انه لا يحمل خنجراً أو يرتدي سترة بسيطة، أو كما يسميها الأتراك إنطاري Entari، ولما كان هذا الذي يدل على مكانة صاحبه المرموقة أمكننا الاستنتاج ان هذه السترة مصنوعة من جلد الحيوان، كما اعتاد الفرس القدامى، الارتداء.

تبدو ملابس الآخرين أكثر بدائية، فأثوابهم شبيهة بتلك التي نراها في اللوحة السابقة وتعرف بالبنيش، كما وان جواربهم مصنوعة من مواد خشنة (a).

(*) يمكننا مشاهدتها في وصف شاردين لرحلته.




h Schrift. II Caracteres de l'ancienne écriture Persique.

في القسم الرابع، نشاهد الأجانب عراة الرأس مجعدي الشعر، يرتدون جلد الخراف وينتعلون احذية نصفية.

في القسم الخامس، يظهر الثاني في المقدمة، ويلف الاشخاص الذين يرافقونه حبلاً طويلاً حول خصرهم، ويضعون عمامة على رؤوسهم. ويقود الأخير منهم سناماً، علقا في عنقه جرساً صغيراً (تعلق اليوم هذه الاجراس. على الجمال والحمير وخاصة في القوافل).

في القسم السادس يقود الاول ستة أشخاص من عامة الشعب، خمسة منهم شبه عراة. يلفون حول الردفين قطعة قماش عريضة، وأخرى حول الخصر. شأنهم شأن عامة الشعب في البلدان الحارة.

يضع الاول، الذي يمثل الشيخ أو النائب، قماشاً قطنياً حول كتفيه، بينما يسير الباقون شبه حفاة، وينتعلون في ارجلهم نعالاً خفيفة، مختلفة عن تلك التي تنتعلها العرب اليوم.

في القسم السابع (راجعوا الصف العلوي من اللوحة XXII) يقود الأول صديقه، وتتبعهما شخصيات مرتدية البنيش، غير ان رؤوسهم تعرضت للتلف، ولن اعرف ابداً ان كانوا يعتمرون القبعات ام لا(*).

في القسم الثامن، يقود الثاني ٦ أجانب، لفوا أجسادهم بقماش قطني ابيض، شأنهم في ذلك شأن البدو، في بعض المناطق من شبه الجزيرة العربية، أما الثور الذي يجرونه فله حدبة على الظهر، شبيهة بحدبة دواب شبه الجزيرة العربية، والهند وبلاد فارس

في القسم التاسع، يقود الاول مجموعة من الرعاة، يرتدون ثوباً ضيقاً، قصير الكمين، أما قصة شعرهم فهي شبيهة بقصة شعر سائقي الجمال. غير انني لاحظت ان احد الرعاة يرتدي جلدي خروف مدبوغين. يكثر في بلاد الشرق هذا النوع من الخراف الذي نراه مرسوماً هنا، فهي مغطاة بالصوف شأنها شأن خرافنا، غير ان النحات لم يحسن نقله، كما انه لم يحسن نقل وبر الاسد الكث.

في القسم العاشر، نرى ان الثاني هو القائد والمجموعة التي تتبعه، ترتدي الملابس التي ترتديها مجموعة القسم السابع، غير ان قبعاتهم مختلفة، وزعيمهم يضع قوساً في حزامه.

أما سائقو الثيران في القسم ١١، (اللوحة XXII) فيرتدون ثياباً شبيهة، بثياب سائقي البغال في القسم السادس، باستثناء انهم يرتدون فوقها ثوباً طويلاً، فضلاً عن ان ثلاثة منهم يحملون حراباً.

(*) يرتدي اليوم علية القوم جوارب مصنوعة في انكلترا، وهي غير متقنة الصنع مقارنة بجواربنا.

يقود الثاني مجموعة القسم ١٢، التي يرتدي افرادها سراويل طويلة (شبيهة بثياب الاتراك) ويعقدون تحت ذقونهم قماشاً قطنياً. يتدلى من حزام خمسة افراد من هذه المجموعة، غمداً للأقواس، ويحمل واحد منهم خنجراً واثنان آخران مطارق حديدية، مما جعلني اظن انهما حدادان.

في الصف العلوي، نجد ٧ أقسام، أتى شاردين على ذكر هذا الصف في اللوحة ٥٨، رغم انه لم ينقلها بحذافيرها. يلعب الضابطان اللذان أشرت اليهما سابقاً، دور رئيسي التشريفات، نشاهد في القسم الاول حصاناً، وفي القسم الثاني لبوة، وفي الثالث، أيلاً مُلقىً أرضاً؛ يرتدي الاجانب سترات قصيرة، وسراويل طويلة، بينما يضع واحد منهم على كتفيه، جلد أسد. يتدلى ذيله خلفه، نشاهد في القسم الرابع أيلاً، وجلد اسد ايضاً، وفي القسم الخامس ثوراً، أما بقايا صور القسم السادس فشبيهة بصور القسمين الثالث والرابع؛ نرى في القسم السابع، جواداً. يلفت نظرنا، خلف صفوف الصور هذه، النقوش (آ)، المنقولة في اللوحة XXIV، علاوة عن رسم صراع القارن والأسد نقل كامبفر وبراين هذه النقوش، بصورة غير واضحة، رغم ان الأحرف بارزة جداً على اللوحة الأصلية.

تهدم السور، في اللوحة XVIII جزئياً، واتلفت الرسومات التي كانت تغطيه، غير اننا نجد هنا أيضاً،أقساماً مختلفة تفصل في ما بينها اشجار السرو، ونشاهد في كل قسم الضابطين المذكورين آنفاً، الذين يترأسان مجموعات الاجانب. أما الحيوانات التي تكثر صورها هنا، فهي الجمال والجياد، والثيران والتيوس.

علاوة عن ذلك، نشاهد هنا عربة الجياد، التي اشرت اليها آنفاً. وتلفت نظرنا رسومات الأرجل العارية، التي لم تتعرض حتى اظافرها للتلف؛ أما السور فهو متداعٍ أكثر من السور، ولا يعير المسافر انتباهاً لرسوماته، رغم أنها تثير الفضول. قبالة السور، نشاهد صخوراً ضخمة برسومات افراد يرتدون الأزياء الطويلة ويحملون الحراب في ايديهم، ولعلها بقايا صرح منفصل، قضى الدهر على القسم الباقي منه.

يقودنا الدرج إلى مجموعة الأعمدة (ب. ج. د. هـ): التي لم يتبق منها منتصباً إلا ١٧، وقد وضعت دائرة على الخارطة، للاشارة إلى موقعها. يعلو الأعمدة قرب الموقع (ج) تاج شبيه بذلك الذي نراه في الصور (أ) من اللوحة XXV. غير ان معظمها تعرض للتلف مع مرور الزمن. رسمت قاعدة العامودين. د، هـ. في اللوحة XXV، ولاحظت ان العامود هـ، يعلوه حيوانان، أو الاجزاء الأمامية لحيوان ما، اظنه القارن الاسطوري، الذي نشاهد رسوماته. في كافة انحاء المكان؛ مما يعني انه كان يجسد رمزاً اساسياً للفرس القدامى.

استناداً للقياسات التي اخذتها يبلغ ارتفاع ركائز الاعمدة (ج) ٤٠ قدماً، والاعمدة (هـ) ٥٢ قدماً(*).

لا تستطيع مقارنة هذه الاعمدة بعامود بومبي في الاسكندرية أو بركائز الغرانيت في قصر القاهرة، من جهة وزنها أو عظمتها، غير انها توازيها جمالاً، خاصة من حيث حجارتها المرمرية، وطريقة وصلها بعضها ببعض، والجدير ذكره ان الجزء العلوي من احدى ركائز الرسم (هـ) ناتيء بشكل بارز، وقد يقع إن حصلت هزة ارضية(**).

تضم صفوف الاعمدة هذه انقاضاً كثيرة، ففي بعض الأماكن، نرى الأرض مغطاة بالتراب، بينما هي مغطاة بالمرمر الجميل في أماكن اخرى. ونشاهد ايضاً بقايا قنوات محفورة في الصخر. بين صف الأعمدة ب وج. فضلاً عن أربعة أسوار، كانت قديماً مداخل للمكان، يظن بعض الرحالة ان هذه الاعمدة لم تكن مسقوفة يوماً، غير انني اظن ان المصطبة التي كانت تعلو الاعمدة ب.ج. د، والتي لم يعد لها أثر، قد نقلت إلى برسيبوليس، الذي كان يعرف باسم إصطخر Istakr، بعد أن دمر الاسكندر هذا القصر.

نشاهد من الجهة الجنوبية لهذا الصف من الاعمدة، صرحاً قديماً لم يتبق منه الا بعض الحجارة المربعة، التي كانت تعد لوضع الأعمدة عليها.

يزيد ارتفاع الصرح (ز) في اللوحة XVII ثمانية أقدام عن صف الأعمدة، وبالنسبة إلى عظمته مقارنة بالأبنية الأخرى، يبدو انه الأكثر حصانة واسواره ونوافذه هي المصقولة بشكل أفضل. ولما كانت الرياح تعصف قرب صفوف الأعمدة هذه، نلاحظ ان هذا الصرح محاط بالتراب، كما وان ارتفاع الركيزة ح (١) من الجهة الجنوبية للصرح، لا يزيد عن قدمين ونصف. ونشاهد هنا أيضاً رسوماً ونقوشاً مغطاة بالغبار، ولو كنت أحمل معي مؤلفي شاردين وبراين، لأدركت ان الرحالة السابقون لم ينقلوها، ولنزعت عنها الغبار ورسمتها بنفسي، غير انني اوكل هذه المهمة للرحالة اللاحقين. نشاهد في الركن ح (١)، درجاً تعلوه صور لا يزيد ارتفاعها عن قدمين؛ ويظهر فيها الأفراد وهم يتسلقون الدرج ويحملون في أيديهم حملاً أو شماماً أو غيرها من الفاكهة. أما

(*) في لوحات شاردين، لا تظهر الاقسام الواحد منها قبالة الاخر، فقد رسم كل صف بكامله على ورقة على حدة، ونسي بعدها ان القسم الذي اسميته السابع، يقع قرب السلالم

(**) يقاس ارتفاع الركائز، استناداً الى ظلالها، مما يعني ان القياسات التي ذكرتها ليست دقيقة، كما وانني رسمت تاج (أ) من اللوحة XXV بعد ان شاهدته بالعين المجردة.(+) يشير رسم تشيل منار المنظوري الى ان هذا الجزء من الركيزة المذكورة، ناشيء منذ اكثر من ١٠٠ سنة، مما يعني انه لم تحصل هزات ارضية طوال هذه الفترة.

ملابسهم فهي شبيهة بتلك التي يرتديها ضباط الصف الثاني.

من الجهة الغربية للصرح نشاهد الدرج و (f)، وعلى قمته عمودين مغطيين برسومات كبيرة لأفراد يرتدون الثوب الطويل ويحملون الحراب، كما في رسومات السلم ب (b). خارج الباب (ز) (Z)، نشاهد عامودين آخرين يبلغ ارتفاع الواحد منهما ٧ أقدام ونصف. ولعل الصورة الظاهرة عليها تعود لرجل دين مرموق، يرتدي ملابس شبيهة بتلك التي نشاهدها في اللوحة XXI، وفي أماكن مختلفة بين هذه البقايا، وأخاله يجسد العلمانيين. غير ان قبعته مخططة، وعنقه محاطة بحلقة كبيرة، كانت قديماً مغطاة بمعادن ثمينة؛ ونشاهد على الكتف، والصدر واليدين، ثقوباً انتزعت منها حلقات معدنية. يرتدي الخدم ملابس شبيهة بملابس اسيادهم، ويصغون حلقات صغيرة في آذانهم. شأنهم شأن جميع الذين يرتدون الأثواب الطويلة، ولكنهم لا يرخون لحاهم أو يعتمرون القبعات العالية، أو يلفون اعناقهم بأطواق. نرى على الأركان الأخرى الصور الثلاث نفسها. علماً ان الشخصية الاساسية تحمل مزهرية في يدها اليسرى (الصور (و) من اللوحة XXV) وفي اليمنى قدراً معدنياً (الصورة (ز) من اللوحة نفسها) وفي وسط الصرح الامامي، قرب الصورة (س ٤) نشاهد ابواباً كبيرة، وعلى الاركان (س)، نشاهد الصور (ج) من اللوحة XXV، وعلى اركان الباب (ع) نشاهد الصورة (د)، والتي تمثل شخصاً حاملاً شبلاً بين يديه، ويبلغ ارتفاعها هذه ٧ أقدام ونصف.

يتألف هذا الصرح من ٣ أقسام يضم احدها غرفتين (الصورة ٨ من اللوحة XVIII) تتراوح سماكة هذه الاسوار بين ٤ أقدام و٩ بوصات و٥ أقدام وبوصة. غير أنه لم يتبق منها إلا بعض المداخل والنوافذ، التي لم يتمكن الفرس من نقل اجزائها بسبب ضخامتها، خاصة وأن أركان الباب تتألف من قطعة واحدة فحسب. ونشاهد قرب اركان الباب (ب) اللوحة (ج) (من اللوحة XXV) التي تمثل خادمين أحدهم يحمل مظلة والآخر مذبة.

تعلو هذه الصور، التي ترتفع ١٢ قدماً عن الأرض، النقوش (ب) (ج) (د) من اللوحة XXIV، المنحوتة بشكل مرتب. والملفت للنظر، هو أن كل واحدة منها تضم أبجدية مختلفة، تتردد في الركنين الاخرين فيتضح لنا بالتالي ان الفرس بذلوا جهدهم ليخلدوا انفسهم من خلال نقوشهم، شأنهم في ذلك شأن المصريين القدامى، الذين نقشوا الأحرف الهيروغليفية على النصب العامودية. ومما لاشك فيه ان هاتين الأمتين عمدتا إلى نقل أبجديتيهما لنا، رغم جهلنا لرموز الأحرف الهيروغليفية المصرية ولأبجدية الفرس القديمة، فلو تمكن العلماء من فك رموزها، لاضطر باني هذه الصروح إلى حفرها مرتين. علماً ان معظمها تضرر وتَلِفَ بمرور الزمن.

كان للنوافذ قديماً مصاريع، تستعمل في الطقس السيىء، لرد الامطار والبرد والرياح، وتعلوها

كلها نقوش قديمة. دفعت بالرحالة للاعتقاد ان الفرس القدامى يكتبون من أعلى إلى أسفل شأنهم شأن الصينيين.

لكن ان عاينا عن كثب، النقوش التي نقلها بعض الرحالة، وقارناها بتلك التي نقلتها بنفسي، لوجدنا ان الخطوط المستقيمة، مائلة من الطرف، مما يعني ان عدد الأحرف ليس كبيراً، كما تدل عليه نسخ الرحالة السابقين جمعت في اللوحة XXIII، أحرف احدى الابجديات، وهي لا تزيد عن ٤٢ حرفاً. ونقلت قرب الأعمدة أ، ب، ج، د، هـ. في اللوحة XXVII، بعض النقوش الكوفية العربية والفارسية(*)، المحفورة جيداً في الصخر. أعطاني المدعو جان فرانسوا روسو المولود في اصفهان، وامين سر السفير الفرنسي في البصرة الترجمة التالية، للنقوش ب، ج، هـ، فنقلتها لكم حرفياً.

ترجمة النقوش ب(**)

الله هو الحي الباقي وعلي أمير المؤمنين، كرم الله وجهه

اين هم أولئك الملوك، الذين طغوا وتجبروا وامهلهم القدر حتى هلكوا.

كم من مدينة رائعة ازدهرت وتوسعت فكان مصيرها الدمار ومصير اهلها الموت كتب هذا علي ابن السلطان خليل، ابن السلطان حسان العام ٨٦٩ (١٤٦٤)

«هذه كتابات اصغر الخلق، ابن حسين المسكين، عبد خليفة ملك الكون، ميرزا علي عام ٨٨١ (١٤٧٦)

اين هم الأمراء والفاتحون القدامى
جمعوا كنوزاً لا تحصى فكان مصيرها الفناء
ومصير اصحابها الهلاك
كتب هذا ابراهيم سلطان، ابن شاروك عام ٨٢٦ (١٤٢٢)

(*) نجد النقوش الكوفية في كتاب Philosophical transactions obryed الجزء ٣، القسم ٢، الفصل ٧، ص ٥٢٨، غير ان الناسخ، نقل الاسطر الواحد تلو الاخر، ومن اليسار الى اليمين مثل الكتابات الاوروبية، حتى اننا لا نستطيع استعمالها. تعود هذه النقوش الكوفية الى ٨٠٠ سنة، وهي ليست شديدة الوضوح.

(**) هذه الترجمات مطابقة للكتابات الفرنسية الاصلية.

ترجمة النقوش ج

اعلم يا انسان، ان الله هو وحده الحي السائد إلى آبد الآبدين.
ولعلنا نشتهي جميعاً ثروات هذا العالم
غير ان مصيرها الزوال لا محالة فلو منحت مملكة سليمان لمن طلبها.
صحيح ان المملكة بقيت على حالها ولكن اين سليمان؟
هذه الدعوة، وهذه العظمة وهذه الكنوز التي لا تحصى
ما الذي اخذه معه سليمان؟
تحولت كلها رماداً
فأي فائدة نجنيها من الرماد؟
فكل طبقة منه تمثل وجه انسان حر وكل قدم تطأ ذرية ملك فاكتفوا بفعل الخير
لأن اعمالكم وحدها تشفع لكم
فمن كانت الفضيلة من شيمه ما التمس سواها
كتب هذا علي ابن السلطان خليل، ابن السلطان حسن، أعزه الله، سنة ٨٨١ (١٤٧٦)
انها لنعمة من الله ان اتمكن من الكتابة على هذه الحجارة.

ترجمة النقوش هـ

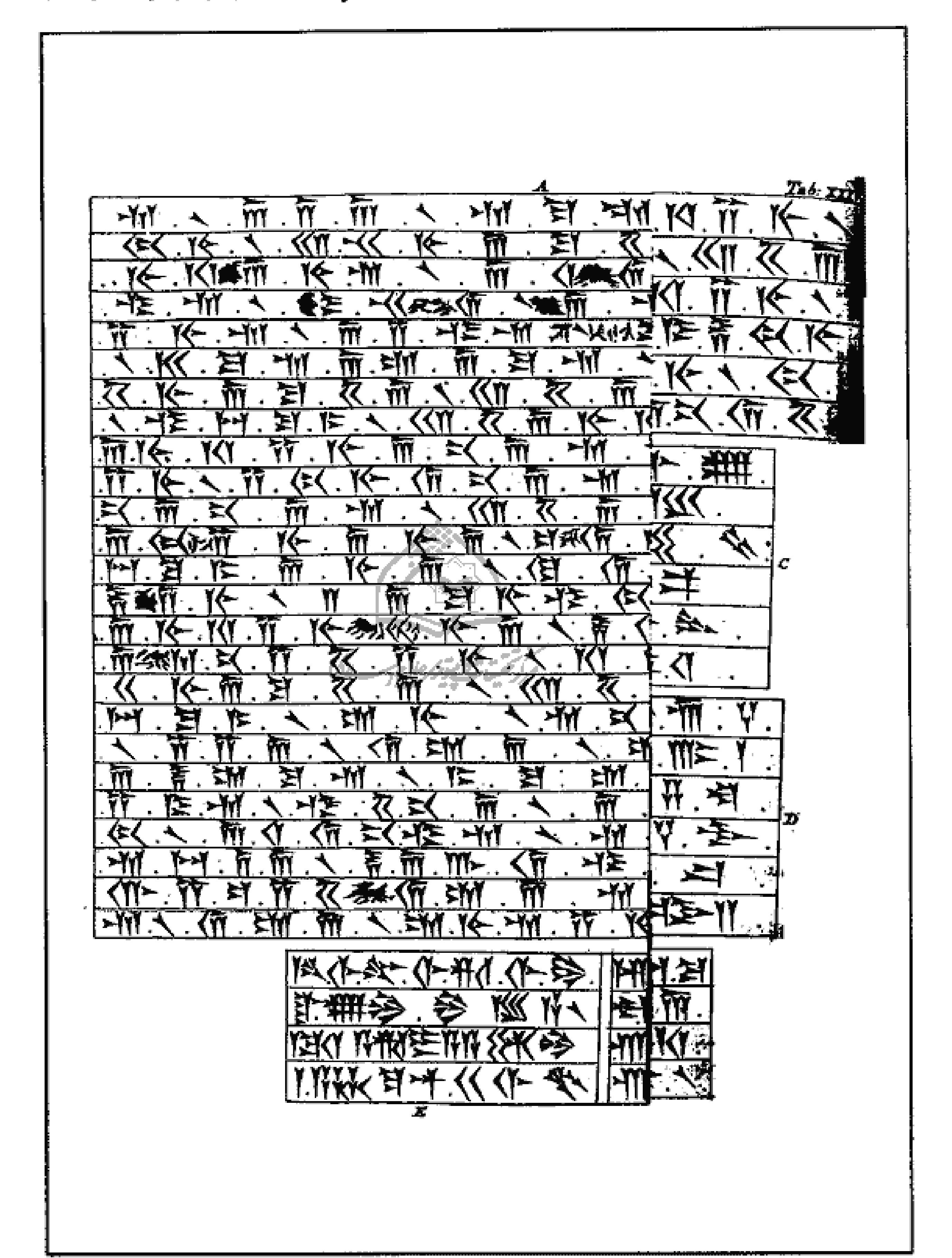
في شهر شوال من العام ٨٢٦ (١٤٢٢)، وفي ظل الأحكام العادلة والمنزلة، التي فرضها خليفة الأرض، وملكها، أكثر أباطرة بلاد فارس وطوران عدلاً، حامي الحقيقة والدين، صاحب البطولات والانتصارات، السلطان ابراهيم، بارك الله بلاده، ومملكته، تحول هذا المكان إلى أرض مقدسة، اذ نصبت فيه الخيام الحاملة لراية المملكة.

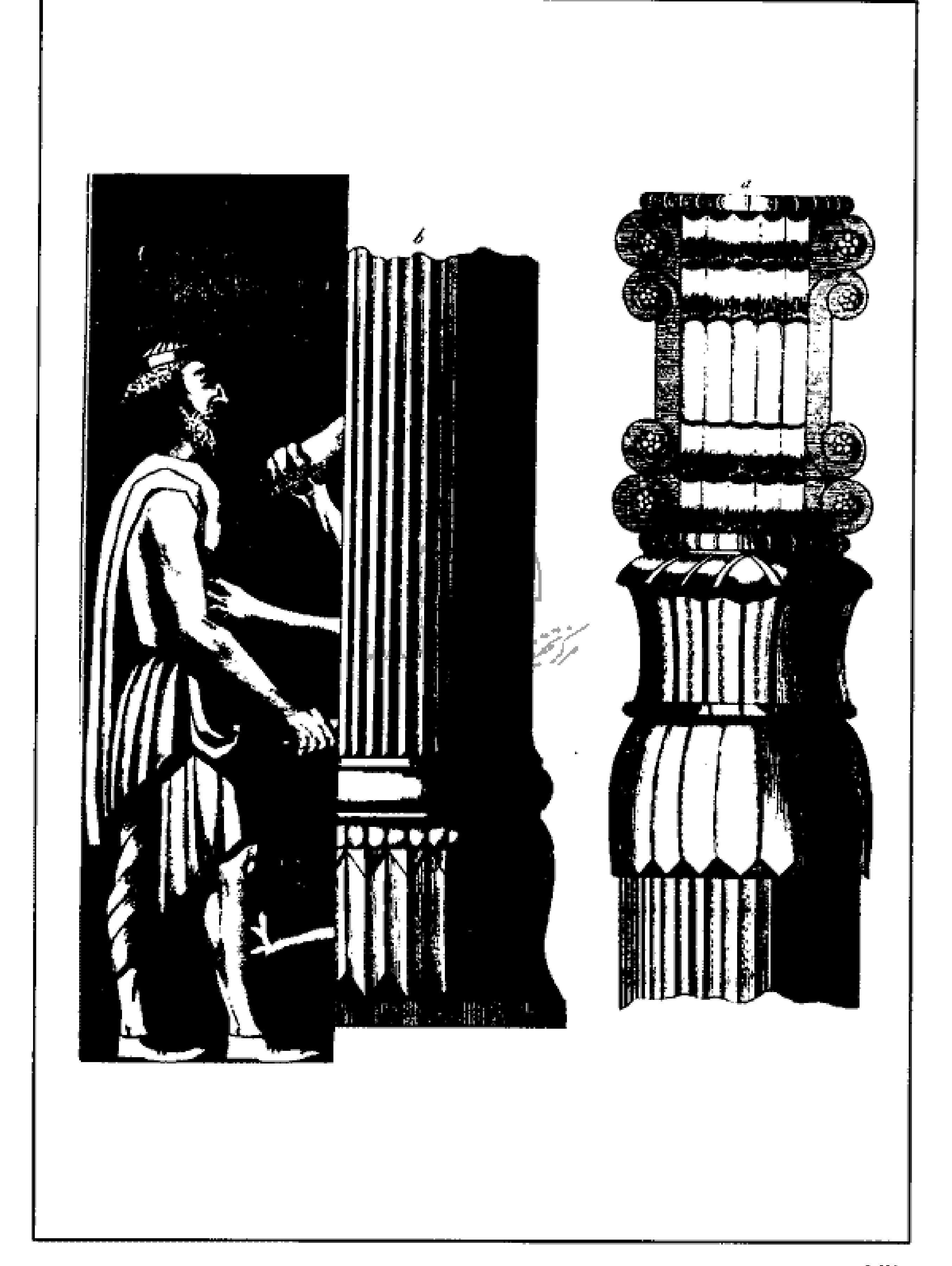
نال كمال الدين عناق، اصغر مخلوقات الله، حظوة لدى الملك، بعد أن كتب هذا الكلام، علماً انه كان عبداً عنه.

كان يتمنى ان يلقى هذا الوصف رواجاً،

وان يتضرّع البعض للأولياء، لينالوا الرحمة والشفقة.

نجد في السور الشمالي لهذه الغرفة، ثلاث نوافذ وبابين، أما الرسومات على الأبواب فهي شبيهة بتلك التي نراها في اللوحة XXV، الصورة ج (٢) وهي تضم خادمين، يحمل واحد منهما، مذبة، وقطعة قماش قطني. من الجهة الغربية، نشاهد نافذتين وبابين، تمثل رسوماتها صراع بطل فارسي قديم مع حيوان اسطوري، يبلغ طول هذا البطل ٧ أقدام و٤ بوصات. أما من الجهة الشرقية، فنشاهد على الباب، صورة البطل نفسه في صراع مع أسد. وفي الركن الجنوبي ـ الغربي


A
Tab: XXIV
C
D
E



للصرح، نشاهد حجراً كبيراً، طوله ٢٠ قدماً، تعلوه ٤ نقوش برسيبوليسية(*)، علاوة عن نقوش أخرى، نقلتها في اللوحة XXVII، الصورة (د)

والجدير ذكره انه لم يتبق من السور الجنوبي والغربي إلا نافذة متداعية، وباب (ك)، تغطيه صورتا شخصين يرتديان الأثواب الطويلة ويحملان الحراب. كما وانه لم يتبق من السور الشرقي إلا جزء من حجر الزاوية. وأظن ان معظم حجارة هذا الصرح قد نقلت من هنا، إلى هضبة مجاورة لشيراز.

إليكم ترجمة السيد روسو لنقوش الصورة (د) من اللوحة XXVII.

«لو طبقت قوانين آفريدون زهاق (Zehak) ووكام (Wakam) في الامبراطورية والمملكة الفارسية لما تعرض عرشها للخطر وأضعفته الثورات.

غير انه لا سبيل لمقارنتها بعرش سليمان، اعزه الله. والذي لم يتبق منه الا الرماد فطوبى لمن احسن إلى غيره قبل رحيله.

فتعلموا ان تزرعوا شجرة الرأفة حتى تحصدوا السعادة والخير.

كتب هذا السلطان ابراهيم بن شاروك العام ٨٢٦ (١٤٢٤).

لم يتبق من الصرح (ح) في اللوحة XVIII، إلا آثار صخور، بنيت عليها الأعمدة قديماً. نجد في الصورة ق (٩) درجاً مغطى بالتراب، وسوراً حصيناً، غنياً بالرسومات والنقوش، التي يظهر فيها الأفراد حاملين الحراب، والأقواس، والجعب، ونجد ايضاً بين الصرحين ح، وط. ممراً ضيقاً، جدرانه مغطاة ايضاً بالرسومات.

نشاهد في اللوحة XXVIII منظراً عاماً لبقايا الصرح (ط)، وإن قارناها مع بقايا الصرح (ز) في اللوحة XXVI، نجد أنفسنا أمام خيارين، إمّا أن الحجارة سيئة، أو ان الصرح أكثر قدماً، ولعله البناء الأول، الذي شيد في هذا المعبد أو القصر. فارتفاعه يزيد بضع أقدام عن ارتفاع الصرح (ز). كما وانه يقع على علو ٣١ قدماً عن السطح (ص)، وبالتالي ٥٠ قدماً عن الأفق، شأنه شأن السور الأساسي، المبني على صخرة. يتألف السوران (ث) (وخ) من حجارة هذه الصخرة نفسها، ترك المهندس قرب السور (ت) سلماً من حجارة الصخرة المذكورة، يتألف من ٢٩، لا يزيد ارتفاع الواحدة منها عن ١٠ بوصات، مما يعني ان هذا السلم ليس مريحاً كالسلالم الأخرى التي عثرنا عليها بين هذه الأنقاض. ويبدو ان السلم الذي كان مبنياً قرب السور(خ) قد نقلت حجارته كلها.

(*) نقلها براين بشكل غير واضح.



تغطي أرض الغرفة الأساسية في هذا الصرح، صخور خام، لا يزيد ارتفاعها عن البوصتين وقطرها عن ٣ أقدام، خاصة في الأماكن التي توضع فيها الأعمدة، مما يعني ان هذه الغرفة كانت تحوي ٣٦ عاموداً، نقل معظمها إلى المدن المجاورة.

نشاهد وسط صف الأعمدة هذا، قناة للمياه محفورة في الصخر. كانت هذه الغرفة مسقوفة قديماً، غير ان سقفها تهدم جزئياً.

للسور الشمالي بابان، لم تصبهما أضرار السنين، تبلغ سماكة ركائزها ٣ أقدام و٣ بوصات، وعرضها ٧ أقدام وبوصتين، أما طول المدخل فيتعدى ١٤ قدماً ونصف. ونشاهد هنا أيضاً الصورة (ج) (٢) من اللوحة XXV التي نصادفها غالباً داخل الصرح (ز) (Z) فضلاً عن النقوش (هـ) (و) (ز) من اللوحة XXIV ونجد من هذه الناحية، خمس نوافذ، ثلاث منها بين البابين، وواحدة من الجهة الشرقية، أما النافذة الغربية فتغطيها الرسوم من الجهتين لم يتبق شيء تقريباً بين السور والجهة الشرقية، باستثناء ركائز احد الأبواب، أما الرسومات والنقوش الموجودة عليها، فهي شبيهة بتلك التي ذكرناها آنفاً(*).

كان لباب السور الجنوبي ثلاث نوافذ من الجهتين، تضم الواقعة منها على الجهة الشرقية، ثلاثة رسومات، على كل ركيزة من ركائزها، واحدة تجسد امرأة حاملة مزهرية (صورة (ح) من اللوحة XXV)، وأخرى تجسد رجلاً حاملاً مزهرية، وثالثة، تمثل امرأة حاملة كمكة حلوى بين يديها.

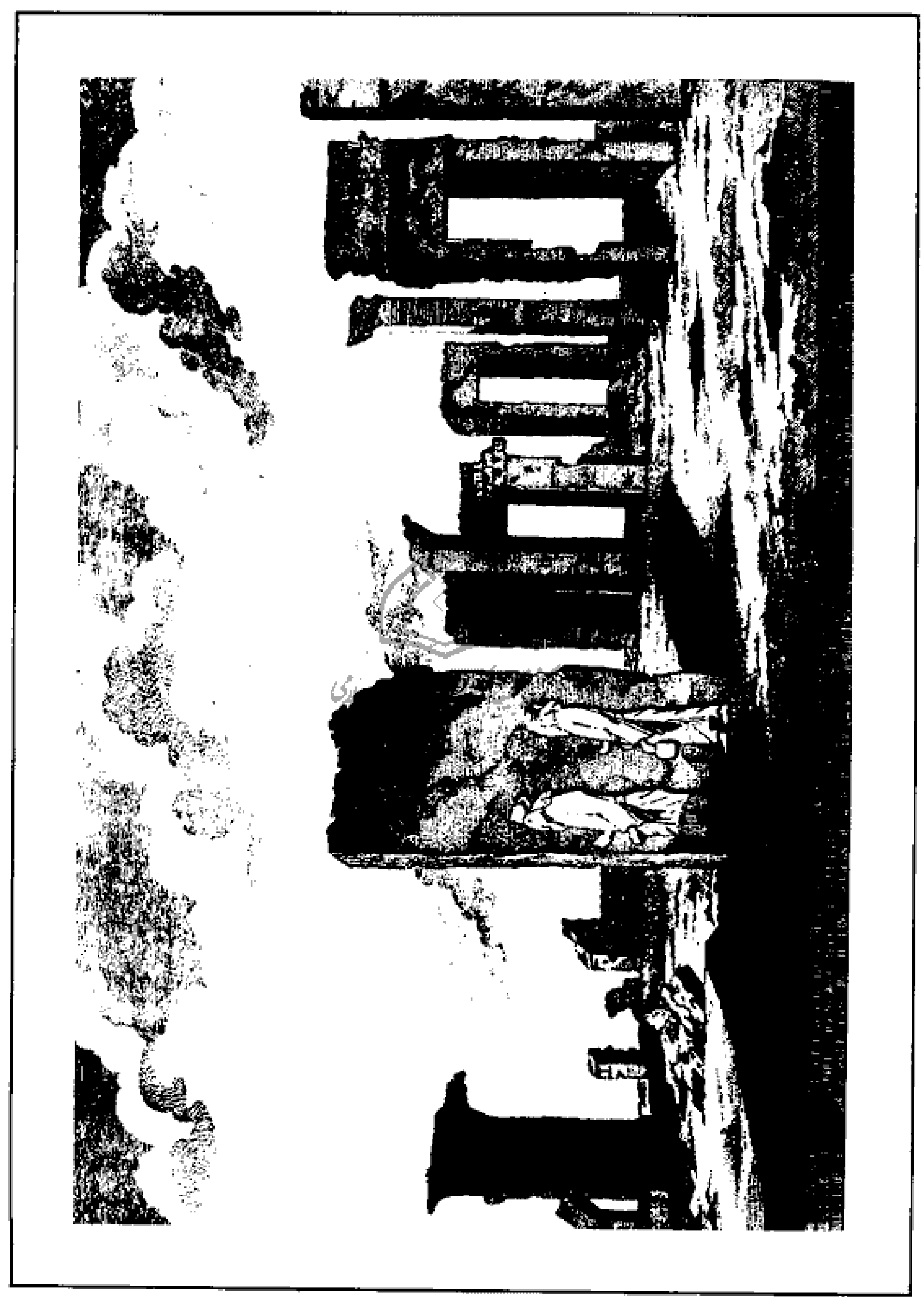
لم يتبق من نوافذ الجهة الغربية، سوى ركيزة واحدة، نشاهد عليها الرسومات نفسها التي أشرت اليها اعلاه. ونجد وسط السور الغربي، باباً لم يتبق منه الا ركيزة واحدة، تظهر عليها الرسومات نفسها التي تحدثت عنها سابقاً، غير ان النقوش مختلفة عن سواها. ومن بين النوافذ الثلاث الواقعة من الجهتين، لم أجد سوى ثلاث ركائز مغطاة بالرسومات نفسها، التي وصفتها آنفاً.

شاهدنا شمالاً غرفة كبيرة، توازي الرواق كله طولاً؛ ويضم احد جدرانها، باباً كبيراً، تحده من الجهتين صورتا رجلين يحملان حراباً. ونجد هنا ايضاً ركيزة نافذة، عليها ثلاث صور، فضلاً عن حجارة ارتفاعها ٢٢ قدماً، مغطاة بنقوش شبيهة بتلك التي رأيناها في الصرح (ز)، انها تعرضت لأضرار الزمن. يحد الرواق الكبير من الجهتين عدد وافر من الغرف، تتألف الغرفتان الجنوبيتان من ثلاثة أقسام متساوية؛ فلو كان هذا الصرح معبداً، لقلنا انها غرف الكهنة. ونشاهد على ركائز النوافذ فيها، صورة امرأة، وخلفها صورة رجل يمسك بقرني نعجة. أما في الغرف الوسطى فنجد آثار أربع أعمدة، علاوة على صور شبيهة بتلك التي نقلتها في اللوحة XXV الرسم ج (٢)، غير ان معظمها تعرض للتآكل مع مرور الزمن.

(*) لاحظت، في هذه النقوش، ان حرفين من نهاية السطر الثالث، المحفور على احد الابواب، تظهر في بداية السطر الرابع، على الباب الاخر. مما يعني انها كتبت من اليسار الى اليمين، شأنها شأن الكتابات الاوروبية.

G

H



لم يتبق الكثير من الجدران الخارجية للغرف الشمالية، باستثناء السلم ن (N)، وآثار أربع أعمدة، ولعل هذا السلم يشكل جزءاً من الصرح ط (T)، لأن المهندس بنى ادراجاً جميلة تؤدي إلى الصرحين (ز) و(ح)، ولا أظنه نسي ان يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى الصرح ط (T).

بنيت الأبراج (ن) (N) بطريقة مشابهة للأدراج الأساسية أو الأدراج الكبرى، اي انه زودها في الوسط، بمكان يستريح فيه من يتسلقه، أما الدرج الواقع بين الصرحين ط و ز، فهو مغطى تماماً بالتراب؛ بينما الآخر مكشوف تماماً، ويتألف من ٢٦ درجة، وهو يضم صوراً مختلفة ونقوشاً غريبة.

غير ان معظمها تعرض للتآكل مع مرور الزمن. حفر بين هذين السلمين رواق طويل، شبيه بقناة المياه(*). بني قديماً قرب منطقة (م) صرح كبير لم يتبق منه اليوم الا ركائز ٣ أبواب أو لعلها جدران ٣ مداخل، تفوق جدران الصرح (ل) عظمة. نشاهد على الجدران ث الصورة نفسها التي نقلتها في اللوحتين XXIX و XXX. وهي تجسد فتاة جالسة على مقعد، حاملة كأساً في يد، وعصاً في اليد الأخرى؛ ونشاهد في الأسفل صور فتيات رافعات ايديهن صوب الأعلى. أما على الركائز الثلاث الأخرى فنشاهد الرسوم ج (٢) من اللوحة XXV. غير أنه لم يتبق الكثير من هذا الصرح (الذي كان ذا شأن عظيم نظراً لمداخله)، سوى جدران اساسية، وقاعدتي عامودين كبيرين، أما الأجزاء الباقية فهي إما مغطاة بالتراب، أو منقولة إلى مكان آخر.

يضم الصرح ك، غرفتين فحسب، أما الجنوبية منها فلها أربعة أبواب، نشاهد على ركيزة الباب الغربي صورة البطل الذي يصارع مع الأسد، علاوة على ثلاث نوافذ صغيرة، تهدم معظمها مع مرور الزمن. ونشاهد على ركيزة الباب الجنوبي صورة رجل حاملاً الكأس في يد والعصا في اليد الأخرى؛ بينما يحمل خادماً من خدمه مذبة في يد ومنشفة في الأخرى، أما صورة الخادم الآخر فمغطاة كلياً بالتراب. تغطي ركائز الباب الداخلي الصور (ج) (٢) من اللوحة XXV كما وللغرفة الثانية بابان ايضاً تغطي ركائزهما صور رجال يحملون الحراب.

يعد الصرح (ل) كله الأكثر اتساعاً بينها: كله؛ فلو كان صف الأعمدة ب. ج. د. هـ. يشكل بناءً واحداً، لشاهدنا في كل من الجهات الأربع مدخلين، يمتاز الواقع منها قرب الصورة (ت ث) و(خ غ) بعظمته وروعته، وتبلغ سماكة السور في الصورة (ث ث). ٦ أقدام ونصف، وهي توازي عرض الأبواب التي نشاهدها في هذا المكان.

(*) يروي قرويو هذه المنطقة، ان من كان يعبر هذا الرواق، كانت تنطفيء شعلته قبل ان يصل الى نهايته. ويضيفون انه يضم كنوزاً خفية لا احد يستطيع الوصول اليها، لأننا نصادف في الطريق عجلة مغطاة بالماس، تدور بشكل سريع حاملة معها كل من يدنو منها، لم احاول المجازفة بالنزول الى هذا الرواق، لأنه تكثر فيه الافاعي والحيوانات المفترسة؛ علماً ان شاردين جازف قبلي بالنزول، وعاد خالي اليدين.

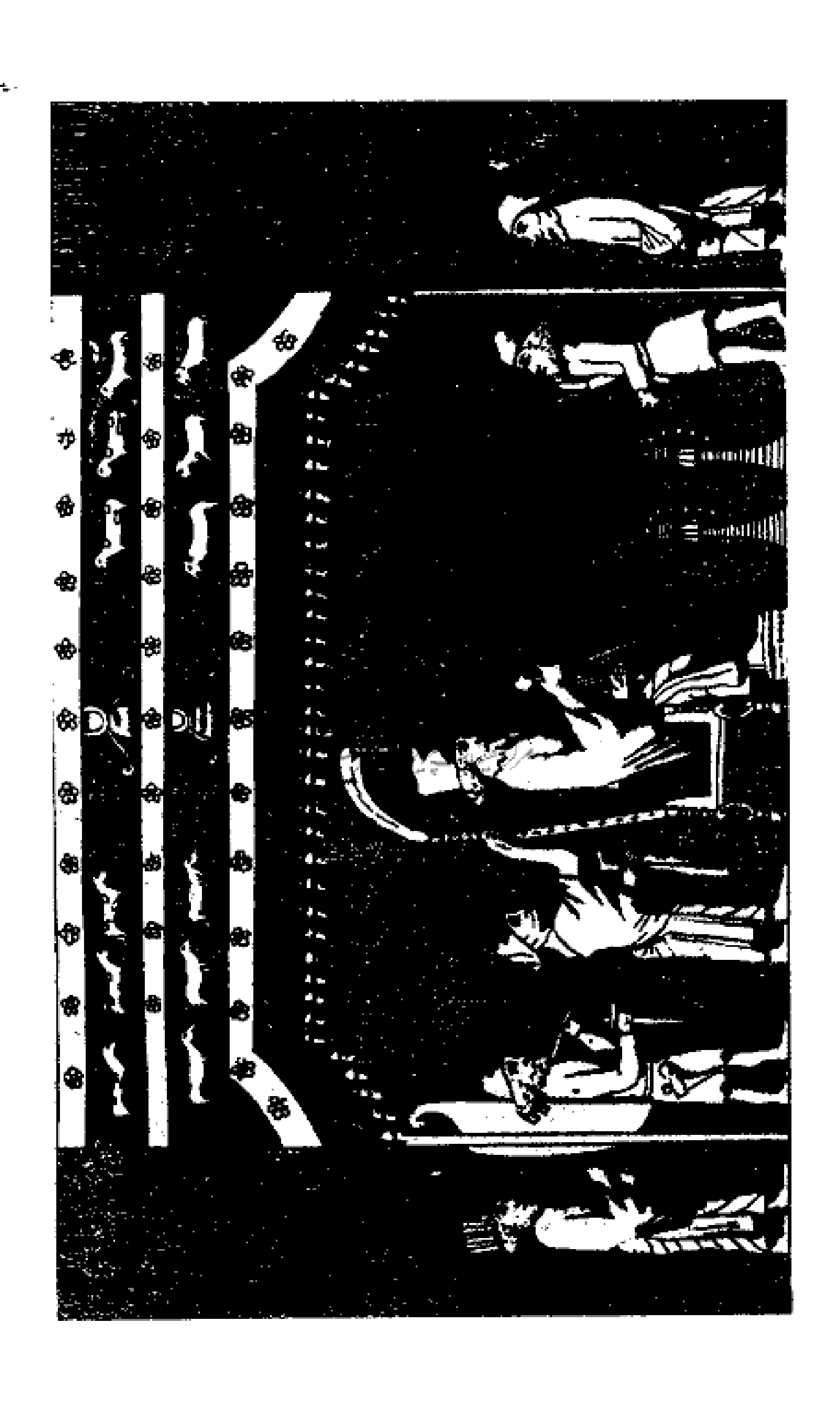
غير ان هذا السور لا يتألف من جزء واحد؛ فركائز الأبواب (ذ. ص. أ) و(أ. ب) و(ب)، تتألف من أجزاء كبيرة مختلفة، وضعت الواحدة منها فوق الأخرى بشكل أفقي. تغطي ركائز الأبواب الأربع، في الصرح (ت) الصور التي نقلتها على اللوحة XXIX. ويبدو ان الملك أو الزعيم الروحي، يقيم مجلساً هنا، أو يعقد المحاكمات، ويستعمل كرسياً عالياً، ومرقاة تحت رجليه(*). وهو يضع في يديه اساور ذهبية، بينما قبعته أو تاجه مغطى بالمعدن. أما صورة الشخص الذي يقف خلفه حاملاً مذبة، فأظنها تجسد احدى النسوة، لأنها تضع على رأسها وشاحاً أو حجاباً شبيهاً بذلك الذي تستعمله النساء الشرقيات. بينما يرتدي الخصيان ثياباً شبيهة بتلك التي يرتديها الرجال في البلاد الشرقية. أما صور الرجال المسلحين الذين تحاكي أزياؤهم تلك التي نراها في اللوحة XXI، فلا بد انهم يمثلون الحرس الملكي.

نقلت في اللوحة XXX صورة احدى ركائز البوابة خ. خ xx، والتي يبلغ عرضها ٩ أقدام؛ والجدير ذكره هو أن مقاييسها كلها متوازية. أما أزياء الصور السفلية، للأفراد الذين يحملون عرش سيدهم، فهي مختلفة بعض الشيء، ولذلك جمعتها في اللوحة المذكورة. انه لغريب حقاً ان نشاهد هنا صور أشخاص يرتدون أثواباً طويلة تدل على مكانتهم المرموقة في بلاد فارس وافريقيا، كما واننا نستطيع التعرف عليهم بسهولة علماً ان شعرهم كث وشفاههم غليظة.

ونشاهد في القسم العلوي، للمدخلين ت و (خ) صوراً صغيرة تتمايل في الهواء. ويمكنكم مراجعتها في مؤلف شاردين علماً انني لم أشر اليها في لوحاتي. نشاهد على ركائز البوابة (ذ) البطل ج (٢) من اللوحة XXV، غير ان منقار الحيوان الذي يصارعه معه ملوي، والبطل يمسكه بأذنه. على البوابة (ض) نشاهد البطل نفسه في صراع مع أسد، وعلى البوابة (أ) مع قارن مجنح، وعلى البوابة ب ب مع القارن الأسطوري الذي نشاهد صورته محفورة على ادراج هذه البقايا كلها.

في السور الشمالي نجد بابين، وتسع نوافذ، حسبها أحد الرحالة أبواباً صغيرة، ويبدو انه لم يلحظ ان علو الأرض زاد قدمين على الأقل بسبب التراب الذي تنقله الرياح إلى هنا من الجهات الغربية، والجنوبية والشرقية، نشاهد ايضاً نوافذ مموهة، اي ان حجارتها لم يبق إلا نصفها، ويبدو ان هذا الصرح كان أيضاً مسقوفاً، ولعل النوافذ الفعلية قد هدمت ونقلت إلى مكان آخر. نشاهد امام الصرح سورين كبيرين (ج ج) مغطيين بالحيوان الضخم نفسه الذي نشاهده على الأسوار (أ) من اللوحة XX ونجد على ابواب هذا السور (كما على المداخل الأساسية للأصرحة الأخرى) صور رجال حاملين الحراب، أخالهم يمثلون الحرس.

(*) لا نرى اليوم كراسي مماثلة لدى الفرس بينما هي تكثر عند الهنود



انه لغريب حقاً ان لا نرى في الصورة ج (٢) من اللوحة XXV (التي تكثر في الصروح الأخرى) إلا صورة الرجل الجالس على كرسيه. ولعله، كانت تقام في هذا الصرح محاكم غير دينية، أو مجالس للغرباء، نجد في هذا الصرح أجزاء اعمدة مبعثرة هنا وهناك.

وقرب الصورة س من اللوحة XVIII، نشاهد حجارة باب، يوازي باب أ، وأ، هـ عظمة. علاوة على بقايا أعمدة مصقولة، وجزء من حيوان ضخم، كان يستعمل حتماً كتاج لها. ونرى صوب الغرب، مداخل واسعة، محاذية لسلم طويل، انه لشعور رائع ان يقاد الأجنبي إلى الصرح (ل) عبر هذا الطريق، بين اعمدة وأسوار من المرمر الجميل، كانت قديماً مزدانة بالرسومات ومصقولة جيداً.

هذه هي بقايا قصر برسيبوليس الأساسية، الذي هدم منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة. أما الأجزاء التي يمكن استعمالها في البناء، فقد نقلت من هنا منذ زمن طويل.

مما لا شك فيه ان ما تبقى منها يثير اعجاب الجميع. فقد نقل الفرس عن اليونانيين هندستهم المعمارية، من حيث ترتيب الصروح وتقسيمها، فهي مكدّسةً، بعضها فوق بعض كما وأن تعدد زوايا سورها الأساسي شوه دائرته كلها. غير اننا لا نعرف كم من الوقت اقام فيه اصحابه، قبل ان يدمره الاسكندر الكبير؛ وسواء أكان معبداً أم قصراً، لا شك ان عدة مهندسين معماريين ساهموا في بنائه، لأن أصحابه من كهنة أو علمانيين، كانوا يزيدون عدد الصروح، كلما ازدادوا ثراء، وازدادت حاجتهم للخدم.

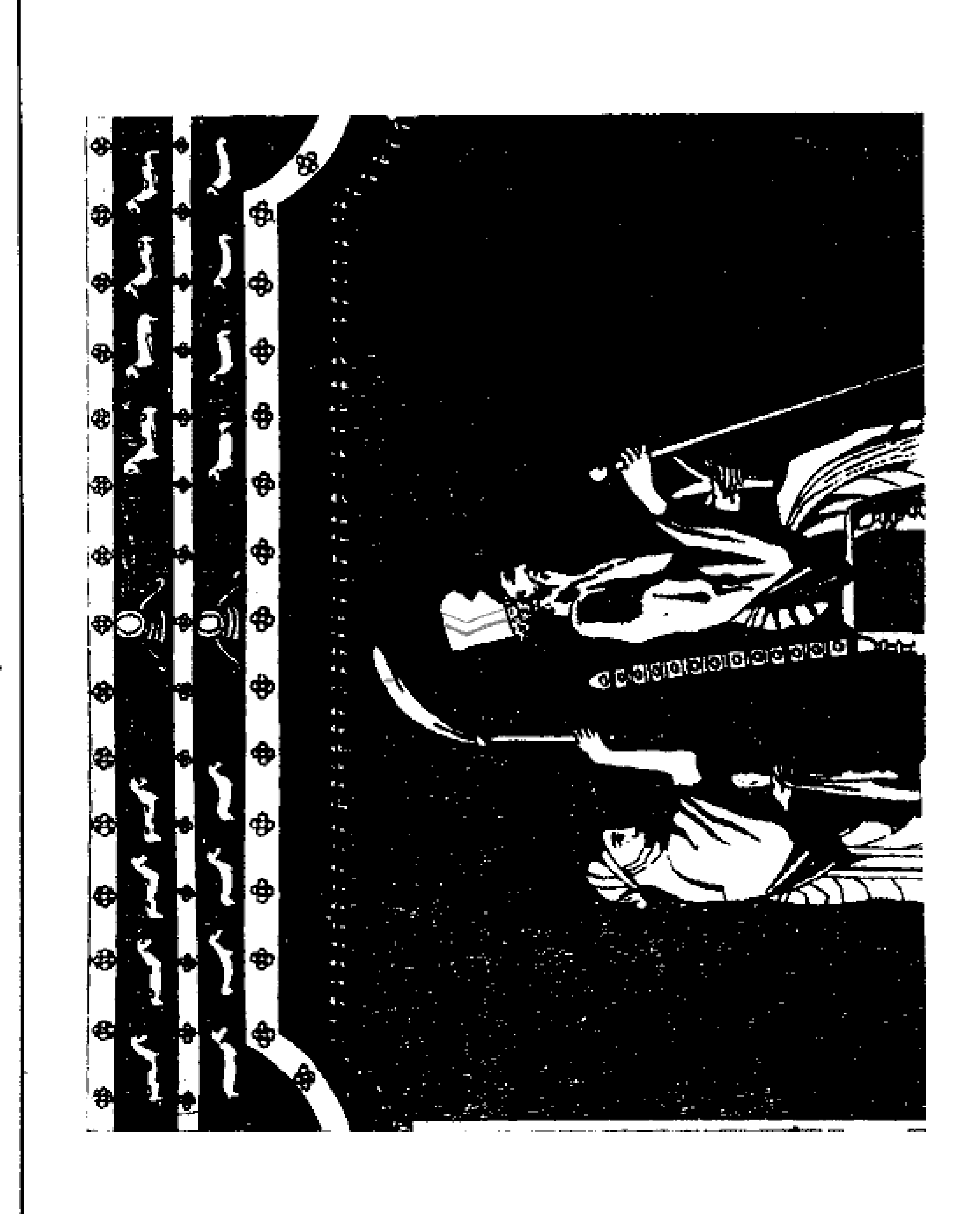
يقدّر لوبراين، ان عدد الرسومات، التي نجدها اليوم بين هذه الآثار بحوالي ١٣ ألفاً ورغم انني لم أتكبد عناء عدها، لا أظن ان هذا الكاتب قد بالغ في العدد، ولا داعي ابداً لنقلها كلها، نظراً لتشابهها الكبير. تجدون في لوحاتي، صور الأزياء التي شاهدتها هنا، أما صور الحيوانات الاسطورية، فهي متوفرة في مؤلفي شاردين ولوبراين. ولا أخال أن العلماء قد يحتاجون لرسومات أخرى عن برسيبوليس(*). ولكنني أرجو من الأوروبيين الذين قد يزورون هذا المكان لاحقاً، ان

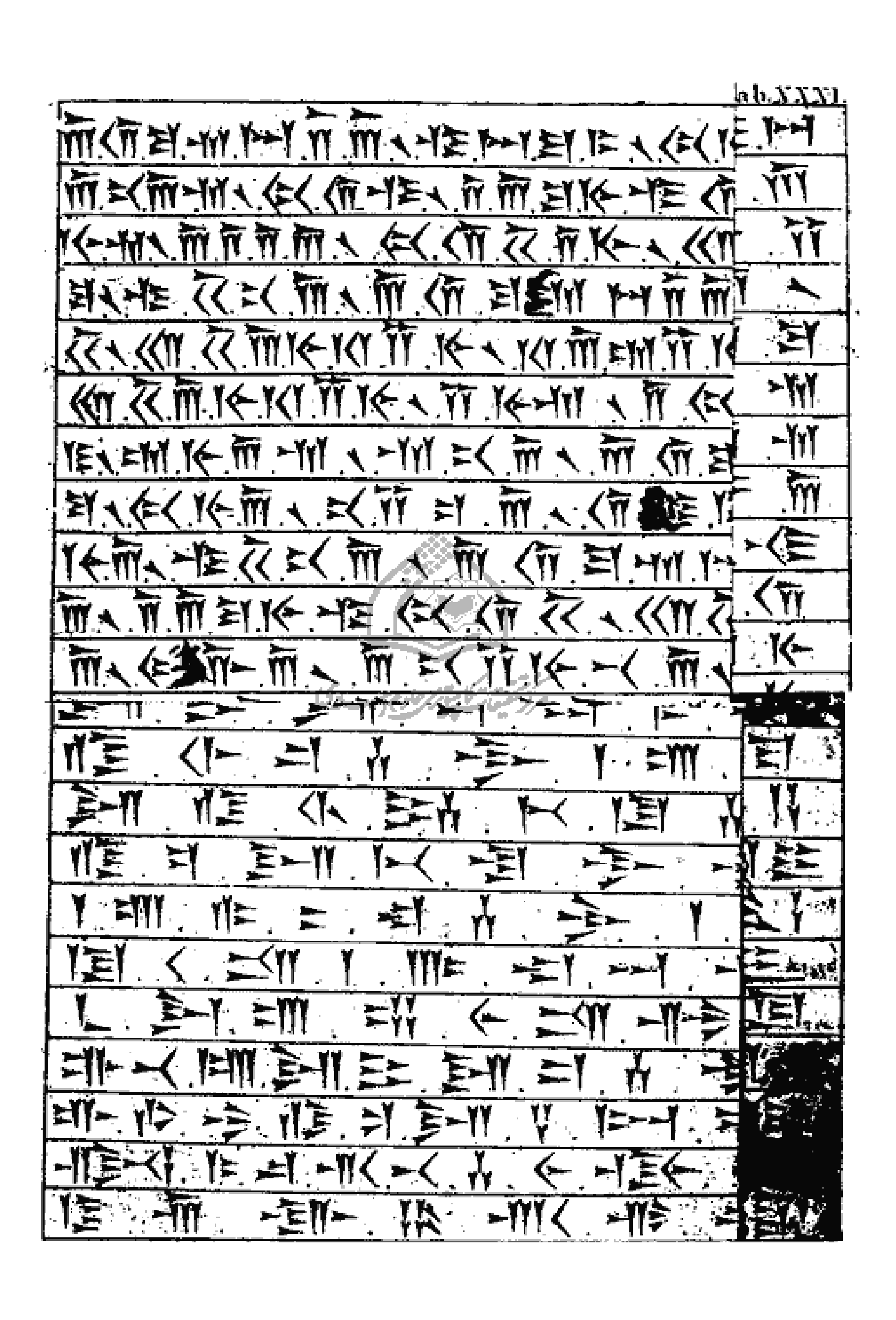
(*) عند انطلاقنا، لم تتلق الامر بالذهاب الى بلاد فارس غير اننا لاحظنا في مصر، أنه من الافضل لنا ان لا نحمل الكثير من الامتعة خلال رحلتنا الى شبه الجزيرة العربية، فأعدنا الى القاهرة الكتب، التي حسبنا اننا لن نحتاج اليها. لهذا السبب لم اكن احمل معي اي وصف لبرسيبوليس، باستثناء وصف كامفر لها في كتاب Amoenit Exot، ولم استطع بالتالي مقارنة الرسومات الاصلية بتلك التي نقلها الرحالتان المذكوران اعلاه. غير ان رسوماتي مختلفة عن رسوماتهما وعلى الرحالة اللاحقين ان يحكموا على مصداقية كل منا. غير انني لا اوافق على نقد لوبراني لرسومات السيد شاردين، لأنه نقل اولاً الرسومات بقلم الرصاص ولونها لاحقاً بالحبر مما ادى الى تغير معالمها بعض الاشياء وكان من الافضل له ان يمتنع عن نشر ملاحظاته حول شاردين وكامفر لأنه ينتقدها للدفاع عن رسوماته فحسب.

ينقلوا النقوش القديمة الموجودة، وبشكل واضح تماماً، حتى نستطيع تمييز الأحرف كلها كما في الصورة الأساسية. فهذا ما لم يفعله كامفر وشاردين ولوبراين، ولهذا السبب بالذات لم يسع اي عالم لتفسير هذه النقوش. سأضيف على اللوحة XXXI أربعة نقوش، ط ح، ك، ل، وجدتها وسط السور الجنوبي الأساسي، يبلغ طول الحجارة المنقوشة عليها ٢٦ قدماً، وارتفاعها ٦ أقدام، مما يعني ان الأحرف واضحة تماماً، رغم أنها تضم ثلاث أبجديات مختلفة.

خلف الصرح (ل)، وعلى ارتفاع جبل راشمد قرب الصرح ع من اللوحة XVIII، نجد صرحاً آخر، رائع الجمال، لم يتعرض لأضرار السنين، وهو يتميز بواجهته الساحرة التي تضم صوراً. وأعمدة وغيرها من الأشكال الهندسية الجميلة، كما وتكثر فيه الحجارة المنقوشة التي تدل على أن هذا المكان كان يتألف من صروح متعددة، نقلت اعمدتها إلى مكان آخر، أو انها كانت تستعمل كسلم للوصول إلى الصروح المذكورة. كانت عيناي قد أنهكتا من جرّاء انكبابي على رسم انقاض هذا القصر، ومن نقلي النقوش كلها، خاصة المحفور منها في الأجزاء العليا، والتي لا تقرأ بسهولة، حتى انني لم أجرؤ على رسم هذه الواجهة الكبيرة، واظن انني تكبدت ذلك العناء سدىً، علماً ان هذه الرسومات متوفرة في عدة مؤلفات أخرى. والملاحظ ان الصور التي نشاهدها هنا، تتشابه مع تلك الموجودة في القصر، مما يدفعنا للاستنتاج بأن السيد الذي بنى هذه الواجهة يعتنق الديانة نفسها التي يعتنقها باني القصر أو المعبد. لكن ان كانت تلك الديانة تعرف بالزرادشتية أو ديانة عابدي النار، فهذا يثير الشك؛ ففي معابد المجوس، التي نشاهد العديد منها في بلاد فارس والهند، يقف الكاهن أمام النار المقدسة، ليؤدي واجباته الدينية، واضعاً قطعة قماش امام فمه، حتى لا يدنس النار بلهاثه. أما في الصرح الذي يعلو هذه الواجهة، فيقف الكاهن امام المذبح، حيث النار مشتعلة، ووجهه مكشوف كلياً، ويحمل في يده شيئاً، يحرك فيه النار؛ نشاهد في الصورة المحفورة هنا، قوساً في يد الكاهن، علماً انه لا يستطيع استعماله لتلك الغاية. كانت الشقق المبنية خلف هذه الواجهة، تستعمل لاقامة مراسم الجنازات؛ وقد بقيت معلقة من الخارج، لمدة طويلة، إلا انه تم خلعها، غير ان مجوس اليوم لا يدفنون أمواتهم، بل يتركون عصافير الصفنج تلتهمها.

ولكن هذه الأبنية الأثرية، هي أكثر قدماً من عادة الفرس، الذين نقلوها عن المجوس؛ وحتى ملوك بلاد فارس، الذين كانوا من عبدة النار، كانوا يسعون للحصول على الإذن بدفنهم بعد موتهم. كما واننا نجد في الهند، طبقات اجتماعية مختلفة، يعتنق اهلها الديانة نفسها، فالبعض يحرق جثث أمواتهم، والبعض يدفنها، والبعض الآخر يرميها في المياه؛ ولعل مصير جثث ملوك بلاد فارس واسيادها كان مختلفاً عن مصير جثث افراد الطبقات السفلى. وتجسد هذه الصورة





الموجودة هنا، اميراً علمانياً، يقف بعيداً عن المذبح حتى لا يؤثر لهاثه على هذا العنصر.

قرب الصورة ف من اللوحة XVIII، نشاهد خزاناً (أو ينبوعاً أو سواه) محفوراً في الصخر، يبلغ ارتفاعه ١٢ قدماً مربعة، وعمقه ١٣ قدماً، يبدو ان فتحته العليا كانت مغطاة كلياً، كما وان الثقوب التي نشاهدها في الصخر، تدل على انها كانت قديماً أبواباً تؤدي إلى صرح ما. ونجد هنا أيضاً قنوات للمياه محفورة في الصخر.

نشاهد نحو الجنوب، واجهة مكان آخر تقام فيه الجنازات شبيهة إلى حد بعيد بالواجهة الأخرى، رغم تعرضها لأضرار السنين. دخلت إلى هذا المكان بسهولة فائقة، غير انني دهشت لرؤية غرفة مستطيلة، كانت تحوي ماء؛ مما لا شك فيه ان بناء هذه الغرفة الصغيرة يتطلب عناء ومالاً. علماً انها محفورة عامودياً في الصخر، ومزدانة بالتماثيل. ولكن لماذا بنى المصريون الأهرام؟ لم نجد فيها سوى عدداً بسيطاً من الغرف، لا أظن ان صرحاً بهذه العظمة يبنى من اجلها، علماً ان تكاليفه باهظة وبناءه صعب

على بعد ربع فرسخ جنوباً حفر الصخر بشكل عامودي؛ وبني عليه منحدر. فنقلت الحجارة من هنا لتوضع على اعلى الواجهة ونقشت على الصخر نفسه هذه الرسومات. غير ان احداً لم يعر هذه الاعمال اهتماماً. وتلفت نظرنا صورة جسم مستدير يلوح في الهواء، أظن انه يجسد الشمس وصورة شخص يرتدي ثوباً طويلاً ويقف امام المذبح كلياً؛ ولعل قوساً في يده، لم يتم انجازها كلياً، ولعل المقاول توفي قبل انهائها أو ادخلت إلى بلاد فارس ديانة جديدة. في هذه الأثناء، انتزعت الحجارة من الصخر، دون ان تنقل كلها.

نشاهد في الوادي، في الجهة الجنوبية ـ الغربية من القصر، بقايا صرح مهدم، يتوسطها عمود منتصب، ترون صورته في اللوحة XIX؛ وأظن انه العامود العشرون المنتصب بين هذه الأنقاض كلها. أما صوب الشمال؛ فنجد ركائز ابواب، متقنة البناء، لتلك التي أشرت اليها اعلاه. وتكثر عند اسفل الجبل، الحجارة المقتطعة من الصخر، والتي تستعمل لبناء القنوات المحفورة في الصخر. في منتصف الطريق الذي يفصل بين هذا القصر وبقايا «إصطخر» Istakr، نجد غرفة محفورة في الصخرة، لا سقف لها ولا جدار أمامي؛ أما الجدران الثلاثة الأخرى فمغطاة برسومات كبيرة، تختلف من حيث اسلوبها عن رسومات تشيل ـ منار. وتشاهدون في الصورة (أ) من اللوحة XXXII، الرسومات المحفورة على السور الشمالي؛ والملفت للنظر ان رأس الصورة الاساسية التي اسماها قاضي البلدة رجب Rodsgab، فضلاً عن رأس الجواد، قد شوهتة بعنف؛ أما الرسم المنحوث خلف الجواد فيبلغ ارتفاعه ٨ أقدام ونصف. نجد على هذا السور، السطور الأربع (و)، من اللوحة XXVII، أمام الجواد، أما (ز) و(ح) فهي مرسومة على الجواد نفسه، ولا أظن ان

المعلم الذي حفر هذه الصور، قد رسم هذه السطور أيضاً لأنها حديثة(*).

إن السطور السفلية من الأحرف اليونانية، هي أيضاً حديثة، ولكنها تالفة تماماً. نقلت رسومات السور الشرقي، قرب الصورة (ب) من اللوحة XXXII، رغم انها تعرضت لأضرار السنين. ونشاهد هنا شخصين يتقاتلان حول حلقة، يتدلى منها شريط أحمر، ويقف بينها طفلان صغيران فضلاً عن ثلاثة أشخاص يمثلون النساء. أما على السور الجنوبي، فنشاهد صورة شخصين على الحصان، يتقاتلان ايضاً من أجل حلقة. لم أحاول نقلها نظراً لتعرضها للتآكل، غير انني اظنها مشابهة لتلك التي أشرت اليها في الصورة (ح) من اللوحة XXXIII.

على بعد ميل ونصف من تشيل ـ منار أو من قصر برسيبوليس؛ اي على بعد ٣/٤ الميل شمالاً و ٣/٤ الميل شرقاً، نجد بقايا إصطخر (أي مدينة برسيبوليس)، وهي تجسد بقايا القصر الذي طلبت الملكة خومي Homi بناءه في هذه المدينة؛ علماً ان طرازها شبيه بطراز تشيل ـ منار ولا تبعد هذه البقايا كثيراً عن مقبرتي نقشي رستم اللتان تعدان علامتين مميزتين في هذا القصر.

نشاهد في هذا المكان عامودين منتصبين، يشبه تاج احدهما ذاك الذي نراه، في الصورة (أ) من اللوحة XXV بينما يعلو الثاني جزء من حيوان مفترس. تحيط بهذين العامودين؛ بقايا اعمدة مهدمة، وبعض القواعد، التي لم تنقل من مكانها. وجدت في سور صرح مجاور لهذين العامودين. حجارة يبلغ طولها وعرضها ٩ أقدام وسماكتها ٤ أقدام. تتألف هذه الأبنية كلها من المرمر الاسود الصلب، الذي يكثر بين بقايا تشيل ـ منار ايضاً. نجد عند أسفل الجبل ركائز اصرحة متداعية، وبعض الحجارة المتكدسة فوق بعضها البعض، وكأنها كانت قديماً باباً.

تقع بقايا قصر الملكة خومي في وادٍ ضيق وخصب، بين جبلين شاهقين، وبمحاذاة نهر صغير، يطلق عليه الفرس اسم (Polwar) بلور، يصب في الأراكس. يبلغ طول هذا النهر ٣/٤ الميل، امتداداً من هنا إلى الوادي الكبير، حيث يقع تشيل ـ منار، واظن بالتالي ان مدينة «إصطخر» أو برسيبوليس تقع بين هذين القصرين.

تقاد مياه النهر، عبر القنوات الصغيرة، إلى الأرياف الخصبة المجاورة. لم تهدم برسيبوليس دفعة واحدة، مثل قصر برسيبوليس، ففي عهد الخلفاء كانت «إصطخر» مقر حكامهم. وان اخذنا بعين الاعتبار موقع برسيبوليس، بين الجبال وفي سهل خصب، وافتقار السكان إلى الذوق الرفيع، في الهندسة المعمارية، وإقدامهم بالتالي على تدمير قصور اجدادهم، وبناء منازل متواضعة مكانها، لن

(*) ان النقوش (ن) هي الاكثر وضوحاً مقارنة بنقوش انقاض تشيل ـ منار تختلف الاحرف قرب الرسم (ن) و(ز)، رغم ان بعضها يتشابه بعض الشيء. يستطيع هواة اللغات استعمال احدى الابجديتين لتفسير الاخرى.

تتفاجأ ابداً، ان لم يتبق من صروح هذه المدينة الأربعة، سوى بعض الركائز، والحجارة الكبيرة، التي تعذر نقلها إلى مكان آخر.

نشاهد شمالي نهر بلور (على مقربة من برسيبوليس أو إصطخر) مدافن الملوك المزعومين. والملفت للنظر ان طبيعة الصخرة الملساء ساهمت في جعلها واجهة لهذه المقابر دون بذل عناء كبير. غير ان هذه الأضرحة لا تضاهي تلك التي قرب القصر المذكور جمالاً وروعة، رغم انها كلها متشابهة من الخارج؛ تتميز مداخلها بعلوها وارتفاعها عن الأرض، إلى حد اننا لا نستطيع الوصول اليها دون الاستعانة بسلم، ولكن لم تسنح لي الفرصة لاتخاذ هذه التدابير كلها. بيد انني علمت في السنة التالية ان السيد هيرفيل، زار برسيبوليس ثانية، وكتب لي تفصيلياً عما عثر عليه داخل احد الأضرحة. وجد غرفة طولها ٤٠ قدماً وعرضها ٢٠، وفي جدارها الداخلي ثلاث كوات، وضع في كل منها صندوق ارتفاعه ٤ أقدام، وطوله ٩، وعرضه ٨، مغطى بحجر كبير مسطح. ولما كنا نعتبر هذه الغرف مقابر، خطر للسيد هيرفيل انه قد يعثر في داخلها على توابيت المومياء؛ فأخذ معه مطرقة ومثقاباً لفتح التوابيت، غير انه اكتشف ان تعبه ذهب سدىً، خاصة وان الرحالة السابقين، ثقبوا الغطاء، ليمرروا عبره ايديهم، حاملين المصابيح؛ وبعد ان حذا السيد هيرفيل حذوهم، لم يجد في الداخل سوى التراب.

يمكننا بالتالي الاستنتاج ان هذه التوابيت لم تحو جثثاً أبداً؛ فمن خلال وصف السيد هيرفيل، يتضح لنا أن ثقوب الغطاء صغيرة للغاية، ولا يمكن اخراج الجثث عبرها ونقلها إلى مكان آخر؛ كما وان عرض هذه الصناديق لا يتناسب مع طولها، شأنها شأن التوابيت الحجرية التي نجدها في مصر، وأرض الميعاد وناتولي، واليونان، ويبدو لنا جلياً ان هذه الصناديق لم تصنع لتبقى فارغة، بل كانت للاحتفاظ بالاشياء الثمينة فيها، وخاصة تلك التي تنقل بسهولة. غير ان هذه الغرف المنحوتة في الصخر، كانت مخصصة لدفن الجثث، وخاصة جثث الملوك، حفاظاً على ذكراهم، شأنهم شأن ملوك مصر، الذين دفنوا في تلك الأهرام الضخمة. ورغم اننا لا نجد اليوم بقايا اجساد ميتة، لا نستطيع القول، ان هذه الصناديق لم تحو جثثاً أبداً. فلعل هذه الغرف قد فتحت منذ زمن بعيد، وسرق القرويون المقيمون في هذه المنطقة الجثث التي لم تهترىء بعد.

تكثر قرب هذه القبور الجميلة، الرسومات الكبيرة المحفورة على الصخر، والتي تمثل مآثر بطل بلاد فارس القديم، المدعو رستم؛ وهي تسمى نقشي (أي صورة) رستم(*)، وأظن ان واجهات

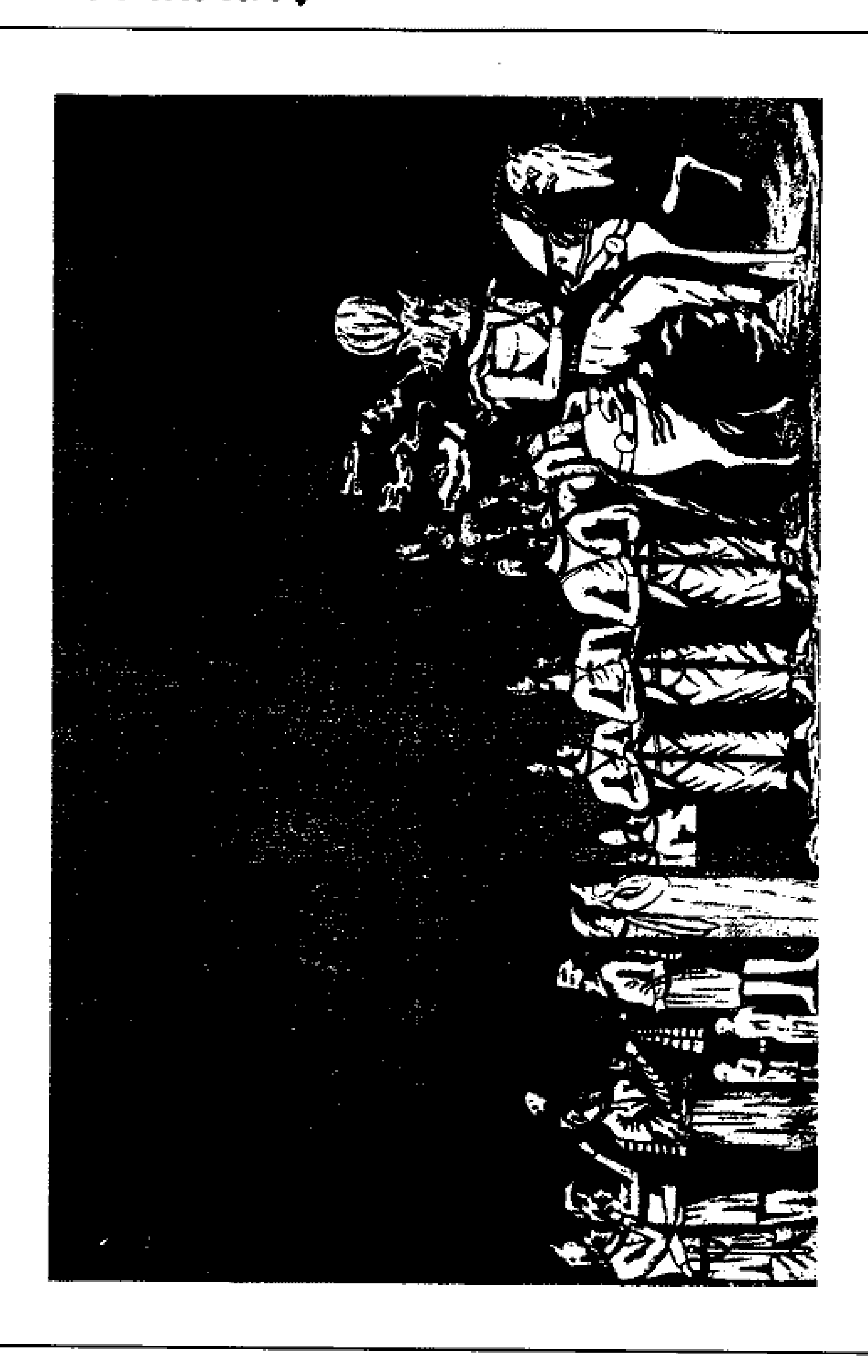
(*) يقول هيرودوت في كتابه الثالث، ص ٨٣، ان داريوس طلب صنع تمثال له، وهو ممتطٍ جواده. ولعل هذه الرسومات التي نشاهدها هنا وهنا، في بلاد فارس، والتي تعرف كلها باسم رستم، تجسد ملوكاً قدامى.

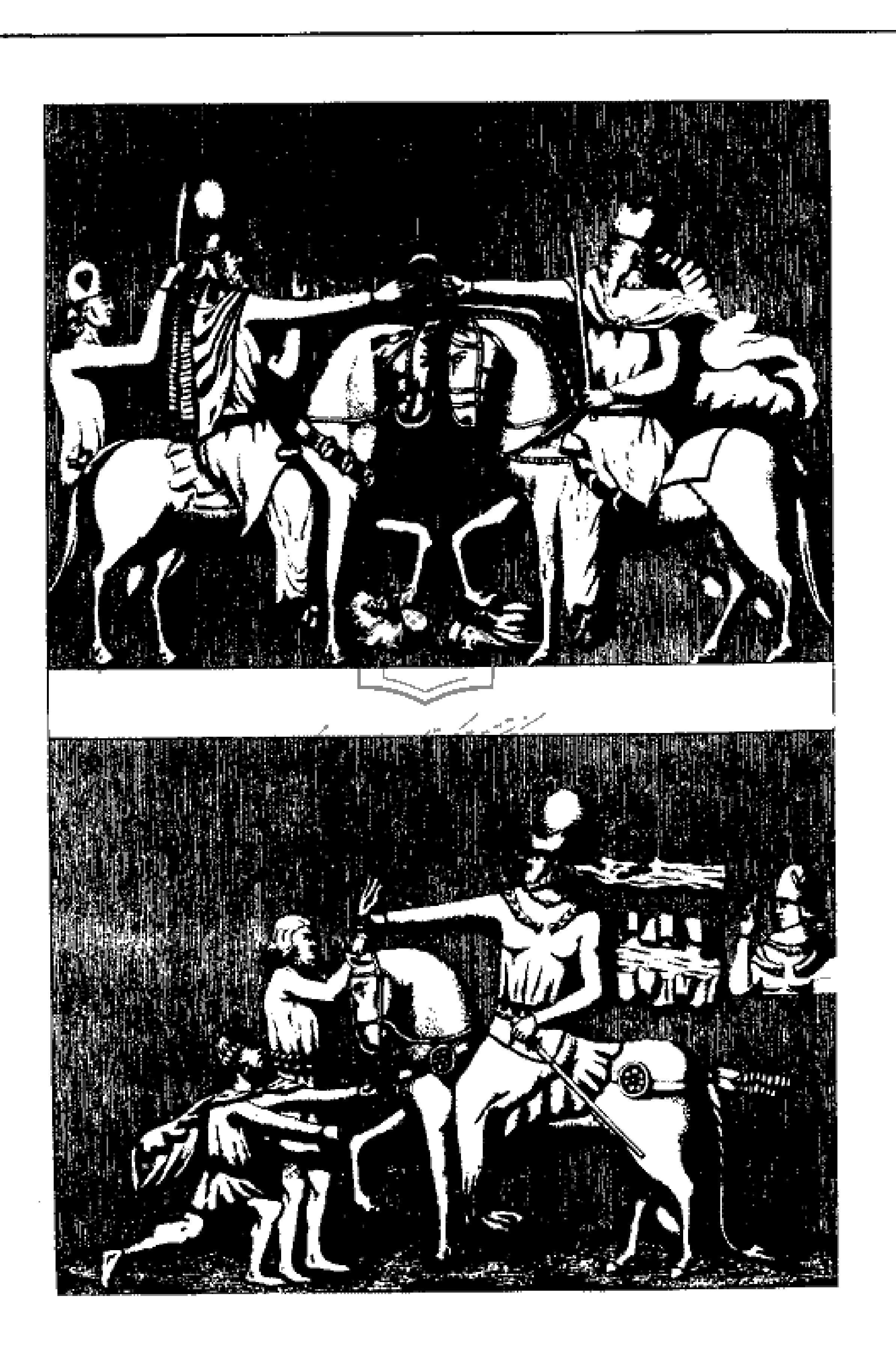
المقابر هي اكثر قدماً، لأن اسلوب الرسومات يحاكي اسلوب رسومات تشيل ـ منار أو قصر جمشيد. تجدون في اللوحة XXXIII صورتين للمدعو رستم؛ ففي الصورة (ح)، نشاهد صراعاً فريداً من نوعه، بين البطلين اللذين نراهما واقفين في الصورة (ب) من اللوحة XXXII، من حول حلقة.

يسمي سكان قرية تشول Tchul القريبة من هنا، رستم سال، حامل العصا في اليد اليسرى، ورستم كلداس، خصمه الواقف أمامه؛ يرتدي كلاهما سراويل طويلة تصل إلى اسفل أقدامهما لا يملك الفرس القدامى ركاباً، ويكتفون باستعمال سرج عادي. ولكنني لم استطع ان احزر سبب تدلي تلك الكرات من اعناق الجياد، رغم انها كانت تعيق سيرها. يتميز اللجام بالحزام الجلدي المعلق فيها، الذي يمر فوق فم الجواد. أما الشخصان المستلقيان ارضاً، فلا نشاهد إلا الجزء العلوي منهما، بينما يغرق الجزء السفلي تحت الصخرة. في الصورة (د) يرتدي الشخص الذي يقف أمام الجواد ثوباً ضيقاً له كمين طويلين، شبيه بذلك الذي يرتديه الهنود؛ فعند وصولهم، ينزلون أكمامهم ويغطون بها أيديهم، ليعيدوا رفعها عند انتهائهم. أما ما تمثله هذه الصورة كلها، فاترك للباقين عناء تحديد ذلك. نشاهد على هذه الصخرة، صوراً أخرى للمدعو رستم، غير انني لم أنقلها كلها، لأنها تَالِفَةٌ بعض الشيء، كما وانني كنت أتلهف للعودة إلى شيراز، خاصة وان خادمي اصيب بمرض عضال ادى إلى وفاته.

خلف صورة الجواد (د) في اللوحة XXXIII نشاهد لوحة كبيرة، حفرت عليها نقوش غريبة، تعرض معظمها للتآكل، ونقلت جزءًا منها (ثلث العرض، ونصف الارتفاع،أي سدس اللوحة المنقوشة) في اللوحة XXXIV؛ وهي عبارة عن سطور متقطعة. لا نستطيع فهم فحواها؛ غير أن العلماء يستطيعون، بواسطة هذه الصورة، أخذ فكرة عن الابجدية التي كان يستعملها الفرس يوم حفرت هذه الصور. ورغم ان النقوش الأخرى التي سنشاهدها في نقشي رستم تعرضت للتلف، نقلت بعضاً منها في اللوحة XXVII.

إن امعنا النظر في النقوش التي نقلتها من منطقة برسيبوليس، في تشيل ـ منار وفي نقشي ـ رستم، لا أظن انه قد يتوفر هذا العدد من الأحرف المختلفة، في منطقة أخرى من العالم. مما لا شك فيه ان الأحرف التي نشاهدها في اللوحتين XXIV و XXXI هي أكثر قدماً من تلك التي نقلتها من قصر جمشيد (تشيل ـ منار)؛ فهي تكثر بين الرسومات، في أماكن خاصة. اعتبر العلماء هذه الكتابات هيروغليفية، استناداً إلى رسومات الرحالة السابقين؛ بيد انني لاحظت انها تتألف من ثلاث أبجديات مختلفة كلياً، جمعتها كلها في اللوحة XXIII، في الصور أ.ب. ز، ح، ط، أما النقوش ج، هـ ك، و (د) و (و) فهي مكتوبة بأحرف أكثر تعقيداً.. وتبعاً لدرجة قدمها، تأتي أولاً





أحرف اللوحة XXXIV، وتليها خطوط الصورة (و) الأربع، والنقوش ط، في اللوحة XXVII. وتتبعها السطور الأربعة (ز)، وبعض سطور النقوش ط. من اللوحة XXVII.

والجدير ذكره انني كنت اجهل كلياً الأحرف التي تحدثت عنها حتى الآن، كما وانني لم أقع مرة واحدة على أحرف الأبجدية د و هـ من اللوحة II، والتي اخذتها عن أسلاف الفرس القدامى، الذين استقروا في الهند. يقال ان الأبجدية الأخيرة قديمة؛ غير ان تلك التي عثرنا عليها في برسيبوليس هي أكثر قدماً، حتى ان الفرس غيروا احرفها مرات عدة. اراد اليونانيون ان يخلدوا اسماءهم هنا أيضاً، غير أنهم لم يتقنوا عملهم جيداً، وحفروا نقوشهم على الأحصنة، علماً انها تعرضت للتآكل مع مرور الزمن. تلي هذه النقوش، الكوفية والعربية والفارسية؛ حتى أننا نعثر في نقشي رستم على أحرف عبرية (اللوحة XXVII، السطر الأخير)، واظن انني رأيت أحرفاً مماثلة بين انقاض تشيل ـ منار. ولكنني لا أستطيع ان أدرج هذه الأحرف، وأسماء بعض الأوروبيين في عداد النقوش، فقد عثرت في تشيل ـ منار على اسم لوبراين مكتوباً بالطبشور الأحمر.

أمام الجبل الذي يضم مقابر الملوك، وصور مآثر البطل رستم، نشاهد صرحاً صغيراً من الحجارة البيضاء (وليس من المرمر الأسود الجميل الذي استعمل في بناء القصور)؛ تغطي هذا الصرح حجرتان كبيرتان، ساهمتا إلى حد بعيد في الحفاظ عليه، فلا أحد يستطيع نقل الحجارة السفلية، دون ان يتعرض لخطر وقوع الحجارة العلوية عليه. أما البوابة، فليست مرتفعة كثيراً عن الأرض، ويمكن الدخول منها بسهولة، لأنها لم تتعرض للتآكل.

ولا نجد فيه سوى غرفة صغيرة مساحتها ١٠ أقدام مربعة، وبعض الثقوب في الحجارة، كانت مخصصة لمفصلات الأبواب. كما وانه خال من النوافذ، ولا يدخل اليه النور إلا عبر فوهة فتحة الباب، المجاور للصخرة. أما القسم السفلي من هذا الصرح، فليس مقسماً إلى عدة غرف، بل يبدو وكأنه ردم منذ البداية؛ ولا أخال ان هذا الصرح كان مخصصاً للسكن بل هو عبارة عن مقبرة، أو كنيسة صغيرة، توضع فيها جثث الأموات، قبل نقلها إلى الصروح الكبيرة.

قرأت في الكتب الأخرى، التي تتحدث عن سير الرحلات، عن عامود صغير على قمة الجبل، ولكني لم أشاهده إلا من بعيد. يقول هيرودوتس في كتابه الاول، ان الفرس اعتادوا تسلق اعالي الجبال، لتقديم الضحايا للشمس والقمر والأرض والنار والمياه، والرياح؛ ولعل سكان برسيبوليس كانوا يرتقون هذه الصخرة، للغاية نفسها، علماً انها تطل على منظر جميل للوادي الواقع في الأسفل.

نشاهد، على طريق قرية تشول Tchul صرحين منحوتين في الصخر، ولعلهما ضريحي وليين مسلمين.

على بعد ثلاثة أو أربعة أميال غرباً، نشاهد ثلاثة قصور، تعرف بقلعة إصطخر، وقلعة شيفاستي و...(*)

ويزعم ان الاول يقع في الأسفل، والثاني في الوسط والثالث في أعلى الجبل الوعر. ولما كنت قد أهملت زيارة هذه المنطقة، لا أستطيع القول ان كان الفرس القدامى قد بنوها، أو المسلمون، غير انها الأكثر عظمة وتستحق ان يزورها الاوروبي.

ان ارتفاع القطب في مدينتي برسيبوليس وممفيس متساوٍ تقريباً، غير ان عاصمة بلاد فارس كانت تفوق عاصمة مصر ارتفاعاً عن سطح البحر، مما أدى إلى بروز اختلاف كبير بين مناخي البلدتين؛ خلال إقامتي في برسيبوليس، هطلت الأمطار في ٢٧ آذار/مارس، و ١ و٥ نيسان/أبريل، ورغم ان الجليد عم المكان في ٢ نيسان/أبريل، إلا انه ذاب عند الساعة ٨ أو ٩ صباحاً، بعد شروق الشمس. نشاهد على أعالي الجبال، الواقعة غربي الوادي، بعض الثلج بين الحين والآخر؛ في المقابل، لا تمطر السماء إلا لماماً في ممفيس، كما وان سكانها لا يعرفون الثلج أبداً.

وفي نهاية المطاف، أود التحدث قليلاً عن سكان هذه المنطقة الحاليين، وعن اقامتي بينهم. كنت اقيم في قرية مردفت Merdaft، التي تقع على بعد ساعة تقريباً، جنوبي تشيل - منار، أما منزلي، فكان شبيهاً بمنازل القرويين، وهو يعرف هنا بخان القوافل، حيث ينزل بعض الرحالة الذين ينقلون من قرية إلى أخرى، حاملين معداتهم البدائية، وطالبين عملاً. كان سكان مردفت، وغيرها من القرى المجاورة. يأتون غالباً لزيارتي، وفي ايام الأعياد، كنت استقبل النساء والفتيات، اللواتي يشعرن بفضول كبير لرؤية رجل اوروبي.

والجدير ذكره، ان هؤلاء السكان في غاية الاخلاص والوفاء، وكنت اشعر بالارتياح بينهم، كما لو انني مقيم في احدى القرى الأوروبية، وكنت أقضي نهاري كله، من الثامنة صباحاً إلى الخامسة مساءً في انقاض تشيل - منار.

في ١٩ آذار/مارس، وبينما كنت أرسم في منزلي، حسب القرويون انني احتفل بعيد النيروز Naurus. فطلب قاضي القرية مني ان اعلمه بموعد حلول عيد النيروز، أو اعتدال الربيع، الذي اخذه السكان عن أجدادهم. فأكدت له أن الليل والنهار سيتساويان في اليوم التالي، فتقرر حينها

(*) لم اعثر على اسم القصر الثالث في المكان نفسه.

الاحتفال بعيد النيروز في هذه القرية، في ٢٠ آذار/مارس دون الاستعلام عن تاريخ الاحتفال به في القرى المجاورة. وهذا يعني ان الفرس لا يستطيعون تحديد موعد ثابت لأعيادهم شأنهم في ذلك شأن العرب والمصريين(*).

في ٢٠ آذار/مارس ارتدى القرويون ابهى حلة، وأخذوا اجازة من عملهم. ولما كان رمضان لم يشرف بعد على نهايته، لم يتجرأوا على الأكل والشرب في النهار، صحيح انهم يعوضون عن ذلك في الليل، إلا انهم يفعلون ذلك دون اي انزعاج. في ٢٢ منه، ظهر القمر، فاحتفلوا في اليوم التالي بعيد الفطر.

تقع تشيل ـ منار في الصحراء. خلال اقامتي فيها، وصلت ١٠ عائلات من الأتراك والأكراد الرحل الذين يقصدون مع ماشيتهم، الأرياف المجاورة. وكانوا يقتربون مني، حين يشاهدون رجلاً في ثياب أوروبية، قرب الأنقاض، ويندهشون من قيامي بهذه الرحلة الطويلة، للرسم والكتابة غير ان أحداً منهم لم يوجه لي كلمة فظة؛ علماً انني لم أصطحب معي سوى خادمي. وكان هذا الاخير يسر بقدومهم، ليأخذ منهم الحليب، دون أن يتكبد عناء حمل زوادته معه من مردفت. في عيد البيرم (الفطر)، وصل عدد من الفلاحين ومن بينهم نساء وفتيات، من القرى المجاورة بعضهم يمتطي الحمير، والبعض الاخر يتنقل سيراً على الأقدام؛ لعلهم كانوا يرغبون بزيارة الأنقاض، أو برؤية الأجنبي الذي وصل إلى المنطقة. وما لفت انتباهي هو ارتداء بعض هؤلاء النسوة، وأولئك اللواتي يرافقن الأكراد والأتراك النقاب على وجههنّ. لما كان الفرس شديدي التطير، فإن معظمهم يحمل حجاباً مغلفاً برقعة جلدية. أو غيرها من التعاويذ.

كانت احدى القرويات تعلق على صدرها قطعة نقدية، عليها أحرف عبرية تؤمن، أنها لن تفقد أصدقاءها طالما انها تحمل هذه القطعة. في هذا السياق، علمت ان المسلمين لا يكترثون لدين الشخص الذي يكتب هذه الاحجبة، المهم ان يتمتع بالمعرفة والنزاهة. وغالباً ما كانوا يطلبون مني ان اكتب بطاقات مماثلة؛ في حالات المرض المستعصي، والحوادث المؤلمة.

زارني عربي من سوريا، يدعي انه من البحرين، ليكسب احترام الاخرين له، علماً ان الشيعة يستقبلون أشهر علمائهم من هذه الجزيرة؛ وكان بوسعي التحدث معه دون ان ألجأ للترجمان. فقد كان يعيش في بلاد فارس منذ ٣٠ سنة، ويجني اموالاً طائلة من بلدة كمارا، ويعيش عيشة رضية؛ وهو يفتخر كثيراً بأصله ويطلق على نفسه لقب شيخ، علماً ان قاضي القرية الذي يحسن الكتابة والقراءة أيضاً لم يحظ إلا بلقب مُلّا.

(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

لما كان هذا الشيخ يدعي العلم، ويزور غالباً تشيل ـ منار على حصانه، للتمتع بهذه الآثار الرائعة الجمال، كنت اتمنى ان يزودني بمعلومات حول اراء الكتاب العرب والفرس في هذا المجال؛ غير انه لم يقرأ اي كتاب يأتي على ذكر هذه الآثار باستثناء «كتاب مروج الذهب للمسعودي». الذي يؤكد فيه الكاتب، ان سليمان ادى صلاة الفجر في اورشليم، وصلاة الظهر في بعلبك، وصلاة العشاء في تدمر وصلاة المساء في تشيل ـ منار، واظن ان هذه المعلومات تفيد المسلمين أكثر من العلماء الاوروبيين.

قمت بجولة بين الانقاض برفقة الشيخ المذكور، وقدته إلى النقوش الكوفية، علّه يحسن قرأتها وينقلها إلى العربية. غير انه لم يجد من داعٍ للقيام بذلك. وبعد فترة وجيزة، قام بزيارتي برفقة ابنه، الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ووطدنا صداقتنا من جديد، علماً انه رفض التحدث عن تلك النقوش. واستقبلت ايضاً بعض اعيان الفرس الذين علموا خلال رحلتهم من أصفهان إلى شيراز، أن رجلاً اوروبياً يقضي نهاره بين هذه الأنقاض، فغيروا وجهة سيرهم ليشاهدوا هذه الظاهرة الفريدة من نوعها.

في ٣ نيسان/أبريل، نقلت متاعي من مَرْدَفت إلى بلدة تشول، قرب نقشي رستم، حتى ابقى على مقربة من تلك الآثار، التي قد تشغلني عدة أيام. بعد مرور ساعات قليلة على وصولي إلى ذلك المكان، ارسل السيد هيرفيل رسولاً يعلمني انه في تشيل ـ منار، فأسرعت في العودة إلى ذلك المكان، في الليلة نفسها، وامضيت نهارين برفقة صديقي، قرب تلك الانقاض، حيث قضيت معظم الوقت بمقارنة رسوماتي باللوحات الأصلية، بغية اتقانها أكثر. في الخامس من آذار/مارس، رافقني السير هيرفيل إلى تشيل، على ظهر حصانه.

في شيراز، طردت الخادم المسلم، الذي رافقني من بوشهر، واستخدمت بدلاً منه خادماً أرمنياً، غير ان هذا الاخير اصيب بالمرض في مَرْدَفت. كنا نتناول الدجاج والارز والزبدة بكثرة؛ فكل يوم يعدون لي طبق البيلاف (الأرز المفلفل أو المبخّر)، وغيره من الاطعمة، التي لا تتوفر إلا نادراً في القرى الفقيرة. غير ان خادمي اضطر للامتناع عن الطعام، تبعاً لتعليمات كنيسته، أو بناء على إرشادات الهه، ولما كان اتباع الكنيسة الشرقية يمتنعون في زمن الصوم عن تناول اللحمة، والسمك والزبدة والحليب، والبيض، اضطر خادمي الأرمني للإمساك عن تناول الطعام، وسط القرويين المسلمين، الذين لا يحسنون تحضير الأطعمة التي تناسب صيام الأرمني. في الفترة الاولى من الصيام هزل جسده، وتوعكت صحته في الفترة الثانية منه عند وصولنا إلى تشول، ولهذا السبب تركته في البلدة، عند ذهابي لملاقاة السيد هيرفيل. في ذلك النهار قررنا ترحيله إلى شيراز في السادس منه، غير انه توفي قبل انطلاقه. وسط هذه الأحداث، سررت كثيراً بقدوم السيد

هيرفيل، ولما كان خدامه من الارمن ايضاً، ويكنون صداقة عميقة للمرحوم اهتموا بدفنه، لأن الشيعة كانوا يرفضون دفن مسيحي حتى لا يدنسوا انفسهم.

لو بقي خادمي حياً لقضيت وقتاً أطول قرب هذه الانقاض. غير ان عيني أصيبتا بالارهاق، وخارت قواي، ولم أعد اجرؤ على المجازفة أكثر. فاعتبرت موت خادمي، انذاراً لي، وعدت في ٧ نيسان/أبريل إلى شيراز برفقة السيد هيرفيل. فسرنا أربع ساعات من تشول أو نقشي رستم لنصل إلى جسر بولوخان، على نهر بندامير، الذي اتيت على ذكره آنفاً، وكنا نشاهد قرى مبعثرة هنا وهناك، علماً ان معظمها مهدم، فضلاً عن قنوات للمياه يغطيها التراب. وارياقاً قاحلة؛ نجد في هذه المنطقة الجزء الرابع من السكان، الذين كانوا يقطنون فيها في عهد نادر شاه؛ ولا يمكننا مقارنة هذا الشعب بذلك الذي استقر فيها زمن المسلمين، والذي كان يعتبر الزراعة، سراً الهياً ومن الضروري اتقانها.

قطعنا من الجسر المذكور فرسخين لنصل إلى زركان؛ ورغم ان الطريق خالٍ من التعرجات إلا أنه يصبح موحلاً بعد هطول الأمطار الغزيرة.

في ٨ نيسان/أبريل، عدنا إلى شيراز؛ تحد الجبال الشاهقة الطريق المؤدية من زركان إلى شيراز، والجدير ذكره ان نقشي رستم تبعد ثمانية أميال عن شيراز.

بعد عودتي إلى شيراز، بذلت جهدي لأشفى من السعال الحاد والتهاب الحنجرتين اللذين اصبت بهما في برسيبوليس. كانت الطريق من بوشهر إلى شيراز محفوفة بالمخاطر بسبب الحرب القائمة بين كريم خان ومير مهنا، مما دفعني للانتظار طويلاً قرب احدى القوافل، فاستغليت هذه الفرصة لاستعادة عافيتي ومشاهدة آثار منطقة شيراز.

الملاحظات التي دونتها في شيراز

على بعد نصف فرسخ شمالي شيراز، وأمام جبل شاهق، نجد صخرة عالية تطل على المدينة وعلى الوادي الخصب وعلى الجبال العالية البعيدة. يحاكي موقع هذه الصخرة مع تلك التي بني عليها قصر برسيبوليس؛ شيد احد المسلمين قصراً عليها، غير انه كان هشاً للغاية، ولم يتبق منه إلا عامود صغير؛ ويقال انه نقله من تشيل ـ منار، خاصة وانه مصنوع من المرمر الأسود نفسه، الذي نشاهده في انقاض برسيبوليس، علماً ان صخرة شيراز؛ بيضاء لينة دعمت طلعة هذا الصرح بسورين حتى يتمكن المسلم من الصعود على حصانه علماً ان مقاول قصر برسيبوليس لم يفكر بهذا الامر ابداً. نحت المهندس تحت الصرح الاساسي، الصخرة بشكل درجات وساق اليها مياهاً جارية، ليحولها إلى شلال جميل، غير أن النهر استعاد مجراه الأساسي، ولم يعد للشلال أي فائدة. نشاهد على مقربة من هنا، خزاناً كبيراً، وآثار مجارٍ للمياه. بعبارة أخرى، كان هذا القصر جميلاً جداً، استناداً لآراء المسلمين، أما اليوم، فلم يعد يستحق عناء زيارته.

نشاهد عند أسفل الصخرة، حجيرات عميقة، كانت قديماً اسطبلات للجياد، وغرفاً للخدم. أما عند أعلى الجبل، فنرى ضريح الولي باب كي، الذي يزوره المسلمون غالباً.

في الجهة الشرقية ـ الجنوبية وعلى بعد ميل من شيراز، نشاهد على احدى التلال، بقايا صرح، يسميه كامفير جب صعر Sjubosar، على اسم احدى القرى المجاورة، وشاردين ولوبراين، جامع والده سليمان، وهو يضم ثلاثة أبواب من المرمر، مزينة بصور شبيهة بتلك التي نراها بكثرة في تشيل ـ منار، ولكنها وضعت بطريقة سيئة للغاية، شأنها في ذلك شأن أعمدة قدامى المصريين الموضوعة في المباني الجديدة.

كان ضريح الشاعر الفارسي الشهير الحاج حافظ، (حافظ الشيرازي) موجود قديماً في ضواحي شيراز، أما اليوم، فهو على بعد ربع فرسخ من بوابة المدينة، ولا نصادف على هذه الطريق الا صرحاً واحداً، وجامع الشاه مير حمزة الكبير المشار اليه على اللوحة XXXVI وبعض المنازل الحقيرة. تكثر في هذه المنطقة الأرياف الخصبة، وتحيط بالضريح المذكور مراعٍ جميلة. لم يفقد الصرح رونقه، وهو يتألف من عدة أجزاء، يؤدي إليها سلم ضيق. نشاهد في هذا البناء ضريح العالم المذكور، وغيره من مشاهير بلاد فارس، ولما كانت الديانة الإسلامية توصي بتطهر اتباعها، نجد على مقربة من هذا المصلى، جدولاً صغيراً، يستمد مياهه من خزان كبير، ليتشعب بعدها في





الأرياف المجاورة، ومن أشجار السرو العالية، التي كانت تكثر قديماً في هذا المكان، لم يفلت من اضرار السنين إلا القليل منها.

نشاهد صوب الجنوب، ضريح عالم فارسي آخر، هو الشيخ سعد، والجدير ذكره ان هذا الصرح كان مهدماً كلياً قبل أن يتبرع احد المسلمين الأثرياء بترميمه، فلاحظت هنا طريقة حفر الفرس المعاصرين النقوش التي تكثر على أسوار الجوامع، فالأحرف مصنوعة من الصلصال المطلي باللون الأخضر أو الأصفر أو سواه من الألوان. علماً انها وقعت في بعض الأماكن، وتناثرت أرضاً. لفت نظري في هذا المكان، بئر مثمن الشكل، قليل العمق، تجري تحته مياه عذبة وصافية، مليئة بالاسماك، علماً انني لم أشاهد هذا العدد الهائل منها في اي مكان آخر، ولكن الأسماك تعيش هنا في رعاية الشيخ سعد، ولا أحد يتجرأ على أخذ واحدة منها. وبعد أن ننزل سلماً طويلاً نبلغ المياه، التي احيطت بأماكن مخصصة للجلوس والاستراحة عليها، ونشاهد على جهتي البئر المثمن قناة محفورة تحت الارض، وبمحاذاتها مقعداً من الحجارة المنحوتة. بعبارة أخرى، هذا المكان رائع الجمال خاصة في الفصل الحار. تتابع هذه المياه طريقها وسط حديقة تضم شلالات جميلة وخزانات للمياه. غير ان الفوضى تعم هذه الحديقة في الوقت الحالي، فضلاً عن ان الخزانات والقنوات تتداعى مع مرور الزمن. يدفع سكان بلاد فارس اموالاً طائلة لحفر قنوات المياه، ولم تزدهر تلك التي تروي الارياف خاصة ولكن الزراعة لم تزدهر لدى المسلمين، فقد توانوا عن العناية بهذه القنوات، وتسببوا بجفاف هذه البلاد، وبهجرة سكانها منها.

لما كنت ارتدي ملابس اوروبية، في بلاد فارس، تعذر علي التنقل في كافة انحاء شيراز، كما كنت افعل في مدن الشرق الاخرى، ولم استطع بالتالي وضع خارطة صحيحة لها. غير ان القارىء يستطيع ان يكون فكره واضحة عن مساحتها وموقعها. استناداً إلى اللوحة XXXV، التي اشرت فيها إلى اسماء الأبواب، قرب الصورة أ، نجد باباً رائعاً لبلدة طانجي الأكبر، (ص ٩٧) وقرب الصور ب، نجد ضريح الحاج حافظ، أما سارباش، فهي تضم مصنعاً للانكليز، ونشاهد في الموقع أ، ب، ت (a.b.c)، انقاض مصانع الفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين، ونجد بالتالي بعض الجوامع في الصورة، علماً اننا نشاهدها بشكل اوضح في اللوحة XXXVI التي رسمتها في الصرح المجاور لضريح الحاج حافظ. واليكم ما تشير اليه هذه اللوحة ١) شاه مير حمزه ٢) شاه شرا ٣) مدرسة ٤) زيد الحسين ٥) شتن جمعة(*) ٦) باب دوشير، وهي تجسد كلها جوامع كبيرة، بقيت على حالها، رغم تعرض المدينة للهب عدة مرات. والملفت للنظر اننا لا نشاهد اي منارة عليها، ويقال ان هذا النوع من الأبراج غير مستعمل في بلاد فارس، علماً أن المؤذن، أو من يدعو الناس إلى

(*) تشير العلامة LLL الى المقابر، في هذه اللوحة وسواها.

الصلاة، يقف أمام الجامع أو فوقه ٧). منزل بكلربك ٨) متجر الأسلحة ٩) باب سعدة ١٠) باب اصفهان ١١) كريم اباد(*)، وهي عبارة عن قرية صغيرة بناها الوكيل الحالي منذ فترة وجيزة.

تمتاز منازل البلدة بقرميدها المشوي وجدرانها المبيضة أو المطلية بالكلس، اما البازار أو السوق فهو مسقوف جزئياً، وطرقاته مرصوفة ونظيفة.

يحاكي مناخ شيراز، مناخ برسيبوليس، علماً انه يختلف كلياً عن مناخ الخليج الفارسي. في بداية شهر اذار/مارس تساقطت الامطار بغزارة، كما وأن الطقس البارد استمر حتى شهري نيسان/أبريل وأيار/مايو مصحوباً برياح قوية، وعواصف رعدية. وفي ٢٥ نيسان/أبريل، شاهدنا على قمة جبل شاهق وناءٍ طبقة رقيقة من الثلج، ذاب نصفها تقريباً، بعد مرور شهر تقريباً في الساعة الثامنة صباحاً من ٢٣ نيسان/أبريل، وقعت هزة أرضية قوية، ادت إلى تزعزع البناء القديم الذي أقيم فيه، إلى حد انني كنت أخشى من انهياره. كانت تكثر في هذا الشهر من السنة، الاشجار المثمرة، التي ينمو بعضها في اوروبا وبعضها الاخر في بلاد الهند. فقد تعرفت هنا على ٢٠ نوعاً من العنب، يجفف بعضها ويحول إلى زبيب، وهو عبارة عن فاكهة صغيرة الحجم وبذورها طرية، وتؤكل بسهولة(**).

أما العنب الأسكاري، فهو من النوع نفسه، غير ان بذوره اقسى، بينما يستخرج من الكرتشيش النبيذ الأحمر، ومن الأنغورانغي نبيذ شديد الحمرة. يضاف إلى نبيذ الكرتشيش ليضفي عليه لوناً جميلاً. وتصدر هذه المدينة ايضاً ماء الورد، وزيت الورد الثمين، بكميات وافرة.

يصنع الأرمن نبيذ شيراز الذي يحفظ في برميل أو أوعية كبيرة. وينقل بعضها في زجاجات محفوظة إلى بوشهر ومنها إلى البصرة والهند. ورغم جودة هذا النبيذ، إلا انني اجد النبيذ الذي يعده اليهود في صنعاء أكثر جودة، غير ان هؤلاء الآخرين، لم يستطيعوا الحصول على الإذن بالمتاجرة علناً أو بتصديره إلى الخارج، علماً انه تنقصهم الأواني اللازمة لحفظه. يقيم يهود شيراز، شأنهم شأن يهود المدن الشرقية الاخرى، في شارع مستقل، ويعانون من الفقر الشديد. لم أقابل في هذه المدينة سوى ٢٠ بانيانياً، غير ان الحكومة أرتأت بناء خان للقوافل، حتى تشجع هؤلاء التجار الهنود على العودة إلى هنا مرة أخرى.

إن عدد الأرمن الذين استقروا حديثاً في شيراز، ليس كبيراً جداً(***)، وهم يملكون في سرباش،

(*) كان هذا الجامع خارج البلدة، خلال اقامة لوبراني فيها يعني ان شيراز لم تكن ممتدة صوب الجنوب شأنها اليوم.

(**) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

(***) غير اننا نجد في بلاد فارس قرى آهِلَةً كلها بالأرمن، ومنها قرية روين المجاورة لقصرون، التي وهبها كريم خان الى شيخ الارمن او اكبرهم سناً. يقال اننا نجد في اقليم بروار شمالي اصفهان ١٤ بلدة، وفي اقليم=

حيث اقام السيد هيرفيل، كنيسة صغيرة، يجتمعون فيها كل يوم لتلاوة الصلاة، والترنيم؛ حضرت نهار السبت ١٣ نيسان/أبريل، قداسهم، وكنت أتمثّل محافل المسيحيين الاولين، لأن الكاهن الاول في هذه المجموعة، كان حائكاً، ويساعده في القداس، صباحاً أحد خدام السيد هيرفيل، إسكافياً ونجاراً.

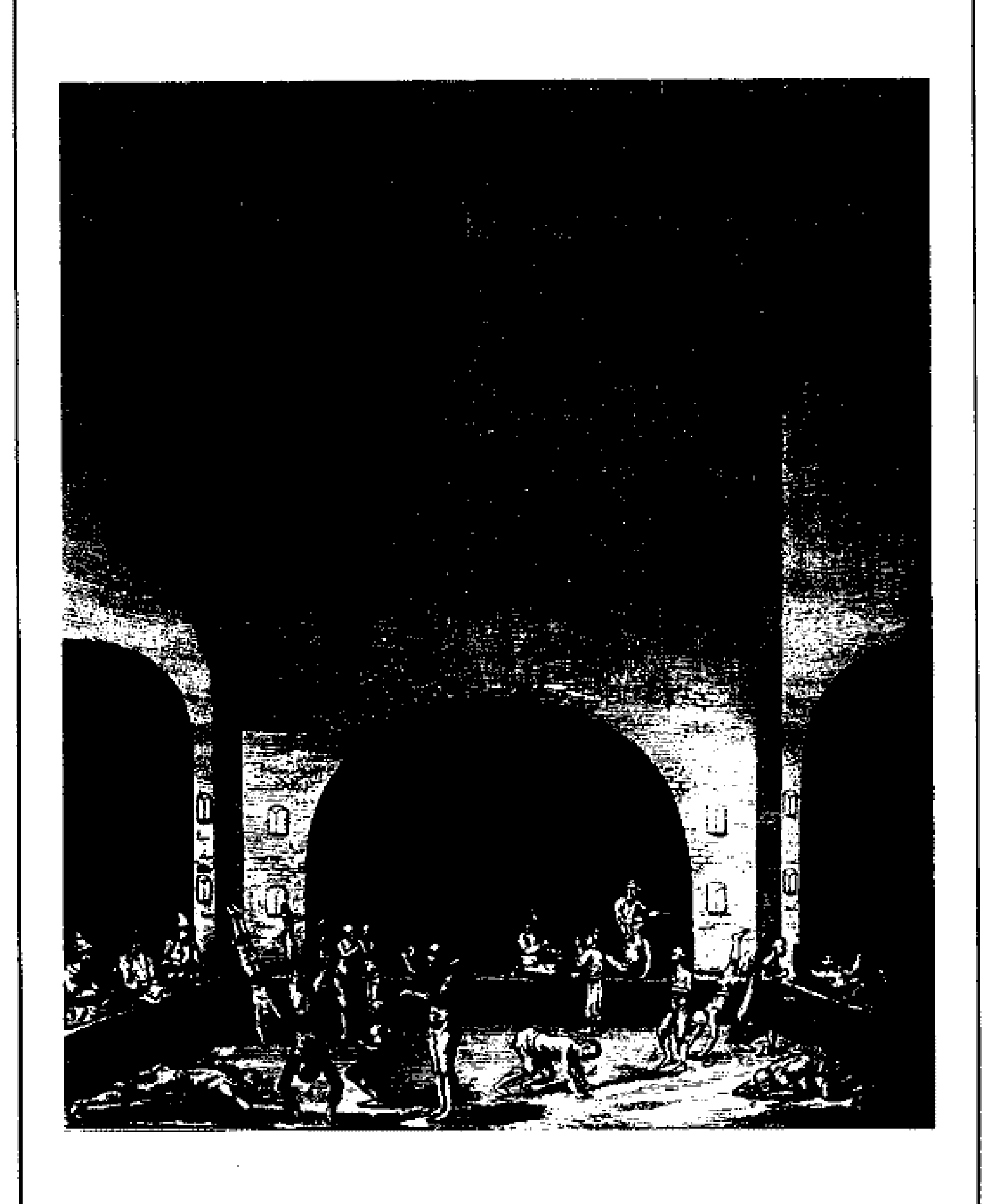
كانت الكنيسة جميلة للغاية، وضع على المذبح صليب كبير، وكأس، وكتاب مزين بالفضة، وشمعدانات، أما خدام القداس، فكانوا يرتدون معاطف، خيط عليها صليب صغير. اعتاد الأرمن ان يحلقوا شعرهم، بشفرة حلاقة وان يرتدوا قلنسوة، شأنهم شأن الشرقيين كافة، تعلوها قبعة كبيرة، شأنهم شأن الفرس. وكانوا يخلعون هذه الأخيرة في الكنيسة. بينما يبقي العرب عماماتهم أو قبعاتهم على رؤوسهم في جوامعهم، أما الكاهن، فيضع على رأسه شيئاً شبيهاً بقبعات الرحالة الأوروبيين. يقال ان الأرمن يسجدون أرضاً خلال الصلاة، كما يفعل المسلمون، وان شعائرهم الدينية تقتصر بمعظمها على التراتيم(*).

لم اتوقع ان أسمع أحدهم يعظ خلال القداس، فالكاهن يحمل الكتاب الكبير الموضوع على المذبح، ويقرأ منه بعض فصول الكتاب المقدس. وبعد أن قرأ، هذا المقطع (انجيل لوقا ١٦، الفصل ٦) حين يقول الملاك، لمريم المجدلية، ومريم أم يعقوب «لا تجزعا، فأنتما تبحثان عن يسوع الناصري الذي صلب، ولكنه قام من بين الأموات ولم يعد ههنا» صفق له الحشد. وحين قرأ المقطع الذي يدعو فيه يسوع المسيح تلاميذه إلى السلام، قبل كل واحد منهم جاره على الخدين، عندئذٍ وضع الكاهن قطعة قماش على كتابه، وحمله بيديه الاثنتين، ودعا الجميع لتقبيله. كان يقف خلفه رجل يحمل عصاً طويلة، تعلوها دوائر رقيقة، تمثل وجود الملاك جبرائيل بينهم. أما باقي الكهنة فكانوا يحملون الشمعدانات في أيديهم. وعند الانتهاء من هذا الطقس، تناول الجميع كباراً وصغاراً، قطعة من الخبز، مبللة بالنبيذ. عند المساء، جاء الكاهن لزيارة السيد هيرفيل، برفقة اثنين من خدمة القداس، يحمل كل واحد منه شمعداناً في يده، فقد كان يريد ان يقدم لنا البيض الملون، ويرنم بعض الاناشيد، ويمنحنا بركته.

وفي اليوم التالي، تلقينا زيارة مماثلة أيضاً.

- برسي ٣٠ بلدة للارمن ومنها، شاهيجان دارميرا، ايبيس، غوسغارات، دارابير، حادان، تراك، ناماغيرد، سينغريد، غارغون مغان، شرجان، سكندري باغري، ملاغست، سينغست، شاهبولا، شورسيخان، سانغيباران بتكان، بازغاغان، دوسكيشان، مزيكجاد، بولوران، اغرول، مغرستان، بونيستان، غودشاغالا، اغشا.

(*) **رحلة في الشرق**، لتورنفورث، الجزء ٢، ص ٦١.



يملك الفرس منازل عامة تعرف سرخانه Surshone (منازل قوة)، يحق لكل فرد منهم الدخول اليها، لعرض قوته. يوم زرت هذا السرخون لأول مرة، شعرت بأن الهواء فيه ملوث، وارتأيت أن لا أدخل اليه ثانية. غير انني عدت اليه مرة ثانية، ومكثت فيه فترة أطول، لأعطي قرائي فكرة واضحة عن التمارين الجسدية التي تقام فيه، يتألف البناء من ٤ جدران عالية، مبنية من الحجارة الصلبة، وحفرت في كل واحد منها حجيرة مفتوحة، وخصصت الباحة الوسطى، للذين يرغبون بعرض مهارتهم أو القيام بتمارين رياضية. يتميز هذا المكان بصغر بوابته وانخفاضها، فضلاً عن خلوه من النوافذ، غير اننا نشاهد في أعلى القبة، ثقباً يدخل منه الضوء، علماً ان المكان مزود بقناديل ومصابيح. بعبارة أخرى عند بناء هذا المكان، بذل المقاول جهده ليمنع تسرب الهواء اليه، واظن ان هذه المسألة ضرورية، مع أنه كان يستطيع ان يضيف ثقوباً أخرى إلى القبة، لتنقية المكان من الروائح النتنة التي تزعج الناس وتضر بصحتهم.

جلست برفقة بعض المشاهدين في الحجيرة. يجلس اعيان المدينة وتجارها، الذين يقصدون المكان للقيام بالتمارين، في حجيرات أخرى، ويدخنون الغليون، كما في الصورة (أ) من اللوحة XXXVII، ونشاهد في الصورة نفسها، مكاناً لتناول القهوة، و٣ موسيقيين في الحجيرة الرابعة، واحد منهم يعزف على الغيتار وثانٍ على الطبل، الذي يستعمله الشرقيون دوماً في الغناء والرقص، وثالث يغني أغانٍ فارسية. بعد أن ينتهي الهواة من ارتشاف القهوة والتدخين، يخلعون ثيابهم، وينزلون شبه عراة إلى الباحة الوسطى، ويربطون حول خصورهم سراويل جلدية قصيرة، فيقفون اولاً على ايديهم، ويرفعون أرجلهم في الهواء، كما في الصورة ب (B) ويسجدون لاحقاً، لتلاوة الصلاة، ووجوهم نحو مكة، إذ يزعم المسلمون، أنهم يصلون قبل القيام بأي شيء، ولا ينسوا تأدية هذا الفرض حتى عند ممارستهم هذه الالعاب. ويتلو بعضهم صلاته، ورأسه في الأرض، كما في الصورة ج (G).

نقلت في الصورتين د (D) وهـ (E) التمرين الاول الذي يقومون به. يقف الهواة قرب بعضهم البعض، على ايديهم وأرجلهم، أما من نزل حديثاً إلى الباحة، فقد اتخذ الوضعية د (D)، باسطاً يديه ورجليه، إلى ابعد حد ممكن، على أن لا يلمس بطنه الأرض. (الصورة هـ (E)). وبعد اتخاذ هذه الوضعية، يرسمون دائرة برأسهم دون أن يحركوا أيديهم أو أرجلهم، وكلما اعادوا هذا التمرين، كلما زادت خبرتهم في هذا الفن، وقيل لي ان بعضهم يعيدونه ٦٠ مرة. ويمسك البعض بقطعة كبيرة من الخشب، ويضعها على كتفه (الصورة و (F))، ويحاول ان يلويها من الامام إلى الوراء. وبعد ان ينتهي من ذلك، يقفز على لوح خشبي موضوع قرب الجدار. الصورة (ز Z)، أما من كان يفوق سواه مهارة، فيرفع رجليه أكثر (الصورة ح H)، كما وأن الخبير في هذا الفن، يقف على رجليه كما في الصورة ب (B).

ومما لا شك فيه ان من يمارس هذه التمارين العنيفة، يتصبب عرقاً، ومن يجلس في الحجيرة، يدفع مالاً للخدم، حتى يفركوا له جسمه، (الصورة ط (U)) وبعد الانتهاء من ذلك يبدأ الجميع بالرقص، وبالقفز، (ك k) إما على الجدار (د E)، وإما على رجل واحدة، بغية تحريك الجسم قدر المستطاع. كان البعض يستلقي ارضاً على ظهره، ويضع وسادات تحت رأسه وذراعيه، (م M) لرفع قطعتين من الخشب الثقيل والسميك، والجدير ذكره ان عدد الذين يمارسون هذه التمارين قليل. نظراً لما يتطلبه من قوة. وكان المعلم يقف بقربهم، ويحسب عدد المرات التي يرفع فيها كل تلميذ الخشب عالياً، مما يعني ان من يأتي لاحقاً، يبذل قصارى جهده ليسبق من اتى قبله. عند ذلك، يقفون جميعاً في الصف، ويتلو عليهم المعلم خطاباً أو صلاة طويلة، حيث يأتي غالباً على ذكر علي أو الحسن أو الحسين، ارضاء للمصارعين.

كان من الصعب علي ان أرسم أو أصف وضعيات الجسد المختلفة، التي شاهدتها خلال التمرين. ولم اشر إلا إلى واحدة منها (ن N) لا تدوم طويلاً، يقف الفرد على رجليه، ويحرك جسده تارة إلى أعلى، وطوراً إلى أسفل، ومرة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء. ويبدأ بعدها اثنان منهم بالتقاتل دون ان يلقيا التحية بعضهما على بعض، وشاهدت اثنان منهما، وقد ضما يديهما، وصنعا اشارة الصليب على جبينهما. كما في الصورة (س O)، وكأنها طريقة جديدة في إلقاء التحية، وجلسا بعدها ارضاً، قبالة بعضهما البعض، وراحا يتحينان الفرص لبدء الصراع. وبعد ان يهزم أحدهما الآخر، يقبل المهزوم يد المنتصر، باحترام فائق. والجدير ذكره انهما لا يتبادلان الضربات شأنهم شأن الانكليز، رغم ان بعضهم يجسّ ذراعه ورجله عند مغادرته المكان وكأن اعضائه تحتاج للراحة. ولاحظت ان أحد المصارعين، كان يرمي ارضاً كل من يحاول مبارزته، حتى أنه استدعى في نهاية المطاف المشاهدين لمواجهته. ان استطاع احدهم ان يثبت أنه أعلن في احدى المدن الاسلامية الأساسية، مثل أصفهان، والقسطنطينية، ودلهي انه يرغب بمقاتلة الاقوى، في الموعد الفلاني، دون ان يتمكن احد من صرعه، يحق له ان يضع على قبره اسداً منحوتاً في الصخر. شاهدت في شيراز ضريحين مماثلين، واحد قرب حديقة كريم خان الحديثة، والثاني قرب جامع شاه شيرا، ظننت في البدء انهما ضريحا شخصين من اعيان البلاد، اظهرا جدارة فائقة، إما في الحروب أو في صيد الاسود، غير انني علمت لاحقاً انهما اكتسبا هذه الجدارة في المصارعة، ويمكننا بالتالي ان نفهم الأخطاء الكثيرة التي يرتكبها العلماء، في محاولتهم تفسير هذه الآثار. في كتاب «وادي الزهور الفارسية» للشاه سعد، نجد أقاصيص كثيرة حول المصارعين، سهلة الفهم بالنسبة للأوروبيين.

نجد في شيراز ثلاث سرخانات يجتمع فيها افراد الطبقتين الوسطى والفقيرة، علاوة عن الضباط، وأصحاب المناصب العليا، بغية ممارسة هذه التمارين، وتليين أجسامهم. يخصص بعض

الاعيان غرفة في منزلهم يتمرنون فيها ويتصارعون مع اصدقائهم ومعارفهم، أما أثرياء بلاد فارس فيمارسون هذه التمارين عند الصباح، ويركبون الخيل بعد الظهر.

تختلف أزياء الفرس عن أزياء العرب والأتراك. يرتدي الضابط الرفيع المستوى، قبعة مربعة، لها شريط طويل علماً ان معظم الناس يعتمرون قبعات من جلد الخراف، ويلفون حولها شريطاً معقوداً، والملفت للنظر ان للفرس كلهم شاربان، قصيران، بينما يستعملون المقص للتخلص من شعر الذقن والخدين. وهم يرتدون أثواباً طويلة، شبيهة بتلك التي شاهدتها عدة مرات بين انقاض برسيبوليس (اللوحة XXI)، ولها كمان طويلان مزرران حول المعصمين، أما على الردفين فيضعون نطاقاً عريضاً على غرار الشرقيين عامة.

في مخيم قرمدش، يضع الضباط ومعاونيهم وجنودهم الجعب في الذراع الايسر، وقمع البارود في الذراع الايمن، أما سيفهم، فيتدلى على الردف الأيسر، وثم يرتدون سراويل مقلمة من النسيج أو من الحرير طويلة وفضفاضة، ولكن مختلفة عن شخشير الأتراك. ويرتدي كبار الضباط أحذية سوداء تصل إلى الركبتين ولكن كعبها عالٍ ومقرن جداً، حتى انه من الصعب استعمالها في المشي، فعند ترجلهم عن الحصان، يحضر لهم الخادم الخفين. (يرتدي اعيان الأتراك احذية قصيرة، صفراء، أو حمراء، وليس لها كعب) حتى الخفّان لهما كعب عالٍ ونعل مزين بالزهور. غالباً ما يصنع الخف من الجلد الاخضر، علماً ان خف الأتراك أصفر اللون. لا يختلف زي النبيل كثيراً عن سواه، باستثناء انه يرتدي في الشتاء عباءة مبطنة بفرو، أو بنيش باللغة التركية. يعتمر التاجر عادة قبعة من جلد الحيوان، وعباءة قصيرة مبطنة بالفرو، دون أكمام، وخفين عاليين، وجوارب قصيرة. يعتمر عامة الشعب من الفرس، قبعة عالية، لها قرنان من كل جهة (الصورة ع P) والجدير ذكره ان الفرس نادراً ما يغيرون ملابسهم الداخلية، ويرتدون عادة قمصاناً من النسيج المقلم.

أما نساء الطبقة الوسطى (لأنني لم أقابل نساء كريمات الأصل) فيعقدن الأقمشة القطنية حول أرجلهن، مما يجعلهنّ سمينات وثقيلات، وهنّ يربطن رأسهن بخرقة رثة يتدلى منها قماش قطني أبيض، فضلاً عن قماش ابيض آخر أمام الوجه. بعبارة أخرى، لا أظن أن أزياء النساء الفارسيات، أو أحذية الأعيان تستحق التقليد. أما الأزياء المتبقية فهي افضل من تلك التي يعتمدها الاتراك، كما وأنها تحاكي ازياء البولونيين.

العودة إلى بو شهر

كنت انتظر بفارغ الصبر انطلاق قافلة من شيراز إلى بوشهر، ولكن التبادل التجاري بين المدينتين كان منقطعاً، فكان علي بالتالي الانتظار حتى ١٤ أيار/مايو، حتى يجتمع عدد كبير من

الرحالة ونتمكن من السفر دون ان نتعرض للمخاطر، كنا نسير ببطء شديد لأن أصحاب الدواب، كانوا يهتمون بتأمين العلف للبغال والجياد والحمير. وقلما يأبهون للوقت الذي قد نقضيه على الطريق.

في اليوم الاول، قطعنا نصف ميل، وفي ١٥ أيار/مايو سرنا فرسخين ونصف لنبلغ (تشيسما صفر (اللوحة XVII)، وفي ١٦ منه، ٤ فراسخ وصولاً إلى وادي نبدو؛ تقع هذه القرية شرقي الجبل، وتحيط بها بساتين العنب، واللوز والدراق، والتين وغيرها من الأشجار المثمرة. في ١٧ أيار/مايو اجتزنا طريقاً وعرة عبر الجبال والهضاب، لننصب خيمنا على مسافة ساعتين من المشي.

في ذلك النهار صادفنا قافلة، تضم ٣٠ أو ٤٠ عربياً من البحرين يقصدون جميعاً مشهد لزيارة ضريح علي ابن الرضى، أحد أئمة الشيعة الاثني عشر، ونجد ايضاً بينهم بعض النساء العربيات. يفرض على كل شيعي يتمتع بصحة جيدة، ويملك ثروة صغيرة، ان يزور مكة مرة واحدة على الأقل. ولما كانت هذه الرحلة، مكلفة ومحفوفة بالمخاطر، ومزعجة خاصة وان السنة يعاملون الحجاج بازدراء، معتبرين اياهم ملحدين، يكتفي اهل الشيعة بزيارة أضرحة أئمتهم. وان كان احدهم يملك الوسائل اللازمة للسفر إلى مكة أو لزيارة أضرحة الأئمة، يُقتطع جزء من ميراثه بعد موته، حتى يسافر شخص آخر بدلاً عنه، ولهذا السبب يحترف الكثيرون مهنة الحج، ويقومون بهذه الرحلة مقابل مبلغ زهيد.

كانت قافلتنا تضم ثلاثة من هؤلاء الشيعة الساعين من البحرين. قام واحد منهم بتسع رحلات مماثلة عن نفس تسعة أموات مختلفين، فالرحالة القادمون من البحرين هم بمعظمهم حجاج بالأجرة؛ والجدير ذكره ان معظمهم كان يتنقل سيراً على الأقدام، بينما يسافر عدد قليل منهم على الحمير. وكانت ثيابهم رثة، ويحملون امتعتهم على ظهورهم. وهي عبارة عن رزمة من الخبز والبلح المجفف، وابريق نحاسي يستعملونه للاغتسال. سررت كثيراً بمقابلة هؤلاء العرب في بلد غريب عني تماماً، كانوا يتبادلون القبل، على الخدين وعلى اليدين ويستفسرون بعضهم عن صحة بعض. وكانوا يسألون العرب المرافقين لنا، عن الطريق المؤدية إلى مشهد، بينما هؤلاء الآخرين يستعلمون عن طريق بوشهر، وأكّد الفريقان أن بلاد فارس هي الأكثر أماناً بين بلدان العالم أجمع، في الواقع، لا أظنهم كانوا يخشون اللصوص، علماً أنهم لا يحملون معهم اي شيء يذكر. وسألوا أيضاً عن ليرة الخبز والرز، والزبدة في المناطق التي اتوا منها. وأظن ان الفريقين ينتميان إلى مناطق فقيرة جداً ويحسبون أنفسهم ذاهبين إلى الجنة، لذلك قبلوا بكل طيبة خاطر السفر كحجاج مرتزقة. وبعد تبادل الأخبار، تنتهي المقابلة بالسلامات الحارة والتمنيات الصادقة. والمحزن في بلاد فارس هو ان معظم الأشخاص الذين صادفناهم لاحقاً (بعد مرور ١٨ سنة على وفاة نادر شاه). فقدوا عيناً

بسبب سخط هذا الطاغية عليهم، والجدير ذكره، أن بعض عرب البحرين، كان نصيبهم مماثلاً ايضاً. حتى في سورات ومسقط والبصرة وبغداد، عثرت على أدلة تثبت وحشيته، وخاصة بين التجار الأرمن والمسلمين، الذين هاجروا بعدها إلى أوطانهم.

في ١٨ أيار/مايو، سبقت القافلة برفقة عدد من المسافرين إلى مردحة، في ٢٠ منه، وصلنا إلى غرا Gra وفي ٢١ إلى خانيق، وفي ٢٢ إلى عويس. ولما اقتربنا من الخليج الفارسي، ارتفعت حرارة الطقس؛ لم أشاهد يوماً نجوماً كبيرة إلى هذا الحد إلا في عويس ومردحة، ولاحظت انها تضفي نوراً مضيئاً على مردحة وخانيق. منذ فترة ليست ببعيدة، أرسل كريم خان فصيلة من الجند إلى قرية في اقليم كاسفرون، لقمع مجموعة من المتمردين عصوا اوامره، ولم يدفعوا ما طلبه منهم. غير ان رئيس المجموعة فر برفقة عائلته إلى قرية مجاورة لعويس، بينما كان الجند ينهبون قريته ويدمرونها. صادفنا هنا ٢٠٠ قروي، اجتمعوا بناء على أوامر الخان، في هذا المكان منذ أربعة أيام ليذهبوا بعدها للبحث عن المتمرد، غير انهم عادوا عند المساء واعلموا الخان، انه فر إلى بندريغ. هذه هي الحرب في بلاد فارس، فمعظم الأعيان غير راضين عن حكم عائلة الأكراد. وحين يرسل هؤلاء الآخرون للبحث عن مواطنيهم المتمردين، يعلمونهم مسبقاً بضرورة الفرار.

وعلمنا عند المساء، ان قروياً مسافراً من غرا إلى عويس (على ظهر حماره) تعرض للنهب على الطريق. غير ان الشاه وجنوده لم يعيروا هذه الحادثة اهتماماً على خلاف انكشاري قابلته في مصر، وكان شديد الفخر بنفسه، لأن اللصوص لم يتجرأوا بعد على الدنو منه أو من اصدقائه (الذين يتولون حراسة القرية) رغم انهم نهبوا جيرانهم.

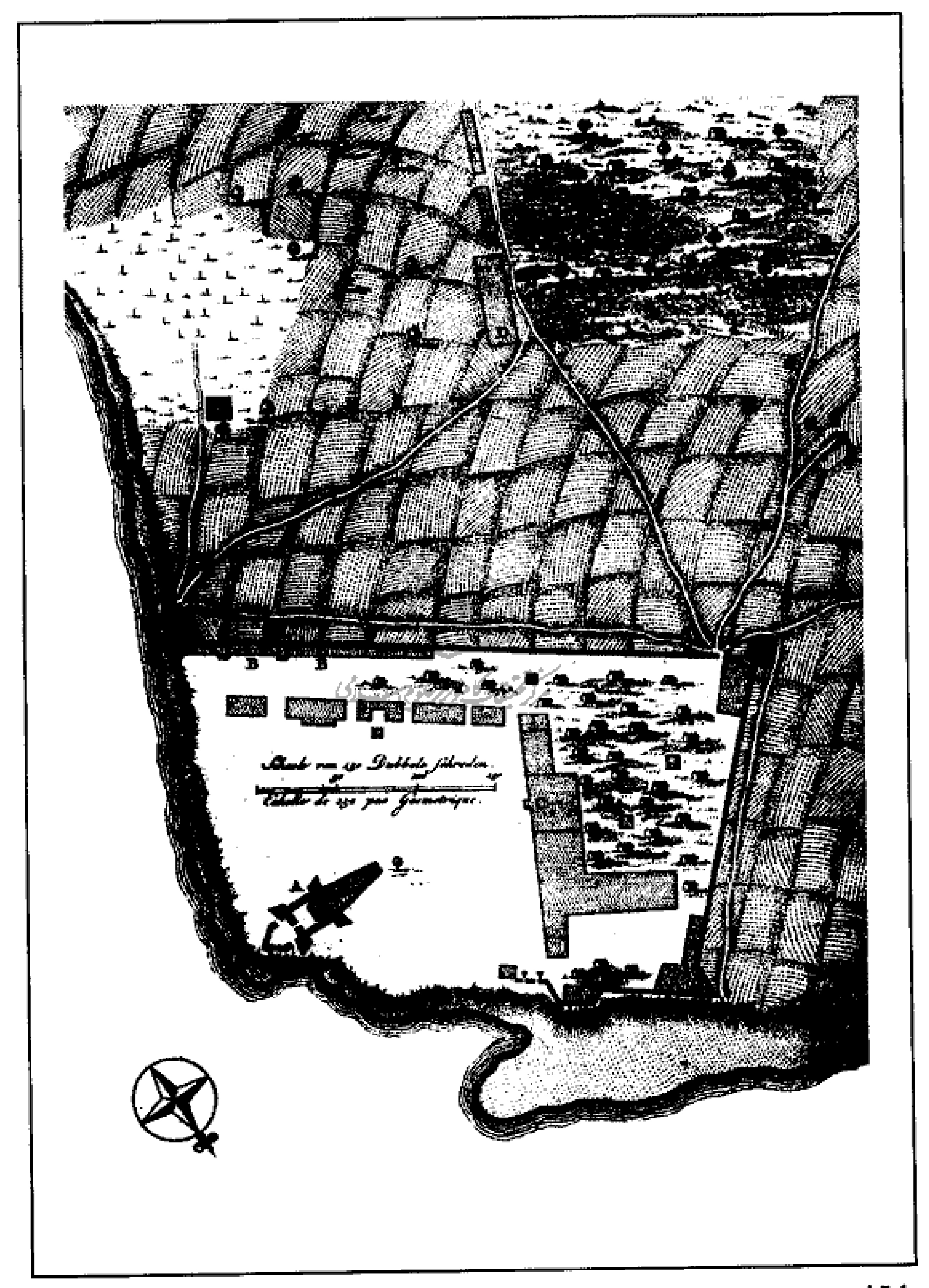
سافرنا ليلاً من عويس، نظراً لشدة الحر في النهار. واجتزنا جبل صندل لنصل صباح ٢٣ أيار/مايو إلى قرية بير. في الليلة التالية مررنا أمام قرية بوسفان، وحططنا الرحال قرب قرية تعل Tale وصباح ٢٥، بلغنا جدولاً صغيراً قرية قرية قطف Catfet، في ٢٦ مررنا بقرية شاوي. حيث تكثر اشجار البلح، والتي التهمها مؤخراً الجراد. ففي ٢٧ منه اجتزنا قريتي احرام وكرمسير. والجدير ذكره ان الاعشاب المحيطة بقرية قطف كانت تلتهمها النيران عند وصولنا، فخشيت ان تشتعل امتعتي ايضاً، غير اننا بذلنا جهدنا لإخمادها بواسطة الاغطية والحقائب، حتى لا نتكبد خسائر كثيرة. وعلمنا لاحقاً، ان الناس يضرمون النار في العشب، ليحرثوا الأرض لاحقاً ويزرعوها، لأن الرماد يشكل زبلاً مفيداً.

غادر الأمير كنيح خان الذي التقيت به في شباط/فبراير، في كرمدش البلدة هذا الصباح متجهاً إلى احرام، بغية محاصرة بندريغ، ولما تعذر عليه جمع الضرائب من قرويي احرام والقرى المجاورة، ترك فصيلة من الجند، في البلدة من أجل هذه الغاية فحسب.

غادرت القافلة في احرام برفقة بعض الاشخاص على الأحصنة، ووصلت إلى بوشهر متعباً ولكن سعيداً للغاية.

نزلت عند السيد جيرفيس، الذي احسن ضيافتي إلى حد بعيد. غير ان الحر الشديد انهكني، خاصة انني وصلت حديثاً من شيراز المعروفة بطقسها البارد، فاضطررت إلى تأجيل رحلتي المقبلة. عند وصولي، علمت ان احدى السفن الانكليزية تستعد للابحار إلى الخرج والبصرة، غير انني كنت مجبراً على انتظار وصول امتعتي مع القالة، في ٢٩ منه. ولما كانت السفينة المذكورة قد اقلعت، لم أعثر على مركب آخر يقلني إلى الخرج خاصة وان البحارة يخشون قراصنة مير مهنا. في ٣٠ منه وصل مركب صغير من الخرج، ولما كان الهولنديون على علاقة طيبة بمير مهنا وبشيخ بوشهر على حد سواء، استأجرت هذا المركب الصغير ووصلت في ٣١ أيار/مايو إلى تلك الجزيرة. غير ان السفينة الانكليزية كانت قد اقلعت منها، قبل بضع ساعات من وصولي، فاضطرت لقضاء بعض الوقت في الخرج خاصة وان الهولنديين استقبلوني بالترحاب، كما وانني شهدت حرباً لم نعرف لها مثيلاً في اوروبا.





ملاحظات حول الخرج

أشرت في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية، في اللوحة XIX إلى موقع جزيرة الخرج، وتحدثت في الكتاب نفسه عن حكومة هذه الجزيرة، التي كانت خاضعة للبعثة الهولندية في الهند الشرقية، وأسس البارون دو كينيوسن، هذه المستعمرة؛ فقد كان يعمل سابقاً، مديراً للمصنع الهولندي في البصرة، غير ان بعض الاوروبيين، حرضوا الاتراك ضده، فزجوه في السجن، وارغموه على دفع مبلغ كبير من المال ومغادرة البصرة. في الوقت نفسه، اعتبر السيد فان دير هولست عميلاً ايضاً، وأجبر على مغادرة بوشهر برفقة موظفي المصنع الهولندي الآخرين. وبينما كان موظفو البصرة يأملون ان يصل تاجر قوي، يستطيع الانتقام لهم، كان التجار الاوروبيون يحسبون ان الهولنديين سينفون من الخليج الفارسي كله. ولكن السيد دو كينيوسن، عقد اتفاقاً مع والي بندريغ، يقضي بالسماح للهولنديين ببناء مصنع لهم في جزيرة الخرج، عندئذٍ غادر إلى بتافيا، ليعود في السنة التالية، ويعزز التجارة في الخرج، ومرغماً اتراك البصرة، على إعادة كل ما أخذوه إما منه أو من ضباط البعثة الهولندية. وبعد رحيل البارون دو كينيوسن، تسلم السيد فان دير هولست دفة الحكم في الخرج، غير انه ما لبث ان اقيل، علماً انه لم ينل حظوة لدى والي بتافيا، وعين السيد بوشمان خلفاً له.

كان السيدان دو كينيوسن، وفان دير هولست، على خلاف مع عرب الخليج الفارسي، وخاصة سكان بندريغ، فسعى السيد بوشمان إلى معالجة هذا الوضع. فارسل مير مهنا الضابط المرافق له على رأس سرية من الجنود، لوضع حد لمسألة عالقة. ولعل هذا الضابط أراد أن يفاجيء الهولنديين، فأعطى الأمر لجنوده بالالتحاق بمراكزهم وللبحارة، بسفنهم الحربية، ولم يسمح لأحد بدخول القصر باستثناء السفير وعدداً صغيراً من جنوده، واستقبلهم في الرواق برفقة امين سره ومستشاريه، بينما بقي الخدم مختبئين على جانبي الرواق حاملين السيوف بأيديهم. وبعد انتهاء المقابلة، اصطحب السفير إلى اسوار القصر ليريه المدافع التي نصبت عليها، استعداداً لصد أي اعتداء كان، وكان يتحدث اليه بكل ثقة بالنفس، وبجسارة اعتاد العرب عليها، حتى أن السفير الذي لم ير حصناً مماثلاً من قبل، ربت على كتف السيد بوشمان، وقال له بصدق واضح، «ان سمحت لاحد باحتلال هذا الحصن، فلست جديراً بأن تعين حاكماً عليه». وعند ذلك، غادر المكان، ونصح مير مهنا بقبول شروط السيد بوشمان،

الذي اقترح ان يمارس الهولنديون التجارة بحرية كاملة مع بلاد فارس والبصرة.

كان السيد بوشمان ابن وزير هولندي وقور. حمله رسائل توصية كثيرة إلى بتافيا، خاصة وانه شديد الذكاء. يقال إنه قبل مغادرته امستردام، ذهب برفقة اصدقائه في السفر، لمقابلة احد العرافين الذي تنبأ له بأحداث مهمة. والجدير ذكره ان معظم تنبؤاته قد صدقت حتى الآن، وكان يتوقع بالتالي ان يلقى حتفه في الاربعين من عمره، كما قال له العراف. وكانت هذه الفكرة تقض عليه مضجعه، وتحثه على الادمان على الخمر لينساها. غير ان تصرفه هذا اثار عداوة الكثيرين له. حتى من بين مواطنيه. وقصدت ان اذكر لكم هذا المثال، كي احذر الناس من حبهم للكشف عن ما يخبئه لهم القدر في هذه الحياة. كان هذا الرجل مثالاً للصدق والوفاء وشديد التهذيب في تعامله مع الأجانب، ويكره للغاية التملق والمديح. فمن يقبل دعوته، وينزل بضيافته، يشعر بالراحة التامة كما لو كان في منزله. ولكن ان تردد في قبول خدماته، غضب منه اشد الغضب. شاهدته مرة يطرد من قصره ضابطين فرنسيين وربان مركب انكليزي، ترددوا في قبول دعوته للمبيت عنده. فإن طالت المجادلات اكثر مما ينبغي استدعى الحرس ليفتحوا الباب، ويخرجوا الناس من القصر. اما الأجانب الذين لا يحسنون الهولندية، فيحسبون ان الحرس سيزجونهم في السجن، ويفضلون الفرار بأسرع ما يمكن، وبينما يصرخ السيد بوشمان قائلاً لهم تصبحون على خير تراهم يسرعون لفتح الباب، ويخرجون منه بسرعة البرق. فلا يتوقفوا عن الركض حتى يصلوا إلى زورقهم.

طالب كريم خان، حاكم بلاد فارس، الهولنديين، بدفع جزية له، عدة مرات وجوبه بالرفض. غير انه في السنوات الاخيرة نسي امرهم، خاصة وانه على خلاف مع شيوخ الساحل، ومنهم مير مهنا والي بندريغ، وسليمان شيخ قبيلة كعب العربية. والذي اصبح شيئاً فشيئاً والي جزر شط العرب كلها، واقليم فارسي شاسع. فحين كان يقول لهم انه سيأتي على رأس جيش كبير، لإرغامهم على دفع الجزيات، كانوا يجيبونه، انهم يؤمنون بقدرته على طردهم من البلاد، ولكن، ان حاول ان يفعل ذلك، اختبأوا في مراكبهم حيث لا يستطيع ان يلحق لهم.

في تلك السنة، سار كريم خان على رأس جيش كبير، لمواجهة الشيخ سليمان، وأرسل سرية أخرى على رأس الأمير كنيج خان للتصدي للمير مهنا. فقضى القائد ثلاثة أشهر في كرمدش. (كما أشرت آنفاً)، باحثاً عن حلفاء يملكون اسطولاً صغيراً، فقد كان شيوخ المنطقة، الممتدة من رأسي بودستمان إلى حرموس، يحذون حذو مير مهنا ويرفضون دفع الجزيات. أما سكان، بلدة كنكن المجاورة لكرمدش، فكانوا ينامون كل ليلة على متن سفنهم، حتى يتمكنوا من الرحيل ان فاجأهم الفرس. لم يجد كريم خان من يعتمد عليه سوى الشيخ ناصر، والي بوشهر، لأنه كان يستفيد كثيراً من التبادلات التجارية القائمة بين مدينته ومدينة شيراز، ولا يستطيع معارضة الخان،

فضلاً عن ذلك، كان على خلاف مع مهنا، وقواته البحرية ضعيفة للغاية، ولا يقوى وحده على السيطرة على العدو. فالتجأ الوكيل إلى هولنديي خارج، الذين رفضوا التورط في هذه الحرب رفضاً باتاً. لم يشأ الانكليز ايضاً التدخل في هذه القضية ايضاً، ولكن وقاحة مير مهنا معهم، حثت السيد جيرفيس، على قبول مساعدة الشيخ ناصر، وارسل المركب الطرادة (وهي سفينة حربية انكليزية في بومباي). فكان من المفترض ان يهاجم الامير كنيخ العدو ارضاً، بينما تهاجمه مراكب الشيخ ناصر والطرادة الانكليزية بحراً.

خلال هذا الوقت، استطاع مير مهنا ان يتحصن جيداً، فزود بندريغ بالمؤن، بينما نزح معظم السكان إلى خارج. ولما خشي الهولنديون ان يعانوا من نقص في المواد الغذائية مع تزايد عدد السكان، خاصة وان كريم خان والشيخ ناصر يحظرون عليهم التبادل التجاري مع بلاد فارس، بحجة انهم يأوون المتمردين، فضلاً عن ان اللاجئين قد يحاولون جذب مير مهنا إلى هذه الجزيرة، طردوهم كلهم منها. حينئذٍ ارسل مير مهنا عائلته وسكان بندريغ إلى جزيرة خويري النائية، التي تبعد ٤/٣ الميل عن الخرج، ورغم ان الجميع ظنوا ان الشيخ ناصر قد يبذل جهده، لمنع العدو من التمركز في هذه الجزيرة، إلا انه لم يحرك ساكناً. فقد كان يخال ان مير مهنا لن يتمكن من مقاومة قوى البر، وانه لن يسر ابداً بوقوعه بين براثن الفرس في بندريغ. وخلال هذا الوقت، كان يأمل ان يضعفوا العدو، حتى يتمكن بعدها من وضع يده على ثروات خويري كلها، بمساعدة الانكليز له. غير ان هذه الجزيرة تحولت إلى مكان مكتظ بالسكان، خلال فترة وجيزة.

في أواخر شهر أيار/مايو، وبعد ان تمركز مير مهنا في خويري، وصل الامير كنيخ خان إلى بندريغ، حيث انضم اليه الجند، الذين ارسلهم كريم خان، المتمركز في غوبان. ولكن اسطول بوشهر لم يكن مستعداً للانطلاق، مما يعني ان مير مهنا لم يكن يخشى بعد الهجومات البحرية. غير ان عدداً من جنوده، فضلوا التخلي عنه، والالتحاق بالفريق الاقوى؛ دفعه هذا الامر إلى اليأس، فقتل الماشية واخلى المنازل من السكان، وفي الاول من حزيران/يونيو وصل ١٧ مركباً إلى خويري، ومن بينها ٥ سفن حربية كبيرة(*).

تشكل جزيرة خويري الخصبة، منطقة نفوذ مير مهنا الحالية، علماً انه كان والي اقليم فارسي شاسع. ورغم انه احضر الكثير من المؤن لرجاله، إلا انه كان ينقصه العلف، ولم ينقذه من هذه الورطة إلا طلب أحد الهولنديين منه ارسال النعاج إلى الخرج. ولما كانت الجزيرة تتألف من تلال

(*) يسمي سكان البلاد المراكب الحربية الصغيرة كالبيت Kalbet، والاصغر منها باتيل Batul. فالعرب يستعملون اسماء مختلفة للدلالة على سفنهم، وذلك يتوقف على حجمها او طريقة بنائها، شأنها في ذلك شأن الاوروبين.

رملية، قليلة الارتفاع، لم تقِ الاكواخ الحقيرة الناس من الحرارة الشديدة التي تسببت بهلاك معظمهم. وكان المير مهنا مصاباً بالتهاب في العين، ومحبطاً من تطور الاحداث، فعهد إلى ضباطه تسلم زمام الامور، علماً انه قطع أذن البعض، لرفضهم الاذعان لأوامره، أو لاحتسائهم الكحول حتى الثمالة. خلال هذا الوقت، علمنا ان كريم خان طرد الشيخ سليمان من بلاده وانه انسحب إلى شط العرب. في ٤ حزيران/يونيو، خرج اسطول بوشهر العظيم، الذي سيلعب دوراً كبيراً في هزيمة مير مهنا. يتألف هذا الاسطول من طرادة الانكليز، بقيادة الكابتن برايس، ومن سفينة الشيخ ناصر، وثلاث سفن حربية كبيرة، واثنتين صغيرتين. كان السيد ناصر، امين سر الانكليز في بوشهر، الذي سافر في صباه مرات عديدة بحراً. يقود السفينة الحربية الكبيرة، ويثبت جدارته كأفضل ضابط حربي بين العرب. وكان ابن الشيخ يقود سفينة والده، ويسعى لاكتساب لقب اميرال بين مواطنيه، غير ان نذالته، شكلت عائقاً كبيراً امام الانكليز.

ألقى الاسطول المرساة قرب الخرج، عند اقتراب المساء. كان مير مهنا قد اعاد خمس سفن كبيرة وأخرى صغيرة إلى المياه بعد أن سحب اسطوله كله. صباح الخامس من حزيران/يونيو، كانت قد اقلعت كلها باتجاه فارس. لما كان العدو قد حسم الوضع، اقتفت سفن الاسطول مراكب مير مهنا. وتبادل الفريقان اطلاق النار، على بعد مسافة كبيرة جداً، حتى ان احداً منهما لم يتضرر، ولو لم نكن واثقين تماماً انهما اسطولان متخاصمان، لقلنا انهما يتبادلان اطلاق النار كتعبير عن صداقتهما. عند غروب الشمس، كانت السفن كلها تتجه جنوباً ـ شرقاً. وفي صباح السادس منه، كانت سفن مير مهنا الحربية تتنقل بين الخرج وخويري، بينما الطرادة الانكليزية تقف قرب بندريغ، ومركب الشيخ ناصر على مقربة من مرفأ بوشهر. ظن الشيخ الشاب انه سيتمكن من اخضاع العدو من اليوم الاول، ولما أدرك خطأه، عاد ليلاً على متن احدى السفن الحربية، لإعلام والده بمآثره، مؤكداً لمناصريه، انه كان قادراً على القضاء على الاسطول المعادي، لو أن الانكليز اخذوا بنصائحه. كما وانه أراد ان يأخذ معه سفينة حربية ثالثة، ولكن السيد ناتر، اعترض على ذلك.

كان يقود أحد الربابنة سفينة بوشهر، التي أبحرت نحو الساحل الشرقي لجزيرة الخرج وعادت مساء. وحدهما الكابتن برايس والسيد ناتر، تابعا سيرهما باتجاه العدو، بعد أن تخلى حلفاؤهم عنهم، آملين القاء القبض عليه، ولكن هذا الاخير ألقى المرساة، وراح يطلق صواريخ مدافعه تارة باتجاه الجزيرة وطوراً باتجاه السفن الحربية، فارتأى الانكليز العودة ادراجهم. وبعد ظهر ذلك اليوم، القوا المرساة قرب الخرج، حيث قضوا بضعة أيام. وكانت السفينة العربية تنتقل بين بوشهر والخرج، دون أن تتمكن من الوصول إلى هذه الجزيرة حتى ١٥ حزيران/يونيو، حيث رست قرب سفن الانكليز.

لم يكن لمير مهنا مرفأ على جزيرة خويري. في العاشر منه، هبت عاصفة قوية في المناطق الشمالية ـ الشرقية، أدت إلى إلحاق اضرار فادحة بالسفن الحربية وتوقفها عن العمل. خلال هذا الوقت، لاحظنا في ١٥ منه، ان ثلاث سفن حربية كبيرة وواحدة صغيرة قد غادرت جزيرة خويري. وأبلغ الكابتن برابس ان سفن بوشهر الحربية قد خطفت وان مير مهنا ارسل سفنه لمرافقتها.

وفي ذلك المساء، كان الوالي الهولندي سعيداً للغاية. فبعد تناوله العشاء، خطر له أن يثير شكوك الفريقين المتقاتلين. فأطلق نيران مدافعه عند منتصف الليل، عندئذٍ قصد اوربيو خارج القصر، علماً ان بعضهم ظن ان مير مهنا أو عرب بوشهر يهاجمون الجزيرة. غير انهم ما لبثوا ان ادركوا ان السيد بوشمان يريد التأكد فحسب من أن الجميع مستعد لتلبية نداء العون عند الحاجة. كما وانه أطلق النار باتجاه السفن الحربية المليئة بالبارود ومنطقة خويري فكان تصرفه هذا مؤاتٍ جداً للاجانب إذ أبحر مركب الانكليز ومركب بوشهر عند الفجر، وبلغا عرض البحر مع شروق الشمس. فحسب مير مهنا انه اثار ثورة في الخرج أو أن الانكليز قد اختلفوا مع حلفائهم، أو أن الطرفين يبغيان احتلال القصر.

في ١٦ حزيران/يونيو، اقتربت أربع سفن حربية تابعة لمير مهنا، من سفن الشيخ ناصر الحربية، حتى خطر لنا أن المعركة البحرية باتت محتدمة. وفي تلك اللحظة وصل مركب تجاري انكليزي الخرج لنقل الربان ومتابعة سيره إلى البصرة. وبعد أن توقف بين السفن المتعادية، وجدت هذه الاخيرة الفرصة مؤاتية للتراجع والانسحاب.

بعد أن أدرك الكابتن بيرس انه لن يتمكن من هزيمة عرب بوشهر، اقترح على الفرس وضع عدد من الرجال في خدمته حتى يغزو خويري. فوعده الامير كينج خان بتحقيق مراده، علماً انه وزع رجاله على معسكرات بندريغ. ولكن السيد جيرفيس ارتأى اقناع الهولنديين بالمشاركة في الموضوع. وعاد أسطول بوشهر ترافقه سفن ابن الشيخ، الذي انسحب في الليلة الاولى، إلى الخرج، لتحقيق هذه الغاية. غير أن السيد بوشمان رفض مرة أخرى التورط في هذه الحرب رفضاً قاطعاً.

في ٢٠ حزيران/يونيو، أُبلغ ابن الشيخ ان زورقا صيد، تابعان لمير مهنا، وصلا إلى خارج. فأعطى الشيخ الشاب الامر بمرافقة الزورقين إلى سفينته، غير ان السفن الحربية الهولندية منعتهم من الابتعاد عن اليابسة. ولما رفضوا الامتثال لهذا الامر، وحاولوا رفع المرساة، اطلق الهولنديون نيران بنادقهم عليهم. ولكن دون جدوى، فأبلغوا الوالي بالأمر ليعطي الاوامر بإطلاق نيران المدافع عليهم، وبعد ان انفجرت القنبلة الاولى أمامهم، ارتأى ربان المركب الاول أن يعود أدراجه. بينما تابع الثاني طريقه باتجاه سفينة الشيخ.

في هذه الاثناء، خرج بعض العرب إلى الشاطيء ليروا كيف سيتصرف الهولنديون مع عرب بوشهر. وبعد ان شاهدوا مسلمو الخرج الصيادين المساكين مقتولين في زوارقهم، لعنوا مرتكبي هذا العمل الشنيع وشتموا عرب بوشهر، فأعلن هؤلاء الآخرون الحرب، وحمل عرب الخرج الخناجر وتزودوا بالحجارة (علماً انهم ليسوا من الجنود ولا يحملون السيوف)، وشهدنا بالتالي مناوشات في غاية الغرابة، إلى ان تدخل البحارة الهولنديون، واطلقوا بنادقهم عشوائياً غير آبهين بإصابة حلفائهم. فوقع عدد كبير من الجرحى، بينما خسر عرب بوشهر سيوفهم ومسدساتهم. فأعيدت الأموال التي نهبت من الصيادين، كما وأن القاتل أعدم ضرباً بالسيف. وأصدر السيد بوشمان الامر باعتقال البحارة الذين حاولوا الفرار بالزوارق. إلى أن سلم الشيخ الشاب الباقين واعتذر عمّا حصل.

خلال هذا الوقت، وصل إلى الخرج يخت الوكيل الانكليزي في البصرة. وكان الكابتن براسي، الذي ابحر في ٢٢ منه برفقة اسطول الشيخ ناصر، أخذ هذا المركب معه، لنقل الجيوش الفارسية من بندريغ، ومهاجمة خويري. وعند اقترابهم من هذه الجزيرة، فتحوا نيران مدافعهم، فأجابهم مير مهنا بإطلاق قنبلة واحدة فحسب، معتبراً ذلك خشبة خلاصه. فاثنتان من سفنه الحربية كانتا معطلتين بينما اختفت السفن الثلاث الاخرى منذ بضعة أيام، وظن البعض انه أرسلها في مهمة عاجلة دون ان يعرفوا وجهتها.

صباح ٢٣ منه عاد الاسطول إلى بندريغ. في البداية، عمد الشيخ الشاب إلى الابتعاد عنا وإلقاء مرساته بعيداً عن الجزيرة، غير انه لم يتمكن لاحقاً من الابحار عكس الريح. في صباح اليوم التالي، رست السفن كلها امام الخرج. غير ان الجيوش لم تكن في انتظارها. كان الامير كنيح خان قد أكد للكابتن برايس انه سيضع خمسة آلاف رجل في خدمته، بعد انتهاء عيد الحسين (عاشوراء) الذي يمتد من ١٠ إلى ٢٩ حزيران/يونيو. وأظن انه كان حرياً بالانكليز ان لا يضعوا ثقتهم في هذا القائد الفارسي. إذ كان يفتخر بمآثره العظيمة، التي تقتصر على احتلاله مدينة بندريغ، التي هجرها سكانها وجنودها على حد سواء. في الواقع، كان يترك للانكليز ولشيخ بوشهر عناء معالجة هذا الوضع، رغم ان سفن هذا الاخير كانت تبتعد إلى عرض البحر، عند اقتراب الكابتن برايس من العدو، مما يعني ان الجميع كان يعتمد على الانكليز الذين وافقوا على مساعدتهم تحت تأثير الوعود. ولكن الكابتن برايس كان يجد ان الحل يتوقف على الهجوم الذي اقترحه، إذ كان يسعى لقطع المؤن عن مير مهنا. فالسفن الحربية تجول بشكل مستمر حول خويري، وتراقب المراكب التي تعبر من هنا. علاوة عن ذلك، كانت تطلق النار بشكل دائم على الجزيرة. ولكن مير مهنا لم يحاول ابداً ان يرد بالمثل، بينما كان رعاياه يأملون ان يطلق العدو

نيران مدافعه بغزارة، إذ كانوا يحصلون على فلورين مقابل كل قنبلة يعثرون عليها على الشاطيء. والجدير ذكره انه بنيت على الجزيرة متاريس رملية يختبيء خلفها السكان احتماءً من القنابل التي تطلق من البحر. كما وان مير مهنا بنى متاريس مماثلة أمام السفينتين الحربيتين المعطلتين حتى يتمكن النجارون من اصلاحها في أمان. ولما كان قد سمع عن الهجوم المذكور، اقام مرابض للمدفعية في الاماكن التي قد يحاولون مهاجمته منها. وفي هذه الاثناء احتفل السكان بالعاشوراء، بحماسة كبيرة، زادت هذه الجزيرة حيوية، فكان اهل الشيعة يركضون هنا وهناك حاملين الخناجر أو السيوف في ايديهم، ساعين لتمثيل معركة كربلاء، حيث خسر إمامهم الكبير حياته، أما بعضهم الآخر فكان يدق صدره ويبكي موت الحسين ويندبه، حتى حسب الانكليز ان الجزيرة تشهد مآسٍ عظيمة، ولكنهم علموا لاحقاً انهم يحتفلون بالعيد بهذه الطريقة.

في ٢٧ منه، علمنا ان سفن مير مهنا البحرية، التي اختفت منذ بعض الوقت، هاجمت سفناً حربية آتية من البحرين ومتجهة إلى بوشهر وعلى متنها اموال وجواهر ثمينة. ووصلت اثنتان منها إلى الخرج لإعلامنا ان السفينة الحربية الكبيرة قد هوجمت من قبل العدو، بينما تمكنتا من النجاة. في ٢٩ منه، كان اسطول مير مهنا الصغير يبحر باتجاه خويري برفقة السفينة الحربية التي استولوا عليها.

كان الكابتن برايس والشيخ الشاب قد ألقيا المرساة في الجهة الشمالية ـ الشرقية للجزيرة، بينما جال اليخت والسفن الحربية الاخرى التي سيسلكها الاسطول العدو، فحسبنا هذه المرة ان المعركة حتمية لكن عندما ادرك بحارة سفينة بوشهر ان احدى السفن التابعة لأسطولهم وقعت في براثن العدو، راحوا يندبون أهلهم وأصدقاءهم الذين قتلوا أو أخذوا رهينة على متن هذا المركب، وبدلاً من أن يحثهم هذا الامر على مهاجمة العدو، عادوا جميعاً إلى السفينة الكبيرة. ولم يحاول رجال مير مهنا اقتفاء اثرهم بل فضلوا التوجه شمالي الجزيرة للتزود بالمؤن، ليعودوا بعدها ويتابعوا هجماتهم. استاء الكابتن برايس من رفض السفن الحربية مواجهة العدو مباشرة. فأرسلها في بداية الامر لإطلاق النار على اليابسة. ولكن مير مهنا كان قد ترك على الشاطيء السفينة الحربية المتضررة، بينما زود سفنه بالمؤن اللازمة لتبحر إلى عرض البحر. وبعد أن حاول اسطول بوشهر اللحاق بها سراً عاد في الليلة نفسها إلى الجزيرة حيث ألقى المرساة.

في ذلك النهار، كان الانكليز على استعداد لتدمير سفن مير مهنا الحربية الثلاث لو لم يتخلَّ عنهم العرب. ولكن الانشقاقات بدأت تظهر بينهم. فقد اعطى الكابتن برايس الأمر لجميع السفن، بعدم الابحار إلا لملاحقة العدو، والعودة فور اتمام المهمة. غير ان العرب ضربوا هذه الأوامر بعرض الحائط، إذ ان كبرياء الشيخ الشاب لا تسمح له بالخضوع لأوامر الأوروبيين. وعندما كان

الانكليز يهاجمون العدو، كان يبتعد عن اسطولهم مدعياً ان قوة الرياح تمنعه من الدنو منه. في اليوم نفسه اصيب مركب الكابتن برايس بقنبلة مصدرها اليابسة، بينما كانت سفن الشيخ في عرض البحر. ونظراً لهذه الخلافات القائمة بين العرب والانكليز، جمع السيد ناتر الاوروبيين الموزعين على السفن كافة، وغادر برفقتهم المنطقة على يخت البصرة، وعلى طرادة الكابتن برايس.

في ٢ تموز/يوليو، خسر الشيخ مركبين، واحد منهما تكسر على الصخور وآخر تم الاستيلاء عليه. في ٩ منه، وصل مركب انكليزي كبير من البنغال متجهاً إلى البصرة. فعرض عليه الربان ان يقلني على متن مركبه. غير انه كان يريد الابحار في غضون ساعة، دون ان يترك لي الفرصة لحزم امتعتي، كما وانني افضل السفر على متن مركب صغير، برفقة ربان عربي يعرف جيداً مصابّ نهر شط العرب وقراه. ووصل يخت صغير من البصرة، يعلمنا أن عرب قبيلة كعب لا يضمرون الشر للانكليز، غير انه كان يخشى العودة لوحده، بسبب سفن مير مهنا الحربية. فرافقه مركب كبير، ولحقت بهما إلى شط العرب سفن الشيخ سليمان الحربية.

لو رحلت برفقته، لفقدت معداتي كلها واوراقي، ففي ١٠ منه، شاهدنا على مقربة من الساحل الفارسي عشر سفن حربية، بعضها تابع لمير مهنا، وبعضها الاخر للشيخ سليمان الكعبي. فقد وّحد عدوا كريم خان قواهما البحرية. وبعد ان واجه الكابتن برايس مشاكل جمة مع الشيخ الشاب، اعلن في ١١ تموز/يوليو انه يريد العودة في الليلة التالية. ولما كانت المؤن قد نفدت من الشيخ قرر العودة إلى دياره، واضعاً بذلك حداً للحرب.

بعد مرور بضعة أشهر، طرد مير مهنا الهولنديين من الخرج، علماً انه كان على وشك ان يهزم، لو لم يتخلَّ عرب بوشهر عن الكابتن برايس والسيد ناتر. وضع الهولنديون مئة رجل لحمايتهم، فضلاً عن خمسين بحاراً على متن سفنهم الحربية. ولكن كان ينقصهم ضباط ماهرون، فالضابط الوحيد الذي كان يرافقهم، مات منذ فترة طويلة. عند عودة السيد بوشمان إلى بتافيا، حل محله السيد هوتينغ، الذي احضر معه ضابطاً جديداً، لم ينخرط في السلك العسكري من قبل، ولم يلق حظوة لدى الجنود. وكان من المفترض ان يعاون الوالي الجديد امين سر يدعى السيد ثيم ولكنه قتل قبل بضعة ايام من وصول السيد هوتينغ، ولما كان هذا الاخير، يجهل لغة البلاد وعادات عرب الخليج الفارسي، لم يحسن ادارة هذا المنصب الموكل اليه، علماً انه لم يحط باشخاص حكماء، يستطيع الاعتماد على نصائحهم. لاحظ مير مهنا ذلك، وعلم ان السيد بوشمان اقيل من منصبه وأن الكابتن برايس عاد إلى الهند، فبدأ يعيق اعمال الهولنديين التجارية. فتحالف هؤلاء الاخرون مع شيخ بوشهر، وعطلوا سفن العدو الحربية، وانزلوا رجالهم في خويري، في تشرين الاول/أكتوبر. ولما انفصل الهولنديون عن حلفائهم، فاجأهم مير مهنا بشن هجوم معاكس عليهم.

فأنزل رجاله في الخرج واستولى على القصر، وبالتالي على الجزيرة كلها وعلى كمية من البضائع القادمة حديثاً من بتافيا. فانسحبت الجيوش الفارسية من بندريغ، ليستولي عليها لاحقاً مير مهنا.

لعلني اطلت الحديث عن حرب الخليج العربي، التي شهدتها بأم عيني، ولكنني أردت أن أعلم قرائي، أن الاوروبي لا يستطيع الاعتماد على تحالفه مع مسلم ضد مسلم آخر. في هذه المناسبة، كان شيخ بوشهر يتمنى هزيمة مير مهنا، ولكنه لم يعط اوامر صريحة لربابنة سفنه. وكان ضباطه يتحاشون دوماً المعارك إما خوفاً على حياتهم، أو أن أحدهم حاول ان يرشيهم. وفي هذه الاثناء، وجد الانكليز، ومن بعدهم الهولنديون، أنفسهم لوحدهم.

كان الهولنديون يفتخرون كل الفخر بتوليهم الحكم في هذه الجزيرة، واستيلائهم على حصن في الخليج الفارسي، حتى أنهم لن يتقبلوا بسهولة مسألة خسارة الخرج(*).

تقع مدينة الخرج، التي بناها الهولنديون منذ بضع سنوات، شمالي - شرقي الجزيرة. على ارتفاع ٢٩°، ١٥´ من القطب. وقد أشرت إلى موقعها ومساحتها في اللوحة XXVIII. تشير الصورة (أ A) إلى الحصن الذي بناه البارون كينوسن، كان مقر الحاكم، يقع قديماً في هذه البقعة. أما غرفة الضابط البحري، فتقع خلف الباب المقابل. علاوة على ذلك، تكثر الشقق الفاخرة التي خصصها الحاكم لضيوفه. في الجهتين الشمالية والجنوبية نشاهد متجرين كبيرين، غير انهما لا يتسعان لحمولة المركبين اللذين يصلان سنوياً من بتافيا، لذلك بقيت متاجر أخرى في المدينة. نشاهد في الصورة (ب B)، حديقة جميلة، بني عند طرفها، المطبخ أما في الصورة (ج C)، فنجد خاناً للقوافل. كان موظفو البعثة الهولندية في الهند الشرقية، من أرمن وبانيانين يقطنون في الصروح الحجرية الاخرى، أما تجار الخردوات والصيادون، والحرفيون، من عرب وفرس، فيقيمون في أكواخ حقيرة، خلف تلك الصروح، وهي تطل على البازار أو سوق التجار. واتخذ البروتستانت والكاثوليك أماكن خاصة بهم، ليمارسوا فيها شعائرهم، دون ان يسمح لهم بتعيين كاهن لهذه الغاية، غير انه غالباً ما كان يحضر راهب كرملي من بوشهر لترؤس قداديسهم. يملك الأرمن خارج البلدة قرب الصورة (د D) كنيسة صغيرة، يعلوها جرس، وهذا أمر نادر في هذا البلد؛ احتفظ شعب كافر الأفريقي، الذي كان افراده يباعون كعبيد في خارج، بديانته الأصلية. فبنوا منزلاً لهم قرب الصورة (ج C) تكريماً لنبيهم العظيم الشيخ فرج. تقضي شعائرهم الدينية بالرقص على وقع الطبول، وغيرها من الآلات الموسيقية الصاخبة.

(*) في السنة التالية، ارسل الانكليز عدداً هائلاً من الجند، من بومباي الى الخرج لطرد مير مهنا، غير انهم عادوا ادراجهم دون ان يفعلوا شيئاً. في نهاية المطاف سئم رعايا مير مهنا من طغيانه، ففر الى البصرة، حتى لا يقع اسير الفرس. غير ان المتسلّم Mutasillim ارسل رأسه الى باشا بغداد ورمى جثته في حفرة، عندئذٍ اعيدت الخرج الى الفرس.

علاوة عن ذلك، كانوا يعلقون سلسلة من بزور فاكهة المانغا الهندية، حول أرجلهم حتى يضربوها أرضاً، محدثين بذلك ضجة كبيرة، تدل على قوة إيمانهم وهم يقيمون هذه الاحتفالات عند موت احدهم أو سفره، أو زواجه، أو ولادة طفل له...

ينقسم مسلم هذه الجزيرة إلى سنة وشيعة، وهم يزورون جميعاً مسجد الامير المدفون هنا(*). ويقال ان مركباً كان ينقل تجاراً كفاراً، تحطم على الصخور وقضى كل من فيه، بعد أن ابتهل هذا القديس إلى الله، راجياً منه ان يفعل ذلك. ويزعم ايضاً، أن الكلاب كانت تخشى الاقتراب من هذه الجزيرة بسببه، ولكن منذ ان استقر الهولنديون فيها، راحت تتنقل فيها على هواها.

ان الفرق الاساسي بين أهل الشيعة واهل السنة، هو أن هؤلاء الآخرين قلما يكترثون لمسألة تسلم عائلة نبيهم الحكم، واحتفاظها به. فحسب اعتقادهم، شاء الله ان يعين المسلمون أبا بكر وعمر وعثمان خلفاء، وانهم وصلوا إلى الحكم قبل صهر محمد واولاده من بعده. ولكن أهل الشيعة يكرهون هؤلاء الخلفاء الثلاثة لأنهم استلموا دفة الحكم قبل علي، ولكن الحسين قتل في احدى المعارك، على يد جيوش «يزيد»، أحد الخلفاء اللاحقين، لأنه رفض الخضوع للحكام، مطالباً بالخلافة لنفسه. ولهذا السبب يحتفلون كل سنة بعيد الحسين لمدة ١٠ أيام احياءً لهذه الحادثة. أما في بلاد فارس حيث المذهب الشيعي هو السائد، فتراهم يندمجون في هذه المسألة إلى حد بعيد، فيسعون إلى قتل الحسين، أو المسلم، الذي يستحق الخلافة؛ لهذا السبب، يفضل على اتباع المذاهب الآخرى، لزوم منازلهم خلال الاحتفال بهذا العيد. في الخرج، يسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، دون الاسترسال في حماستهم، فعدد اهل السنة يفوق عددهم، كما وأن حاكمهم هولندي.حظر الحاكم عليهم البكاء والنحيب بصوت مرتفع في المدينة خلال العيد، حتى لا يزعجوا اتباع الديانات الاخرى. فكانوا يمارسون عاداتهم، خلال الايام التسع الاولى خارج المدينة. ولما كنت اجهل هذه الامور، سمحوا لهم بدخول المدينة في اليوم العاشر (٢٩ تموز/يوليو)، ليمثلوا مأساتهم في الساحة العامة، فقصد مسلم الخرج كلهم المكان للتفرج عليهم. فكان من السهل التعرف على أهل السنة وعلى اهل الشيعة من خلال هيئتهم الخارجية، اذ بدا واضحاً ان بعض اهل السنة تأثروا بهذه التمثيلية حول ابن نبيهم المسكين، رغم انهم حافظوا على رباطة جأشهم بينما كان أهل الشيعة يضربون صدورهم أو يعبرون عن ألمهم بطريقة أو بأخرى، حتى أن بعضهم كان يبكي بمرارة، ودموعهم تسيل على خدودهم، وهم يصرخون حسين! حسين! اما من يلعب بينهم دور اتباع الخليفة يزيد، تحت امرة القائد شمر، فكانوا يركضون شمالاً ويميناً،

(*) لم يكن ابن فاطمة بل ابن امرأة اخرى، وقد لقبه الكتاب المسلمون بحنيفة راجعوا Semless veberaetzung der Allgemeinen Wett Historie des neuern Zeiten ص ٣٨٧ - ٤٧٧

حاملين سيوفهم، وكأنهم يبحثون عن العدو. عندئذٍ وصل الحسين برفقة عدد من أصدقائه، حيث هوجموا بصورة وحشية فبدا على وجوههم اليأس، وقد صمموا على عدم التضحية بحياتهم بسهولة، فراحوا يدافعون عن انفسهم ببسالة. أما المدعو القاسم بينهم، فقد طرح أرضاً عدة مرات، وكلما حاول ان يمتطي حصانه ثانية، توسلت اليه بناته(*) ان لا يفعل وهنّ يذرفن دموعاً حارة.

ولعب احدهم ايضاً دور العباس، أخو الحسين، الذي بتروا له يديه، بينما كان يشرب من النبع، وكانت بعض الشخصيات تمتطي الأحصنة، وبعضها الآخر يلعب دوره سيراً على الأقدام: اذ لا تتوفر الجياد والجمال بكثرة في هذه الجزيرة، لأن المجتمع يتألف من طبقة من الفقراء، يرتدون ثياباً رثة. أما الموسيقى التي كانت تصدح في المكان، فكانت تصدر عن أوعية معدنية، تطرق بعضها البعض. أرغم جيش الحسين الصغير العدو على التراجع عدة مرات، إلى أن صرع بعدها الضباط، الواحد تلو الآخر، أرضاً، ومن بينهم الحسين، وأخذوا رهينة، وعلقوا بعدها قطعاً خشبية كبيرة بعنق اطفال الحسين، وطلبوا من جلاد يرتدي ثياباً مريعة ان يقودهم للمثول أمام العدو الأعظم: واحتفظ البعض منهم بكبريائه وشموخه امام الغزاة. عندها، أصدر الامر بقتلهم، ولكن الجلاد كان قد فعل ذلك مسبقاً(**)، مما أثار غضب القائد فأمر بقتله ايضاً.

من المعروف ان الحسين قد قتل في ساحة كربلاء، المجاورة لمدينة بابل القديمة. وكان الخليفة يزيد يقيم حينها في دمشق. وجسد ههنا، جالساً على كرسي اوروبي الطراز، حاملاً سوطاً في يده. استناداً إلى تاريخ المسلمين، رافق سفير الامبراطور اليوناني، افراد عائلة الحسين، الذين بقوا على قيد الحياة للمثول امام يزيد، وقد بدا هنا مرتدياً ملابس اوروبية، ومعتمراً قبعة مطرزة بخيوط ذهبية، غير انني لا أظن ان اليونانيين قد اعتمروا يوماً هذا الزي، ولعل أهل الشيعة، كانوا يحاولون مجاملتنا، من خلال هذا التصرف، بغية اثبات الصداقة الوطيدة التي كانت تربط الحسين بالمسيحيين.

فعندما اقتيد علي بن الحسين، الذي لقب لاحقاً بزين العابدين للمثول امام الخليفة، اقترح عليه هذا الاخير الخضوع له. أو كما يدعي الشيعة، الارتداد عن دينه، فأجابه بالرفض بشموخ وكبرياء فتدخل السفير مرتين ليبعد عنه عقوبة الاعدام. ولما اقتيد للمرة الثالثة امام الخليفة، واثنى السفير عليه، امر الخليفة بقتل الاثنين معاً(***). والجدير ذكره انهم لعبوا ادوار شخصيات متعددة، لم أحفظ أسماءها، أو قصة حياتها.

(*) لم يكن للقاسم بنات ولا صبيان ولكن هذا خلط يسير أمره مقارنة مع ما تقدم (الانتشار).

(**) لم يُقتل أحد من أسرى كربلاء بعد الواقعة (الانتشار).

(***) لم يأمر يزيد بن معاوية بقتل علي بن الحسين أو سواه بعد كربلاء (الانتشار).

سأتلو عليكم في ما يلي مثالاً عن تطير سكان هذه المدينة: لسنوات خلت، قتل جندي الضابط المسؤول عنه بطلق ناري من بندقيته، فأمر الحاكم بقطع يده وبشنقه لاحقاً. وبعد ان بترت يده تجمعت حوله بعض النسوة، لجمع دمه المهدور، فرحنّ يتنازعن حول الرمال التي تمرغت بدمه. وبعد ان قطع رأسه، وقفنّ جميعاً تحت المشنقة ظناً منهنّ ان ذلك قد يساعدهنّ على الحمل.

تقع جزيرة الخرج على بعد أربعة أو خمسة أميال من المحيط، ولما كانت قديماً مغطاة كلياً بالمياه، تتألف الجبال والهضاب الواقعة وسط الجزيرة من الحجارة المرجانية والصدف. وتكثر هنا بقايا اعمال السكان القدامى التي لا توازي بقايا نقشي رستم أهمية رغم أنها منحوتة في الصخر. ويقال ان قصة رستم قد حفرت على أحد الجدران. رغم تعرضها للتلف بفعل مرور الزمن، ومحاولة بعض السنة المتعصبين تشويهها.

وأكثر ما يلفت انتباهنا، بين هذه البقايا، هي قناة للمياه، تنقل عبرها مياه احد الينابيع، لري البساتين المجاورة. تعلو هذه القناة ثقوب محفورة في الصخر، شبيهة بالمواقد، وبقنوات المياه في فارس. والجدير ذكره ان مياه هذه الجزيرة صالحة للاستعمال، مما يعني ان السفن المارة من هنا، تتزود بكمية وافرة منها.

لا تضم هذه الجزيرة الا قرية واحدة. قبل وصول الهولنديين، كان سكان القرية يتمتعون بحماية والي بندريغ لهم. ولما راح يسعى كل سيد، في الخليج الفارسي إلى نيل استقلاله، واعلان الحرب على جاره، عاني سكان الخرج الفقراء الامرين من قراصنة هذه المنطقة، وارتأوا الهجرة من الجزيرة. فأدى ذلك إلى تحول تلك الاراضي الخصبة إلى مناطق قاحلة، اذ كانت تكثر فيها دوالي العنب، واشجار التين والبلح وغيرها من الفواكه المثمرة. ورغم ان اللآلىء تتوفر في هذه الجزيرة، إلا إنها تكثر في قاع البحار، واستخراجها يتطلب اموالاً طائلة. والجدير ذكره انني ارسلت شجيرة مماثلة إلى كوبنهاغن، فهي خالية من الأوراق،وتغطي الاصداف، حيث ترقد اللآلىء، أغصانها. عندما فتحت الصدفة الاولى، وجدت لؤلؤة متوسطة الحجم، غير انني لم أستطع فتح الأصداف الأخرى، لأن ذلك يقتضي انتزاعها عن الأغصان.

ترتفع درجات الحرارة في الخرج في فصل الصيف، غير ان الحر ليس شديداً على السواحل المقابلة. ففي شهري حزيران/يونيو وتموز/يوليو، هبت الرياح الشمالية ـ الغربية، المنعشة والجافة ومصدرها الصحراء، وهي تحول الاجسام الصلبة كالزجاج والحديد والخشب، إلى كتل ملتهبة، حتى وإن وضعت في الظل، بينما تزيد برودة المياة خاصة ان وضعت في أوعية فخارية في الهواء الطلق. لكن ان هبت الرياح الجنوبية الشرقية، الآتية من البحر ارتفعت نسبة الرطوبة، خاصة عند

المساء، ويقال ان هذا الندى ليس مضراً ابداً بالصحة، علماً اننا كنا تنام في العراء. والجدير ذكره انني اصبت بداء العيون، السائد في هذه المنطقة.

بنى الهولنديون تحت منازلهم، غرفاً صيفية، شأنهم في ذلك شأن اعيان بلاد فارس، وبغداد والبصرة. وجدت تحت المنزل الذي اعده لي السيد بوشمان غرفة مجهزة بمروحة لتلطيف الهواء، غير انني نادراً ما كنت استعمل هذا المكان، حتى ابقى معتاداً على الجو الحار، ولا اظن ان المروحة تختلف كثيراً عن المدفأة، إلا بكونها مفتوحة من احدى الجهتين، ليدخل منها الهواء في الفصل الحار.

الرحلة من الخرج إلى البصرة

في ٣١ تموز/يوليو، غادرت الخرج عند المساء، وبلغت مصب شط العرب بين الاول والثاني من آب/أغسطس. يطلق العرب هذا الاسم على النهر الكبير الممتد من القرنة، حيث يندمج الفرات، ودجلة إلى الخليج الفارسي. ولا يزال العرب يطلقون على المنطقة الواقعة فوق القرنة، اسم الفرات الاول والجل الاخير، المذكورين في الكتاب المقدس. ينقسم شط العرب، قرب البصرة، إلى عدة روافد(*).

والملاحظ ان الجزر المحيطة بهذا النهر، تقع على مستوى منخفض جداً. مما يتعذر بالتالي على الاشخاص القادمين بحراً رؤية مصبات الشط، شأنها في ذلك شأن مصبات النيل، وحده الرافد الغربي المعروف بشور حالتا، يستعمل احياناً للملاحة، فغالباً ما نجد امام المصب رصيفاً عالياً، يتعذر على السفن الكبيرة اجتيازه، خلال ارتفاع نسبة المياه أو عند اكتمال القمر(**) تحد النهر من الجهتين بساتين النخيل والقرى الصغيرة والمنازل المتناثرة هنا وهناك، أما أكثر القرى تميزاً فهي قرية حسان ابن الحنفية، حيث دفن المدعو حسان، شقيق الامير محمد، الذي اتيت على ذكره في سياق حديثي عن الخرج، ويقال انهما ابنا علي وحفيدا محمد. واظن ان المكان الذي دفن فيه حسان، كان مغطى بالمياه قبل ١١٠٠ عام تقريباً، فالشاطىء منخفض جداً في بعض الاماكن، إلى حد ان السكان اضطروا لبناء السدود كي يحموا بساتينهم من الفيضانات. ونشاهد

(*) يسمي اريان هذا النهر سيتو، راتيس بينما لا يطلق عليها بعض اليونانيون، اسم باسيغريس، تجدون في اللوحة XL الخريطة التي رسمتها استناداً لما شاهدته، ولروايات بعض سكان البصرة، واظن انها تعطي القارىء فكرة عن مصب هذا النهر.

(**) استناداً الى تقرير البحارة، يبدأ المد هنا، عند ظهور القمر في الافق، مما يعني انه عند اكتمال القمر، يبلغ المد ذروته ظهراً او عند منتصف الليل.

في كافة الانحاء، قنوات محفورة في الأرض تنقل بواسطتها المياه إلى بساتين النخيل، حاملة معها كمية كبيرة من التراب. دمرت قرى جزيرة محرزي منذ بضعة سنوات، حين استولى عليها سليمان، شيخ قبيلة كعب، ونشاهد بالتالي انقاض قرية تعرف بسراي غير ان أحد التجار الاوروبيين في البصرة أكد لي انها انقاض البصرة، التي بناها الخليفة عمر. والجدير ذكره ان بعض الرحالة يسمون في مؤلفاتهم، البصرة القديمة سراي ولكن مدينة البصرة التي بنيت في عهد الخليفة عمر تقع في مكان آخر. تتألف انقاض جزيرة محرزي من اسوار من الصلصال مما يثبت انها ليست بقديمة.

لم أستطع ان ادون على خارطة اللوحة XI اسماء كل القرى الواقعة على ضفاف شط العرب، من الخليج الفارسي إلى البصرة، فمعظمها صغير للغاية ولا يستحق ان يوليه عالم الجغرافيا اهتماماً. في مطلق الاحوال، سأتلو عليكم فيما يلي اسماء القرى كلها، رغم ان بعضها قد يبدو للقارىء غريباً بعض الشيء، والجدير ذكره ان هذه القرى تخضع لحكومة البصرة. رغم انها لا تقع كلها بمحاذاة النهر.

نجد في الجهة الغربية لشط العرب، اقليم دولسر، الذي يضم جوبيده وجابده، وكوة ابن خلف، وكوة خليفة، وكوة غانم، وتليها قرى سيحان وزين وقاووس، وكليسيا، وشمرته، ومطوعه صغيرة، ومطوعه كبيرة، وسلم علي، وحسينات، وبلد جان، وعاميه، وابو بقيع وعبادة، وباب كنكي، وباب العريضة، وباب الطويل وباب الدباغ وابو الخصب، وغبية، ونهر خور، وابو مغيرة وسبليات، ونهر حبابه، والبلد، ويهودي، وخنجة وكوة ابن فايز وعلي احمد ابن كوة، وكوه ابن الكومرلي، جزيرة علي، وبلد ابن سبيع، وباب النجدي، وبلد وبوسفان، وحمدان وكرية وبلد السيد، وبلد مخزم، وبلد ياس، ومهيغران، وفجة مصلح وابو سلال وعويسيان، وصراجي، وميتان، وبراصفية، وأم النعاج، ومناوي.

ونجد على جزيرة محرزي، قرى منوحي، خضر ابادان وباردة، وكوب بن اسماعيل، وصوبنج الكبير، وصوبنج الصغير، وحويش، وكوة ابن بلبول، وراس الخدة، ومحيلله، ومحرزي ونهر الشيخ وكوة عامر، وكوة المفتي، وكوة عيسى وكوة الملا وجزيرة المحلة.

تقع القرى التالية على الضفة الشرقية للنهر وتخضع لحكومة البصرة، عبد، سابلة، حفار، قلعة المحرزي، قلعة الحفار، كوة شيخ يعقوب، معمورية، دربن، ابو جذيع، خيني، ثمار، حمرانات، دعجي، كوة الزناد، جزيرة البارين، كوة الجوع، تنومة، شريعة، كردلان، وكوب الجلابة، ونهر يوسف، وجباسي، وكوت انجانة، وريان، وحوطه، وشتيبان، ونجاجي، وحمامله، ومغارة، وحلاف، وام الزيط وشلهة، ومصطفاوية، ورميلية، وام التوت، وكوة الدرجة، وخلط، وسويب، ومرفأ حفيظة، وشاملي.

ملاحظلات حول بوصلة الشرقيين

أكد لنا الرحالة الاخرون ان العرب لا يستعملون اسماً آخر للبوصلة، غير ان العرب، الذين لم يشاهدوا هذه الآلة إلا صدفة على احدى السفن، لا يعرفونها جيداً. علماً ان علماءهم لا يستطيعون الاستغناء عنها ابداً، فخلال الصلاة يديرون وجههم صوب الكعبة، مما يقتضي عليهم ان يتأكدوا من موقع مكة، قبل بناء المساجد، لتحديد المكان الذي يجب ان تبتنى فيه القبلة. كان أحد علماء القاهرة يستعمل لهذه الغاية، ابرة ممغنطة تعرف بالمغناطيس، غير ان الشيخ المذكور لم يسمع قط، بمسألة انحراف الابرة أو تبدل وجهتها سنوياً، فضلاً عن ذلك، سمعت العرب يسمون البوصلة، ديرة أو بيت الابر. بينما سكان الخليج الفارسي يسمونها قبله نما، أو راش نعمة. ففي هذه البلاد يسمي السكان اقطار العالم استناداً إلى ظهور بعض النجوم أو غروبها، الشمال،«با» الجنوب «زيل» الشرق «متلا» الغرب مريب الشمالي شمالي شرقي متلا حسن. الشمالي شمالي غربي مريب حسن، الشمالي شرقي متلا ـ نعش، الشمالي ـ غربي ـ نعش مريب نعش، الشرقي ـ شمالي ـ شرقي متلا شمالي، الغربي ـ شمالي ـ غربي، مريب سماك، الشرقي جنوبي شرقي متلا عقرب، الجنوبي غربي، مريب عقرب(*). رغم التسميات التي تستعملها الأمم الاخرى لخطوط البوصلة لا تثير اهتمام القراء كلهم، إلا انني سأتلو عليكم تلك التي يستعملها الهنود والاتراك وسكان ماليزيا، والسياميين.

يطلق الأتراك على الجهة الشمالية اسم يلدز والجنوبية قبلة، والشرقية كوندوغروسي والغربية باطي، والشمالية ـ، شرقية فورياز. والجنوبية ـ غربية كشلمة، والجنوبية شرقية لودوس والشمالية غربية قاريل.

يطلق الهنود على البوصلة اسم هوكه Hokke ويقسمونها إلى ٣٢° خط أو شان Chan، قطر الواحد منها ١١ ١/٥٢، ولها ١٧ اسماً علماً ان خطوط الجهة الغربية من خط الطول الاساسي تحمل الاسماء نفسها كخطوط الجهة الشرقية منه.

(*) النعش، هو عبارة عن مجموعة نجوم الدب الكبير، سماك، والعقرب وزير.

من الجهة الشرقية

الشمال	دورد
الشمالي/ الشرقي	دورام
الشمالي/ شمالي شرقي	ساتيفارا
الشمالي/ شرقي	اوتيني
الشمالي/ شرقي	بو ـ ايس
الشمالي/ شرقي شرقي	غوسغير
الشرقي شمالي شرقي	شترا
الشرقي شمالي	كاتيسار
الشرقي سارا	اون
الشرقي جنوبي	حاران
الشرقي جنوبي شرقي	لودا
الجنوبي شرقي شرقي	دوجيت هول
الجنوبي شرقي	كاغرا
الجنوبي شرقي جنوبي	توران
الجنوبي الجنوبي شرقي	تشوكي
الجنوبي شرقي	اغاس
الجنوب	تام

من الجهة الغربية

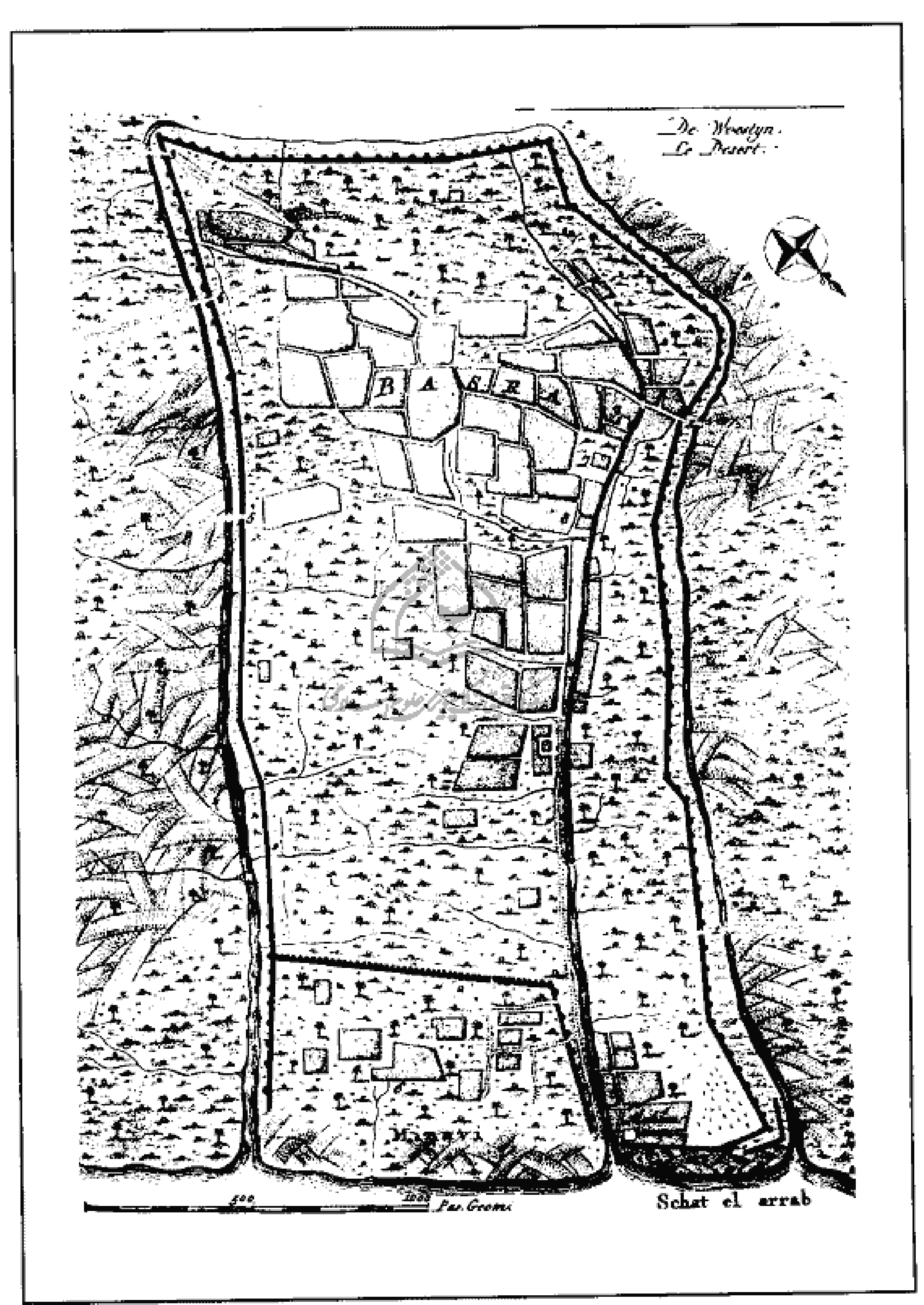
الشمال	دورو
الشمال غربي	دورام
الشمالي الشمالي غربي	ساتيسار
الشمالي غربي شمالي	اوتيني
الشمالي غربي	بو ايس
الشمالي غربي غربي	غوسغير
الغربي شمالي غربي	شترا
الغربي شمالي	كاتيفارا
الغربي سارا	اون
الغربي جنوبي	حاران
الغربي جنوبي غربي	لودا
الجنوبي غربي غربي	دجيت هول
الجنوبي غربي	كاغرا
الجنوبي غربي جنوبي	توران
الجنوبي جنوبي غربي	تشوكي
الجنوبي غربي	اغاس
الجنوبي	تام

أعطاني برتغالي في بومباي، بوصلة سكان ماليزيا وسيام، كان هذا الاخير قد عمل في خدمة الاوروبيين والهنود كربان سفن، كما وانه خدم في جيش امام عمان، بعبارة اخرى بدا لي انساناً جوالاً بكل معنى الكلمة، ولكنه كان يحسن استعمال البوصلة ويعرف الكثير عنها.

فاستناداً لمعلوماته، وضع السياميون ثمانية خطوط على بوصلتهم. يسمونها استناداً للرياح التي تهب في هذه الاقطار، الشمال، واو، الشمال ـ الشرقي اوترا، الشرق، تيبا نود، الجنوب ـ شرقي تاب هاو، الجنوب سلاتان، الجنوب ـ غرب، بريتا، الغرب، تيان توك، الشمال ـ غرب، برات لوان، اما سكان ماليزيا، فلا يستعملون الا ثمانية أسماء لهذه الخطوط، الشمال اوتارا، الشمال ـ شرق تيمور لافاد، الشرق تيمور، الجنوب شرق سلاتان دجا، الجنوب، سلاتان، الجنوب غرب برادجا، الغرب باراد، والشمال غرب بارا لافاد. غير ان بوصلتهم تضم ٣٢ خطاً، يحمل كل واحد منها تسمية طويلة جداً في لغتهم، مثلاً، من الشمال إلى الشرق، اوتارا دي كانان يارون بندي، من الشمال إلى الشمال شرق، اوتارا دو كانان يارون بانجان، ومن الشمال شرق إلى الشمال تيمور لافاد يارون دو كوري يارون باندي(*)..

حاول بعض الرحالة اقناعنا ان العرب البدو يستعينون بالبوصلات خلال رحلاتهم في الصحراء غير انني لم أجد ما يثبت ذلك. فحين رأوني احملها سألوني عن سبب استعمالي له. فأجبتهم انها ساعة تحدد موقع القبلة، اي مدينة مكة، ولهذا السبب، كانوا يقصدون منزلي للاستعلام عن وجهة القبلة كلما ارادوا الصلاة. والجدير ذكره ان هؤلاء العرب، يتنقلون دوماً في الصحراء ويعرفون الطرقات جيداً، ويستعينون ليلاً بالنجوم، فلهذا السبب لا يحتاجون للبوصلة ابداً.

(*) تعني كلمة كيانان في لغتهم، الجهة اليمنى، وكيري الجهة اليسرى ويارون، الربع.


De Woestyn.
Le Desert.
B A S R A
500
1000
Pas Geom.
Schat el arrab

ملاحظات حول البصرة

تقع مدينة البصرة على ارتفاع ٣٠°، ٣٠´ من القطب، على الجهة الغربية لشط العرب، واستناداً للخارطة التي رسمتها في اللوحة XXXIX يبلغ طول سورها حوالي الميل تقريباً، وتكثر فيها بساتين النخيل وحقول القمح، التي تزيد من نقاط التشابه بينها وبين مدينة بابل القديمة. والجدير ذكره ان هذه المنطقة لا تضم صخوراً منقوشة، إلا تلك التي نشاهدها فوق عتبة الجوامع، فمعظم الابنية مصنوعة من الخشب الثمين الذي ينقل من المناطق الاخرى، تغطي الحجارة بعض الاسوار بينما استعمل الصلصال لبناء المنازل وسور المدينة الكبيرة؛ مما يعني ان انقاض هذه المدينة، لن توازي انقاض مدينة بابل اهمية.

يبلغ عرض الشط في هذه المنطقة، حوالي ربع فرسخ؛ تكثر في البصرة القنوات الصغيرة، المتفرعة من النهر الكبير، والتي تساعد على الحفاظ على نظافة المدينة، غير انني لم أدخل مدينة اكثر قذارة من هذه اذ يستعمل معظم الناس المياه الملوثة في مطابخهم، كما وانهم ينظفون بها شوارعهم غير المرصوفة.

تضم المدينة خمسة أبواب ١) دراوزه أو باب الرباط ٢) دراوزه بغداد ٣) دراوزه الزبير ٤) دراوزه الصراجي ٥) دراوزه المجموعة تقع قرب الصورة ٦ من اللوحة، دار النقيب باشا، وقرب الصورة ٧ دار المفتي، وقرب الصورة ٨، ثكنة الانكليز، وقرب الصورة ٩ ثكنة الفرنسيين. ونشاهد في المدينة مسجداً له منارتين، وثمانية آخرين لكل واحد منها منارة واحدة، وهي تعرف بالجوامع، ويقال ان هذه المدينة تضم ٤٠ مسجداً صغيراً. ولكنني اخالها أقرب إلى المصلى منها إلى الجامع.

لما كانت البصرة مدينة حديثة، سأتلو عليكم في ما يلي اسماء احيائها كافة، خاصة واننا قد لا نحظى ابداً بترجمة وافية لوصف هذه المنطقة، مع الاشارة إلى تسمياتها القديمة، مناخ، مشارق، دنانيك، ابن عيد، عبايه، ميدان العبيد، الدوغ، ام البلابيل، ام البزازين، شيخ بادي، شيخ قنبر، شيخ جوهر، ام الطنوق، قبلة، شيخ عمر، مدبغة، نهر النبات، شيخ حبيب، جسر اللوح، مكول، معدان، محمد تخته حمام كوت، محلة القاضي، محلة العرصة، محلة سيد رمضان، محلة الافغان، حكاله، حداده، خليلية، شريباتية، محلة اليهود، محلة مرجانة، حسن داده، كواز، بستان قصب، كوارخين،

عز الدين، محلة خان زكار، القطانة، سيف، حوش الباشا، جسر الغربان، المجموعة، مقبيرة، صمغونية، محمد جواد، عروة، غمقة، بحارنه، جسر العبيد، بلد السياس، الدوغ، حلل، مقام، محلة الجديدة، نظرآن، صبغة، معصرة، الخضر، محلة الساعي، مناوي، بديهة، عباس، حصير جيه، فرسي صيمر، خضراوية، فتالة، كوث الكرملي، جسر الحوز، محصصه، خشابه.

لم تعرف البصرة الازدهار إلا في عهد المدعو سياب، الذي كان نبيلاً من البلاد، استلم دفة الحكم من الاتراك، كان هذا الاخير، يشجع الاجانب على الاقامة في هذه المدينة، وتأسيس مشاريع تجارية فيها، خاصة وان موقعها مؤات للغاية. استلم ابنه علي باشا الحكم من بعده، ليخلفه في ما بعد حسين باشا، ابن علي باشا(*). وكانوا جميعاً يعتبرون البصرة، والقرى التابعة لها، ملكا لهم. فحول علي «القرنة» إلى مكان يلتقي فيه الفرات ودجلة، والى حدود حصينة، عززها حسين ببناء سور ثانٍ لها. ووسع هذا الأخير مدينة البصرة، إذ بلغ السور الذي بناه نهر شط العرب، رغم بعد المدينة عنه، وساهم بالتالي في رفع عدد بساتين الفاكهة وحقول القمح. كما وانه حصن قرية مناوي، واستولى على القصر واقام فيه. علاوة على ذلك، بنى جامعاً في البصرة، ومنح المسيحيين حرية ممارسة دينهم، حتى يغريهم بالبقاء في هذه المدينة، والمساهمة في ازدهار التبادلات التجارية فيها. فعظم شأن حسين باشا بعد أن وضع يده على قرى عديدة كانت تابعة لحاكم بغداد، وبعد أن صد الأتراك الذين حاولوا مرة اقتحام البصرة، ولما تعذر عليه اخضاع الباشوات المجاورين لنفوذه، أرسل أحد افراد عائلته إلى القسطنطينية، حاملاً هدايا ثمينة للسلطان، فوعده بأن يدفع له سنوياً، مبلغاً من المال، شرط أن يسلمه دفة الحكم، فوافق السلطان على ارسال جيش صغير لمساعدته على بسط نفوذه، علماً انها الطريقة الاسهل لضم البصرة لاحقاً إلى امبراطوريته. وبدلاً من أن يقف سكان البصرة والقرى المجاورة إلى جانب حسين باشا، أرتأوا الالتفاف حول عدوه الجديد.

أدرك ان قواه العسكرية قد ضعفت، ووجد نفسه مرغماً على الانغلاق على نفسه في مقره؛ وبعد ان تضاعفت قوة عدوه في المدينة، فضل الانسحاب إلى مناوي، ومنها إلى بلاد فارس، بعد مرور بضع سنوات، احتل الفرس البصرة، ولكنهم ما لبثوا ان طردوا منها على يد الاتراك، ومنذ ذالك الحين والسلطان يعين باشا من باشاواته حاكماً على المدينة. ولكن حسان باشا، والد احمد باشا الشهير، استغل القبائل العربية الكبيرة لمهاجمة الباشاوات الجدد في الطريق وقتلهم أو ارغامهم على العودة إلى حلب.

(*) تعرف بيار دولا فالي وتافيرنيه على هذين الباشاوين الاخيرين.

وبعد ان رفض الجميع تسلم هذه المهمة، عرض حسان باشا دفع الضريبة العادية، لضم هذه المنطقة إلى بغداد وخضوعها لنفوذها(*).

خلال الفترة التي كان السلطان يرسل فيها الباشاوات من القسطنطينية إلى البصرة، كان يعين فيها رباناً من الاعيان، على رأس ٥٠ أو ٦٠ سفينة حربية، يمنع وصول سفن القراصنة إلى الفرات ودجلة والخليج العربي برمته. وفي سبيل اعالة هذا الاسطول خصصت له ايرادات المناطق الكبيرة في بغداد والبصرة. وبعد ان بسط باشا بغداد نفوذه، وضع يده على ايرادات المناطق المخصصة للربان. فمنح السلطان الباشا حرية تسهيل الأعمال التجارية بحراً. وعيّن الربان موظفاً عنده، فعينه حاكماً على مناوي وأوقف سفنه الحربية على الشاطىء معطياً الأمر لقادتها بإطلاق نيران مدافعهم على الحاكم، ان مر في مركبه غير ان هذه السفن ليست صلبة البناء، علماً انها مطلية بالزفت الذي يستورد من مدينة هيت Het الواقعة على ضفاف الفرات على بعد بضعة أيام شمالي الحلة. ان السفن الصغيرة، التي تتنقل بين بغداد والحلة والبصرة، ليست أكثر صلابة، وان الزفت يتلاءم مع المياه الحلوة، ولكن يقال انه يذوب في المياه المالحة، ولهذا السبب لن تخاطر سفن الربان الحربية بالابحار في الخليج الفارسي. ورغم تكاثر عمليات القرصنة في الفرات ودجلة، قلّما يوليها الربان اهتماماً(**)، غير انه يستدعي الضابط الاعلى، والدفتردار والآجال، وشيخ البندر والقاضي، إلى الديوان، ليعالج المسائل الطارئة.

الدفتردار هو أمين الخزنة، ويخضع في المدن الاخرى لأوامر السلطان مباشرة. أما في البصرة، فهو مجرد موظف في خدمة باشا بغداد يعين سلطان القسطنطينية القاضي أو يقيله من منصبه، ليختار بديلاً عنه، ويقال ان معظم القضاة يشترون شهاداتهم (او فرمان) من غيرهم ويقتبسون اسمه ايضاً. لهذا السبب لا يسعنا القول ان رجلاً نزيهاً شغل يوماً هذا المنصب، وفي انتظار تعيين قاضٍ جديد، يحل نائبه محله، علماً ان هذا الاخير يجيد العربية ويعرف البلاد جيداً، فالقاضي الآتي من القسطنطينية لا يحسن إلا التركية بينما سكان البصرة لا يتكلمون الا العربية.

(*) في نيسان/أبريل ١٧٧٦، تسلم كريم خان حاكم بلاد فارس، زمام السلطة في البصرة، بعد ان حاصرها لمدة طويلة.

(**) يستعمل سكان البصرة سلالاً مستديرة، تعرف بالقفة، ويطلونها من الخارج بالزفت، وهي سهلة الاستعمال، خاصة في المياه القليلة العمق، علماً انها لا تعرض كثيراً، وتدور بسهولة، غير مريحة بالنسبة للاشخاص الذين لم يعتادوا السفر في هذه السلال، بما ان البحار الذي يدفعها، لا يستطيع ان يمنعها من الدوران في وسط النهر، تختلف سفن البصرة عن السفن الحربية، من حيث بنائها، وهي تستعمل لنقل البضائع من البصرة الى بغداد والحلّة.

يعرف نبلاء البلاد بالأجلّاء، أما أكثرهم اجلالاً فكان في تلك الحقبة الشيخ درويش القوسي، من سلالة عالم شهير، يدعى قوس، بنى جامعاً جميلاً في هذه المدينة.

ينتمي المفتي الحنفي إلى هذه الطبقة من النبلاء، ويقال ان هذا المنصب لا يشغله إلا العلماء. غير ان ذلك ليس ضرورياً، اذ قد يحل محله نائباً أو وكيلاً. من ناحية أخرى تخضع لسلطة نقيب الشرفاء، أو رئيس خلفاء محمد كلهم، المقيمين في هذه المنطقة. لسنوات خلت، اختار سليمان باشا احد الاعيان، كمفتٍ شافعي، فخضع له رئيس الاجل، المدعو سعيد درويش ابن سعيد طالب، الذي كان اجداده يرافقون قديماً القوافل إلى حلب، وهو يشغل اليوم منصب قائد للقوافل. علماً انه الاكثر شهرة بين الشيوخ. الذين تمر قوافلهم في هذه المنطقة ويدفعون الجِزْيَة له.

يتمتع الاجل بامتيازات كثيرة، علاوة عن أخذ الحاكم بنصائحهم قبل اقدامه على اي عمل كان. فهم لا يدفعون شيئاً من أرباح أرضهم، خلافاً للرعايا الآخرين الذين يرغمون على دفع الجِزْىٰ على بساتين البلح، مع العلم انها تشكل مصدر ثروتهم. ويحق لهم ايضاً معاقبة الفلاحين، رغم انهم ليسوا عبيداً عندهم. يخضع رجال الدين، ومن بينهم ناظر المدرسة والناسخ، لسلطة المفتي القضائية، كما يخضع الاسياد والشرفاء لسلطة نقيب الشرفاء القضائية، وهما يملكان سجوناً خاصة بهما، يزجان فيها الرعايا الذين يخالفون القانون. عندما يبني احد الاعيان جامعاً، تحتفظ ذريته بحق ادارة هذا الجامع وصيانته، مع اعلام الحاكم بذلك. وتعين رجال الدين في الجامع، لكن ان تفنى عائلة باني المسجد، أو يطالب احدهم بحقه في هذا الملك، حتى يتسلم المفتي الايرادات والمصاريف ويتحول بالتالي إلى متولٍ. قال لي معلم اللغة، الذي كان ناسخاً ايضاً، ان من يقدم التقارير ومن يراجعها من بعده، يجنيان اموالاً طائلة اذ يتقاسمان جزءاً من الأرباح. سمعت المتمولين يشتكون من هذا الامر في مدن تركية أخرى، حيث الجوامع تهدمت جزئياً، إذ من الصعب صيانة الجوامع ان لم تتلق دوماً مساعدات اضافية.

يتمتع الانكشاريون في البصرة كما في المدن التركية الاخرى، بامتيازات كثيرة، منها عدم معاقبتهم أو حبسهم عند اقترافهم الجرائم، كبار ضباطهم يلازمون القرنة برفقة قادتهم، بينما يعين صغار الضباط في فرقهم، عناصر منحلة، ممن يمارسون اللصوصية وغيرها من الأعمال المخلة بالأمن، والتي تسيء للحاكم ولرعاياه من الطبقة الكادحة. علاوة عن ذلك، لا يتخلى المتطوع عن عمله، ويتقاضى راتباً شهرياً، ومبلغاً آخر اضافياً لسهره على الأمن العام. غير انني لا أخال الانكشاري يغالي إلى هذا الحد إلا في غياب باشا بغداد. عند وفاة سليمان باشا، لم يستطع الحاكم منع الانكشاريين، من مهاجمة منازل المسيحيين، والمسلمين الذين لم يطلبوا الحماية منهم. وغالباً ما يشتم اعضاء احدى الفرق، المسلمين أو اتباع الديانات الاخرى، الذي طلبوا

الحماية من فرقة أخرى، وأدى ذلك إلى نشوب خلاف بين الانكشاريين، واندلاع معارك حادة بينهم.

وغالباً ما كان يسقط في اليوم الواحد من ٨ إلى ١٢ قتيلاً، من بينهم اشخاص لا علاقة لهم اطلاقاً بالانكشاريين. وحث هذا الامر الناس على الانخراط في فرقهم، تفادياً لوقوعهم ضحية سخط هؤلاء الحثالة. ولهذا السبب، عرف مسلمو البصرة، جميعاً بالانكشاريين(*).

ولما كان الأجل والانكشاريون يتمتعون بامتيازات كثيرة، يخيل الينا ان الحاكم لا يتمتع بصلاحيات عالية، لكن ان كان نبيهاً استطاع الحفاظ على نفوذه.

غالباً ما يشن الاعيان الحرب على بعضهم البعض، فينهبون القرى التابعة لنفوذ واحدهم الآخر، ان أراد الحاكم ان يدحر أحد معارضيه، إما علناً في الديوان أو في أي مكان آخر، يصبر عليه حتى يغالي في تصرفاته. ولكن الأتراك يعظمون شأن اخطاء الأثرياء أكثر من الجرائم التي قد يرتكبها الفقراء. فيشنقون الفاعل ويصادرون جزءاً من أمواله.

ولا يسع ذوو المشنوق إلا التذمر سراً من طغيان الاتراك. قدم الحاج يوسف اموالاً طائلة لعلي باشا، الذي منحه في المقابل الحق في ابتزاز مبالغ كبيرة من التجار الاخرين، والادعاء انها لحساب الآخر. فأقيل عندئذٍ حاكم بغداد احمد كخيا وعين مكانه حاكماً آخر. ولكنه ما لبث ان أعيد إلى منصبه، حيث بذل قصارى جهده لكسب صداقة الرجل الذي تسبب في الماضي في اقالته. ولكن يوسف لم يضع فيه ثقته، وفضل ان يعين مرافقين خاصين، لإغاثته عندما تدعو الحاجة. غير انه اضطر في أحد الأيام للتعامل مع التفنكشي باشا (او قائد فيلق من المشاة) الذي كان يكن له صداقة عميقة. فأعطاه هذا الاخير الامر الصادر بشنقه. فتم اعدامه في الحال، ورميت جثة هذا التاجر الذي نال حظوة لدى الباشا، وتمتع بحماية رجال الدين له، خاصة بعد أن حج إلى مكة، في مزبلة، واستطاع احمد باشا كخيا جمع الاثباتات ضد الحاج يوسف، وتبرير تصرفاته للشعب، أما علي باشا، فكان يشعر بسرور عظيم، خاصة وانه استعاد المفتي الف قرش التي كان يدين بها للحج يوسف، فضلاً عن استيلائه على جزء كبير من أموال هذا المسكين.

ابتز الحاكم نفسه مبلغاً كبيراً من المال، من تاجر أرمني، لإقدامه على خطوة نالت اعجاب حكام اوروبا كلهم. وإليكم ما جرى: بنى الأرمني على حسابه جسراً من الحجارة، فوق احدى القنوات المجاورة للمدينة، ورمم الطريق العام، الذي كان يتعذر سلوكه في الشتاء نظراً لإهمال

(*) عرفوا ايضاً بالبينكجارين، ولكن لفظة Janits مقتبسة وسهلة الحفظ. ولهذا السبب استعملت ايضاً عبارة Mosquée. فالمسلمون يسمون معابدهم الصغيرة مساجد، والكبيرة منها جوامع.

الحكومة له. وكان قد طلب مسبقاً الإذن من الحكومة، ولما لم يتلق فرماناً، دفع ثمناً غالياً ثمن تصرفاته. ففي تركيا، غالباً ما يجبر الاشخاص الذين يشيدون اضرحة جميلة، على اقراض الحكومة مبلغاً من المال، دون ان تعيده لهم لاحقاً. فلا عجب اذن ان لم يظهر الاثرياء من الأتراك كرماً بالغاً. من جهة أخرى، يتميز جهاز الشرطة في البصرة بفعالية: فرغم ان اكوام القمح لا تغطى بالحصائر في السوق، لم نسمع ابداً عن عملية سرقة من أي نوع كانت.

من الصعب الحصول على رقم محدد لعدد السكان في بلاد الشرق، خاصة وانهم لا يضعون فيها لوائح بالولادات والوفيات. فان حاولنا الاستعلام عن الموضوع من السكان، اجابوا ان عددهم يبلغ الملايين. غير ان عدد السكان ليس كبيراً جداً، كما يسري الاعتقاد في اوروبا، تضم البصرة حوالي ٧٠ محلة أو حي. بعضها يضم ٣٠٠ أو ٤٠٠ منزلاً. وبعضها الآخر ١٠ أو ٢٠ منزلاً أما المحال الاخرى، فتضم بساتين نخيل ومقابر كبيرة. أكد لي سكان المدينة، ان كل محلة تضم حوالي ١٠٠ منزل فان حسبنا ان كل منزل يحوي سبعة أشخاص، بلغ عدد السكان الاجمالي اكثر من ٥٠ ألفاً. لكن إن حاولنا احصاء السكان لما تجاوز عددهم الاربعين الفاً. يعتبر المذهب السني المذهب المهيمن في هذه المدينة. خلال الحرب الاهلية في بلاد فارس، وصل عدد كبير من اهل الشيعة إلى المدينة، ولما كان السنة يكرهون هؤلاء الاخرين شديد الكره، عرف معظم الشيعة بالسنة. ويبدو ان مسلمي هذه المنطقة لا يدققون كثيراً في مسألة الواجبات الدينية. ولا يتوانى الاثرياء عن الصلاة خمس مرات في النهار، كي لا تتهمهم الحكومة بإهمال دينهم، ان لم تجد تهمة أخرى توجهها إليهم. والجدير ذكره انه قلما يهمها أمر ممارسة الفقير واجباته الدينية أو اهمالها لها. من بين مسيحيي الشرق كلهم، تعد رعية الأرمن الأكثر عدداً، علماً ان معظم افرادها اتوا إلى هنا من بلاد فارس. أما عدد الصابئة فضئيل جداً، ولا أحد يعيرهم اهتماماً. اعطاني احد الحدادين نسخة عن ابجديتهم (اللوحة II قرب (ط)) بينهم(*) نجد في البصرة ايضاً عائلات بانيانية وهندية. ومن بين الامم الاوروبية كلها، يمارس الانكليز تجارة الجوخ الاوروبي، والنسيج البنغالي والاقمشة على انواعها من سورات. يقيم في هذه المدينة مستشار انكليزي من بومباي، يرافقه عدد من رجال الدين، اما المستشار الفرنسي فقد رحل عنها بعد أن توقفت حكومته عن إرسال أجر محترم له. والجدير ذكره ان الهولنديين لم يقيموا ابداً في هذه المدينة، علماً ان التجار يجلبون التوابل والعقاقير من خارج. نجد في البصرة عدداً كبيراً من الايطاليين، الذين يمارسون الاعمال التجارية عبر حلب باتجاه البندقية وليفورن. فضلاً عن كاهنين كاثوليكيين رومانيين، بنيا

(*) في كتاب وصف رحلات غريبة الصادر من باريس، نجد ابجدية الكلدانيين والصابئة أو مسيحيي القديس يوحنا، التي لا تختلف عن تلك التي نقلتها. اما نسخة كامبير، فمختلفة تماماً وبعيدة تماماً عن الصحة.

كنيسة صغيرة، شبيهة بتلك التي شيدت في ظل حكومة حسين باشا، والتي انهارت كلياً.

تمتد الصحراء الكبيرة من سفح اسوار البصرة، وتمتاز تربة هذه البقعة بخصوبتها شأنها شأن التربة التي تغطي ضفتي النهر، حيث تكثر بساتين النخيل، وحقول الأرز. ولا ينقص في هذه البقعة، سوى قنوات المياه، التي نشاهد مثالاً عنها جنوبي غربي المدينة. لثلاثين أو اربعين سنة خلت، كانت تقع في هذه المنطقة قرية كبيرة، لم يتبق منها اليوم الا صرحاً صغيراً يعلو ضريح ولي مسلم ويغطي المنطقة الممتدة إلى الزبير، الملح الذي يستعمل في الأكل، خاصة في البقع التي بنيت فيها سدود صغيرة، لجمع مياه الأمطار وتبخيرها.



موقع مدينة البصرة القديمة

تقع مدينة البصرة القديمة، التي اشتهرت في ظل حكم الخلفاء الاولين، على بعد ميلين جنوبي غربي المدينة، التي تحمل اليوم هذا الاسم، وفي منطقة رملية شاسعة، ونجد ههنا بقايا سور من اسوار المدينة، يبلغ محيطه فرسخين، فضلاً عن أسوار جامعي علي البرمكي وسفران، وأضرحة الحسن البصري الشهير، والزبير، وابن علوان وطلحة، وابن عبيد، وغيرهم من الحكماء الذين دفنوا في البصرة.

يكره اهل الشيعة هؤلاء العرب الشهيرين، لأنهم خرقوا عهد الوفاء مع امامهم الكبير، وحاربوه من اجل عائشة. أما أهل السنة، فيكنون لهم كل احترام، لأنهم تطوعوا كضباط في جيش محمد، وندموا كثيراً، قبل وفاتهم، لمقاومتهم علي، صهر محمد، والخلفاء الذين جاؤوا من بعده. تعلو أضرحة هؤلاء العرب منازل حجرية شبيهة بتلك التي تعلو أضرحة الأولياء الآخرين، ويقال ان الفرس دمروا هذه المنازل، زمن الهجرة (١١٥٦)، حين حاصر نادر شاه مدينة البصرة التي نعرفها اليوم. ولكن اهل السنة اعادوا بناءها بعد انسحاب العدو من المدينة. ومما لا شك فيه ان العجائب التالية، حصلت في ما بعد، استناداً لكلام رجل دين مسلم من الزبير، اضاع رجل حماره خلال سفره من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة، فشكا همه لبعض العمال قرب ضريح طلحة، علماً انه جاب الصحراء كلها دون ان يتمكن من العثور على حماره. فحزنوا لأمره. وراحوا يشاركونه الصلاة، والدعاء، حتى يعيد الولي له حماره. عندئذٍ، رأوه آتياً صوبهم بعجلة، وكان احدهم يلحق به حاملاً سوطاً في يده. انهارت القبة الجديدة، التي بنيت فوق ضريح الحسن البصري، للمرة الثانية. فظهر اثر ذلك الولي لأحدهم في الحلم وأكد له انه لا يريد قبة فوق ضريحه، بل برجاً صغيراً، على أن يوضع رأسه قرب الجدار، حتى يتمكن الناس من الدوران حول الضريح(*). دفن الزبير قرب جامع جميل تعلوه مئذنة. وأكد لي امام هذا الجامع، الذي اخبرني هذه القصص كلها، ان الزبير رد عليه مرة التحية. فسألت الشيوخ الاخرين، ان رد عليهم الأولياء السلام، فأجابوني بتواضع وخشوع. إنهم خطأة ولا يستحقون هذه النعمة. وأراني الامام الشجرة الذي فقد تحتها الزبير حياته، استناداً لتاريخ العرب. وعلى مقربة من هذه المدينة القديمة نجد ضريح المدعو عبد

(*) تشاهد قرب هذا الضريح، قبة تعلو قبر المدعو محمد بن سيرين الذي يجله المسلمون كثيراً.

الله بن عباس، الذي كان والده بواب محمد(*).

لما كان المسلمون يفضلون ان يدفنوا قرب اوليائهم، تنقل جثث الموتى من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة. كانت المدينة مهدمة كلياً، إلى ان اعيد بناء بعض المنازل قرب ضريح الزبير، منذ ٣٠ أو ٤٠ سنة، ومنذ ذلك الوقت عرفت البصرة القديمة بالزبير منذ ثماني أو عشر سنوات، تمركز في هذه المدينة عدد كبير من السنة، الذين طردوا من نجد على يد عبد الوهاب مؤسس احدى الديانات الجديدة، ولهذا السبب تعد الزبير مدينة صغيرة، خاصة بعد ان بني فيها مسجد جديد علاوة عن ذلك الذي تحدثت عنه آنفاً.

لم استطع ان أعرف في الزبير متى دمرت البصرة القديمة وفي أي ظرف. يقول الامام الذي تحدثت عنه اعلاه، ان عاصفة قوية اقتلعت المنازل والجوامع، فأعاد السكان بناء البصرة الجديدة. لكن يبدو لي ان انحطاط هذه المدينة كان ثمرة سوء حكم المسلمين، الذي دفع بسكان بلاد الكلدان إلى النزوح منها. نشاهد في البصرة القديمة، مجرى نهر جاف، أو قناة مجوفة، يسميها العرب جاري زاد أو حاثازاد. كانت مياه هذا النهر تنبع من بلدة هيت Het، التي تقع على بعد ستة أيام شمالي الحلة، ومن الفرات في الكوفة، ليصب على بعد ثلاثة أميال في خليج غورابديلا (اللوحة XL). يقول العرب ان ضفتي القناة كانتا محددتين بالأشجار، وان مياهها ساهمت في تحويل هذه الارض إلى بقعة خصبة. ولكن مياه القناة جفت منذ عدة سنوات وتحول هذا البلد الخصب إلى ارض قاحلة لا يقطن فيها الا العرب البدو. فلا عجب اذن، ان ينزح اهل البصرة عنها، عندما جفت مياه النهر، كما وان سكان القرى المجاورة انتقلوا إلى ضفاف الفرات، حيث المياه غزيرة جداً(**).

(*) هذا من الخلط المستشري عبر الكتاب. (الانتشار).

(**) مما لا شك فيه ان قناة جاري زاد هي نهر بالاكوباس اليوناني، الذي اجتازه الاسكندر الكبير ليصل الى بابل، قبل وفاته بوقت قصير، وقد اتى آريان على ذكر هذا الامر في كتابه السابع.

كم يسرني ان يجتمع اهالي هذا البلد ليحفروا قناة طولها يوازي مسيرة عدة ايام، كي تحوّل هذه الصحراء الى ارض خصبة. ومما لا شك فيه ان عدد سكانه كان مرتفعاً جداً، اذ لا يعقل حفر نهر بالاكوباس. قبل انتهاء اعمار بلاد ما بين النهرين. عند وصول المسلمين الى هذه المنطقة، كان النهر في حالة جيدة، خاصة وان مدينتي الكوفه والبصرة الشهيرتين كانتا تقعان على ضفافه، ولما دمرتا منذ عدة قرون، اظن ان حكومتيها قد اهملتا الاعتناء بهما، كانت مياه الفرات تصب في بحر باهر، عبر نهر بالاكوباس. ونجد بين السماوة والحلّة مستنقعات كثيرة تغرقها مياه الفرات؛ ويبدو ان الاسكندر قد سلك هذا الدرب في طريق العودة. كان الناس اذن يخلطون بين نهر الفرات والبالاكوباس، ونجد سواعد عدة تمر في وسط البحر الابيض المتوسط القديم، قرأت في مذكرات انكليزي سافر من حلب الى البصرة، انه شاهد على بعد ٤٤ فرسخاً جنوبي شرقي هيت، قرية مهجورة تماماً، يبلغ ارتفاع اسوارها ٥٠ قدماً وسماكتها ٤٠. اما الجهات الاربع، فيبلغ=

استناداً إلى تاريخ كربلاء، وقعت المعركة الشهيرة بين علي وعائشة، على مقربة من البصرة، ولكن سكان الزبير، لم يحددوا ساحة المعركة بدقة. رغم انهم يدعون انها وقعت في وادي سعيد سبان. بين البصرة وجبل سنام، حيث نجد قرية كويبدة، التي يسميها العرب اليوم خربية.

تتميز البصرة بتنوع اجناس التمر التي تنمو فيها. ويقسمها العرب إلى نوعين(*) نوع بارد، مفيد للصحة ونوع حار مضر بها. وهذا يعني ان النوع البارد طعمه لذيذ رغم ان سعره مرتفع بعض الشيء، بينما النوع الحار، متوفر بكميات كبيرة، ويشكل غذاء الطبقة الفقيرة الاساسي. أما التمر الحنتاوي فهو الافضل بين كافة الانواع، إذ لا يضر أبداً بالمعدة، حتى وان تناولنا كمية كبيرة منه.

أما التمر الزاهدي، الذي يعد من أشد انواع التمر في البصرة، فهو يرمى للمواشي أو يصنع منه شراباً مسكراً. وحدهم الفقراء الذين لا يستطيعون تأمين طعام أفضل، يتناولون هذا النوع من التمر غير ان سكان بغداد لا يحتقرون هذا النوع من التمر، لأنه ينمو بكثرة في ارضهم، واذكر من أنواع التمر الاخرى التي تنمو في هذه المنطقة، الحلاوي والاستعمران والشكر، والجوزي، والدبري والخصاب، والخضراوي والاشرصي والبريم، والمكتوم (بعضه أحمر وبعضه أصفر) القنطار، الاواوي، تمر بنت السبع، الخنبزي، اصابيع العروس الدقل (بعضه احمر وبعضه اصفر)، الجوزي الاشكر، الشيص، المعضاد، البمكي، القصيب، الابراهيمي. يستعمل هذا التمر لصنع الدبس، الذي يأكله العرب مع الخبز، والجدير ذكره ان الحلاوي هو الافضل لصنع هذا الشراب المسكر. اما لب التمر فيرمى للماشية. قرأت في أحد الكتب ان عرب البصرة، يزرعون في الارض لب التمر بشكل هرمي، ولا أظن ان احداً يلجأ اليوم إلى هذه الطريقة لزراعة الأشجار. تكثر في هذه المنطقة بساتين الفاكهة، علماً انها تعاني من نقص في الخشب.

في الفصل الحار، ترتفع الحرارة في هذه المنطقة ارتفاعاً شديداً، حتى أن البعض يقعون ارضاً في الشارع من شدة الحر، كما وان الهواء ليس منعشاً نظراً للمستنقعات التي تحيط بالمكان، والاقذار المتناثرة في المدينة نفسها. خلال شهر آب/أغسطس، هبت الرياح الجنوبية الشرقية لمدة

- طول كل منها ٧٠٠ قدم. علمت لاحقاً ان العرب يطلقون على هذه القرية المهجورة اسم الخضر، وانها تقع على بعد عشرة فراسخ من مشهد علي، وان اهلها نزحوا عنها بسبب افتقارها الى المياه. ولما كانت تبعد كثيراً عن القرى والمدن المحيطة بها، لم يستطع احد نقل حجارتها واستعمالها في تشييد الابنية الجديدة، كما حصل في البصرة والكوفة. يبدو ان بلينيوس وغيره من المؤلفين قد اسموا نهر بالاكوباس الفرات.

(*) سمعتهم في بغداد يتحدثون عن التمر الشفتاوي والزهدي، واصابع العروس، والدقل، والابراهيمي والبدري والاواوري، والسعدي، والبرنان، وكوفي الشرمسي، وأم فاتل ومراسا، والمكاري.

خمسة أو ستة أيام بينما استمرت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية خلال الايام الاخرى، يتأثر الجسم البشري بالحر عند هبوب الرياح الجنوبية الشرقية. لأنه يتصبب حينها عرقاً. أما في النصف الاخير من شهر تشرين الاول/أكتوبر، فكانت الرياح شديدة التقلب، ففي السابع من تشرين الاول/ أكتوبر، ظهرت بعض الغيوم، التي تكاثرت في ٢٧ منه، حاملة معها فصل الشتاء.

تقيم قبيلة كعب العربية، التي تحدثت عنها في وصف شبه الجزيرة العربية شرقي شط العرب، وتتولى زمام الامور في المنطقة، ولا يقيم افرادها في الخيم، كما يفعل عرب الصحراء بل في مدن وقرى، شأنهم شأن عرب شرقي الخليج الفارسي، كان الشيخ سليمان، الحاكم الحالي للمنطقة، سيداً على مقاطعة صغيرة، تخضع لنفوذ بلاد فارس، لكن خلال الحرب الاهلية، استطاع ان يضع يده على مقاطعات صغيرة اخرى. وبعد ان اجتاح منطقة البصرة، تابع تقدمه باتجاه الشط ليبلغ منطقة دواس، على الجهة الغربية للنهر؛ بعبارة أخرى، استطاع بسط نفوذه على اقليم فارسي شاسع، وعلى جزر ومصبات شط العرب، التي كانت خاضعة في السابق لحكومة البصرة. ولكنه لم يدفع شيئاً لكريم خان لأنه كان يقيم في منطقة بعيدة جداً عنه. ولما طالبه هذا الاخير بدفع الجزية، ادعى انه لا يملك مالاً، لأن الأتراك، يبتزونه؛ ولما طالبه باشا بغداد بالمال، تذمر ايضاً من الفرس: فقد كان يرشو أعيان مدينة البصرة، حتى يغضوا الطرف عن استيلائه على القرى، الواحدة تلو الأخرى. من جهته، رفض الحاكم شن الحرب على سليمان، خاصة وان هذا يدفع له مبالغ طائلة، ولا اخاله قد يدفع قرشاً واحداً للحاكم الجديد ان لم يسلم له بعض القرى أو يعلن الحرب عليه.

شن باشاوات بغداد حملة عليه، فارتأى دفع الجُزىٰ واعلان نفسه تابعاً للأتراك أو رشوة الشيوخ العرب، وإلهاء الباشا. واتخذ قبان (مدينة صغيرة على الساعد الشرقي للشط) مقراً له، وبنى سداً عالياً على الساعد الاخر، لتحويل مياه النهر وجعلها صالحة للملاحة. العام ١٧٦٥، كان يملك عشر سفن حربية و٧٠ مركباً صغيراً للاستيراد والتصدير. في المقابل، كان نفوذ حاكم البصرة يتقلص من سنة إلى أخرى؛ وخلال اقامتي في تلك المنطقة، كان عاجزاً عن مواجهة هذا الشيخ الصغير.

قرر كريم خان الذهاب بنفسه لجلب جزية الشيخ سليمان، فدخل تلك السنة، على رأس جيش كبير، إلى مناطق نفوذه، دون ان يحقق أي انتصار يذكر، على غرار قائده الآمر كنيخ خان، خلال مواجهته مير مهنا. كان سليمان يتنقل من جزيرة إلى أخرى، على متن سفنه مخلفاً وراءه مدناً وقرى خالية كلياً. وكان من الصعب على كريم خان الوصول إلى الجزر، وبعد ان بذل جهداً كبيراً، تمكن من الوصول إلى احداها ولكن بعد أن هجرها سليمان. وفي نهاية المطاف انسحب إلى غربي شط العرب، في ظل حكومة البصرة.

أبلغ كريم خان حكومة هذه المدينة انه من الأفضل لها مد يد العون له، والقضاء على قوات الشيخ سليمان. فوعده الحاكم بتلبية طلبه، رغم انه كان يحتج دوماً بانتظاره وصول السفن والجيوش من بغداد. مما لا شك فيه ان سليمان نجح في استمالة حكومة البصرة ورشوتها؛ أو لعلها كانت تفتقر للمال اللازم لشن الحرب عليه. ولما لاحظ الفرس ان الاتراك لا يسعون لمساعدته، سحبوا جيوشهم، تاركين للعرب عناء استرجاع مناطقهم.

بعد ان أقدم كريم خان هذه السنة على طرد متمردين من مناطق نفوذهم سمح لهما بالعودة اليها. علماً انها في حالة يرثى لها، اذ نزح عنها اهلها. وتوقفت الاعمال التجارية فيها. وبعد ان ترك كريم خان حامية من الجند في مدن الشيخ سليمان، اضطر لتزويدها بالمؤن والذخائر اللازمة لمتابعة هذه الحرب المستديمة والتي لن يجني منها شيئاً. ولا شك ان سليمان دفع مبلغاً كبيراً للفرس، حتى لا يلحقوا به ضرراً لا يعوض.

حرب بين أهل البصرة والعرب

ادعى الأتراك انهم قادرون على استعادة الاراضي التي سلبها منهم الشيخ سليمان، وعلى تدمير جيوشه كلها، فشنوا عليه هجوماً بالاتفاق مع كريم خان؛ ولكن عقائدهم الدينية، تفرض عليهم تقديم العون للعربي المضطهد، وايوائه هو وجيوشه، في ارضهم. ولكن سليمان رفض الانسحاب من اراضي البصرة، وفضل ان ينتظر جني التمر، فأصدر باشا بغداد الامر لسكان البصرة، بإعلان الحرب على هذا العربي الخائن، والاستيلاء على مناطق نفوذه. كان الحاكم يملك فوجاً من الخدم، وفوجين من المشاة (براتولي وتافنشكي)، ولكنه ارتأى ان يجند مجموعة أخرى من الرجال، قبل بدء المعارك؛ بعبارة أخرى جمع الحاكم أربعة أو خمسة الاف رجل، ليهاجم سليمان المقيم في دواسر، الواقعة غربي شط العرب، برفقة ١٤ أو ١٨ رجلاً. (يرجى مراجعة اللوحة XL).

عند خروجهم من المدينة، كان الجند يظهرون شجاعة بالغة، ولكنهم بذلوا جهداً بالغاً ليقطعوا عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً، علماً ان الحاكم كان يبعد عن جيوشه حوالي الفرسخين. كان اسطول القائد باشا، يتألف من عشر سفن حربية، ومراكب صغيرة اخرى لنقل الجنود والمؤن. وكان الأتراك يعتمدون على مركب تجاري انكليزي، اعاره لهم المستشار الحالي، وعلى سفينتين حربيتين يقودهما ربانان انكليزيان. حطت الفرق الامامية رحالها على الضفة الغربية لشط العرب، قبالة الرأس الشمالي لجزيرة محرزي، وألقت بعض سفن الاسطول مراسيها على شواطىء الجزيرة نفسها، علماً ان سفن العدو الحربية كانت راسية قرب رأس الجزيرة المذكورة. كان الحاكم قد نصب خيامه على بعد فرسخين من المدينة، بينما ألقى القائد باشا المرساة على مقربة منه. لما

كان الأتراك يفتخرون بأسطولهم البحري وفرق المشاة التابعة لهم، ناموا في الليلة الاولى ملء جفونهم، ولكن عندما دقت الساعة منتصف الليلة، تسللت سفن سليمان إلى وسط اسطول القائد باشا فاستيقظ الاتراك مذعورين، وغادروا سفنهم بسرعة البرق. استنفرت قوى الحاكم في المخيم، دون ان تتاح لها فرصة الاستعداد للمواجهة، اذ انسحبت سفن سليمان، وأخذت معها المراكب الحربية الثلاث. في اليوم التالي اجتازت هذه السفن الاسطول التركي، ونهبت القرى المجاورة للبصرة، واستولت على بعض المراكب الصغيرة، ولكن سليمان كان يتردد في الذهاب بعيداً في حربه مع البصريين، فعقد اتفاقاً معهم يقضي بأن يدفع لهم مبلغاً كبيراً من المال، وعادت على اثره الجيوش إلى البصرة، بعد مرور ١٨ أو ٢٠ يوماً على رحيلها عنها.

استناداً إلى سياسة الوكيل الانكليزي، لن يسيء الشيخ سليمان الظن بأهل أمته، علماً انه أعار البصريين احدى سفنه، وأرسل لهم عدداً من رجاله ليقودوا مراكبهم الصغيرة.

وفي المقابل، يقول سليمان ان الانكليز والاتراك هددوا سلامته وحاولوا شن هجوم عليه، وانه تصالح مع الأتراك وليس مع الانكليز، الذين لم يأت على ذكرهم في الاتفاق الذي وقعه معهم. ارسل الوكيل يخته الصغير من الخرج إلى الشيخ سليمان، دون ان يتعرض له رجال سليمان، ولكن في منتصف شهر تموز/يوليو، وصلت سفينة من مدراس إلى الشط، وشاهد الربان مراكب صغيرة كثيرة تجتاز النهر ولم يخطر في باله انها تابعة للعدو. لاحظ رجال سليمان ان الانكليز ليسوا مستعدين للمواجهة، فهجموا على السفينة ووضعوا يدهم عليها. قبل ان يتمكن الربان من مغادرة حجرته(*). كانت السفينة الانكليزية، التي رافقت اليخت من الخرج قد بلغت مصب النهر، وصادف رجال الشيخ سليمان، الذين ارادوا نقل السفينة إلى مرفأ قبان على الساعد الشرقي، اليخت الذي يسبق السفينة، فاستولوا عليه ايضاً. ولما شاهد الربان الثالث هذين المركبين الانكليزيين مصحوبين بالسفن الحربية، خطر له انهما وقعا في الاسر، ففضل العودة إلى الخليج الفارسي، حيث يستطيع التحكم بمركبه بصورة افضل، ولكن لسوء حظه وقع على الرصيف الذي يطل على المصب فانتظر العرب فترة طويلة حتى ينخفض مستوى المياه، وينقضوا على السفينة، ويسجنوا البحارة، وينقلوا الاسطول كله إلى قبان. لم يتوقع الوكيل الانكليزي ان يقدم سليمان على هذا التصرف. فأجرى مفاوضات طويلة لاستعادة هذه السفن، وفي نهاية المطاف وضع نص اتفاق رفض سليمان التوقيع عليه، إلا بعد موافقة حكومة بومباي عليه. وفي هذه الاثناء أرسل ربابنة السفن إلى البصرة، بعد مضي ثلاثة أسابيع على احتجازهم، أما البحارة فأطلق سراحهم لاحقاً.

(*) وحدهم الضباط كانوا من الاوروبين اما البحارة فهم من الهنود.

يروي الانكليز قصصاً عديدة تثبت جهل العرب للعادات والتقاليد الاوروبية، ومنها القصة التالية: لاحظ ضابط من ضباط سليمان ان أحد الربابنة ينظر إلى ساعته. فطلب منه أن يريه هذه الآلة الغريبة، ولما لاحظ ان شيئاً ما يتحرك في داخلها، وضعها في دلو ماء ليغرق هذا الحيوان. وبعد ان ادرك ان الساعة لا تزال تعمل، رماها أرضاً. فراحت تتفكك قطعها كلها، فخاف العربي منها ورماها في الماء.

بعد ظهر ٢٤ آب/أغسطس، شاهدنا ثماني سفن حربية تابعة للشيخ سليمان، تجتاز النهر. فوضعت المدينة في حالة تأهب. ولما كان الحاكم يخشى ان يرسي العرب السفن الحربية امام منزل القائد باشا، أو ان ينزلوا جيوشهم في المدينة، انتقل ليلاً برفقة رجاله إلى مناوي. في اليوم التالي، علمنا ان رجال سليمان نهبوا قريتين صغيرتين، تابعتين لشيخ قبيلة المنتفق، وأضرموا النار فيها؛ كان هؤلاء العرب يقيمون حالياً بين البصرة وعرجة، وهم يدفعون حالياً الجزية لباشا بغداد، ويعيشون بسلام مع البصريين. أظهر عبدالله، شيخ القبيلة الحالي، استياءه من تصرف سليمان، واستعد للانقضاض على بلاده. فدعى الحاكم للمشاركة في حملته هذه، وقبل ان يصله رد الحكومة التركية، تمركزت جيوشه امام المدينة، وكان بعض العرب يعبرون النهر في زوارق صغيرة، برفقة نسائهم واولادهم، بينما يمر البعض الاخر امام المدينة على ظهور الجمال، حاملين اكياساً فارغة، ومتوجهين نحو بستان النخيل الواقع على الطرف الجنوبي، من البصرة.

عاد سليمان برفقة سفنه الحربية إلى المدينة، بينما تراجع الحاكم، إلى مناوي، ولكن سليمان لم يكن ينوي انزال جيوشه حيث يتوقع ان يلقى معارضة، فبدأ بجمع التمر من القرى المجاورة، إلى ان بلغ اقصى الجنوب؛ في المقابل، كان عرب قبيلة المنتفق يجمعون التمر من الجنوب إلى الشمال، في البصرة. في ١٠ تشرين الاول/أكتوبر، تابع عرب قبيلة كعب الطريق، بينما عاد عرب المنتفق إلى ديارهم، فلحق بهم البصريون، ليجمعوا التمر الذي تركه جيرانهم. فبدا لنا واضحاً ان الشيخين عبدالله وسليمان قد اتفقا، بين بعضهما، على جمع تمر الرعايا الأتراك، رغم ان عرب قبيلة المنتفق أرادوا ان يثبتوا صداقتهم للبصريين وكان يصل يومياً إلى المدينة اناس يتحدثون عن المناوشات التي وقعت بينهم وبين عرب كعب، لمنعهم من نهب بساتين النخيل، حتى ان الشيخ عبدالله ارسل إلى الحاكم رأسين كان سكان البلدة يفتخران بهما كثيراً. لم يتجرأ أهل المدينة على التعبير عن رأيهم في الحرب، فهم يعتقدون ان العرب اقتطعوا رأسي رجلين مريضين. في هذه الأثناء، كانت الحكومة التركية راضية كل الرضى عن النجاح الذي حقق، لأنها كانت تخشى ان تهاجمها قبيلة المنتفق من جهة وقبيلة كعب من جهة أخرى. في نهاية الامر تقاتل عربي من المنتفق مع جندي من جنود الحاكم وارداه قتيلاً، فأبى السكان ان يقبلوا بهذه الاهانة في عقر

دارهم، فتجمعت الفرق العسكرية كلها كافة، وتعاونت في ما بينها لطرد العرب من المدينة.

يدفع الاوربيون الذين يمارسون التجارة في البصرة ثلاثة بالمئة من رسم المرور على البضائع التي يستوردونها من الهند، أما تجار الدول الشرقية فيدفعون ٧٠ بالمئة علاوة عن الضرائب التي يدفعونها لضباط الجمرك على بضائعهم. وهذا يعني ان الحكومة خسرت الكثير من المال نظراً لعدم وصول هاتين السفينتين القادمتين من الهند، فبذلت قصارى جهدها لإرغام سليمان على اعادتهما لها. فتقدم سيد من أعيان بغداد، قبض منذ بضعة أشهر ٦٠٠ ريال من سليمان ليتوسط له امام الباشا، ليلعب دور السفير. فوصل إلى البصرة في اواسط شهر تشرين الاول/أكتوبر وتابع رحلته دون توقف باتجاه قبان. لكن سليمان ادعى عدم معرفته به. ولما ذكره السيد بالخدمة التي اداها له، وبالمبلغ الذي قبضه منه، رفض العباءة الثمينة التي ارسلها له الباشا، تعبيراً عن سلامة نيته. وقال ان العباءة تليق بالشيخ العربي اكثر من الخادم التركي، خاصة ان كان مرسلها شخص يعمل في خدمة السلطان. بعبارة أخرى، كان استقبال سليمان للسيد سيئاً للغاية؛ إلى حد ان هذا الاخير اضطر للعودة على الفور إلى البصرة. في ٢٦ تشرين الاول/أكتوبر وصل سفير آخر للباشا، ويدعى عبدالله بك، وهو عربي الاصل، كريم النسب، يعمل في خدمة باشا بغداد، ويحبه العرب أجمعون. في بداية الامر، بعث رسولاً إلى قبان ليعلم سليمان بوصوله، وفي ٢٨ منه، انطلق برفقة الشيخ درويش، أحد أعيان مدينة البصرة، فاستقبلهما الشيخ سليمان بكل حفاوة، دون ان ينالا منه أكثر من الاطراء.

لما كان الباشا قد عظم من شأن سليمان، بإرساله ضابطين كريمي النسب لمقابلته، طلب من مستشاره الخاص ان يرافقهما إلى بغداد على أمل ان يتفاوض مع سيدهم للتوصل إلى اتفاق. واظن ان هذا الامر يعد اهانة كبيرة للباشا الذي يحكم بلداً يفوق كافة الممالك الاوروبية مساحة، هذه هي نقاط ضعف الحكومة التركية في المقاطعات النائية.

عم الحزن البصرة هذه السنة، ففي فصل الخريف كانت تستقبل عادة حوالي ٥٠ مركباً من مرافيء عمان كافة، محملة كلها بالبن من المخا والحديدة. وأرغمت السفن الاولى على دفع رسوم مرور باهظة للشيخ سليمان، كي يسمح لها بمتابعة رحلتها إلى البصرة، كما وانها ارغمت على شراء التمر في طريق العودة. وعندما بلغ خبر الاحداث التي وقعت على شط العرب مسامع سكان مسقط، افرغت المراكب الصغيرة البن، الذي حمل في سفينة حربية تابعة لاسطول الامام. ورغم انها تمكنت من الوصول بسلام إلى بوشهر، لم تجرؤ على المضي في رحلتها. في السنة التالية، علمت ان السفينة المذكورة افرغت حمولتها كلها في احد مخازن الخرج، لتقع بعدها اسيرة مير مهنا.

الطرق المؤدية من البصرة إلى حلب عبر الصحراء

ان اقصر طريق من البصرة إلى حلب تمر في الصحراء، غير اننا نصادف في الطريق قبائل عربية كثيرة، تدعي كل منها السيادة، والحق في المطالبة بهدايا من الرحالة؛ لهذا السبب لا يجتاز احد هذه الطريق الا برفقة قافلة كبيرة. خلال اقامتي في البصرة، كانت الاعمال التجارية ضعيفة للغاية، وعدد التجار الذين يسافرون في القوافل ضئيلاً للغاية. لذلك اضطررت لسلوك طريق آخر. ولما اتيحت لي فرصة التعرف على بدوي قطع عدة مرات الصحراء من البصرة إلى حلب، سأذكر لكم المناطق الواقعة على هذه الطريق، كما سمعتها منه.

يبدأ الطريق بمنطقة زبير، كويبده شكره، الخفة، القصير (قصر متداعٍ) وادي ابو المريس عيون صيد، وهي عبارة عن بركة بنتها زوجة احد الخلفاء، الغضاري، جرتمي، القايم أو الاثلة، رهامة، في جوار مشهد علي، الطقطقانة، أو الحباضة، الحسين، الاخيضر (حصن قديم تحدثت عنه سابقاً) رأس العين، تمبل، الكبسة، عقلة، حوران، تغب الجاموس، المانعي، الرتقة، البردان، رشبا، (حصن قديم على الفرات) جب غنم، الحمض، جبل بشير، العزمة، الطيبه، (دمرت القرية التي تحمل هذا الاسم منذ ٢٠ أو ٣٠ سنة)، قصر الشوان، قاع، ابو الفياض، عنز الروثة، صهاريج، جبل شبيبة، لحاس، حقلة عين سفيرة، أو عين ذهب، حلب(*).

وإذا كان هذا الطريق محفوفاً بالمخاطر سلكت القوافل طريقاً مختلفاً، على ان تتزود بكمية كافية من المياه، فتعبر بعد مغادرتها البصرة، الزبير، وكويبدة، وشكرة، والخفة، والكوس، وسلمان والأثله، وقطري، والبذي، وحجرة، محبوز والقعر، وصواب، والصرايم، والضخه، وبير قديم، وابو الفياض والحمام، وجبل الاحص وحقلة وسفيرة وحلب في طريقها من بغداد إلى حلب، تعبر القوافل في غقرقوق، والهيس، والفوجه، والوحلة، وام الروس، صبنديج، هيث، المعميرة، عين الارنب وعقلة حوران.

(*) نشاهد هذه الطريق على خارطة السيد كارميشال، وفي الجزء الثاني من كتاب «رحلات» لايف، وهي تضم ايسابر (بدلاً من الزبير) وكيبدة (كويبدة) وشاغارا (شكرة) وكانغا (الحنفة) بطن قصار (بطن قطان) عبدة موريس (ابو المريس) جرسم (جرتمي) ركمة (رحمة) تكدغانا (التكتغان) القادر (الشادر) عويل راسلين (رأس العين) تامل (تامل) كباس (قباس) اغلت حوران (اكلة حوران) توباك جاموس (تبغ جاموس) مانوفال (المني) جبل غارن (جب غانم) جبل بشير لهوس (لاهاس) هاغلا (حقلة) عن ذهب (عين ذهب).

مما لاشك فيه ان الرحلة في الصحراء ليست مزعجة أو محفوفة بالمخاطر، خاصة ان كان السلام يسود بين القبائل العربية، أو بينها وبين الاتراك، وان كان قائد القافلة رجلاً شريفاً وان كان المسافر يفهم لغة البلاد، ويحبذ طريقة عيش الشرقيين. لاحظ القارىء، في الصفحات السابقة، ان الحروب تنشب بسرعة في هذه البلاد، وتنتهي احياناً بالسرعة نفسها. فحين نغادر احدى المدن، يخطر لنا ان رحلتنا آمنة تماماً، وغالباً ما نصادف في منتصف الطريق اعداء على خلاف مع الشيوخ المقيمين في الجوار أو مع الباشاوات الاتراك، ويتوجب حينها على قائد القافلة ان يتفق مع العرب بطريقة ملائمة حتى نمر بسلام. مما لا شك فيه ان أكثر الرحلات أماناً هي تلك التي نقوم بها مع عرب بني كلب، الذين ينقلون كل سنة عدداً كبيراً من الجمال إلى حلب، بهدف بيعها. كما وان السفر برفقة قوافل التجار، التي يترأسها أحد اعيان البصرة، ليس محفوفاً بالمخاطر، فهذا الاخير سافر كثيراً في صباه، وتعرف على شيوخ القبائل كافة، مما ساعده على تأمين الحماية الكاملة للمسافرين. أما القوافل التي يقودها احد الاتراك، وخاصة تلك التي تذهب من بغداد إلى دمشق والى مكة فهي مكلفة وشديدة الخطورة. غالباً ما يبيع الباشا منصب قائد القافلة إلى الشخص الذي يدفع اكثر، ففي تلك السنة، دفع احدهم ٤٠ ألف ريال لتسلم قيادة قافلة حجاج بلاد فارس، الذين يغون السفر من بغداد إلى دمشق بعد مرور ثلاثة اسابيع، دفع شخص آخر عشرة آلاف ريال، وحظي بالمنصب المذكور. يتوجب على هذا الشخص ان يجند عدداً كبيراً من الرجال، وتقديم الهدايا للقبائل العربية، التي يصادفها في طريقه، اما المسافرون، فيشاركون في هذه الاعباء، علاوة عن دفعهم مبلغاً محترماً لقائد القافلة. ويروى ان بعض قادة القوافل، يتفقون مع العرب ليهاجموا القافلة وينهبوها. وأكد لي كبار التجار ان قادة القوافل الاتراك يتسببون في معظم الاحيان بتعرض القوافل للنهب، على يد العرب، وقد اعطيت مثالاً على هذه الاعمال في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. أخبرني شخص سافر في قافلة مماثلة، ان التجار اجبروا على دفع مبلغ كبير من المال، قبل انطلاق القافلة، وتعهد القائد في المقابل، بأن يوصلهم إلى وجهتهم بسلام. غير انه شاهد بعض العرب من بعيد، واسرع للقائهم مع عدد من رجاله في هذه الاثناء، كان يجدر بنا الانتظار دون ان يتجرأ احد على اطلاق النار على العرب، رغم انهم كانوا يقتربون من القافلة ويهددون بنهبها. دامت المناقشات بين القائد والشيخ وقتاً طويلاً، فكانا يتبادلان التهديد بحمل السلاح، وكافة انواع الشتائم وفي نهاية المطاف، توصلا إلى اتفاق في ما بينهما، واجبر قائد القافلة كل مسافر على دفع مبلغ من المال لمتابعة الرحلة. والجدير ذكره ان الرحلة في الصحراء شديدة الخطورة على اهل الشيعة، اذ تفرض عليهم ضريبة أكبر من اهل السنة، ويسيء الملحدون معاملتهم إلى اقصى حد.

أتى بعض المسافرين على ذكر مركز الحمام الذي كان يستعمل قديماً في البلاد الشرقية(*). وهي تكثر في مدن مختلفة، ولكن من الصعب ان نصدق اننا نستطيع ارسال الحمام إلى كافة المناطق شأنها شأن اي رسول آخر؛ ولما كانت هذه المنطقة تفتقر إلى مراكز بريد محددة. درّب التجار الحمام لإبلاغ عائلاتهم بعودتهم سالمين من سفرهم. قابلت في البصرة تاجراً من بغداد، اعتاد على استعمال مراكز الحمام هذه في رحلاته كافة. فقد ترعرع الحمام في منزله واعتاد على تناول طعامه في مكان محدد، كما وانه كان يتنقل على حريته، من مكان إلى آخر ويتعرف على المناطق المجاورة. في رحلته الاولى، اصطحبه معه إلى الحلّة، وفي الثانية إلى لملم، وفي الثالثة إلى ارج، واخيراً إلى البصرة، حيث ارسله إلى منزله بعد ان علق رسالة صغيرة بقوائمه. والجدير ذكره ان الحمام الذي يترك صغاره في المنزل يعود مباشرة اليه. ويزعم ان افضل نوع حمام هو البغدادي، ولكنني لا أشك ان الحمام الاوروبي اهل للتدرب على هذه المهمة. وقد قيل لي ان احد الايطاليين كان يستعملها ليعرف الأرقام التي استعملها مواطنوه في اليانصيب. وما لا شك فيه اننا لا نحتاج مطلقاً لهذا النوع من الحمام، لأننا نستطيع بعث الرسائل إلى أي بقعة في الارض، وبأقل كلفة ممكنة.

يقول الكسندر هاملتون(**) انه تكثر في منطقة البصرة شرقي وغربي الفرات، الغربان السوداء والبيضاء التي تتدافع وتتقاتل. وقد شاهدت بأم عيني غرباناً سوداء ورمادية على ضفتي النهر، ولكن العرب لا يعتقدون ابداً ان الغربان السوداء والبيضاء قد اتخذت من الفرات حداً لها.

(*) رحلات بيترو ديل فالي، الجزء الاول، ٢٨٤ غابريال نتونيتا، جغرافية السودان، ص ٢٩.

(**) وصف جديد للهند الشرقية، الجزء الاول ص ٧٨.

الرحلة من البصرة إلى لملوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والحلة، وبغداد

للانتقال من البصرة إلى بغداد، هناك طريقان، الاول عبر دجلة والثاني عبر الفرات، ولا يستخدم المسافرون الطريق الاول عادة، لطول المسافة بسبب تعرجات النهر الكثيرة، في حين ان الفرات لا تعرجات فيه، فضلاً عن اننا نصل على هذا النهر حتى الحلّة ومنها ينتقل المسافر مباشرة إلى بغداد براً، مما يجعل، الدرب أقصر، ونجد على الفرات محطات أو منازل، فحين يودّ المسافر أن يرتاح يظهر إذن الحاكم الذي يحمله، ويمكنه أن يتفق مع أناس في محطات مختلفة ليسحبوا مركبه، بأسعار معقولة، فيصل إلى الحلّة بهذه الطريقة في عشرة أيام على الأكثر.

ويجب أن يتمتع المسافر بصحة جيدة ليقوم برحلة كهذه في الشتاء، وبما أن قطاع الطرق يكثرون على هذا الدرب، لا يستخدم هذه المحطات إلا رجال الحكومة الذين لا يتجرأ العرب على المساس بهم، فضلاً عن أناس على عجلة من أمرهم ولا يحملون معهم سوى حاجاتهم الضرورية. أما أنا فانتظرت وصول مركب صغير ينقل بضائع إلى الحلّة واستأجرت المقصورة لنفسي وغرفة صغيرة لخادمي.

حين صعدت على متن المركب، وجدت في الغرفة المذكورة، ضابطاً من الانشكاريين يعاني سكرات الموت ويريد الوصول إلى الحلّة، وهي رفقة لم أكن أتمناها في رحلتي سيما وأني لا أعرف المرض الذي يعاني منه. لكن صاحب المركب كان قد قبض ماله سلفاً، وأقنع خادمي، وهو مسلم من البصرة، بالتنازل عن مكانه والبقاء على سطح المركب، وكي لا أكون أقل انسانية تجاه هذا البائس من المسلمين الذين كانوا ليكرهونني لو طردته، سررت لقرار خادمي وقررت أن أسلم امري للقدر.

كانت الرحلة شاقة بالنسبة لجاري المريض، وبما أني اعتدت العيش بين العرب، لم أستأ من القرار الذي اتخذته بشأن السفر على متن هذا المركب(*). استغرقت الرحلة ٢١ يوماً أيّ من ٢٨

(*) اذا اراد احد ما معرفة المصاعب التي يتعرض لها الاوروبي في هذه المناطق عليه قراءة الجزء الثاني من رحلات ايف الى الهند وبلاد فارس، عانيت من مصاعب ومشاكل عدة اثناء هذه الرحلة، لكني تمكنت من تجنب العديد من العقبات التي تحدث عنها ايف لاني اعتدت السفر مع المسلمين.

تشرين الأول/أكتوبر إلى ١٩ كانون الأول/ديسمبر حيث وصلنا لملوم وغادرت المركب، وهي رحلة طويلة لكنها اتاحت لي فرصة القيام بدراسات فلكية عدة، ساعدني خلالها المسافرون الاخرون اذ تحلقوا حولي بثيابهم الطويلة لرد الهواء حين كنت أضع ساعتي الشمسية على الشاطىء.

سجلت ارتفاع القطب في أماكن عدة مررت بها وهي:

في البصرة كما أوردت سابقاً ٣٠° ٣٠´

في الاول من كانون الأول/ديسمبر قرب المنصوري ٣٠° ٥٢´

في الثاني من كانون الثاني/يناير في أبادا ٣٠° ٥٥´

في الرابع من كانون الثاني/يناير في كعد ٣٠° ٥٨´

في السادس منه في أرجة ٣٠° ٥٩´

في ١٢ كانون الثاني/يناير في غريم ٣١° ١٧´

في ١٦ كانون الثاني/يناير قرب السماوة ٣١° ١٩´

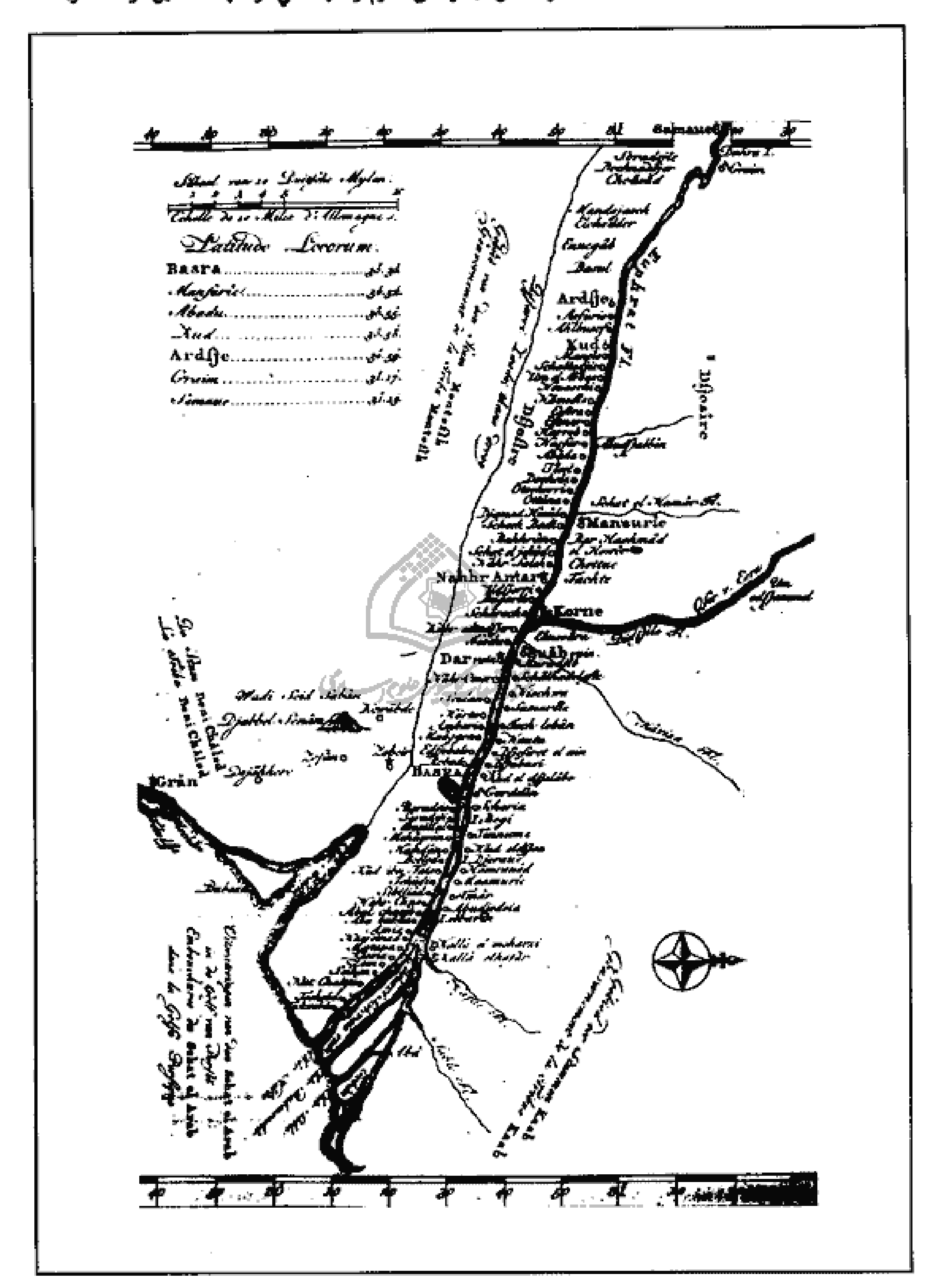
في ١٨ كانون الثاني/يناير في منطقة أبو حروق (Abu Haruk) ٣١° ٢٨´

في ١٩ كانون الثاني/يناير قرب لملوم ٣١° ٤٣´

ثم في الحلّة ٣٢° ٢٨´

وبما أن الفرات لا يجري في هذه المنطقة مباشرة من الشمال إلى الجنوب انما من الغرب إلى الشرق، يصعب تحديد طول المسافة لا سيما حين نسافر بعكس التيار حيث يدفعنا الجزر غالباً إلى الامام، والمدّ أو الرياح المعاكسة إلى الخلف(*). زد على ذلك، أننا اضطررنا إلى سحب المركب لأن منسوب المياه منخفض للغاية فلمسنا القاع، فلم يرَ البحارة المساكين بداً من النزول إلى المياه والعمل جاهدين لتخليص المركب. وفي أحدى المناطق التابعة لقبيلة بني الحكم (Hackkem)، وضع السكان سداً لتحويل المياه لريّ مزروعاتهم فلم نجد سوى ممرّ ضيّق للغاية يعظم فيه التيار فأمضينا نصف نهار حتى تمكنا من المرور بمركبنا. ولم أتمكن من تحديد المسافة بدقة إلا استناداً

(*) نجد على الفرات مداً وجزراً حتى ارجة اي على مسافة ١٤ ميلاً بعد القرنة (Kone)، وعلى بعد حوالي ٢٨ الى ٣٠ ميلاً من الخليج الفارسي، لكن لا نلاحظ وجود مد وجزر على دجله بعد اسر (Oser) وهي قرية تحمل اسم اسراء (Esra)، ويزور فيها اليهود اليوم قبراً للتبرك.


Latitudo Locorum.
Basra
Ardsje
Korne
Basra
Grân
Nahhr Antar
Mansurie
Euphrat Fl.

إلى المحطات التي نجد فيها اناساً يسحبون المراكب وهي ١٢ محطة من البصرة إلى القرنة (Korne)، و٧ من القرنة إلى المنصوري، و١٢ من المنصوري إلى كمد، و٢ من كمد إلى العرجا، و١٤ من العرجا إلى السماوة، و١٨ من السماوة إلى لملوم، و٧ من لملوم إلى الديوانية، و١٤ من الديوانية (Diwanie) إلى الحلّة، واستناداً إلى ملاحظاتي، تبعد المحطة عن الاخرى دقيقتين ونصف إلى ٣ دقائق أي حوالي ٤/٣ الميل، وانطلاقاً من هذا ومن تسجيلي لارتفاع القطب، وضعت خرائط خط السير على اللوحتين XL وXLI التي يمكن للقارىء أن يميّز عليها مجرى الفرات من الحلّة وحتى الخليج الفارسي.

نجد بين البصرة وبغداد العديد من القبائل العربية، تدفع كلها ضرائب للباشا، أما أولها فقبيلة المنتفق (Montefik) التي ذكرتها سابقاً في وصفي لشبه الجزيرة العربية. وبما أن القرى والمدن الصغيرة الواقعة إلى غرب شط العرب والفرات من البصرة وحتى العرجا ملك لها فضلاً عن تلك الواقعة إلى شرق هذا النهر انطلاقاً من القرنة في الشمال، تقيم القبيلة لأشهر في نهر عنتر، وتهيم في الصحراء مع قطعانها قسماً كبيراً من السنة، حيث تعيش في الخيام كغيرها من البدو. وغالباً ما جعلت هذه القبيلة الدرب على الفرات وفي الصحراء غير آمن، حتى انها حاصرت بغداد أحياناً، لكنها تنسحب إلى عمق الصحراء حيث لا يتجرأون على ملاحقتها ما أن تعلم أن الباشا أرسل الجيش لمقاتلها.

ولم يعاقبوا يوماً وعاقبهم سليمان كخيا (Kichja) الذي أصبح في ما بعد باشا بغداد، والذي اعتاد وعمه احمد باشا الشهير اصطياد العرب، اذا صحّ التعبير، أيّ انهما يهاجمان القبائل بغتة. لذا كانت الطرقات آمنة أثناء حكمهما. أسر أحمد باشا يوماً الشيخ سعدون أخ الشيخ عبدالله، الحاكم الحالي، لكنه عاد وأطلق سراحه مع تنبيهه بوجوب دفع الضرائب والابتعاد عن المشاكل. وبعد فترة وجيزة، ثار ثانية، فأرسل احمد عندها صهره سليمان كخيا لقتاله مع بعض الرجال، فشن هذا الاخير هجوماً مفاجئاً عليه وأسره. ولا زال العرب يمدحون العنفوان الذي أظهره شيخهم في هذا الموقف، اذا دافع عن نفسه طويلاً برمحه ثم بسيفه وبعدها بالدبوس (سلاح يشبه المطرقة يحمله العرب في سرجهم) واخيراً بلجام جواده وركابه، لكن من دون جدوى. وكان سليمان قد تلقى الامر بإعادة سعدون اسيراً إلى بغداد، وبصفته منتصراً طالب المغلوب ببعض الاحترام والخضوع، لكن العربي الابي، المولود حراً رفض الخضوع، وأحصى سلالة اسلافه وسأل الكخيا كيف يمكن لشخص مثله لا يعرف اباه (أنه جيورجي، بيع في صباه كعبد) أن يطلب من نبيل عربي ان يبذل نفسه؟ وأغضب هذا الكلام سليمان فقطع رأس الشيخ وأرسله للباشا كدليل انتصاره، ورأى المشايخ الآخرون ان من الفطنة الخضوع له. وفي يوم من الايام، قصد حوالي ١٨ شيخاً من هذه

القبيلة الباشا ظناً منهم انهم تصالحوا معه، ورأى هذا الاخير ان الفرصة لن تتكرر فأمر بقطع رؤوسهم جميعاً(*)، وهكذا ضعف نفوذ قبيلة المنتفق ولم تتجرأ حتى اليوم على العصيان. ويقال إن أحمد باشا الذي يقدر القيمة الشخصية حتى لأعدائه غضب من تصرف صهره، لكن غالبية الاتراك تعتبر حملة سليمان هذه دليلاً على شجاعتهم في حين أن العرب ينظرون اليها كعمل جبان ووحشي.

وتسيطر قبيلة بنو لام على دجلة، وتسبب متاعب عدة لباشاوات بغداد. حين أضحى أحمد باشا على بغداد للمرة الاولى، شنّ حملات عدة على هؤلاء العرب لكنه لم يتمكن من إلقاء القبض عليهم، لكثرة جواسيسهم في المدينة فما أن يعلموا بأن الجيش سيخرج حتى يتراجعوا إلى مناطق نائية. وعندما وصل إلى الحكم للمرة الثانية، ضرب ورجاله الخيام امام المدينة، وقام بتحضيرات كثيرة كما لو أنه يستعد لدخول المدينة في أبهى حلّة، وبقي عرب بني لام، الذين علموا بالأمر، آمنين، ظنّاً منهم أنه لن يهاجم طالما لم يسيئوا اليه أولاً أو أنه سيدخل المدينة أولاً، لكنه رفع الخيام في الليل وهاجمهم بسرعة حتى أنهم لم يعرفوا بمخططه. وكسب في هذا الهجوم عدة غنائم من إبل وجياد وابقار وخراف، وقطع رؤوس المشايخ فأضعف القبيلة التي لم تعد تفكر بالعصيان.

ويلجم الباشاوات العرب المقيمين في مناطق حكمهم بهذه الوسائل، ويمكننا أن نتصور بسهولة أن البدو في الصحراء لا يهتمون قط بحكم السلطان والباشاوات.

ويطلق على المنتفق وبني لام والقبائل العربية الحقيقية الاخرى اسم أهل البعر (Ahhl el baar) أو البدو، ويعملون في تربية الجمال وتدريبها، ويقيمون معظم الوقت في الخيام ويتركون أمر الزراعة للفلاحين، ويأتي السادة العرب في أوقات معينة من السنة لجمع الضرائب مستخدمين العنف والقسوة احياناً. وتسمى قبيلة كعب المقيمة على مصب النهر أي على شط العرب وغيرها من القبائل التي تقيم دائماً في القرى والمدن، العرب الحضر.

ونصادف عرباً آخرين، يعملون في تربية الجياد والابقار والجواميس، فضلاً عن الزراعة وينقلون أكواخهم الحقيرة من مكان إلى آخر كما يفعل البدو مع خيامهم، ويطلق على هؤلاء اسم المعدان (Moadan). وتقيم في شرق الفرات قبيلتان من هذه القبائل، وهما بني حاكم (Beni Hakem) وخزعل وتتبعان المذهب الشيعي. أما القبيلة الاولى فصغيرة العدد ولا تسبب مشاكل للاتراك، لكن

(*) كما غدر باليزيديين المقيمين في جبل سنجار، اذ اقنع شيوخ الجبل المهمين بزيارته وطلب العفو على عمليات النهب التي قاموا بها، لكن ما إن وصلوا الى خيمته حتى امر بقطع رؤوسهم.

قبيلة خزعل التي يقيم شيخها في لملوم، فتتصرف احياناً بفظاظة وتسبب المتاعب للباشاوات، وقد هزمت قوات علي باشا منذ سنوات، حين قتلت الباشا نفسه أمسى أبناؤها متغطرسين، فمنعوا أي مركب من المرور على الفرات قبل ان يدفع جزية. وقبيل وصولي، لقّن عمر باشا هذه القبيلة درساً حيث قطع رؤوس مشايخها، وعيّن شيخاً جديداً حاكماً لها، لكن الحاكم السابق الفار واسمه حمود، عاد بعد انسحاب الاتراك، وبما ان الباشا لم يشأ القيام بحملة أخرى، سلمّه الحكم من جديد. ولا يتجرأ هؤلاء العرب حالياً على ايقاف المراكب، لكن الاتراك الذي يبحرون على الفرات يضطرون إلى سماع الشيعة ينعتونهم بالملحدين ويعلنون كرههم للخلفاء الثلاثة الاوائل أي أبي بكر وعمر وعثمان.

إن ضفة الفرات منخفضة جداً في المناطق الخاضعة لقبيلة خزعل، لا سيما في المنطقة المسماة ام الخنزير حيث يكثر الاسل وبالتالي الخنازير البرية، ولا بد أن للنهر سواعد عدة اذ لا يتعدى عرضه احياناً ٤٠ إلى ٥٠ قدماً(*).

ونجد في شمال المناطق التابعة لهذه القبيلة، مرسى كبيراً يسمى حسكة، يحكمه آغا تابع لباشا بغداد يقيم في ديوانه، ويعتبر اكبر مرسى.

في نقطة حكم الباشا، يملك هذا الآغا فرقة كبيرة من الخيالة تساعده على السيطرة على العرب، لكننا لاحظنا آنفاً أن هؤلاء لا يكترثون به أحياناً.

أما أهم المناطق التي نصادفها بين البصرة ولملوم فهي:

- مناوي، محل إقامة الباشا النقيب، وهي في البصرة كما ذكرت سابقاً واشرت إلى ذلك على اللوحة XXXIX. ويعتبر هذا المكان مميزاً بالنسبة للمسافرين اذ يضطرون إلى دفع ضريبة للباشا. وفي الجهة الأخرى لشط العرب وقبالة مناوي، نجد قلعة مهدمة كلياً وتعرف باسم كردلان.

- دير، قرية كبيرة جنوب الشط، وعلى بعد يوم من البصرة. ونجد هنا تلالاً كبيرة هي عبارة عن بقايا مدينة شيّدها البرتغاليون استناداً إلى رأي رفاق رحلتي، لكن لم يبقَ من الابنية القديمة سوى منارة جميلة وهي الوحيدة التي نصادفها بين البصرة والحلة (باستثناء القرنة).

- سويب، تقع إلى شمال الشط وعلى نهر ينبع في حويزة. وتدل الآثار الكبيرة على أنّ مدينة كبيرة كانت تقوم في هذا المكان في ما مضى. إن النهر الذي يصب في الشط عند نهر حاسر (Haser) هو نهر حواسبيس (Choas pis) الذي ذكره علماء الجغرافيا القدامى.

(*) يبدو انه المكان الذي مرّ به الاسكندر عائداً حين قام برحلة من بابل الى بالاكوباس (Pallacopas) قبيل وفاته.

ـ القرنة، تقع عند ملتقى دجله والفرات، وهي مدينة سيئة البناء، يحيط بها من جهة اليابسة سور مزدوج من الآجر، وهو بناء حديث، اذ علمت في البصرة ان الباشا علي والباشا حسين شيّداه لصدّ الاتراك والفرس.

ونجد هنا خمس فرق من الانكشاريين، أما التجارة في المدينة فمحدودة بالرغم من موقعها الجيد، لكن السفن التي تمرّ بها، تضطر إلى التوقف لتدفع ضريبة للانكشاريين. ولم اتمكن من قياس ارتفاع القطب في هذه القلعة، اذ سلمت ضابطاً رفيع الشأن رسالة التوصية، فأظهر الكثير من اللياقة ودعاني إلى العشاء في منزله فلم أرفض دعوته. وحين علم بأني اريد التوجه إلى الضفة عند الثانية عشرة لقياس ارتفاع الهاجرة، اضطررت إلى جلب ساعتي الشمسية، التي أريته اياها لإسعاده، لكنه لم ينفك يطلب مني ان اسمح له بالنظر عبر المنظار المقرب، وتكاثرت الطلبات فأصبح عملي من دون جدوى.

ـ نهر عنتر وهو محل اقامة شيخ قبيلة المنتفق كما أشرت سابقاً، وتدفع له السفن ضريبة في تحته (Tachte) حيث لا نجد سوى المنزل الذي يقيم فيه ضباط الجمارك. ومنذ سنتين، كانت المراكب الصغيرة المحملة بالتمر تدفع مسلمين (نصف روبية) أما اليوم فتدفع ٥ روبيات.

ـ المنصورية وهي قرية كبيرة، تُدفع رسوم المرور فيها لآغا انكشاريّي القرنة، لكن المركب القادم من البصرة في القرنة يكتفي بإبراز الوصل. وفي قرية كوت أو كوت معمر تدفع الرسوم للباشا النقيب في البصرة. أما في العرجة فتدفع لآل صالح احدى ابرز عائلات قبيلة المنتفق. وكان هناك مركز لدفع الرسوم في غرام، لكن منذ أن فرغ المكان من سكانه، تجمع الرسوم في السماوة لآغا الحسكة وبالتالي للاتراك، لكن شيخ قبيلة خزعل يقبض هذه الرسوم حالياً.

وصادفت في جمارك العرجة والسماوة شيوخاً وقحين، وإن جاؤوا بأنفسهم لرؤيتي، ولم يهتموا بجواز المرور الذي زودني به متسلم البصرة كما استاؤوا حين أردت اظهار فرمان السلطان الذي أحمله، فارتأيت أن ارضيهم بأي وسيلة كانت، فإن تشاجر مسيحي مع اناس من هذا النوع، وقال كلمة ما اعتبروها إهانة لهم، يجبرونه احياناً على دفع عشرة اضعاف ما يتوجب عليه، فضلاً عن أنهم يسخرون منه. وتبنى المنازل في السماوة من الطين المجفف في الهواء الطلق وهي بالتالي سيئة البناء، لكنها تبدو قصوراً مقارنة مع أكواخ الفلاحين في هذه المنطقة. ومنذ سنوات، مات معظم سكان المدينة بسبب الطاعون الذي تفشى بينهم. وتكثر النمور والاسود وبنات آوى في الصحراء قرب هذا المكان، كما نجد فيها الكثير من الملح.

ونصادف الكثير من القرى على ضفتي شط العرب وعلى ضفتي الفرات، من القرنة ومن العرجة، وبعيداً عن النهر، بقيت هذه الارض الخصبة غير مزروعة لقلة السكان والأقنية فيها، وتقوم

القرى بعيداً بعض الشيء عن النهر، وهي سيئة العمران مما يدل على أن المشايخ لا يتركون للسكان ما يكفيهم، وقد بنيت المنازل والاكواخ من الاسل، باختصار، لم أرَ أكواخاً بحقارة تلك الموجودة في هذه المنطقة التي انعمت عليها الطبيعة بالخصب والتي ذاع صيتها واكتظت بالسكان في ما مضى. أما الأراضي الممتدة بين العرجة والسماوة فغير مزروعة أيضاً، ولا تعتبر الاسماء الواردة على اللوحة XL أسماء قرى. تدعى المنطقة على ضفتي الفرات الجزيرة، ولعل السبب يعود إلى كثرة الاقنية الموجودة والتي جعلت من البلاد في ما مضى مجموعة من الجزر.

ويتميز سكان قرى الفرات بمهارتهم في السباحة كسكان ضفاف النيل، كما يعرف عنهم أنهم لصوص بارعون، أما البحارة فمهملون، كما في مصر، ولا يحرسون أثناء الليل، لذا يستغل اللصوص الفرصة، ويصعدون على متن المركب ليلاً، فإن وجدوا الركاب نياماً جمعوا ما يجدون على ظهر المركب وقفزوا بما طالته ايديهم في الماء.

وفي أحد الأيام، حاولوا الامر نفسه على مركبنا، لكن الانكشاري المريض فشّل محاولتهم، اذ لم يكن نائماً، وفي يوم آخر، جاؤوا في قوارب خفيفة وصغيرة من خلف مركبنا، وسرقوا لي حوضاً للاغتسال وبعض الاشياء الاخرى التافهة، لكني استيقظت عندها فلم يتمكنوا من سرقة اشياء اخرى اذ اطلقت عياراً نارياً أرعبهم وجعلهم يقفزون من قواربهم إلى الماء.

وكان مستوى المياه بين العرجة والسماوة منخفضاً للغاية حتى أن المركب لامس القاع عدة مرات، وبما أن الرياح وحركة المدّ والجزر عاكستنا اضطررنا إلى سحب المركب، وأوقفنا العرب مراراً. جلست على سطح المركب مسلحاً، وقد اعتمرت عمامة الانكشاري المريض، وبقي بعض التجار من بغداد على مقربة مني وكأنهم ينتظرون أوامري، وحين يسأل العرب عمن على متن المركب، اعتاد القبطان ان يجيب انه آغا من بغداد مع ستة شكدار (Tschokadars). ولا أعلم إن كان العرب قد صدقوا هذا الادعاء، لكنهم التزموا حدود الادب ولم يطلبوا سوى بعض التمر الذي قدمته لهم عن طيب خاطر بصفتي الآغا. ومنذ ثلاثة أسابيع، تم نهب مركب محمل بالتمر في هذه المنطقة، وقتل المسافرون الذين رفضوا اعطاء ما يحملونه. وبعد ذلك، لامس مركب آخر القاع فأخذ العرب ينزلون حمولته، عندها أصبح المركب أخف فعام وأبحر القبطان كما أمر بقتل العربيين اللذين بقيا على متن مركبه وأرادا سلبه ما تبقى. ولن يلوم أي أوروبي المسافرين على فعلتهم، لكن عقلية العرب مختلفة ونظرتهم للأمور مغايرة، كانوا يعلمون أن على متن هذه المراكب أناس من القرنة ومن السماوة، فطالبوا بالديّة من هاتين المدينتين، وظننا أننا بهذا الادعاء سنرضيهم. ولو اني قتلت أو جرحت عربياً خلال هذه الرحلة، لطالب أخوه القبطان الذي بدوره سيطالبني، ولكنت دفعت أكثر من المسلمين لأنني مسيحي أراق دم مسلم. نستنتج بالتالي ان الاسلحة النارية الجيدة ضرورية

للمسافر الاوروبي في هذه البلاد ليثير ذعر العرب لا ليستخدمها فعلياً.

في ١٩ كانون الأول/ديسمبر، وصلنا لملوم، وهي قرية كبيرة يقيم فيها شيخ قبيلة خزعل، لكنه لا يعيش في منزل أبهى من منازل رعاياه بل في كوخ حقير من قصب. أما الضابط المريض الموجود امام غرفتي، فلم يتوفَّه الله، ولم تتحسن صحته وكنت قد مللت رفقته في هذه الرحلة، وعلمت أن الدرب آمن نوعاً ما عبر الرماحية إلى مشهد علي، وهي مدينة قررت المرور بها من الحلّة، فقررت ترك المركب. ووعدت شيخاً مسلماً من بغداد بالسفر معي مجاناً إلى مشهد علي ومشهد الحسين، فأبدى استعداداً لمرافقتي، ونزولاً عند رغبته ورغبة خادمي، وهما من أهل السنة إلى قرية بائسة على الضفة الاخرى للنهر تدعى ماشويرة (Mashwira). حضّر لي الشيخ كوخاً حقيراً بالكاد يتسع لثلاثة اشخاص، ولم يكن منزله افضل حالاً أو أكبر لذا لم اشتك منه، لكن الجياد التي وعدني بها لن تصل في اليوم التالي فاضطررت للبقاء ليلة أخرى عنده. ولم يعجبني هذا الرجل لأنه وديّ للغاية ولأنه تفحّص كل ما احمله معي بدقة، وساورتني الشكوك حوله، فقررنا القيام بحراسة المنزل كل بدوره، وتركنا القنديل مضاءً طوال الليل، لكن خادمي لم يكن معتاداً على السهر فنام، ولاحظ اللص ذلك، وفيما كان يسرق آلتي الطابعة، استيقظت وأثرت جلبة فسارع الشيخ وأظهر غضباً شديداً من تصرّف كهذا في قريته. وركض في الحقول وراء اللص كما أرسل الفلاحين إلى نقاط أخرى لكن الجميع عاد خالي الوفاض، ولا أشك أبداً ان الشيخ واللص واحد، لكن الفطنة تقتضي شكره على سعيه وتقديم هدية صغيرة له. وبما أنه لم يعد يأمل أن يفاجئنا أثناء نومنا، تم تحضير الجياد للرحيل في اليوم التالي.

وفي ٢١ اجتزنا سبعة فراسخ ونصف أو حوالي خمسة أميال ونصف نحو الشمال الغربي حتى الرماحية. ولم أر على هذا الدرب أيّ مسجد لكن الكثير من القبب أو الصروح الصغيرة التي تعلو قبور الاولياء المزعومين، ويحيط بها ما يدل على أن بعض القرى كانت تقوم في المكان. إن كافة الأراضي خصبة، لكن العديد من القنوات الصغيرة التي كانت تروي المنطقة جافة حالياً وقلما نصادف قرى فيها، لكن نرى قطعاناً كبيرة من الغنم والجياد. وقرب الرماحية، هناك قناة كبيرة تتلقى مياهها من الفرات يبعد عنها ميلاً ونصف الميل، ثم تعود وتصب فيه قرب السماوة (راجع اللوحة XLI)، وكانت هذه القناة صالحة للملاحة منذ سنوات، لكن المياه لا تجري فيها حالياً إلاّ اذا بلغ منسوب المياه في الفرات اعلى ارتفاع له، وألفيتها أنا جافة تماماً.

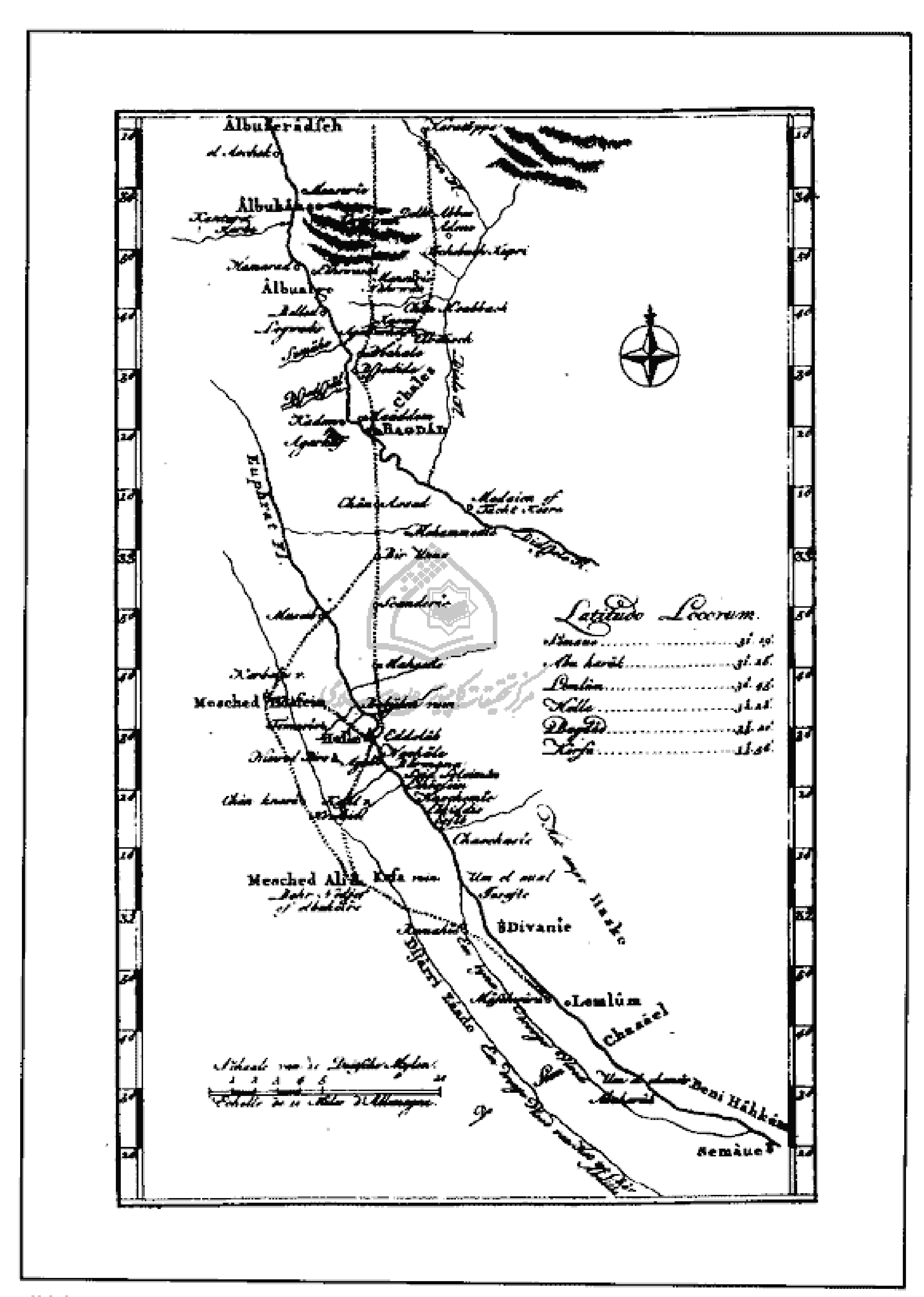
بنيت مدينة الرماحية في سعة، وتتألف من حوالي ٤٠٠ منزل، يحيط بها سور عال لكنه شيّد من الآجر غير المشوي كما في البصرة وفي القرنة، ولا يعمل احد على تصليحه وصيانته فيمكن العبور من خلاله من جهات عدة. ونجد في المدينة مسجداً عظيماً وحماماً مفتوحاً جميلاً للغاية،

وقد بنيت معظم المنازل من الآجر غير المشوي. يعيش السكان من الزراعة ومن حدائق البلح، ويقال انهم أثرياء مقارنة على ما أظن مع فلاحي القرى المجاورة. ويجمع شيخ قبيلة خزعل رسم مرور في الرماحية، فيبدو بالتالي إن الشيعة يسيطرون هنا.

أقمت في الرماحية عند رجل سنيّ وقد سررنا بإقامتنا، وبقي مضيفي وهو إمام المسجد وبالتالي زميل لرفيقي في غرفة مفتوحة من الامام، ولاحظت ان عادات المسلمين تختلف كلياً عن عاداتنا. كانت حماته تجلس امام المنزل، وامرأته تعمل على تحضير الطعام على مسافة منا، واخبرته ان الاوروبي حين يزوّج ابنته لا يتلقى المال من الزوج، وإن كان الاب ثرياً، يعطيه مبلغاً من المال يسمح له بالعيش وزوجته عيشة لائقة. وأعجبت هذه العادة مضيفي، فسأل حماته اذا ما سمعت ما قلته، وأضاف: «لم تتصرفي معي بهذه الطريقة، يا أماه، واجبرتني على دفع المال قبل ان تعطيني ابنتك، الخ». وبعد أن استفاض الزوج على هذا المنوال، قالت الام: «آه يا بني! كيف كنت سأعيش وابنتي إن اعطيتك حقلي وثمري»؟ ثم أخبرته أنه لا يسمح للرجل بأن يتزوج اكثر من امرأة واحدة، تحت طائلة التعرض لعقوبة الموت، وأن أملاكه تعود لأولاده، فانبرت العجوز تقول: «هل سمعت يا بني ما قاله هذا السيد؟ لا بد أن العدالة تسود في البلد الذي يتحدث عنه»! وتدخلت المرأة، التي بدت وكأنها لم تكن تسمع حديثنا، فقالت: «آه يا زوجي، كيف يمكنك ان تطلب من أمي ان تمنحك منزلها. كنت لتعطيه لزوجاتك الاخريات فأنت تحبهن أكثر مني وأنا نادراً ما أراك». وتابعت المرأة وأمها حديثهما على المنوال نفسه، وأخيراً، سألت مضيفي عن عدد زوجاته، فأجابني اربع، ولكن يكلّفنه الكثير، اذ لكل منهما منزلها وحديقتها حيث تعيش واولادها، أما هو فلم يكن له منزل محدد، لأنه يجد عند كل منهن الطعام والمأوى والمبيت. وحين سألته إن كان يعيش بسلام اكبر مذ تزوج أربع نساء. فلم يصدقني الجواب، شأنه في ذلك شأن كافة المسلمين الذين يشيدون بتعدد الزوجات.

في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، قطعنا سبعة فراسخ أو حوالي خمسة أميال من الشمال الغربي نحو غرب مشهد علي. وشاهدت على هذه الطريق العديد من الأقنية الجافة والقبب الصغيرة، ويستخدم الفقراء هذه الاخيرة بدلاً عن المصليات في غياب المساجد الجيدة، لكن نجد هنا حقولاً مزروعة اكثر مما نجد في الجهة الاخرى للرماحية. أخذت مدينة مشهد علي اسمها من مسجد رائع بني تكريماً لعلي، رابع خلفاء المسلمين، ويزوره الشيعة من كافة البلاد كما يزور المسلمون كلهم مكة. ويوّد الشيعة حتى بعد وفاتهم الحج إلى هذه المدينة التي يعتبرونها مقدسة، اذ ينقل اليها الموتى من الرماحية ولملوم والحلّة وبغداد وغيرها من المدن المجاورة فضلاً عن بلاد فارس وحتى الهند.

سمعت في الزبير أو البصرة القديمة عن ميت دفن سنة كاملة، ثم نبش قبره ونقل إلى هذه


Âlbuherâdsch
Euphrat Fl.
Chales
Meschede Hussein
Hella
Meschede Ali
Kufa
Divanie
Lemlûm
Chasael
Semâue
Latitudo Locorum.

المدينة. وصادفت على الدرب بين الرماحية ومشهد علي أربع جنائز، ومن الاخيرة إلى الحلّة خمس جنائز، وحين سألت ان كان العدد لا يتعدى سبع جنائز تنقل من مناطق اخرى إلى هنا، أجبت ان هذا الرقم قليل للغاية، اذ يدفن هنا سنوياً ما يفوق الالفي ميت غريب. ويحصل من يدفع جيداً على قبر قرب مسجد امامهم، ومن يدفع اقل يدفن داخل اسوار المدينة، أما ذاك الذي يتعذر عليه الدفع فيعيّن له مكان خارج المدينة، ولا أظن أن الموتى يدفنون داخل حرم المسجد، أو على الاقل في مساجد المسلمين الاخرى، لا نجد سوى قبر مشيّد المسجد وأحياناً قبور اولاده ونسائه. وبشكل عام، لا يحب المسلمون أن تكون المدافن داخل حرم المدينة.

أكد لي علماء سنّة أن قبر علي، صهر النبي، لا يعرف مكانه، ويبدو ان عائلته حاولت ان تخفيه عن أعدائها(*). لكن الشيعة يؤكدون أن علي دفن في هذا المسجد، ويقولون إنه أعطى الامر بوضع جثمانه، بعد وفاته، على ظهر ناقة، وبدفنه حيث تبرك بعد اخراجها من الكوفة. ويبدو هذا الامر غريباً من سيّد عرف بذكائه كعلي، لكن هذا القبر المزعوم سمح ببناء مدينة، تقع هذه المدينة في منطقة جرداء قاحلة كالسويس وجدة. كما تفتقر للمياه، وتجرّ تلك المستعملة للغسيل في انابيب جوفية، اما المياه الصالحة للشرب فتنقل على ظهر الحمير من مكان يقع على بعد ثلاثة فراسخ. ويكثر الكلس في احدى جهات المدينة، فيكفي بالتالي جرف بعض الرماد والزبل الجاف لصنع كلس جيد للبناء، وبما ان سعر الخشب مرتفع، تبنى غالبية المنازل من الاجر المشوي المطلي بالكلس وبشكل مقبب مما يجعلها متينة. وفي الجهة الاخرى للمدينة، تطالعنا منطقة منخفضة يكثر فيها الملح، ويطلق عليها العرب اسم البحيرة (El Buheire) واسم النجف، ويدعون انها بحيرة سرفة (Buheiret Sarve) التي جفت عند ولادة محمد.

ويتبع قسم من سكان المدينة المذهب السني، فيما يتبع القسم الآخر المذهب الشيعي، ويكره اتباع هذين المذهبين بعضهم البعض حتى أن السني حين يزور بلاد فارس يضطر للصلاة وفقاً لعادات البلاد كي لا يسيء اليه الشعب شأنه في ذلك شأن الشيعي الذي يقصد بعض المدن التركية. أما في مشهد علي ومشهد الحسين فيتعايشون قدر المستطاع، ويضطر السنة إلى الخضوع لإرادة الشيعة لأنهم يعملون عندهم، ويجب على الشيعة تجنب المشاكل وإلاّ افسحوا المجال امام الباشا ليجعل الفرس يدفعون غالياً ثمن زيارة امامهم الاول. ويقصد حوالي ٥٠٠٠ شخص قبريّ علي والحسين، ولا يحجّون في أوقات معينة كالذين يقصدون مكة، لكن الشيعة يعتقدون ان صلواتهم تستجاب في اشهر معينة، لذا يأمّون المكان في ٢٧ رجب، وفي شهر رمضان وفي

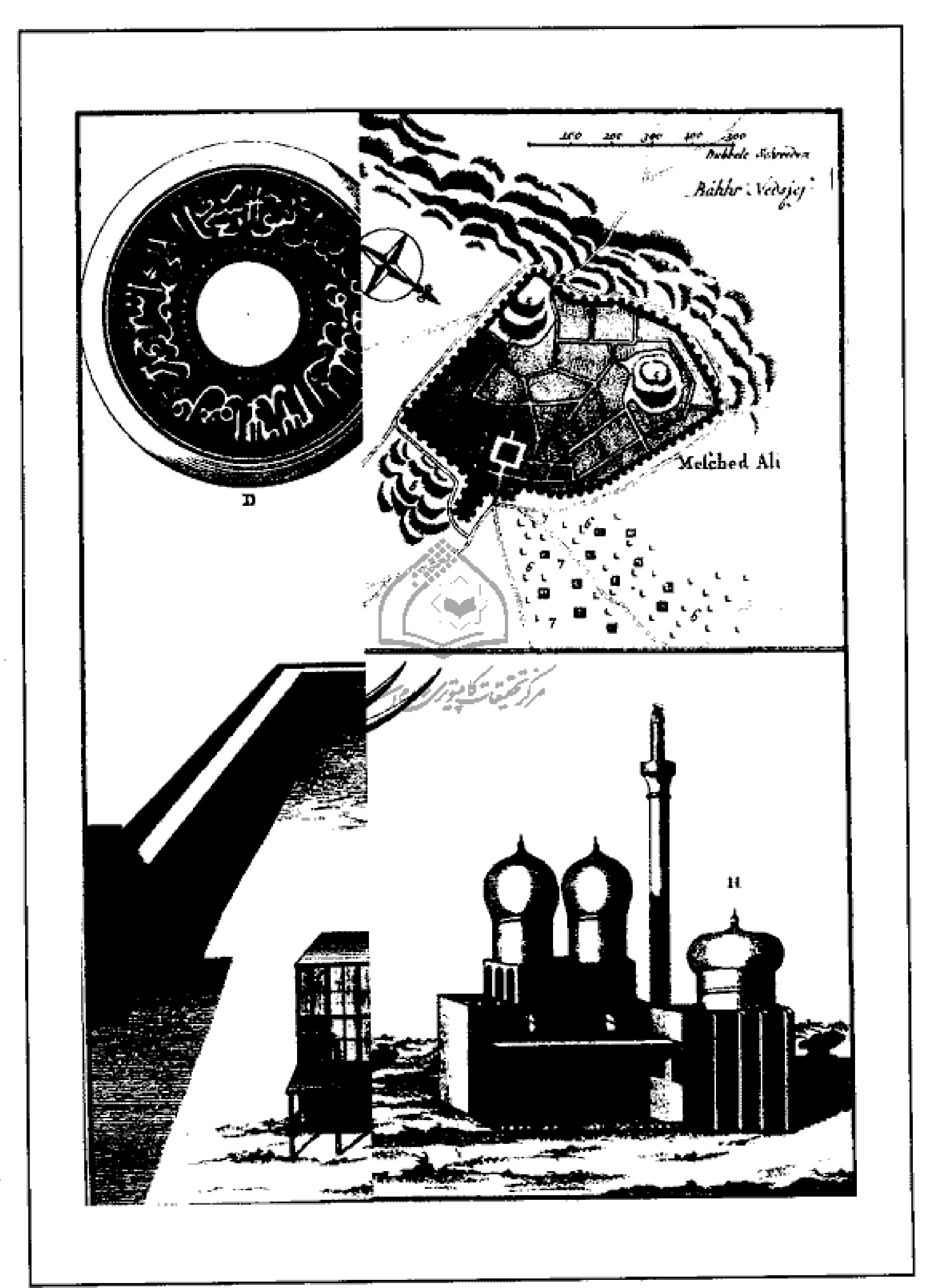
(*) نلاحظ ان مكان دفن علي لم يكن معروفاً في ايام الخلفاء الامويين (بالتالي منذ حولي ١٠٠ عام) في العام ٣٦٦ للهجرة، تم بناء مسجد على هذا القبر.

العاشر من محرم. ونادراً ما نسمع احداً هنا يستعين باسم الله ليؤكد كلامه، اذ يقسمون كلهم باسم علي، وباسم الحسين في مشهد الحسين، وباسم الشاذلي في المخا. ونسمعهم غالباً يصرخون: «واعلي! واشهيداه، واحسيناه واشهيداه، كرّم الله ذكراكما!»

إن المنظر الخارجي لمدينة مشهد علي يشبه إلى حدّ بعيد محيط القدس اليوم، وهي تمتد على المساحة نفسها تقريباً، وقد رسمت الخارطة على اللوحة XLII. يحيط بالمدينة سور، فيه بابان، باب المشهد قرب الرقم ١، وباب النهر قرب الرقم ٢، أما الباب الثالث الذي يحمل اسم باب الشام قرب الرقم ٣ فمسدود، وقد انهار السور من أماكن عدة حيث يمكن للمرء ان يدخل المدينة من خمسين فتحة، ونجد في المدينة ثلاثة مساجد صغيرة فضلاً عن المسجد الرائع الذي يضمّ قبر علي قرب الرقم ٤، وتكوّنت التلال قرب الرقم ٥ من أقذار الشوارع التي تستقدم على ظهور الحمير. وجعلت المدافن المشتركة قرب الرقم ٦. أما الرقم ٧ فيدل على المنطقة التي تجر منها المياه إلى المدينة عبر اقنية تحت الأرض.

ويلفت الانظار في المدينة، المسجد المشيّد فوق قبر الخليفة والامام علي، وقد رسمته بقدر ما سمحت لي الظروف قرب الحرف (أ A) على اللوحة XLII. أظنّ أنّ ما من صرح في العالم يعلوه سقف ثمين كمسجد الشيعة هذا، وقد دفع كلفته نادر شاه الشهير في بلاد فارس، لكن الطغاة كهذا الاخير يفعلون المستحيل ليبهروا أنظار الشعب، إن طلاء القبة الكبيرة وسطح المئذنتين بالنحاس ليس بالأمر العجيب، لكن هذا النحاس كله مذهّب، وقد استعمل لكل ٨ بوصات ونصف مربعة طومان ذهبي أي عشرة دراهم المانية(*). ويشكل هذا المسجد مشهداً رائعاً، لا سيّما حين تسطع عليه أشعة الشمس، وبما أن الصرح والمدينة بشكل عام مرتفعان، يمكن أن نرى القبة على بعد خمسة أو ستة أميال. ويرتفع فوق القبة، حيث نرى عادة في المساجد التركية هلالاً أو عصا طويلة، كفاً ممدودة لا بد أنها تمثل كفّ علي. وتحيط بالمسجد ساحة مفتوحة يقام فيها السوق يومياً، ونجد امامه ثريا بقناديل عدة، ويقوم حول هذا كله مبانٍ يقيم فيها بعض المسؤولين

(*) يورد محمد مهدي خان، في تاريخ نادر شاه ص ٣٧٤، ما يلي: «دفعت التقوى نادر شاه الى طلاء سطح المسجد المقدس بالذهب (مسجد مشهد علي او النجف الشريف كما يسمي الكاتب الفارسي المكان)، وقد قدّرت كلفة هذا العمل بمبالغ طائلة، وتم ترميم جدران هذا الصرح المبارك على نفقة الامبراطورة الشهيرة كوهرشاه البيغوم (Cuberachad Begun) التي ارسلت مئة الف نادري (على ما يبدو روبية وبالتالي حوالي ٦٦٦٦٦ درهم الماني) من حسابها الخاص. كما وهبت مبخرة مرصعة بالاحجار الكريمة، واناء من الذهب الخالص لحرق البخور في البيوت المقدسة. ودفعت السلطانة رضية البيغوم (Razia Begun) ابنة الشاه حسين عشرين الف نادري (حوالي ١٣٣٣٣ درهم).


Bahhr Nedsjef
Meschhed Ali
D
H

عن خدمة المسجد، ولا يمكن ان يقيموا فيها كلهم، اذ ان عددهم يتجاوز المئة، بحسب ما أكدوا لي، ومن ضمنهم العديد من الدراويش الذين يعيشون لشدة فقرهم عند مدخل المسجد ويعرضون صلواتهم على الحجاج لقاء مبالغ صغيرة، وقد صدمت حين علمت بالطريقة التي يقرأون فيها الصلوات لقاء صدقة أو على الاصح لدفع الشعب الفقير المتطير إلى التصدّق عليهم.

وتجرأت على الاقتراب من مكان يعتبره السنة والشيعة على حدّ سواء مقدساً، ولو تصرفت بتهوّر ودخلت المسجد، لربما اجبروني على اعتناق الدين الإسلامي ولم أشأ ارضاء حشريتي بهذا الثمن. لكن رفيق رحلتي والعديد من الشيعة أكّدوا لي أن المسجد يحوي ثروات طائلة، فالقبة مذهبّة وقد كتبت عليها آيات من القرآن بأحرف من خزف، كما كتب على الجدران بأحرف ذهبية كبيرة، ونجد أيضاً العديد من الشمعدانات من الفضة والذهب المرصعة بالاحجار الكريمة. ويكثر الحديث عن سعر خنجر، كذلك الذي يحمله الهنود في أحزمتهم، معلق على قبر علي المسوّر، ويقال انه مرصع بأحجار كريمة باهظة الثمن، وأن اورنك زيب (Aureng Zeb)(*) أهداه للخليفة الذي اغتيل منذ قرون عدة. ووصفوا لي قطعاً أخرى كثيرة في المسجد حتى أني أكاد لا أشك بما يروى عن عربي، بهرته هذا الامور، وحين ذكّروه بوجوب الصلاة، أجاب حقاً، إن الأشياء الفاخرة التي زيّنت القبر انستني ذكر الله.

ويهتم بهذا الكنز الكبير المتولي (المشرف على المسجد) والحاكم، كما يرسل باشا بغداد سنوياً مسؤولاً كبيراً للتأكد من وجود كافة المحتويات. لكن بما ان هؤلاء هم من أهل السنة ومن الاتراك، الذين يعرفون قيمة الذهب والاحجار الكريمة اكثر من أن يتركونها في أماكن مماثلة حيث تلهيهم عن صلاتهم، يعتقد الشيعة انهم يعملون على ابدال القطع الحقيقية بقطع مزيّفة.

وتقع مدينة الكوفة الشهيرة، على بعد خمسة أرباع الميل من مشهد علي إلى الشمال الغربي، في منطقة منخفضة وخصبة، ونجد هنا مجرى كري سعده (Dejare Zaade) (أو بالاكوباس) لكن المياه لا تصل اليه حالياً.

خلت المدينة ومحيطها من السكان، أما أبرز ما نجده فيها فهو المسجد الكبير حيث اغتيل علي، كما لم يتبقَ منها سوى الجدران الاربعة التي رسمتها مع الخارطة على اللوحة XLII، قرب الحرف (ب B) ويسمى الباب ١، باب الفيل، ورسمت قرب الرقم ٢ صرحاً عميقاً في الارض وغير مرتفع، يبدو وكأنه خزان مياه ويسميه العرب السفينة. وقد ذكر الدليل، وهو من سكان

(*) اورنك زيب هو امبراطور المغول الذي حكم عام ١٥٢٩ وتوفي عام ١٧٠٧ وهو نفسه شاه جهان المعروف في كتب التاريخ. (الانتشار).

مشهد علي يرافق الحجاج الفرس لرؤية الآثار، ويدّعي انه من أبناء الكوفة القدامى، أن سفينة نوح توقفت في هذا المكان. ويطلق على الصرح الصغير المستدير قرب الرقم ٣ اسم العسقاخانه (Sikke Khan)، وكانت المياه توزع هنا كما يدل على ذلك اسمه، لكن هذا الصرح ليس بقديم اذ نلاحظ فوق الباب حجراً كتب عليه بأحرف عربية كتلك المستعملة اليوم والتي لم تكن معروفة في زمن علي. وبني صرح صغير قرب الرقم ٤ حيث اعتاد الحسن والحسين اداء صلاتهما، ونلاحظ في الحائط الخلفي كوة في المكان الذي يزعمون أن موسى الكاظم كان يصلي فيه. وتدعى الاعمدة ٥،٦،٧، مقام سيدنا عيسى، مقام موسى ومقام ابراهيم الخليل، ويعتقد المسلمون ان المسيح وموسى ومحمد صلّوا في هذه الامكنة. وقرب الرقم ٨ نرى المكان الذي كان زين العابدين يصلي فيه عادة، وقرب الرقم ٩، ادّى كل من علي ونوح صلاتهما، كما نجد هنا منبراً بدرجة، يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام. ويقال إن نوح بنى اول منزل بعد خروجه من السفينة قرب الرقم ١٠، ونجد قرب الرقم ١١ قبر جعفر بن معمر وقرب الرقم ١٢ ضريح مسلم بن عقيل، ومسلم هذا هو ابن اخ الخليفة علي وقد قتل مع هاني بن عروة الذي آواه في منزله، ونجد قبر هذا الاخير قرب الرقم ١٣. ولم يبنِ الشيعة هذين الصرحين إلا في وقت لاحق، لأنهم يعتبرون مسلماً وهانئاً، وكل من مات من أجل علي واولاده شهداء. كما نجد بعض العواميد في حرم المسجد المذكور، مع أجنحة صغيرة لراحة الحجاج الذين يودون البقاء لبضعة أيام.

وجدت في غرفة مسلم كتابة عانت قليلاً من آثار الوقت، ونستنتج منها ان من محمد بن محمود الرازي وابي المحاسن بن احمد التبريزي، أقاما هذا الصرح في العام ١٨٦ للهجرة. وتقول الكتابة:

«هذه العمارة مشهد...مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام في ايام الصاحبين المخدومين على الحق والدين.....وشمس الدين والدي محمد بن محمد الجوني اعز الله انصار دولتهما بتولي ارقاب عبيدهما محمد بن محمود الرازي، وابي المحاسن ابن احمد التبريزي عفى الله عنهما في شهور سنة احدى وثمانين وستماية وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله».

ونلاحظ قرب لحد جعفر بن معمر الكتابة الكوفية الواردة على اللوحة XLIII قرب الحرف (أ A)، أما بالاحرف العربية الحديثة فهي:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. هذا قبر جعفر بن معمر رحمه الله وغفر له، صلى الله على محمد وعلى آل محمد».

أما الكتابة الواردة قرب الحرف (ب B) والتي وجدتها على جدار المسجد، فليست سوى الآية

A

D

٢٥٦ من السورة الثانية في القرآن وفقاً لتقسيم ماراقيوس (Maraccius)، وبما أن السيد ريسك ودّ ان أحفر كافة الكتابات الكوفية التي نسختها من أجل الذين يودون معرفة هذه الحروف. لم اكتف بهذه الكتابة بل اضفت كتابات أخرى صغيرة قرب الحرفين (ج C) و(د D). ونجد في بغداد حالياً، أمثلة عدة عن طريقة تزيين المنازل بالكتابات العربية بالأحرف الكوفية كما في هذه الكتابات الأخيرة.

أمرت عادلة خاتون (Adila Chatun)، زوجة سليمان باشا، ببناء جزء من الجدار الشمالي الغربي للمسجد وبترميم الجزء الاخر، كما أمرت بتشييد صرح صغير مع قبة تكريماً لابنة نوح، وأشار الدليل إلى المكان الذي غسل فيه جثمان الخليفة علي، والى غرفة صغيرة في هذا الصرح صنعت فيها ابنة نوح الخبز بحسب ما يزعم. ونرى صرحاً صغيراً مخصصاً لبنات علي الثلاث، ولعلهن دفنّ هنا. وعلى بعد حوالي ربع فرسخ إلى الشمال الغربي من المسجد الكبير، أشار الدليل إلى مسجد آخر هو مسجد صاحب الزمان المهدي، ورروا لي حكاية طويلة لم أفهم مغزاها. ولا نصادف حتى الكوفة إلاّ بعض التلال الصغيرة والمكونة من بقايا بعض الابنية، ويبدو أن المنازل كانت تبنى من الحجارة وبالتالي لا تهدم بسهولة كما في البصرة. كما نجد بين هذه البقايا، عملات قديمة لا قيمة لها اليوم، وبما أن المسلمين لا يجمعون أموراً كهذه، وبما أن الاوروبيين لا يزورون مشهد علي (على حدّ علمي، لم يزرها أي اوروبي)، لا يمكن للمسافر ان يتوقع شراء أيّ منها هنا.

ولم يثر اهتمام خادمي في الكوفة سوى بقايا عامود حمله علي بنفسه إلى المدينة، وهو قرب السفينة داخل المسجد الكبير، ويتميز بأنه لا يمكن لامرىء، لم تكن امه وفية لوالده ان يحضنه تماماً. وأراد الموجودون من عامة الشعب القيام بهذه التجربة للتأكد من هوية والدهم الحقيقي، وسرّوا جميعاً بالنتيجة باستثناء سائس واحد، واولوا ايهامه بأن العامود يتمدد بسببه، فقام الرجل المسكين بمحاولات بائسة لحضنه كلياً. وينظر العقلاء من المسلمين إلى هذه التجربة على أنها تسلية لعامة الشعب.

في ٢٥ كانون الأول/ديسمبر، سافرت من مشهد علي إلى كفيل (Kefil) وقطعت بالتالي أربعة فراسخ ونصف نحو الشمال، ثم اجتزت المسافة نفسها إلى الشمال الشرقي فوصلت إلى الحلّة، نستنتج من ذلك أن المساحة بين المدينتين هي تسعة فراسخ أو سبعة أميال. وتحوي كفيل قبر حزقيال الذي يؤمّه اليهود سنوياً، لكن هذا النبي لا يملك كنوزاً، ولا فضة، ولا ذهباً، ولا أحجاراً كريمة، حتى وإن أراد اليهود تقديم هدايا كهذه له، لما تركها المسلمون طويلاً، لذا يكتفون بإذن الحج، ولا نرى في مصلى النبي سوى قبر مسوّر تحت برج صغير، أما مالكة المكان أو حارسته

فعائلة عربية، بنت في المكان مسجداً جميلاً صغيراً، تعلوه مئذنة. ولا تدفع هذه العائلة اية ضريبة للاتراك، حباً بالنبي وحسب، كما تكسب الكثير من المسافرين الذين يحلو لهم الاستراحة هنا.

ويحيط بقبر حزقيال، وبالمسجد وبمنازل العرب الحقيرة سور متين وعال، تبلغ مساحته ١٢٠٠ قدم، ويقال إنه بني على حساب يهودي من الكوفة يدعى سليمان، ويبدو أن اليهود يقومون بترميمه حالياً. وفي موعد صبح اليهود، يؤم البلاد عرب يأتون لتهنئتهم أو على الاصح لمطالبتهم بالهدايا، ومن الأفضل ان يتفقوا معهم بالحسنى، لكن اليهود جبناء وخجولون. ويخيفهم عدد قليل من المسلمين وإن كانوا هم أقوى منهم مما يجعل العرب وقحاء متغطرسين، فيكتفي اليهود بالبقاء محبوسين في قلعتهم الصغيرة أو خانهم كما يسمّونه. ولا يتجرأ اليهود على اطلاق النار على أعدائهم، ولو لمرة واحدة، حتى وإن حملوا أسلحة نارية، لأن الدم الإسلامي الذي سيريقونه سيدفعون ثمنه غالياً، ولن يتوانى العرب عن ترقب قافلتهم المقبلة ومهاجمتها وسلبها. لذا يجب ان يبقى الحجاج في خانهم حتى يخلّصهم حاكم الحلّة، أو باشا بغداد، إن كان عدد العرب كثير، ويكلفهم هذا اكثر مما يطلبه العرب. وبما ان هؤلاء الاخيرين يضطرون إلى الانسحاب خاليي الوفاض تقريباً، يشكل هذا تنبيهاً لهم بعدم التعرض مرة أخرى لليهود.

ونصادف بين كفيل والحلّة العديد من الانهار الصغيرة الجافة خلال هذه الفترة من السنة، ولا نرى ما يثير الاهتمام على هذه الدرب سوى بعض منازل الفلاحين المتفرقة وعدداً من القبب فوق قبور اولياء المسلمين.

في ٢٦ استرحت في الحلّة، وفي اليوم الثاني توجهت إلى مشهد الحسين المبني في المكان المشهور بين المسلمين والمعروف باسم كربلاء، وهي تقع على بعد حوالي سبعة فراسخ أو خمسة أميال إلى الشمال الغربي من الحلّة، ولا نصادف على طول هذه الطريق (اللوحة XLI) إلاّ الطهمازية (Tomasie) وهي قرية كبيرة بناها الشاه عباس ونجد فيها العديد من حدائق النخيل.

لم تكن منطقة كربلاء آهلة بالسكان حين قتل فيها الحسين وبعض اهله واصحابه، لكن هذه المعركة اتاحت للمنطقة فرصة الاستفادة، فتمّ جرّ المياه اليها من الفرات ونرى فيها اليوم غابة من اشجار النخيل(*)، أما المدينة فأكبر من مشهد علي وأكثر سكاناً، وقد بنيت المنازل فيها بطريقة متينة لكن معظمها من الآجر كما في البصرة والحلّة. يتخلل سور المدينة خمسة أبواب، وهو مبني من الطين والآجر المجفف في الهواء الطلق، إنما قد انهار بأكمله.

(*) يسمي محمد مهدي خان هذا المكان «مكان الجنائن»، تاريخ نادر خان، ص ٣٧٤، الترجمة الالمانية.

ويلفت الانظار في هذا المكان مسجد كبير فيه مصلى يطلق عليه الشيعة اسم مذبح الحسين ويقال انه يقوم في المكان الذي داست فيه الخيل جسد حفيد محمد والذي دفن فيه. لكن السنة يشكّون في امكانية تحديد مكان مقتل الحسين ودفنه بهذه الدقة، وإن كانوا لا ينكرون ان المعركة دارت في هذه المنطقة. ورأيت أن رسم هذا المسجد أخطر من رسم مشهد علي، حتى أني لم أجرؤ على الظهور في فنائه أثناء النهار، لكني قصدته ليلاً معتمراً عمامة تركية، يرافقني رفيق رحلتي، وبما أنه كان مضاءً بسبب احتفال كبير، رسمت منظره عند عودتي على اللوحة XLII قرب الحرف (ج C) مما يعطي القارئ فكرة عن بناء هذا الصرح. تكثر النوافذ في الجدار الامامي، وهو أمر ملفت في بلاد لا تعرف الزجاج ابداً، ولعلها هدية من بعض الفرس الذين ارسلوها من مصنع شيراز. ونجد وراء الصرح الامامي، قبة عالية يقال إن الحسين دفن تحتها، وتحيط بها أربع مآذن، ونرى على مسافة قريبة منها قبة أخرى أعرض من الأولى وأقل منها ارتفاعاً، فلم اتمكن من اظهارها على الرسم من هذه الجهة. ويقوم كل هذا في ساحة كبيرة تحيط بها من الجهات الاربع منازل الشيوخ والدراويش، ونلاحظ أمام المدخل الرئيس للمسجد وجود شمعدان كبير من النحاس كذاك الموجود في مشهد علي. ويغيب الذهب من الخارج، ولكن يقال إن هناك أشياء ثمينة فوق قبر الحسين لكنها لا تقارن بكنوز ضريح علي.

ويشير الشيعة هنا إلى قبور العديد من أهل الحسين واصحابه الذين قتلوا في معركة كربلاء ويعتبرونهم شهداء، كما بنوا مسجداً كبيراً داخل المدينة تكريماً لشقيق الحسين العبّاس، وقد رووا لي الكثير عن هذا الاخير لكني لن أورد إلاّ ما يلي: كان الحسين يعاني من ظمأ شديد، فحفر العباس الارض في مكان يسمى حما قاع (Heima Kaa)، سآتي على ذكره لاحقاً، لكن لم يجد ماءً، فتقدم حوالي فرسخ إلى الشمال وملأ قربته، وفي طريق العودة، هاجمه الاعداء، وحاولوا الوصول إلى الماء، وقطعوا يده فأخذ القربة بيده الاخرى فقطعوها، عندها التقطها بأسنانه لكن احد الاعداء صوّب سهماً نحو القربة وخرقها فسالت المياه منها، وعاد العباس من دون أن يتمكن من إرواء ظمأ اخيه.

ومن بين الامكنة التي يقصدها الحجاج هنا، المكان الذي وقع فيه جواد الحسين وخيّاله، وهو خارج المدينة، على الدرب المؤدية إلى مشهد علي، وقد تم بناء مصلى صغير هنا. وقصّ عليّ الدليل بالتفصيل ما قاله الامام لعائلته في هذا الموقع، وما أمر به قادته، لكني لم أجد داعٍ لذكر هذه الامور هنا. ونصب الحسين خيمته للمرة الاخيرة قرب حرية قاع (heria Kaa)، وقد تحوّل هذا المكان حالياً إلى حديقة كبيرة في الجهة الاخرى للمدينة. ونرى في المكان الذي لم يجد فيه العباس الماء بئراً عظيماً، امتلأ بالماء بفضل أعجوبة وذلك استناداً إلى رأي الشيعة، الذين يعتبرون

مقدساً، فيقصده اناس من بلاد فارس ليغرقوا فيه حباً بالحسين، ظناً منهم أنهم سيعتبرون شهداء. ونرى في الحديقة صرحاً مهدّماً من المكان الذي ضربت فيه خيمة الحسين، كما نرى بالقرب منه صرحاً آخر منخفضاً فيه قبر قاسم العريس وغيره من الشهداء. وسعدت مضيفتي، وهي أرملة عجوز وشيعية متحمسة، حين علمت اني زرت قبر القاسم. إذ انه وليّها المفضل، وروت لي وقد اغرورقت عيناها بالدمع، أن هذا الفتى الشجاع كان قد عقد قرانه اي ان عقد زواجه قد تمّ أمام القاضي بحضور شهود، لكن ليلة زواجه الفعلي، قتل مع الحسين وغيره من الشهداء. وتحفظ هذه العجوز حرفياً ما قاله الزوجان لبعضهما قبل بدء المعركة.

ويأتي بعض السنة إلى مسجد الحسين لأداء صلاتهم بجديتهم المعهودة، في حين ان الشيعة يطلقون صرخات يرثى لها. وكنت في المدينة عند اكتمال القمر في شهر رجب، حين يتوافد الحجاج لتمضية الليلة قرب قبر الحسين، وبما أنهم لا يملكون تقويماً مطبوعاً، وبالتالي لا يتأكدون تماماً من أيام اعيادهم، يمضي العديد منهم ليلتين في المسجد بغية عدم تفويت اللحظة الحقيقية. وتفاجأت حين رأيت هؤلاء الناس المتطيرين يقبّلون باب الفناء بخضوع فضلاً عن باب المسجد، ويقال انهم يكتفون بتقبيل البلاط داخل المسجد، بل إن بعضهم يضرب رأسه بالجدار والقضبان الحديدية تألماً على مقتل الحسين. كما يروى أن بعضهم بلغ تأثره الذروة فأقدم على قتل نفسه قرب قبر امامهم الكبير ظناً منهم أنهم سيعتبرون شهداء وأنهم سيدخلون الجنة لأنهم ضحّوا بأنفسهم حباً بالحسين. وأعترف اني لم أسمع شيئاً بكآبة ما يقوم به الشيعة في مسجدهم، إذ يصرخون ويبكون ويتأثرون كما لو كان الحسين أباهم أو أنه توفي لتوه، ولم يكن هذا بدور يلعبونه أو حزن يدّعونه كما تفعل الباكيات في المآتم اللواتي يبكين مقابل بعض المال، بل تشعر أن الحزن حقيقي وصادق، فتراهم محمريّ العيون عند خروجهم من المسجد، وأظن بشكل عام أن الشيعة أكثر اخلاصاً وتشدداً في هذه المدينة منهم في مشهد علي، ولو أن الحكم لهم في هذه المدينة، لما رأيت سنياً واحداً فيها، وتمنحهم الحكومة التركية حرية اداء واجباتهم الدينية على طريقتهم في كافة الاماكن التي يعتبرونها مقدسة لأنها تجني فوائد عدة من ذلك. ولا يناقضهم السنة العقلاء حين يسمّون الحسين اماماً وشهيداً، لكنهم لا يتجرأون هنا على لعن الخلفاء الثلاثة الاوائل، وهو أمر قاس بالنسبة لشيعي متطرف سيّما في هذين المكانين المقدسين.

وينبغي أن ينتبه المسافرون عامة، والشيعة خاصة من المجموعة من الانكشاريين المتشردين التي طردت من بغداد بسبب سوء تصرّفها، والتي تحاول التعرف على الفرس الاغنياء. يروي الانكشاريون للفرس اخباراً فظيعة عن الحكومة التركية وعن السنة بشكل عام، وما إن يبادلهم الغريب اطراف الحديث حتى يتشاجرون معه، ويتهمونه بأنه اساء إلى الحكومة أو الدين، ويجدون

اولاً شهوداً على حديثه، واذا اراد الفارسي تجنب الوقوع في يد العدالة اضطر إلى دفع المال بسخاء. وأراد أحدهم، وكان يبدو أنيق المظهر، التعرّف اليّ في أحد المقاهي، ظناً منه اني تاجر ارمني، وحين علم اني اوروبي سرّ أكثر، وأخذ يمدح الخدمات الجلال التي قدّمها له أوروبيون في حلب والقسطنطينية، وسمّى بعض الاوروبيين الذين يعرفهم بأسمائهم، وأعلمني باستعداده لتقديم اي خدمة لي في بلاد أنا غريب عنها كلياً، ولا يهتم سكّانها بالاوروبيين وبالمسيحيين الشرقيين. وغالباً ما سمعت اطراءات كهذه في بلاد فارس، وهي لا تعني شيئاً لكنني لم أعتد تلقي عروضات كهذه من عرب أو أتراك، فالتزمت الحذر وحين علمت هوية محدّثي تجنبت الرفقة بشكل عام.

تجدر الاشارة إلى أنّ الكعبة ليست المكان الوحيد الذي يعتبر ملجأ للحمام عند المسلمين، فلا يطردونها من الجامعين فوق قبري علي والحسين، والجامع الرئيس في الحلّة وفي مدن أخرى.

وبما أني تحدثت غالباً عن الشيعة، سأذكر هنا نقاط التباين بينهم وبين السنة(*): يعتبر كلا الطرفين القرآن كتاب شريعتهم ونظامهم، ويؤمنون ان لا اله إلا الله وأن محمداً نبيّه. ويقال إن الشيعة يطهرون اجسادهم. ويصلّون خمس مرات يومياً، ويمنحون الكثير من الحسنات، ويصومون شهر رمضان، ويحجون إلى مكة مرة على الاقل، لكنهم يفسرون فقرات عدة من القرآن بطريقة مغايرة لتفسير السنة. وبما انهم انفصلوا عن السنة لأن عائلة نبيهم لم تحصل على الخلافة، جعلوا من هذا الامر فعل ايمان يرفضه السنة، وأهمه أنهم يكرهون الخلفاء الثلاثة الاوائل أي ابا بكر وعمر وعثمان، وقد جعل هذا الامر الكراهية تستشري بين الطائفتين.

ويجب ان يؤمن الشيعة بالاثني عشر اماماً الذين كان ينبغي ان يحكموا برأيهم، الواحد تلو الاخر، لكنهم تعرضوا للاضطهاد عن قبل الخلفاء. والامام الاول هو علي، صهر محمد الذي ذكرته سابقاً، وأضاف الشيعة إلى شهادتهم ما يلي: «لا اله الا الله، ومحمد رسوله، وعلي ولي الله»، ويؤكد بعض الكتّاب الاوروبيين أنهم يفضلون علي على محمد، لكن هذا الكلام غير صحيح وإن كان لذكرى علي احترام واجلال بينهم. أما الامام الثاني فهو الحسن، الابن البكر لعلي وفاطمة، وقد دفن في مكة. والامام الثالث هو الحسين (الذي ذكرته سابقاً) أخو الحسن، والرابع يدعى علي، والخامس محمد ويلقّب بالباقر، والسادس هو جعفر الصادق وقد دفن هؤلاء الثلاثة في المدينة. وامام الشيعة السابع هو موسى الكاظم الذي سآتي على ذكر قبره عند الحديث

(*) في الترجمة الالمانية لـ«التاريخ العام للازمنة المعاصرة» لسملر، وفي الجزء الأول. صفحة ٥٣٨، يقول الكاتب: «يستخدم السنة كلمة شيعة ككنية او كلفظة احتقار» ويسمي اتباع علي العدلية. لم اسمع بطائفة في بلاد فارس تدعى العدلية، ولا يعتبرون كلمة شيعة اهانة. ويطلق الاتراك على الفرس اسم كوفيالباش (Kufilbasch) للسخرية.

عن بغداد، والثامن هو علي الرضا المدفون في مشهد في خراسان، وقد دفن محمد الجواد وهو الامام التاسع قرب جدة موسى في مسجد في مدينة بغداد القديمة. ويعتبر علي الهادي والحسن العسكري الامامين العاشر والحادي عشر، ونرى ضريحيهما في سامرّاء، وهي مدينة على نهر دجلة شمال بغداد. ويحمل الامام الثاني عشر اسم محمد، وقد تعرّض للاضطهاد من قبل الخليفة فلم يعد يظهر علناً، ويقال إنه عاش لفترة طويلة في كهف في سامرّاء، ونجد هناك قبره. ويعتقد الشيعة ان الله أخفاه عن الارض وانه سيعود يوم القيامة تحت اسم المهدي وسيدعو الناس إلى مذهب الشيعة. إن المسجد قرب الكوفة الذي ذكرته سابقاً والذي يحمل اسم صاحب الزمان المهدي، قد بني تكريماً لهذا الامام.

ويزر الشيعة قبور الامام الاول والثالث والسابع والثامن والتاسع لأنها الاقرب اليهم، ويحج بعض منهم إلى سامرّاء، لكن لا ينال احد لقب حج ما لم يزر الكعبة في مكة ولو لمرة واحدة. ولا يقصدون قبور الشهداء من اصحاب محمد إلاّ في المناسبات، وقلما نجد قرية شيعية أو سنية تفتقر إلى قبر وليّ ما، لكن الغرباء من المسلمين لا يهتمون بها ويكتفون بصلاة قصيرة فيها من دون الاكتراث حتى لاسم هذا الولي.

ويصلي السنة عامة في الاوقات المحددة للصلاة، اي إنهم يؤدون صلاة الظهر ما بين الساعة الثانية عشرة والثالثة بعد الظهر، وصلاة العصر بين الثالثة بعد الظهر والمغيب، الخ...وإن تقاعسوا عن الصلاة في الوقت المحدد، لا يعتقدون أن الله يقبل من الانسان ان يصلح خطأه بأداء هذه الصلاة في وقت لاحق. ويجعل بعض الشيعة (لعلهم من الجعفريين) الذين سافرت معهم في بلاد فارس صلاتهم اسهل اذ يكتفون بالصلاة عند المساء عن النهار بأكمله، ولا يؤدي هؤلاء صلاتهم بخشوع كالسنة، فقد لاحظت ان بعضهم يتوقف أثناء صلاته للاستماع للاحاديث ويشارك فيها احياناً. لكنهم يغتسلون قبل الصلاة، ويفترشون سجادة أو عباءة كي لا يتسخوا اثناء سجودهم. ويضعون قرصاً من الارض التي قتل عليها الحسين والتي يعتبرونها مقدسة في المكان الذي يلمس فيه جبينهم الارض لأنهم يظنون أن صلاتهم ستعتبر كما لو أنهم أدّوها قرب قبر امامهم. عند انتهائهم من الصلاة، يحملون سبحة مصنوعة من التربة ذاتها، ويكررون بعض الكلمات حتى انتهاء الحبّات، ثم يسرّحون لحاهم.

وتصنع السجدة والسبحة اللتان ذكرتهما في مصنع في مشهد الحسين تملكه منذ سنوات عائلة تدّعي تحدرها من محمد أي إنها من السادة (السيّاد)، وتتبع المذهب الشيعي، لكنها تدفع سنوياً مبلغاً كبيراً لباشا بغداد لقاء هذا الامتياز. وتباع هذه الاغراض في مبنى صغير قرب مسجد الامام، وطلبت من الشيخ شراء بعضها، ورسمت اشكالها واحجامها المختلفة على اللوحة XLII قرب

الحرفين (د D) و(هـ K)، فنستنتج منها أنها محفورة بشكل جميل. كما اشتريت مدرجاً يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، وعرضه ثمانية أقدام، عليه صور للكعبة وقبر محمد وقبور الائمة الاولين وأمور أخرى يزورها الحجاج، لكن الرسم سيىء للغاية ومليء بالالوان فضلاً عن الذهب والفضة. ورسم على هذه الورقة البراق الذي امتطاه محمد في رحلته إلى السماء، وجمل يحمل الوشاح الثمين الذي يرسل سنوياً من القاهرة إلى مكة، واسد (ربما يمثل علي)، وجواد علي المبرقش الشهير دلدل(*)، وعبده الوفي قنبر، وحسامه الذائع الصيت ذو الفقار، واخيراً الختم النبوي الذي يقال إن محمداً يحمله على ظهره. ولن يروق لقارئي أن احفر هذه الصور بحجم متوسط، لكن بما أن ذكر ذو الفقار يرد غالباً في قصص العرب، رسمته قرب الحرف (و F)، وهي صورة فريدة وكبيرة للغاية، لكن لا بد أن رجلاً شهيراً كعلي وقوياً مثله، اعتاد أن يحمل حساماً فريداً وعظيماً. ويبلغ حجم السيف المرسوم على هذه الورقة ستة أقدام ونصف مقارنة مع حجم الصور الاخرى. وسيجد الاوروبيون هذه الصورة غريبة للغاية، لكن اذا اعتبرنا ان المسلمين يجعلون سيف علي ذا حدّين، وأنهم حالياً لايعرفون سوى الحسام، لا يمكننا أن نلوم الرسامين الشرقيين الذين يتبعون مخيلتهم ويرسمون ذا الفقار بحدّين. ألا يرسم الاوروبيون أشياء من الشرق لم يروها بأنفسهم بطريقة غريبة أيضاً؟

ونرى على اللوحة نفسها قرب الحرف (ز G)، أثر ختم الرسالة الذي يحمله محمد، وقد كتب عليه بالعربية، لكن أكّد لي أحد رجال الدين السنة أن العلماء غير متفقين حول طبيعة هذا الختم، ويدعي ان لمحمد عينان خلفيتان في هذا الختم يرى من خلالهما ما يدور خلفه. ورسم البراق على الورقة على شكل جواد مسرّج، له رأس امرأة بشعرها الطويل، وجناحين صغيرين وذنب عريض.

تعرض المذهب الشيعي المسيطر في بلاد فارس منذ أكثر من مئتي عام، والذي انتشر خارج حدود هذه المملكة، منذ سنوات عدة، لخطر الابادة على يد نادر شاه. وحاول هذا الاخير ذلك إما غطرسة وإما تفاخراً، كي يدّعي انه أسس مذهباً جديداً، ولعله اعتقد أن سلالته لن تضاهيه وظن أن المذهب الجديد سيبقيها على عرش بلاد فارس. وقد نجح الشاه اسماعيل في عمل كهذا في ما مضى، لكن نادر لم يكن مطلعاً على القرآن وتفسيراته المختلفة، وإن أظهر قيمة عظيمة وخبرة كبيرة حتى أنه لم يكتفِ بإخضاع بلاد فارس كلها والهند ايضاً، لكنه افتقر إلى الميزات الاساسية التي تجعل منه مؤسس مذهب جديد، لذا اساء إلى الدين بالتغييرات التي ادخلها، وقبل ان أخوض

(*) في الحقيقة دلدل ليس اسم حصان علي ولكنه اسم البغل الذي كان يركبه النبي ﷺ وقد اهداه إياه مع جملة هدايا المقوقس حاكم مصر قبل الفتح (الانتشار).

في الحديث عن محاولة هذا البطل الفارسي الكبير، سآتي على ذكر بعض الامور المتعلقة به كأصله وشخصيته.

يتحدر نادر شاه من عائلة كيركلو (Kirklu) وهي من قبيلة أشار (Aschares)، من سلالة التركمان التي أقامت في تركستان سابقاً، لكنها عادت وسكنت بلاد فارس كبعض قبائل التركمان والاكراد والعرب الاخرى.

إذاً، هو نبيل تركماني ولد في بلاد فارس، وليس هولندياً كما شاع في اوروبا(*)، ويمكن مقارنته من حيث ولادته بشيخ عربي صغير وضعت عائلته نفسها تمت حماية قبيلة كبيرة(**)، لكنه تمكن من الاستفادة من المشاكل القائمة آنذاك في بلاد فارس. وثارت معظم المملكة ضد الشاه، لا سيّما بعض الامراء في اقليم خراسان البعيد الذين اخذوا يستقلّون عندما حاول نادر شاه مع بعض الرجال أن يصبح حامي بعض القرى، وازدادت امواله بسبب المساهمات والجُزىٰ وأخذ يجمع الرجال حوله ويطرد الذين حذوا حذوه. وإن صادف جار أقوى منه سعى إلى كسب صداقته ووعده بمساعدته في مواجهة جار آخر، وإن غُلب هذا الاخير، عرف نادر شاه كيف يتخلص من الاخر إما بالحيلة وإما بالقوة، وكيف يستميل معظم رجاله الذين يبحثون عن قائد يسهل لهم عمليات النهب والسلب، وهكذا، امسى قائداً لآلاف من الرجال، وسيّد اقليم كبير فيه حصون عدة صغيرة. خلال هذه الحروب الداخلية في بلاد فارس، يبرز العديد من هؤلاء الجسورين، وأضحوا اسياد مستغلين لمناطق شاسعة، حتى أن كريم خان الذي يسيطر على قسم كبير من المملكة الفارسية لا يتحدر من نسب أفضل من نسب نادر، إنما هو كردي من عائلة سند (Sand) البدوية التي تعيش من نتاج الاغنام. وضع نادر أسس العظمة التي وصل إليها، حين عرف كيف يسدي الخدمات الضرورية لطهماز شاه (Thamas)، الذي خسر مملكته بسبب الافغان والمتمردين أمثال نادر نفسه، اذ قدّم للملك الاقليم الذي سلبه منه وخدماته لمواجهة متمرد قويّ، فنال عفوه حين استقدم جيشاً صغيراً.

كان طهماز شاه سيداً ضعيفاً، غير قادر على قيادة الجيش القليل العدد الذي تركه له المتمردون، واتكل في هذا على قائده، وهو رجل شريف لكنه ليس بالجندي الماهر والماكر أو على الاصح لم يكن خبيراً بقيادة الرجال كنادر. وكان بإمكان هذا الاخير ان يواجه جيش الشاه الصغير ويهزمه، لكنه فضّل تسليم الحصن الذي سلبه من صاحبه الشرعي ولم يطلب من ملكه

(*) تاريخ توماس كولي خان، مخادع بلاد فارس.

(**) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

سوى شرف مساعدته، مع رجاله، وتحت إمرة القائد المذكور آنفاً على طرد المتمردين. وخضع نادر في بادىء الامر لأوامر هذا القائد، وتغلبوا على جاره وعدوّه الذي لم يتمكن من مقاومته وحده. أحب الفرس ملكهم، ولم يتخلّوا عنه إلا لأنه غير قادر على قيادة جيش بنفسه ولا يملك ضابطاً كفوءاً يمكّنهم من مواجهة المتمردين.

اشتهر نادر في خراسان، وازدادت قوة جيش الملك يوماً بعد اليوم، وخضعت المنطقة كلها له، لكن البطل الشاب لم يكتف بذلك، ومع اخضاع المتمردين وطردهم، شرع يتقرّب من الشاه، وأقنعه بإعدام قائد جيشه العجوز والوفي. وهكذا، أضحى نادر قائداً لجيوش سيده، وكثرت الاشاعات حول القائد القديم واتهم بالخيانة، في حين أن نادر الذي خضع للملك بارادته، والذي سعى إلى نيل سمعة من لم يحاول الحصول على السلطة لنفسه بل مكّن سيّده من السيطرة على خراسان، اعتبر خادماً وفياً. والتحقت أعداد هائلة بجيش الملك الشرعي الذي يرأسه قائد شجاع وحذر، واخذت المناطق تخضع له الواحدة تلو الاخرى، وخشي نادر ان يتمكن أحدهم من التقرّب من سيّده فيدفعه إلى التخلص منه كما فعل هو بالذي سبقه. وللحؤول دون ذلك، أخذ يجعل من الملك أضحوكة الضابط المهيمن، وعمل على خلعه في جلسة عامة، وتمّ تعيين أحد الامراء، وهو ولد مريض، شاهاً وأصبح نادر بالتالي حاكماً للمملكة. بعد وفاة نادر شاه، اتّبع المتمردون السياسة نفسها، فحاول العديد منهم ايجاد احد افراد العائلة المالكة (أي متحدر من احدى الاميرات. لأن الامراء كلهم قتلوا) بحجة ايصاله إلى العرش، وحصل هؤلاء على عون اكثر من المتمردين الذي صرحوا عن رغبتهم في الوصول إلى سدّة الحكم. كما وصل كريم خان إلى مبتغاه بهذه الطريقة أيضاً، اذ استقدم فتى اسمه اسماعيل وهو ابن السيد مصطفى وابنة الشاه حسين، واطلق عليه اسم اسماعيل شاه وعامله معاملة الملوك، وأعلن انه لا يسعى للحصول على الحكم لنفسه انما لأحد افراد العائلة المالكة القديمة، لكنه لم يعد يخشى المتمردين، فترك اسماعيل شاه في احدى القلاع يتمتع بأمجاد الملك التي تقدم له، في حين لا يحمل هو سوى لقب وكيل أو حاكم، ويحكم فعلياً كطاغية(*).

حكم نادر كوكيل للمملكة حتى وفاة الملك الشاب، فدعا إلى اجتماع الفرس في سهل موغان (Mogan)، وأخذ يعدد الخدمات التي أدّاها للمملكة، وترك لكبار الامة حرية تقرير ما اذا كانوا يفضلون اعادة طهماز شاه (الذي لا يزال حياً) إلى العرش. أو اختيار ملك آخر، ورافقه إلى الاجتماع جيش يتألف من مئة ألف رجل مخلصين له لأنهم انتصروا تحت امرته وجمعوا غنائم

(*) في الترجمة الالمانية لتاريخ نادر شاه الذي كتبه محمد مهدي خان، اعطيت تفاصيل كاملة عن كريم خان وغيره من المتمردين الذين اشتهروا في بلاد فارس بعد وفاة نادر شاه.

عدة. عندئذٍ، قام احد حلفائه، وهو رجل واسع النفوذ وبليغ، وأعلن أن ما من احد يستحق حكم هذه المملكة اكثر من القائد الذي خلصها من الاعداء، وأيّد الجيش هذا الاقتراح، فلم يتجرأ أحد الاعيان على الاعتراض. يقال إن نادر شاه لم يكن يأبه ان عيّن شاهاً، حتى انه أراد ان يفكر الفرس ملياً بهذا الأمر العظيم كي يختاروا أكثر الناس كفاءة كملك عليهم. كما أنه اعترض قائلاً انه لا يتمنى حالياً، بعد أن استتب الامن في بلاد فارس، سوى أن يستريح في احدى مناطق خراسان التي سيحتفظ بها لنفسه.

أعاد نادر للمملكة معظم الاراضي التي اقتطعتها الدول المجاورة وسلبها المتمردون، وبالتالي قدّم خدمات جسام للبلاد. فإن استلم العرش، تحافظ بلاد فارس على عظمتها، لكن إن أعيد الحكم للشاه الشرعي أو تمّ اختيار احد الخانات الذين يخضعون لنادر، قد لا يعجب الامر الجيش ويتفرّق فيتقاسم القادة الذين يقودون قبائلهم الخاصة وجندهم المقاطعات في ما بينهم، فاضطر الفرس إلى تسليم العرش لنادر. وبما أنه لم يكن يأبه لخيارهم، تمنى الفرس ان يتعب من الحرب، وأن يبحث عن السلم بصفته شاهاً، حباً برعاياه، وبانتظار أن يتخذ نادر قراره حول قبول الحكم أو رفضه عاش الجيش والجموع في قلق.

ولم يكن نادر وحده من اتباع المذهب السني، بل القسم الاكبر من جيشه الذي يضم العديد من الافغان والتركمان والاكراد والعرب، ويقال ان القائد كان يفضل هؤلاء على ابناء البلد من الشيعة. وكان هذا الامر يستحق الانتباه عند اختيار ملك من مذهب مختلف، يحيط به العديد من ابناء دينه في جيشه يرأسهم قادتهم الخاصين، لكن هؤلاء لم يهتموا يوماً بالدين، وظن الناس ان نادر يفضلهم لأنهم اعتادوا على العيش في الخيام منذ نعومة أظافرهم وبالتالي هم جنود اشجع وأفضل من الفرس الذين يفضلون العمل بالزراعة والتجارة، والعيش في ترف ورفاه. ولم يظهر نادر، حتى ذاك اليوم، أيّ تعلّق بالدين أو أي تطرف، وجل ما فعله هو اقتلاع كراهية الدين من جيشه وترسيخ الوحدة بين أفراده، وأمل الفرس ان يبقى متسامحاً وهو شاه كما كان وهو قائد للجيش. وأخطأ الفرس في اعتقادهم هذا، اذ إنّ نادر، وبعد أن جعلهم ينتظرون قراره جمع كبار المملكة وأظهر لهم نتائج فرقة الدين الوخيمة، وذكّرهم بالحرب الدامية التي دارت بين الاتراك والفرس بسبب هذا الامر، وبوجود العديد من التركمان الشجعان والاكراد والعرب السنّة في الجيش الذي اخضع المتمردين، وأشار إلى انه لا يجوز ان يحتقر محررو مملكة الفرس وان يعتبروا كفاراً(*)، وأن يسمعوا الاهانات واللعنات

(*) ساد الاعتقاد نفسه بين اليسوعيين الذين اعتبروا ان ملك الحبشة ورعاياه يمكن ان يصبحوا كاثوليكاً الى الابد، لأن البرتغاليين ساندوه مرة في مواجهة جيرانه من المسلمين. رحلة الاب جيروم لوبو الى الحبشة بقلم لوغران.

التي يطلقها الشيعة على الخلفاء الثلاثة الاوائل ابي بكر، وعمر وعثمان، وقال إنّ السنة لا يعبدونهم إنما ويجلّونهم ويحترمونهم لأنهم من صحابة محمد ولأن الله اختارهم ليكونوا خلفاء وذلك على يدّ المسلمين الذين لم يكونوا سنة أو شيعة، فضلاً عن أنهم لن يسيئوا إلى انسان بعد مرور اكثر من الف عام على وفاتهم. ولن يصبح علي وهو الخليفة الرابع، الخليفة الاول أو الثاني أو الثالث، وبالتالي فإنّ لعن الخلفاء الاوائل وصحابة الرسول ضرب من الجنون والتطير، وإذا ما اجتمع الشيعة والسنة سيمنعون سفك الدماء ويخضعون لإرادة الله الذي أمر المسلمين الذي يؤمنون بإله واحد أحد وبنبيه بالعيش سوية كالأخوة. اتبع الاتراك مذهب ابي حنيفة، والمصريون مذهب الشافعي، والافارقة مذهب مالك، وغيرهم مذهب ابن حنبل، لكنهم جميعاً من أهل السنة ويعتبرون بعضهم بعضاً مؤمنين وأخوة. وأضاف إن المذهب الشيعي جديد، حين انفصل عن السنة جرّ على الامة الكثير من الاحزان، فإن كنتم مسلمين اصحاء، عليكم اعادة اللحمة بين فرقاء دين نبيّكم، لكنكم لستم مضطرون لاتباع أحد مذاهب السنة الاربعة، فأنتم تجلّون جعفر الصادق، وتعتبرونه أحد أكبر أئمتكم، وتقبلون بتفسيره للقرآن بالرغم من أنه أقدم من مذهب الشيعة! اكتفوا بذلك، واحملوا اسم الجعفريين، خامس مذاهب السنة. وإن رفضتم ذلك، والتزمتم مذهب الشيعة، واستمريتم في كره غيركم من المسلمين، فلا اريد حكم بلاد فارس. بعد هذا الاقتراح حول تغيير الدين، انسحب نادر ليترك للجموع الوقت الكافي للاتفاق حول الخطوة التي ينبغي اتخاذها، وهل يضعونه على العرش، علماً ان جيشه المؤلف من مئة الف رجل كان جاهزاً.

وكثر البلغاء الذين أشادوا بالقائد وبالخدمات التي أسداها للأمة، فضلاً عن تقاه وحماسته للدين، ووجدوا أفكاره حول الذين هم من غير دينه عادلة للغاية، وتصرفاته عادلة، واعتقدوا بضرورة التنازل وتنفيذ ما طلبه هذا القائد الجسور والمنصف والذي لا يهمه سوى راحة الانسانية، لكن بعض الحضور الذي يعرف مكامن نفس نادر، اقترح التروي في أمر بهذه الاهمية، وطلب رأي شيخ الاسلام (المفتي) فأشاد هذا الاخير بإنجازات القائد، واعلن ان ما من احد يمكنه اقرار السلم والامن في البلاد أكثر من نادر شاه الذي اخضع الاقاليم كافة. أما في ما يتعلق بتغيير الدين، فرجا الشاه الجديد ألاّ يتسرع في ذلك وأن يسلم هذا الموضوع المهم لرجال الدين كي يدرسوه لاحقاً. عندها، علت أصوات تندد بوقاحة رجال الدين وايثارهم لمصالحهم الخاصة، فهم يثيرون النزاعات بين المسلمين ويمارسون الاضطهادات كافة الخ، وقتل هذا الرجل العجوز على يد الرجل الهادىء الذي كان يتحدث منذ لحظات بإنسانية ومحبة عن أبناء الديانات الاخرى، عندئذ، لم يعارض أحد تغيير الديانة وأعلن نادر شاهاً، فحرر عقداً يعلن فيه أنه يقبل بحكم بلاد فارس بناء على طلب الفرس أنفسهم ولأنهم أعربوا بملء ارادتهم عن استعدادهم للاتحاد مع السنّة، ثم أرسل فرماناً إلى

كافة الاقاليم يمنع فيه السكان من لعن الخلفاء الثلاثة الأوائل ويلزمهم بذكرهم باحترام، كما يمنعهم من الاحتفال بذكرى الحسين، باختصار لن يبقوا شيعة انما سيشكلون المذهب الخامس للسنّة تحت اسم الجعفريين.

وهكذا، أعلم نادر شاه الفرس، منذ بدء حكمه، ما ينبغي أن يتوقعونه منه، ووجد العديد من رجال الدين أفكار الزعيم الجديد حول الدين ممتازة، فتولوا مناصب رفيعة، وكثر الحديث عن التسامح والمحبة ازاء الديانات الاخرى فضلاً عن القضاء على التطيّر الخ. ووصف الشيعة بالخبثاء الجاهلين، الذين يسيئون تفسير القرآن ويمارسون شعائر غريبة، ويظنون أنهم يتقرّبون من الله ببكائهم ونحيبهم على موت الحسين. لكن مهما حاول الجعفريون السخرية من أتباع المذهب القديم، انتشرت ديانتهم ببطء شديد، لأنهم لم يتمكنوا من نشرها بالطباعة، ولم يؤمّنوا وظائف لأتباعها لأن عائلة مؤسس أي مسجد، تُمنح المهمات فيه. وحاولوا جاهدين، دعوة الشيعة لعدم لعن الخلفاء الثلاثة الاوائل، وعدم البكاء على الحسين، لكن هؤلاء اعتادوا منذ سنوات سبّ أبي بكر وعمر وعثمان، فيستحيل عليهم حالياً اعتبارهم اناس شرفاء، وبما أنهم وجدوا العزاء في البكاء على حفيد نبيهم رفضوا ترك هذه العادة. وتبين بعد مراقبة تصرفات الجعفريين انهم غيّروا دينهم ولم يبدلوا طباعهم، واذا ما اتهم رجال الدين الشيعة بالطموح، تبين أن الجعفريين يبحثون عن المكاسب ويسعون وراء النفوذ، وان اتهم رجال الدين بالتطيّر، اتهم الجعفريون بالتشكيك اذ لوحظ أن رجال الدين لا يقصدون المسجد إلا لقاء أجر وأن العلمانيين لا يكترثون بالدين ظناً منهم أنهم يبتعدون بذلك عن التطيّر، ويتهم الشيعة بأنهم اعداء لغيرهم من المسلمين، ويدان الجعفريون بالتهمة نفسها، اذ يظهرون الاحترام والرفق في تعاملهم مع غيرهم من المسلمين علماً أنهم يكنّون العداء لأتباع مذهب أجدادهم وهذا لا يتناسب ومبادئهم. ووصف نادر شاه بالمشكك والكافر ومضطهد عائلة ملكهم الشرعي الذي كان على الدين الصحيح. وقيل إنه وصل إلى العرش بالخداع وبقوة السلاح، فثار الرعايا عليه كلّما اتيحت لهم الفرصة. ومن جهة أخرى، استغرب نادر الذي يعتبر نفسه مخلص الفرس من نير الطغاة (ولا يحتسب وحده بينهم) من افغان واتراك وروس، والذي اراد أن يكسب صيت من لم يقبل بالسلطة إلاّ بناءً على رغبة الفرس أنفسهم، نكرانهم للجميل، فأخذ يعاقب المتمردين، وبالرغم من ذلك، استمرت الثورات واستمر في قمعها، فأمسى طاغية متجبّراً. ولو لم يعمل نادر شاه على تغيير الديانة، لأحبه شعبه، ولتمكن من خلع السلطان التركي ونهب القسطنطينية، كما فعل بالمغولي وبمدينة دلهي، لكن حياته كلها غدت حرباً متواصلة اذ توجب عليه مقاتلة اعدائه الخارجيين وقمع رعاياه الثائرين، واخيراً، وبعد أن أتعب البلاد وقتل الكثير من سكانها، وبالرغم من انتصاراته، اغتيل في خيمته.

ولم يكن نادر شاه يهتم بالدين بحد ذاته، ولم يكن يتبع سوى اهوائه أي عجرفته، وطموحه وبخله. ويدّعون أنه حاول ارساء اسس ديانه عالمية مستوحاة من ديانة المسلمين والمسيحيين واليهود، لذا أمر راهباً كاثوليكياً بترجمة الانجيل إلى اللغة الفارسية، واليهود بترجمة التوراة، وكلف علماء مسلمين بوضع أسس ديانة جديدة من هذه الكتب ومن القرآن. ولا يمكنني أن أعرف مدى صحة هذا الامر، لكنه عمل جدياً على توحيد السنة والشيعة، وقد أعطى محمد مهدي خان معلومات واسعة حول هذا الموضوع. وعند وصوله إلى العرش، ولثقته بأن السلطان لن يعارض قيام مذهب سني خامس، لأن جعفر وأبا حنيفة وغيره من أصحاب المدارس، عاشوا قبل قيام مذهب الشيعة، أرسل إلى القسطنطينية رسولاً يحمل التعليمات التالية(*):

١) وبما أننا تخلّينا عن رأينا القديم واتبعنا مذهب أهل السنة، وبما أننا نعترف بمقام جعفر الصادق السامي (سلام الله عليه)، نرجو أن يؤكد علماء الاتراك تحوّلنا وان يعتبروننا المذهب السني الخامس.

٢) وبما أنّ في الكعبة، أربعة مساجد للمذاهب الاربعة(**)، ليبن مسجد آخر باسم جعفر.

٣) وحين يرسل سنوياً أمير حاج، أو قائد لحجاج بلاد فارس، يرافقه امراء من مصر وسوريا للدفاع عن الحجاج الفرس، لينضم أمير الباب اليهم للهدف نفسه(***).

٤) ليطلق سراح السجناء من المملكتين، ولتقام تجارة حرة بين الامتين.

٥) ليرسل حاكما المملكتين سفراء كل إلى بلاط الآخر، ليهتموا بشؤونهما، ويعززوا السلام بين الامتين».

وقبل السلطان أولاً بالمادتين الاخيرتين، لكنه اعتذر عن القبول بالاقتراح الاول حول المذهب الجديد وبالاقتراح الثاني حول بناء مسجد جديد في مكة. أما بالنسبة للحجاج، فاقترح الا يمرّوا عبر سوريا بل أن يسافروا مباشرة عبر مشهد علي والصحراء إلى مكة، ويؤمّن باشا بغداد حمايتهم أيّ إنه يوفر لهم قائداً للقافلة. سمعت في بغداد أن الاتراك خشوا أن يحلو لنادر شاه أو أحد خلفائه على عرش بلاد فارس، أن يحج وجيشه فينهب بهذه المناسبة الحجاج السنة والكعبة وقبر محمد ويستولي على سوريا، وكان لخوفهم هذا اساساً من الصحة. وارسل العديد من السفراء

(*) تاريخ نادر شاه، بقلم محمد مهدي خان، صفحة ٢٣٧ من الترجمة الالمانية.

(**) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

(***) وبما ان القادة الاتراك يرافقون سنوياً الحجاج من سوريا ومصر، يحق لسائق فارسي بمرافقة الحجاج من بلاد فارس.

الفرس إلى القسطنطينية، وسفراء اتراك إلى بلاد فارس للبحث في هذين الامرين، كما كتب نادر للسلطان: «انه قرر التوجه شخصياً إلى تركيا، تدفعه إلى ذلك مشاعر الصداقة والاخوة. لأنه يرجو أن ينهي هذه المسألة بما يرضي الطرفين خلال لقاء واحد». لكن الامور بقيت على حالها، انما ارسل قائد قافلة تركي مباشرة من بغداد إلى مكة فرافقه الحجاج الفرس.

وبما أن الاتراك رفضوا اعتبار مذهب الجعفريين من بين مذاهب المؤمنين السنة الصحيحة، حج شخصياً (في العام ١٧٤٣) إلى مشهد علي، وجمع هناك علماء الفرس، وهم من الشيعة أصلاً، فضلاً عن علماء الافغان والبلقان وبخارى، وهم من أهل السنة، وكلّفهم بجمع الاسباب التي تدفعه إلى ابادة المذهب الشيعي، فضلاً عن مناقشاته مع السلطان وباضافة مبادىء الدين الجديد(*). فكتب العلماء الموجودون كل ذلك، ووضعت نسخة في المسجد فيما نشرت النسخ الاخرى علناً في بلاد فارس، لكن بالرغم من محاولات نادر شاه بقي الفرس وسكان مشهد علي ومشهد الحسين على المذهب الشيعي، وهم حالياً أسوأ مما كانوا عليه من قبل.

بعد هذا الاستطراد حول نادر شاه وطريقته في تغيير دين رعاياه، أعود إلى وصف رحلتي الخاصة. عدت في ٣٠ كانون الأول/ديسمبر برفقة حوالي ٢٠٠ حاج من مشهد حسين أو كربلاء إلى الحلّة، وسافر حالياً العديد من الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى مشهد علي قبل اكتمال القمر، وتوجّه آخرون مباشرة من كربلاء إلى بغداد. ويبعد مشهد الحسين عن مشهد علي سبعة فراسخ أو خمسة أميال.

ولا نرى على مسافة ميل من المدينة التي ذكرتها أولاً سوى بلح، ثم يصبح الدرب رملياً، ولا نجد مبانٍ سوى خان كنزع (Knesa) الذي لا يبعد كثيراً عن الكفل، وهذا الدرب غير آمن لمن يسافر وحيداً. حين كنت في البلاد، تعرض بعض الناس للنهب في طريق عودتهم من مشهد الحسين، وفي اليوم التالي، تعرّض غيرهم للسلب ايضاً على يدّ خيّالة الباشا أنفسهم المكلفين السهر على أمن الطريق، وقد أعطى المسافرون ما يملكونه فضلاً عن اسلحتهم فتركوهم يمضون بسلام. تبعد كربلاء عن بغداد ستة عشر فرسخاً أي انها تبعد خمسة فراسخ عن مسيب (Museib) وهي قرية على الفرات، واربعة فراسخ عن خان يدعى بيرالانس، ومنه إلى الحلّة التي تبعد سبعة فراسخ عن بغداد.

تقع مدينة الحلّة على ارتفاع القطب ٣٢° ٢٨´ ٣٠" من الجهة الغربية للفرات، وهي مدينة كبيرة، تكثر فيها بساتين النخيل، وقلما نجد فيها منازل مبنية من الآجر المشوي اذ ان معظمها

(*) تاريخ نادر شاه، صفحة ٣٣٢، الترجمة الالمانية.

مبني من الآجر المجفف في الشمس. ونقع داخل المدينة على مسجد واحد تعلوه مئذنة، أما خارجها فيقوم مسجدان أحدهما سُمّي مسجد الشمس وهو شهير بين الشيعة، ويقال إن علياً لم يتمكن يوماً من أن يؤدي صلاة الصباح، فأشرقت الشمس متأخرة لتمكنه من ذلك، كما يقال إن علياً صلّى في المكان الذي يقوم فيه مسجد الشمس. ويزعمون أنّ أي شيعي مؤمن للغاية، يوجّه دعاءه إلى علي، تتحرك مئذنة هذا المسجد لتشير إلى أن علياً يتقبل الدعاء. هذا ما أكدّه لي العديدون، وحين سألتهم عمّا اذا قاموا بهذه التجربة بأنفسهم، أظهروا تواضعاً وحشمة حين أجابوا أنهم غير جديرين بذلك ولا يتجرأون على الحلم بتحرك المئذنة استجابة لدعائهم. ويتبع حاكم هذه المدينة باشا بغداد، ويكلف هذا الاخير موظفاً بإدارة مراكز دفع الرسوم، وهو يجني الكثير هنا لأن تجار البصرة وبغداد يفضلون ارسال بضائعهم براً من مدينة إلى اخرى على أن يرسلوها عبر دجلة. ويبدو أن مهمة القاضي وراثية، لأن من يشغل المنصب حالياً استلمه منذ سنوات عدة وهو ابن القاضي السابق. يبلغ عرض الفرات في هذه المدينة حوالي ٤٠٠ قدم، يقطعه جسر سيىء، ربط فيه ٣٢ مركباً صغيراً، أما مستوى المياه فيه فمنخفض، لكن اعتباراً من اواخر كانون الأول/ديسمبر اخذ منسوب المياه يرتفع.

ولا شك أن بابل كانت تقوم في منطقة الحلّة لأن السكان يسمّون البلاد اليوم أرض بابل كما نجد بقايا مدينة قديمة لا يمكن أن تكون سوى بابل، واستناداً إلى هذه الآثار، يبدو أن الحلّة تقوم في حرم سور مدينة بابل، لكن عند الحديث عن الآثار البابلية، لا ينبغي ان يتوقع المرء رؤية صروح رائعة كتلك الموجودة في مصر أو في بلاد فارس. نجد في برسيبوليس أجمل رخام قرب المدينة وعلى التلة التي شيّد عليها القصر الشهير. وتكثر الاحجار الكلسية التي بنيت منها الاهرام الكبيرة، قرب القاهرة، كما نرى في الجنوب، وقرب النيل، جبالاً من الاحجار الكلسية، ونرى في القسم الجنوبي من مصر قرب النهر جبالاً من الغرانيت، في حين أننا لا نجد على ضفاف دجلة والفرات سوى أراض منخفضة عن الخليج الفارسي حتى الحلّة وبغداد وأبعد من ذلك نحو الشمال. واذا اراد أهالي بابل بناء منازلهم وصروحهم من الحجارة المصقولة لاضطروا إلى البحث عنها بعيداً، مما يجعل كلفتها عالية، لذا بنوا منازلهم من الآجر بسماكة ما نستخدمه نحن بأفضل طريقة رأيتها يوماً. ولو بنوا أسوارهم من هذا الآجر مع الكلس لوجدنا اليوم المزيد من الآثار، لكنهم استخدموا مادة لا تلصق جيداً، لذا انهارت هذه المنازل القديمة تدريجياً لتبنى منازل جديدة في المدن المجاورة والقرى الواقعة على الفرات، حتى أن الخان الجميل الذي أقمت فيه في الحلّة بني منذ سنوات قليلة من هذه البقايا.

أما في ما يتعلق بالقلعة وبالحدائق المعلّقة الشهيرة الواقعة قرب الفرات وفقاً لما ذكره سترابون

وغيره من الكتّاب اليونانيين، فنجد بقايا منها على بعد ثلاثة أرباع الميل إلى الشمال الغربي من الحلّة قرب الضفة الشرقية للنهر، ولا تتعدى هذه البقايا كونها تلالاً كبيرة محفّرة.

ان الجدران التي ترتفع فوق الارض قد استخدمت منذ زمن، لكن الركائز موجودة، ورأيت بنفسي اناساً يعملون على نبش هذه الاحجار لنقلها إلى الحلّة وفي حين لا نجد في المنطقة الممتدة من الخليج الفارسي وحتى كربلاء سوى اشجار البلح، نصادف بين التلال اشجاراً متفرقة تبدو معمّرة. كما نرى في هذه المنطقة، وعلى ضفتي الفرات، تلالاً صغيرة محفّرة مليئة بكومات الآجر.

نجد على بعد ميل وربع إلى الجنوب الغربي من الحلّة، وبالتالي إلى الغرب من الفرات بقايا أخرى لمدينة بابل القديمة، ومنها تلة كاملة من هذه الحجارة الجميلة التي ذكرتها، يعلوها برج مليء بهذه الاحجار، لكن الخارجية منها ضاعت مع الوقت في هذا الجدار العريض أو على الاصح في كومة الاحجار الكبيرة هذه. وتظهر هنا وهناك فتحات صغيرة من جهة إلى أخرى، تسمح بلا شك بمرور الهواء وتمنع بالتالي الرطوبة التي تضرّ بالمبنى. وفي زمن ازدهار بابل، حيث كانت المنطقة مليئة بالمنازل، لا بد أن موقع هذا البرج كان رائعاً اذ نشاهد عند اقدامه مشهد عليّ وهو مسجد يبعد عنه حوالي ثمانية فراسخ. وقد رأيت هذا البرج خلال رحلتي الاولى إلى الحلّة وظننته مرقباً، وأطلق عليه الدليل الذي يرافقني اسم برس أو نمرود، وروى لي أن ملكاً يحمل الاسم نفسه بنى في هذا المكان قصراً رائعاً وكبيراً. وقد اعتاد هذا الملك عند اشتداد الرعد أن يطلق السهام في الهواء معلناً الحرب على الله، وتبجح يوماً بأنه جرحه وأظهر سهماً سقط من الاعلى مضرجاً بالدماء، فعاقبه الله وارسل عليه حشرات، لم يأمن منها حتى في قصره فلاحقته حتى قتلته، الخ، الخ.

ولم أتمكن من التعرف هنا على علماء مسلمين، باستثناء القاضي الذي لا يعرف عن برس والقصر سوى الحكاية التي أوردتها آنفاً، لكن، بعد أن قرأت ما أورده هيرودوتس في كتابه الاول صفحة ١٧٠ حول بلوس (Belus) وبرجه، بدا لي أني وجدت بقاياهما، لذا أرجو أن يقوم من سيأتي بعدي إلى هذه البلاد بأبحاث دقيقة ويعطينا وصفاً لها. قمت بهذه الرحلة وحدي مع الدليل، لكن ما إن وصلت إلى المكان وتفحصت بعض الحجارة حتى رأيت فرساناً عرباً بقربي، فاعتقدت أن من الحكمة أن أعود إلى المدينة. ولو علمت أن هذا البرج هو برج بابل لخاطرت قليلاً، لكن لجهلي الامر، لم أجد داعياً للتعرض للنهب والخطر بسبب كومة حجارة كما لم أرَ ضرورة القيام برحلة أخرى إلى المكان.

ونقع في محيط هذا البرج على قبتين بنيتا منذ حوالي ٤٠٠ عام، لكنهما انهارتا جزئياً، ونجد

كتابات صغيرة مثيرة للاهتمام. نعلم أن البابليين نقلوا إلى الاجيال اللاحقة دراساتهم الفلكية على الآجر، فاستنتج العلماء الاوروبيون أنهم لم يهتموا بالعلوم(*)، لكن إن استخدموا الوسائل المذكورة أعلاه، فرأيي مخالف تماماً لرأي علمائنا. ففي بغداد وفي مدن اخرى من هذه المنطقة حيث الاحجار المصقولة نادرة للغاية ومكلفة، وحتى في بلاد فارس حيث نجد الرخام بأسعار رخيصة، نجد كذلك كتابات على الآجر، ولا يمكننا أن ندّعي أن العرب والفرس لم يعرفوا وسائل أخرى للكتابة وأنهم لم يكونوا ضليعين بالعلوم، بل يمكننا ان نستنتج أن البابليين قطعوا شوطاً بعيداً في فن الكتابة وفي العلوم. إذ ان أمة يمكنها تقطيع الحروف وتشكيلها وشويها بهذا الشكل الجيد، ووضع الحرف قرب الآخر في الجدران (كما يصفّ صاحب المطبعة الاحرف) حتى انه يمكننا قراءتها بشكل واضح بعد مرور ٦٠٠ إلى ٧٠٠ عام عليها (وجدت كتابات بهذا القدم كتبت بهذه الطريقة) لا تعتبر أمة جاهلة في فن الكتابة. وإن تسجيل البابليون لملاحظاتهم حول الظواهر الطبيعية المهمة بهذه الطريقة، يتطلب علماً وبراعة اكثر من الكتابات التي تهدف إلى اعلام الخلف بهوية مشيّد هذا الصرح أو ذاك. ولعل نوعية المواد العادية المستخدمة للكتابة ليست جيدة في بابل وبالتالي لا تدوم طويلاً، ولعل علماء الفلك عندهم لاحظوا، واستناداً إلى تجربة طويلة، أن دراسات هامة ضاعت أو تغيّرت بسبب النسخ المتكررة، فرأوا أن من الحكمة وضعها على الجدران، لأن كتابات كهذه، إن تعرضت للهواء لا تحتاج إلى التجديد، إلاّ كل ٥٠٠ أو ٦٠٠ عام، وإن تمّ الاعتناء بها في صرح ما لما احتاجت للتجديد إلاّ بعد ألف عام أو أكثر.

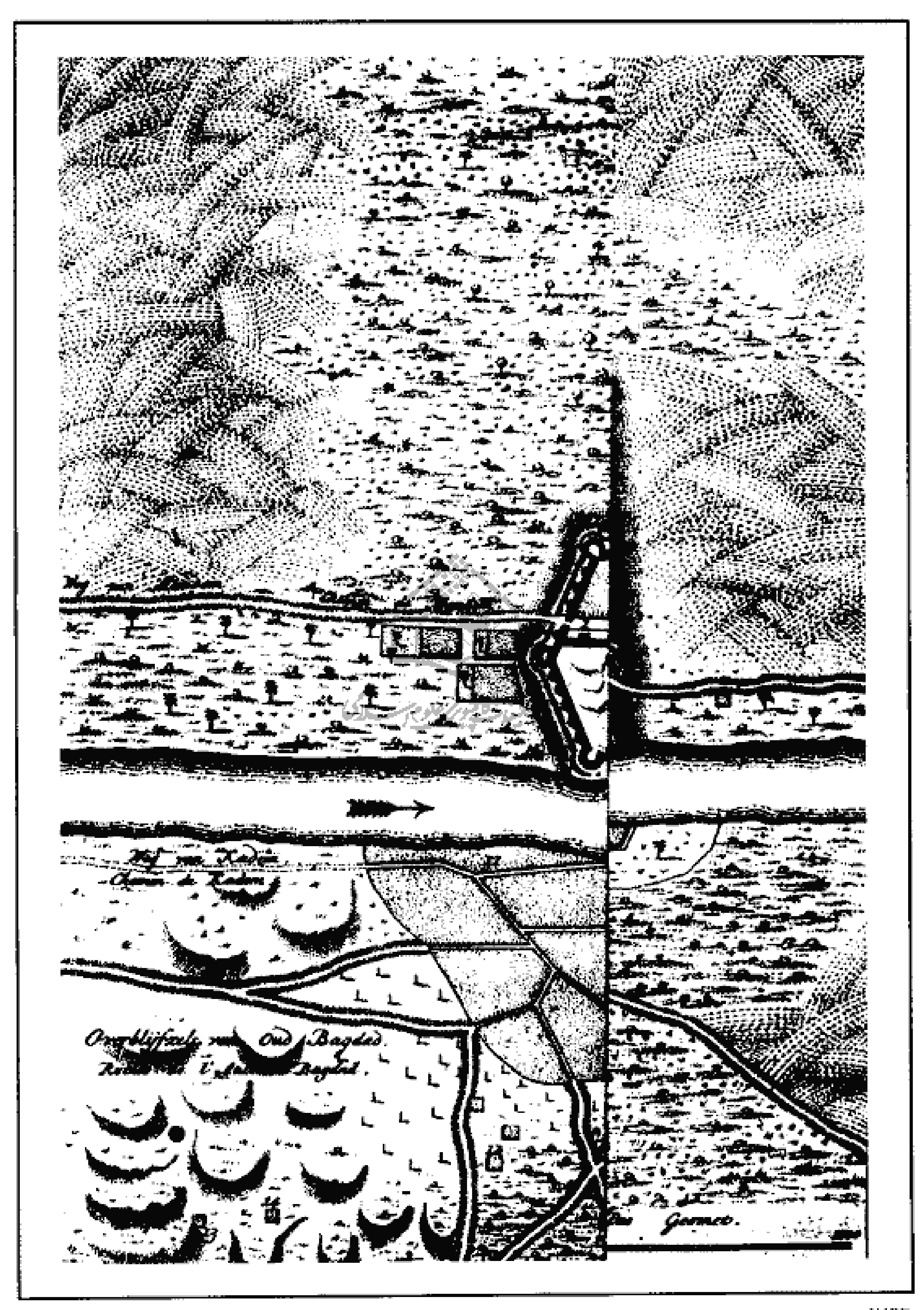
بنى مسلمٌ في هذه المنطقة قبّة صغيرة، تكريماً للنبي ايليا، ويظن عامة الشعب ان هذا النبي دفن في هذا المكان، لكن هذا غير مؤكد، كما يقال إن أيوب أقام هنا، قرب نبع على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب من الحلّة، ولا يزور اليهود القبة القائمة فوق القبر المزعوم للنبي ايليا، كما لا يزورون نبع النبي أيوب.

في ٥ كانون الثاني/يناير ١٧٦٦، غادرت الحلّة وتوجهت مباشرة نحو الشمال نحو بغداد (اللوحة XLI)، أي اني قطعت أربعة فراسخ حتى مهافيه (M'havie) ومنها أربعة فراسخ حتى اسكندرية (Scandrie)، ثم اجتزت ثلاثة فراسخ لأصل إلى بيرالانس ومنه إلى خان اسعد على بعد ثلاثة فراسخ ثم سرت اربعة فراسخ حتى بغداد. ونجد في كل من هذه الامكنة خاناً كبيراً بناه تاجر ثري منذ سنوات، فضلاً عن جسر قرب بغداد.

(*) يقول العالم بريانت (Bryant)، لا يمكنني ان امنع نفسي من اطلاق حكم على علم شعب ما انطلاقاً من الوسائل التي يستخدمها لنشره وحفظه، وأظن ان العلوم غير كافية او غير موجودة على الاطلاق حيث تستعمل الوسائل المذكورة اعلاه، الخ.

إن رجلاً كهذا يكرّم في أوروبا بسبب الخدمات التي قدمها للراحة العامة، اما سليمان باشا فقد أجبره على تسليفه مبالغ طائلة لم يردها يوماً. ويقوم قرب كل خان عدد قليل من الاكواخ، ونصادف شرق مهافيه، قرية تحمل الاسم نفسه، ونجد بين بيرالانس وخان اسعد قرية المحمدي التي اسست منذ سنوات قليلة على يد عادلة خاتون، زوجة سليمان باشا. وتبقى المساحات الاخرى غير مزروعة علماً ان التربة خصبة للغاية ويمكن ريها بسهولة من دجلة والفرات لو لم تفتقر البلاد للسكان والقلة التي تقيم في المنطقة لا تملك الامكانات الكافية لذلك. ويقترب النهران من بعضهما البعض في هذه المنطقة، وقد أكدوا لي انهما لا يبعدان عن بعضهما سوى ستة فراسخ وذلك على بعد اميال إلى الشمال من بغداد.

يمكن للمسافر ان يقطع الاربعة عشر ميلاً التي تفصل الحلّة عن بغداد خلال يومي سفر في الصيف وثلاثة ايام في الشتاء، لكن تساقطت الامطار بغزارة ولم أكن على عجلة من امري فاستغرقت رحلتي اربعة ايام. ولم يرافقني خلال هذه الرحلة سوى بعض المكاريين الذين ينقلون البضائع إلى بغداد. ويتلفظ هؤلاء بكلمات بذيئة للغاية لم اسمعها من مسلم من قبل خلال رحلتي. وفي حين أن غيرهم من العرب لا يذكرون نساءهم وبناتهم، يتمنى هؤلاء لبعضهم البعض ان تغتصب نساءهم، ويطلقون على الام والجدة والسلف اسماء مقززة وذلك على سبيل المزاح. وهؤلاء المكاريون هم من الحلّة أو من بابل القديمة حيث العادات منحلّة منذ غابر الزمان، لذا يمكن أن نستنتج أنهم لم يتركوا عادات اسلافهم، لكني لم أجد سكان الحلّة مختلفين عن غيرهم من المسلمين، ولا يمكن أن نحكم على اخلاق مدينة بأكملها استناداً إلى اخلاق المكاريين الذين يعتبرون من ادنى طبقات المجتمع.


Oud Bagdad
Bagdad

ملاحظات وضعتها في بغداد

تقع مدينة بغداد في ولاية خالص على ارتفاع ٣٣° ٢٠´ من القطب على الضفة الغربية لنهر دجلة وتشكل مكان اقامة باشا من الدرجة الاولى يحيط بها سور من القرميد. إن جزءاً من الاراضي داخل السور خالٍ من السكان وغير مزروع. إلا ان القسم المسكون فيه الكثير من المباني خاصة من جهة النهر وسراي الباشا حيث نجد الجزء الاكبر من المحال التجارية أو البازار.

وبالتالي فإن بغداد كثيفة السكان بالمقارنة مع باقي المدن الشرقية حيث تكثر البساتين. إلا ان شوارعها ضيقة والأسواق الرئيسية فيها مسقوفة. نجد فيها كما في القاهرة شوارع تغلق كل مساء. تتألف غالبية المنازل من القرميد وهي عادة شديدة الارتفاع. لا نرى فيها نوافذ من جهة الشارع وذلك وفقاً للهندسة المعمارية الإسلامية. في الداخل هناك باحة مربعة الشكل تطل عليها الغرف الاكثر اهمية. إن طريقة البناء الشرقية هي في نظري السبب الكامن وراء الحرّ الذي يتذمّر منه السكان. فعندما ترتفع الشمس تصبح هذه الباحات المربعة بمثابة افران ترتفع فيها الحرارة كثيراً لأن الهواء لا يدخل اليها. لهذا السبب يملك السكان المميزون سرداباً في منزلهم أي جناحاً مسقوفاً ومرتفعاً سقفه يقع في القبو وفيه ما يشبه المروحة أو قل الموقد، فيه فتحة من أعلى من الجهة الشمالية لأن الهواء هنا تماماً كما في القاهرة والشارقة يأتي في فصل الحرّ من الشمال.

في فصل الشتاء لا يتساقط البرد كثيراً في بغداد كما في بلادنا لكننا رأينا بعضاً منه في بداية شهر شباط/فبراير وكان ارتفاعه يبلغ نصف اصبع. كان السكان يقولون في هذا الطقس انه شديد البرد ويزعمون ان عشرين شخصاً تجمدوا في الليلة هذه. الا ان هذا الكلام ليس مغلوطاً بكامله اذ ان الفقراء في هذه المدينة يمشون شبه عراة وينام جزء منهم في الشارع.

لإعطاء القارىء فكرة واضحة عن وضع هذه المدينة وكبرها،أحيله إلى الخريطة المرسومة في اللوحة XLIV. لهذه المدينة ثلاثة أبواب من جهة البلد، بالقرب من الرقم ١ هناك باب المعظم (Moaaddem) وقد أخذ اسمه عن أبي حنيفة الذي يطلق عليه أهل السنة اسم آدم والذي يبعد قبره عن هذا الباب مسافة نصف ساعة. هناك أيضاً الباب الوسطاني أي باب الوسط بالقرب من الرقم ٢، وبالقرب من الرقم ٣ نجد القلعة الكبيرة المسمّاة بالطليسم (El Talism) وكان لها باب لكن بعد ان انتزع السلطان مراد بغداد من أيدي الفرس ودخل من هذا الباب إلى المدينة قام بإيصاده نهائياً ولم

يفتح منذ ذلك الوقت[1]. تقع قارولوغ كابي (Karolog Capi) بالقرب من الرقم ٤ وبالقرب من الرقم ٥ أمام الجسر هناك باب آخر هو باب الجسر. على كل من البروج العشرة التي نجدها في سور المدينة تقف ستة إلى سبعة مدافع لكن نصفها ليس لديه ركائز. إن حجم هذه البروج صغير جداً لتقف عليها المدافع. لا نرى أي مدفع على قارولوغ كابي وطليسم والباب الوسطاني وربما هذا هو السبب الذي جعل احمد باشا يضع سريتي مدفعية بالقرب من الرقم (٦). من بين هذه البروج الكبيرة هناك أخرى صغيرة لا يمكن حمايتها الا بواسطة أسلحة صغيرة. في السور نفسه هناك من الجهة الداخلية عدد من القناطر الموزعة في صفين، الواحدة فوق الاخرى وهناك ايضاً كوّات رمي لحماية الخندق بواسطة أسلحة نارية. إن السور شديد الضعف والخندق جاف ولا نجد أي تعزيزات في الخارج. وبالتالي يمكن لأي عدوٍ أوروبي أن يسيطر على المدينة بسهولة تامة. لكن في هذا البلد تعتبر بغداد مدينة قوية جداً إذ إن نادر شاه حاول دائماً الاستيلاء عليها دون أن ينجح.

في الزاوية الشرقية من المدينة هناك قلعة صغيرة تدعى اتزكلاً (Yts Kalla) تستخدم كمتجر لبيع البارود لكنها ليست ذات فائدة كبيرة. ولا يسكن هذه القلعة الإنكشاريون. في أوروبا لا يسمح للأجانب بالدخول بسهولة إلى قلعة كهذه. هنا دخلت إليها لكن أحداً لم يستوقفني لا في الدخول ولا في الخروج ولا حتى عند أبواب المدينة حيث يقف عدد من الانكشاريين لحراستها لأن الجنود الاتراك يبالغون في تسهيل واجباتهم. فهم لا يقدمون السلاح لأحد ولا يأخذون أسماء الداخلين إلى المدينة أو الخارجين منها. وإذا كان الطقس سيئاً يمكثون في مراكز حراستهم أو أمام الباب فيدخنون أو يلعبون الشطرنج. باختصار فهم لا يأبهون بشيء شرط أن يقفوا في مراكزهم للجهوز في حال حدث أي شغب في الشارع. تقع السرايا أو قصر الباشا أمام القلعة وتطل على نهر دجلة بالقرب من رقم ٧. هي كبيرة جداً تتألف من عدة مبانٍ غالبيتها رديئة الصنع. تقع مدرسة المستنصرية (Madrasse el Mostanserie) التي كتب العرب عنها الكثير بالقرب من الرقم ٨ الا ان هذا المبنى لم يعد للعلماء. تحول مطبخ هذا المبنى إلى غرفة لدفع الضرائب اما الغرف الباقية فتحولت إلى قروان سراي (Karwanseray) يسمى اوتمداني خان (Otmedani chan) أو هدمت. على

---

(١) نقلت فيما يلي كتابة طويلة يبدو من خلالها ان الخليفة الناصر انهى تشييد هذه القلعة عام ٦١٨ من الهجرة (١٢٢١م). فبغداد إذاً مدينة قديمة جداً، واليكم الكتابة: وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. امر بعمارته سيدنا ومولانا الامام المفترض لطاعته كافة الانام ابو العباس احمد الناصر لدين الله المؤمنين خيفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق اجمعين صلوات الله وسلامه على آله الطاهرين ولا زالت دعوة المدعي على اتباع الحق منازلة والخلايق لها اتباعاً وانصاراً وطاعته المفترضة المؤمنين اسماعاً وابصاراً. وافق الفراغ سنة ثمان عشر وستماية.

امتداد المبنى من جهة النهر نرى، كتابة طويلة يظهر من خلالها أن الخليفة المستنصر بناها سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م). ولأن نقل هذه الكتابة استحال علي بسبب مرور جماهير غفيرة على الجسر، طلبت من الملاّ أن ينقلها لي. قارنت كتابته بالكتابة الاصلية وأرفقتها بهذه الوثيقة[١].

بعد ثلاث سنوات بنى المستنصر مسجداً رائع الجمال في حي سوق الغاسل (Suk el Gassel) قرب الرقم ٩ لكن لم يتبق منه إلا المئذنة والجدار الخارجي ومدخلين جميلين بنيت عليهما قهوة قبيحة المظهر. فوق هذا المدخل نرى الكتابة[٢] التي أرفقها لكم وقد وضعها باني المسجد. أما المدرسة التي تعتبر رئيسية. اليوم في بغداد فقد شيّدت عام ٧٥٨ هـ على يدي المدعو مرجان وهي لأصحاب المذهبين الحنفي والشافعي.

بالاضافة إلى ذلك بنى مرجان مسجداً ومبانٍ عامة أخرى وكان يقال إنه يوسع أبحاثه في علم الخيمياء، أي علم صناعة الذهب. وقد حكم بغداد لسنوات عديدة في غياب حاكمها الاصلي وبما أنه قام بتشييد كل هذه المباني فلا بدّ أن يكون قد جمع ثروة كبيرة. إن الكتابة التي جعلت الملا ينقلها موجودة في المدرسة السابقة الذكر. لكني لم أستطع مقارنتها مع الاصلية بسبب الناس الذين يجتمعون دائماً في هذا المكان اذ خفت الا يعجبهم ما أفعل[٣]. في أحد الخانات المسمّى زغال (Dsjegal) والمشيد عام ٩٩٩ هـ، (أو ١٥٩٠ م.) في عهد السلطان مراد ومن أموال سِنان باشا، وجدت كتابة طويلة باللغة التركية، وتحتها سطرين باللغة العربية. فقمت بنسخها وأرفقتها طياً[٤].

نجد في بغداد ما يعرف بالتكية (Takkie) وهي أديرة لمختلف مذاهب الدراويش كالقادرية

---

(١) قد امر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم وتسمى المدرسة المعظماء دولة العز واسعد الخلايق المحجة البيضاء عند الله وخليفته في ارضه الخليقة ابو جعفر المنصور المستنصر بالله امير المؤمنين امتع الله المسلمين بإغزاز سلطانه وايد دولته بطول حياته وذلك سنة ستمابة وثلاثين.

(٢) امر بعمله سيدنا ومولانا الامام المستنصر بالله امير المؤمنين على آله تعالى معالم الاسلام بهمته العلية وازهى دعايم الايمان باباء لبه وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمابة.

(٣) بسم الله الرحمن الرحيم ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم اوقف هذه المدرسة الشريفة على طلاب العلم على الامام الاعظم محمد بن ادريس الشافعي المطلبي والامام الاقدم النعمان بن ثابت الكوفي. هذه وقفت المدرسة دار الشفاء المولى الامير الصاحب الاعظم ملك اعاظم الامراء في العالم مشير السلاطين مرشد الخواقين مشيد قواعد الخيرات باني مباني المبرات المفتقر الى مغفرة الملك المنان مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطاني الاولجاني فقبل الله منه في الدارين طاعاته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الطيبين الطاهرين وسلم وذلك سنة ٧٥٨ هـ.

(٤) عمر هذا الخانمان وما فيه من البنيان في ايام دولة السلطان ابن السلطان مراد خان خلد الله ملكه وسلطانه وافاض على كافة العالمين عدله واحسانه سنة ٩٩٩.

والنقشبندية والرفاعية والقلندرية... إن تكية القلندرية هي بمثابة نزلٍ يقصده الهنود المسلمون الفقراء بغرض الحج. إن مؤسس المذهب القادري هو الشيخ عبد القادر الكيلاني المولود عام ٥٦٠ هـ والذي عاش ٩١ عاماً ودفن في بغداد في المنطقة ١٠ (خريطة اللوحة XLIV) تحت قبة كبيرة. ولشدة ما تكثر عائدات مقامه يعتاش منه ٣٠٠ شخص وينام فيه بعضهم مجاناً. إن هذه التكية بعيدة عن النهر لذا لديها قناة خاصة بها تجرّ إليها مياه دجلة. عندما كنت أتأمل القبة الكبيرة على المسجد وضريح عبد القادر الذي لم يبدُ لي أكبر حجماً من قصر العين على النيل قرب القاهرة أتى درويش ودعاني بتهذيب فائق للدخول إلى منزله ثم حكى لي عن إحدى معجزات شيخه. بينما كان عبد القادر يخطب يوماً من منبره أمام عدد كبير من الناس توقف فجأة وحمل قبقابه الخشبي (راجع الصور أ، ب، ت. من اللوحة II من كتاب وصف شبه الجزيرة العربية) ورماه على الحائط فاختفى القبقاب. بعد دقائق رمى قبقابه الثاني الذي اختفى بدوره. لم يفهم الحضور ماذا يجري ولا كيف اختفى القبقابان. وإليكم تفسير ما حدث. كان بعض التجار في طريقهم إلى بغداد لإنجاز بعض الاعمال ولزيارة الشيخ عبد القادر عندما اعترضتهم مجموعة من اللصوص العرب فما كان منهم إلا إن استنجدوا بالشيخ في صلواتهم فألقى بقبقابه الذي أصاب رأس أحد رؤساء العصابة. ظن اللصوص في بادىء الامر انه قبقاب أحد التجار فصاروا يعاملونهم بمزيد من العنف والقسوة لكن ما إن رأوا القبقاب الثاني يطير نحو رأس عربي آخر حتى اقتنعوا بوجود أحد الأولياء العظماء الذي يحمي المسافرين فأعادوا إليهم أموالهم وأغراضهم وتركوهم يكملون طريقهم بسلام. بعد أربعة أسابيع وصل التجار إلى بغداد فأعادوا إلى الولي قبقابيه وشكروه على نجدتهم ونشروا خبر المعجزة حيثما ذهبوا.

يبلغ عرض نهر دجلة بالقرب من هذه المدينة من ٦٠٠ إلى ٦٢٠ قدماً. هناك جسر يصطف تحته ٣٤ مركباً صغيراً ربط الواحد منها إلى الآخر بواسطة ثلاث سلاسل ضخمة. عندما يكون الطقس جيداً والنهر قليل الهيجان يصلح الجسر للاستخدام لكن عندما يهب الهواء بعكس اتجاه المياه يصبح الجسر غير آمن على الاطلاق. وعندما يرتفع مستوى الماء في النهر فجأة دون أن نفك السلسلة على الشاطىء كثيراً ما تتحطم هذه الأخيرة. رأيت مثلاً على ذلك في كانون الثاني/يناير ١٧٦٦ عندما هبت ريح هوجاء من الجنوب الشرقي. في بداية هذا الشهر كان الجو هادئاً فذابت الثلوج على الجبال وانحدرت المياه لتصب في دجلة فارتفع مستوى المياه في النهر في منتصف شهر كانون الثاني/يناير وتحطمت السلاسل وجرف التيار السفن الصغيرة والجسر. كما نفقت بعض المواشي أما البشر فرموا أنفسهم داخل السفن حفاظاً على حياتهم. ولشدة ما صارت نسبة المياه في النهر ترتفع خرجت عن حدودها وطافت المدينة بكاملها في الايام ١٩ و٢٠ و٢١.

في اليوم ٢٠ بدأت الأمطار بالهطول لكن منسوب المياه لم يرتفع كثيراً وذلك إلى شهر آذار/مارس حين بدأت الثلوج بالذوبان وصار النهر يفيض شيئاً فشيئاً في الموصل وبالتالي في بغداد. يقال إن الفرق بين المستويين الأعلى والأدنى لمياه نهر دجلة يعادل ٢٠ قدماً تقريباً.

لم أستطع تحديد مكان الضاحية من الجهة الشرقية لدجلة بسبب انخفاض مستوى اليابسة وفيضان الماء عليها عندما كنت هناك. هناك عدد كبير من البساتين في هذه الضاحية لكن عدد سكانه أقل من عدد سكان المدينة. يقع طرفها الشمالي على جزء من بغداد القديمة التي كانت تمتدّ من هنا إلى موسى الكاظم. إذ لا نزال نرى هنا آثار مبان ومسجد وقبور مسلمين ذائعي الصيت ماتوا في المدينة. بالقرب من الرقم ١١ على الخارطة (اللوحة XLIV) نجد تكية البكتاشيين، وهي قديمة البناء وشديدة الارتفاع. فوق المدخل هناك كتابة تأذّت كثيراً بفعل الزمن ربما لكن يمكن أن نقرأ ما جاء تحتها[1]. أما باني التكية فهو قلج ارسلان ابن الملك مسعود من طائفة سلجوق عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م). حول هذا المبنى من الأعلى نجد آيات من القرآن بأحرف كوفية من الفخار. إن الجزء الأكبر منها قد أتلف بفعل الزمن، كيف لا وقد مرّت عليها ٦٠٠ سنة لكن لإعطاء القارىء فكرة عن هذه الكتابة وعن الزينة الموجودة فوقها نقلت بدايتها لأنها أقل تأذٍ من غيرها وهي موجودة في اللوحة XLIII قرب الحرف (هـ E) (ب B).

إن هذه الأحرف قريبة جداً من الأحرف الموجودة في اللوحة IX من وصف شبه الجزيرة العربية والتي نقلتها في اليمن. فمن هنا يمكننا ان نعرف ان العرب عملوا على تزيين ابجديتهم عندما كانت العلوم مزدهرة عندهم. ولو انهم تابعوا على هذا النحو لتكبد علماء اوروبا الكثير من المشقة لفك رموز كتابتهم. إن النقش على غطاء آنية من فخار وجدته بالقرب من تخت كسرى ونرى صورة له في كتاب أسفار إيف (Ives) هو من الصنف نفسه. ولقد أكد الناس للمسافر الذي وجدها انها كتابة فارسية.

بالقرب من الرقم ١٢ هناك قلعة صغيرة دفنت تحتها السيدة زبيدة الشهيرة عند العرب وهي زوجة الخليفة هارون الرشيد التي توفيت عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م). عام ١١٢١ هـ (١٧١٨ م) دفن حسن باشا زوجته عائشة ابنة مصطفى باشا بالقرب من زبيدة السابقة الذكر ووضع على ضريحها شاهداً نقشت عليه كتابة أنقلها لاحقاً[2] كما وحسّن البناء وشيّد أبنية أخرى للمسافرين. على مقربة من هذا

---

(١) الملك العدل قلج ارسلان ابن الملك مسعود ابن العدل قلج ارسلان من طايفة سلجوق وذلك في سنة اربعة وثمانين وخمسماية.

(٢) هكذا يكتبها العرب اليوم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الواقعة).

المكان (بالقرب من الرقم ١٣) نجد قبر بهلول ضانه وهو من أقارب هارون الرشيد وأحد مهرجيه. ترك هذا المهرج كتاباً فيه نكات لا يزال بعض الشيوخ يرددونها في المقاهي. في الكتابة التي أرفقها لاحقاً[1] والتي نقشت على قبره بعد موته بكثير عام (٥٠١) يلقّب بسلطان المجاذيب لكن وفقاً للأخبار التي تحكى عنه يبدو انه لم يكن ساذجاً، وإليكم إحدى هذه الحكايات: في عهده قامت مراهنة بين شخصين، فتعهد احدهم بدفع مبلغ من المال للآخر إذا استطاع أن يعبر دجلة سباحة. لحسن الحظ استطاع الرجل ان يعبر النهر لكن امه كانت قد اعدت له ناراً من الجهة الاخرى كي يجفف ثيابه وجسده بواسطتها فنشأ الخلاف بين الاثنين لأن الاول اعتبر ان الشروط لم تتضمن مساعدة أم الثاني له ورفض القاضي إعطاء رابح الرهان ماله. لم يعجب هذا الحكم بهلول ضانه فوضع في بستان القاضي صحناً فيه لحم ورفعه إلى أعلى شجرة النخيل ثم أضرم ناراً على الارض. سخر القاضي من فكرة بهلول ضانه الذي سأله كيف لا يمكن شواء هذه اللحمة ويمكن أن تجفف الام ولدها الذي قطع النهر سباحة؟ عندما استعلم الخليفة عن هذه القصة امر الطرفين بالمثول أمامه وطلب من خاسر الرهان ان يدفع لرابحه المبلغ المتفق عليه. بالقرب من بهلول ضانه يمكننا رؤية مبنىً صغير (قرب الرقم ١٤) مع قبر يهودي يقصده اليهود للزيارة.

ففي هذه المنطقة غير المزروعة نجد مسجداً صغيراً مع برج صغير دُفن تحته وليّ مسلم شهير يدعى معروف الكرخي أبو ضاهر. بني البرج الصغير عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) وذلك وفقاً لما تقوله الكتابة. يقول المسلمون ان معروف هذا ولد من ابوين مسيحيين وإنه لم يقبل ابداً تلاوة «باسم الاب والابن والروح القدس» بل إنه قال عوضاً عن ذلك بسم الله الرحمن الرحيم. ويزعم البعض ان امه حبسته في قبوٍ مظلم بسبب ذلك ولم تعطه طوال أربعة أيام إلا الماء والخبز. بعد هذه الفترة رأت حول ولدها هالة فريدة من نوعها ثم بحثت داخل القبو ووجدت كافة الطعام الذي زودته به في سجنه. بعد ذلك رأت الام ان روحاً شريرة تسكن ولدها فطردته من المنزل إلا انه توجه إلى موسى الكاظم ثم اعتنق دين المسلمين وأصبح عالماً شهيراً ثم جعل عائلته تعتنق الاسلام.

ما بين ضريحي زبيدة والشيخ معروف هناك مكان يجتمع فيه كبار القوم في بغداد مرة في

(١) هذا قبر المرحومة المغفورة الموفقة للخيرات الجارية ست زبيدة بنت جعفر بن منصور الدوانيقي وزوجة هارون الرشيد من خلفاء بني العباس توفيت في سنة مايتين وست عشرة الى روحها الفاتحة هذا قبر المرحومة المغفورة الصالحة العفيفة الساعية الى الافعال المرضية والاعمال اللاتي تستجلب مرضاة الآلهة عايشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا صاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والغفران وزوجة دستور الحرام والوزير الافخم والي بغداد دار السلام ابو الخيرات حسن باشا يسر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء توفيت في شهور رمضان سبعة عشرين ليلة القدر في سنة واحد وثلاثين ومايه والف.

(٢) هذا قبر سلطان المجذوبين والنفس المطمئنة سنة خمسماية وواحد.

الاسبوع ويتدربون على رماية القوس. قام مرتضى باشا الذي كان سلحداراً (أي يحمل السيف) عند السلطان ببناء عامودين صغيرين كتب عليهما بالتركية ليسجّل المسافة التي بلغها قوسه. بالقرب من العامودين هناك قبتان لكنهما حديثتا العهد. لو كان صحيحاً ان الباشا رمى القوس من عمودٍ إلى آخر لكان يتمتع بقوىً خارقة لأن المسافة تبلغ ٦٠٠ خطوة مزدوجة أي ٢٧٠٠ قدم. إلا ان مرتضى كان من باشاوات بغداد ويمكن ان يكون قد أبعد العمودين عن بعضهما عمداً حتى يتباهى بقواه الخارقة. نجد قرب حلب مكاناً مماثلاً فيه عمودين مشابهين. في حلب ايضاً طلبت من خادمي قياس المسافة وكانت ٣٢٥ خطوة مزدوجة. نجد الكثير من هذه العواميد على آق ميدان (Okmeidan) وهي تلة تقع خلف ترسانة القسطنطينية. ولقد ذكرت في الجزء الاول من هذا الكتاب ان سكان القاهرة المهمين يتدربون ايضاً على رمي القوس.

تقع قرية الكاظم الكبيرة شمالي بغداد وغربي دجلة. في القرية هناك المسجد الكبير (ح) الموجود في اللوحة XLII وضريحي إمامين هما موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد الذي ذكرته آنفاً. يبدو أن هذا المزار الإسلامي كان رائع الجمال في السابق لأن القبتين والمئذنة كانت مغطاة بحجارة مطلية على الطريقة الفارسية لكن هذه الاحجار تتساقط شيئاً فشيئاً. إن موقع هذا المسجد يذكر بموقع مشهد علي ومشهد الحسين إلا ان هناك منازل من الجهتين. أعدم موسى الكاظم عام ١٨٥ هـ بأمر من الخليفة الذي كان يشك في أن عدداً كبيراً من مناصري أهل بيت علي يجتمع في منزله. يقول الشيعة إنه شهيد بسبب ذلك ولا يزالون يذهبون لزيارة قبره. إن غالبية سكان هذه القرية من الشيعة وبما أن شيعة بغداد لا يستطيعون ممارسة شعائر دينهم بحرية في بغداد فهم يتوجهون إلى هذا المسجد كل يوم. كما وأن غالبية الشيعة من سكان هذه الانحاء الذين لا يريدون أو لا يستطيعون دفن موتاهم في مشهد علي يدفنونهم بالقرب من موسى الكاظم. إن هذا كله يعود على القرية بالكثير من الاموال.

إن بغداد هذه التي بناها الخليفة المنصور كانت تقع غربي دجلة في الجزء الشمالي من الضاحية الحالية ومن قبر موسى الكاظم. عند شرق النهر كان هناك برج لكن لم يبق منه شيء ولا نجد اليوم الا قرية المعظم (Maadem) المقابلة لموسى الكاظم والتي تبعد مسافة نصف فرسخ عن بغداد الحالية. إن ضاحية بغداد العتيقة هذه مدينة ببقائها لأبي حنيفة المدفون هنا. كان أبو حنيفة عالماً مؤمناً يجلّه أبناء دينه لكن بالرغم من ذلك زجه الخلفاء في السجن لأن ضميره الحي لم يسمح له بتولي مهام القاضي. بعد وفاته ازدادت محبة الناس له ولقبوه بالأعظم (El Azem). إن أهل السنة من أصحاب المذهب الحنفي والذين يشكل الاتراك غالبيتهم يتبعون أبي حنيفة وقد بنوا مسجداً جميلاً مع مئذنة على ضريحه وأحاطوه بحصنٍ وبست قلاع وبخندق واحد. وأهل الشيعة

يكرهون أبي حنيفة كرهاً شديداً تماماً كباقي مؤسسي المذاهب السنية الاخرى وهم لا يكتفون بإهمال قبره بل ويعتبرونه مدنساً وذلك بالتحديد عندما كان الفرس يحكمون بغداد. وقد كان هذا هو السبب الذي جعل السلطان مراد يشن هجوماً على بغداد عام ١٦٣٨ لينتزع المدينة من أيدي الفرس. في هذا الاطار إليكم الحكاية التالية: في أحد المساجد الاساسية وفي حضرة السلطان وبما ان أحداً لم يكن يرتاب في أمره، أعطي له الاذن بسهولة. حينئذٍ عرض وضع المسلمين الحقيقيين المؤسف في بغداد وندّد بأفعال الارفاض أو الكفار الذين يملأون مقام الامام الاعظم بالأقذار وقال إنه من العيب على سلطانٍ يدّعي انه من بيت عثمان وعلى مذهب أبي حنيفة الا يثأر لما يحصل ويطهّر بغداد من نير الكفار.

كان ضريح أحمد بن حنبل احد الائمة الاساسيين عند أهل السنة يقع بين الكاظم والمعظم (Moaddem) لكن مياه دجلة جرفته. تقع عقرقوف على بعد فرسخين ونصف غربي بغداد وهي قلعة على اتصال متين بقلعة هالة (Helle) التي ذكرتها آنفاً إلا انها ليست مبنية من القرميد بل من الصلصال المجفف تحت أشعة الشمس. وبعد كل ثماني طبقات من الصلصال هناك طبقة من الاسل سماكتها إصبعين. في هذا المبنى نجد ثقوباً صغيرة سدّت حالياً. إن ارتفاع الجدران يبلغ سبعين قدماً. الجهة الشمالية عمودية تقريباً ويبدو انه كان لها مدخل لكنه عالٍ جداً ويصعب الدخول منه من دون سلم. في الجهات الاخرى حيث جففت أشعة الشمس الأرض نرى قطعاً من هذا البناء حملها الهواء عنه كما نرى الاسل لأنه أطول عمراً من الصلصال وأخف وزناً. ظن الكثير من المسافرين ان عقرقوف هي برج بابل مع العلم ان هذه الاخيرة قريبة من الفرات بينما عقرقوف قريبة من دجلة. لا يمكننا ان نحدّد اليوم الغاية التي شيّد هذا البناء من اجلها. ربما كان احد خلفاء بغداد الاولين قد بنى منزله الصيفي على قطعة الارض نفسها لينعم بالهواء البارد والنقي. في الجوار نجد تلالاً عديدة عليها آثار منازل وبساتين وربما آثار مدينة صغيرة أو حتى من آثار بغداد القديمة.

كانت المدائن في الماضي مدينة رائعة الجمال وبقيت بعد وفاة النبي محمد بسنوات مكان إقامة الملوك الفرس. وهي تبعد مسافة اربعة فراسخ جنوبي شرقي بغداد وتقع قرب دجلة. لم يبق اليوم من هذه المدينة الا بقايا قصرٍ كبير يدعى تخت كسرى. يتألف هذا القصر من القرميد والكلس ولا نقرأ عليه اي كتابة. وربما أني لم استطع الذهاب لرؤيته لن أضيف على هذه المعلومات شيء آخر إلا ان أحد التجار أكد لي ان الذي قاس مدخل القصر قدّر عرضه بـ ٨٨ قدماً وارتفاعه بـ ١١٠ أقدام. إذا فالبناء ولا ريب كبير جداً[1].

---

(١) هناك صور لتخت كسرى ولعقرقوف (Ager Kuf) في اسفار ايف لكن بدا لي ان عقرقوف في الرسم اصغر منه في الحقيقة خاصة من حيث الارتفاع.

في هذه المدينة التي اصبحت مهجورة اليوم دفن بعض أصحاب النبيّ محمّد. إن أكثر هؤلاء شهرة هنا سلمان باك المعروف في التاريخ العربي والذي يسمى في بلده سلمان الفارسي. يقال إن أهله كانوا من ذوي الشأن وإنه كان من عبدة النار لكنه أراد أن يصبح مسيحياً عندما كان في سوريا لولا ان احد الكهنة نصحه بالتوجه إلى شبه جزيرة العرب لملاقاة النبي الذي يبشّر من جديد بدين ابراهيم. ولكي يجنبه هذا الكاهن الوقوع في أيدي الدجالين قال له إن للرسول علامة فارقة في ظهره. ولربما رأى سلمان هذه العلامة الرسولية علماً ان محمد لم يخبر شيئاً عن هذا الموضوع ولا تزال آراء العلماء المسلمين إلى اليوم متضاربة حول طبيعة هذه العلامة. كما وتختلف آراء مسلمي بغداد حول سلمان فيقول البعض إنه مات حاكماً بينما يقول آخرون إنه مات بصفته قاضي المدائن. إلا أنه معروف بحلاّق محمّد وهو لا يزال إلى اليوم شفيع الحلاقين المسلمين. وإلى اليوم يزور قبره أهل بغداد كل عام ويحملون معهم الهدايا ويضيئون الشموع. وبهذه المناسبة نفسها يزورون قبر كل من الجماني وعبد الله بن سلام وهما ولا شك من الرجال الكرام عند المسلمين.

هناك اكثر من عشرين جامعاً مع مآذن في بغداد، هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار المساجد الصغيرة. ونجد في المدينة نفسها اليوم أو بالاحرى في ضواحيها ٢٢ مسجداً وأربعة خانات. أما ما تبقى فيعتبر صغير الحجم. كما وهناك عدد كبير من الحمامات العامة بالاضافة إلى مستشفى أو قل هي مكان محجرٍ صحي فيه عدد من الاكواخ البائسة يحبس فيها المصابون بمرض البرص والامراض الزهرية.

بالاضافة إلى التمور تشتهر ولايات البصرة وبغداد الكبيرة بالأرز والملح والقمح والدواب واحصنة الحروب وكلها منتوجات تسعى اليها البلدان الاخرى. إن موقع هاتين المدينتين استراتيجي إذ تقعان في الوسط بين الهند وبلاد فارس وتركيا لذا تزدهر فيهما التجارة. بسبب الاضطرابات الداخلية في بلاد فارس هاجر عدد كبير من الارمن إلى هاتين المدينتين وانشأوا فيهما مصانعهم. ومع ان العلوم كانت تحتل مرتبة رفيعة في أيام الخلفاء إلا انها ما عادت تؤخذ بعين الاعتبار اليوم وذلك حتى في اليمن والقاهرة. ولقد التقيت بأقلية تجيد القراءة والكتابة. في القاهرة لا نزال نجد متجراً يبيع كتباً قديمة اما في بغداد فلا وجود لمتجرٍ مماثل. إذا أراد احدهم هنا ان يجمع بعض الكتب وان ينقلها بنفسه أو بواسطة شخصٍ آخر عليه ان ينتظر موت أحدهم إذ تنقل كتبه ويتجول بها المنادي في كافة انحاء المدينة كما لو كانت ثياباً قديمة ثم تعرض للبيع في المزاد العلني. إذا أراد أحد الاوروبيين شراء مخطوطات عربية وتركية وفارسية فخير ما يفعل هو التوجه إلى القسطنطينية حيث يجد دكاكين فيها كتباً يمكن أن يشتريها المسيحيون الشرقيون.

ليست تجارة الاوروبيين في بغداد واسعة. كان للشركة الانكليزية لبلاد الهند عميلاً من بومباي لكنه استدعي إلى بلده في ايامي لأن التجارة لم تكن مزدهرة. بالرغم من ذلك كان هناك تاجر من البندقية وكانت اعماله مزدهرة جداً مع انه لم يكن يشدّد على ترويجها وتسويقها كما تفعل الشركات التجارية الكبرى. وقد اعطاني السيد ليوني وهو تاجر ايطالي في البصرة رسائل توصية لتاجر البندقية فلقيني هذا الآخر بكثير من التهذيب. يعيش هنا رجلا دين مسيحيان كرمليان احدهما مطران من بلاد ما بين النهرين وقنصل فرنسي في بغداد، كان محبوباً جداً من قبل المسلمين والمسيحيين على السواء. ترك الكبوشيون المدينة منذ زمن بعيد. إن كافة رجال الدين الذين يأتون إلى المدينة يعرفون شيئاً عن الطب مما يجعلهم يحظون بحماية الاتراك وهم جميعاً من أصحاب البعثات التي لا تهدف إلى هداية المسلمين لأن في ذلك خطراً على حياتهم بل إلى إقناع مسيحيي الشرق بالاعتراف بالبابا كرئيسٍ للكنيسة المسيحية. وكثيراً ما يشكو رجال الدين المسيحيون الشرقيون نظراءهم الاوروبيين مما يؤدي بالحكومة التركية إلى جعل هؤلاء الاخرين يدفعون ضريبة من المال خاصةً إذا كانوا أغنياء. بالرغم من ذلك استطاع الرهبان الكرمليون في بغداد ان يجتذبوا أكبر عدد ممكن من المسيحيين الشرقيين الموجودين. أما النساطرة وهم المسيحيون القدامى فقد اجبروا على التخلي عن كنيستهم إلى هؤلاء المسيحيين الجدد. هناك الكثير من اليهود في بغداد لكننا لا نجد فيها عبدة النار أو البانيان.

سبق وذكرت ان معرفة الطب تؤمّن للأوروبيين حماية الاتراك لكن الاطباء الاوروبيين يجنون ثروة بصعوبة فائقة من جراء مهنتهم. يحكى عن طبيب يدعى اربل (Erbel) سافر إلى القسطنطينية مع السفير الامبراطوري ثم أراد ان يوسع اسفاره لرؤية العالم فتوغل في أعماق آسيا لعله يجني ولو مصاريف رحلته ثم جاء إلى بغداد. في هذه المدينة أصبح في البداية الحكيم باشي أي طبيب الباشا وكان يعمل على شفاء أهم شخصيات المدينة لكنه كان يجني القليل حتى ان الباشا لم يكن يعطيه اي شيء بالرغم من تذمره. وفي النهاية قرر ان يكسب عيشه عند الانكليز في بلاد الهند. وصل إلى خارج المدينة للتوجه إلى حاله لكنه أجبر على الرجوع بأمرٍ من الكخيا الذي ادّعى ان الباشا كان يحارب العرب وان كثيراً من الجرحى سيسقطون في هذه المعركة لذا فعليه ان يبقى لمعالجتهم. في هذا الوقت أرسل الطبيب بمساعدة الانكليز كل ما لديه إلى البصرة ثم حصل يوماً على إذنٍ بزيارة مريضٍ هام في مشهد علي فذهب إلى البصرة ولقد التقيت به هناك وكان يستعد لركوب سفينة انكليزية متجهة نحو بومباي والبنغال، ثم عاد إلى أوروبا ولربما اعطانا وصف رحلته يوماً ما.

كنت قد ذكرت ان السلطان مراد انتزع مدينة بغداد من الفرس عام ١٦٣٨ م اي ١٠٤٨ هـ منذ ذلك الحين حكمها الباشاوات التالية اسماؤهم[1]:

الاسم	الوصول إلى الحكم	المدة
١ ـ كوجك (الصغير) حسن باشا	١٠٤٩	١
٢ ـ درويش (الزاهد) محمّد باشا	١٠٥٠	٢
٣ ـ كوجك حسن باشا	١٠٥٢	٢
٤ ـ دلي (الغريب الاطوار) حسن باشا	١٠٥٤	١
٥ ـ كوجك موسى باشا	١٠٥٥	١
٦ ـ محمد باشا	١٠٥٦	١
٧ ـ المقتول ابراهيم باشا	١٠٥٧	١
٨ ـ ارسلان باشا	١٠٥٨	١
٩ ـ شاطر حسين باشا	١٠٥٩	١
١٠ ـ الملاك (أو الوسيم) أحمد باشا	١٠٦٠	١
١١ ـ قرة (الاسود) مصطفى باشا	١٠٦١	٤
١٢ ـ سلحدار مرتضى باشا	١٠٦٥	٣
١٣ ـ آق محمد باشا (الكريم)	١٠٦٨	١
١٤ ـ خاصكي محمد باشا (نال لقب خاصكي لأنه خدم في القسطنطينية في الوحدة المسؤولة عن مهاجمة قاطعي الطرق)	١٠٦٩	٣
١٥ ـ كنبور (الاحدب) مصطفى باشا	١٠٧٢	٢
١٦ ـ قطن (الشديد البياض) مصطفى باشا	١٠٧٤	١
١٧ ـ سلحدار قرة مصطفى باشا	١٠٧٥	١

(١) ليس للشرقيين شهرة (اسم عائلة) كما وغالبية الباشاوات ينحدرون من اصل مسيحي قدموا وهم صغار السن الى تركيا. ومع ان لقب المحمدي (المسلم) يضاف الى اسمهم الا انهم يلقّبون دائماً للتمييز بينهم. لقد ذكرت الالقاب لأحيطكم علماً بذوق الاتراك في هذا الموضوع.

الاسم	الوصول إلى الحكم	المدة
١٨ ـ ابراهيم باشا	١٠٧٦	٢
١٩ ـ قرة مصطفى باشا	١٠٧٨	٤
٢٠ ـ السلحدار (حامل سيف السلطان) حسين باشا	١٠٨٢	٤
٢١ ـ عبد الرحمن باشا	١٠٨٦	١
٢٢ ـ قبلان باشا	١٠٨٧	٢
٢٣ ـ عمر باشا	١٠٨٩	٤
٢٤ ـ ابراهيم باشا	١٠٩٣	٢
٢٥ ـ سلحدار عمر باشا	١٠٩٥	٢
٢٦ ـ سرهوش (السكير) احمد باشا	١٠٩٧	٢
٢٧ ـ عمر باشا	١٠٩٩	١
٢٨ ـ حسن باشا للمرة الاولى	١١٠٠	٢
٢٩ ـ بازركان (التاجر) احمد باشا	١١٠٢	١
٣٠ ـ كتخدا احمد باشا	١١٠٣	٢
٣١ ـ قليلي احمد باشا	١١٠٥	١
٣٢ ـ علي باشا	١١٠٦	٢
٣٣ ـ اسماعيل باشا	١١٠٨	٢
٣٤ ـ دلتبان (الذي لا يرتدي سروالاً احمر) مصطفى باشا	١١١٠	٢
٣٥ ـ يوسف باشا	١١١٢	١
٣٦ ـ علي باشا	١١١٣	١
٣٧ ـ حسن باشا للمرة الثانية	١١١٤	٢٢
٣٨ ـ احمد باشا للمرة الاولى	١١٣٦	١١
٣٩ ـ حاجي اسماعيل باشا	١١٤٧	١
٤٠ ـ توبال (الاعرج) محمد باشا	١١٤٨	١

الاسم	الوصول إلى الحكم	المدة
٤١ - احمد باشا للمرة الثانية	١١٤٩	١٢
٤٢ - الحاج (الذي حجّ إلى مكة) احمد باشا	١١٦١	
٤٣ - رجب باشا		
٤٤ - ألشي باشا		
٤٥ - محمد باشا ترياقي المهيج (هؤلاء الاربعة حكموا جميعاً ومعاً لمدة سنتين)		٢
٤٦ - سليمان باشا	١١٦٣	١٣
٤٧ - علي باشا الاعجمي (الفارسي)	١١٧٦	٢
٤٨ - عمر باشا	١١٧٨	١١

بقيت بغداد حتى عام ١١١٤ (١٧٠٢م) أي السنة التي تولى فيها حسن باشا الحكم للمرة الثانية بحالة سيئة لأن الباشاوات قبل ذلك لم يحكموا إلا لفترات وجيزة وصورياً وحسب. كان الانكشاريون هم أسياد المدينة الفعليين والعرب خارجها. ولم تكن التجارة محمية في هذه الولاية. لهذه الاسباب صار التجار الاتراك والسوريون يسافرون إلى أصفهان حيث يلتقون بتجار من مختلف البقاع وخاصة من الهند. بقي حسن باشا مدة طويلة في الحكم، وكافية ليس لإذلال الانكشاريين وحسب بل العرب أيضاً فثبت الامن على أراضيه. لكنه لم يكن باشا إلا على بغداد وعلى الاقاليم التابعة لها. كان على رأس مقاطعة شهر أسول (Schahhr essul) التي تشكل الجزء الاكبر من كردستان يحكمها باشا من الدرجة الاولى وكان هناك باشا آخر في البصرة وكان السلطان يعين مباشرة المسؤول عن ماردين. بما أن الحروب الداخلية الفارسية بدأت في عهده ولأن الاتراك حاولوا استغلالها لانتزاع بعض الولايات من الفرس. طُلب العون من حسن باشا الذي بدأ بضم ماردين إلى حكومته. وصار يبسط سلطته اكثر فأكثر. وكان يعرف كيف يوقف العرب أو يعيد الباشاوات الجدد أدراجهم عندما كانوا يأتون من القسطنطينية إلى البصرة. أحياناً عندما كان بعضهم يصل إلى البصرة سرعان ما كان يتخلى عن الحكم لدى رؤيته بؤس سكانها والديون التي تغوص فيها من جراء الحرب مع العرب، في الوقت نفسه كان حسن يسعى لإعطاء هذا المنصب لابنه احمد وحصل عليه بصعوبة بعد ان تعهد بدفع مبلغ من المال للسلطان كل عام علماً ان مدفوعات السلطان في البصرة كانت اكثر من مداخيله. ثم توفي حسن باشا من جراء مرض ما في كرمنشاه في قرية من قرى همذان بعد ان حكم بغداد ٢٢ سنة قمرية متتالية.

أما أحمد فكان يرافق والده بصفته باشا البصرة إلى القرية السابقة الذكر فقد توسع باتجاه همذان واستولى على المدينة في وقت قليل. بعد ذلك ذاع صيته فسمّي باشا على بغداد ثم استولى على البصرة وماردين مما زاده قوة ليتابع الحرب ضدّ الفرس. وفي عهده حاصر نادر شاه مدينة بغداد مدة ٢٨ شهراً عام ١٧٣٢ م. قام احمد باشا بتهدئة عدو الاتراك اللدود هذا فردّ له المدافع التي كان قد أخذها من همذان. في المرة الاولى حكم مدة ١١ سنة قمرية هو ووالده. ولشدة ما اشتدت الغيرة بالوزير الذي كان في ذلك العهد. عندما سقطت همذان طلب تعيين وزير آخر مكانه، واعتقد الناس ان احمد لن يترك الحكم بملء إرادته. في هذه الحال كان الوزير سيتهمه بالعصيان ويطالب برأسه لكن احمد سرعان ما خضع لأوامر السلطان. في مدة سنتين أرسل السلطان باشاوات عدة لكنهم اصيبوا بالحزن على السكان وعلى العرب. كانت الفوضى تسيطر على الحكم وبما ان القسطنطينية كانت تخاف من ان يوسّع نادر باشا نفوذه في بغداد طلبت من احمد باشا ان يعود اليها فعاد هذا الاخير وراح يوسّع اراضيه. لكنه لم يرغب قط ببسط نفوذه في فارس خوفاً من نادر شاه ثم أصبح قائد الجيش التركي فاستولى على كردستان وعلى اقاليم الدولة الاخرى، ولم يبقَ منها إلا كركوك وبعض القرى التي أرسل اليها السلطان باشا من الدرجة الثانية. يزعم البعض ان نادر شاه قال في احمد انه اذكى منه ومن السلطان لأنه في كل مرة يحاول السلطان ابعاده عن بغداد كان يستدرج الفرس للاستيلاء على البصرة فيعيده السلطان إلى منصبه ولا يكتفي بذلك فحسب بل ويزوّده بالمال والمدافع من القسطنطينية وبكل ما شاء لحماية الولاية. ويقال ان السلطان ارسل مراراً ما يعرف بالقابدجي باشا إلى بغداد لقتل احمد باشا لكن هذا الاخير كان لديه عميل في القسطنطينية بالاضافة إلى علاقات وثيقة مع الوزير فكان يعلم بأمر هذا الباشا قبل وصوله بل وبأمر كل ما يُدبّر ضدّه. وكان لديه اصدقاء يقومون بقتل هؤلاء القابدجي وهم على الطريق بل وقبل وصولهم إلى الحدود. إلا ان احدهم استطاع ان يأتي بسرية تامة ولم يعرف احمد بأمره الا قبل ساعات من وصوله. حينئذٍ امتطى حصانه مع ضباطه الرئيسيين وعبيده بحجة رمي الجريدة. إن هذه اللعبة العسكرية التركية معروفة جداً في أوروبا. لكل فارسٍ مساعد يركض إلى جانبه حاملاً على ظهره القضبان التي يبلغ ارتفاع كل منها اربعة أقدام. عند الوصول إلى النقطة المعينة يتمجلس المسنون قرب الماء لارتشاف القهوة والتدخين بينما يتجول الشبان اثنين اثنين مطلقين العنان لخيلهم منتظرين الفرصة التي تسمح لهم بتوجيه ضربة إلى خصومهم. التقى احمد باشا بالقابدجي باشي قرب المدينة واستقبله بتهذيب فائق على انه مبعوث رسمي من قبل السلطان. ولأن لعبة الجريد هي لعبة شائعة في صفوف ذوي الشأن من الاتراك دعى أحمد باشا ضيفه لمشاركته اياها. لدى وصولهما إلى مكانٍ معين من قبل احمد باشا طلب هذا الاخير من ضيفه ان يلعبا معاً ولم يستطع القابدجي رفض هذا الشرف فجاء خادم ناوله قضيباً فما كان من احمد إلا

ان اخذ عصاً من مرافقه الخاص ولحق بالقابدجي وطعنه به طعنة واحدة. ثم ترجل عن حصانه مسرعاً وركض إليه محتجاً بأن مرافقه أعطاه القضيب الخاطىء ذا الرأس الحديدي وانه لا يضمر له اي شيء. إلا أن مبعوث السلطان فارق الحياة فأرسل احمد باشا الاوراق التي كان يحملها إلى القسطنطينية مع وابلٍ من الاعتذارات.

لم يترك احمد باشا الا ابنتين من زوجةٍ واحدة. وقد وعد بتزويج البكر عادلة لأحد الاشخاص في مناسبة خاصة. كما وكان من محبي صيد الاسود ولقد صُرع أكثر من أسدٍ على يديه واذا حاول احدهم مساعدته غضب منه معتبراً انه لا يثق في قدرته على مصارعة اكثر من ٤٠ شخصاً من بينهم ضباط وحرس لكن أحداً منهم لم يتجرأ على مدّ يد العون له فبقوا جميعاً في الخلف ما عدا سليمان الجيورجي الذي اشتراه احمد باشا وهو صغير واشرف على تربيته والذي كان يلاحق سيده من بعيد. قبض احمد باشا على الاسد وضربه برمح لكن الرمح كسر فأجبر الباشا على الهرب. عندما رأى سليمان ما حدث هبّ لمساعدة سيّده فصرع الاسد وانقذ حياة الباشا. وهكذا وعده هذا الاخير بتزويجه ابنته البكر ووفى بوعده فتحول سليمان من صاحب مهنة عادية إلى أمين الخزينة ثم صار يتدرج في المناصب الجيدة إلى ان أصبح كخيا وهو منصب بالنسبة للبغداديين يشبه وزير السلطان في القسطنطينية.

بعد أن حكم احمد باشا ٢٣ سنة قمرية في بغداد مات في حملة شنها على الاكراد لأنهم أبوا ان يدفعوا الخراج المعتاد. إن حكام غالبية المقاطعات والمدن مدينون بثروتهم لاحمد باشا وحسن باشا. وكان الجميع راضٍ بسليمان كخيا بسبب والد زوجته وجدّها اما في القسطنطينية فلم يكونوا يرغبون بترك الحكم في يدي هذا العائلة خاصة في ولاية مهمة كهذه. فأرسل السلطان باشا جديد إلى بغداد ولإرضاء رعاياه عيّن سليمان باشا على البصرة.

إلا ان صعوبات كثيرة قد واجهت الباشاوات الجدد. هاجم العرب احدهم وهو في طريقه إلى بغداد فسلبوه امواله مما جعل أهل المدينة يسخرون منه منذ بداية عهده، وهناك باشا ثان مات أثناء رحلته إلى بغداد. وكانت التذمرات تصل إلى بغداد وتقول بأن هؤلاء الاسياد ليسوا اكفاء لتحمل مسؤولية مهمة كهذه. باختصار أرسل اربعة باشاوات اليها في مدة سنتين ولم يرضَ السكان عن اي منهم. في النهاية جاء سليمان باشا مع جيشه من البصرة إلى السماوة (Semaue) أمره الباشا المعيّن بأن يعود أدراجه لكنه واصل تقدّمه حتى الديوانية التي كان يحكمها علي آغا الذي تمرّد على الباشاوات السابقين والذي كان من مؤيدي سليمان باشا. إلا انه سرعان ما هرب إلى بغداد ونقل إلى الباشا أخبار سليمان التوسعية فألف الباشا جيشاً من ١٤ ألف رجل وترأسه وسار به لمواجهة سليمان فوجده قرب الحلّة مع ٨٠٠ شخص ودهش لرؤيته ينتظره مع هذا العدد القليل

من الرجال. لكن أثناء اقامة علي آغا في بغداد حشد رؤساء القبائل لصالح سليمان باشا. زحف العدو مع جيشه باتجاه الباشا مباشرة كما كان متفقاً مع علي آغا، فهرب الباشا بعد فترة وجيزة واستسلمت الفرق البغدادية إلى الرابح. لدى عودة الباشا إلى بغداد وجد الابواب كلها موصودة. اما سليمان فقد لقي ترحاباً شديداً. بنى السكان ديواناً كبيراً تجمعت فيه أهم شخصيات بغداد. ثم أعدوا لائحة شكاوى ضد الباشاوات الذين حكموا بغداد في هاتين السنتين ووقعها كافة الاعضاء لتقديمها إلى السلطان وقرر الجميع ان لا أحد يمكنه انتشال المدينة وسكانها من الحالة السيئة التي وقعت فيها منذ وفاة احمد باشا الا سليمان باشا. باختصار لم يحظ سليمان على موافقة الباشا على توليه بغداد وحسب بل واعطي كافة الولايات والاقاليم التي كان احمد باشا يضع يده عليها.

حكم سليمان باشا مدة ١٣ سنة قمرية ولشدة ما تأثر العرب عند وفاته نظموا اغنيات محزنة لرثائه وصاروا يرددونها إلى اليوم في المقاهي وفي شوارع بغداد. ولا بد من القول ان العرب لم يكونوا يوماً نظاميين في هذه المنطقة كما في عهده وعهد حميه. في الماضي لم يكن أحد يتجرأ على السفر من الحلّة إلى البصرة دون ان يأخذ معه دليلاً يدفع له اموالاً طائلة لكن بعد ذلك صار بامكان كل فرد ان يسافر وحده دون ان يخاف من السرقة على اراضي سليمان باشا سواء عن طريق البر أو عبر دجلة أو الفرات. ولأن التجار كانوا غير مطمئنين للذهاب إلى بلاد فارس تحولت التجارة الهندية من غمبرون واصفهان إلى البصرة وبغداد فازدهرتا.

ولم يكن سليمان يتساهل مع العرب، كان كثيراً ما يهاجمهم بغتة أثناء الليل غير تارك لهم فرصة الهروب إلى الصحراء. لا يزال البدو يسمونه ابو الليل لأنه كان يهاجم دائماً في الليل ولا يهدأ له بال الا بعد ان ينال منهم. اما في بغداد فكان يدعى سليمان الاسد وقد أكد لي البعض انه ذهب إلى دمشق واستطاع ان يسلبها في تسعة ايام لأن العرب الخاضعين لباشا دمشق كانوا قد نهبوا قافلة كبيرة من بغداد. وكان يحاسب باشاوات الأراضي المجاورة عندما لا يضعون حداً للقبائل العربية التي تتجول على أراضيهم. قد يتفاجأ اي اوروبي لدى سماعه هذه الاخبار لأن دمشق وبغداد خاضعتان للسلطان كلتاهما إلا انه من المعتاد ان يشن الباشاوات معارك على بعضهم.

ومع ان احمد باشا كان يقدر الشجعان حتى لو كانوا اعداء إلا ان سليمان باشا كان عكسه تماماً فكلّما كان عدوه المهزوم معروفاً ببأسه كلما زاده ذلك فخراً علماً ان أعداءه لا يمكن ان يلقوا من طرفه اي رحمة حتى ولو دافعوا عن أنفسهم بشجاعة ضدّه. ويلوم الناس سليمان باشا لأنه خاضع كثيراً لزوجته. فعادلة خاتون أي السيدة عادلة ابنة الباشا من الزوجة الاولى لم تنس ان زوجها كان في صغره عبداً عند والدها لذا فقد كانت وقحة وشديدة الطموح. كانت تحدّد أياماً في الاسبوع يزورها فيها الناس لطلب خدمة ما. وبما انها سيدة مسلمة لم يكن يسمح لها بالتواجد

مع ذكور فكان الغلام المخصي يستقبلهم في غرفة على حدة ثم يخبرها بطلباتهم. وكانت احياناً تتخذ قرارات تناقض كلياً القرارت التي يأخذها زوجها ووزيره بعد تفكير وتمحيص. وكانت عادلة خاتون تعرف كيف تدر على نفسها بعض المداخيل. وجديرٌ بالذكر انه عندما يكلف الباشا آغا ما بمهمة وينفذها هذا الاخير يعطيه الباشا عباءة مبطنة بالفرو. أما شيخ القبيلة العربية فيحظى بالمناسبة نفسها عباءة.

في البداية أهدت زوجة سليمان باشا للآغاوات الكبار الذين خدموا عند والدها وجدّها عصبة من الحرير يلفونها حول رؤوسهم ويتميزون بها عن باقي ضباط الباشا في الاعياد والاحتفالات. ومع الوقت صار الباقون يسعون للحصول على العصبة نفسها بواسطة الهدايا ثم جرت العادة أن يحظى منفّذ المهمة بعصبة مماثلة ليست ذات شأنٍ إلا ان ثمنها كان غالياً. وكانت عادلة خاتون على علاقة سيئة بشقيقتها. فقد تزوجت هذه الاخيرة من أحمد آغا وهو آغا اباً عن جد يحبه الجميع وخاصة سليمان باشا. يقال إن الوزير عرض يوماً على احمد آغا ولاية عديلة إلا انه رفض ذلك باحتقار. ما ان عرفت عادلة خاتون بما جرى حتى نقلت الخبر إلى زوجها مدعية ان احمد آغا هو صاحب العرض فما كان من الباشا إلا ان قتله. وهكذا ازدادت عداوة الشقيقتين إلى ان أقنع سليمان باشا اخت زوجه بالزواج من عمر الكخيا الخاص به.

ولم يكن سليمان مستعداً لإرخاء الحبل لأي قابدجي باشا تماماً كحماه. ويقال ان السلطان حاول ان يرسل أشخاصاً لقتله بالسرّ. كما ويقال انه كان هدفاً لعدة طلقات نارية ولربما كان الوزير هو المحرض، في حالات كهذه لا يجرى اي تحقيق في الموضوع لكن اذا عرفت هوية مطلق النار يعدم مباشرة.

كنت قد ذكرت آنفاً ان احمد باشا مات في حملة ضدّ الباشاوات في كردستان. ومع انه مات ميتة طبيعية الا ان عادلة خاتون لم يهدأ بالها لأن زوجها لم يثأر لأبيها. ومع ان سليمان باشا ذهب عدة مرات إلى كردستان الا انه لم يعثر يوماً على القاتل الذي كان يهرب إلى الجبال. في النهاية حاول القاتل الاعتذار والتودد وكان صادقاً في ما يفعل فأرسلت له عادلة خاتون عصبة ثمينة جداً من الحرير كدليل على عفوهم عنه(*). فاقتنع الكردي بذلك وجاء إلى بغداد لكن ما ان وصل حتى زجّ في السجن وقتل في اليوم التالي.

لم تسمح هذه السيدة الطموحة لزوجها بالاقتران بنساء اخريات ولا باتخاذ جوارٍ. وهي لم ترزق بأولاد فعندما مات سليمان كانت وريثه الوحيد ولا تزال إلى اليوم تعيش في بغداد وتعتبر من

(*) يحكي ايف بإسهاب قصة هذا الكردي في اسفاره الى الهند وبلاد فارس الجزء الثاني ص ٩٩.

اكثر الناس ثراء. بنت في هذه المدينة مسجداً وخاناً اتخذا اسمها وشيدت أبنية مماثلة في مدن أخرى.

عندما توفي سليمان باشا كان علي آغا يحتل منصب المتسلّم في البصرة(*). وكان علي آغا قد شغل عدة مناصب مهمة في هذه الحكومة وكان الشعب يحبه ويحترمه فأمل بتنصيبه باشا. وسرعان ما نال فرمان الباشا الذي يكلفه بهذا المنصب اذ ان توصيات عديدة وهدايا قيمة أرسلت من الديوان إلى القسطنطينية مرشحة اسمه الا انه لم يحكم الا ٢٢ شهراً ويشكك في أن عادلة خاتون هي السبب في ذلك. ولم يكن أصل علي آغا عبداً بل كان أهله من المسلمين الفقراء في بلاد فارس. في صباه عمل عند رئيس خدم احمد باشا ولشدة ما كان حسن السلوك وضعه الباشا في حمايته وعلمه كافة الامور التي يجب ان يعلمها اي تركي ينحدر من عائلة عريقة ثم رقاه إلى عدة مناصب. وكانت عادلة خاتون تأمل في الحفاظ على حصتها من الحكم بعد موت زوجها باعتبار ان علي باشا مدين لوالدها في منصبه وماله الا انها لم تحظ بمبتغاها. أراد علي باشا ان يحكم وحده وبحزم. كان الانكشاريون شديدي النفوذ في تلك الايام في بغداد خاصة لأن الباشا قد مات والباشا التالي لم يستلم زمام الحكم بعد. أراد علي باشا ان يضعف الانكشاريين لكن عدداً من البورجوازيين كان حائزاً على لقب انكشاري فقامت ثورة نظمت بالتشاور مع جيش السلطان مما أجبر علي باشا على ترك المدينة. إلا انه ما لبث ان عاد وساعده في ذلك عدد من كبار رجال بغداد ومن القبائل العربية الرئيسية فقطع رؤوس بعض الانكشاريين. بعد ذلك بقليل انتفض بعض الباشاوات في كردستان بالاضافة إلى قبيلة خزاعل (Chasael). لكنه أخضع الاتراك إلا ان قبيلة خزاعل هزمته فنظم الشعراء العرب اغنية حول نصر «معدن» هذا صارت تغنى حتى في بغداد. ولم تستطع عادلة خاتون احتمال اهمال الناس لها وعدم استشارتها بشيء وكانت تسمع ان علي باشا يريد ابعادها عن بغداد فقررت ان تقتله. وكان يقال ان علي باشا كان ينتمي سراً إلى المذهب الشيعي وكان يحب الفرس والدليل على ذلك انه تعامل بقساوة بالغة مع الاكراد والانكشاريين وهم من أصل السنة بينما ترك قبيلة خزاعل تهزم جيوش السلطان علماً انها قبيلة شيعية. وصار الشعب يتذكر حالات اخرى كان فيها علي باشا مع الشيعة ضد السنة، وقرر الجميع انه كافر وانه يتحيّن الفرصة لجعل الفرس يستولون على بلاد السلطان.

من بين كبار رجالات بغداد هناك خمسة أسياد اشتراهم الباشاوات السابقون كعبيد وربوهم على الديانة الإسلامية. شغل هؤلاء بالدور أهم المهام في المدينة وفي مكان إقامة الباشا أو من

(*) هو نفسه علي آغا الذي التقى به إيف من رحلته من البصرة والذي كان فائق التهذيب في تعامله مع الانكليز الى الهند وفارس، الجزء ٢ ص ٥٥.

الولايات الاخرى، كانوا يعيشون كإخوة ويعرفون علي جيداً لأنهم ساعدوه على أن يصبح باشا دون أن ينتبهوا إلى الضجة التي حلت مؤخراً. في الوقت نفسه كانوا يجلون عادلة خاتون لأنها حفيدة وابنة ثم زوجة المحسنين إليهم السابقين مع أن سلوكها لم يكن دائماً يعجبهم. ثم مات أحد هؤلاء الخمسة فجأة فأرادت عادلة خاتون إيهامهم أن الباشا هو الذي سممّه وانه طلب من القسطنطينية الإذن بالقضاء عليهم جميعاً. فظنوا أن الأوان قد آن لتأمين استمرارهم علماً انهم كانوا في السابق أكثر من يعتمد عليه الباشا وهم الذين أعادوه إلى الحكم بعد أن طرده الانكشاريون من المدينة فتحولوا إلى رؤساء ثورة لم يعرف الباشا عنها شيئاً إلا عندما تجنّدت المدينة بكاملها ضدّه. لم يجد علي مفراً من الهرب متنكراً بثياب امرأة. بعد مرور بضعة أيام أُلقي القبض عليه وهو يسعى إلى الخروج من المدينة لطلب النجدة من العرب فاقتيد إلى السرايا وأعدم فيها.

بعد موت علي اجتمع الديوان لاختيار باشا بين الأسياد الاربعة الباقين. اثنان منهم رفضا هذا الشرف معتبران عمر كخيا هو الاحق بالمنصب لأنه زوج ابنة احمد باشا. الثالث وهو محمود كان غائباً لأنه كان يحتل منصب المتسلّم في البصرة لكن كان حاضراً. ولم يكن هذا الاخير رجلاً ذا شخصية فذة أو ضابطاً بارعاً بل اختاروه بسبب زوجته وهي امرأة رقيقة يحبها الشعب عانت من مقتل زوجها الاول ظلماً ومن غرور اختها. وهكذا اقترح الديوان بكامله عمر الكخيا ثم اعدّ الجميع رسالة إلى السلطان كتبوا فيها ان علي باشا كافرٌ كان يريد تسليم المدينة للفرس وان الشعب ثار عليه ثم قتله وان العرب والاكراد ثاروا هم أيضاً وان عمر باشا وحده قادر على إرجاع الامن إلى المدينة لذا فقد رجاه الديوان ان يتحمل مهام الحكم على أمل ان يوافق السلطان على ذلك. وهكذا سمّي باشا في صيف ١٧٦٤.

في السنة التالية سار عمر باشا إلى الجبال لمواجهة قبيلة خزاعل. فأضرم النار في لملوم مكان إقامة الشيخ وقطع رؤوس ستة أو سبعة من الشيوخ الرئيسيين ثم أرسلها إلى القسطنطينية كرسالة تقول إنه لشدة ما أذلّ العرب، لن يضايقوه أبداً في المستقبل. بهذه المناسبة حصل على تهاني الوزير. في هذا الوقت عاد الشيخ الحاكم الذي كان قد هرب لدى قدوم الباشا فأجبر الشيخ الجديد على إرجاع الحكم له، ولم يرغب الباشا في شن حملة جديدة فتركه في منصبه. كنت قد ذكرت سابقاً ان قبيلة كعب هي الاخرى تزعج الباشا. وقلما تمر سنة دون ان يحمل فيها باشا بغداد على العرب أو الاكراد لكن الباشاوات كانوا يتأكدون من ان السلطان لا يعرف شيئاً أو يعرف القليل عما يحصل في الحكم.

لم تكن زوجة عمر باشا قد سمحت له باتخاذ زوجات اخريات أو جاريات ولم يحصل منها على أي ولد. وكان الاتراك اكيدين من التخلص من عائلة احمد باشا عندما يموت عمر باشا الا

ان اهل المدينة قد اعتادوا منذ سنوات عديدة على اختيار رئيسهم بنفسهم مما اضطر السلطان مراراً إلى الموافقة على خيارهم حفاظاً على هذه الولاية الجميلة وكي لا تسقط في أيدي الفرس(*). إن شكل الحكم في بغداد يشبه الحكم في القسطنطينية. يوزع الباشا المهام على ذوقه لكن الأمور الهامة تخضع للديوان. أما الأشخاص الذين يحتسب صوتهم في الديوان فهم:

- جميع المسنين الذين خدموا بصفة كخيا الباشا والمتسلمين في البصرة و«الويودة» في ماردين والذين حكموا المدن أو الأقاليم والموجودين في بغداد.

- الباش آغا أو رئيس فرقة الخيالة.

- الآغا أو رئيس الانكشاريين.

- رئيس العلماء. لا أحد يطلب إعطاءه هذا اللقب إذ يكتسبه مباشرة الذين يشتهرون بعلمهم ومعارفهم. إن هذا اللقب نادرٌ جداً في تركيا(**).

- قاضي المدينة ويكون ملّا ويغيّره مفتي القسطنطينية كل عام.

- مفتي المذهب الحنفي.

- مفتي المذهب الشافعي.

نسيب الشرف أو رئيس سلالة محمد في هذا الباشاليك يكون هذا في الوقت نفسه (المتولي) أو مفتش مسجد الشيخ عبد القادر ومقامه.

- الخطيب الشيخ وهو خطيب مسجد الشيخ عبد القادر.

(*) عندما حاصرت جيوش كريم خان البصرة عام ١٧٧٥، اعتقدوا في القسطنطينية ان عمر باشا هو الذي اتاح لهم الفرصة. ظن البعض ان الفرس لم يريدوا فعلاً اعلان الحرب على السلطان لكنهم ارادوا اضعاف باشا بغداد لأن سلوكه لم يكن يعجبهم. ويقول البعض ان عمر باشا رجا كريم خان ان يرسل جيوشه الى البصرة كي يعظم شأنه امام السلطان (اتهم احمد باشا بالتهمة نفسها عندما حاصر نادر شاه البصرة مما اجبر السلطان على إعادة احمد الى بغداد كي لا يخسر البصرة) جاء جيش قوي مع عدة باشاوات الى بغداد وسيطر على المدينة في بداية سنة ١٧٧٦ بعد ان وعدوا عمر باشا بالذهاب الى اورفه (Orfa) بصفة باشا لكنهم لم يفوا بوعدهم فقطع رأس عمر باشا وارسل الى القسطنطينية. ثم عين السلطان باشا على بغداد. لكن بعد ذلك بفترة قصيرة سقطت البصرة في بداية عام ١٧٧٧. كتب إلي احد اصدقائي من حلب واخبرني ان المدعو عبد الله الذي كان كخيا في عهد عمر باشا لايزال الى اليوم باشا بغداد. اذاً فلا بد ان اهالي بغداد هم الذين اختاروه وصدّق السلطان على اختياره.

(**) ربما كان رئيس العلماء استاذ مدرسة المدينة.

ـ الخطيب زرمشاب (Zermashab) أو خطيب المسجد الذي دفن فيه ابو حنيفة.

الضابط الاساسي للباشا هو الكخيا ويكون في الوقت نفسه الوزير تماماً كوزير السلطان. وللباشا ايضاً مجموعة من المستشارين ويجب ان يكونوا ممن شغل مناصب هامة. في أيامي كان في البلاد رجل يدعى عبد الله بك أخ شيخ قبيلة عبيد (Obed) وكان البابك باشي أو قائد الخيالة لكن لشدة ما كان محترماً كان الباشا يستشيره في كافة الامور وخاصة تلك المتعلقة بالعرب. بالاضافة إلى ذلك نجد الدفتردار أو امين الخزينة [1]. وأفندي الديوان أو امين سر الدولة. يحل محلّ الكخيا عندما يغيب القابدجي قحجازي (Kehajasi) هناك ايضاً الحريم قحجازي أو المسؤول عن بلاط الباشا. السلام أغاسي هو رئيس التشريفات، المير أهور Ahor هو قائد السلاح هذا بالاضافة إلى رئيس ضباط العدالة أو الشاويشلر قبجاسي. يبقى هذا الاخير إلى جانب الباشا كالشاويش الأمين الذي يبقى إلى جانب الكخيا لتلقي اوامره، يلازم باشا بغداد القائد باشا المذكور في القسم الذي يتناول البصرة. أما المسؤولون عن جباية الضرائب والخراج (وما يدفعه المسيحيون واليهود) فهم يعينون من قبل الباشا.

لكل الباشاوات وخاصة باشاوات بغداد عدة آغاوات. إن هؤلاء بمثابة حرس ويخدمون الباشا بأنفسهم عندما يخرج الباشا على ظهر الخيل يسيرون خلفه على خيل رائعة وقد ارتدوا ابهى ثيابهم ولكل منهم خادم يهتم بفرسه يخضعون جميعاً لأمين صندوق الباشا والسلحدار أو حامل السيف الا ان الاول يعطيهم الاوامر في المدينة بينما الثاني في القرى.

الضابط الثالث الاساسي هو التشوقدار باشا. ان ٢٤ من الاتس آغاسي (Itsagasis) من المكلفين بمهام خاصة يحيطون دائماً بالباشا ولن أذكر منهم إلا التالية أسماءهم:

ـ الكستنجي المسؤول عن تفتيش الخزانة.

ـ الابريقدار الذي يحمل للباشا الماء حتى يغتسل.

ـ السدجي باشي الذي يحمل له الماء ليشرب.

ـ القهوجي باشا الذي يهتم بتحضير القهوة.

ـ الاتس قلرجي الذي يحفظ المرتّى.

ـ الرشتوان الذي يهتم بالخيل.

---

(١) يخضع الدفتردار في الولايات الاخرى للسلطان مباشرة. ان باشاوات بغداد يختارون الدفتردار او يراقبونهم بأنفسهم.

- الإتس معشتر باشي الذي يهتم بالسجاد.

ان أحد هؤلاء الاتس آغاسي هو أيضاً لالا أو رئيس الغلمان يراقب هؤلاء الشبان الصغار والفتيان وهم بغالبيتهم مسيحيون من جيورجيا أو من مناطق اخرى يباعون كعبيد. إن قسماً منهم يتحدر من أبوين مسلمين يجب الاهتمام بتربيتهم على الاصول التركية وبتعليمهم القراءة والكتابة وركوب الخيل وحمل السلاح على الطريقة التركية. إن الاذكياء والماهرين من بين هؤلاء يرقون إلى منصب إتس آغاسي وغيره من المناصب المتشرفة من غير أخذ أصلهم بعين الاعتبار اما الباقون فأملهم ضعيف في الوصول إلى مرتبة رفيعة في هذا البلد. يسمح لحملة لقب إتس آغاسي بإطالة شاربيهم لكن إذا بلغوا مناصب ارفع يصبحون صقلي آغاسي أو سقنلي آغاسي ويسمح لهم بإرخاء لحيتهم من جهة ذقنهم. يعمل عند الباشا ما يقارب ١٥٠ من هؤلاء الاخرين.

وهناك ايضاً التشوقدار أو المخاتير من بين الإتس آغاسي. وهؤلاء لا يمتطون الخيل في خدمتهم. إن رئيس الفريق الاول هو التشوقدار باشا ويكون الفريق مسؤولاً عن نقل اوامر الباشا إلى الولايات. اما المخاتير فهم مسؤولون عن تفتيش الخيم في القرى ويقومون بمهمام مخزية أحياناً.

إن ذهاب الباشا إلى المسجد يكون بمثابة احتفال يحيط به من جهة التفنكجي باشي ومن جهة اخرى المطردجي باشي ويسبقه عدة موسيقيين وعدد من الاتس آغاتسي على ظهر الخيل هذا بالاضافة إلى عدد من الضباط الاخرين الذين يرافقونه كالالواتسوس والسراح باشي والقواس والشاطر لكني لا أعرف ما هي مهامهم.

يؤلف الإتس آغاسي الفرق العسكرية الاهم ولباشا بغداد من المشاة فهم ما يقارب	٨٠٠ رجل
اما الكخيا والاسياد الباقون في بغداد فعددهم	٢٠٠ رجل
إن خيالة الباشا المسماة لوند والتي تكثر في كوك الحلّة لضبط العرب تتألف من	١٠٠ بيرق
كل واحد من ٢٥ رجلاً عندما يكون كاملاً لكن في المطلق يصل عددها الى	١٥٠٠
المشاة ويسمى هذا الفريق برتولي يتألف من ٣٠ فرقة كل واحدة من ٤٠ رجلاً	
في ايامي كان مجموع المشاة يوازي	٨٠٠
يقدّر عدد التفنكجي أو الجنود في خدمة الباشا بـ	٢٠٠

إن جيش الباشا النظامي والمدرب على الطريقة التركية يتألف من أقل من ٣٥٠٠ شخص.

إلى جانب ذلك هناك فرق من الانكشاريين ومن رجال المدفعية إلا أنه خاضع للسلطان اي انه لا يحق للباشا أمره بالتوجه لمقاتلة الثوار من العرب والاكراد يعتبر الانكشاريون رجال المدفعية

انهم يقومون بأعمال تزيد عن اللازم لأنهم يحمون المدينة والقلعة من اعداء السلطان ومن الباشا شخصياً. وهم يخضعون للآغاوات المسؤولين عن قطعهم في القسطنطينية والتي ترسل لهم الضباط يكون جنودهم من اصل البلد ومن انصار الباشا خاصة اذا اغدق عليهم شرف السماح لهم بالانضمام إلى هذه القطعة. لم استطع معرفة عدد الانكشاريين الموجودين في بغداد بدقة اذ قال البعض انهم يبلغون عشرة آلاف بينما أصر آخرون ان عددهم يصل إلى ٢٠ الفاً. ان الرقم الاول يمثل العدد الرسمي لدى السلطان، أما العدد الثاني فيتألف أيضاً من السكان والآغاوات المسجلين عند الانكشاريين للتمتع ببعض الامتيازات ولحماية انفسهم اذا تعرض لهم الغير يتميز اعضاء كل قطعة بقبعاتهم الخاصة التي تميزهم عن القطع الاخرى. أما من حيث اللباس فكل شخص يرتدي ما يشاء.

في ولايات اخرى لا وجود لكلمتي لوند أو برتولي لكن يقال لخيالة الباشا دلي (Deli) وللمشاة تفنكجي وسقمان.

عندما يحتاج الباشا إلى مزيد من الفرق العسكرية في حملاته ضد العرب والاكراد يتفق مع بعض الضباط فيجند كل واحدٍ اشخاصاً يكون مسؤولاً عنهم. تسمى هذه القطعة المستحدثة سردنجستي. يقبل جميع الاشخاص المتطوعين ويقادون مباشرة إلى المعركة دون تدريب يذكر على السلاح الذي يعطى لهم. بعد عدة أشهر وهي المدة التي تستمر فيها الحرب، يطلق سراح هؤلاء. في ايامي جندت عشرة بيارق كل واحدٍ مؤلف من ٤٠ رجلاً أرسلوا إلى البصرة لمحاربة قبيلة كعب. وحتى خادمي انخرط في الصفوف وأصبح سردجستي ليدخر المال الذي اعطيته اياه ويعود به فاضطررت إلى استبداله بماروني من حلب. بما ان البيرقدار كان يطلبه عدة مرات، سألته ما إذا كانت الفرق قد تمرّنت فأخبرني ان الضابط تلا الفاتحة معهم ثم كلمهم على التحضيرات اللازمة للسفر وأعطاهم المال اللازم لذلك ثم طلب منهم ان يكونوا شجعاناً وشرفاء وبعد ذلك فرّ منهم. عند الحاجة يمكن للباشا تجنيد ٣٦٠٠٠ شخص آخرين في ولايات البصرة والحسكة وماردين وكردستان ومن العرب المتجولين في أراضيه لكن عدد الفاعلين منهم في الحرب لا يكاد يصل إلى ١٠٠٠٠ رجلٍ والباقون يسيئون إلى الجيش أكثر مما يفيدونه.

من أهم مدن الحكم: البصرة، أربيل، الحلّة، رماحية، مشهد علي، كربلاء، الطاق، ألتون كبري، قرة طاغ، مندلي، بدرة، خراسان، مهروت، بهروز، قزل رباط، خانقين، قصر شيرين، (بجوار بلاد فارس) شهربان، حرانية، بنكجة، برة دان، دجيل، تكريت، (على دجلة) سامرّاء، (على دجلة)، دور، رنكباد، دروزين، خرنبات، عانة (هذا المكان والاماكن التالية تطل على الفرات) جبة، هيت، حديد، الروس، كبيسة.

أثناء سفري لم أرَ الا القليل من هذه المدن والضواحي والقرى لذا لا أستطيع تحديد مكان الباقيات. إلا اني نقلت اسماءها لأنها تستحق أن ينظر فيها الجغرافيون فربما استطاع المسافرون من بعدي ان يعرفوا من أين حصلت بلاد دروزين على اسمها هل يوجد فيها دروز حالياً ام هل كانوا فيها في السابق؟ ولست متأكدا من الكتابة العربية لبعض هذه الاسماء لأن الملّا الذي كتبها لي كان خطه سيئاً فكتبتها بأحرف المانية وفقاً لطريقة لفظها بالعربية.

لا يرسل الباشاوات أي حاكمٍ تركي للأكراد والبدو إذ يجب أن يكون رؤساؤهم من القبيلة نفسها فيعين الباشا الشخص الذي يختارونه. كنت قد دوّنت اسماء القبائل العربية الاساسية في هذا الحكم في هذا الكتاب وفي كتاب «وصف الجزيرة العربية» هناك قبائل تملك قرىً كثيرة لقاء مبلغٍ سنوي تدفعه للباشا.

ومع اني لم أكن في كردستان إلا اني سأنقل المعلومات التي تلقيتها في إطار الحكم في بغداد لأن جزءاً كبيراً من كردستان يخضع لباشا بغداد.

إن كردستان بلدٌ جبلي خصب يشتهر بالعفص الذي تصدّر منه كل سنة كميات هائلة إلى حلب ومنها إلى أوروبا وبالمنّ الذي يستعمل بدلاً من السكر في هذه الأنحاء وبالقطن والأرز والتبغ والعنب والتين. كما وتشتهر هنا زراعة الكراب (أو الفوّة) والعفس وهي انواع من الحرير الذي يظهر على الشجر والعلك لكنه كبير جداً كما علك جزيرة شيو، لأن سكان هذه الانحاء الجبلية قد حظوا دائماً على حاكمٍ منهم فقد استطاعوا بالتالي الحفاظ على لغتهم التي يزعم ان لها ثلاث لهجات. إن لهجة إقليم قلعة جولان قريبة جداً من اللغة الفارسية ولغة إقليم كوى سنجاق قريبة من العربية ومن اللغة الكلدانية أما الجزء الشمالي من كردستان فلغته قريبة من التركية.

تشكل قلعة جولان أو قرة جولان الولاية الكبرى في بلاد كردستان وهي تابعة للسلطان. تحكم الولاية عائلة سوران المنحدرة من قبيلة بوب (Bobbe) ويدعي رئيسها باشا. إن هذا الباشا والباشاوات الاكراد على حدٍ سواء لهم طوقٌ واحد يتلقونه من باشا بغداد فهم بالتالي لا يتساوون مع البكوات الاتراك الذين يتلقون طوقهم مباشرةً من السلطان. يكثر عدد أبناء العائلة الحاكمة وكلهم يودون الاستئثار بالحكم والتحول إلى رتبة باشا لذا يحملون على بعضهم إلا ان باشا بغداد يعين باشا على قلعه جولان الشخص الذي يدفع اكثر. ولا شك ان شعب هذه الامة يعاني بالاضافة إلى ظلم الاتراك من طموح العائلة المالكة. لذا، لا نجد مدناً في هذا البلد فحتى قلعة جولان مكان اقامة الباشا ليست الا قرية متواضعة جداً.

لو أردنا بكلمة واحدة ان نحدّد طبيعة الاكراد لقلنا إنّهم ذوو طابعٍ انتقامي. فقبل وصولي إلى

الموصل بفترة وجيزة قتل الملّا باشا قلعة جولان وهو في سريره أثناء الليل لأنه كان قد قتل أخاه.

في الجزء الجنوبي من كردستان وعلى اراضي باشا قلعة جولان هناك إقليم شهره زول وهو اسم كان يتخذه احد الباشاليك القديمة. أعتقد ان قرية غالمبور الواقعة بين سنجاق وكركوك كانت في السابق مكان إقامة الباشاوات. ولم أسمع عن سرداوا وباسيان ومرجي وسنغانا وأغجلّر إلا أنها قرى من كردستان.

يقال إن لسردست قلعة صغيرة.

الباشا الكردي الثاني الخاضع لباشا بغداد والذي يدفع له ضريبة أو قل جزية يسكن في كوى سنجاق وهو مكان معروف يبعد عن أربيل مسافة ثلاثة أيام وعن التون كوبري مسافة يومين. إن القرى الوحيدة التي سمعت بها في أراضيه هي روش وموران، ودوين وحرير، تبعد القرية الاخيرة مسافة ستة فراسخ عن اربيل اما دوين فهي مسقط رأس أيوب والد صلاح الدين.

تقع بلباس على جبلٍ عالٍ وتبعد سفر اربعة إلى خمسة ايام عن الموصل. يطلق اسم بلباس أيضاً على قبيلة متجولة. إن عدد هذه القبائل البدوية الكردية كبير في بلادها وهي لم تكتف بذلك بل انتشرت ايضاً في سوريا وبلاد فارس.

وفقاً للوصف الذي وصلني، تقع لوندوس في وادٍ صغير على جبلٍ عالٍ ومتعرّج لا يمكن الوصول اليها الا من خلال طريق واحد ضيقة كثيراً. يقال ان سكان هذا الاقليم يدفعون احياناً لباشا كوى سنجاق مبلغاً زهيداً لكن الحكم هنا لا يبقى في العائلة نفسها كما والسكان لا يسمحون لأي جارٍ مجاور اقوى منهم ان يرسله لهم رئيساً من قبله. لكن يقال إنه عند موت الرئيس تجري مبارزة (أو ربما حرب داخلية هي اكثر شيوعاً عند المسلمين من المبارزة) ويقرّر من جرّائها من هو الحاكم الجديد.

إن الباشا الكردي الثالث الخاضع لباشا بغداد يدعى (وفقاً لاسم العائلة) باشا درنة وهو يحكم في شاو، إقليم يقع عند الحدود الفارسية.

إن المقاطعات الصغيرة في كردستان التالية اسماؤها لا تخضع لباشا بغداد وتكون إما مستقلة أو تدفع جزية للباشاوات المنتصبين على المناطق المجاورة.

عميدية هي قلعة صغيرة واقعة على جبلٍ منحدر يصعب النيل منها في هذا الاقليم. تبعد عن الموصل مسافة ١٨ فرسخاً أو ١٣ أو ١٤ ميلاً المانياً، يدعى حاكمها الحالي بهرام وهو يتحدر من عائلة البلدينوس (Baldinous) التي حكمت هنا في أيام الخلفاء العباسيين. يلقّب بالبك

وبالباشا ويريد ان يستقلّ كلياً. لكن عندما تصل جيوش الباشاوات المجاورين إلى هذا الاقليم عليه ان يغدق عليهم الهدايا وإلا يهدمون قراه الواقعة في السهل. تكثر الفاكهة في أراضيه بالاضافة إلى مناجم الرصاص التي تدر عليه ارباحاً طائلة. يملك باشا عميدية مدينة عكر الصغيرة التي تبعد سبعة أو ثمانية اميال عن الموصل. كانت هذه المدينة شهيرة منذ أيام الخلفاء ولا تزال حتى اليوم ذائعة الصيت لأنها تزود المدن المجاورة بالأرز.

زاخو هي مدينة صغيرة في هذا الاقليم. أما الاسماء التالية فهي لقرى: جزيرة، نفكر، شاه، خان، صخوك، زبار، واسماعيل. القرية الاخيرة تقع عند نهر دجلة وعلى الطريق التي يسلكها اليزيديون من جبل سنجار إلى قبر شيخهم الكبير عدي.

جكارية في إقليم في كردستان يقع شرقي مقاطعة عميدية وبالقرب من وان، إن هذا الاقليم جبلي ويسكنه النسطوريون ولديهم بطرك خاص يدعى شمعون. ان هذا الاقليم مستقل تماماً عن الكوش. يقال ان باشا وان يرسل أحد البكاوات بقطن في قرية قمرية الا ان السكان لا يكترثون له وهم يتجنبون أي اتصال بالمسلمين خوفاً من الخضوع لنيرهم. ولا يسمح الناظر في حقاري للتجار المسلمين بالقدوم اليهم كما ولا يسمحون لأي مسلم بالسكن عندهم.

يقال إنه في بيازيد وهو إقليم آخر قريب من وان، هناك باشا كردي بالوراثة حكمت عائلته الاقليم لسنوات عديدة بالاضافة إلى إقليمين آخرين هما جولمرك وبدليس. في هذا الاقليم الاخير تشكل منطقة موش المكان الرئيسي اما زازون فهي قرية صغيرة[1]

عندما كنت أستعلم في الموصل عن عملاتٍ قديمة رومانية ويونانية وفارسية، أكد لي الناس انني يمكن ان اجد مثلها في كردستان اذ يتعامل بها الشعب لأن العملة تنقص فيه. وقد وجدوا في البلد نفسه كميات من هذه الاموال كانت مدفونة تحت الارض إلا ان الجزء الاكبر منها قد أرسله تجار الموصل ونصيبين وماردين ودياربكر إلى مدن أخرى مقابل العفص إذ عندما يكتشف باشا أو قاضٍ تركي ان احدهم يريد عملاتٍ قديمة يزجه في السجن وتسحب منه كل ممتلكاته أو يبرح ضرباً لجعله يعيد الكنوز التي لم يجدها بعد. إن العملات والقطع النقدية القديمة العربية ليست نادرة في الشرق لأن العادة تجري على ان توضع سلاسل منها حول رؤوس الاولاد وأعناقهم وهم يفضلون القديم منها لأنها منقوشة بآيات قرآنية ليست موجودة على الجديدة إذ استبدلت عليها الآيات بأسماء الحكام ومناصبهم لا يزال سكان هذه المناطق الكثيرة الاضطراب

(١) لعل زازون هي زازان التي وردت في الترجمة الالمانية لسلمر Semler عن التاريخ العالمي للأزمنة الحديثة، الجزء الثالث. وجاء في الترجمة ان زازان كان فيها برج.

إلى اليوم يدفنون أشياءهم الثمينة حفاظاً عليها لأنه يصعب عليهم تشغيلها بأمان كما في اوروبا كما يصعب عليهم حفظها لأن خزاناتهم وبيوتهم سيئة الصنع والبناء. وغالباً ما يرفض حتى المريض ان يبوح لأهله بالمكان الذي دفن فيه أشياءه الثمينة كي لا يستعملوه قبل الاوان. ويحكى منذ سنوات قليلة ان كردياً من قبيلة كيكي وقع عن حصانه ورفض إخبار ابنه بالمكان الذي دفن فيه ماله، وعندما تأكد من أن أمله في الحياة ضئيلٌ جداً كان قد فقد القدرة على النطق ولم يستطع ان يقول إلا «على تلة». فقام الابن بالبحث على عدة تلال لكنه لم يجد شيئاً.



سير رحلتي من بغداد إلى الموصل

خلال اقامتي في بغداد، لم تمر بعثات كبيرة، لأرافقها إلى حلب عن طريق الصحراء، كما وان السفر وحيداً محفوف بالمخاطر. في هذه الاثناء، كانت احدى القوافل تستعد للذهاب إلى دمشق،، فاستغل معظم التجار، الذين يبغون السفر إلى حلب، هذه الفرصة، وارتأيت ان احذو حذوهم.

وقبيل انطلاق القافلة، علمت ان القبيلة العربية في سوريا، قد تخاصمت مع باشا الاتراك، وان احد اعيان المنطقة بدل رأيه، وعدل عن مرافقة القافلة المذكورة فأحسنت فعلاً بالبقاء برفقته في بغداد، اذ تعرضت القافلة للنهب على مقربة من دمشق، وسرقت الخزنة التي ارسلتها إلى حلب.

ان الطريق المؤدية إلى الموصل، عبر كركوك وأربيل، خالية من المخاطر، ويمكن سلوكها دون انتظار مرور القوافل الكبيرة؛ اختار احد المسافرين سلوك هذه الطريق، خاصة واننا نصادف عليها مدناً كثيرة، خلافاً للطريق المؤدية من بغداد إلى حلب، حيث لا نقع الا على قريتين أو ثلاث. ولما استعلمت عن القوافل الصغيرة المتجهة إلى الموصل، علمت ان بعثة مؤلفة من ٢٥ أو ٣٠ يهودياً تستعد للانطلاق، كان هؤلاء الآخرون يمتطون الحمير، ويستعملونها لنقل بضائعهم؛ وهم يلبسون ملابس رثة، ولا يحملون الاسلحة. والجدير ذكره ان سكان امم الشرق يحتقرون اليهود شأنهم شأن الاوروبيين، فاتخذت بالتالي اسوأ صحبة للسفر برفقتها. ولكن قائد القافلة كان تاجراً عجوزاً من الموصل، قام برحلات كثيرة في هذه الاقاليم، وخاصة في كردستان، ويمكنه ان يزودني بمعلومات وافية عنها. وقد أكد لي ان الطريق امنة جداً. ولا داعي للخوف ابداً، ولما ادركت انه يجدر بي انتظار وقت طويل حتى تمر بعثة اخرى، قررت متابعة رحلتي برفقته. كنت احمل معي فرمان السلطان، الذي حصلنا عليه عند انطلاقنا من القسطنطينية، فضلاً عن جواز سفر من باشا بغداد رغم ان القضاة ورجال الحكومة لا يسألون المسافرين عن جوازات السفر هذه، الا انني فضلت ان احمله معي، لأن عامة الشعب يحترمون حامله فاستأجرت حصاناً لي وبغلين لخادمي وامتعتي وغادرت بغداد في ٣ آذار/مارس.

اتجهنا مباشرة من بغداد إلى بانكشا (اللوحتان XLIو XLV)، ووصلنا اليها مساء السابع من آذار/مارس. في الطريق، لم ألحظ شيئاً مميزاً، خلال الايام الخمسة الاولى ولا حتى خلال الايام

الثلاثة الاخيرة. غير اننا شاهدنا في هذه الصحراء، هضاباً من التراب والصلصال على ارتفاع ٣٣° ٥٧´ من القطب، في بقعة كانت تقع فيها قديماً مدينة قرفة، التي لن يتبق منها الا اسوار صرح عالٍ بناه خليفة، اتخذه مع سماره مقراً له؛ ومما لا شك فيه ان طريق قرية دربلا، تضم انقاضاً مثيرة للاهتمام؛ فلسنوات خلت عثر في خان مصبح، على قبة كبيرة، وأضرحة حجرية، تعود إلى زمن الاشوريين أو الفرس القدامى.

منذ اليوم الاول، لاحظت جبن صحابي؛ فقد تعارك عدد من البغالين المسلمين، وأثاروا ضجة كبيرة، فاضطرب اليهود من جراء ذلك، رغم ان عددهم يبلغ أربعة أضعاف عدد المسلمين، وخشوا ان يصبَّ هؤلاء الاخرون جام غضبهم عليهم ويسلبوهم مالهم. فتوسل الي احدهم ان اعيره مسدسي، وسألته ان كان يتجرأ على اطلاق النار فأجابني انه يريد وضعه على خصره، دون تلقيمه، كي يخيف من يحاول نهبه فأخرجت مسدساتي لأفرغها من الرصاص، وتجمع حولي اليهود، متوسلين الي ان لا أثير سخط البغالين، وان لا اطلق النار وألفت انتباه اللصوص الينا. وتدل هذه القصة على مدى خوف اليهود من المسلمين، مما يعني انهم لن يحاولوا قط حمل السلاح واعلان الحرب على الاتراك وغزو ارض الميعاد، مهما ازداد عدد رجالهم. فقد حسبوا في تلك الساعة، ان الخطر يحدق بهم رغم ان الوضع لا يدعو للخوف. وبعد ان تعارك البغالون، عادوا وتصالحوا، وتابعنا رحلتنا بسلام.

تقع قرية بانكشا على ارتفاع ٣٤°، ٥٢´ من القطب وكانت في هذا الفصل شبه خالية من السكان، لأن معظمهم انتقل إلى الخيم ليرعوا ماشيتهم وخاصة النعاج.

قرب دوس حارموت، على مقربة من بانكشار، مناجم ملح وزفت معدني ونفط.

تكثر مناجم الزفت المعدني في هذه المنطقة، وهو يستعمل في (هيت) لطلي السفن من الخارج. أما النفط فهو نادر الوجود؛ ويستبدله السكان بالزبل وزيت الحيتان لإشعال قناديلهم. غير انه تفوح من هذه التربة الصمغية، خاصة في الفصل الحار، رائحة كريهة تمنع الفلاحين من استعمالها في منازلهم. أما المشاعل التي نجدها في منازل باشاوات بغداد واعيانها، فهي عبارة عن خرق صغيرة تبلل بالنفط وتجفف لاحقاً. والجدير ذكره ان الجمال تفرك بهذا النفط، في فصل الربيع، عندما ينمو وبرها الجديد. ويقال ان هذه المنطقة غنية بالنفط الابيض الذي يستعمل كدواء للانسان. فقد أكدوا لي، ان هذا النفط يتغلغل إلى الجسم، ان سكب على رأس الانسان، ويخرج بعدها من الاصابع والارجل.

في ٩ اذار/مارس، وبعد ان احتفل الهنود بالسبت قطعنا أربعة اميال ونصف من بانكشا لنصل

إلى قرية طوق، التي غالباً ما تطهرها مياه النهر. نشاهد على الطريق، مروجاً وحقولاً في غاية الجمال، ويقال ان طوق كانت تعرف قديماً بداكوك(*)، وقد بقي منها اليوم بوابة كبيرة، وجامع رحب، مبني من الآجر المشوي. كما وان معظم المنازل مبنية من الطين والصلصال. نشاهد، على مقربة من القرية، ضريح ولي مسلم، يدعى زين العابدين، يقال انه يعيد كل سنة، إلى احد العميان بصره فلا عجب اذن ان يزور ضريحه الملايين من المسلمين، وعلمت ان ابيه، ايمان محمد دفن ايضاً في هذه المنطقة، وان تربة ضريحه، تستعمل للشفاء من كافة انواع الامراض.

في ١٠ آذار/مارس، سرنا خمسة اميال لنصل إلى كركوك؛ وفي الطريق شاهدنا سلسلة جبال منخفضة تحمل اسم رجل يدعى الاسكندر، مدفون فيها، ولا أخال ابداً انه الإسكندر الكبير (ذو القرنين)، كما اخبرني رفاقي في الرحلة. سمعنا في طوق روايات عديدة حول اللصوص الذين يزرعون الخوف في نفوس اليهود بغية الحصول على جزية منهم. وسألت احد الذين قضيت الليل في منزله، عن بندقيته وسيفه، فأجابني ان رحالة لا يحسنون استعمالها، قد قدموها هدية له، يوم كان يعمل جندياً ويرافق القوافل.

تقع كركوك في وادٍ جميل وخصب، على ارتفاع ٣٥° ، ٢٩´ من القطب. غير انه لم يتبق الا بعض الآثار من المدينة نفسها، الواقعة على سفح هضبة متعرجة، بقيت عليها حامية للانكشاريين، وحصن معين، شديد القذارة. ونشاهد في هذه البقعة ثلاثة جوامع تعلوها ابراج شاهقة، ويضم احدها اضرحة الانبياء، دانيال، وميخائيل، وحنانيا، واليعازر. والجدير ذكره ان اليهود لا يشكون ابداً ان هؤلاء الانبياء قد دفنوا فعلاً في هذا المكان. غير ان المسلمين لا يسمحون لهم بالدخول إلى الجامع وممارسة شعائرهم الدينية.

في كركوك انضم، حوالي ٤٠ كلدانياً أو نسطورياً إلى الكنيسة الرومانية، وعندما علموا ان أوروبياً وصل إلى البلدة، جاؤوا لزيارتي، معربين عن فرحهم بمقابلة رجل من ارض القديس بطرس، وطلبوا مني بإلحاح ان أمضي معهم بضعة ايام. وكم تذمروا من تصلب رأي مسيحيي الشرق، ورفضهم تصحيح اخطائهم السابقة والاعتراف بالبابا كحبر أعظم فنصحت هؤلاء الناس الطيبين بالتحلي بالصبر، دون ان ألفت انتباههم إلا انني لا اشاركهم الرأي. بصورة عامة، لاحظت ان مسيحيي الشرق، يتبادلون الاحترام، ولا يطيقون الكاثوليك الرومان. أما المسيحيون الذين ارتدوا إلى الدين على يد الكهنة الاوروبيين فهم اعداء المسيحيين المحافظين اللدودين.

(*) اظن انها كانت تحمل اسم داكوكا، استناداً للترجمة الالمانية لتاريخ العالم المعاصر، لسملر، الجزء الثاني. ص ٧٨. ولاحظت ان الاسماء التي نقرأها على خارطة بيان الرحلة، في اللوحتين XLI و XLV، ومنها ابو الفراش، الوباد، حديدين. هي اسماء القبائل العربية والكردية التي تجوب هذه المناطق.

تعد كركوك مقر اقامة الباشا، وهو يفضل الاقامة على الضفة الاخرى، قبالة المدينة، ويخضع اقليم شهر الصول الممتد من طوق إلى أربيل، لحكومة بغداد، كما اشرت اعلاه، اذ استطاع نادر شاه بسهولة فائقة الاستيلاء على المدينة وعلى الحصن المجاور لها. ولكنه لم يستمتع بإقامته في الموصل، وفضل الانسحاب منها على الفور وخسارة كل شيء. وشاهدت على الطريق عدداً هائلاً من القبائل التي تركها الفرس خلفهم منذ ٢٠ سنة تقريباً.

تكثر في هذه المنطقة الطواحين التي تعمل على المياه، لهذا السبب تنقل كميات وافرة من الطحين إلى بغداد، التي تصدر في المقابل التمر وغيره من البضائع. ويزعم ان المناطق المحيطة بكركوك غنية بمناجم النفط والزفت المعدني. تتميز منطقة بابا غرغر بتربتها الساخنة، التي يمكن استعمالها لطهي الطعام. وأكد لي بعض الاشخاص الذين زاروا هذه المنطقة، ان اللهب يتصاعد منها ليلاً. خطر لي، انه قد يتسنى لي الوقت لزيارة هذه المنطقة لأن مسلمي القافلة، كانوا ينوون قضاء يومين في كركوك للاحتفال بالبيرم. ولكن صباح ١١ آذار/مارس وصلت قافلة أخرى متجهة إلى اربيل، فقررنا السفر برفقتها. لم نصادف في طريقنا اي قرية أو مدينة، حتى بلغنا الطون كوبري. مساء ١٢ آذار/مارس؛ غير اننا التقينا بعائلات كردية ترعى ماشيتها في تلك الحقول الخصبة.

تتألف مدينة الطون كوبري (أو جسر الذهب) من ٤٠٠ أو ٥٠٠ منزل، وهي تقع في جزيرة، شاسعة تستمد اسمها من جسر عظيم مبني على ساعد النهر. ولاحظت ان الجسر القديم، الذي تداعى منذ عدة سنوات، كان كثير الارتفاع، لأن المهندس المعماري لم يحسن تشييده على علو منخفض. في ذلك المساء هطلت الامطار بغزارة، حتى بللتنا وانهكت قوانا. غير ان القافلة اجتازت المدينة، وحطت رحالها على الجهة الاخرى من النهر، في وسط الريف. ونصحني الجميع باللحاق بالقافلة، لأن منسوب مياه النهر كان مرتفعاً، والعبور بقربه محفوف بالمخاطر.

لم اخالف نصيحة سكان البلاد حتى تلك الساعة، ولكنني كنت ابحث عن منزل دافيء اجفف فيه ملابسي وآخذ قسطاً من الراحة. فطلبت من البغّال ان يأخذ الحقائب ويسبقني، بينما بقيت في الخلف برفقة خادمي. كان سكان الطون كوبري يحتفلون بعيد البيرم، ويتباهون بوسائل التسلية نفسها التي شاهدتها في القاهرة، ومنها الاراجيح التي يركب عليها الصغار والكبار على حد سواء، وحلبات المصارعة التي يتبارز فيها المتصارعون بالعصي(*).

تقع قرية كوى سنجاق، مقر الباشا الكردي على بعد ١٢ فرسخاً شمالي شرقي هذه المنطقة. وكانت اربيل والطون كوبري تابعتين لنفوذ الباشا المذكور.

(*) الجزء الاول، اللوحة XXV، الصور ب، ج، د، الصفحة ١٣٦. يلجأ المصريون القدامى الى هذا النوع من وسائل اللهو، في الاعياد. ابحاث فلسفية حول المصريين والصينيين، الجزء الثاني، ص ١٥٧.

أما اليوم، فيرسل باشا بغداد حاكماً إلى بغداد، ويعين هذا الاخير آغا على الطون كوبري.

صباح ١٣ آذار/مارس، كان منسوب مياه النهر مرتفعاً للغاية، وخشيت ان اعبره واجازف بحياتي ولكنني اضطررت للحاق بالقافلة لأنني ارسلت امتعتي وساعتي الشمسية مع البغّال. ولما كان رفاقي في السفر قد سبقوني بحوالي ساعة، عبرت النهر برفقة خادمي، الذي كان شديد الخوف، ولحقت بالقافلة في قوس تاب في الطريق، أقبل شيخان نحوي، وفي نيتهما نهبي؛ ولما ادركا انني احمل اسلحة نارية، واجيب بجسارة على اسئلتهم حول رحلتي، دون ان تظهر على وجهي بوادر الخوف، لم يتجرآ على توقيفي. شاهدت غربي الطريق جبل كارا جوف الشاهق الذي تكثر فيه بقايا مدن وقرى قديمة، غير ان طريقه محفوف بالمخاطر، لأن سكان هذه الجبال، لا يكترثون للحكومة التركية.

اخذت قرية قوس تاب اسمها عن هضبة صغيرة، ولأول مرة في رحلتي، شاهدت على رأس الهضبة المذكورة مسلماً يتلو صلاته. كان العلماء الاوروبيون، يتساءلون ان كانت النساء المسلمات، مرغمات على الصلاة، وان كنّ يأملنّ بدخول الجنة. فأكدّ لي الشيوخ المسلمون، الذين لاحظوا اهتمامي في هذه المسألة، ان النساء يصلينّ خمس مرات في اليوم، ولا يتوانين ابداً عن تأدية هذا الفرض.

تعرف قرية قوس تاب، بخان عديل. فقد تحولت هذه المنطقة الخصبة، إلى صحراء قاحلة، يقطنها الاكراد الرحل.

ولكن احمد باشا، حفر بئراً في هذا المكان وبنى قربه منزلاً مخصصاً لراحة سعاة البريد. ولكن ابنته عادلة خاتون شيّدت خاناً للمسافرين، ووعدت الفلاحين بمنحهم امتيازات كثيرة ان اقاموا في جواره، في ظهور قرية كبيرة خلال وقت قصير. وهذا يعني انه من السهل جداً على باشاوات الاتراك ان يعمروا مناطقهم الخصبة، ولكنهم لا يقيمون في المناطق الا لفترة قصيرة ويحاولون اثناءها استغلالها قدر المستطاع، فيفرضون ضرائب عالية، دون ان يحاولوا حماية الفلاحين الفقراء من العرب والاكراد الرحل. فلا عجب اذن ان تتحول اقاليم الامبراطورية التركية إلى مناطق قاحلة ومهجورة.

في ١٤ آذار/مارس قطعنا ثلاثة أميال ونصف لنصل إلى مدينة اربيل، التي ذاع صيتها بعد معركة الاسكندر وداريوس. حكم الامراء المسلمون الورثة هذه المدينة سنوات طويلة، وامتدت منطقة نفوذهم إلى طوروس في بلاد فارس. ولكن المدينة كانت شاسعة للغاية، وتضم قصراً مبنياً على هضبة مرتفعة. أما اليوم فلم يتبق منها سوى ذلك الحصن المسور، ومنازل مبنية من الصلصال(*) من جهة

(*) يعتبر محمد مهدي خان اربيل حصناً منيعاً. تاريخ نادر شاه (الطبعة الالمانية) ص ٣٦٤

أخرى لا نشاهد في هذه المنطقة بقايا جديرة بالاهتمام باستثناء انقاض جامع كبير، بناه السلطان «مسافر». أما المنارة التي شيدت إلى جانبه، فهي مصنوعة من الصلصال والطين، ويمكن الوصول اليها عبر بابين وسلمين متقابلين.

تقع مدينة اربيل على ارتفاع ٣٦° و١١´ من القطب. وهي تخضع اليوم لحكومة بغداد، وتضم حامية من انكشاريي القسطنطينية. تقع مدينة قرميا الفارسية على بعد خمسة ايام منها. اخبرني اشخاص عدة ان جبل بستان، الواقع بين قرمنشان وهمذان (يدعي يهودي من الموصل انه يقع بين حلوان، وهمذان) يضم رسومات ونقوش مختلفة، غير ان هذا المكان بعيد جداً عن طريقي. لكن ان قصد احد الاوروبيين اصفهان، يمكنه ان يسلك هذه الطريق لنقل نقوش جبل بستان، ويبدو لي انها كتبت بالانجليزية نفسها التي استعملت في نقشي رستم والتي نقلتها في اللوحة XXXIV(*).

لا تغذي مياه الانهر بلاد مقاطعة اربيل، كما في بغداد والبصرة، غير ان القمح الذي ترويه مياه الامطار فحسب، يعطي طحيناً افضل ومغذٍ اكثر. والجدير ذكره ان القمح يحصد هنا ١٥ مرة مقابل ٢٠ مرة في بغداد، لأن المناطق التي ترويها مياه الامطار تزرع فيها البذور بكمية أكبر، ويتعرض بعضها للجفاف أو تأكلها العصافير.

كانت القافلة التي انضممنا اليها في كركوك تتجه إلى اربيل. وعلمنا حينها ان قافلة اخرى ستغادر المنطقة في ١٦ آذار/مارس، فانطلقنا برفقتها عند طلوع النهار، وسرنا تسع ساعات أو خمسة أميال ونصف لنصل إلى زعب (أو زرب باللغة التركية) التي تصب فيها مياه اقليم حاكري في كردستان. يقال ان منسوب مياه هذا النهر ينخفض جداً في الفصول الحارة. لكن عند مرورنا بقربه، كان منسوب المياه مرتفعاً ومجرى النهر قوياً.

ملاحظات حول اليزيديين

لم نقع في طريقنا من اربيل إلى زعب إلا على قرية واحدة. أما على الضفة الأخرى للنهر، فتقع قرية عبد الحفيظ، التي يقطن فيها اليزيديون. ولما كان الاتراك يحظرون ممارسة الشعائر الدينية، على الشعوب التي لا تملك كتاباً مقدساً، مثل المسلمين والمسيحيين واليهود، اضطر اليزيديون للحفاظ على سرية مبادئهم الدينية. فهم يحترمون القرآن والانجيل، والمزامير، وكتب موسى الخمسة؛ وان اتهمهم احدهم بالانتماء لمذهب اليزيديين، زعموا انهم من اهل السنة. ويدعي البعض انهم من عبدة الشيطان، الذي يسمونه شلبي أو السيد. ويزعم البعض الآخر انهم يعبدون الشمس والنار، وانهم من

(*) يقول ديودور في كتابه الثاني ان سميراميس حفرت في هذه المنطقة رسومات ونقوش مختلفة. ويبدو ان اوتر قد شاهدها كلها ولم ينقل منها شيئاً. رحلة في تركيا وبلاد فارس الجزء الاول، ص ١٨٤ ـ ١٨٨.

الوثنيين الفظين وانهم يقيمون طقوساً مريعة. ولعلهم ينتمون إلى مذهب البيعزيين في عمان. ولما كان عدد اليزيديين مرتفعاً في زعب وسوريا وأرمينيا، ومعظم سكان المدن المجاورة يعرفونهم جيداً، سأعرض عليكم في ما يلي رأي السنّة ومسيحيي الشرق في اعمالهم وخطاباتهم. فهم يزعمون ان المدعو شاه عدي اسس دياناتهم وانهم ذرية العرب الذين قتلوا، بناء على اوامر الشمر، الحسين، حفيد محمد، واضطهدوا عائلة علي، في ظل حكم الخليفة يزيد. لهذا السبب يقال ان اليزيديين يعتبرون شمر هذا ولياً عظيماً، ولما كان الحسين شهيد اهل الشيعة الاكبر، يفتخر هؤلاء الآخرون أشد الفخر بقتل احد اتباع هذا المذهب. وهم يحتفظون بصور الافاعي، والماعز وغيرها من الحيوانات، فالأفعى تذكرهم بوقوع حواء ضحية الاغواء، والماعز بطاعة ابراهيم العمياء، حين كان مستعداً للتضحية بابنه في سبيل الله. وقد أكدوا لي ان اليزيديين، لا يبتهلون ابداً إلى الشيطان، ويعبدون الله وحده، لأنه خالق البشر وولي نعمتهم، وهم يرفضون الكلام عن الشيطان أو حتى سماع اسمه كما وانهم يفضلون ان يقف البشر على الحياد ان وقع خلاف بين الله، وملاك من العالم السفلي وان لا يحتقر الفلاحون ضابطاً غضب عليه الباشا وهم يؤمنون ان الله لا يحتاج إلى مساعدتنا لمعاقبة الشيطان على عصيانه، فإن عفى عنه يوماً ما، قد نشعر بالخجل في محكمة الله، ان كنا قد اسأنا إلى احد ملائكته دون ان يستغيث بنا احد. فلا داعي اذن لأن نولي الشيطان اهتمامنا، بل يجدر بنا ان نبذل قصارى جهدنا حتى لا نثير غضب الله علينا. عند وصول اليزيديين إلى الموصل، لا تصدر الحكومة امراً بإلقاء القبض عليهم رغم انه من السهل التعرف عليهم. ولكن الشعب يحاول احياناً خداعهم، فحين يعرضون البيض والزبدة للبيع، يبدأ السكان بتوجيه الشتائم للشيطان، بحجة ان الاسعار مرتفعة أو ان البضائع فاسدة فيفضل حينها اليزيدي ان يعيد البضائع إلى مكانها بدلاً من أن يسمع هذه الشتائم المريعة. والجدير ذكره ان لا احد يتجرأ على اطلاق شتائم مماثلة، في مناطق نفوذ اليزيديين، إلا إذا كان مستعداً للمجازفة بحياته.

يخشى اليزيديون على غرار المسلمين، ويحتسون الخمر وغيره من الكحول، ولكنهم يمسكون الكأس بيديهم الاثنتين مخافة ان يقع الخمر ارضاً وتطأه الأرجل. فلو اوحى محمد لاتباعه باحترام الخمرة إلى هذا الحد لما حظر عليهم احتساءها، إذ ان اليزيدي لا يثمل ابداً، علماً ان النبي كان يسعى لتفادي ذلك. يرتدي رجال الدين اليزيديين اثواباً سوداء مختلفة كلياً عن تلك التي يرتديها المسلمون. ويقال انهم يصومون ثلاثة أيام في السنة، ويحجون إلى ضريح شاه عدي، الذي دفن بين عكر والموصل، والجدير ذكره اننا نشاهد قرب هذا الضريح خزان مياه يرمي فيه اليزيديون المال والذهب اكراماً لوليهم. حاول احد النسطوريين، المقيمين في الجوار، الدخول ليلاً إلى المستنقع لجمع هذه الثروات، وفي تلك الاثناء، كانت ابنة المفتش تملأ جرتها ماءً من الخزان المذكور فشاهدت النسطوري في قلب الخزان، فخطر لها انه شاه عدي، خاصة وانها لم تتوقع

رؤية لص في هذا المكان المقدس، واسرعت إلى والدها تخبره ان وليهم ظهر في الخزان. فانتشر الخبر بين اليزيديين الذين شعروا بفرح عظيم، بينما احسن النسطوري استعمال الكنوز التي عثر عليها.

يظن المسلمون ان سكان جبل سنجار، الذين يتبعون المذهب اليزيدي، يحتفظون بكنز ثمين في بئر أو مستنقع اكراماً للشاه عدي. وبعد تعرض بعض المسافرين من بغداد للنهب والسرقة، اضطهد سليمان باشا قبائل اليزيديين، واجتاح جبل سنجار، ونكل بالبعض، وقتل البعض الآخر دون ان يقبل احدهم الكشف عن مكان الكنز.

اشتهر اليزيديون بأعمالهم المريعة بين اهل السنة، حتى ان العلامة الشافعي كان يختلق الاعذار لكل مسلم يقتل احد اتباع ذلك المذهب. ومما لا شك فيه ان كل عثماني، كريم النسب، يسافر في قافلتنا، يسلم امره لهؤلاء الاشخاص، خلال مروره في زعب. فمنسوب مياه النهر كان مرتفعاً للغاية، ومن الصعب اجتيازه على ظهر الحصان، ووحدها زوارق اليزيديين، الراسية قرب قرية عبد الحفيظ تستطيع نقلهم إلى الضفة الاخرى.

لم اشاهد في حياتي زوارق اسوأ من زوارق اليزيديين، فهي مصنوعة من جلود الماعز (٤ بالطول و٨ بالعرض) المعلقة بسياج شائك[*]. في الطريق طلب منا الامتناع عن اطلاق الشتائم أو ذكر اسم الشيطان، في حضور اليزيديين، حتى لا يقلبوا الزورق معرضين حياة المسافرين للخطر. ورغم اضطراب مياه النهر، وادعاء اليزيديين القوة، خاصة وانهم يثيرون قلق رفاقي في السفر، لم تظهر علي بوادر الخوف مطلقاً. كان عدد الزوارق ضئيلاً جداً، ولا يكفي لنقل ركاب القافلة كلهم دفعة واحدة، فسارع الجميع للصعود اولاً، رغم انهم رفضوا ان يدفعوا المال لليزيديين، فأدى ذلك إلى نشوب خلافات قوية بينهم، والى اطلاق الشتائم ضد اليزيديين، مع العلم انهم اسياد هذه المنطقة، في هذه الاثناء فضلت الوقوف على الحياد، وتجنب العراك مع هؤلاء الاشخاص، فدفعت لأحد البحارة اجره وطلبت منه ان ينقلني بزورقه إلى الضفة الاخرى. فأمر بالتالي رجاله بنقل امتعتي إلى الزورق.

ولما لاحظ احد اعيان الاتراك ان اليزيدي فضلني عليه، وجه لنا افظع الشتائم. في هذه الاثناء كانت امتعتي كلها قد نقلت إلى الزورق، علماً ان مجرى المياه كان قوياً للغاية، ويهدد بأن يغمر الزورق في جوفه، ولكن بعد عناء شديد، بلغنا الضفة الاخرى بسلام.

(*) في كتاب «الرحلات» لادوارد ايف، الجزء الاول ص ١٦٨، يعطينا المؤلف فكرة خاطئة عن زوارق اليزيديين فهو يقول انها تحمل بواسطة عجلتين.

كانت الدواب تقطع النهر سباحة، فوضع احد اليزيديين جلد ماعز منفوخ، على صدره، وقاد ثلاثة أو أربعة احصنة وبغل إلى الضفة الاخرى. أما الحمير فعلقت جلود الماعز على ظهرها، وعاونها بعض الرجال على العبور إلى الساعد الآخر. وبعد ان غرق حمار احد المسلمين، راح يطلق الشتائم عشوائياً، دون ان يراعي خاطر احد، غير ان اليزيديين سرقوا حماريه الآخرين في الليلة التالية. وتركوه يندب ويبكي قدر ما يشاء.



رحلتي من بغداد إلى الموصل

في ١٧ آذار/مارس قطعنا أربعة فراسخ لنصل إلى كرمليس، مروراً بنهر شافر، الذي ارتفع منسوب المياه فيه بفعل هطول الأمطار الغزيرة(*):

تكثر على الطريق المؤدية من شافر إلى الموصل حقول القمح والقرى الصغيرة. وعلاوة على تلك التي اشرت اليها في اللوحة XLV، نجد ايضاً قرى شاه امير، امسيدان، باز خرثان، وباز شهرة؛ تقع هاتان القريتان الاخريان على جبل عين صفرا، الذي أخذ اسمه(**) من ينبوع مياه، لونها اصفر، وتستعمل في الشفاء من عدة امراض.

تضم مدينة كرمليس ٦٠ أو ٧٠ منزلاً، مبنية من الطين والحجارة؛ والجدير ذكره ان سكان كرمليس كانوا قديماً من النسطوريين.

عند وصولي إلى المدينة، استقبلني اكثر سكانها ثراء، ودعاني للاقامة عنده. فوجدت في منزله ١٢ أو ١٣ شخصاً، يرتدون ثياباً انيقة. وبعد ان استعلموا عن حالي وعن رحلتي من بغداد، سألني احدهم ان كان البابا رئيس الكنيسة المسيحية ام لا؟ ولما كنت اجهل ان كان الرجل المذكور كلدانياً أو نسطورياً، أو خلافه، أجبته أنه رئيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فحسب، علماً ان الارمن واليونان والاقباط، ينتخبون بطريركاً لهم، شأنهم شأن النسطوريين، يعترف بالبابا كرئيس له. ولكن اكد لي خصمي ان البابا ليس وريث القديس بطرس رغم ان المسيح قال له انت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي، فأثبت لي هذا الكلام انه كلداني وليس نسطورياً فأجبته قائلاً ان القديس بطرس بشر بالانجيل في روما، حيث كل بابا زعيم روحي، وغير انه بشر بتعاليم المسيح في مدن اخرى، والانجيل لم يذكر ابداً ان رئيس الكنيسة في روما، هو رئيس المسيحيين اجمعين، وقلما يهمني ان يعترف الناس بالبابا رئيساً روحياً لهم على الأرض، فالمسيحيون يؤمنون

(*) مما لا شك فيه ان الإسكندر الكبير تغلب على داريوس في هذه المنطقة، فقد قطع الاسكندر أربعة أيام ليصل من أربيل الى ممنيس، حيث تكثر مناجم الزفت المعدني. تقع كركوك عن بعد ٢٠ فرسخاً من اربيل، ودور خاموث على بعد ٣٥ فرسخاً منها، مما يعني ان اربيل هي ممنيس القديمة؛ لأننا حيث تبعد كثيراً عن أربيل ولا يستطيع الاسكندر الوصول اليها في ظرف أربعة أيام، علماً انه كان يترأس جيشاً كبيراً. واظن ان التتر حطوا رحالهم على ضفة نهر شافر، في السنة ٦٣٣ هجرية.

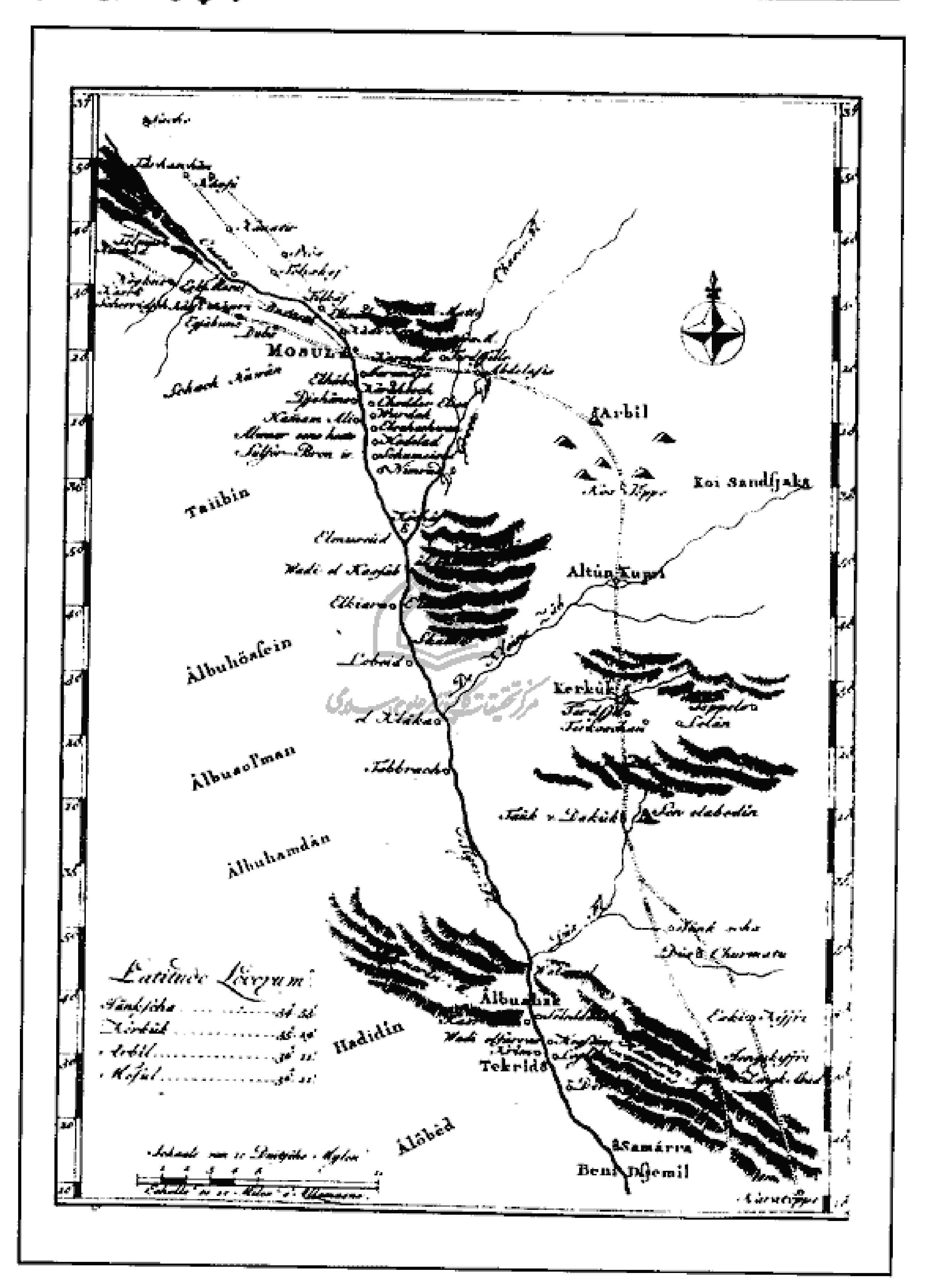
(**) في المؤلفات الاخرى، يعرف هذا المكان باسم جور قوس؛ اذ لا يقيم فيه الا المسيحيين.

بالانجيل، وبتعاليم يسوع المسيح التي بشر بها القديس بطرس، وان بذلنا جهداً بسيطاً لاتباع هذه التعاليم لن يفرق الله ابداً بين النسطوري والكلداني وغيرهم من المسيحيين. فقال حينئذ: حسبتك يونانياً. فأكدت له أنني اوروبي، وأنتمي للمجموعة المسيحية التي لم تعترف بسيادة البابا الا منذ ٢٠٠ سنة. ورغم ان باقي اعضاء البعثة اكتفوا حتى الان بالاستماع، بدأ بعض النسطوريين بالمشاركة في الحديث. فقال احدهم كان من الافضل لك ان تحافظ على ديانة اسلافك ولا تحرض اصدقاءك واهلنا على ان يحذو حذوك، ضاربين بعرض الحائط ببطاركتنا، ومفضلين عليهم زعيماً روحياً اوروبياً. وكم استأت لاستنكار الفريقين هذا الحديث، فأكدت لهم ان نصف الدول الاوروبية تخضع للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بينما نصفها الاخر يرفض الاعتراف بالبابا، مع الاحتفاظ بدينه المسيحي شأنه شأن مسيحيي الشرق، في الامبراطورية التركية الواسعة النطاق. وطلبت منهم ان يدعوا لكل فرد منهم حرية اختيار دينه دون ان تمس صداقتهم بالسوء. لم يرق هذا الحديث للقس، وأكد ان المبشرين الاوروبيين في الموصل، أخبروه ان الدول الاوروبية كافة اعترفت بسيادة البابا واخرج من صدره كتاباً لاتينياً، ترجم إلى العربية والسريانية، ليذكرني بقول المسيح انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي، فقلت له اننا قد تحدثنا عن هذا المقطع الوارد في كتب الديانة المسيحية كافة، وانه جرى نقاش حاد بين رجال الدين حول هذا الموضوع، دون التوصل إلى نتيجة حاسمة فيه.

حاولت بعدها ان أغير مجرى الحديث، واتناول موضوع خصوبة الحقول، التي تفوق محاصيلها محاصيل مصر وغيرها من المقاطعات الشرقية، بـ ١٥ مرة. فشعر رجل الدين بخيبة الامل، خاصة وانه وجه الدعوة للبعثة على امل ان يوافقه الاوروبي الرأي. غير انني وطدت صداقتي بأفراد البعثة كلهم، ولما حان موعد صلاة المساء توجهنا جميعاً إلى المعبد، حيث اعتاد مسيحيو الشرق ان يؤدوا شعائرهم الدينية. تحمل هذه الكنيسة اسم القديسة بربارة، حيث دفنت تلك الشهيدة المزعومة وخادمها، رغم ان المسيحيين لا يقصدوا قبر هذه الاخيرة ليبتهلوا اليها.

تحد القرية هضبة مرتفعة، يزعم انها كانت تضم قصر والد القديسة بربارة، وهي تطل على منظر جميل للوادي المجاور. وعلى بعد ثلاثة فراسخ شمالي شرقي كرماليس، يقع جبل القديس متى، وقرية مسورة يقيم فيها المسيحيون اليعقوبيون، ويزعم اننا نجد في هذه البقعة آثاراً قديمة غير جديرة بالاهتمام. وعلى بعد فرسخ ونصف شمالي شرقي كرماليس، تقع قرية بشاشرا، حيث دفن القديس دانيال، وتقع قرية باشان على بعد ثلاثة فراسخ شمالاً، وقرية باراتول، حيث يقيم اليعقوبيون، على بعد فرسخ شمالي - غربي كرماليس.

نجد غربي كرماليس، قرية شاسنا طوبي المأهولة بالمسلمين أما قرية مينار التي تبعد فرسخاً


MOSUL
Arbil
Koi Sandsjaka
Taiibin
Altün Kupri
Âlbuhösein
Kerkük
Âlbusolman
Âlbuhamdan
Âlbuhak
Hadidin
Tekrido
Âlobed
Samárra
Beni Dsjemil

ونصف عن كرمليس، فكانت قديماً مأهولة بالمسيحيين، ولكنها تضم اليوم عدداً من المسلمين، بينما لا نجد في قرية قراقوش، الواقعة على بعد ميل جنوبي غربي كرماليس، إلا اليعقوبيين.

يتكلم مسيحيو قرى هذا الاقليم السريانية، ولكن اللغتين السريانية والكدانية تختلفان كثيراً عن اللغات التي وضعت فيها الكتب المقدسة. ولما كان المسيحيون يحسنون الكردية والتركية والعربية، تستعمل كلمات كثيرة من هذه اللغات، في السريانية الحديثة.

واشير إلى ان بطريرك النسطوريين، يقيم في قرية القوش، المجاورة للموصل، ويدعي انه ايليا ويزعم ان مناطق نفوذه تشمل ٣٠٠ قرية، بعضها مأهول بالمسيحيين، ذكرت سابقاً ان بطريرك حكارى لا يحترم ابداً اوامره. يقيم بطريرك اليعقوبيين في ديار بكر، كما سأذكر لاحقاً. تتميز قرية القوش بقبر النبي ناحوم، الذي ولد ودفن فيها. كما وان اليهود يحجون إلى ضريحه. ولعل القوش هي مدينة القواشي المذكورة في تاريخ العالم، والتي كانت تتميز بحصنها في القرن السابع من الهجرة.

في ١٨ آذار/مارس قطعت ثلاثة أميال من الحقول المحروقة لأصل إلى الموصل. تقع شمالي الطريق قرى باشيتا، وبسوا وخجيلي، وجنوبه، قريتا منارة وكوجاف.

قبل بلوغنا الموصل، مررنا في مدينة نينوى التي يدعي مسيحيو الموصل انها تمتد من قريتي قاضي كند وينجا، اللتان تبعدان عن بعضها البعض حوالي الميلين، وتقعان على ضفاف نهر دجلة. غير ان اليهود، يزعمون ان طولها يوازي مسيرة ثلاثة أيام. لم أدرك انني بلغت منطقة شهيرة إلى هذا الحد الا عند اقترابنا من النهر المحاذي لحجيلي. فشاهدت على هضبة مرتفعة، قرية منية التي دفن داخل مسجدها النبي يونس غير ان اليهود يبتهلون اليه من الخارج اذ لا يسمح لهم المسلمون بالدخول اليه. ولا أظن ان هذه الحجة مقنعة ابداً، لأنه يسمح لمسيحيي الموصل بزيارة ضريح احد القديسين المدفون في كنيسة تحولت لاحقاً إلى جامع. ولعل اليهود يرفضون الدخول إلى معبد اتباع ديانة اخرى. نشاهد في هذه المنطقة هضبة اخرى تعرف بقلعة منية أو حصن نينيف، أرشدني سكان الموصل إلى اسوار نينوى التي حسبتها في البداية سلسلة هضاب. فرسمت لاحقاً منظراً عاماً للمكان. ونقلته على اللوحة XLVII. ١) الجامع حيث دفن النبي يونس ٢) قرية منية ٣) اسوار نينوى المزعومة ٤) جبل عين صفرا.

بني من نينوى إلى الموصل جسر شبيه بالجسر الذي يصل بغداد بالحلّة. ولكن عرض النهر لا يتجاوز ٦٠ قدماً مزدوجة (حوالي ٣٠٠ قدماً) ولا يفوق عدد مراكبه العشرين. وبعد هطول الامطار الغزيرة، أو بعد ذوبان الثلج عن الجبال المجاورة، يرتفع منسوب المياه، ويفصل الجسر عن الضفة، حتى لا يجرفه التيار، فقد حصل ذلك في ٢٣ آذار/مارس، للمرة الثانية أو الثالثة هذه السنة. ولكن

منسوب المياه لم يرتفع ارتفاعاً شديداً، واعيد الجسر إلى مكانه في الاول من نيسان/أبريل. لسنوات خلت بنى الباشا سداً، أو جسراً إلا ان قناطره كانت ضيقة ومنخفضة العلو فجرفها التيار عند ارتفاع منسوب المياه؛ مما زاد الطريق المؤدي إلى الجسر وعورة.

لا يتذمر المسافر ابداً، من رسوم المرور المفروضة في هذه المقاطعات. ففي يانكشا وكركوك والطون كوبري واربيل، ونهر زعب، تفرض عليه ضريبة رمزية، تعرف بالباج. في الموصل، نقلت امتعتي إلى الجمارك، ولم ادفع للموظفين الا بعض الحلويات حتى يشحنوها لي.

يدفع التجار على حمولة الجمال، من حرير أو اقمشة قطنية أو أقمشة ناعمة، عشرة قروش، وعلى حمولة القهوة، سبعة قروش ونصف، وعلى حمولة البهار وغيره من البضائع ستة قروش وربع. وان كانت البضائع محملة على الحمير أو على البغال، تزان ويدفع الباج نسبة للوزن.

للانتقال من الموصل إلى بغداد، يمكننا السفر عبر نهر دجلة غير اننا لا نجد هنا الا مراكب الكيلك التي يستعملها التجار لتصدير بضائعهم. وان شاؤوا السفر مع البضائع، بنوا غرفة صغيرة على متن المركب، ليحتموا من الامطار ومن حرارة الشمس. في فصل الربيع، وبعد ارتفاع سرعة مجرى النهر، يمكننا السفر في غضون ثلاثة أو أربعة أيام بينما في الفصول الاخرى، يتطلب السفر ١٥ يوماً. وان سافرنا براً، يمكننا التوقف في مدينتي تكريت وسامراء، كانت تكريت قديماً مدينة شهيرة. ولم يتبق منها اليوم الا بعض الانقاض. أما سامراء، فكانت مقر عدة خلفاء، وثلاثة أئمة من الشيعة، يزور الفرس اليوم اضرحتهم. ويقال انها تضم برجاً عالياً، يمكننا الوصول اليه، عبر منحدر وعر من جهة اخرى، تكثر في سامراء وعلى ضفة نهر دجلة، من هنا إلى بغداد، بقايا الاضرحة القديمة، غير انها لا تستحق عناء تفحصها خاصة وانها بنيت كلها في عهد المسلمين. نشاهد قرب حصن نمرود المتداعي على بعد ثمانية فراسخ من الموصل سداً لري الارياف المجاورة. لا أخال ان هذا السد قد بني على يد المسلمين، لأنه صمد في وجه التيار اكثر من الف سنة. ونجد قرب فتح، حيث يتابع دجلة مجراه عبر جبل حامرين، شلالاً للمياه خطيراً للغاية خاصة ان كان منسوب المياه منخفضاً. ولكن ان كان البحار يحسن قيادة الكليك، لن يخشى شيئاً على الاطلاق.

والجدير ذكره ان هذه الشلالات تكثر في نهر دجلة، بين ديار بكر والموصل، حيث تستعمل زوارق الكليك ايضاً.

ان الملاحة صعبة للغاية بين بغداد والموصل، ولكن البحار ينقل جلد الماعز إلى المناطق الاخرى على ظهر الحمير بينما يبيع ما تبقى منها، مع السياج الخشبي الذي علقت فيه.

غالباً ما تسلك القوافل المسافرة من بغداد إلى الموصل، طريق الصحراء، فهو اقصر من الطريق الذي يمر عبر كركوك واربيل، ولكن الاوروبي لا يحبذ سلوك هذه الطريق خاصة وانه لن يصادف فيها الا قرية تكريت.

لما كنت احمل رسائل توصية إلى البعثات الريفية في الموصل، توجهت فور وصولي إلى الموصل لمقابلتهم، آملاً ان يؤمنوا لي منزلاً في الحي المسيحي. كانت البعثة تضم راهبين دومنيكيين، عين واحد منهما طبيباً للباشا، ولما علما انني دانمركي وبروتستانتي، رفضوا مساعدتي، فاضطررت لاستئجار غرفة في خان أو مسكن عام. من جهة أخرى، استطعت ان أوطد صداقتي مع الكهنة الاوروبيين كافة. ورغم المحاولات التي بذلها احدهم لتحويلي عن معتقداتي، بقيت علاقتنا متينة، علماً ان الجميع كان مسروراً بمقابلة رجل اوروبي. غير ان وجودي في الموصل أثار سخط الرهبان الدومنيكيين، ففي زمن الصوم يمتنع النسطوريون واليعقوبيون عن تناول اللحم والحليب والبيض والزبدة، فتضعف صحتهم ويصابون بالمرض. فهم يمتنعون عن الاكل والشرب وتدخين السجائر من طلوع الشمس إلى الظهر. والجدير ذكره ان الرهبان الدومنيكيين يتبعون صياماً قاسياً، لأن سكان البلاد يعتبرون ذلك فرضاً أساسياً من فروض الديانة المسيحية. فلو أخبرني هؤلاء الرهبان ذلك، منذ البداية، لصمت معهم، ارضاء لهم. فحسبت ان مسألة صيامي قلما تهمهم. ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا انني لا أصوم ابداً. فسأل بعض الكهنة النسطوريين، الذين تحولوا عن دينهم على يد هؤلاء الدومينيكيين، ويخالون ان الاوروبيين يتبعون جميعاً الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أطباءهم عني، فوصفوا لهم البروتستانتي بطريقة مريعة للغاية، حتى ان جميع المسيحيين اعتبروني ملحداً، باستثناء بعض التجار الذين وطدوا علاقاتهم بالانكليز في حلب. حتى المسلمين بدأوا ينظرون الي بطريقة غريبة، متسائلين عن سبب الخلاف بيني وبين المبشرين الاوروبيين؟ وفي سبيل تفادي احتقار الجميع لي، حاولت ان اكسب صداقة طبيب الباشا أو الحكيم باشي، فاشتريت له عملات قديمة، دفعت ثمنها غالياً. ولما قدمتها له، راح يتحدث عن مسيحيي الشرق بالسوء، كما كان يتحدث عني من قبل؛ بعبارة أخرى، تمكن هذا الرجل من تحويل عدد كبير من مسيحيي الشرق عن دينهم، مؤدياً بذلك خدمة عظيمة للكنيسة؛ ولكن رأيه، بالمسيحيين الآخرين، ليس مسيحياً ابداً.

وفي سبيل محو الفكرة التي زرعها الرهبان في ذهن السكان، خاصة وانني وصلت إلى المدينة برفقة اليهود، حاولت ان انتهز الفرص لأحسن صورتي أمام الباشا، رغم انني كنت اتفادى ذلك في المدن الاخرى. فساعدني صديق لي يدعى ايليا، في بلوغ غايتي، دون ان يأخذ مني قرشاً، فقال للكخيا، انني قادم من الهند، وانني زرت بلاد فارس واحسن العربية، وحتى ينقل ذلك للباشا. وقمت ايضاً بزيارة المفتي، واستقبلت عدداً من المسيحيين، من نسطوريين ويعقوبيين، بعبارة أخرى، كانت اقامتي في الموصل مرضية ومريحة.

ملاحظات دونتها في الموصل

تقع مدينة الموصل على الضفة الغربية لنهر دجلة قبالة مدينة نينوى القديمة، وعلى ارتفاع ٣٦° و٢٠ً من القطب. يدعي اليهود انها كانت تدعي قديماً عطور، وان النبيين عاديا ويفتاح الجلعادي مدفونان فيها. ولكنني اظن انهما يختلفان عن النبيين المذكورين في الكتاب المقدس، لأن يفتاح الجلعادي مدفون في مدينة جلعاد (سفر القضاة الفصل ٢١،٧) غير انني لم استطع جمع معلومات وافية عن تاريخ هذه المدينة، ولا عن تاريخ تسميتها كالاتي. ولكن يقال انها دمرت ثلاث مرات. وأظن انها مدينة قديمة للغاية، لأن مفتي الموصل زعم ان المسلمين استولوا عليها منذ فترة طويلة.

حكم الامراء المسلمون (الصحابة) مدينة الموصل، كما حكموا هذه المقاطعة كلها، حيث ازدهرت اشد الازدهار.

نقلت على اللوحة XLVI موقع المدينة الحالي ومساحتها. يحد المدينة من الجهة الجنوبية الغربية سور وبرج حديثين، والجدير ذكره ان جزءاً كبيراً من المدينة خالٍ من السكان. يقال ان عدداً من المنازل يتراوح بين ٢٠ و٢٤ ألف منزل، ولكنني اظن ان هذا العدد مبالغ فيه. أما شوارعها فضيقة ومتعرجة، ولها منفذان، أما منازلها فمبنية من الطين والصلصال ولها عدة قبب. في فصل الشتاء تنخفض درجات الحرارة انخفاضاً شديداً، حتى ان نهر دجلة، غطي لـ عشر سنوات خلت بالجليد عدة ايام. يعيش سكان هذه المدينة طويلاً، نظراً لنقاوة الهواء ونظافة المياه. تكثر قرب نهر دجلة، ينابيع المياه المعدنية، التي تضفي على مياه النهر طعم الكبريت. غير ان هذا الطعم يخف تدريجياً تحت الجسر، في الجهة المقابلة للمدينة. على بعد أربعة فراسخ جنوبي المدينة، نجد نبع مياه ساخنة يعرف بحمام علي، يطغى عليه طعم الكبريت. ويقال ان هذا النبع يقذف كمية كبيرة من الزفت المعدني.

اشرت إلى ابواب الموصل واصرحتها على خارطة هذه المدينة بالتسلسل العددي:

١ ـ باب الماضي، سد هذا الباب يوم حاصر نادر شاه المدينة، ولم يفتح مذّاك، والجدير ذكره ان هذا الباب مذكور في تاريخ العالم، زمن الحملات الصليبية، مما يعني ان موقع المدينة، لم يتغير من هذه الجهة.

٢ ـ باب سنجار

٣ ـ باب الباد

٤ ـ باب الجديد

٥ ـ باب الجيش

٦ ـ باب الطب

٧ ـ باب الجسر

٨ ـ باب القلعة، أو الحصن الداخلي؛ يقع هذا الحصن على جزيرة صغيرة مستطيلة، في نهر دجلة، وهو يستعمل اليوم كمخزن للاسلحة. ولم اجد احداً فيه سوى مفتش المخزن، الذي كان يدخن الغليون على باب المدخل ولم يحاول اعتراض طريقي، ودعاني للقيام بجولة في المكان. غير اننا لا نجد في المخزن سوى بعض القنابل التي قذفها نادر شاه على المدينة، خلال حصاره الاخير لها. اما المدافع فمعظمها مهترىء ومغطى بالصدأ. أما الصروح فمعظمها متداع وابوابها كلها مفتوحة، وهي تضم مخزناً للخبز يعود إلى ٢٠ سنة. في القسم ٩، نشاهد السراي أو قصر الباشا، الذي يتألف من عدة اجنحة. وفي القسم ١٠، نشاهد الجامع الكبير الذي بناه نور الدين، والي دمشق(*) غير انه لم يتبق من الجامع سوى منارته وجزء من سوره. والملفت للنظر، ان هذه المنارة، شاهقة للغاية، مقارنة بمنارات الموصل التسع؛ غير انه تكثر في المدن الاسلامية الاخرى المنارات الشاهقة، علماً ان الاوروبي لا يجدها غير عادية. نشاهد في وسط المكان القبلة، التي تذكر المسلمين بضرورة ان يستديروا صوب مكة(**)، لأداء صلاتهم؛ وهي مبنية من المرمر ومغطاة بكافة انواع الزينة. والجدير ذكره ان اعمدة هذا المسجد مبنية بشكل مستطيل، ومغطاة بالحجارة المنحوتة. يتميز جامع النبي جرجس بخزان المياه الذي يعلوه، والذي يزعم انه يجذب حيوان السمارموغ، الذي يأكل الجراد(***) كان هذا الجامع قديماً كنيسة مسيحية، ويقال ان القديس جورج مدفون هنا، غير اننا نجد قبره في مصر العتيقة، في منطقة راما، وفي الاراضي المقدسة وفي مقاطعة كسروان في جبل لبنان.

خارج المدينة، نشاهد قرب الرقم ١١، جامعاً قديماً يعرف بجامع الاشمر، الذي بني عام ٥٧٦. ورغم ان اسم بانيه غير واضح، إلا انه يقال ان مجاهد الدين قد شيده، ويبدو انه مجاهد الدين كيمار نفسه المذكور في تاريخ العالم. مما يعني ان الجامع قد شيد بناء على طلب سيف الدين غازي بن معدود. الذي قضى في تلك السنة. ونشاهد في هذه البقعة نقوشاً مختلفة، بعضها كوفي، شبيه بتلك التي نشاهدها في اللوحة XLIII قرب الصورة (هـ E)، وبعضها عربي حديث،

(*) Semlers, Ubersetzung der algemeinen welt-historie des newern Zeiten الجزء الثالث، القسم الاول.

(**) حين نقف في هذه البلاد امام القبلة نستدير غرباً، وفي بلاد البربر شرقاً، وفي شبه الجزيرة العربية شمالاً، وفي سوريا جنوباً. غالباً ما يخطىء العلماء الاوربيون في هذا الموضوع، ودون ان يأخذوا بعين الاعتبار موقع المكان الجغرافي، يربطون عادة الاقاليم الجنوبية بعبارة قبلة.

(***) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

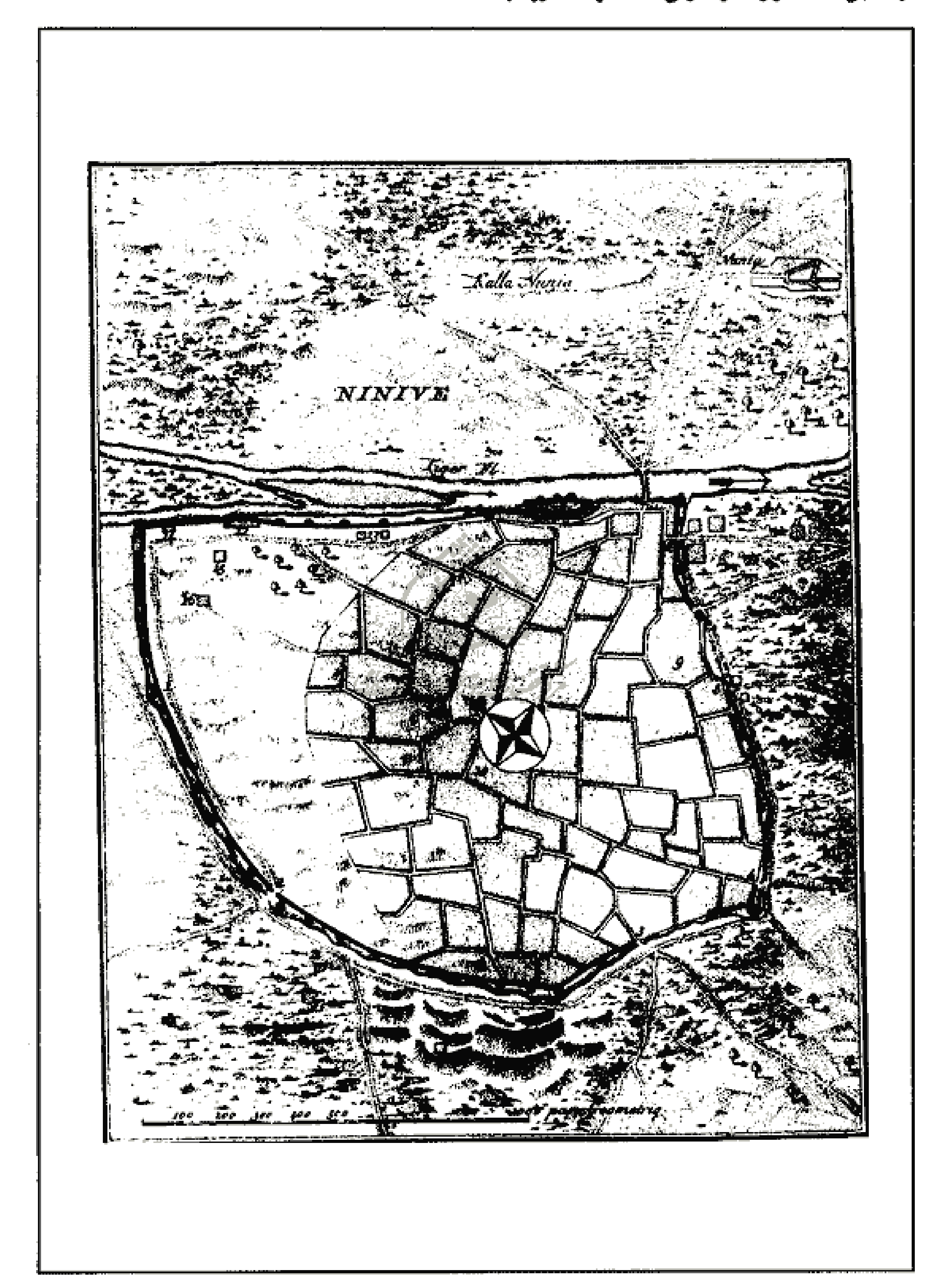
مأخوذ من القرآن. والملفت للنظر ان معظم النقوش والزخرفات قد حفرت على جدران الجامع بالكلس. ويقال انه في غابر الازمنة، شيدت كنيسة في وسط المدينة، وجسر للمراكب على نهر دجلة.

لم يذع صيت اي امير مسلم مثلما ذاع صيت الامير لؤلؤ الذي حكم في القرن السابع الهجري، والذي بنى السراي الكبير، قرب الرقم ١٢. شاهدت في هذا القصر الإسلامي ٨٠ أو ١٠٠ صورة بشرية، علماً ان رأس معظمهم مقطوع أو متلف، وهم مكتفو الايدي، ومتشابهون إلى حد بعيد، وكأن النحات نقشها عمداً بشكل متشابه. وبنى لؤلؤ ايضاً، المدرسة (١٣) علاوة عن صرح كبير على ضريح المدعو يحيى بن الحسين. أو كما يدعوه البعض ابو الحسين (١٤). يسمي المسيحيون يحيى، حنا العسكري، مار جرجس ويعتبرونه قديساً عجائبياً، وقد سد قبره من الجهتين الجنوبي والغربية - والشمالية - الشرقية، ويزعم ان الامير لؤلؤ شيد سلسلة من الاصرحة، بدءاً من المدرسة ووصولاً إلى سور المدينة، مستولياً في طريقه، على ضريح هذا القديس المسيحي، دون ان يحظر على اتباعه زيارته، داخل المسجد. شاهدت حول السور الداخلي صفاً من حجارة المرمر، تعلوها زخرفات منحوتة بشكل جميل، فضلاً عن مجموعة من النقوش، حفرت احرفها بالطين، ولا عجب ان يستعمل الطين في بغداد وبابل، حيث المرمر وغيره من الحجارة، نادرة الوجود، غير انني فوجئت برؤية هذا العدد الوافر من المرمر داخل هذا الصرح وغيره من اصرحة الموصل القديمة.

يملك مسيحيو الموصل حوالي عشر كنائس صغيرة. وبعد ان شاركوا في الدفاع عن المدينة خلال حصار عام ١٧٤٣، سمح لهم الباشا ببناء بعض الكنائس الجديدة، وترميم القديمة منها. فبنى النسطوريون عندئذٍ كنيسة جديدة، قرب الرقم ١٥، واليعقوبيون، قرب الرقم ١٦، واظن انني لم اشاهد في بلاد الشرق كنائس تضاهيها جمالاً. وبعد ان طلبت من احد المسيحيين ان يشرح لي النقوش المنحوتة على جدرانها، علمت انه العام ١٧٤٤ ميلادية، و٢٠٥٥ بعد وصول الاسكندر إلى الحكم، بنيت هاتان الكنيستان، ولهذا السبب يستعين مسيحيو هذه المقاطعة بهذين التاريخين، في نقوشهم، وفي وثائقهم المهمة، علماً ان الفرق بينها يوازي ٣١١ سنة، فالترتيب الزمني الاسكندراني، يتوافق مع ترتيب سلسوس الزمني حيث يعتبر تشرين الأول/أكتوبر، أول شهر في السنة(*).

تضم مدينة الموصل ١٥ خاناً، ينزل فيها الاجانب، خمسة منها صغيرة وقذرة، والعشرة الباقية

(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.


NINIVE

شاسعة ونظيفة كما وانها تحوي مقاه عامة، وحمامات، واسواقاً شعبية يعود معظمها لعائلة عبد الجليل، اي اقارب امين باشا، حاكم المدينة الحالي، كان عبد الجليل نسطوري الاصل. وبعد ان تكاثرت ذريته في الموصل، ازداد نفوذها، واجبرت السلطان على تعيين احد افراد عائلتها في منصب الباشا، خاصة بعد ان تسلم الحكم في السنوات الاخيرة حاكم اجنبي من القسطنطينية. ففي اغلب الاحيان، كان سكان المدينة، والعرب واليزيديون المقيمين في الارياف، يثورون ضد الباشا، الذي كان مجبراً على حشد عدد وافر من الجند، غير ان هذا الامر كان يكلف اموالاً طائلة، ويحول دون جمع السلطان ايرادات هذا الاقليم، يدفع الباشا للتنحي عن منصبه، ولكن حين عُيِّن باشا من عائلة عبد الجليل، وقف الاعيان إلى جانبه، وايده سكان المدينة اجمعين، وما احتاج بعدها لحشد الجند، ووفر بالتالي المال لدفع الجزى. ولما كان سلطان القسطنطينية يضع هذا البند في المقام الاول، استطاعت العائلة المذكورة من بلوغ غايتها دون ان تتكبد اي عناء يذكر، ووما لا شك فيه ان الرعايا هم المستفيدون، لأن الباشا يسعى لكسب حبهم وثقتهم خاصة ان كان ينوي البقاء في منصبه طوال حياته. ولكن الاجنبي يسعى لجمع المال، لتقديم الهدايا لسلطان القسطنطينية، خاصة وانه لن يبقى طويلاً في هذا المنصب.

ينقسم سكان الموصل إلى سنة وحنفيين وشافعيين، وعلى رأس كل منهم يعين مفتي يخضع لمفتي القسطنطينية. ويبلغ عدد منازل المسيحيين ١٢٠٠ منزل، وهم ينقسمون إلى نسطوريين وكلدانيين ويعقوبيين. ومن بين المسيحيين المولودين في هذه المدينة، نادراً ما نصادف شخصاً يحسن اللغة السريانية المستعملة اليوم في القرى. تعد العربية اللغة الام في الموصل، بينما يكتب التجار والكهنة اللغة الكرشونية اي العربية بأحرف سريانية غير ان كتبهم الدينية، موضوعة باللغة العربية القديمة(*).

لا أظن ان المسيحيين يعيشون بوئام مع المسلمين في اقاليم الامبراطورية التركية الاخرى، باستثناء الموصل، فهم يرتدون الازياء الإسلامية، ويعمل بعضهم في خدمة الباشا، حتى طباخ زوجة الباشا، كان مسيحياً، شغل والده المنصب نفسه، لدى والد الباشا، منذ سنوات طويلة.

نجد في الموصل ايضاً حوالي ١٥٠ منزلاً يهودياً. مما لا شك فيه ان هذا الشعب يتمتع في بلاد الاتراك بحرية العمل اكثر منه في اوروبا حيث فصلوا جميعاً من مهنهم. غير انهم عرضة للاحتقار في بعض المدن اكثر منه في بلادنا.

(*) لاحظت في ما بعد ان اغريق ناتولي يكتبون التركية بالاحرف الاغريقية، ويطلقون عليها اسم اللغة الكرشونية. ولكنني لست ادري ان كانت تستعمل كلمات تركية او اغريقية اخرى للدلالة على هذه الطريقة في الكتابة، بهذه اللغة او تلك.

وحتى في مدن هذه المقاطعة، حيث يقطن عدد هائل من المسيحيين، لا يجرؤ اليهودي على الظهور في الشارع، حتى لا يسيء الصبية معاملته، في حضور الوالي المسلم. سأتلو عليكم في ما يلي حادثة وقعت في الموصل مع بعض اليهود. ذات يوم، وفي طريق عودتهم من الحج إلى قبر النبي نعوم القوش، ضاع احد الاطفال في القرى المسيحية، المجاورة وبعد بحث طويل عثر عليه في بئر، وقد قطع لسانه، وتعرض لضرب مبرح، فاتهم اليهود بخطفه وارغموا على دفع ألف دوقية للباشا، لإنهاء القضية. ويدّعي مسيحيو الشرق ان اليهود يخطفون اولادهم، وانه تم العثور في حلب، على طفل مسيحي مصاب بجروح طفيفة، ومرمي في كهف يهودي، فأرغم الباشا اليهود على دفع مبلغ كبير من المال، لحفظ القضية.

يبلغ طول مدينة الموصل جنوباً تسعة فراسخ، وشمالاً ثمانية فراسخ، ويبلغ عدد القرى التابعة لنفوذها ٣٠٠ قرية. في الفصول الممطرة، يكثر القمح، والعدس، والبقول، والسمسم، والقطن، ولكن منذ عدة سنوات، ساد الجفاف البلاد، فعرف السكان المجاعة، خاصة في ديار بكر، مما دفع المسيحيين لبيع اطفالهم للمسلمين(*)، في الواقع، اعاد البعض شراء اولادهم، بينما فضل بعضهم الاخر تركهم في منازل المسلمين الاثرياء. علماً ان هؤلاء الاخرين رفضوا اعادتهم لهم، فأدى ذلك إلى اضعاف المجموعات المسيحية. تكثر في هذه المدينة، مصانع النسيج، والمصانع والمطابخ، التي تشكل مهن المسيحيين الاساسية، فضلاً عن التبادلات التجارية.

يملك باشا الموصل عادة ثلاثة اذناب خيل أو أطواق، ولكن امين باشا كان يملك طوقين فحسب ويأمل ان يصبح باشا من الطراز الاول. فقيل لي انه يدفع سنوياً ٣٥ أو ٤٠ كيساً (صرة نقدية) يحوي كل واحد منها ٥٠٠ قرش(**) أي ما يعادل الالفي قرش، أو ١٣ الف ريال. علاوة على ذلك، يقال ان السلطان يجني من هذه المقاطعة حوالي ٣٠ كيساً من ضريبة الاعناق، تعرف هذه الضريبة بالخراج، وهي تفرض على اليهود والمسيحيين. يدفع الثري أربعة أكياس، والمتوسط الحال كيسين، والفقير دوقية، ويأخذ كل واحد منهم، في المقابل، وصل أمانة، يحتفظ به حتى لا يضطر لدفع الضريبة من جديد. لست ادري ان كان يفرض علي اليزيديين المقيمين في القرى، دفع الخراج، غير انني اخال ذلك ممكناً، علماً انهم كانوا في الاصل مسيحيين، وارتدوا عن دينهم. وحدهم المسلمون يعفون من هذه الضريبة.

(*) زار ايف هذه البلاد، بعد حصول هذه المجاعة ووصف وضع السكان المؤسف، واخبره راهب كبوشي من ديار بكر ان شتاء ١٧٥٦، وجراد ١٧٥٧، سببا هذه الكارثة المريعة ولكن لو حاولت الحكومة بناء مخازن للاغذية لما وقعت هذه المصيبة في هذه البلاد.

(**) توازي صرة النقود في المقاطعات التركية كافة ٥٠٠ قرش، بينما توازي الصرة نفسها في بغداد ٢٥٠ قرشاً تركياً. يوازي الواحد منها ٣/٢ ريال.

يعمل في خدمة باشا الموصل حوالي ٢٠ سقالياً غرياً أو ضابطاً، يتولون مناصب مهمة ويقودون الجيش بالتعاون مع اليزيديين والعرب. يبلغ عدد الجنود المشاة حوالي المئة، والخيالة ١٢٠، والبحارة ١٢٠ موزعين على ثماني سفن حربية، والفرسان ١٢٠. يملك هؤلاء الاخرون ارضاً في امبراطورية السلطان، وغالباً ما يخلف الفارس والده. والجدير ذكره ان هذه المدينة ليس لها حدود معينة، لذلك لا تجد فيها كشلة، أو مقراً عاماً لفيلق من الانكشاريين ورغم ذلك، يكثر في المدينة، الضباط الانكشاريين، الذين يجندون كل مواطن يطلب الانخراط في صفوفهم، على ان يتمتع بكافة الامتيازات التي وعد السلطان الانكشاريين بها. لا يحق للمسيحيين الانخراط في صفوف الانكشاريين أو التمتع بامتيازاتهم، غير انهم يدفعون مبلغاً زهيداً من المال، لينضموا إلى الفيلق بصفة خدم فحسب، فلا يخشون حينئذٍ ان يتعرضوا للنهب أو الضرب من الانكشاريين، ان تدهورت الحالة الامنية في المنطقة. وان احتاج الباشا لعدو اكبر من الجنود، انشأت في الموصل وبغداد والبصرة، فرقة من السردانقفتي تضم عدداً كبيراً من المسيحيين.

العام ١١٥٦ هجرية (أي ١٧٤٣) قصف نادر شاه مدينة الموصل(*) بالمدافع لمدة ٤١ يوماً، وكاد ان يستولي عليها، حين ابلغ باندلاع ثورة جديدة في بلاد فارس، فاضطر حينها لفك الحصار والعودة إلى دياره. من خلال الروايات الكثيرة التي سمعتها، ادركت ان هذا البطل الفارسي، الذي كان يخشاه اعداؤه في وسط الارياف، لم يكن يحسن فعلاً محاصرة الحصون، مما يدل على جهل الفرس بسلاح المدفعية فقد شن هجوماً من الجهة الشمالية، الغربية للمدينة، في حي باب العمادي، حيث السور منيع للغاية، والمدينة شبه مهجورة من السكان. فأضرم النار بمخيم الباشا، خلف السور، وكان حسين باشا، والد الباشا الحالي، يفتقر إلى الذخائر الحربية كافة، ولا يستطيع مقاومة المدافع التي تحيط بمدينته فعاد سريعاً إلى قصره. تاركاً للعدو حرية قصف الخيم الفارغة، قدر ما يشاء.

يؤكد سكان الموصل ان نادر شاه ألقى حوالي ٤٠ الف قنبلة على المدينة ولكنني اظن ان كلامهم هذا مبالغ فيه. ومما لا شك فيه ان القصف كان عنيفاً رغم ان المدينة لم تتضرر كثيراً، فمعظم المنازل مقببة ومبنية من الحجارة والطين، وغالباً ما كانت تنفجر القنابل في الهواء أو بين الخيم الفارغة. ولما كانت المدافع تحدث فجوة في الاسوار، كان السكان يسارعون إلى سدها، والجدير ذكره ان المسيحيين لعبوا دوراً فعالاً في هذا المجال، لم ينسه ابداً المسلمون. كما وأنهم اظهروا شجاعة بالغة، علماً ان عدداً منهم اقدم ليلاً على سرقة مخيم الفرس.

اتيحت لي الفرصة في الموصل للحصول على اسماء القرى التابعة للباشا، وسأدرجها كلها في

(*) قصة نادر شاه، لمحمد مهدي خان (في الالمانية)، ص ٣٦٥، الجزء الثاني.

ما يلي: صحيح ان معظمها صغير جداً، ولكن العلماء قد يجدون بين هذه الاسماء، اسماءً قديمة اتى على ذكرها المؤلفون، في منطقة نينوى.

نجد شرقي النهر وجنوبي الموصل، قرية نونيا أو ني، حيث دفن النبي يونس، يارمجا، شمس الدين، قوس فخره، قره كوني صفطا، كبريدلي، سولامي، نمرود، تحدثت سابقاً، عن اسوار هذه المنطقة، على ضفاف نهر دجلة، ويقال انه تكثر فيها ايضاً انقاض المنازل، التي قد تثير اهتمام المسافر. تل خونديس، بازدلي، خضر الياس، وهو دير لليعقوبين، تل يعقوب، فاني حرامي، قرية ياتا، عبد الحفيظ، جو دليدا، قرقانه، تل اللبن، خام كرم محمد، داغر يارمجا، صخرة خاتون، بدنا، طرجلة، كرمليس، قراقوش، بلعاد، قراشور. قهرسي، قرابولي. قابر، شاه قولي، قرابلي، دار ملنة، قبة، عيدور دورماس، بانكشا صفطا، آغا شابر، برخانتي، السابا، قمشين، باس تدماس، علي ريش، عمر خان، منارة، تثري، لعك دراسي، جلوخان، تنور طوب، خسنا طوب، برتوله، باش بيتا، لعث فشرا، قره شوبان، عشق، ساري بولاق، أو عين الصفرا، اسقف، شيخ امير، كانون، قصر سويد، قبان، عجي سجق، بير بنوك، بير هلار، باش حسن، باشيكا، طاب سوى، طاس شراب، قره طوب، قولان طوب، عرطه شراب، تيلار، وادي سمغ، عمر لبيجي، امام فضله، عباسي، علاميش، قبقلي، هاشمي، غربي، بلبل طوب، بواسيا، خانوغ، أو قلعة نونيا (اللوحة XLVI).

نجد شرقي نهر دجلة وشمالي الموصل قرى قاضي كنت، راشيدي، شيري خان قره خوان ايليا، شيخ محمد، جمالي، نرناجيق، خليل، مله، عونه، قفريق، مسركند، بوسا، يسبان، دوسا، جانيق، علملم، مشرف، دار بويوسف، ام توتا، يونا، جرنيس، تعلمتا، تل ميان، ثور، باند، باب نير، خرابيك، كسريك مشريفا، دار حال، تل فنيسا، سوط، مشاد، دار الجندي، اغاجا، قلعة، قره بولغ، فاني شريم، قرى (يدعي شعب الموصل، ان يونان رمي على الشاطىء وقذفه الحوت من الخليج الفارسي إلى نهر دجلة). خانق، علق، زينة، قيسي، نمر، قره مشك، خان بركان بقاف (ويقطن فيها اليزيديون والمسلمون)، عنز، برشان، عميري (وفيها عدد من اليزيديين) دار ستون، بيبوس، قصر باهندا (وهو مكان قديم للغاية يضم عدداً من اليزيديون، ويقع قرب القوش مقر البطريرك ايليا) بدري، قرنجي، هتارا (حيث يقيم اليزيديون والمسلمون) قرى هاتورا، قريق، شراب والد، شراب كابر، زي محال، تل شاخ، كجك هارا، رانيك، بابير، مناره، تل عدس، خان نسرين، تل زين، مسك علاد، فلسان، قر اسحاق، تل اسقف (حيث يقيم النسطوريون) باقفا، بغاد، شرش خان، شفستيان. يقيم في القرى الاربع الاخيرة المسلمون واليزيديون في وئام وسلام. قرية نصري، حيث نجد مسلمين، ومسيحيين ويزيديين، قرية بطنه، التي تضم عدداً من المسيحيين الذين اعترفوا بالبابا زعيماً روحياً لهم، ونجد قربها دير مار ورابا القديم التابع للنسطوريين، قرية تل

كيف، التي يزعم انها تضم ٤٠٠ منزل، ويتبع نصف سكانها البابا، بينما يتبع النصف الآخر المذهب النسطوري. بيت قره، حسان الجيلان، قره شراب، شيخ حي، شيخ علي، شراب بيت، قلقاجه، حوش عمبر، نجمه، بيبوش، لعبث قره، قيم، رسنا، سماقي، شوكالي، غريان، قلعتا، نصري، سندناق، كتيك، كيس قلعة، عنوه، داس، قطان، عين بكاره، غرموه، رقصه، حسين، برسوا، شرابوك، المان، شفشرني، قر شال، قندال، محمدان، (حيث نجد يزيديين ومسلمين) قر مبارك، شفته بعد، عين السفنة، بعدري، وشرفان، بسان، جرابي، قمونه، عين زال، الواقعة غربي دجلة، سيد كند، التي تضم سلالة محمد، قر قرآن شنكشي، دارك.

نجد غربي دجلة، جندر، كواسير، شكارى، شطه، بدوش، اسماعيل، على بعد ثلاثة فراسخ، من الموصل، على طريق حلب. دمرستي، هلاله، دار مخايل، آغا كند، قنطرة، كافور، قبق شولي، مهرجان، حجر صفين، شرار، مالك احمد، حمام علي (منجم زفت معدني)، جهانه، دغرمان الداسي، منبره، صف الستود، صناديق، كفن كسكي، قيره.

ونجد شرقي دجلة، قلعة قفشاش القديمة، وقرية حفار، على نهر شافر، وحسن بركان، وعرداق، شغرشي.

الرحلة من الموصل إلى ماردين

يمكن ان نسلك من الموصل إلى ماردين طرقات عدة. ويعتبر الدرب الذي يمر عبر الجزيرة اطولها، فضلاً عن أنه جبلي وصعب، ويتطلب الوصول إلى نصيبين عبر هذا الطريق اثني عشر يوماً فقط، ولكنها منطقة آهلة بالسكان، كما يبدو على خارطة السير على اللوحة XLV واللوحة L. وهناك درب آخر يمرّ عبر الصحراء، وهو أقصر من غيره، أيّ إن المسافة الفاصلة بين الموصل وماردين هي حوالي ٤٠ ميلاً يمكن قطعها بحوالي ٥٣ ساعة مع قافلة كبيرة. ويمرّ الدرب من الموصل إلى اورفه فحلب قرب ماردين، وتبعد الموصل عن ماردين عبر هذه الطريق حوالي ٨٦ فرسخاً أو ٦٤ ميلاً. وكنت قد قررت السفر عبر الجزيرة للقيام بدراسات جغرافية لن تتاح لي الفرصة للقيام بها في الصحراء، لكن بما أن الدرب بين الجزيرة ونصيبين غير آمنة، وبما أني وجدت قافلة تستعد للتوجه إلى حلب، قررت السفر معها عبر الصحراء. وقلما نجد على هذه الطريق قرى آهلة، لكن لا ينبغي الاعتقاد انها صحراء قاحلة لا نرى فيها سوى الرمال. فالأرض خصبة للغاية، تكثر فيها المراعي الرائعة، وتطالعنا بقايا قرى ومدن تهدمت تحت حكم المسلمين، على يد البدو والاكراد واليزيديين وعلى يد الحكام الاتراك الطغاة. ونقع هنا على العديد من الجداول، لكنها تجري اليوم عبر السهول الجميلة من دون ان يستفاد منها، وهي مياه عذبة في معظم الاماكن.

أتى كنت كيرس (Quinte Curce) على ذكر المراعي الجيدة التي نصادفها في هذه المنطقة. ويقول في أول كتابه الخامس ان البلاد الواقعة بين دجلة والفرات خصبة للغاية، لذا لا ينبغي ترك المواشي لترعى طويلاً هناك. وخلال رحلتنا، عادت بعض الجمال مريضة من المراعي ثم نفقت، لكن لا أظن أنها اكثرت الأكل، كما أن الجمالين أعطوها عند الصباح بعض الملح كي تأكل وتشرب أكثر. ويدّعي البعض أنّ الأعشاب فوق اعشاش الجراد سامة فما ان تأكلها الجمال والخيول والبغال حتى تنفق. وقد رأيت في هذا الموسم قرب تل الهوى قطعة كبيرة من الارض مغطاة بجراد صغير[*]، ولعل المواشي تنفق حين تبتلع بعض الحشرات السامة.

وقد يود البعض معرفة كيف يتحضر لرحلة في هذه المناطق غير الآهلة بالسكان، وسأشير هنا باختصار إلى بعض الامور التي يعتبرها الشرقيون ضرورية، والتي اتبعتها انا نفسي. حملت عدّة

(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

الطبخ كاملة في كيس واحد، وهي عبارة عن وعاءين بغطاءين، يوضع احدهما في الآخر، فضلاً عن طبقين وابريق قهوة وكلها مصنوعة من النحاس المطلي بالقصدير، قد لا يعجب ذلك العديد من الاوروبيين الذين يرفضون استخدام النحاس في المطابخ، لكن اؤكد لكم انه مقصدر في البلاد الشرقية بشكل جيد كما في اوروبا، اذ ان الشرطة متشددة حيال هذا الموضوع، ويعاقب النحاس الذي يستخدم قصديراً سيئاً لطلي الاواني بصرامة. ويتم طلي الاواني من الداخل والخارج، وينظفها الطباخون بشكل جيد، لذا لا يخشى استعمال النحاس في البلاد الشرقية في حين ان الاوروبيين يشتكون من استخدامه، أما بالنسبة للملح والتوابل فوضعتها في علبة خشبية، كل صنف منها على حدة، كما احتفظت بسكين وملعقتين وشوكتين، علماً ان الشرقيين لا يستخدمون هذه الادوات لأن اللحمة تقطع إلى قطع صغيرة وتقدم مع طبق الأرز المفلفل. ولا يستعمل الشرقيون ابداً الطاولة والكرسي، أما سماطي فعبارة عن قطعة قماش مستديرة الشكل تنتهي بحلقات من الحديد يمرر فيها حبل يسمح بتعلقها في سرج الجواد. وأحمل نصف دزينة من فناجين القهوة موضوعة في جراب من الخشب المغطى بالجلد، لذا يمكننا ان نرميه في أيّ مكان من دون ان نخشى تكسرها، كما وضعت الشموع الصفراء في علبة مماثلة تحفظ في كيس جلدي، وفي غطاء هذه العلبة أنبوب تثبت فيه الشمعة فيستعمل كشمعدان. ونجد ما يكفي من المياه على هذه الطريق، لذا لم أر ضرورة حمل جلد الماعز لأضع فيه مؤنتي من المياه، لكن يحمل كل مسافر جزءً من الجلد السميك، يعلقها على سرجه كي يشرب عند الحاجة، كما يحتفظ كل منهم بكوب من النحاس المقصدر، يستعمل للشرب في الآبار والينابيع والانهار التي يصادفونها. ونجد في المدن التي يعيش فيها المسيحيون ما يكفي من الكحول، فحملت معي مؤنة في جلد ماعز مخصص لهذا الغرض، لأن المياه تتغير من منطقة إلى أخرى خلال الرحلات، يعتقد المسيحيون أنه من الافضل ان يضاف اليها بعض الكحول، لكن هذا الشراب ليس بلذيذ، ويأكل المسلمون الكثير من الثوم، اذا ما حصلوا عليه، بسبب هذا الاختلاف في المياه. واقتصرت مؤنتي من الطعام على الأرز والزبدة التي تذوب وتحفظ في قرب جلدية، فضلاً عن البسكويت والطحين لصناعة الخبز اثناء الرحلة، والفواكه المجففة، واللحمة المجففة والقهوة، الخ... وقبل مغادرة اي مدينة، نتزود باللبن حيث يوضع في كيس ويخض، ومع خروج المياه منه يضاف الحليب حتى نحصل على كمية الجبن اللازمة، واذا ما اضيف اليه الماء لاحقاً، حصلنا على شراب منعش للعطاشى(*) واذا ما اكلناه

(*) اخبرني رجل افريقي انهم يطحنون الشعير المشوي ويخلطون هذا الطحين مع العسل ويصنعون منه نوعاً من الحلوى. خلال الرحلات، يضعون الحلوى في المياه مما يشكل شراباً لذيذاً ومنعشاً يسمى ساميتا (Samita). فضلاً عن ذلك، يملك الشرقيون اطباقاً خاصة للرحلات يجب على الاوروبيين تفاديها، انهم يسافرون في بلادهم الخاصة، ويزودهم اهلهم ونساؤهم بالمؤن، في حين ان الاوروبي يضطر الى جمل خادمه بشتري المؤن من السوق حيث لا نجد سوى الاشياء الضرورية.

مع البسكويت اشبع هذا الطبق رجلاً جائعاً. بشكل عام، لا ينبغي ان يكون المرء حساساً وإلا تعرض لمشاكل عدة. كنت احمل معي نرجيلة فارسية في كيس جلدي يتدلى من سرج جوادي، ولم تكن خيمتي كبيرة كما لم استعملها كثيراً اثناء الرحلة كي لا يكثر زواري من العرب، اما سريري ففراش وغطاء رقيق ومخدة. وينام العرب بملابسهم، لكن الاوروبيين الذين يغيرون ملابسهم غالباً ليسوا أنظف، لأن العرب يغتسلون كثيراً. وتعتبر السجادة في رحلات كهذه أمراً ضرورياً لأنهم يفرشونها اينما توقفوا، في منزل أو في الهواء الطلق. ووضبت كتبي وثيابي في حقيبتي، فيما وضعت آلاتي في العلب الخاصة بها، ولم استأجر سوى ثلاثة جياد لها ولي ولخادمي.

وتضم قافلتنا ألفي دابة محملة، ١٣٠٠ منها تحمل العفص من الكردستان، ويحمل ١٢٠ جملاً أقمشة مختلفة من الهند، وبلاد فارس، وبغداد، والموصل، فضلاً عن ٤٥ جملاً تحمل القهوة، فيما تنقل الجياد والبغال والحمير خمسماية أو ستماية حمل آخر. لكن هذه البضائع غير متوجهة إلى حلب فقط، فمنها ما يرسل إلى ماردين واورفة وديار بكر وحتى إلى ارمينيا. وفي مدن أخرى، يكلّف التجار عرب القبائل الكبيرة المجاورة نقل البضائع على جمالهم عبر الصحراء، لكن في رحلتي هذا، أكدوا لي أن أصحاب الدواب المحملة في قافلتنا يقيمون في الموصل والمدن المجاورة، لذا لا يستفيد العرب والاكراد من نقل هذه البضائع.

يبلغ عدد المسافرين، بما في ذلك حراس الجمال والجياد حوالي ٤٠٠ رجل، اما عدد المرافقة فحوالي ١٥٠ جندياً، جنّد معظمهم التجار بأنفسهم لذلك يهمهم الا يتعرض اصحاب عملهم للنهب والسلب، فكنا قادرين برأيي على الدفاع عن انفسنا ضد اي عدو قد يهاجمنا خلال الرحلة. وبما ان اليزيديين من جبل سنجار نهبوا منذ اشهر قافلة صغيرة قرب رملة (Ramala)، امر الباشا الجند بمرافقة قافلتنا حتى كاسي كوبري (Kassi Kupri)، وهناك انضم الينا ابن شيخ قبيلة طيّ العربية، ومعه حوالي ٢٠٠ خيال ومئة رجل من المشاة. وصادفنا، قرب رملة، اربعة بيارق (حوالي ١٠٠ رجل) من الخيالة خاضعة لحاكم ماردين، وبدأ العرب يرحلون قرب رجل العباس، لكن التقينا قرب تل الشير التفنكجي باشي من ماردين ومعه حوالي ١٥٠ رجلاً من المشاة. ويكلّف هؤلاء التجار الكثير من المال، فضلاً عن أن مرافقينا من العرب كانوا وقحين ويشكلون عبئاً علينا نحن كمسافرين، لكن باشا الموصل وشيخ قبيلة طيّ وحاكم ماردين يحاولون الاستفادة من القافلة بحجة تغطية التجارة وحماية القافلة من النهب، فيجبرون التجار على القبول بمرافقتهم وعلى دفع مبالغ طائلة لهم. وتلقىّ شيخ قبيلة طيّ لدى وصوله حمولة كاملة من البن والكثير من التبغ والارز والزبدة والمؤن الاخرى فضلاً عن ٥٠ عباءة وزّع قسماً منها على رجاله والقسم الاخر على شيوخ الاكراد الذين ترددوا علينا خلال رحلتنا.

كان قائد القافلة احد اهم التجار بين المجموعة، فتولى مهمة دفع رسوم المرور واعطاء الهدايا للأكراد ولمرافقتنا، وقسّمها على الحمولة كلها. وكان للجمالين والمكاريين مسؤولاً خاصاً عنهم، لكن ما من نظام خاص متبع اثناء الرحلة، فما ان تشرق الشمس حتى ينظم كل شخص حمولته، ويسير في الطليعة من يتمكن من توضيب اغراضه قبل غيره. وعندما نخيّم، يضرب كل من المسافرين خيمته حيث يحلو له، من دون ان يهتم قائد القافلة أو غيره بذلك. وعند المساء، لا يقوم احد بالحراسة، أما الموكلون بهذا الامر فيبحثون عن الراحة قبل غيرهم باستثناء بعض الجنود الذين يعملون بخدمة التجار ولا يهتمون إلاّ بأغراضهم، وأثناء الرحلة، يعرض علينا الاكراد نهاراً شراء الماعز والحليب واللبن، ويعود هؤلاء لسرقتنا وقد سلب بغل قرب خيمتي، فاستفاق صاحبه وأثار الجلبة، لكن الجنود والعرب لم يتحركوا لمساعدته وأكملوا نومهم، ولاحق مع بعض اصحابه السارق، وبعد ربع ساعة، عاد بالدابة(*). ما إن خيّمنا قرب رجل العباس، حتى شعرنا بالحاجة لجنودنا وللعرب وجند ماردين الذين التقيناهم، اذ رأينا في البعيد، وراء التلة، سحابة غبار كبيرة ترتفع، واعتقدنا أنهم اعداء يتحضرون لمهاجمتنا. ويسارع اصحاب الدواب إلى اعادة الجمال والجياد والبغال التي ترعى إلى المخيم، وبعد قليل، عاد البعض ليقول انه رأى ألفي كردي فيما قال البعض الآخر انه شاهد اربعة الاف فارس وراء التلة. وتقدم الاتراك والعرب بغير انتظام نحو العدو المزعوم، لكن بعد نصف ساعة، عادوا ليعلمونا ان اربعة خيالة ومعهم زوج كلاب صادفوا قطيعاً كبيراً من الاغنام أثار سحابة الغبار هذه وسببت هذا الهلع.

ويمكن الوصول بستة ايام من الموصل إلى نصيبين عبر الطريق التي سلكناها لكن قافلتنا سارت ببطء لأن اصحاب الدواب وجدوا الكثير من المراعي الخصبة على الطريق حيث ترعى مواشيهم من دون مقابل ولأن مرافقينا من عرب واتراك يحبون العيش طويلاً على حساب التجار.

قطعنا في ١١ نيسان/أبريل من الموصل نحو الشمال الغربي ووصلنا دبس (Dubs) بعد خمسة فراسخ ونصف أو أربعة أميال.

في ١٢ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي وصلنا كاسي مابري بعد أربعة فراسخ أو ثلاثة أميال.

(*) روى تاجر انه خيّم يوماً مع قافلة على تلة وعرة، فنصب خيمته على طرفها ظناً منه انه آمن مكان، وراح يحرس أغراضه قبل منتصف الليل لينوب عنه خادمه بعد ذلك، فنام هذا الأخير. وقرابة الفجر، استفاق التاجر، فرأى لصاً يعلق جزمة من بضائعه ويقفز نحو سفح التلة، فوقف، وأخذ الكلاّب الذي استخدمه اللص وعلّقه في ثياب خادمه النائم. وشدّ اللص الحبل، فأخذ الخادم يصرخ دون جدوى، وسحبه حتى اسفل التلة، فأمسى منذ ذلك الوقت اكثر انتباهاً لأغراض سيده.

في ١٥ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي وصلنا هوجن (Hojne) بعد ثلاثة فراسخ أو ميلين

في ١٦ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي وصلنا افناد (Avnad) بعد أربعة فراسخ أو ميلين ونصف

في ١٧ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي وصلنا تل الفترة بعد خمسة فراسخ ونصف أو أربعة اميال.

في ١٨ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى رملة ستة فراسخ أو أربعة اميال ونصف.

في ١٩ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى رجل العباس ستة فراسخ أو أربعة اميال ونصف.

في ٢٠ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى تل الشير أربعة فراسخ ونصف أو ثلاثة أميال.

في ٢١ نيسان/أبريل من دبس نحو الغرب إلى نصيبين أربعة فراسخ ونصف أو ثلاثة أميال.

في ٢٥ نيسان/أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى ماردين عشرة فراسخ وربع أو سبعة أميال ونصف.

ولا نقع على طول الدرب بين الموصل وماردين على قرية واحدة، بل على بقايا متفرقة لمدن وقرى أشرت إلى موقعها على خارطة خط سيري بصليب صغير، ويبدو ان كاسي كوبري كانت مدينة كبيرة لكن لم يبق منها ما يستحق الاهتمام سوى جزء من جسر. وعلى بعد فرسخ ونصف من هذا المكان، أي على مسافة تسعة فراسخ من الموصل، وحيث يصب نهر صغير في دجلة، نجد بقايا مدينة كبيرة تحمل اسم اسكي موصل (Eski)، وكلمة اسكي هي كلمة تركية تعني عجوز أو قديم وبالتالي يعني اسم المدينة الموصل القديمة. ويعتقد بعض رفاقي ان مدينة الموصل التي نعرفها اليوم لم تبنَ الا بعد تهدّم المدينة القديمة لكنهم مخطئون في ذلك. اذ ان الموصل كانت مدينة كبيرة حين استولى عليها المسلمون للمرة الاولى، كما اقاموا في اسكي موصل هذه، وبالتالي فهذه المدينة كمدينة براسلو في المجر التي لا يعرفها الاتراك اليوم الا باسم اسكي اسطنبول أو اسطنبول القديمة. وبما ان القافلة توقفت ليوم كامل في كاسي كوبري، قصدت اسكي الموصل علّني اكتشف فيها آثاراً مهمة. لكني وجدت العشب العالي يغطي المكان، ولم أشأ البحث تحت كومات الحجارة خوفاً من أن اقع على أفعي اذ يقال انها تكثر في هذا المكان.

وبقي من المدينة جزء كبير من سورها، ونلاحظ على تلة مرتفعة تسمى الحصن، صرحاً صغيراً مبنياً من حجارة بيضاء وبعض القبب التي بدت لي كسقوف منازل اختفت تدريجياً مع مرور الزمن، ونقع خارج المدينة، على بقايا صروح ظننتها قبباً أو قبور مسلمين، ولم أتوقع إيجاد اضرحة هنا، لأن هذه المنازل مغطاة بالغبار وتعلو فوقها الاعشاب، ولم أجد بالتالي اي كتابات باستثناء السطر «و» على اللوحة XLIII، وذلك على حجر يبدو وكأنه وقع من بناء ما وهو بالتالي غير مسطح انما عامودي، وهذه الحروف اقرب إلى الكوفية منها إلى السرنغال (التي يستخدمها مسيحيو الموصل حتى اليوم)، وهي بالتالي إسلامية وليست كتابات من سكان البلاد القدامى. واثار انتباهي هنا، سور بناه السكان القدامى في نهر دجلة لجمع المياه للزرع(*)، ويبدو ان سكان شرق دجلة يستفيدون منه حالياً، في حين ان الصحراء تمتد غرب النهر.

ويبدو ايضاً ان هوجن كانت مدينة، ونجد هنا بقايا ابنية على تلة قريبة علتها قلعة في ما مضى. ونقع على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب في هذه التلة، على صرح قديم يقوم على تلة أيضاً ويحمل اسم قصر شرج (Kasr Scherridch)، لكن لا يبدو وكأنه قصر، كما يدل عليه اسمه، بل لعله كنيسة صغيرة. ولا يتعدى طول الصرح ١٣ خطوة مزدوجة، وعرضة تسع خطوات، وقد بني من الحجارة المصقولة الكبيرة، ولم أجد أي كتابات هنا باستثناء السطرين (ز G) على اللوحة XLIII وذلك على حجر انفصل عن الجدار ولم اتمكن من التعرف على هذه الكتابة وتشبه إلى حدّ بعيد تلك التي نسخها ايف عن تلة بين الفرات وحلب.

تبدو الآثار الاخرى التي نجدها على الطريق بين الموصل ونصيبين مجرد قرى، وبنى الاكراد رملة منذ سنوات لكن امير الجزيرة هدمها كلياً.

وتتألف مدينة نصيبين التي اشتهرت في الماضي من حوالي ١٥٠ منزلاً سيئة البنيان، لكن نجد في القلعة (كما يسمونها) بعض المباني القديمة المشيّدة بالحجارة المصقولة. وتقع المدينة غرب نهر صغير يرتفع منسوب المياه فيه احياناً بشكل كبير فيصبح بالتالي عريضاً للغاية، وتصب فيه

(*) ان سدود دجلة التي دمرها الاسكندر، بنيت على ما يبدو كهذه وكتلك الواقعة قرب نمرود من حملة الاسكندر الكبير لاريانوس. بنى الفرس هذا السد، ليس خوفاً من اي قوة بحرية خارجية وحسب انما لريّ حقولهم كما يفعل عرب بني الحكم اليوم. راجعوا ما اوردته سابقاً.

(**) يقول الاب ريباد انيرا،(Ribad Encira) الذي كتب سيرة حياة القديس يعقوب، ان نهر دجلة يمر في نصيبين، وإن لم نستطع الوقوف بما يقوله عن القديس. وبوصفه للمدينة، لن نتمكن من تصديق المعجزات التي وصفها والتي قام بها القديس يعقوب، نعرف ان الكتّاب اللاتين واليونان اطلقوا على هذه المدينة اسم انطوشيا ميقدونيا (Antiochia Magdonie)، وقد شكّلت الحدود بين الرومان والاسبارطيين والفرس.

انهار صغيرة اخرى أشرت اليها على الخارطة، ثم تصب بدورها في الخابور (Khabur) الذي يعود ويصب في الفرات(**). وتتميز المنطقة المحيطة بنصيبين بكثرة المستنقعات، وتكثر فيها زراعة الارز. وأهم ما يلفت الانظار هنا هو جسر على النهر الذي جئت على ذكره آنفاً، وقسم من كنيسة بنيت تكريماً للقديس يعقوب، مطران نصيبين، والمشهور هنا بتصديه لعقيدة اريوس (Arius) في مجمع القسطنطينية. ويقوم الجسر على اثنتي عشرة قنطرة، ولا يزال في حالة جيدة، إنما لم يبقَ من البرج الواقع امام المدينة من هذه الجهة والذي يستعمل لمراقبة الطريق إلا الحائط الرئيس. بنيت كنيسة القديس يعقوب من حجارة مصقولة، لكنها انهارت حالياً، ونجد قربها صرحاً صغيراً، حاول احد الحكام المسلمين استخدامه كمخزن للقمح لكن القديس يعقوب ظهر له في الحلم وسأله لماذا يدّنس معبده، مما دفع المسلمين (بحسب ما يروي المسيحيون) إلى اخلاء المبنى، وبناء منبر فيه. ويستخدم اليعقوبيون حالياً هذه الكنيسة الكبيرة نوعاً ما، لكن الرعية صغيرة فلم يعين لها كاهن دائم انما يستقدم واحد من ماردين عند وفاة احد المسيحيين أو عند عمادة احد الاطفال، ويقيم الارمن الذين يتبعون روما قدّاسهم في الكنيسة الكبيرة. ونرى على مقربة من هذا المكان خمسة عواميد منتصبة، لكنها سيئة الصنع. اما بالنسبة للكتابات، فلم أر أيّ منها في نصيبين، لكن أكدوا لي ان هناك قبر يحمل كتابات اوروبية (لعلها لاتينية)(*).

وقادني الرجل الذي رافقني إلى كنيسة القديس يعقوب إلى قبر هذا الاخير اولاً، فوجدت تابوتاً حجرياً يعلوه غطاء ثقيل، ورأيت في جانب القبر ثقباً كبيراً يمكن تمرير اليد منه. وحاولت معرفة ما اذا كان جسد القديس موجوداً، لكن مرافقي الذي بدا قلقاً من حشريتي أكّد لي أنه دفن تحت التابوت كي لا يسيء اليه المشركون. وعلمت لاحقاً ان الكهنة الروم أرسلوا منذ زمن جسد هذا القديس وغيره من القديسين الشرقيين إلى اوروبا، وقال لي مرافقي، إن هذا الثقب في التابوت يسمح للمسيحيين المؤمنين بأخذ حفنة تراب منه، وإنّ هذه الحفنة اذا ما خلطت بالماء تشفي من الحمى.

ونصادف على ربع فرسخ من نصيبين بناءً مهدماً، يزوره اليهود باستمرار، ويؤكد سكان المنطقة ان قديساً اسمه أمّا (Amma) دفن فيه، لكن حاخاماً من براغ، كان في قافلتنا، أطلق عليه اسم يهوذا بن بتاره (Juda Ben Patara) وقال ان التلمود اتى على ذكره، ويعتقد أن الحاخامات القدامى اعتادوا ان يسمّوا نصيبين منزيفن (Menziven).

(*) يقال ان هناك بين نصيبين ودارا، على بعد ثمانية فراسخ من ماردين، شاهدة قبر اوروبي، وأكد لي البعض اننا نجد كتابات اوروبية اخرى في المنطقة الجبلية قرب ماردين. وقد حاولوا مراراً مرافقتي لرؤية كتابات اوروبية، فوجدتها شرقية قديمة. واذا ما وجدنا هنا كتابات لا يمكن ان يقرأها المسلمون او المسيحيون الشرقيون فهي تستحق ان تنسخ.

أما حاكم نصيبين فبيك، يستلم مهامه من والي ماردين، علماً ان هذه المنطقة كانت تتبع في ما مضى باشا ديار بكر، ويدفع المسافرون حالياً رسم مرور لموظف خاضع لوالي ماردين ومكس لمدير الرسوم في ديار بكر. ولا يوقف الاول المسافرين طويلاً لأنه لا يحسب الحمولة التي يترك امرها لرجال الجمارك. وأراد خادمي، وهو ماروني من حلب، ان يتفاخر وأن ينال التقدير في القافلة، فأشاع اني سيد ثري عائد من الهند، مما جعل رجال الجمارك يظنون اني احمل معي الكثير من اللآليء والاحجار الكريمة، فطلبوا مني فتح كافة الصناديق، في حين ان رجال الجمارك في المحطات الاخرى ما أن يروا كتبي يعتبرونني درويشاً لا يحمل بضائع. لكن خادمي هذا لا يعرفني حق المعرفة، بل انه يجهل اسمي، فقد استخدمته في بغداد بدل أحد المسلمين الذين عاد إلى البصرة. وبما ان العرب والاتراك يسألونني غالباً عن اسمي ويجدونه غريباً فينسونه على الفور، وبما أنهم يطلبون مني شرح معنى «نيبور» باللغة العربية، ويستغربون كيف لا نحمل اسماء كأسمائهم الخ، الخ، اسميت نفسي عبدالله لأن هذا الاسم شائع بين المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين فتخلصت بذلك من اسئلة واجوبة غير مجدية. وسمعني خادمي الحالي أقول عبدالله آغا، فأخذ يدعوني بهذا الاسم ولم يعرف اسمي الحقيقي إلاّ حين وصلنا إلى حلب.

وحاول خادمي هذا التعرف على كافة المسافرين في القافلة، وعاد قبيل وصولنا إلى نصيبين يرافقه يهودي من براغ علم اني اوروبي. وهو حاخام، جاء لزيارة قبور يونس وحزقيال وغيرهما من الانبياء والشخصيات الوارد ذكرهم في التلمود، ولاحظت انه باع كتباً عبرية في هذه البلاد لتغطية نفقة سفره التي لا اظنها مرتفعة لأن اليهود الشرقيين في المدن مضيافون لأبناء دينهم كالاوروبيين. واشتكى هذا الحاخام من تاجر من ابناء دينه من الموصل، طلب منه تسليفه المال الذي يحمله حتى حلب، لكن الحاخام رفض ذلك. واضاف ان هذا التاجر يسيء حالياً معاملته، وأن غيره من اليهود لا يحركون ساكناً حين يطالبه المكاري، وهو مسلم لا يمكنه التفاهم معه بلغته، بالمال لسبب أو لآخر وحتى حين ينهال عليه بالضرب. أما السبب الحقيقي الذي دفع هؤلاء اليهود الشرقيون إلى ترك هذا اليهودي برأيي، فهو لأنه حاول التفاخر بعلمه ومقامه ولأنه بخيل للغاية في حين انه يحمل ما يكفي من المال. ورجاني أن أخلصه من ابناء دينه الذين اظهروا قساوة تجاهه، فأسديت له هذه الخدمة، وأمّنت له مكارياً مسيحياً قسّم أغراضه على بغاله كافة، ويكره المسيحيون عادة اليهود أكثر من المسلمين في هذه البلاد الشرقية، لكنهم لم يقدموا على اهانته لأنه وضع نفسه في حمايتي، وقد شكرني على ذلك. وبما أن المسيحيين يعلمون ان اليهود لا يسافرون نهار السبت، ابطأ المكاري على بعد فرسخ من ماردين، وبقي مع اليهودي وخادمه، وهو شاب من براغ، لكنها لم تكن سوى حجة للحصول على المال، وطالبه بقرشين ليكمل السير في ذاك اليوم، واضطر اليهودي إلى دفع المال، وهكذا أوصلته إلى ماردين، نهار الجمعة عند المغيب،

وقابلته مجدداً في حلب، فأخبرني أنه تعرض للسلب بين ديار بكر وحلب، وكان يعلم ان المسيحيين والمسلمين لا يكترثون لليهود الذين يسافرون في قافلتهم إن اكملوا الرحلة يوم السبت ام لم يفعلوا، كما يعلم ان الدرب غير آمنة لمسافر وحيد، لكنه ترك القافلة تتحرك نهار السبت صباحاً، فسطا عليه تركماني بعد ساعات قليلة. وبقي امامه حلاّن، إما ان يحتفل بالسبت عارياً وجائعاً ويسافر يوم الاحد، وإما ان ينطلق على الفور. فاتخذ القرار الحكيم وسارع للحاق بالقافلة. ولم يكن ينبغي ان يظهر ايماناً زائداً، بل ان يتأقلم مع الوقت والظروف ويتّبع مَثَلَ اليهود الشرقيين وخادمه الخاص الذي رافق القافلة في ذاك اليوم متنزهاً (ولا يسمى هذا سفراً يوم السبت) وحافظ على ثيابه، واشتكى الحاخام من الشرقيين بشكل عام، ولم اسدِ اليه سوى نصيحة واحدة وهي تعلّم لغة اهل البلاد والتعوّد على عاداتهم وتقاليدهم عندما يريد السفر.

وتعرضت انا نفسي للمشاكل على الطريق بين الموصل ونصيبين، فحين عدّ عرب كاسي كوبري الحمولة كلها، بغية أخذ رسوم المرور المعتادة، وقد نظر خدم الشيخ إلى سريري وسرير خادمي، وعند المساء، جاؤوا لأخذها لسيّدهم، ولم اتجرأ على الاعتراض لأنهم قالوا انهم يقومون بذلك بناءً على اوامره، وقد رأيت الطريقة التي يعامل بها هؤلاء كبار التجار المسلمين. وقصدت اولاً قائد القافلة واشتكيت له مما حصل. فكلّم الشيخ في الليلة نفسها لكني لم احصل سوى على سريري ومخدتي. وفي اليوم التالي، قصدت الشيخ بنفسي، فسخر هذا الأخير من قلة تهذيبي لأني لم اشأ مقاسمته سريري لبضع ليال، وهو شيخ قبيلة طيّ في حين أنني لست سوى مشرك، وتحت حمايته، أما بالنسبة لخادمي فيمكنه الاستغناء برأيه عن السرير. عندها، ابرزت فرمان السلطان الذي احمله، وأمر باشا بغداد، علّه يظهر بعض الاحترام لأوامر اسياده، مما زاد الامور سوءاً وقال لي انه سلطاني وسيدي في الصحراء، وأن اوراقي لا تلزمه مطلقاً، فاضطررت إلى العودة كما جئت، وتناقشت مع كبار التجار حول الفرق في طريقة معاملة الغرباء بين اوروبا وبلادهم. وحين وصل جند والي ماردين الذي يدفع له شيخ طيّ ضريبة معينة، استعلمت من الضابط الرئيس اذا ما كان الوالي في محيط نصيبين كما يتردد ويبدو ان حديثي هذا سمح بإعادة كافة اغراضي بعد رحيل الشيخ، وما كنت لأحصل على الغطاء الذي احضرته معي من الهند من دون ذلك، لأنه اعجب الشيخ.

وبما اننا سنتوقف مطولاً في نصيبين بسبب رسوم المرور والضرائب، قررت زيارة والي ماردين، الذي ضرب خيامه على بعد ميل ونصف من المدينة الاولى. وفي حين ان الاعيان في اوروبا يمضون الصيف في منازلهم الريفية، يحلو للشرقيين الاقامة تحت الخيام، وقد رافق الوالي اعيان المنطقة وفرق الخيالة كلها لكثرة الكلأ في المنطقة. لكنه لم ينصب خيامه بعيداً عن مدينته طلباً للمتعة وحسب برأيي، بل لقبض الجزية من العرب والاكراد واليزيديين الذين يتجولون في هذه المناطق، وليبقى قريباً إن هم تخلّفوا عن الدفع. واستقبلت احسن استقبال في المخيم، وكان

الحاكم يتناول طعام العشاء في الحريم، فجالست كبار الضباط، وقدموا لنا حوالي ١٥ طبقاً، كما ذكرت في وصف شبه الجزيرة العربية حيث وصفت هذا العشاء، ولا يقدّم البدو هذا العدد من الاطباق. وصف لي ارمني من ماردين مأدبة اقامها شيخ من قبيلة طي لعدد من المشايخ الاخرين يرافقهم الكثير من الناس كما يلي، سلق الشيخ الكبير أو شوى في هذه المناسبة، جملاً بأكمله. وفي حين ان الشرقيين عامة والبدو خاصة يقطعون عادة اللحمة إلى قطع صغيرة تغنيهم عن السكاكين عند الاكل، يقدّم الجمل في مناسبات كهذه كاملاً، ويقطع كل ضيف منه قطعة كبيرة. ثم يقدم الأرز المفلفل في طبق كبير، يتطلب حمله اكثر من ستة أشخاص، ولا يأكل الضيوف دفعة واحدة، ويمد كل واحد منهم يده إلى الطبق ثلاث مرات فقط. حين يجلسون، يرفعون كميّهم، ويجعلون من الأرز المفلفل كتلة كبيرة بقدر ما تتسع لها يدهم اليمنى، ويلحسون الزبدة التي تسيل من يدهم وذراعهم ثم يأكلون الارز بقدر ما يحلو لهم.

انهى موظفو جباية الرسوم عملهم في ٢٤ نيسان/أبريل، فتركت القافلة في اليوم التالي، قبل طلوع الفجر، ووصلت إلى ماردين في يوم واحد برفقة بعض التجار. سلكنا الطريق الذي يمرّ بقصر البريج حيث وجدنا بعض القرى وحقول مزروعة، واوردت اسماء هذه القرى على الخارطة L. كانت سرجا خان أو ساديه كما يسميها البعض، كانت على ما يبدو قلعة كبيرة، بني سورها من الحجارة المصقولة، ونجد خارجها بقايا بناء لكنه مهجور كلياً، كما في قصر البريج حيث نجد منزلاً حجرياً. وشاهدنا في البعيد داره أو قره درا التي كانت مدينة كبيرة في الماضي، وقد ورد ذكرها مراراً في تاريخ الخلفاء، ويعيش فيها حالياً القليل من السمان، ويقال ان سور المدينة لا زال موجوداً فضلاً عن آثار اخرى رائعة مبنية من الحجارة الكبيرة، وبئراً عميقاً للغاية حفر في صخرة. وتقع قج حصار (Kodsje Hissar) تحت ماردين على طريق اورفة ويطلق عليها العرب اليوم اسمها الحقيقي وهو عنصر أو دنصر (Gunasser ou Dunasser) التي يرد ذكرها في تاريخ الخلفاء، ويعيش فيها القليل من السكان، لكنها مكان اقامة سنجاق يتسلم مهامه من والي ماردين، كما نرى فيها خمس مآذن قديمة، ونشاهد ديراً قديماً مهدماً على جبل قرب غنصر.

يقال ان هناك تلة قرب غنصر، نجد عليها احياناً قطعاً نقدية قديمة وأحجاراً محفورة، وقد يكون هذا الامر صحيحاً، لكن مسيحيي المنطقة يتحدثون ايضاً عن كنوز مخيفة، يصدقون فعلاً هذا الامر، لذا سأورد للقارىء قصتين يروونهما. يقال ان فلاحاً كان يلحق ببقرته في الصحراء، فرآها تتوجه نحو تلة فتبعها، ورأى هناك غرفة كبيرة مليئة بالذهب والاحجار الكريمة، لكنه لم يتمكن من لمس ايّ شيء فيها واكتفى بإعادة البقر، ولم يتمكن بعدها من ايجاد الكهف مرة اخرى. ورأى شخص آخر في المنطقة الجبلية قرب ماردين غرفة مفتوحة في صخرة، فدخلها ورأى

شخصين جالسين وأمامهما كنز كبير من الذهب والاحجار الكريمة، وأعطاه احدهما بعض الكحل وطلب منه فرك عينيه به، ففعل وأصبح اعمى ولم يشفَ يوماً.

طلبت اسماء القرى والمدن الواقعة على الطريق بين الموصل ونصيبين عبر الجزيرة، من أناس قاموا غالباً بهذه الرحلة، وسجلّت هذه الاسماء على خارطة سيري. الجزيرة أو جزيرة ابن عمر (Dsjesiret el Ommera) هي مدينة صغيرة على دجلة، تحكمها منذ سنوات عائلة بحطان (Buchtan) الكردية، ويسمى زعيمها امير أو بيك، وتقع الاراضي التابعة لها والتي تضم حوالي ٤٠ إلى ٥٠ قرية بين الموصل، والعمادية ديار بكر وماردين. وكان باشا ديار بكر يثبت الامير في الحكم لأنه اقوى جيرانه، لكن منذ ان اصبحت ماردين تابعة لبغداد، يتدخل باشا هذه الاخيرة في حكم الجزيرة. حالياً، يتصارع أخوان من عائلة بحطان على الحكم، فيساعد الباشاوات واحدهما ضد الاخر بحسب المبلغ الذي يدفعه، فتنهار المنطقة يوماً بعد يوم. ويستخدم الباشاوات عادة هذه السياسة مع العائلات التي يحق لها الحكم في الاقاليم الصغيرة استناداً إلى نسبها، ومع البدو أيضاً(*). يحاولون دائماً زرع الخلافات بين العائلات الحاكمة. فيستفيدون مادياً ويمنعون هذه العائلات من ان تصبح ثرية وقوية بعدم ابقائها طويلاً في الحكم، كما لا يهتمون ان أفلست مناطق السلطان وانهارت.

اما غالبية سكان جبل مدياد (Midiad) أو جبل طور فمن الاكراد واليزيديين، ولا يهتم هؤلاء بالحاكم التركي المجاور ولا يدفعون له أي جزية. وأهم العائلات الكردية التي تتولى الحكم هنا هي دجوري (Dakschorie)، بطقية (Butakie)، اشتية (Aschetie) ومهلمية (M'hallemie)، وتخضع لهذه الاخيرة حوالي ٥٠ قرية، وفي حين ان معظم العائلات الكردية حافظت على لغتها خارج البلاد، نلاحظ ان هذه العائلة اعتمدت اللغة العربية. ولم اسمع سوى بقبيلة شلقية (Tshallkie) من بين القبائل اليزيدية التي تعيش هنا.

يقال ان هناك منطقة صغيرة تدعى طور، شمالي الجبل، يعيش فيها اليعقوبيون، ولهم فيها مطرانهم الخاص المستقل عن مطارنة ديار بكر اليعقوبيين، فضلاً عنه لا يطلب فرماناً من السلطان كمطران من النسطوريين في حكريه (Hakkerie) في الكردستان. ويقيم هذا المطران في دير مدياد على جبل عال للغاية، ويقوم على سفح الجبل دير آخر في قرية معرين (Maarin)، ونجد بالقرب منها قرية تدعى قصر مربية (Kasr Marbaba) أو مربام (Marabaem) وفيها دير يحمل اسم دير السيدة (Dar Esseide) وينقل اليه اليعقوبيون موتاهم من على بعد خمسة ايام سفر ويقدّمون للدير

(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

البغل الذي حمل رفات الميت. ويحمل المرضى إلى دير مار ملكي، ويزعمون انهم يشفون بفضل صلوات رهبان هذا الدير. هناك حوالي سبعين ديراً مهدماً على هذا الجبل بشكل عام، ويتحدث اليعقوبيون كثيراً عن الآثار الرائعة في المنطقة، منها اديرة ومنها قرى ومدن، وأشك بأنها تستحق ان يزورها الاوروبيون بسبب هندستها المعمارية.

وشاهدنا، جنوب الدرب الذي سلكناه جبل سنجار(*)، ويقع في سهل خصب للغاية، هواؤه عليل وصحي للغاية، وتكثر في المنطقة الفواكه الشهية، لا سيّما تين سنجار الشهير. وكان لهذا الجبل في زمن الخلفاء صاحبه الخاص (أمير مسلم) الذي يقيم على سفحه، على بعد يومي سفر من الموصل، كما نجد، ضمن المنطقة التابعة له، مدينتين أخريين كبيرتين، لكنهما مهدمتان، فلا نصادف اليوم على جبل سنجار كله سوى قرى بائسة. وفي حين كان معظم السكان في زمن الخلفاء من المسيحيين، يتبع معظمهم حالياً ديانة اليزيديين والبقية ديانة المسلمين، ولا يدفعون اي جزية كما يسطون على القوافل الصغيرة.

وبما ان المنطقة قريبة من الموصل، تختلف درجة وقاحة اللصوص باختلاف الباشا، فإن كان جندياً ماهراً، ينقضّ عليهم فجأة، ويأسر الرجال والنساء والاطفال ويبيعهم كعبيد، ثم يحرق القمح في حقولهم على سفح الجبل، ولا يسمح لهم ببيع اي شيء في المدينة ما لم يدفعوا أو يعدوا بتحسين طريقة تصرفهم.

ولم يتمكن باشا بغداد من لجمهم يوماً، فما ان يعلم اليزيديون ان الجيش يتحرك حتى ينسحبوا إلى الجبال حيث لا يجرؤ الاتراك على ملاحقتهم.

وأهم قبائل أو عائلات جبل سنجار هي كابارية، شنانية، جنوية، حركيه وذنيدي. وتتبع اول عائلتين الديانة الإسلامية اما الاخريات فاليزيدية، وتتميز هذه العائلات بأنها تترك شعرها ليصبح طويلاً جداً، وتقيم كلها في قرى. ونجد عند سفح الجبل، في السهل، العديد من القبائل اليزيدية التي تقيم في الخيام وتعيش من المواشي كالبدو.

أما أبرز قبائل الاكراد التي تهيم في هذه المناطق مع خيامها، وتدفع جزية لوالي ماردين فهي كيكي (Kiki)، وميلي (Milli)، وساجلي (Sadjseli)، ومزيان (Musesjan). ولا نصادف هنا من البدو سوى قبيلة طيّ، وهي قبيلة كبيرة، ويتلقى الشيخ الحاكم فيها بصفته بيك (منطقة خصبة بحد ذاتها، لكنها جرداء حالياً) ذنب حصان من والي ماردين(**).

(*) يبدو انه جبل سنغارا (Singara) الذي ذكره الكتاب اليونان، كما يبدو الاسم مشابهاً لسينار (Sinear) الوارد في الكتاب المقدس.

(**) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

وسيوّد علماء الجغرافيا معرفة ما اذا كانت المدن، التي اتى على ذكرها المؤرخون القدامى، لا تزال موجودة حالياً أو انها تهدمت كلياً، سأورد اسماء مناطق لم أزرها بنفسي، بل اخذتها عن أناس ربما لم يزوروها أيضاً.

رأس العين، وتقع على بعد ١٢ أو ١٤ فرسخاً إلى الجنوب الغربي من ماردين، وعلى منبع نهر الخابور، وهي مدينة مهدمة كلياً.

ويران شهر، مدينة مهدمة، تقع بين ماردين واورفة.

حسن كيف (Hassan Kaif)، وهي مدينة اشتهرت في الماضي، ولا تتعدى اليوم كونها مكاناً صغيراً على دجلة، على بعد ١٦ فرسخاً من ماردين.

ونجد إلى غرب سنجار وفي بحيرة، جزيرة صغيرة يسكنها العرب، وتدعى خاتونية. تتصل باليابسة بسد ضيّق للغاية، ونجد عليها هرماً بني بطريقة متينة ويستحق زيارة المسافرين(*).

تل عفر، وتقع جنوب جبل سنجار، وتدفع هذه المنطقة وخاتونية سنوياً جزية معينة لشيخ قبيلة طيّ العربية.

يقال ان هناك طريق تؤدي مباشرة من جبل سنجار إلى القدس، وتكثر عليها الخانات التي يبعد الواحد منها عن الاخر مسافة يوم سفر واحد. ويزعمون ان بقايا هذه الابنية العامة المخصصة للمسافرين لا زالت واضحة، لكن وفقاً للتقارير تهدمت القرى الواقعة في هذه المنطقة الخصبة كلياً. ويناسب هذا الطريق مسيحيي الموصل وماردين الذين يؤدون فريضة الحج إلى القدس، والذين يضطرون إلى المرور بحلب ودمشق، أو الانتقال إلى الاسكندرون ومنها إلى يافا بحراً، لكنه نُسي تماماً، حتى اقترح عربي منذ سنوات على مسيحي من ماردين، لم يتمكن من اللحاق بغيره من الحجاج، أن يوصله عبر هذا الدرب، ويقال ان هذا المسيحي وصل بعد ثمانية ايام.

اكد لي عرب من قبيلة طي انه، على مسافة يومين من الموصل وعلى طريق عنّة (Ana) (مدينة على الفرات)، هناك بقايا مدينة كبيرة وهي الحضر (El Hoddur)، وتحتها كمية من الجثث المتحجرة(**). ويدعون انهم شاهدوا مفتين وقضاة وغيرهم، باختصار رجالاً ونساءً واطفالاً تحجروا، وفقاً لأقوالهم، في ليلة واحدة، ولا عجب في أن يخطىء بدوي يمضي حياته في الصحراء ولا يملك ادنى فكرة عن اعمال النحت لأنه لم يرها يوماً، كما انه قد لا يعرف المفتي والقاضي بل

(*) سمع اوتار (Otter) ايضاً بهرم في هذه البلاد، لكنه لم يره هو ايضاً بأم عينه.

(**) لعلها آثار هترا.

سمع عنهما وبالتالي ظنّ ان التماثيل الحجرية ما هي الا اشخاص تحجروا. ولعل هناك فعلاً بقايا مدينة وتماثيل تستحق أن يدرسها اوروبي يقوم برحلة من الموصل، وعلمت لاحقاً في حلب ان اوروبياً، عائداً من الهند، أكّد لمواطنيه المقيمين في المدينة انه رأى بنفسه بقايا مدينة في الصحراء تحجر سكانها كلهم في ليلة واحدة. وأظهر أحد مواطنيه، اذ لم يصدق ما تقدم به الرجل، رغبة في رؤية المكان، فإن تجمد الكل في ليلة واحدة، لا بد ان يقع على نساء ورجال في اوضاع فريدة، على حدّ قوله ولم يتمكن المسافر من التراجع عن اقواله وإلا اعتبر كاذباً، فأقسم انه بالفعل صادف وضعيات مماثلة، وأكد بالتالي ما رواه لي العرب.

تقع مدينة ماردين في أعلى جبل شاهق ووعر شيئاً ما، على ارتفاع القطب ٣٧° و١٩´ ، وكانت في ما مضى حصناً مشهوراً، لكن لا نجد حالياً إلا بقايا من سور المدينة بعد ان تهدمت القلعة كلياً. وكانت هذه الاخيرة تقع على صخرة عالية ووعرة تشرف على المدينة، وهي طويلة وضيقة، ويعتبر الطرف الشمالي منها اكثر ارتفاعاً وتحصيناً من غيره لأن الدرب المؤدي اليه ضيق، تحفّ به بقايا أبراج. وقد حفر الدرب المؤدي إلى القلعة الرئيسة جزئياً في الصخر، ونجد حتى اليوم عند مدخلها باباً فضلاً عن بعض التماثيل المحفورة في الحجر من زمن المسيحيين. وتكمن مناعة هذه القلعة في أن الصخرة شبه عامودية، زد على ذلك، أنها محاطة بسور من الاعلى، والمنازل المبنية حول اكثر من نصف الصخرة متراصة ومتلاصقة. ونجد في المنطقة آباراً، لكن يقوم الاهالي بجمع مياه الامطار في خزانات كبيرة اثناء فصل الربيع. حين يود سكان ماردين وصف مناعة قلعتهم، يروون ان تيمورلنك حاصرها طويلاً، وتمكن من اكل التين والعنب من اشجار زرعها على تلال في أسفل المدينة، ثم اضطر إلى فك الحصار. لكن هذه الطريقة التي يعتمدها الشرقيون في الروايات تدخل في باب الكناية ولا تعني سوى ان القلعة تعرضت للحصار لوقت طويل، لأن التتري يمكن ان يطيب له اكل التين والعنب المزروع، لكن لا أظن انه فكر يوماً اثناء حصار ما بزرع الاشجار. وقد استولى على المدينة ودمرها، ونجد هنا قلعتين اخريين هما طورخان قلشي (Tarchan Kalsi) وقلعة المرا (Kalla el marra)، وتقع الاولى في حرم سور المدينة، والثانية على جبل منفصل وقد تهدمتا كلياً.

يتكون الجبل الذي تقوم عليه ماردين من حجر كلسي لين، يسهل استخدامه، وقد بقيت معظم المنازل لهذا السبب من الحجارة المصقولة وبشكل مقبب، وتعلو احداها الاخرى، لأن الارض التي بنيت عليها المدينة منحنية للغاية، فتشكل سطوح بعض المنازل وبعض الشوارع فناء للمنازل التي تعلوها، كما تشكل هذه السطوح في بعض الاماكن الشارع بحد ذاته. وتطل المنازل كلها على سهل بلاد ما بين النهرين الواسع والخصب. كان في القلعة ٢٠٠ منزل، أما اليوم فلا يتعدى

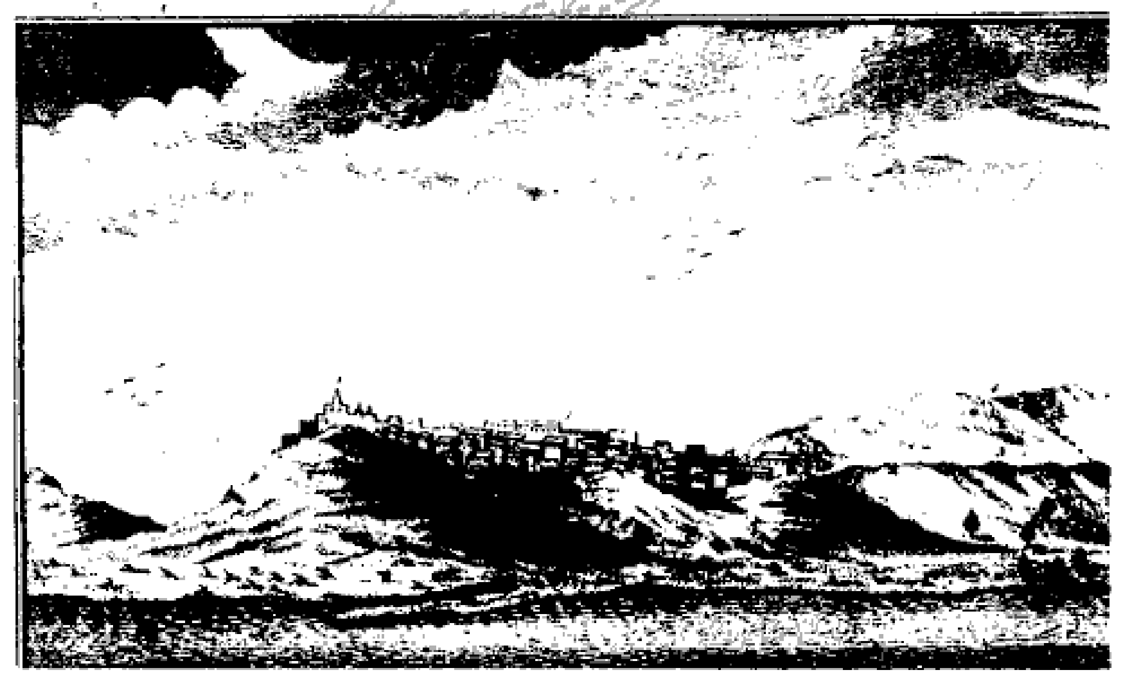
عدد السكان الثمانين نسمة، ولا يتجاوز عدد المنازل في المدينة والقلعة الثلاثة آلاف(*). ويقيم في حوالي الفي منزل مسلمون من أهل السنة، وفي المنازل الباقية مسيحيون، كما نجد في المدينة قرابة العشر عائلات يهودية. ويملك المسلمون عشرة جوامع، فضلاً عن المساجد الصغيرة، بعضها قديم وجميل البناء، تعلو اثنين منها فقط مئذنتان، ونجد في المدينة ايضاً مدرسة تمتد على مساحة واسعة، وتحمل اسم مؤسسها وحازم بادشاه الفقي (Khassem Padischa Takkie)، الذي تتلقى منه سنوياً عشرة آلاف قرش بغية اعالة بعض الاشخاص فيها والتي اضحت مهامهم وراثية، لكن يتوجب عليهم الحصول على تثبيت في مهامهم من القسطنطينية. ويعتبر المتولي الذي يهتم بحسابات الطائي، والذي يشير على الموظفين الاخرين من أين يحصلون على رواتبهم، إما من الاراضي واما من المنازل، الموظف الرئيس في هذا المسجد. وهناك اربعة مدرّسين فضلاً عن إمام يصلي للشعب وآخر يصلي للسلطان، ومؤذن يدعو الناس إلى الصلاة، وآخر يهتم بالسجاد المستخدم للصلاة، وسرقجي (Sarukdsja) تقتصر مهمته على وضع عمامة نظيفة كل يوم جمعة على حجر عال فوق قبر حازم بادشه، وبواب، وعمال ينظفون الثلج في الشتاء (وهؤلاء هم من المسيحيين)، وكيّال يوزع المؤن، وطبّاخ، وبستاني، وعامل تنظيفات ويتلقى الطلاب اسبوعياً مبلغاً معيناً، لكنهم لا يكلّفون حالياً الكثر لأن المدرّسين يفتقرون إلى مستمعين. ونجد خارج ماردين بعض التكايا التي يستحيل العيش فيها، لكنها تتلقى مردوداً تطلبه من مدرسة في القسطنطينية، وتعطى الافضلية في هذه التكية لابن موظف متوفى على الغريب. ويتبع مفتي ماردين المذهب الحنفي، ويعيّنه في منصبه مفتي القسطنطينية، أما القاضي فيعينه قاضي ديار بكر.

رسمت المنظر العام لماردين الواقعة على جبل وعر على اللوحة XLVII، وستعطي هذه الصورة للقارىء فكرة عن موقع المدينة، سيّما وأن وضع خارطة لها أمر صعب للغاية. نجد قرب الرقم ١، القلعة الرئيسة، وقرب الرقم ٢ المنطقة التي خيّم فيها تيمورلنك، وفيها حالياً بساتين فاكهة رائعة، قرب الرقم ٣ قلعة قلشي، ٤ قلعة المرا، ٥ بقايا كنيسة كبيرة هي كنيسة مار يوحنا، ٦ دير صفران (Dar Safferan)، محل اقامة مطران يعقوبي ويقع في منطقة جميلة، على بعد فرسخ من المدينة. ونجد في ماردين عدداً كبيراً من الكتابات بالعربية الحديثة، ومعظمها للصحابة الذين حكموا البلاد، واذا ما اراد احد ما ان يكتب تاريخ هذه المدينة، بمكنه ان يستفيد من هذه الكتابات، ولأني وجدت السكّان مشككين ولأن الرهبان الاوروبيين المقيمين في المدينة لم ينظروا بعين الرضا إلى عمل كهذا، لم أنسخ ايّ من هذه الكتابات.

(*) اكد لي احدهم ان عدد السكان في ماردين تجاوز الستين الف نسمة، لكن يبدو لي هذا الرقم مبالغ فيه.



Gezigt der Stad Merdin. | Vue de la Ville de Merdin.



تتمتع ماردين بهواء عليل وصحي، وبما أنها تقع على مرتفع، يبقى صيفها معتدلاً وشتاؤها بارداً إلى حدّ ما. وحين يشتد البرد، ولا يتمكن السكان من اتقائه بفروياتهم، يشعلون، كما في مناطق أخرى في الشرق، الفحم في وعاء مليء بالرماد ويسمى تنور، أو يشعلون الحطب في مدفأة يسمونها «كانون» أو «جاق». وتتدفأ النساء هنا، كما في مناطق اخرى من تركيا، بنار يضعونها تحت طاولة غير مرتفعة، يغطيها بساط، يشدّونه على أقدامهن، بعد ان يجلسن متربعات حول الطاولة. وتعتبر هذه الطريقة في تدفئة المنازل عملية للغاية واقتصادية لكنها خطرة ايضاً، لأن الارض حيث يوضع الاناء الذي يحمل النار، والطاولة التي تعلوه مغطيان بالبسط والسجاد مما يسبب الكثير من الحرائق. وعندما يكثر تساقط الامطار في فصل الربيع يتوقع اهالي ماردين محصولاً غنياً، ومن اواسط شهر أيار/مايو وحتى تشرين الأول/أكتوبر، لا تهطل الامطار وينام السكان في الهواء الطلق ليلاً. تكثر المياه العذبة في هذه المنطقة، ونجد قرب المدينة وفي الجهة الاخرى للجبل الكثير من البساتين المثمرة، سيما العنب والاجاص والتفاح والفستق الحلبي والبندق الخ، الخ. وتشتهر ماردين بخوخها الذي ترسل كميات منه سنوياً إلى بلاط السلطان. ويكثر الكرز البري في هذه المناطق، وتزدهر تجارة خشبه في البصرة وحلب، ويتاجر السكان بالزبيب لكثرة الكروم، كما أن اسعار النبيذ والكحول منخفضة بين مسيحيي المنطقة. أشرت في وصف شبه الجزيرة العربية، إلى أنّ المن يجمع بكميات كبيرة هنا، ويعمل السكان في زراعة الحنطة والشعير، كما نرى الكثير من المراعي الرائعة في سهول بلاد ما بين النهرين، ويشتري اللحم اللذيذ بأسعار بخسة. ونجد في المدينة العديد من المصانع الجيدة، لا سيّما للكتان والقطن، فضلاً عن مصنع للزجاج، وبشكل عام تشهد التجارة مع المدن المجاورة ازدهاراً كبيراً.

أشرت سابقاً إلى أن والي ماردين يحمل لقب ويوده، وكان السلطان يعيّنه فيما مضى، لكنه حالياً يستلم مهامه من باشا بغداد، ويقال ان عدد القرى في منطقة بلاد ما بين النهرين الخاضعة لهذا الحاكم بلغ في ما مضى ١٦٠٠ قرية، بقي منها حالياً ١٥٠٠ قرية وأظن ان الرقم مبالغ به. ويبلغ عدد القرى في المناطق الجبلية ٢٠٠ قرية، ويقال ان السلطان يقبض سنوياً ١٠٠ كيس نقود (٣٣٣٣٣ درهم) من هذا الحاكم، فضلاً عن ٢٧ كيس نقود (٩٠٠٠ درهم) كجزية من المسيحيين واليهود، لكن باشا بغداد يحتفظ لنفسه بمئتي كيس نقود بعد احتساب النفقات.

ويخضع لويوده ماردين عدد من الآغاوات، والشوكادار وغيرهم من الضباط كما لو انه باشا، فضلاً عن أربعة بيارق مشاة، يتألف كل منها من ١٢٠ رجلاً. ولكل بيرق بولكباشي (Balukbaschi) واوزباشي (Odesbasgi) وشوس (Tschaus) وبيرقدار، كلهم تحت أمرة تفنكجي باشي (Taffenkschi). وتخضع الخيالة لأمرة باش آغا، وتقسم إلى بيارق، ويحمل الضباط الالقاب

نفسها كضباط المشاة. يستخدم الويوده جيشه لقتال العرب والاكراد واليزيديين الذين يتجولون على اراضيه، وعندما لا تكفيه القوى المتوفرة يقوم بتجنيد غيرها، ويجد العديد من الناس المستعدين للحاق بالجيش لكسب بعض الغنائم اذ ان الجمال والاغنام والابقار التي يأخذونها من قبائل البدو أو من السكان المتمردين تصبح ملكاً للويوده، في حين ان الخيول وغيرها من الغنائم تقسّم على الرجال.

يدفع السلطان أجور حامية القلعة، وهي تخضع لأمرة دسدار (Desdar) الذي يخضع له عدد من الضباط. وتسمى ميليشيا المدينة «عزب»و هي تابعة للسلطان، وتحمل طبلاً كبيراً، في حين أن رجال الويوده لا يحملون سوى دفوف نحاسية.

ويملك الارمن الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن الكلدانيين (اليعقوبيون والنسطوريون الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية) كنيسة خاصة بهم في ماردين، وتتميز كنيسة الفريق الاول بجمالها. كما يملك اليعقوبيون ثلاث كنائس، واحدة داخل المدينة واثنتين خارجها، ويملك المطران على بعد فرسخ من المدينة، وفي منطقة جميلة، ديراً تحدثت عنه سابقاً لكنه معظم الوقت في المدينة. ويعتبر الشمسيون (Schemise) من اتباع اليعقوبيين، ويبدو ان هؤلاء حافظوا على ديانتهم التي كانت منتشرة بين المسلمين وبين المسيحيين، وأكّد لي رجل عجوز، أنه في شبابه عرف عدة قرى في المنطقة الجبلية تتبع هذه الديانة. ويظنون ان هذه الديانة اختفت من القرى، لكن نجد في ماردين مئة عائلة من اتباعها في حيين مختلفين، وكان اتباع هذه الديانة، منذ سنوات، يشكلون مجموعة مستقلة بذاتها، لكن السلطان مصطفى أراد إجبار المسيحيين واليهود في مملكته على اعتناق الدين الإسلامي أو مغادرة البلاد، وبما ان الاعيان، وحتى المفتي نفسه، رفضوا الخضوع لهذا الامر لأن محمد نفسه منح المسيحيين واليهود حمايته لقاء جزية سنوية يدفعونها. ولإرضاء الحاكم، صدر امر بألاّ يقيم في البلاد إلاّ أهل الكتاب أي المسلمون والمسيحيون واليهود. أما اليزيديون والدروز والنصيريون واتباع الديانات الاخرى الذين يقيمون في المناطق الجبلية والذين يخضعون لأمرائهم وشيوخهم فلم يكترثوا لهذا الامر، في حين ان الشمسيين كانوا ضعفاء ويقيمون في المدن حيث يراقبهم القاضي المسلم، فخضعوا لمطران اليعقوبيين في ديار بكر. واصبحوا يعتبرون انفسهم مسيحيين ويتزيون بزيّهم. وتقتصر مسيحيتهم على اللباس وعلى تنصير اولادهم، وقلما نجدهم في الكنيسة باستثناء زوج منهم يرسلونه كي لا يتهموا بعدم ارتياد الكنيسة، كما يستدعون كاهناً يعقوبياً لحضور دفن موتاهم، لكنه لا يدخل المنزل قبل اقفال التابوت، فيتبع الجنازة إلى مدافنهم. باختصار، يعيش هؤلاء بعيداً عن المجموعات الاخرى، ولا يتزوجون حتى من اليعقوبيين. لم أتمكن من معرفة ايّ شيء ايجابي حول مبادىء دينهم، وقال لي المسيحيون في

ماردين انهم يبنون ابواب منازلهم الرئيسية عند شروق الشمس، وانهم ينظرون باتجاه الشمس عند اداء صلاتهم، وانهم يحلقون شعور موتاهم ويضعون في افواههم دوقيتين. وعند الزواج، يبارك كاهن يعقوبي الزوج والزوجة، لكنهما يقادان عبر الشوارع، ويقال انها العادة المتبعة كي يمرا امام حجر كبير معين يعتبرونه مقدساً ويظهرون له الكثير من الاجلال.



الرحلة من ماردين إلى حلب عبر ديار بكر

في ١٠ أيار/مايو صباحاً، غادرت ماردين مع قافلة صغيرة، وتوجهت نحو ديار بكر، وتبلغ المسافة بين هاتين المدينتين حوالي ١١ ميلاً نحو الشمال مباشرة، ويمكن قطعها بسهولة في يومين، لكن المراعي الخصبة والرائعة أغرت اصحاب الدواب فتركوها ترعى، وسافرنا ببطء فوصلنا ديار بكر في ١٢ أيار/مايو صباحاً. اما الدرب فصعب وجبلي، والمناطق المحيطة غير مزروعة لقلة السكان فيها، ولا يستفاد من الينابيع المتدفقة التي يمكن ان تجعل البلاد خصبة وغنية، إنما نرى في أماكن عدة كروماً مهملة مما يدعو إلى الاعتقاد بأن المنطقة عرفت في ما مضى زراعة افضل من اليوم، ثم اجتزنا غابة سنديان صغيرة يستخرج منها المن بغزارة وصلنا إلى شيخ خان، وهي قرية يسكنها الاكراد شتاءً فقط، لأنهم يتجولون مع خيامهم صيفاً، وتقع في وادٍ كبير وخصب. وقد أخذت اسمها من خان حفر كلياً في الصخر، وكلّف من دون شك مبالغ طائلة، لكنه ليس بجميل أو بمريح لا سيّما وأنه لا ينظف ابداً، وهو عبارة عن اسطبل للخيول، حفرت في جدرانه كوّات تستخدم كغرف للمسافرين. وهدمت القلعة، التي بناها السلطان مراد حين قام بحملته الشهيرة على بغداد، منذ فترة طويلة.

ولم اشاهد اثاراً تلفت الانتباه على هذه الطريق، سوى قصر زرزاوا (Kasr Zerzaua)، وهو قلعة بنيت على قمة جبل، انما مهجورة كلياً(*)، وقد نصبنا الخيام فيها قبيل الظهر. وبالرغم من الحرارة، تسلقت الجبل آملاً ان أقع على بعض المباني الاثرية الجميلة تحت البقايا التي رأيناها من بعيد، لكني لم أجد سوى جدران المباني المنهارة المبنية من الحجارة الكبيرة، وحتى انّ الطوابق السفلية لبعض المنازل حفرت في الصخر. ووجدت بعض واجهات المنازل المقرّنة مما يؤكد ان سكان هذه المنطقة عرفوا في الماضي السطوح المائلة كما في اوروبا، ولم اكتشف أيّ كتابات هنا. ولا يعرف احد هنا متى هدمت القلعة ومتى بنيت. لكن يبدو من البقايا أنها قديمة للغاية، إذ ان الحجارة صلبة جداً، بالرغم من أنها تعرضت للعوامل الطبيعية، ويقال ان سيداً اقام فيها، وقد اعتاد ان يطالب المسافرين برسوم المرور، وبالضرائب، وغالباً ما سطا عليهم.

ويقع الدير الذي يطلق عليه الارمن اسم دير رباط (Dar Rabat)، والاتراك اسم قرة قليف

(*) يقال ان في ديار بكر اثار تحمل اسم المدك، لكن لا اعلم ان كانت غير قصر زرزاوا.

(Kara Klife) (الكنيسة السوداء) بالقرب من الطريق، عند قرية سرتانل (Surtanel)، وقد بني من الحجارة المصقولة، ويقال ان له ابواباً عدة من هذا الحجر(*)، ويعيش في الدير مطران وكاهن والشيطان. ويروى، تصدّق عامة الشعب من الارمن هذه الرواية كإنجيلهم، أن مطراناً من هذه البلاد، حكم على الشيطان، الذي طرده من جسد احد الاشخاص، بأن يكنس كل ليلة الدير بأكمله، وبأن يزيل الاوساخ، ويؤكدون ان الكنيسة، ومساكن الكهنة، والمطبخ تبدو نظيفة كل صباح منذ ذاك الوقت. ويدرّ الشيطان على رجال الدين الربح، اذ يجعل من بعض المسافرين شهوداً لهذه المعجزة فيقدم هؤلاء الهدايا للدير. وقد علمت بالامر متأخراً، ولم اشارك رفاقي، لا سيما واني لا اعتقد ان هذا الشيطان سيجعلني لاحقاً في مأمن من اللصوص، وإلاّ لوددت رؤية دير رباط.

ويصبح الدرب قرب ديار بكر سيخاً نوعاً ما. ونصادف العديد من الانهار الصغيرة، تعلوها جسور جميلة، مبنية من حجر اسود صلب. وقد رصف جزء من الدرب امامها. اما اسماء القرى الذي نمرّ بها في هذه المنطقة، فسجلتها على خارطة سيري، على اللوحة L.

زوّدني راهب كرملي من ماردين، برسائل توصية للرهبان الكبوشيين في ديار بكر، وأكّد لي أنهم سيستقبلونني على الرحب والسعة، وعند وصولي إلى المدينة، توجهت إلى ديرهم مباشرة، فاستقبلوني بتهذيب فائق، ويعتمد هؤلاء اساساً على راهب واحد، وهو رجل مثقف وطبيب ماهر، يحبه الاعيان في المدينة، حتى ان رفاقه يغارون منه. وعرفني هذا الراهب على كبار التجار المسيحيين، فأمضيت وقتي في المدينة بين الدير وبين مسيحيي البلاد، وتمكنت من القيام بدراساتي بالرغم من أن المسلمين هنا ليسوا بتهذيب ابناء دينهم في ماردين والموصل ازاء المسيحيين.

واسم ديار بكر ليس بالاسم القديم، فقد عرفت المدينة في ما مضى باسم آمد (Amid)، ويستخدم هذا الاسم حالياً في العقود والوثائق التركية.

وتقع هذه المدينة على الضفة الغربية لدجلة، وتمتد على مساحة صخرة وعرة للغاية من جهة النهر (راجعوا الخارطة، اللوحة XLVIII)، ويحيط بها سور عال من الحجارة السوداء والصلبة لذا يسميها الاتراك قرة آمد (آمد الاسود) ويتخلل السور معاقل عدة أو ابراج كبيرة توضع فيها المدافع، فضلاً عن اربعة ابواب: ١) ينجي قبوسي (Jeugi Kapusi)، ٢) ماردين قبوسي ٣) اروم قبوسي

(*) علمت في الهند، ان للمعابد القديمة المحفورة في الصخور ابواباً حجرية، محفورة احياناً بإتقان بالغ على شكل شبابيك. وفي قبور ملوك القدس المزعومة ابواب حجرية، وسأشير الى ذلك لاحقاً.

(Orum) و٤) داغ قبوسي (Dag). ويحيط بالقلعة (أ A)، من جهة المدينة سور عظيم، كذلك المحيط بالمدينة نفسها، لكن المنازل من جهة النهر تقع على حافة الصخرة الوعرة للغاية. وكان للقلعة ثلاثة أبواب، لكن اوغروم قبوسي (Ogrum Kapusi) قرب الرقم ٥ مسدود، ويحافظ على دمير قبوسي (Damer Kapusi) قرب الرقم ٦ مقفلاً، وبالتالي لم يبق سوى باب وحيد هو باب المدينة. ويقيم باشا المنطقة، والذي يملك ثلاثة أطواق، في القلعة، فيما اقام اصحاب المدينة أو الامراء المسلمون في قصر على التلة، لم يبق منه سوى حائط الاساس. وتستخدم هذه التلة حالياً كمربض اذ وجدت عليها بعض المدافع الموضوعة بين الاعشاب، ومن دون مرقب، ويمكن رؤية المدينة بأكملها من هذا المكان. ويبلغ عدد المآذن في المدينة ١٦ مئذنة، معظمها مستدير الشكل كما في المدن الاخرى، وبعضها مربع، ويؤكد المسيحيون انها كانت اجراس كنائس لكن المسلمين انتزعوها، وهذا الامر محتمل بالرغم من اني رأيت بنفسي كتابة عربية تعود للعام ٥٥٠ على إحدى هذه المآذن، ولعل هذه الكتابة تعود إلى مرمم المئذنة. ولا بد أن المسجد الرئيس، وهو مبنى رائع، كان في الماضي كنيسة المسيحيين الاساسية، ولم أتمكن من زيارته لأن المسيحيين لا يتجرأون على الاقتراب من الساحة الخارجية المحيطة به. يبلغ ارتفاع القطب في ديار بكر ٣٧° و٥٥َ .

يصعب بل يستحيل الحصول على معلومات دقيقة حول سكان المدن الشرقية، اذ لا يتكبد المسيحيون أو المسلمون عناء احصائهم، ويستغربون حين يسألهم اوروبي عن عدد السكان في مدينتهم، وتأتي اجابتهم الاولى أنّ المدينة عالم بحد ذاته، وحين يضطرون إلى الدخول في التفاصيل، يجعلون سكانها مئات الالاف، واحياناً مليون نسمة حيث لا أفترض وجود اكثر من مئة ألف. وتبقى أفضل طريقة لحساب عدد السكان في المدن الشرقية، وضع خرائط لها، ويتبين أن اكثر المدن اكتظاظاً بالسكان كالقسطنطينية والقاهرة ودمشق وحلب وديار بكر والموصل وبغداد، لا يتعدى عدد سكانها عددهم في المدن الاوروبية التي تشهد ازدحاماً سكانياً. وليقابل من يهمه معرفة عدد سكان ديار بكر الخارطة التي وضعتها للمدينة مع خارطة مدينة اوروبية ويستنتج بالتالي عددهم.

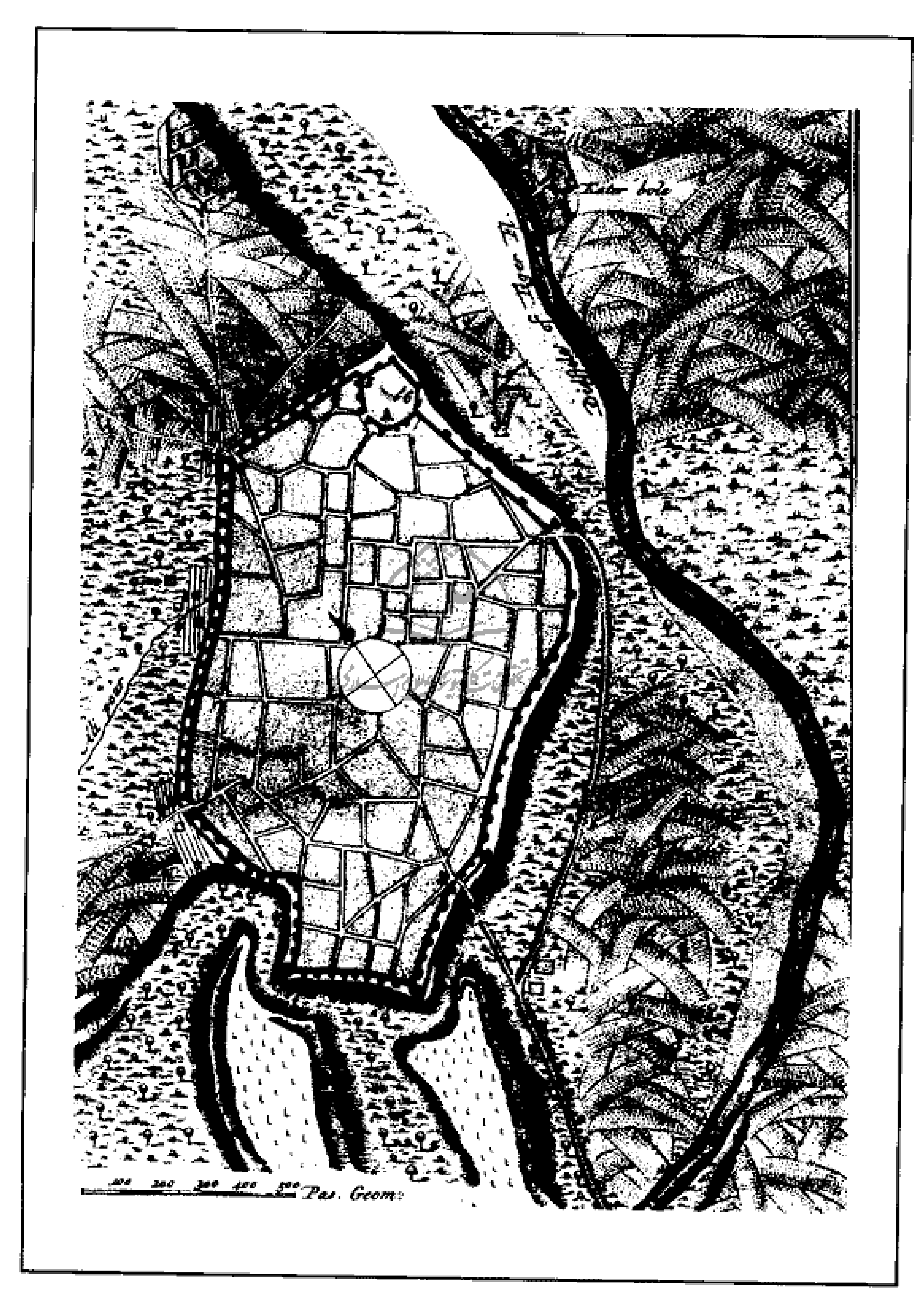
تكثر المنازل داخل حرم المدينة، وكانت هذه الاخيرة تعج بالسكان قبل المجاعة منذ تسع سنوات، لكن معظم مساكنها خالية حالياً. ويبلغ عدد المنازل المسكونة حوالي ١٦٠٠٠ منزل، يقيم في ربعها مسيحيون. وتتميز منازل المدينة بسطوحها المصقولة، والطابق العلوي من الطين. ولاحظت ان قبب بعض المساجد والخان الكبير مغطاة بالرصاص، وهذا لم أره في البصرة وحتى هنا، لكنه امر شائع في سوريا والاناضول. كما تتميز بشوارعها المرصوفة وبنظافتها النسبية، ومياهها

الغزيرة من نهر علي بوار (Ali Poar) ومن الينابيع. قرب الرقم ٧ خارج المدينة، نجد حفراً لجمع الثلوج، وقرب الرقم ٨، ثلاجات كبيرة، اما المدافن المشار اليها بالاحرف التالية LLL LL فكبيرة. ونجد خارج المدينة بساتين مثمرة وكروم، وأراض شاسعة مزروعة، ونرى على مسافة ١٦٠٠ خطوة مزدوجة من ماردين قبوسي جسراً جميلاً على نهر دجلة يقوم على عشر قناطر، وقد بني من الحجر الاسود الصلب. لكن الكتابة الكوفية التي نراها، نقشت على حجر لين وتأثرت بالعوامل الطبيعية، لذا لا يمكن ان نكتشف في أية سنة تمّ بناؤه تبدو هذه الكتابة أقدم من تلك التي نقلتها عن سور المدينة، وبالتالي فإن هذا الجسر على الارجح هو الجسر الذي بني في العام ١٢٤ للهجرة.

إن أبراج المدينة ومعاقلها مستديرة الشكل ومربعة ومثمنة الزوايا، لكنها لم تبنَ في الوقت عينه، وتبدو المربعة منها أقدم من غيرها اذ نقشت عليها كتابات بالاحرف الكوفية. وقد نسخت ثلاث منها على اللوحة XLIX، أما الكتابة الموجودة قرب الحرف (أ A)، فقد نقشت في العام ٤٤٤ للهجرة، ويرد ذكر العام ٤٣٧ في السطر الاخير للكتابة (ب B)، وتقع هذه الكتابة قرب ينجي قبوسي، ويرابط في هذا المكان حارس لأن الفرس استولوا يوماً على المدينة من هذه الجهة، في حين ان الابراج الاخرى تترك من دون حراسة. حفرت معظم الكتابات الكوفية على حجارة بيضاء لينة أو على الطين المشوي في الفرن كما في منطقة بابل، واذ ما وجدنا احداهما على الحجر الذي بني منه سور المدينة، ألفيناها سيئة فلا نتبين سوى أن الحجر صلب بالنسبة للذي حفر هذه الحروف، وأنهم يستخدمون الحجر الابيض لأنه ليّن ويسهل النقش عليه. نجد هنا الكثير من الكتابات، بالأحرف العربية الحديثة، التي اذا ما نسخناها كلها، اعطتنا معلومات وافية عن الامراء المسلمين الذين حكموا البلاد، وقد نقشت بإتقان، لكن الحروف كتبت بفن وبشكل متداخل على طريقة العرب. طلبت من تاجر مسيحي ان ينسخ اثنين من الكتابات بحضوري، لكني لم انشر سوى احداها، لأن الاخرى نسخت بشكل غير واضح وتتخللها اخطاء عدة(*).

يستحيل على المسافر ان يجمع معلومات دقيقة حول ايرادات السلطان من أقاليمه المختلفة،

(*) بسم الله الرحمن الرحيم الملك لله الواحد القهار هذا ما امر بعمله مولانا السلطان الملك الصالح العالم العادل المويد المظفر المنصور محيي العدل ناصر الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين فخر الملوك والسلاطين ملك الامراء نصير الامام مخير الانام الخليفة المعظم فلك المعالي ابو الفتح محمود بن محمد بن قرا ارسلان ابن داود ابن سكمان ابن أرتق نصير امير المؤمنين اعز الله نصره وضاعف اقتداره اللهم ادم عليه انعامك واجعل السعادات الالهية قادمة عليه من كل انحائه من يمينه وشماله ووراءه رحمتك في سنة خمس وستمائة (605).


Pas. Geom:

ولا ينبغي ان يستغرب المرء هذا الامر لأننا في اوروبا حيث يكتب الكثير حول السياسة، لا يمكن ان نحصل على معلومات اكيدة حول مردود احد البلدان. ويملك المسيحيون ارقاماً دقيقة حول الخراج (Charedsch)، ففي ديار بكر، يتلقى مدير عام الضرائب، الذي يحمل لقب ويوده، ايراداته من الضريبة، ويدعون انه يدفع منها سنوياً ٥٥٠٠٠ قرش فضلاً عن ٥٠٠٠ قرش كهدايا لبعض ضباط السلطان في القسطنطينية، كما يتلقى من من يجمع الجزية في مدينة ديار بكر مبلغاً يقدّر بحوالي ١٣٠٠٠ قرش.

ويقيم في ديار بكر بطريركان، احدهما لليعقوبيين، ويسمى ايضاً بطريرك انطاكيا، والاخر لأولئك المسمّون كلدانيين. ويحمل الاول اسم ايناس وهو بطريرك كافة المسيحيين اليعقوبيين أو السريان في الامبراطورية التركية كلها باستثناء سكان جبل طور، وهو الذي يعيّن كاهناً لمسيحيي القديس توما في الهند. ويدعى البطريرك الثاني يوسف، وهو رئيس النسطوريين واليعقوبيين الشرقيين الذين يعترفون بسلطة البابا. اما البطريرك الحالي فهو الرابع الذي يحمل هذا اللقب الرفيع. فمنذ حوالي مئة عام، تشاجر احد الكهنة النسطوريين الكبار مع مطرانه، فقصد روما وأعلن طاعته للبابا الذي اعاده، بموافقة السلطان، إلى ديار بكر وهو يحمل لقب البطريرك الاول للنسطوريين واليعقوبيين التابعين للكنيسة الكاثوليكية في روما، ومنذ ذلك الحين، سمع الشعب ببطريرك للكلدانيين. وبما أن المطارنة الجدد كانوا من النسطوريين، ضعفت سلطة بطريرك القوش، فقد كان احدهم من مواليد تل كهف (Tel Kaf) فاتبع عدد كبير من سكان هذه المنطقة البابا، وازداد عدد هذه الجماعة من مسقط رأس كل بطريرك. واضطر الاخير إلى ترك البلاد لأنه اجبر غالباً على دفع غرامات اذ جعل المسيحيين يتبعون جماعة غير الجماعات الشرقية. ونجد هنا العديد من الارمن، وبعض النسطوريين والقليل من الشمسيين فضلاً عن اليعقوبيين والكلدانيين، وقد التجأ الشميسون، كما في ماردين، إلى جماعة اليعقوبيين، ويعتبر عدد اليهود في المنطقة قليلاً، لكن تبقى الديانة المسيطرة هي الإسلام.

لم استطع الحصول على معلومات وافية حول مختلف سناجق هذه الحكومة، لكن يقال ان ارغانا (Argana)، وشرموك (Tscharmuk)، وبهغاربود (Pahirgaspud)، ومعدان (Moadden)، وجيبان (Gibban) هي اماكن مهمة، وتكثر المناجم في منطقتين منها.

واتيحت لي فرصة السفر إلى حلب مع قافلة صغيرة، غادرت في ١٩ أيار/مايو، يوم عيد الاضحى. ويسافر العرب عادة على طريق سويريك (Suerak) عبر خان شرموك (Chan Tscharmuk)، حيث نصادف قرى عدة ادرجت اسماءها على الخارطة على اللوحة L.

توجهنا نحو الجنوب، ولم نقع على قرى سوى علي بوار (Par) التي لا تبعد عن ديار بكر الا

ربع فرسخ، لكن شاهدنا في أماكن عدة بقايا قرى دمّرها التركمان والاكراد، وربما الحكّام الاتراك، واجتزنا غابة صغيرة في منطقة يرجو اوجوك (Joguoi Ojuk). إن الدرب الذي سلكناه سيىء للغاية، تتخلله حفر هطول الامطار، وتكثر عليه الحجارة، لكن المراعي خصبة لذا اختار المكاريون المرور عبر الصحراء. وصلنا سويريك في ٢٣ أيار/مايو، وتبعد هذه المدينة الصغيرة عن ديار بكر حوالي عشرة أميال، ولزمنا ٢١ ساعة لقطع هذه المسافة.

تقع سويريك في وادٍ، على ارتفاع القطب ٣٧° و٤٦´ ، ويبلغ عدد منازلها حوالي ٢٠٠٠ منزل. يسكن حوالي ١٥٠ منها ارمن. ونجد في المدينة ثلاثة مساجد تعلوها مآذن وثلاثة حمامات عامة، ولا نشاهد فيها اعمال تحصين، انما تلة مرتفعة من التراب، كما في اربيل وكركوك، تعلوها اسس قلعة. ونصادف خارج سويريك العديد من الجنائن الجميلة الغناء والكثير من الكروم، وقد أشرت في وصف شبه الجزيرة العربية إلى مردود الحنطة المرتفع في هذه المنطقة.

يمكن سلوك طرق عدة من سويريك إلى البير، (El bir) وودت التوجه مباشرة إلى اورفة لأنني كنت على مقربة من المدينة القديمة الشهيرة، لكن المكاريين آثروا المرور في منطقة قاحلة واضطررت إلى مرافقتهم حتى ملّة سروا (Mullaserio)، وهي اول قرية نصادفها على هذه الدرب. في ٢٨ أيار/مايو، أرسلت خادمي مع القافلة، وسافرت مع المكاري إلى اورفة التي وصلتها سالماً من دون ان اصادف اي قاطع طريق. وتبعد سويريك عن ملّة سروا حوالي سبعة أميال ونصف، وتبعد هذه الاخيرة عن اورفة خمسة أميال ونصف، وفي اليوم الاخير للمرحلة، عبرت منطقة جميلة تسمى جهبان (Dsjuhban) نسبة إلى قرية تقع فيها، ورأيت أنهراً صغيرة عدة تنمو على ضفافها الحدائق والاشجار.

وبما أن وقتي لا يسمح لي بالتوقف طويلاً في أورفة، سارعت إلى دراسة موقع المدينة ووضع خارطة لها تجدونها على اللوحة LI. ويشبه موقعها إلى حدّ بعيد موقع مدينة تعز في اليمن، لأن القلعة الواقعة في احد جوانب المدينة على تلة، يشرف عليها جبل شاهق وبالتالي لا فائدة منها ضد عدو اوروبي، لكن اورفة تعتبر محصنة جداً بالنسبة لهذه البلاد. يحيط بالمدينة من كافة الجهات سور مبني من الحجارة الكلسية البيضاء، وتقوم في جهة من جهات المدينة حفرة عميقة في بعض الاماكن، تصب فيها المياه من نبع غزير وبالتالي يمكننا ان نعتبرها جدولاً، وقد حفر الخندق المحيط بالقلعة في الصخر. وهو جاف كلياً. وللمدينة أربعة أبواب: ١) سمسط قبوسي (Samsat)، ٢) جنغي قبوسي (Gengi)، ٣) بيك قبوسي، ٤) حران قبوسي (Haran). ونلاحظ في القلعة قرب الرقم ٥، وجود عمودين منتصبين وبناءين منهارين، لكنني لم أرها إلا من بعيد فضلاً عن الآثار على الجبل خلف القلعة. اما هذه الاخيرة فتحمل اسم نمرود. ويعتقد الاهالي ان

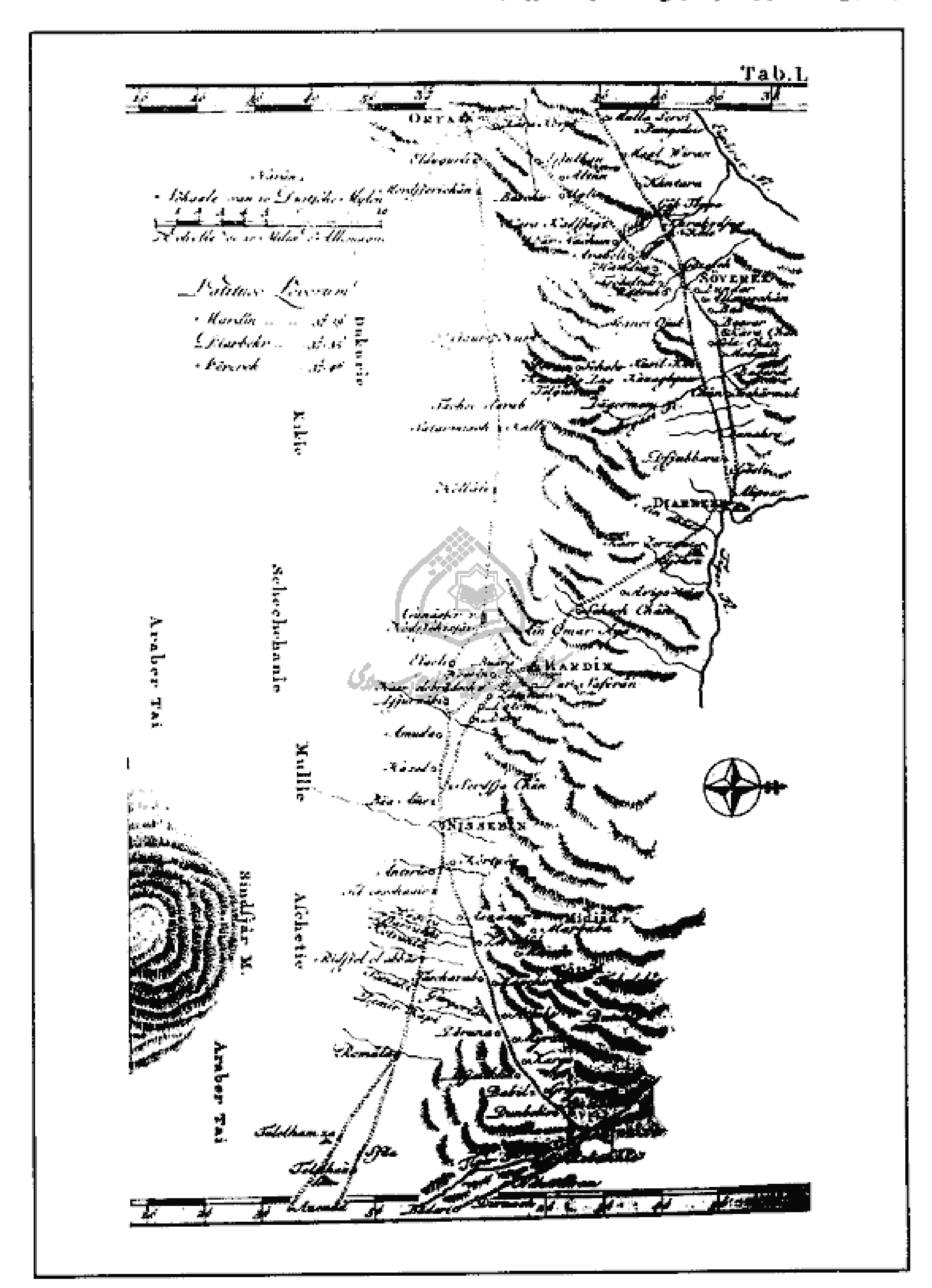
نمرود الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس اقام في قصر هنا لذا حملت القلعة اسمه، وهي قديمة للغاية وتستحق ان يشاهدها اي اوروبي يقصد البلاد. وفي الجبل غرف عدة محفورة في الصخر، لكنها مهجورة باستثناء تلك الواقعة قرب الرقم ٦ فهي مسكونة حالياً.

احصيت في هذه المدينة ١٢ مئذنة، بعضها مربع الشكل، ويشبه احداها إلى حدّ بعيد جرس كنيسة مسيحية. أما المنازل فمبنية بشكل جيد ومتين، وجل ما يلفت الانظار هو مسجد جميل وكبير، قرب الرقم ٧، بناه علي مايدو ومسلم مؤمن حلم ان ابراهيم صلّى في هذا المكان، وتدفع هذه الاحلام المسلمين إلى بناء المساجد كما يبني الهنود معابدهم، ويطلق عليه اسم خليل الرحمن ومقام ابراهيم. كما نجد عند سفح الجبل نبعين غزيرين، يرويان البساتين والحقول ويديران الطواحين، وتقوم امام كل من النبعين بحيرة واسعة وجميلة تكثر فيها الاسماك ومخصصة لإبراهيم، ويحمي القاضي هذه الاسماك، كما يرون ان الله عاقب من حاول المساس بها، لكن بالرغم من ذلك يقال ان المديدين يستفيدون منها(*).

يقيم الارمن في حوالي ٥٠٠ منزل في المدينة، ويملكون كنيسة كبيرة ورائعة قرب الرقم ٨ على الخارطة. تهدم قسم كبير منها لكن القسم المتبقي زيّن بسجاد عجمي جميل، كما يصلون في كنيسة اخرى خارج المدينة قرب الرقم ٩ وتدعى خضر الياس. ولليعقوبيين كنيسة هنا، لكن رعيتهم لا تتعدى المئة والخمسين منزلاً، وحاول المبشرون الكاثوليك دعوة الناس مراراً في هذه المدينة لكنهم لم ينجحوا في ذلك.

علمت ان الحكيم باشي (أو طبيب الباشا) اوروبي، لذا اعتبرت أنّ من واجبي زيارته، وتصورته جراحاً ايطالياً أو فرنسياً ففوجئت حين ألفيته شاباً يونانياً في الخامسة والعشرين من عمره. كانت ارض غرفته مغطاة بسجادة جميلة، على الطريقة الشرقية، ووضع قرب الحائط أريكة مريحة، ويتدلى من الحائط حسامه ومسدساته المطلية بالفضة فضلاً عن سرجه ولجامه المزينين بالمعدن نفسه. ولم يجبني على اسئلتي بل اكتفى بالحديث عن نفسه، فقد درس لسنوات في جامعة ايطالية كغيره من الاطباء اليونانيين الميسورين، ويؤمن بعلم الفلك وبالاحلام، وروى لي احلاماً عدة تحققت، فقد حلم على سبيل المثال بمغزل (بالايطالية رها) بعدها أصبح سيّده باشا هذه المنطقة التي تسمى الرها. واكد ان منزلته عالية عند الباشا وانه لا ينتظر سوى لحظة يصبح هذا الاخير ثرياً مقتنعاً ان الثروة ستهبط عليه عندها، لكن هذا الامر لم يتحقق في وقت قريب لأن الباشا لم يتزوج

(*) اشرت سابقاً الى وجود هذه الاسماك المقدسة في شيراز، ورأيت بحيرة اسماك مماثلة في ديار بكر ثم في سلحف (Salchin) قرب انطاكيا.


Tab. L
ORFA
DIARBEKR
SÖVEREK
MARDIN
NISSIBIN
MIDIAD
Dukurie
Kikie
Schechchanie
Mullie
Alchetie
Araber Tai
Sindsjar M.
Araber Tai

سوى امرأة واحدة، ولا يملك جوارٍ يكلفّن غيره من الباشاوات مبالغ طائلة، لكن زوجته هي أخت السلطان وقد طاب لها أن تبقى في العاصمة، لذا مصاريفها باهظة، وبالكاد يتمكن هو من العيش بطريقة لائقة في مركزه هذا. يقال انه قلما تتبع هذه الاميرات أزواجهن، ويؤكدون أنّ أيّ باشا يتزوج ابنة السلطان، شابة أم عجوزاً، وتقيم على بعد مئة فرسخ، لا يتجرأ على الزواج من امرأة أخرى أو على امتلاك الجواري(*). كما يزعمون أن الباشا يجبر على ترك زوجته حين يتفضل عليه السلطان بتزويجه من اخته أو ابنته، وأنّ إحدى هذه الاميرات زوّجت مرات عدة قبل أن تبلغ وقبل ان تخرج من قصر السلطان. وروى لي هذا الاوروبي قصة تظهر حماقة الاتراك اذ لم يتمكن اهم ضباط السلطان من الابحار في مركب بناه مرتد يوناني، فانقلب فيهم وسط بحيرة وغرقوا جميعاً.

يطلق اليونانيون اسم اديسه (Edessa) على اورفه، ويسميها الارمن اديسيه (Edisja)، واستناداً إلى اليهودي الذي ذكرته آنفاً، يسمي كتّاب هذه الامة القدامى، مدينة اورفة اوركاسلوم (Orcaslum) لكن الاتراك يدعون منطقة حكمهم هذه الرها لأن مدينة بهذا الاسم، تهدمت بمعظمها كانت محل اقامة الباشا فيما مضى. إن مدن ومناطق عدة جميلة وخصبة أضحت حالياً قاحلة جرداء وتركت لمدمريها من عرب واكراد وتركمان. تستخدم اللغة التركية خاصة في ديار بكر واورفة، في حين أن اللغة الكردية شائعة في الريف بين الموصل واورفة، والعربية في ماردين والموصل. ويتكلم اهل البلاد الذين يسافرون كثيراً، سيّما التجار والمكاريون هذه اللغات الثلاث عادة، وإن كانوا من الارمن فإنهم يتكلمون ايضاً لغتهم الام.

في الليلة الاخيرة بتّ عند كاهن ارمني، خارج المدينة كي اتمكن من السفر في صباح اليوم التالي قبل فتح الباب. وبدا مضيفي مرتاباً لأنه ظنني كاثوليكياً، لكن حين قلت له اني انكليزي، وقد تعرف في حلب على هذه الامة التي أحبّها كثيراً لأنها لا ترسل المبشرين إلى تركيا، أصبح مهذباً ولطيفاً وامر بتحضير عشاء لذيذ واكلنا معاً تحت شجرة. في الاول من شهر حزيران/يونيو، قطعت ١٤ فرسخاً أو حوالي عشرة اميال حتى البير (اللوحة LII)، وصادفت الكثير من الاماكن المهدمة، ولا تعود كلها لقرى، اذ وجدت في أربعة أو خمسة أمكنة، بقايا احجار كبيرة وبالتالي فهي بقايا قلاع أو اضرحة اخرى كبيرة. ولم تسمح لي الظروف بأن أدرس هذه البقايا باهتمام اكبر، وبما ان مرافقي لا يهتم ابداً بأسماء المدن القديمة المدمرة ولم يسلك هذه الطريق إلاّ نادراً، لم اتمكن من معرفة اسم واحد من اسماء هذه الاماكن. وفي ذاك اليوم، كنت الدليل اكثر من مرة، فقد استعلمت في اورفة عن موقع البير، ووجدت استناداً إلى البوصلة انها تقع في الجنوب الغربي، وعند تقاطع الطرق، أخطأ مرافقي مراراً، ولاحظ ان الالة التي احملها تدل على الطريق الصحيح، فأخذ

(*) تاريخ السلطنة العثمانية، الكتاب الاول، الفصل XVI الصفحة ١٧٩ بقلم ريكو (Ricaut).

يطلب مني عندما يشك بالطريق التي ينبغي سلوكها ان اسأل ساعتي عن هذه الطريق.

وصادفنا ينابيع عدة، تقصدها فتيات القرى أو القبائل الرحالة من اكراد وتركمان لسقي الماشية، ولم يكنّ يغطّين وجوههن كما في المدن، ويتميزن بجمال لافت لكن الشمس احرقتهن، وما ان نرمي عليهن التحية وننزل عن جيادنا حتى يحملن الينا الماء ويسقين مطايانا. وقد عوملت بهذا اللطف في أماكن أخرى، لكن لطفهن بدا لي فريداً، لأن ربيكا، التي من دون شك ترعرت في هذه المنطقة، أظهرت هذا اللطف اتجاه المسافرين (سفر التكوين XXIV) ولعلني شربت الماء من النبع نفسه، لأن حران (Haran)، وهي حالياً منطقة صغيرة على بعد يومي سفر إلى الجنوب الشرقي من اورفة والتي يزورها اليهود غالباً، وهي على ما يبدو المدينة التي غادرها ابراهيم قاصداً بلاد كنعان (سفر التكوين XII) ولعل عائلة اخيه ناخور (Nachor) بقيت في البلاد(*).

وعند المساء، وعلى بعد ميل من البير، التقينا كردياً على جواده، يرافقه ثلاثة اشخاص سيراً على الاقدام، وكنت وحيداً مع المكاري لكننا كنا نمتطي جوادينا، واحمل بندقية صغيرة في سرجي، ومسدساً في حزامي والى جانبه حسامي، وكنت قد أعرت مسدسي الثاني للمكاري الذي يحمل ايضاً سيفاً. للوهلة الاولى، اعتبرناهم اناساً قد يسطون علينا ويسلبوننا ما نحمل، مما دفعنا إلى التوقف على مسافة منهم حين توجه رئيسهم بالحديث الينا. لم أفهم أي كلمة من كلام الكردي، لكن مرافقي اخبرني لاحقاً انه استفهم اذا ما كنت ذاك الاوروبي الآتي من اورفة، وانه تفاجأ حين علم اننا نود قطع المسافة بين اورفة والبير بيوم واحد، الخ، الخ. باختصار، سمع عني في المدينة، ولم يخرج هذه الليلة الاّ لجمع بعض الناس للسطو عليّ في اليوم التالي، لكنه لم يكن يحمل سوى رمح وسيف ولم تتسلح جماعته إلاّ بالسيوف، في حين اننا نحمل اسلحة نارية جاهزة، فرأى انه من الافضل ان يدعنا نكمل رحلتنا بسلام. انهيت رحلتي إلى اورفة من دون اي لقاءات مزعجة اخرى، ولا انصح غيري من المسافرين بتقليدي، فقد يصادفون، في هذه المنطقة النائية، مجموعة من الناس يمكن ان تسطو عليهم لفقرها أو لوقاحتها. وتحصل هذه الامور في اوروبا، فكيف بالاحرى في بلاد لا يسافر فيها المرء وحيداً. ولا ينبغي ان يسافر الاجنبي وحيداً، وأن يقطع حوالي عشرة أميال وحيداً في منطقة لا يجد فيها قرية واحدة وتكثر فيها القبائل الرحالة من اكراد وتركمان. ولا يتعرض للخطر من المجموعات الكبيرة إن لم تكن في حرب ضد الباشا، اذ تحتاج القبائل لأعداد كبيرة للقيام بأعمال كهذه، وقد يتمكن احد افراد القافلة من التعرف على زعيمهم فيعاقب الباشا القبيلة بأسرها. إن قطاع الطرق في تركيا، ليسوا فقط من التركمان والاكراد

(*) ان حران هذه، هي استناداً الى بلينوس مدينة كراس التي اشتهرت بعد هزيمة الروم فيها.

والعرب، فمعظمهم اناس طردهم الحاكم التركي من خدمته ولا يريدون العمل.

لحقت بقافلتنا في البير، وتقع هذه المدينة على جبل عال على الضفة الشرقية للفرات، ويحيط بها من جهة اليابسة، سور يعلو تلالاً عدة تجري بينها جداول صغيرة. وفي الطرف الشمالي الشرقي للمدينة نجد قلعة صغيرة على تلة وعرة مغطاة بالحجارة المصقولة، قطعت اطراف زواياها كالاحجار قرب سطح الهرم الثاني في محيط القاهرة. ولا يمكن لأحد ان يتسلق التلة، لذا اعتبرت هذه القلعة، عندما ما لم يكن هنا مدافع، منيعة، لكنها انهارت كلياً، ولا يمكن للمدينة أو للقلعة اللتين يمكن رؤيتهما من الجبال المجاورة ان تصمدا طويلاً. بنيت تحصينات هذه المدينة ومنازلها من الطبشور، فإن سطعت الشمس، وهبّت الرياح، عانت العيون الامرّين بسبب الغبار القوي وبسبب الحجارة البيضاء التي تعكس اشعة الشمس. نجد حالياً حوالي ٥٠٠ منزل في هذه المدينة، لكن بما أن كافة المسافرين المتوجهين من ديار بكر أو غيرها إلى سوريا يضطرون إلى عبور الفرات في البير، يقيم فيها متسلّم تابع لباشا اورفة، وآغا للانكشاريين، وضابط يقبض رسوم المرور على البضائع، كما يدفع رعايا السلطان المسيحيين في هذه النقطة جزية معينة.

يقال انه في القرن الاول بعد ان استولى المسلمون على هذه البلاد، كانت هذه الاموال تدفع للجنود الذين يرافقون القوافل والمسيحيين في رحلاتهم، أما حالياً فلا وجود لهؤلاء الجنود، وإن أرسل الحكّام الاتراك مرافقة مع القوافل، ينبغي ان يدفع لها المال على حدة، لكن المسيحيين واليهود لا زالوا يدفعون هذه الجزية، التي قد تبلغ قيمتها قرشين للشخص الواحد. وطُلب من خادمي ان يدفع هذه الضريبة، وبما اني احمل فرماناً من السلطان، لم أكن مضطراً لدفع المال وان كان مارونياً ومن رعايا السلطان، لكني لم اشأ التفاوض مع الاتراك من أجل امر تافه كهذا فأعطيته المال، وأبلغت الجباة انهم طلبوا من خادمي جزية لا يحق لهم طلبها.

إن الفرات قرب هذه المدينة أعرض من دجلة قرب الموصل(*)، ووجدت المراكب اكثر متانة وراحة مما توقعت في هذه المنطقة، لأن الحمولة لا تنزل عن ظهور الجياد والجمال. واجتزت هذا النهر مع القافلة بأسرها في الثاني من شهر حزيران/يونيو، لكننا لم نصل في ذاك اليوم سوى إلى حالة كوي (Hale Koi)، وهي قرية مهدمة على بعد ميلين إلى الجنوب الغربي من البير. وبما اننا وصلناها قبل الظهر، حملت ساعتي الشمسية وقست ارتفاع القطب استناداً إلى ارتفاع الشمس فتبين لي انه ٣٦° و٧٧´ ، وبالتالي يمكن اعتبار ارتفاع القطب في البير ٣٦° و٥٩´ .

وقطعنا في الايام الثلاثة التالية ١١ ميلاً خلال ١٧ ساعة ونصف ووصلنا أختران (Achteran).

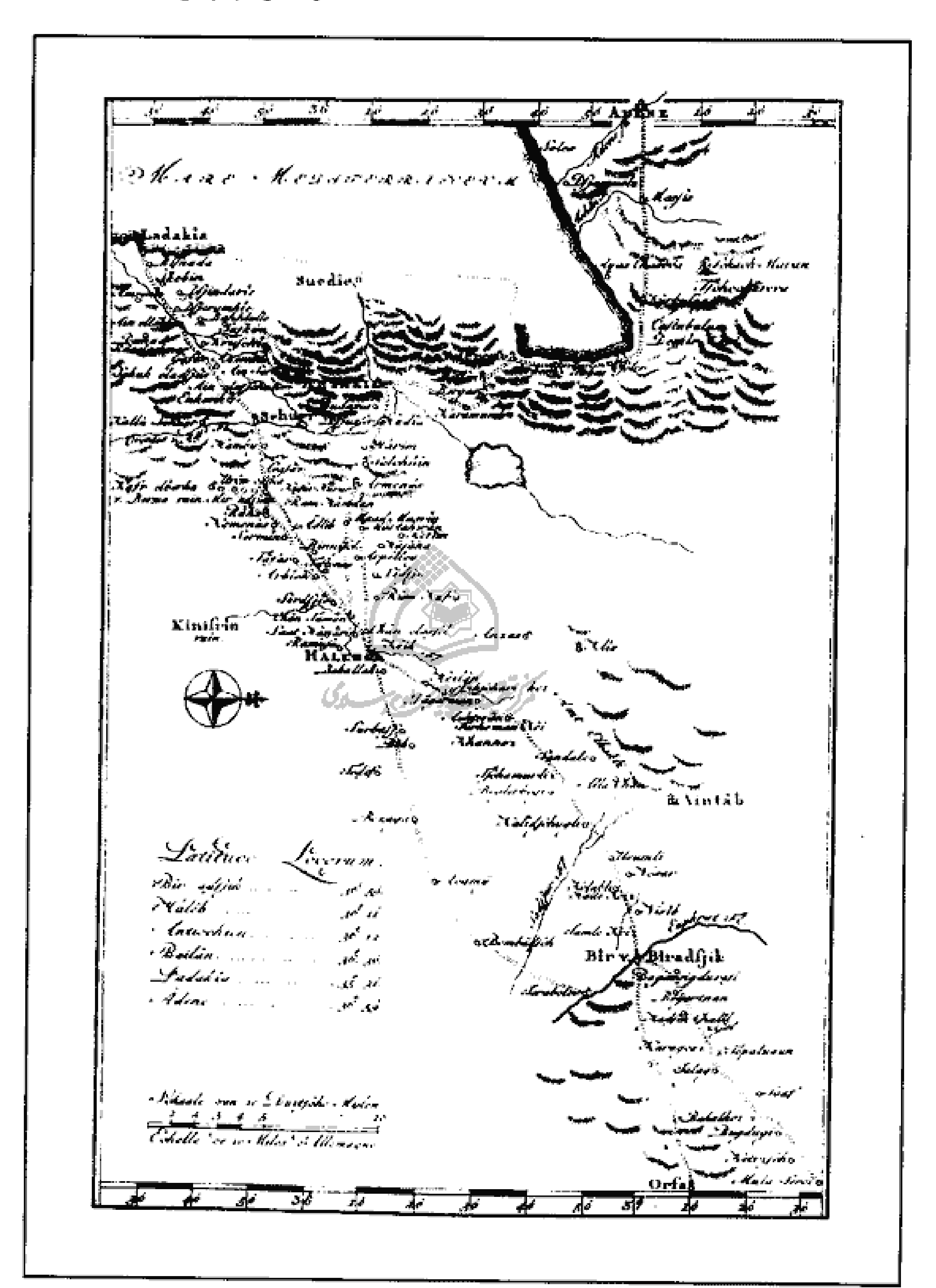
(*) حوالي ٨٠ خطوة مزدوجة او ٣٨٠ الى ٤٠٠ قدم، كالالب (Elbe) قرب مايسن (Meissen).

واشرت إلى اسماء القرى القليلة التي صادفتها على الطريق. والتي تهدم بعضها، على اللوحة LII، وتجدر الاشارة أننا لا نرى ما يثير الاهتمام في هذه المنطقة. ونجد في الشمرلي (Tschamurli) كهفاً كبيراً محفوراً في الصخر، يلجأ اليه المسافرون في الطقس الرديء، وعلمت ان كهوفاً كهذه تكثر في بير اختران التي تحولت اليوم إلى قرية بائسة. بنيت المنازل هنا من الصلصال وتشبه إلى حدّ بعيد كتلة الغرانيت، وهو نوع من هندسة العمارة شائع في محيط حلب وحتى في ضواحيها. ونشاهد شمال قرية اختران، الكثير من بقايا سور قديم، حول تلة، فضلاً عن خان قديم مقبب، مبني بشكل متين للغاية.

في ٦ حزيران/يونيو، تركت القافلة مع بعض التجار، ووصلنا في اليوم نفسه إلى مدينة حلب، وقطعنا قرية هيلان التي أخذت اسمها، بحسب آراء المسيحيين، عن الامبراطورة هيلانة التي امرت بجر المياه إلى حلب بواسطة قناة لا زالت تغذي المدينة حتى اليوم. ثم اجتزنا منطقة جميلة، تكثر فيها البساتين التي يرويها نهر القويق (Koik)، وحيث يحلو لسكان المدينة الاقامة صيفاً.

وتقع مدينة عينتاب على بعد حوالي ١٠ فراسخ إلى الشمال الغربي من البير، قرب الطريق المؤدية من هذه الاخيرة إلى حلب، وهي مدينة كبيرة كطرابلس، ولا يحيط بها سور، انما نجد في وسطها قلعة مبنية على جبل. وبنيت مدينة اعزاز (Anzar)، المهدمة حالياً والواقعة على بعد سبعة فراسخ إلى الشمال الغربي من حلب، على الطراز نفسه، وتقع بالقرب من مدينة كلس التي لا تزال آهلة بالسكان حالياً. ان قرية منبج (Bambadsh) القريبة من الفرات هي مامبي (Mambie) أو بامبيس (Bambyce) القديمة، ويقال اننا نجد في منطقة حلب بقايا تسمى خنصرة (Chanasera)، وراونت (Rawant) هي مدينة اخرى تقع على بعد سبعة فراسخ وربع إلى الشمال الغربي من عينتاب.

أوردت المعلومات التي جمعتها حول قبائل العرب البدو في المناطق الصحراوية من شبه الجزيرة العربية والمناطق المجاورة في وصفي لشبه الجزيرة العربية. ولم أتمكن خلال رحلتي من التعرف شخصياً على تركمان واكراد، لكن، وبفضل صداقة الطبيب باتريك راسل المقيم في حلب، والذي يعاين زعماء اهم القبائل، حصلت على لائحة عن قبائلهم المختلفة والتي تُشبِع قرائي من محبي الجغرافيا. إن عدد افراد العديد من هذه القبائل قليل. واسماؤها جديدة وقد تنسى قريباً، زد على ذلك، انه لا ينبغي الاعتماد على صحة هذه المعلومات حول كبر هذه القبائل، لكن بعض هذه القبائل قديم وكبير. وتكمن اهمية هذه اللائحة في انها تشير إلى قبائل الاكراد، أو التركمان التي تغير مكان اقامتها.



لائحة بمختلف قبائل التركمان

قبيلة بكداي تملك ١٢٠٠٠ منزل اي خمية وتقيم في منطقة اورفة.

مهملنلي تملك ٥٠٠ خيمة } تقيمان في محيط اورفة
بايندر تملك ٣٠٠ خيمة

بهليوانلي تملك ١٥٠٠ خمية وتقيم بين سيواس وانغورة (Angora siwas).

كوجكلي تملك ١٠٠٠٠ خيمة بين سيواس وانغورة.

اوشر وتملك ٥٠٠ خيمة

جريد تملك ٥٠٠ خيمة } في منطقة سيواس وانغورة
لك تملك ١٠٠ خيمة

بهداي تملك ١٠٠٠ خيمة

اغجه قيونلي وتملك ٥٠٠ خيمة

شام بيادلي تملك ٥٠٠ خيمة، بين سيواس وانغورة.

براق تملك ١٠٠٠ خيمة } صيفاً قرب سيواس وشتاءً في الزور(*)
جفر غنانلي ٢٠٠ خيمة

ريحانلي ٢٠٠٠ خيمة، تقيم صيفاً في منطقة سيواس وشتاءً في منطقة حلب.

قولق ٢٠٠ خيمة، تقيم شتاءً قرب عدن وصيفاً في منطقة قيصري (Kaisari).

دادلي ٢٠٠ خيمة، صيفاً في منطقة قيصري وشتاءً في مقاطعة اورفة.

اولشلي ٢٠٠ خيمة في منطقة حلب.

جانخلي ١٠٠٠ خيمة

قرزق ٢٠٠٠ خيمة } منطقة عينتاب
داده قرقن ١٠٠٠ خيمة

قابلي ١٠٠٠ خيمة } منطقة دمشق(*)
قرة قيونلي ٥٠٠ خيمة

(*) تلقيت هذه اللائحة بعد رحيلي عن حلب ومن دون ترجمة. كتب التركماني «في الزور»، ولا أعرف موقع هذه المدينة او القرية ولا أظنها صور لبعد هذه الاخيرة.

(*) يحمل زعماء هذه القبيلة في خدمة الباشا ويقيمون في دمشق.

صوفولر ٥٠٠ خيمة } في منطقة سيواس
فولنجفلي ٥٠٠ خيمة

بورنك ١٢٠٠٠ خيمة، في منطقة انغور.

ايلبكلي ٢٠٠٠ خيمة، يقيم نصف ابناء هذه القبيلة في اقليم سيواس والنصف الاخر في منطقة حلب.

قرة جه جكرد ٥٠٠ خيمة في منطقة قيصري.

شرفلي ٥٠٠ خيمة } في سوريا سيما في منطقة دمشق
ايالي ١٠٠٠ خيمة

فيجلي ٢٠٠ خيمة

ايمر ٥٠٠ خيمة

طوخثامرلي ٥٠٠ خيمة
صرة جلر ٥٠٠ خيمة
كيكلي ٢٠٠٠ خيمة } في سوريا سيما في اقليم دمشق
عزة دنلي ٥٠٠ خيمة
عوزراي ١٠٠٠ خيمة

دندشلي ٥٠٠

موسه بيكلي ٥٠٠ خيمة ـ ديشلمي ٣٠٠٠ خيمة، في منطقة عينتاب.

لائحة بقبائل الأكراد الرحالة

كاسكنلي ١٠٠٠ خيمة
واد كلنلي ٥٠٠ خيمة
برازلي ١٠٠٠ خيمة
كوريكليلي ١٠٠٠ خيمة
شقاقي ١٠٠٠ خيمة
كوراتلي ٥٠٠٠ خيمة

قوجومانلي ٥٠٠٠ خيمة
مامانلي ٥٠٠٠ خيمة
سبكي ٥٠٠ خيمة
صورنلي ٥٠٠ خيمة
يبره بادنلي ٥٠٠ خيمة
جماد نلي ١٠٠٠ خيمة

تقيم هذه القبائل في منطقة قرص (Kars) صيفاً،
وفي منطقة روان أو اروان في بلاد فارس شتاءً.

زرقي ٥٠٠ خيمة
باديلي ٢٠٠٠ خيمة
شاذلي ١٠٠٠٠ خيمة
ايزولي ١٠٠٠ خيمة
جهانبكلي ١٠٠٠٠ خيمة
ياليانلي ٥٠٠ خيمة

تتجول هذه القبائل في منطقة ارضروم وديار بكر (Arzerum).

موريس ١٠٠٠ خيمة، تقيم صيفاً في منطقة ارضروم وفي منطقة اورفة شتاءً.

موسبانلي ٢٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة جبل سنجار.

رشوان ١٢٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة سيواس صيفاً، وفي منطقة حلب شتاءً.

مللي ١١٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة ارضروم صيفاً وفي منطقة اورفة شتاءً(*).

طاطة ٢٠٠٠٠ خيمة، تقيم بين سويريك وارضروم.

بيجاقلي ١٠٠٠٠ خيمة، في محيط سويريك.

كورة جكلي ٥٠٠ خيمة، في منطقة عينتاب.

اوقجة عزنلي ٥٠٠ خيمة، في منطقة كلس

قرة كجلي ٢٠٠ خيمة بين اورفة وديار بكر.

صجبانلي ٢٠٠ خيمة، تقيم صيفاً في منطقة سيواس وشتاءً

كيكي ١٠٠٠ خيمة، في منطقة ماردين.

بيزكي ١٠٠٠ خيمة **في منطقة اورفة**

دوكرلي ١٠٠٠ خيمة، في منطقة اورفة.

كوره جكلي ٥٠٠ خيمة
اطمالي ١٠٠٠ خيمة
حويدلي ٢٠٠٠ خيمة
صبانلي ١٠٠٠ خيمة
قلجلي ٤٠٠ خيمة
جقلي ٧٠٠ خيمة

تقيم كلها شمال عينتاب

(*) تختلف هذه القبيلة عن قبيلة مبلي المذكورة، سابقاً، وتملك هذه حوالي ٢٠٠٠ خيمة.

وأعطاني تاجر من ماردين، سافر مراراً بين مدينته وحلب والقسطنطينية الأسماء التالية لقبائل الاكراد.

قبيلة شيخ بزني ١٠٠٠٠ خيمة، وتتجول بين ماردين وبولي.

قبيلة شراقانلي ٨٠٠ خيمة، تقيم في السهل بين ماردين واورفة.

سوركجي ٢٠٠ خيمة ومنزل في المنطقة الجبلية لماردين.

باران علي ١٠٠٠ خيمة بين ماردين ونصيبين.

دودكي ٦٠٠ خيمة بين ماردين واورفة.

كوم بل ٣٠٠ خيمة بين ماردين واورفة.

بريفي ٤٠٠ خيمة بين ماردين والموصل

هولري ٢٠٠ خيمة بين ماردين واورفة.

جركي ٢٥٠ خيمة

خلاجة ٣٠٠ خيمة، في منطقة ماردين.

دنبلي ٥٠٠ خيمة

دريشانلي ٣٥٠ خيمة، في جنوب ديار بكر(*).

صوحانلي ٧٠٠، ولا تملك هذه القبيلة حالياً أيّ زعيم لها. وقد اختلطت بالقبائل الاخرى المذكورة اعلاه.

كابلور ٣٠٠ خيمة، في منطقة ماردين.

سليفية ١٠٠٠ خيمة، بين ارضروم وبلاد فارس.

اومرانلي ٩٠٠ خيمة، في منطقة ماردين الجبلية.

كركري ٣٠٠ خيمة، بين سنجار والجزيرة.

شخانية ٢٥٠ خيمة، في منطقة ماردين(**).

(*) يقيم العديد من هذه القبائل الجبلية، في قرى اثناء الشتاء، كالاكراد في شيخ خان، وكسكّان بانكيشار.

(**) لعلهم اكراد شيخ خان الذين ذكرتهم.

نجاري ٢٠٠ خيمة، وتقيم كذلك في اقليم ماردين.

وزوّدني التاجر المارديني المذكور بأسماء القبائل العربية التي تقيم في منطقة الخبر، وهي صغيرة مقارنة مع قبيلة طيّ، كما تضع نفسها تحت حماية هذه الاخيرة، وهذه القبائل هي:

بنو كعب ١١٠٠ خيمة.

بككاري ٩٠٠ خيمة.

حجاشة ٥٠٠ خيمة.

ذبابات ٦٠٠ خيمة.

شرابة حوالي ٧٠٠ خيمة. ويتوزع اعضاء هذه القبيلة على القبائل الاخرى.

ويتبع الاكراد والتركمان الديانة الإسلامية. ويعود اصل اهم العائلات الكردية إلى كردستان، والعائلات التركمانية إلى تركستان. يقولون ان العديد من التركمان الذين بقوا في المنطقة، أتوا اليها مع جيوش تيمورلنك، لكن عامة الشعب منهم ومن الاكراد، تتحدر اساساً من المناطق التي تجول فيها حالياً وكان قسم كبير منهم يتبع الديانة المسيحية. وعندما يهدم الحكّام والاتراك أو البدو قرى هؤلاء الناس لا يجدون وسيلة اخرى للبقاء سوى طلب حماية التركمان والاكراد والعرب، وبما انهم يفتقرون هنا ايضاً للكنائس ولرجال الدين، ينسون تدريجياً ديانتهم ولغتهم الاولى، زد على ذلك ان تشدد رجال الدين الشرقيين غير المناسب ساهم ايضاً في تراجع المسيحية وانحطاطها.

ويقال مثلاً ان ابناء قبيلة بهليوانلي كلهم كانوا من المسيحيين، وقد طلبوا من مطرانهم إذن تخفيف صومهم أو على الاقل السماح لهم بأكل الزبدة والبيض وشرب الحليب اثناء الصوم، لكنه رفض ذلك، فما كان من القبيلة إلاّ ان اعتنقت الإسلام. وهي تعتبر حالياً من قبائل التركمان.

ويطلق لقب آغا على زعيم الاكراد والتركمان. ويقال ان الاخيرين لا يهتمون اطلاقاً بحسبهم ونسبهم. بعكس الاكراد، الذين يعتدون بأصلهم كشيوخ بدو. وتختلف طريقة تفكيرهم عن طريقة تفكير العرب اذ يحتفلون بولادة الفتاة كما يحتفلون بولادة الفتى، ولأنهم مسلمون يحق لهم الزواج من اكثر من امرأة واحدة، ولا يقترن آغا الاكراد بفتاة اوضع نسباً منه. ويزعمون ان الكردي المتحدر من عائلة عريقة يطلب خمسين كيس مال (ما يزيد عن ٦٥٠٠ درهم) حين يزوّج ابنته، ويعطيها مهراً صغيراً، في حين ان اعيان العرب والاتراك، يضعون في المهر كل ما يتلقونه من الزوج واكثر من ذلك، لذا تعتبر بعض الفتيات كنزاً.

ويترأس الاكراد والتركمان، الموزعين في القرى، زعيم من بينهم. وسمعت، في القرى الواقعة بين دجلة وكردستان، عن العائلات الكردية التالية باجلان (Badsjelan)، لاك (Lak)، ساريليه (Sarilie) وغيرها ولكل منها كخيا (Kichja)، إلاّ أنه لا يعتبر حاكماً انما فلاحاً كبقية عائلته، لكن بما انه الاقدر على التعاطي مع الحكّام الاتراك أو على حلّ الخلافات، يفترض ان من واجبه التحدث باسمهم من دون ان يتلقى اجراً على ذلك. وقلما نجد عائلات كردية وتركمانية أو عربية تحتفظ بشجرة عائلتها(*).

وبالرغم من اني لم اقصد بنفسي قيسارية وتوكات (Tokat) وارضروم ووان (Wan)، سأشير إلى بعض الطرق المؤدية اليها، كما اقترحها عليّ، أناس يؤجرون الجياد والبغال، وبالتالي يعرفون هذه الطرق جيداً. ويحتسبون المسافات بساعات السفر، لكن بما ان الدروب ليست مستقيمة دوماً، وتمرّ عبر جبال يمكننا ان نعتبر جغرافياً ان كل ساعة توازي نصف ميل.

الطريق من ديار بكر عبر ارضروم

تبلغ المسافة بين ديار بكر وشبرتين خاني ستة فراسخ، وبين هذه الاخيرة وبردنيش خاني ستة فراسخ اخرى. وينبغي قطع ستة فراسخ للوصول إلى اورطي خان، واربعة فراسخ منها إلى خان، وثمانية فراسخ حتى بللو، وثمانية اخرى حتى تيبي، وثمانية فراسخ حتى جون، وحتى هورهور ثمانية فراسخ، وسبعة فراسخ حتى كوي زمبر، وثمانية فراسخ حتى ميلي كان، وستة فراسخ حتى باش كوي، وسبعة فراسخ حتى دوزلي، وستة فراسخ حتى خانجي، وستة فراسخ اخيراً حتى ارضروم (ارزروم)، وبالتالي تبعد هذه الاخيرة عن ديار بكر اربعة وتسعين فرسخاً، كما تبعد ارضروم عن قارص ستة ايام سفر.

الطريق من قيسارية إلى ديار بكر ومن ديار بكر إلى توقات

تبعد قيسارية عن بارسونما (Barsonma) خان اربعة فراسخ، ونقطع بعدها اربعة فراسخ لنصل إلى سلطان خان، وستة فراسخ اخرى لنصل إلى جمارك (Dsjamerk) وثمانية فراسخ إلى شابر كيسل (Schaber Kisle)، وتسعة فراسخ تفصلنا عن خانة (Chane). ومن ثم نسير تسعة فراسخ ونصل إلى اولاش (Ulash)، وتسعة فراسخ فنصل إلى كنغال (Kangal)، وستة فراسخ إلى الاجية خان (Aladsjie chan)، وسبعة فراسخ حتى حسن شلبي (Hassan Schellebi)، وخمسة فراسخ حتى حكيم خان، وستة فراسخ حتى حران (Cherren)، وأربعة فراسخ حتى أوغلي (Oguli)،

(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

وثمانية فراسخ حتى دانغيسلي، واربعة فراسخ حتى معدن، (Maaden) وسبعة فراسخ حتى أربو (Arpaud)، وستة فراسخ حتى هربود (Charpud)، وستة فراسخ حتى حابوسي (Hobusi)، وتسعة فراسخ حتى بازخان (Bas Chan)، وأربعة فراسخ حتى اورطة خان (Orta Chen)، وستة فراسخ حتى بوردنيس خان، وستة فراسخ حتى شربتين خان (Cherbettin Chab)، وستة فراسخ حتى ديار بكر. وتبعد بالتالي قيسارية عن ديار بكر ١٣٩ فرسخاً.

ومن ديار بكر حتى توكات، نسلك الدرب نفسه اي مسافة ٩٩ فرسخاً من ديار بكر اولاش، ثم نجتاز سبعة فراسخ حتى سيواس، و١٢ فرسخاً حتى ينكي خان (Jengi Chane)، وسبعة فراسخ حتى بولوس (Bolus)، وسبعة فراسخ اخرى حتى توكات. وبالتالي، يقطع المرء ١٣٢ فرسخاً ليصل من ديار بكر إلى توكات.

الطريق من توكات إلى اماسيا (Amasia)

تفصل بين توكات وايغناخان (Igna Chan) ستة فراسخ، وتبعد هذه الاخيرة عن توربال (Turbal) ثمانية فراسخ، وينبغي قطع ثمانية فراسخ للوصول إلى اماسيا. تصبح المسافة بين توكات واماسيا بالتالي ٢٢ فرسخاً.

الطريق من وان وديار بكر إلى ارضروم

زودني أرمني، اعتاد السفر خلال شبابه بمعلومات حول هذه الطرق، لذا لا ينبغي الاعتماد على المسافة الفاصلة بين الاماكن، إلا استناداً إلى الطرق السابقة التي جمعت المعلومات عنها عن مؤجري الجياد والبغال.

تبعد وان عن ميراك (Mirak) ثمانية فراسخ، وتبعد هذه الاخيرة عن ارديش (Ardish) سبعة فراسخ. ويجب قطع عشرة فراسخ حتى مالاسغرد (Malasgerd)، وتسعة فراسخ حتى بوستانديبي (Bostandibi)، وثمانية فراسخ حتى يزيدكوي (Yasid Koi)، واحد عشر فرسخاً حتى مليك كوي (Mellik Koi)، وثمانية فراسخ حتى خانيس (Chanis)، وثمانية فراسخ حتى طورطان (Turtan)، وستة فراسخ حتى ارتيف (Ertif)، ومنها إلى ارضروم ستة فراسخ.

على طريق ديار بكر، تبلغ المسافة بين وان ومسطان (Mastan) ستة فراسخ، وثمانية فراسخ من هذه الاخيرة حتى بلية (Pelie)، وعشرة فراسخ حتى تطوان (Tatwan)، وتسعة فراسخ حتى سورب (Surp)، وثمانية فراسخ حتى زعق (Zaek)، وأحد عشر فرسخاً حتى سوغورد (Sugurd)، ومنها إلى ديار بكر اربعة ايام سفر.

ملاحظات حول سوريا وسكان جبل لبنان

عند وصولي إلى حلب، قصدت اولاً منزل القنصل الهولندي العام، السيد ماسيك، الذي دعاني في بغداد لزيارته، فاستقبلت بحفاوة بالغة، فمنذ سنوات عديدة لم اجلس في صحبة اناس بهذه اللطافة. حتى انني صادفت اشخاصاً من بلادي. ولد السيد ماسيك في هولستن. وهو يعد بالتالي من رعايا الملك الدانمركي. أما السيدة ماسيك، وكنيتها غوفرتس، فولدت في هامبرغ. بذل مضيفي قصارى جهده لجعل اقامتي في هذه المدينة مسلية جداً، فعرفني على الاوروبيين المقيمين فيها، ومن بينهم السيد بوري، الذي يعمل في متجر السيد ماسيك، ويقيم في منزله، والطبيب باتريك روسيل، شقيق صاحب كتاب وصف حلب (بالانكليزية) والسيد دايفيس، رئيس ادارة المصنع الانكليزي، والوالي الحالي، بسيتون، والسيد سميث، والسيد ابوت، وغيرهما من التجار الانكليز. فوجدت نفسي وسط مجموعة من الاصدقاء الاوروبيين، ونسيت في خضم الاحاديث المتاعب التي مررت بها حتى الان. في هذه الاثناء تلقيت في حلب الامر من جلالة الملكة تقضي بالعودة إلى قبرص، ونسخ النقوش التي نقلها السيد بوكوك، والتي يخالها العلماء الاوروبيون فينيقية، وتستدعي بالتالي التوضيح. كان سكان هذه الجزيرة قد قتلوا حاكمهم من فترة ليست ببعيدة، واعلنوا الجزيرة ساحة حرب، ففضلت الانتظار قليلاً قبل القيام بهذه الرحلة، ولما كان البعض يحاول تعظيم الامور، اسرعت بالذهاب إلى اسكندرون، للانتقال منها إلى قبرص، فور سماعي اخباراً جيدة، تؤكد ان محيط لارنكا، حيث عثر السيد بوكوك على النقوش، اصبح آمناً، وقصدت بعدها يافا، واورشليم وعكّا، وصيدا، ودمشق وطرابلس واللاذقية، لأعود لاحقاً إلى حلب، بانتظار وصول القافلة التي ستقلني إلى القسطنطينية، مروراً بعدن، وكوتاهية وبورصة، غير انني سأحتفظ بوصف هذه الرحلة للجزء التالي، وسأكتفي بأن أضيف هنا بعض الملاحظات حول سوريا.

تنقسم سوريا إلى عدة مقاطعات، على رأس كل منها حاكم يملك ثلاثة اطواق؛ تعد المناطق التابعة لحكومة دمشق الاكبر مساحة والاكثر ربحاً، لأنها تضم الاراضي المقدسة. تليها المناطق التابعة لباشا حلب، والجدير ذكره ان باشا طرابلس وباشا صيدا، يملكان عدة اقاليم تابعة لنفوذهما، علماً ان معظم رعاياهم يقيمون في جبل لبنان، رغم انهم ينتمون لمذاهب وديانات مختلفة، وينتخبون شيوخاً وامراء من قومهم يستأجرون بعض الاقاليم من الباشاوات، ويرفضون دفع الايجار إلى ان يستدعيهم الجيش التركي ويرغمهم على دفع ما يتوجب عليهم.

حلت اللغة العربية محل اللغة السريانية القديمة. ويزعم ان بعض سكان القرى التابعة لحكومة دمشق، يستعملون اللغة السريانية الحديثة التي تختلف كلياً عن القديمة منها(*). يتكلم الاكراد والتركمان المقيمين في جبل الاكراد وفي مقاطعة التركمان، أو في سوريا تحت الخيم، اللغتين الكردية والتركية المحليتين. ولكن منذ ان خضعت البلاد لحكم الاتراك والذين عينوا في هذه المقاطعات باشاوات لا يفهمون العربية، اصبحت اللغة التركية، اللغة المستعملة في البلاط، سواءً في هذه البلاد أو في المقاطعات الأخرى التابعة للسلطان، غير ان هذه اللغة ليست مألوفة هنا، شأنها شأن الفرنسية في المانيا.

تعد الديانة الاسلامية، وخاصة المذهب السني، الديانة المهيمنة في هذه البلاد، ونجد ايضاً يهود ومسيحيين ومتاولة، ودروز ونصيريين واسماعيليين واتباع مذاهب اخرى لا يوليها السكان اهتمامهم.

يقيم اليهود في المدن، وهم جميعاً من التلموديين، وبرغم اننا نصادف في دمشق، بعض القرائين والسامريين، الذين يقيمون في نابلس وسخم.

يكثر المسيحيون في سوريا وخاصة في جبل لبنان، حيث يتمتع الموارنة في ظل الدروز، بنوع من السيادة، اكثر منه في المدن. يعترف الموارنة بالبابا كزعيم روحي لهم، ويشددون على انتمائهم للكنيسة الرومانية(**). ورغم انهم يختارون بطاركتهم بأنفسهم يطلبون من البابا مباركة الشخص الذي وقع عليه الخيار ومنحه لقب بطريرك انطاكية. غير انهم قلما يأبهون لأوامر البابا، اذ يُروى ان الكهنة الاوروبيين في جبل لبنان، اختاروا بطريركاً كان في روما ونال حظوة لدى الاوروبيين الكاثوليك، ولكن الكهنة الشرقيون اختاروا بطريركاً آخر ضاربين بعرض الحائط رفض البابا منحه بركته. يختار البطريرك الماروني ١٢ مطراناً يعملون في خدمته. يستعمل معظم موارنة جبل لبنان اللغة السريانية في قداديسهم، بينما تخلى موارنة حلب عنها كلياً واستبدلوها باللغة العربية الحديثة.

يقيم المسيحيون الارثوذوكس في منطقة جبل لبنان الخصبة والرحبة. وقد حلت اللغة العربية

(*) اكد لي امير من جبل لبنان، ان بعض سكان هذا الجبل، المقيمين في اقليم الضنية في قرية القاضي، يتحدثون اللغة السريانية، ولعل الرحالة اللاحقون يستطيعون التأكد من ذلك ومقارنة هذه اللغة السريانية الحديثة بالقديمة منها.

(**) يبدو ان العلاقات بقيت مقطوعة بينهم وبين الاوروبيين التابعين للديانة نفسها حتى العام ١٦٠٠، اذ ارسل حينها البابا موفداً الى جبل لبنان، للاستعلام عن مطالب الموارنة، فأكدوا له جميعاً ان مطلبهم الاساسي هو الانضمام الى الكنيسة الرومانية، دون الانفصال عنها ابداً، مهما كانت الظروف، حتى وان كانت ستذهب الى الجحيم. **رحلة الى جبل لبنان**، لدنديني، ص ١٢٢، ١٢٣، منذ تلك الساعة، لم يعد الكاثوليكي يعتبر الماروني ملحداً.

محل اللغة الرومانية في قداديسهم. وهم يختارون لهم بطريركاً، يسلمه البابا مهاماً محددة ليقال انه عين بطريركاً ارثوذوكسياً، في الشرق. والجدير ذكره ان الارثوذوكس المقيمين في مناطق نفوذ الدروز قلما يأبهون لأمر هذا البطريرك، الذي لا يتمتع بأي صلاحيات تذكر، ونجد ايضاً في جبل لبنان، بطريركاً للأرمن، يعينه البابا ويمنحه صلاحيات محددة. في الواقع، يقيم هؤلاء البطاركة الاوروبيين في هناء في ظل الحكم الدرزي، بينما يعاني البطريرك الكلداني في ديار بكر، وغيره من رجال الدين المرتدين في الشرق، الامرين، على يد اتباع دياناتهم القديمة والباشاوات، إذ يكثر في المدن السورية، اليونان والارمن واليعقوبيون، الذين يعترفون ببطاركة القسطنطينية، وأج ميازين وديار بكر، كزعماء روحيين لهم، ويسرهم كثيراً ان يمنحهم البابا لقب بطاركة. ومما لا شك فيه ان انصراف الكهنة الاوروبيين وتلاميذهم عن الطقوس القديمة، ادى إلى اشعال الفتن والقضاء على عائلات عريقة. ومما لا شك فيه ان اندلاع الفتنة بين المسيحيين كان في مصلحة الحكومة التركية.

يتبع المتاولة المذهب الإسلامي المهيمن في بلاد الفارس، وهم بالتالي من اهل الشيعة(*). وعلى غرار سكان بلاد فارس، يمتنع المتاولة عن تناول الطعام والشراب مع اتباع الديانات الاخرى، ولا يستخدمون طبقاً اكل منه شخص غريب، الا بعد تنظيفه جيداً، حتى انهم يعتبرون انفسهم مدنسين ان لمس احبني ملابسهم. ولما كانوا يعيشون في ظل الحكم التركي، قلما تجرأوا على معاملة أهل السنة بازدراء، والجدير ذكره انهم غالباً ما يدعون كرهاً انتماءهم لأهل السنة. في الواقع، لا يحب السنة والمسيحيون العيش في وسطهم، بينما يحمل الموارنة امناء سر لدى شيوخ المتاولة، ويقيمون بينهم سنوات عدة. ولكن لسنوات خلت، استطاعوا وضع يدهم على اقاليم عدة. تقيم عائلة حرفوش، التي يعتبر سيدها نفسه اميراً، في بعلبك، وتدفع اجرة هذا الاقليم لسلطان القسطنطينية مباشرة. وفي سير والمناطق المحيطة بها، التي تعرف ببلاد بشري نجد ثمانية شيوخ من عائلة ناصيف، يدفعون الاجرة لباشا صيدا. ويحكم شيوخ المتاولة من عائلة الخنسا، منطقتي القرنة والهرمل(**)، المطلة على نهر العاصي؛ وهم يدفعون الجزية لبك حمص. خلال اقامتي في هذه البلاد، كانت عائلة حمادة تحكم اقليمي جبيل بشري الشماليين والواقعين ضمن مناطق نفوذ باشا طرابلس(***). غير ان الامير يوسف الدرزي طرد هؤلاء المتاولة، كما سأذكر في ما بعد.

يخضع الدروز لسلطة شيوخهم الذين يعرفون بالأمراء. يقيم الامير الكبير في دير القمر وتمتد

(*) يطلق عليهم بوكوك اسم عمادين العرب، وكورث سمجاد، غير انني لم اسمع هذين الاسمين في سوريا.

(**) على مقربة من الهرمل نجد بلدتي اللبوة والراس، اللتين تستمدان المياه من نهر العاصي.

(***) يقول بنامين دو تودلا (ص ٣٤) انه صادف في هذه المنطقة مجموعة من الحشاشين، ويقول ويتوف ان الحشاشين يهيمون في جبال صور، وانهم اخذوا ديانتهم من بلاد فارس. مما يعني ان الحشاشين الذين اشتهروا خلال الحملات الصليبية، كانوا من المتاولة، غير انهم لا يقدمون طاعة عمياء لشيوخهم.

مناطق نفوذه إلى جزء كبير من جبل لبنان؛ وهو يدفع الجزية لباشا صيدا. يحكم اقليم راشيا الامير علي، ويدفع الاجرة للباشا المقيم في المدينة نفسها. اما في اقليم حاصبيا فيقيم امير آخر يدعى اسماعيل، والجدير ذكره ان هؤلاء الامراء الثلاثة ينتمون للمنزل الشهابي. فضلاً عن ذلك، سمعت الناس يتحدثون عن شيخ درزي، يدعى حسين، ويحكم حوالي ٤٠ قرية في جبل قفطين، الواقع ضمن باشاليك حلب. غير ان سكان هذه القرى لا يتبعون الديانة الدرزية بحذافيرها بل يُروى أنهم يقيمون ليلاً اجتماعات سرية ويمارسون عادات الاسماعيليين، التي سأتحدث عنها فيما يلي.

أكد لنا الفرنسيون ان دروز جبل لبنان يتحدرون من المواطنين الذين لازموا المنطقة الجبلية في الارض المقدسة، بعد ان طرد منها الاوروبيون، غير اننا لا نستطيع اثبات العكس لأن بنيامين دو تودلا يأتي على ذكر الموضوع في بيان رحلته، ص ٣٦، علماً انه قصد هذه المناطق في الوقت الذي كان فيه الاوروبيون اسياد الارض المقدسة. مما لا شك فيه ان الدروز سيريانيو الاصل، ولكنهم اعتنقوا ديانة محمد أو اسماعيل الدرزي، الذي اثار ضجة كبيرة في مصر في بداية القرن الخامس هجري ويدعي بعض المؤلفين اننا نستطيع التعرف عليهم من خلال رؤوسهم المقرنة. ولما سألت الموارنة عن هذا الموضوع، أكدوا لي انهم لم يلحظوا اي اختلاف في رؤوسهم. كما وانهم نفوا عبادة الدورز للعجل رغم ان المسلمين يطلقون عليهم لقب ابو العجل، وبينما اتهمهم بعض المؤلفين بالزواج من اخواتهم وبناتهم، أكد لي المسلمون والموارنة الذين يقيمون بينهم، ان ذلك غير صحيح.

ينقسم الدروز إلى مشايخ العقل أو رجال دين وجهلة أو علمانيين. يتبع الفريق الاول شيوخ العقل الثلاثة الاساسيون، ويقيم الاول في اقليم العرقوب والثاني في اقليم الشوف والثالث في اقليم حاصبيا. يتميز شيوخ العقل عن العلمانيين بثيابهم البيضاء وهم يملكون منازل فخمة على الهضاب المطلة على المناطق الجميلة. ومساء الخميس، أو عشية الجمعة يجتمعون كلهم في منزل زميل لهم، للتفرغ لشعائرهم الدينية والصلاة عن نية الامة كلها؛ تستطيع زوجات رجال الدين حضور هذه الاجتماعات بينما يحظر على الامراء أو العلمانيين المشاركة فيها. وهم يكرهون مظاهر الترف في الدنيا، غير انني اخالهم افاضل كرهاً، لأنهم سيتوقون لاحقاً، وبعد عودة حاكمهم لاعتلاء العروش الملكية، والمناصب الوزارية. وهم لا يتزوجون من بنات العلمانيين، بل وانهم يشمئزون من ثروات الاعيان، ويرفضون تناول الطعام لدى شيوخ وامراء امتهم. ويكتفون بقبول الدعوات لتناول الطعام في منازل شيوخ العقل والفلاحين، الذين يكسبون قوتهم من عرق جبينهم. وسمعت رجال الدين السنة يقولون انهم يرفضون تناول الطعام مع الباشا أو غيره من الاعيان الاتراك، غير ان البعض يتهمهم لهذا السبب بالخبث. والجدير ذكره ان الدروز العلمانيين يرفضون ايضاً تناول الطعام مع الجميع. كانت زوجة احد الشيوخ، تنزل في ضيافة القنصل الفرنسي في صيدا، ولما

ارسل لها بعض الفاكهة من حديقة منزله، قالت له انها لا تستطيع قبول هدية مماثلة من قاضٍ أو باشا، ولكنها تستطيع تناول الطعام في منزله، علماً انه كسب ثروته بعرق جبينه.

ومن صفات الدروز العلمانيين اذكر لكم، حسن الضيافة، الطموح، البسالة التي قد تتحول إلى تهور، واحياناً البخل. يتعلم الشيوخ الشبان القراءة والكتابة، دون ان يجتهدوا للاطلاع على اصول ديانتهم، فهم يعتبرون ذلك غير ضروري خاصة وان رجال الدين قد اخذوا على عاتقهم مسؤولية الصلاة والصوم عن نية العلمانيين كافة. فمنذ صغرهم، يتمرن الشيوخ الشبان على ركوب الخيل، وعلى المبارزة بالسيف، وعلى حمل الحراب، واستعمال الاسلحة النارية. وان شوهد احد الشيوخ والدموع في عينيه، سخر منه الجميع، علماً انهم يتميزون برباطة جأشهم، ولا مبالاتهم في مواجهة الموت، فهم على استعداد للقتل ان وجه لهم احدهم كلمة قد تمس شرفهم. ويسود عندهم قانون الاقوى، حتى ان مسيحيي جبل لبنان يراعون هذا القانون، وتقليد الثأر الموروث. ويسعى بالتالي مطارنتهم لمصالحة الفريقين المتخاصمين حتى لا يبسط شيوخ عقل الدروز نفوذهم على مناطق اخرى، وان اقدم درزي على قتل مسيحي أو مسلم لا يحاكمه القاضي التركي فحسب، بل يعطي الامير الامر بنهب منزله ان امتنع عن دفع الجزية المفروضة عليه، والجدير ذكره ان الامير قلما يفرض عقوبة الاعدام على القاتل. وتنشب بعدها خلافات حادة بين عائلة القتيل وعائلة القاتل، خاصة في الليل، دون الاخذ بعين الاعتبار عدد القتلى الذي قد يتكبده الفريقان. يتبع شيوخ الدروز قانون الاقوى، لأنهم يعتبرون انفسهم في منزلة الامير، الذي لا يحق له قتلهم أو تكليف سواهم بولاية القرى، وان شب خلاف بين شيخين رفيعي المستوى، ارسلوا الفلاحين إلى قرية خصمهم لقتل السكان وقطع اشجار الخوخ والزيتون، علماً ان الامير نادراً ما يعاقبهم على هذه الاعمال العنيفة. في بعض الاحيان، يفرض على المهاجم مبلغاً كبيراً من المال، ويجبره على قطع الاشجار وحرقها. وان صادف في عائلة احد الاشخاص، قاتل أو قتيل، تعذر عليه العمل مطمئن البال في الريف، أو النوم بأمان في منزله، قد يقرر البعض التصالح مع اخصامهم غير ان العائلات المنعزلة، تعيش في حالة حرب مستمرة. وقد اكد لي سكان المنطقة ان حوالي ٣٠ شخصاً، من الحكومة الدرزية في جبل لبنان، يفقدون حياتهم بسبب اعمال العنف هذه.

لما كان الدروز يتقاتلون عند سماع عبارة فظة، يعتمد عامة الشعب الحذر في تعاملهم، فلا يتحدثون بالسوء عن خصمهم في غيابه، بل يثنون عليه وكأنه صديقهم الحميم. وان ظن احد القتلة، انه ضعيف للغاية ولا يستطيع الوقوف في وجه عائلة القتيل، قصد منزل اهله عاقداً حول عنقه حبلاً أو محرمة مؤكداً لهم ان القتيل مس شرفه بكلامه الجارح، فاضطر لقتله، ويعطي بعدها الحرية لأهل القتيل بالقضاء عليه. فيرغم حينئذٍ الاهل على مسامحته. ولكن الامر لا ينتهي عند هذا الحد، اذ يستدعي المهان الحقل، ليحلق ذقن المهين. لسنوات خلت، اشتكت احدى الارامل

لقاتل زوجها، من الشقاء الذي سببه لها. وبعد ان اثنى هذا الاخير على المغدور أكد لها انه اساء التصرف ووجه له كلاماً جارحاً فاضطر لقتله غير انه تعهد باعالة الارملة واولادها بقدر ما تسمح له ظروفه. والجدير ذكره ان هذه الجرائم ترتكب في أغلب الاحيان تحت تأثير الخمرة، التي يحبها الدروز كثيراً.

لما كان القتل سهلاً للغاية بالنسبة للدروز، أظن ان الاجنبي سيشعر بالقلق الشديد بينهم، غير انهم يتمتعون بحسن الضيافة، شأنهم شأن العرب، وباستعدادهم للدفاع، عن كل شخص يطلب حمايتهم، ضد أعدائه. منذ بضعة سنوات، التجأ زعيم عصابة لصوص تركية، إلى منزل شيخ من بيت تلحوق، رغم انه لم يقابله قط من قبل. عندما ابلغ باشا دمشق بالامر، طالب امير الدروز ان يعيد اللص. ولما كان الامير وأعيانه يسعون لتجنب الحرب مع الاتراك، اعطوا الشيخ الامر بتسليمه، ولكن هذا الاخير رفض رفضاً قاطعاً التخلي عن الرجل الذي طلب حمايته. في هذه الاثناء، انهمك الباشا في مسائل اخرى اكثر اهمية ونسي امر اللص المذكور.

اظن ان الامثلة التالية ستثبت لكم بسالة الدروز وتهورهم. في احد الايام، خطر لأحد الدروز أن ينهب في وضح النهار مقر باشا تركي في دمشق، عاصمة سوريا، حتى يتحدث التاريخ عن شجاعته. فجمع لهذه الغاية، ٢٠٠ رجل تقريباً، وقاد ٥٠ منهم إلى السوق الرئيسي بينما وزع الباقين على الابواب، والضواحي، وخلف البساتين، وبعد ان اعطاهم الاشارة، فتح رجاله نيران مسدساتهم في السوق، واوقعوا عدداً من القتلى والجرحى، ليتسنى لهم، بعدها الوقت لنهب المتاجر المفتوحة. ولم يتجرأ اي نبيل على مغادرة منزله والوقوف في وجههم، وقبل ان يصل جند الباشا، كان الدروز قد غادروا المدينة، حيث كان رفاقهم بانتظارهم مع الاحصنة، خلف البساتين.

منذ فترة وجيزة، خطر لشيخ من شيوخ بيت نكد، يحكم عدداً من القرى الواقعة في جوار صيدا، ان يقتل احد ضباط الباشا، خلال قيام هذا الاخير برحلة صيدا. فطلب الاتراك ترضية من الامير، فاستدعى هذا الاخير شيوخ أمته إلى دير القمر وتقرر خلال اجتماعهم حرق منزل القاتل وقطع أشجار حقله. وبعد تنفيذ هذا الحكم، اعلم الباشا انه عاقب القاتل بشدة فادعى الباشا الرضى بينما كان يلاحق الشيخ سراً (ففي الحالات المماثلة، لا ينام الدروز ليلتين متتاليتين في المنزل نفسه) بغية قتله. فصمم شيوخ بيت نكد، الذين يبلغ عددهم حوالي ٢٣ شيخاً، على الانتقام له، مهما كان الامر. فلبسوا أزياء تنكرية وترقبوا الاتراك عدة اسابيع في الغابات والبساتين المحيطة بصيدا، دون ان يصل احد منهم.

وفي أحد الايام، ابتعد الباشا عن المدينة برفقة ٥٠ رجلاً تقريباً، فانقض عليه الدروز وقتلوه مع عدد من كبار ضباطه. ولكن الاتراك عقدوا العزم على الانتقام لموتهم. فأعطى السلطان الامر لباشاوات المنطقة بمهاجمة الدروز بواسطة جيش كبير. فمني الطرفان بخسائر بشرية فادحة دون ان

يلحق الاتراك ضرراً كبيراً بالعدو. فالدروز، الذين اهملوا الزراعة، سئموا من هذه الحرب بعد مرور شهرين على اندلاعها وأرغموا عائلة نكد، على الاحتماء بالمتاولة، والتصالح معهم. وبعد ان عجز الاتراك عن إلحاق خسائر كبيرة بالعدو، اظهروا استعدادهم لوضع حد لهذه الحرب، فطلبوا ١٠٠ صرة (تحوي كل منها ٣٣٣ ريالاً) لدفع تكاليف الحرب، ولما رفض الدروز دفع أكثر من ٥٠ صرة، غضوا الطرف عن مطلبهم الاول، ورضوا بالقليل. فعاد شيوخ بيت نكد إلى قراهم، دون ان ينزعج الاتراك من جراء ذلك.

لما كان الدروز يفضلون الحفاظ على سرية معتقداتهم الدينية، امام الاتراك، ادعوا الانتماء للديانة الإسلامية، حتى ان الامير وغيره من الاعيان، الذي تربطهم علاقات عمل بالباشا وغيره من الاتراك، لجأوا للختان، وتعلموا الصلاة والطقوس الدينية حتى يثبتوا انتماءهم للمسلمين، غير انهم قلما يأبهون بالديانة الاسلامية، صحيح انهم شيدوا جامعاً في دير القمر، الا انه كان مخصصاً لاستقبال الضيوف، فإن أبلغ الامير بوصول آغا تركي، امر بتنظيف الجامع، وبإقامة الطقوس الدينية، خلال اقامتهم بينهم، أما في الايام العادية، فهو يبقى خالياً كلياً، ولا تستعمل المئذنة لدعوة الناس للصلاة، بل للاعلان عن شاة أو نعل ضائع، أو عن سعر اللحم أو غيرها من المواد الغذائية، في السوق. يحتسي الدروز الخمرة، وغيرها من الكحول، ويتناولون لحم الخنزير وسواه، وان اقاموا في قرى مسيحية، حضروا القداديس، خاصة النساء منهم، وان طلب احد المطارنة الموارنة ان يعمد ابن أو ابنة الامير، منح هذا الشرف دون تردد. ويقال ان بعض الشيوخ والعجزة يؤمنون ان ذريتهم قد تستفيد من صداقة المسيحيين لهم، فيطلبون مسحهم على فراش الموت رغم انهم قضوا حياتهم كلها جهلة، دون ان يعيروا الديانات كافة، اهتمامهم في بعض الاحيان، يعتكف الشيخ أو الامير في شيخوخته، في دار مشيخة العقل، كي يقضي ايامه الاخيرة في سلام. وتتوفر لدينا امثلة كثيرة، عن دروز اقاموا في دمشق، وحلب وصيدا، وارتدوا إلى الاسلام، ولكن الدروز لا يقبلون ابداً المهتدين حديثاً إلى الدين، كما سنرى لاحقاً.

يبيح القانون أو العرف تعدد الزوجات، غير ان الدروز لا يتخذون لهم اكثر من زوجة، ونادراً ما يتزوج الاعيان من اثنتين. فيعقد قبل الزواج، اتفاقاً مع اهل العروس، امام شيخ العقل، كما يفعل المسلمون امام القاضي، لتحديد المبلغ الذي ينبغي ان يدفعه الزوج في حال طلق امرأته، وقيل لي ان الطلاق سهل للغاية لدى الدروز، فإن طلبت الزوجة الاذن بالذهاب لزيارة اهلها. يقال انها تعد طالقاً، إذا اكتفى الزوج بالقول اذهبي، دون ان يضيف اذهبي وعودي.

خلال وداع اهلهم، يحضر الدروز الجنازة على الاحصنة، ويقدمون لهم السلاح(*)، كما وانهم

(*) سمعت ان البدو يمارسون هذه العادة ايضاً.

يحملون معهم علبة قش، أو قطعة خشب، ويرتدون ملابس الفقيد، لمدة سبعة أيام، ليرمونها بعدها، فوق ضريحه. في الواقع، يجتمع عدد كبير من الناس لحضور افراح واتراح اعيان الدروز، ويقتضي ذلك اقامة مآدب فخمة، وصرف مبالغ طائلة.

زودني موارنة جبل لبنان، بهذه المعلومات كلها عن عادات واعراف الدروز، والجدير ذكره ان هؤلاء الموارنة كانت تربطهم بعلمانيي الدروز علاقات وثيقة، خلافاً لرجال الدين. لذلك لم تتوفر لديهم معلومات وافية عن دياناتهم وعن الطقوس التي تمارس خلال اجتماعاتهم الدينية. كما واننا لا نستطيع الحكم عليها من خلال الديانات الاخرى، أو من خلال بعض الطقوس، أو استناداً لأقوال جيرانهم، علماً انهم غالباً ما يتنازعون، فيحاولون تسليط الضوء على سيئآتهم. فحاولت الحصول على الكتب التي وضعها الدروز، لأكوّن فكرة واضحة عن ديانتهم فزودني انطون بيطار، مترجم السيد ماسيك، بالكتاب الاول. ويزعم ان يسوعياً يتقن العربية، حل ضيفاً في منزل احد الدروز، وعثر على هذا الكتاب، في ركن الغرفة، ونقله في الليلة نفسها، واليكم الملاحظات التي استخلصها من هذه المخطوطة.

يتبع الدروز عقيدة محمد بن اسماعيل ويعبدون حاكم، (الحاكم بأمر الله) الذي يجسد الله(*). وهم يطلقون على انفسهم لقب الموحدين، ويؤمنون انه العام ٤٠٠ هجرية (١٠٠٩ ميلادية)، حلت الألوهية في الحاكم، ولم تظهر للناس الا العام ٤٠٨، حين راح محمد بن اسماعيل يبشر بعقيدته الجديدة. ويعتبر الدروز العام ٤٠٩، عاماً مشؤوماً لأن الالوهية هجرت حاكم خلاله. ولكنهم يزعمون انه منذ بداية العام ٤١٠ وحتى بداية العام ٤١٢ (تاريخ وفاته) حل الله فيه ثانية.

استناداً إلى هذا الكتيب، ظهر الله ست مرات، في صورة انسان، ١) في الهند، في مدينة جين ماشين، تحت اسم العلي ٢) في اصفهان، تحت اسم البار، ٣) في اليمن، تحت اسم عليا ٤) في بلاد البربر، تحت اسم الملاّ، ٥) في مهدي في بلاد البربر، تحت اسم القائم ٦) تحت اسم المعز ٧) تحت اسم القسيس ٨) تحت اسم ابو زكريا ٩) تحت اسم المنصور ١٠) تحت اسم الحاكم، كملك مصري.

أما اهم رسل محمد بن اسماعيل، فهم:

١) حمزة.

٢) محمد الكلمة

(*) كان الحاكم هذا خليفة مصرياً، وقد اشتهر بأعماله الشريرة، خاصة في كتاب مراي «تاريخ ملوك مصر». (بوشينغ، «المخازن» الجزء ٥، ص ٣٨٤) وفي تاريخ العالم، المجلد ٢٠، ص ٤٩٣. وقد اتى هذان الكتابان على ذكر مذهب محمد بن اسماعيل الجديد.

٤) ابو الشعر

٥) بهاء الدين أو علي بن محمد السماكي

لا يأتي هذا الكتاب على ذكر محمد بن اسماعيل، كمؤسس للديانة الدرزية، غير ان الكاتب يتحدث غالباً عن حمزة بن علي رسوله الاول. واستناداً لهذا الكتاب، يبدو انه ظهر سبع مرات في العالم ١) زمن آدم، تحت اسم شعسا ٢) زمن نوح، تحت اسم بيتاغوروس ٣) زمن ابراهيم، تحت اسم داود ٤) زمن موسى تحت اسم شعيب ٥) زمن يسوع المسيح، تحت اسم اليعازر ٦) زمن محمد تحت اسم سلمان الفارسي ٧) زمن سيد، تحت اسم صالح. وهو مؤلف كتاب القوانين الدرزية الاساسي، الذي يوازي مؤلفي اسماعيل وبهاء الدين أهمية، فهما يحترمان العهد الجديد اكثر من كتب الديانات الاخرى، ويعتقدان ان حمزة هو الذي وضعه، مما يعني ان المدعو حمزه هو المسيح الحقيقي وقد تجسد في صورة رسول، وعلم القانون ليسوع المسيح، الذي يسميه الكاتب المسيح الدجال. كما وانهما يدعيان ان ارواح الرسل الدروز الاخرين قد حلت في جسد تلاميذ يسوع المسيح ورسله.

غالباً ما يستعمل الدروز عبارتي الملائكة والشياطين، الاولى للدلالة على اتباع حاكم والثانية على الكفار. أما الملائكة الخمس الذين يحملون عرش الله، فهم ٥ رسل ١) جبرائيل، ويعني حمزة ٢) ميكائيل ويعني محمد بن وهاب ٣) اسرافيل، سلامة بن عبد الوهاب ٤) عزرائيل، بهاء الدين ٥) مطروم، علي بن احمد. والجدير ذكره ان كل واحد منهم يحمل لقباً معيناً كالقديم والمنابر، والبوق وغيرها.

وهم يؤمنون ايضاً ان الحاكم سيظهر مرة اخرى في شكل انسان، بعد ان ينتصر المسيحيون على المسلمين، فيحكم بعدها الحاكم العالم بقوة السيف. ويرفع الديانة الدرزية فوق الديانات الاخرى، مثيرين بذلك فرح المسيحيين وتعاسة المسلمين

في سبيل الكشف عن حقيقة هوية كل من يدعي انه درزي علماني (علماً ان ذلك قد يحصل بسهولة بالغة، لأن العلماني يجهل تعاليم دينه) يطرحون عليه السؤال التالي: هل يزرع الفلاحون في بلادك العدس؟ فإن اجاب نعم نزرعه في قلوب المؤمنين، فذلك يدل على انتمائه لمذهبهم(*)، علماً

(*) علم مسيحيو حلب ان الانكليز المقيمين فيها، يعقدون اجتماعات سرية، ويتبادلون بعض الاشارات للتعرف على جماعتهم. فخطر لهم ان الدروز هم من الماسونيين، واشير هنا الى أن سكان حلب لم يكونوا فكرة سيئة عن الماسونية كما فعل سكان بعض المدن الاوروبية، فقد ارسل الماسونيون، الخبز الى السجون، ووزعوه على المسلمين والمسيحيين واليهود، دون ان يكشفوا عن هويتهم. وبعد ان كشف امرهم، ذاع صيت هؤلاء الاوروبيين الذي يعقدون اجتماعات سرية، شأنهم شأن الدروز والاسماعيليين، الذين يتميزون بسيرتهم الحسنة، وبأعمالهم الخيرة، قد يمارسون اعمالاً شيطانية خلال اجتماعاتهم.

انهم لا يقبلون ابداً بالمرتدين حديثاً إلى الدين، اذ يعتقدون ان الغريب الذي يرغب باعتناق ديانتهم، يعود بعد مماته إلى ديانته الاولى.

وفي ما يتعلق بواجبات الدرزي، اليكم ما قرأته في المخطوطة نفسها، ينبغي عليه عبادة الحاكم بصفته الله، وتصديق ادعاءات شيوخ العقل حول دينه دون القيام بأبحاث لاحقة والايمان بأن روح الميت تنتقل إلى جسد مولود جديد، والامتناع عن القسم، والاكتفاء بالاجابة بنعم أو لا، والكشف عن اسرار ديانته لامرأته، دون ان يفشي بحكمته لأي شخص غريب. ويجب عليه ايضاً اللجوء إلى الوحدة، وتقديم الصدقات لإخوانه، والايمان بأن اتباع الديانات الاخرى، وخاصة الاعيان منهم، الذين يتعدون على اموال رعاياهم يعرضون انفسهم لاحتقار الحاكم (الله) لهم، ويحظر عليه بالتالي تناول الطعام في منازلهم، والاكتفاء باحترام شيوخ العقل، والايتام، وكل من يقتات من فاكهة الحقول والبساتين، خاصة وانها املاك شرعية. يحرم على الدرزي ارتكاب الزنى. يقول الكاتب انه اذا ارتكب شيخ العقل الزنى واراد ان يكفر لاحقاً عن ذنبه عليه ان يتندم عن مآثمه خلال سبع سنوات أمام شيوخ العقل الاخرين، ولكن ان رفض التكفير عن ذنبه، حلت روحه بعد مماته في جسد رجل كافر.

يعتنق النصيريون ديانة خاصة بهم، يجهلها اتباع الديانات الاخرى، غير ان زعماءهم، الذين تربطهم علاقات عمل بالاتراك يدعون انهم من اهل السنة(*). وهم يكثرون بين جبل لبنان وانطاكية. ويقيم احد المقدمين(**) في بهلولي، على مقربة من اللاذقية. وهو الاكثر نفوذاً بين النصيريين كافة. ويقيم مقدم آخر في سمرين، في بلاد الشواب، في اقليم صفطا، ومقدم ثالث في جبل كلبية وهم يدفعون الجزية لباشا طرابلس، علماً انهم يصدرون التبغ الذي تنتجه اقاليمهم، إلى كافة انحاء البلاد. غير ان عددهم لا يوازي عدد الدروز، واتباعهم لا يقطنون ابداً في أعالي الجبل، مما يعني انهم يخضعون كلياً لسلطة الاتراك(***). سمعت احد الموارنة يثني عليهم، ويزعم انهم طيبو المعشر وحسنو السيرة. فقد اصطحبوه إلى معبد نظيف ومرتب يتميز بتواضعه الشديد، حيث

(*) صادف شولتز في انطاكية وعلى طريق حلب، اشخاصاً يرتدون ملابس شبيهة بملابس المسلمين ولكنهم يدعون انهم من المسيحيين النصيريين، واصلهم من السامريين واظن انهم من النصيريين أو من اتباع المذاهب الاخرى المذكورة اعلاه.

(**) ان المقدم هو اعلى من الشيخ واقل مرتبة من الامير. كما وان لقب جندي، هو ايضاً لقب شرف لدى النصيريين.

(***) في هذا السياق، يمكنكم مراجعة كتاب بوكوك **Specimen History Arabum**، ص ٢٦٥ ـ ٢٥ وكتاب ريكو، **تاريخ الامبراطورية العثمانية** (ص ٢٢٧).

انه لم يلحظ فيه سوى قنديل مشتعل. وعلمت منه ايضاً ان النصيريين يحتفلون بثلاثة اعياد في السنة، يلجأون خلالها إلى الرقص للتعبير عن ورعهم. غير ان مسيحيي الشرق، لم يستطيعوا ان يزودوني بمعلومات وافية عن الديانة النصيرية، علماً ان المسلمين يعتبرونهم من الوثنيين الذين يعبدون الشمس والنجوم، واظن ان مرد ذلك إلى احترامهم الشديد للزهرة التي تدل على كوكب فينوس وعلى فاطمة ابنة محمد في آن معاً.

سنلاحظ في ما بعد ان هؤلاء النصيريين الذين سآتي على ذكرهم في «المقالة التمهيدية»، هم من المسلمين.

يقول مؤلف الكتيب المذكور اعلاه حول الديانة الدرزية، ان النصيريين كانوا قديماً من الدروز، ولكن المدعو نصير أغواهم، وحثهم على نكران ألوهية الحاكم واستبداله بعلي بن أبي طالب (صهر محمد)، واخبرهم هذا المضلل ان الالوهية حلت في اثني عشر إماماً من سلالة علي، لتختفي مع ظهور محمد المهدي (آخر الأئمة)، وتستقر في الشمس. يقول الدرزي نفسه ان النصيريين يؤمنون بالتقمص وان روح المؤمن تنتقل بعد الموت إلى جسد نصيري آخر. لتدخل بعدها في احدى النجوم. لكن ان تصرف احدهم بفظاظة ورفض الامتثال لتوصيات علي، انتقلت روحه إلى جسد يهودي أو سني أو مسيحي لتشهد بعدها تغييرات كثيرة، وتتطهر وتنتقل في نهاية المطاف إلى احدى النجوم. أما الكفار، الذين لا يعبدون علي بن أبي طالب، فتنتقل ارواحهم إلى اجساد الجمال أو البغال أو الحمير أو الكلاب أو غيرها من الحيوانات.

تتوافق هذه الروايات، مع روايات اخرى قرأتها في كتيب حول الديانة النصيرية زودني به انطون بيطار. ويقال ان حرس القاضي التركي، عثروا على هذا الكتيب في غرفة نصيري فاجاؤه ليلاً واقتاده إلى السجن. ورغم انها النسخة الاصلية، الا انها غير كاملة ومكتوبة بخط رديء، وتعابير مبهمة، حتى ان المؤلف يقول في أحد الاماكن ان النصيريين اخذوا سوراً من بلاد يأجوج ومأجوج أو انهم كانوا يستعينون في كتبهم بالتعابير المبهمة لإخفاء اسرارهم عن الكفار، ووحده النصيري يفهم ما يقصده الكاتب بالملاك جبرائيل، وبالغراب، وبالسفينة، وبالحلقة وبيلقيس، وبعصا موسى، وبسنام صالح، وببقرة الاسرائيليين، وغيرها. والجدير ذكره ان هذه العبارات تتردد في كل صفحة دون ان نعرف معناها الحقيقي أو ما تدل عليه، غير انني سأذكر في ما يلي الملاحظات التي استنتجتها:

يعرف النصيري بالمؤمن، وهو يتحدث عن وحدة الله، اي عن علي الذي سيخرج من عين الشمس ليحكم العالم، وعن الاشخاص الخمسة المجتمعين، وهم، ١) المعنى ٢) الاسم ٣) وهو يتمتع بالحكمة الحقيقية ٣) باب ٤) ايتام ٥) حسين ولكنني اعترف بأنني لم أفهم شيئاً من هذه

الخماسية، خاصة وانني لست خبيراً في هذه الديانة. ورغم انني لم افهم شيئاً من الامور التالية، الا انني اردت ان انقلها لكم لأنها تشكل اركان العقيدة النصيرية.

ظهر الله ٧ مرات في العالم، في المرة الاولى: ١ ـ معنى كان آبل ٢ ـ اسم كان آدم ٣ ـ باب، جبرائيل ٤ ـ الايتام كانوا ٥ ـ أشخاص أ ـ ميخائيل (او رئيس الملائكة) ب ـ اسرافيل (لعله الملاك الذي ينبغي عليه النفخ في الصور يوم الحساب، حسب اعتقاد المسلمين) ج ـ عزرائيل (ملاك الموت) د ـ مالك (بواب الجحيم) هـ ـ رضوان (بواب الجنة) ٥ ـ حسين، الذي كان يدعى قاش بن مغلوش. أما اعداء الله في الظهور الاول، فكانوا،١ ـ قابيل ٢ ـ عناق (اخت قابيل) ٣ ـ بابلو (وزير قابيل) ٤ ـ الافعى ٥ ـ الطاووس.

في الظهور الثاني ١ ـ معنى كان سيّد، ٢ ـ واسم نوح ٣ ـ باب، وائل بن فاطمة ٤ ـ والايتام أ ـ عنقيل ب ـ افراكون ج ـ كنعان د ـ افريكاكيل ٥ ـ افريكان ٥ ـ الحسين، حوش. أما اعضاء الله كانوا ١ ـ حام بن نوح ٢ ـ والشيخ حسا ٣ ـ يوك ٤ ـ يوفوت ٥ ـ نصر.

في الظهور الثالث ١ ـ معنى يوسف ٢ ـ اسم يعقوب ٣ ـ باب حام بن قوش ٤ ـ والايتام هم أ ـ يهود ب ـ حاشور ج ـ مالك د ـ مملك ٥ ـ عنقيل. ٥ ـ حسين، مامب بن منصور ـ أما اعداء الله فهم ١ــ خاجلول ٢ ـ سيما ـ ٣ ملك الهند ٤ ـ حبطار ٥ ـ ناتل.

في الظهور الرابع ١ ـ معنى كان يوسف ٢ ـ اسم، موسى ـ ٣ ـ باب، دان بن صبان ٤ ـ والايتام هم أ ـ يهندان ب ـ حاروق ج ـ عبد الله د ـ اسرائيل هـ ـ عمران، ٥ ـ الحسين، روبل بن صالح. اما الاعداء فهم ١ ـ فرعون ٢ ـ حمان ٣ ـ كريم.

في الظهور الخامس ١ ـ معنى، عساف ٢ ـ اسم، سليمان ٣ ـ باب عبد الله بن سمعان ٤ ـ والايتام هم ـ أ شهيرة ب ـ شاذلي ج ـ حرناش ٤ ـ مصقول ـ عصير هـ ـ ٥ ـ الحسين، يانطور دكن. والاعداء هم ١ ـ نمرود ٢ ـ عاد ـ ثمود.

في الظهور السادس ١ ـ معنى، سمعان ٢ــ اسم، يسوع ٣ ـ باب، رزوبا بن مزربان ٤ ـ والايتام هم أ ـ حنا فم الشهاب ب ـ حنا دلمي ج ـ بولس د ـ بطرس هـ ـ متى ٥ ـ الحسين، أيوش بن مانكيجا والاعداء هم ١ ـ هيرودوس ٢ ـ يابس ـ ٣ ـ توس.

في الظهور السابع، ١ ـ معنى علي ٢ ـ اسم محمد المهدي (المنتظر) ٣ ـ باب، سليمان بن بحيرد الشور ٤ ـ والايتام هم أ مقداد بن الأسود الكندي ب ـ ابو الدور ينداب بن يناذا الغفري

(*) كان عساف وزير الملك سليمان، يسمي اليوم الاتراك الوزير الشجاع والفاضل بعساف تيمناً به.

ج ـ عبد الله بن ربى النصاري د ـ عثمان بن مأذن مجاشي هـ ـ كمبار بن كاظم دوفي ٥ ـ الحسين، حمدان. اما اعداء الله فهم ١ ـ ابو شامل ٢ ـ سجد ٣ ـ سنجوق.

ويضيف الكاتب ايضاً ان النصيريين يؤمنون ان محمداً، وفاطمة، وحسن والحسين ومحسن يشكلون وحدة متكاملة تجسد علي. ويعتقد المؤمن انه ثمة ٥ ايام، و١٢ نقيباً (أو قائد من سلالة محمد) و٢٨ مختاراً، ومختصاً ومخلصاً ومنتجاً. كما وعليه ان يعترف بأربع ستائر، ١ ـ ستار الامام أو تسلسل الائمة من ابل إلى علي ٢ ـ ستر الائمة، اي الاسياد من حسن الاول إلى حسن الاخير ٣ ـ ستر الرسالة أو تسلسل الرسل، من ادريس ونوح، حود... ٤ ـ ستر النبوة، أو تسلسل الانبياء، من عنوش، واسحاق، ويعقوب...

يمين الكاتب آدم، وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد انبياء، ووائل وحمردان وعبد الله، وسلمان، وابو الشتيل، ومحمد ومفضل، وابو الشايب، رسلاً. ويدعي ان المدعو اسحاق هو اكبر عدو للنصيريين لأنه اراد ان يقتل سعيد ابو الشايب(*).

تدخل روح النصيري المؤمن الجنة، بعد ان تتنقل بين عدد بسيط من الابدان. ولكن ارواح الاخرين تمكث في ٨٠ بدناً. (هذا ما يعرف بالجحيم)، تمر روح الكافر في خمس مراحل مريعة. (فح، ونج ومح ووج ورج) لتستقر بعدها في جسد ناعج حتى عوذة الصخرا (فاطمة). فمن يخال ان مؤسسي ديانات مماثلة قد يجدون لهم اتباعاً؟.

ويفيد كتاب النصيريين ان المعنى يحظر عليهم تناول لحم الجمال والارانب والحنكليس؛ والاسم، يمنعهم من تناول لحم الخنزير، والحيوانات التي لا تذبح شرعاً؛ والباب ينهيهم عن سمك الزلور الاسود الذي يكثر في العاصي، وعن كل الطعام المحروق. علاوة عن ذلك، يفرض الكاتب على النصيريين ان يتكلموا عن تعاليم دياناتهم امام الغرباء وان يحبوا اخوتهم، وان يمتنعوا عن السرقة، وعن القسم، وعن قطع الوعود، وان يتصبروا على فقرهم وان يتحملوا سوء معاملة نسائهم لهم.

لم أجمع معلومات وافية عن الديانة الاسماعيلية، ولم اطلع على اي من كتبهم. يروي مسلمو ومسيحيو الشرق ان نساء الاسماعيليين تجتمعن ليلاً في شقة مظلمة، ويتبعهن لاحقاً عدد مساوٍ من الرجال، وبينما يلهو كل واحد منهم مع اول امرأة يقع عليها، يقرأ احد رجال الدين مقطعاً من

(*) يتحدث سالز عن مذهب شيعي يستمد اسمه من رجل يدعى اسحاق، هل هو اسحاق نفسه المذكور اعلاه؟ وهل يعرف المتاولة اتباعه بالاسحاقيين؟ سأترك للرحالة اللاحقين عناء التحقق من هذا الأمر.

كتابهم المقدس، في غرفة اخرى. وهم يعتقدون ايضاً انه يحق للأب ممارسة الجنس مع ابنته، كما يأكل البستاني فاكهة الاشجار التي زرعها بنفسه. ويضيف البعض انه خلال هذه الاجتماعات، يشمر احدهم ثيابه، ويقف في مكان مرتفع. لتتأمل المجموعة جسده. وهم يعرفون بالتالي بأبو الفرج. ولكن كم من حماقة رويت حول عقائد وطقوس قوم لا تربطهم بهم علاقات وثيقة ولا اطلعوا على أي من كتبهم.

ان عدد اتباع المذهب الاسماعيلي ليس كبيراً، وهم يقيمون في كيليس، بين شغر وحما، وفي جبل كلبيه، الذي يقع قرب اللاذقية، بين حلب وانطاكية وهم يعرفون بالقفطون، تيمناً بإحدى قرى هذه المنطقة. اما في ضواحي الموصل فيعرفون بمطفئي الشمع، وفي المناطق الكردية والتركية، فيعرفون بيك داستلي (اسياد الصخرة)، ويستهترون بطقوسهم الدينية المريعة، ولكنني لم أقع على اي شخص حضر هذه الاجتماعات أو قرأ كتاباً من كتبهم. لذلك ارجو ان لا تكون اخلاقهم فاسدة بقدر ما يشاع عنهم.

هذه هي المعلومات التي جمعتها عن اقاليم المتاولة والنصيريين والاسماعيليين، غير ان هذه الجماعات ضعيفة للغاية ولا تقوى على الوقوف في وجه الباشاوات الاتراك. اما الدروز فهم اسياد الجزء الاكبر من جبل لبنان، واقوى سكانه نفوذاً. يترأس هذه الجماعات عدد من الشيوخ الورثة الذين يختارون من كل عائلة قائداً عاماً، يحمل لقب امير، يوكلون اليه مهمة الدفاع عن قومه. يتوجب على هذا الامير ان يجدد كل سنة العقد المبرم مع الباشاوات من اجل دفع جزية الاقاليم المختلفة، وان اقتضى الامر، دعا قادة القوم للاجتماع في دير القمر، لتحديد المبلغ الذي يجدر بكل شيخ ان يجمعه من اقليمه، اما لتسديد جزية الاتراك أو لدفع النفقات الاخرى.

يتفق الشيوخ في ما بينهم على حجم الضريبة السنوية التي يجدر بهم دفعها لتحاشي سخط الباشاوات عليهم. فكان الامير حيدر يدفع سنوياً ١٦٠ كيس نقود (حوالي ٥٣٠٠٠ ريال) والامير ملحم، الذي يخشاه الاتراك ٧٠ كيساً (حوالي ٢٣٠٠٠ ريال) ويوضع مبلغ من المال جانباً لإعالة الامير الحاكم ولتأمين نفقات الاجتماعات، والمآدب من أرز وزبدة وخبز وبن وشموع وعلف للاحصنة.

تحدد الجزيات التي يدفعها الرعايا بشكل دقيق. فكل ١٦ أو ٢٠ سنة، تعمم مذكرة على كافة انحاء البلاد، يحدد فيها قدر الغلة التي يحصدها الشيخ أو النبيل أو الفلاح من حقوله وبساتينه ودواليه وشجر الزيتون، وشجر التوت، وشجر الليمون وغيرها، حتى يدفع سنوياً ضريبة محددة، إما نقداً أو بالمواد الغذائية، إلى ان تظهر ضرائب جديدة. يجبي تجار بيروت وصيدا جزءاً من هذه الضريبة، فحين يزودون الامير الحاكم بالأرزّ أو غيره من المواد الغذائية يكلفهم هذا الاخير، بجباية

ضريبة هذا الاقليم أو ذاك، أو زيتاً أو خمراً أو غيرها من السلع.

يتعاقب افراد العائلة نفسها على الحكم في المقاطعات الدرزية، غير ان الابن لا يخلف دوماً اباه في الامارة. ولكن كبار الشيوخ يختارون اكثر افراد العائلة كفاءة ويعينونه خلفاً للامير الراحل، فيرسل له الباشا، كل سنة، فرماناً كتعبير منه عن تأييده له كأمير حاكم.

ويمنع الحاكم الدرزي رعاياه، من دروز ومسلمين ومسيحيين ومتاولة الحرية في بيع الاراضي والهجرة من البلاد، علماً انهم جميعاً من الجند. ويزعم ان هؤلاء القوم يستطيعون ان يجهزوا جيشاً مؤلفاً من ٤٠ الف رجل رغم ان خزينة الدولة لا تدفع الرواتب الا لمئتين أو ثلاثماية منهم، يعرفون في اوروبا بالمأمورين القضائيين. من جهة اخرى، يُعد الشيخ قائد هؤلاء الرعايا، والامير الحاكم قائدهم العام.

ومن خلال تعيينهم للامير، كان الدروز يحولون دون تعين الاتراك قائداً غريباً عليهم، شأنهم في ذلك شأن البدو. ويزعم ان إحدى العائلات، اعلنت نفسها زعيمة على الدروز، بمساعدة الباشا، الذي قادها على رأس جيش كبير إلى دير القمر، وفرضها على سكانها. ولكن تصرفه هذا أثار سخط كبار الشيوخ، فاضطر للتخلي عن منصبه.

غير ان هذه المسألة ولدت الانشقاقات، فحرص الاتراك بالتالي على اثارة الفتن بين القبائل العربية، التي تعيش في الخيم، قرب القرى الكبيرة.

ذاع صيت الدروز في اوروبا في عهد الامير فخر الدين المعني الكبير. اذ لم يكتف ببسط نفوذه على جبل لبنان من عكا إلى اللاذقية، بل استولى ايضاً على المدن الساحلية التركية، ومنها صيدا، وطرابلس، ونهب دمشق مرة واحدة. ولكن في عهده، انقسمت البلاد إلى فريقين: عرف الفريق الاول بالقيسي، وعلمه احمر، ويساند الامير فخر الدين، بينما عرف الفريق الثاني باليمني وعلمه ابيض، وهو يقاوم الامير، وبعد ان حظي الفريق الثاني بمساندة الاتراك له، استطاع ان يرغم فخر الدين على التخلي عن منصبه لابنه البكر علي، ومغادرة البلاد إلى ايطاليا، حيث قضى بعض الوقت في فلورنسا. بعد مرور فترة وجيزة، عاد الامير إلى سوريا، علماً ان الفريق اليمني كان يتمتع بمساندة الباشاوات له، فأرسل الاتراك اسطولهم إلى صيدا. فخسر ابنه علي حياته في احدى المعارك، وحوصر والده فخر الدين من جميع الجهات واضطر للفرار إلى جزين والاختباء في احدى المغاور. وفي نهاية المطاف استسلم للاتراك، شرط ان يقاد للمثول امام السلطان في القسطنطينية. ويقال انه كان سيعاد إلى الحكم لو لم يعين ابن اخيه ملحم اميراً خلال هذا الوقت، لأن الاتراك يقدرون فخر الدين، ويحبذون فضائله فهو انسان حكيم وكريم، اغدق على

القسطنطينية الهدايا، وخاصة على كبار ضباط السلطان. وبعد توقيفه، كان من المقرر ان يستلم الامارة ثانية. ولكن الامير ملحم فاجأ الاتراك بقتله عدداً كبيراً منهم مما اثار سخط السلطان، الذي امر بقتل فخر الدين على الفور.

لم استطع ان اعرف كم من الوقت استمر حكم المعنيين. يقول ارفيو ان الاميرين احمد وقرقماز، ابني الامير ملحم، تسلما الامارة، وحكما البلاد معاً، وتزوجا فتاتين من عائلة شهاب. ولكن الامير قرقماز قتل بطريقة وحشية على يد الاتراك. يقول لاروك، في كتابه «رحلة إلى سوريا وجبل لبنان» الجزء الثاني ص ٢٧٥، ان المدعو أبو موسى ابن علاء الدين، خلف الامير احمد في الحكم، غير انني لم اعرف ابداً ان كان ابو موسى هذا من المعنيين ام لا.

يحكم الشهابيون اليوم الجماعات الدرزية، يدعي الموارنة انه بعد وفاة معظم افراد عائلة معن، لم يشأ الامراء والشيوخ تعيين واحد منهم، لأنهم متساوون جميعاً، ولا يقبلون باختيار واحد منهم زعيماً عليهم، فوقع بالتالي الخيار على الامير حيدر من آل شهاب، وكان حاكماً على حاصبيا وتربطه بالمعنيين علاقة وطيدة. سمعت ان عائلة شهاب، الحاكمة حالياً في جبل لبنان، تتألف من ٢٠ أو ٢٥ فرداً فحسب. كان الامير حيدر ابن الامير منصور، وشقيق الامير شهاب، ووالد الامير قاسم، الذي عُمّد وخُتن رغم انتمائه للطائفة الدرزية، ويقيم اليوم في مدينة غزير المارونية..

انجب الامير حيدر من زوجاته الثلاث، احمد، ملحم، منصور، علي، معن، يونس، وحسين وقاسم، وانجب هذا الاخير ابناً اسمه علي، فأنجب بدوره صبياً اسماه بشير. بعد موت الامير حيدر استلم ملحم الحكم رغم انه سني، من دمشق. وأنجب اميراً اسماه يوسف. اما ابناؤه الاخرون فهم، محمد، علي (وكلاهما اكبر من يوسف) قاسم، عمر والامير افندي. حالف الامير ملحم الحظ في حملاته كلها، ولم يخسر المعارك التي خاضها ضد المتاولة والعرب والباشاوات الاتراك. وبعد ان حكم البلاد ٢٥ سنة، طلب ابن الشيخ ضاهر منه العون، ضد ابيه. ولما شعر بضرورة تلبية النداء، دعا إلى اجتماع لمناقشة هذه المسألة. ولكن الشيوخ الدروز رفضوا تقديم العون لهذا الابن العاق، فأعاد حينئذٍ الامير ملحم ختم الامارة وانضم إلى شيوخ العقل ولكنني لا اظن ان هذه القضية وحدها دفعته لاتخاذ هذه الخطوة الجريئة. وبعد تصميمه على الاستقالة، اختار الدروز (سنة ١٧٥٤) الاميرين احمد ومنصور، شقيقي الامير ملحم، ليحلا محله، وبعد موت الاول، استلم منصور دفة الحكم لوحده. وبقي حياً حتى العام ١٧٧٣ وانجب صبياً اسماه سمعان.

ينقسم اعيان الدروز إلى جنبلاطيين ويزبكيين، ورغم ان عددهم كبير. إلا انهم يحكمون مقاطعة صغيرة، وانني اعني بكلامي هذا العائلات التي تختار الامير الحاكم، أو عقد الصلح. أما أهم

العائلات التي تجتمع في دير القمر للبحث في هذه القضايا فهي(*):

١ ـ شيوخ آل جنبلاط

٢ ـ شيوخ آل بوهرموش

٣ ـ شيوخ آل شمس

٤ ـ شيوخ آل عيد

٥ ـ شيوخ آل بو نكد

٦ ـ شيوخ آل شويفات

والجدير ذكره ان هذه العائلات كلها موالية للشيخ علي جنبلاط بينما العائلات التالية موالية للشيخ عبد السلام اليزبكي:



١ ـ شيوخ آل يزبك



٢ ـ شيوخ آل بوعلوان

٣ ـ شيوخ آل تلحوق

٤ ـ شيوخ آل عبد الملك

٥ ـ شيوخ آل ابي اللمع

يحمل افراد بعض العائلات، لقب امير. كآل شويفات وآل ابي اللمع. ويقال ان العائلة الاولى اكتسبت هذا اللقب منذ عدة قرون. غير ان معظم افرادها متوسطو الحال، لأن الابن الاصغر يرث والده شأنه شأن الابن البكر. أما عائلة ابي اللمع فلم تكتسب هذا اللقب الا منذ ١٥٠ سنة(**) علماً ان هذه العائلة تملك قرى عديدة. على خلاف شيوخ هذه المنطقة، يحق لهاتين العائلتين ان ترتبطا بعائلة شهاب بالزواج، اذ ان الامراء لا يقترنون ببنات الشيوخ، ولا يتخذ الشيوخ لهم زوجات من الطبقات الادنى مستوى. وفي المقابل، يحق للشيخ التصويت في الاجتماعات شأنهم شأن امراء آل شويفات وابي اللمع.

(*) في هذا القسم تصحيف وخلط ولذا فإن مؤسسة الانتشار العربي تحيل على «أخبار الأعيان في جبل لبنان» لطنوس الشدياق وللوقوف على الموضوع وفوقاً سليماً وصحيحاً (الانتشار).

(**) لعل مرد ذلك الى زواج احد افراد العائلة من ابنة شيخ او امير. فيحظى ابناء هذه السيدات بلقب امهاتهم. انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

يتنوع المناخ في الاقليم الدرزي. فعلى الساحل ترتفع درجات الحرارة، بينما يغطي الثلج جبل لبنان في الشتاء. ويحث هذا الامر الدروز على تغيير مكان إقامتهم بشكل دائم، كي يتمتعوا بربيع دائم. يتميز مناخ جبل لبنان بلطافة هوائه، حتى ان معظم الناس ينامون في الصيف على سطوح منازلهم. أما الامطار فتهطل بغزارة وتغذي الينابيع والانهر التي تروي الوديان المجاورة يثني النبي يوشع في الاصحاح الرابع على نبيذ جبل لبنان، ويؤكد انه في غاية الجودة.

يزرع السكان اشجار التوت والزيتون، ويتاجرون بالحرير والزيت. كما وانهم يصدرون القطن، والصوف، والمن والعفص وزهر الليمون، والصابون والحنطة. وهم يقطفون فواكه ممتازة، ويملكون حقولاً غنية. اما التبغ فيزرع بكمية قليلة في المناطق الدرزية بينما يعد تبغ اللاذقية الذي يزرعه جيرانهم النصيريون من اجود انواع التبغ في المنطقة. بعبارة اخرى، تتوفر في هذه البقعة الصغيرة من الارض، كل ما يحتاجه الانسان في حياته اليومية. إليكم المعلومات التي جمعتها عن الاقاليم والقرى، والضواحي التابعة لهذه المقاطعة.

١ ـ اقليم الشوف، الذي يضم:

أ ـ وادي المناصف، دير القمر، الواقعة في جوار نهر الدامور، على بعد يوم من صيدا، يقيم في هذه المدينة الامير الحاكم، وهي تضم اصرحة كبيرة بعضها ملك للدولة، وبعضها ملك للشيوخ والامراء، الذين يعقدون فيها اجتماعاتهم أو يمضون فيها فترة الصيف، ونجد فيها ايضاً جامعاً كبيراً له مئذنة.

بلدة بعقلين، التي يقطن فيها الدروز والمسيحيون، وهي تمتاز بجودة دواليها: قرى كفر قطرا، دير دوريت، مشفتي، بستان الدوير (كذا)، عين المعاصر، بتدين، وقريتا كفر محمد والناعمة، الخاضعتان لنفوذ آل بو نكد، حيث نجد ديرين للموارنة.

ب ـ الشوف الحيثي، يقيم في هذه المنطقة احد مشايخ العقل، وهي تضم، بلدة المختارة، مقر الشيخ علي جنبلاط، زعيم الحزب الذي يحاول الحد من نفوذ الامير الحاكم.

قرى بعذران، عماطور، عين قنية، المزرعة، نيحا، التي تضم اغلبية درزية، واقلية مسيحية، ونشاهد قرب قريتي مشموشي وقيتولة، أديرة للموارنة، تخضع لنفوذ آل جنبلاط

٢ ـ اقليم العرقوب، الذي يضم: بلدة الباروك، حيث يقيم الشيخ عبد السلام من آل يزبك. وهو زعيم الحرب الموالي للامير الحاكم.

٣ ـ اقليم الجرد، وهو يضم قرى عين زحلتا، عين دارا، رشميه، وتضم هذه القرية الاخيرة ديراً للموارنة، يخضع لنفوذ آل شهاب.

٤ ـ اقليم جزين، لم أجمع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يضم المغارة التي حوصر فيها فخر الدين.

٥ ـ اقليم الشحار، وهو يضم بلدة كفرمتى.

٦ ـ اقليم الخروب، الواقع بين دير القمر وصيدا، وهو يضم قرى برجا، وشحيم، وعين مزبود، وعانوت، حيث نجد دروزاً ومسيحيين ومسليمن، غير ان هؤلاء الاخرين يقيمون في قرى منفصلة، حيث بنوا لهم جوامع. كان المسلمون راضين من حكم الدروز اكثر من حكم الاتراك. لذلك، ألبسوا قراهم ابهى حلة، اذ كانت تكثر فيها الفاكهة على انواعها، واشجار الزيتون، التي تعطي اجود انواع الزيت.

ونجد في اقليم الخروب على بعد ثلاثة فراسخ من صيدا، دير المخلص، حيث يقيم بطريرك الروم الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية.

٧ ـ اقليم التفاح، الواقع على حدود قرى المتاولة، من جهة منطقة صور، يتألف سكانه من الاغلبية السنية وهو يضم قرى جباع الحلاوي، كفرحونة.

٨ ـ اقليم سوق الغرب، ويضم قرى عين النبع وبشامون والشويفات. يملك الروم ديراً في هذا الاقليم تابعاً لنفوذ آل تلحوق، والموارنة ديرين خاضعين لسلطة امير من آل شهاب.

٩ ـ اقليم صليما، ويضم بلدة صليما، ومقر امير من آل ابي اللمع، وديراً للروم وديرين للموارنة، يقيم مطران في واحد منهما.

١٠ ـ اقليم الراس، ويضم بلدة الراس ومقر اقامة درزي من الاعيان يحمل لقب امير.

١١ ـ اقليم برمانا، ويضم بلدة برمانا، ومقر اقامة احد الامراء، وديرين للموارنة، وآخر في نهر الكلب.

١٢ ـ اقليم القاطع، الواقع في كسروان وهو يضم اغلبية مارونية، بنت لها ثلاثة اديرة خاضعة لحكم الامير ابي اللمع. ونذكر من قرى هذا الاقليم قريتي بكفيا وبيت شباب. تنتج هذه المنطقة افضل واجود نبيذ في جبل لبنان فهو يحفظ في جرار كبيرة، كان يحفظه يهود اليمن وأرمن بلاد فارس، وسكان الاراضي المقدسة، في زمن يسوع المسيح. ويشتري السكان البراميل الصغيرة من قبرص ليصدروه منها إلى الخارج.

١٣ ـ اقليم بسكنتا، ويضم اغلبية مسيحية وخمس كنائس ومقر الامير، فضلاً عن دير للموارنة.

١٤ ـ اقليم المتين، ويضم دروزاً وميسحيين ومسلمين، يخضعون لسلطة الامير المقيم في بلدة المتين. يملك الموارنة ديرين في هذا الاقليم، كما وان الروم يملكون ديراً قرب قرية الشوير ومطبعة شهيرة، غالباً ما نشاهد كتبها في المكتبات الاوروبية(*).

١٥ ـ اقليم حمانا، لم اجمع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يضم بلدة ومقر مقدم.

١٦ ـ اقليم الشبانية، الذي اطلق عليه هذا الاسم تيمناً بإحدى القرى.

١٧ ـ اقليم عين دارا الذي يحكمه عدة شيوخ، ويحمل اسم قرية صغيرة.

١٨ ـ اقليم كسروان، ويبلغ طوله وعرضه مسافة يوم سير، ويمتاز بغناه بالفاكهة وخاصة التوت والعنب والزيتون.

حكم هذا الاقليم في عهد الامير فخر الدين، مسلم يقيم في غزير ويدفع الجزية لباشا طرابلس، غير ان الامير المذكور تعاون مع الموارنة، لطرد عائلة المسلم، وبتسليم الحكم لهم. اما اليوم فلا يقيم في هذه المنطقة سوى درزي واحد من آل شهاب. ولا يدفع سكانها سوى ٣٠ كيساً للامير الحاكم في دير القمر. وان اعلن الدروز الحرب على جيرانهم، يجبر الموارنة على إرسال جيش لهم بقيادة شيوخهم. ويسمح لهم بارتداء الملابس الخضراء وباعتمار عمامة خضراء، علماً ان هذا الشرف لا يمنح، في المقاطعات التركية الا لذرية محمد. ويتمتع هؤلاء القوم بثقة الدروز ويسمح الشيوخ والأمراء للموارنة بتربية اولادهم شرط ان تعنى النساء بالفتيات والرجال بالصبية.

ويعهدون اليهم كافة اعمالهم، ويستخدمونهم كأمناء سر ووزراء. بعبارة اخرى، يشغل الموارنة لدى الدروز المناصب التي تتطلب حكمة ووفاء. ولكن شيوخ العقل الدروز يرفضون ان يترعرع اولادهم في منازل شيوخ الموارنة، حتى انهم يرفضون تناول الطعام معهم. وان اراد سيد ما ان يعاقب درزياً على خطأ ارتكبه، تسعى عائلة هذا الاخير للانتقام. بينما يغضّ المسيحي وعائلته الطرف عن كل ما يفعله به سيده.

سيطرة الموارنة على جبل لبنان

يعتقد الموارنة ان البابا هو رئيس الكنيسة، نجد من بينهم يسوعيين وفرنسيسكان وكبوشيين لذا فإن علاقتهم بالاوروبيين تعتبر اوثق من علاقة اي امة شرقية بهؤلاء الاخرين إلا انهم لا يهتمون

(*) شاهد اتيان شولتز هذه المطبعة بنفسه. يرجى مراجعة كتاب رحلاته، الجزء ٥، ص ٤٥٢، وهو يسمي الدير المذكور دير حنا الشوير.

كثيراً بأمور العلم والفن كجيرانهم الدروز والعرب والاتراك. ولا يحبذ الموارنة تربية اولادهم في اوروبا لأن هؤلاء لا يأخذون عن الاوروبيين إلا عاداتهم وهم يؤذون بذلك بلدهم اكثر مما يفيدون[1]. وقد اكد لي الناس أن ٣٠ شاباً مارونياً يمكن ان يتلقوا العلوم والمعارف مجاناً في مدرسة الموارنة في روما الا ان أربعة أو خمسة شبان فقط يذهبون إلى روما لأن الفقراء الموارنة يخشون من ان يتشرب أولادهم العادات الاوروبية، وهكذا فإن احد الموارنة الذي تعلم في اوروبا كاد أن يموت من الجوع في بلده لأنه لم يجد اي عمل يعتاش منه غير الانضمام إلى رجال الدين علماً ان عائدات رجال الدين الشرقيين ليست جيدة كعادات نظرائهم الغربيين.

إن مشايخ مسيحيي الشرق يخدمون شعبهم كواجب مفروض عليهم. ومع انهم من جباة الضرائب الا ان الدروز لا يدفعون لهم شيئاً ويحرص باقي الشيوخ وعامة الشعب على عدم إعطائهم من المال ما يزيد عما عليهم دفعه للدروز. هؤلاء الشيوخ انفسهم يصبحون الرؤساء في أيام الحروب. ولأن طريقتهم في القتال تختلف كثيراً عن طريقتنا فإن اي ماروني عمل كضابط في أوروبا سيجد الناس يسخرون منه ويستبعدونه عن المعارك خاصة إذا اراد ان يعلم الفلاحين طرق القتال الاوروبية. إن المحاكم عند الموارنة نادرة اكثر منها عند الاتراك. عندما ينشأ خلاف بين الموارنة يذهبون إلى المطران أو البطريرك على انه رئيس امتهم كما ويختارون حكاماً آخرين يمكن ان يكونوا مسيحيين ودروز ومسلمين.

عام ١٦٠٠ عندما كان دنديني (Dandini) في جبل لبنان لم يسمع شيئاً عن الامراء الموارنة وكان يسميهم نواب الكهنة[2]، ولا نزال نجد في كسروان وفي اقليم باشا طرابلس ثلاث عائلات يعتبرها المسيحيون من العائلات العريقة وهي: حبيش والعاقوري والخازن. يزعم ابناء عائلة حبيش ان اسلافهم كانوا ذائعي الشهرة منذ سبعة إلى ثمانية قرون وانهم كانوا يملكون عدة قرى في جبل لبنان. حالياً هناك اكثر من مئة شخص من حاملي اسم هذه العائلة يلقب الاغنياء منهم باسم شيخ

(١) من النادر جداً، ان يعجب الشرقيون بأوروبا خاصة اذا لم يتركوا بلادهم منذ الطفولة. وهم لا يستطيعون الحفاظ على ألقاب الشرف فيها. اليكم مثالاً على ذلك: ترك ارمني شديد الثراء اصفهان في ايام الحروب الداخلية وحمل معه ثروته الى البندقية حيث اصبح كونتاً. ثم بقي في اوروبا لأن التنقل صعب عليه وهو في سن متأخرة. إلا اني وجدت ابنه في البصرة يعيش على الطريقة الشرقية، ولا يهتم حتى بمحادثة الاوروبيين الذين يأتون اليها. ان صديق رحلتي الى فارس الذي ذكرته آنفاً كان قد أرسل من قبل الوالد وكذلك التاجر الياس الذي عمل والده كمترجم في مدريد لم يطلب له العيش في اسبانيا.

(٢) رحلة الى جبل لبنان قام بها الأب جيروم دنديني، لقد زوّد ترجمتها الفرنسية بالملاحظات رجل الدين فرانسوا ريشار سيمون.

من قبل باقي المسيحيين الذين يحتاجون لمعونتهم. وبما انه في هذا البلد لا يميّز الابناء عن بعضهم وتوزّع الاراضي بالتساوي عليهم لذا نجد الكثير من ابناء هذه العائلات الذين يجدون انفسهم مضطرين للعمل كموظفين أو كمعلمين عند الدروز واحياناً يمارسون مهناً بائسة دون ان يهتم بهم الموارنة الاخرون أو ابناء الديانات الاخرى[1].

انقسمت عائلة حبيش إلى اربعة فروع:

١ ـ اولاد بو يزبك وهو فرع كبير يسكن اهله في غزير وغوسطا والساحل وبيروت.

٢ ـ اولاد بو شديد

٣ ـ اولاد عادل ويسكنون في غزير.

٤ ـ اولاد بو نزار ويسكن جزء منهم في غزير والجزء الآخر في الساحل[2].

تقيم عائلة العاقوري في أراضي باشا طرابلسي وهي عائلة قديمة لكنها فقيرة وبالرغم من ذلك فهي متمسكة جداً بعراقتها وتفضل الا تتزوج بناتها أبداً على ان يتزوجنّ من موارنة لا ينتمون إلى العائلات العريقة. في هذه العائلة ٢٠ شيخاً تقريباً.

إن عائلة الخازن هي الاكثر ثراء لكن عمرها لا يزيد عن ١٥٠ عاماً إن اول شخص من هذه العائلة صار مشهوراً في جبل لبنان هو ابو نادر. شغل منصب وزير عند الامير فخر الدين اي كان مستشاره الشخصي وامين خزنته وفي الوقت نفسه ضابطاً شجاعاً. كان ابنه يدعى نادر الخازن لكنه غيّر اسمه وصار يكنّى باسم ابنه: ابو نوفل.

كان الوالد قد جمع ثروة كبيرة من جراء خدمة الامير فخر الدين واشترى اراضٍ عديدة ثم قرىً بأكملها في كسروان. صار الشيخ ابو نوفل يضاعف ثروة والده لأنه واولاده خدموا الأمراء التاليين. وهذا هو الشيخ الذي كان اول من سمح للرهبان الاوروبيين ببناء اديرتهم في جبل لبنان كما واعطاهم بيوتاً. كان ذلك كافياً لذيوع صيت هذا الشيخ في اوروبا. صار الرهبان يكتبون في رسائلهم إلى روما وباريس عن امير كبير محسن يحمي الديانة الكاثوليكية من الكفار الذين يحيطون بها. لذلك نصبّه البابا هو وابنه فارسين.

أما ملك فرنسا فعيّنه قنصلاً له في بيروت. وكان هذا قد أعطى لنفسه لقب امير الموارنة فصار

(١) يقال ان واحداً منهم كان حلاقاً وهي مهنة يحتقرها اهل الشرق (راجع وصف شبه جزيرة العرب)

(٢) يدعى بعض الشيوخ العرب بني يزبك وبني شديد...يمكن ان يقرر فقهاء اللغة ما اذا كان الموارنة يلقبون انفسهم بأولاد كذا او ابو كذا ليتميزوا بذلك عن المسلمين أو لأنها عادة قديمة عند السوريين.

الرهبان يسمونه هكذا في رسائلهم فما كان من البابا وملك فرنسا الا ان صاروا يخاطبونه بهذا اللقب. إذن سميّ ابو نوفل اميراً من قبل الاوروبيين في الوقت الذي كان فيه مشايخ عائلتي حبيش والعاقوري لا يعتبرون عائلة خازن عائلة عريقة.

ترك الشيخ ابو نوفل قصة حياة الامير فخر الدين لكن يشكك في انه لم يكتبها بنفسه بل ساعده في ذلك الرهبان الاوروبيون لجعله كاتباً ذائع الصيت. لقد عرفه آرفيو (Arvieux) وروك (Roque) شخصياً وحكيا عنه مطولاً. كان الاخير مسافراً والتقى به عند الرهبان الذين تلقوا حسنات كثيرة منه وكانوا ينتظرون المزيد. وقام بطبع الرسائل التي ارسلها اليه ملك فرنسا ووزراؤه كي لا يترك اي سبيل للاوروبيين للشك في ان الشيخ كان شخصية مهمة. أما ارفيو الذي عاش عدة سنوات في السيدة (Seide) والذي قام بأعمال كثيرة مع أبي نوفل وصفه عكس ذلك تماماً كما أتخيل اي شيخ ماروني في موطنه وقد اتعب الرهبان رأسه بألقاب الامارة والقنصلية.

توزع خلف أبي نوفل إلى فروع خمسة هي:

١ ـ اولاد بو كنزو والمقيمون في غوسطا

٢ ـ اولاد بو ناصيف في عجلتون

٣ ـ اولاد بو نوفل في غوسطا وعجلتون

٤ ـ اولاد موسى في ذوق مكايل

٥ ـ اولاد بو شديد في ساحل المتن

لو أن الرهبان الاوروبيين لم يبقوا في جبل لبنان لما كنا سمعنا المزيد عن الامراء الموارنة. لكنهم إلى اليوم يذكروننا بهم دائماً. وغالباً ما يرسلون ابناء محسنين، أفقرتهم الحروب الداخلية أو قطاع الطرق المتاولة إلى أوروبا باسم امراء جبل لبنان أو امراء فلسطين، يعطون الشيخ رسائل توصية إلى روما. وبما انه كاثوليكي يحرص من في روما على اعطائه رسائل اخرى للامبراطور. لدى وصوله إلى فيينا يقدم اليه مسكن مجاني ويحصل كل شهر على مبلغ من المال يعتاش منه. كما ويعطيه مدير المحطات بطاقة مرور تخوله التنقل مجاناً ليس في بلدان الامبراطور وحسب بل وايضاً في كافة الامبراطورية الرومانية، ويعطيه وزير الخارجية رسالة توصية إلى كافة الملوك والامراء، وهكذا يشحذ سيادة الامير حيثما ذهب زاعماً ان الاتراك والعرب والمتاولة والنصيريين وباختصار كل الكفار قد سلبوه اراضيه وان حتى زوجته واولاده الامراء والاميرات اضحوا في السجن. وهو لا يتنبهون في سفرهم الا إلى اسماء المدن التي يمرون بها وأنواع العملات

المستعملة في كل بلد والحسنات التي يحصلون عليها والمقاهي التي يدفعون لهم فيها والأموال التي دفعوها للجمارك. وهم بغالبيتهم لا يعودون إلى بلادهم الا بعد ان يكونوا قد جمعوا المال الكافي لشراء بستان فيه شجر زيتون وتين وبعض الاراضي. حينئذٍ يخبرون اهلهم بالحفاوة التي استقبلهم بها الملوك والامراء الاوروبيون ويسخرون منهم لأنهم دعوهم إلى موائدهم بصفتهم امراء. وسرعان ما يتمنى احد اصدقائهم القيام برحلة مماثلة ليس رغبة بالدين المسيحي بل لجمع المال. فيأخذ خارطة الطريق ويستعلم عن المدفوعات والمداخيل التي يمكن ان يحققها امير الزيتون (هكذا يسميهم ابناء بلدهم على سبيل السخرية) العائد ويأخذ رسائل توصية إلى روما يكتبها له بعض البطاركة والرهبان الاوروبيون (لقاء بعض المال أو لقاء بعض الهدايا) ثم يشتري سيفاً جميلاً وخنجراً رائعاً ويستأجر خادماً قام بهذه الرحلة من قبل ثم يتجه نحو اهم بلدان ومدن اوروبا حيث قبض صديقه الامير المزيّف اكثر ممّا دفع.

لقد اغدقت هذه المهنة اموالاً طائلة على الأمراء الموارنة الذين قاموا بالاسفار. اما الاسياد الاوروبيون فلم يرغبوا قط في معرفة الحقيقة. لقد كان الفضول يتملكهم هم وسيدات البلاط للتعرف على امير عربي أو على امير من جبل لبنان أو من فلسطين. ولم يكونوا يكتفون بالاستماع إلى أقواله بل ويدعونه إلى ولائمهم ومتى اشتدت الروابط معه يرسلون اليه الهدايا. لكن هذه المهنة لم تعد تدرّ الكثير من الاموال على امراء الزيتون بسبب الاعداد الكبيرة التي تفد منهم إلى أوروبا. عرفت عدداً من امراء الزيتون في اوروبا وكانوا يتذمرون من أن الملوك والامراء لم يعودوا سلسين كما في السابق اذ انهم لا يسمحون لهم بالتجول مجاناً في كافة المدن والقرى كما كانوا يفعلون في السابق ويجنون الهدايا من الناس ويطلبون المال من الفلاحين الذين يدفعون لهم دون تردّد لأنهم طردوا من بلدهم على أيدي الكفار. ولأن الفلاحين يحبون رؤية الأمراء العرب في ثيابهم الشرقية (التي يزينها هؤلاء الامراء الشحاذون بالذهب والفضة على طريقة الشرقيين) كما لو انه حيوان غريب في السوق أو فانوس سحري... لكن نظراً لكثرة هؤلاء الامراء الوافدين بدأ مسؤولو القرى والفلاحون يسأمون منهم. لهذا السبب لم يعد الامراء الاوروبيون يسمحون لهم باللف والدوران بل صاروا يعطونهم هدية نقدية ويدفعون كلفة اقامتهم في النزل احياناً ثم يرسلونهم في أسرع وقت ممكن. وهكذا فإن الأمراء الموارنة هم اسرع من يقوم بأسفار. أنا شخصياً لم احس بالشفقة على أي من هؤلاء الامراء المزعومين الذين التقيت بهم في اوروبا سوى المدعو عبود بن شديد فلقد كان ينتمي فعلاً إلى إحدى الفروع العريقة من عائلة حبيش وكان يحمل رسالة توصية اعطاها ملك فرنسا في الماضي إلى والده ثم إليه. كان والده يملك قرىً في منطقة الفتوح بالاضافة إلى أراضٍ واسعة وبساتين وبيوت في غزير لكنه اصبح فقيراً بسبب الحروب الداخلية مع

المتاولة. وقد كان لعبدو علاقات كثيرة مع دروز من طبقات راقية. وكان يعرف بلده جيداً لذا فأنا مدين له بالكثير من المعلومات الجغرافية والبشرية التي ذكرتها في هذا الجزء وكان يتمتع بكثير من الطموح وعزة النفس ليؤدي دور المتسول في اوروبا لذا فقد منعته صفاته من جمع الكثير من الاموال. يقول البعض ان قسماً من أبناء هذه العائلة قاموا بالسفرة مرة اولى على انهم خدم ومرة اخرى على انهم امراء. أظن اني رأيت واحداً منهم في كوبنهاغن كان يرافقه ماروني شاب يرتدي ثياباً اوروبية وكان يسميه امين السر وكان في الوقت نفسه خادمه ورفيق سفره وربما يرافقه لتعلّم المهنة.

إن الموارنة مضيافون جداً في بلدهم. لأن الفنادق العامة قليلة عندهم وعند الدروز والعرب والاتراك. هناك غرفة شاغرة في منزل كل شيخ لاستقبال الضيوف والمسافرين مجاناً. ومتى كان في المنطقة نفسها اكثر من شيخ يكون دور كل منهم في شهر واحد وعليهم التنبه إلى حسن استقبال الضيف ومعاملته. احياناً يستغل الناس حسن استقبالهم. كان هناك ماروني ولد في حلب لكن عمل كخادم في فيينا فجاء إلى غزير بلباس الاوروبيين واصطحب معه مترجماً استقبله شيوخ غزير استقبالاً جيداً على انه سيّد ألماني وجعلوه يزور كافة الشيوخ الاخرين ودعوه إلى رحلات صيد وفعلوا المستحيل لجعل اقامته في لبنان لائقة جداً. بعد ستة أشهر عاد إلى دياره سعيداً بعد مضي بضع سنوات سافر إلى فيينا ابن احد الشيوخ الذين استقبلوه بحفاوة بالغة وكان متنكراً بزي امير فعثر على ضيف والده لكن بدلاً من ان يجده سيداً المانياً وجده مارونياً يعمل كتاجر في فيينا.

في خريف عام ١٧٧٧ وصل إلى كوبنهاغن رجل من عائلة حبيش ادعى انه امير من فلسطين وكان اكثر مهارة في ناحية دوره من كافة زملائه السابقين. بالاضافة إلى اللغة العربية كان يتكلم الايطالية والفرنسية وبعض الالمانية والانكليزية ولم يكن يعرف بلده جبل لبنان جيداً. اعتقد انه ابن احد الامراء المزيفين الذي سافر إلى اوروبا مع ابنه والذي مات في المانيا. اذا لم اكن مخطئاً فإن هذا الامير المزعوم قد عاش عشرين عاماً في اوروبا. فمن غير الغريب اذا ان يتكلم لغاتها. وبدا انه تعلق بنمط الحياة الاوروبية ولم يعد يرغب بالعودة إلى سوريا فقرر التجول في اوروبا قدر ما استطاع وطالما هناك اسياد يوافقون على مده بالمال الا انه افسد هذه المهنة فما عاد خلفاؤه يستطيعون الاستفادة منها من بعده.

إذا اراد القراء معرفة رأي باقي المسافرين في امراء جبل لبنان فما عليهم الا مراجعة كتاب بوكوك وصف بلاد الشرق، الجزء الثاني القسم الاول، ص ٩٦، وكتاب يوناس كورتس وستيفان شولتز الجزء الخامس. يقول الاخير ان العائلة الحبيشية العريقة تقسم إلى قسمين: «قسم يعيش

بشرف فبعض افراده يشغلون مناصب وزراء في الدولة أو ضباط عند امير جبل لبنان أو امراء اقطاعيين بينما القسم الثاني خسر كافة امواله في القمار والميسر واستحال عليه استعادتها فصار على افراده ان يعيشوا بفقر كفلاحين...» من هذا القسم الثاني يفد الأمراء إلى اوروبا. اذا قارنا هذا بما سبق نجد ان شولتز لم يجمع الكثير من المعلومات الصحيحة حول العائلة الحبيشية وان حكمه كان جائراً. إن عبود بن شديد الذي التقيت به لم يكن ابداً من هؤلاء الاشخاص الذين يتكلم شولتز عليهم. لقد زار بوكوك احد هؤلاء الامراء في غزير واليكم ما جاء به «إن شيخ الموارنة يتكلم الايطالية وامضى ثماني سنوات في اوروبا. هناك شخصان أو ثلاثة اشخاص زاروا اوروبا ايضاً ولا شك انهم رافقوه اليها وكان احدهم قد زار بريطانيا[1]. أعتقد انه سافر متنكراً بشخصية امير من جبل لبنان لأن الذين يسافرون إلى اوروبا بهذه الصفة هم غالباً ابناء الشيوخ الذين يتملكون قرىً بكاملها وابناء امراء دروز. ونظراً إلى انهم محترمون جداً في بلدهم، يعطيهم الرهبان رسائل توصية إلى اوروبا على انهم امراء من جبل لبنان. غالباً ما يعودون اغنياء لأنهم يشحذون بطريقة مهذبة حجتهم في ذلك ان الموارنة مضطهدون من قبل الاتراك لأنهم مسيحيون». سأل كوش احد رجال الدين من جبل لبنان عن هؤلاء الامراء الذين يسافرون غالباً من جبل لبنان إلى اوروبا فضحك هو والرابح الذي كان معه وأشار بأصبعه إلى فلاح يمر على حصانه ويحمل رمحاً على كتفه ويقول انه على سبيل السخرية يسمّى امير كل عربي غني يستطيع امتطاء الخيل ويحمل رمحاً على كتفه. ويحكي دولاروك في رحلته إلى سوريا وجبل لبنان قصصاً كثيرة يمدح فيها الأمراء الموارنة من غير المسافرين لأنهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد سافروا بعد بل كانوا لا يزالون يحيطون الرهبان بمعاملة خاصة.

إن أهم مناطق كسروان هي التالية:

غزير، وهي مدينة صغيرة فيها نهر يدعى المعاملتين ويصب في البحر في الشتاء. في الصيف تستهلك مياهه كافة في الحقول والبساتين. إن سكان هذه المدينة هم جميعاً مسيحيون وبغالبيتهم من الموارنة. يمتلك شيوخ عائلة حبيش غالبية البساتين والحقول المجاورة. يجمع اربعة شيوخ يترأسون هذه العائلات الضرائب المفروضة والتي تدفع لأمير الدروز وفي ايام الحروب يصبحون قادة على السكان. لا يوجد حاكم أو قضاة في هذا القطر. هناك خمس كنائس في غزير وبالقرب من الضواحي هناك دير للموارنة وآخر للأرمن الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية.

---

(١) الماروني لا يأخذ معه الكثير من الخدم الى اوروبا. ربما كان هؤلاء خدم عند غيره او انهم سافروا الى اوروبا بصفة امراء مزعومين (الجزء II).

إن قصر الامير المسلم الذي طرد فخر الدين من هنا صار منذ بضع سنوات ملكاً لأبي شدول من عائلة حبيش. ولشدة ما كان هذا الاخير كريماً مع راهب كبوشي فرنسي، أراد ان يهديه القصر لكن الراهب كان واعياً فلم يوافق على اخذه مجاناً فاشتراه صورياً بقيمة ٣٢ قرشاً، وهكذا تأكّدت جماعة الكبوشيين من أن ورثة هذا الشيخ لن يطالبوا بالقصر أبداً لأن عقد الشراء بحوزتهم. إذاً فالكبوشيون يسكنون اليوم في قصر امراء كسروان السالفين بينما شيوخ الموارنة الذين يرسلون اولادهم إلى اوروبا بصفة امراء مزعومين يسكنون المنازل البائسة. لا نزال نجد في غزير مسجداً كبيراً مع مئذنة يعود لأيام الامراء المسلمين، ويستعمل مسيحيو المنطقة هذا المسجد احياناً كزريبة للمواشي.

في جوار غزير هناك اقليم يدعى الفتوح فيه القرى التالية:

الصفرا، البوار، كفر حباب، فتقة، غدراس، كفر شريف، حالات، الحصين، غبالة، الغينة، والكفور.

الجديدة هي قرية تقع بالقرب من نبع النهر الصغير الواقع قرب غزير وهناك كنيسة في القرية وخارجها دير للموارنة.

عرمون هي قرية فيها كنيسة وخارجها هناك ديران للموارنة، دير مار عبدا، ودير سيدة الحقل للرهبان والراهبات. من غير الضروري الاشارة إلى ان النساء يعشن فيه على حدة. شحتول هي قرية في المنطقة نفسها وطي الجوز تعتبر مكاناً رائعاً يشكل مصيفاً للعائلات العريقة الدرزية والمارونية.

لا تشترك قريتا دلبتا وشننعير إلا بكنيسة. هناك ثلاث كنائس في ساحل علما وبجوارها دير للموارنة. بالقرب من هنا نجد الغفر أو برج جونيه قرب نهر الكلب حيث يطلب الموارنة عشر بارات ضريبة من المسلمين الذين يمرون في المنطقة. في الماضي كانت هذه الضرائب تعود إلى عائلة حبيش لكن امير الدروز وضع يده عليها ثم اعطاها لعائلة الخازن. كما الاتراك والانكشاريون والمسلمون المتكبرون لا يعطون كلمة صدق للموارنة عندما يطالبونهم بهذه الضريبة، وحدهم التجار الصغار يعتقدون ان هذا المال الضئيل لا يستحق ان يؤدي إلى عراك مع الموارنة. من هنا فإن هذا المال لا يكفي لإعطاء الجابي راتبه. اضف إلى ذلك ان الموارنة فخورون بأنفسهم لأن المسلمين يدفعون لهم الضرائب.

حارة صخر هي قرية فيها كنيسة وخارجها يوجد دير للرهبان الموارنة. هناك كنيستان في غزير ودير كبير للراهبات.

في الماضي كانت صربا مدينة كبيرة فيها قلعة اما اليوم فقد تحولت إلى قرية بائسة. اما عمشيت فلا يوجد فيها الا كنيسة واحدة.

نجد ثلاث كنائس في ذوق مكايل وخارجها دير للروم احدهما للرهبان والآخر للراهبات.

ذوق مصبح هي بلدة فيها اربع كنائس لا تبعد كثيراً عن نهر الكلب. بالقرب منها يوجد دير للموارنة فيه ذكور وإناث. أخذ نهر الكلب اسمه عن كلب كبير محفورٍ في الصخرة. في الماضي كان الكلب مشدوداً إلى الصخرة اما اليوم فنجده عند مصب النهر وقد فقد رأسه. نجد في هذه المنطقة كتابات عربية ولاتينية قديمة جداً. ربما يجدر بي نقل هذه الكتابات[١]. هناك العديد من المغارات المحفورة في الصخور بالقرب من نبع النهر ويقال ان فيها كتابات قديمة جداً.

نجد كنيستين في ذوق الخراب وفي جوارها ثلاثة اديرة للموارنة اما جعيتا فهي قرب منبع نهر الكلب وفيها كنيسة واحدة.

في عينطورة هناك كنيسة واحدة ودير للراهبات المارونيات وآخر لليسسوعيين.

في الحراش هناك كنيسة ودير للراهبات المارونيات.

درعون هي قرية فيها كنيستان بالقرب منها نجد دير الشرفي للرهبان والراهبات ودير مار شليطا للرهبان والراهبات ايضاً ومكان اقامة احد مطارنة الموارنة.

حريصا هي قرية فيها دير للفرنسيسكان. اما كهنة كنيسة الدير فهم جميعاً من الموارنة.

غوسطا هي مدينة صغيرة تقع على تلة وتبعد عن غزير مسافة فرسخين وعن البحر مسافة ثلاثة فراسخ. يسكن في غوسطا شيوخ عائلة الخازن الرئيسيون. في غوسطا ثلاث كنائس وبالقرب منها ثلاثة اديرة احدها دير للارمن والاخر للموارنة يسكن فيه بطريركهم احياناً. اما الثالث فهو ايضاً للموارنة ويسكن فيه احد المطارنة.

معراب هي قرية فيها كنيسة. بالقرب منها آثار برج قديم نجد فيه احياناً عملات نقدية قديمة. هناك كنيسة في كل من قرى بطحا ورعشين والغبالة. اما عشقوت ففيها كنيستان.

في بزمار هناك دير يقيم فيه بطرك الارمن الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية[٢].

ونجد في ريفون كنيسة وبالقرب منها دير للموارنة.

في بلدة عجلتون هناك خمس كنائس وخارجها هناك دير للموارنة. اما القليعات فهي قرية

---

(١) تحدث بوكوك عنها في «وصف الشرق» الجزء الاول، القسم الاول وقد طبع موندرال (Mondrall) كتابة لاتينية وجدها هنا (كتاب: رحلة من حلب الى القدس).

(٢) يقول آخر ان بطرك الارمن يسكن في دير الكرم القريب من غوسطا.

صغيرة فيها كنيسة وبالقرب منها يقع دير رومية. وهو دير كبير للموارنة.

تقع القرى التالية في اقليم يسمى جرد كسروان:

فيطرون وهي قرية كان سكانها جميعاً في الماضي من المسلمين لا يزال بعض المزارعين يعتنقون الدين الإسلامي إلى الآن لكنهم يخضعون لشيخ مسيحي. هناك كنيسة للمسيحيين في هذه القرية.

في الماضي وحدهم المتاولة كانوا يسكنون حراجل وميروبا وفاريا اما اليوم فلا نجد فيها الا المسيحيين ولديهم كنيسة في كل واحدة من هذه القرى.

بقعتوتا والغلالي وبقعاتا وزبّوغة هي قرى صغيرة في كل واحدة منها كنيسة. نجد ديراً للروم قرب كل منها.

تقع المزرعة في الجزء الاعلى من جرود كسروان وفيها خمس كنائس. ان مناخها عذب جداً في فصل الصيف لذا يقصدها ذوو الشأن من الدروز والموارنة من سكان اسفل جبل لبنان الا انها شديدة البرودة في فصل الشتاء لدرجة انه يستحيل على السكان الخروج من منازلهم بسبب كميات الثلج الهائلة علماً ان الثلج لا يصبح قاسياً بما فيه الكفاية حتى يتمكن الناس من السير عليه. بالقرب من المزرعة (أو كما يقول البعض من حراجل وفاريا) نجد آثار مدينة كبيرة هي فقرا وقد أكد لي الناس ان تحت الآثار نجد حجارة كبيرة عليها كتابات ونقوش.

إن الجزء الاعلى أو قل رأس جبل لبنان بين كسروان وبعلبك لا يزال خالياً من السكان. تشتد فيه البرودة في فصل الشتاء ويغطي الثلج كل شيء اما في الصيف فنجد حقولاً جميلة وقطعاناً كبيرة من الماعز والخراف يمتلك جزءاً منها الدروز والجزء الآخر يعود إلى بعض قبائل التركمان.

لا يبقى هؤلاء الاخيرين الا شهراً واحداً هنا ثم يقودون قطعانهم إلى دمشق والمدن المجاورة. وعليهم دفع ضريبة بسيطة إلى امير الدروز الا ان اتباع الامير لا يدفعون شيئاً لقاء علف قطعانهم من هذه الاراضي.

يسيطر الدروز ايضاً على بيروت[1]. تقع هذه المدينة في منطقة جميلة جداً على البحر بين صيدا وطرابلس. وفيها مرفأ جيد، تنشط التجارة فيه وخصوصاً الحرير والزيوت والقطن وبضائع اخرى يشتهر بها جبل لبنان. من جهة الجبل، هناك الكثير من البساتين ومن جهة البحر هناك

(١) بعد رحيلي سيطر على بيروت اثناء الحرب بين روسيا وتركيا كل من الاتراك ثم الدروز ثم الشيخ ضاهر العمر وحتى الروس في نهاية عام ١٧٧٣. في النهاية اعيدت بيروت الى الدروز.

برجان يقعان على الصخور ويهدفان إلى حماية المرفأ الا ان حالتهما يرثى لها. تشكل هذه التعزيزات الوحيدة لدى الدروز اذا ما استثنينا الجبال المنحدرة. ان بيوت المدينة جميلة جداً خاصة الخانات منها[1] والمحال التجارية التي يؤجرها الامير بأسعار مرتفعة للمسلمين. في بيروت مساجد كثيرة، ويختار اهل هذه المنطقة مفتيهم وقضاتهم بأنفسهم. يقيهم الامير الحاكم في مهنتهم عندما يدفعون ضرائب المهنة وجدير بالذكر ان قضاة بيروت لا يكسبون الكثير من المال كقضاة المدن الاخرى. عندما يرى مسلمو بيروت ان القاضي أصدر حكماً متحيزاً يشكونه إلى الامير الذي يعاقبه اولاً. ان آغا بيروت أو قائدها لا يكون درزياً بل مسلماً يولد في المدينة لكنه يخضع كلياً لأوامر الامير. ان الموارنة هم اكثر الطوائف نفوذاً من بين المسيحيين في بيروت ولديهم كنيسة في المدينة. في بيروت ايضاً روم وبعض اليهود. ان الدروز لا يحبون اليهود كثيراً لذلك لا نجد اي يهودي في جبل لبنان اذ ينحصرون في بيروت. لكنهم يتجولون في اراضي الامير الاخرى بسبب تجارتهم كما في أيام بنيا دو تولادا. لم يبقَ من التجار الاوروبيين الا فرنسي واحد مولود في الشرق. ان تجار مرسيليا الذين نصادفهم في كافة مرافىء هذا الشاطىء قد حاولوا كثيراً التمركز في بيروت لكنهم غالباً ما كانوا يتركون المدينة وينسحبون إلى صيدا لأنهم يستطيعون دائماً فيها إجبار الدروز على الدفع لقاء البضائع التي يبيعونهم اياها وذلك بمساعدة الباشا. اما في بيروت فيشتري الدروز بالدين بضائع كثيرة ولا يستطع التجار استرداد ثمنها منهم حتى بواسطة العدالة.

إن القرى التالية تقع في جوار بيروت وهي تابعة للاقاليم الدرزية القريبة منها القيني، التحويطة، الاشرفية، الضبية، البوشرية، الشياح، برج البراجنة، حرش الصنوبر، الناعمة والنعيمة.

على بعد ربع فرسخ من بيروت نجد دير الخضر مار جرجس وهو مكرس لمار جرجس. يعتقد الموارنة ان مار جرجس هذا قتل التنين المدفون هنا. على مسافة غير بعيدة من بيروت تقع كنيسة انطلياس يعتقد الموارنة انها لا تزال تحتوي حتى اليوم على الكثير من الذهب والاحجار الثمينة المدفونة التي لم يستطع الدروز والمسلمون حملها كلها.

تقع الاقاليم التالية اما في جبل لبنان أو على الجبل نفسه ويسكن الموارنة جزءاً منها الا انها لا تتبع اراضي الدروز بل اراضي باشا طرابلس:

١ ـ جبة بشري، وهي اقليم مهم في شرق طرابلس. ان غالبية سكانه من الموارنة لكن العائلات ليست مهمة كما في كسروان. يعين الباشا جابي الضرائب من بين الضباط الموارنة أو

(١) في بيروت تدعى هذه الخانات قيصرية وفي القاهرة تسمى عقال.

من بين الاشخاص الذين يدفعون له لقاء ذلك فيسمي هؤلاء شيوخاً، ان اهم القرى في هذا الاقليم هي: بشري، الحدث، عنطورين، حدشيت، بلوزا، حصرون، كفرشخنا، بزعو، قرقاشا، كفرصارون.

لمسيحيي هذه القرى اديرة كثيرة قريبة منها. الدير الاكثر شهرة هو دير قنوبين، مكان اقامة احد البطاركة الموارنة. إن هذا الدير مرتفع بعض الشيء وله مطل خلاب. اما عائداته فهي مهمة لكن يصرف منها على الفقراء كما يطالب باشا طرابلس البطريرك بضرائب كثيرة مما يجبره إلى الانسحاب إلى دير قريب من غوسطا فيبقى في حماية الدروز ومسيحيي كسروان هناك ايضاً دير قزحيا في هذا الاقليم وهو محفور داخل الصخر ويقال ان الاشخاص المضطربين يقطنون فيه ثلاثة ايام ثم يشفون. كما أن للكرمليين دير قرب شجر الارز الشاهق. ونجد بالقرب من قرية اهدن وفي الجزء الاسفل من بشري هناك دير مار ليشع.

٢ ـ الزاوية وهي اقليم صغير

٣ ـ البترون وهي اقليم صغير يطل على البحر. نجد في هذه المنطقة الكثير من الاديرة التي تحولت إلى آثارات.

٤ ـ العاقورة وهي اقليم فيه قرية تحمل الاسم نفسه يعيش فيها أهم شخصيات عائلة العاقوري بالاضافة إلى مطران ماروني. بالقرب من العاقورة وفي الاقليم المسمّى البريج يمكن ان نجد كتابات قديمة جداً محفورة على صخرة.

٥ ـ الفتوح. يقع هذا الاقليم جنوبي المعاملتين وشمالي نهر ابراهيم وغربي جبيل وتمتلك عائلة حبيش غالبيته.

عندما كنت في هذه المناطق كان السكان يعانون كثيراً من جيرانهم المتاولة الحاكمين في جبيل لأنهم لم يكونوا يكتفون بنهب بيوت الموارنة بل وكانوا يخربون اشجار التوت فيحرمونهم من تربية دود القزّ، لكن في تلك الفترة طرد المتاولة من هذا الاقليم كما سنرى لاحقاً.

تقع القرى التالية في إقليم الفتوح وكلها صغيرة الحجم: كفر ياسين، الصفرا، البوار، كفرشخام، فتقا، غدراس، كفر صور، حالات،الحصين، الغبالة، الغيني، والكفور.

٦ ـ تشكل الكورة اقليماً مهماً يسكن قسماً منه الروم الكاثوليك. لهؤلاء العديد من الاديرة الكبيرة منها عينطورة والبلمند والنورية.

٧ ـ الضنية هي إقليم يسكنه المتاولة والمسيحيون.

٨ ـ جبيل هي بلدة وإقليم يسكن الموارنة الجزء الاكبر منها لكنهم يخضعون اليوم للمتاولة. من اهم الاماكن في هذا الاقليم: جبيل، معاد، غلبون، البيشة، حاقل، مشمش، لحفد، اشميدش، وادي معاد، بمتايل، يقال انه يمكن ان نجد كتابات عديدة في القصور والاديرة بين المدفون وفيدار على مسافة ستة فراسخ.

جبة المنيطرة هي إقليم مهم كان الجزء الاكبر منها في ايامي يخضع لحكم المتاولة. في هذه المنطقة ينبع نهر ابراهيم. يقال انه عند المنبع هناك آثار لمبان قديمة. بالاضافة إلى امكنة واسعة محفورة في الصخور كمغارة أفقا. ويحكى ايضاً عن آثار بروج قديمة ومعابد وعن كتابات حول جبل موسى وهو الجبل الواقع بين بلدة المنيطرة والفتوح.

منذ رحيلي من سوريا طرأت تغييرات كثيرة في الاقليم الاخير (جبيل) إذ ان درزياً يدعى يوسف طرد المتاولة من هنا مع انهم كانوا يملكون المنطقة منذ أكثر من ٢٠٠ عام وكان باشا طرابلس قد تنازل لهم عنها. وقد علمت بهذا الخبر من عبود بن شديد وميخائيل ماما اذ كان الاول في كوبنهاغن من عام ١٧٧١ والثاني في عام ١٧٧٤. إن هذا الحدث سيثير دهشة الكثير من الاشخاص الذين يجهلون شكل الحكم في بلاد الشرق.

كان والد يوسف درزياً يدعى الامير ملحم لكن امه لم تكن درزية بل كانت ابنة احد الشرفاء المهمين. كان لا يزال صغيراً عندما تولى الحكم عمّه الامير منصور وكان الحاكم السابق مارونياً يدعى صالح وكان رجلاً ذكياً بذل كل ما استطاع لزرع روح الحكم في تلميذه وكان يظن انه سينجح اكثر من كافة ابناء الامير ملحم لأنه أعدّه فتلّقى تنشئة جيدة. تعرض الامير يوسف للختان شأنه شأن كافة ابناء العائلات المرموقة من الدروز حتى يظنه الاتراك مسلماً. وبما ان موارنة جبل لبنان كانوا كثيري العدد ومن حلفاء الدروز ضد الاتراك والمتاولة، حاول الشيخ صالح كسب محبتهم لسيده الصغير لهذا قام بتعميده وكان يأخذه احياناً إلى الكنيسة لكنه كان لا يزال صغيراً جداً لاستلام الحكم كما كان عمه شديد النفوذ. في البداية صار ينمي فكرة طرد الاقلية المتوالية الحاكمة والتي تكرة المسيحيين من جبيل ومن غيرها من اقاليم ولاية طرابلس. قرر في البداية ان يطرد من جبيل ومن غيرها من الاقاليم في ولاية طرابلس الاقلية المتولية الاكثر نفوذاً والتي تكره المسيحيين. لتنفيذ هذه الخطة كان لا بد ان يسلمه باشا طرابلس مسؤولية هذه الاقاليم وان يجمع المال الكافي لدفع الجزيات وتدريب جيش صغير لطرد الاسياد القدامى والسيطرة على المنطقة. كانت تلك مهمة كبيرة جداً بالنسبة لشاب صغير في السن لا يملك من اموال الا عائدات بعض القرى المعدودة.

لم يحبّذ الامير منصور ان يكون ابن اخيه محبوباً من الدروز والمسيحيين كان يحاول ان يسد الطريق في وجهه بشتى الحجج حتى انه احرق له بعض القرى التي كان قد ورثها عن ابيه الا انه بذلك اعطى الامير الشاب جهة للتشتكي عليه. لجأ يوسف إلى باشا طرابلس ابن باشا دمشق والذي كان لا يزال شاباً هو كذلك، فنشأت صداقة بينهما. بينما حاول الباشا مصالحة الطرفين ذهب يوسف إلى دير القمر ومكث فيها بعضة أشهر وصار يدعي مصادقة عمّه لكنه كان يتآمر مع علي جنبلاط على الانقلاب عليه. بعد ان وثّق صداقته مع عدة شخصات درزية هامة ترك دير القمر فجأة بحجة انه يخشى على حياته وغادر مع سائقه وخادم واحد إلى دمشق[1]. فقصد خاله الشريف والذي كان مرموقاً جداً في المدينة. يحبذ باشاوات سوريا وجود مناقشات بين العائلات الدرزية الحاكمة. وهكذا ارسل باشا دمشق بطلب الامير يوسف وأغدق عليه ألقاب الشرف وعامله معاملة الامراء. في هذه الاثناء كان باشا طرابلس ينقل إلى اهله شكاوى على عائلة حمادة وهي عائلة من المتاولة تعيش في اقليم جبيل. وكان السكان مستائين من حكم آل حمادة منذ سنين الا ان احداً لم يستطع طردهم من الحكم لعدم توفر احد يؤجر المزرعة ويستطيع الدفاع عنها ضدّ الاسياد السابقين. بما أن غالبية سكان جبيل كانوا من المسيحيين ومن اصدقاء الامير يوسف، ظنّ هذا الاخير انه يستطيع التصدي للمتاولة. وهكذا كتب الباشا لابنه باشا طرابلس انه سيعطي جبيل ليوسف لمدة سنة واحدة (كما تجري العادة). عندما سمع الامير بالخبر اتجه من دمشق إلى اللاذقية حيث كان الباشا وجمع في طريقة ما يقارب ٥٠٠ رجل غالبيتهم من الموارنة وما ان حصل الباشا على الفرمان حتى عاد من اللاذقية وضاعف جيشه. لدى وصوله إلى حدود جبيل انضم اليه الف ماروني مستعدين لمحاربة المتاولة. ترأس يوسف الجيش المؤلف من ٢٠٠٠ شخص واخبر الشيخ الحاكم اسماعيل بن سرحان ان الباشا كلفه حكم هذا الاقليم وبما ان شيوخ المتاولة لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الموضوع اجبروا على التخلي عن منصبهم والانسحاب إلى القرى التي يملكونها شخصياً.

بعد مضي اشهر، سافر الامير يوسف إلى جبل لبنان لتنفيذ مشاريعه المتبقية مع اصدقائه الدروز وخاصة علي جنبلاط استغل المتاولة غيابه لتكسير اشجار الخوخ والتين الخاصة بالموارنة ثم احضروا مواشيهم اليها فسببوا لهم بذلك اضراراً جسيمة. الا ان ما حصل شكل فرصة جيدة عرف الامير يوسف كيف يستغلها. قام في البداية بطرد الشيخ اسماعيل من ارضه وصادر كافة القرى والاراضي التي لم يستطع انتزاعها منه كلياً طالما انه يتصرّف جيداً. وكان الموارنة والدروز من

(١) عدا هذه الحادثة فإن عائلة شهاب او العائلة الدرزية الحاكمة مشهورة لأنها لم تقتل ابداً اي فرد منها.

اتباعه وجيرانه الذين عانوا كثيراً من ظلم المتاولة يسرعون للانضمام في صفوفه كما ساعده علي جنبلاط ايضاً. هاجم يوسف جيرانه المتاولة الذين كانوا يملكون منذ سنوات اقاليم البترون والضنية وجبة بشري. قاوم المتاولة في البداية لكن سرعان ما اجبروا على التخلي عن اراضيهم والانسحاب عند اهل دينهم في صور وعكا. اما الامير يوسف فحصل على موافقة كافة الاقاليم على حملها واصبح سيداً على ولاية مهمة.

عندما جاء إلى طرابلس باشا جديد، خاف من سلطة الامير يوسف التي تتضاعف يوماً بعد يوم فأبى ان يجعله يسيطر على كافة الاقاليم واعطى بعضاً منها إلى المتاولة لقاء الكثير من المال وكان هؤلاء قد جمعوا جيشاً صغيراً إلا أن يوسف قرر عدم التخلي عن اي اقليم. جاء على رأس جيش كبير إلى طرابلس وهزم دفاع الباشا وهدد بنهب المدينة. وبما ان ضاهر عمر كان يهاجم في تلك الفترة الباشاوات المجاورين له كتب باشا دمشق حامي الامير يوسف سابقاً إلى باشا طرابلس يقول له انه من مصلحة السلطان ترك الامير يوسف يستولي على كافة الاقاليم التي سلمت له سابقاً. وهكذا حصل يوسف على دعم جديد فترك ولاية طرابلس. ومرة اخرى هاجم المتاولة ولشدة ما برع في المعارك بالقرب من الحدث لم يتصدوا له منذ ذلك الحين. في هذا الوقت هاجموا اقاليم اخرى في منطقة بعلبك وطردوا منها اسيادها القدامى تماماً كما طردهم يوسف.

بعد معركة الحدث سار الامير يوسف على رأس جيش إلى بعلبك لمحاربة الامير حيدر المتوالي. وكان هذا الاخير يدفع منذ اعوام الاموال إلى شيخ الدروز ويأخذ لقاء ذلك ما يعادل الالف شخص لمعاونته. لكن عندما اقترب يوسف وجيشه من المدينة رفض الدروز الخروج منها كما رفضوا محاربة دروز آخرين. قاد حيدر الخيالة لمواجهته لكن اخاه تخلى عنه مما اجبره على الهروب عند المتاولة في ولاية عكا. لم يستطع الامير يوسف المحافظة على بعلبك لأنه كان عليه دفع الضرائب مباشرة إلى القسطنطينية فسلّم الحكم لأخ الامير حيدر. لكن بعد اشهر تصالح الاخوان وعاد الامير حيدر إلى الحكم بعد ان تعهد بدفع جزية سنوية إلى الامير يوسف (وقلما يفي هؤلاء بعهودهم لمدة طويلة) وبعدم التعرض للدروز والمسيحيين في المناطق المجاورة. بعد ذلك طرد الامير يوسف المتاولة من الهرمل.

كثيراً ما تنشأ حروب صغيرة مماثلة في الولايات التركية بين مستأجري مزارع السلطان، وقلما يهتم بها الباشاوات لأن ما يهمهم فعلاً هو قبض الايجار. كما ان باشاوات سوريا دائماً مشغولون بحماية المدن الهامة في هذه المنطقة ضد الثوار الكبار. فعلي بك الذي استقل في مصر والذي استولى على دمشق اجبر على التخلي عن المدينة الاخيرة ثم طرد نهائياً من مصر على يدي منافسه محمد أبو الذهب لكنه حمل معه اموالاً طائلة وتابع شن الهجومات على الباشاوات الاتراك

بمساعدة ضاهر العمر. في هذا الوقت كان السلطان يحتاج إلى جيوش كثيرة ضد الروس فلم يستطع ارسال الدعم إلى سوريا. ولم يكن الباشاوات قادرين وحدهم على التصدي لجيش شديد القوة فأجبروا على طلب العون من دروز جبل لبنان. كان الامير منصور قد حصل على الكثير من الاموال من الاتراك وكان قد انضم اليهم اكثر من مرة على رأس جيشه لكنه كان دائماً ينسحب قبل بداية المعركة. لكن بما ان يوسف مدين بالكثير للبشاوات الاتراك قرر الجميع ان الدروز سيحاربون جيداً لو ترأسهم بنفسه. وهكذا تمنى باشا دمشق ان يسمىّ فعلياً اميراً بدلاً من منصور واستغل الفرصة للقيام بذلك.

توجه الامير يوسف إلى دير القمر للاقتران بأميرة من آل شهاب وبهذه المناسبة اجتمع الشيوخ البارزون وخاصة من اهل العريس كما وجاءت شخصيات تركية رفيعة المستوى مصحوبة بحشود غفيرة بحجة المشاركة في الفرح. كان الامير منصور يعرف ماذا يخطط العثمانيون وكان يعرف المرتبة التي يحتلها يوسف بين الدروز ومحبتهم له فقرر ان يأخذ دور الانسان الشهم. فنزع الخاتم المزود بالختم من اصبع الامير الحاكم وقدمه إلى ابن اخيه على انه الوحيد القادر على تولي الحكم في الظروف الراهنة. وختاماً اقنع الاتراك والدروز الموجودون الامير بقبول الخاتم وبالتالي بتولي الحكم. وهكذا تراجع الامير منصور إلى اراضيه.

حالياً يحكم الامير يوسف بلداً يقارن بمملكة صغيرة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار مساحته وعدد سكانه الكبير. ان للاتراك فيه ضابطاً شديد الاخلاص. عام ١٧٧١ أو ١٧٧٢ سار على رأس جيش كبير إلى منطقة عكا للاستيلاء على قلعة جون وهي قلعة صغيرة تطل على نهر القاسمية كان الشيخ ضاهر وعلي بك يسيطرون عليها وكانت محاصرة من قبل جيش كبير ارسله باشا دمشق. كان ينتظر وصول مئات من الدروز من حاصبيا ليبدأ الهجوم لكن الامير منصور كان له مناصرون في الجيش هم اليزبكيون. كان هؤلاء يظنون ان دروز حاصبيا من مؤيدي الاتراك فلم يكونوا يريدون انتظارهم بل صاروا يقنعون الامير يوسف بمهاجمة القلعة اولاً. لكن ما ان هجم عليهم الشيخ ضاهر حتى هرب اليزبكيون ثم هرب الدروز الآخرون الذين لم يعرفوا عدد الذين جاؤوا لمساندة رئيسهم كما عمت الفوضى في الجيش التركي الذي كان يظن ان العدو يلاحق الدروز. باختصار، تراجع جيش الاتراك والدروز الكبير منذ اليوم الاول مسافة ١٢ فرسخاً. تتبع ضاهر العمر، وعلي الدروز حتى اراضيهم ودمروا العديد من القرى الموالية للامير الجديد.

جازف باشا دمشق والامير يوسف بهجوم جديد واجبرا جيوش الشيخ ضاهر وعلي على الانسحاب لكن هؤلاء الاخيرين تلقوا مدافع صغيرة من الزوارق الروسية التي كانت تتواجد في

الجوار في هذا الوقت. فحملوها إلى المعركة وشتتوا بها الاتراك والسوريين والدروز الذين لم يكونوا معتادين على التصدي للمدافع. في المرة التالية التي عاد بها يوسف إلى دير القمر قرر انه من الحكمة اعادة الحكم للامير منصور.

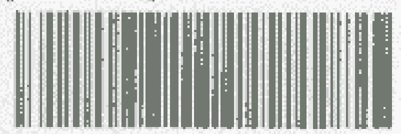
لكن الامير يوسف حافظ على جبيل وعلى الاقاليم الاخرى التي طرد منها المتاولة ومن المحتمل انه سيصبح امير الدروز الحاكم الا ان ذلك لن يفرح الدروز كثيراً. ان الامير الحاكم يخضع كثيراً للشيوخ البارزين. وفي عائلة شهاب الكبيرة يوجد اشخاص آخرون اذكياء يتوقون إلى تولي الحكم. هناك دائماً فريقان يقسمان الشعب سواء إلى قيسيين ويمنيين أو إلى جنبلاطيين ويزبكيين. سيظل الدروز منقسمين في ما بينهم أو سيشنون معارك على الباشاوات الاتراك.



هذا الجزء الثاني من وصف شبه الجزيرة بعد وصفي لرحلتي . وأرجو ألا يلومني هواة التاريخ الطبيعي ،لأنهم جمعوا ، منذ صدر الجزء الأول من هذا العمل ، ثماراً أخرى من الرحلة وذلك من «شبه الجزيرة» ، ومن «وصف الحيوانات والنبات في مصر وبلاد العرب» ، شرف مساعدته ، وطلب مني العمل على نشر الكتب المذكورة أعلاه ، فقمت بهذه المهمة انطلاقاً من واجبي وبفرح لأحيي ذكرى رفاق رحلتي الذين أصبحوا ضحايا العلم .

وبما أني عدت وحيداً من الهند عبر البصرة وحلب ، لا يتوقع مني عشاق التاريخ الطبيعي ملاحظات من هذا النوع في بلاد زرتها وحيداً وينبغي أن يستخدموا نتاج هذه الرحلة التي أمر بها عاهل الدانمارك . لكنني واثق من أنّ الجغرافيا جنت الكثير ، وترتدي هذه الملاحظات الجغرافية طابعاً من الأهمية سيّما وأن البلد الذي زرته هو أقدم بلد نعرفه .

حاولت في كافة الأمكنة وضع خرائط للمدن التي صادفتها كي يتمكن العلماء من تحديد مساحتها ، وعدد سكانها .



9 789953 476834